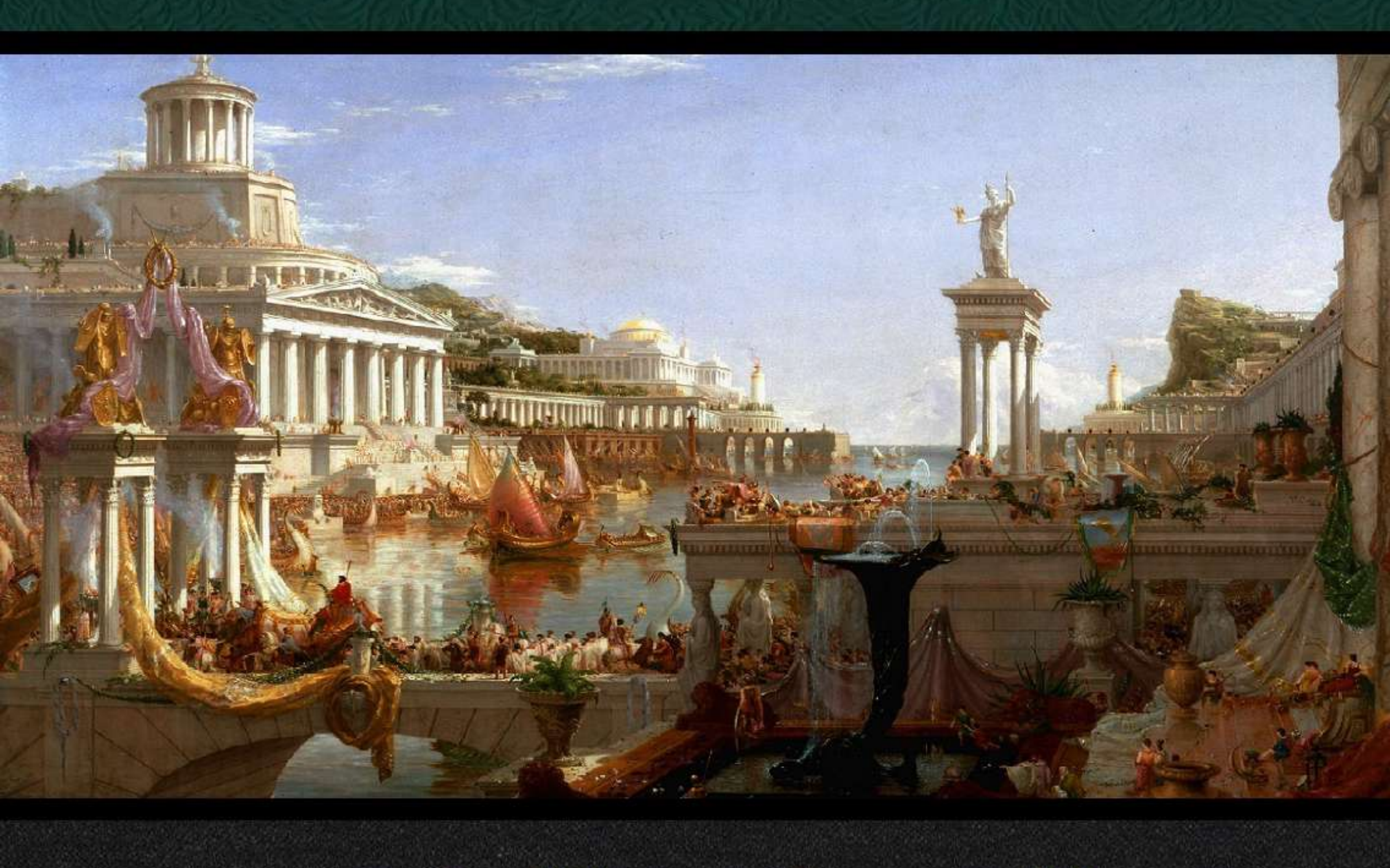
قصة الحضارة



المجلد الثامن

ويل ديورانت

قصة الحضارة

31- عصر لويس الرابع عشر (الجزء الأول)
32- عصر لويس الرابع عشر (الجزء الثاني)
33- عصر لويس الرابع عشر (الجزء الثالث)
34- عصر لويس الرابع عشر (الجزء الرابع)

ويل ديورانت

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

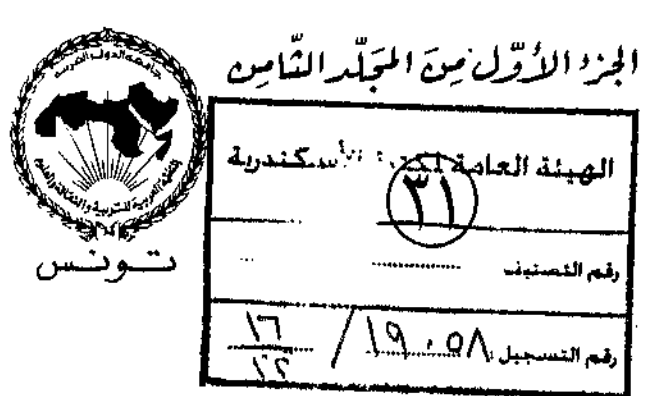
تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر
بسكال وموليير وكرومول وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا
١٦٤٨ - ١٧١٥

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد الثامن


بيروت



تونس

دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب ـ بيروت ـ لبنان

إلى القارىء العزيز

هذا المجلد هو الجزء الثامن فى تاريخ نسيت بدايته، ولن ندرك نهايته أبدا. موضوعه الحضارة، وتعريفنا لها أنها ذلك النظام الاجتماعى الذى يدعم الإبداع الثقافى، فهو إذن ينظم أبواب الحكم، والاقتصاد (أى الزراعة والصناعة والتجارة والمالية)، والأخلاق، وآداب السلوك، والدين، والفن، والأدب، والموسيقى، والعلم، والفلسفة. وهدفه التاريخ المتكامل- أى تغطية جميع نواحى النشاط الدءب مافى منظور واحد ورواية موحدة. وقد حققنا هذا الهدف ولكن فى قصور شديد. ومسرحه أوربا، وزمانه يمتد من معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) إلى وفاة لويس الرابع عشر، الذى غلب حكمه (١٦٤٣ — ١٧١٥) على العصر وسماه باسمه.

أما الموضوع الغالب على هذا الجزء فهو « المناظرة الكبرى » بين الإيمان والعقل. لقد كان الإيمان متربعا على العرش إبان هذه الحقبة، ولكن العقل كان يجد أصواتا جديدة تفصح عنه فى هوبز، ولوك، ونيوتن، وبيل، وفونتنيل، وسبينوزا، و « كان هذا العصر الكلاسيكى من أوله إلى آخره ما أطلقه على ذاته فى ختامه، أى عصر العقل» (*) وقد خصصنا ثلث الكتاب تقريباً لتلك المغامرة الفكرية التى انطلقت من الخرافة والظلامية والتعصب إلى الدرس والعلم والفلسفة. وقد بذل المؤلفان محاولة لرواية هذا النقاش فى إنصاف رغم انحيازهما الواضح إلى أحد الجانبين، ومن ثم كان تناولهما المستفيض، المتعاطف، لنفر من المنافحين الأكفاء عن الإيمان، أمثال بسكال، وبوسويه، وفنيلون، وباركلى، ومالبرانش، وليبنتز. وسوف يعيش أبناؤنا فصلا جديدا فى صراع المثل هذا، وهو صراع لابد لكل انتصار فيه أن يكسب من جديد المرة بعد المرة.

وأملنا أن نقدم للقراء الجزء التاسع الذى يتناول « عصر فولتير »

(*) البيرجيرار : The Life and Death of an Ideal

فى ١٩٦٥ ، والجزء العاشر « روسو والثورة » فى ١٩٦٨ ، ولقد اعترضتنا عقبات ، بعضها نجم عن ضخامة المادة التى أتاحها لنا القرن الثامن عشر ، وكلها يتطلب الدرس والحيز الكافى . وإنا خلال ذلك رنا كسنان إلى « القوى العظمى » فى ألا تدمر موضوعنا هذا قبل أن تدمرنا .

مايو ١٩٦٣ ول وايريل ديورانت

إقرار بالفضل

لقد لقى ربه أحد الناشرين المشاركين اللذين بدأنا معهما « مشروع الكلام » هذا فى ١٩٢٦ ، ولن ننسى أبدا روحه النيرة المتألقة . وما زال الثانى صديقا لنا ، وهو لايفتأ متحمسا ، سمحا ، غفوراً . إنه ناشر لم يطغ عمله على شاعريته .

وعسى ألا يفسر انتهازنا هذه الفرصة — التى قد تكون الأخيرة — للإعراب عن عرفاننا بجميل النقاد الكثيرين الذين أتونا بقراء لهذه المجلدات — نقول عسى ألا يفسر هذا بأنه « إحساس قوى بأفضال قادمة » ، فما كنا بغير معونتهم إلا صوتين صارخين فى البرية .

ونحن مدينان دينا كبيرا لابنتنا إيثل لما بذلت من جهد مخلص فى نسخ مسودتنا الثانية ، التى لم تكن واضحة تمام الوضوح ، على الآلة الكاتبة نسخا قارب الكمال ، ولما أدخلت عليها من تنقيحات صائبة ؛ ولاخواتنا وأخينا — ساره ، وفلورا ، ومارى ، وهارى كاوفان — لما قاموا به من تصنيف صابر لنحو أربعين ألف جزازة تحت اثنى عشر ألف عنوان ، وللسيدة آن روبرتس بمكتبة لوس أنجيليس العامه ، والآنسة داجنى ولمز بمكتبة هوليوود الإقليمية ، لما قدمتا من معونة قيمة فى توفير الكتب النادرة لنا من جميع أرجاء أمريكا ، فما كان لهذه المجلدات أن تكتب لولا مكتباتنا السخية العظيمة ، وللسيدة فيرا شنيدر ، عضو هيئة التحرير بمؤسسة سيمون وشوستر ، لما لقى هذا المجلد وسابقه على يدها من تحقيق علمى دقيق لم يظفر بمثله فى أغلب الظن إلا القليل من المخطوطات .

الكتاب الأول

فرنسا فى أوج عظمتها

١٦٤٣ — ١٧١٥

الفصل الأول

الشمس تشرق

١٦٤٣ — ٨٤

١ - مازاران والفروند: ١٦٤٣ - ٦١

ترى ما الذى أعان فرنسا على أن تفرض على أوربا الغربية منذ ١٦٤٣ ، سلطانا فيه ما يشبه قوة التنويم ، اتصل فى ميدان السياسة حتى ١٧٦٣ ، وفى ميادين اللغة والأدب والفن حتى ١٨١٥ ؟

إن العالم لم يشهد قط منذ أيام أوغسطس ملكية إزدانت بمثل هذا العدد من أفذاذ الكتاب والمصورين والمثالين والمعماريين ، أو حظيت بمثل الإعجاب والمحاكاة الواسعين ، سواء فى آداب المجتمع أو الأزياء أو الأفكار أو الفنون ، اللذين حظيت بهما حكومة لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ إلى ١٧١٥ لقد كان الأجانب يؤمون باريس وكأنهم يؤمون مدرسة تهذيبية تصقل كل ألوان الجمال فى الجسم والعقل . وكان الألوف من الايطاليين ، والألمان ، وحتى الإنجليز ، يؤثرون باريس على أوطانهم .

أن من أسباب هيمنة فرنسا آنئذ ضخامة قواها البشرية . فقد بلغ سكانها عشرين مليونا من الأنفس فى ١٦٦٠ ، فى حين لم يزد سكان كل من أسبانيا وانجلترا على خمسة ملايين ، وإيطاليا على ستة، والجمهورية الهولندية على مليونين . أما الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التى شملت ألمانيا ، والنمسا ، وبوهيميا ، والمجر ، فقد سكنها واحد وعشرون مليونا تقريبا ، ولكنها لم تكن إمبراطورية إلا بالاسم وقد أفقرتها قبيل هذه الحقبة حرب الثلاثين ، وانقسمت إلى نيف وأربعمائة دويلة ، شديدة الحرص على «سيادتها»،

جلها صغير مستضعف ، ولكل منها حاكمها ، وجيشها ، وعملتها ، وقوانينها، ولا يزيد سكان الواحدة منها على المليونين — وعلى نقيض هذا كانت فرنسا بعد ١٦٦٠ أمة متماسكة جغرافيا، متحدة تحت حكومة مركزية قوية واحدة، وهكذا تمخضت جهود ريشليو الألمعية عن مولد « القرن العظيم » .

ولقد فاز البوربون حيث أخفق الفالوا فى ذلك الصراع الطويل الذى نشب بين الهابسبورج والملوك الفرنسيين . وأخذت أجزاء من الإمبراطورية، عقداً بعد عقد ، تقع فى قبضة فرنسا ، ثم نزلت أسبانيا الهابسبورجية عن كبريائها وزعامتها فى روكروا (١٦٤٣) وصلح البرانس (١٦٥٩) . وبعدها عقد لواء القوة للدولة الفرنسية فى العالم المسيحى ، دولة مطمئنة إلى مواردها الطبيعية ، ومهارات شعبها وولائه ، وخطط قادتها العسكريين ، ومصير ملكها . كذلك كان من الأهمية بمكان ما كتب لهذا الفتى من حكم سيتصل قرابة ثلاثة أرباع القرن ، مضيفاً بذلك وحدة الحكومة والسياسة إلى وحدة العرق والأرض ، وهكذا سنرى فرنسا طوال خمسين عاما ترعى وتستقدم عباقرة العلم والأدب ، تشيد القصور الشامخة ، وتجيش الجيوش الضخمة ، وترهب نصف الدنيا وتلهمها . لقد قدر لهذه الصورة أن تكون صورة عظمة لم تكد تضارعها من قبل عظمة ، ترسم بكل ضروب الفن وألوانه ، وبدم الرجال أيضاً .

لم تكن فرنسا قد توحدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش وهو لا يجاوز الخامسة (١٦٤٣) ، وكان على كردينال ثان أن يتم العمل الذى بدأه سلفه ريشليو . ذلك هو جول مازارن الذى كان يسمى فى إيطاليا جوليو مازارينى ، وقد ولد فى « الأبروزى » لأبوين صقليين فقيرين ، وتولى اليسوعيون تعليمه فى روما ، وخدم البابوات موظفا دبلوماسيا ، ثم لفت أنظار أوربا فجأة يوم أنهى الحرب المانتوية (١٦٣٠) بالمفاوضة [illegible]لحظة حرجة . فلما أوفده البابا مبعوثا له فى باريس ، ربط مصيره بعبقرية

ريشليو المسيطرة، فكافأه هذا على إخلاصه بقبعة الكردينالية. وحين حضرت المنية ريشليو، «أكد للملك أنه لا يعرف غير مازاران رجلا كفؤا لملء مكانه»(١). واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة.

فلما مات هذا الملك المطيع (١٦٤٣) ظل مازاران متواريا بينما اضطلعت الملكة الأم، آن النمساوية، بالوصاية على ولدها، واحتال لوى دكونديه وجاستون دورليان، الأميران الملكيان، ليصبحا القوة الفعالة وراء العرش ولم يغتفرا للملكة قط أنها تخطتهما واستوزرت ذلك الإيطالي الوسيم، الذي بلغ الآن الحادية والأربعين. وفي غداة تقلده الوزارة هشت باريس لنبأ انتصار روكروا الحاسم، وبدأ حكم مازاران بهذا الاستهلال الميمون، ودعمته الانتصارات الكثيرة سواء في الدبلوماسية والحرب. وقد تبين ذكاؤه في حسن تخيره للسياسات، والقواد العسكريين، والمفاوضين. وبفضل إرشاده وقيادته وطد صلح وستفاليا (١٦٤٨) تفوق فرنسا الذي أكسبته إياها الحرب.

على أن مازاران لم يوهب وحدة الإرادة وقوتها اللتين أوتيهما ريشليو، ومن ثم فقد اعتمد على صبره ودهائه وسحره. وقام أصله الأجنبي عقبة في طريقه. ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرنسي وإن كان لسانه إيطاليا، إلا أن تأكيداته لم تحظ قط بالتصديق التام، فلقد كان رأسه إيطاليا، وقلبه ملكا له. ولا علم لنا كم من هذا القلب اختص به الملكة، إنه خدمها وخدم أطماعه بغيرة، واكتسب ودها، وربما حبها. وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها في مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشراف الاقطاع. وفي سبيل الأثراء تحسبا للمستقبل إن سقط، جمع المال بحرص الرجل الذي يذكر الفقر أو يخشاه، فحكمت عليه فرنسا، التي بدأت تعجب بفضيلة الاعتدال، بأنه محدث نعمة، وساءتها لكنته الإيطالية، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غاليا: لاسيما بنات أخيه، اللاتي تطلب حسنهن جهازا مترفا من الخدم والحشم. وقد احتقره الكردينال رتز، مع أن رتز هذا لم

يكن ركناً ركيناً للفضيلة ، فزعم أنه « إنسان قذر ... ومحتال أصيل ... وشرير لئيم(٢) ». على أن رتز — بعد أن هزمه مازاران — لم يكن في وضع يعينه على إنصاف غريمه. وإذا كان الوزير الماكر قد جمع المال دون اكتراث للكرامة ، فإنه أنفقه بذوق رفيع ، فملأ حجراته بالكتب والتحف التي أوصى بها بعد ذلك لفرنسا وكان ذا أسلوب مرح مهذب يلذ السيدات. ويحير الرجال . وقد وصفته امرأة منصفة تدعى مدام دموتفيل ، بأنه : « يفيض رقة ، بعيد كل البعد عن صرامة » ريشليو(٣). وكان سريع العفو عن معارضيه ، سريع النسيان لفضل ذوى الفضل عليه . وأجمع الكل على أنه لم يدخر جهداً في حكم فرنسا ، ولكن حتى هذا التفاني كان يسيء إلى بعض الناس ، لأنه كان أحيانا يترك كبار زواره ينتظرون على مضض في حجرات انتظاره . وكان كل إنسان في رأيه قابلا للرشوة ، وكان عديم الإحساس بالنزاهة . أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضربنا صفحا عن الشائعات التي أرجفت بأنه جعل من مليكته خليلة له . وقد صدم الكثيرين في البلاط بدعاباته الشكاكة عن الدين(٤)، لأن مثل هذه السخرية لم تكن قد فشت بعد في المجتمع الفرنسي ، ومن ثم عزوا تسامحه الديني إلى افتقاره للإيمان(٥). وكان من أول أعماله توكيد مرسوم نانت ، فسمح للهيجونوت بأن يعقدوا مجامعهم في سلام . ولم يكابد أي فرنسي الاضطهاد الديني من الحكومة المركزية في عهد وزارته .

ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس له لقد كرهه الفلاحون لما أثقل به كواهلهم من ضرائب يستعين بها على خوض غمار الحرب ، وكرهه التجار لأن المكوس التي فرضها أضرت بالتجارة ، وكرهه الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الاقطاع . وكرهته « البرلمانات » لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون . وزادت الملكة من كره الناس له بحظرها توجيه النقد لحكمه . وقد أيدته لأنها ألفت نفسها في وضع تتحداها فيه جماعتان رأتا في طفولة الملك ، وفي ضعف المرأة الموهوم ، منفذاً إلى

السلطة : الأشراف الذين علقوا أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية و « البرلمانات » التي تطلعت لإحالة الحكومة إلى أوليجاركيه من المحامين . إزاء هاتين القوتين ـ « أرستقراطية السيف » العريقة ، و « أرستقراطية الرداء » الأحدث عهدا ـ التمست الملكة دوماً لها في عناد مازاران المقترن بالمرونة و الدهاء . وقد بذل أعداؤه محاولتين عنيفتين لخلعه والسيطرة عليها ، والمحاولتان تؤلفان حرب الفروند .

بدأ برلمان باريس حرب الفروند الأولى (١٦٤٨ — ٤٩) محاولا أن يكرر في فرنسا تلك الحركة التي كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزي فوق الملك مصدراً للقانون وحكما فيه . وكان برلمان باريس ، بعد الملك ، المحكمة العليا لفرنسا ، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانونا أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلهم تقريبا محامون) القانون أو الضريبة . وكان ريشليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها ، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها . وأحس أن قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية ، خاضعة للإرادة القومية يعبر عنها مجلس نيابي . ولكن برلمانات فرنسا الاثنى عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبتها الأمة كما كانت الحال في برلمان انجلترة ، بل هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائيه عن آبائهم ، أو عينهم الملك فيها . ولو أن حرب الفروند الأولى كتب لها الفوز لاستحالت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين . وكان في الامكان تطوير مجلس طبقات الأمة ، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث ـ النبلاء ورجال الدين وباقي الشعب ـ إلى مجلس نيابي يكبح جماح الملكية ، ولكن مجلس الطبقات لم يكن يملك دعوته للانعقاد إلا الملك ، ولم يدعه أي ملك منذ ١٦١٤ ، ولن يدعوه حتى ١٧٨٩ ؛ ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية .

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئه نيابية بصورة غير مباشرة ، مؤقتاً ، يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة . فنرى أومير تالون ، في

أوائل ١٦٤٨ ، يندد بالضرائب التى أفقرت الشعب عـلى عهد ريشليو ومازاران إذ يقول :

« لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشرة أعوام . فاضطر الفلاحون أن يناموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وفاء للضرائب . وتمكينا لنفر من الناس من أن ينعموا فى باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار .. فافقده كل شىء إلا نفوسها — وهذه لم تترك لها إلا لان أحدا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع(٦) .

وفى ١٢ يوليو ، انعقد البرلمان فى قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لابد أنها بدت لها ثورية . فقد طالبوا بخفض ربع الضرائب الشخصية كلها ، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر ، وبطرد النظار الملكيين intendants الذين حكموا الأقاليم دون اكتراث للحكام والقضاة المحليين ، وبألا يحبس شخص أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين . ولو أن هذه المطالب اجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ملكية دستورية ، ولسارت فرنسا جنبا إلى جنب مع انجلترة فى تطورها السياسى .

بيد أن الملكة الأم ربطتها بالماضى جذور أقوى من العصر بالمستقبل ، إذ لم يكن لها عهد قط بأى شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة ، وقد أحست أن التخلى عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن مفض لا محالة إلى صندوع لا رأب لها فى صرح الحكومة الوطيد ، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكولوجية التى يستمدها من التقاليد والعرف ، والنزول بها إن عاجلا أو آجلا إلى فوضى الجماهير المتسيدة . ثم يالها من سبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التى تمتع بها أبوه (أو ريشيليو) ! ذلك تقاعس عن واجبها سوف يوقفها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ . ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه فى هذه المطالب الوقحة من هؤلاء القانونيين المتنطعين . ومن ثم أمر فى ٢٦ أوغسطس بالقبض على بيير بروسيل وغيره

من زعماء البرلمان . بيد أن بروسيل العجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذى أذاعه : « لا ضرائب » فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام الباليه — رويال وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه . وقد أطلق عليهم اسم الرماة Frondeurs لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم ، كما أطلق اسم « الفروند » على هذا التمرد . على أن جان فرانسوا بول دجوندي — الملقب درتز فيما بعد — مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر ، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل . فلما أبت انسحب غاضبا ، وعاون على استعداء الشعب على الحكومة ، وكان خلال ذلك يستخدم نقوده خفية فى محاولة الظفر بقبعة الكردينالية ، ويعاشر ثلاث خليلات .

وفى ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان وعددهم ١٦٠ طريقهم إلى القصر الملكى مخترقين الحشود والمتاريس ، تشد أزرهم هتافات تصيح « يحى الملك ! إلى الموت يا ما زاران ! » ورأى الوزير الحذر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة ، فنصح الملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل ، فوافقت ، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير اعتكفت هى والملك الصبى فى ضاحية روبل وأجاب ما زاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا ، ولكنه طاوله فى تنفيذها . وظلت المتاريس فى الشوارع . فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء ، وسمعت بأذنيها تندرها بعلاقتها بما زاران . ثم عاودت الهروب من المدينة فى ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة فى هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان ، حيث توسد الحرير القش ، ورهنت الملكة جواهرها لتشترى الطعام . أما الملك الصغير فلم يغتفر قط لهذا الحشد فعلته ، ولم يحب عاصمة مملكته قط .

وفى ٨ يناير أصدر البرلمان فى أوج تمرده مرسوما طرد به مازاران من حماية القانون واستعدى عليه كل الفرنسيين الصالحين ليطاردوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما . وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال

الملكية واستعمالها فى أغراض الدفاع العام . ورأى كثيرون من النبلاء فى هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم — قضية استردادهم امتيازات الاقطاع ، ولعلهم أيضاً خشوا أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة . وانضم إليها كبار الاقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل ، وبوفور ، وبويون ، وحتى أمير كونتى البوربونى الدم ، وأمدوها بالجند والمال وحرارة العاطفة . فأقبلت دوقة بويون ودوقة لونجفيل — الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجدرى — مع أطفالهما للعيش فى الأوتيل دفيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب . وبينما كانت باريس تنقلب إلى معسكر مسلح ، كانت حاملات الألقاب يرقصن فى قاعة المدينة ، وواصلت دوقة لونجفيل غرامها بأمير مارسياك ، الذى لم يكن قد أصبح بعد الدوق دلاروشفوكو ، ولا اعتنق بعد فلسفته الكلبية . وفى ٢٨ يناير رفعت الدوقة من معنوية المتمردين إذ ولدت ابناً لمارسياك (٧) ، وارتبط كثير من الفرونديين بكرائم النبيلات فرساناً تابعين لهن ، فكن يشترين دماءهم بابتسامة متلطفة من ثغورهن .

ثم حالف الحظ الملكة فأنقذ الموقف عداء بين أمير كونتى وأخيه الأكبر لويس الثانى البوربونى ، أمير كونديه — وهو « كونديه العظيم » ذاته الذى قاد الجيوش الفرنسية من قبل إلى النصر فى روكروا ولنز . وإذ شمخ بأنفه القوى على تمرد المحامين والغوغاء ، فإنه عرض خدماته على الملكة والملك . فوكلت إليه فى ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمردة — أى ضد أخيه ، وضد أخته دوقة لونجفيل — والعودة بالأسرة المالكة فى أمان إلى الباليه — رويال . وجمع كونديه الجند ، وحاصر باريس ، واستولى على شارنتون ، المخفر الأمامى الحصين . أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من أسبانيا والإمبراطورية . وكان الطلب غلطة ، ذلك أن عاطفه الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من الإحساس الطبقى . وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشليو وانتصاراته بإعادة تفوق الهابسبورج على فرنسا ،

وبدأوا يتبينون أنهم إنما يستعملون بيادق فى محاولة لاسترجاع نظام إقطاعى من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى ، مستضعفة جماعة . وفى نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفدا إلى الملكة المقتربة ، وعرضوا الخضوع لها ، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكنون لها الحب . أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفوا عاما ، شريطة أن يضعوا السلاح . وسرح البرلمان جنوده ، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هى واجب الساعة . وأزيلت المتاريس . وعادت آن ، ولويس ، ومازاران إلى قصبة الملك (٢٨ أوغسطس ١٦٤٩)، والتأم شمل البلاط من جديد ، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأن شيئاً لم يقع ، اللهم إلا سحابة قد انقشعت . واغتفر كل شىء ، ولم ينس شىء . ووضعت حرب الفروند الأولى أوزارها .

ولكن حربا ثانية مالبثت أن نشبت . ذلك أن كونديه أحس أن خدماته تخول له الترؤس على مازاران . فتشاجر الاثنان ، واتصل كونديه بالنبلاء المتذمرين يجس نبضهم ، أما مازاران ففى أجرأ لحظات حياته أمر بحبس كونديه وكونتى ولونجفيل فى فانسين (١٨ يناير ١٦٥٠) . وهرولت مدام لونجفيل إلى نورمنديا ، وأثارت حركة تمرد فيها ، ثم مضت منها إلى الأراضى المنخفضة الأسبانية ، وفتنت تورين حتى ارتضى خيانة العرش . فوافق القائد العظيم على أن يقود جيشا أسبانيا ضد مازاران . يقول فولتير : « واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض ، وأبرموا المعاهدات ، ثم خان كل منهم الآخر واحداً إثر واحد ... ومامن رجل لم يغير ولاءه غير مرة »(٨) وقال ريتز ذاكرا تلك الفترة « كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح »(٩) . وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لاروشفوكو . على أن الكل أعلنوا ولاءهم للملك ، الذى لابد قد سائل نفسه : أى نوع من الملكية ذاك الذى استحال هشيما بين يديه ؟

وقامت قوة ملكية بمناورة فى بوردو انتهت باستسلامها ، وقاد مازاران جيشا إلى فلاندر وهو يلعب دور إله الحرب مارس ، وهناك هزم تورين

الذى لايقهر . أما ريتز ، التواق إلى الحلول محل وزير الملكة وعشيقها ، فقد أقنع البرلمان بأن يجدد مطلبه بنفى مازاران . وفقد الكردينال جرأته فأمر بالإفراج عن الأمراء المسجونين (١٣ فبراير ١٦٥١) ، ودفعه الخوف على حياته إلى الهرب إلى برول القريبة من كولونيا . أما كونديه المتحرق للثأر من الوزير والملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كونتى ، وأخته لونجفيل ، ودوق نامور ولاروشفوكو ، فى حلف جديد . وفى سبتمبر أعلنوا الحرب ، واستولوا على بوردو ، وأحالوها معقلا للثورة من جديد . ووقع كونديه تحالفا مع أسبانيا ، وتفاوض مع كرومويل ، ووعد بأن يقيم جمهورية فى فرنسا .

وفى ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه منه وصاية أمه عليه وآخذ مقاليد الحكم فى يده . وكان يومها قد بلغ الثالثة عشرة . ورغبة فى تهدئة البرلمان أيد نفى مازاران ، ولكنه استجمع شجاعته فى نوفبر ، فاستدعى الوزير ثانية ، وعاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش . أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياد ، ولكن تورين انحاز إلى صف الملك . وفى مارس ١٦٥٢ أوفــد لويس حامل أختامه موليه ليطالب بولاء مدينة أورليان . فبعث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك مالم يعد هو أو ابنته ليستنفرا أهلها .

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا الشهيرات ، وما أكثرهن ، وكأنى بها « جان دارك » ثانية أقبلت لتنقذ أورليان . هذه المرأة — آن مارى لويز دورليان — كانت قد رفعت راية العصيان فى طفولتها حين نفى ريشليو أباها . وكان جاستون يلقب رسميا — « المسيو » باعتباره شقيق لويس الثالث عشر ، أما زوجته مارى بوربون ، دوقة مونبانسييه ، فهى « مدام » ذلك العهد ، وابنتهما إذن هى « المدموازيل » ، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارعة القوام فقد سميت « الجراند مدموازيل دمونبانسييه » . وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء للتال

والنسب، وكانت تقول «انى أنتمى إلى بيت لا يفعل إلا ماهو جليل نبيل»(١٠). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر رغم أنه ابن عمها، فلما لم تلق تشجيعاً احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت أباها يكره أن يخوض المعمعة، حصلت على رضاه بأن تنوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف عـلى بنات جنسها، ولشد ما أنكرت حرمان النساء من الانخراط فى سلك الجندية. ومن ثم فقد لبست الآن درعا وخوذة، وجمعت من حولها لفيفا من كرائم النساء المسترجلات وقوة صغيرة من الجند زحفت بها فى مرح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاة أن يدخلوها للمدينة خشية إغضاب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة فى الأسوار، ومنها تسللت ورفقتها كونتيستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. وما إن أفلحت فى دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبها النارية. وهكذا رد موليه عن المدينة خاوى الوفاض، وأقسمت أورليان يمين الولاء لـ «عذارء» الجديدة.

وبلغت حرب الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كونديه عليهـــا من الجنوب، وهزم جيشاً ملكيا، وأوشك أن يأسر الملك، والملكة، والكردينال، ولو فعل لـ «مات الشاه» حقيقة لا مجازا. وبينما كان جيشه يدنو من باريس، حملت الجماهير — وهم «الفرونديون» هنا أيضاً، رفات القديسة جنفييف راعية المدينة وطافت الشوارع فى موكب ضارعة إلى الله أن ينصر كونديه ويسقط مازاران. أما الجراند مدموازيل فقد هرعت من أورليان إلى قصر لكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تذبذبه، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه، ولكنه أبى. واقترب الآن تورين وجيش الملك، والتقيا بقوات كونديه خارج الأسوار قرب بوابة سانت انطوان (ميدان الباستيل الآن). وكاد تورين يكسب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت

مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك . ثم أمرت القوم داخل الأسوار ، باسم أبيها الغائب ، أن يفتحوا الأبواب ريثما يدخل جيش كونديه ، ثم يغلقوها فى وجه جيش الملك (٢ يوليو ١٦٥٢) . وهكذا كانت المدموازيل بطلة الساعة .

وغدا كونديه سيد باريس ، ولكن الرءوس المتزنة أخذت تنقلب عليه ، ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده ، فبدأوا يهجرونه ، وأفلت زمام الجماهير . وفى ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدى مازاران ، وإظهارا لسخطهم اشعلوا النار فى المبنى ، وقتلوا ثلاثين من المواطنين . وتعطلت العمليات الاقتصادية ، وعمت الفوضى إمداد المدينة بالطعام ، وخشى نصف أسرات باريس الموت جوعا . وتساءلت الطبقات المالكة : أليست الأوتقراطية الملكية . بل أليس حكم مازاران ، أهون من حكم الرعاع . وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفى طوعا ، تاركا الفرونديين بغير قضية توحد بين صفوفهم . أما ريتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له الظفر بقبعة الكردينالية الحمراء التى طالما اشتهاها ، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك .

وفى ٢١ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يمسها سوء . وافتتن الباريسيون بمنظر الملك الصغير ، البالغ من العمر آنئذ أربعة عشر ربيعا ، وسحرهم حسنه وشجاعته ، ورددت الشوارع هتاف الجماهير « يحيى الملك » وما لبث هياج الشعب أن هدأ بين عشية وضحاها ، وأعيد النظام لا بفضل القوة ، بل بهالة الملكية ، وهيبة الشرعية ، وإيمان الشعب — الإيمان نصف اللاشعورى — بحق الملوك الإلهى . وماوافى ٦ فبراير ١٦٥٣ حتى استشعر لويس فى نفسه من القوة ماشجعه على دعوة مازاران للعودة وتثبيته مرة أخرى فى جميع سلطاته السابقة . ووضعت حرب الفروند الثانية أوزارها .

وفر كونديه إلى بوردو ، وخضع البرلمان فى بطء ووقار ، واعتكف

النبلاء المتمردون فى قصورهم الريفية . والفست مدام لونجفيل العزاء بين راهبات البور — رويال بعد أن ذهب رواء حسنها . ونفيت الجراند مدموازيل إلى إحدى ضياعها ، حيث راحت تأكل قلبها حسرة وهى تذكر ملاحظة نسبت إلى مازاران ، قال فيها إن إطلاقها المدافع من الباستيل قتل زوجها - أى قضى على أملها فى الزواج من الملك . وفى عامها الأربعين أحبت أنطوان كومون ، كونت لوزان ، وكان أصغر وأقصر منها كثيرا ، ولكن الملك رفض أن يأذن لهما بهذا الزواج ، فلما عزما عليه برغم هذا الحظر سجنه لويس عشر سنوات (١٦٧٠ — ٨٠) . وظلت المدموازيل وفية له فى شجاعة طوال سجنه ، ولما أفرج عنه تزوجته ، وعاشت معه عيشة مضطربة صاخبة حتى ماتت (١٦٩٣) . وأما ريتز فقد قبض عليه ، ولكنه فر ، ثم نال العفو ، وخدم الملك مبعوثا دبلوماسيا فى روما ، واعتكف فى ركن باللورين ، وألف مذكرات تمتاز بتحليلها الموضوعى للخلق ، بما فى ذلك خلقه هو يقول فيها :

« لم ألعب دور الناذر نفسه للدين ، لأننى لم استطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور المزيف ، وحين أعجزنى العيش دون صلة غرامية محرمة ، اتصلت بمدام بومرو ، وكانت شابة لعوبا ، لها الصدد الكبير من العشاق ، لا فى بيتها فحسب ، بل فى مكان عبادتها أيضاً ، بحيث كانت صلات غيرى المكشوفة معها ستارا لصلتى بها . . . واستقر رأيى على التمادى فى خطاياى . . . ولكنى كنت مصمما كل التصميم على القيام بواجبات مهنتى (الدينية) بأمانة ، وعلى بذل قصاراى فى تخليص نفوس غيرى وإن لم أكترث لخلاص نفسى » (١١).

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار ، وعاد سيداً على المملكة ، وخادما لملك ما زال راغبا فى التعلم . وقد روع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستنتية وكرومويل قاتل ملكها (١٦٥٧) ، الذى أعان على محاربة كونديه والأسبان بإرساله ستة آلاف جندى ؛

وأحرز الفرنسيون والإنجليز معا النصر فى « معركة الكثبان » (١٣ يونيو ١٦٥٨) . وبعد عشرة أيام سلم الأسبان دنكرك ، فدخلها لويس فى احتفال رسمى مهيب ، ثم نزل عنها لانجلترة طبقا للمعاهدة. وأبرمت أسبانيا مع فرنسا صلح البرانس (٧ نوفمبر ١٦٥٩) بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها، فأنهت بذلك ثلاثة وعشرين عاما من حرب واحدة ، وأرست أساس حرب أخرى . ونزلت أسبانيا عن روسيون ، وأرتوا ، وجرافلين ، وتيونفيل ، لفرنسا ، وتخلت عن جميع مطالبها فى الالزاس ، وزوج فيليب الرابع ابنته ماريا تريزا للويس الرابع عشر ، بشروط ورطت فيها بعد غرب أوربا كله فى حرب الوراثة الأسبانية . ذلك أنه تعهد بأن يبعث إليها ، خلال ثمانية عشر شهرا ، بصداق قدره ٥٠٠,٠٠٠ كراون ، ولكنه انتزع منها ومن لويس تنازلا عن حقوقها فى ولاية العرش الأسبانى . وأصر ملك أسبانيا على أن يكون العفو عن كونديه شرطا من شروط الصلح ، فلم يكتف لويس بالصفح عن الأمير المنيف ، بل رد إليه كل ألقابه وأملاكه ، ورحب به فى بلاطه .

كان صلح البرانس الدليل على إنجاز برنامج ريشليو — وخلاصته كسر شوكة الهابسبورج ، وحلول فرنسا محل أسبانيا أمة متسلطة فى أوربا . واعترف الفرنسيون بفضل مازاران فى الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظافر ، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم ، فإنهم رأوا فيه رجلا من أكفأ الوزراء فى تاريخ فرنسا . ولكن فرنسا التى سرعان ما نسيت خيانة كونديه ، لم تغتفر قط لمازاران جشعه وحرصه : ففى وسط الفاقة التى كابدها الشعب جمع ثروة طائلة قدرها فولتير بمائتى مليون من الفرنكات(١٢) . وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية ، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ، ويقرض الملك بالربا ، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة مازالت تعد من أغلى الحلى فى العالم(١٣) .

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول ، وألا يترك مسائل السياسة العليا لأى من مساعديه إطلاقا(١٤) وبعد موته (٩ مارس

١٦٦١) كشف كولبير للملك عن المخبأ الذي أخفى فيه ثروته . فصادرها لويس ، وأثلج بذلك صدر شعبه ، وغدا أغنى ملوك زمانه . وهتف ظرفاء باريس لجينو ، طبيب مازاران ، لأنه رجل أحسن إلى الشعب كله ، وقالوا «أفسحوا الطريق لنبالته . إنه الطبيب الطيب الذي قتل الكردينال » (٢٥).

٢ — الملك

لم يكن أشهر ملوك فرنسا فرنسياً إلا بربع دمه . فقد كان نصف أسبانى من ناحية أمه آن النمساوية ، وربع إيطالى من ناحية جدته مارى مديتشى . وقد أولع بالفن والحب الإيطاليين دون تردد وبعد ذلك بالتدين والكبرياء الأسبانيين ، وفى أخريات عمره كان أكثر شبها بجده لأمه ، فيليب الثالث ملك أسبانيا ، منه بجده لأبيه ، هنرى الرابع ملك فرنسا .

سمى عند ولادته (٥ سبتمبر ١٦٣٨) ديودونيه Dieudonné أى «عطية الله » ، ولعل الفرنسيين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن لويس الثالث عشر قد حقق أبوته فعلا دون عون من الله . وقد أضر بنمو الصبى وتطوره ما كان بين أبويه من تنافر ، وموت أبيه الباكر ، واضطرابات الفروند الطويلة الأمد . وكثيراً ما لقى الإهمال وسط نضال آن ومازاران المرة بعد المرة للاحتفاظ بالسلطة . وفى تلك الأيام التى لم تكن ظروفها مواتية لأى ملك ، ذاق مرارة الفقر أحيانا فى الملبس الرث والطعام القليل . ويبدو أن أحدا لم يهتم بتعليمه ، وحين تولاه المدرسون الخصوصيون كان همهم الأكبر أن يقنعوه بأن فرنسا بأسرها ميراثه الذى سيحكمه بالحق الإلهى ، ولا يسأل عنه إلا أمام الله . ووجدت أمه الوقت لتدريبه على العقيدة والعبادة الكاثوليكيتين ، اللتين سترتدان إليه فى قوة بعد أن أنهكت فيــه الشهوات وتضاءل سناء المجد . ويؤكد لنا سان — سيمون أن لويس « لم يكد يعلمه أحد القراءة أو الكتابة » وأنه ظل جاهلا كل

الجهل حتى أنه لم يلم بأشهر حقائق التاريخ وغيرها من الحقائق » . ولكن لعل هذه إحدى مبالغات الدوق المفرطة . وما من شك فى أن لويس لم يظهر ميلا يذكر للكتب ، وإن كانت رعايته للمؤلفين وصداقته لموليير وبوالو وراسين تشير إلى تقدير صادق للأدب . وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يصل إلى دراسة التاريخ إلا متأخراً جداً ، وكتب يقول « إن الإلمام بالأحداث العظيمة التى وقعت فى العالم على مدى القرون الكثيرة ، والتى هضمتها العقول القوية النشيطة ، هذا الإلمام يفيد فى دعم الحجة فى جميع المداولات الهامة » (١٧) وقد جهدت أمه لتربى فيه الإحساس بالشرف والشهامة لا مجرد آداب السلوك ، وبقى الكثير من هذا فيه وإن لوثته إرادة طائشة للقوة . كان فتى جاداً ممتثلا ، يبدو أطيب من أن يصلح للحكم ، ولكن مازاران صرح بأن فى لويس « من الأصالة والكفاءة ما يصنع أربعة ملوك ورجلا شريفا » (١٨).

فى ٧ سبتمبر ١٦٥١ أطل جون إيفلين من مسكن توماس هوبز فى باريس على الموكب الذى رافق الملك الصبى ، البالغ الثالثة عشرة ، متجها إلى الحفل المقام بمناسبة إنهاء سن قصوره . وقال هذا الإنجليزى فى وصفه « مضى أبوللو الصغير هذا أكثر الطريق وقبعته فى يده يحيى السيدات والمعجبات اللائى ازدانت النوافذ بهائهن وملأ الجو هتافهن « يحيي الملك » (١٩) وكان فى إمكان لويس يومئذ أن يتسلم زمام الأمر كله من مازاران ، لولا أنه كان يحترم ذلك الدهاء المهذب الذى طبع عليه وزيره ، فسمح له بأن يحتفظ بالزمام تسع سنوات أخرى . ومع ذلك فقد اعترف بعد موت الكردينال قائلا « لست أدرى ماذا كنت صانعاً لو عمر طويلا » (٢٠) فلما مات مازاران أقبل رؤساء الإدارات على لويس سائلين إلى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم ، فأجاب ببساطة قاطعة « إلى » (٢١) ومنذ ذلك التاريخ (٩ مارس ١٦٦١) حتى أول سبتمبر ١٧١٥ تولى حكم فرنسا بنفسه . وبكى الشعب فرحا إذ أصبح له ملك فعال لأول مرة فى نصف قرن .

ولقد تهللوا فرحا وتيها بحسنه . قال جان دلافونتين حين رآه فى ١٦٦٠، ولم يكن بالرجل الذى يخدع بسهولة ، « أتظنون أن فى الدنيا ملوكا كثيرين وهبوا هذا الوجه المليح وهذا السمت الرائع ؟ لا أظن ، ويخيل إلى حين أراه أننى أرى العظمة مجسمه »(٢٢) لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام وخمس بوصات ، ولكن السلطة جعلته يبدو أطول . وإذ كان قوى البدن ، متين البنية ، فارساً وراقصاً ماهراً ، ومثاقفاً بارعاً وراوية خلاب العبارة . فقد ملك جماع الصفات التى تفتن المرأة وتفتح مغاليق قلبها . كتب سان ـ سيمون وكان يكرهه ، « لو أنه كان فرداً عادياً لا أكثر لجلب نفس الدمار بغرامياته »(٢٣). على أن هذا الدوق (الذى لم يستطع قط أن يغفر للويس حرمانه الأدواق من سلطة الحكم) اعترف بكياسته وآدابه الملوكية التى أصبحت الآن مدرسة للبلاط ، ولفرنسا عن طريق البلاط ، ولأوربا عن طريق فرنسا . قال :

« لم يعط أحد قط بأرق وألطف مما أعطى لويس الرابع عشر ، ولا ضاعف أحد بهذه الطريقة من قيمة عطائه كما ضاعف لويس . . . لم تكن الألفاظ الجافية لتند عنه قط ، فإذا اضطر أن يلوم ، أو يوبخ ، أو يقوم ، وهو أمر نادر ، فنى لطف دائما تقريبا ، لا فى غضب أو صرامة قط . . . إلا فى مناسبة واحدة وما عرف الناس رجلا طبع على مثل هذا الأدب الجم . . . أما مع النساء فلم يكن لتأدبه نظير . ما مر بامرأة مهما قل شأنها إلا رفع لها قبعته ، حتى الخادمات اللاتى يعرف أنهن خادمات . فإذا خاطب سيدات المجتمع لم يغط رأسه إلا بعد أن يفارقهن »(٢٤).

على أن ذهنه لم يرق إلى مستوى سلوكه . لقد كاد يضارع نابليون فى حكمه الثاقب على الرجال ، ولكنه قصر كثيراً دون ذكاء قيصر الفلسفى ، أو سياسة أوغسطس الإنسانية البعيدة النظر . وفى هذا يقول سانت ـ بوف «لم يؤت أكثر من الإدراك السليم ، ولكن حظه منه كان موفورا »(٢٥) ولعله خير من الذكاء . ولنستمع إلى سان ـ سيمون ثانية « كان بطبعه حصيفا ،

معتدلا حذرا ، سيدا على حركاته ولسانه »(٢٦). ويقول مونتسكيو « كانت نفسه أعظم من ذهنه »(٢٧) وقد وهب قوة انتباه وإرادة عوضت إبان عزه عن قصور أفكاره . أما علمنا بعيوبه فيأتينا من فترة حكمه الثانية على الأخص (١٦٨٣ — ١٧١٥) ، حين ضيق التعصب أفقه ، وأفسده النجاح والتملق . هنا نجده مغرورا غرور الممثلين متكبرا كبرياء الآثار الضخمة . وإن كان بعض كبريائه ربما أضفاه عليه الرسامون ممن صوروه ، وبعضه راجعاً إلى فكرته عن منصبه . فإذا كان قد مثل دور « الملك العظيم » فلعل عذره أنه خال هذا ضرورة لا يستغني عنها أسلوب الحكم ودعم النظام ، إذ لا بد من وجود مركز للسلطة ، ولا بد من أن تدعم الأبهة والمراسم هذه السلطة . قال لولده مرة « يبدو لي أن من واجبنا أن نكون متواضعين من أجل ذواتنا ، متكبرين من أجل المركز الذي نشغله »(٢٨) ولكنه قل أن تواضع — ربما مرة واحدة ، حين لم يجد غضاضة في أن يصحح بوالو له غلطه في أمر يتصل بالذوق الأدبي . وتقرأ مذكراته فتراه يتأمل فضائله في اتزان كثير . وعنده أن خير سجاياه حبه للمجد . قال إنه « يؤثر الصيت البعيد على كل الأشياء ، بل على الحياة نفسها »(٢٩) ولكن ولعه هذا بالمجد خدم أعداءه لأنه غالى فيه . كتب يقول « أن تحمسنا للمجد la gloire ليس شهوة من هذه الشهوات الهزيلة التي تنطفىء بمجرد تملك النفس لما تشتهيه ، فإن عطاياه التي لا تنال إلا بالجهد لا تورث السأم أبدا ، ومن كف عن اشتهاء المزيد منها لا يستحق كل ما ناله من عطاه(٣٠) .

بيد أنه أوتي حظاً من الفضائل الجليلة ، إلى أن جر ولعه بالعظمة والمجد الدمار على خلقه وعلى بلده . فلقد أعجب بلاطه بعدالته ، وتسامحه ، وكرمه ، وضبطه لنفسه . قالت مدام موتفيل التي كانت تراه كل يوم تقريبا خلال هذه الفترة « في هذا يجب أن تعترف كل العهود الملكية السابقة . . لهذا العهد بتقدمه عليها في استهلاله السعيد »(٣١) وقد لاحظ القريبون منه ذلك الوفاء الذي كان يحمله على زيارة جناح أمه مراراً كل يوم على كثرة

شواغله ، ثم شهدوا بعد ذلك حنانه على أبنائه ، وحرصه على محتهم وتربيتهم — أياً كانت أمهم . كان أكثر عطفا على الأفراد منه على الأمم ، فى وسعه أن يشن الحرب على الهولنديين الذين لم يؤذوه ، وأن يأمر بتدمير البالاتينات ، ولكنه يحزن لموت رويتر أمير البحر الهولندى ، الذى أوقع الهزائم بالبحرية الفرنسية ، وقد كلفته الشفقة على الملكة المخلوعة ، زوج جيمس الثانى ، وعلى ولده ، حربا كانت أسوأ حروبه .

ويلوح أنه آمن حقيقة بأنه مبعوث العناية لحكم فرنسا ، ولحكمها بسلطان مطلق . وكان فى استطاعته بالطبع أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس سنداً لهدفه هذا ، وأسعد بوسويه أن يريه أن العهدين القديم والجديد يدعمان حق الملوك الإلهى . وقد أخبر ولده فى مذكراته(*) التى أعدها لإرشاده أن « الله يجعل من الملوك الحفاظ الوحيدين للصالح العام » وأنهم « خلفاءالله على هذه الأرض » . ولابد لهم ، لكى يمارسوا وظائفهم المقدسة على الوجه الصحيح ، من سلطة لا حدود لها ، ومن ثم وجب أن يكون لهم « الحرية الكاملة المطلقة فى التصرف فى جميع الممتلكات سواء ممتلكات رجال الدين أو العلمانيين »(٣٢). أنه لم يقل (أناالدولة) L'état, c'est moi ولكنه آمن بهذا القول ببساطة مطلقة . أما الشعب فيلوح أنه لم تسوءه هذه الدعاوى ، التى حببها هنرى الرابع إليه انتقاضا على الفوضى الاجتماعية، لا بل إن أفراده تطلعوا إلى هذا الملك الفتى فى ولاء دينى ، واستشعروا عزة الجماعة فى أبهته وجبروته ، فما من بديل عرفوه لهما غير ما رافق الاقطاع من تفتت وغطرسة . وبعد طغيان ريشليو ، وفوضى الفروند ، واختلاسات

(*) واصل لويس على فترات كتابة « ملاحظات يستعان بها فى المذكرات » التى بدأها فى ١٦٦١ و حتى ١٦٧٩ حين أضاف إليها « تأملات فى حرفة الملك » وفيها الكثير مما يتسم بسلامة الادراك على الرغم من إعلانها بنظرية الحكم المطلق ، وقد تبدو أمامها بحوث الفلاسفه فى هذا الموضوع قاصرة . والظاهر أنه أملاهــا على سكرتيرين كسوها ثوبا أدبيا قشيبا . وهى لا تقل جــدارة بالقراءة عن أى أدب فى العصر الذى نحن بصدده .

مازاران ، رحبت الطبقتان الوسطى والدنيا بالسلطة والزعامة المركزتين في حاكم « شرعي » بدا لهم واعداً بالنظام ، والأمن ، والسلام .

وقد أفصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين أراد برلمان باريس عام ١٦٦٥ أن يناقش بعض مراسيمه . ركب من فالنسين في ثياب الصيد ، ودخل قاعة البرلمان في حذائه العالي وسوطه بيده ، ثم قال : « إن الكوارث التي جرتها مجالسكم معروفة مشهورة . لذلك آمركم بأن تفضوا هذا المجلس الذي اجتمع ليناقش مراسيمي . سيدي الرئيس الأول ، إني أمنعك من السماح بهذه الاجتماعات ، وأمنع أي فرد منكم بالمطالبة بها.(٣٣)»ثم نقلت وظيفة البرلمان بوصفه محكمة عليا إلى « مجلس خاص » ملكي ، خاضع للملك على الدوام .

وأدخل لويس على مركز النبلاء في الحكومة تغييراجذريا . لقد زودوا البلاط والجيش بأبهة المظهر وبريقه ، ولكن ندر أن شغلوا الوظائف الإدارية ذلك أن كبار النبلاء دعوا إلى مغادرة ضياعهم معظم العام والإقامة في البلاط - أكثرهم في « أوتيلاتهم » أو قصورهم الباريسية ، وعظماؤهم في القصور الملكية ضيوفا على الملك ، ومن هنا هذه الأجنحة الشاسعة التي خصصت لهم في فرساي . فإذا رفضوا قبول الدعوة فليس لهم أن يتوقعوا أي فضل يؤثرهم به الملك . وأعفى النبلاء من الضرائب ، ولكن فرض عليهم في الأزمات أن يهرعوا إلى قصورهم الريفية ، وينظموا ويجهزوا أتباعهم ، ويقودوهم الانضمام إلى الجيش . وقد استطابوا الحرب تخففاً من سأم الحياة في البلاط . حقا كانوا عاطلين كثيري النفقة ، ولكن بسالتهم في ساحة القتال أصبحت فرضا ملزما لطبقتهم . ومنعهم العرف والإتيكيت من الاشتغال بالتجارة أو بشئون المال — وأن جبوا الرسوم على التجارة المارة بأملاكهم ، واقترضوا في غير تحرج من أصحاب المصارف. وكانت ضياعهم يزرعها محاصصون (métayers) يدفعون لهم جزءا من المحصول ويؤدون لهم مختلف الخدمات والمكوس الإقطاعية . ويفترض

فى السيد الاقطاعى أن يحافظ فى اقليمه على النظام والعدالة ويرعى أعمال البر . وكان فى بعض الأقاليم يؤدى هذه المهمة أداء لا بأس به ، فيسكون محل احترام الفلاحين ، وفى بعضها الآخر لايبذل لقاء امتيازاته إلا عطاء تافها ، فضلا عن أن فترات غيابه الطويلة فى البلاط كانت تقوض تلك الألفة المهذبة بين السيد وتابعه . وقد حظر لويس الحروب الخاصة التى كانت تنشب بين الأحزاب الإقطاعية ، وأنهى — إلى أجل — عادة المبارزة التى انتعشت خلال حرب الفروند ، وتفاقم خطرها لأن شهود المبارزين ، لا المبارزين الأصليين فحسب ، كانوا يقتتلون ، ويقتــلون ، ويحرمون مارس إله الحرب من فرائسه . وقد أحصى جرامون عــدد من أودت المبارزات بهم فى تسع سنوات (١٦٤٣-٥٢) فكانوا تسعمائة(٣٤). ولعل احد أسباب الحروب المتسكررة تلك الرغبة فى ايجاد منفذ لولع الفرنسيين بالقتال ، ولـكبريائهم داخل وطنهم ، على حساب الأجانب .

أما الإدارة الفعلية لشئون الحـكومة فقد آثر لويس لها كبار رجال الطبقة الوسطى ممن أثبتوا كفايتهم بالارتقاء إلى مراكزهم وممن كان فى وسعه أن يركن إليهم فى دعم سلطة الملك المطلقة(٣٥) . واختصت ثلاثة مجالس كبرى بتصريف شئون الحـكم ، يجتمع كل منها برئاسة الملك ، ويعمل فى إعداد المعلومات والتوصيات التى يبني عليها الملك قراراته . فـكان « مجلس الدولة » المؤلف من أربعة رجال أو خمسة يجتمع ثلاث مرات فى الأسبوع ليعالج أهم مسائل العمل أو السياسة ، وكان « مجلس الرسائل » يصرف شئون الأقاليم ، و « مجلس المالية » ينظر فى الضرائب والإيراد والمنصرف . واضطلعت مجالس اضافية أخرى بشئون الحرب ، والتجارة ، والدين ، وانتزع الحـكم المحلى من أيدى النبلاء المستهترين ونيط به النظار الملـكيون ، وسخرت الانتخابات البلدية لتأتى بعمد يرضى عنهم الملك . ولو أننا سئلنا اليوم رأينا فى حـكومة شديدة التمركز كهذه لقلنا إنها ظالمة ، وكذلك كانت ، ولـكن أغلب الظن أنها أقل ظلما مما سبقها من حكم الأوليجاركيات البلدية أو النبلاء

الإقطاعيين . وآية ذلك أنه حين دخلت لجنة ملكية اقليم أوفرن (١٦٦٥) للتحقيق فى استغلال السادة لسلطتهم الإقطاعية فى الإقليم ، رحب الناس بهذا الاستجواب العظيم Lesgrands Jours d, Auvergne محرراً لهم من الظلم ، وأثلج صدورهم أن يروا « إقطاعيا كبيرا » يضرب عنقه لأنه قتل فلاحا ، وأشرافا ، أقل منه شأنا يلقون جزاءهم على ما اقترفوا من أفعال محظورة أو قاسية (٣٦). ويمثل هذه الاجراءات حل القانون الملكى محل القانون الإقطاعى .

ثم نقحت القوانين لتبلغ من النظام والمنطق قصارى مايتفق والارستقراطية ، فحكم « قانون لويس » الذى تكون على هذا النحو (١٦٦٧—١٦٧٣) فرنسا إلى أن جاء « قانون نابليون » (١٨٠٤ ١٨١٠) وكان القانون الجديد أرقى من كل قانون سبقه منذ عهد جستنيان ، وقد « أسهم بقوة فى تقدم الحضارة الفرنسية (٣٧) » وأنشىء جهاز شرطة ليكبح إجرام باريس وقذارتها . فترى مارك رينيه ، مركيز دوابيه دارجنسون ، الذى خدم الدولة إحدى وعشرين سنة قائدا عاما للشرطة ، يترك سجلا مشرفا من الأداء العادل الدؤوب لوظيفة عسيرة . وبإشرافه رصفت شوارع باريس، ونظفت تنظيفا معتدلا ، وأضيئت بخمسة آلاف مصباح ، وأمنت تأمينا لابأس به للمواطنين ، وأصبحت باريس الآن فى هذا كله متقدمة جداً على أى مدينة أخرى فى أوربا . ولكن القانون أباح الكثير من أعمال الهمجية والطغيان . ونشرت شبكة من المخبرين فى أرجاء فرنسا ، يتجسسون على الكلام كما يتجسسون على الأفعال . وأبيح اعتقال الأشخاص اعتقالا تعسفيا بمقتضى الأوامر السرية Lettres de cachet التى يصدرها الملك أو وزراؤه ، وسجنهم سنين دون محاكمة ، ودون أن يحاطوا علما بجريرتهم . وحظر القانون الاتهامات بالسحر ، وأبطل حكم الإعدام عقابا للتجديف ، ولكنه احتفظ باستخدام التعذيب أداة لانتزاع الاعترافات من المتهمين . وأجاز القانون عقاب عدد كبير من الذنوب بالحكم

على مرتكبيها بتشغيلهم فى سفن أسرى الحرب ــ وكانت سفننا كبيرة وطيئة يسيرها بالمجاذيف المذنبون موثقين بالسلاسل إلى المقاعد . وخصص ستة رجال لكل مجذاف طوله خمسة عشر قدما . وكانت صفارة المشرف تلزمهم الاحتفاظ بالسرعة التى يحددها ، وأجسادهم عارية إلا من وزرة ، وشعورهم ولحاهم وحواجبهم محلوقة ، وأحكامهم طويلة الأمد ، ومن الجائز مدها تعسفا إذا لم يذعنوا للأوامر إذعانا تاما ، فيفرض عليهم رقهم أعواما بعد أن يقضوا مدة عقوبتهم . ولم يخف عنهم عذابهم إلا ما سمح لهم به إذا بلغوا الميناء من بيع التوافه أو استجداء الصدقات وهم يسيرون أزواجاً فى أغلالهم .

أما لويس نفسه فوضع فوق القانون ، حراً فى أن يأمر بأى عقوبة لأى ذنب . فى ١٦٧٤ قضى بأن تجدع أنوف جميع البغايا وتصلم آذانهن إذا ضبطن مع الجنود فى نطاق خمسة أميال من فرساى . وكثيراً ما كان رحيما ولكنه كثيراً ما كان صارما قال لولده : « إن مقداراً محدوداً من الصرامة كان أعظم ما استطعته من ترفق بشعبى ؛ ولو انى اتبعت سياسة عكس هذه السياسة لجرت شروراً متعاقبة لا نهاية لها . ذلك أنه ما إن يضعف الملك فى إنفاذ ما أمر به ، حتى ينهار السلطان وينهار معه السلام العام ... فيقع كل العبء على كواهل الطبقات الدنيا ، التى يظلمها عندئذ ألوف من صغار الطغاة بدلا من الملك الشرعى (٣٩) .

وكان دائم العكوف على ما سماه « حرفة الملك » le métier de roi . يطلب إلى وزرائه أن يوافوه بالتقارير الكثيرة المفصلة ، ولا يدانيه رجل فى مملكته اطلاعاً على أحوالها . ولم يسؤه أن يشير عليه وزراؤه بما يناقض آراءه ، وقد نزل أحيانا على رأى مستشاريه . ثم أنه احتفظ بأوثق العلاقات الودية مع مساعديه ، شريطة إلا يغيب عنهم أنه الملك ــ قال مرة لفوبان : « ثابر على أن تكتب إلى بكل ما يعن لك ولا تفتر لك همة ولو لم أفعل دائما ما تشير به » (٤٠) . وكانت عينه على كل شىء ــ الجيش والبحرية ، والحاكم ، وبيته ، والمالية ، والكنيسة ، والدراما ، والأدب ، والفنون ، ومع أنه فى

النصف الأول من حكمه كان يسنده وزراء أكفاء مخلصون ، فإن السياسات والقرارات الخطيرة ، والجمع بين شتى نواحي الحكم المعقد في وحدة متسقة — كل هذا كان من صنعه هو . لقد كان ملكا كل ساعة من ساعات يومه .

ولقد كلفه هذا من أمره عنتاً . كان هناك من يقوم على خدمته في كل خطوة يخطوها ، ولكنه دفع ثمن هذا برقابة الغير له في كل حركة وسكنة فكانت مبارحته لفراشه وذهابه إليه (إذا كان منفردا) بعض وظائف الدولة . فإذا تم هذا الاستيقاظ الرسمي (lever) استمع إلى القداس ثم أفطر ، ثم مضى إلى قاعة المداولة ، وخرج منها حوالى الواحدة ، فتناول وجبة كبيرة ، يأكلها عادة على مائدة صغيرة لشخص واحد ، تحيط به بطانته وخدمه . فإذا فرغ من طعامه تمشى عادة في الحديقة ، أو خرج للصيد ، يرافقه أثراؤه في ذلك اليوم . فإذا عاد أنفق ثلاث ساعات أو أربعا في اجتماعات مجلسه ، ثم لحق بحاشيته في ملاهيهم من السابعة إلى العاشرة — حيث الموسيقى ، ولعب الورق ، والبليارد ، والغزل ، والرقص ، والاستقبالات ، وحفلات الرقص ، وفي فترات من هذا الروتين اليومي « يتحدث إليه من شاء »(٤١) وإن لم يجرؤ على هذا إلا القليلون . « لقد أعطيت رعاياي كلهم ، دون تفرقة ، حرية مخاطبتي في جميع الساعات ، سواء بأشخاصهم أو بالتماساتهم »(٤٢) وحوالى الساعة العاشرة مساء ، كان الملك يتناول العشاء رسميا مع أبنائه وحفدته ، وأحيانا مع الملكة .

ولقد كان من أسباب التهذيب والتثقيف لفرنسا أن نلاحظ كيف يفرغ مليكها لمهام الحكم مواظباً عليها ساعات سبعاً أو ثماني طوال ستة أيام في الأسبوع . كتب السفير الهولندي يقول : (لا يصدق المرء أي سرعة ، وأي وضوح ، أي قدرة على التمييز ، وأي ذكاء يصرف به هذا الملك الشاب أعماله ويفرغ منها ، وذلك في تلطف كثير مع جميع من يتعامل معهم ، وفي طول أناة وهو يستمع إلى ما يريد مخاطبه أن يقول ، الأمر الذي حبب فيه كل القلوب)(٤٣) ولقد ثابر على هذا التفاني في تصريف شئون

الحكم طوال أربعة وخمسين عاما ، لا يكف عنه حتى وهو يلازم فراش المرض . وكان يحضر المجالس والمؤتمرات وقد أعد نفسه لها إعدادا وافياً . « فما كان ليحسم فى أمر عفو الساعة، ولا دون مشورة»(٤٥) ثم أنه يختار مساعديه بفطنة عجيبة ، ولقد ورث بعضهم ـ ككولبير ـ من مازاران ، ولكنه كان له من سلامة الذوق ما جعله يحتفظ بهم ، حتى موتهم عادة . وكان يبذل لهم كل لطف ومجاملة ،وكل ثقة معقولة، ثم لا تغفل عينه عن مراقبتهم » . كنت بعد أن اختار وزرائى لا يفوتنى أن أدخل مكاتبهم على غير توقع منهم .. وهكذا أحطت بآلاف الأشياء التى أفادتنى فى تحديد طريقى(٤٦) »

وحكمت فرنسا ، فى أيام شمسها الصاعدة تلك ، خيرا مما حكمت فى أى عهد مضى برغم تركيز السلطة والإدارة ، أو بفضل هذا التركيز ، وبرغم تحكم يد واحدة فى خيوط الحكم كلها ، أو بفضل هذا التحكم .

٣ ـ نيقولا فوكيه : ١٦١٥ – ٨٠

كان هم الملك الأول أن يعيد تنظيم مالية الدولة بعد أن استنزفتها الاختلاسات فى عهد مازاران . وكان نيقولا فوكيه ، الذى شغل منصب « ناظر المالية » منذ ١٦٥٣ ، يدير شئون الضرائب والمصروفات بأصابع حريصة ويد قديرة . فقد قلل من عوائق التجارة الداخلية ، ونشط نمو التجارة الفرنسية فيما وراء البحار ، واقتسم فى احساس بالواجب غنائم منصبه مع ملتزمى الضرائب ومع مازاران . وكان هؤلاء الملتزمون العموميون من كبار الرأسماليين الذين أقرضوا الدولة مبالغ كبيرة لقاء تخويلهم حق جباية الضرائب نظير أدائهم مبلغاً محددا . وقد جبوها بكثير من الجشع الفعال الذى جعلهم أبغض الأشخاص إلى الناس فى المملكة ، وقد أعدم من أمثالهم أربعة وعشرون ملتزما خلال الثورة الفرنسية . وجمع فوكيه بالتواطؤ مع الملتزمين العموميين أضخم ثروة اقتناها فرد فى جيله .

وفى سنه ١٦٥٧ كلف المعمارى لوى لفو ، والمصور شارل لبرون ،

ورسام المناظر الطبيعية أندريه لنوتر ، بأن يصمموا، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الريفي الفخم المترامي الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل(٤٠)، وكلف ثمانية عشر مليون من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٫٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسنه بثمن غال »(٤١). وبمثل هذا الذوق ، ولكن بثمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورني ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون في مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب . ومثل موليير في حدائق القصر ملهاته (Les Fâcheux) (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٫٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار (Quo non ascendam ?) (إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة للآنسة دلافاليير ، وكانت إذ ذاك خليلة الملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعته أمه بأن في ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفي ٥ سبتمبر أمر قائد مشاة حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد

ورسام المناظر الطبيعية « اندريه لنوتر » ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الريفي الفخم المترامي الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل ، وكلف ثمانية عشر مليونا من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٫٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسنه بثمن غال » . وبمثل هذا الذوق ، ولكن بثمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنى ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون في مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب ، ومثل موليير في حدائق القصر ملهاته « Les Facheux » (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٫٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار « Quo non ascenoam ? » (إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن احدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة للانسة دلافاليير ، وكانت إذ ذاك محظية الملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا ان أقنعته أمه بان في ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفي ٥ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد « mousquetaire » هو شارل دباتز ، السيد دارتنيان ، بطل قصة ديماس الأب) . وأصبحت

المحاكمة التى اتصلت ثلاث سنين أشهر القضايا فى تاريخ العهد . وكافحت مدام دسفينيه ، ولافونتين ، وغيرهما من أصدقاء فوكيه ، وتوسلوا إلى الملك ليبرئ ساحته ، غير أن الأوراق التى عثر عليها فى قصره الريفى أدانته . فحكمت عليه المحكمة بالنفى ومصادرة أملاكه ، وعدل الملك الحكم إلى السجن مدى الحياة . وظل الوزير الذى كان من قبل رجلا مرحا ، ستة عشر عاما ، يذوى فى سجنه بقلعة بنيرول بييدمونت ، ولا يسرى عنه إلا صحبة زوجه الوفية . لقد كان حكما قاسيا ، ولكنه قلم أظفار الفساد السياسى ، وأنذر الناس بأن الاستيلاء على الأموال العامة للمتعة الخاصة امتياز لا يختص به غير الملك .

٤ – كولبير يعيد بناء فرنسا

كتب لويس يقول : « لقد أشركت كولبير .. مفتشا مع فوكيه لكى أراقبه .. وهو رجل منحته ما استطعت من ثقة ، لأنى كنت عليما بذكائه وجده وأمانته(٥٠) » وظن أصحاب فوكيه أن كولبير تعقبه مدفوعا بالرغبة فى الانتقام منه ، ولعل كولبير استشعر شيئاً من الحسد للرجل ، ولكن فرنسا ذلك العهد لم تنجب ضريباً لكولبير فى تفانيه الدءوب فى خدمة الصالح العام . روى أن مازاران قال للملك وهو على فراش الموت « مولاى ، إنى مدين لك بكل شىء ، ولكنى أدفع دينى .. باعطائك كولبير(٥١) » .

كان جان باتيست كولبير ابن قماش فى رامس ، وابن أخى تاجر غنى ، وإذ كان بورجوازيا بدمه ، اقتصاديا بمحيطه ، فقد درب على كراهية الفوضى والعجز ، وأعد بفطرته وبطول المرانة لتغيير اقتصاد فرنسا من جمود الفلاحة والتفتت الاقطاعى إلى نظام موحـــد قومياً ، يشتمل الزراعة والصناعة والتجارة والمال ، يواكب ملكية ممركزة ، ويهيىء لها الأساس المادى لعظمتها وسطوتها

دخل كولبير ديوان الحربية سكرتيراً صغيراً فى العشرين (١٦٣٩) ومالبث أن شق طريقه بجهده إلى حيث استرعى نظر رؤسائه ، فنقل إلى خدمة مازاران ، وأصبح المدير الناجح لثروة الكردينال . فلما سقط فوكيه ، وكل إلى كولبير مهمة خطيرة هى إعادة تنظيم مالية الأمة . وفى ١٦٦٤ أضيفت إليه مهمة الإشراف على المبانى ، والمصانع الملكية ، والتجارة ، والفنون الجميلة ؛ وفى ١٦٦٥ عين مراقبا عاما للمالية ، وفى ١٦٦٩ عين وزيراً للبحرية ، ثم وزيراً للخاصة الملكية . ولم يرق رجل آخر فى عهد لويس الرابع عشر بمثل هذه السرعة ، ولا اشتغل بمثل هذه الهمة ، ولا حقق مثل ماحققه من أعمال . بيد أنه لوث أرتقاءه بمحاباته أقرباءه ، إذ أغدق الوظائف والأموال على الكثيرين من آل كولبير ، وغالى فى مكافأة نفسه مكافأة كادت تعدل ثروته . وكان نهبا للغرور ، يتشبث بانحداره المزعوم من ملوك اسكتلنده ، وقد يعبث عبثاً منكراً بالقوانين القائمة تعجلا لقضاء المصالح ، ويتغلب على المعارضة بالرشا يبذلها فى الجهات العليا . فلما استفحل سلطانه غدا مستبداً ، وأحفظ عليه النبلاء إذ داس على أقدام تنزف الدم الأزرق . وقد استخدم فى إعادة تشكيل الاقتصاد الفرنسى نفس الأساليب الدكتاتورية التى استخدمها ريشليو من قبل فى إعادة تشكيل الدولة الفرنسية . وهكذا لم يكن خيراً من هؤلاء الكرادلة .

بدأ بفحص أساليب الماليين الذين يجبون الضرائب ، ويزودون الجيش بالسلاح ، والملابس ، والطعام ، ويقدمون القروض للاقطاعيين أو لخزانة الدولة . وكان بعض هؤلاء المصرفيين يعدلون الملك ثراء . فبلغت ثروة صموئيل برنار مثلا ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٣ جنيه(٥٢) . وقد أثار الكثيرون منهم حنق النبلاء بالزواج من طبقتهم ، وبشراء ألقاب الشرف أو اكتسابها ، وبالعيش فى ترف لايقوى عليه من لايملكون غير عراقة النسب . وكانوا يتقاضون فائدة على قروضهم تصل إلى ١٨٪ حسب درجة الشك فى الوفاء بالقروض . وبناء على طلب كولبير شكل الملك « غرفة عدالة » للتحقيق

فى جميع المخالفات المالية التى ارتكبت منذ ١٦٣٥، والتى اقترفها «أى شخص أيا كانت صفته أو حالته(٥٣)» وطلب إلى جميع موظفى الخزانة، وجباة الضرائب، وأصحاب الدخول أن يقدموا سجلاتهم ويبينوا شرعية مكاسبهم، وفرض على كل منهم أن يثبت نظافة يده وإلا كان جزاؤه المصادرة وغيرها من العقوبات. وبثت الغرفة موظفيها فى طول فرنسا وعرضها وشجعت المخبرين. وأودع السجن عدة رجال أغنياء، وأرسل البعض إلى مراكب تشغيل الأسرى، وشنق البعض الآخر. وصعقت الطبقات العليا لهذا «الأرهاب الكولبيرى»، أما الطبقات الدنيا فصفقت له استحسانا. ونظم رجال المال فى برجنديا حركة تمرد على الوزير، ولكن جماهير الشعب شهروا السلاح فى وجوههم، ولقيت الحكومة عنتا فى إنقاذهم من غضب الشعب. ورد للخزانة نحو ١٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من الفرنكات؛ وخفف خوف العقاب فساد المالية جيلا كاملا(٥٤).

ومضى كولبير يعمل منجل الوفر فى خزانة الدولة. فرفت نصف الموظفين فى وزارة المالية وأغلب الظن أنه هو الذى اقترح على لويس ما قام به من إلغاء جميع مناصب الخاصة الملكية التى تدفع عنها الرواتب دون أن يؤدى أصحابها واجبات. فطرد عشرون من «سكرتيرى الملك» ليكسبوا قوتهم بطريق آخر. وخفض تخفيضا قاسيا عدد المحامين العامين، وضباط النظام، والمستقبلين، وغيرهم من صغار الموظفين فى البلاط الملكى. وأمر كل موظفى الخزانة بأن يمسكوا حسابات دقيقة واضحة ويقدموها للفحص. وحول كولبير جميع الديون الحكومية القديمة إلى ديون جديدة بسعر فائدة أقل. ثم بسط جباية الضرائب. ولما تبين صعوبة جمع المتأخرات أقنع الملك بالغاء كل الضرائب التى لم تسدد عن المدة ١٦٤٧ — ٥٨. ثم خفض معدل الضريبة فى ١٦٦١، وحزن حين اضطر إلى رفعه ثانية فى ١٦٦٧ لكى يمول «حرب الأيلولة» واسراف فرساى.

بيد أن أسوأ ما منى به من إخفاق كان فى احتفاظه بنظام الضرائب

القديم . ولعله لو قلبه من أساسه لأحدث من الاخلال بالنظام ما يهدد تدفق إيراد الدولة . ذلك أن الدولة كانت تعولها أساساً ضريبتان ـ التاى (الرءوس) والجابيل (الملح) . وكانت ضريبة التاى تقدر فى أقاليم من واقع الأملاك الحقيقية ، وفى غيرها على أساس الدخل . وقد أعفى منها الأشراف والكهنة ، فوقعت كلها على كواهل « الطبقة الثالثة » ـ التى تنتظم باقى السكان وكان يطالب إلى كل إقليم أن يجبى مبلغا محدداً ، ويسأل كبار المواطنين عن جباية المبلغ المقرر . أما الجابيل فضريبة على الملح . فقد احتكرت الدولة بيعه ، وألزمت جميع الرعايا أن يشتروا دوريا كمية مقررة بأسعار تحددها الحكومة . وإلى هاتين الضريبتين الأساسيتين أضيفت مختلف الرسوم الصغيرة ، وعشر محصول الفلاح الذى يجب أداؤه للكنيسة . على أن هذه الضريبة كانت عادة دون العشر بكثير(٥٥) ، وكانت تراعى الرأفة فى جبايتها .

وكانت الزراعة أقل المرافق تأثراً باصلاحات كولبير . إذ بقيت طرق الفلاحة بدائية جداً بحيث عجزت عن إعاشة عشرين مليونا من الأنفس يتكاثرون بغير حساب . وكان لكثير من الأزواج عشرون ولدا . ولولا الحرب ، والمجاعة ، والمرض ، وارتفاع نسبة الوفيات فى الأطفال ، لتضاعف السكان مرة كل عشرين سنة(٥٦) . ومع ذلك منح كولبير الاعفاءات الضريبية للزواج المبكر ، والمكافآت للأسر الكبيرة (ألف جنيه فرنسى للاباء إذا كان لهم أبناء عشرة ، وألفين إذا كانوا اثنى عشر ولدا(٥٧)) وذلك بدلا من أن يعمل على زيادة خصوبة التربة . وقد احتج على تكاثر الأديار لأنه يهدد القوى البشرية لفرنسا(٥٨) . على أن نسبة المواليد فى فرنسا انخفضت رغم ذلك خلال حكم لويس ، لأن الحرب زادت الضرائب وعمقت الفقر . ولكن حتى فى هذه الحال لم تقتل الحرب ما يكفى لحفظ التوازن بين المواليد والطعام ، وكان على الطاعون أن يتعاون مع الحرب . وكان نقص المحصول سنتين متعاقبتين كفيلا باحداث المجاعة ، لأن وسائل النقل لم ترق بحيث تستطيع بكفاية سد العجز فى إقليم من الفائض فى آخر . ولم تخل سنة من مجاعة فى

مكان ما بفرنسا(٥٩) وكانت السنوات ١٦٤٨ ـ ٥١ ، ١٦٦٠ ـ ٦٢ ، ١٦٩٣ ـ ٩٤ ، و ١٧٠٩ ـ ١٠) فترات انتشر فيها الرعب من الموت جوعا ، حين بلغت نسبة الموتى من السكان فى بعض الأقاليم ثلاثين فى المائة . وفى ١٦٦٢ استورد الملك القمح وباعه للفقراء بثمن بخس أو وهبه لهم وأعفاهم من ثلاثة ملايين فرنك من الضرائب المستحقة (٦٠) .

وخفف التشريع بعض مآسى الريف ، إذ حظر الاستيلاء على بهائم الفلاح أو عرباته أو أدواته وفاء للدين ولو كان دينا للتاج . وأنشئت مزارع للاستيلاد تتعهد أفراس الفلاح مجانا ، ومنع الصيادون من اختراق الحقول المبذورة بالحب ، وقدمت الاعفاءات الضريبية لمن يصلحون الأراضى المهجورة ويزرعونها . ولكن هذه الملطفات ما كانت لتنفذ إلى صميم المشكلة — مشكلة اختلال التوازن بين خصوبة الإنسان وخصوبة التربة ، والافتقار إلى الاختراعات الآلية . على أن فلاحى أوربا على بكرة أبيهم كانوا يلقون مثل هذا العنت ، ولعل الفلاحين الفرنسيين كانوا أيسر حالا من نظرائهم فى انجلترا أو ألمانيا (٦١).

لقد ضحى كولبير بالزراعة قربانا للصناعة ولكى يطعم سكان المدن المتكاثرين ، وجيوش الملك المتعاظمة ، حظر رفع سعر الغلال بما يتناسب وغيرها من الخامات . وكان من الأوليات عنده أن على الحكومة التى تبتغى القوة أن تملك موارد كافية وجيشا من الجند الأشداء المجهزين تجهيزا حسنا ، فطبقة الفلاحين المتمرسة بالمشاق تزود البلاد بمشاة أقوياء ، والصناعة والتجارة الناميتان لا بد أن توفرا الثروة والأدوات . ومن هنا كان هدف كولبير الذى لم ينثن دونه هو أن يشجع الصناعة ، لا بل إن التجارة يجب إخضاعها لهذا الهدف ، فلا بد أن تحمى الصناعات الوطنية بالرسوم الجمركية التى تبعد المنافسة المخطرة من خارج البلاد . وجريا على السياسات الاقتصادية التى انتهجها صلى وريشليو ، أخضع كولبير جميع الصناعات الفرنسية — إلا أقلها شأنا — لسيطرة الدولة النقابية : فكانت كل صناعة ، بطوائفها ، وماليتها

ومعلميها ، وصبيتها ، وعمالها اليوميين ، تؤلف نقابة تنظمها الحكومة من حيث المعاملات ، والأسعار ، والأجور والبيوع . وأرسى المعايير الرفيعة لكل صناعة أملا فى كسب الأسواق الأجنبيه بجودة التصميم والصقل فى المنتجات الفرنسية . وقد آمن هو ولويس بأن التذوق الأرستقراطى للاناقة يدعم الحرف الكمالية ويحسنها ، ومن ثم وجد الصاغة ، والنقاشون ، وتجارو الأثاث ، ونساجو الأقمشة المرسومة ، كلهم وجدوا العمل والحافز والصيت البعيد .

وأمم كولبير مصنع جوبلان فى باريس تأميما تاما ، وجعله نموذجا فى الأسلوب والتنظيم . وشجع المشروعات الجديدة بالاعفاءات الضريبية ، والقروض التى تمنحها الدولة ، وخفض سعر الفائدة إلى ٥٪ ، وسمح باحتكار الصناعات الجديدة إلى أن ترسخ أقدامها . وقدم الحوافز لمهرة الصناع الأجانب حتى يجلبوا مهاراتهم إلى فرنسا ، فاستوطن صناع الزجاج البنادقة فى سان ـ جوبان ، وجلب صناع المشغولات الحديدية من السويد ، وأنشأ بروتستنتى هولندى فى أبفيل صناعة القماش الرفيع بعد أن كفل له حرية العبادة ورأس المال الذى اقرضته إياه الدولة . فما وافى عام ١٦٦٩ حتى بلغ عدد الأنوال فى فرنسا ٤٤٫٠٠٠ ، وكان فى تور وحدها ٢٠٫٠٠٠ نساج . وقد زرعت فرنسا أشجار توتها ، وكانت آنئذ مشهورة بأقمشتها الحريرية . وتضاعفت مصانع النسيج لتلبى حاجة جيوش لويس الرابع عشر المتزايدة . وهكذا اتسمت الصناعات الفرنسية سريعا بفضل هذه الحوافز . وأنتج الكثير منها لسوق قومية أو دولية ، وبلغ بعضها مرحلة رأسمالية فى الاستثمار ، والتجهيز ، والإدارة . وصادفت رسالة التصنيع التى آمن بها كولبير هوى فى نفس الملك ، فتفقد الورش ، وسمح بأن تختم المنتجات الفاخرة بخاتم السلاح الملكى ، ورفع من قدر رجال الأعمال الاجتماعى ، وخلع ألقاب الشرف على كبار المقاولين .

وشجعت الدولة التعليم العلمى والتقنى أو وفرته للشعب . وغدت الورش

فى اللوفر ، والتويلرى ، ومصانع الجوبلان ، وأحواض سفن البحرية ، مدارس يتتلمذ فيها الصبية من الصناع . وسبق كولبير موسوعة ديدرو ، إذ احتضن موسوعة للفنون والحرف ، ووصفا مصورا لكل الآلات المعروفة(٦٢). ونشرت أكاديمية العلوم بحوثا عن الآلات والفنون الميكانيكية ، وسجلت « صحيفة العلماء » تقنيات صناعية جديدة . وقد أخذ العجب بيرو — وهو يبنى الواجهة الشرقية للوفر — حين رأى آلة ترفع كتلة من الحجر تزن ١٠٠٫٠٠٠ كيلو (١٠٠٫١ طن) (٦٣). على أن كولبير عارض إدخال الآلات التى ينجم عنها تعطل العمال (٦٤) .

وإذ كان شديد الولع بالنظام والكفاية ، فقد أمم تنظيم الصناعة بوساطة الكوميونات أو الطوائف الصناعية . وتوسع فى هذا التنظيم توسعا أوشك أن يكون خانقا . وراحت مئات من الأوامر تصف أساليب الصناعة ، وحجم المنتجات ولونها ونوعها ، وساعات العمل وظروفه ، وأنشئت اللجان فى جميع قاعات المدن لفحص العيوب فى إنتاج الحرف والمصانع المحلية . وعرضت علانية عينات من الصنعة المعيبة وإلى جوارها اسم الصانع أو المدير . فإذا عاد المخالف إلى مخالفته وبخ فى اجتماع الطائفة فإن عاد ثالثة شد إلى عمود تشهيرا به وتنكيلا(٦٥). وشغل كل ذكر قادر على العمل ، وجند الأيتام من ملاجئهم ليخدموا فى المصانع ، وأخذ المتسولون من الشوارع إلى المصانع ، وقال كولبير للملك فى اغتباط إنه حتى الأطفال يستطيعون الآن كسب بعض المال فى المصانع .

وأخضع العمال لنظام يقرب من النظام العسكرى . فالكسل وعدم الكفاية ، والشتم ، والأحاديث النابية ، والعصيان ، والسكر ، والاختلاف إلى الحانات ، ومعاشرة الخليلات ، وعدم الخشوع فى الكنيسة — كل أولئك يجب أن يعاقبه رب العمل ، وبالجلد أحيانا . أما ساعات العمل فطويلة — وقد تبلغ اثنتى عشرة أو أكثر تتخللها فترات من ثلاثين أو أربعين دقيقة لتناول الطعام . وأما الأجور فضئيلة ، يدفع جزء منها أحيانا سلعاً بحدد

رب العمل أسعارها . وقد حسب فوبان متوسط الأجر اليومى الذى يتقاضاه مهرة الصناع فى المدن الكبيرة فكان اثنى عشر سوا (ثلاثين سنتا) فى اليوم ، ولكن السو الواحد كان يشترى رطلا من الخبز[٦٦] . واختزلت الحكومة عدد أيام الأعياد الدينية التى تعفى العمال من العمل ، وبقى من هذه العطلات ثمانية وثلاثون يوما ، فكان مجموع أيام الراحة فى السنة تسعين[٦٧] . وحرمت الاضرابات ، وحظرت اجتماعات العمال لتحسين أحوالهم ، وقد سجن بعض العمال فى روشفور لأنهم شكوا ضآلة أجورهم . ونمت ثروة طبقة رجال الأعمال ، وارتفعت موارد الدولة ، ولكن لعل حال العمال كانت على عهد لويس الرابع عشر أسوأ منها فى العصور الوسطى[٦٨] . لقد أخضعت فرنسا للنظام الصارم فى الصناعة كما أخضعت فى الحرب .

أما فى مجال التجارة ، فقد آمن كولبير كما آمن معظم رجال الدولة فى جيله بأن اقتصاد الأمة ينبغى أن ينتج أقصى ما يمكن من ثروة واكتفاء ذاتى داخل الأمة ، وأنه ما دام الذهب والفضة عظيمى القيمة بوصفهما وسيطين فى المبادلة ، فلا بد من تنظيم التجارة بحيث تكفل للامة « توازنا تجاريا فى صالحها » أى زيادة فى الصادرات على الواردات ، ومن ثم تدفقا للفضة والذهب إلى البلاد . وبهذه الطريقة وحدها استطاعت فرنسا ، وانجلترا ، والأقاليم المتحدة ـ وكلها لم تكن تربتها تحوى ذهبا ، أن تحصل على حاجاتها ، وأن تمون جيوشها زمن الحرب . وهذه هى « المركنتلية mercantilism » ومع أن بعض الاقتصاديين سخروا منها ، فقد كان وسوف يكون هناك الكثير من المبررات لها فى عصر كثير الحروب . ولقد طبقت عن الأمة نظام التعريفات والترتيبات الحامية التى كانت فى العصور الوسطى تطبق على الكومون . ونمت وحدة الحماية حين حلت الدولة محل الكومون وحدة للانتاج والحكم . إذن فبمقتضى نظرية كولبير يجب أن تكون أجور العمال منخفضة تمكينا لمنتجاتهم من أن تنافس نظيرها فى الأسواق الأجنبية وبذلك تجلب الذهب إلى البلاد ، ويجب أن يكون جزاء أرباب العمل وفيرا

حفزا لهم على الاضطلاع بالمشروعات الصناعية لصنع السلع ، لاسيما الكماليات ، التى لا نفع لها فى الحرب ولكن يمكن تصديرها بتكلفة قليلة لقاء عائد كبير ، ثم يجب أن تكون أسعار الفائدة منخفضة إغراء للمقاولين باقتراض رأس المال . وهكذا نرى طبيعة التنافس التى فطر عليها الإنسان ، فى تلك الغابة التى لا تخضع لقانون والتى تصطرع فيها الدول ، قد كيفت اقتصادها الوطنى وفق فرص الحرب وحاجاتها . فالسلام ليس إلا حربا بوسائل أخرى .

إذن فوظيفة التجارة فى رأى كولبير (بل فى رأى صلى وريشليو وكر وموبل أيضاً) تصدير السلع المصنوعة نظير المعدن النفيس أو الخامات . ومن ثم نراه فى ١٦٦٤ ، ثم فى ١٦٦٧ ، يرفع الرسوم على الواردات التى هددت بأن تنافس فى فرنسا منتجات الصناعات الوطنية المعتبرة ضرورية فى الحرب ، فلما استمر جلب هذه الواردات حظرها بتاتا . وفرض رسوم تصدير باهظة على المواد الضرورية ، ولكنه خفض الضريبة على تصدير الكماليات .

ثم حاول تحرير التجارة الوطنية من المكوس الداخلية . وقد وجد أن التجارة الفرنسية تعترض سيرها المعوقات من الحواجز والتعريفات الاقليمية والبلدية والعزبية . من ذلك أن السلع المنقولة من باريس إلى المانش ، أو من سويسرة إلى باريس ، كانت تدفع عنها مكوس عند ست عشرة نقطة ، ومن أورليان إلى نانت عند ثمان وعشرين . وربما كان هناك مبرر لهذه المكوس يوم كان كل إقليم يطمح إلى الاكتفاء الذاتى ويجاهد فى حماية صناعاته ، وذلك بسبب صعوبات النقل واحتمالات الصراع الإقطاعى أو تنازع الكومونات . أما وقد توحدت فرنسا سياسياً الآن ، فقد غدت هذه المكوس الداخلية عقبة كئوودا فى طريق الاقتصاد القومى وحاول كولبير بمرسوم أصدره فى ١٦٦٤ أن يلغى جميع المكوس الداخلية . ولكن المقاومة كانت عنيدة ، ففى نصف فرنسا استمرت المكوس ، وظل بعضها إلى عهد الثورة الفرنسية وكان أحد أسبابها الصغيرة . وكاد كولبير أن يقضى على

الجهد الذى بذله للتوسع التجارى بإصداره اللوائح المعقدة التى استهدفت إصلاح ما فسد ولكنها عرقلت التجارة إلى حد تعطيلها أحيانا . قال (هو أو أحد نقاده) « أن الحرية روح التجارة ، فعلينا أن نترك الناس ليختاروا أنسب الطرق لهم » .

(Il faut Laisser faire les hommes) (٦٩) ، هنا عبارة قدر لها أن تصنع التاريخ .

وقد جاهد ليفتح مسالك جديدة للنقل الداخلى . فبدأ مجموعة من الطرق الرئيسية الملكية ، وكانت حربية فى هدفها الأول ؛ ولكنها كانت إلى ذلك نعمة على التجارة عامة . كان السفر بالبر لا يزال شاقا بطيئا . مثال ذلك أن مدام دسفينيه استغرقت ثمانية أيام فى رحلة بالمركبة من باريس إلى ضيعتها فى فيتريه ببريتانى وبناء على اقتراح من بيير بول دريكيه ، استخدم كولبير اثنى عشر ألف رجل فى حفر قناة لانجدوك الكبرى ، التى بلغ طولها ١٦٢ ميلا ، وارتفعت أحيانا إلى ٨٣٠ قدما فوق سطح البحر ، ولم يحل عام ١٦٨١ إلا وقد اتصل البحر المتوسط بخليج بسكاى عن طريق الرون والقناة والجارون ، واستطاعت تجارة فرنسا أن تتجنب المرور بالبرتغال وأسبانيا .

وكان كولبير ينظر بين الحسد إلى الهولنديين الذين ملكوا خمسة عشر ألف سفينة تجارية من بين الآلاف العشرين التى تمخر العباب ، على حين لم تملك فرنسا منها سوى ستمائة . ومن ثم بنى شيئاً فشيئاً البحرية الفرنسية حتى بلغت سفنها ٢٧٠ بعد أن كانت لا تتجاوز العشرين ، وأصلح المرافىء وأحواض السفن ، وألزم الرجال فى غير هوادة بالانخراط فى سلك البحرية ، ونظم أو أصلح الشركات التجارية بجزر الهند الغربية ، والشرقية ، وبحر المشرق ، والبحار الشمالية . ومنح هذه الشركات امتيازات الحماية ، ولكن هنا أيضاً عطلتها اللوائح التى فرضها عليها تعطيلا مدمرا . ومع ذلك نمت التجارة الخارجية ، ونافست البضائع الفرنسية المنتجات الهولندية أو الإنجليزية فى البحر الكاريبى ، والشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى . وغدت مارسيليا

أكبر ثغور البحر المتوسط بعد ماأصابها من اضمحلال لقلة السفن الفرنسية. وبعد عشر سنين من الخبرة والتشاور والعمل الشاق أصدر كولبير (١٦٨١) قانونا بحريا للسفن والتجارة الفرنسيتين ، ما لبثت الأمم الأخرى أن طبقته. ثم نظم التأمين على الرحلات التجارية الخطرة وراء البحار. وبارك اشتراك فرنسا فى تجارة الرقيق، ولكنه جاهـــد ليلطف من قسوتها باللوائح الرحيمة(٧٠).

وقد شجع الارتياد الجغرافى وإنشاء المستعمرات ، أملا فى أن يبيعها السلع المصنوعة نظيرخاماتها ، ويستخدمها روافد لبحرية تجارية قد تكون ذات نفع فى الحرب. وكان المستعمرون الفرنسيون منتشرين فعلا فى كندا، وغرب أفريقيا ، وجزر الهند الغربية ، وفى طريقهم إلى داخل مدغشقر ، والهنـــد ، وسيلان. وارتاد كورسيل وفونتناك البحيرات العظمى (١٦٧١ — ٧٣). وأسس كادياك مستعمرة فرنسية كبيرة فيما هو الآن ديترويت. واستكشف لاسال المسسبى فى ١٦٧٢ (بعد أن منح احتكار تجارة الرقيق فى الأقاليم التى يفتحها) ، وهبط فيه فى مركب هزيل ،فوصل إلى خليج المكسيك بعد شهرين من رحلة حافلة بالمغامرات. واستولى على الدلتا وأطلق عليها اسم الملك. فسيطرت فرنسا على واديى السانت لورنس والمسسبى فى قلب أمريكا الشمالية.

جملة القول — ونحن لم نسجل غير جزء من نشاط كولبير ، وقد أغفلنا الحديث عن جهوده فى سبيل العلم والأدب والفن — أن حياة هذا الرجل كانت من أعظم ماسجله التاريخ تفانيا فى العمل وسعة فى الإنتهار. فلم يعرف الناس منذ شارلمان ذهنا واحدا مثل ذهنه صنع من جديد على هذا النحو دولة بهذه العظمة فى نواح بهذه الكثرة. صحيح أن هذه اللوائح والنظم كانت مزعجة ، وقد نفرت الناس من كولبير ، ولكنها شكلت القالب الاقتصادى لفرنسا الحديثة ، ولم يقلل نابليون أكثر من مواصلة بجهود

كولبير ومراجعتها سواء فى الحكم أو القانون . وعرفت فرنسا طوال عشر سنوات من الثراء مالم تعرفه من قبل . ثم انحسر هذا الثراء لعيوب النظام، وأخطاء الملك . وقد احتج كولبير على أسراف الملك والبلاط ، وعلى آفة الحرب التى كانت تنحر فى جسد فرنسا فى شيخوخته ، ولكن التعاريف المالية التى فرضها ، شأنها فى هذا شأن ولع لويس بالسطوة والمجد — هى التى التى أفضت إلى بعض هذه الحروب . وندد غرماء فرنسا البحريون بإقفال موانيها فى وجه بضائعهم . ووقع على كواهل الفلاحين ومهرة الصناع عبء اصلاحات كولبير ، بل أن رجال الأعمال الذين أثرتهم هذه الاصلاحات اتهموه بأن لوائحه عوقت التطور . قال أحدهم للوزير « لقد وجدت العربة مقلوبة على أحد جنبيها ، فقلبتها على الآخر » (٧١) فلما مات (فى سبتمبر ١٦٨٣) رجلا محطما مهزوما ، اضطر ذووه إلى دفن جثمانه ليلا مخافة أن يسبه الناس فى الشوارع(٧٢) .

٥ - الآداب والأخلاق

كان العهد عهد الآداب الصارمة والأخلاق المنحلة . وكان اللباس شعيرة المركز الاجتماعى . فهو فى أوساط القوم غاية فى البساطة — سترة سوداء تغطى فى تواضع القميص والسراويل والسيقان . أما فى الصفوة فهو بهى فاخر ، وهو فى الرجال أبهى وأفخر منه فى النساء . فكانت القبعات كبيرة لينة ، لها حاشية عريضة مزركشة بجديلة من ذهب ، تمال إلى أعلى فى جانب أو ثلاثة جوانب ، وتختال بحزمة من الريش يضمها مشبك معدنى . وحين ارتقى لويس العرش نبذ — ونبذ من بعده البلاط — تلك الباروكات التى أشاع زيها أبوه الأصلع ، فقد كانت تلافيف شعر الملك الشاب الكستنائى أروع وأبهى من أن تخبأ ، ولكن حين بدأ شعره ينحل بعد ١٦٧٠ ، اتخذ الشعر المستعار ، وما لبث أن توج كل رأس - أيا كان طموح حامله — وسواء فى فرنسا أو انجلترة أو ألمانيا ، بمقوس مستعارة مبدرة تنسدل

إلى الكتفين أو ما تحتهما، وتجمل كل الرجال يبدون سواسية إلا الصلعان منهم. أما اللحى فحلقت، وأما الشوارب فاحتفل بها، ومدت القفازات إلى ما فوق الرسغ وزينت، وارتدى الجنسان فراء اليدين في الجو البارد. واستعيض عن طوق الرقبة المكشكش العالي بلفاع حريري يعقد هينا حول العنق. وأخذ يحل محل الصدرة ثوب طويل مزخرف، وزين الفخذان بسراويل « كيلوت » تمتد إلى الركبتين وتقفل بمشابك أو تعقد بأشرطة عندهما، ثم تغطى هـذه الثياب — إلا من أمام — بسترة ملتفة تنتهي أكمامها بأساور واسعة تحف بها حاشية من الدنتللا. واختص القانون النبلاء بتحلية ثيابهم بوشي من الذهب أو بالأحجار الكريمة، ولكن ذوى اليسار من أي طبقة تجاهلوا هذا القانون. أما الجوارب الطويلة فكانت عادة من الحرير، وكان الذكور يلبسون الأحذية الطويلة الرقبة حتى لحفلات الرقص.

أما النساء المهذبات فكانت ثيابهن فضفاضة منسدلة تتفق وفضائلهن. وكانت صداراتهن ذات أربطة ولكن من أمام كما ناشدهن بانورج في كتاب رابليه، فكانت النهود البارزة تثب للعيون البصاصة. وأما التنورة المطوقة والأكمام المنفوخة فولت مع ريشليو. وحفلت الأرواب بالتطريز والألوان المشرقة، وكست الأحذية العالية المبهجة الأقدام المتعبة، وربط الشعر بالأشرطة، ورصع، وعطر، وجعد، في تأنق. وظهرت أولى مجلات الأزياء في ١٦٧٢.

أما آداب السلوك فكان طابعها الجلال والفخامة، وإن بقيت جلافات كثيرة تحت أبهة القبعة المرفوعة للتحية والثوب الجرار. فكان الرجال يبصقون على أرض الحجرة، ويبولون على سلم اللوفر[٧٣] وقد ينقلب المزاح وحشيا أو بذيئا. ولكن الحديث كان رشيقا مهذبا، ولو دار حول الفسيولوجيا والجنس. وكان الرجال يأخذون عن النساء آداب السلوك

والحديث ، فيتكلمون فى عبارة واضحة سليمة ، ويتنكبون الحشو والحذلقة ، ويتناولون جميع الموضوعات مهما اشتد عمقها بمرح خفيف روحا وعبارة . وكان الاحتداد فى الجدل من سوء الأدب . وأما آداب المائدة فأخذت تتحسن . كان الملك يأكل بأصابعه طوال حياته ، ولكن استعمال الشوك كان قد راج . وشاع استعمال نحو ١٦٦٠ فوطة للمائدة . ولم يعد من المستساغ أن يمسح الضيوف أصابعهم فى غطاء المائدة .

أما الفضائل الإجتماعية فلم تكن ممتازة فى هذا العصر — عصر الاتيكيت والبروتوكول . وتضاءل الإحسان بازدياد ثراء الطبقات العليا . وكانت الأخلاق أسلم ما تكون فى الطبقات الوسطى حيث يسر الشعور بالأمن حسن السلوك ، وحفزته الرغبة فى الارتقاء . وكان المثل الأعلى عند جميع الطبقات هو L'honnête homme وليس المقصود بالعبارة الرجل الأمين ، بل الرجل الشريف ، الذى يجمع بين كرم النشأة والعادات وبين حسن السلوك . أما الأمانة فقلما كان يتوقعها القوم من إنسان . فقد استشرت الرشوة فى المناصب على الرغم من لوائح كولبير ونظام الجاسوسيه الملكى ، وشجع عليها بيع الوظائف الحكومية مصدرا من مصادر إيراد الدولة . وانبعثت الجريمة من جشع الأغنياء ، وفقر الفقراء ، والتفجرات الغاضبة فى جميع الطبقات . وآية ذلك أن من السيدات العريقات النسب من أفدن من خدمات كاترين مونفوازان أو المركيزة برانفلييه ، وكلتاهما حذقت تحضير السموم الطويلة المفعول ، وشاع القتل بالسم شيوعا اقتضى إنشاء محاكم خاصة لتفصل فى قضاياه(٧٤) . أما كاترين مونفوازان فقد مارست الطب ، والتوليد ، والسحر ، وساعدت كاهنا مرتداً فى ترتيل « القداس الأسود » التماسا لمعونة الشيطان ، وكانت تدبر اجهاض النساء وتبيع السموم وأشربة الغرام . ومن زبائنها أوليمب مانتشيني ، ابنة أخت مازاران ، والكونتيسة جرامون ، ومدام دمونتيسبان خليلة الملك وفى ١٦٧٩ فحصت لجنة نشاط «لافوازان» ووجدت الأدلة على اشتراك العدد العديد من كبار أفراد الحاشية ، الأمر

الذى حدا بلويس إلى حظر إذاعة التحقيق(٧٥) . وأحرقت لافوازان حية (١٦٨٠) .

ويدخل فى أخلاق الأفراد انحرافاتهم العادية . وقد نص القانون على عقاب اللواط بالإعدام ، وما كانت أمة تتخذ أهبتها للحرب ، وتدفع الإعانات على الأطفال ، لتسمح بانحراف الغرائز الجنسية عن جادة الإنسان ، ولكن مطاردة أمثال هؤلاء المنحرفين كانت عسيرة فى وقت كان فيه شقيق الملك لوطيا يشار إليه بالبنان ، يأنف القوم من ازدرائه ولكنهم يرونه فوق القانون . أما الحب بين الجنسين فقد تقبلوه على أنه تخفف رومانسى من أعباء الزواج ، لامبرر يدعو الزواج . وقد رأوا أن اقتناء الثروة ، أو حمايتها ، أو نقلها ، أهم فى الزواج من محاولة الإبقاء على عواطف الساعة العابرة طوال العمر ولما كانت معظم زيجات الطبقة الارستقراطية لاتعدو أن تكون ترتيبات لتنظيم الملكية ، فان المجتمع الفرنسى أغضى عن التسرى ، فكان لكل قادر تقريبا خليلة ، وكاد الرجال يفاخرون بغرامياتهم مفاخرتهم بمعاركهم الحربية . أما المرأة فتشعر أنها مهجورة منبوذة إذا لم يلاحقها من الرجال سوى زوجها ، وكان بعض الخائنين من الأزواج يغضون عن خيانات زوجاتهن . يقول شخص فى مسرحية لموليير : « أفى الدنيا كلها بلد آخر يبلغ فيه صبر الأزواج مبلغه فى هذا البلد(٧٦) ؟ » فى هذا المناخ الكلبى نشأت أمثال لاروشفوكو وكان القوم يحتقرون البغاء إذا تجرد من الكياسة ، ولكن امرأة كنينون دلانكلو ، جملته بالأدب والظرف ، استطاعت أن تحظى بشهرة تدانى شهرة الملك .

كان أبوها نبيلا حر الفكر ، ومبارزا بارعا . وكانت أمها شديدة الحرص على الفضيلة ، ولكنها (إذا صدقنا ابنتها) « مجردة من مشاعر الحس . . . وقد ولدت ثلاثة أطفال وهى لاتكاد تلحظ الأمر(٧٧) » . ومع أن نينون لم يتح لها التعليم المنهجى ، فإنها التقطت من المعارف قدرا

لايستهان به ، فتعلمت الكلام بالإيطالية والأسبانية ، ربما لتستعين بهما في هذه التجارة الدوليه ، وقرأت مونتيني وشارون ، بل قرأت ديكارت ، وأخذت عن أبيها تشككه . وقدجملت مناقشتها حول الدين فيفترة لاحقة مدام دسفينييه ترتعد[٧٨] . قالت نينون « إذا احتاج إنسان إلى دين ليسلك في هذه الدنيا كما ينبغي ، فتلك علامة إما على ضيق عقله ، أو على فساد قلبه» [٧٩] . وكان من الجائز أن تخلص من ذلك إلى ضرورة الدين لجميع الناس تقريبا ، ولكنها بدلا من هذا انزلقت إلى البغاء وهي لاتتجاوز الخامسة عشرة (١٦٣٥) . وقالت في استهتار « إن الحب عاطفة لاتنطوي على أي التزام خلقي[٨٠] » فلما خلعت العذار وجهرت بفوضاها الجنسية ، أمرت آن النمساوية بحبسها في دير للنساء . وروى أنها فتنت راهبات الدير بظرفها وحيويتها ، واستمتعت بحبسها كأنها فرصة للاستجمام . وفي ١٦٥٧ أفرج عنها بأمر الملك .

لقد كان فيها ما هو أكثر كثيراً من مجرد الحظية ، حتى إنها سرعان ما ضمت إلى لفيف المعجبين بها عدداً كبيراً من أبرز الرجال في فرنسا ، ومنهم نفر من الحاشية[٨١] ، من الملحن لولي إلى كونديه العظيم ذاته . وكانت تجيد العزف على الهاربسيكورد ، وتحسن الغناء ، يقصدها لولي ليجرب ألحانه الجديدة . وقد حوت قائمتها ثلاثة أجيال من آل سفينيه ـ زوج كاتبة الرسائل اللطيفة ، وابنها ، وحفيدها[٨٢] . وأقبل الرجال من خارج فرنسا يلتمسون ودها . قالت « لم يتشاجر على عشاقي قط ، فقد كانوا يثقون في قلبي ، وكان كل منهم ينتظر دوره[٨٣] » .

وفي ١٦٥٧ افتتحت صالونا ، ودعت إليه رجال الأدب والموسيقى والفن والسياسة والحرب ، وأحيانا زوجاتهم ، وأذهلت باريس بما أبدت من ذكاء لا يقل عن ذكاء أي امرأة في جيلها أو ذكاء أكثر الرجال ، فلقد طالعهم فيها عقل مينيرفا من خلف وجه فينوس . يقول فيها قاض صارم هو سان ـ سيمون :

« كان من المفيد لإنسان أن تستقبله في صالونها نظراً إلى الاتصالات التي يكونها من هذا الطريق . ولم يدر في صالونها أي لعب للقمار ، ولا ضحك عال ، ولا مجادلات ، ولا حديث في الدين أو السياسة ، بل دار الكثير من الحديث الذكي الرشيق .. وأنباء الغرام ، ولكن دون فضح أو تشهير. كان كله حديثاً مهذباً خفيفاً محسوباً ، وكانت هي نفسها تغذو الحديث بذكائها وعلمها الغزير (٨٤) » .

وأخيراً أثارت فضول الملك نفسه ، فطلب إلى مدام دمانتينون أن تدعوها إلى القصر ، واستمع إليها من وراء ستار ، فافتتن بها ، وكشف لها عن وجوده وقدم نفسه إليها . وكانت في هذه الفترة (١٦٧٧ ؟) قد كسبت ما يشبه الاحترام ، وخلعت عليها أمانتها البسيطة وأياديها الكثيرة سمعة أشرف ، فكان الرجال يودعون لديها المبالغ الكبيرة مطمئنين ، واثقين دائماً من إمكان استردادها حين يشاءون ، ولاحظت باريس كيف كانت نينون تزور الشاعر سكارون كل يوم تقريباً حين أقعده الشلل ، وكيف كانت تأتيه بأطايب الطعام التي يعجز عن دفع ثمنها .

ولقد عمرت بعد أصدقائها كلهم تقريباً ، حتى سانت إفريمون التسميني ، الذي كانت رسائله التي يبعث بها من انجلترا عزاء لشيخوختها . كتبت له تقول : أحياناً أضيق بعمل نفس الأشياء دائماً ، ويعجبني السويسريون الذين يلقون بأنفسهم في النهر لهذا السبب (٨٥) . » وكانت تضيق بالتجاعيد . « إذا كان لزاماً أن يبتلي الله المرأة بالغضون ، فأولى به على الأقل أن يضعها على باطن قدمها (٨٦) » . فلما دنت منيتها ، تنافس اليسوعيون والجانسنيون على شرف هدايتها للإيمان ، فاستسلمت لهم في لطف ، وماتت في أحضان الكنيسة (١٧٠٥) (٨٧) . ولم تترك في وصيتها سوى عشرة إيكوات لجنازتها ، حتى تكون أبسط ما يستطاع ، ولكن « أطلب في تواضع إلى المسيو آرويه » — وهو وكيلها — « أن يسمح لي بأن أترك لابنه ، الذي

يتلقى العلم عند اليسوعيين ، ألف فرنك ليشترى بها كتبا(٨٨) » . واشترى الابن الكتب ، وقرأها ، وأصبح فولتير .

إن أروع السحر الذى توج هامة المجتمع الفرنسى هو أن حافز الجنس امتد إلى الذهن ، وأن النساء تنبهن ليضفن الذكاء إلى الجمال . وأن الرجال روضهن النساء على السلوك المؤدب ، والذوق السليم ، والحديث المهذب ، وفى هذا كان القرن (الممتد من ١٦٦٠ إلى ١٧٦٠) فى فرنسا أوج الحضارة . فى ذلك المجتمع كثرت النساء الذكيات كثرة لم تعهد من قبل ، فإذا جمعن إلى الذكاء فتنة الوجه أو الجسد ، أو سحر الاهتمام الناشىء عن الرقة واللطف ، أصبحن قوة تهذيب عارمة . وكانت الصالونات تدرب الرجال على الحساسية لرقة الأنثى ، والنساء على التجاوب مع عقل الذكر . وفى هذه اللقاءات طور فن الحديث حتى بلغ شأوا لم يبلغه من قبل ولا من بعد — فن تبادل الأفكار دون مغالاة أو خصومة ، بل فى مجاملة ، وتسامح ، ووضوح ، وخفة ، ورشاقة . ولعل هذا الفن كان أقرب إلى الكمال فى عهد لويس الرابع عشر منه فى أيام فولتير — أقل ألمعية وظرفا ، ولكن أكثر مادة ومودة . كتبت مدام دسفينيه إلى ابنتها تقول « بعد الغداء مضينا إلى السمر فى ألطف غابات الدنيا ، وظللنا هناك إلى السادسة ، مشتغلين بمختلف ألوان الحديث ، البالغ العطف ، والرقة ، واللطف ، والكرم ، مما مس شغاف قلبي(٨٩) » وقد عزا كثير من الرجال الفضل فى تسعة أعشار تعليمهم إلى مثل هذا التبادل والاتصال الاجتماعى بين الجنسين (٩٠) .

وفى الغرفة الزرقاء بالأوتيل درامبوييه كان أول الصالونات يسطع ببهائه الأخير . أمه كونديه وإن لم يلمع فيه ، وأمه كورنيى ، ولاروشفوكو ، والسيدتان لافاييت ودسفينيه ، ودوقة لونجفيل ، والجراند مدموازيل . هناك أرست النساء المتحذلقات les femmes précieuses قواعد السلوك الدقيق والحديث المصقول . ولكن حرب الفروند قطعت هذه اللقاءات ، ورحلت مدام درامبوييه إلى الريف ، ومع أن « أوتيلها » (قصرها) فتح بعد

ذلك أبوابه ثانية لعبقرى فرنسا (موليير) ، فإن باكورة تمثيلياته (المتحذلقات المضحكات) Les Précieuses ridicules (١٦٥٩) كانت ضربة قاضية عليه . وطوى أول الصالونات المشهورة بموت مؤسسته فى ١٦٦٥ .

وواصلت هذا التقليد صالونات أخرى ، فى بيوت السيدات دلا سابلبير ، ودلامبير ، ودسكوديرى — وآخرهن أشهر كتاب الرواية فى هذا العصر ، وأولاهن امرأة جذبت الرجال بحسنها رغم حبها للفيزياء ، والفلك ، والرياضة ، والفلسفة . فى صالونات كهذه زكت النساء العالمات femmes savantes اللائى أثرن سخرية موليير فى ١٦٧٢ . ولكن كل هجاء ليس إلا نصف الحقيقة ، ولعل موليير فى لحظاته الفلسفية كان يقر بحق النساء فى أن يشاركن فى حياة جيلهن الفكرية . فنساء فرنسا ، أكثر حتى من كتابها وفنانيها ، هن تاج حضارتها ، والمفخرة العظمى لتاريخها .

٦ - بلاط الملك

لقد عاون الملك وبلاطه على تحضير فرنسا . وفى ١٦٦٤ كان البلاط يضم نحو ستمائة شخص : الأسرة المالكة ، وكبار النبلاء ، والمبعوثين الأجانب ، والخدم والحشم . وقد زاد العدد فى أوج اكتمال فرساى إلى عشرة آلاف من الأنفس(٩١) ، ولكن هذا العدد شمل الأعيان الذين اختلفوا إلى القصر بين الحين والحين ، وجميع المرفهين والأتباع ، والفنانين والمؤلفين الذين وقع عليهم اختيار الملك ليكافئهم . وأصبحت الدعوة إلى البلاط شهوة لا تفوقها غير شهوة الطعام والجنس ، لا بل إن قضاء يوم واحد فيه كان نشوة لا تنسى ، جديرة بأن يبذل فى سبيلها نصف مدخرات العمر .

وبعض السر فى بهاء البلاط كان فى الأثاث المترف الذى ازدانت به الغرف ، وبعضه فى لباس الحاشية ، وبعضه فى حفلات الترفيه البالغة الفخامة ، وبعضه فى جمال النساء وصيت الرجال الذين اجتذبهم بريق المال ، والشهرة ، والسلطان . ومن النساء الشهيرات — كالسيدتين دسفينيه ودلافاييت — من لم يختلفن

إلى البلاط إلا نادرا لانحيازهن إلى قضية الفروند ، ولـكن بقى منهن عـدد يكفى لإبهاج ملك بالغ الحساسية لمفاتن المرأة . وتبدو المرأة فى اللوحات التى وصلت إلينا من هذا العصر على شيء من البدانة ، يبرز لحمها من صدارها ، ولـكن من الواضح أن الرجال كان يعجبهم دفء الشحم واللحم فيمن يعشقون من النساء .

أما أخلاقيات البلاط فـكانت الزنا المحتشم ، والإسراف فى اللباس والقمار ، والدسائس العنيفة جريا وراء الصيت والمنصب ، وهذا كله يخطو على إيقاع من السلوك الخارجى الدمث ، والآداب الرشيقة ، والمرح الإلزامى . وضرب الملك المثل فى بدعة اللباس الغالى ، لا سيما فى استقبالات السفراء ، فتراه وهو يستقبل مبعوثى سيام يرتدى عباءة موشاة بالذهب ومرصعة الأطراف بالماس ، بلغت تـكاليفها ١٢،٥٠٠،٠٠٠ جنيه فرنسى (٩٢) ، ومثل هـذا المظهر كان جزءا من سيكولوجية الحـكم . وأفنى الأشراف ونساؤهم نصف دخل ضياعهم فى الثياب والخدم والأثاث ، وكان على أقلهم شأنا أن يستخدم أحد عشر خادما ومركبتين ، أما الأثرياء فـكان لهم من الاتباع خمسة وسبعون فى بيوتهم ، ومن الخيل أربعون فى مرابطهم (٩٣) . وفقد الزنا سحره بعد أن لم يعد محظورا ، فغدا لعب الورق للمقامرة أهم ضروب الترفيه فى البلاط . وهنا أيضا كان لويس القدوة لحاشيته ، فقامر بمبالغ كبيرة ، تستحثه إلى ذلك خليلته مونتسبان ، التى خسرت وكسبت أربعة ملايين من الفرنـكات فى لعب ليلة واحدة (٩٤) . وسرى هـذا الهوس من البلاط إلى الشعب . كتب لابروبير يقول : « إن الألوف يخربون بيوتهم بالقمار ، وهو لعبة رهيبة ... ينوى لاعبها القضاء المبرم على غريمه ، وينتشى بشهوة الـكسب (٩٥) » .

وقد أفضى التنافس على الحظوة عند الملك ، أو على وظيفة مجزية ، أو على مكان فى الفراش الملـكى ، إلى جـو من الشبهات ، والافتراءات ، وتبادل الخصومات الحادة . قال لويس « فى كل مرة أعين إنسانا فى وظيفة

شافرة ، أسخط مائة شخص ، وأجعل شخصاً ناكرا للجميل(٩٦) ». وكان القوم يتشاحنون على أمكنة الصدارة فى المائدة ، أو على القيام على خدمة الملك ، وحتى سان-سيمون أقلقه الخوف من أن يتقدمه دوق لكسمبور خمس خطوات فى أحد المواكب ، وقد اضطر لويس إلى نفى ثلاثة أدواق من البلاط لأنهم أبوا أن يقدموا على أنفسهم أمراء أجانب . وكان الملك شديد الاحتفال بالبروتوكول ، وقد عبس مرة حين وجد على مائدة الغداء سيدة عاطلا من اللقب تتقدم دوقة فى مجلسها(٩٧) . ولا ريب فى أن ضربا من الترتيب المقرر كان ضروريا لمنع ستمائة من الأنفس المغرورة المزهوة بأسباب التشريف من أن يدوس بعضها على أقدام بعض ، وقد أثنى الزوار على ذلك المظهر المتسق الذى بدت فيه الحاشية الضخمة . ومن قصور الملك ، واستقبالاته ، وحفلات ترفيهه ، سرى دستور الإتيكيت ، ومعايير السلوك والذوق ، إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وأصبحت هذه كلها جزءا من التراث الأوربى .

وأراد الملك أن يمنع الملل من أن يتطرق إلى نفوس هؤلاء النبلاء والنبيلات ، ذلك الملل الذى قد يحمل البعض على قتل الملك ، فنافس الفنانين على مختلف أنواعهم بإعداد ألوان الترفيه — من مباريات بين الفرسان ، ورحلات صيد ، ومباريات تنس وبلياردو ، وجماعات سباحة أو نزهة فى الزوارق ، وحفلات غداء أو عشاء ، ورقص وحفلات راقصة ، وحفلات تنكرية ، ومراقص باليه ، وأوبرات ، وحفلات موسيقية ، وتمثيليات . وبدت فرساى وكأنها جنة الله فى أرضه حين كان الملك يتقدم حاشيته إلى الزوارق الراسية فى القناة ، والأصوات والآلات تشدو بالموسيقى ، والمشاعل تعين القمر والنجوم على إضاءة المشهد . وهل فى الدنيا أفخم ولا أكثم للأنفاس من حفلات الرقص الرسمية ، حين تعكس قاعة المرايا فى مراياها الهائلة رشاقة الرجال والنساء وخفتهم وهم يخطرون فى رقصات فخمة تحت آلاف الأضواء ؟ لقد أراد الملك أن يحتفل بمولد ابنه البكر ، الدوفان ،

(١٦٦٢) فأقام حفلة باليه فى الميدان المنبسط أمام التويلرى ، حضرها خمسة عشر ألف شخص . وقد دمر كومون ١٨٧١ القصر ، ولـكن موقع هذا المهرجان الأشهر ما زال يسمى قصر كاروزل Carrousel (أى ساحة الرقص الدائرى السريع) .

لقد أحب لويس الرقص ، وأشاد به « واحداً من أفضل وأهم الرياضات لتدريب الجسم[٩٨] » ، وأسس فى باريس (١٦٦١) الأكاديمية الملكية للرقص . وكان يشارك بشخصه فى رقصات الباليه ويحذو النبلاء حذوه . وشغل الملحنون فى بلاطه بإعداد الموسيقى لحفلات الرقص والباليه ، وهناك تطورت المتتالية التى حذق استخدامها بيرسيل فى إنجلتره وآل باخ فى ألمانيا . ولم يبلغ الرقص صورا رشيقة متسقة كهذه منذ أيام روما الإمبراطورية .

وفى ١٦٤٥ استقدم مازاران المغنين الإيطاليين ليرسوا أساس الأوبرا فى باريس . وقطع موت الـكردينال هذا الاستهلال ، ولـكن حين شب الملك أنشأ أكاديمية الأوبرا (١٦٦٩) ، وكاف بيير بيران بتقديم أوبرات فى عدة مدن فرنسية ، ابتداء من باريس فى ١٦٧١ . فلما أفلس بيران من جراء إنفاقه المسرف على المناظر والالآت ، نقل لويس « امتياز أكاديميات الموسيقى » إلى جان باتيست لولى Lully ، فما لبث هذا الرجل أن رقص البلاط بأسره على أنغامه .

وكان هو أيضا هبة من هبات ايطاليا . فقد أتى به الشفالييه جيز صبيا فلاحا فى السابعة من فلورنسة إلى فرنسا فى ١٦٤٦ ، « هدية » لابنة أخته ، الجراند مدموازيل ، التى استخـــدمته فى مطبخها مساعداً صغيراً (Sonmarmiton) . وهناك ضايق زملاءه الخـدم بالتمرين على الـكمان ، ولـكن المدموازيل تبينت موهبته وأتته بمعلم . وما لبث أن عزف فى فرقة الموسيقى الملـكية ذات الأربع والعشرين كانا . واستلطفه لويس ، فأعطاه

مجموعة صغيرة من الموسيقيين يقودها . وبفضل هذا الأوركسترا الوترى الصغير تعلم القيادة والتلحين — لموسيقى الرقص ، والأغانى ، والكمان المنفرد والكنتاتات ، والموسيقى الكنسية ، ولثلاثين لحنا أوركستريا للباليه ، وعشرين أوبرا . وقد صادق موليير ، وتعاون معه فى عدة باليهات ، ولحن فواصل موسيقية قصيرة لبعض تمثيليات موليير .

وكان نجاحه رجل بلاط يضارع انتصاراته موسيقيا . ففى ١٦٧٢ ، وفق بنفوذ مدام دمونتسبان فى الحصول على احتكار الأوبرا فى باريس . وقد وجد فى فيليب كينو Outnault مؤلفا لكلمات الأوبرا وشاعرا أيضا . فأخرجا معا سلسلة من الأوبرات كانت ثورة فى الموسيقى الفرنسية . ولم يقتصر نجاح هذه الحفلات على الترفيه على البلاط فى فرساى ، بل إنها اجتذبت صفوة الباريسيين إلى المسرح الذى بنى من قبل لولى فى شارع سانت — أونوريه ، واجتذبتهم فى كثرة جعلت الشوارع تختنق بالمركبات ، فاضطر الرواد فى كثير من الأحيان إلى الخروج منها والسير على الأقدام ، وفى الوحل غالبا ، خشية أن يفوتهم الفصل الأول ، وقد استهجن بوالو الأوبرا زاعما أنها ضرب من التخنث المضعف(٩٩) ، ولكن الملك منح أكاديمية الموسيقى مرسوما (١٦٧٢) ، وأذن لـ « سادة والسيدات بالغناء فى عروض الأكاديمية المذكورة دون أن يكون فى ذلك غض » من أقدارهم(١٠٠) . ورفع لويس لولى إلى مقام النبالة سكرتيراً للملك ، وشكا سكرتيرون آخرون من أن الوظيفة أرفع من أن تخلع على موسيقى ، ولكن لويس قال للولى ، « لقد شرفتهم م لا أنت بوضعى عبقريا بين زمرتهم(١٠١) » . وحالف التوفيق لولى فى كل شىء حتى ١٦٨٧ ، حين ضرب قدمه صدفة — وهو يقود فرقته — بعصا القيادة ، وأساء طبيب دجال علاج جرحه ، فتعفن ، ومات المؤلف الفوار فى الثامنه والأربعين . ومازالت الأوبرا الفرنسية تشعر بتأثيره إلى اليوم .

بقى اسم آخر خلفته موسيقى ذلك العهـــد الفخم ، وهو اسم أسرة كوبران ، التى كانت مثلا آخر على الوراثة فى الفن ، والتى أنجبت مؤلفين لفرنسا طوال قرنين من الزمان ، واحتكرت من ١٦٥٠ إلى ١٨٢٦ الأرغن العظيم فى كنيسة سان جرفيه ، وقد شغل فرنسوا كوبران « الكبير » ذلك المنصب ثمانية وعشرين عاماً ، كذلك كان « عازف أرغن الملك » فى كنيسة الملك الصغيرة بفرساى ، وكان أشهر عازفى الهاربسيكورد فى ذلك « القرن العظيم » . وقد درس يوهان سبستيان باخ ألحانه التى وضعها لهذه الآلة دراسة دقيقة ، وأثر البحث الذى وضعه باسم L,art de toucher le clavecin (وهو الاسم الفرنسى لمقابله الانجليزى Clavichord) فى بحث ذلك الألمانى العظيم المسمى « الكلافير المعتدل » ... ترى ؛ أكانت للموسيقى فى دم آل كوبران ، أم فى بيتهم فقط ، لعل الوراثة الاجتماعية ، لا البيولوجية ، هى التى تصنع الحضارة .

٧ — نساء الملك

لم يكن لويس بالرجل الخليع الفاجر ، وعلينا أن نذكر دائماً ونحن فى معرض الحديث عن الملوك حتى إلى قرننا هـذا ، أن العرف اقتضاهم أن يضحوا بميولهم الشخصية ليعقدوا زيجات تجلب منفعة سياسية للدولة ، ومن ثم كان المجتمع — والكنيسة أحياناً كثيرة — يغضيان إذا التمس الملك متعة الجنس وشاعرية الغرام بعيـداً عن الرباط الزوجى . ولو كان الأمر بيد لويس لبدأ حياته بزواج حب ، فقد استهواه جمال مارى مانشينى ابنة أخت مازاران ، وظرفها ، فرجا أمه والكردينال أن يسمحا له بالزواج منها (١٦٥٨) ، ولكن آن النساوية وبخته لأنه سمح للعاطفة بأن تتدخل فى شئون السياسة ، أما مازاران فقد أبعد مارى آسفاً لتتزوج رجلا من آل كولونا ، ثم راح الوزير الداهية يستخدم نفوذه الخفى ليحصل على

عروس للويس هى ماريا تريزا ، ابنة فيليب الرابع . أفليس من الجائز ، إذا انقطع نسل الذكور فى الملوك الأسبان ، أن تأتى هذه الأميرة بأسبانيا كلها مهراً لملك فرنسا ؟ وهكذا زف لويس إلى ماريا فى ١٦٦٠ ، وكلاهما فى الثانية والعشرين ، فى كل البهاء والبذخ الذى سحر دافعى الضرائب .

أما مارى تريز فكانت امرأة متكبرة ، ورعة فاضلة ، وقد أمات قدوتها ونفوذها على إصلاح أخلاقيات البلاط ، على الأقل بين حاشيتها ، ولكن النظام الصارم الذى نشئت عليه جعلها مكتئبة متبلدة ، وكانت شهيتها القوية تزيدها حجماً فى الوقت الذى ترمق فيه حسناوات باريس زوجها الوسيم بنظرات الغرام وقد أنجبت له ستة أطفال ، لم يتجاوز الطفولة منهم غير واحد هو الدوفن ، وكان من سوء طالعها أن يكتشف لويس ، فى نفس سنة زواجهما ، فى زوجة أخيه هنريتا آن ، جميع المفاتن التى تجمل الأنوثة الغضة .

أما هنريتا هذه فهى ابنه تشارلز الأول ملك انجلترة ، وكانت أمها هنريتا ماريا (ابنة هنرى الرابع ملك فرنسا) قد قاسمت زوجها مأساة الحرب الأهلية ، فلما دنا جيش البرلمان من مقر قيادة تشارلز فى أكسفورد ، فرت ملكة إنجلترة إلى أكستر ، وهناك ، حين اشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت ، ولدت (١٦٤٤) « أميرة صغيرة جميلة » . وراح أعوان البرلمان يتعقبون الأم المريضة ، ففرت ثانية ، وتسللت إلى ساحل البحر ، حيث استقلت سفينة هولندية إلى فرنسا بعد أن أفلتت بالجهد من المدافع الانجليزية . أما الطفلة التى تركتها أمها فى رعاية الليدى آن دولكيت ، فقد عاشت عامين فى مخبئها بانجلترة قبل أن تهرب هى أيضاً عبر المانش فى

(١) روت مدام دمونتسبان . التى لم تخل من تحيز فى مذكراتها ، كيف أهدى أمير أفريقى قزماً زنجياً لمارى ، وكيف ولدت مارى « بنتاً جميلة صحيحة الجسم ، سوداء من قمة رأسها إلى أخمص قدمها » وعزت الملكة هذا اللون إلى خوفها من القزم خلال حملها ، وأذاعت « ماريته » باريس أن الفتاة ماتت عقب ولادتها ، ولكن يبدو أنها عاشت ، وربتها أسرة ملونه ، وأصبحت راهبة . (١٠٢)

أمان ، وما لبثت أن أكرهتها الظروف على معاناة التقلبات التى جاءت بها حرب الفروند . ففى يناير ١٦٤٠ شاركت أمها وآن النمساوية فى هروبهما من باريس المملوءة بالمتاريس إلى سان — جرمان ، وفى ذلك الشهر جاء نبأ — أخفى عنها ولا ريب حيناً — بأن أباها ضرب عنقه أنصار كرومويل « ذوو الرءوس المستديرة » المنتصرون فلما خفت حدة الفروند ، قامت أم الأميرة هنرييتا على تربيتها فى جو من الدعة والتقوى ، وعاشت كلتاهما حتى رأتا تشارلز الثانى يرد إلى العرش الإنجليزى (١٦٦٠) ، وبعد عام حين بلغت السادسة عشرة ، تزوجت شقيق لويس الرابع عشر ، « مسيو » فيليب دوق أورليان ، وأصبحت تلقب بالـ « مدام » .

أما « المسيو » فكان رجلا قصيراً مكور البطن ، يلبس حذاءاً عالياً ، ولوعاً بحلى الأناث ، وأجساد الذكور ، شجاعا كأى فارس فى ساحة الوغى ، ولكنه مزوق ، معطر ، موشح ، مرصع بالجواهر كأشد النساء غروراً ، فى هذا البلد الذى كان أكثر بلاد الله غروراً . وقد أحزن هنرييتا وأخجلها أن ترى زوجها يؤثر على صحبتها صحبة شفالييه اللورين ، وشفالييه شاتيون . ووقع فى غرامها كل إنسان تقريباً ، لا لجمالها الهش فحسب — مع أنها عدت أجمل مخلوق فى البلاط[١٠٣] — ، بل لما هو أكثر من ذلك ، لروحها الرقيقة اللطيفة ، وحيويتها ومرحها الشبيهين بحيوية الأطفال ومرحهم . وللنسيم النضر المنعش الذى حملته أينما ذهبت ، وقد وصفها راسين بـ « الحكم فى كل جميل[١٠٤] » — وكان واحداً من كثيرين ممن ألهمتهم ومدت لهم يد المعونة .

ووجدها لويس الرابع عشر لأول وهلة أضعف وأنحف من أن تسيغها فتوته وذوقه ، ولكنه حين أحس آخر الأمر بما فى خلقها من « حلاوة وضياء »[١٠٥] استشعر المتعة المتزايدة فى وجودها ، وأبهجه أن يراقصها ، ويمازحها ، ويدبر الألعاب معها ، ويصاحبها فى المشى فى البستان فى فونتنبلو .

أو ركوب الزورق فى القناة ، حتى زعمت باريس كلها أنها غدت خليلته ، ورأت فى هذا انتقاما عادلا من « ملك سدوم » [١٠٦] ولكن أغلب الظن أن باريس أخطأت الحكم . فلقد أحبها لويس واشتهاها من جانبه ، أما هى ، التى بذلت إخلاصها فى الحب لأخويها تشارلز وجيمس ، فقد قبلت الملك أخاً آخر ، واتخذت من ربط الثلاثة جميعاً برباط التحالف أو المودة رسالة لها فى الحياة .

ففى سنة ١٦٧٠ ، وبنـــاء على طلب لويس ، عبرت المانش إلى انجلترة لتقنع تشارلز بالانضمام إلى فرنسا ضـد هولندة ، لا بل لتحضه على الجهر بكثلكته . وقد وعد بهذا فى معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) ، وعادت هنرييتا إلى فرنسا محملة بالهدايا مكللة بالنصر ، ولكن مامضت أيام على وصولها إلى قصرها فى سان — كلو حتى أصابها مرض شديد ، فظنت أنها سممت ، وكذلك اعتقدت باريس كلها ، وهرع الملك والملكة إلى فراشها . وكذلك فعل « المسيو » النادم ، وكونديه ، وتورين ، ومدام دى لافاييت ، ومدموازيل دمونبانسييه ، وأتى بوسويه ليصلى معها ، وأخيراً فى ٣٠ يونيو ، انتهى عذابها ، وكشف فحص جثتها عن أن موتها لم يكن بالسم بل بالالتهاب البريتونى [١٠٧] ، وشيعها لويس بمشهد لا يشيع بمثله غير أصحاب الرءوس المتوجة ، وألقى بوسويه فوق جثمانها فى كنيسة سان — دنى عظة جنائزية رجعت أصداءها القرون .

وهنرييتا هى التى أعطت للملك أولى خليلاته الأكثر علانية . وقد ولدت هذه المرأة ، واسمها لويز دى لا فاليير ، فى مدينة تور عام ١٦٤٤ ، وتلقت فى إيمان مستسلم ذلك التعليم الدينى الذى قامت عليه أمها وخالها الكاهن ، الذى أصبح فيما بعد أسقفا لنانت ، وما أن بلغت سن التناول الأول حتى مات أبوها ، فتزوجت أمها من جديد ، وكان الزوج رئيساً لخدم جاستون دوق أورليان ، فحصل للويز على وظيفه وصيفة لبنات الدوق ، فلما

مات جاستون ، وتزوج ابن أخيه وخليفته فيليب ، أخذ لويز معه وصيفة شرف لهنريتا (١٦٦١) . وبهذا الوصف كانت ترى الملك مراراً كثيرة . وبهرها بهاؤه وسلطانه وسحر شخصيته ، فوقعت في غرامه كما وقعت عشرات النساء ، ولكنها لم تحلم بالتحدث إليه يوماً .

كان جمالها جمال الخلق أكثر منه جمال الجسد ، كانت رقيقة الصحة وبها عرج خفيف ، « وليس لها صدر يؤبه به » على حد قول أحد ناقديها ، وكانت نحيفة إلى حد مخيف ، ولكن ضعفها هذا كان في ذاته فتنة ، لأنه أورثها تواضعاً ودماثة في الطبع أسر الجميع حتى النساء ، ولفتت هنريتا نظر الملك إلى لويز لتصرف الناس عن الشائعات التي أرجفت بأنها هي ذاتها خليلته ، وأفلحت الخطة فوق ما أرادت ، فقد جذبت لويس هذه الفتاة الخجول ذات السبعة عشر ربيعاً ، التي كان البون شاسعاً بينها وبين النبيلات المتغطرسات المدوانيات اللائي يحطن به في بلاطه . وذات يوم وجدها وحيدة في حدائق فونتنبلو ، فقدم نفسه إليها ، مضمراً نيات ليست بالشريفة جداً . وفاجأته بالاعتراف بأنها تحبه ، ولكنها قاومت إلحافه طويلا ، وناشدته ألا يحملها على خيانة هنريتا والملكة ، ولكن ما وافى شهر أغسطس ١٦٦١ حتى كانت قد غدت خليلته ، لقد كان كل شيء يبدو حسنا مادام يرضى مشيئة الملك .

ثم وقع الملك بدوره في غرامها ، فما كان يستشعر السعادة كما يستشعرها مع هذا الفرخ الخجول ، وخرجا في نزهات خلوية كالأطفال ، ورقصا في المراقص ، وطفرا مرحا في حفلات الباليه ، وكانت إذا خرجت إلى جواره في الصيد تنسى ما في طبعها من إحجام وتردد ، وتركب في تهور واندفاع « فيعجز حتى الرجال عن اللحاق بها »(١٠٨) على حد قول الدوق دانجيان . على أنها لم تستغل انتصارها ، فأبت قبول الهدايا أو الاشتراك في الدسائس ، وظلت متواضعة رغم زناها ، وكانت تخجل من وضعها ، وقد تعذبت حين

قدمها الملك إلى الملكة ، وولدت له عدة أطفال ، مات اثنان منهم فى تاريخ مبكر ، أما الطفلان الثالث والرابع ، اللذان تقررت شرعيتهما بمرسوم ملكى ، فقد أصبحا الكونت دفيرماندوا ، والمدموازيل دبلوا الرائعة الجمال . وخلال أزمات الولادة هذه كانت ترى وجوهاً أجمل من وجهها تجتذب الملك ، ولم تحل سنة ١٦٦٧ حتى تعلق قلبـــه بمدام دمونتسبان ، وبدأت لويز تفكر فى التكفير عن آثامها بقضاء ما بقى من عمرها فى دير للراهبات .

وآنس لويس هذا الميل فيها ، فبذل لها الكثير من علامات حبه الباقى ، وفكر فى الحفاظ عليها فى دنياه بخلع لقب الدوقية عليها ، ولكنه بين اشتغاله بحب مونتسبان ، واستغراقه فى الحرب ، قل شيئاً فشيئاً ما منحها من وقته ، أما هى فلم تأبه فى البلاط بإنسان غيره . وفى ١٦٧١ تخلت عن ثروتها ، وارتدت أبسط ما وجدت من ثياب ، وتسللت من القصر صباح يوم من أيام الشتاء ، وهربت إلى دير القديسة مارى — د — شايو ، وأرسل لويس من يبحث عنها مؤكداً حبه وعذابه ، وإذ كانت لا تزال عذراء غريرة بعقلها ، فقد ارتضت أن تعود إلى البلاط . وظلت هناك ثلاث سنين أخرى ، ممزقة بين حبها للملك وشوقها للتطهر والسلام الدينيين ، وكانت تمارس فى القصر تقشف الحياة الديرية ، وأخيراً أقنعت الملك بأن يفرج عنها ، ودخلت ديراً للراهبات الكرمليات الحافيات فى شارع دانفير (١٦٧٤) ، وتسمت الأخت لويز دلا ميزيريكورد ، وعاشت هناك فى توبة الزهاد ما بقى لهـا من عمر طوال ستة وثلاثين عاماً ، قالت : « إن نفسى شديدة القناعة ، بالغة السكينة ، لأننى أعبد جود الإله » (١٠٩) .

أما خليفتها فى الحظوة لدى الملك فلا تظفر من الناس بمثل هذا الغفران العام . فقد قدمت فرنسواز أتيناييس روشوزار البلاط فى ١٦٦١ ، وخدمت للملكة وصيفة شرف ، وتزوجت المركيز دمونتسبان (١٦٦٣) . ويزعم

فولتير أنها إحدى ثلاث كن أجمل نساء فرنسا ،أما الأخريان فاختاها(١١٠).
وكان لها غدائر مجعدة شقراء مرصعة باللآلىء ، وعينان أبيتان ناعستان ، وشفتان شهوانيتان ، وثغر ضاحك ، ويدان ملاطفتان ، وبشرة فى لون الزنبق ونسيجه — كذلك وصفها معاصروها وهم مبهورون ، وكذلك صورها هنرى جاسكار فى لوحة مشهورة . وكانت تقية ، تحفظ أيام الصوم دون تهاون ، وتختلف إلى الكنيسة فى تعبد وتكرار ، لها طبع حاد وذكاء بتار ، ولكن هذا كان أول الأمر من قبيل التحدى .

روى عنها ميشليه قولها إنها قدمت باريس مصممة على اقتناص الملك(١١١) . ولكن سان ـ سيمون يذكر أنها حين رأت أنها أخذت تزيد من سرعة نبض الملك رجت زوجها فى أن يعود بها فورا إلى بواتو (١١٢) . ولكنه أبى ، واثقا من سلطانه عليها ، متعلقاً بعبير البلاط . وذات ليلة فى كومبيين ، ذهبت لتنام فى حجرة مخصصة عادة للملك . وحاول برهة أن ينام فى حجرة مجاورة ، ولكنه وجدفى هذا مشقة ، وأخيراً استولى على حجرته وعليها (١٦٦٧) . أما المركيز فحين بلغه الأمر لبس ثوب الترمل ، وجلل مركبته بالسواد ، وزين أركانها بالقرون . وكتب لويس بيده وثيقة الطلاق بين المركيز والمركيزة ، وأرسل إليه ١٠٠٫٠٠٠ ايكو ، وأمره بالرحيل عن باريس ، وابتسم البلاط الذى تجرد تماما من الخلق الكريم .

وظلت مدام دمونتسبان حظية للملك سبعة عشر عاما . وقد أعطت لويس مالم تستطعه لافاليير ـ أعطته الحديث الذكى والحيوية المثيرة .وكانت تفاخر بأنها هى وتبلد الحس لا يمكن أن يجتمعا فى مكان واحد وزمان واحد ، وهو قول صحيح . وقد أنجبت للملك ستة أطفال — أحبهم وشكر لحاضنيها ،ولكنه لم يستطع أن يقاوم إغراء النوم من حين إلى حين مع مدام دسوبيز أو مع الآنسة الشابة دسكوراى دروسيل ، التى خلع عليها لقب دوقة فونتانج . وقد حدت هذه الانحرافات بمدام دمونتسبان إلى

الماس نصيحة للمشعوذات فى أمر الأشربة السحريه أو غيرها من الوسائل للاحتفاظ بحب الملك ، ولـكن القصة التى زعمت أنها دبرت تسميمه أو تسميم غريماتها هى فى أغلب الظن أسطورة روجها أعداؤها (١١٣) .

وقد جني عليها أطفالها . ذلك أنها احتاجت إلى شخص يرعاهم ، وزكى لها بعضهم مدام سكارون ، فاستخدمتها ، ولاحظ لويس حسن المربية وهو يختلف لرؤيه أطفاله . أما مدام سكارون هذه ، واسمها قبل الزواج فرنسواز دوبينيه ، فكانت حفيدة تيودور أجريبا دوبينيه ، المساعد الهيجونوتى لهنرى الرابع ، وقد ولدت بسجن بنيور فى بواتو ، حيث كان أبوها يقضى فترة من فترات سجنه الكثيرة عقابا له عـلى جرائم مختلفة ، وعمدت كاثوليكية ، وربيت بين الفوضى والفقر الخيمين على أسرة منقسمة . وعطف عليها بعض البروتستنت وأطعموها وثبتوها فى العقيدة البروتستنتية تثبيتا جعلها تولى ظهرها للمذهب الكاثوليكى . فلما بلغت التاسعة أخذها أبواها إلى المارتنيك حيث أشرفت على الموت لصرامة التأديب الذى أدبته به أمها . ومات الأب بعد عام (١٦٤٥) ، فعادت الأرملة وأطفالها الثلاثة إلى فرنسا . وفى ١٦٤٩ أودعت فرنسواز ديرا للراهبات بعد أن عادت إلى الكاثوليكية ، وكانت تناهزت الرابعة عشرة آنئذ ، وتكسب قوتها بأداء الأعمال الحقيرة . ولعلنا ما كنا لنسمع بها قط لولا أنها تزوجت بول سكارون .

وأما بول هذا فكان كاتبا مشهوراً ، وظريفاً لامعا ، مشلولا شللا كاد يكون تاما ، مشوها تشويها بشعا . وإذ كان ابنالمحام نابه ، فقد توقعالنجاح فى حياته العملية ، ولـكن أباه الأرمل تزوج ثانية ، ونبذت الزوجة الجديدة بول ، فلم يظفر من أبيه إلا بمعاش ضئيل لايكفيه إلا للترفيه ليلة عن ماريون ديلورم وغيرها من النبيلات . ثم أصيب بالزهرى ، وأسلم نفسه لأحد الدجالين ، وتعاطى العقاقير القوية التى أتلفت جهازه العصبى . وأخيرا اشتد به الشلل حتى كاد يعجزه إلا عن تحريك يديه . وقد وصف نفسه فى هذه

العبارات : « سأصف لك نفسي أيها القارئ على قدر استطاعتي . لقد كان جسمي حسن التكوين رغم قصر قامتي . ولكن العلة قصرتني بقدم كامل . ورأسي أكبر قليلا مما يناسب جسمي . ووجهي ممتلئ ، أما جسدي فهيكل عظمي . وبصري لا بأس به ، ولكن عيني بارزتان ، وإحداهما منخفضة عن الأخرى . وقد كونت ساقاي وفخذاي أول الأمر زاوية منفرجة ، ثم قائمة ، وأخيرا حادة ، وتكون فخذاي وجسمي زاوية حادة أخرى ، وانحناء رأسي فوق معدتي يجعلني أقرب إلى حرف Z . وقد انكمش ذراعاي كما انكمش ساقاي ، وكذلك فعلت أصابعي . جملة القول أنني خلاصة للتعاسة البشرية(١٤٤) » .

وقد أمزى عن تعاسته تلك بتأليفه « رواية مضحكة » عن متشرد (١٦٤٩) لقيت نجاحا كبيرا ، وبعرضه هزليات ساخرة صاخبة الفكاهة ، فاضحة النكتة . وأكرمته باريس لأنه احتفظ بمرحه وسط آلامه ، وأجرى عليه مازاران وآن النمساوية معاشين فقد الحق فيهما لتأييده للفروند . كسب كثيرا ، وأنفق أكثر ، وتورط غير مرة في الدين . وكان — وهو مسنود داخل صندوق يطل منه رأسه وذراعاه — يرأس في حيوية وعلم غزير صالونا من أشهر صالونات باريس . فلما تكاثرت ديونه ، كان يتقاضى ضيوفه ثمن طعامهم ، ومع ذلك كانوا يأتون .

ترى من يتزوج رجلا كهذا ؟ في سنة ١٦٥٢ ، كانت فرنسواز دوبينيه التي بلغت السادسة عشرة من عمرها تعيش مع قريبة بخيلة ضنت بالإنفاق عليها حتى لقد اعتزمت أن ترد فرنسواز إلى أحد أديار الراهبات . وقدم صديق هذه الفتاة إلى سكارون ، فاستقبلها في كرم مؤلم ، وعرض أن يدفع نفقات طعامها وسكناها في الدير ، لكي يعفيها من نذر الرهبنة ، ولكنها أبت . وأخيراً عرض أن يتزوجها ، وأوضح لها بجلاء أنه لا يستطيع أن يطالبها بحقوق الزوج . فقبلته ، وخدمته ممرضة وسكرتيرة ، وقامت بدور للضيفة

فى صالونه ، وتظاهرت بأنها لا تسمع توريات الضيوف . وكان ذكاؤها يدهشهم حين تشترك فى الحديث . وقد خلعت على اجتماعات سكارون مسحة من الاحترام كفت لجذب الآنسة دسكودرى ، ومدام دسفينيه بين آن وآخر ، وكان من زوار الصالون قبل ذلك نينون ، وجرامون ، وسانت — إفرمون . وفى رسائل نينون الماع إلى أن مدام سكارون لطفت من عذاب هذا الزواج البرىء من الجنس بعلاقة غرام ، ولكن نينون ذكرت أيضاً أنها « كانت فاضلة لضعف عقلها . لقد أردت شفاءها ، ولكنها كانت تخاف الله أكثر مما يجب[١١٥] » وكان وفاؤها لسكارون حديث باريس ، المتعطشة دون وعى منها لأمثلة للسلوك الكريم . ولما اشتد عليه شلله تيبست حتى أصابعه وامتنعت حركتها ، فعجز عن أن يقلب صفحة أو يمسك قلماً . فكانت تقرأ له ، وتكتب ما يمليه عليها ، وتقوم على كل حاجاته . وقبل أن يموت (١٦٦٠) كتب قبريته التى قال فيها :

« إن الراقد الآن هنا قد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الحسد ، وعانى ألف مرة عذاب الموت قبل أن يفقد الحياة . فيا أيها العابر لا تحدث ضجيجاً وإياك إياك أن توقظه ، فهذه أول ليلة ينام فيها سكارون المسكين » .

ولم يخلف لزوجته غير الدائنين . وألقيت « الأرملة سكارون » فى خضم الفقر مرة أخرى وهى بعد شابة فى الخامسة والعشرين . والتمست من الملكة الأم أن تجدد معاشها الذى ألغى ، فرتبت لها آن ألف جنيه فى العام . واتخذت فرانسواز حجرة فى دير ، وتواضعت فى عيشها وملبسها ، وارتضت القيام بشتى المهام الصغيرة فى البيوت الميسورة[١١٧] . وفى ١٦٦٧ أرسلت إليها مدام دمونتسبان وهى على وشك الوضع رسولا يطلب إليها أن تتلقى الوليد المنتظر وتربيه . ورفضت فرنسواز ، ولكنها قبلت حين أيد لويس الطلب . وظلت سنوات عديدة بعد ذلك تتلقى أطفال الملك وهم يخرجون إلى النور .

وتعلمت أن تحبهم ، وكانوا يرون فيها أما لهم ؛ أما الملك الذى ضحك منها أول الأمر لفرط احتشامها ، فقد انتهى إلى الإعجاب بها ، وأثر فيه ما بدا من حزنها حين مات أحد الأطفال رغم حدبها للتصل عليه . وقال إنها تعرف كيف تحب ، وإنها لمتعة أن يكون إنسان موضع حبها(١١٨) » . وفى ١٦٧٣ قررت شرعية الأطفال ، ولم يعد فرضا على مدام سكارون أن تتستر ، فقبلت فى البلاط وصيفة لمدام دمونتسبان . ووهبها الملك ٢٠٠,٠٠٠ جنيه دعما لمركزها الجديد . فاشترت بالمال ضيعة فى مانتنون قرب شارتر . ولم تعش فيها قط ، ولكن الضيعة أعطتها لقبا جديدا ، وهو المركيزة دمانتنون .

وكانت طفرة عنيفة لمن كانت تشكو الإملاق منذ عهد قريب جداً ، ولعلها أدارت رأسها حينا . وآلت على نفسها أن تنصح مدام دمونتسبان بأن تكف عن حياة الإثم التى تحياها . وساءت النصيحة مونتسبان ، وظنت أن مانتنون تكيد لها للحلول محلها ، والحق أن لويس كان آنئذ ، فى ١٦٥٧ ، قد أخذ يضيق بغضبات مونتسبان ، ويجد لذة فى التحدث إلى المركيزة الجديدة ولعل الأسقف بوسويه ، بالتواطؤ مع الملك ، أنذره بأنه سيحرم من تناول قربان القيامة ما لم يطرد محظيته . فأمرها بأن تبرح القصر ، ففعلت ، وتناول لويس القربان ، وتعفف حينا واستحسنت مدام دمانتنون مسلكه ، دون أن يكون لها قصد أنانى فيما يبدو(١١٩) ، لأنها رحلت بعد قليل مع صبى عليل (من أبناء مونتسبان) هو الدوق دمين تلتمس له الشفاء فى حمامات باريج الكبريتية بإقليم البرانس . وانطلق لويس إلى حروبه ، ثم عاد وقد اشتد به الجوع ، وضرب بإنذار بوسويه عرض الحائط ، ودعا مونتسبان لتعود إلى جناحها فى فرساى . وهناك ارتمى بين ذراعيها المشتاقتين ، فحبلت ثانية .

أما مانتنون فقد رحب بها الملك ومحظيته عند عودتها من البرانس مع الدوق الذى شفى مما ألم به ، ولكن راعها أن تراه غارقا فى عدة علاقات

آ غة فى وقت واحد . وفى ١٦٧٩ اختتم آثامه مع مونتسبان بتعيينها مشرفة على بيت الملكة — وكانت تلك أحدى القطائعات الكثيرة التى جرح بها شعور مارى تريز . وثارت مونتسبان وبكت ، ولكنه عزاها بالهبات السخية . وبعد عام تسلمت مانتنون وظيفة مماثلة — هى الوصيفة لمخدع زوجة ابنه البكر (الدوفينه) ، وكان الوحيد الباقى على قيد الحياة من أبنائه الشرعيين . وكثر تردد الملك الآن على الدوفينة للتحدث إلى مانتنون . وما من شك فى أنه أراد أن يجعل المركيزة خليلة له ، وأنها ردته عن نفسها — لا بل إنها ناشدته أن يكف عن جنوحه ويعود تائباً إلى الملكة(١٢٠) . فأذعن لها ولبوسويه ، وفى ١٦٨١ ، وبعد عشرين عاما من مغازلة النساء ، أصبح زوجاً مثالياً . أما الملكة التى وطنت نفسها منذ أمد بعيد على تقبل خياناته ، بل على تقبل خليلاته ، فقد حظيت برضاء الملك ولكن لعامين فقط ، لأنها ماتت عام ١٦٨٣ .

وظن لويس أن مانتنون سترضى الآن بأن تكون خليلته ، ولكنها قابلته بصد لبق ، فهو الزواج وإلا فلا(١٢١) . وفى تاريخ لا يعرف على التحديد ، ولكنه على الأرجح فى ١٦٨٤ ، تزوجها ، وكان فى السابعة والأربعين ، وهى فى الخمسين . وكان ارتباطا غير متكافئ ، لا يصيب الطرف الأدنى فيه أى رتبة جديدة ولا حقوق وراثية . ولقى مستشارو الملك عنتا فى ثنيه عن إعطاء زوجه الحقوق الكاملة وتتويجها ملكة ، وذكروا له ما سيكون من تذمر الأسرة المالكة والحاشية إذا وجدوا أنهم ينحنون احتراماً لمربية . وعليه لم يعلن نبأ الزواج ، وهناك من يظنون أن الزواج لم يتم قط . أما سان — سيمون ، للتشبث أبدا بالنظام الطبقى ، فرأى أنه زواج مخيف(١٢٢) ، ولكنه كان خير رباط وأسعده للملك ، والوحيد الذى رعى عهوده فيما يبدو . ولقد اقتضاه نصف قرن تقريباً أن يكتشف أن فى حب المرأة لزوجها ما يكفيه عن غيرها من النساء .

٨ - الملك يمضى إلى الحرب

كانت انتصارات ريشليوه ومازاران قد خلفت فرنسا أقوى دولة فى أوربا . فالامبراطورية أوهنها ما أصاب المانيا من إعياء وانقسام فضلا عن الخطر المتجدد عليها من العثمانيين . وأسبانيا أضعفها نضوب ذهبها ورجالها فى ثمانين عاما من الحرب العقيم التى خاضتها فى الأراضى المخفضة . وانجلترة، بعد ١٦٦٠ ، ربطتها بعجلة فرنسا المعونات السرية لملكها. كذلك كانت فرنسا فيما مضى بلداً منقسما أصابه الضعف ، ولكن ما أتت سنة ١٦٦٧ حتى كانت جراح الفروند قد برئت ، وغدت فرنسا أمة موحدة . وقام أثناء ذلك رجال أفذاذ اضطلعوا باعادة بناء الجيوش الفرنسية ، كلوفوا ، عبقرى التنظيم والضبط العسكريين ، وفوبان عبقرى التحصين وحرب الخنادق والحصار ، وكالقائدين المغوارين كونديه وتورين . وبدا للملك الشاب الذى يتملقه رجاله أن قد آن الأوان لتبلغ فرنسا حدودها الجغرافية الطبيعية — وهى الراين ، والألب ، والبرانس ، والبحر .

فليبدأ بالراين إذن . لقد كان الهولنديون يتسلطون عليه ، فلا بد إذن من إخضاعهم ، ثم ردهم بعد قليـــل إلى العقيدة التى كانت حليفا للملوك طوال ألف عام . فإذا بسطت فرنسا سلطانها على مصاب النهر العظيم الكثيرة دانت لها كل أرض الراين ، وبسطت سلطانها على نصف التجارة الألمانية . ولـكن الأراضى المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) تقف عقبة فى الطريق ، فلا بد إذن من فتحها . وكان فيليب الرابع عند موته فى ١٦٦٥ قد خلف الأراضى المنخفضة الأسبانية لشارل الثانى ، ولده من زواجه الثانى . ورأى لويس ثغرة دبلوماسية ينفذ منها إلى هدفه . فاستند إلى عرف قديم أخذت به أينو وبرابانت ، يقضى بتفضيل أبناء الزوجة الأولى فى الميراث على أبناء الثانية . وكانت زوجة لويس بنت فيليب الرابع من زوجته الأولى ، وبمقتضى حق الأيلولة أو الوراثة هذا — Ius devolutionis — ترث مارى تريز الأراضى

للمنخفضة الأسبانية . صحيح ان ماري نزلت عند زواجها عن حقها في الوراثة ، ولكن هذا التخلي كان مشروطاً بأداء أسبانيا صداقها لفرنسا ، وهو ٥٠٠,٠٠٠ كراون ذهبي(١٢٣) . وهذا الصداق لم يؤد ، إذن . . . ورفضت أسبانيا هذا القياس المنطقي ، وعلى ذلك أعلن لويس حرب الأيلولة (الوراثة الأسبانية) . فلنترك مذكرات الملك لاعب الشطرنج هذا يميط اللثام عن دوافعه :

« لقد أتاح لي موت ملك أسبانيا وحرب الأنجليز مع الهولنديين (١٦٦٥) في وقت واحد فرصتين هامتين لخوض الحرب : محاربة أسبانيا سعياً وراء حقوق آلت الي ، ومحاربة انجلترة دفاعاً عن الهولنديين . . . وسرني أن أرى في خطة هاتين الحربين ميداناً فسيحاً قد يتيح لي فرصاً عظيمة للتفوق . وكان الكثيرون من الرجال البواسل ، الذين آنست فيهم التفاني في خدمتي ، يتوسلون إلى على الدوام أن أهيء لهم الفرصة لإظهار بسالتهم . . . يضاف إلى هذا أنني مادمت مضطرا على أية حال للاحتفاظ بجيش كبير ، فإنه انفع لي ان القى به في الأراضي المنخفضة من أن أطعمه على حسابي . . وتحت ستار الحرب مع إنجلترة أستطيع ترتيب قواتي وهيئة مخابراتي (أي جهاز الجاسوسية) لأبدأ مغامرتي في هولندة بنجاح أعظم (١٢٤) » .

تلك هي النظرة الملكية إلى الحرب ، فقد تجعل الحرب بلد الملك أعظم مساحة أو أكثر أمنا أو أوفر دخلا ، وقد تفتح طرق الشهرة والمنعة ، وقد تتيح منصرفات للغرائز المتصارعة ، وقد تيسر للجيش الغالي النفقة أن يطعم على غذاء بلد أجنبي ، وقد تحسن موقف الدولة في الحرب القادمة . أما عن أرواح البشر التي ستحصدها الحرب ، فإن الناس لابد أن يموتوا على أية حال وما أسخف أن يموت الرجل حتف أنفه ، ويقضي بعلة بطيئة ماوبالة ، وأي ميتة أفضل للرجال من الموت في خدار المعركة على ساحة المجد ، وفي سبيل الوطن ؟

وعليه ففي ٢٤ مايو ١٦٦٧ عبرت الجيوش الفرنسية إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية . فلم تصادف مقاومة فعالة ، وكان عدد الفرنسيين ٥٥,٠٠٠

مقاتل ، والأسبان ٨٠٫٠٠٠ وما لبث الملك أن دخل شارلروا ، وتورنيه ، وكورتريه ، ودويه ، وليل ، وكأنه يدخلها فى موكب نصر ؛ وحصن فوبان المدن المفتوحة ، أما لوفوا فقد جهز المؤن فى كل خطوة ؛ حتى الصحاف الفضية للضباط فى معسكراتهم أو خنادقهم . وضمت إلى فرنسا أرتوا ، وإينو ، وفلاندر الولونية ، واستغاثت أسبانيا بالامبراطور ليوبولد الأول، فعرض لويس على ليوبولد قسمة الامبراطورية الأسبانية فيما بينهما ، ووافق ليوبولد ، فأمسك أى معونة عن أسبانيا . وبلغ من سهولة فتح فلاندر أن لويس هرع للاستيلاء على فرانش — كونتيه أيضاً ، وهو الإقليم الواقع حول بزانسون ، بين برجندية وسويسرا . وكان ولاية تتبع أسبانيا ، ولكنه شوكة فى جنب فرنسا . وفى فبراير ١٦٦٨ هبط جيش فرنسى عدته عشرون ألف مقاتل على فرانش — كونتيه بقيادة كونديه ، وحالفه النصر فى كل مكان ، لأن الرشا الفرنسية كانت قد ألانت القواد المحليين . وقاد لويس بنفسه حصار دول ، فسقطت بعد أربعة أيام . ولم تنقض ثلاثة أسابيع حتى استسلمت فرانش — كونتيه كلها . فقفل إلى باريس مكللا بالغار .

ولكنه كان قد أفسد على نفسه الأمر بتجاوزه الحدود ، ذلك أن « الأقاليم المتحدة » أقنعت السويد وانجلترة بالانضمام إليها فى حلف ثلاثى ضد فرنسا (يوليو ١٦٦٨) وتبينت الدول الثلاث أن حريتها السياسية أو التجارية ستذوى إذا امتد سلطان فرنسا إلى الراين . ورأى لويس أنه تعجل السير إلى هدفه ؛ ذلك أن الاتفاق السرى الذى أبرمه مع ليوبولد كان ينص على أن تؤول إلى فرنسا كل الأراضى المنخفضة وفرانش — كونتيه عند موت شارل الثانى ملك أسبانيا ، وبدا أنه لن ينقضى عام أو نحوه حتى يموت شارل العليل ، فلعله كان خيراً لفرنسا أن تتريث حتى تقع الثمرة فى حجرها بهدوء . وعرض لويس شروط الصلح على الحلف وأقنع دبلوماسيوه المحنكون انجلترة والسويد ، فأنهيت حرب الوراثة الأسبانية بمقتضى معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) وردت فرنسا فرانش — كونتيه إلى أسبانيا ، ولكنها احتفظت بشارلروا ، ودويه ، وتورنيه ،

وأودينارد ، وليل ، وآرمانتيير ، وكورتريه . وهكذا استبق لويس لنفسه نصف الغنيمة .

ولكنه فى ١٦٧٢ عاود زحفه على الراين ، وتكشف الآن هدفه الحقيقى — وهو هولندة لا فلاندر . وسنلقى بنظرة على هذه المأساة فى فصل لاحق من زاوية الهولنديين ، وحسبنا القول بأن الهجوم كاد يصل إلى أمستردام ولاهاى قبل أن يقفه فتح سدود البحر . ولكن أوربا ثارت مرة أخرى على هذا التهديد الجـــديد لتوازن القوى . ففى أكتوبر ١٦٧٢ انضم الامبراطور ليوبولد إلى الأقاليم المتحدة وبراندنبورج فى « حلف عظيم » ، وانضمت إليه أسبانيا واللورين فى ١٦٧٣ ، ثم الدنمرك والبالاتينات ودوقية برنزويك — لونيبورج فى ١٦٧٤ ، وفى ذلك العام أكره البرلمان الانجليزى ملكه الموالى لفرنسا على إبرام الصلح مع الهولنديين .

وواجه لويس ببسالة هـــذا الانتقام الذى عوقبت به كبرياؤه . فجبى المزيد من الضرائب برغم شكاوى كولبير من أنه يفقر بذلك فرنسا ، وبنى أسطولا ، وزاد جيوشه إلى ١٨٠٠٠٠ مقاتل . وفى يونيو ١٦٧٤ وجه قوة منها لمحاصرة بيزانسون ثانية ، وما مضت ستة أسابيع حتى فتحت فرانش — كونتيه من جديد . وخلال ذلك قاد تورين فى حملة من أروع حملاته وأقساها عشرين ألفاً من جنوده إلى النصر على سبعين ألفاً من جنود الامبراطورية . ودمر البالاتينات واللورين وجزءاً من الإلزاس ليحول بين العدو وبين إطعام جنده ، وتكرر على طول الراين ذلك الخراب الذى أحدثته من قبل حرب الثلاثين . وفى ٢٧ يوليو قتل تورين وهو يستطلع الأرض قرب سولزباخ فى بادن ، ودفن بأمر لويس فى كنيسة سان — دنى باحتفال أشبه بالاحتفال بدفن الملوك ، وهو عليم بأن تلك الميتة الواحدة تعدل عشر هزائم . وحل « كونديه العظيم » محل تورين بعد ماحقق من انتصارات دامية فى الأراضى المنخفضة ، فطرد جيوش الامبراطورية من الالزاس ، ثم اعتكف ذلك « الأمير » بعد أن دوخته سنون من الشهوات والحرب ، مؤثراً حياة الفلسفة

والحـكم فى شانتى . واضطلع لويس الآن بالحملة فى الأراضى المنخفضة ، فحاصر فالنسيين ، وكامبرى ، وسانتومير ، وغنت ، وإيبر ، واستولى عليها كلها (١٦٧٧ — ٧٨) . وهللت فرنسا لملـكها قائداً مظفراً .

ولـكن العبء الذى أثقل به كاهل شعبه لم يعد محتملا . فنشبت الثورات فى بردو وبرتنى ، وكان الفلاحون فى جنوب فرنسا يتضورون جوعاً ، والشعب فى الدوفينيه يقتات على الخبز المصنوع من ثمر البلوط والجذور(١٢٥) فلما عرض الهولنديون على لويس الصلح وقع معهم معاهدة (١١ أغسطس ١٦٧٨) ردت بمقتضاها للأقاليم المتحدة جميع الأراضى التى استولت عليها فرنسا منها ، وخفضت الرسوم التى أقصت المنتجات الهولندية عن فرنسا . وقد عوض عن هذه التنازلات بإلزام أسبانيا ، التى تفكـكت الآن أوصالها ، بأن تتخلى له عن فرانش — كونتيه ، واثنتى عشرة مدينة دفعت بحـدود فرنسا الشمالية الشرقية إلى داخل الأراضى المنخفضة الأسبانية . واحتفظت فرنسا بمقتضى معاهدة مع الامبراطور بمدينتين استراتيجيتين هما برايزاخ وفرايبورج — ايم — برايسجاو ، وبقيت الالزاس واللورين فى قبضتها . وكانت هاتان المعاهدتان — نيميجن (١٦٧٨ — ٧٩) وسان — جرمان — آن — ليه (١٦٧٩) نصراً للأقاليم المتحدة ، ولـكنهما لم تـكونا هزيمـة للويس ، فلقد فاز على الامبراطورية وأسبانيا ، ووصل فى أماكن — هنا وهناك — إلى الراين الذى طالما اشتهى الوصول إليه .

على أنه احتفظ بجيشه الضخم رغم هذا الصلح ، موقناً أن الجيش القائم قوة تعزز الدبلوماسية . واستناداً إلى تلك القوة من ورائه ، واستغلالا غزياً لانصراف الامبراطور إلى قتال العثمانيين الزاحفين ، أنشأ فى الالزاس ، وفرانش — كونتيه ، وبرايسجاو « غرفاً لإعادة الاتحاد » ، تطالب ببعض مناطق الحدود التى كانت تمتلـكها فيما مضى ، واحتل الجنود الفرنسيون هـــذه المناطق ، وأغريت مدينة ستراسبورج العظيمة ، التى لين موظفيها إغداق الرشا عليهم ، بأن تعترف بلويس ملـكا عليها (١٦٨١) . وفى نفس

العام ، وبوسائل مماثلة ، أغرى دوق ميلانو بأن ينزل لفرنسا عن مدينة كازال وحصنها ، وكانت تتحكم فى الطريق بين سافوا وميلانو (*). فلما تلكأت أسبانيا فى تسليم مدن الأراضى المنخفضة ، أرسل لويس جيوشه من جديد إلى فلاندر وبرابانت ، وتغلب على المقاومة بقذفه البلاد بالمدافع دون تمييز ، وابتلع فى طريقه دوقية لكسمبورج (يونيو ١٦٨٤) . واعترفت أسبانيا والامبراطور مؤقتاً بهذه الفتوح بمقتضى هدنة ريجنسبورج (١٥ أغسطس) ، لأن العثمانيين كانوا يحاصرون فيينا آنئذ . وبفضل تحالفه مع ناخب كولونيا مد لويس فى الواقع سلطته إلى الراين . فتحقق بهذا جزء من طموح فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية .

ذلك كان الأوج الذى بلغه « الملك الشمس » فلم يحدث أن ظفرت فرنسا بمثل هذا الاتساع فى الرقعة ولا بمثل هذه السطوة منذ عهد شارلمان . وأقيمت المهرجانات الضخمة الغالية احتفالا بانتصارات الملك . ولقبه مجلس باريس رسمياً بلويس المعظم . (١٦٨٠) ورسمه لبرون فى صورة إله على أقبية فرساى ، وزعم لاهوتى أن انتصارات لويس أثبتت وجود الله (١٢٧) . أما جماهير الشعب فقد مجدت حاكمها وسط فقرها المدقع ، وتاهت فخراً بعظمته الواضحة ، وأطراه حتى الأجانب ، لأنهم رأوا فى حملاته شيئاً من المنطق الجغرافى ، وحياه الفيلسوف لايبنتز « ذلك الأمير العظيم الذى هو مفخرة زماننا غـــير منازع ، والذى ستتوق الأجيال القادمة إلى نظيره عبثاً(١٢٨) » ، وإلى الشمال من جبال الألب والبرانس ، وإلى الغرب من الفستولا ، بدأت كل أوربا المثقفة تتحدث بلغته وتقلد بلاطه وفنونه وأساليبه . لقد بلغت الشمس الأوج .

(*) لعل « الرجل ذا القناع الحديدى » هو الكونت ماتيولى الذى باع لأسبانيا (١٦٢٩) سر المفاوضات بين لويس ودوق ميلانو . وقد تكهن البعض بأنه هو ذاته ماركيرلى ، السجين الغامض الذى أخفى وجهه خلف قناع من المخمل (لا الحديد) ، والذى مات فى الباستيل فى ١٧٠٣ (١٢٦)

الفصل الثاني

بوتقة الإيمان

١٦٤٣ — ١٧١٥

١ – الملك والكنيسة

ينزع المؤرخ – كما ينزع الصحفي – إلى فقدان الخلفية العادية للعصر وسط الواجهة المثيرة للصورة التي يرسمها ، لأنه يعلم أن قراءه سيستطيبون الشاذ ويحبون تجسيد العمليات والأحداث . ولكن وراء حكام فرنسا ، ووزرائها ، وحاشيتها ، ومحظياتها ، ومقاتليها ، كان هناك رجال ونساء يتنافسون على الرزق والرفقاء ، يزجرون أبناءهم ويحبونهم ، يأثمون ويعترفون بإثمهم ، يلهون ويتشاجرون ، يذهبون إلى أعمالهم متثاقلين وإلى المواخير متسترين ، وإلى الصلاة متواضعين متذللين . وكان طلب الخلاص الأبدي يقطع بين الحين والحين كفاح البقاء اليومي ، والحلم بالجنة ينتعش كلما ذبلت شهوة الحياة ، وصحن الكنيسة الظليل يريح هنيهة من وطيس الصراع . وكانت أساطير المعجزات شعر الجماهير ، والقداس مسرحية خلاصهم المعزية ، وسمت الرسالة التي يحملها الكاهن بقلوب الفقراء المهزومين ولو كان هو ذاته رجلا دنيويا جشعاً . وظلت الكنيسة المنافس للدولة ركيزة للمجتمع والسلطة ، لأنه بالرجاء أذعن الناس في صبر للعمل الشاق ، والقانون ، والحرب .

وعرف كبار الأكليروس الكاثوليك أهميتهم في معجزة النظام ، وشاركوا النبلاء والملك موارد الأمه وبهاء البلاط . وخالط الأساقفة ورؤساء الأساقفة في ألفة مهذبة أعلام القوم من طراز كونديه ، ومونبنسييه ،

وسفينيه ، وداعب المثات من الآباء — أنصاف المكرسين ، أنصاف المتزوجين — داعبوا النساء والأفكار . على أنه يمكن القول بوجه عام أن عقلية رجال الأكليروس الكاثوليك وأخلاقهم كانت خيراً مما عهدناه خلال قرون قبل ذلك ، ربما بحافز من منافسة القساوسة الهيجونوت(١) .

لم تكن أديار الراهبات « مراتع الرذيلة » التى صورها جنون خالق الأساطير ، المنبعث من الكراهية للدين . فالكثير منها كان صوامع للورع الصادق ، الزاهد أحياناً ، كدير الكرمليات الذى اعتكفت فيه لويز دلافاليير ، وبعضها الآخر كان ملاذاً لشابات الأسر الكريمة اللائى لم يجد آباؤهن لهن أزواجاً أو مهوراً ، أو اللاتى اقترفن إثماً ، أو أسأن إلى حاكم أو ملك . فى أديار كهذه لم ير نزيلاتها حرجاً فى استقبال زائر من العالم الخارجى ، أو فى مراقصة بعضهن البعض ، أو فى قراءة الأدب الدنيوى ، أو فى تخفيف سأمهن بلعب البليارد أو الورق . وبإصلاح دير من هذه جعلت جاكلين آرنو دير البور — رويال أشهر دير فى تاريخ فرنسا .

على أننا لا نستطيع مثل هذا الحديث المترفق عن الطرق الديرية ، فالكثير منها أرخى نظمه ، وعاش حياة التبطل ، والعبادة الصورية ، والالحاف فى التسول . وقد أصلح « أرمان جان درانسيه » دير نوتردام دلا تراب بنورمنديا ، وأسس الطريقة الترابية الصارمة التى مازالت حية فى صمت . ودخل اليسوعيون دخولاً أنشط فى حياة فرنسا وتاريخها . كانوا فى بداية القرن السابع عشر موضع توجس وريبة باعتبارهم مدافعين عن قتل الملك ، أما فى نهاية القرن فقد كانوا كهنة اعتراف ومرشدين للملك — ثم أنهم كانوا خبراء فى علم النفس . فحين أسست الراهبة مارجريت ماري ألاكوك بوحى من رؤيا صوفية تراءت لها (١٦٧٥) جمعية منقطعة للعبادة العلنية لـ « قلب يسوع المقدس » ، شجع اليسوعيون الحركة باعتبارها منفذاً وحافزاً لتقوى الجماهير . وفى الوقت نفسه يسروا الدين للخطاة إذ سلموا بأن

الخطيئة فى طبيعة البشر ، ووضعوا علم « الإفتاء » سبيلا للتخفيف من عسر الوصايا العشر والتلطيف من عصاب تأنيب الضمير ، وما لبث أن اشتد الطلب عليهم آباء اعتراف للخطاة ، واكتسبوا سلطة «مرشدى الضمائر» ، لاسيما بين النساء اللاتى سدن المجتمع الفرنسى ، واللاتى أثرن أحيانا فى السياسة القومية للبلاد .

ولم يكن لكلمة « الافتاء » فى القرن السابع عشر ذلك المدلول المهين الذى ألصقته بها رسائل بسكال الأقليمية . فقد كان يفترض فى كل قسيس ، بوصفه أب اعتراف أو مرشدا روحياً ، أن يعرف بالضبط ما الذى يجب أن يعتبر خطيئة مميتة ، أو خطيئة هينة ، أو لا خطيئة على الأطلاق ، وكان عليه أن يستمد لتطبيق علمه ، والملاءمة بين حكمه ، ونصحه ، والعقوبة الكنسية التى يشير بها ، وبين الحالة الماثلة أمامه (Casus) . وكان معلمو الناموس اليهود قد طوروا هذا الفن ، فى التمييزات الخلقية ، بتفصيل مستفيض فى الأجزاء القانونية من التلمود ، وحذا حذوهم التشريع والطب النفسى المصريان . وقبل أن تنشأ جماعة اليسوعيون بزمن مديد ، وضع اللاهوتيون الكاثوليك الأبحاث الضخمة فى الافتاء لإرشاد الكاهن فى أمر المبدأ الخلق والتطبيق الاعترافى . فنى أى الحالات مثلا يجوز أن يبدى على حرفية القانون الخلق روحه أو قصده ؟ ومتى يجوز للإنسان أن يكذب أو يسرق أو يقتل ، أو يحنث بوعد حنثا معقولا ، أو ينتهك عينا ، أو حتى ينكر العقيدة ؟

وطالب بعض المفتين بتفسير القانون الخلق تفسيراً صارما ، ورأوا أن الصرامة أجدى فى المدى الطويل من التساهل . ولكن غير هؤلاء — ولا سيما اليسوعيين مولينا ، وإسكوبار ، وتوليدو ، وبوزنباوم — حبذوا دستورا أخلاقيا متسامحا ، وحضوا على ضرورة التماس العذر للطبيعة البشرية ، ومؤثرات البيئة ، والجهل بالقانون ، والمشقة البالغة فى الامتثال الحرفى للقانون ، وعنف سورات العاطفة عنفا شبيها بالجنون ، وسائر الظروف

التى تعطل حرية الإرادة،وتيسيرا لهذه الأخلاقيات الهينة،وضع اليسوعيون مبدأ الترجيح — ومؤداه أنه إذا استحسن حجة معروف فى اللاهوت الخلق رأيا بعينه ، جاز لكاهن الاعتراف أن يحكم طبقاً لهذا الرأى إذا استصوب ذلك ، ولو عارضته كثرة الخبراء . (وكانت كلمة Probabilis تعني فى ذلك الوقت المستحسن ، أو الذى يسمح بالاستحسان[٢]) . يضاف إلى هذا ، فى رأى بعض المفتين اليسوعيين ، أنه من المباح أحيانا أن يكذب الإنسان ، أو يمسك عن قول الحق بـ « تحفظ عقلى » ؛ مثال ذلك أن للمسيحى الأسير ، إذا أكره على الخيار بين الإسلام والموت ، أن يتظاهر بقبول الإسلام دون أن يحسب ذلك خطيئة عليه . ثم إن أخلاقية عمل ما ، فى رأى إسكوبار ، ليست فى الفعل نفسه ، الذى ليس فى ذاته أخلاقيا أولا أخلاق ، بل فى نية الفاعل الخلقية ، فليس هناك خطيئة مالم يكن هناك خروج واع ، مختار ، عن القانون الخلقى .

والكثير من إفتاء اليسوعيين كان توفيقا معقولا رحيما بين القواعدالتى يغلب عليها زهد العصر الوسيط ، وبين مجتمع اكتشف مشروعية اللذة . ولكن اليسوعيين فى فرنسا بصفة خاصة ، وفى إيطاليا بدرجة أقل ، طوروا الافتاء حتى بلغوا به من التسامح مع ضعف الطبيعة البشرية مبلغا حمل رجالا جادين كبسكال فى باريس ، وساربى فى البندقية ، وكثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك ، ومنهم عدة يسوعيين[٣] — حمل هؤلاء جميعا على الاحتجاج على ما رأوا فيه استسلاما من المسيحية للخطيئة . وصدم هذا التراخى اليسوعى مع العالم والجسد مشاعر هيجونوت فرنسا الذين ورثوا دستور كالفن الخلقى الصارم . وقامت حركة قوية داخل الكاثوليكية ذاتها — وهى الجانسنية — فرفعت فى دير البور — رويال لواء أخلاقية شبه كالفنية ، فى حرب مناهضة لليسوعيين أهاجت فرنساوالأدب الفرنسىقرنا كاملا . وجرت هذه الحرب لويس الرابع عشر إلى المعركة ، لأن كهنة اعترافه كانوا يسوعيين وتطبيقه للدين لم يكن متزمتا . وفى ١٦٧٤ اضطلع الأب لاشيز بالأشراف

على ضمير الملك ، وقد وصفه فولتير بأنه « رجل هادئ الطبع يسهل عنده التوفيق دائما . »[٤] وقد شغل المركز اثنين وثلاثين سنة ، غفر خلالها كل شيء وحظى بمحبة كل إنسان . وقد قال لويس عنه « بلغ من طيبته أنى كنت أحيانا ألومه عليها[٥] » . ولكنه بطريقته الهادئة الصابرة كان له تأثير بالغ على الملك ، وأعان على توجيهه إلى الاقتصار على امرأة واحدة آخر المطاف ، وإلى طاعة البابا .

ذلك أن لويس لم يكن دائما « بابويا » صادقا . كان متدينا على طريقته الرسمية ، وندر أن قصر فى حضور القداس اليومى[٦] . قال لولده فى مذكراته :

« . . . واصلت تدريبات التقوى التى نشأتنى عليها أمى ، من جهة لأشكر الله على كل الحظ الطيب الذى نلته ، ومن جهة لأكسب محبة شعبى . . . والحق يابنى أننا لا نفتقر إلى عرفان الجميل والأنصاف فحسب ، بل إلى الحكمة والفطنة أيضا ، حين نقصر فى عبادته تعالى ، الذى لسنا إلا نوابا له . وما خضوعنا له إلا القاعدة والمثل للخضوع الذى نستحقه[٧] » .

على أن هذا لم يشمل الخضوع للبابوية . ذلك أن لويس ورث التقليد « الغالى » بمقتضى تفويض بورج البرجانى (١٤٨٣) وكونكوردا فرنسوا الأول (١٥١٦) — ذلك التقليد الذى أقر حق ملوك فرنسا فى تعيين أساقفه فرنسا ورؤساء أديارها ، وتحديد دخولهم ، والتعيين فى جميع الوظائف الكنسية ذات الدخول فى الفترة بين موت الأسقف وتنصيب خلفه . وقد آمن لويس أنه خليفة لله أو ممثله فى فرنسا ، وأن خضوعه للبابا (بوصفه هو أيضا خليفة لله) يجب أن يقتصر على شئون العقيدة والأخلاق ، وأن على رجال الأكليروس الفرنسيين أن يطيعوا الملك فى كل أمر يتصل بالدولة الفرنسية .

واستنكر فريق من الأكليروس هذه الدعوى — وهم المناصرون للسيادة

البابوية المطلقة — وأيدوا سلطان البابوات المطلق على الملوك والمجامع وتعيين الأساقفة ، ولكن الغالبية — وهم الحزب الغالى — دافعوا عن استقلال الملك الكامل فى الأمور الزمنية ،وأنكروا عصمة البابا إلا إذا وافق عليها مجمع مسكونى،ورأوا فى الروغان من سيطرة روما منفعة للاكليروس الفرنسى . وصرح أمير كونديه أن من رأيه أنه لو طاب للملك أن يتحول إلى المذهب البروتستنتى لكان رجال الأكليروس الفرنسى أول من يتبعه(٨). وفى ١٦٦٣ أصدرت السوربون — وهى كلية اللاهوت فى جامعة باريس — ست مواد تؤكد الموقف الغالى . واتخذت « البرلمانات » الفرنسية ذات الموقف ، وأيدت لويس فى دعواه بحقه فى أن يقرر أى المراسيم البابوية ينبغى نشره وقبوله فى فرنسا . وفى ١٦٧٨ احتج البابا أنوسنت السادس على هذه النزعة الغالية ، وحرم رئيس أساقفة تولوز لأنه عزل أسقفا قاوم هذه النزعة . ودعا الملك مجمعا من الأكليروس ، كلهم تقريبا من اختياره . وفى مارس ١٦٨٢ أعاد المجمع تأكيد مواد السوربون الست ، ووضع لنفسه المواد الأربع الشهيرة ، التى كادت تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما :

١ — للبابا سلطان فى الأمور الروحية ، وليس له سلطان عزل الأمراء أو حل رعاياهم من طاعتهم .

٢ — للمجامع المسكونية سلطان فوق سلطان البابا .

٣ — الحريات التقليدية للكنيسة الفرنسية لا يجوز انتهاكها .

٤ — لا عصمة للبابا إلا بموافقة مجمع الأساقفة .

وأعلن أنوسنت بطلان قرارات المجمع ، ورفض التنصيب القانونى لجميع الأساقفة الجدد الذين وافقوا على المواد . وإذ كان لويس لا يعين إلا أمثال هؤلاء المرشحين ، فقد شغرت فى ١٦٨٨ نحو خمس وثلاثين أسقفية من أساقفتها القانونيين . على أن الشيخوخة ومدام دمانتنون كانا قد الانا جانب الملك ، ثم أراحه الموت من ذلك البابا العنيد . وفى ١٦٩٣ سمح لويس

لمرشحيه إن ينكروا المواد ، وأقر البابا أنوسنت الثانى عشر حق الملك فى القيينات الأسقفية ، وأصبح لويس من جديد « الملك المسيحى جـداً » . Rex Christianissimus

٢ - البور - رويال : ١٢٠٤ - ١٦٢٦

كانت الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة أهون الدرامات الدينية الثلاث التى اضطرم بها حكم لويس . فقد فاقها عمقا ذلك الصراع الذى احتدم بين الكاثوليكية السنية التى دانت بها الدولة والأكليروس ، وكاثوليكية الجانسنيين والبور — رويال القريبة من البروتستنتية ، وكان أعمق هذه المسرحيات وأشدها فجيعة هو القضاء على الهيجونوت فى فرنسا . ولكن ما هو البور — رويال هذا ، ولم هذا الضجيج الكثير من حوله فى التاريخ الفرنسى ؟ لقد كان ديراً لراهبات الطريقة السسترسية Cistercian على نحو ستة عشر ميلا من باريس وستة أميال من فرساى ، فى مكان وطىء تكتنفه المستنقعات ، وصفته مدام دسفينييه بأنه « واد رهيب ، هو بالضبط المكان الذى يجد فيه الإنسان خلاصة(٩) » . أسس حوالى ١٢٠٤ ، ونجا بشق الانفس من التقلبات الكثيرة التى تعرض لها فى حرب مائة العام والحروب الدينية . وقد اضمحل نظامه وتناقصت راهباته ، ولعل الدير كان يختفى عن الانظار لولا أنه خضع لرآسة جاكلين آرنو ، وجرد للدفاع عنه قلم بليز بسكال .

لقد صنع أنطوان آرنو الأول (١٥٦٠ — ١٦١٩) التاريخ ببلاغته ووفرة ذريته . ففى ١٥٩٣ ، بعد أن حاول باربير اغتيال هنرى الرابع ، وجه آرنو إلى برلمان باريس خطابا غاضبا طالب فيه بطرد اليسوعيين من فرنسا . ولم يصفحوا عنه بعدها ، وكانوا ينظرون بعين نقادة منذرة بالشر إلى ما تا وم به أسرته فى البور — رويال . وكان لأربعة على الأقل من بين أبنائه — البالغين نيفا وعشرين — دور فى قصة ذلك الدير . فقد عينت جاكلين آرنو

مساعدة لرئيسة دير البور — رويال وهى فى السابعة (١٥٩٨) وبعد عام أصبحت شقيقتها جان ، البالغة ستة أعوام ، رئيسة لدير سان — سير . وكان التعيينان بأمر هنرى الرابع ، وثبتهما مرسومان بابويان أمكن الحصول عليهما بتزييف عمر الفتاتين(١٠) . ولعل أباهما التمس لابنتيه هاتين الوظيفتين بديلا عن المنذور على زوجين ومهرين لهما .

فلما أصبحت جاكلين ، بوصفها الأم آنجليك ، رئيسة إسمية لبور — رويال (١٦٠٢) لم تجد غير أرخى النظم بين راهباته الثلاث عشرة ، فقد كانت كل منهن تحتفظ بثروتها ، وتكشف شعـرها ، وتستعمل مستحضرات التجميل ، وتتبع أحدث الأزياء . وقل أن تناولن الأسرار المقدسة ، ولم يستمعن لأكثر من سبع عظات خلال ثلاثين عاما(١١) . فلما ازداد وعى الرئيسة الشابة بالحياة التى ألزمها إياها أبواها ، سخطت ونوت الهروب (١٦٠٧) . « فكرت فى مغادرة البور — رويال والعودة إلى العالم — دون إحاطة أبى أو أمى بنيتى ، لأهرب من هذا النير الذى لا يطاق ، ولأتزوج » . (١٢) ومرضت ، فحملت إلى بيتها ، وهناك مرضتها أمها بكثير من الرعاية الحانية حتى عادت إلى البور — رويال عقب إبلالها وهى مصممة على الوفاء بنذورها الديرية حبا فى أمها . على أنها أوصت بمشد من عظام الحوت لتحفظ لقوامها نحافته(١٣) . وظلت تخفى نفورها من الحياة الدينية إلى أن سمعت فى عيد القيامة عام ١٦٠٨ عظة ألقاها راهب كبوشى عن آلام المسيح ، وكانت يومها فى ميعة الصبا . قالت تروى الحدث فيما بعد « خلال هذه العظة لمسني الله لمسة جعلتنى أحس منذ تلك اللحظة بأنى أسعد حالا فى حياة الرهبنة . . . ولا أدرى أى شىء كنت أحجم من فعله لله إذا واصل تعالى هذه الحركة التى منحتني إياها نعمته(١٤) » . ذلك ، فى لغتها ، كان « أول عمل للنعمة » (أى اللطف الإلهى) .

وفى أول نوفبر من ذلك العام ملأتها عظة أخرى — هى « ثانى أعمال

النعمة » شعورا بالخزى من شدة تراخيها وتراخى راهباتها فى الوفاء بما نذرن من فقر وعزلة . وإذ كانت ممزقة بين حبها للراهبات ورغبتها فى فرض نظام الطريقة السسترسية ، فقد رانت عليها الكآبة ، ومارست ألوانا من التقشف لم يقو عليها جسدها ، فأصابتها الحمى . ولا بد أنها كانت لطيفة محببة إلى النفوس ، وآية ذلك أنه حين ســـألها الراهبات عن السر فى حزنها ، وصارحتهن برغبتها فى أن يرجعن إلى التزام نظام رهبتهن بحذافيره ، ارتضين حكمها ، وجمعن كل ممتلكاتهن الخاصة ، وأخذن العهد على أنفسهن بالفقر الدائم .

أما الخطوة الثانية ، وهى اعتزال العالم ، فكانت أشد إيلاما . فقد حظرت الأم أنجليك على الراهبات أن يغادرن الدير ، أو يستقبلن الزوار — حتى أقرب الأقرباء — دون إذن صريح ، فإذا استقبلنهم ففى قاعة الاستقبال دون غيرها . وشكون مما سيكلفهن هذا من عنت شديد . ولكى تعطيهن القدوة الحسنة المشددة لمزاعمهن صممت ألا ترى أبويها فى زيارتهما التالية إلا من نافذة ذات شباك أو « شيش » فى الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال وحجرات الدير . فلما حضر أبواها راعهما أنها لا تريد التحدث إليهما إلا من خلال هذا الشباك . . وأصبح « يوم الشباك » journee du guichet (٢٥ سبتمبر ١٦٠٩) يوما مشهورا فى الأدب الدائر حول البور — رويال .

وهدأ غضب الأسرة المقصاة ، وتأثر أفرادها بورع الأم أنجليك (التى بلغت الآن الثامنة عشرة) تأثرا حمل الفتاة تلو الفتاة من بيت آرنو على دخول البور — رويال . ففى ١٦١٨ ، أخذت شقيقتها آن أوجنى على نفسها عهد الرهبنة . ولحقتها شقيقات أخريات بعد قليل — كاترين ، وماري ، ومادلين . وفى ١٦٢٩ ، جثت أمهن الأرملة عند قدمى الأم أنجليك ملتمسة قبولها مبتدئة فى الرهبنة ثم أخذت العهد فى الوقت المناسب ، وعاشت فى تواضع وسعادة

تحت رئاسة ابنتها ، وراحت تدعوها منذ الآن بالأم . وقد حمدت الله وهي تحتضر (١٦٤١) لأنها قدمت ستاً من بناتها للحياة الدينية . ودخلت خمس من حفيداتها البور — رويال في فترة لاحقة . وأصبح ابنها روبير وثلاثة من حفدتها « متوحدين » هناك ، وأصبح ألمع أبنائها ، وهو انطوان آرنو الثاني ، عضو السوربون ، فيلسوف البور — رويال ولاهوتيه . وإنا ليأخذنا العجب لهذه الخصوبة ، ولا نملك غير الاحترام لمثل هذا الصدق في التعبد والولاء والإيمان(*) .

وقادت الأم أنجليك قطيعها خطوة بخطوة عـــوداً إلى نظام الرهبنة السترسية الكامل فحفظت الراهبات ، اللائي بلغ عددهن الآن ستا وثلاثين ، جميع الأصوام بدقة تامة ، ومارسن الصمت فترات طويلة ، واستيقظن في الثانية صباحا لترتيل تسبحة الصباح ، ووزعن الصدقات على فقراء الجيران من ماطن المشترك . وسرت الإصلاحات من البور - رويال ، وأرسلت الراهبات اللائي دربن فيه الأديار في جميع أرجاء فرنسا لحضها على العودة إلى سابق نظمها . من ذلك أن ديرا في موبويسون كان شديد الإنحـلال ، وقد استعمله هنري الرابع من قبل مكان لقاء مع خليلته جابرييل دستريه ، وكانت رئيسته عاطلة ببناتها غير الشرعيات ، وكان الراهبات يغادرن ديرهن دون قيد ليلقين ويراقصن رهبان دير مجاور(١٦) . وفي ١٦١٨ طلب رؤساء الأم انجليك إليها أن تحل محل رئيسة دير موبويسون ، ومكثت هناك خمس سنوات ، فلما عادت إلى البور — رويال تبعتها اثنتان وثلاثون راهبة إلى الدير الأم الذي انبعث منه نور الإصلاح .

وفي ١٦٢٦ ظهر وباء الملاريا في البور — رويال ، وإذ نبه بعضهم أنجليك

(*) لاحظ سانت - بيف أن « عدة شابات ممن بينهن راهبات البور - رويال كن قد أصبن بالجدري فتشوهت وجوههن في سن مبكرة » ، وأضاف في خبث « لا أريد أن أقول أننا لا نهب الله إلا مافقد قيمته في هذه الدنيا » (١٥) .

إلى مانى جوالدير الرطب من خطر ، فإنها انتقلت مع راهباتها إلى منزل بباريس . وهناك ، وتحت تأثير الجانسنية ، دخلن معركتهن التاريخية مع اليسوعيين والملك . وسرعان ما احتل « المتوحـــدون » المبانى المهجورة المتهدمة فى البور — رويال — دى — شان ، وكانوا رجالا رغبوا فى أن يحيوا حياة أقرب إلى الحياة الديرية وان لم ينذروا أنفسهم الرهبنة . ووفد على المكان نفر من آل آرنو — أنطوان الثانى ، وأخوه روبير آرنو داندلى ، وابنا أختيه أنطوان لوميتر وسيمون لوميتر دسريكور ، وحفيده إسحاق لوى سامى ، وانضم إليهم بعض رجال الكنيسة ، أمثال بيير نيكول وأنطوان سانجلان ، لابل بعض النبلاء أمثال الدوق دلون والبارون دبرنشانو . وراحوا يصرفون مياه المستنقعات ، ويحفرون الخنادق ، ويرممون المبانى ، ويعنون بالبساتين والحدائق . وكانوا — جماعة أو فرادى — يمارسون ألوانا من الفنون ، ويصومون ، ويرتلون ، ويصلون ، ويلبسون لباس الفلاحين ، ويمتنعون عن تدفئة غرفهم فى البرد القارس . وكانوا يدرسون الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة ، وقد ألفوا كتبا فيها تعبد وتفقه ، وأحد هذه الكتب ، واسمه « فن التفكير » ، وهو من تأليف نيكول وآرنو الصغير ، ظـــل كتيبا محببا فى المنطق حتى القرن العشرين .

وفى ١٦٣٨ افتتح المتوحدون « مدارس صغيرة » دعوا إليها أطفالا اختاروهم من سن التاسعة أو العاشرة ، وعلموهم الفرنسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والنواحى السنية فى فلسفة ديكارت . وطلب إليهم أن يجتنبوا الرقص والمسرح (وكلاهما وافق عليه اليسوعيون) ، وأن يصلوا كثيراً ، ولكن ليس للقديسين ، ولم تكن هناك صور دينية فى الكنيسة الصغيرة التى يسمعون فيها القداس . وفى البور — رويال — دى — شان ، والبور — رويال — د — بارى ، أصبح اعتراض تقوى آل آرنو على فساد البلاط ،

اعتراضاً آخر من اللاهوت والأخلاق الجانسنية الصارمة على تيسير اليسوعيين للمسيحية حتى توائم الطبيعة البشرية .

٣ ــ الجانسنيون واليسوعيون

كان كورنيليس جانسن هولنديا ، ولد فى ولاية أوترخت لأبوين كاثوليكيين ، ولكنه تأثر تأثرا عميقا باللاهوت الأوغسطيني الذى دان به جيرانه الكالفنيون . فلما التحق بجامعة لوفان الكاثوليكية (١٦٠٢) وجدها مضطرمة بجدل عنيف بين الحزب اليسوعى أو السكولاستى ، وشيعة تتبع الآراء الأوغسطينية التى نادى بها ميخائيل بايوس فى الجبرية والنعمة الإلهية . وانحاز جانسن إلى الأوغسطينيين . وفى الفترة بين دراسته السابقة للتخرج وعمله أستاذا ، قبل جانسن دعوة وجهها إليه زميل يدعى جان دوفرجييه دهوران ليعيش معه فى بايون . وقد درسا القديس بولس والقديس أوغسطين ، واتفقا على أن خير سبيل للدفاع عن الكاثوليكية ضد الكالفنيين الهولنديين والهيجونوت الفرنسيين هو الاقتداء بأوغسطين فى تشديده على النعمة الإلهية والجبرية ، وتأصيل دستور أخلاق صارم بين الاكليروس والعلمانيين الكاثوليك ، يفضح الانحلال المنتشر فى البلاط والأديار ، كما يفضح أخلاقيات اليسوعيين الهينة اللينة .

وفى ١٦١٦ ، بينما كان جانسن رئيسا لبيت للطلاب الهولنديين فى لوفان ، هاجم لاهوت اليسوعيين فى حرية الإرادة ، وبشر بطهورية صوفية قريبة من التقوية التى كانت بسبيل التشكل فى هولندة ، وانجلترة ، وألمانيا . ثم واصل الحرب أستاذا لتفسير الكتاب المقدس بلوفان ، وأسقفا لأيبر . وترك عند موته (١٦٣٨) رسالة كبيرة — لم ينجزها تماما — عنوانها «أوغسطينوس» مالبثت بعد نشرها فى ١٦٤٠ أن أصبحت البرنامج العقائدى

للبور — رويال ، ومثار الجدل فى اللاهوت الكاثوليكى الفرنسى طوال قرن تقريبا .

ومع أن الكتاب اختتم بلفتة خضوع لكنيسة روما ، فإن كالفنيى الأراضى المنخفضة رحبوا به بوصفه لب الكالفنية وجوهرها(١٧) . فقد قبل جانسن الجبرية قبولا تاما كما قبلها أوغسطين ولوثر وكالفن من قبل . فحتى قبل أن يخلق الله العالم ، اختار تعالى أولئك الرجال والنساء الذين ينبغى أن يخلصوا ، وقرر من ينبغى أن يهلكوا ، وأعمال البشر الصالحة ، وإن تكن ذات قيمة ، لا يمكن إن تكسبهم الخلاص دون معونة من النعمة الإلهية ، وقليلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة . أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تكن أنكرت صراحة جبرية القديس بولس والقديس أوغسطين ، ولكنها تركتها تتوارى فى خلفية تعليمها ، لصعوبة التوفيق بينها وبين حرية الإرادة ، التى بدا أنها شرط لاغنى عنه — منطقيا — للمسئولية الخلقية ولفكرة الخطيئة . ولكن إرادة الإنسان فى رأى جانسن ليست حرة ، فقد فقدت حريتها بخطيئة آدم . وأصبحت طبيعة الإنسان الآن فاسدة فسادا يعجزه عن تخليص نفسه ، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التى اكتسبها بموت المسيح . أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانسن أنه يغالى فى دور الأعمال الصالحة فى نيل الخلاص ، ويجعل موت المسيح ، ذلك الموت الذى افتدى الخطاة ، أمراً لاضرورة له تقريبا . ثم نبه إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد ، فالعقل ملكة أدنى بكثير من الإيمان الواثق المسلم ، تماما كما أن للممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله .

وقد وصلت هذه الأفكار إلى البور — رويال بطريق دوفرجييه ، الذى كان أثناء ذلك قد أصبح رئيسا لدير سان — سيران . وقد وفد مسيودسان — سيران ، كما سمى الآن ، على باريس وهو يتقد غيرة وتحمسا

لاصلاح اللاهوت والأخلاق ، وليستبدل التقوى الباطنة بالتدين الظاهر وسرعان ما قبل مرشدا روحيا للراهبات فى البور – رويال – دبارى ، وللمتوحدين فى البور – رويال دى – شان (١٦٣٦) ، وغدت هذه المؤسسة المزدوجة صوت الجانسنية ونموذجها الأمثل فى فرنسا . أما ريشليو فقد رأى فى هذا المصلح رجلا متعصبا مثيرا للقلاقل ، فاعتقله فى فانسين (١٦٣٨) . وفى ١٦٤٢ أفرج عن سان – سيران ، ولكنه مات بالفالج بعد سنة .

وقد ظل يلهم الكثيرين من آل آرنو حتى وهو فى سجنه . فنشر آرنو الثانى « آرنو الكبير » فى ١٦٤٣ رسالة فى « كثرة تناول الأسرار المقدسة » واصلت حرب أبيه مع اليسوعيين . ولم يذكر اسمهم صراحة ، ولكنه ندد بفكرة أحس بأن بعض الكهنة الاعتراف يتسامحون فيها ، وهى أن فى قدرة الخاطىء أن يكفر عن خطيئته المتكررة إذا أكثر من الاعتراف وتناول القربان . وشعر اليسوعيون بأنهم المقصودون بهذا الهجوم ، فشددوا النكير على آل آرنو . وتوقع أنطوان المتاعب ، فرحل عن باريس إلى البور – رويال – دى – شان . وفى ١٦٤٨ رحلت الراهبات أيضا من العاصمة وقد روعتهن حرب الفروند وعدن إلى مقرهن القديم . وأخلى المتوحدون المكان وانتقلوا إلى مزرعة قريبة تدعى ليجرانج .

كان البابا أوربان الثامن قد أدان (١٦٤٢) العقيدة العامة التى انطوى عليها كتاب جانسن « أوغسطينوس » . وفى ١٦٤٩ طلب أستاذ فى السوربون إلى الكلية أن تدين سبع قضايا فى الكتاب رغم أنها تحظى برواج شديد . وأحيل الأمر إلى إنوسنت العاشر ، وانتهز اليسوعيون الفرصة ليقنعوا البابا بما تنطوى عليه الجانسنية من أخطار بوصفها لاهوتا كالفنيا يتخفى فى فى ثوب كاثوليكى . وأخيرا حملوه على إصدار مرسوم Cum occasione (٣١ مايو ١٦٥٣) ، حكم بالهرطقة على خمس قضايا زعم أنها مأخوذة من كتاب « أوغسطينوس » :

١ — هناك تعاليم الهية يعجز الصالحون عن طاعتها عجزا مطلقا رغم إرادتهم .

٢ — لايستطيع إنسان أن يقاوم تأثير النعمة الإلهية .

٣ — لكى تكون أعمال البشر أهلا أو غير أهل للمكافأة والتقدير لايشترط أن تكون خلوا من الضرورة القاهرة ، بل يكفى أن تكون بلا ضغط أو كبت .

٤ — هذه الهرطقة ، الشبيهة بهرطقة بيلاجيوس ، مؤداها السماح لارادة الإنسان بأن تمنح قوة مقاومة النعمة ، أو الامتثال لتأثيرها .

٥ — كل من زعم أن المسيح مات ، أو سفك دمه ، للبشر جميعا ، هو شبيه ببيلاجيوس(١٨) .

هذه القضايا لم تؤخذ حرفيا من كتاب « أوغسطينوس » ، ولكنها صيغت بقلم أحد اليسوعيين تلخيصا لتعليم هذا الكتاب . وهى كخلاصة فيها قدر لابأس به من الانصاف(١٩) ، ولكن الجانسنيين احتجوا بأن القضايا ، بهذا الوصف ، لاتوجد عند جانسن — وإن كان آرنو قد ألمع فى خبث إلى أنه يمكن العثور عليها كلها عند القديس أوغسطين . وفى غضون ذلك لم يقرأ الكتاب أحد فيما يبدو .

وكان أنطوان آرنو مقاتلا بالفطرة . فأقر بعصمة البابا فى أمور الإيمان والأخلاق ، لافى الأمور المتصلة بالحقيقة الواقعة ؛ ومن الحقائق الواقعه أنه أنكر أن جانسن قرر هذه القضايا المحكوم بإدانتها . وفى ١٦٥٥ عاد إلى مقاتلة اليسوعيين فى عقر دارهم بنشره « رسائل إلى دوق دبيل » ، وقد هاجم فيها الأساليب التى زعم أنهـا أساليب اليسوعيين فى كرسى الاعتراف ورحبت السوربون باقتراح بطرده . فأعد دفاعه ، وقرأه على أصحابه فى البور — رويال . فلم يقع من نفوسهم موقعا ذا بال ، وكان أحدهم

مريدا جديدا يدعى بليز بسكال. فاتجه إليه آرنو وأهاب به قائلا : « أنت أيها الشاب ، لم لا تكتب شيئا(٢٠) ؟ » واعتكف بسكال فى حجرته ، وكتب أول «رسائله الإقليمية» وهو من عيون الأدب والفلسفة الفرنسيين. وينبغى أن نستمع إلى بسكال فى شىء من الإسهاب ، لأنه لم يكن أعظم كتاب النثر الفرنسى فحسب ، بل ألمع المدافعين عن الدين فى عصر العقل بأكمله .

٤ - بسكال : ١٦٢٣ - ٦٢

ا — بسكال الإنسان

كان أبوه إتيين بسكال رئيسا لمحكمة المعاونين بكليرمون — فيران فى وسط فرنسا الجنوبى . وماتت أمه بعد مولده بثلاث سنين ، مخلفة فضلا عنه أختا أكبر منه تدعى جلبيرت وأخرى أصغر تدعى جاكلين . وانتقلت الأسرة إلى باريس حين بلغ بليز الثامنة . وكان إتيين يدرس الهندسة والفيزياء ، وقد أتاح له تفوقه فيهما أن يصادق جاسندى ، وميرسين ، وديكارت . وكان بليز يسترق السمع لبعض لقاءاتهم ، فأصبح فى الفترة الأولى من حياته عاشقا للعلم . فلما بلغ الحادية عشرة ألف رسالة قصيرة عن أصوات الأجسام المتذبذبة . وخيل للأب أن ولع الصبى بالهندسة سيلحق الأذى بدراساته الأخرى ، فحظر عليه حينا أن يمضى فى عكوفه على الرياضيات . ولكن حدث يوما — فيما روى — أن إتيين وجده يكتب على الحائط بقطعة من الفحم البرهان على أن زوايا المثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين(٢١) ، وبعدها سمح للغلام أن يدرس اقليدس . وقبل أن يبلغ السادسة عشرة كتب بحثا فى القطاعات المخروطية فقد أكثره ، ولكن إحدى نظرياته كانت مساهمة خالدة فى ذلك العلم ، وما زالت تحمل اسمه . وحين عرضت مخطوطة البحث على ديكارت أبى أن يصدق أنه من وضع الابن لا الأب .

فى ذلك العام (١٦٣٩) لعبت أخته الجميلة جاكلين دوراً مثيراً فى حياة الأسرة ، وكانت آنئذ فى الثالثة عشرة . ذلك أن الأب كان قد استثمر بعض المال فى السندات البلدية ، وخفض ريشليو نسبة الفائدة التى تؤدى عن هذه السندات ، فانتقده إتيين ، وهدد الكردينال بالقبض عليه ، فاختبأ فى أوفرن . ولكن الكردينال كان يحب التمثيليات والبنات ، وقامت بعض الفتيات — ومنهن جاكلين — بتمثيل مسرحية سكوديرى « الحب الظالم » أمامه ، فشرح تمثيلها صدره ، واغتنمت هى الفرصة وتوسلت إليه أن يصفح عن أبيها ، ففعل ، وعينه ناظراً ملكياً فى روان عاصمة نورمنديه ، وإليها انتقلت الأسرة فى ١٦٤١ .

وهناك اخترع بليز أول آلاته الحاسبة العديدة المحفوظ بعضها إلى الآن فى كونسرفتوار الفنون والصنائع بباريس ، وكان يومها فى التاسعة عشرة . أما المبدأ الذى قامت عليه فهو سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام وصفر ، ويحرك كل منها ليدور عشر دورة نظير كل دورة كاملة للترس الذى إلى يمينه ، ويظهر كل منها رقمه الأعلى فى ثقب عند القمة . ولم تكن الآلة تستطيع غير الجمع ، ولا كانت عملية من الناحية التجارية ، ولكنها قربت من بداية تطور يثير اليوم دهشة العالم . وأهدى بسكال إحدى آلاته الحاسبة إلى كرستينا ملكة السويد ، مشفوعة بخطاب اطراء بليغ جداً ، فدعته إلى قصرها ، ولكنه أحس بأنه أضعف من أن يحتمل ذلك المناخ الرهيب .

وكان العالم الشاب المتحمس شديد الاهتمام بالتجارب التى نشرها تورتشيللى عن وزن الهواء ، وطرأت على خاطر بسكال فكرة كان فيها مستقلا عن تورتشيللى ، ولكن ربما استوحاها من اقتراح لديكارت(٢٢) ، ومؤداها أن الزئبق فى أنبوبة تورتشيللى يرتفع إلى مستويات مختلفة فى أماكن مختلفة ، حسب اختلاف الضغط الجوى . فطلب إلى زوج أخته فى أوفرن أن يحمل أنبوبة زئبق إلى قمة جبل ، ويلاحظ أى فرق — على مختلف

المستويات — فى ارتفاع الزئبق فى الجزء المقفل من أنبوبة فتح طرفها الآخر لضغط الهواء . وفعل فلوران بيرييه كما طلب إليه ، فى ١٩ سبتمبر ١٦٤٨ ارتقى مع بعض أصحابه « بوى ددوم » ، الذى يرتفع خمسة آلاف قدم فوق مدينة كليرمون — فيران ، وهناك ارتفع الزئبق إلى ثلاث وعشرين بوصة فى الأنبوبة ، بينما ارتفع عند سفح الجبل إلى ست وعشرين ، وهللت أوربا كلها للتجربة لأنها أثبتت نهائياً مبدأ البارومتر وقيمته .

وتلقى بسكال بفضل شهرته عالماً (١٦٤٨) نداء مثيراً من مقامر طلب إليه أن يضع قانوناً لرياضيات الحظ أو الصدفة ، فقبل التحدى ، واشترك مع فيرما فى وضع حساب الاحتمالات ، الذى ينتفع به الآن كثيراً فى جداول التأمين من المرض والموت . ولم تبد عليه فى هذه المرحلة من نموه أى بادرة بأنه سينقل يوماً ما ولاءه من العلم إلى الدين ، أو يفقد إيمانه فى المنطق والتجريب ، وواصل العمل عشر سنين فى المعضلات العلمية لاسيما الرياضية منها ، وفى تاريخ متأخر (١٦٥٨) عرض جائزة من مجهول فى تربيع الدويرى — وهو الخط المنحنى الذى تحدثه نقطة على دائرة تدحرج على خط مستقيم فوق سطح مستو . وتقدم بالحلول واليس ، وهويجنز ، ورن ، وغيرهم ، ونشر بسكال بعد ذلك حله ، تحت اسم مستعار ، وأعقب ذلك جدل سلك فيه المتنافسون ، ومنهم بسكال ، مسلكاً لم يتسم بالكثير من الفلسفة .

وتسلط على حياته خلال ذلك مؤثران أساسيان ، المرض والجانسنية . ذلك أنه منذ كان فتى فى الثامنة عشرة عانى من علة عصبية قل أن تركته يوماً بغير ألم . وفى ١٦٤٧ أقعدته إصابة بالشلل لم يستطع بسببها المشى إلا إذا توكأ على عكازين . كان رأسه يصدع ، وأمعاؤه تلتهب ، وساقاه وقدماه دائمة البرودة والحاجة إلى الوسائط المرهقة لتنشيط دورته الدموية ، وكان يلبس الجوارب الطويلة المنقوعة فى البراندى التماساً لدفء قدميه .

وكان مما حمله على الانتقال إلى باريس مع جاكلين أن يجد علاجاً طبياً أفضل ، وتحسنت صحته ، ولكن جهازه العصبي كان قد لحق به أذى مستديم. فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لأوهام ازداد عمقها على الأيام حتى أثرت في خلقه وفلسفته ، فبات سريع الإنفعال ، فريسة لنوبات من الغضب المتكبر العاتي ، وقل أن أشرق وجهه بابتسامة(٢٣) .

وكان أبوه طيلة حياته كاثوليكياً تقياً بل صارماً وسط شواغله العلمية ، وقد علم أبناءه أن الإيمان الديني أثمن ما يملكون ، وأنه شيء بعيد كل البعد عن متناول أو عن حكم قوى التفكير الضعيفة التي يملكها البشر . وفي روان أصيب الأب بجرح خطير فعالجه طبيب جانسني بنجاح ، ومن هذا الاتصال اتخذ إيمان الأسرة مسحة جانسنية ، فلما انتقل بليز وجاكلين إلى العاصمة كثر اختلافهما إلى القداس في البور — رويال — د — باري ، ورغبت جاكلين في دخول الدير راهبة ، ولكن أباها لم يستطع أن يروض نفسه على السماح لها بالخروج من حياته اليومية ، ولكنه مات عام ١٦٥١ ، وما لبثت جاكلين أن ترهبت في البور — رويال — دي — شان ، بعد أن حاول أخوها عبثاً أن يثنيها عن عزمها .

وتنازعا حيناً على تقسيم ميراثهما ، فلما سوى النزاع وجد بليز نفسه رجلا غنياً حراً - وتلك حال مجافية لحياة التقوى ، فاتخذ لنفسه بيتاً فاخر الأثاث ، واستكثر من الخدم ، وجاب باريس في مركبة تجرها خيول أربعة أو ستة(٢٤) . وأعطاه شفاؤه المؤقت شعوراً خداعا بالنشاط والخفة حرفه من التقوى إلى اللذة . وعلينا ألا ننفسه على تلك السنوات القليلة التي قضاها « في العالم » (١٦٤٨ — ٥٤) ، يستمتع بصحبة ظرفاء باريس وألعابها وحسانها ، ويطارد في برهة مثيرة بأوفرن سيدة ذات جمال وثقافة ، وصفها بـ — « سافو الريف(٢٥) » . وحوالي هذه الفترة كتب « أحاديث في آلام الحب » ويلوح أنه فكر في الزواج — الذي سيصفه في تاريخ لاحق بأنه « أحط ظروف الحياة المباحة لمسيحي(٢٦) » . وكان بعض أصحابه

الجرة جمعوا بين الحريتين ، حرية الأخلاق وحرية الفكر ، ولعلهم هم الذين أثاروا اهتمام بسكال بمونتيني ، الذي تغلغلت الآن « مقالاته » في حياته . وأكبر الظن أن تأثيرها الأول عطفه نحو التشكك الديني .

وبخته جاكلين حين نمى إليها نبأ عبثه الجديد ، وصلت لأجل صلاح حاله . وكان من خصائص طبيعته العاطفية أن تستجيب لصلواتها إثر حادث وقع له . ذلك أنه بينما كان ذات يوم يركب عربته فوق البونت دونويي جسر نيللي ، جمحت الخيول واندفعت فوق الحاجز إلى نهر السين . وكادت العربة أن تتبع الخيل ، ولكن العنان انقطع لحسن الحظ ، وتعلقت المركبة بنصفها فوق الحافة . وخرج منها بسكال وأصحابه ، ولكن الفيلسوف المرهف الحس أغمى عليه لفرط خوفه من الموت الداهم ، وظل برهة غائباً عن رشده . فلما أفاق شعر بأنه رأى الله في رؤيا . وفي نشوة من الخوف والندم وعرفان الجميل سجل رؤياه على رق راح يحمله منذ تلك اللحظة مخيطا في بطانة سترته : « السنة ١٦٥٤ بعد الميلاد ، الأثنين ٢٣ نوفمبر . . . من نحو السادسة والنصف مساء إلى النصف بعد منتصف الليل . أن الاله القديم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله يعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء . اليقين ، اليقين ، الوجدان ، الفرح ، السلام . إله يسوع المسيح . . . لن يجده الإنسان إلا بالطرق التي يعلمها الإنجيل . ياسمو النفس الإنسانية ، أيها الآب العادل ، أن العالم لم يعرفك قط ، ولكنني عرفتك . إنه الفرح ، الفرح ، دموع الفرح . . . يا إلهي ، هل أنت تاركي ؟ يسوع المسيح . . . لقد فصلت عنه ، وهربت منه ، وتخليت عنه ، وصلبته . ليتني لا أفارقه أبداً ، إنها المصالحة الحلوة الكاملة(٢٧) » .

وعاود زياراته للبور — رويال ولجاكلين ، وشرح صدرها بحالته النفسية الجديدة ، حالة التواضع والتوبة . واستمع إلى عظات أنطوان سانجلان . وفي ديسمبر ١٦٥٤ أصبح عضوا في جماعة البور — رويال(٢٨) . وفي يناير كان له هناك حديث طويل مع ساسي ، الذي آلى على نفسه أن

يتهمه بسطحية العلم وعقم الفلسفة . وآنس آرنو ونيكول من العضو الجديد حماسة فى الاهتداء وبراعة فى التعبير الأدبى تبدوان وكأنهما اداة وضعتها العناية فى أيدى الجماعة للدفاع عن البور — رويال ضد اعدائه . فطلبا إليه أن يخصص قلمه للرد على اليسوعيين الذين كانوا يحاولون تصوير الجانسنية على انها خطيئة . وأستجاب للطلب فى ذكاء وقوة بلغا مبلغا جعل جماعة اليسوعيين تشكو إلى اليوم من وخز بسكال الأليم .

ب ـ الرسائل الأقليمية

فى ٢٣ و ٢٦ يناير ١٦٥٦ نشر بسكال الرسالتين الأولى والثانية مما سماه « رسائل كتبها لوى دمونتالت » (وهو اسم مستعار) « إلى صديق فى الأقاليم » وإلى الآباء اليسوعيين المبجلين » عن أخلاقياتهم وسياساتهم » . وكان إطارها ذكيا ، فقد زعم إنها تقرير من باريس إلى صديق فى الأقاليم عن المسائل الخلقية واللاهوتية التى كانت يومئذ تثير الأوساط الفكرية والدينية فى العاصمة . وقد زود آرنو ونيكول بسكال بالحقائق والمراجع . أما هو فقد أبدع ذلك الأسلوب الأدبى الذى استشرف مستوى جديداً فى النثر الفرنسى ، فقــــد توافرت لبسكال حماسة المؤمن الجديد وذكاء رجل الدنيا وتهذيبه .

أما الرسائل الأولى فقد التمست التأييد العام لآراء الجانسنيين فى النعمة الالهية والخلاص ، وهى الآراء التى دافع عنها آرنو من قبل ، وقد قصد بها أن تؤثر فى السوربون لتعارض الاقتراح بطرد آرنو . وقد فشلت فى هذا ، إذ جرد آرنو رسميا من لقبه وطرد (٣١ يناير) . وحفز الفشل بسكال وآرنو إلى الهجوم على اليسوعيين لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب آباء اعترافهم من تحلل ، وما يشوب فتاواهم من ثغرات . وقد نقبا فى مؤلفات إيسكوبار وغيره عن اليسوعيين ونددا بمبادىء « الاحتمالية » و « التوجيه بالنيه » و « التحفظ العقلى » ، وحتى بتوفيق المرسلين اليسوعيين بين

اللاهوت المسيحى وعباده الصينيين لأسلافهم(٢٩) . وإن لم يتهما اليسوعيين صراحة بتبرير الوسائط لبلوغ الغايات . وكان هذا المهدى يزداد حماسة كلما توالت الرسائل وكشف له آرنو عن المزيد من فتاوى إيسكوبار . وبعد الرسالة العاشرة أقلع عن أكذوبة الباريسى كاتب الرسائل للإقليمى ، وأماط اللثام عن شخصه ، ووجه الخطاب إلى اليسوعيين رأساً فى بلاغة تضطرم سخطا ، وذكاء يفيض تهكما . وكان ينفق أحيانا عشرين يوماً فى تحرير رسالة واحدة ، ثم يهرع بها إلى المطبعة قبل أن يفتر اهتمام الجمهور . وقد اعتذر عن طول الرسالة السادسة عشرة بعذر فريد فى بابه ، إذ قال «لم يتسع لى الوقت لاختصارها(٣٠) » . وفى الرسالة الثامنة عشرة والأخيرة (٢٤ مارس ١٦٥٧) تحدى البابا نفسه . ذلك أن البابا الإسكندر السابع أصدر (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) تنديدا آخر بالجانسنية ، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة للخطأ ، كما أخطأ فى حالة جاليليو (٣١) (وذلك شعور بسكال) . وأدان البابا الرسائل (٦ سبتمبر ١٦٥٧) ولكن فرنسا المثقفة كلها قرأتها .

أكانت الرسائل منصفة لليسوعيين ؟ أنقلت المختارات عن الكتاب اليسوعيين نقـــلا أمينا ؟ قال عقلانى مثقف « صحيح ولا ريب أن بعض العبارات المعدلة حذفت أحيانا دون موجب ، وأن عبارات أخرى ترجمت ترجمة خاطئة ، وأن ضغط الفقرات الطويلة فى جمل قصيرة يشعرك فى بعض الحالات بأن فى هذا إجحافا بالمؤلف » ثم يقول « ولكن هذه الحالات قليلة وغير هامة نسبيا »(٣٢) وهناك الآن إجماع على أن المختارات دقيقة فى جوهرها (٣٣) على أنه لابد من التسليم بأن بسكال انتزع أشد فقرات بعض المفتين إزعاجاً وشبهة من سياقها ، وقاد شطراً من الجمهور إلى رأى فيه غلو كثير ، مؤداه أن هؤلاء الفقهاء اللاهوتيين يتآمرون على هدم أخلاق العالم المسيحى . وقد أطرى فولتير براعة الرسائل بوصفها أدبا ، ولكنه رأى أن « الكتاب كله مبنى على أساس زائف . فقد نسب المؤلف فى حذق إلى الجماعة اليسوعية

كلها الآراء المتطرفة التي قال بها بعض اليسوعيين الأسبان والفلمنك(٣٤) » ، الذين خالفهم كثير من اليسوعيين . وأسف دللبير لأن بسكال لم يتهكم بالجانسنيين أيضا ، لأن « تعاليم جانسن وسان سيران المروعة كانت تتيح على الأقل مجالا للسخرية لا يقل عما أتاحته التعاليم الطيعة التي نادى بها موليا وتامبوران وفاسكويز(٣٥) » .

وكان تأثير « الرسائل » هائلا . صحيح أنها لم تخضد لتوها شوكة اليسوعيين — ومن المؤكد أنها لم تنتقص من سلطانهم على الملك — ولكنها فضحت شطط المفتين فضحاحمل الاسكندر السابع نفسه على إدانة «التحلل» ، رغم مواصلته معارضة الجانسنية ، وعلى الأمر بمراجعة نصوص الفتاوى (١٦٦٥ -- ٦٦)(٣٦) . و « الرسائل » هي التي أضفت على كلمة الافتاء الديني « Casuistry » مدلول التشقيقات الخداعة المظهر التي تدافع عن الأفعال أو الأفكار الخاطئة . ثم إنها أضافت آية من آيات الأسلوب إلى ذخيرة الأدب الفرنسي . وكأن فولتير قد عاش قرنا قبل فولتير . فهنا ذكاء فولتير المرح ، وتهكمه البتار ، وفكاهته الشكاكة ، وقدحه العنيف ، وفي الرسائل اللاحقة ذلك الاستنكار الحار للظلم ، الذي أنقذ فولتير من أن يكون موسوعة سخرية وتهكم . وقد وصف فولتير نفسه الكتاب بأنه « خير ما كتب وظهر في فرنسا إلى الآن »(٣٧) ، وكان رأى أنفذ النقاد قاطبة وأكثرهم رهافة وتمييزا أن بسكال « ابتكر النثر الرائع في فرنسا(٣٨) » وحين سئل بوسويه أي كتاب كان يؤثر أن يؤلف لو لم يؤلف كتابه قال ، إنه رسائل بسكال الإقليمية(٣٩) .

حـ — في الدفاع عن الإيمان

عاد بسكال إلى باريس في ١٩٥٦ ليشرف على نشر « الرسائل » ، وعاش هناك طوال السنوات الست الباقية من عمره . على أنه لم يهجر العالم ، ففي سنة

موته ذاتها شارك فى تنظيم خدمة منتظمة بالمركبات فى العاصمة — وهى البذرة لشبكة الأمنوبيسات الحالية . ولكن حدثين وقعا له جددا تقواه ، وحملاه على أن يتوج أعماله بكتاب جديد أسهم به فى الأدب والدين . ذلك أنه فى ١٥ مارس ١٦٥٧ حمل اليسوعيون من الملكة الأم على أمر بإغلاق مدارس الموحدين وحظر قبول المزيد من الأعضاء فى البور — رويال . وأطيع الأمر فى هدوء ، وأرسل الأطفال — وكان من بينهم راسين — إلى بيوت الأصدقاء ، وتفرق المعلمون محزونين . وبعد تسعة أيام (وهو تاريخ صدور آخر الرسائل الإقليمية) وقع مابدا معجزة فى كنيسة دير الراهبات الذى تكدر صفوه . ذلك أن ابنة أخت بسكال البالغة من العمر تسع سنوات ، واسمها مارجريت بيرييه ، كانت تشكو من ناسور دمعى مؤلم يرشح صديدا كريها من العينين والأنف . وأهدى أحد أقرباء الأم أنجليك للبور — رويال شوكة زعم هو وغيره أنها أخذت من إكليل الشوك الذى عذب به المسيح . وفى ٢٤ مارس وضعت الراهبات الشوكة على مذبحهن فى احتفال مهيب وسط ترتيل المزامير . ولثمت كل منهن الأثر المقدس بدورها ، ولما رأت إحداهن مارجريت بين العابدات أخذت الشوكة ولمست بها قرحة الفتاة . وروى أن ماجريت أعربت ذلك المساء عن دهشتها لأن عينها لم تعد تؤلمها ، وأدهش أمها ألا ترى أثرا للناسور ، وقرر طبيب دعى لفحص الفتاة أن الصديد والورم قد اختفيا . وأذاع هو ، لا الراهبات ، نبأ هذا الذى سماه شفاء معجزا . ووقع سبعة أطباء آخرون كانوا على علم سابق بناسور مارجريت بيانا قرروا فيه أن معجزة — فى رأيهم — قد حدثت . وبحث موظفو الاسقفية الأمر ، وانتهـوا إلى نفس النتيجة ، وأذنوا بإقامة قداس شكر لله فى البور — رويال . وتقاطرت جماهير المؤمنين على الدير ليروا الشوكة ويقبلوها ، وهللت باريس الكاثوليكية كلها للمعجزة ، وأمرت الملكة الأم بالكف عن كل اضطهاد للراهبات . وعاد المتوحدون إلى ليجرانج . (فى عام ١٧٢٨ أشار البابا بندكت الثالث عشر إلى هذا الحدث على أنه دليل

على أن عصر المعجزات لم ينته) . أما بسكال فقد صنع لنفسه شعار نبالة كان عبارة عن عين يحيط بهـا إكليل من الشوك ، وقد كتب عليه Scio cui credidi — « أعرف من صدقت(٤٠) ».

وعكف الآن على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الديني يكون بمثابة وصيته الأخيرة . ولـكن قصارى ما وجد في نفسه القدرة عليه هو أن يدون في إيجاز خواطر منفصلة يجمع بينها في ترتيب اجتهادي ولـكنه قوي . ثم عاودته أوجاعه القديمة (١٦٥٨) ، في شدة أعجزته إلى النهاية عن أن يضفي على هذه المذكرات تسلسلا متماسكا أو شكلا بنائيا . فلما مات قام صديقه الدوق دروانيه وعلماء البور — رويال بتحرير ونشر هذه المادة وسموها « خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل (١٦٧٠) » . وقد خشوا أن تفضي هذه « الخواطر » المبتورة التي خلفها بسكال إلى التشكك لا إلى التقوى ، ومن ثم أخفوا الأجزاء المتشككة ، وأدخلوا تعديلا على بعض ما بقي مخافة أن يسيء إلى الملك أو الكنيسة لأن اضطهاد البور — رويال كان قد توقف في تلك الفترة ، وكره المحررون تجـدد الجدل . ولم تنشر « خواطر » بسكال Pensées في نصها الكامل الموثوق إلا في القرن التاسع عشر .

ولو شئنا أن نغامر بفرض ترتيب عليها لجعلنا نقطة بدايتها فلك كوبرنيق . ونحن نشعر ثانية — إذ نصغي إلى بسكال — بالصدمة الهائلة التي كان فلك كوبرنيق وجاليليو يكيلها للمسيحية التقليدية :

« ليتأمل الإنسان الطبيعة كلها في جلالها الكامل السامي ، ليقص عن بصره الأشياء الوضيعة التي تحيط به ، ولينظر إلى ذلك النور المتوهج الذي وضع كأنه مصباح ابدي ينير العالم ، ولتبد الأرض له مجرد نقطة داخل الدائرة الشاسعة التي يرسمها ذلك النجم ، وليأخذه العجب من أن هذا المحيط الهائل إنما هو نقطة ضئيلة من زاوية النجوم التي تتحرك في قبـة السماء .

فإذا توقف بصرنا عند هذا الحد ، فليجاوزه الخيال ... فكل هذا العالم المرئى ليس إلا عنصرا لايدرك فى صدر الطبيعة العظيم . ولا يستطيع أى تفكير أن يمتد إلى هذا المدى ... إنها كرة لانهائية مركزها فى كل مكان ، ومحيطها فى غير مكان(٤٢). هذا أكثر مظهر قابل للإدراك من مظاهر قدرة الله ، حتى أن خيالنا يتوه فى هذا الخاطر » .

ثم يضيف بسكال فى سطر شهير مطبوع بحساسيته الفلسفيه ، « ان الصمت الأبدى الذى يلف هذا الفضاء اللانهائى يخيفنى(٤٣) » .

ولكن هناك لانهائية أخرى — وتلك هى لانهائية صغر الذرة « التى لاتقبل الانشطار » وقبولها النظرى للانقسام قبولا لاحدله ، فمهما كانت ضآلة الحد الأدنى الذى نختزل به أى شىء ، فإننا لانملك إلا الاعتقاد بأنه هو أيضا له أجزاء أصغر منه . وعقلنا يتذبذب فى حيرة وارتياع بين الشاسع غير المحدود ، والدقيق غير المحدود .

« إن من يتأمل نفسه على هذا النحو تخيفه نفسه ، وإذا أدرك أنه معلق ... بين هاويتى اللانهائية والعدم ، ارتعد فرقا ... وبات أميل إلى تأمل هذه العجائب فى صمت منه إلى ارتيادها بغرور . فما الإنسان فى الطبيعة ، بعد كل شىء .... ؟ انه العدم إذا قيس بغير المحدود ، وهو كل شىء إذا قيس بالعدم ، إنه وسط بين العدم والكل . وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين ، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها ، يلفهما سر لاسبيل إلى استكناهه ، وهو عاجز على السواء عن رؤية العـــدم الذى أخذ منه ، واللانهائى الذى يغمره(٤٤). (*)

(*) يقول سانت بيف « ليس فى اللغة الفرنسية صفحات أروع من الخطوط البسيطة الصارمة التى تحتويها هذه السورة التى لانظير لها »(٤٥) .

فالعلم إذن ما هو إلا ادعاء غبي . فهو مبني على العقـــل ، المبني على الحواس ، التي تخدعنا بعشرات الطرق . وهو محدود بالحدود الضيقة التي تعمل حواسنا داخلها ، وبقصر عمر الجسد قصراً قابلا للفساد . وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم — أو يعطي أساساً مكينا للفضيلة ، أو الأسرة ، أو الدولة ، فكيف بادراك طبيعة العالم ونظامه الحقيقيين ، فضلا عن فهمه لله . وفي العرف ، لا بل في الخيال والأسطورة ، حكمة أكثر مما في العقل و « أحكم العقول يتخذ تلك المبادىء ، التي أدخلها خيال الإنسان بتعجل في كل مكان ، مبادىء له(٤٦) » وهناك نوعان من الحكمة : حكمة الجماهير البسيطة « الجاهلة » ، التي تعيش بحكمة التقاليد الموروثة والخيال (أي الطقوس والأساطير) ، وحكمة الحكيم الذي نفذ إلى صميم العلم والفلسفة ليدرك جهله(٤٧) . إذن « لاشيء أروح للعقل من أن ينبذ العقل » و « الاستخفاف بالفلسفة ملاك الفيلسوف الأصيل(٤٨) » .

ومن ثم رأى بسكال أنه ليس من الحكمة إقامة الدين على العقل ، كما حاول حتى بعض الجانسنيين ، أن يفعلوا . فالعقل لايستطيع أن يثبت وجود الله ، ولا الخلود ، لأن الأدلة في الحالين شديدة التناقض . كذلك لا يصلح الكتاب المقدس أساسا نهائيا للإيمان ، لأنه حافل بالفقرات الملتبسة أو الغامضة ، وربما كان للنبوءات التي يفسرها الأتقياء على أنها تشير إلى المسيح دلالة مختلفة(٤٩) . أضف إلى ذلك أن الله في الكتاب المقدس يتكلم بالأرقام ، التي يضللنا مدلولها الحرفي ، والتي لايدرك معناها الحقيقي إلا من وهبوا النعمة الآلهية . « أننا لن نفهم شيئاً من أعمال الله مالم نؤمن بهذا المبدأ ، وهو أنه تعالى يشاء أن يعمي البعض وينير بصائر البعض(٥٠) . (وهنا يبدو أن بسكال يقبل حرفياً قصة يهوه وهو يقسي قلب فرعون) .

ولو اعتمدنا على العقل لوجدنا غير المفهوم أينما تلفتنا . فمن ذا الذي يستطيع أن يفهم ، في الإنسان ، ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح

للمادية وذهن واضح اللامادية ؟ «فليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعى المادة نفسها(٥١) » . إنهم الفلاسفة الذين ملكوا أهواءهم — « وأى مادة تستطيع أن تفعل هذا (٥٢)؟ » . وطبيعة الإنسان ، التى يمتزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً ، تكرر التناقض بين العقل والجسد ، (٥٣) وتذكرنا بالكمير الذى زعمت الأساطير اليونانية أنه عنزة لها رأس أسد وذيل ثعبان .

« يا لهذا الإنسان من كمير! ياله من بدعة ، ووحش ، وفوضى ، وتناقض ، ومعجزة ! هذا الحكم فى كل الأشياء ، ونموذج الغباء فى الأرض ، مستودع الحق ، وبالوعة الضلال والشك ، مفخرة الكون ونفايته . فمن ذا الذى يحل لنا هذا اللغز المعقد(٥٤)؟ » .

ان الإنسان — من الناحية الخلقية — لغز غامض . فكل ضروب الاثم تبدو مستترة فيه . «ما الإنسان إلا مخلوق خداع المظهر ، كذوب ، منافق ، مع نفسه ومع غيره(٥٥) » . «كل الناس بطبيعتهم يكره بعضهم بعضاً ، ولن تجد أربعة أصدقاء فى العالم(٥٦) » . « ما أفرغ قلب الإنسان وما أحفله بالقذر»(٥٧) ثم يا لغروره الذى لا قرار له ولا شبع ، «ما كنا لنركب البحر أبداً لولا حلمنا بأننا سوف نروى قصتنا . . . أننا نفقد الحياة مغتبطين شريطة أن يتحدث الناس بما فعلنا . . . وكل الناس ، حتى الفلاسفة ، يتمنون أن يكون لهم معجبون(٥٨) » . ومع ذلك فإن من جوانب عظمة الإنسان أنه من شره ، وكرهه ، وغروره ، أنشأ دستوراً من القوانين والأخلاق ليسيطر على شره ، واشتق من شهوته مثلا أعلى فى الحب(٥٩) .

وشقاء الإنسان لغز آخر . فلم شقى الكون هذا الشقاء الطويل لينجب نوعا من الخليقة شديد الهشاشة فى سعادته ، كثير التعرض للألم فى كل عصب ، وللحزن فى كل حب ، وللموت فى كل حياة؟ ومع ذلك فإن «جلال الإنسان عظيم فى معرفته أنه شقى(٦٠) » .

«ما الإنسان إلا قصبة ، وهى أوهى ما فى الطبيعة ، ولكنه قصبة مفكرة .

والكون كله لا حاجة به لأن يتسلح لكي يسحقه ، فنفخة بخار ، أو قطرة ماء ، تكفى لقتله — ولكنه ، بعد أن يسحقه الكون ، لا يزال أنبل من هذا الذي يقتله ، لأنه يعرف أنه مفارق الحياة ، أما الكون فلا يعرف شيئاً عن انتصاره على الإنسان(٦١) » .

وليس من هذه الألغاز لغز يجد فى العقل جواباً له . ولو ركنا إلى العقل وحده لحكمنا على أنفسنا بـ « بيرووية » تتشكك فى كل شىء إلا الألم والموت ، والفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تكون تبريراً عقلانياً للهزيمة . ولكنا لا نستطيع أن نؤمن بأن قدر الإنسان هو كما يراه العقل — أن يكافح ، ويتعذب ، ويموت ، بعد أن ينجب آخرين ليكافحوا ، ويتعذبوا ، ويموتوا ، جيلا بعد جيل ، فى افتقار للهدف ، وغباوة ، وحقارة هائلة . فنحن فى قرارة نفوسنا نشعر بأن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وبأنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الحياة والكون بلا معنى . فالله ومعنى الحياة يجب أن يشعر بهما القلب لا العقل . « فإن للقلب مبرراته التى لا يعرفها العقل(٦٢) . » ، وخيراً نفعل أن أصغينا إلى قلوبنا وإن « وضعنا إيماننا فى الوجدان(٦٣) » . ذلك أن كل إيمان ، حتى بالأمور العملية ، إنما هو ضرب من الإرادة ، وتوجيه للانتباه والرغبة» (إرادة الإيمان) . والتجربة الصوفية أعمق من شهادة الحواس أو حجج العقل .

أى جواب إذن عند الوجدان يجيب به عن ألغاز الحياة والفكر ؟ الجواب هو الدين . فالدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها ، وللإنسان نبله ، وبدونه نتخبط أعمق حتى من تخبطنا الأول فى إحباط عقلى وعقم مميت . فالدين يعطينا كتابا مقدساً ، والكتاب ينبئنا بسقوط الإنسان من النعمة ، وهذه الخطيئة الأصلية هى دون غيرها التى تستطيع أن تفسر ذلك الجمع الغريب فى الطبيعة البشرية بين الكره والحب ، وبين الشر الوحشى واشتياقنا للخلاص ولله . فإذا سمحنا لأنفسنا بأن نؤمن (مهما بدت سخافة

هذا الإيمان للفلاسفة) بأن الإنسان بدأ بالنعمة الإلهية ، وأنه فقدها بالخطيئة ، وأنه لا خلاص له إلا بالنعمة الإلهية عن طريق المسيح المصلوب ، وجدنا بعد هذا سلاماً عقليا لا يوهب للفلاسفة أبدا . والذى لا يستطيع الإيمان ملعون ، لأنه يعلن بكفره أن الله لم يشأ أن يمنحه النعمة .

والإيمان رهان حكيم . وهب أن الإيمان لا يمكن إثباته ، فأى ضير إن قامرت على حقيقته ثم اتضح بطلانه ؟ « لزام عليك أن تراهن ، وليس لك فى هذا خيار ... فلتوازن بين المكسب والخسارة فى الرهان على وجود الله ... أنك إن كسبت كسبت كل شىء ، وان خسرت لم تخسر شيئاً . فراهن إذن دون تردد على أنه تعالى موجود(٦٤) » . فاذا وجدت أول الأمر أن الإيمان صعب عليك فاتبع عادات وطقوس الكنيسة كأنك تؤمن حقا . « تبرك بالماء المقدس ، واطلب تلاوة القداديس ، وهلم جرا ، وهذا كفيل بأن يجعلك تؤمن بطريقة بسيطة طبيعية ، وبأن يهدئك » — سيهدىء من عقلك المغتر بقدرته النقادة(٦٥) . واعترف وتناول القربان ، وستجد فى هذا راحة وقوة(٦٦) .

ونحن نظلم هذا الدفاع التاريخى إذا تركناه يختتم على هذه النغمة غير البطولية . فلنا أن نثق بأن بسكال حين آمن لم يؤمن كأنه مقامر بل كنفس حيرتها ودوختها الحياة ، كانسان أدرك فى تواضع أن عقله الذى أذهل ذكاؤه الصديق والعدو ، ليس كفؤا للكون ، ووجد فى الإيمان السبيل الوحيد ليضفى على ألمه المعنى والمغفرة . يقول سانت — بيف « ان بسكال رجل مريض ، وعلينا أن نذكر هذا على الدوام ونحن نقرؤه(٦٧) » ولكن بسكال لو ووجه بهذا الراى لأجاب : السنا كلنا مرضى ؟ فليرفض الإيمان كل من اكتملت له السعادة . ليرفضه كل من لم يقنع بمعنى فى الحياة اكثر من انها مسار عاجز من ميلاد قذر إلى موت إليم .

« تصور نفرا من الناس يرسفون فى الأغلال وقد حكم عليهم جميعا

بالموت ، وفى كل يوم يشنق بعضهم على مرأى من الباقين، والباقون يتبينون حالهم فى حال زملائهم ، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس ، وينتظر كل منهم دوره . هذه صورة لحالة الإنسان(٦٨) » .

فكيف السبيل إلى التعويض عن هذه المذبحة البشعة التى نسميها التاريخ إلا بالإيمان بأن الله سيصحح الأخطاء كلها فى النهاية ، سواء استند هذا الإيمان إلى دليل أو لم يستند ؟ .

وقد تحمس بسكال فى محاجته لأنه لم يفق قط إفاقة حقيقية من الشكوك التى أوحى بها إليه مونتينى ، وملحدو « السنوات التى قضاها فى العالم » ، وحياد الطبيعة القاسى بين « الشر » و « الخير » .

« ذلك ما أراه وما يقض مضجعى . فأينما تلفت لم أجد غير الغموض والابهام . ولا تقدم لى الطبيعة إلا ما يحتمل الشك والقلق . فلو أننى لم أر علامات على وجود إله لثبت على الإنكار . ولو رأيت آثار الخالق فى كل مكان لسكنت إلى الإيمان فى هدوء وسلام . ولكنى فى حالة يرثى لها لأننى أرى أكثر كثيراً مما يبرر إنكار وجوده تعالى ، وأقل كثيراً مما يطمئننى على وجوده . ولقد طالما تمنيت أن تعلن الطبيعة عن وجوده دون لبس أو غموض ما دام هذا الإله حافظها(٦٩) » .

وحالة القلق العميق هذه ، والقدرة المعطلة على رؤية الجانبين ، هى التى تجعل بسكال يستهوى المؤمنين والشاكين على السواء . فلقد شعر هذا الرجل بغيظ الملحد من الشر ، وبثقة المؤمن فى انتصار الخير ، ولقد عبر من تدويمات مونتينى وشارون الذهنية إلى التواضع للمغتبط الذى أحس به القديسان فرانسيس الأسيسى وتوماس أكمبيس . وهذه الصرخة المنبعثة من أعماق الشك ، وهذه الصياغة لإيمان ضد الموت ، هما اللذان يجعلان « خواطر » بسكال أبلغ الكتب قاطبة فى النثر الفرنسى . لقد أصبحت الفلسفة أدباً للمرة الثالثة فى القرن السابع عشر، لا فى تركيز بيكون المادى،

ولا فى ألفة ديكارت السارة ، بل فى القوة العاطفية لشاعر يحس بالفلسفة ، ويكتب لقلبه بدمه . فى قمة العصر الكلاسيكى علا هذا النداء الرومانسى ، وبلغ من القوة ما أتاح له أن يعمر بعد بوالو وفولتير ، وأن يسمعه عبر قرن من الزمان روسو وشاتوبريان . فهنا ، فى صبيحة عصر العقل ، وفى عقود هوبز وسبينوزا ذاتها ، وجد العقل منازلا له فى رجل محتضر .

روت مدام بيربيه ، شقيقة بسكال ، أنه كان فى سنيه الأخيرة يعانى من « علل مستديمة متفاقمة(٧٠) » وانتهى به الأمر إلى الرأى بأن « المرض هو الحالة الطبيعية للمسيحيين(٧١) » . وكان أحيانا يرحب بآلامه لأنها تصرفه عن المغريات . قال « إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلاسفة مجتمعين(٧٢) » . وقد هجر كل اللذات ، وعكف على ممارسة النسك ، وجلد نفسه بحزام ثبتت فيه مسامير من حديد(٧٣) . ووبخ مدام بيربيه لأنها تسمح لأبنائها بعناقها . وعارض فى زواج ابنتها قائلا : « إن حالة الزوجية ليست خيرا من الوثنية فى نظر الله(٧٤) » . ولم يسمح لإنسان فى حضرته أن يتحدث عن جمال المرأة .

وفى عام ١٦٦٢ ، آوى أسرة فقيرة فى بيته صدقة من صدقاته الكثيرة . فلما أصيب أحد الأطفال بالجدرى انتقل بسكال إلى بيت شقيقته بدلا من أن يطلب إلى الأسرة أن تغادر بيته . ولم يمض طويل وقت حتى لزم فراشه وقد حطمته الآلام المعوية . وكتب وصيته ، فترك نصف ثروته تقريبا للفقراء ، واعترف لكاهن ، وتناول القربان الأخير ، ثم لفظ أنفاسه إثر تقلصات عنيفة ، فى ١٩ أغسطس ١٦٦٢ وهو لا يجاوز الأربعين . ولما شرحت جثته وجد أن معدته وكبده مريضتان ، وأن فى أمعائه قرحا(٧٥) . وقال الأطباء أن مخه « ضخم الحجم جدا ، وأن مادته جامدة مكثفة » ولكن خطا واحدا فقط من خطوط الاتصال بين عظام الجمجمة هو الذى كان مقفلا قفلا سليما ، ولعل هذا هو السر فى نوبات الصداع الرهيبة التى ابتلى بها .

ووجد على لحاء المخ منخفضان « كبيران كأنهما صنعا بأصابع وضعت فى الشمع »(٧٦) وقد دفن فى كنيسة أبرشيه سانت اتيين — دومون .

٥ — البور - رويال : ١٦٥٦ — ١٧١٥

شددت « الرسائل الاقليمية » من عزم اليسوعيين والأساقفة على قمع الجانسنية باعتبارها بروتستنتية مقنعة . فأصدر البابا الاسكندرية السابع (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) استجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين مرسوماً بابوياً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسيين بالتوقيع على الصيغة التالية :

« إنى أخضع بإخلاص لدستور البابا أنوسنت العاشر ، المؤرخ ٣١ مايو ١٦٥٣ ، حسب معناه الحقيقى الذى حـــدده دستور أبينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ ٦ أكتوبر ١٦٥٦ ، وأقر بأنى ملتزم فى ضميرى بطاعة هذين الدستورين ، وأدين بقلبى وفى التعليم الوارد فى قضايا كورنيلس جانسن الخمس المحتواة فى كتابه المعنون « أوغسطينوس » .

وامتنع مازاران عن فرض التوقيع على هذه الصيغة ، ولكن فى ١٣ أبريل ١٦٦١ ، عقب موت مازاران ، أذاع لويس الرابع عشر الأمر ، وقدم وكيل أسقفية من أصدقاء الجماعة لهذه الصيغة ببيان توفيق ، فوقعها آرنو والمتوحدون فى هـــذه الصورة ، ونصحوا راهبات البور - رويال بالحذو حذوهم ، ولكن الأم أنجليك — التى كانت طريحة الفراش لإصابتها بالاستسقاء — رفضت التوقيع وثبتت على الرفض إلى أن ماتت فى السبعين فى ٦ أغسطس ١٦٦١ ، وكذلك رفض بسكال وشقيقته جاكلين ، التى أصبحت وكيلة الدير . وقالت جاكلين : مادام الأساقفة لا يملكون من الشجاعة إلا شجاعة الفتيات ، فلابد أن يكون للفتيات شجاعة الأساقفة(٧٧)» وأخيراً وقعت كل الراهبات الباقيات على قيد الحياة ، ولكن جاكلين

التى أضنتها مقاومتها الطويلة ماتت فى ٤ أكتوبر وهى لا تجاوز السادسة والثلاثين ، وتلاها بسكال بعد عام واحد .

واستنكر الملك خلال ذلك الديباجة الموفقة وأصر على أن يوقع الراهبات الصيغة دون أى إضافة أو تغيير ، ونقل القليلات اللاتى وقعن إلى البور — رويال فى باريس ، ولكن أغلبية الراهبات ، تتزعمهن الأم آنييس ، صرحن بأنه ليس فى وسعهن التوقيع بضمير خالص على وثيقة تناقض معتقداتهن أشد مناقضة . وفى أغسطس ١٦٦٥ حرم رئيس الأساقفة الراهبات السبعين وأخواتهن العلمانيات الأربع عشرة من تناول الأسرار المقدسة ، وحظر عليهن أى اتصال بالعالم الخارجى . وخلال السنوات الثلاث التالية ، كان أحد الكهنة المتعاطفين مع الراهبات يتسلق أسوار البور — رويال — دى شان ليناول الراهبات المحتضرات قربانهن الأخير . وفى ١٦٦٦ قبض على ساسى ، ولوميتر ، وثلاثة آخرين من المتوحدين بأمر الملك ، أما آرنو الذى تنكر وراء شعر مستعار وسيف ، فقد آوته الدوقة لونجفيل ، التى كانت تخدمه بنفسها أثناء اختبائه (٧٨) . وتبنت هى وغيرها من النبيلات قضية الراهبات ، وأقنعن لويس بأن يلين ؛ وفى ١٦٦٨ أصدر البابا كلمنت التاسع مرسوماً جديداً صيغ فى لبس حكيم يسمح لجميع الأطراف بقبوله ، وأفرج عن السجناء ، وردت الراهبات المنشقات إلى البور — رويال — دى شان ، وعادت الأجراس تدق فى الدير بعد أن صمتت ثلاث سنين . واستقبل الملك آرنو استقبالا ودياً ، وكتب هذا كتاباً ضد الكلفنيين ، ولكن نيكول كتب كتاباً آخر ضد اليسوعيين .

ودام « سلام الكنيسة » أحد عشر عاماً ، ثم ماتت مدام لونجفيل ، ومات معها السلام . وإذ بدأ الملك يشيخ ، وانقلبت انتصاراته هزائم ، استحال دينه خليطا من التعصب والخوف ، وساءل نفسه ، أكان الله يعاقبه على تسامحه مع الهرطقة ؟ واتخذ بغضه للجانسنية طابعاً شخصياً ، ومن الأمثلة على هذا

التحول أن لويس رفض تعيين رجل يدعى فونبيرتوى فى احدى الوظائف لشبهته فى أنه جانسنى ، ولكنه وافق على التعيين حين أكدوا له أن الرجل ملحد فقط(٧٩). ولم يستطع قط أن يغتفر للراهبات تحديهن لأمره بالتوقيع على الصيغة المشددة . وضمانا للقضاء على مركز سخطه هذا فى وقت مبكر حظر عليه قبول أعضاء جدد . ووجه نداء للبابا كلمنت الحادى عشر لكى يصدر إدانة صريحة للجانسنية . وبعــد عامين من الإلحاح أطلق البابا مرسوم Vineam Domini (١٧٠٥) ولم يكن باقيا على قيد الحياة فى البور — رويال آنئذ سوى خمس وعشرين راهبة ، أصغرهن فى الستين . وترقب الملك موتهن بفارغ الصبر .

وفى عام ١٧٠٩ خلف الأب اليسوعى ميشيل تيلييه البالغ من العمر ستة وستين عاما ، الأب لاشيز ، كاهن اعتراف للملك . فأقر فى ذهن لويس — وكان الملك قد بلغ الحادية والسبعين — أن مصير روحه الأبدى رهن بالإبادة الناجزة الكاملة للبور — رويال . وقد احتج كثيرون من الأكليروس العلمانيين على هذه العجلة وفيهم أنطوان دنواى ، رئيس أساقفة باريس ، ولكن الملك تغلب على معارضتهم . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٠٩ أحاط الجند بالدير ، وأطلع الراهبات على رسالة ملكية مختومة تأمر بتفريقهن فورا ، وسمح لهن بخمس عشرة دقيقة يجمعن فيها أمتعتهن . ولم يجـد بكاؤهن ولا دموعهن . فدفعن داخل مركبات وشتتن فى مختلف الأديار الممتدة التى تبعد من ستين إلى مائة وخمسين ميلا . وفى ١٧١٠ هدمت مبانى الدير الشهير وسويت بالتراب .

ولكن الجانسنية عاشت . لقد مات آرنو ونيكول فى منفاهما بفلاندر (١٦٩٤ — ٩٥) ، ولكن كاهنا فى مصلى باريس يدعى باسكييه كينيل ، دافع عام ١٦٨٧ عن اللاهوت الجانسنى فى كتابه « تأملات أخلاقية فى العهد الجديد » . وقد زج به فى السجن (١٧٠٣) . ولكنه هرب إلى أمستردام .

حيث أسس كنيسة جانسنية . وإذا اكتسب كتابه التأييد الكثير من الأكليروس العلماني الفرنسي ، فقد أقنع لويس البابا كلمنت الحادي عشر بأن يصدر مرسوم Unigenitus (٨ سبتمبر ١٧١٣) الذي أدان ١٠٤ قضية نسبت إلى كينيل . وقد استاء كثير من الأحبار الفرنسيين من المرسوم لأنه تدخل بابوي في شئون الكنيسة ، واتحدت الجانسنية مع أحياء للحركة الغالية . فلما مات لويس الرابع عشر ، كان في فرنسا من الجانسنيين أكثر مما كان فيها في أي عهد مضى(٨٠) .

ويصعب علينا اليوم أن نفهم لم انقسمت أمة ، وثارت ثائرة ملك ، حول مشاكل عويصة تتصل بالنعمة الآلهية ، والجبرية ، وحرية الإرادة ، ولكننا ننسى أن الدين كان له يومها ما للسياسة الآن من أهميـــة وخطر . وكانت الجانسنية الجهد الأخير الذي بذلته النهضة الأوربية في فرنسا ، والانتفاضة الأخيرة للعصور الوسطى . ونحن إذا تأملناها في منظور التاريخ بدت لنا رجعية لا تقدما . بيد أن تأثيرها في عدة نواح كان تقدمياً . فقد كافحت حينا في سبيل قسط من الحرية — وإن كنا سنجدها في أيام فولتير أشد تعصباً من البابوية(٨١) . وحدت من شطط الإفتاء الديني . وكانت غيرتها على الأخلاق ثقلا نافعاً أمام سياسة التراخي في أمور الاعتراف ، تلك السياسة التي ربما شاركت في تدهور الأخلاق الفرنسية . كذلك كان تأثيرها التعليمي طيباً ، وكانت « المدارس الصغيرة » التي أسستها خير المدارس في زمانها . وظهر تأثيرها الأدبي لا في بسكال وحده بل في كورناي باعتدال، وفي راسين بحيوية ، وهو تلميذ البور — رويال ومؤرخه . أما تأثيرها الفساني فكان غير مباشر وغير مقصود ، ففكرتها عن الله قاضياً بالعذاب الأبدي على الشطر الأكبر من النوع الإنساني — بما فيهم جميع الأطفال غير المعمدين ، وجميع المسلمين وجميع اليهود — لعل هذه الفكرة شاركت في دفع رجال كفولتير وديدرو إلى التمرد على اللاهوت المسيحي بأسره .

٦ - الملك والهيجونوت : ١٦٤٣ - ١٧١٥

لم يكن الملك قد خلص روحه بعد ، فقد بقى فى فرنسا ٠٠٠ر٠٠٥ر١ من البروتستنت . وكان مازاران قد واصل وطور سياسة ريشليو فى حماية حرية الهيجونوت الدينية ما داموا مطيعين سياسياً . أما كولبير فقد أدرك قيمتهم فى تجارة فرنسا وصناعتها . وفى ١٦٥٢ أكد لويس مرسوم نانت (١٥٩٨) الذى أصدره جده هنرى الرابع ، وفى ١٦٦٦ أعرب عن تقديره لولاء الهيجونوت خلال حرب الفروند ، ولكن كان يحزنه ألا تتحقق وحدة فرنسا الدينية كما تحققت وحدتها السياسية ، وحوالى ١٦٧٠ كتب فى مذكراته فقرة تنذر بالسوء :

« أما عن ذلك العدد الكبير من رعاياى الذين يدينون بما يسمونه المذهب الأصلاحى ، وهو شر ٠٠٠٠ انظر إليه بحزن ٠٠٠ فيخيل إلى أن أولئك الذين أرادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفطنوا إلى طبيعة هذا الشر ، الذى نجم بعضه عن حرارة فى العقول ، والذى يجب أن يترك ليذوى ويموت دون أن يحس به أحد ، بدلا من أثارته من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة . ٠٠٠ وقد آمنت بأن خير سبيل للخفض من عدد الهيجونوت فى مملكتى تدريجياً هو أولا عدم الضغط عليهم اطلاقا بأى قيد صارم جديد ، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليـــه من أسلافى دون منحهم أكثر منه ، وحتى قصر تنفيذه داخل أضيق الحدود التى تجيزها العدالة واللياقة(٨٢) » .

وفى هذه الفقرة رائحة التعصب المخلص . وهذا رأى ملك مطلق السلطة ، أخذ عن بوسويه شعار « ملك واحد ، وقانون واحد ، وعقيدة واحدة » . فلم يعد ذلك التسامح الذى دان به ريشليو الذى كان يعين لمناصب الدولة الرجال الأكفاء أيا كانت عقيدتهم . ويواصل لويس حديثه فيقول إنه لن يعين فى هذه المناصب سوى الكاثوليك الصالحين ، آملا بذلك أنه سيشجع المرتدين على الرجوع إلى حظيرة الكاثوليكية .

أما الكنيسة نفسها فلم تكن قد وافقت قط على التسامح الذى كفله مرسوم نانت ، فنى ١٦٥٥ طالب مجمع اكليريكى بتفسير أشد صرامه للمرسوم. وفى ١٦٦٠ طلب مجمعهم إلى الملك أن يغلق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونوتية ، وأن يحرم الهيجونوت من الوظائف العامة ، وفى ١٦٧٠ أوصى المجمع بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانوناً على إنكار الهرطقة الهيجونوتية ، وأن الذين ينكرونها على هذا النحو ينبغى فصلهم عن آبائهم ، وفى ١٦٧٥ طالب المجمع بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة ، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعى(٨٣) . وكان رأى بعض رجال الدين الورعين اللطفاء مثل الكردينال ديبرول أن استخدام الدولة لوسائل المنع بالإكراه هو السبيل العملى الوحيد فى التعامل مع البروتستنتية (٨٤) ، وألح الحبر تلو الحبر على الملك بهذه الحجة ، وهى أن استقرار حكومته يرتكز على النظام الاجتماعى ، الذى يرتكز على الفضيلة ، التى تنهار إذا لم يدعمها دين الدولة . وشارك العلمانيون الكاثوليك فى هذه الحجة ، وأباح القضاة الحكومة عن صدامات مكدرة للأمن بين المذهبين المتنافسين فى المدن — هجمات كاثوليكية على المدارس والجنازات والبيوت البروتستنتية ، وأعمال انتقام بروتستنتية من نفس النوع .

وشيئاً فشيئاً أذعن لويس لهذه الحملة مخالفاً فى ذلك فطرته الأميل إلى الخير ، وإذ كان على الدوام فى حاجة للمال ينفقه على الحرب والأناقة ، فقد وجد رجال الدين يقدمون له منحاً كبيرة شريطة أن يقبل آراءهم . ودفعته عوامل أخرى فى نفس الاتجاه ، فلقد كان يشجع — بل يرشو — تشارلز الثانى لكى يحول انجلترة إلى الكاثوليكية ، فكيف يتأتى فى الوقت ذاته أن يسمح بالبروتستنتية فى فرنسا ؟ ألم يوافق البروتستنت فى صلح أوجزبورج (١٥٥٥) وبعده على المبدأ القائل بأن دين الحاكم يجب أن يفرض على رعاياه؟ وألم ينف الحكام البروتستنت فى ألمانيا وفى الأقاليم المتحدة الأسر التى رفضت ديانة الأمير ؟

وكان لويس ، منذ أن بدأ حكمه الفعلى قد أصدر — أو أصدر وزراؤه بموافقته — سلسلة من المراسيم التى اتجهت إلى إلغاء مرسوم التسامح إلغاء تاماً . ففى ١٦٦١ حرم على البروتستنت العبادة فى معظم مسلمة جكس ، قرب الحدود السويسرية ، بحجة أن جكس ضمت إلى فرنسا بعد صدور المرسوم ، وكان يعيش فى هذا الاقليم سبعة عشر ألف بروتستنتى، وأربعمائة كاثوليكى فقط(٨٥) . وفى ١٦٦٤ جعلت الترقية إلى طبقة معلمى الحرف فى الطوائف الصناعية عسيرة إلا على الكاثوليك(٨٦)، وفى ١٦٦٥ سمح للصبيان فى الرابعة عشرة والبنات فى الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك آبائهم ، الذين يلزمون عندها بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم(٨٧) . وفى ١٦٦٦ حظر على الهيجونوت إنشاء كليات جديدة ، أو الاحتفاظ بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف ، وفى ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهيجونوت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع فى قبضة السلطات ومصادرة بضائعه(٨٨) . وكان كل من ساعد هيجونوتيا على الهجرة عرضة للحكم بتشغيله فى سفن الأسرى مدى الحياة(٨٩) . وفى ١٦٧٧ سمح لويس بوقف « صندوق للمهتدين » تصرف منه مبالغ ، متوسطها ستة جنيهات للفرد ، لكل هيجونوتى يقبل اعتناق الكاثوليكية . وضماناً لثبات المهتدين على الكاثوليكية أصدر مرسوماً (١٦٧٩) يقضى بنفى جميع المرتدين ومصادرة أملاكهم(٩٠) . ثم قطع هذا السيل من التحريمات احتجاج ناخب براندنبورج وشكاوى كولبير مما تحدثه هذه القوانين بالتجارة من كساد ، واشتغال الملك بحملاته الحربية ، ولكن تصالحه فى ١٦٨١ مع الكاثوليكية ، الآمرة بالاقتصار على امرأة واحـــدة ، رده من جديد إلى الحرب المقدسة على الهيجونوت ، فقال لأحد مساعديه إنه يشعر « بالتزام لامناص منه بهداية جميع رعاياه واستئصال شأفة الهرطقة(٩١) » . وفى ١٦٨٢ أصدر خطاباً — وأمر جميع الرعاة البروتستنت بأن يقرءوه على شعبهم — يهدد فيه الهيجونوت « بويلات لا تقاس بما سبقها هولا وفتكا(٩٢) » . وخلال السنوات الثلاث

التالية أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهيجونوت البالغ عددها ٨١٥ ، وهدم الكثير منها ، وحين حاول الهيجونوت المبادة على أنقاض كنائسهم المهدمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمردين على الدولة .

وكانت حملات الخيالة dragonnades قد بدأت خلال هذا ، فقد كان من العادات القديمة في فرنسا أن يسكن الجنود في الكومونات أو البيوت وعلى حسابها . واقترح لوفوا وزير الحرب على الملك (١١ أبريل ١٦٨١) إعفاء معتنق الكاثوليكية الجدد عامين من هذا الإيواء للجند ، فأصدر الملك الأمر ، وعلى ذلك أمر لوفوا المديرين العسكريين لإقليمي بواتو وليموزان بأن ينزلوا خيالتهم مساكن الهيجونوت ، لاسيما الأثرياء منهم . وفي بواتو سمح المرشال مارياك لجنوده بأن يفهموا أنه لن يسوءه أن يعاملوا مضيفيهم البواسل بشيء من الغيرة الرسولية ، وراح الجند يسرقون الهيجونوت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم ، فلما سمع لويس بهذا الشطط وبخ مارياك ، ولما استمر طرده من وظيفته(٩٣). وفي ١٩ مايو أمر بوقف هداية الهيجونوت بطريق إيواء الخيالة ، وشجب أعمال العنف التي ارتكبت في بعض الأماكن ضد دعاة الإصلاح البروتستنتي(٩٤) . وأبلغ لوفوا المديرين الإقليميين بأن لهم أن يواصلوا حملات الخيالة ، ولكنه نبههم إلى ضرورة حجب كل معلومات عن هذا الأمر عن الملك . وانتشرت حملات الخيالة في أرجاء كثيرة من فرنسا ، فأدخلت في الكاثوليكية آلافاً من المهتدين . وأنكرت مدن وأقاليم - كمونبلييه ، ونيم ، وبيارن - مذهبها الكالفني على بكرة أبيها ، وتظاهر أغلب الهيجونوت باعتناق الكاثوليكية بعد أن أرهبهم الأمر ، ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحدين القوانين . وأبلغ لويس أنه لم يبق بفرنسا غير قلة قليلة من الهيجونوت ، وأن مرسوم نانت أصبح بلا معنى . وفي ١٦٨٤ التمست الجمعية العامة للاكليروس من الملك إلغاء المرسوم كلية ، و « توطيد ملك يسوع المسيح غير منازع من جديد في فرنسا »(٩٥) .

وفى ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألغى الملك مرسوم نانت باعتباره مرسوماً لا لزوم له الآن فى فرنسا التى تدين كلها تقريباً بالكثلكة . فحظر منذ ذلك التاريخ على الهيجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، وصدر الأمر بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية ، وأمر رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا فى ظرف أربعة عشر يوما ، ولكن هجرة غيرهم من الهيجونوت حرمت وإلا كان عقاب المهاجرين تشغيلهم فى سفن الأسرى مدى الحياة . ووعد المخبرون بنصف بضائع المهاجرين العلمانيين(٩٦) ، وقضى بأن يعمد جميع الأطفال المولودين فى فرنسا بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربوا على المذهب الكاثوليكى ، ووعدت فقرة أخيرة بالسماح للقلة الباقية من الهيجونوت بأن يسكنوا بعض المدن آمنين . ونفذت المادة فى باريس وضواحيها ، وحمى رئيس الشرطة التجار الهيجونوت هناك وطمأنهم ، ولم يكن هناك حملات خيالة فى باريس أو قربها ، وكان فى وسع المراقص أن تمضى فى فرساى ، وفى وسع الملك أن ينام مطمئناً مرتاح الضمير ، ولكن حملات الخيالة استمرت فى كثير من الأقاليم بتحريض من لوفوا(٩٧) ، وتعرض الهيجونوت المعاندون للنهب والتعذيب . يقول الحجة الفرنسى الأكبر فى إلغاء مرسوم نانت :

« لقد أذن للجنود أن يقترفوا كل جريمة إلا القتل . فكانوا يكرهون الهيجونوت على الرقص حتى يدركهم الإعياء ، ويقذفون بهم فى البطاطين إلى أعلى ، ويصبون الماء المغلى فى حلوقهم ... ، ويضربون بطون أقدامهم ، وينتفون لحاهم ... ، ويحرقون أذرع مضيفيهم وسيقانهم بلهيب الشموع .. ، ويكرهونهم على أن يقبضوا على الجمر الملتهب بأيديهم ... ، ويحرقون أرجل الكثيرين بإمساكها طويلا أمام نار كبيرة ... ويلزمون النساء بأن يقفن عرايا فى الطريق يحتملن هزء المارة وإهاناتهم . وقد أوثقوا مرة أما مرضعا إلى عمود سرير وأمسكوا رضيعها بعيدا عنها وهو يصرخ فى طلب ثديها ، فلما فتحت فاها لتتوسل إليهم بصقوا فيه(٩٨) » .

ويرى ميشليه أن إرهاب ١٦٨٥ المقدس هذا كان أشنع كثيرا من إرهاب عصر الثورة فى ١٧٩٣(٩٩). وقد أكره نحو ٤٠٠,٠٠٠ من « المهتدين » على حضور القداس وتناول القربان ، وحكم على الذين بصقوا قطع القربان المكرسة بعد مغادرتهم الكنيسة بالحرق احياء(١٠٠). وزج بالذكور من الهيجونوت المعاندين فى سجون تحت الأرض أو زنزانات غير مدفأة . أما نساء الهيجونوت الممنات فى العناد فقد حبسن فى الأديار حيث لقين على غير توقع المعاملة الرحيمة من الراهبات(١٠١).

على أن إقليمين قاوما الإرهاب ببسالة ملحوظة . وسنسمع أنباء الفودوا فى الدوفينيه الفرنسية وبيدمونت السافووية فى مكان لاحق من هذا الكتاب . وفى أودية سلسلة جبال السيفين فى اللانجدوك احتفظ الألوف من الهيجونوت « المهتدين » بإيمانهم سرا ، مترقبين الوقت والفرصة للتحرر . وقد أكد لهم « أنبياؤهم » الذين أدعوا الوحى الإلهى بأن الوقت قد اقترب ، فلما بدا أن حرب الوراثة الأسبانية تستوعب الأسلحة الفرنسية ، شكل الفلاحون جماعات متمردة من « الكاميزار Camisards » الذين ارتدوا القمصان البيض ليميز بعضهم بعضا فى الليل . وفى إحدى المعارك قتلوا الأب شيلا الذى كان يضطهدهم بغيرة شديدة ، ففاجأهم فوج من الجند وذبحهم دون تمييز ، وهدم بيوتهم وخرب محاصيلهم (١٧٠٢) . وردت بقية منهم على هذا الهجوم بضراوة ، إلى أن اقنعتهم بالصلح وسائل المرشال فيلار التوفيقية .

ومن بين الهيجونوت الذين سكنوا فرنسا فى ١٦٦٠ والبالغ عددهم ١,٥٠٠,٠٠٠ ، فر نحو ٤٠٠,٠٠٠ فى العقد الذى تخلله إلغاء مرسوم نانت عبر الحدود المخفورة مغامرين بحياتهم . وعاشت مئات قصص البطولة قرنا بأكمله بعد تلك السنين اليائسة . ورحبت الدول البروتستنتية بالمهاجرين فأفسحت جنيف مكانا لأربعة آلاف من الهيجونوت برغم أن سكانها لم يزيدوا على ستة عشر ألفا . وقدم تشارلز الثانى وجيمس الثانى المعونة المادية

للهيجونوت على الرغم من كثلكتهما ، وسهلا اندماجهم فى الحياة السياسية والاقتصادية الإنجليزية . واستقبلهم ناخب براندنبورج استقبالا وديا حتى أن أكثر من خمس سكان برلين فى ١٦٩٧ كانوا فرنسيين وفتحت لهم هولندة أبوابها وبنت مئات البيوت لإيواء الوافدين واقرضتهم المال ليقيموا مصالحهم وكفلت لهم كل حقوق المواطنة ، وانضم الكاثوليك الهولنديون إلى البروتستنت واليهود فى جمع المال لإعانة الهيجونوت . ولم يكتف اللاجئون الشاكرون بإثراء الصناعة والتجارة فى الأقاليم المتحدة ، بل إنهم تطوعوا فى الجيوش الهولندية والإنجليزية التى خاضت القتال ضد فرنسا ، ورافق بعضهم وليم الثالث أو تبعه إلى انجلترة ليساعدوه على جيمس الثانى . أما المرشال شومبيرج الكلفنى الفرنسى الذى أحرز انتصارات للويس الرابع عشر من قبل فقاد جيشا إنجليزيا ضد الفرنسيين ومات وهو يهزمهم فى معركة البوين (١٩٦٠) . وفى كل بلد من هذه البلاد المضيافة جلب الهيجونوت مهاراتهم فى الحرف والتجارة والمال ، وأفادت أوربا البروتستنتية كلها من انتصار الكاثوليكية فى فرنسا . وشغل صناع الحرير الفرنسيون حيا بأكمله من أحياء لندن ، وأصبح المنفيون الهيجونوت فى إنجلترة شراح الفكر الإنجليزى ومترجميه لفرنسا ، فمهدوا بذلك لغزو بيكون ونيوتن ولوك للعقل الفرنسى .

واستنكرت قلة من الكاثوليك الفرنسيين سرا تلك المذابح التى رافقت إلغاء المرسوم ، وأمدوا كثيرا من الضحايا بالمعونة وقدموا لهم الملجأ خفية . ولكن الكثرة العظمى هللت للقضاء على الهيجونوت باعتباره قمة إنجازات الملك ، وقالوا أن فرنسا أصبحت الآن ، فى النهاية ، بلدا كاثوليكيا موحدا . وأثنى كبار الكتاب أمثال بوسويه وفنيلون ولافونتين ولا بروبير ، وحتى الأب الجانسني آرنو ، على شجاعة الملك فى تنفيذ ما خالوه إرادة الأمة . وكتبت مدام دسفينييه تقول « ليس هناك أبدع ولا أروع . ولم يصنع

ملك ولن يصنع شيئا أخذ من هذا(١٠٢)» . أما لويس نفسه فأسعده أن يكل – كما خيل إليه – عملا ثقيلا ولكنه مقدس . يقول سان سيمون : –

« لقد آمن أنه جدد عهد تبشير الرسل الأولين . وكتب الأساقفة المدائح التي تشيد به ، وجعل اليسوعيون المنابر تتغنى بالثناء عليه ... ولم يكن يسمع غير الاطراء بينما كان الكاثوليك والأساقفة الاتقياء الصادقون يئنون بالروح إذ يرون الكاثوليك السنيين ينحرفون إلى الخطأ ، والمهرطقين يسلكون مسلك الطغاة الخوارج ، والوثنيين يحاربون الحق والمؤمنين الجاهرين بإيمانهم والشهداء . ولم يستطيعوا أن يطيقوا هذا السيل من الحنث وتدنيس المقدسات(١٠٣) » .

وكان سان – سيمون وفوبان من الفرنسيين القلائل الذين أدركوا منذ البداية تلك الخسارة الاقتصادية التي ألحقها بفرنسا نزوح هذا العدد الكبير من المواطنين الكادحين . وفقدت كان صناعة نسيجها ، وتور ثلاثة أرباع أنوال الحرير فيها . ومن بين الستين مصنعا للورق في إقليم أنجوموا لم يبق سوى ستة عشر ، ومن بين ١٠٩ متجرا في مدينة ميزيير لم يبق سوى ثمانية ، ومن بين أربعمائة مصبغة في تور لم يبق سوى أربع وخمسين(١٠٤) . واضمحلت ثغور كرسيليا لفقدها الأسواق في بلاد أصبحت الآن بفضل جهود الهيجونوت وإرشادهم تنتج ما كانت من قبل تستورده من فرنسا . وقضى جزئياً على حركة التعمير الكبرى التي أدخلها كولبير على الاقتصاد الفرنسي ، ونزحت الصناعات التي جاهد في سبيل تنميتها في فرنسا لتغذي منافسيها . ولما هبطت إيرادات الدولة من الصناعة هبوطاً حاداً وقعت الحكومة من جديد في أيدي المرابين الذين انقذها كولبير من براثنهم . وفقدت البحرية الفرنسية تسعة آلاف بحار ، والجيش ستمائة ضابط واثني عشر ألف جندي ، ولعل نضوب البحرية والجيش على هذا النحو كان من عوامل الهزائم التي أوشكت أن تحطم فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية .

كذلك شددت همجية الاضطهاد الرهيبة واستغاثات المهاجرين من عزيمة أوربا البروتستنتية على الاتحاد ضد فرنسا .

على أن إلغاء المرسوم ربما كان معيناً غير مباشر للفنون والعادات ولطائف الحياة فى فرنسا . ذلك أن الروح الكلفنية المتشككة فى الزينة والصور المنحوتة والمرح الطائش تبطت الفن والأناقة والظرف . ولو أن فرنسا أصبحت بيوريتانية لكانت شذوذاً وخطأ . ولكن إلغاء المرسوم كان كارثة على الدين الفرنسى . لقد لاحظ بيكون من قبل أن مشهد الحروب الدينية كان خليقاً بأن يجعل لوكريتوس — لو رآه — « سبعة أضعاف ما كان أبيقورية » وإلحاداً(١٠٥) . « فاذا تراه كان قائلا الآن ؟ لم تبق نقطة توقف للعقل الغالى بين الكاثوليكية والإلحاد . وبينما أفادت البروتستنتية فى سويسرة وألمانيا وهولندة وانجلترة فى الإعراب عن التمرد على الكنيسة ، لم يبق فى فرنسا أداة استنكار كهذه . فوجدت حركة الانتقاض على الرومانية أنه أيسر لها أن تكون شكاكة خالصة من أن تكون بروتستنتية سافرة . وانتقلت النهضة الفرنسية ، غير المعوقة من البروتستنتية ، رأساً إلى حركة التنوير بعد موت الملك .

٧ – بوسويه : ١٦٢٧ – ٨٨

بيد أن الكنيسة الفرنسية كانت ظافرة ولو مؤقتاً ، وتربعت على عرش بهائها وسلطانها . وكانت رغم ماشاب روحها الجماعية من تعصب ، وما عاب سلطتهامن قسوة ، تضم أرق نخبة من الرجال فى أوربا تعليما ، وكان قديسوها ينافسون طغاتها . وكان من أساقفتها نفر ذوو نزعة إنسانية ، عاكفون فى إخلاص على الخير العام كما رأوه . ودخل اثنان منهم الأدب الفرنسى دخولا شارف فى سنائه دخول بسكال ، وكان فى زمانهما أكثر بروزاً . وقلما تجد بين رجال الكنيسة الفرنسيين من ضارع فى عظمته بوسيويه ، أو فنيلون فى شعبيته .

أما جاك بنين بوسويه (واسمه الأوسط Bènigne — أى اللطيف — كان أنسب لفنيلون) فقد ولد فى أسرة ثرية لمحام بارز وعضو فى برلمان ديجون (١٦٢٧) . نذره أبواه للقسوسية ، وجز شعر رأسه فى الثامنة ، وحين بلغ الثالثة عشرة عين كاهناً فى كاتدرائية متز . وفى الخامسة عشرة أرسل إلى كلية نافار بباريس . وفى السادسة عشرة كان قد بلغ من الفصاحة منزلة حملت نساء الأوتيل درامبوييه المثقفات على إقناعه بأن يلقى عليهن عظة فى منتصف سهرة الصالون رغم ماطبع عليه من كبرياء مقترنة بالخجل . وبعد أن تخرج بمرتبة الشرف عاد إلى متز ورسم قسيساً وتقدم بعد قليل لنيل درجة الدكتوراه فى اللاهوت . وقد راعه أن يجد أن عشرة آلاف من بين الثلاثين ألف نفس فى متز كانوا من البروتستنت المالكين . ودخل فى جدل مهذب مع بول فيرى الزعيم الهيجونوتى ، وقد سلم له ببعض المفاسدفى الممارسات الكاثوليكية ، ولكنه زعم أن الانشقاق رغم ذلك شر أعظم . وظل على علاقات ودية مع فيرى اثنى عشر سنة ، تماما كما سنراه فى فترة لاحقة يجاهد جهاداً حبياً مع ليبنتز فى سبيل إعادة توحيد العالم المسيحى . ولما سمعته آن النمساوية يعظ فى متز خيل إليها إنه أرقى من تلك البيئة التى لاتليق بمواهبه ، وأقنعت الملك بأن يدعوه إلى باريس ، فانتقل إليها فى ١٦٥٩ .

ووعظ أول الأمر جماهير بسيطة فى دير سان لازار برعاية فانسان دبول . وفى ١٦٦٠ وعظ جمهوراً عصريا فى كنيسة « لى مينيم » قرب البلاس رويال . وسمعه الملك ، فتبين فى الخطيب الشاب مزيجا متوازنا من البلاغه ، واستقامه العقيدة ، وقوة الخلق . فدعاه لإلقاء عظات الصوم الكبير فى ١٦٦٢ باللوفر ، واختلف إلى هذه الخطب فى تقوى واضحه ، اللهم إلا فى ذلك الأحد الذى انطلق فيه على جواده مسرعا ليسترد لويز دلا فاليير من الدير . وحفز حضور الملك هـذه العظات بوسويه على أن ينقى أسلوبه من الجلافات الريفية، والاستشهادات السكولاستية، والحجج الجدليه .

ذلك أن أناقة البلاط انتقلت إلى كبار الأكليروس ، فأثمرت عهداً من البلاغة المنبرية ينافس البلاغة القانونية التى اشتهر بها ديموستين وشيشرون . وفى أثناء السنوات الثمانيه التالية وفق بوسويه فى أن يكون الخطيب المفضل فى كنائس القصر ، ثم أصبح المرشد الروحى لعدد من كبريات النبيلات مثل هنريتا « مدام » دورليان ، ومدام دلونجفيل ، ومدموازيل دمونبانسيه (١٠٦) وكان فى بعض عظاته يوجه الخطاب إلى الملك مباشرة ، مغالياً فى تملقه عادة ، ولكنه دعاه مرة بحرارة إلى أن يهجر زناه وفجوره ويعود إلى زوجته . ففقد برهة رضاء الملك ، ولكنه استرده حين هدى تورين إلى الكاثوليكيه . وفى ١٦٦٧ اختاره لويس ليؤبن آن النمساوية فى مأتمها ، وبعد عامين ألقى عظه فوق جثمان هنريتا ماريا ملكة انجلترة الأرملة ، وفى ١٦٧٠ اضطلع بواجب أليم هو تأبين هنريتا الصغرى ، تائبته المحبوبة التى فاضت روحها بين ذراعيه فى فتنة صباها التى لم يكتب لها بقاء طويل .

والعظتان اللتان أبن بهما تشارلز الثانى ملك انجلترة وأخته هما أشهر العظات قاطبة فى الأدب الفرنسى — لأن خطاب البابا أوربان الثانى الذى مازال يفوقهما شهرة ، والذى استنفر فيه أوروبا إلى الحرب الصليبية الأولى (١٠٩٥) — هذا الخطاب كان باللاتينية وإن ألقى على أرض فرنسية. واستهل بوسويه أول هذين التأبينين بموضوعه الجرىء المفضل ، وهو أن على الملوك أن يتعلموا من دروس التاريخ ، وأن الانتقام الإلهى سوف يحل بهم إن لم يستعملوا سلطتهم لخير الشعب ، ولكنه بدلا من أن يرى فى تشارلز الأول ملك انجلتره مثالا على هذا العقاب ، لم يجد فيه عيباً سوى فرط رأفته ، ولم يجد عيباً على الاطلاق فى زوجته الوفية ، فصور الملكة المتوفاة قديسة جاهدت لتهدى زوجها وانجلترة إلى الكاثوليكية . ثم استطرد بإسهاب فى موضوع آخر محبب إلى نفسه ، وهو تكاثر الملل والنحل البروتستنتية التى لا حصر لها ، وفوضى الأخلاق المنبعثة من اضطراب العقيدة ، وقال : إن « التمرد الكبير » كان عقاباً إلهياً على مروق انجلتره

من كنيسة روما ، ولكن ما كان أروع سلوك الملكة بعد إعدام زوجها على هذا النحو الإجرامى الرهيب ! لقد تقبلت أحزانها ككفارة وبركة ، وحمدت الله عليها وعاشت أحد عشر عاماً فى صلاة متواضعة صابرة، وأخيراً أثيبت على تعبها ، فرد ابنها إلى عرشه ، وكان فى وسع الملكة الأم أن تسكن القصور من جديد ، ولكنها آثرت عليها ديراً فى فرنسا ، ولم تستعمل ثروتها الجديدة إلا فى الاستكثار من أعمال البر .

وكان أشد من هذه تأثيراً وأوثق قرباً للتاريخ وللذكريات الفرنسية تلك العظة التى ألقاها بوسويه بعد عشرة شهور فوق جثمان هنرييتا آن . وكان قد رسم قبيل ذلك أسقفاً لكوندوم فى جنوب غربى فرنسا ، ومن أجل هذا الخطاب جاء إلى كنيسة دير سان — دنى فى كل بهائه الأسقفى ، يتقدمه المنادون ، وعلى رأسه تاج الأسقفية، وفى أصبعه تتألق الزمردة الكبيرة التى أهدته إياها الأميرة المتوفاة . وفى مثل هذه العظات كان يحد من انفعال الخطيب تفكيره فى الموت فى صورة عامة ، أما الآن فقد كان الموت موت واحدة كانت حتى الأمس القريب مسرة الملك وبهاء البلاط ، وأجرش الحبر الجليل بالبكاء وهو يذكر كيف فوجىء القوم مفاجأة أليمة بهذه اللطمة التى جعلت فرنسا كلها تنوح وتتعجب من طارق الله . ثم وصف هنرييتا لا بموضوعية فاترة ، بل بتحيز المحبة — « لقد كانت على الدوام لطيفة مسالمة سمحة خيرة (١٠٧) » — واكتفى بالإلماع فى إيجاز حكيم إلى أن سعادتها لم تتكافأ مع فضائلها . ثم تجاسر حتى هذا الأسقف الأريب ركن السنية الركين وحارسها الأمين — تجاسر لحظة على أن يسأل الله لم يزدهر كل هذا الشر والظلم على الأرض (١٠٨) . ثم عزى نفسه وجمهوره بذكرى تقوى هنرييتا فى احتضارها ، وبالأسرار المقدسة التى طهرتها من كل علاقاتها الأرضية ، فلا ريب إذن أن روحا رقيقة مطهرة كروحها تستحق الخلاص ، بل إنها لتزين الفردوس نفسه !

وبسبب خطأ نادر فى الحكم على الأخلاق عين لويس بوسويه (١٦٧٠)

معلما للدوفان ، متأثراً فى ذلك ببلاغته تلك — وعهد إليه بتدريب ذلك الصبى المتخلف ، المتبلد الحس ، على المعرفة والخلق اللازمين لحكم فرنسا . وانصرف بوسويه مخلصا لهذه المهمة . فاستقال من أسقفيته ليكون قريباً من تلميذه القاصر ومن البلاط ، وكتب للويس الصغير كتيبات جادة فى تاريخ العالم والمنطق والإيمان للسيحى والحكم وواجبات الملك ، مما كان خليقاً بأن يجعل من الصبى هولة من الكمال والقوة.

وفى إحدى هذه المقالات المسماة « السياسة مستقاة من كلام الأسفار المقدسة » (١٦٧٩ — ١٧٠٩) دافع بوسويه عن الملكية المطلقة وحق الملوك الإلهى بغيرة فاقت غيرة الكردينال بيلارمين فى تأييده لسيادة البابوات. ألم يكتب فى العهد القديم أن « الله أعطى لكل شعب حاكمه »(١٠٩) وفى العهد الجديد بكل سلطان القديس بولس « إن السلاطين مرتبة من الله (١١٠) ، أجل ، ولقد أضاف الرسول قوله « إذن فكل من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . واضح إذن أن كل من يقبل الكتاب المقدس كلمة الله يجب أن يكرم الملك باعتباره خليفة لله ، أو كما قال أشعياء النبى عن كورش إنه « مسيح الرب (١١١) » . إذن فشخص الملك مقدس، وسلطة الملك مقدسه ومطلقة ، والملك لا يسأل إلا أمام الله . ولكن هذه المسئولية تضع على عاتقه التزامات قاسية . فعليه فى كل لفظ وعمل أن يطيع قوانين الله ، ومن حسن حظ لويس أن إله التوراة كان عطوفاً على تعدد الزوجات .

كذلك كتب بوسويه للدوفان (١٦٧٩) كتابه الشهير « حديث عن تاريخ العالم » . ذلك أنه حين روعه إلماع ديكارت إلى أن جميع الأحداث فى العالم الموضوعى — إذا افترضنا لها دفعة مبدئية من الله — يمكن أن تفسر آليا بأنها منبعثة من قوانين الطبيعة ودستورها ، رد عليه بأن كل حدث كبير فى التاريخ إنما هو — على النقيض من ذلك — جزء

من خطة إلهية ، وعمل من أعمال العناية الإلهية أفضى إلى ذبيحة المسيح ونمو المسيحية لتصبح « مدينة متسمة لله » . وتناول الكتاب المقدس ثانية باعتباره موحى من الله ، فركز التاريخ كله على سيرة يهود العهد القديم والأمم التى أثارتها المسيحية . « لقد استخدم الله الأشوريين والبابليين ليعاقب شعبه المختار ، والفرس ليردهم إلى وطنهم ، والاسكندر ليحميهم ، وأنطيوخس ليمتحنهم ، والرومان ليصونوا حرية اليهود ضد ملوك سوريا » . فإذا بدا لنا فى هذا الرأى حماقة ، فان علينا أن نذكر أنه كان أيضا رأى كتاب التوراة الذين وحد بوسويه بينهم وبين الله فى ثقة . ومن ثم فقد بدأ بخلاصة لتاريخ العهد القديم ، وقام بهذه المهمة بما عرف عنه من ولع بالنظام والإيجاز وقوة البلاغة . واعتمد ترتيبه الزمنى على تقويم أوشير رئيس الأساقفة ، فأرخ الخليقة بسنة ٤٠٠٤ ومر بوسويه مرور الكرام بتلك الأمم التى لم يشر إليها الكتاب المقدس ، ولكنه وصفها وصفا مجملا ينم على بصيرة وقوة ملحوظتين ، وأبدى فهما عطوفا للفضائل والإنجازات الوثنية . وقد رأى بعض التقدم خلال مشكال الإمبراطوريات الصاعدة والساقطة ، واتخذت فكرة التقدم جسدا ولحما فى كتاباته ، وكذلك فى كتابات شارل بيرو وغيره من المدافعين المعاصرين عن المحدثين ضد القدامى ، ومهدت الطريق من بعيد لطورجو وكوندرسيه . وخلق الكتاب رغم كل عيوبه الفلسفة الحديثة للتاريخ ، وحسب رجل واحد أن يحقق انجازا كهذا .

على أن الأمير تلميذ بوسويه لم يقدر شرف تأليف الكتب العظيمة لتعليمه . فقد كان فى روح بوسويه من الجد والصرامة ما لا يجمله المعلم اللطيف المرضى . وكان أنسب لطبيعته أن يرشد فى رفق لويز دلافاليير لتهرب من حياة الزنا إلى الدير ، وقد أتى المعلة حين قطعت على نفسها عهد الرهبنة . وفى ذلك العام (١٦٧٥) جاهر ثانية بلوم للملك الزير ، واستمع إليه لويس فى صبر نافد ، ولكنه أعاده لمنصب الأسقفية وعينه أسقفاً على مو (١٦٨١)

على قرب من فرساى يتيح له أن يتذوق فخامة البلاط وبهاءه . وكان طوال ذلك الجيل المتكبر ، الشارح والقائد العمدة للاكليروس الفرنسى ، وقد وضع لأجلهم « المواد الأربع » التى أكدت من جديد « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية إزاء السيطرة البابوية . ولقد أفقده عمله هذا قبعة الكردينالية ، ولكنه أصبح بابا فرنسا .

ولم يكن بالبابا السيئ . فهو مع إصراره على كرامة الأسقفية ورعاية مراتبها ظل رحيما لطيفا ، وبسط عباءته فوق ألوان كثيرة من المعتقد الكاثوليكى . وقد وافق بسكال على إدانة الشطط الذى تورط فيه الإفتاء الدينى دون أن يغتفر له السخط والاحتقار اللذين ألهبا رسائله الإقليمية . ففى ١٧٠٠ أقنع جمعية الاكليروس العامة باستنكار ١٢٧ قضية أخذت من فتاوى المفتين اليسوعيين ، وقد ظل على علاقات ودية مع آرنو وغيره من الجانسنيين . وذاع عنه أنه كان متسامحا فى كرسى الاعتراف ، وأنه استنكر مظاهر التقشف فى العلمانيين ، ولكنه أطرى بحرارة نسك رانسيه ، وكان يختلف بين الحين والحين إلى خلوة فى لاتراب ، ويتمنى أحيانا أن يظفر بسلام صومعة الراهب . ولكن بريق البلاط غلب طموحه للقداسة ، ولوث لاهوته بأطماع الارتقاء فى مراتب الكنيسة والدولة . وقد توسل مرة إلى رئيسة الدير فى موقائلا : « صلى لأجلى لكيلا أحب العالم(١١٢) » . وقد أصبح أشد صرامة فى أخريات أيامه . وعلينا أن نغتفر له تنديده بالمسرحيه وبموليير فى كتابه « حقائق عامة عن الملهاة » (١٦٩٤) لأن موليير لم يعرض الدين إلا فى صورته للمزمتة المنافقة ، ولم ينصف رجالا مثل فانسان دبول .

كان بوسويه أشد تعصبا نظرياً منه عمليا . فقد رأى أن من السخف أن يظن أى ذهن فردى مهما عظم ذكاؤه أنه يستطيع أن يكتسب فى عمر واحد من المعرفة والحكمة ما يؤهله للجلوس فى كرسى القضاء ليحكم على

تقاليد ومعتقدات الأسرة والمجتمع والدولة والكنيسة . فالحس المشترك « Sens commun » أجدر بالثقة من التفكير الفردى ، ولا يعنى الحس أو الإدراك المشترك فكر الأشخاص العاديين ، بل الذكاء الجماعى لأجيال علمتها قرون من الخبرة ، الذكاء الذى يتمثل فى أعراف النوع الإنسانى ومعتقداته. فمنذا الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف خيرا من هؤلاء جميعا حاجات النفس البشرية والإجابات عن الأسئلة التى لا تستطيع المعرفة وحدها أن تجيب عنها؟ ويترتب على هذا أن الذهن البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه السلام، والتفكير الحر لا يستطيع إلا أن يدمر ذلك السلام ، والمجتمع البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه الأخلاق ، ولكن التفكير الحر بتشككه فى المصدر الإلهى للقانون الخلقى إنما يهدم النظام الأخلاقى برمته . فالهرطقة إذن خيانة للمجتمع والدولة كما أنها خيانة للكنيسة ، و« الذين يؤمنون بأن الملك ينبغى ألا يستعمل القوة فى أمور الدين ... يرتكبون خطأ مجانبا للتقوى(١١٣) » ولقد آثر الأسقف الإقناع على الإكراه فى هداية المهرطقين ، ولكنه دافع عن الإكراه باعتباره الملاذ الأخير ، ورحب بإلغاء مرسوم نانت لأنه « المرسوم الورع الذى سيكيل للهرطقة الضربة القاضية » . ونفذ القانون فى إقليمه بكثير من التسامح ، حتى لقد كتب الناظر الملكى يقول « ليس فى الإمكان عمل شىء فى أسقفية مو ، لأن ضعف الأسقف يقف عقبة فى سبيل هداية الهيجونوت(١١٤) » . وقد ثبت معظم الهيجونوت فى تلك المنطقة على مذهبهم .

وكان إلى النهاية يعلل نفسه بأن الحجة قادرة أن تكسب حتى هولنده وألمانيا وإنجلترة وتردها للإيمان القديم . وسنراه يفاوض لايبنتز سنوات عديدة على خطة الفيلسوف التى اقترحها لإعادة توحيد القطاعات المنشقة من المسيحية . وفى ١٦٨٨ كتب رائعته « تاريخ ملل الكنائس البروتستنتية » — وهو الذى قال « بكل » إنه « ربما كان أخطر كتاب وجه ضد البروتستنتية(١١٥) . وقد تميزت مجلداته الأربعة بالدراسة الشاقة ، وكانت كل صفحة فيها تدعم بالمراجع ، وهو لون من الأمانة كان بدأ يتجسد .

وبذل الأسقف فى كتابه محاولة ليكون منصفا . فسلم بمفاسد الكنيسة التى تمرد عليها لوثر ، ورأى الكثير مما يستحق الإعجاب فى خلق لوثر ، ولكنه لم يستطيع أن يسيغ الفظاظة المبتهجة التى اختلطت فى لوثر بالبسالة الوطنية والتقوى الرجولية . ثم صور ملانكتون بصورة تكاد تكون صورة الحب . غير أنه كان يأمل فى تفكيك ولاء أتباع هؤلاء المصلحين لهم باظهار مواطن ضعفهم الشخصى وخلافاتهم اللاهوتية وقد هزأ بالفكرة التى زعمت أن لكل إنسان الحريه فى تفسير الكتاب المقدس لنفسه وتأسيس دين جديد على قراءة جديدة له ، فكل من خبر الطبيعة البشرية يستطيع أن يتنبأ بأنه لو ترك لهؤلاء الحبل على الغارب لأسفر هذا عن تفتيت المسيحية إلى متاهة من الملل والنحل ، وتفتيت الأخلاق إلى فردية لا يستطيع أن يكبح جماح غرائز الغاب فيها سوى الاستكثار من الشرطة استكثاراً لانهاية له . فمن لوثر إلى كالفن إلى سوكينوس — من رفض البابوية ، إلى رفض سر القربان إلى رفض المسيح — ثم من التوحيد (رفض التثليث) إلى الإلحاد ، تلك هى الدرجات الهابطة شيئاً فشيئاً إلى انحلال الإيمان . ومن الثورة الدينية إلى الثورة الاجتماعية ، ومن رسائل لوثر إلى حرب الفلاحين، ومن كالفن إلى كرمويل إلى « المسوين » إلى قتل الملك ، تلك درجات منزلقة فى تحلل النظام الاجتماعى والسلام . ولا يستطيع سوى دين ذى سلطان أن يملى الوازع للأخلاق ، ويمنح الاستقرار للدولة ، ويسلح الروح البشرية بالقوة وهى تواجه الحيرة وفقد الأحباء والموت .

لقد كان الكتاب حجة قوية، شديدة التأثير بما حوت من ثقافة وبلاغة، محتوية على صفحات لاضريب لها فى نثر ذلك العصر الفرنسى إلا فى جدليات بسكال المنيفة و « خواطره » ، ولولا أن التجاهه للعقل قد أحبطه التجاؤه للقوة فى فظاعات إلغاء المرسوم لحقق نجاحاً أعظم . فقد ظهرت فى الدول البروتستنتية عشرات الردود المفندة لحجج الكتاب تشجب بقوة ذلك

التظاهر بالاحتكام إلى العقل فى رجل حبذ النهب والسلب والنفى والمصادرة. والاسترقاق فى سفن تشغيل الأسرى حججا للدفاع عن المسيحيه الكاثوليكيه. وتساءل أصحاب الردود ألم يكن هناك ملل مختلفه فى الكاثوليكيه أيضاً ؟ وأى قرن خلا من الانقسامات فى الكنيسه — من الكاثوليك الرومان ، والكاثوليك اليونان ، والكاثوليك الأرمن ، والكاثوليك الشرقيين ؟ وألم يكن جانسنيو البور — رويال فى تلك اللحظه يقتتلون مع إخوانهم من الكاثوليك أعضاء جماعة يسوع ؟ وألم يكن الأكليروس الغالى بزعامة بوسويه نفسه فى نزاع مر مع دعاة سلطان البابوية المطلق كاد يبلغ حد الانشقاق على روما ؟ وألم يكن بوسويه يقاتل فنيلون ؟

٨ – فنيلون . ١٦٥١ – ١٧١٥

كان فرانسوا دسالنياك دلا موت — فنيلون ، النبيل المولد ، الثلاثى الاسم ، كبوسويه سنياً طموحاً ، أسقفا ورجل بلاط ، ومعلما لأمير من البيت المالك ، وكاتباً من فحول النثر . ولكنه فى غير ذلك كان بينه وبين بوسويه مابين السماء والأرض من تباين . كتب سان — سيمون معرباً عن إعجابه بالرجل يقول :

« رجل فارع القوام نحيل الجسد قوى البنية شاحب الوجه كبير الأنف له عينان تقدحان الشرر والذكاء . فى سحنته ما يوحى بأنها تتألف من متناقضات ، ومع ذلك فإن هذه المتناقضات على نحو ما لا تؤذى الناظر . فوجهه أنيق وقور ، رزين مرح ، يطالعك منه اللاهوتى والأسقف والنبيل على السواء ، وفى هيئته كما فى شخصه يرى الناظر قبل كل شىء رقة وتواضعاً وقدراً فائقاً من رفعة الذهن . لقد كان عسيراً على الناظر إليه أن يحول عينيه عن وجهه(١١٦) » .

وعند ميشليه أن « فيه شيئاً من الشيخوخة منذ ولادته(١١٧) » —

لأنه كان ثمرة الازدهار الأخير لإقطاعى مكتهل فى بيريجوز تزوج آنسة نبيلة رغم فقرها ، ضارباً صفحا عن تذمر أبنائه الكبار ، وأقصى الابن الجديد عن المال بنذره للكنيسة . وربته أمه ، فشب على أناقة فى الحديث ورهافة فى الحس أشبه بأناقة حديث النساء ورهافة حسهن . وقد أحسن تثقيفه فى الآداب القديمة على يد معلم خاص ويسوعيى باريس ، فأصبح أديباً لا قسيساً فحسب . وكان فى استطاعته أن يبارى أى مهرطق فى الاستشهاد بأقوال الوثنيين ، ويكتب الفرنسية بأسلوب حساس مرهف مهذب هو نقيض أسلوب بوسويه الخطابى ، الفحل ، الجزل

رسم كاهنا فى الرابعة والعشرين (١٦٧٥) ، وسرعان ما رقى رئيساً لدير «الكاثوليك الجدد» . وهناك اضطلع بمهمة شاقة هى رد الشابات اللاتى أبعدن عن البروتستنتية حديثاً إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكى . وقد استمعن إليه أول الأمر على مضض ، ثم فى استسلام ، ثم فى محبة ، لأنه كان يسيراً على المرء أن يقع فى غرام فنيلون ، ثم إنه الرجل الوحيد المتاح لهن . وفى ١٦٨٦ أرسل إلى إقليم لاروشل ليعاون على هداية الهيجونوت . وقد حبذ مرسوم الإلغاء ، ولكنه استنكر العنف ، وأنذر وزراء الملك بأن هداية الناس بالإكراه لن تكون إلا سطحية ومؤقتة . ولما عاد إلى الدير بباريس نشر (١٦٨٧) « رسالة فى تعليم البنات » تكاد تستشف فيها روح روسو فى دفاعها عن الوسائل اللينة فى التربية . ولما عين الملك الدوق دبورجونيه مربياً لحفيده دوق برجنديه ، البالغ من العمر ثمانية أعوام ، طلب إلى فنيلون أن يتولى تعليم الصبى (١٦٨٩) .

أما الدوق الصغير فكان متكبراً عنيداً مشبوب العاطفة ، فى طبعه أحياناً شراسة وقسوة ، ولكنه أوتى ذهناً متألقا وذكاء متوقدا . وأحس فنيلون أن الدين وحده هو الكفيل بترويضه ، فأشربه مخافة الله ومحبته معاً ، واكتسب فى الوقت نفسه احترام تلميذه بأخذه بنظام حازم خفف

من شدته فهم معطوف لدور المراهقة . وقد راودته الأحلام باصلاح فرنسا عن طريق تربية ملكها للمستقبل . فعلم الغلام سخافة الحرب ، وضرورة النهوض بالزراعة بدلا من تثبيط همم الفلاحين بالضرائب تجبى لبناء المدن الباذخة ولتمويل الحروب العدوانية . وفى كتابه « حوارات الموتى » الذى ألفه لتلميذه ، وسم بالهمجية « تلك الحكومة التى لاقوانين فيها غير ارادة رجل واحد ... فالحاكم ينبغى أولا وقبل كل شىء أن يكون مطيعاً القانون ، فاذا ابتعد عن القانون لم يعد لشخصه قيمة » . وكل الحروب حروب أهلية ، لأن الناس جميعاً أخوة ، يدين كل منهم للنوع الإنسانى — وهو الدولة الكبرى — بدين أعظم كثيراً من دينـــه للبلد الذى ولدفيه(١١٨) » . أما الملك ، الذى لم يكن ضالعا فى هذا التعليم الذى لا تفهمه غير القلة ، والذى رأى تحسنا عجيباً فى خلق حفيده ، فقد كافأ فنيلون برئاسة أسقفية كامبريه (١٦٩٥) . وأخجل فنيلون أحباراً كثيرين باقامته تسعة أشهر من كل عام فى مقر رئاسته الدينية . أما الشهور الباقية فكان ينفقها فى البلاط تواقا للتأثير فى السياسة ، مواصلا أحياناً تعليم الدوق .

وخلال ذلك كان قد التقى بالمرأة التى قدر لها أن تكون « المرأة القاضية عليه » بمعنى الكلمة . هـــذه المرأة ، واسمها مدام جان مارى دلاموت — جويون ، التى تزوجت فى السادسة عشرة ، وترملت فى الثامنة والعشرين وهى جميلة غنية ، تهافت الخطاب على طلب يدها ، ولكنها كانت قد تلقت تدريباً دينيا مكثفا ليحصنها ضد الرجال الطامعين ، ولم تجد لتقواها منصرفا كافيا فى المراعاة الصورية لشعائر العبادة الكاثوليكية ، فاستمعت فى تجاوب لمتصوفة زمانها الذين وعدوا بسلام النفس — لا بالاعتراف والتناول والقداس بقدر ما هو بالاستغراق فى تأمل إله كلى الوجود ، وفى استسلام النفس لله استسلاماً كاملا محبا . فى مثل هذه المحبة الالهية لم يعد لأمور الدنيا وزن ، وفى مثل هذا التسامى الروحى يجوز للمرء أن يهمل كل الطقوس

الدينية ومع ذلك يرق إلى السماء ، لا بعد الموت فحسب بل فى الحياة أيضاً .
وكانت محكمة التفتيش قد أدانت القس الأسبانى ميجويل دى مولينوس (١٦٨٧) لأنه بشر بـ « هدوئية » كهذه فى ايطاليا ، ولكن الحركة كانت تنتشر فى جميع أرجاء أوربا — فى « تقوية » ألمانيا والأراضى المنخفضة ، وبين الكويكرز وأفلاطونيي كمبردج بأنجلترة ، وبين « المنذورين » فى فرنسا .

وقد بسطت مدام جويون آراءها فى عدة كتب ببلاغة مؤثرة . فزعمت أن النفوس أشبه بالسيول التى انبثقت من عند الله وأنها لن تجد الراحه حتى تفني نفسها فيه تعالى كأنها الأنهار يبتلعها البحر ، فإذا الفردية تتلاشى ، وإذا الوعى بالذات أو بالعالم ، بل الوعى كله ، ينتهى ولا يبقى غير الاندماج فى الله . فى مثل هذه الحال تكون النفس معصومه ، لا ينال منها خير ولا شر ، ولا فضيلة ولا خطيئه . فمهما فعلت ففعلها صواب ، ولا تستطيع قوة أن تؤذيها . وقالت مدام جويون لبوسويه أنها لا تستطيع أن تطلب المغفرة على ذنوبها ، لأنه لا ذنوب فى عالم الوجد الصوفى الذى تعيش فيه(١١٩) » . ورأت بعض نساء الطبقه الأرستقراطيه فى هذه الصوفيه لونا رفيعا من التقوى . وكان من بين مريديها السيدات بوفيلييه ، وشوفروز ، وبورتمار ، بل — إلى حد ما — مدام دمانتنون . واستهوى فنيلون نفسه هذا المزيج الساحر من التقوى والثراء والحسن . وكان خلقة هوذاته مزيجا معقداً من الصوفية والطموح والعاطفه الرقيقة . فأقنع مدام دمانتنون بأن تسمح لمدام جويون بالتدريس فى المدرسة التى أسستها زوجه الملك السرية فى سان سير ، وطلبت مانتنون إلى كاهن اعترافها أن ينصحها فى أمر مدام جويون ، فاستشار بوسويه ، ودعا بوسويه المتصوفة لتشرح له تعاليمها ، ففعلت . وتوجس الأسقف الحذر فيها خطرا يتهدد لاهوت الكنيسة وممارساتها ، لأنها لم تستغن عن الاسرار المقدسة والكاهن

فحسب ، بل من الأناجيل والمسيح أيضاً ، فوبخها ، وناولها القربان ، وطلب إليها أن ترحل عن باريس وتكف عن التعليم • فوافقت أول الأمر ، ولكنها عدلت بعد ذلك . واستطاع بوسويه أن يحمل السلطات على حبسها فى دير ثمانية أعوام (١٦٩٥ — ١٧٠٣) أفرج عنها بعدها شريطة أن تعيش فى هدوء على ضيعة ابنها قرب بلوا ، وهناك ماتت عام ١٧١٧ .

وأراد بوسويه أن يرسم الحدود للتصوف المباح ، فألف كتاباً أسماه « تعليم عن حالات الصلاة » (١٦٩٦) وأطلع فنيلون على نسخة من المخطوطة وطلب إليه أن يوافق عليها . وتردد فنيلون ، وكتب كتاباً معارضاً سماه « تفسير أقوال القديسين المأثورة عن الحياة الباطنة » (١٦٩٧) . وأصبح الكتابان اللذان نشرا فى وقت واحد تقريباً مثار نقاش واسع ، احتدم احتدام النقاش حول البور — رويال . أما الملك الذى كان يضع ثقته فى بوسويه فقد عزل فنيلون من وظيفته معلماً لدوق برجنديه ، وأمره بأن يلزم أسقفيته فى كامبرى . وطلب لويس إلى البابا بتحريض من بوسويه أن يشجب كتاب فنيلون . ولكن إنوسنت الثانى عشر تردد ، فهو لم ينس نزعة بوسويه الغالية ، ودفاع فنيلون عن سلطة البابا المطلقة . وضغط لويس على البابا ، فأذعن ، ولكنه توخى غاية الاعتدال فى ادانته لكتاب « الاقوال المأثورة » (مارس ١٦٩٩) . وأذعن فنيلون للحكم فى هدوء .

ثم راح يؤدى واجباته فى كامبرى باخلاص وضمير أكسباه احترام فرنسا ، ولعلهما كانا خليقين باسترضاء بوسويه والملك لولا أن طابعاً نشر (أبريل ١٦٩٩) برضى فنيلون رواية كان قد ألفها لتلميذه الأمير ووضع لها عنوانا بريئاً فى ظاهره « تتمة لأوديسة هوميروس » وهى معروفة لنا باسم (مغامرات تيليماك بن أوليس) . هنا ، وفى أسلوب يفيض رشاقة ونعومة ورقة أنثوية تقريبا ، شرح المعلم اللطيف مرة أخرى فلسفته السياسية المثالية . فنرى لسان حاله (منتور) يحذر الملوك بعد أن أقنعهم بسياسة السلام قائلا :

« منذ الآن تكونون كلكم شعباً واحداً تحت أسماء شتى ورؤساء مختلفين . . . فما النوع الإنسانى كله غير أسرة واحدة . . . وكل الشعوب إخوة . . . وما أتعس القوم الفجار الذين ينشدون المجد القاسى فى دماء إخوانهم المسفوكة . . . إن الحرب ضرورية أحياناً ، ولكنها معرة الإنسانية . فلا تزعموا لى أيها الملوك إن على المرء أن يبتغى الحرب إن أراد المجد . . . فكل من يؤثر مجده على مشاعر الإنسانية ليس إنساناً بل هو وحش تملؤه الكبرياء ، ولن يكسب غير المجد الزائف ، لأن المجد الحقيقى لا يكون إلا فى الاعتدال والصلاح . . . ويجب ألا يرى الناس فيه رأياً طيبا ، لأنه لم يقم لهم وزناً فى فكره ، وأراق دماءهم فى سفه ليرضى غروراً وحشياً (١٢٠) » .

وقد سلم فنيلون بحق الملوك الإلهى ، ولكن بوصفه قوة منحتهم إياها العناية الإلهية ليسعدوا الناس ، وحقاً تحده القوانين :

« إن السلطة المطلقة تهوى بالرعية جماء إلى درك العبودية . فهم يتملقون الطاغية إلى حد العبادة . وكلهم يرتعدون فرقا لنظرة منه ، ولكن ما إن تهب أضعف نسمة من نسمات التمرد عليه حتى ينهار هذا السلطان القبيح نتيجة شططه . ذلك أنه لم يستمد أى قوة من محبة الشعب (١٢١) » .

فى هذه الأسطر رأى لويس الرابع عشر نفسه موصوفاً ، وحروبه مدانة . وبادر أصدقاء فنيلون بالاختفاء من البلاط ، وقبض على طابع « تيليماك » ، وأبلغت الشرطة بمصادرة جميع نسخه . ولكنه طبعه ثانية فى هولندة ، وسرعان ما تداولته الأيدى فى جميع أرجاء العالم القارىء للفرنسية ، وظل أوسع الكتب الفرنسية قراءة وأحبها إلى القراء طوال قرن من الزمان (١٢٢) وأكد فنيلون أن لويس لم يكن فى ذهنه فى هذه الفقرات الناقدة ، ولكن أحداً لم يصدقه . وانقضت سنتان قبل أن يجرؤ دوق برجنديا على الكتابة لمعلمه الأسبق . ثم لانت قناة الملك ، وسمح له بأن يزور فنيلون فى كامبرى .

وعاش رئيس الأساقفة يعلل نفسه بأن تلميذه سيرث العرش عما قليل ، وعندها يدعوه ليكون وزيره كما كان ريشليو وزيراً للويس الثالث عشر . ولكن الحفيد مات قبل أن يموت الجد بثلاث سنين ، ثم سبق فنيلون نفسه لويس إلى القبر بقسعة أشهر (٧ يناير ١٧١٥) .

أما بوسويه فكان قد سبقهما بزمان . لقد كان تمسا فى أخريات أيامه ، حقا إنه انتصر على فنيلون ، وعلى دعاة السلطة البابوية المطلقة ، وعلى المتصوفة ، ورأى الكنيسة منتصرة على الهيجونوت ، ولكن هذه الانتصارات كلها لم تيسر له قذف الحصى من مثانته . وقد برح به الألم تبريحا جعل من العسير عليه أن يحتمل الجلوس فى المكان الذى أولع بالجلوس فيه فى احتفالات البــلاط ، وتساءل الساخرون القســاة ، لم لا يستطيع أن يذهب إلى مو ويموت فى هدوء . وقد رأى من حوله ظهور الارتيابية ، ونقد الكتاب المقــدس ، والجدليات البروتستنتية العنيفة التى صوبت فى غير تقوى إلى رأسه . فها هو على سبيل المثال ذلك الهيجونوتى المنفى جوريو يخبر العالم بأنه هو ، بوسويه ، أسقف الأساقفة ، والصورة المجسمة للفضيلة والاستقامة ، كذاب أشر يعاشر المحظيات(١٢٣) . وقد بدأ تأليف كتب جديدة للرد على هؤلاء الخصوم السفهاء ، ولكن الحياة كانت تنحسر عنه وهو يكتب ، وفى ١٢ أبريل ١٧٠٤ وضع الموت حداً لآلامه .

ويبدو لأول وهلة أن بوسويه يعين أوج الكاثوليكية فى فرنسا الحديثة . فقد لاح أن المذهب القديم قد استرد كل الأرض التى استولى عليها لوثر وكالفن . وكان رجال الاكليروس يصلحون من أخلاقهم ، وراسين يخصص مسرحياته الأخيرة للدين . وكان بسكال قد أدار دوائر الارتيابية على المرة بين ، والدولة جعلت نفسها وكيلا مطيعا للكنيسة ، والملك أوشك أن يكون يسوعيا .

ومع ذلك لم يكن الموقف بالغ الكمال . فاليسوعيون لم ينقشع من

فوق رءوسهم بعد ذلك الغبار الذى أثارته عليهم رسائل بسكال الاقليمية ، والجانسنية مازالت بخير ، واللاجئون الهيجونوت يؤلبون نصف أوربا على الملك الورع ، والناس يقرأون مونتينى أكثر مما يقرأون بسكال ، وهوبز وسبينوزا وبيل يكيلون اللطمات الهائلة لصرح الإيمان . يقول القديس فانسان دبول (١٦٤٨) ، « يشكو عدة رعاة من أن عدد من يتناولون القربان قد تقلص ، ففى سان — سولبيس نقص العدد ٣٠٠٠ ، ووجد راعى سان — نيكولا — دو — شاردونيه أن ١٥٠٠ من رعايا أبرشيته تخلفوا عن قربان القيامة[١٢٤] » . وقال بيل فى ١٦٨٦ « إن العصر الذى نعيش فيه يحفل بأحرار الفكر والربوبيين ، ويدهش الناس لكثرة عددهم[١٢٥] » « ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين فى كل مكان[١٢٦] » وقد عزا هذا إلى حروب العالم المسيحى وجدلياته . وقال نيكول : ليكن معلوما أن الهرطقة الكبرى فى العالم ليست الكالفنية ولا اللوثرية ، بل الإلحاد[١٢٧] » . وقالت الأميرة بالاتين فى ١٦٩٩ « قل أن يجد المرء الآن شابا لا يشتهى أن يكون ملحداً[١٢٨] » وروى لايبنتز أن فى باريس (١٧٠٣) « تفشت بدعة من يسمونهم العقول القوية ، ويسخر الناس هناك من التقوى . . . وتحت حكم ملك تقى صارم مطلق السلطة ، تجاوزت فوضى الدين كل الحدود التى شهدناها من قبل فى العالم المسيحى[١٢٩] » . وبين ذوى العقول القوية — وهى قوية إلى درجة تكفى للتشكك فى كل شىء تقريبا — نجد سان إفريمون ، ونينون دلانكلو ، وبرنييه ملخص فلسفة جاسندى ، ودوق نيفير وبوبون . وأصبح « التامبل » الذى كان يوما مقراً لفرسان المعبد (الداوية) فى باريس ، مركزاً لجماعة صغيرة من أحرار الفكر — شولييه وسيرفيان ، ولافار ، الخ — الذين أسلموا تهكمهم بالدين إلى عهد الوصاية . أما فونتنيل ، الذى قارب المائة وتحدى الفناء وأفسح له فى الأجل حتى تبادل النكت مع الموسوعيين ، فكان فى ١٦٨٧ ينشر كتابه (تاريخ النبوءات) ويقوض فى خبث أساس المسيحية المعجز . وهكذا مهد لويس فى نشوة تقواه وورعه الطريق لفولتير .

الفصل الثالث

الملك والفنون

١٦٤٣ — ١٧١٥

١ - تنظيم الفنون

لم يشهد التاريخ من قبل ولا من بعد ، ربما باستثناء عهد بركليس ، حكومة شجعت الفن ، أو غذته ، أو هيمنت عليه ، كما فعلت حكومة لويس الرابع عشر .

كان ذوق ريشليو الرفيع ومشترياته المختارة بحكمة قد أعانت الفن الفرنسي على أن يفيق من الحروب الدينية . وفي عهد وصاية آن النمساوية كان جامعو التحف الأهليون — من الأشراف ورجال المال — قد بدأوا يتنافسون في جمع آثار الفن . فاقتني بيير كروزا المصرفي مائة صورة بريشة تيشان ، ومائة أخرى بريشة فيرنوزي ، ومائتين بريشة روبنز ، وأكثر من مائة بريشة فانديك . أما فوكيه فقد جمع في قصر فوكارأبناصورا وتماثيل ، وتحفا فنية أقل شأنا ، وكان في جمعه من التمييز أكثرمما كان فيه من الحكمة والحذر . وورث لويس مقتنياته بعد أن أجهز عليه ، وما لبث العديد من المجموعات الخاصة الأخرى أن جمع في اللوفر أو فرساي . وكان مازاران قد آثر وضع شطر من ثروته في الفن دون النقود تجنبا لهبوط قيمة العملة . وقد أسهم ذوقه الإيطالي الرفيع في تكوين انحياز الملك إلى الفن الكلاسيكي . وأغلب الظن انه هو الذى علم لويس الرابع عشر أن مما يعزز مجد الحاكم أن يجمع الفن ويعرضه ويحتضنه . وقد هيأت هذه المجموعات المثل الحافزة والقواعد الموطدة لنعليم الفن وتطويره في فرنسا .

وكانت الخطوة التاليه هى تنظيم الفنانين. وهنا أيضا كان مازاران سباقاً. ففى ١٦٤٨ أسس أكاديمية التصوير والنحت ، وفى ١٦٥٥ أصدر الملك مرسوما بهذه الأكاديمية فأصبحت الأولى فى سلسلة من الأكاديميات التى قصد بها تدريب الفنانين وتوجيههم إلى خدمة الدولة وتجميلها . والتقط كولبير الخيط حيث تركه مازاران ، وبلغ بهذه المركزية للفن الفرنسى القمة . وكان يتطلع إلى « جعل الفنون تزدهر فى فرنسا أكثر من ازدهارها فى أى بلد آخر[١] » رغم أنه لم يدع لنفسه ملكة الحكم فى أمور الفن . وبدأ بأن اشترى للملك مصنع جوبلان للنسيج المرسوم (١٦٦٢) وفى ١٦٦٤ حصل على منصب المشرف على العمائر ، فأتاح له هذا المنصب هيمنة على المعمار والفنون الملحقة به . وفى ذلك العام أعاد تنظيم أكاديمية التصوير والنحت ، وسماها الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة . وكان هنرى الرابع قد أسكن اللوفر طائفة من مهرة الصناع ليزينوا القصور الملكية . فجعل كولبير من هؤلاء الرجال نواة للمصنع الملكى لأثاث التاج (١٦٦٧) . وفى ١٦٧١ أنشأ الأكاديميه الملكيه للعمارة ، حيث أغرى الفنانون بالبناء والزخرفه بـ « الذوق الرفيع » الذى يحبذه الملك . وفى هذه الجماعات كلها وضع مهرة الصناع تحت إشراف الفنانين ، وهؤلاء تحت إرشاد سياسة وطراز موحدين .

ورغبة فى دعم الاتجاه الكلاسيكى الذى تلقاه الفن الفرنسى إبان عهد فرنسوا الأول ، وتنقيته من التأثيرات الفلمنكية ، أنشأ كولبير وشارل لبرون أكاديمية فرنسا الملكيه فى روما (١٦٦٦) . وكان الطلاب الحائزون على جائزة روما فى أكاديميه باريس يبعثون إلى إيطاليا ويعالون خمس سنين على حساب الحكومة الفرنسية . وفرض عليهم أن يستيقظوا فى الخامسة صباحا ويمضوا إلى الفراش فى العاشرة مساء . وقد دربوا على نسخ النماذج الكلاسيكية ونماذج النهضة ومحاكاتها ، وكان ينتظر من كل منهم أن ينتج « رائعة » (بالمعنى المصطلح عليه فى نظام الطوائف) مرة كل ثلاثة أشهر ، فإذا عادوا إلى فرنسا كان للدولة الحق المقدم فى خدماتهم .

وكانت ثمرة هذه الرعاية والتأميم للفن إنتاجا رائعا ضخما للقصور، والكمائس، والتماثيل، والصور، وقطع النسيج المرسوم، والخزف، والمداليات، والمحفورات، والنقود، وكلها مطبوع بكبرياء «الملك الشمس» وذوقه، وبقسمات وجهه أحياناً كثيرة. ولم يكن هذا إخضاع الفن الفرنسي لروما كما شكا البعض، بل إخضاع فن روما للويس الرابع عشر. وقد استهدف الأسلوب أن يكون كلاسيكيا، لأن ذلك الأسلوب يتفق وعظمة الدول وجلال الملوك. وتدفقت الأموال الفرنسية إلى إيطاليا بأمر كولبير لشراء آثار الفن الكلاسيكي أو فن النهضة، وبذل كل شيء لنقل مجد الأباطرة الرومان إلى ملك فرنسا وعاصمتها، وكانت النتيجة مذهلة للعالم.

وأصبح لويس الرابع عشر أعظم رعاة الفن الذين عرفهم التاريخ. فقد «بذل للفنون من التشجيع قدراً أعظم من جميع نظرائه من الملوك مجتمعين» (في رأي فولتير)(٢). وكان بالطبع أسخى حماة الفنون، فزاد عدد الصور في قاعاته من مائتين إلى ألفين وخمسمائة، وكان كثير منها من إنتاج فنانين فرنسيين كلفهم الملك برسمها. واشترى الكثير جداً من المنحوتات الكلاسيكية وتماثيل عصر النهضة، حتى لقد خشيت إيطاليا أن تنزح آثارها الفنية، وحظر البابا المزيد من تصدير هذه الآثار. واستخدم لويس رجالا موهوبين مثل جيراردون أو كوازيفوكس لنقل نسخ من التماثيل التي لم يستطع شراءها، وقل أن نافست نسخ أصولها كما نافستها هذه النسخ. وملئت قصور باريس وفرساي ومارلي وحدائقها وبساتينها بالتماثيل، وكان أوثق سبيل إلى قلب الملك إهداؤه أثراً ذا جمال غير منازع أو شهرة راسخة. مثال ذلك أن مدينة آرل أهدته تمثالها الشهير «فينوس» في ١٦٨٣. ولم يكن لويس بالرجل الشحيح. وقد قدر فولتير أنه كان يشتري في كل عام من آثار الفنانين الفرنسيين ماقيمته ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ويهديها للمدن والمؤسسات والأصدقاء(٣) بهدف مساعدة الفنانين وبث ملكة الجمال والإحساس الفني في الوقت نفسه. وكان ذوق الملك سليما أسدى إلى الفن

الفرنسي أيادي بيضاء ، ولكنه كان كلاسيكياً إلى حد ضيق . فحين أرود بعض الصور التي رسمها تنييه الابن قال آمراً « ابعدوا عني هذه الأشياء البشعة »(٤) وقد ارتقى الفنانون بفضل رعايته كثيراً ، سواء في أرباحهم أو مكانتهم الاجتماعية . وقد ضرب المثل بتكريمه إياهم شخصياً ، وحين شكا البعض من ألقاب الشرف التي خلعها على المصور لبرون والمعماري جول — آردوان — مانسار أجاب في شيء من الحدة « في وسعي أن أصنع عشرين دوقا أو نبيلا في ربع ساعة ، ولكن صنع فنان كمانسار يقتضي قروناً »(٥) . وبلغ راتب مانسار ٨٠٠٠٠ جنيه في العام ، أما لبرون فكان يتقلب في نعيم قصوره بباريس وفرساي ومونمورنسي . وتقاضى لارجليير وريجو ستمائة جنيه أجراً عن كل لوحة . « ولم يترك فنان كفء في عوز »(٦) .

وقلدت الأقاليم العاصمة في تكريم الفن وإثابته ، واقتدى النبلاء بمليكهم . فطورت المدن مدارس فنية خاصة بها — في روان ، وبوفيه ، وبلوا ، وأورليان ، وتور ، وليون ، وإكس — أن — بروفانس ، وتولوز ، وبوردو وواصل النبلاء دورهم رعاة للفن وإن تقاص لأن الدولة استوعبت المواهب المتاحة ، وأسهم الذوق المدرب الذي نشأت عليه أرق أرستقراطية في أوربا في توطيد الطراز الرفيع الذي اتسمت به منتجات الفن في عهد لويس الرابع عشر . واكتسب الرجال والنساء الذين ولدوا في نعيم الامتيازات والثراء وشبوا على العادات المهذبة وسط محيط جميل وأشياء بديعة — نقول إنهم اكتسبوا معايير وأذواقا ممن يكبرونهم سناً كما اكتسبوها من بيئتهم ، وكان على الفنانين أن يلبوا مطالب تلك المعايير ويشبعوا تلك الأذواق . ولما كان الاعتدال ، وضبط النفس ، والتعبير الأنيق ، والحركة الرشيقة ، والشكل المصقول ، لما كانت هذه كلها مثل الارستقراطية الفرنسية في هذا العهد ، فقد تطلبت هذه الصفات في الفن ، وحبذ النظام الاجتماعي الطراز الكلاسيكي . وأفاد الفن من هـذه المؤثرات والهيمنات ، ولكنه دفع عنها . ذلك أنه فقد اتصاله بأفراد الشعب ، ولم يستطع أن يعبر عنهم كما

استطاع الفن الهولندي والفلمنكي أن يعبر عن الأراضي المنخفضة ، وأصبح الفن صوت طبقة ، وصوت الدولة والملك ، لا صوت الأمة . فأنت لا تجد في فن هذه الحقبة الكثير من دفء الوجدان أو عمقه ، ولا تجد ألوان روبنز الغنية وأجساده المكتنزة ، ولا تجد الظلال العميقة التي تلف حاخامات رمبرانت وقديسيه وماليبه ، ولا ترى فلاحين ولا عمالا ، ولا متسولين ، بل السعادة الجميلة ترتع فيها صفوة البشر .

وأبهج كولبير ومولاه أن يجدا في شارل لبرون رجلا يستطيع أن يكون في وقت واحد خادماً غيوراً للحكومة وقاضياً متسلطاً في هذا الطراز الكلاسيكي ففي ١٦٦٦ عين لبرون بتوصية كولبير كبيراً لمصوري الملك ومديراً لأكاديمية الفنون الجميلة ، وبعد عام عهد إليه بمصنع جوبلان ، ووكل بالإشراف على تعليم الفنانين وتشغيلهم لينشئ في أعمالهم تناسقاً في الأسلوب مميزاً للعهد وممثلا له ، وبمعاونة مساعدين على شاكلته في التفكير أنشأ لبرون في الأكاديمية نظام « المحاضرات » (١٦٦٧) التي فرست بنضامها أصول الأسلوب الكلاسيكي بتعاليم وأمثلة وسلطان . واختير رفائيل من بين الفنانين الإيطاليين ، وبوسان من بين الفنانين الفرنسيين ، نموذجين مفضلين على غيرهما ، وكانت كل لوحة يحكم عليها بمعايير مستقاة من فنهما . وقد صاغ لبرون وسباستيان بوردون هذه القواعد ، فرفعا الخط فوق اللون ، والانضباط فوق الأصالة ، والنظام فوق الحرية ، ولم تعد مهمة الفنان أن ينقل الطبيعة بل أن يجملها ، ولا أن يعكس فوضاها وعيوبها وبذاءاتها كما يعكس جمالها العارض ، بل أن ينتقي من بين سماتها تلك التي تتيح للنفس الإنسانية الإفصاح عن أعمق مشاعرها وأرفع مثلها . وكان على للمعماريين وللمصورين والنحاتين والخزافين وصناع المشغولات الخشبية وللمدينـــة والزجاجية والنقاشين ، أن ينطقوا في صوت متناسق واحد بتطلعات فرنسا وبعظمة الملك .

٢ ـ العمارة

على أن هؤلاء الفنانين الفرنسين « المنطلينين » كانوا قد عادوا من روما وقد اكتسبوا طلاء « باروكيا » على غير وعى منهم . وقد وصفنا من قبل ذلك الطراز — طراز الباروك — الذى عم الآن وانتشر . وخلاصته أنه يحل محل البساطة الهادئة التى تميزت بها الأشكال الكلاسيكية إسرافاً فى الوجدان والزخرف ، وبينما نرى المثل الكلاسيكى — وعلى الأخص الهلنستى — قد حوكى فى نحت هذا « القرن المظيم » وتصويره وأدبه ، نجد العمارة والزخرفة قد أخذتا عن الطرز الأنيقة المنمقة التى عقد لها لواء النصر فى إيطاليا بعد وفاة ميكلانجلو (١٥٦٤) . فلقد استهدف بناءو الملك الطراز الكلاسيكى ، ولكنهم حققوا الباروكى — الباروكى الكامل فى فرساى ، ومزيجاً موفقاً من الباروكى والكلاسيكى فى واجهات اللوفر .

أما أول الروائع المعمارية فى هذا العهد فهى كنيسة فال — دجراس بباريس . وكانت آن النمساوية قد نذرت نذراً ببناء معبد جميل إذا وهبها الله ولويس الثالث عشر غلاماً . فلما أتاحت لها وصايتها على العرش المال كلفت فرنسوا مانسار بوضع تصميمات الكنيسة . وأرسى لويس الرابع عشر الحجر الأول فى ١٦٤٥ وكان يومها فى السابعة . ونفذ تصميم مانسار على يد لومرسييه بالطراز الكلاسيكى ، وتوج بقبة مازالت محط إعجاب المماريين . وشيد لبرال برويان كنيسة سان — لوى — دىزا نفاليد (١٦٧٠) لقدامى المحاربين الذين يأويهم الأوتيل ديزنفاليد . وفى ١٦٧٦ كلف لوفوا المعمارى جول اردوان مانسار (حفيد أخى فرنسوا مانسار) بأن يكمل الكنيسة بخورس وقبة . والقبة فى جمالها الرشيق رائعة العهد المعمارية . وقد حقق أردوان مانسار انتصاراً آخر فى تصميم الكنيسة الملحقة بفرساى (١٦٩٩) . وقد أكمل عمله هنا وفى الانفاليد صهره روبيردكوت .

بزخرفة مترفة ، وهو الذى أقام كذلك الأوتيل دفيل فى ليون ، ودير سان دنى ، وواجهة سان — روش .

وحلت العمارة الملكية محل العمارة الكنسية حين تفوقت الدولة على الكنيسة ثراء ومكانة ، فأصبحت المشكلة الآن هى التعبير عن القوة لا عن الورع . وكان للوفر فى تلبية هذه الحاجة ميزة تميز بها على غيره من العمائر ، هى ما أحاط به من تقاليد موروثة . فقد شهدت نموه أجيال كثيرة ، وترك ملوك كثيرون بصماتهم على تاريخه . فشيد لومرسييه الواجهة الغربية للجناح الرئيسى بتكليف من مازاران ، وبدأ الجناح الشمالى على طول شارع ريفولى الحالى . وأتم هذا الجناح خلفه لوفو ، وأعاد بناء واجهة الجناح الجنوبى (المواجه لنهر السين) ، وأرسى أساسات الجناح الشرقى . فى هذه الفترة الهامة أصبح كولبير المشرف على العمائر . وإذ رفض تصميمات لوفو للجناح الشرقى ، فقد فكر فى مشروع مد اللوفر غربا ليلتقى بالتويلرى فى قصر واحد . فأذاع على معماريى فرنسا وإيطاليا مسابقة فى تصميم واجهة جديدة . ورغبة منه فى الحصول على أفضل التصميمات ، أقنع الملك بأن يرسل دعوة خاصة إلى جوفانى لورنتزو برنينى (١٦٦٥) وهو يومها أمير الفنانين الأوربيين غير منازع ، ليأتى إلى باريس على نفقة الملك ويقدم تصميمه . وأتى برنينى بأبهته الكبرى ، وأغضب الفنانين الفرنسيين باحتقاره لعملهم ، ووضع تصميما ضخما باهظ التكلفة يقتضى هدم كل اللوفر القائم تقريبا . ووجد كولبير فى التصميم عيوبا تتصل بأنابيب المياه وغيرها من مرافق المعيشة ، واستشاط برنينى غضبا وقال إن « المسيو كولبير يعاملنى كأنى غـــلام صغير ، بـكل لغوه عن المراحيض والقنوات السفلية[٧] » وأمكن الوصول إلى حل وسط . فقد وضع الملك الحجر الأساسى لتصميم برنينى ، وبعد أن اقام الفنان ستة أشهر فى باريس رد إلى إيطاليا محملا بالمال وأسباب التشريف ، وقد حاول أن يرد على هذا بتمثال نصفى للويس الرابع عشر يقوم الآن بفرساى ، وبتمثال للويس راكبا جواده فى « جاليريا

بورجيزى » بروما أما تصميمه للوفر فتخلى عنه ، واحتفظ بالمبنى القائم وكوفىء شارل بيرو بتكليفه ببناء الواجهة الشرقية . وارتفع صف أعمدة اللوفر الشهير ، الذى أثارت عيوبه الواضحة سيلا من النقد(٨) ، ولكننا نتقبله الآن على أنه من أعظم واجهات العمائر فى العالم .

وكان كولبير يؤمل أن ينتقل الملك من مسكنه الضيق فى سان — جرمان إلى اللوفر بعد تجديده . ولكن لويس لم ينس كيف أكره هو وأمه على الفرار من الجماهير الباريسية خلال حرب الفروند . وكان رأيه فى صوت الشعب أنه صوت العنف ، فلم يشأ أن يعرض نفسه لمثل هذه الكوابح لحكمه المطلق . وعليه قرر أن يبنى فرساى ، وروع القرار كولبير .

وكان لويس الثالث عشر قد شيد هناك استراحة متواضعة للصيد فى ١٦٢٤ . ورأى أندريه لنوتر فى منحدر هذا الموضع الذى كان يرتفع فى رفق ، وفى أحراجه الغنية ، فرصة مغرية للتفنن فى تنسيق الحدائق . وفى ١٦٦٢ قدم للويس الرابع عشر تصميما عاما للمنطقة ، وإذا كانت المبانى اليوم منخفضة عن المروج والبحيرة ،وعن الازهار والشجيرات ومختلف الأشجار ، فلعل هذا هو الوضع الذى تصورها عليه لنوتر . فهو لم يقصد بالقصر أن يكون آية من آيات المعمار بقدر ما يكون دعوة إلى الحياة خارجه بين أحضان طبيعة روضها الفن وجملها ، دعوة لتنشق عبير الزهر والشجر ، ولإشباع العين واللمسة المتخيلة من الأجساد الكلاسيكية النحت ، ولمطاردة الفرائس والنساء فى الغابات ، وللرقص وتناول الطعام على العشب ، ولركوب الزوارق على القناة والبحيرة ، وللاستماع إلى لولى وموليير تحت القبة الزرقاء . فهاهنا جنة من جنان الآلهة ، بنيت بدراهم عشرين مليونا من الفرنسيين ان يروها إلا لماما ، ولكنهم يعتزون بعز مليكهم . ومما يسر أن نعرف أن بستان فرساى كان مفتوحا للشعب إلا فى المناسبات الملكية .

وكان فن إنشاء الحدائق المنسقة البهية وافدا من إيطاليا ككثير غيره

من الفنون ، وقد جلب معه عشرات الحيل والمفاجآت ، كالتماريش ، والشمريات ، والمغارات ، والكهوف ، والأشكال الغريبة (الجروتسك) ، والأحجار الملونة ، وبيوت الطير ، والتماثيل ، والزهريات ، والغدران ، والنوافير ، والميازيب ، وحتى الأراغن تعزف إلى جوار الماء الجارى . وكان لنوتر قد صمم من قبل حدائق فو لفوكيه ، وبعد قليل سيصمم حدائق التويلرى للملكة ، وحدائق سان كلو لمدام هنرييتا ، وحدائق شانتيى لكونديه الكبير . وأطلق لويس يده فى فرساى من ١٦٦٢ فصاعداً ، وروعت كولبير التكاليف التى أنفقت على تحويل برية شمثاء إلى فراديس غناء . وتعلق قلب الملك بلنوتر الذى لم يأبه للمال بل للجمال فقط ، والذى كان فنانا صادقا لاغش فيه(٩) . لقد كان بمثابة « بوالو » الحدائق ، المصمم على أن يغير « فوضى » الطبيعة إلى نظام وتناسق وشكل معقول مفهوم . ولعله كان مسرفا فى إصراره على الكلاسيكية ، ولكن الحدائق التى أبدعها مازالت بعد ثلاثمائة سنة كعبة يؤمها البشر فيما يؤمون .

كان لويس لا يزال يحسد فوكيه ، فأتى بلوفو معمارى قصر فو ليوسع استراحة الصيد ويجعل منها قصرا ملكيا . وتسلم جول أردوان مانسار إدارة المشروع فى ١٦٧٠ . وبدأ تشييد غرف السكن والقاعات وغرف الاستقبال وصالات الرقص وحجرات الحراسة والمكاتب الإدارية — كل هذه الأبنية الشاسعة التى نشهدها اليوم فى فرساى . وما وافى عام ١٦٨٥ حتى كان يكدح فى المشروع ٣٦٫٠٠٠ رجل و ٦٫٠٠٠ حصان فى نوبات بالليل والنهار . وكان كولبير منذ زمن طويل قد حذر الملك من أن معماراً كهذا ، مضافا إلى الحرب يخوضها بعد الحرب ، سينتهى بإفلاس الخزانة ، ولكن فى ١٦٧٩ بنى لويس قصراً آخــر فى مارلى ، ملاذاً يلجأ إليه من زحام فرساى ، وفى ١٦٨٧ أضاف الجران تريانون ليكون خلوة لمدام دمانتنون . وأمر جيشا من الرجال فيهم الكثير من الجنود النظاميين بتحويل نهر أور ونقل مياهه خلال تسعين ميلا من « قناة مانتنون »

لتزويد بحيرات فرساى ونهيراته ونافوراته وحماماته بالمياه، وفى ١٦٨٨ هجر هذا المشروع بعد أن أنفقت عليه الأموال الطائلة حين دعا داعى الحرب. وقد كلف فرساى فرنسا حتى عام ١٦٩٠ مبلغا جملته ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك (١٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار ؟[١٠]) . وفرساى، من الناحية المعمارية، فيه من التعقيد والجزافية ما ينأى به عن الكمال . أما الكنيسة فرائعة، ولكن هذا الزهو بالزخرف لا يكاد يتفق وتذلل العبادة . وبعض أجزاء القصر جميل، والسلم المفضى إلى الحدائق فخم، ولكن إلزام مصمميه بأن يتركوا استراحة الصيد دون أن يمسوها فى تصميمهم، ويكتفوا بإضافة أجنحة وزخارف، كل هذا أضر بمظهر البناء فى مجموعه . وقد تترك هذه المجموعة المتكاثرة من الأبنية فى النفس انطباع الرتابة الباردة والتكرار المتناهى — فالحجرة تقفو الحجرة على امتداد ١٣٢٠ قدما من الواجهة . ويبدو أن تنظيم القصر من داخله تجاهل الراحة الفسيولوجية لنزلائه ورواده، وافترض قوة ضبط هائلة فى الأمعاء النبيلة، فكان على من يريد إزالة ضرورة أن يعبر ست حجرات . لا عجب إذن أن سمعنا بأن السلالم والطرقات كانت تستخدم فى مثل هذا الغرض . أما الحجرات ذاتها فتبدو أصغر من أن تسمح بالراحة . وليس هناك حجرة فسيحة سوى القاعة الكبرى التى تمتد ٣٢٠ قدما على طول واجهة الحديقة، هناك نشر المزخرفون كل مهاراتهم — فعلقوا قطع نسيج جوبلان وبوفيه المرسومة، وبثوا المنحوتات على الجدران، وبلغوا بكل قطعة أثاث الكمال المحبب، وعكسوا كل البهاء فى تلك المرايا الكبيرة التى أعطت الحجرة اسمها الثانى، وهو « قاعة المرايا » . وعلى السقف صور لبرون الذى ارتفع إلى ذروة فنه، خلال خمس سنوات (١٦٧٩ — ٨٤)، وبرموز أسطورية، انتصارات حكم لويس الطويل، وسجل مأساته دون وعى منه، لأن هذه الانتصارات المصورة على أسبانيا وهولندة وألمانيا أزمعت أن تثير أرواح النقمة على الملك الشغوف بالحرب.

وعاش لويس فى فرساى على نحو متقطع منذ ١٦٧١ ، وأنفق بعض وقته فى مارلى ، وسان ـ جرمان ، وفونتنبلو ، وبعد ١٦٨٢ أصبح فرساى مقره الدائم . ولكننا نظلمه إذا ظننا أن فرساى كان مسكنه وملهاه ، فهو لم يشغل سوى جزء متواضع من المبنى ، أما الباقى فقد سكنته زوجه ، وأبناؤه ، وأحفاده ، وخليلاته ، والمفوضيات الأجنبية وكبار الإداريين ، وأفراد الحاشية ، وكل الخدم والحشم الذين تطلبهم البيت المالك . ولا ريب فى أن بعض هذا البهاء كان له هدف سياسى — هو إدخال الرهبة فى قلوب السفراء الذين توقع منهم لويس أن يحكموا من هذا البذخ على موارد الدولة وسطوتها . وقد وقع هذا من نفوسهم ونفوس غيرهم من الزوار فأذاعوا فى أرجاء أوربا من الأنباء عن بهاء فرساى ما جعله البلاط المحسود ، والمثل الذى يحتذيه الكثير من البلاطات والقصور فى القارة الأوربية بأسرها . أما فى مقابيل هذا المهد فقد بدت هذه الكتلة الضخمة من المبانى رمزا وقحا للاستبداد وتحديا مستهترا من كبرياء الإنسان لمصير الإنسان غير المتغير .

٣ ــ الزخرفة

لم تعرف فنون الزخرفة قط ، حتى على عهد باباوات النهضة ، مثل هذا التشجيع والعرض . فقد كانت الأرضيات المكسوة بالبسط السميكة ، والأعمدة الزينية ، والموائد ورفوف المستوقدات الزخرفية الضخمة ، والزهريات من الخزف الصينى ، والشمعدانات الفضية والثريات البلورية ، والساعات الجدارية الرخاميه المطعمه بالأحجار الكريمه ، والجدران ذات الحشوات الخشبيه أو الرسوم الجصيه أو الصور أو قطع النسيج المرسوم ، والكرانيش المصبوبه صبا أنيقا ، والأسقف ذات الزخارف الغائرة أو الصور ، هذه كلها وكثير غيرها من ألوان الفن فى فرساى وفونتنبلو ومارلى واللوفر ،

وحتى فى قصور الأهالى ، جعلت من كل حجرة تقريبا متحفا لأشياء تخلب العيون والألباب بسر الكمال الخفى . وعن رفائيل ومساعديه — جوليو رومانو ، وبيرينو ديلفاجا ، وجوفانى دا أوربينو — وعن قاعات الفاتيكان ، نقل لبرون ومساعدوه مجموعة الأرباب والربات والكوبيدات وتذكارات النصر والشارات والنقوش العربية ، وأكاليل الزهر وورق الشجر ، والحليات القرنية لثمار الأرض ، يزينون بها سجل انتصارات الملك على النساء والدول .

وكان الأثاث بطراز لويس الرابع عشر مترفا فاخرا ، هنا أذعنت البساطة الكلاسيكيه للزخرفة الباروكية . فالمقاعد مسرفة فى النقش والتنجيد والتذبب إسرافا أبعد عنها الأعجاز خشبية إلا أرقها . أما الموائد فكانت تجد بينها الثقيل المتين إلى حد يبدو معه غير قابل للحركة . وكانت مناضد الكتابة والمكاتب المزودة برفوف للكتب غاية فى الأناقة بحيث تغرى القلم بالكتابة فى ايجاز لاروشفوكو المحكم أو فى حيوية مدام دسفينييه المتدفقة . وكثيرا ما كانت الصناديق وخزانات النفائس تنقش بعناية فائقة أو تطعم برسوم من معدن أو أحجار كريمة . وقد أعطى أندريه شارل بول اسمه (buhlwork) لفنه الخاص ، فن تطعيم الأثاث ، لاسيما الأبنوسى ، بالمعدن المحفور ، وصدف السلاحف ، واللؤلؤ إلخ ، مضيفاً حليات درجية تمثل النبات أو الحيوان ذات رسوم غاية فى الرشاقة ، وكان يقيم فى اللوفر (١٦٧٢) بوصفه نجار الأثاث الأثير لدى لويس الرابع عشر . ولقد بيعت إحدى خزاناته المطعمة بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه إنجليزى فى ١٨٨٢ ، وربما كان هذا المبلغ يعادل ٥٠٠٠٠ دولار فى ١٩٦٠(١١) . ولكن بول مات فى فقر مدقع بعد أن بلغ التسعين فى ١٧٣٢ . وقد يكون أوفق لأذواقنا تلك الأكشاك المنقوشة التى أقيمت فى هذه الفترة فى كاتدرائية نوتردام دبارى .

وأصبح النسيج المرسوم الآن فنا اختص به الملك . ولم يقنع كولبير

بإخضاع مصنعى جوبلان وأوبوسون لإشراف الملك ، فأقنعه بأن يتسلم أيضا مصنع النسيج المرسوم فى بوفيه . وكانت هذه القطع المرسومة لاتزال الحلية المفضلة لجدران القصور وسجفها فى المدن والريف ، والمهرجانات ، والمباريات ، والاحتفالات الرسمية ، والأعياد الدينية . وقد صمم المصور الفلمنكى آدم فان درمولن فى بوفيه سلسلة رائعة من الرسوم سماها «فتح لويس العظيم » ، وأعد الفنان لها نفسه بأن تبع لويس إلى حروبه ورسم بالقلم أو صور بالألوان على الطبيعة للمواقع والحصون والقرى التى كانت مسرحا لحملاته الحربية . وكان مصنع جوبلان يستخدم ٨٠٠ من مهرة الصناع الذين لم يكتفوا بصنع قطع النسيج المرسوم ، بل المنسوجات الرفيعة وأشغال الخشب والفضة والمعادن والتطعيم بالرخام . وهناك نسجت تحت إشراف لبرون قطع النسيج المرسوم العظيمة نقلا عن الرسوم التخطيطية التى حفلت بها صور رفائيل الجصية الضخمة فى قاعات الفاتيكان . وليس أقل من هذه شهرة السلاسل العديدة التى صممها لبرون ذاته ؛ قصور قوى الطبيعة ، والفصول ، وتاريخ الإسكندر ، ومساكن الملك ، وتاريخ الملك والمجموعة الأخيرة كانت تعد سبع عشرة قطعة ، واستغرق الفنان فى صنعها عشر سنين ، وما زال نموذج رائع منها معروضاً فى حجرات عرض قطع الجوبلان — فيها ترى الأجسام متميزة إلى حد مذهل ، والتفاصيل متخيلة تخيلا كاملا ، حتى صورة المنظر الطبيعى التى على الجدار ، وكل هذا بخيوط ملونة نسجتها فى صبر وأناة أيد صناع تحت عيون مجهدة . ونندر أن كرس مثل هذا الجهد البشرى الضخم للزلفى لرجل واحد . وقد اعتذر لويس عن هذا بأن زعم لكولبير أن أسباب التمجيد هذه تتيح المهالة والدخل للصباغين والنساجين ، وتوفر هدايا ذات وقع جميل فى عملية « تشحيم » الدبلوماسية .

وترعرعت كل الفنون الصغيرة تحت اليد الملكية السخية . فصنعت الأبسطة الفاخرة فى لاسافونيرى قرب باريس . وأنتج القاشانى البديع فى

روان وموستييه ، والخزف الإيطالى (الميوليق) الجيد فى نيفير ، والصينى اللين المحينة فى روان وسان كلو . وفى أخريات القرن السابع عشر تعلم الصناع الفرنسيون بتحريض كولبير أسرار البنادقة فى صب بللور المرايا الكبيرة وتسويته وصقله ، وهكذا صنعت مرايا « قاعة المرايا » الرائعه(١٢). ونظم كولبير ولبرون الصاغة أمثال جوليان دفونتيين وفانسان بتى وأسكنام فى اللوفر ، فصنعوا للملك وللأغنياء مئات التحف من الفضة أو الذهب — إلى أن صهر لويس والأغنياء هذه الحلى لتمويل الحرب . وقطعت الأحجار الكريمه والمداليات : وضربت العملة ، ونقشت بتصميمات كانت المثل الذى تحتذيه أوربا كلها فيما عدا إيطاليا . ولم يصل فن صنع المداليات منذ عصر النهضة إلى مثل هذا الابداع الذى حققه الآن على يد انطوان بنوا وجان موجيه . أما كولبير ، الذى لم يترك حجرا دون نقش ، فقد أسس فى ١٦٦٢ أكاديمية المداليات والنقوش ، ليخلد أعمال الملك . . . بمداليات تضرب تكريما له(١٣) » وذلك كان أسلوب الوزير الكبير فى تجنيد الغرور الذى عالك المال فى خدمة الفن الغالى النفقه . وفى ١٦٦٧ أنشئت مدرسة للصور المحفورة فى اللوفر ، ورسمت مناقيش روبير نانتوى وسبستيان لكلير وروبير بونار وجان لبوتر فى رهافة بالغة التدقيق شخصيات العهد وأحداثه . وحتى رسم المنمنمات ظل على قيد الحياة — وأن هبط عن سابق مقامه فى العصر الوسيط — فى كتاب « ساعات الصلاة » الذى أهداه إلى الملك متقاعدوه فى الأنفاليد . إن الفنون الصغيره ، دون سائر الفنون ، هى التى تظهر ذوق « القرن المظيم » وبراعته الفنية .

٤ ـ التصوير

إن نجمين من نجوم التصوير ذوى المرتبة الثانية يقعان فى الفلك الخارجى لهذا العصر ، وهما فيليب دشامبين ، وأوستاش لوسويير . أما فيليب فقد وفد

من بروكسل وهو فى التاسعة عشرة (١٦٢١) ، وشارك فى زخرفة قصر اللكسمبورج ، ولم يكتف برسم صورة ريشليو بقامته الكاملة ، وهى المحفوظة فى اللوفر ، بل صنع أيضا تمثالا نصفيا للكردينال ، وصوره صورا جانبية محفوظة بمتحف الفنون القومى بلندن . وقد أتاه ميله المتعاطف لتصوير الأشخاص بزبائن من نصف زعمـــاء فرنسا فى الجيل الذى تلا ريشليو ، كما زاران وتورين وكولبير ولمرسييه ... وكان قبل قدومه إلى فرنسا قد صور جانسن واعتنق الجانسنية ، وأحب البور — رويال ورسم صوراً للأم انجليك وروبير آرنو وسان — سيران . ورسم للبور — رويال أروع صوره « الراهبات » باللوفر ، وترى فيها الأم آنييس مكتئبة ولكنها لطيفة ، ومعها سوزان ابنة المصور الراهبة . وكان مجال شامبين محدودا ، ولكن فنه يدق قلوبنا بما فيه من وجدان واخلاص .

أما أوستاش لوسوبير فكان متدينا كصاحبه ولكنه أكثر سنية فى إيمانه ، مما جعله قلقا فى جيل سيطر على التصوير فيه منافسه لبرون ، وتسلطت على هذا الفن فيه أساطير وثنية كرست لتأليه ملك لم يكن قد ثاب إلى تقواه بعد . وقد درس المصوران (لوسيير ولبرون) معا على فويه ، ورسما معا فى قبو واحد ، واستخدما نفس النمـوذج ، وأثنى عليهما على السواء بوسان فى زيارته لباريس . وتبع لبرون بوسان إلى روما وتشرب الروح الكلاسيكية . أما لوسوبير فلزم باريس مربوطا بزوجة مخصبة ولم يستطع الفكاك من الفقر إلا نادرا . وحوالى ١٦٤٤ رسم خمس صور تصف حوادث فى حياة إله الحب لسقف « حجرة الحب » فى قصر ولى نعمته لامبير دتوريني ، وفى حجرة أخرى من حجرات قصر لامبير هذا نفذ رسما جصيا كبيرا يسمى « فيتون يطلب أن يقود مركبة الشمس » . وفى ١٦٤٥ تورط لوسوبير فى مبارزة قتل فيها خصمه ثم اختبأ فى دير الكارتوزيين ، وهناك رسم اثنتين وعشرين صورة من حياة القديس برونو مؤسس الطريقة

الكارتوزية ، وفى هذه الصور بلغ الفنان أوجه . وفى ١٧٧٦ اشتريت هذه السلسلة من الرهبان الكارتوريين بمبلغ ١٣٢٫٠٠٠ جنيه فرنسى ، وهى اليوم تشغل غرفة خاصة باللوفر . ولما عاد لبرون من إيطاليا (١٦٤٧) اكتسح أمامه كل شىء ، وانتكس لوسويير إلى فقره ، ثم مات فى ١٦٥٥ ولما يجاوز الثامنة والثلاثين .

أما شارل لبرون فقد تسلط على الفنون فى باريس وفرساى ، لأنه أوتى قدرة التنسيق والإدارة كما أوتى قدرة التصور والتنفيذ . وإذ كان ابن نحات له أصدقاء من المصورين ، فقد شب فى بيئة تعلم فيها الرسم كما يتعلم غيره من الأطفال الكتابة . ورسم فى الخامسة عشرة – وعينه لا تغفل عن ترقب فرصته الكبرى – صورة رمزية لحياة ريشليو ونجاحه ، والتقط الوزير الطعم ، فكلفه برسم موضوعات أسطورية لقصر الكردينال . وحين أخذه بوسان إلى روما أغرق نفسه فى أساطير وزخارف رفائيل ، وجوليو رومانو ، وبييترو دا كورتونا . فلما عاد إلى باريس كان أسلوب الزخرفة المترفة المنمقة الذى انتهجه قد اكتمل نضجه . وهنا أيضا كان فوكيه أسبق من لويس فى استخدامه لبرون ليصور فى قصره بفو . وقد استهوت مازاران وكولبير والملك براعة ما أنتج من صور جصية ، وذلك الجمال الشهوانى الذى اتسمت به أجساد النساء والتفاصيل الفنية من كرانيش ومصبوبات . ولم يأت عام ١٦٦٠ حتى كان لبرون يرسم صورا جصية من حياة الأسكندر للقصر الملكى بفونتنبلو . وقد أبهج لويس أن يتبين ملامحه تحت خوذة الأسكندر ، فكان يأتى كل يوم ليراقب الفنان وهو يرسم معركة أربل ، وأسرة دارا عند قدمى الأسكندر . وكلتا الصورتين فى اللوفر . وكافأه الملك بلوحة ملكية مرصعة بالماس ، وجعله مصوره الأول ، وأجرى عليه معاشا بلغ ١٢٫٠٠٠ جنيه فى العام .

ولم تفتر للبرون همة . ففى ١٦٦١ دمرت النيران قاعة اللوفر الوسطى ، فصمم ترميما لها ، وصور السقف والكرانيش بمناظر من أساطير أبولو ،

ومن هنا الاسم الذى اطلق عليها « قاعة أبوللو ». وخلال ذلك درس الفنان الطموح العمارة والنحت وأشغال المعادن والخشب ورسم النسيج ومختلف الفنون التى جندت الآن لتزيين قصور العظماء . وانصهرت هذه الفنون جميعها فى مهاراته المنوعة حتى لقد بدا أن الحظ أعده ليجمع فنانى فرنسا فى جهد موحد لينتجوا طراز لويس الرابع عشر .

وقد أطلق لويس يده ومنحه ما شاء من مال لزين فرساى ، حتى قبل أن يعينه مديراً لأكاديمية الفنون الجميلة . وهناك عمل بجد طوال سبعة عشر عاما (١٦٦٤ — ٨١) فنسق الأعمال الفنية ، وصمم « سلم السفير » ، ورسم بنفسه فى قاعات الحرب والسلام ، وفى القاعة الكبرى،سبعاً وعشرين صورة جصية تصف أمجاد الملك منذ صلح البرانس (١٦٥٩) حتى معاهدة نيميجن (١٦٧٩) . وقد أظهر لويس فى الحرب والسلم وسط حشد من الأرباب والربات ، والسحب والأنهار ، والخيل والمركبات،يقذف الصواعق ، ويعبر الرين ، ويحاصر غنت ، ولكنه إلى ذلك يجرى العدالة ويصرف شئون المال ، يطعم الفقراء فى المجاعة ، وينشئ المستشفيات ، ويشجع الفن . ولو أننا أخذنا هذه الصور فرادى لما عددناها من الروائع ،فأساسها الكلاسيكى طغى عليه سيل من الزخارف الباروكية ، ولكننا إذا أخذناها فى جملتها وجدناها تؤلف أروع عمل قام به الرسامون الفرنسيون فى هذا العصر. ويغيظنا تمجيده للملك لأنه يكشف فيه عن داء الغرور ، ولكن تملق الأمراء والملوك على هذا النحو كان سنة العصر .لاعجب إذن أن يقول لويس لمصوره وهو يرى بعض صوره بجوار أخرى رسمها فيرونيزى وبوسان « ان أعمالك تثبت للمقارنة بأعمال كبار الفنانين ، ولا ينقصها إلا موت صاحبها لكى يقدرها الناس أكثر مما يقدرونها الآن ، ولكننا نرجو ألا تتاح لها هذه الميزة سريعاً(١٤) » وقد سانده الملك خلال جميع المكائد التى أحدقت به من حساده بعد قليل ، كما ساند موليير الذى ضايقه خصومه . ولم يكن غريباً

على طبع لويس — إذ نمى إليه أثناء حضوره إجتماعا أداريًا أن لبرون جاء ليريه آخر صوره « رفع الصليب »(١٥) — أن يستأذن الحاضرين ليذهب ويرى الصورة ويعرب عن سروره،ثم يدعو كل المجتمعين ليأتوا ويشاركوه في مشاهدتها(١٦) . وهكذا سارت الحكومة والفن في هذا العهد جنبا إلى جنب ، وشارك الفنانون القواد العسكريين مكافآتهم ومدائحهم .

كانت صنعة لبرون شيئا جديدا وان انبثقت من الزخرفة الإيطالية . لقد كانت مزيجا زخرفيا جمع فنونا عديدة ليؤلف منها كلا جماليا واحدا . فلما حاول أن يجرب تصوير لوحات فردية انزلق إلى مرتبة وسط . وإذ استحالت انتصارات الملك إلى هزائم ، وأخلت محظياته مكانهن للكهان ، تغير مزاج العهد ولم يعد لزخارف لبرون البهيجة محل . ولما خلف لوفوا كولبير مشرفا على العمائر فقد لبرون دوره زعيما للفنون ، وإن ظل رئيساً للاكاديمية . ومات في ١٦٩٠ رمزاً لمجد ولى .

واغتبط فنانون كثيرون بتحررهم من سيطرته ، ومن هؤلاء على الأخص بيير منيار الذى ساءته هذه السيطرة . وإذ كان يكبر لبرون بتسع سنوات فقد سبقه في الحج إلى روما بلوحة الوانه،وتعلق قلبه بالمدينة الخالدة كما تعلق بها بوسان ، حتى لقد استقر رأيه على العيش فيها طوال حياته . وقد عاش فيها فعلا إثنتين وعشرين سنة (١٦٣٥ — ٥٧) واغتبط زبائنه باللوحات التى رسمها لهم اغتباطا حمل في النهاية البابا أنوسنت العاشر ، الذى ربما ساءه الوجه الذى خلعه عليه ڤيلاسكويز من قبل ، على أن يجلس إلى منيار الذى أضفى عليه طلعة ألطف . وفي ١٦٤٦ ، حين بلغ منيار الرابعة والثلاثين ، تزوج حسناء إيطالية ، ولكنه ما إن سكن إلى الأبوة الشرعية حتى تلقى دعوة من فرنسا ليذهب ويخدم الملك ، فذهب على مضض . وفي باريس تمرد على قبول التوجيهات من لبرون ، ورفض الانضمام إلى الأكاديمية ، وحز في نفسه أن يرى زميله الأصغر يحسد الأنواط والأموال . وأوصى

مولبير كولبيريه ، ولكن لعل الوزير أنصف فى ايثاره لبرون ، فما كان منيار ليرضى أن يرتفع إلى مستوى الفخامة المتكلفة التى تطلبها القرن العظيم. على أية حال ، كان لويس الذى بلغ العشرين آنئذ فى حاجة إلى صورة فاتنة له يغوى بها عروسا من أسبانيا. وارتضى منيار أن يرسمها ، وافتتن لويس وماريا تريزا بها ، وغدا منيار أنجح رسام الأشخاص فى هذا العهد. فرسم لوحات لمعاصريه الواحد تلو الآخر : مازاران ، وكولبير ، ورتز ، وديكارت ، ولافونتين ، وموليير ، وراسين ، وبوسويه ، وتورين ، ونينون دلانكلو ، ولويز دلافاليير ، والسيدات مونتسبان ، ومانتنون ، ولافاييت ، وسفينييه ، وقد أنصف يدى آن النمساوية اللتين عدهما الناس أجمل الأيدى فى العالم ، فكافأته بمهمة تزيين قبو القبة فى كنيسة فال — دجراس ، وكان هذا الرسم الجصى رائعته الكبرى التى أشاد بها موليير فى إحدى قصائده . وقد صور الملك غير مرة ، وأشهر صوره لوحته المعروضة فى فرساى والتى يرى فيها راكبا جواده ، ولكننا نجده هناك على أروعه فى اللوحة البديعة المسماة « دوقة مين فى طفولتها » . وبعد موت كولبير انتصر منيار فى النهاية على لبرون ، فخلف غريمه مصورا للقصر فى ١٦٩٠ ، وعين عضوا فى الأكاديمية بمرسوم ملكى ، وبعد خمس سنوات مات فى الخامسة والثمانين وهو لا يفتأ يرسم ويناضل .

وجاهد رهط من المصورين غير من ذكرنا فى خدمة الملك الذى استوعب الفنانين جميعا . فشارل دوفرينوا ، وسبستيان بوردون ، ونويل كوابيل وابنه أنطوان ، وجان فرانسوا دتروا ، وجان جوفنيه ، وجان باتيست سانتير ، والكساندر فرنسوا ديبورت — هؤلاء كلهم يلتمسون أن يسلكوا فى زمرة الحاضرين هذه الوليمة الملكية وهناك فنانان آخران يبرزان بقوة فى نهاية العهد — وأولهما نيكولا دلارجلير الذى خلف منيار مصورا أثيرا للأرستقراطية لا فى فرنسا وحدها بل فى انجلترا أيضا بعض الوقت

(١٧٧٤ — ٧٨) . وقد اكتسب حب لبرون باللوحة الرائعة التي رسمها له والمعروضة الآن في اللوفر . وألوانه الرمزية ولمسته الخفيفة تبين الانتقال من اضمحلال لويس الرابع عشر المعتم إلى عصر آخر مرح ، هو عصر الوصاية والفنان فاتو .

أما الثاني وهو ياسينت ريجو ، فكان أصلب عودا . وقد كسب هو أيضا قوته برسم الأشخاص (أنظر صورته البديعة لبوسويه في اللوفر) ، ولكنه لم يكسبه بالتملق . ومع أن صورته التي اظهر فيها لويس الرابع شامخا مسيطرا ، والتي ترتفع في مؤخرة قاعة اللوفر الكبرى ، تبدو من بعيد وكأنها إشادة بالملك ، فإننا نلاحظ إذا تأملناها عن كثب ملامح الملك جامدة منتفخة ، وهو واقف على قمة سلطته وعلى حافة قدره (١٧٠١) . وكانت أغلى صور العصر ثمنا كما أنها أفضلها عرضا ، فقد نقد لويس ريجو فيها ٤٠,٠٠٠ فرنك (١٠٠,٠٠٠ دولار ؟) — وربما كان هذا الأجر معادلا لما دفعه لويس ثمنا للثياب الرائعة التي زينت هنا انحلاله .

٥ - النحت

كان المثالون أقل حظوة وثوابا في هذا العهد من المصورين . ومع ذلك فالمنحوتات المرمرية القديمة هي التي اشتهى لبرون أن تصاغ على غرارها جميع الفنون . وقد أنفقت الأموال الطائلة وسخرت المواهب الكثيرة في شراء أو نسخ التماثيل التي بقيت على قيد الحياة بعد انهيار العالم القديم . ولم يقنع لويس بالنسخ طبعا . وإذ كان يذكر حدائق سالوست وهادريان الرومانية ، فقد استخدم لفيفا من المثالين الأكفاء لينفخوا بتماثيلهم الحياة في بستان فرساي . وأقيمت الزهريات الضخمة كزهرية الحرب التي صنعها كوازيفوكس في حوض بتيون ، وعلى شرفة القصر ؛ ونحت الشقيقان جاسبار وبلتازار دمارسي « حوض باخوس » العظيم ، وأبرز جان باتست

من البحيرة تمثاله الرائع « مركبة أبوللو » والإله الشمس فيه يرمز للملك ، ونحت فرنسوا جيراردون فى الحجر من « الحوريات المستحمات » مالم يكن براكستليس ذاته ليأنف من نسبته إليه .

وتطلع جيراردون قرناً إلى الخلف ليرى كيف صور بريماتشو وجوجون جسد الأنثى فى صورة كاملة . وعاد إليه ذلك الحسن الانسيابى الذى اتسم به الفن الهيلينى ، ربما فى إسراف ، ومهما بحثنا وفتشنا فإننا لم نجد إلى الآن إناثاً كاملات الأجساد كأولئك اللاتى نجـــدهن فى تمثالى « اغتصاب بروزربين[١٧] » . ولـكنه كان قادراً على التعبير عن حالات نفسية أقوى من هذه . وقد صنع لميدان فاندوم تمثالاً للويس الرابع عشر محفوظاً الآن فى اللوفر ، ونحت لـكنيسة السوربون مقبرة فخمة لريشليو . وقد أحبه لبرون لأنه تجاوب فى لطف مع ذوق الأكاديمية وأهدافها . وخلف لبرون كبيراً لمثالى الملك ، ورأس الأكاديمية بعد وفاة منيار . ومع أنه ولد قبل لويس بعشرة أعوام إلا أنه عمر بعده شهوراً ، ومات فى ١٧١٥ وهو فى السابعة والثمانين .

أما أنطوان كوازيفوكس فكان إنساناً أرق من اسمه ، محبباً إلى الناس كتمثاله «دوقة برجندية» . ولد بليون ، وكان ينحت لنفسه مكاناً بين المثالين حين دعاه لبرون ليساعد فى زخرفة فرساى . وقد بدأ بصنع نسخ أو مقتبسات رائعة من التماثيل القديمة . فنحت عن تمثال رخامى قديم فى فيللا بورجيزى « حورية المحارة » ، وعن تمثال فى قصر مديتشى بفلورنسة نقل « فينوس الجاثمة » وكلا التمثالين محفوظ فى مستودع الفن المحظوظ الذى نسميه اللوفر . وما زال فى مكانه بفرساى تمثاله « كاستور وبولكس » الذى نقله عن مجموعة بحدائق لودوفيزى بروما . وما لبث أن أنتج أعمالاً أصيلة فيها قوة لا يستهان بها . فنحت لبستان فرساى تماثيل كبيرة تمثل نهرى الجارون والدوردون ، ولساحة قصر مارلى رمزين شبيهين بهذين لنهرى السين والمارن .

وفى حدائق التويلرى اليوم أربعة تمـــاثيل رخامية نحتها لمارلى ، وهى فلورا (ربة الزهر) — والشهرة ، وحورية الغابات ، وعطارد راكبا بيجاسوس . وقد خرج من تحت إزميله الـكثير من الزخارف المنحوتة فى حجرات فرساى الـكبرى .

وظل يسكدح فى فرساى ثمانية أعوام ، وقضى خمسة وخمسين عاما فى خدمة الملك . فنحت له اثني عشر تمثالا ، أشهرها تمثاله النصفى فى فرساى ، وأصبح فى النحت ماكان منيار فى التصوير — أحب نحاتى الوجوه إلى الناس فى فرنسا . وبدلا من أن يتشاجر مع منافسيه نحتهم فى الرخام أوصبهم فى البرونز ، فوفر عليهم غرورهم ونقودهم . وحين تلقى ١٥٠٠ جنيه أجراً للتمثال النصفى الذى صنعه لـكولبير ، رأى الأجر مغالى فيه فرد منه سبعمائة جنيه(١٨) . وقد ترك لنا تماثيل كاملة الشبه بلبرون ، ولنوتر ، وآرنو ، وفوبان ، ومازارن ، وبوسويه ، وترك لنفسه ترجمة بسيطة لوجه أمين أشعث مضطرب(١٩) ، ولـكوندبه العظيم تمثالين نصفيين أحدهما فى اللوفر ، والآخر فى شانتى ، يتميزان بصدق وفحولة لامراء فيهما . ثم نحت بأسلوب مختلف تماما تمثالا رشيقا لدوقة برجندية فى صورة ديانا(٢٠) ، والتمثال النصفى الجميل لنفس الأميرة فى فرساى . وصمم مقابر رائعة لمازاران(٢١) وكولبير ، وفوبان ، ولبرون . ولأعماله ملمس الروح الباروكية فى عاطفيتها المسرحية ومبالغتها العارضة ، ولـكنها فى أحسن صورها تعبر تعبيرا حسنا عن المثل الـكلاسيكى الذى استهدفه الملك والبلاط ، فهى راسين متمثلا فى الرخام والبرونز .

وحوله وحول جيراردون تجمع سباعى من المثالين ، فرنسوا انجييه وأخوه ميشيل ، وفليب كوفييه وابنه فرانسوا ، ومارتان ديجاردان ، وبيير لجرو ، وجيوم كوستو ، الذى مازالت « خيل مارلى » التى نحتها تثب فى الهواء بميدان الـكونـكورد .

وفضلا عن هؤلاء المثالين جميعا ، وعلى مبعدة منهم ، وفى تحد لمثالية النحت الرسمى الناعمة ، أنطق بيير بوجيه إزميله بغضب فرنسا وبؤسها . وقد ولد فى مارسيليا (١٦٢٢) وبدأ حياته الفنية حفارا فى الخشب ، ولكن نفسه تاقت كما تاقت نفس معبوده ميكلانجلو من قبل لأن يصبح فى وقت واحد مصورا ومثالا ومعماريا وقد أحس أن الفنان العظيم ينبغى أن يسيطر على هذه الفنون جميعا . وإذ كان يحلم بأفذاذ الفنانين الإيطاليين فقد سار من مرسيليا إلى جنوة إلى فلورنسة إلى روما . وتتلمذ فى حماسة لبييترودا كورتونا فى زخرفة قصر باربارينى ، وتشرب كل صدى وأثر لبونار وتى ، وحسد برنينى على شهرته المتعددة الجوانب . فلما عاد إلى جنوة نحت تمثال القديس سبستيان الذى أذاع اسمه لأول مرة ، فكلفه فوكيه ، الذى سبق لويس الرابع عشر فى تبين مواهب هذا الفنان أيضا ، بأن ينحت تمثال « هرقول(٢٢) » لقصر فو ، ولكن فوكيه سقط ، فهرع بيير إلى الجنوب ليعتكف فى فقره ويجتر همومه . ولما كلف بنحت مجموعة « أطلانطيس » — وهى تماثيل رخامية لأطلس ، ليجمل بها شرفة « الأوتيل دفيل » ، صاغ التماثيل على غرار الحمالين الكادحين فى أرصفة الشحن ، وكان ينطق عضلاتهم المكدودة ووجوههم التى شوهها الألم بصرخة الثورة — ثورة الملعونين الذين يحملون العالم على أكتافهم . ولكن فنا كهذا ما كان ليعجب فرساى .

ومع ذلك فان كولبير الذى فتح ذراعيه للمواهب طلب إليه أن ينحت تماثيل يؤثر أن تكون ذات مسحة أسطورية بريئة . فأرسل إليه بوجيه ثلاث قطع محفوظة الآن باللوفر : نحتا قليل الغور لطيفا يمثل الإسكندر وديوجين ، وتمثالا فيه جهد وإسراف لبيرسيوس وأندروميدا ، وتمثالا عنيفا لميلو كورتونا — ذلك النباتى الجبار يحاول الخلاص من فكى أسد عنيد وغالبه .

وفى ١٦٨٨ زار بوجيه باريس ، ولكنه وجد طبعه المتكبر وإزميله الغضوب يتنافران مع ظرف البلاط وفنه ، فقفل راجعا إلى مرسيليا ، وهناك صمم تمثالى « المبرة » و « سوق السمك » — ولا عجب ففى فرنسا حتى سوق السمك يمكن أن يكون عملا فنيا . ولعل أعظم تماثيله قصد به أن يكون تعليقا على مغامرات الملك الحربية ، وهو تمثال للإسكندر راكبا يبدو فيه وسيما مشرقا ، يحمل خنجره فى يده ، ويدوس ضحايا الحرب(٢٣) فى غير اكتراث تحت سنابك جواده . وقد أفلت بوجيه من رسمية لبرون وفرساى ، ولكنه أفلت أيضا من انضباطهما . وافضى به طموحه لمنافسة برنيني ، وحتى ميكلانجلو ، إلى مبالغات فى تصوير عضلات الجسد وتعبيرات الوجه ، ومن ذلك « رأس ميدوزا » الرهيب المحفوظ باللوفر . ولكنه كان على الجملة أقوى نحات فى وطنه وفى جيله .

وإذ قارب العهد العظيم نهايته ، وجرت الهزائم فرنسا إلى حال من اليأس الشديد ، انصرفت كبرياء الملك إلى التقوى ، وانتقل الفن من غرور فرساى إلى التواضع الذى يطالعنا فى تمثال كوازفوكس لويس الرابع عشر راكعا فى النوتردام — هنا نرى الملك وقد بلغ السابعة والسبعين ، مزهوا إلى الآن بأثوابه الملكية ، ولكنه يضع تاجه فى تواضع عندقدمى العذراء . فى هذه السنوات الأخيرة تقلص الإنفاق على فرساى ومارلى ، ولكن خورس النوتردام رمم وجمل . أما عبادة الفن القديم فقد فترت نتيجة لشططها ، وبدأ الطبيعى يجور على الكلاسيكى ، وقضى على دفعة الفن الوثنية إلغاء مرسوم نانت . وتسلط مدام دمانتنون وتابيه على الملك . وشددت للموضوعات الزخرفية الجديدة على الدين لا على المجد ، فلقد عرف لويس ربه أخيرا .

إن تاريخ الفن ابان حكم الملك العظيم يعذبنا بأسئلة عويصة . فهل كان تأميم الفنون نعمة أو نقمة ؟ وهل حول تأثير كولبير ولبرون والملك تطور

فرنسا من الاتجاه الأصيل والطبيعى ، إلى محاكاة موهنة لفن هلنستى حل به الضعف ، محاكاة شوشها إسراف باروكى فى الزخرفة ؟ وهل تثبت هذه السنوات الأربعون من « طراز لويس الرابع عشر » أن الفن يزداد ازدهارا فى ظل ملكية ترعاه بالثروة المركزة ، وتوجه المواهب فى وحدة متسقة ؟ — أم فى ظل ارستقراطية تصون ، وتوصل ، وتعدل فى حذر ، معايير الجودة والذوق ، وأصول النظام والانضباط ؟ — أم فى ظل ديمقراطية تفتح الطريق أمام كل موهبة وتطلق الكفايات من ربقة التقاليد ، وتلزم الفن بأن يعرض إنتاجه على الشعب ويكيفه وفق رأيه ؟ وهل كان ممكنا أن تغدو إيطاليا وفرنسا الوطنين المحظوظين للفن والجمال اليوم لولا أنهما جلتا بأموال وأذواق الكنيسة والنبلاء والملوك ؟ وهل كان ممكنا أن يوجد فن عظيم دون تركيز الثروة ؟

إن الجواب المتواضع المفيد عن هذه الأسئلة يقتضى حكمة عالمية ، وأى جواب من هذا القبيل لابد أن تجعله التفريقات والشكوك جوابا غامضا غير حاسم . ولعل الفن فقد شيئا فى طبيعيته ومبادرته ونشاطه نتيجة لما بسطته عليه القوة المركزية من حماية وتوجيه وهيمنة . صحيح أن فن لويس الرابع عشر كان فنا منظما ، أكاديميا ، جليلا بهائه المنسق ، لايفوقه فن فى صقله الفني ، ولكن السلطة عطلت قدرته على الابتكار ، وقد قصر دون ذلك الالتحام بالشعب الذى أضفى الدفء والعمق على الفن القوطى . لقد كان اتساق الفنون فى عهد لويس رائعا ، ولكنه كثيرا ما كان يعزف على نفس الوتر ، حتى لقد أصبح فى النهاية تعبيرا لاعن جيل وأمة ، بل عن ذات وبلاط . صحيح أن الثروة لاغنى عنها للفن العظيم ، ولكن الثروة تكون عارا ، والفن يكون بغيضا ، إذا ازدهرا على حساب فقر شامل واعتقاد بالخرفات مذل ، فالجيل لايمكن فصله طويلا عن الخبز . وقد تكون الارستقراطية حارسا وناقلا مفيدا للعادات والمعايير والأذواق

إذا تيسرت الأسباب بفتحها أمام للمواهب الجديدة، ولمنعها من أن تكون أداة للامتياز الطبقي وللترف الكاذب . كذلك تستطيع الديمقراطيات أن تجمع الثروة وتضفي عليها الكرامة بتغذيتها للمعرفة والأدب والبر والفن ، ومشكلات الديمقراطيات في معاداة الحرية غير الناضجة للنظام والانضباط ، وفي نمو الذوق نموا بطيئاً في المجتمعات الناشئة ، وفي ميل الكفايات غير المحكومة لأن تبدد نفسها في تجارب شاذة تخطيء الابتكار فتحسبه عبقرية ، والطرافة فتحسبها جمالا .

على أية حال كان رأي استقراطيات أوربا في صف الفن الفرنسي دون ما تردد . فانتشر معمار القصور والنحت الكلاسيكي والأسلوب الأدبي والزخرفة الباروكية للأثاث والثياب — انتشر هذا كله من فرنسا إلى كل طبقة حاكمة تقريباً في غرب أوربا حتى إلى إيطاليا وأسبانيا . وتطلعت قصور لندن وبروكسل وكولون وميونخ ودرسدن وبرلين وكاسل وهيدلبرج وتورين ومدريد إلى فرساي مثلا تحتذيه في السلوك والفن . وكلف المعماريون الفرنسيون بتصميم القصور حتى مورافيا شرقا ، وصمم لنوتر الحدائق في وندزور وكاسل ، ووفد رن وغيره من المعماريين الأجانب على باريس لينقلوا عنها الأفكار ، وانبث النحاتون الفرنسيون في جميع أرجاء أوربا ، حتى أصبح لكل أمير تقريباً تمثال راكب كتمثال ملك فرنسا . وظهرت قصص لبرون الرمزية الأسطورية في السويد ، والدانمرك، وأسبانيا، وهامتن كورت . والتمس الملوك الأجانب أن يجلسوا إلى ريجو ليصورهم فإن لم يتيسر فإلى أحد تلاميذه . وأوصى حاكم سويدي بقطع من نسيج بوفيه المرسوم تخليداً لانتصاراته . إن التاريخ لم يشهد منذ انتشار الثقافة اللاتينية القديمة في غرب أوربا غزواً ثقافياً أنجز بمثل هذه السرعة وهذا الكمال .

الفصل الرابع

موليـــير

١٦٢٢ — ٧٣

١ ـ المسرح الفرنسى

بقى الآن أن تخضع المسرحية والشعر الفرنسيان أوربا لسلطانهما .

ولقد شاء هوى التاريخ أن ينصرف الأدب الفرنسى فى هذا العصر إلى المسرح ، وأن يشجع الكردينال ريشليو المسرحية التى ظلت الكنيسة تحرمها طويلا ، وأن يستورد الكردينال مازارن الملهاة الإيطالية إلى فرنسا، وأن يرث لويس الرابع عشر حب المسرح من هذين الكاهنين اللذين مهدا لسلطته أو حفظاها .

كانت المسرحية الحديثة قد بلغت الشكل الأدبى فى إيطاليا برعاية بابوات النهضة الوفيعى الثقافة ، وكان ليو العاشر يحضر التمثيليات دون أن يطالب بأن تكون صالحة للعذارى . ولكن الاصلاح البروتستنتى ومجمع ترنت المترتب عليه وضعا حداً لهذا التساهل الكنسى . وقال بنديكت الرابع عشر إن المسرحية لم يستمر السماح بها فى إيطاليا إلا درءا لشرور أفدح ، وفى أسبانيا إلا لأنها تخدم الكنيسة . وأما فى فرنسا فإن رجال الأكليروس ، الذين صدمتهم الحرية الجنسية التى تمتع بها المسرح الهزلى، نددوا بالمسرح عدواً للآداب العامة . وقضت سلسلة طويلة من الأساقفة واللاهوتيين بأن الممثلين محرومون بحكم طبيعة الحالة، أى بحكم مهنتهم ذاتها، وأنكر عليهم قساوسة باريس ،الذين عبر عنهم صوت بوسويه الأمر ، حق تناول الأسرار أو الدفن فى أرض مكرسة إلا إذا تابوا وأقلعوا عن مهنتهم . وإذ حرموا من مراسم

ـ الزواج يقوم بها كاهن ، فقد كان عليهم أن يقنعوا بزيجات عرفية بالغة القلق وعدم الاستقرار ، كذلك وسم القانون الفرنسي الممثلين وأقصاهم عن كل وظيفة شريفة ، وحظر على القضاة حضور الحفلات التمثيلية .

ومن ملامح التاريخ الحديث البارزة أن المسرح استطاع التغلب على هذه المقاومة . ذلك أن المطلب الشعبي للتظاهر والادعاء تخففا وثأراً من الواقع أنجب العدد المديد من الهزليات والملاهى ، وكان للآلام التى فرضها على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة الفضل فى إقبال جمهور سخى العطاء على مسرحيات الحب الحلال أو الحرام . ويلوح أن ريشليو وافق ليو العاشر على أن أيسر سبيل للهيمنة على المسرح هو رعاية أفضل المسرحيات لا رفضها كلها ، وبهذه الطريقة قد يتيح القدوة للذوق العام ، والعيش للفرق المسرحية المهذبة . وليلاحظ القارىء تقرير فولتير الآتى : « منذ أدخل الكردينال ريشليو الأداء المنتظم للتمثيليات فى البلاط ، الأمر الذى جعل باريس الآن منافسة لأثينا ، لم يقتصر الأمر على تخصيص مقعد يجلس عليه رجال الأكاديمية التى تضم نفرا من القساوسة ، بل خصص مقعد آخر للأساقفة(١) » . وفى ١٦٤١ ، ربما بناء على طلب الكردينال ، بسط لويس الثالث عشر رعايته على فريق من الممثلين عرفوا بعدها بالفرقة الملكية أو الكوميديين الملكيين ، وأجرى عليهم معاشا قدره ألف ومائتا جنيه فى العام ، وأصدر مرسوما يعترف بالمسرح لونا مباحاً من ألوان الترفيه ، وأعرب عن رغبة الملك فى ألا تعتبر مهنة الممثل بعدها ضارة بمركزه فى المجتمع(٢) . وأقامت الفرقة مسرحها فى « الأوتيل دبورجون » ، وحظيت برعاية لويس الرابع عشر الرسمية ، واحتفظت طوال حكمه بتفوقها فى إخراج المآسى .

ورغبة فى رفع مستوى الملهاة الفرنسية ، دعا مازاران نفرا من الممثلين الإيطاليين إلى باريس ، ومنهم تيبيريو فيوريللى ، الذى أصبح أثيراً لدى باريس والبلاط بأدائه دور المهرج الفشار « سكاراموتشا » . ولعله هو

وزملاؤه شاركوا فى بعث حمى المسرح فى أوصال جان بوكلان الرابع ، وفى تعليمه فنون المسرح الهزلى[٣] . فلما عاد « سكاراموش » إلى إيطاليا (١٦٥٩) أصبح جان بوكلان . الذى عرفه المسرح والعالم باسم موليير ، الممثل الهزلى الأول للملك ، وبعدها بقليل — فى رأى بوالو المولع به — أكبر كتاب العصر .

٢ - تلمذته

على المبنى رقم ٩٦ بشارع سانت — أونوريه كتابة بحروف من ذهب . هذا نصها : —

شيد هذا البيت فوق موضع البيت الذى ولد فيه موليير

فى ١٥ يناير ، ١٦٢٢

وكان البيت بيت جان باتست بوكلان الثالث ـ منجد الأثاث والمزخرف . وكانت زوجته مارى كريسيه قد أتته بمهر قدره ٢٠٠ر٢ جنيه ، وأنجبت له ستة أطفال ، ثم ماتت بعد زواجهم بعشر سنوات ، ولم يكن طفلها الأول ـ جان باتست بوكلان الرابع — يتذكرها فى وضوح ، ولم يذكرها قط فى تمثيلياته وتزوج الأب ثانية (١٦٣٣) ولكن زوجة الأب ماتت فى ١٦٣٧ ، فكان على الأب أن يحمل عبء عبقرية ولده ، ويوجه تعليمه ، ويفكر فى تشكيل مجرى حياته . وفى ١٦٣١ أصبح جان بوكلان الثالث « المشرف على تنجيد أثاث حجرة الملك » ومنح امتياز إعداد السرير الملكى والسكنى فى البيت الملكى ، لقاء راتب سنوى قدره ثلثمائة جنيه ، وهو مبلغ متواضع ، ولكنه لم يلزم الحضور فى أى عام أكثر من ثلاثة أشهر . وكان الأب قد اشترى الوظيفة من أخيه ، وأراد أن يورثها ابنه . وفى ١٦٣٧ أقر لويس

الرابع عشر حتى جان بوكلان الرابع فى وراثة الوظيفة ، ولو أن تطلعات الأدب تحققت لعرف التاريخ موليير — إن عرفه إطلاقاً — بأنه الرجل الذى كان يعد سرير الملك . على أن جداً للصبي أولع بالمسرح ، فكان يصطحبه إلى حفلات التمثيل بين الحين والحين .

وأعداداً لجان الرابع لتهيئة سرير الملك ، أرسل إلى كلية لليسوعيين فى كليرمون ، وكانت الأم الحانية على المهرطقين . وهناك تعلم الكثير من اللاتينية ، وقرأ تيرنس وأفاد منه ، ولا شك أنه اهتم ، وربما شارك ، فى المسرحيات التى عرضها اليسوعيون أداة لتعليم تلاميذهم اللاتينية والأدب والكلام ويقول فولتير إن جان تلقى كذلك تعليما عن الفليسوف جاسندى الذى كان قد عين معلما خاصا لزميل فى فصل جان . على أية حال تعلم جان الكثير عن أبيقور ، وترجم شطرا كبيراً من ملحمة لوكريتيوس الأبيقورية De rerum natura (وبعض سطور مسرحيته « مبغض البشر[٤] » . تكاد تكون ترجمة لفقرة فى لوكريتيوس [٥]) . والراجح أن جان فقد إيمانه قبل أن يختتم صباه[٦] .

وبعد أن قضى خمس سنين فى الكلية درس القانون ، ويبدو أنه مارسه حقبة قصيرة فى المحاكم . ثم اتخذ مهنة أبيه بضعة أشهر (١٦٤٢) . وفى ذلك العام التقى بمادلين بيجار ، وكانت وقتها سيدة مرحة فى الرابعة والعشرين . وقبل ذلك بخمس سنين كانت خليلة للكونت دمودين ، الذى اعترف فى سماحة بالطفل الذى ولدته له ، وأذن لابنه فى أن يقف عرابا له عند عماده . وفتنت مادلين جان — وكان قد بلغ العشرين — وسحرته بجمالها وطبعها البشوش اللطيف . وأغلب الظن أنها قبلته عشيقاً . وقد حمله عشقها للمسرح ، مع عوامل أخرى ، على اتخاذ قرار بأن يولى لتنجيد الأثاث ظهره ، وأن ينزل عن حقه فى أن يخلف أباه مشرفا على تنجيد حجرة الملك لقاء ٦٣٠ جنيها ، وأن يلقى بنفسه فى خضم التمثيل (١٦٤٣) . وذهب ليقيم فى بيت مادلين

بيجار[٧]. ثم دخل معها ومع أخويها وآخرين فى تعاقد رسمى أنشأوا بمقتضاه « المسرح الشهير » (٣٠ يونية ١٦٤٣). ويعتبر الكوميدى فرانسيز ذلك العقد بداية لتاريخه الطويل الممتاز. واتخذ جان الآن اسماً مسرحياً جريا على عادة الممثلين ، فأصبح يسمى موليير .

واستأجرت الفرقة الجديدة ملعباً للتنس مسرحاً لها ، وقدمت مختلف التمثيليات ، ثم أفلست ؛ وفى ١٦٤٥ قبض على موليير ثلاث مرات بسبب الدين ودفع أبوه عنه ديونه وحصل على أمر بالإفراج عنه معللا نفسه بأن الفتى قد برىء من حمى المسرح . ولكن موليير أعاد تأليف « المسرح الشهير » وانطلق فى جولة بالأقاليم . ومنح الدوق ديبيرنون حاكم جيين الفرقة تأييده. وتنقلت الفرقة فى سلسلة مضنية من النجاح والفشل بين ناربون ، وتولوز ، وألبى ، وكاركاسون ، ونانت ، وآجن ، وجرينوبل ، وليون ، ومونبلييه ، وبوردو ، وبزييه ، وديجون ، وأفنيون ، وروان . وارتقى موليير حتى أصبح مديراً لها (١٦٥٠) ، ووفق بمشرات الحيل فى أن يحفظ للفرقة قدرتها على إيفاء ديونها ويكفل لها طعامها . وفى ١٦٥٣ أعار الأمير دى كونتى ، زميله المدرسى القديم ، اسمه للفرقة وقدم لها المعونة ، ربما لإعجاب سكرتيره بالممثلة الآنسة دوبارك . ولكن الأمير أصابته نوبة شلل دينى فى ١٦٥٥ ، فأخبر الفرقة بأن ضميره يمنعه من الاتصال بالمسرح ؛ ومالبث بعد ذلك أن ندد علانية بالمسرح ، وبموليير بصفة خاصة ، مفسداً للشباب وعدوا للفضيلة والمسيحية .

ووسط هذه التقلبات نهضت الفرقة إشيئاً فشيئاً بكفايتها ودخلها وذخيرتها من المسرحيات . وتعلم موليير فن المسرح وحيله . فما وافى عام ١٦٥٥ حتى كان يكتب التمثيليات كما يمثلها . وفى ١٦٥٨ آنس فى نفسه من القوة ما يكفى لتحدى فرقتين احتلتا المسرح الباريسى ، فرقة تمثل الملك فى الأوتيل دبورجون ، وفرقة خاصة تمثل فى مسرح ماريه . وحضر هو ومادلين بيجار

من روان إلى باريس ليمهدا الطريق لفرقتها . وزار أباه ، وظفر بعفو عن ذنوبه ومهنته . ثم أقنع فيليب الأول دوق أورليان بأن يبسط حمايته على الفرقة وأن يحصل لها على إذن بإقامة حفلة تمثيلية بالبلاط .

وفى أكتوبر ١٦٥٨ مثلت « فرقة المسيو » هـذه أمام الملك فى قاعة الحرس باللوفر مأساة كورنى « نيكوميد » ، ومثل موليير الدور الرئيسى دون توفيق كبير ، لأنه كما يقول فولتير كان يعانى « من ضرب من الفواق لايلائم البتة الأدوار الجادة ، ولـكنه يعين على جعل تمثيله فى الملهاة أكثر إمتاعا »(٨) . وقد أنقذ الحفلة بأن أتبع المأساة بملهاة فقدت الآن معالمها ، ومثل بحيوية ومرح ، وحاجب مرفوع وفم مثرثر جعل الجمهور يتساءل لم يمثل المأساة إطلاقا . وكان فى الملك من الصبى ماجعله يستمتع بهذا الهزل ، ومن الرجولة ماجعله يقدر شجاعة موليير . فأصدر تعليماته بأن تشارك فرقة المسيو فرقة سكاراموش الإيطالية فى قاعة البتى بوربون ، وهناك أيضاً أخفق الممثلون الوافدون حين حاولوا تمثيل المـآسى التى قصروا فى أدائها دون ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، ووفقوا فى التمثيليات الهزلية ، لاسيما التى ألفها موليير . ومع ذلك واصلوا إخراج المآسى . ذلك ان كبار الممثلات كن يشعرن بأنهن يتألقن أكثر فى الدراما الجادة ، ولم يكن موليير نفسه راضياً قط بأن يكون كوميديا ، لأن صراعات الحياة وسخافاتها أورثته مسحة من الحزن ، وقد وجده أمرا فاجعا له أن يكون على الدوام مضحكا . يضاف إلى هذا أنه سئم هزليات المكائد الغرامية والشخصيات المبتذلة وكباش الفداء المألوفة ، وأكثرها أصداء لإيطاليا . وتلفت حوله فى باريس فرأى فيها أشياء لاتقل إضحاكا عن بوليشينيل وسكاراموش . وروى عنه قوله « لم يعد بى حاجة إلى اتخاذ باوتس وتيرنس أساتذة لفنى أو إلى السطو على ميناندر . فما على إلا أن أدرس هذه الدنيا »(٩) .

٣ - موليير ونساء المجتمع

مثال ذلك « الأوتيل د.امبوييه » حيث كان الرجال والنساء يمجدون الآداب الرقيقة والحديث المعطر . فكتب موليير تمثيلية « المتحذلقات المضحكات » . وكان إخراجها (١٨ نوفمبر ١٦٥٩) فاتحة ملهاة العادات الفرنسية وبداية لحظ موليير وشهرته . وكانت الملهاة من القصر بحيث لم يستغرق تمثيلها أكثر من ساعة، وفيها من الحدة ما خلف لذعة طويلة الأيلام. استمع إلى ابنتي العم، مادلون وكاتوس، اللتين تلفهما سبعة أقنعة من التظرف، تحتجان على تلهف الكبار، الواقعيين، المفلسين، على تزويجهما .

جرجيبوس : أي عيب تريان فيهما ؟

مادلون : ياللهامن كياسة رائعة منهما حقاً! ماذا ، أنبدأ فوراً بالزواج! .. لو كان الناس جميعاً مثلك لقضى للتوعلى الرومانس ... إن الزواج ينبغي ألا يتم أبداً إلا بعد مغامرات أخرى . فعلى العاشق إن أراد قبولا أن يفهم كيف يعبر عن العواطف المهذبة ، وكيف يتأوه بالحديث الناعم ، الرقيق ، المشبوب، ويجب أن يكون حديثه مطابقا للقواعد . فعليه بادىء ذي بدء أن يرى في الكنيسة أو في الحديقة العامة أو في حفل عام تلك التي يشغف بها حبا ، وإلا وجب تقديمه إليها التقديم المحتوم بواسطة قريب أو صديق ، ثم عليه أن ينصرف عنها مكتئبا متأملا . ثم يخفي عاطفته حينا عن موضع حبه ، ولكنه يزورها مرات ، لايعدم فيها طرح بعض الحديث عن مغازلة النساء على البساط تدريباً لعقول الجماعة كلها ... ثم يأتي اليوم الذي يبوح فيه بحبه ، وينبغي أن يتم هذا عادة في ممشى حديقة بينما الجماعة على بعد منها . وهذا التصريح تقابله عادة بالاستياء ، الذي يبدو في احمرار وجوهنا ، والذي يقصي العاشق عنا زمنا ، ثم يجد الوسيلة لمصالحتنا بعد حين ، ولتعويدنا أن نسمع حديث غرامه دون أن نتألم ، واستلال ذلك الاعتراف الذي يسبب لنا حرجا شديداً .

ثم تتلو ذلك المغامرات : المزاحمون الذين يخبطون ميلا رسخ ، واضطهادات الآباء ، والغيرة المنبعثة من المظاهر الكاذبة ، والشكاوى ، واليأس ، والهروب مع الحبيب ، وما يسفر عنه من عواقب . هكذا ينبغي أن تجرى الأمور بأسلوب جميل ، وتلك هي القواعد التي لاغنى عنها للتودد المهذب الأنيق . أما الاندفاع رأسا إلى الرباط الزوجي ، وأما عدم مطارحة الغرام إلا بعقد الزواج ، والإمساك بالمغامرة الرومانسية من ذيلها — فمرة أخرى أقول لك ياأبي العزيز إنه ما من شيء أكثر آلية من تصرف كهذا ، ومجرد التفكير فيه يشعرني بالغثيان .

كاتوس : أما أنا ياعماه فكل ما أستطيع أن أقوله هو إنني أرى الزواج شيئا مروعا جدا . فكيف أطيق فكرة الرقاد مع رجل عريان حقا(١٠) ؟

ويستعير خادما الخطيبين ملابس سيديهما ويتنكران كمركيز وجنرال ، ويتوددان إلى السيدتين بكل ما يصاحب التودد من تظرف ومزاح . ويفاجئهما السيدان ، ويجردانهما من ملابسهما المزيفة ، ويتركان الشابتين أمام الحقيقة العارية تقريبا . وفي هذه الملهاة ، كما في جميع ملاهي موليير الجنسية ، عبارات نابية وبعض المزاح الرخيص ، ولكن فيها هجوا لاذعا للحماقات الاجتماعية ، بلغ من حدته أن تأثيره أصبح حدثا في تاريخ عادات المجتمع . وقد نسبت رواية غير مؤكدة لامرأة من النظارة أنها وقفت وسط الجمهور وصاحت « تشجع! تشجع ! هذه ملهاة حسنة ياموليير »(١١) وروى أن واحدا من رواد صالون مدام درامبوييه قال بعد خروجه من التمثيلية « بالأمس أعجبنا بكل السخافات التي نقدت نقدا رقيقا معقولا جداً ، ولكن علينا الآن — كما قال القديس ريمى لكلوفيس — إن نحرق ماعبدنا ، ونعبد ما أحرقنا(١٢) . » وقابلت المركيزة درامبوييه الهجوم بعبقرية ، إذ اتفقت مع موليير على إحياء حفلة يخصص ايرادها لصالونها ، وقد رد على مجاملتها بمقدمة زعم فيها أنه لم يهج صالونها بل مقلديه . على أية

حال انتهى ملك « المتحذلقات » . وقد أشار بوالو فى هجائيته العاشرة إلى تلك « العقول الجميلة التى كانت بالأمس ذائعة الصيت ، والتى فرغها موليير بضربة واحدة من فنه » .

وقد نجحت المسرحية نجاحا ضوعف معه أجر مشاهدتها عقب حفلة الافتتاح . وقد مثلت فى عامها الأول أربعا وأربعين مرة ، وأمر الملك بإحياء ثلاث حفلات للبلاط ، حضرها جميعا ، ونفح الفرقة بثلاثة آلاف جنيه . وما وافى فبراير ١٦٦٠ حتى كانت الفرقة الشاكرة قد دفعت ٩٩٩ جنيها جعالة للمؤلف . ولكنه كان قد ارتكب غلطة إذ ضمن المسرحية إشارة هجا بها ممثلى المسرح الملكى « فما من إنسان قادر على أن يشهر شيئا إلا هم ، أما غيرهم فقوم جهلاء يمثلون أدوارهم كأنهم يتحدثون . هؤلاء لا يفقهون كيف يجعلون أبيات الشعر تجلجل ، أو كيف يقفون عند فقرة جميلة . فكيف تعرف الأبيات الرائعة إذا لم يقف الممثل عندها ويخبرك بهذه الطريقة أن تصفق استحسانا(١٣) ؟ » .

وأعربت فرقة الأوتيل دبوربون عن احتقارها السافر لموليير لعجزه عن إخراج المأساة ، ولقدرته على الملهاة الرخيصة دون غيرها . وعزز موليير حجتهم بتأليفه وعرضه مسلاة « فارس » متوسطة الجودة سماها « الديوث بالوهم » ولو أن الملك سر بأن يشهدها تسع مرات .

وكانت التغييرات تجرى خلال ذلك فى مبنى اللوفر القديم ، فهدمت صالة البتى بوربون فى استهتار ، ولاح حينا أن « فرقــة المسيو » التى يرأسها موليير لن تجد لها مسرحا . ولكن الملك العطوف دائما بادر إلى إنقــاذه بأن خصص له فى الباليه — رويال « الصالة » التى خصصها ريشليو لعرض التمثيليات . وهناك ظلت فرقة موليير حتى مماته وكأنها جزء من جسم البلاط . وكان أول عرض له فى هذا المأوى الجديد آخر محاولاته فى المأساة ، وهى « دون جراسى » . وكان رأيه — وله فيه بعض العذر —

أن أسلوب المأساة الخطابى الفخم كما طوره كورنى ، ومثلته فرقة الأوتيل دبورجون ، أسلوب غير طبيعى ، وكان يتطلع إلى أسلوب أبسط وأكثر طبيعية . ولو سمح له تسلط النزعة الكلاسيكية على المسرح (وفواقه) لجاز أن ينتج مزيجاً موفقاً من المأساة والملهاة كما فعل شيكسبير ، فإن فى أعظم ملاهيه والحق يقال مسحة من المأساة . ولكن « دون جراسى » سقطت ، برغم جهود الملك لدعمها بحضورة ثلاث حفلات ؛ لقد كان قدر موليير أن يكايد المأساة لا أن يمثلها .

وعليه فقد عاد إلى الملهاة . ولقيت « مدرسة الأزواج » نجاحاً طيب خاطره إذ عرضت يومياً من ٢٤ يونيو إلى ١١ سبتمبر ١٦٦١ . وقد آذنت بزواج موليير الوشيك ، وكان وقتها فى التاسعة والثلاثين ، من أرماند بيجار ، ذات الثمانية عشر ربيعاً ، ومشكلة المسرحية هى : كيف ينبغى أن يروض الشابة على أن تكون زوجة صالحـــة أمينة ؟ فالشقيقان أريست وسجاناريل محظوظان لكونهما الوصيين على الفتاتين اللتين ينويان الزواج منهما أما أريست ،البالغ من العمر ستين عاماً ،فيعامل فتاته القاصرليونور ، ذات الثمانية عشرة، بغاية اللين :

« لم أنظر إلى تجاوزاتها الصغرة على أنها جرائم . ولقد لبيت على الدوام رغباتها الشابة ، ولست ولله الحمد آسفا على ذلك . فقد أذنت لها بأن تخالط الأصحاب الطيبين ، وتشهد الملاهى ، والتمثيليات ، والمراقص ، فهذه أشياء أراها على الدوام صالحة لتربية عقول الشباب ، وما الدنيا إلا مدرسة أحسبها تعلم طريقة العيش خيراً من أى كتاب . إنها تحب أن تنفق المال على الثياب ، والقمصان ، والأزياء الجديدة . . وأنا أحاول أن أشبع رغباتها ، فهذه لذات ينبغى أن نتيحها للشابات متى استطعنا توفيرها لهن(١٤) » .

وأما الأخ الأصغر سجاناريل فيحتقر أريست لأنه إنسان أحمق ضللته أحدث الأوهام . وهو يأسف على زوال الفضائل القديمة وعلى انحلال الأخلاق

الجديدة ، وعلى وقاحة الشباب المتحرر . وهو ينوى أن يأخذ فتاته القاصر إيزابيل بنظام صارم ليروضها على أن تكون زوجه مطيعة :

« لا بد أن ترتدى الملابس اللائقة ... فإذا لزمت بيتها كما تلزمه للمرأة العاقلة انصرفت بجمعها إلى شئون الزوجية ، فترفو الثياب فى ساعات فراغها أو تحبك الجوارب لتتسلى بها . ولن تخطو خطوة خارج البيت إلا إذا قام عليها رقيب ... إنني لن ألبس قروناً إذا استطعت إلى ذلك سبيلا » .

وبعد دسيسة بعيدة الاحتمال (منقولة عن ملهاة أسبانية) تهرب إيزابيل مع عاشق ذكى ، فى حين تتزوج ليونور من أريست وتظل وفية له إلى آخر التمثيلية .

وواضح أن موليير كان يحاور نفسه . ففى ٢٠ فبراير ١٦٦٢ ، وهو فى الأربعين ، تزوج بأمرأة تصغره بنصف عمره . أضف إلى ذلك أن عروسه هذه — أرماند بيجار — كانت ابنة مادلين بيجار ، التى كان موليير يعاشرها قبل عشرين عاماً . وقد اتهمه خصومه بالزواج من ابنته غير الشرعية . وكتب مونفلورى ، رئيس فرقة الأوتيل دبورجون المنافسة ، إلى لويس ينبئه بهذا فى ١٦٦٣ ، وكان جواب لويس أن جعل نفسه عراباً لأول طفل ولدته أرماند لموليير . أما مادلين ، حين لقيها موليير ، فكانت أشد احتفالا بشخصها من أن تتيح لنا أى معرفة يقينية بنسب أرماند . ويبدو أن موليير لم يعتقد أنه أبو الفتاة ، ولنا أن نفترض أن معلوماته فى هذه النقطة كانت أفضل قليلا مما يمكن أن تكون عليه معلوماتنا نحن .

كانت أرماند قد شبت كأنها حيوان الفرقة المدلل . وكان موليير يراها كل يوم تقريباً ، وقد أحبها طفلة قبل أن يعرفها امرأة بزمن طويل . وكانت الآن قد أصبحت ممثلة مكتملة النضج . أما وقد نشأت فى هذا الجو فإنها لم تخلق لتكون زوجة لرجل واحد ، لاسيما رجل قد أبلى روح الشباب .

لقد أحبت لذات الحياة واستغرقت فى مغايبات فسرها الكثيرون على أنها خيانات للزوج ، وعانى موليير من جراء ذلك ، وكان أصدقاؤه وأعداؤه يلوكون الشائعات عنه . وبعد زواجه بعشرة أشهر حاول أن يهدىء جراحه ينتقد غيرة الرجال والدفاع عن تحرر النساء . لقد حاول أن يكون أريست ، ولكن أرماند لم تستطع أن تكون ليونور . ولعله أخفق فى أن يكون أريست لأنه كان نافد الصبر شأنه شأن أى مخرج مسرحى . وفى « تمثيلية فرساى المرتجلة » (أكتوبر ١٦٦٣) وصف نفسه إذ يقول لزوجته «اسكتى أيتها الزوجة ، فما أنت إلا حمارة» . فتجيب « شكراً لك أيها الزوج الطيب . أنظر ما صار إليه أمرنا . أن الزواج يغير الناس تغييراً عجيباً ، فما كنت لتقول هذا قبل سنة ونصف(١٥) » .

وواصل تأملاته فى الغيرة والحرية فى مسرحيته «مدرسة الزوجات» التى عرضت أول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٦٦٢ . ومنذ بدايتها تقريباً تراها تضرب على هذا الوتر — الزوج الديوث . فنرى آرنولف الذى لعب موليير دوره هنا أيضاً طاغية من الطراز العتيق ، يؤمن بأن المرأة المتحررة امرأة فاسقة ، وأن السبيل الأوحد لضمان وفاء الزوجة هو ترويضها على الخدمة المتواضعة ، وعلى فرض الرقابة الصارمة عليها وإغفال تعليمها . وتشب أنييس ، القاصر التى كان وصيا عليها وعروسه المستقبلة ، فى براءة حلوة ، حتى أنها تسأل آرنولف فى عبارة تردد صداها فى طول فرنسا وعرضها ، « أيولد الأطفال من الأذن(١٦) ، ؟» . ولما كان آرنولف لم يتحدث إليها بشىء عن الحب ، فأنها ترحب فى سرور برىء بتودد هوراس الذى يجد طريقه إليها أثناء غيبة قصيرة للوصى . فإذا عاد آرنولف قصت عليه وصفاً موضوعياً لمسلك هوراس :

آرنولف : حسنا ، ولكن ماذا صنع حين انفرد بك ؟

آنييس : قال إنه يحبنى حباً حاراً لا نظير له . وقال لى بألطف لغة فى

الدنيا أشياء لا يمكن أن يعدلها شيء . وقد أبهجنى لطف حديثه كلما استمعت إليه ، وأثار فى شيئاً لا أعرفه ، عاطفة سحرتني تماماً .

آرنولف : (جانباً) يا له من تحقيق معذب فى سر قتال ، يعانى فيه المحقق كل الألم ! (بصوت عال .) ولكن علاوة على هذا الحديث كله، وهذه الأساليب اللطيفة كلها ، ألم يقبلك بعض القبلات أيضاً ؟

أنييس : أوه ! إلى هذا الحد ! لقد تناول يدى وذراعى ولم يتعب قط من تقبيلها .

آرنولف : ألم يأخذ شيئاً آخر منك يا أنييس ؟ (ملاحظا حيرتها) ها ؟

أنييس : بلى ، لقد .

آرنولف : ماذا ؟

أنييس : أخذ .

آرنولف : كيف ؟

أنييس : الـــ .

آرنولف : ماذا تعنين ؟

أنييس : لا أجرؤ على إخبارك ، لأنك قد تغضب منى .

آرنولف : لا .

أنييس : نعم ، ولكنك ستغضب .

آرنولف : يا للهول ، لن أغضب .

أنييس : احلف إذن .

آرنولف : أحلف .

أنييس : أخذ- سيثور غضبك .

آرنولف : لا .

أنييس : نعـم .

آرنولف : لا ،لا ، لا ، لا . بحق الشيطان ما هو هذا السر ؟ ماذا أخذ منك ؟

أنييس : أنه ــ

آرنولف : (جانباً) إنى أقاسى عذاب الجحيم .

أنييس : أخذ الوشاح الذى أعطيتني، أصدقك القول أنى لم أستطع منعه .

آرنولف : (متمالـكاً نفسه) : لا بأس بالوشاح . ولـكنى أريد أن أعلم ألم يفعل شيئاً غير تقبيل يديك ؟

أنييس : أيفعل الناس أشياء أخرى ؟

آرنولف : لا ، لا . . . ولـكنى باختصار لا بد أن أخبرك أن قبول علب الجواهر والاستماع إلى القصص العاطلة يقصها هؤلاء الغنادير المتبرجون، والسماح لهم وأنت مسترخية بتقبيل يديك وفتنة قلبك بهذه الطريقة — هذا كله خطيئة مميتة ، بل أفظع خطيئة يمـكن أن ترتـكبيها .

أنييس : تقول خطيئة ! والسبب من فضلك ؟

آرنولف : السبب ؟ لأنه مكتوب صراحة أن السماء تغضبها أفعال كهذه.

أنييس : تغضبها ؟ ولـكن لم تغضب السماء ؟ واأسفاه ؟ إنه شيء حلو لذيذ ، تعجبنى البهجة التى أجدها فيه ، ولم أعرف من قبل هذه الأشياءُ.

آرنولف : نعم ، هناك الـكثير من اللذة فى هذه العواطف الرقيقة ، وهذه الأحاديث اللطيفة ، وهذه القبل الحارة ، ولـكن ينبغى تذوقها بطريقة شريفة ، والزواج كفيل بأن يمحو عنها الخطيئة .

أنييس : أفلا تعد خطيئة إذا كان الإنسان متزوجاً ؟

آرنولف : نعم .

أنييس : أرجوك إذن أن تتزوجنى حالا(١٧) .

وتهرب أنييس إلى هوراس بعد قليل طبعاً . ولكن آرنولف يقتنصها من جديد ويوشك أن يضربها حين يوهن من عزيمته حلاوة صوتها وجمال جسدها ، وربما كان موليير يفكر فى أرماند وهو يكتب عبارات آرنولف التالية :

« أن ذلك الحديث وتلك النظرة يجردان غضبى من سلاحه ، ويعيدان إلى الحنان الذى يمحو ذنبها كله . فما أعجب أن يحب الإنسان ! وأن يكون الرجال عرضة لمثل هذا الضعف أمام هؤلاء الخائنات افكلنا يعرف نقصهن ، فما هن إلا التبذير والحماقة ، وذهنهن شرير وفهمهن ضعيف ، وما من شىء أوهن منهن ، ولا أقل ثباتاً ، ولا أكذب ، ومع ذلك كله فالرجل يصنع كل شىء فى الدنيا من أجل هؤلاء الحيوانات(١٨) » .

وفى النهاية تهرب منه وتتزوج هوراس . أما آراولف فيمزيه صديقه كريسالد بفكرة مؤداها أن امتناع الرجل عن الزواج هو الطريقة الأكيدة الوحيدة التى تقيه من أن يطلع له قرنان فى رأسه .

وأبهجت التمثيلية جمهورها ، فمثلت إحدى وثلاثين مرة فى الأسابيع العشرة الأولى ، وكان فى الملك من الشباب ما سمح له بالاستمتاع بخلاعتها ، ولكن عناصر البلاط الأشد محافظة انتقدوا الملهاة لما فيها من مجافاة للفضيلة ، وكرهت السيدات فكرة الولادة من الأذن ، وندد الأمير كونتى بمنظر الفصل الثانى الذى سقنا حواره من قبل بين آرنولف وأنييس زاعما أنه أفضح ما عرض على خشبة المسرح . ولعن بوسويه التمثيلية برمتها ، ودعا بعض القضاة إلى حظرها باعتبارها خطراً على الأخلاق والدين، وسخرت الفرقة المنافسة من ابتذال الحوار وتناقضات رسم الأشخاص وشطحات الحبكة المتعجلة . وظلت التمثيلية حيناً « حديث كل بيت فى باريس(١٩) » .

وكان فى موليير من حب النضال مالا يدعه يترك هذا النقد كله دون تعليق منه . ففى تمثيلية ذات فصل واحد مثلت فى الباليه رويال فى أول يونيو ١٦٦٣ ، واسمها « نقد مدرسة الزوجات » عرض لنا لقاء بين نقاده وتركهم يعربون بعنف عن اعتراضاتهم ، ولم يكد يرد عليها إلا بأن يدع النقد يضعف ذاته بمبالغته ، وأن يجريه على ألسنة شخصيات مثيرة للسخرية . وواصل الأوتيل دبورجون « الحرب الكوميدية » بإخراجه هزلية قصيرة سماها « الناقد المعارض » ، وهجا موليير الفرقة الملكية فى « تمثيلية فرساى المرتجلة » (١٧ أكتوبر ١٦٦٣) . وساند الملك موليير فى وفاء ، ودعاه إلى العشاء[٢٠] ، ومنحه الآن معاشا سنويا قدره ألف جنيه ، لا بوصفه « ممثلا كوميديا » بل « شاعرا فذا[٢١] » . كذلك نصر الزمن موليير ، فمدرسة الزوجات تعتبر اليوم أول ملهاة عظيمة فى المسرح الفرنسى .

٤ — غرام طرطوف

ولكن موليير دفع ثمن حظوته لدى الملك . فلقد أحب لويس ظرفه وشجاعته ، فجعله من كبار المنظمين للملاهى فى فرساى وسان — جرمان . وقد ملأ أحد هذه المهرجانات المسمى « مباهج الجزيرة المسحورة » أسبوعا (٧ — ١٣ مايو ١٦٦٤) بألعاب السيف والولائم والموسيقى والباليه والرقص والدراما — وكلها أقيم فى حديقة فرساى وقصره تحت أضواء المشاعل والشمعدانات التى تحمل أربعة آلاف شمعة . وكوفىء موليير على جهوده فى هذا المهرجان بستة آلاف جنيه . وقد أسف بعض الأدباء لإسراف الملك فى استغلال عبقرية موليير لكى يوفر هذا اللهو الخفيف فى البلاط ، وتصوروا تلك الروائع التى كان من الجائز أن يكتمل نضجها لو أن الشاعر الكامن فى الكوميدى أتيح له مزيد من الوقت للتفكير والكتابة . غير أنه كان واقعا تحت ضغط من فرقته أيضا ، وما كانت شواغله ومسئولياته

مديرا للفرقة وممثلا بها لتسمح له على أية حال بالاعتكاف فى أى برج عاجى. وما أكثر المؤلفين الذين يكتبون تحت ضغط ملح خيرا مما يكتبون فى الفراغ ، فالفراغ يرخى الذهن ، والإلحاح يشحذه . ولقد أخرج موليير أعظم تمثيلياته أول مرة فى ١٢ مايو ١٦٦٤ ، فى قصة « مباهج الجزيرة المسحورة » ، وكانت جزءا من المهرجان .

فى هذا العرض الأول لم تكن « طرطوف » بالتمثيلية المناسبة تماما للمهرجان ، لأنها فضحت فى غير رحمة ذلك النفاق الذى يتخفى خلف رداء من التقوى والفضيلة . وكانت جماعة دينية من الإخوة العلمانيين تدعى « جمعية السر المقدس » ، وعرفت فيما بعد بـ« عصبة الورعين » قد قطعت العهود على أعضائها بأن يعملوا على حظر التمثيلية . أما الملك الذى كانت علاقته الغرامية بلاقاليير قد أثارت كثيرا من نقد هؤلاء الورعين ، فقد كان مزاجه يدعوه للاتفاق مع موليير ، ولكنه بعد أن شاهد الملهاه فى عرضها الخاص بفرساى أوقف الأذن بعرضها على نظارة باريس فى الباليه — رويال . وطيب خاطر موليير بدعوته ليقرأ « طرطوف » فى فونتنبلو على نخبة مختارة تضم ممثلا للبابا لم يذكر التاريخ أنه اعترض عليها (٢١يوليو ١٦٦٤) . فى ذلك الشهر مثلت المسرحية فى بيت دوق أورليان ودوقتها (هنرييتا آن) ، فى حضرة الملكة ، والملكة الأم ، والملك . وبينما كان يجرى التمهيد لعرضها على الجماهير أذاع كاهن سان — برتلمى ، بيير روليه ، فى أغسطس ثناء على الملك لحظره التمثيلية ، واغتنم هذه الفرصة ليرمى موليير بأنه « رجل ، بل شيطان متجسد فى ثوب رجل ، وأشهر مخلوق فاسق منحل عاش إلى الآن » . ثم قال الأب روليه إن جزاء موليير على تأليف طرطوف « أن يحرق على الخازوق ليذوق من الآن نار الجحيم[٢٢] » . ووبخ الملك روليه ، ولكنه ظل يحبس الإذن بعرض طرطوف علنا . ولكى يظهر حقيقة موقفه رفع معاش موليير السنوى إلى ستة آلاف جنيه ، وتلق

عن « المسيو » حماية فرقة موليير ، فأصبحت منذ الآن « فرقة الملك » .

وظل الجدل مضطرما تحت الرماد حامين . ثم قرأ موليير على الملك نسخة منقحة من التمثيلية ، أضاف إليها سطورا تذكر أن الهجاء ليس موجها ضد الإيمان الصادق بل ضد الرياء . وأيدت مدام هنريبتا التماس المؤلف الإذن بعرض المسرحية . ووافق لويس موافقة شفوية ، وبينما كان منطلقا إلى الحرب فى فلاندر عرضت طرطوف لأول مرة على مسرح الباليه — رويال فى ٥ أغسطس ١٦٦٣ بعد مرور ثلاث سنين على أول عرض لها فى البلاط . وفى الغد أمر رئيس باريس ، وكان ينتمى لجماعة السر المقدس ، بغلق المسرح وتمزيق كل لافتاته . وفى ١١ أغسطس حظر رئيس أساقفة باريس قراءة الملهاة أو سماعها أو تمثيلها سرا أو علانية ، وإلا كان الحرم جزاء المخالف . وأعلن موليير أنه سيعتزل المسرح إذا استمر انتصار « الطراطيف » هذا . أما الملك الذى عاد إلى باريس فقد أمر الكاتب المسرحى الغاضب بأن يتذرع بالصبر ، ففعل ، وأثيب فى النهاية برفع الحظر الملكى . وفى ٥ فبراير ١٦٦٩ بدأت التمثيلية فترة عرض ناجحة اتصلت ثمانية وعشرين مرة . وبلغ من كثرة الراغبين فى دخول المسرح وتهافتهم عليه فى أول حفلة علنية أن الكثيرين كادوا يختنقون . لقد كانت « أشهر مسرحية » فى حياة موليير المسرحية . وقد حظيت دون جميع الدرامات الكلاسيكية الفرنسية بأكبر عدد من العروض — بلغت ٢,٦٥٧ (حتى سنة ١٩٦٠) فى مسرح الكوميدى — فرانسيز وحده .

ولكن إلى أى حد تعلل محتويات التمثيلية تأجيلها الطويل ، وشعبيتها المتصلة ؟ أنها تعلل التأجيل بهجومها الصريح على التظاهر بالتقوى ؛ وتعلل الشعبية بقوة هجائها وبراعته . وكل ما فى ذلك الهجاء مبالغ فيه بالطبع . فقلما يكون الرياء مستهترا كاملا كما كان فى طرطوف ، وقلما يكون الغباء مفرطا كما كان فى أورجون ، وليس هناك خادمة نجحت فى وقاحتها كما نجحت

دورين . وحل عقدة التمثيلية لا يصدق ، كما هى الحال عند موليير دائما تقريبا ، ولكن هذا لم يقلقه ، فبعد أن يقدم صورته واتهامه للنفاق ، تكفى أى حيلة مسرحية — كتدخل الإله أو الملك — لحل العقدة بانتصار الفضيلة وعقاب الرذيلة . وأغلب الظن أن الهجاء قصد به جماعة السر المقدس الذين أخذ أعضاؤه على عاتقهم أن يوجهوا ضمائر الناس ، حتى ولو كانوا علمانيين ، ويبلغوا الخطايا السرية للسلطات العامة ويتدخلوا فى شئون العائلات لزيادة الولاء والإخلاص للدين . وقد أشارت التمثيلية مرتين إلى « عصبة » (فى السطرين ٣٩٧ و ١٧٠٥) ، وواضح أن هذا تلميح إلى عصبة الورعين . وعقب العرض الأول للتمثيلية حلت جماعة السر المقدس .

أما أورجون ، البورجوازى الغنى ، فيرى طرطوف لأول مرة فى الكنيسة فينبهر لمرآه .

« آه لو رأيته ... إذن لأحببته كما أحببته . . كان يأتى كل يوم إلى الكنيسة هادىء الهيئة ثم يركع بجوارى . وقد لفت أنظار المصلين جميعا بحرارة الابتهالات التى رفعها إلى السماء . كان يتأوه ويئن أنينا شديدا ، وفى كل لحظة يقبل الأرض فى تذلل . فإذا شرعت فى الخروج تقدمنى ليقدم إلى الماء المقدس عند الباب . وإذ أدركت .. رقة حاله .. كنت أهديه الهدايا ، ولكنه كان على الدوام يعرض أن يرد إلى بعضها .. وأخيرا حفزتنى السماء على أن آخذه إلى بيتى ، وبدا لى منذ تلك اللحظة أن كل شىء يزكو . وأنا أراه يلوم دون تفرقة بين الناس ، وألحظ أنه ، حتى فيما يتصل بزوجتى ، شديد الحرص على عرضى . فهو ينبئنى عمن يرمقها بنظرات الهيام(٢٣) » .

ولكن طرطوف لا يروع زوجة أورجون وأبناءه كما راعه . ذلك أن شهيته الطيبة ، وولعه بأطايب الطعام ، وكرشه المكور ، ووجهه المتورد

كل أولئك يذهب فى نظرهم بأثر عظاته . ويرجو كليأنت زوج أخته أورجون أن يميز بين الرياء والدين :

« كما أننى لا أعرف فى الحياة خلقا أعظم ولا أجل من التقوى الصادقة ، ولا شيئا أنبل ولا أجمل من حرارة الورع الخالص ، فإنى لا أرى شيئا أشد نكراً من طلاء الغيرة الزائفة ، ومن هؤلاء الدجالين ، هؤلاء الاتقياء مظهراً . . . الذين يتجرون بالتقوى ، ويريدون أن يشتروا أسباب التكريم وحسن الأحدوثة برفع العيون إلى السماء فى رياء ، وبانتشاءات القداسة المفتعلة » .

ولكن أورجون يمضى فى تصديق مزاعم طرطوف ، ويخضع لإرشاده ويطلب له المعونة من الله إذا تجشأ ، ويقترح تزويجه من ابنته ماريان التى تؤثر عليه فالير فى عنف أما بطلة التمثيلية الحقيقية فهى دورين ، خادمة ماريان ، التى يبدو — كما فى كل الملاهى الكلاسيكية — أنها تثبت أن العناية الإلهية وزعت العبقرية توزيعا يتناسب تناسبا عكسيا مع المال . وما أبهج استقبالها لطرطوف عند دخوله المسرح أول مرة :

طرطوف : (يكلم خدمه بصوت عال حين يرى دورين). يا لورنس ، اقفل على وشاحى الوبرى وسوطى ، والتمس من السماء أن تنيرك بالنعمة دائما . وإذا جاء أحـــد لزيارتى فقل إنى ذهبت إلى السجون لأوزع صدقاتى .

دورين : (جانبا) أى تصنع وأى لؤم !

طرطوف : ماذا تريدين ؟

دورين : أن أقول لك —

طرطوف : (وهو يسحب منديلا من جيبه) أوه . يا للهول . أرجوك أن تأخذى هذا المنديل منى قبل أن تتكلمى .

دورين : ولم ؟

طرطوف : غطى ذلك الصدر الذى لا أطيق رؤيته . مثل هذه الأشياء تؤذي النفس وتغرى بالأفكار الآثمة .

دورين : إذن فأنت تذوب ذوبانا أمام التجربة ، ومنظر الجسد يؤثر فى حواسك تأثيراً شديداً ؟ الحق أنى لا أعرف أى حرارة تلهبك ، ولكنى عن نفسى لست عرضة مثلك لهذا التلهف على الجسد . فى وسعى الآن أن أراك عارياً تماماً من رأسك إلى قدمك ، دون أن يغرينى جلدك هذا كله أى أغراء (٢٤) .

والمنظر التالى لب الملهاة . ترى فيه طرطوف يطارح زوجة أورجون ـ ايلمير ـ الغرام ، ويستعمل لغة التقى فى توسلاته . وينبأ أورجون بخيانته ، ولكنه يأبى أن يصدق ، واظهاراً لثقته بطرطوف ينزل له عن أملاكه كلها . ويستسلم طرطوف لقبولها قائلا « لتكن مشيئة السماء فى كل شيء(٢٥) » وتحل ايلمير الموقف ، إذ تخبيء زوجها تحت مائدة ، وترسل فى طلب طرطوف ، وتلوح له ببارقة تشجيع ، ثم توقعه فى محاولات للاستطلاع الغرامى . وتتظاهر بالرضى ، ولكنها تزعم أنهــا تحس وخزات الضمير ، فيتناول طرطوف هذا الوعم بفتوى الخبير ، وواضح أن موليير قرأ من قبل رسائل بسكال الريفية واستطابها :

« طرطوف : إذا لم يكن غير السماء عقبة فى طريق رغباتى ، فما أيسر أن أزيح هذه العقبة — صحيح أن السماء تنهى عن لذات معينة ، ولكن هناك طرق لتسوية تلك الأمور . فشد أوتار الضمير وفق مقتضيات الحال ، وتصحيح فساد الفعل بطهارة النية — ذلك علم أى علم(٢٦) » .

ويظهر أورجون من مخبئه ، ويأمر طرطوف غاضباً بأن يخرج من بيته ، ولكن طرطوف يبين له أن البيت أصبح ملكا له بحكم العقد الذى وقعه أورجون مؤخراً . ويقطع موليير هذه العقدة ، دون كبير براعة ، بأن يجعل

عمال الملك يكتشفون فى اللحظة المناسبة أن طرطوف مجرم تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . ويستعيد أرجون أملاكه ، ويظفر فالير بمريان ، وتختتم التمثيلية بنشيد شكر شجى يشيد بعدل الملك وإحسانه .

٥ ـ الملحد العاشق

ولكن إحسان الملك لابد قد أرهقته تمثيلية موليير الجريئة التالية . ففى ذروة الحرب المحتدمة حول « طرطوف » ، وبينما كانت جماعة الورعين لا يزالون منتصرين فى أمر حظر التمثيلية ، عرض موليير فى الباليه — رويال (١٥ فبراير ١٦٦٥) مسرحية « وليمة التمثال الحجرى » التى قص فيها بنثر يطفر مرحا قصة دون جوان القديمة المكرورة ، وجعل فيها ذلك الوبر المستهتر ملحداً مغروراً . وقد أخذ شكلها الظاهر عن تيرسودى مولينا وغيره ، ولكنه ملأها بدراسة رائعة لرجل يلتذ الشر لذاته وتحدياً لله . والمسرحيه صدى مدهش لذلك الجدل الكبير الذى تورط فيه الدين مع الفلسفة .

ودون جوان تينوريو مركيز يسلم بالتزاماته قبل طبقته ، ولكنه فيما عدا ذلك يريد أن يستمتع بما يشتهى من لذات . ويحصى تابعه سجاناريل عدد النساء اللاتى أغواهن مولاه ثم هجرهن فيجدهن ١٠٠٣ . يقول جوان « إن الوفاء صفة لا تصلح إلا للحمقى .. فليس فى وسعى أن أحرم قلبى من أى مخلوقة جميلة أراها[٢٢] » ومثل هذا الخلق يتوق إلى لاهوت يلائمه ، ومن ثم يصبح جوان ملحداً ابتغاء راحته . ويحاول خادمه أن يناقش الأمر معه :

سجاناريل : أيمكن أنك لا تؤمن بالجنة ؟

جوان : انس الموضوع .

سجاناريل : أى أنك لا تؤمن . وما رأيك فى جهنم ؟

جوان : إه !

سجاناريل : كإيمانك بالجنة ، وما رأيك فى الشيطان من فضلك ؟

جوان : نعم ، نعم .

سجاناريل : قليلا جداً كذلك . ألا تؤمن بحياة أخرى على الأطلاق ؟

جوان : ها ، ها ، ها .

سجاناريل : هذا رجل سيشق على هدايته . ولكن قل لى ، لا بد أنك تؤمن بـ « الراهب الفظ* » .

جوان : تباً للأحمق .

سجاناريل : أما هذا فلا أطيقه ، لأن ليس هناك كائن وجوده مؤكد كهذا الراهب الفظ ، وقاتلني الله أن لم يكن وجوده حقيقياً . ولكن المرء يجب أن يؤمن بشيء . فبأى شيء تؤمن ؟ . . .

جوان : أومن بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وأربعة وأربعة يساويان ثمانية .

سجاناريل : يالها من عقيدة جميلة ومواد إيمان رائعة ! إذن فدينك — على قدر ما أفهمه — هو الحساب ؟ أما أنا يا مولاى . . . فأفهم جيداً أن هذا العالم ليس شيئاً كالفطر نما فى ليلة واحدة . أريد أن أسألك منذا الذى صنع هذه الأشجار والصخور والأرض والسماء من فوقنا ؟ أهذا كله بنى نفسه بنفسه ؟ أنظر إلى نفسك مثلا ، فها أنتذا موجود ، أصنعت نفسك ، وألم يكن لزاماً أن يغشى أبوك أمك ليصنعك ؟ أتستطيع أن ترى كل المخترعات التى تتألف منها الآلة البشرية دون أن تعجب كيف يشغل الجزء منها جزءاً آخر ؟ ومهما قلت ، فإن هناك شيئاً معجزاً فى الإنسان لن يستطيع كل المتنطعين فى العلم أن يفسروه . أليس عجيباً أن ترانى هنا،وأن فى رأسى

(*) شبح مزعوم تخوف به المربيات والأمهات الأطفال .

شيئا يفكر فى مائة شىء مختلف فى لحظة ويأمر بدنى بأن يصنع ما أريد ؟ أريد أن أصفق بيدى ، وأرفع ذراعى ، وأنظر بعينى إلى السماء ، واخفض رأسى ، وأحرك قدمى ، وأمشى يمينآ ، ويسارآ ، وأمامآ ، وخلفآ ، وأدور (يقع على الأرض وهو يدور) .

جوان : هذا حسن ! أن لحجتك أنفآ مكسورا (٢٨) .

وفى المشهد التالى تتخذ الخصومة بين جوان والدين صورة أخرى . فهو يلتقى بشحاذ يزعم له أنه يصلى كل يوم من أجل المحسنين إليه ، فيقول جوان : « أن رجلا يصلى كل يوم لا بد أن يكون غنيآ جداً » ويجيب الشحاذ إن الأمر على العكس من ذلك « فنى أكثر الأحيان لا أجد حتى كسرة خبز » ويعرض عليه جوان جنيهآ ذهبيآ « شريطة أن يجدف ، ولكن الشحاذ يرفض « إنى أفضل الموت جوعا » ويذهل جوان قليلا لهذه الصلابة فيعطيه قطعة النقود وهو يقول « حبا فى الإنسانية (٢٩) » ويعرف كل رواد الأوبرات نهاية القصة ، إذ يصادف جوان تمثالا للقائد الذى أغوى ابنته وأودى بحياته . فيدعوه التمثال إلى العشاء ، فيحضر ، ويناوله يده ، فيقوده إلى الجحيم . ويظهر الجهاز الشيطانى المعهود فى المسرح الوسيط ، « فينقض الرعد والبرق بضوضاء عظيمة على دون جوان ، وتفغر الأرض فاها وتبتلعه ، وتندلع نار هائلة من المكان الذى سقط فيه » .

وقد صدم الجمهور فى أول ليلة لما رأى من فضح موليير لكفر جوان . ولعل هذا الجمهور لم يكن يرى بأسا بأن يفضح سفالة جوان وافتقاره إلى إلى اللاهوت ، وبأنه أماط اللثام عنه وحشا لا ضمير له ولا حنو ، ينشر الخداع والحزن أينما ذهب ، ولعله لاحظ أن المؤلف عرض ضحايا الوغد بكل ما فيه من عطف ، ولكنه لاحظ أن الرد على الكفر جاء على لسان أحمق يؤمن بالعفاريت إيمانا أرسخ من إيمانه بالله ، ولم يخفف من وقع هذا الكفر القاء جوان فى الجحيم أخيرآ ، لأن الجمهور رآه يهبط إلى الجحيم

دون كلمة ندم أو خوف . وبعد العرض الأول خفف موليير من حدة أكثر الفقرات ايذاء ، ولكن هذا لم يهدىء ثائرة الرأى العام . ففى ١٨ أبريل ١٦٦٥ نشر سيد روشمون ، المحامى فى البرلمان ، « ملاحظات حول مسرحية لموليير » فيها وليمة التمثال الحجرى بأنها « شيطانية حقا . . لم يظهر قط أفسق منها حتى فى العهود الوثنية » ثم أهاب بالملك أن يحظر التمثيلية :

« فبينما يحرص هذا الملك النبيل الحرص كله على صون الدين ، نرى موليير يعمل على هدمه . . فليس فى وسع انسان مهما قل علمه بتعاليم الدين أن يؤكد بعد رؤية التمثيلية أن موليير أهل للمشاركة فى تناول الاسرار المقدسة مادام سادرا فى عرضها ، أو يستحق أن تقبل توبته دون عقاب علنى (٣٠) » .

ولكن لويس واصل رضاءه عن موليير . ومثلت « وليمة التمثال الحجرى » ثلاثة أيام كل أسبوع من ١٥ فبراير إلى أحد السعف . ثم سحبت ، ولم تعد إلى خشبة المسرح إلا بعد موت مؤلفها بأربع سنوات ، ولم تعد إلا على صورة اقتباس شعرى بقلم توما كورنى الذى حذف المشهد الفاضح الذى نقلناه . أما النسخة الأصلية فقد اختفت ، ثم اكتشفت ثانية فى ١٨١٣ طبعة مسروقة نشرت بأمستردام فى ١٦٨٠ . وظلت نسخة كورنى تحتكر المسرح حتى ١٨٤١ ، وهى لا تزال تحتل مكان الأصل فى بعض طبعات أعمال موليير (٣١) .

٦ – موليير فى أوجه

وكأن موليير لم يكفه ما أثار عليه من خصوم ، فراح يهاجم مهنة الطب . وكان قد صور دون جوان بأنه « تاجر فى الطب » ورأى أن الطب « من أكبر كبائر الإنسانية (٣٢) » وكان قد خبر بنفسه ما فى أطباء القرن السابع عشر من قصور وغرور . وخيل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه حين وصفوا له حجر الكحل (الأنتيمون) ، ورآهم يقفون موقف العاجز من تدرنه

الذى يسير بخطى حثيثة (٣٣) . كذلك كان الملك ساخطا على ما يعطونه من مسهلات وما يفصدون من دمه كل أسبوع . ويقول موليير إن لويس هو الذى أغراه بوضع الأطباء على السفود . وعليه فقد كتب فى خمسة أيام تمثيلية « الحب خير طبيب » مستميرا من الملاهى القديمة فى هذا الموضوع القديم . وقد أخرجت بفرساى فى ١٥ سبتمبر ١٦٦٥ فى حضرة الملك الذى « ضحك لها من قلبه » ولقيت الترحيب الحار حين مثلت بعد أسبوع فى الباليه — رويال . وهى تحكى قصة مريضة يدعى لفحصها أربعة أطباء . فيختلون للمداولة ، ولكنهم لايناقشون إلا شئونهم الخاصة . فإذا أصر والد المريضة على قرار وعلاج ، وصف أحدهم لها حقنة شرجية ، وأقسم الآخر أن الحقنة ستقتلها لا محالة . ثم تتعافى المريضة بغير دواء ، الأمر الذى يثير سخط الأطباء ، فيصيح الدكتور بايز « خير لها أن تموت طبقاً للقواعد من أن تشفى مخالفة لها(٣٤) » .

وفى ٦ أغسطس ١٦٦٦ عرض موليير مسرحية قصيرة أخرى هى « الطبيب رغم أنفه » مقدمة مسرحية لمسرحيته « مبغض البشر » قصد بها أن يخفف من كآبة هذه التمثيلية التى تتغنى بالتشاؤم . وهى لا تجزى جهد قارئها اليوم لأن موليير لم يقصد أن تؤخذ هجائياته للطب مأخذ الجد . ويلاحظ أنه ظل على علاقات طيبة جداً مع طبيبه الخاص ، المسيو دموفلان ، وأنه توسط لدى الملك ليجد وظيفة شرفية لابن هذا الطبيب (١٦٦٩) وقد شرح مرة كيف كان هو وموفلان منسجمين تمام الانسجام فقال « إننا نناقش الأمر ، ويصف هو العقاقير ، وأنا أغفل تعاطيها ، ثم أشفى (٣٥) » .

وبينما كان موليير لا يزال فى وطيس المعركة حول طرطوف ، قدم فى ٤ يونيو ١٦٦٦ هجائية أخرى لم يقصد بها أن يسر الجمهور ولا الحاشية . وإذا كانت الحركة روح المسرحية ، فإن هذه المسرحية « مبغض البشر » أقرب إلى الحوار الفلسفى منها إلى التمثيلية وتكفى جملة واحدة لتلخيص القصة ؛ فألسيست ، الذى يطالب نفسه وغيره بالفضيلة الصارمة والصراحة

الكاملة يحب سيليمين التى تؤثره ، ولكن يطيب لها أن ترى العدد العديد من الخطاب وتسمع الكثير من المديح . ويجد موليير فى هذا مجرد ذريعة لدراسة الفضيلة . فهل من واجبنا أن نقول الصدق دائما ، أم نحل المجاملة محل الصدق لكى نتقدم فى هذه الدنيا ؟ أما السيست فيرفض أنصاف الحلول التى يتراضى بها المجتمع مع الصدق ، ويندد برياء البلاط ، حيث يتظاهر كل إنسان بأسمى العواطف و « أحر التحيات » فى حين يكيد كل لغيره سراً تحقيقاً لمصلحته الشخصية ، ويغتابهم جميعاً ، ويستعين بالملق على نيل الحظوة أو السلطة . وألسيست يحتقر هذا كله ، ويريد أن يكون صادقاً ولو أفضى به الصدق إلى الانتحار . ويصر شويعر من رجال البلاط يدعى أورونت على قراءة أشعاره على ألسيست ، ويطلب إليه أن ينقدها نقداً مخلصاً ، وينال ما طلب ، فيهدد ويتوعد بالانتقام . وتغازل سيليمين الرجال ، فيوبخها ألسيست ، فتصفه بأنه إنسان متزمت مغرور ، ونكاد نسمع موليير يوبخ زوجته المرحة ، والواقع انه هو الذى لعب دور ألسيست ، وهى التى مثلت سيليمين :

ألسيست : سيدتى ، أتسمحين لى أن أكون صريحا معك ؟ إنى لشديد الاستياء من تصرفاتك . . أنا لا أتشاجر معك ، ولكن مسلكك ياسيدتى يفتح لأول وافد أرحب سبيل إلى قلبك . إن لك عددا هائلا من العشاق الذين تراهم يحاصرونك ؛ ونفسى لا تستطيع الرضى بهذا .

سيليمين : أتلومنى لأنى أجذب العشاق ؟ أهو ذنبى أن الناس يجدوننى جديرة بالحب ؟ وإذا بذلوا المحاولات اللطيفة لرؤيتى أفآخذ عصا وأطردهم خارجا ؟ .

ألسيست : لا ، ليست العصا هى ما يجب أن تستعمليه ، بل روحا أقل استسلاما وذوبانا أمام عهودهم . أعرف أن جمالك يتبعك فى كل مكان ولكن ترحيبك يزيد من تجتذبه عيناك تعلقا بك ، وتلطفك مع جميع من يستسلمون لك يكمل فى قلوبهم فعل مفاتنك (٣٦) .

والنقيض الفلسفى لألسيست هو صديقه فيلانت ، الذى ينصحه بأن يلائم فى لطف بين نفسه وبين ما فى البشر من نقائض فطرية وأن يعترف باللطف ميسراً للحياة . وسحر المسرحية فى قسمة موليير عواطفه بين السيست وفيلانت . فألسيست هو موليير الزوج الذى يخشى أن يكون ديوثا ، ومنجد حجرة الملك الذى عليه — لكى يعد سرير الملك — أن يتصدى لمائة نبيل يفاخرون بنسبهم مفاخرته بعبقريته . وفيلانت هو موليير الفيلسوف ، الذى يأمر نفسه بأن يكون معقولا متسامحاً فى الحكم على البشر . يقول فيلانت — موليير لموليير — ألسيست فى فقرة لنا أن نعتبرها نموذجا من موليير الشاعر :

« رباه : فلنقلل من ضيقنا بعادات العصر ، ولنتسامح قليلا مع الطبيعة البشرية ، ولا نفحصها بصرامة شديدة ، بل ننظر إلى عيوبها بشىء من التساهل . فالحياة فى هذه الدنيا تتطلب فضيلة مرنة طيعة ، وقد يخطىء المرء بغلوه فى الحكمة ، فالعقل الكامل يتجنب كل تطرف ، ويريدنا أن نكون حكماء فى اعتدال . إن التزمت الشديد فى فضائل القدماء يصدم كثيراً عصرنا والعرف السائد بيننا ، فهو ينشد فى البشر كمالا مفرطاً ، علينا أن نلين للزمن دون تصلب ، والحماقة كل الحماقة فى أن نورط أنفسنا فى تقويم أخطاء العالم . إنى الحظ كما تلحظ كل يوم عشرات الأشياء التى كان يمكن أن تكون خيراً مما هى لو أنها سلكت طريقاً غير طريقها ، ولكن مهما تكشف لى فى كل خطوة ، فإن الناس لا يروننى ساخطا مثلك . أننى أتقبل الناس على علاتهم فى هدوء كثير ، وأروض نفسى على التجاوز عما يفعلون ، وأعتقد أن فى برودة طبعى من الفلسفة قدر ما فى مرارة طبعك ، سواء كنت فى البلاط أو فى المدينة »(٣٧).

وفى رأى نابليون أن حجة فيلانت هى الأرجح ، أما جان جاك روسو فرأيه أن فيلانت كذاب ، وهو يحبذ فضيلة السيست الصارمة(٣٨) . وفى النهاية يهجر السيست العالم كما هجره جان جاك ويعتكف فى عزلة معتمة .

ولم تحقق التمثيلية من النجاح إلا قدراً معتدلا . فالحاشية لم تسغ هجو تظرفها ، وجمهور الصالة لم يتحمسوا لرجل كألسيست يحتقر كل شيء صراحة إلا نفسه . ولكن النقاد — الذين لام من جمهور الصالة ولا من الحاشية — صفقوا للمسرحية استحسانا ، وقالوا إنها محاولة جريئة لتأليف مسرحيه الأفكار ، أما النقاد المحدثون فيرونها أكمل عمل كتبه موليير . وبمضى الزمن ، وبعد أن مات جيلها الذى شهرت به ، لقيت قبولا عاماً ، ففيما بين عام ١٦٨٠ و ١٩٥٤ مثلت ١٠٧١ مرة فى الكوميدى فرانسيز — ولم يفقها فى حفلات تمثيلها سوى طرطوف والبخيل .

ولما عجز موليير عن العيش فى سلام مع زوجة شابة بدا لها الاقتصار على زوج واحد ، والجمال ، أمرين متناقضين ، هجرها (أغسطس ١٦٦٧) وذهب ليعيش مع صديقه شابلان فى أوتوى بالطرف الغربى لباريس . وقد استخف به شابلان فى رفق لأنه يأخذ الحب مأخذ الجد إلى هذا الحد ، ولكن موليير كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . وقد اعترف بهذا (إذا صدقنا شاعراً يروى عن آخر) :

« لقد صممت على أن أعيش معها كأنها ليست زوجتى ، ولكن لو علمت ما أكابد لأشفقت على . فلقد بلغ بى الغرام بها مبلغاً يجعله يتغلغل بعطف فى كل اهتماماتها . وحين أتأمل استحالة تغلبى على ما أحس به نحوها ، أقول لنفسى إنها ربما تكابد نفس المشقة فى التغلب على ميلها لأن تكون لعوبا ، وعندها أجد نفسى أميل للشفقة عليها منى للومها . ستقول لى ولا ريب إن الرجل لابد أن يكون شاعراً لكى يحس بهذا ، ولكنى شخصيا أحس أنه ليس هناك سوى نوع واحد من الحب ، وأن أولئك الذين لم يحسوا بهذه الخلجات لم يحبوا حبا صادقا قط . فكل الأشياء فى الدنيا مرتبطة بها فى قلبى . . . وحين أراها يجردنى من كل قدرة على التفكير ضرب من الانفعال ، بل نشوات تحس ولا توصف ، فلا تعود لى عينان

تبصران سوءاتها ، ولا أرى غير كل جميل محبب فيها . أليس هذا منتهى الجنون(٣٩) ؟ »

وقد حاول أن يسلوها باغراق نفسه فى عمله . ففى ١٦٦٧ شغل نفسه بتنظيم حفلات الترفيـــه للملك فى سان — جرمان . وأحيت ملهاته « امفيتريون » (١٣ يناير ١٦٦٨) من جديد غراميات جوبيتر الذى يغوى السكين زوجة أمفيتريون . وحين قال لها جوبيتر « إن مقاسمة المرأة جوبيتر فراشه ليس فيها أى غض من شرفها » فسر كثير من السامعين العبارة بأنها تصفح عن غرام الملك بمدام دمونتسبان ، فإذا كان هذا التفسير صحيحا فهو تملق غاية فى السخاء ، لأن موليير لم يكن مزاجه آنذاك يسمح له بالتعاطف مع من يغوون الزوجات . لقد كان ككل إنسان آخر يداهن الملك بعبارات الزلفى كما فعل فى خاتمة طرطوف . وفى ملهاة أخرى مثلت أمام البلاط فى ١٥ يوليو ، واسمها « جورج داندان » أو الزوج المبلبل » تطالعنا مرة أخرى قصة الزوج المبلبل ، الذى يتهم زوجته بالزنا ولكنه لا يستطيع أثبات التهمة فيأكل قلبه بالشك والغيرة ؛ لقد كان موليير يسكب الملح فى جراحه .

وكان عاما حافلا بالعمل ، فبعد بضعة أشهر لا أكثر (٩ سبتمبر) أخرج واحدة من أشهر تمثيلياته وهى « البخيل » . وقد اتخذت موضوعها وجزءاً من حبكتها من مسرحية بلوتوس « أولولاريا » ولكن بلوتوس كان قد نقل مسرحيته عن « الملهاة الجديدة » عند اليونان . وأغلب الظن أن البخيل وهجوه قديمان قدم المال ، ولكن أحداً لم يتناول هذا الموضوع بحيوية وقوة أكثر من موليير . فترى آرباجون يتعلق بماله تعلقاً يحمله على ترك خيله تتضور جوعاً وتسير بغير حوافر ، وهو يكره العطاء كراهية تجعله لا « يعطيك » نهاراً سعيداً (أى يقرئك التحية) بل « يقرضك نهاراً سعيداً » . وحين يرى شمعتين موقدتين استعداداً للعشاء يطفىء أحداهما .

وهو يرفض أن يمنح ابنته مهراً ، ويثق أن ابنه وابنته سيموتان قبله[٤٠].
والمجهودها ، كما هو في موليير عادة ، يقرب من الكاريكاتور . ولم يسغ الجمهور الصورة ، وبعد أن مثلت المسرحية ثماني مرات سحبت ، ولكن ثناء بوالو عليها أعان على نفخ الحياة فيها ، فعرضت سبعاً وأربعين مرة في سنواتها الأربع الأولى ، ولا يفوقها في عدد عروضها غير طرطوف .

أما مسرحية « البورجوازي مدعي النبل » فكانت أقل جودة وأكثر توفيقاً . وقصتها أنه في ديسمبر ١٦٦٩ قدم إلى فرنسا سفير تركي . واتخذ البلاط كل أبهته ليقع من نفس السفير ، ولكن السفير استجاب في جمود وصلف . وبعد رحيله دعا لويس موليير ولولي إلى تأليف كوميديا تجمع بين الباليه والملهاة وتحاكي الأتراك محاكاة ساخرة . ووسع موليير الخطة لجعلها هجائية تذم العدد المتعاظم من فرنسيي الطبقة الوسطى الذين يجاهدون للبس والحديث كما يلبس ويتحدث الأرستقراطيون بالمولد . ومثلت الملهاة أول مرة أمام الملك والبلاط بشامبور في ١٤ أكتوبر ١٦٧٠ . ولما عرضت بالباليه — رويال في نوفمبر ، عوضت الخسارة المالية التي الحقها بالفرقة عروض « البخيل » . ومثل موليير دور مسيو جوردان ، ومثل لولي دور المفتي . ورغبة في خلع النبالة على مظهره ، يستأجر مسيو جوردان معلما للموسيقى ، وآخر للرقص ، وثالثاً للمبارزة . ورابعاً للفلسفة . ويتعارك هؤلاء ويتضاربون على أهمية فنونهم — فأيها أهم ، تحقيق التناغم ، أم الخطو الموقع ، أم القدرة على القتل المحكم ، أم الحديث بالفرنسية الرشيقة ؟ ونلحظ في مزاعم معلم الموسيقى غمزة خبيثة قصد بها لولي المتفاخر المتملق . ويعرف نصف العالم ذلك المشهد الذي يتعلم فيه جوردان أن اللغة كلها إما نثر وإما شعر :

مسيو جوردان : ماذا ؟ إذا قلت « إيتني بخفي يا نيكول » ، و « ناولني طاقيتي » أيكون هذا نثراً ؟ .

معلم الفلسفة : نعم يا سيدي .

مسيو جوردان : عيناً ، لقد ظللت أربعين سنة أتكلم النثر وأنا لا أدرى . إنني والحق مدين لك جداً بإنبائي بهذا(٤١) .

على أن بعض رجال الحاشية الذين كانوا غير بعيدى العهد بالتخرج من التجارة إلى النبالة أحسوا أنهم المقصودون بهذا الهجاء ، فسخروا بالتمثيلية زاعمين أنها لغو فارغ ، ولكن الملك قال لموليير . « كذا « أنك لم تكتب فى حياتك شيئاً أمتعى كهذا » . يقول جيزو « إن البلاط تملكته نوبة من الأعجاب بمجرد سماعه هذا الثناء(٤٢) » .

وتعاون موليير ولولى ثانيــة ومثلا أمام البلاط (يناير ١٦٧١) « بسيشيه » ، وهى مزيج من الباليه والمأساة ، شارك بيير كورنى وكنو بأكثر أبياتها . وكان لولى يكسب المعركة ضد موليير ، فالملهاة تخلى مكانها للأوبرا ، والحوار للالآت ، وكان لزاماً إنزال الأرباب والربات من السماء أو رفعهم من الجحيم واقتضى الأمر أعادة بناء المسرح فى الباليه ــ رويال لهذه التمثيلية ، وكلف هذا ١٩٨٩ جنيهاً . ولكن الأخراج حقق نجاحاً مالياً .

بيد أن الرومانس لم تكن أقوى جوانب موليير ، وكان أكثر ا طلاقاً ويسراً حين يهزأ بسخافات جيله . وقد خيل إليه أن المرأة المتعلمة شذوذ متعب وعقبة فى طريق الزواج . ولقد سمع هؤلاء النسوة يشذبن الألفاظ ، ويناقشن دقائق النحو ، ويقتبسن من الآداب القديمة ، ويتكلمن فى الفلسفة ، ووقر هذا فى إذن موليير كأنه انحراف جنسى ، أضف إلى ذلك أن رجلين ــ هما الأب كوتان والشاعر ميناج ــ كانا يهاجمان بعنف مسرحيات موليير ، فها هى ذى الفرصه قد لاحت لوخزهما . وعليه فى ١١ مارس ١٦٧٢ قدم مسرحية « النساء العالمات » . ففيلامنت تطرد خادمة لاستعمالها لفظا رفضه المجمع اللغوى ، وابنتها أرماند ترفض الزواج لأنه اتصال مقزز بين الأجساد لا امتزاج بين العقول ؛ ويقرأ تريسوتان شعره الكريه على هاتين

للرأتين المتكلفتين المعجبتين . ويملأ فاديوس الشعر بالألغاز والمعميات ، ويقرأ المزيد من شعره وشعر تريسوتان . ويدافع موليير عن هنرييت ضد هؤلاء جميعاً ، لأنها تستهجن أبيات الشعر (السداسية) وتريد زوجاً يمنحها الأبناء لا الإبجرامات . ترى هل أصبحت أرماند بيجار إحدى المتحذلقات ؟ أم أن موليير كان يعرض عصره ؟

٧ – ستار

إنه لم يجاوز الخمسين الآن ، ولكن حياته المحمومة ، وتدرنه ، وزواجه ، وأحزانه لفقد أحبائه ، استنزفت حيويته . إن مينارر سمه في ريعان شبابه : أنف كبير وشفتان شهوانيتان وحاجبان مرفوعان بشكل مضحك ، ولكن له إلى جانب هذا جبهة متجعدة وعينين حزينتين . ذلك أن انهماكه في دوامة المسرح من بلد إلى بلد ، يوماً بعد يوم ، وتعامله مع الممثلات الأوليات المتوترات الأعصاب ، ومع زوجة منعمة بالحياة ، ومع ملك حساس ، ورؤيته اثنين من أطفاله الثلاثة يموتان — كل هذا لم يكن طريقاً مفروشاً بالرياحين إلى التفاؤل ، بل طريقاً عريضاً لسوء الهضم والموت المبكر . لا عجب إذن أن يصبح موليير « بركانا يلتهم ذاته(٤٣) » ، إنسانا مكتئبا ، حاد الطبع ، نقاداً في غير مجاملة ، ولكنه رغم ذلك كريم النفس عطوف . وقد فهمته فرقته وأخلصت له الود ، موقنة أنه يفني نفسه ليوفر لها القوت ويكفل لها النجاح . وكان أصدقاؤه على استعداد دائم لخوض المعركة دفاعا عنه — لا سيما بوالو ، ولا فونتين ، اللذين كتبا مع موليير ، بمشاركة راسين أحيانا ، « الأصدقاء الأربعة » المشهورة . ولقد وجدوا فيه التعليم الحسن والاطلاع الواسع ، وعرفوه ذكيا ظريفا وإن قل مرحه ؛ لقد كان المهرج الساخر على خشبة المسرح ، ولكنه في حياته الخاصة أشد حزنا من جاك (في مسرحية شكسبير « كما تشاء ») .

وبعد أن انفصل عن زوجته أربع سنوات ونصفاً عاد إليها (١٦٧١) . ومات الطفل الذي أثمره هذا التصالح بعد شهر من ولادته . وكان يعيش فى أوتوى قبل ذلك على اللبن كما أوصاه طبيبه ، فعاد الآن إلى شرب النبيذ على عادته ، وحضر سهرات العشاء المتأخر ارضاء لأرماند . وقرر أن يمثل الدور الأول برغم تفاقم سعاله ، دور أرجان ، فى آخر تمثيلياته « المريض بالوهم » (١٠ فبراير ١٦٧٣) .

وأرجان هذا يتوهم أنه مصاب بالعديد من الأمراض ، وينفق نصف ثروته على الأطباء والعقاقير . ويحتقره أخوه بيرالد :

« أرجان : فما الذي يجب أن نصنعه حين نمرض ؟

بيرالد : لاشيء يا أخى . . . علينا أن نحتفظ بهدوئنا لا أكثر . والطبيعة ذاتها إذا تركناها وشأنها ، كفيلة بأن تخلص نفسها بلطف من الخلل الذي وقعت فيه . إن الذي يفسد كل شيء هو تسكراننا لصنيعها ونفاد صبرنا ، وكل الناس تقريبا يموتون بالدواء لا بالداء(٤٤) » .

ولمزيد من السخرية بمهنة الطب يقال لأرجان إن فى استطاعته هو نفسه أن يصبح طبيبا بإجراء مختصر ، وأن يجتاز بسهولة الامتحان للحصول على الأجازة الطبية . ويلى ذلك الامتحان المزيف الذي تسأل فيه اللجنة أرجان(*) .

وكاد موت موليير أن يكون جزءا من هذه التمثيلية . ففى ١٧ فبراير

(*) يحاول بيرالد فى هذا الفصل الأخير من الملهاة أن يسلى الأسرة ، فيكلف أصحابه الممثلين بفاصل يمثل قبول أرجان طبيبا فى الفيزياء على أنغام الموسيقى والرقص ، ويقترح اشتراك الجميع فى المهزلة ، وأن يمثل أرجان الدور الرئيسى فيها . ويدخل موكب الصيادلة والجراحين والأطباء ، ويجلس أرجان عند قدمى الرئيس الذي يخاطب لجنة الامتحان بخليط لغوى هازل طالبا إليهم أن يوجهوا أسئلتهم لأرجان . فيسألونه عن العقاقير والأمراض وعلاجها ، وهتف كل جواب يبدى الخورس استحسانه وجدارة أرجان بالمهنة ، فيحلفه الرئيس ويجيزه ، ويهتف الخورس بحياته داعيا له بطول العمر. (المترجم)

١٦٧٣ طلبت إليه أرماند وغيرها ، حين رأوا اعياءه ، أن يغلق المسرح أياما حتى يتمالك صحته . فسألهم ، ولكن كيف أصنع هذا ؟ إن هنا خمسين عاملا فقيرا ينقدون أجرهم يوما بيوم ، فماذا هم فاعلون إذا توقفنا عن التمثيل ؟ انى لألوم نفسى على انى أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا مادام فى طاقتى أن أمثل(٤٥) » . وفى الفصل الأخير من التمثيلية ، وبينما كان موليير ، فى دور أرجان (الذى تظاهر بالموت مرتين) يلفظ بكلمة Juro (أحلف) وهو يقسم يمين المهنة ، أخذته نوبة سعال مقترنة بتقلصات . فداراها بضحكة كاذبة وأنهى التمثيلية . وهرعت به زوجته والممثل الشاب ميشيل بارون إلى بيته . وطلب كاهنا ، ولكن أحدا لم يحضر . واشتد سعاله ، وانفجر فيه عرق ، فاختنق بالدم فى حلقه ومات .

وقضى آرلى دشانفالون رئيس أساقفة باريس بأنه يستحيل دفن موليير فى أرض مسيحية مادام لم يتب توبته النهائية ويتلق غفران الكنيسة . أما أرماند ، التى كانت تحبه على الدوام حتى وهى تخدعه ، فذهبت إلى فرساى ، وارتمت عند قدمى الملك ، وقالت فى غير حكمة ، ولكن فى شجاعة وصدق « إذا كان زوجى مجرما ، فان جلالتكم باركتم جرائمه بشخصكم(٤٦) » . وبعث لويس بكلمة إلى رئيس الأساقفة سرا ، ولان آرلى ، وأمر بألا يؤخذ جثمانه إلى كنيسة لإجراء الشعائر المسيحية ، ولكنه سمح بدفنه فى هدوء بعد الغروب فى ركن قصى من جبانة سان — جوزيف فى شارع مونمارتر .

ومازال موليير بإجماع الناس علما من أعظم أعلام الأدب الفرنسى ، لا بكمال تكنيكه المسرحى ولا بأى روعة تميز بها شعره . فأكثر حبكاته مستعارة ، ومعظم نهاياتها مفتعلة وغير معقولة ، وجل شخوصه صفات مجسدة ، والعديد منها كأرباجون مبالغ فيه إلى حد الكاريكاتور ، وكثيرا ما تهبط ملاهيه إلى درك الفارص (الهزلية الصاخبة المهرجة) .

وقد قيل إن الحاشية والجمهور أحبوه أكثر ما أحبوه حين يغرق فى هذا الفارس ، ولم يستطيبوا أهاجيه اللاذعة للمثالب التى يشارك فيها الناس عموما . وأغلب الظن أنه كان مفضلا هذا اللون من الهزلية لولا شعوره بأنه مضطر إلى الحفاظ على قدرة فرقته على الوفاء بديونها .

وكما أسف شيكسبير على اضطراره أن يجعل من نفسه مهرجا للناظرين كتب موليير يقول : « أرى أن من العقوبة الفادحة فى الفنون الحرة أن يعلن الفنان عن نفسه للحمقى وأن نعرض ثمرات أقلامنا للحكم الهمجى الذى يحكم به عليها الأغبياء[٤٧] » . وقد حز فى نفسه أن يطالب على الدوام بإضحاك الناس ، فهذا كما قال أحد شخوصه « مطلب غريب[٤٨] » . وكان يتطلع لكتابة المآسى ، ومع أنه قصر دون هذا الهدف ، فإنه وفق فى أن يضفى على أعظم ملاهيه مغزى وعمقا مأساويين .

إذن فالفلسفة التى تنطوى عليها تمثيلياته ، وفكاهتها وهجوها اللاذع — هذه هى التى تجعل كل قارىء فرنسى تقريبا يقرأ موليير[٤٩] . وهى فى صميمها فلسفة عقلانية ، أبهجت قلوب « فلاسفة » القرن الثامن عشر . « فليس فى موليير أثر لمسيحية الخوارق » و « الدين الذى عرضه لسان حاله كليانت (فى طرطوف) يمكن أن يصدق عليه فولتير[٥٠] » . إنه لم يهاجم قط العقيدة المسيحية ، وقد سلم بفضل الدين فى حياة الكثيرين جداً ، واحترم التقوى الصادقة المخلصة ، ولكنه احتقر الورع السطحى الذى يخفى أنانية أيام ستة وراء نفاق اليوم السابع (يوم الأحد) .

وكانت فلسفته الأخلاقيه وثنية بمعنى أنها أباحت اللذة ولم يكن فيها إحساس بالخطيئة . كان فيها رائحة أبيقور وسنيكا لا القديس بولس أو أوغسطين ، وقد انسجمت مع تحلل الملك أكثر من انسجامها مع زهد البور — رويال . وكان يستنكر الغلو حتى فى الفضيلة . كان يعجب بـ « الرجل الفاضل » ، رجل الدنيا المعقول الذى يسلك باعتدال عاقل

وسط السخافات المتعارضة ، ويوائم فى غير ضجة بين نفسه وبين نقائص البشر .

ولم يبلغ موليير ذاته ذلك المستوى من الاعتدال . فقد أكرهته مهنته مسرحيا هازلا على الهجو ، وعلى المبالغة أحيانا كثيرة . وقد عنف على النساء المتعلمات ، وغلا فى هجومه على الأطباء دون تفريق ، ولعله كان يخلق به أن يبدى احتراما أكثر للحقن الشرجية . ولكن الغلو كائن فى دم الهجو ، وقل أن تبلغ المسرحيات هدفها بدونه ، ولعل موليير يكون أجل وأعظم قدرا لو أنه وجد سبيلا لهجو الشر الأساسى الذى لوث ذلك العهد — ونعنى ذلك الجشع الحربى والاستبداد المدمر الذى ابتلى به لويس الرابع عشر ، ولكن هذا المستبد المنعم هو الذى حماه من أعدائه ويسر له أن يشن الحرب على التعصب . وما أسعده لأنه مات قبل أن يصبح سيده أشد هؤلاء المتعصبين كلهم تدميرا !

إن فرنسا تحب موليير ، وما زالت تمثل مسرحياته ، كما تحب انجلترا شيكسبير وتمثل مسرحياته ، ولا نستطيع كما يريد بعض الغاليين (الفرنسيين) المتحمسين أن نسوى بينه وبين شاعر انجلترة ، فلقد كان جزءا فقط من شيكسبير ، الذى كان جزءاه الآخران راسين ومونتينى . كذلك لا نستطيع كما يفعل الكثيرون أن نضعه على قمة الأدب الفرنسى . لا بل إننا لسنا على يقين من أن بوالو كان على حق حين قال للويس الرابع عشر إن موليير كان أعظم شعراء عهده ، لحين قال بوالو هذا لم يكن راسين قد كتب « فيدر » ولا « آتالى » . ولكن فى موليير ، ليس الكاتب فقط هو الذى ينتمى لتاريخ فرنسا ، بل الإنسان : مدير الفرقة المرهق الوفى ، والزوج المخدوع المصفوح ، والمسرحى الذى يخفى أحزانه بالضحك ، والممثل العليل الذى يواصل حتى الموت حربه على الفقر ، والتعصب ، والخرافة ، والنفاق .

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية فى الأدب الفرنسى

١٦٤٣ – ١٧١٥

١ ـ جو الكلاسيكية

لم يكن أوج الأدب الكلاسيكى الفرنسى مواكباً تماما لعصر لويس الرابع عشر ، بل جاء إبان وزارة مازاران وفى الربيع المشرق لهذا العصر (١٦٦١ — ٦٧) ، قبل أن ينحى مارس (إله الحرب) ربات الفنون إلى المؤخرة . أما أول حافز للتفجر الأدبى فقد انبعث من تشجيع ريشليو للدراما والشعر ، وجاء الثانى من الانتصارات الحربية التى حققها الفرنسيون فى روكروا (١٦٤٣) ولنز (١٦٤٨) ، وانساب الثالث من انتصارات فرنسا الدبلوماسية فى معاهدتى وستفاليا (١٦٤٨) والبرانس (١٦٥٩) ، وأتى الرابع من اختلاط الأدباء بالنبلاء والمثقفات من النساء فى الصالونات ، والحافز الأخير فقط هو الرعاية التى حظى بها الأدب من الملك والحاشية . وكثير من روائع ذلك العهد — كرسائل بسكال (١٦٥٦) وخواطره ، وطرطوف موليير (١٦٦٤) ومسرحية وليمة التمثال الحجرى (١٦٦٥) ومبغض البشر (١٦٦٦) ، وأمثال لاروشفوكو (١٦٦٥) وهجائيات بوالو (١٦٦٧) وأندروماك راسين (١٦٦٧) — هذه كلها كتبت قبل ١٦٦٧ بأقلام رجال نموا وترعرعوا أيام ريشليو ومازاران .

ومع ذلك كان لويس أسخى راع للأدب عرفه التاريخ كله . فما مضت سنتان على تسلمه مقاليد الحكم (١٦٦٢ — ٦٣) — أى قبل هذه الآثار

الأدبية كلها باستثناء اثنين منها — حتى طلب إلى كولبير وغيره أن يكلفوا أشخاصاً أكفاء بوضع قائمة بأسماء المؤلفين والأدباء والعلماء من أي بلد ممن يستحقون أن تقدم إليهم يد المعونة . ومن هذه القوائم تلقى خمسة وأربعون فرنسياً وخمسة عشر أجنبياً معاشات ملكية(١) . وأدهش الأديبين الهولنديين هاينسيوس وفوسيوس ، والفزيائي الهولندي كرستيان هويجنس ، والرياضي الفلورنسي فيفياني ، وكثيراً غيرهم من الأجانب ، أن يتلقوا رسائل من كولبير تنبئهم بقرار الملك الفرنسي أن يمنحهم معاشات إذا وافقت حكوماتهم . وبلغ بعض هذه المعاشات ثلاثة آلاف من الجنيهات في العام . فعاش بوالو عميد الشعر غير الرسمي ، على معاشاته كأنه إقطاعي كبير ، وترك لورثته ٢٨٦٫٠٠٠ فرنك نقداً ، وتلقى راسين ١٤٥٫٠٠٠ فرنك طوال عشر سنين بوصفه المؤرخ الملكي (٢) ولعل المعاشات الدولية كان بعض الدافع إليها الرغبة في كسب أرباب الأقلام خارج فرنسا ، أما الهبات في الداخل فهدفها إخضاع الفكر ، كما أخضعت الصناعة والفن للتنسيق والإشراف الحكوميين . وتحقق هذا الهدف ، فأخضع النشر كله لرقابة الدولة ، وأذعن الذهن الفرنسي للإشراف الملكي على تعبيره المطبوع ، باستثناء مقاومة متفرقة ضئيلة . يضاف إلى هذا أن الملك اقتنع بأن هذه الأقلام المأجورة ستتغنى بمديحه نثراً وشعراً وتخلف للتاريخ صورة مشرقة له . وقد بذلوا في هذا قصاراهم .

ولم يكتف لويس بصرف المعاشات للأدباء ، بل إنه حماهم واحترمهم ، ورفع مقامهم الاجتماعي ، ورحب بهم في القصر . قال مرة لبوالو « تذكر أنني سأفرد لك دائماً نصف ساعة من وقتي(٣) » . وربما كان ذوقه الأدبي مسرف الانحياز إلى الخصائص الكلاسيكية ، خصائص النظام ، والوقار ، وجمال الشكل ؛ ولكن هذه الفضائل لم تكن في رأيه معينة على توطيد الحكم فحسب بل على إضفاء النبل على فرنسا . وكان من بعض الوجوه

متقدما على شعبه وبلاطه فى أحكامه الأدبية . وقد رأيناه يحمى موليير من غدر النبلاء ورجال الدين ، وسنراه يشجع أشد شطحات راسين .

وعملا باقتراح آخر من كولبير ، وترسماً لخطى ريشليو مرة أخرى ، أعلن لويس أنه الراعى الشخصى للأكاديمية الفرنسية ، ورفعها إلى مرتبة المؤسسات الحكومية الكبرى ، ووفر لها الأموال الكافية ، وهيأ لها مكاناً فى اللوفر . وأصبح كولبير نفسه عضوا فيها . ولما أمر عضو ، كان إقطاعياً كبيراً فى الوقت ذاته ، بأن يوضع له مقعـــد وثير فى الأكاديمية ، أرسل كولبير فى طلب تسعة وثلاثين مقعداً على شاكلته حفاظاً على المساواة فى الكرامة قبل الفوارق الطبقية ، وهكذا أصبحت « المقاعد الأربعون » مرادفاً للأكاديمية الفرنسية ، وفى ١٦٦٣ نظمت أكاديمية فرعية للنقوش والرسائل لتسجل أحداث العهد .

واستوثق كولبير من أن « الخالدين الأربعين » يكسبون رواتبهم بالانتظام فى الحضور وبالجهد فى تصنيف القاموس . وكان مشروع هـذا القاموس الذى بدأ فى ١٦٣٨ يتقدم فى بطء شديد ، حتى استطاع بواروبير أن يعبر أبجدياً عن أمنيته فى طول العمر ، « لقد أنفقوا ستة شهور وهم مشغولون بحرف F ، فليت قدرى يمهلنى حتى حرف G »(٤) .

كانت خطة القاموس معقدة شديدة التفصيل ، فقد رأت تتبع كل كلمة مسموح بها طوال تاريخ استعمالاتها وهجاءاتها ، ويشفع هذا بالكثير من الشواهد التوضيحية ، وهكذا انقضت ست وخمسون سنة بين بدء المشروع ونشر القاموس لأول مرة (١٦٩٤) . ولقد أسرف فى فحص لغة الشعب ، والمهن ، والفنون ، وشذب رابليه ، وآميو ، ومونتيني ، ورفض مئات التعبيرات التى تعين على الحديث الحى . فذات المنطق ، والدقة ، والوضوح الذى جعل من الهندسة المثل الأعلى لعلم القرن السابع عشر وفلسفته ، وذات السلطان والانضباط اللذان هيمن بهما كولبير على الاقتصاد ولبرون على

الفنون ، وذات الوقار والتأنق اللذان سيطرا على بلاط الملك ، وذات التشبث الكلاسيكي بالقواعد الذى شكل أسلوب بوسويه ، وفينيلون ، ولاروشفوكو ، وراسين ، وبوالو — كل أولئك أملى قاموس الأكاديمية .

ولقد نقح وأعيد نشره دورياً ، وكافح للاحتفاظ بالنظام فى جسم نام حى ، وهاجمت قلعته الكلاسيكية المرة بعد المرة ، وكثيراً ما اقتحمتها ، أخطاء الشعب ، ومصطلحات العلوم ، ورطانة الحرفيين ، وعامية الشوارع ؛ والقاموس ، شأنه شأن التاريخ والحكومة ، مزاج من القوى بين ثقل الكثرة وقوة القلة . وقد خسرت اللغة شيئاً من حيث الحيوية ، وكسبت الكثير من حيث النقاء ، والدقة ، والأناقة ، والمكانة . أنها لم تنجب شيكسبيراً هائجاً مائجاً ، ولكنها أصبحت أعظم لغات أوربا احتراما ، وغدت أداة الدبلوماسية ، ولسان الارستقراطيات . وظلت أوربا قرناً وأكثر تهفو إلى أن تكون فرنسية .

٢ - تذييل لكورني : ١٦٤٣ - ٨٤

بلغت اللغة أوجها فى السهولة المرنة التى اتسم بها حوار موليير ، وفى بلاغة كورني الطنانة ، وفى تأنق راسين الشجى .

أما كورني فكان يبدو فى ربيع أدبه — وهو فى السابعة والثلاثين — حين اعتلى لويس العرش : وقد بدأ العهد بملهاة « الكذاب » التى رفعت نبرة الملهاة الفرنسية كما رفعت « السيد » نبرة المأساة . ثم راح يدفع إلى المسرح بالمآسى كل عام تقريبا بعد ذلك ، رودوجون (١٦٤٤) ، وتيودور (١٦٤٥) ، وهيراقليوس (١٦٤٦) ودن سانشو الأراجونى (١٦٤٩) وأندروميد (١٦٥٠) ونيكوميد (١٦٥١) وبرتاريت (١٦٥٢) . ولقى بعض هذه التمثيليات استقبالا حسنا ، ولكن حين تعاقبت كل منها سريعا خلف سابقتها ، وضح أن كورني يتعجل الإنتاج ، وأن عصارة

عبقريته آخذة فى النضوب . وضاع ولعه بتصوير النبالة وسط بحورمن الجدل، وهزمت بلاغته ذاتها باستمرارها دون توقف . قال موليير « إن لصديق كورنيى رفيقاً يلهمه أروع شعر فى الدنيا . ولكن يحدث أن يتركه رفيقه ليرعى شئونه ، وعندها يتمثر شر تعثر(٥) . » وقد لقيت « بارتاريت » من سوء الاستقبال ما حمل كورنيى على أن يعتزل المسرح ست سنوات (١٦٥٣ — ٥٩) ، وتناول نقاده فى سلسلة من « الفحوص » ، وفى ثلاثة أحاديث عن الشعر المسرحي . وقد دلت هذه الأحاديث على صعود موهبته النقدية بهبوط ملكته الشعرية ، وأصبحت ينبوعا للنقد الأدبى الحديث ، واتخذها درايدن نماذج حين دافع عن شعره المتوسط الجودة فى نثر رائع .

وفى ١٦٥٩ ردت كورنيى إلى خشبة المسرح لفتة تلقاها من فوكيه . وظفرت مسرحيته « أوديب » ببعض الاستحسان عقب ثناء الملك الشاب عليها ، ولكن المسرحيات التى تلتها — سرتوريوس(١٦٦٢) ، وسوفونيسب (١٦٦٣) ، وأوتون (١٦٦٤) ، وآجيسيلاس (١٦٦٦) وأتيلا (١٦٦٧) — هذه كلها كانت قاصرة قصورا لم يستطع فونتنبل إزاءه أن يصدق أن كاتبها هو كورنيى ؛ وقال بوالو فى بيت ساخر :

« بعد أجيسيلاس ، وا أسفاه ! ولكن بعد أتيلا ، قف ! » وزادت مدام هنرييتا الطين بلة ، مع أنها كانت مادة آية العطف والرقة ، حين دعت كلا من كورنيى وراسين ، بعلم من كل ، إلى أن يكتب تمثيلية فى ذات الموضوع — وهو بيرنيس ، الأميرة اليهودية التى وقع فى حبها تيطس الإمبراطور القادم . ومثلت بيرنيس التى ألفها راسين فى الأوتيل دبورجون فى ٢١ نوفمبر ١٦٧٠ بعد خمسة أشهر تقريبا من موت هنرييتا ، ولقيت نجاحا كاملا . أما مسرحية كورنيى « تيطس وبرينيس » فقدمثلتها فرقة موليير بعد ذلك بأسبوع ، ولم تلق غير استقبال فاتر : وحطم فشلها روح كورنيى . وجرب حظه ثانية بمسرحيتى « بولشيرى » (١٦٧٢) وسورينا (١٦٧٤) ،

ولكن الفشل كان نصيبهما أيضا . وأنفق كورني بعد ذلك السنين العشر التي بقيت له من أجله في تقوى هادئة مكتئبة .

وكان متلافا ، مات فقيرا برغم ما أجرى عليه لويس الرابع عشر من معاش وما نفحه به من هبات ، وقد قطع معاشه دون قصد أربع سنوات ، فلجأ كورني إلى كولبير ، فأمر برده إليه ، ولكنه انقطع ثانية بعد موت كولبير . فلما نمى الأمر إلى بوالو أعلم به لويس الرابع عشر ، وعرض أن ينزل عن معاشه لكورني . ولكن الملك بادر بإرسال مائتي جنيه للشاعر العجوز ، الذي مات بعدها بقليل (١٦٨٤) بالغا الثامنة والسبعين وأبنه في الأكاديمية الفرنسية مزاحمه الذي كان قد خلفه ، ورفع المسرحية والشعر الفرنسيين إلى ذروة تاريخهما ، والتأبين مازال مذكورا لما حوى من سماحة وبلاغة .

٣ — راسين : ١٦٣٩ - ٩٩

ولد مثل موليير في أسرة متوسطة . وكان أبوه مراقبا لاحتكار الدولة للملح في لافيرتي — ميلون ، على نحو خمسين ميلا شمال شرق باريس ، وكانت أمه ابنة محام في فيليه — كوتريه . وقد ماتت عام ١٦٤١ وجان لم يبلغ الثانية بعد ، وبعد سنة مات أبوه ، فكفل الصبي جده لأبيه . وكان في الأسرة نزوع قوي إلى الجانسنية ، فقد التحقت جدة وعمة لراسين بأخوات البور — رويال ، وأرسل جان نفسه حين ناهز السادسة عشرة إلى « المدرسة الصغيرة » التي يديرها « المتوحدون » وقد تلقى عنهم تعليما مركزاً في الدين واليونانية — وهما مؤثران قدر لهما أن يسيطرا الواحد بعد الآخر على حياته . واستهوته تمثيليات سوفوكليس ويوريبيديس فترجم بعضها بنفسه . ثم تعلم شيئا من الفلسفة ومزيدا من الثقافة الكلاسيكية في كلية آركور بباريس ، واكتشف المفاتن الخفية للأنوثة الشابة ، الجديد منها

والمستعمل . وعاش عامين على شاطىء الجزائز أوجوستان مع ابن عمه نيكولا فيتار ، الذى كان يتردد بين البور — رويال والمسرح . واستمع راسين إلى عدة تمثيليات ، وكتب تمثيلية ، وعرضها على موليير . ولم تكن من الجودة بحيث تستحق الأخراج ، ولكن موليير نفحه بمائة جنيه ذهبى ، وشجعه على أن يعيد الكرة . واستقر رأى راسين على اتخاذ الأدب حرفة له .

وهال هذا الجنون أقرباءه ، وراعهم ما نمى إليهم من أنباء غرامياته ، فأرسلوه إلى أوزيس بجنوبى فرنسا (١٦٥٩) مساعداً لعم له كان كاهنا لكتدرائية ، فوعده بوظيفة كنسية ذات وقف إن هو درس اللاهوت ورسم قسا . أما الشاعر الشاب ، الذى ما زال باطنه يضطرم بنار باريس ، فقد ظل عاماً يسدل على هذه النار عباءة سوداء ، وقرأ القديس توما الأكوينى — وقليلا من أريوستو ويوريبيديس بجانبه . وكتب الآن إلى لافونتين يقول :

« كل النساء رائعات ... لحم غض طرى ، ولكن بما أن أول شىء قيل لى هو أن آخذ حذرى ، فلست أريد أن أقول المزيد عنهن . أضف إلى ذلك أنه سيكون امتهانا لبيت كاهن ذى وقف أعيش فيه أن أخوض فى حديث طويل عن هذا الموضوع ، « بيتى بيت الصلاة يدعى » ... لقد قيل لى « كن أعمى » فإذا لم أستطع أن أكون ذلك كلية ، فإنى أستطيع على الأقل أن أكون أبكم ... لأن على المرء أن يكون راهباً مع الرهبان ، كما كنت ذئباً معك ومع غيرك من ذئاب قطيعك[٦] » .

ولقى الكاهن شدائد وأصبحت الوظيفة الكهنوتية الموعوده أملا بعيداً وتبين راسين أنه لا يملك موهبة القسوسية . فبدل ثوبه ، وطوى كتاب « خلاصة اللاهوت » وعاد إلى باريس (١٦٦٣) .

فلما بلغها نشر نشيداً أتاه بمائة جنيه من جيب الملك . واقترح عليه موليير موضوعاً حوله راسين إلى تمثيلته الثانية « طيبة » (التيبابيد) . وأخرجها

موليير فى ٢٠ يونيو ١٦٦٤ ، ولكنه اضطر لسحبها بعد أربعة عروض . على أنها أحدثت من الضجة ما كفى لسماعها فى البور — رويال — دوشان ، وأرسلت إليه عمته من هناك رسالة تستحق أن نوردها باعتبارها جزءاً من دراما تعدل فى بلاغتها وتأثيرها فى النفس أى شىء كتبه راسين :

« حين نمى إلى أنك تنوى الحضور إلينا طلبت إلى أمنا الإذن لى برؤيتك . . . ولكننى سمعت مؤخراً خبراً أثار فى أشجاننا عميقة . وإنى أكتب إليك فى مرارة قلبى ، وأذرف الدمع الذى أرجوان أسكبه غزيراً أمام الله لأنال منه خلاصه الذى أتوق إليه أشد مما أتوق لأى شىء آخر فى العالم . فقد علمت بالأسف أنك تخالط أكثر من أى وقت مضى معشراً اسمهم يحق رجس عند كل من له أى نصيب من تقوى ، لأنهم محرومون من دخول الكنيسة أو تناول الأسرار المقدسة . . فانظر الآن يا ابن أخى إلى أى حال صرت ، لأنك لابد عليم بما أشعر به نحوك من حنـــان ، وبأنه لم يكن لى من سؤل إلا أن تتبع الله فى وظيفة شريفة . لذلك أتوسل إليك يا ابن أخى العزيز أن ترحم نفسك ، وتفحص قلبك ، وتتأمل بجد أى هوة ترديت فيها . أنى لأرجو ألا يكون صحيحا ما أنبئت به ، ولكن إذا كان سوء طالعك قد بلغ مبلغا يحملك على مواصلة تجارة تشينك أمام الله والناس ، فعليك ألا تفكر فى المجىء لرؤيتنا ، لأنك تفهم جيداً أنى لن أستطيع فى هذه الحالة أن أكلمك لعلمى بأنك فى حالة مؤسفة جداً ، مناقضة كل المناقضة للمسيحية . ولن أكف فى الوقت نفسه عن التضرع لله ليرحمك ، فيرحمنى برحمته إياك ، لأن خلاصك عزيز على جداً(٧) » .

فهاهنا عالم شديد الاختلاف عن ذلك الذى تسجله صفحاتنا عادة — عالم من الإيمان العميق بالعقيدة المسيحية ، والولاء المحب لدستورها الأخلاقى . ونحن لا نملك غير التعاطف مع امرأة استطاعت أن تكتب بمثل هذا الأخلاص فى العاطفة ، ولم تخل من العذر لرأيها فى المسرحية الفرنسية كما

كانت فى شبابها . ولم تبلغ عبارة نيكول العلنية التالية هذا المبلغ من الرقة والحنو ، وكان قد علم راسين فى البور — رويال :

« كل الناس يعرفون أن هذا السيد قد كتب .. تمثيليات المسرح ... وهذه المهنة فى نظر ذوى العقول الراجحة ليست فى ذاتها مهنة شريفة جداً ، ولكن إذا نظر إليها فى ضوء الدين المسيحى وتعليم المسيح كانت فى الحق مهنة رهيبة . فالروائيون تجار سموم يقتلون نفوس الناس لا أجسادهم(٨) » .

واجاب كل من كورنى وموليير وراسين على هذا الاتهام على حدة ، وكان فى جواب راسين من العنف الغاضب ما جعله يندم عليه اشد الندم فى سنوات لاحقة .

وتلا خصامه مع البور — رويال خصام مع موليير بعد قليل . ففى ديسمبر ١٦٦٥ قدمت فرقة موليير تمثيليه راسين الثالثة « الإسكندر » وكان موليير كريما كعادته ، فهو عليم بأن راسين لم يمحب به ممثلا تراجيديا ، وان المؤلف الشاب يهيم بأجمل ممثلاته وإن لم تكن اكفأهن ، لذلك اخرج نفسه والمرأتين بيجار من شخصيات المسرحية ، واعطى الدور النسائى الأول لتريز دبارك ، ولم يضن بمال على الأخراج . وقد لقيت استقبالا حسنا ، ولكن راسين لم يرض عن التمثيل . فرتب حفلة خاصة مثلت الفرقة الملكية فيها المسرحية ، وحمله سروره بهذا التمثيل على سحبها من موليير واعطائها لهذه الفرقة المنافسة . وأقنع الآنسة دبارك التى أصبحت عشيقته بأن تترك فرقة موليير وتنضم إلى الفرقة الأقدم وعرضت المسرحية فى مكانها الجديد بالأوتيل دبورجون ثلاثين مرة فى أكثر قليلا من شهرين . ولم تكن من روائع راسين ، ولكنها وطدت مكانته خلفا لكورنى ، وأكسبته صداقة الناقد بوالو المرشدة . فحين قال له راسين مفاخراً «انى أنظم شعرى فى يسر مدهش » أجابه بوالو « أريد أن أعلمك كيف تنظمه فى عسر(٩) » . ومنذ ذلك الحين علم الناقد العظيم الشاعر قواعد الفن الكلاسيكى .

ولا علم لنا بعدى المصر الذى نظم به راسين « أندروماك » ، على أية حال بلغ فيها أوج قوته المسرحية وأسلوبه الشعرى . وهو يذكر فى إهدائه المسرحية إلى مدام هنريتا أنه قرأها عليها ، وأنها بكت . ومع ذلك فهى مسرحية رعب لا مسرحية عاطفة، وفيها كل الكارثة المحتومة التى نتوقعها فى إسخيلوس أو سوفوكليس . والحبكة شبكة معقدة من العلاقات الغرامية . فأوريست يحب هرميون ، التى تحب بيروس ، الذى يحب أندروماك ، التى تحب هكتور ، الذى مات . وقد منح بيروس بن أخيل ثلاث جوائز لما أبلى فى انتصار اليونان على طروادة : منح أبيروس مملكة له ، وأندروماك (أرملة هكتور) أسيرة له ، وهرميون (ابنة منيلاوس وهيلانه) زوجة له . أما أندروماك فلا تزال شابة وجميلة ، وإن لم تكف عن البكاء ، وهى لا تحيا إلا لتذكر زوجها النبيل ، وتخاف على طفلهما أستيانا كس ، الذى ينقذه راسين — بانحراف مسرحى عن القاعدة — من الموت الذى كان نصيبه فى يوريبيديس ليستعمله هنا أداة فى يد القدر . ويفد أوريست — بن كليتمنسترا وقاتلها — على إبيروس مبعوثا من اليونان ليطلب إلى بيروس تسليم استيانا كس وموته باعتباره المنتقم المحتمل لطروادة فى المستقبل . ويرفض بيروس الاقتراح فى فقرة تمتنع موسيقاها على الترجمة . يقول ما معناه :

« إنهم يخشون أن تولد طروادة بهكتور من جديد ، وأن ابنه قد ينتزع منى الحياة التى حفظتها عليه . سيدى ، إن الأفراط فى التدبر يجر أفراطا فى الحذر . إننى لا أستطيع أن أبصر المكاره من هذا البعد الكبير . وأنا أفكر فيما كانت عليه هذه المدينة (طروادة) فيما مضى ، جبارة فى حصونها ، شديدة الخصوبة فى أبطالها ، سيدة على آسيا ، ثم أتأمل فى النهاية ما صارت إليه وما انتهى إليه حظها — فلا أرى غير أبراج غطاها الرماد ، ونهر صبغت مياهه الدماء ، وحقول هجرت ، وطفل مقيد بالأغلال ، ولست أظن أن طروادة تقوى على الثأر وهى على هذه الحال . آه ، لو كان ابن

هكتور قدر عليه الموت ، فلم أبقينا عليه عاما كاملا ؟ ألم نكن قادرين على تقديمه قربانا على صدر بريام ؟ كان يجب أن يسحق تحت مئات القتلى فى طروادة ، يومها كان كل شىء مباحا ، وعبثا كانت تحتج الشيخوخة والطفولة بضعفهما فى الدفاع عن نفسيهما ، فالنصر والقدرة - وهما أشد منا قسوة ، حرضانا على القتل وأفقدانا التمييز فى ضرباتنا . إن غضبى على المغلوبين جاوز حد الصرامة ، ولكن أيجب أن تبقى قسوتى بعد غضبى ؟ أينبغى أن أغتسل متلبثاً فى دم طفل برغم ما يتملكنى من شفقة عليه ؟ لا ياسيدى ، فليبحث اليونان عن فريسة أخــــرى ، وليلاحقوا ما بقى من طروادة فى غير هذا المكان . لقد بلغت نهاية الشوط فى عدائى . ان ابيروس ستنقذ ما أبقت عليه طروادة »(١٠) .

هنا مأخذ واحد ، ذلك أن بيروس ، وربما راسين ، لا يدركان مبلغ ماتدين به شفقة الفاتح لغرامه بأم الطفل — إلى حد عرضه الزواج منها (مع أنه كان يستطيع أن يتخذها جارية له) ، واتخاذه أستياناكس ولدا ووريثا له . ولكنها ترفضه ، فهى لا تستطيع أن تنسى هكتور ، الذى قتله أبو بيروس . وهو يهدد بأن يسلم الطفل لليونان ، فيروعها تهديده ، وترضى بالزواج منه ، ولكن هرميون — وهى فى تصور راسين لها تضارع الليدى مكبث قوة — ، تشتعل غضبا لأنها نبذت ، فهى تعتزم قتل بيروس رغم أنها لا تزال تحبه ، وتقبل ما يعرضه أوريست من حب وولاء ، شريطة أن يقتل بيروس . فيوافق كارها . وفى كل خطوة وكل شخص من شخوص هذه المسرحية صراع فى الدوافع يرقى إلى أدق العقد النفسية المعروفة فى الأدب . ويقتحم الجند اليونان الهيكل ويقتلون بيروس عند المذبح الذى يتبادل فيه عهود الزواج مع أندروماك . وتحتقر هرميون أوريست ، وتجرى إلى المذبح ، وتغمد مدية فى جسد بيروس الميت ، ثم تطعن نفسها وتموت . هذه أعظم مسرحيات راسين ، وهى خليقة بأن تثبت للمقارنة مع شيكسبير

أو يوريبيديس : حبكة متينة البناء ، وشخوص كشف عنها فى عمق ، ومشاعر مدروسة فى كل تعقيدها وحدتها(*) ، وشعر فيه من الروعة والتناغم مالم تسمعه فرنسا منذ رونسار .

واعترف الناس بأندروماك للتو رائعة من روائع الأدب ، فوطدت مقام راسين خليفة لكورني وربما متفوقا عليه . ودخل الآن أسعد عقد فى عمره ، متنقلا من نصر إلى نصر ، بل متحديا موليير بملهاة من قلمه . والملهاة ، واسمها « المتخاصمون » ، وهى تقليد ساخر (برلسك) للمحامين الجشعين ، وشهود الزور ، والقضاة الفاسدين — هذه الملهاة كانت صدى لتجربة راسين مع القانون . ذلك أنه التمس دهنا على دخل دير وحصل عليه ؛ ولكن راهبا نازعه دعواه ، وتلا ذلك دعـــوى قضائية امتد بها الأجل حتى ضاق بها راسين ذرعا فتخلى عنها وثأر لنفسه بكتابة المسرحية . ولم تسر النظارة فى أول عرض لها ، ولكن حين مثلت فى البلاط ضحك لويس الرابع عشر من قلبه على نكتها ضحكا جعل الجمهور يغير رأيه ، وأدت هذه الملهاة المتوسطة الجودة دورها فى ملء جيب راسين .

على أن نغمة صغيرة قطعت عليه هناءه . ذلك أن خليلته دبارك ماتت فى ظروف غامضة — سنفصلها فى موضع لاحق — فى ١١ ديسمبر سنة ١٦٦٨ . وبعد أن توقف فترة مناسبة اتخذ ممثلة أخرى تدعى مارى شانمسليه . وكان لها زوج يقظ وصوت ساحر ، وتحاشى راسين الأول واستسلم للآخر . واتصل هذا الغرام من برينيس حتى فيدر ، وبعد ذلك انتزعها الكونت دكليرمون — تونير من جذورها (déracinée أى من راسين) كما قال أحد الظرفاء .

ومسرحية راسين « بريتانيكوس » (١٦٦٩) فى رأيه أكثر أعماله اتقانا ، وكثيرا ماتفضل على اندروماك ، شأنها شأن « فيدر » و « اتالى » .

(*) انفجر عرق فى مونفلورى وهو يمثلها ومات بعد قليل .

على أن القارىء المصرى لن يلتذها فى أغلب الظن مهما كان غارقا فى تاسيتوس فغيها أجربين السليطة ، وبريتانيكوس الشكاء وبوروس المتخبط ، ونارسيس القذر ، ونيرون الممتلىء شراً — فما من شخص هنا يظهر لنا تعقداً أو تطورا ، أو يبدى لنا أثرا من نبل خليق بأن يخفف فى موضع ما من أى مأساة جديرة بقلم شاعر .

وكما أن بريتانيكوس فتشت عن قصتها فى « قاعة الفظائع » التى ذكرها تاسيتوس ، فكذلك أخذت برينيس (١٦٧٠) قصة غرام امبراطور عن سطر موجز لسويتون يقول فيه « فأرسل لتوه كارها برينيس الكارهة من المدينة(١٢) » وتفصيل المسرحية أن تيطس الذى كان يحاصر أورشليم (٧٠ م) كان قد أغرم بالأميرة اليهودية . ومع أنها تزوجت من قبل ثلاث مرات ، إلا أنها تتبعه إلى روما خليلة له ، ولكنه حين يرث العرش يدرك أن الإمبراطورية لن تسمح بملكة أجنبية ، فيصرفها بعبارات ملكية متدفقة تتميز بالإدراك السليم . وقد حفلت المسرحية بالعاطفة الحارة وحظيت برضاء الجمهور والملك ، الذى لا بد قد استشف بسرور بلاطه وانتصاراته فى وصف برينيس لعظمة الإمبراطور الشاب :

« أرأيت بهاء هذه الليلة ؟ الا تمتلىء عيناك بعظمتها وأبهتها ؟ هذه المشاعل ، وهذا الحطب ، وهذا الليل ذو اللهب المقدس ، وهاتيك النسور ، وتلك الشارات ، وهذا الجمع من الناس ، وهذا الجيش ، وذلك الحشد من الملوك ، هؤلاء القناصل ، وهذا السناتو — أولئك الذين قبسوا نورهم الساطع من حبيبى ، وهذا الأرجوان والذهب الذى يزداد تألقا بمجده ، وهذا الغار الذى مازال يقوم شاهدا على انتصاره ، وهذه العيون التى تراها قادمة من كل فج لتلتقى فيه وحده نظراتها الملهوفة بهذه الطلعة الجليلة ، وهذه الحضرة الحلوة . وحق السماء ! بأى اجلال وبأى رضى تؤكد له كل القلوب سرا ثقتها به ! تكلم : أيستطيع إنسان أن يراه دون أن يخطر له

كما يخطر لى ، أنه لو كان القدر قضى بأن يولد مغموراً لتبين فيه العالم سيده بمجرد النظر إليه[١٣] » .

أمن العجب إذن أن نرى راسين ، وهو على هذا الحذق فى الزلفى ، ينال الحظوة السريعة عند الملك ؟

ونمر فى احترام ببعض مسرحياته الأقل شأناً ، وكلها ما يزال يحتل خشبة المسرح الفرنسى : بايزيد (١٦٧٢) ، ومتردات (١٦٧٣) التى فضلها لويس على كل مسرحياته ، وإفجينى (١٦٧٤) ، التى وضعها فولتير فى صف واحد مع أتالى باعتبارها من أروع ما كتب من الشعر[١٤] . وقد عرضت أفجينى أول مرة فى حدائق فرساى على ضوء الشمعدانات البلورية المعلقة فى أشجار البرتقال والرمان ، وعزف العازفون على الكمان وانعطفت قلوب نصف النخبة المتفرجة ، وتقدم راسين ليشكر النظارة على أغلى تصفيق لقيه فى حياته . وحين أخرجت فى باريس امتد عرضها أربعين مرة فى شهور ثلاثة . وكان قد انتخب أثناء ذلك عضواً فى الأكاديمية الفرنسية (١٦٧٣) . وبدا أن سعادته قد اكتملت .

على أن السعادة لم تكتب إلى الآن للشعراء ، إلا أن يكون الجمال فرحة لا تنتهى ، والثناء لا يقطعه صوت ناشز . قال راسين لابنه « لقد طالما أبهجنى جداً ذلك الاستحسان الذى قوبلت به ، ولكن أقل لوم ناقد . . . كان يسبب لى دائماً من الضيق قدرا أكبر من كل السرور الذى يدخله على المديح[١٥] » . فهو لم يكن شديد الحساسية فحسب ، كما لم يكن بد من أن يكون ، بل ضيق الخلق ، يرد على كل كلمة نابية . وفى ذروة نجاحه وجد نصف باريس تنتقده ، لا بل تعمل على إسقاطه . كان كورنى قد عمر فوق ما ينبغى ، ولكن مريديه تذكروا ما اتسمت به مآسيه الأولى من نبرة بطولية وموضوعات ملحمية ، وما شاع فى بلاغته من نبل ، وذلك المستوى السامى الذى رفع إليه دواعى الشرف والدولة ، فوق أهواء القلب . واتهموا راسين بتلويث المأساه بعواطف نصف مجنونة تنفعل بها مخلوقات خسيسة ،

وبادخال مغازلات حب القصور إلى المسرح ، وإغراقة بدموع بطلاته ، فصمموا على إسقاطه .

فلما عرفت أنه يكتب «فيدر» أقنع فريق من خصومه نيكولا برادون بأن يكتب مسرحية منافسة فى الموضوع نفسه . وكان للمسرحيتين نفس العنوان فى الأصل — فيدر وهيبوليت — وانبثقتا من أسطورة رواها يوريبديس من قبل بما عهد فيه من قصد كلاسيكى فى العاطفة. ففيدر ، زوجة تيسيوس ، تولع ولعاً شديداً بهيبوليت بن ثيسيوس من زوجة سابقة ، ولكنها تجده بارد العاطفة نحو النساء فتشنق نفسها بعد أن تترك خطاباً اتهمته فيه بمحاولة الاعتداء على عفافها انتقاماً منه ، وينفى ثيسيوس ابنه البرىء ، الذى لم يلبث أن قتل وهو يسوق الخيل على شواطىء تروزين . ولكن راسين غير ترتيب الأحداث ، فجعل فيدر تتجرع السم بعد سماعها بموت هيبوليت . ومثلت مسرحية راسين فى الأوتيل دبورجون فى أول يناير سنة ١٦٧٧ ، ومثلت مسرحية برادون بعد يومين على مسرح جينيجو . ولقيت التمثيليتان نجاحاً متكافئاً إلى حين ، ولكن تمثيلية برادون طواها النسيان ، فى حين تعتبر تمثيلية راسين عادة رائعته الكبرى ، ودور فيدر تصبو إلى تمثيله كل الممثلات الفرنسيات ، كما يستهوى دور هاملت الممثلين التراجيديين فى المسرح الانجليزى* . ولقد بارى راسين الرومانسيين مع أنه المثل المحتذى فى الأسلوب الكلاسيكى ، فى عاطفية غرام فيدر ، وجعل هبوليت يتحرق شوقاً للأميرة أريسيا (وهذا مناقض للأسطورة) . وتعلم فيدر بنبأ هذا الغرام ، ويعطينا راسين فى تفصيل منفعل دراسة للمرأة إذا ازدريت . وهو يخفف من هذه التحليقات الرومانسية بوصف قوى لخيل هيبوليت المذعورة وهى تجره حتى يلقى حتفه .

وفى المقدمة التى يصدر بها راسين تمثيليته فيدر (إذ بدأ يشتد فيه

(*) عند آدم سميث أن فيدر « ربما كانت أروع مأساة فى أى لغة » (١٦)) .

الحافز الدينى كلما ضعف الحافز الجنسى) يلوح بغصن الزيتون للبور — رويال فيول :

« لست أجروء على أن أؤكد لنفسى أن هذه ... خير مآسى ... ولكنى وأثق أنى لم أكتب مأساة عرضت فيها الفضيلة فى ضوء أفضل . فأتفه الذنوب تعاقب هنا عقاباً صارماً ، ومجرد التفكير فى الجريمة ينظر إليه هنا نظرة الاستهجان التى ينظر بها إلى الجريمة ذاتها ، وعثرات الحب ينظر إليها هنا كأنها عثرات حقيقية ، والعواطف المشبوبة لا تعرض على الأنظار إلا لترى الخلل التى هى السبب فيه ، والرذيلة مصورة فى المسرحية كلها بألوان تتيح لنا أن نراها ونكره شكلها الشائه . وتلك هى الغاية الصحيحة التى ينبغى أن يستهدفها كل من يعمل لجمهور الشعب . ولعل هذه أن تكون وسيلة المصالحة بين الدراما المأساوية ، وكثيرين من الأشخاص المعروفين بتقواهم وتعاليمهم ، والذين أدانوها مؤخراً ، ولكنهم سيحكمون عليها حكما أكثر عطفاً لو عنى المؤلفون بتعليم جمهور النظارة عنايتهم بالترفيه عنهم ، ولو توسعوا فى هذا التعليم القصد الصحيح من المأساة[١٧] » .

ورحب آرنو ، المعروف بتقواه وتعاليمه ، بهذه النغمة الجديدة ، وأعلن رضاءه عن فيدر . ولعل راسين وهو يكتب المقدمة ، وقد بلغ الثامنة والثلاثين ، كان يتطلع إلى حياة من الاستقرار يسكن فيها إلى امرأة واحدة بدل النساء الكثيرات . ففى أول يونيو سنة ١٦٧٧ تزوج زوجة أتته بمهر كبير . وقد اكتشف ما فى الحياة العائلية من أسباب الراحة ، ووجد من البهجة فى ابنه البكر أكثر مما وجد فى أكثر مسرحياته توفيقاً . وكانت غيرة مزاحميه ودسائسهم قد نفرته من المسرح ، فألقى جانباً الخطط والمذكرات التى كان قد أعدها لأربع مسرحيات ، واقتصر طوال اثنى عشر عاماً على كتابة الشعر والنثر بين الحين والحين . لاسيما تأليف تاريخ للبور — رويال طابعه التبجيل والولاء البنوى .

ونغص عليه هذا الهدوء المثالى حادث مؤسف أليم . ذلك أن الحكمة

الخاصة التى كانت تحقق عام ١٦٧٩ فى تهم التسميم الموجهة ضد كاترين مونفوازان استلت منها اتهاما لراسين بأنه سمم خليلته تريز دبارك . وأدلت «لافوازان» بتفاصيل الاتهام ولكن لم يكن هناك ما يعززه • وإذ كانت واثقة من أنه سيحكم عليها بالأعدام ، فأنها لم تكن تخسر شيئا باتهام غيرها زوراً ، وقد لوحظ أن إحدى زبائنها وصديقاتها هى الكونتيسة سواسون ، وكانت عضوا فى العصبة التى قاومت راسين فى «غرام فيدر(١٨)» . ومع ذلك كتب لوفوا فى أول يناير سنة ١٦٨٠ إلى المفوض بازان دبيزون يقول « إن الأمر الملكى بالقبض على السيد راسين سيرسل إليك حالما تطلبه » ولكن حين تقدم التحقيق وبدا أنه سيورط مدام دمونتسبان ، أمر الملك بحظر نشر سجن المحاكمة ، ولم يتخذ أى إجراء ضد راسين(١٩) .

وأظهر لويس ثقته المستمرة فى الكاتب المسرحى . ففى سنة ١٦٦٤ رتب له معاشا ؛ وفى سنة ١٦٧٤ خلع عليه وظيفة شرفية تغل له ٤٠٠ر٢ جنيه فى العام فى إدارة المالية ؛ وفى سنة ١٦٧٧ عين راسين وبوالو مؤرخين رسميين للبلاط ؛ وفى سنة ١٦٩٠ أصبح الشاعر موظفا دائما فى معية الملك ، فأتته الوظيفة بمورد إضافى قدرة ألفان من الجنيهات • وفى سنة ١٦٩٦ بلغ من الثراء مبلغا أتاح له شراء وظيفة سكرتير الملك .

وقد أعان اداؤه النشيط لواجباته مؤرخا ملكيا على سحبه من المسرح . وكان يرافق الملك فى حملاته ليسجل الأحداث تسجيلا أدق . وفيما عدا ذلك كان يلزم داره شاغلا نفسه بتربية ولديه و بناته الخمس ، وكان يود أحيانا ، وسط صخبهم وضجيجهم ، لو أنه كان راهبا • وما كان ليكتب أى مسرحية أخرى لولا أن مدام دمانتنون لجأت إليه فى أن يكتب مسرحية دينية بريئة من كل مايتصل بالغرام ، تمثلها الفتيات اللائى جمعتهن فى أكاديمية سان سير • وكانت أندروماك قد مثلت هناك من قبل ، ولكن دمانتنون الفاضلة لاحظت أن الفتيات استمتعن بالفقرات الغرامية الحارة . ورغبة فى ردهن إلى التقوى كتب راسين مسرحيته « إستير » .

ولم يكن قد اقتبس موضوعاً من الكتاب المقدس من قبل ، ولكنه درس الكتاب أربعين سنة ، وأحاط بكل التاريخ المعقد المدون فى العهد القديم . وقام هو نفسه بتدريب الفتيات على أدوارهن ، وتبرع الملك بمائة ألف فرنك لتوفير الملابس الفارسية المطلوبة . فلما أخرجت (٢٥ يناير سنة ١٦٨٩) كان لويس أحد الرجال القليلين الذين شهدوها بين النظارة . واشتد الطلب على مشاهدتها ، من الكهنة أولا ، ثم من الحاشية ، وعرضتها أكاديمية سان — سير اثنتى عشرة مرة أخرى . ولم تصل إستير إلى جماهير المتفرجين إلا سنة ١٧٢١ بعد موت الملك بست سنين ، وعندها (بعد أن فقد الدين الرعاية الملكية) لم تلق إلا نجاحاً متوسطا .

وفى ٥ يناير سنة ١٦٩١ أخرجت سان — سير أحدث مسرحيات راسين وهى « أتالى » . وأتاليا هى الملكة الشريرة التى ظلت ست سنوات تقود يهوداً كثيرين إلى عبادة البعل الوثنية ، حتى عزلتها ثورة قام بها الكهان(٢٠) وجعل راسين من القصة مسرحية لا يشعر بقوتها غير أولئك الذين يشهدونها وهم على علم بقصة الكتاب المقدس ، يدفىء صدورهم الإيمان اليهودى أو المسيحى الأصيل ، أما غيرهم فسيجدون أحاديثها الطويلة وروحها القاتمة مثبطة لهم . وبدا أن التمثيلية صفقت لطرد الهيجوتوت وانتصار الكهنوت الكاثوليكى ، ولكنها من جهة أخرى حوت — فى إنذار رئيس الكهنة للملك الشاب جود — تنديدا قوياً بالحكم المطلق :

« إنك وقد نشأت بعيداً عن العرش لم تشعر بفتنته السامة ، إنك لا تعرف الانتشاء بالسلطان المطلق ، وسحر المتملقين الجبناء . عما قليل سيقولون لك إن أقدس القوانين . . . ينبغى أن تطيع الملك ، وأنه لا ضابط للملك غير مشيئته ، وأنه يجب أن يضحى بكل شىء فى سبيل مجده الأعلى . . . وا أسفاه ! لقد ضللوا أحكم الملوك(٢١) » .

وقد ظفرت هذه الأبيات بالاستحسان الكثير إبان القرن الثامن عشر ،

ولعلها حدت بفولتير وغيره[٢٢] إلى أعتبار أتالى أعظم الدرامات الفرنسية. على أن الأبيات التالية لهذه توحى بأن رئيس الكهنة إنما كان يحاج دفاعاً عن خضوع الملوك للكهنة .

أما لويس ، الذى بز الآن راسين فى تقواه وورعه ، فلم ير بالتمثيلية بأساً . وواصل استقبال راسين فى القصر رغم ما عرف عن الشاعر من تعاطف مع البور — رويال . ولكن فى سنة ١٦٩٨ حجب الملك رضاءه . ذلك أن راسين ، بناء على طلب مدام دمانتنون ، وضع بياناً بألوان العذاب التى ابتلى بها الشعب الفرنسى فى أواخر الحكم . وفاجأها الملك وهى تقرأ الوثيقة ، وأخذها منها ، وانتزع منها اسم كاتبها ، وأخذته سورة الغضب وقال « ألكونه شاعراً خلا يحسب أنه يعرف كل شىء ؟ ألأنه شاعر كبير يريد أن يكون وزيراً أيضاً ؟ » أما مانتنون فقد أكدت لراسين وهى تفيض فى الاعتذار له أن الزوبعة ستمر سريعاً . ولقد مرت ، وما لبث راسين أن عاد إلى البلاط واستقبل استقبالا كريماً ، وإن بدا له أقل حرارة من ذى قبل[٢٣]* .

أما الذى قتل الشاعر فلم يكن نظرة فاترة من الملك بل خراجاً فى الكبد . وقد أجريت له جراحة ، وخف ألمه فترة ، ولكنه لم يكن واهما حين قال : لقد أرسل الموت لى كشف حسابه[٢٦] وجاء بوالو ، وهو يشكو المرض ، ليلازم صديقه العليل . وقال راسين « إنى مغتبط لأنه صح لى أن

(*) يقول ابن راسين : « لقد عاد إلى القصر غير مرة ، وكان على الدوام يتشرف بالحديث إلى جلالته[٢٤] » أما سان — سيمون فيروى قصة غير هذه : فهو يزعم أن راسين فقد الحظوة لأنه انتقد ملاهى سكارون فى حضرة مدام دمانتنون والملك « وهنا احمر وجه الأرملة المسكينة ، لا لانيل من سمعة الرجل المشلول ، بل لسماعها اسمه ينطق به فى حضرة خلفه . كذلك ارتبك الملك ... وانتهى الأمر بأن صرف الملك راسين زاعما أنه ذاهب إلى عمله ... ولم يكلم الملك ولا مدام دمانتنون بعدها راسين حتى ولانظرا إليه » . وهذا التعليل لسخط الملك على راسين مرفوض الآن عموما (٢٥) .

أموت قبلك(٢٧) » وكتب وصية بسيطة كان أهم فقرة فيها هذا الرجاء إلى البور — رويال :

« أود أن تحمل جثتي إلى البور ـ رويال ـ دي ـ شان ، وأن تدفن في مقبرته .. إنني بكل تواضع ألتمس من الأم الرئيسة والراهبات أن يمنحنني هذا الشرف ، وإن كنت عليما بأنني لا أستحقه ، سواء لما شاب حياتي الماضية من مخاز ، أو لتقصيري في الإفادة من ذلك التعليم الممتاز الذي تلقيته من قبل في ذلك الدير ، وما رأيت فيه من مثل رائعة في التقوى والتوبة ... ولكن كلما ازدادت إساءتي لله ازدادت حاجتي لصلوات هذه الجماعة العظيمة الورع(٢٨) » .

ومات في ٢١ إبريل سنة ١٦٩٩ وقد بلغ التاسعة والخمسين . وأجرى الملك معاشاً على أرملته وأبنائه حتى مات أخرهم .

وتضع فرنسا راسين في صف أعظم شعرائها ، لأنه هو وكورني يمثلان أرقى ماوصلت إليه الدراما الكلاسيكية الحديثة من تطور. ولقد تقبل - بناء على حض بوالو — تفسيراً دقيقاً للوحدات الثلاث : فبلغ بذلك تركيزا لا يبارى للوجدان والقوة من خلال عمل واحد يقع في مكان واحد ويكمل في يوم واحد . وقد تجنب تطفل الحبكات الثانوية ـ وكل مزج بين المأساة والملهاة ، وأخرج العامة من مآسيه ، ولم يتناول عادة غير الأمراء والأميرات والملوك والملكات . وقد نقى لغته من كل الألفاظ التي قد تعد نابية في الصالونات أوالبلاط ، أو تكون محل استنكار في الأكاديمية الفرنسية . وشكا من أنه لايجرؤ على أن يورد في تمثيلياته عملية مبتذلة كعملية تناول الطعام ، وإن حفل بها شعر هوميروس(٢٩) » وكان الهدف هو بلوغ أسلوب يعكس في الأدب حديث الأرستقراطية الفرنسية وعاداتها . وقد حدت هذه القيود من مجال راسين . وكانت كل درامة من دراماته قبل إستير ، على شاكلة سابقاتها — وفي كل منها كانت العواطف واحدة .

على أن راسين شارف الرومانسية فى طابع المشاعر التى عبر عنها وفى حدتها ، وذلك رغم الفكرة الكلاسيكية ، فكرة العقل يطغى على الحياة ويضبط العاطفة والحديث . وبينما نجد العاطفة فى كورنى تؤكد على الشرف ، والوطنية ، والنبالة ، نجدها فى راسين تتركز إلى حد كبير حول الحب أو العاطفة المشبوبة ، ونحن نحس فيه تأثير رومانسيات دورفيه ، ومدام دسكوديرى ، ومدام دلافاييت . وكان سوفوكليس أكثر من يعجب بهم من المسرحيين قاطبة ، ولكنه يذكرنا أكثر بيوربيديس ، الذى تحول فيه قصد سوفوكليس وجلال عبارته بين الحين والحين إلى أفراط فى الحماسة والوجدان . وفى هاملت أو مكبث من القصد فى الحديث أكثر مما فى أندروماك أو فيدر . وقد أعرب راسين صراحة عن رأيه فى أن « أول قاعدة » للدراما « هى أن تسر وأن تمس القلب(٣٠) » وقد فعل هـذا بتعامله مع القلب ، وباختياره شخوصه الرئيسيين من بين أفراد - كانوا عادة من النساء — مرهفى العاطفة ، وتحويله تمثيلياته إلى سيكولوجية العاطفة .

وقد وافق على الحظر الكلاسيكى للحركة العنيفة على المسرح ، ومن ثم أخذ نفسه بالتعبير عن العاطفة بالكلام فقط ، وألقى هذا عبئاً ثقيلا على أسلوبه ، فأصبحت المسرحية سلسلة من الخطب ، وكان استرساله فى الأبيات السكندرية المتتابعة — وهى ذات المقاطع الاثنى عشر والقوافى المزدوجة — هذا الاسترسال أشرف بشعره على الرتابة المملة ؛ فنحن نفتقد فى راسين وكورنى ما يطالعنا فى الشعر الإليزابيثى المرسل من مرونة ، وطبيعية ، وتنوع لا آخر له . وياله من جهد عبقرى ذلك الذى اقتضاه رفع هذا الشكل الضيق من تماثله الممل ، بقوة الأسلوب وجماله ! أن راسين وكورنى ينبغى ألا يقرءا ، بل يجب أن يسمعا ، وحبذا أن يكون ذلك ليلا فى فناء الأنفاليد أو اللوفر .

والمفاضلة بين راسين وكورنى هواية قديمة لدى الفرنسيين . أما مدام دسفينييه ، فأنها بعد أن شهدت « بايزيد » وقبل أن تمثل — إفجينى

أو فيدر — انحازت إلى كورنى بحماستها المألوفة . وقد تنبأت فى تهور ، ولكن ربما بحق ، بأن :

«راسين لن يستطيع أبدا أن يتجاوز .. أندروماك ... فتمثيلياته مكتوبة للانسة شانمسليه . . وسوف يتضح حين يكبر ، ويكف عن الحب ، هل اخطأت الحكم أم أصبت . إذن فليعش صديقنا كورنى طويلا ، ولنغتفر له الأبيات الرديئة التى نصادفها فى شعره من أجل تلك الفقرات الإلهية التى كثيراً ماننتشى بها » . . .

وهذا على العموم رأى كل ذى ذوق سليم[٣١] . ولكن فولتير الذى اضطلع بنشر أعمال كورنى والتعليق عليها ، صدم الأكاديمية الفرنسية بنقده لأخطاء المسرحى الكبير وفجاجاته ولغته الطنانة . كتب يقول « أعترف أننى بنشرى كورنى أصبحت من عباد راسين[٣٢] » وقد أقر الزمن بهذه الأخطاء ، واغتفرها لرجل لم يحظ بما حظى به راسين من ميزة المجىء بعد كورنى . فالارتفاع بالدراما الفرنسية من مستواها السابق إلى مكانة «السيد» « وبوليوكت » كان إنجازاً أشق من بلوغ النشوات المشبوبة والجمال المنغوم الذى نجده فى « أندروماك » « وفيدر » . إن كورنى وراسين همـــا الموضوعان الذكر والأنثى فى شعر القرن العظيم — التعبير القوى عن الشرف والحب . . وعلينا أن نأخذهما معاً إن أردنا أن نحس باتساع الدراما الكلاسيكية الفرنسية وقوتها ، تماماً كما يجب ان نأخذ ميكلانجلو ورفائيل معاً إن اردنا ان نحكم على النهضة الإيطالية ؛ او بيتهوفن وموتسارت إن اردنا ان نفهم الموسيقى الألمانية فى ختام القرن الثامن عشر .

قال ديفدهيوم ، وكان اسكتلنديا حكيما ، ضليعاً فى لغة الفرنسيين وآدابهم ، « فى المسرح تفوق الفرنسيون حتى على اليونان ، الذين تفوقوا كثيراً على الإنجليز[٣٣] » وذلك حكم كان خليقا بأن يدهش راسين ذاته ، الذى عبـــد سوفوكليس باعتباره الكمال مجسماً ، وان جرؤ على منافسة

يوريبيديس . وفى هذا نجح ، وهو مايستحق عليه الثناء حقاً . فلقد احتفظ بالدراما الحديثة على مستوى لم يبلغه سوى شيكسبير وكورنى ، ولم يدن منه إنسان بعد ذلك سوى جوته .

٤ ـ لافونتين : ١٦٢١ – ١٦٩٥

فى ذلك العصر ، عصر الخصومات الأدبية الصارخة ، يطيب للمرء أن يسمع بتلك الصداقة المشهورة ، نصف الأسطورية ، بين بوالو ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين — « شلة » الأصدقاء الأربعة .

أما جان دلافونتين فكان العضو المغمور بين الجماعة . ولد كأصحابه لأسرة متوسطة ؛ ولا غرو فالأستقراطية فى شغل بفن الحياة عن الفن . وكان مسقط رأسه شاتو — تييرى فى شمبانيا ، وأبوه المدير المحلى للمياه والغابات ، لذلك شب جزءاً حساساً من الطبيعة المحيطة به ، وعشق الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والأنهار ، وكل ساكنيها ، وتعلم عادات العشرات من أنواع الحيوان ، وتكهن فى تعاطف بغاياتها ، وهمومها ، وأفكارها ، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجرى الكلام على السنة هؤلاء الفلاسفة متعددى الأرجل ، وأصبح « إيزوباً » آخرمذاباً بقصصه الخرافية فى ذاكرة الملايين .

وكانت نية ابويه أن يعداه للكهانة ، ولكن لم يكن به ميل للخوارق . وحاول ان يمارس القانون ، ولكنه وجد الشعرأيسرفهما . وتزوج فتاة غنية (١٦٤٧) وانجب منها ولدا . ثم اتفق مع زوجته على الانفصال (١٦٥٨) وذهب الى باريس ، وأبهج فوكيه ، وتلقى من ذلك المختلس اللطيف معاشاقدره ألف جنيه ، شريطة ان يتحفه بأشعاره اربع دفعات فى السنة . فلما سقط فوكيه وجه لافونتين الى الملك التماسا شجاعا يرجوه فية الصفح عن رجل المال . وكانت النتيجة انه لم يصطل قط بعدها فى شمس الملك . فلما جرد من

معاشه ولم يكن لديه اى فكرة عن كسب قوته ، آوته واطمعته الدوقة دبويون التى التقينا بها من قبل فى صفوف الفرونديات . واصدر وهو مستظل بجناحها (١٦٦٤) أول كتاب فى « حكاياته » وهو مجموعه من الأقاصيص الشعرية ، مكشوفة على الطريقة البوكاشية ، ولكنها مروية فى بساطة ساحرة مالبثت ان جعلت نصف فرنسا ، حتى العذارى الخجولات ، يقرأنهـــا (*) .

وبعد قليل أسكنته مارجريت اللورينية ، دوقة أورليان الارملة ، قصر اللكسمبورج بوصفه وصيفا لها . وهناك كتب مزيدا من حكاياته ، ومن هناك دفع الى المطبعة بالكتب السته الاولى من قصصه الخرافية (١٦٦٨) . وقد زعم انها صياغة جديدة لخرافات إيزوب اوفيدروس ، وكذلك كان بعضها ، وبعضها اخذ عن قصص الهند الاسطورية Bidpai وبعضها من خرافات فرنسا ، ولكن اكثرها خلق من جديد فى ذلك الغدير الذى يتدفق فى ذهن لافونتين وشعره . وكانت اول قصة خرافية تلخيصا غير مقصود لحياته الحلمية الطروب :

« بعد أن أنفقت الجرادة الصيف كله غناء ، ألفت نفسها حين أقبل الشتاء مملقة لاتملك ذبابه ضئيلة ولادودة حقيرة ، فمضت تشكو جوعها لجارتها النملة وتسألها ان تقرضها شيئامن الحب تقتات به حتى يقبل الموسم الجديد . وقالت « سأرد لك دينى قبل الحصاد ، واقسم على ذلك بدين الحيوان ومصلحته ومبدئه . اما النملة فلم تكن ممن يقرضون ، وهذا اقل عيوبها . لذلك قالت للسائلة «أوماذا كنت تفعلين فى الصيف ؟ » (٥)

(*) خذ مثلا قصة « صانع الآذان » . قالسير وليم يذهب لقضاء مصلحة فى المدينة ويترك زوجته أليكس حبلى . ويذرها قريبها أندريه بأنه يستنتج من لون وجهها أن طفلها سيولد ناقصاً أذنا . ويعرض عليها أن يكون جراحاً لها ، ويفهمها أن نوبة غرام كفيلة بتزويد الطفل بالأذن الناقصة . وتقبل الوصفة ، وتتناول منها عدة جرعات ، حتى ليخطر لها أن الطفل سيكون له من الآذان أكثر من اثنتين . فاذاعاد وليم صحح التوازن الأخلاقى باغوائه زوجة أندريه (٣٤) .

« كنت أغنى ليل نهار لكل وافد ، فلا يسوؤك هذا » . « كنت تغنين : يسعدنى أن أسمع هذا . عليك اذن أن ترقصى الآن » .

كان لافونتين أحكم من ديكارت ، الذى ظن أن كل الحيوانات كائنات آلية لا تفكر ؛ فقد أحبها الشاعر ، وأحس بتفكيرها ، ووجد فيها كلها دروس الفلسفة العملية . وافتتنت فرنسا بتلقى الحكمة فى جرعات سهلة الهضم كهذه . وأصبح كاتب هذه الخرافات أكثر المؤلفين قراء فى بلاده . واتفق النقاد مرة فى حياتهم مع الشعب ، وأثنوا عليه فيمن أثنوا ؛ ذلك أنه برغم بساطته الخالصة كان عليما بالفرنسية فى لونها الريفى ورائحتها الترابية ، وقد خلع على شعره من الرشاقة الطيعة ، وطرق التعبير الحلوة ، والصورة الحية المحكمة ، ما جعل كل البورجوازيين مدعى النبل فى فرنسا يغتبطون لأن حيواناتهم ، بل حشراتهم ، تنطق بالشعر طوال الوقت . قال فونتين « إنى استخدم الحيوانات لتعليم الناس(٣٥) » .

وفى ١٦٧٣ ماتت مرجريت اللورينية وألفى الشاعر نفسه غارقا فى الديون ، وهو الذى كان يغنى فى غير تدبر للمستقبل ، ولم يحسن التصرف فى الأجور المتواضعة التى أتت بها كتبه . على أنه كان أكثر حظا من جرادته ، لأن مدام دلاسابلبير ، المرأة المثقفة العطوف ، آوته وأطعمته ورعته بحدب الأم الرءوم فى بيتها بشارع سانت - أونورية ، وهناك عاش فى قناعة هادئة الى أن ماتت فى ١٦٩٣ . يقول إن وقته كان قسمة بين شطرين : اولهما ينام فيه ، والاخر لا يعمل فيه شيئا . ووصفه لابروير بأنه رجل يستطيع أن ينطق الحيوان والشجر والحجر بكلام رشيق أنيق ، ولكنه (٣٦) هو نفسه كان « متبلدا ، ثقيلا » ، غبيا فى الحديث(٣٧) . على أن هناك روايات مناقضة زعمت أن فى وسعه أن يكون محدثا مرحا إذا وجد آذانا تلائم مزاجه(٣٨) . وقد أذاعت شرود ذهنه عشرات النوادر ، الأسطورية الى حد كبير . من ذلك أنه قال مرة معتذرا عن وصوله الى العشاء متأخرا « عدت لتوى من جنازة

نملة ، وقد سرت وراء الموكب حتى المقبرة ، ثم رافقت الأسرة فى رجوعها للبيت .(٣٩)»

وقد قاوم لويس الرابع عشر انتخابه عضوا فى الأكاديمية بحجة أن حياة الشاعر وحكاياته لم تكن بالمثل الذى يحتذى ، ثم لانت قناته فى النهاية (١٦٨٤)، وقال ان لافونتين وعد بأن يصلح من سلوكه . ولكن الشاعر الهرم لم يعرف فرقا بين الفضيلة والخطيئة ، انما عرف الفرق بين الطبيعى وغير الطبيعى ، فقد تعلم أخلاقياته فى الغابات . وكان كموليير لايشعر بأى انجذاب للبور — رويال ، هؤلاء « المجادلون البارعون » كما وصفهم ، الذين « تبدو لى دروسهم باعثة على الغم بعض الشىء(٤٠)» وانضم حيناً إلى « شلة » أحرار الفكر فى « التامبل » ، ولكن حين أصيب بنقطة كادت توقعه على الطريق ، لاح له أن قد آن الأوان ليصلح ما بينه وبين الكنيسة ، ومع ذلك فقد تساءل « أكان القديس أوغسطين حكيما حكمة رابليه(٤١) ؟ » ومات فى ١٦٩٥ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وكانت ممرضته على ثقة من خلاصه الأبدى ، لأنه على حد قولها « كان فيه من البساطة ما يجعل الله يتردد فى الحكم عليه بالهلاك(٤٢) » .

٥ — بوالو : ١٦٣٦ - ١٧١١

فى اللقاءات التى جمعت الأصدقاء الأربعة فى شارع فيو كولومبييه كان نيقولا بوالو المسيطر عادة على الحديث ، وهو الذى وضع قواعد الأدب والأخلاق بكل سلطان الدكتور جونسون وثقته فى حانة « رأس الترك » بحى سوهو . وكان كجونسون محدثاً أهم منه مؤلفا ، وخير أعماله شعر وسط ، ولكن أحكامه كان لها فى ميدان الأدب أثر أبقى مما كان لأحكام لويس الرابع عشر فى السياسة . وقد أعانت صداقته وتقريظه الناقد لموليير وراسين على التغلب على مكائد الجماعات المعادية لهما .

كان الطفل الرابع عشر لكاتب فى برلمان باريس . وإذ كان منذور للكهانة فقد درس اللاهوت فى السوربون . ولكنه تمرد ، ودرس القانون وكان على وشك الاشتغال بالمحاماة حين مات أبوه (١٦٥٧) ، مخلفا له ميراثا يكفيه وهو يقرض الشعر . وأنفق عشر سنين يشحذ قلمه ، ثم راح يصدر أحكامه على زملائه فى اثنتى عشرة اهجية (١٦٦٦ وما بعدها) . ذلك أن هذا الحشد الرهيب من النظامين الجياع[٤٣] روعه ، فهاجمه كأنه جيش من الجراد ، وسمى بعضهم بأسمائهم ، فخلق له أعداء بقوافيه . وجر على رأسه أيضا سخط النساء بسخريته من القصص الرومانسية التى كانت السيدتان سكوديرى ولافاييت تضيعان بهاورق فرنسا ووقتها . وقد امتدح القدامى، وامتدح من بين المحدثين ماليرب وراكان ، وموليير وراسين . قال « أحسبه من حقنا ان نسمى الشعر الردىء رديئا ، دون أن نؤذى الضمير أو الدولة ، وأن يكون لنا مطلق الحق ان نستشعر الضجر من قراءة كتاب غبي[٤٤] » . على أن هذه الاهاجى تضجرنا هى الأخرى لأن هدفها قد تحقق : فالشعراء الذين أدانتهم هدموا هدما لم يبق على أثرلهم فى ذاكرتنا أو فى اهتمامنا ، يضاف الى هذا أن أصحاب العقول الفضة منا ، لاسيما اذا كنا مؤلفين ، يؤثرون النقاد الذين يرشدوننا الى الطيب على أولئك الذين يسخرون من الخبيث .

وبعد أن ذهب بوالو فى اهاجيه مذهب جوفينال الصارم ، خفف من غلوائه بالتزام مذهب هوراس الأكثر اعتدالا ، ووصل الى أسلوب ألين فى سلسلة من الرسائل (١٦٦٩ - ٩٥) . وهذه الرسائل الشعرية هى التى أغرت لويس بدعوته الى البلاط . وسأله الملك ما أفضل شعره فى ظنه . أما بوالو الذى كان يترقب فرصته الكبرى فلم يقرأ شيئا من شعره المنشور ، ولكنه تلا بعض شعره فى مدح الملك العظيم ، وكان أبياتا لم تطبع بعد قال عنها إنها أقل شعره رداءة . وأجازه لويس بمعاش قدره ألفان من الجنيهات[٤٥] ، وأصبح شخصا « مرضيا عنه » فى البلاط . قال لويس « أحب بوالو لأنه سوط تأديب ضرورى نصلته على ذوق كتاب الدرجة

الثانية السقيم (٤٦) » . وكما أن لويس ساند موليير فى حملته على المتعصبين ، كذلك لم يفه بأى احتجاج حين نشر بوالو ملحمة ساخرة سماها « لوتران » (١٦٧٤) ، هزأ فيها برجال الكنيسة الغافلين النهمين . وفى ١٦٧٧ عين الشاعر الهجاء مؤرخا رسميا مـــع راسين ، وفى ١٦٨٤ قبل نهائيا فى الأكاديمية بأمر صريح من الملك ، ورغم احتجاجات أولئك الذين سلخ جلودهم .

أما القصيدة التى طفت به فوق دوامات الزمن فهى « فن الشعر » (١٦٧٤) التى ضارعت فى تأثيرها النموذج الذى نسجت على منواله ، وهو كتاب هوراس Ars poetica ، ويستهل بوالو قصيدته بتنبيه شباب الشعراء الى أن « بارناس » جبل وعر ، فليستوثقوا اذن قبل أن يشرعوا فى ارتقاء جبل ربات الشعر والفن أن لديهم شيئا يستحق أن يقال ، شيئا يعزز الحقيقة ويعين على الادراك والذوق السليمين . وهو يقول لهم ناصحا : نوعوا احديثكم ، فان أسلوبا بالغ التكافؤ شديد التماثيل (كأسلوب بوالو) يحملنا على النوم ، و « حبذا الشاعر الذى ينتقل ، بلمسة رقيقة ، من الخطير الى الخفيف ، ومن السار الى العنيف (٤٧) » . « وأرهفوا آذانكم لايقاع ألفاظكم . واتبعوا قواعد ماليرب فى اللغة والأسلوب . وادرسوا القدامى لا المحدثين : هومر وفرجل فى شعر الملاحم ، وسوفوكليس فى المأساة ، وتيرانس فى الملهاة ، وهوراس فى الهجاء ، وتيوقريطس فى شعر الرعاة » . «اسرعوا فى بطء ، وضعوا انتاجكم على السندان عشرين مرة دون أن يفت ذلك فى عضدكم ... وأضيفوا اليه قليلا ، واحذفوا منه (٤٨) كثيرا . أحبوا من ينتقدونكم ، وصححوا أخطاءكم دون تذمر وأنتم تذعنون لحكم العقل (٤٩) . واعمـــلوا للمجد ، ولا تجعلوا الكسب الخسيس هدفا لجهدكم (٥٠) . فاذا كتبتم درامات فراعوا الوحدات ، واجعلوا الفعل الواحد ، المكتمل فى مكان واحد ويوم واحد ، يبقى المسرح ممتلئا بجمهوره الى النهاية (٥١) . ادرسوا البلاط وتعرفوا على المدينة ،

فكلاهما غنى بالنماذج ، ولعل هذا هو السر فى الفوز الذى حققه موليير لفنه (٥٢) » .

وانضم بوالو الى موليير فى السخرية من « المتحذلقات » واحتقر شعر الحب المتكلف الذى أضعف الشعر الفرنسى وقابل بين هذه العاطفية الكاذبة وبين تمجيد ديكارت للعقل وغرس الاداب القديمة لضبط المشاعر . وصاغ مبادىء الأسلوب الكلاسيكى ، وأجملها فى بيتين شهيرين «أحبوا العقل اذن ، ولتقبس كتاباتكم منه بهاءها وقيمتها (٥٣) » فلازيف فى العاطفة ، ولا انفعال ، ولا كلام طنان ، لاتحذلق ، لا تكلف ، ولاغموض التباهى والغرور . فالمثل الأعلى فى الأدب ، كما فى الحياة ، هوضبط رواق للنفس و « لاتزيد أو افراط » .

وقد أحب بوالو موليير ، ولكنه أسف على هبوطه الى درك المسلاة « الفارص » . وأحب راسين ، ولكن يبدو أنه لم يفطن الى تمجيده الروماسى للوجدان ، ولم يلحظ بطلاته المتفجرات بالانفعالات ـ هرميون، وبرينيس ، وفيدر . والمقاتل لابد مبالغ فى نصيبه من الحقيقة . ولقد كان فى بوالو من قوة المحارب ما أعجزه عن فهم ما قاله بسكال من أن للقلب دواعيه التى لايفهمها الدماغ ، وأن الأدب بغير وجدان قد يكون له ملاسة الرخام وبرودته . لقد سمح هوراس بالوجدان فقال « إن أردتنى أن أبكى » أى أن أحس بما تكتب ، « فعليك أن تبكى أنت أولا » أى عليك أن تحس أنت بالأمر . ان فن العصور الوسطى وأدبها ظــلا محجوبين عن عين بوالو .

وكان اثر تعليمه هائلا . فقــد حاول الشعر والنثر الفرنسيان التزام قواعده الكلاسيكية طوال قرون ثلاثة . وشاركت هذه القواعد فى تشكيل أسلوب الأدب الانجليزى فى « العصر الأغسطى » الذى قلد شاعره بوب فى صراحة « فن الشعر » فى كتابه « مقال فى النقد » . وكان تأثير بوالوضارا ونافعا . فهو باستنكارة الخيال والوجدان ، وضع صماما

على الشعر فى فرنسا بعد راسين ، وفى انجلترة بعد درايدن . واتخذ الشعر فى أفضل نماذجه شكل النحت بالازميل ، ولكنه فقد دفء التصوير ولونه .
ومع ذلك كان من الخير أن يدخل هدف العقل الى ساحة الأدب المحض ، فقد كتب الكثير جدا من اللغو عن الحب والرعاة ، واحتاجت أوربا الى احتقار بوالو الغاضب حتى تطهر ذلك الجو الأدبى ، جو السخف والتكلف والعاطفة السطحية . وربما كان الفضل لبوالو فى ارتفاع موليير من « الفارص » الى الفلسفة ، وفى محاولة راسين البلوغ بفنه الى مرتبة الكمال .

وكان مما يتلاءم وطبيعة بوالو تماما مسلكه بعد أن اشترى بيتا وحديقة فى أتوى نفضل نفحة من نفحات الملك (١٦٨٧) ، فهو لم يذكر شيئا فى كتاباته عن الطبيعة المحيطة به اللهم الا أنه من تلك الحقول اتخذ الآن اسم « دسبريو » . هناك عاش أكثر مابقى له من أجل فى هدوء بسيط ، لا يزور البلاط إطلاقا ، ويرحب ترحيبا حارا بأصدقائه . وقد لاحظ الناس ان « له أصدقاء كثيرين رغم أنه تكلم بسوء عن كل انسان(٥٤) » . وكان فيه من الشجاعة ما حمله على الإعراب عن عطفه على البور رويال ، وعلى أن يخبر يسوعيا بأن رسائل بسكال الاقليمية احدى روائع النثر الفرنسى . وقد عمر بعد موت جميع أفراد الجماعة التى كان منظرها المرموق : فموليير التقى ربه منذ أمد بعيد ، ثم لحق به لافونتيين فى ١٦٩٣ ، ثم راسين فى ١٦٩٩ ، وتحدث الهجاء العجوز العليل بتأثر عن « الأعزاء الذين فقدناهم ، والذين اختفوا كأنهم حلم انسان استيقظ من نومه (٥٥) » وحين دنت منيته غادر أوتوى وذهب ليموت (١٧١١) فى مسكن كاهن اعترافه بصومعة النوتردام ، مؤملا ألا يجرؤ الشيطان على أن يمسه بسوء هناك .

٦ ـ الاحتجاج الرومانسى

لم تقبل سيدات المجتمع على القواعد الكلاسيكية — قواعد العقل ، والاعتدال ، وضبط النفس — إقبال كورنى العجوز وراسين الشاب . ذلك أن عالمهن كان عالم الوجدان والرومانس ، وقد حفزت « زيجات المصلحة » التى كن يعقدنها أوهام الغرام أكثر مما صدتها . ومن ثم نرى الرواية الرومانسية تنمو — جنبا إلى جنب مع الدراما الكلاسيكية — حتى تتضخم حجما وتلقى استحسانا واسعاً وتؤثر تأثيراً دولياً . ولم تكن سيدات المجتمع فى فرنسا ليشبعن من مثل هذه الروايات ، ولا كن يجدنها مفرطة فى الطول ، وآية ذلك أنه حين توقف « جوتييه دلا كالبرونيد » عن المضى فى روايته « كليوبطرة » بعد أن كتب فيها عشرة أجزاء (١٦٥٦) ، رفضت خطيبته أن تتزوجه إلا إذا ختمها بجزأين آخرين(٥٦) .

وقد استرقت الآنسه مادلين دسكوديرى قلوب نصف فرنسا بروايتها « آرتامين أو كورش الكبير » (١٦٤٩ ـ ٥٣) ، و « كليلى » (١٦٥٤ ـ ٦٠) وكلتاهما فى عشرة مجلدات . وأشبع غرور المجتمع الفرنسى أن يجد الشخوص فى هذا الإنتاج الرومانسى الغزير ، تحت أسماء مستعارة ، تصف أعلام العصر وأقطابه المشهورين وتميط اللثام عنهم . وما لبثت سيدات الصالونات وسادته أن أطلقوا على أنفسهم أسماء من هذه الروايات ، وتعلموا فنون التنهد والإنكار شأن أبطالهم وبطلاتهم ، وأصبحت الآنسة دسكوديرى نفسها تسمى « سافو » ، وكذلك كانت تنادى فى الصالونات إلى نهاية عمرها الذى بلغ أربعة وتسعين عاماً وقد كتبت لتسر أخاها جورج ، ونشرت كتبها تحت اسمه ، وآثرت أن ترعاه على أن تتزوج . وظل سلطانها على النساء المثقفات والرجال المعطرين إلى أن غيرت مسرحيتا موليير « المتحذلقات المضحكات » و « النساء العالمات » من اتجاه الأذواق الأدبية ، وهنا حبست مادلين فى شجاعة آخر مجلد من مجلداتها التسلسين عن النشر . والذين يشكون

الفراغ قد يجدون إلى اليوم فى صفحات « كورش الكبير » الخمس عشرة ألف ، أو صفحات « كليلى » ، العشرة الآلاف ، فقرات تتميز برقة العاطفة ، أو تنفرد بتحليل الخلق . كذلك تستحق لا سكوديرى أن تتذكرها لما قامت به من جهد فى سبيل النهوض بتعليم النساء فى فرنسا .

وأما « مارى مادلين بيوش دلافيرن » ، التى أصبح اسمها بعد الزواج الكونتيسة لافاييت ، فهى شخصية أكثر فتنة ، لأنها لم تكتب قصة رومانسية شهيرة فحسب ، بل عاشت أيضاً قصة أشهر . وقد أتيح لها تعليم مكتمل على غير العادة ، ثم ذهبت لتعيش فى أوفرن بعد زواجها (١٦٥٥) . ولكنها حين وجدت الحياة هناك مملة اتفقت مع زوجها على الانفصال (١٦٥٩) ، وذهبت إلى باريس ، وانضمت إلى الجماعة التى تلتقى فى قصر رامبوييه . ثم أصبحت وصيفة الشرف لمدام هنرييتا ، وخلدتها بعد حين فى مذكرات تفيض محبة . وكانت قريبة وصديقة لمدام دسفينييه التى كتبت تقول فيها بعد عشرة أربعين عاماً « لم تحجب سماء صداقتنا أقل سحابة ، ولا أبلى طول الألفة من فضائلها فى نظرى ، فقد كان شذاها على الدوام نضراً جديداً(٥٢) » . وتلك تحية للطرفين قل أن تجد لها نظيراً ، لأن الصداقات تبلى كالحب الرومانسى . وسنلتقى بمزيج نادر من الحب والصداقة فى علاقات مدام دلافاييت بلاروشفوكو .

وقد وقعت على الجديد الثورى حين قررت أن تبارز بقلمها الآنسة دسكوديرى . ذلك أنها كتبت رواية فى مجلد واحد لا يزيد طولها على مائتى صفحة . واعتنقت مبدأ مؤداه أنه إذا تساوت كل الاعتبارات الأخرى فإن خير الكتب ما حذف أكثر ما فى نصه الأصلى ، فكل جملة تحذف تضيف جنيها ذهبياً لقيمة الكتاب ، وكل كلمة تحذف تضيف عشرين فلساً . وبعد أن نشرت أعمالا صغيرة ألفت (١٦٧٢) ونشرت (١٦٧٨) رائعتها المسماه « أميرة كليف » . وحبكة الرواية (إن شئنا أن نخلط بين الاستعارات) هى

مثلث ذو مماس . فالآنسة شارتر فتاة بارعة الجمال ولكن فى تواضع يجعل من أمير كليف عبداً لها لأول نظرة . وتتزوجه عملا بنصيحة أمها ، ولكنها لا تشعر نحوه شعوراً أحر من الاحترام . وما يلبث دوق نيمور أن يراها فيهيم بها لتوه ، وتصده هى فى إحساس بالفضيلة ، ولكن الحاحه المحموم يمس قلبها ، وشيئاً فشيئاً تتحول الشفقة فيها حباً . وتعترف بهذا التطور لزوجها ، وتتوسل إليه أن يبعدها عن القصر وعن التجربة ، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أنها وفية له ، فيخترمه الهم حتى يقتله ، وكأن قرنيه الوهميين خرقا حلقه . أما الأميرة فتصد الدوق وضميرها يبكتها على موت الأمير ، وتكرس ما بقى لها من عمر لأعمال البر . وقد علق « بيل » الشكاك على القصة بقوله : لو أن امرأة بهذا الطهر والوفاء وجدت فى فرنسا لمشى ألفا ومائتى ميل ليراها (٥٨) .

ونشر الكتاب غفلا من اسم المؤلفة ، ولكن سرعان ما استقر رأى الأوساط الأدبية على أنه إحدى ثمرات علاقة حميمة مشهورة آنذاك . قالت الآنسة سكوديرى : (لقد كتب مسيو دلاروشفوكو ومدام دلافاييت رواية ... قيل لى أنها كتبت على نحو يثير الأعجاب(٥٩)) ، ولكنها أضافت « أنهما لم يعودا فى سن تسمح لهما بالاشتراك معاً فى أى عمل غير هذا (٦٠) » . ولكن كلا المؤلفين المزعومين أنكر تأليف الرواية . وكتبت لاسكوديرى تقول « إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تبرأ منها أبوها وأمها » . أيا كان الأمر ، فقد أجمع الكل على انها أروع رواية كتبت فى فرنسا إلى ذلك الحين . واعترف فونتنيل بأنه قرأها اربع مرات ، وكان رأى بوالو ، عدو الرومانس ، فى مدام دلافاييت انها « ابدع عقل وافضل كاتبة بين نساء فرنسا » . ويقر التاريخ لأميرة كليف بأنها من اول الروايات السيكولوجية وما زالت من أفضلها . وهى الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التى ما زال فى الإمكان قراءتها دون ما ألم .

٧ ـ مدام دسفينييـــه

١٦٢٦ — ٩٦

ولكن بقى من آثار ذلك العصر عشرة مجلدات — من تأليف امرأة أيضا — فى الامكان قراءتها فى بهجة مستسلمة حتى فى نبض زماننا السريع • والمؤلفة ، وهى مارى درابوتان — شانتال،فقدت أبويها فى طفولتها وورثت ثروتهما الكبيرة • وقد شارك فى تعليمها نفر من خيرة العقول فى فرنسا ، ونشأتها خيرة الأسر فى فرنسا على فنون الحياة • فلما بلغت الثامنة عشرة تزوجت هنرى ، مركيز دسفينييه ، ولكن هذا الزير كان يحب مالها اكثر من شخصها، وبدد بعضه على خليلاته ، وبارز خصما بسبب إحداهن ،وقتل فى المبارزة (١٦٥١)• وحاولت مارى أن تنساه ، ولكنها لم تتزوج بعده ، بل فرغت لتربية ابنها وابنتها • ولعلها كما ألمح أبن عمها الحقود بوسى — رابوتان كانت «ذات مزاج بارد»(٦١) أو لعلها تعلمت أن الجنس يستنزف الذات أما الامومة فتحققها . وخطاباتها تفيض سعادة ، كلها تقريبا سعادة الامومة.

ولقد أحبت المجتمع بقدر ما تشككت فى الزواج • وكان لها ، وهى الارملة الشابة التى تملك ثروة بلغت ٣٥٠٠٠٠ جنيه (٦٢) ، خطاب كثيرون من النبلاء ـ تورين ، وروهان، وبوسى... ولم ترمهن اطردهم جميعا الا واحدا، ومع ذلك لم تلوث سمعتها كلمة فضيحة أو علاقة محرمة واحدة • وكان اصدقاؤها يحبونها باخلاص أكثر صدقا — ومنهم دريتز ، ولا روشفوكو ، ومدام دلافاييت ، وفوكيه • أما الأول والثانى فقد أقصيا عن القصر لاشتراكهما فى حرب الفروند ، واما الأخير فلثروته التى لم يستطع تعليلها ، ولم تلق مدام دسفينييه ، الوفية وفاء حارا للاربعة على السواء ، ترحيبا فى الرحاب الملكية المقدسة وإن نالت كلمات متفضلة من الملك فى حفلة مثلت فيها مسرحية إستير بسان ـ سير . اما فى خارج البلاط فكانت دوائر كثيرة

تبتهج بصحبتها ، لأنها كانت تملك كل مفاتن المرأة المثقفة ، كانت تتكلم بنفس الحيوية التى تكتب بها ، وذلك اطراء يناقض إطراء ألفناه أكثر منه ؛ فطالما يسدى الينا النصح ، ربما فى غير تبصر ، بأن نكتب كما نتكلم .

وقد بقى من رسائلها أكثر من الف وخمسمائة ، وجلها موجه لابنتها ، فرنسواز مارجريت ، التى تزوجت الكونت دجرينيان (١٦٦٩) ، وسرعان مارحلت الى بروفانس لتعيش معه ، وكان نائبا لحا كمها . فظلت الأم من ١٦٧١ الى ١٦٩٠ تبعث بخطاب مع كل بريد تقريبا — وأحيانا مرتين فى اليوم — الى هذه الزوجة الشابة التى فصلتها عنها ارض فرنسا كلها طولا . كتبت تقول لها « ان مراسلتى لك هى عافيتى ، ولذة حياتى الوحيدة ، وكل اعتبار آخر يتضاءل بالقياس الى هذا (٦٣) » . ذلك أن الحب الذى لم يجد رجلا يشبعه أصبح غراما مشبوبا بابنة أحست أنها غير جديرة به ، لأن فرنسواز كانت ذات خلق اكثر تحفظا ، ولم تعرف كيف تعرب عن مشاعرها بحرارة . ثم كان لها زوج وأطفال يتطلبون العناية بهم ، وكانت أحيانا تصبح ضيقة الخلق أو مكتئبة المزاج ، و مع ذلك ظلت طوال خمس وعشرين سنة ، إلا فى فترات مرضها ، تكتب لأمها مرتين فى الأسبوع ، لايفوتها بريد الانادرا ، حتى لقد أقلق لأم المتيمة بها ان تكون قد جارت على وقت ابنتها .

وأبلغ مافى هذه الرسائل تأثيراً فى النفس ما روى حياة طفلة مدام جرينيان البكر ونهاية هذه الحياة فى الدير . ذلك أنها قدمت باريس لتلد فى كنف أمها . وما لبثت أن أرسلت الى زوجها اعتذارا لأنها ولدت بنتا — لابد من تربيتها بجهد أليم ، ومهرها بمهر غال ، ثم فقدها ؛ ولما عادت فرنسواز الى بروفانس تركت مارى بلانش الصغيرة حينا مع جدتها التى افتتنت بها . وكتبت مدام دسفنييه للأب تقول « ان كنت تريد ولداً فاعكف على صنعه (٦٤) » كتبت للوالدين اللذين لم يقدرا طفلتهما تفاصيل نشوانة عن العجيبة التى أنجباها كارهين :

« ان ابنتكما الصغيرة تغدو محببة للنفس . . . بيضاء كالثلج ، ضاحكة على الدوام . . . ولون بشرتها ، وعنقها ، وجسدها الصغير ـ كلها عجيب . وهى تقوم بعشرات الحركات الصغيرة ـ تثرثر ، وتلاطف ، وتضرب ، وترسم علامة الصليب ، وتطلب العفو ، وتنحنى ، وتقبل يدها ، وتهز كتفيها ، وترقص ، وتتملق ، وتشد الأذن ... وأنا ألهو معها ساعات بطولها(٦٥) » .

وقد ذرفت الجدة دموعا كثيرة لتدع هذه العجيبة الريانة البدن تذهب الى بروفانس ، ودموعا أكثر حين أودعها الأبوان ديرا وهى لم تتجاوز الخامسة . ولم تمد الطفلة بعدها ، ففى الخامسة عشرة قطعت على نفسها عهد الرهبنة واختفت من العالم .

وكان نائب الحاكم رجلا متلافا ، يولم الولائم فوق ما يسمح به مركزه . وكانت زوجته تنبئ أمها بانتظام بما تتوقعه من قرب إفلاسهما ، أما الأم فكانت توبخهما فى محبة وترسل لهما المبالغ الكبيرة من المال « كيف ، بحق محبة الله والناس ، يستطيع انسان أن يحتفظ بهذا القدر الكبير من الذهب والفضة والحلى والأثاث وسط الفقر المدقع الذى ابتلى به من يحيط بنا من الفقراء فى هذه الأيام(٦٦) » . ورغبة فى الاحتفاظ بقدرتها المالية بعد هذه الاستقطاعات ، كانت مدام دسفينييه تعنى بتفقد أملاكها فى لى روشيه باقليم بريتنى لتستوثق من أنها تلقى الرعاية الواجبة ، ومن أن ريعها يصلها بعد اختلاسات معقولة . ووجدت سعادة جديدة فى الحقول ، والغابات ، وفلاحى بريتنى ، وكتبت عنهم بنفس الحيوية التى كتبت بها عن المجتمع الباريسى الذى كانت له أشبه برسالة نصف أسبوعية لابنتها .

وكان ابنها مشكلة من نوع آخر . فهى شديدة التعلق به لأنه فتى طيب ، يملك كما قالت « معينا من الذكاء وروح الفكاهة . . . وقد ألف أن يقرأ علينا فصولا من رابليه يكاد يموت السامع من الضحك عليها » (٦٧) . وكان شارل ابنا مثاليا ، الا اذا استثنينا ترسمه خطى أبيه فى التنقل من اغراء إلى إغراء ، الى أن — ولكن لندع مدام دسفينييه ، وهى تكتب

لابنتها ، تتحمل تبعة باقى القصة ، فلا شيء أكثر ايضاحا لطابع العصر :

« بقيت كلمة أو كلمتان عن شقيقك . . . فبالأمس أراد أن يقص على نبأ حادث مروع وقع له . ذلك أنه صادف لحظة سعيدة ، ولكن حين وصل إلى بيت القصيد — كان شيئا عجيبا ! فإن الفتاة المسكينة لم يرفه عنها أحد فى حياتها قط بمثل هذا أما الفارس فقد تقهقر بعد أن هزم شرهزيمة ، وظن أن سحرا التى عليه ، وألطف ما فى القصة أنه لم يشعر بالراحة إلا بعد ان انبأنى بكارثته . وضحكنا عليه حتى استلقينا ، وقلت له انى مغتبطة جداً لأنه عوقب حيث أثم . . . . . لقد كان منظرا يستحق أن يسجله موليير(٦٨) » .

وأصيب الفتى بالزهرى ، فعنفته ، ولكنها مرضته فى حب . وحاولت أن تبث فيه شيئا من الدين ، ولكن نصيبها من الدين كان من الضآلة بحيث لم تستطع أن تعطيه الكثير منه . وقد تأثرت بمواعظ بوردالو ، وخبرت دفقات لحائية من التقوى ، ولكنها كانت تبتسم حين ترى المواكب الدينية التى أبهجت أهل المساكن الفقيرة . وقرأت آرنو ، ونيكول ، وبسكال ، وتعاطفت مع البور — رويال ، ولكن صدها تركيزهم على تجنب الهلاك الأبدى ، ذلك أنها لم تستطع أن تقنع نفسها بالإيمان بالجحيم(٦٠) . وكانت على العموم تجفل من التفكير الجاد ، فمثل هذه الأمور ليست للنساء ، ومن شأنها أن تعكر جمال الحياة الوادعة . ومع ذلك كانت ذواقة فى قراءتها — تقرأ فيرجل وتاسيتوس والقديس أوغسطين باللاتينية ، ومونتينى بالفرنسية ، وتعرف مسرحيات كورنى وراسين معرفة وثيقة . أما فكاهتها فكانت أعمق وأبهج من فكاهة موليير . فلنستمع إليها تتحدث عن صديق مدمن للتأمل الشارد :

« انقلب برانكا قبل أيام فى مصرف وجد نفسه فيه مرتاحا جداً حتى لقد سأل من سارعوا ليخرجوه منه أبهم حاجة إلى خدماته . وقد كسرت نظارته ، ولولا أن حظه كان خيراً من حكمته لكسر رأسه أيضا ، ولكن هذا كله لم يقطع تأملاته قط . وقد أرسلت له كلمة هذا الصباح ... أنبئه

فيها أنه انقلب وكاد عنقه يدق ، لأنى اعتقدت أنه الشخص الوحيد الذى لم يسمع بالحادث فى باريس(٧٠)» .

وهذه الرسائل فى مجموعها تؤلف صورة من أكثر الصور كشفا فى الأدب ، لأن المركيزة تسجل فيها أخطاءها وفضائلها دون تحفظ . فهى الأم المحبة ، التى تجد نفسها على سجيتها سواء فى صالونات العاصمة أو فى حقول ريتنى ، وهى تكتب لابنتها عن أنفه أحاديث الاستقراطية وقيلها وقالها ، ولكنها تقول أيضا « إن البلبل ، والوقواق ، والهزار — كلها بدأت تصدح فى ربيع الغابات » ، وندر أن تفوه بكلمة سوء عن مئات الأشخاص الذين يرفون خلال صفحاتها الألفين ، وهى على الدوام مستمدة لمديد المعونة للمكروبين ، مجملة حديثها بالرقيق من التحية والمجاملة ، مذبذبة بين الحين والحين بالمرح القاسى (كضحكها على شنق بعض المتمردين المساكين فى برتنى) ، ولكنها مرهفة الاحساس بالآم الفقراء ، وهى تغضى عن فساد زمانها وطبقتها ، ولكنها بلا لوم فى سيرتها الشخصية ؛ إنها روح تفيض بالنية الطيبة وحب الحياة ، فيها من التواضع ما يمنعها من نشر كتاب ، ولكنها تكتب أفضل فرنسية فى عصر أفضل فرنسية كتبت على الإطلاق .

ترى هل خطر ببالها أن رسائلها قد تنشر يوما ما ؟ كانت أحيانا تسترسل فى تحليقات من البلاغة كأنها تشم مداد المطابع ، غير أن رسائلها حافلة بتفاصيل العمل ، وبالمصارحات العاطفية ، والمكاشفات المحرجة التى لا يمكن أن تكون قصدت إذاعتها على القراء . كانت تعلم أن ابنتها تطلع أصدقاءها على رسائلها ، ولكن مثل هذه المشاركة كانت كثيرة فى تلك الأيام ، حين كادت المراسلة أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بين المسافات الطويلة ، وقد ورثت وحفظت الرسائل حفيدتها بولين ، التى منعتها من أن تدخل ديرا كما فعلت شقيقتها بلانش مارى ، ولكنها لم تنشر إلا عام ١٧٢٦ ، بعد موت المركيزة بثلاثين عاما . وهى اليوم من أغلى عيون الأدب الفرنسى ، وكأنها باقة زهر غنية يزداد عبيرها انتشارا على الأيام .

وازداد تفكيرها فى الدين كلما دنت نهايتها ، وقد اعترفت بخوفها من الموت والحساب . وبين ضباب بريتنى ومطر باريس أصابها الروماتزم ، ففقدت فرحتها بالحياة ، وأدركت أنها بشر فان .

« لقد ولجت الحياة دون رضاى ، ويجب أن أخرج منها ؛ هذه الفكرة تطغى على .. وكيف أخرج ؟ ... ومتى ؟ .. انى أدفن نفسى فى هذه الأفكار ، وأجد الموت شديد الرهبة حتى لابغض الحياة لأنها تفضى بى إلى الموت أكثر من بغضى لها لما يملؤها من أشواك . ستقولين انى أريد أن أحيا إلى الابد . ليس الأمر كذلك مطلقا ، ولكن لو أخذ رأيى لآثرت أن أموت بين ذراعى مربيتى ؛ فقد كان هذا خليقا بأن يوفر على اضطرابات الروح ويكفل لى الجنة فى كل يقين ويسر[٧١] » .

وليس صحيحا أنها ابغضت الحياة لأنها تفضى إلى الموت ، إنما هى أبغضت الموت لأنها استمتعت بالحياة استمتاعا شديداً قرابة سبعين عاما . وإذ كانت أمنيتها أن تموت فى بيت ابنتها الحبيبة ، فإنها عبرت فرنسا خلال أربعمائة ميل فى رحلة عذاب إلى شاتو جرينيان . فلما أقبل الموت لقيته بشجاعة أدهشتها ، ووجدت العزاء فى تناول الاسرار المقدسة ، وعلات نفسها بالخلود . ولقد وهب لها الخلود حقا .

٨ – لاروشفوكو : ١٦١٣–٨٠

شتان ما بين هذا الروح ، وروح أشهر الكلبيين المحدثين ، وأقسى من مزق القناع عن نقائصنا ، ذلك العليل المكتئب الذى شوه سمعة النساء وافترى على الحب ، والذى أحبته ثلاث نساء حتى الموت .

كان النبيل السادس المسمى فرانسوا دلاروشفوكو ، سليل أسلاف كثيرين من الأمراء والكونتات ، والابن البكر للرئيس الأكبر لإدارة الملابس والحلى للملكة والوصية مارى دمديتشى .

وكان اسمه الأمير مارسياك إلى أن ورث لقب الدوقية عند وفاة أبيه (١٦٥٠) . وقد تلقى التعليم فى اللاتينية والرياضيات والموسيقى والرقص والمبارزة والأنساب والاتيكيت . فلما ناهز الرابعة عشرة تزوج بتدبير أبيه من أندريه دفيفون ، الابنة الوحيدة والوريثة لبازيار فرنسا الكبير المتوفى . وحين بلغ الخامسة عشرة أمر على فوج من الفرسان ، وفى السادسة عشرة اشترى رتبة الكولونيل . وكان يختلف إلى صالون مدام درامبوييه الذى هذب عاداته وصقل أسلوبه . ومع كل مثالية الشباب وإيثاره للنساء الناضجات تراه يعشق الملكة ، ومدام دشفروز ، والآنسة دهوتفور . وحين تآمرت آن النمساوية على ريشليو استخدمت فرانسوا ، ثم كشف أمره ، وأودع الباستيل أسبوعا (١٦٣٦) . فلما أفرج عنه سريعا نفى إلى ضيعة أسرته بفيرتوى . وراض نفسه حينا على العيش مع زوجته ، ولاعب ولديه الصغيرين فرانسوا وشارل ، وتعلم أن للريف مباهج لا تستطيع فهمها غير المدينة .

فى تلك الأيام لم يكن ممكنا فصم عرى الزواج الشرعى بين الطبقات العليا الفرنسية ، ولكن كان من الممكن تجاهلها . وبعد أن قضى الأمير عشر سنوات فى زواج المرأة الواحدة الذى أضجره ، انطلق للمغامرة فى الحب والحرب . وحين استهدفت عيناه مدام دلونجفيل (١٦٤٦) لم يعد دافعه إلى ذلك حب مثالى ، بل تصميم على الاستيلاء على قلعة منيعة مشهورة ، لأنه مما يرفع من قدره أن يغوى زوجة لدوق وأختا لكونديه العظيم . أما هى فلعلها ارتضته لأسباب سياسة ، فقد يكون حليفا نافعا فى التمرد الاستقراطى الذى اعتزمت أن تلعب فيه دوراً نشيطا . ولما أخبرته أنها حبلت منه (٧٢) ، منح كل تأييده للفروند . وفى ١٦٥٢ نبذته واتخذت الدوق نيمور عشيقا ، وحاول لاروشفوكوا قناع نفسه بأن ذلك ما كان يصبوا ليه ، وكما قال بعد ذلك « حين نحب إنسانا إلى درجة الملل ... فإننا نرحب أشد الترحيب ... بفعل من أفعال الخيانة يبرر تحللنا من ذلك الحب (٧٣) » فى ذلك العام ، وفيما كان يحارب فى صفوف الفروند فى ضاحية

سانت أنطوان ، أصابه رش بندقية فى عينيه وخلف به عمى جزئيا . فانكفأ راجعا إلى فيرتوى .

وكان الآن فى الأربعين، يحس بوادر النقرس، ويشعر بالمرارة من كوارث أكثرها من صنعه . أما مثاليته فماتت فى إزمدام دلونجفيل ، وفى مؤامرات الفروند الخداعة والنهاية الحقيرة التى انتهت إليها . وقد أزجى فراغه ودافع عن سيرته فى « مذكرات » (١٦٦٢) دل فيها على عظيم تمكنه من الأسلوب الكلاسيكى . وفى ١٦٦١ سمح له بالعودة إلى البلاط ، ومنذ ذلك التاريخ قسم وقته بين زوجته فى فيرتوى وأصحابه فى صالونات باريس .

وكان أحب الصالونات إليه صالون مدام دسابليه . هناك كانت هى وضيوفها يلعبون أحيانا لعبة « العبارات » . يعلق أحدهم بعبارة على الطبيعة البشرية أو سلوك الإنسان ، فتتقاذف الجماعة العبارة فيما بينها تأييداً واعتراضا . وكانت مدام دسابليه جارة وصديقة مخلصة للبور — رويال — دبارى ، فاعتنقت رأيه فى شر الإنسان الفطرى وخواء الحياة الدنيوية ، ولعل تشاؤم لاروشفوكو الناجم عن خيبته فى الحب والحرب ، وعن الخيانة السياسية والألم البدنى ، وعن خدعه غيره وانخداعه بالغير ـ نقول لعل هذا التشاؤم وجد مساندة قليلة من جانسنية مضيفته . وكان يجد لذة قائمة فى تهذيب عباراته وعبارات غيره وغربلتها على مهل ، وسمح لمدام دسابليه وغيرها من الاصدقاء بأن يقرءوا هذه الحكم ، وأن يعدلوا فيها أحيانا . وقد نسخها أحد هؤلاء ، وطبع ناشر لص هولندى ١٧٩ منها ، غفلا من اسم المؤلف ، حوالى سنة ١٦٦٣ ، وتبين فيها رواد الصالونات حكم لاروشفوكو ، ثم أصدر المؤلف نفسه طبعة أفضل اضاف إليها ٣١٧ مثـــلا عام ١٦٦٥ تحت عنوان « عبارات وأمثال اخلاقية » . وأصبح هذا الكتيب الذى اختزل الناس اسمه بعد قليل إلى « الأمثال » ، من عيون الأدب للتو تقريبا . ولم يعجب القراء بأسلوبه الدقيق المحكم الأنيق فحسب ، بل إنهم استمتعوا بما حوى

من فضح لأثرة الغير ، ولم يفطنوا إلى أن القصة إنما تروى عنهم ، إلا فيما ندر .

ووجهة نظر لاروشفوكو أوردها ثانى أمثاله : « إن حب الذات هو حب الإنسان لنفسه ، ولأى شىء آخر لأجله . وحياة الإنسان كلها ليست إلا ممارسة متصلة لهذا الحب وتحريضا قويا له » وليس الغرور إلا شكلا من الأشكال الكثيرة التى يتخذها حب الذات ، ولكن حتى هذ الشكل يدخل فى كل فعل وفكر تقريبا وقد تنام شهواتنا أحيانا ، ولكن غرورنا لا يهدأ أبداً « ان الذى يرفض الثناء أول مرة يرفضه لأنه يريد سماعه ثانية[٧٤] » . والتلهف على استحسان الناس لنا هو الأصل لكل الأدب والبطولات الواعية . « وكل الناس يستوون كبرياء ، والفرق الوحيد هو أنهم لا يتبعون كلهم نفس الطرق فى إبدائها[٧٥] » . « ان الفضائل تضيع فى المصلحة الذاتية كما تضيع الانهار فى البحر[٧٦] » . « ولو تاملنا أفكارنا الخفية لوجدنا فى صدورنا بذرة كل الرذائل التى نستنكرها فى غيرنا » ولا ستطعنا أن نحكم من واقع فسادنا الشخصى على الفساد المتأصل فى الإنسان[٧٧] . وما نحن إلا عبيد شهواتنا ، وإذا قهرت شهوة منها فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى[٧٨] ، « والعقل يستغفله الوجدان دائما » ، « والناس لا يشتهون شيئا بلهفة إذا طلبوه انصياعا لاوامر العقل فقط[٧٩] » ، « وابسط الناس إذا أعانته العاطفة المشبوبة سينتصر أكثر من أفصح الناس بدونها[٨٠] » .

وفن الحياة يكمن فى إخفائنا حب ذواتنا بقدر يكفى لتجنب إغضاب حب الغير لذواتهم . وعلينا أن نتظاهر بقدر من الإيثار « إن النفاق ضرب من الاحترام الذى تقدمه الرذيلة للفضيلة[٨١] » . واحتقار الفيلسوف للمزعوم للثراء أو عراقة النسب ليس إلا طريقته فى الترويج لبضاعته . وما الصداقة « إلا تجارة لايفتأ حب الذات يطلب الكسب من ورائها[٨٢] » وقد نقيس إخلاصها إذا لاحظنا أننا نجد فى نكبات أصدقائنا شيئا ليس كله

مسيئا(٨٣) . ونحن نبادر إلى الصفح عمن أساءوا إلينا بأسرع من صفحنا عمن أسأنا إليهم ، أو عمن تفضلوا علينا — فألزمونا — بخدماتهم(٨٤) . والمجتمع حرب بين الفرد والكل . « والحب الصادق أشبه الاشباح — شيء يتحدث عنه كل انسان ولكن نادرا ما رآه أحد (٨٥) » ، و « ما كنا لنقع فى الحب قط لولا سماعنا الناس يتكلمون فى الحب(٨٦) » . ومع ذلك فالحب إذا كان صادقا تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتى عرفن الحب مرة ضعيفات القدرة على الصداقة ، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى الحب (٨٧) ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريبا إلا وهن فى الحب « قد تلقى نساء لم يسبق لهن غرام قط ، ولكن من العسير جدا أن تجد نساء لم يقعن إلا فى غرام واحد لا أكثر (٨٨) » . « وأكثر النساء المحصنات كالكنوز المخفاة ، التى لم تكن فى مأمن إلا لأن أحداً لم يفتش عنها(٨٩) » .

وكان هذا الكلبى العليل عليما بأن هذه الحكم البارعة ليست وصفا منصفا للبشر . لذلك راح يتجنب الجزم فى الكثير منها بألفاظ مثل « نكاد » أو « تقريبا » إلى غير ذلك من التحفظات الفلسفية، وقد اعترف أنه « أسهل أن يعرف المرء النوع الإنسانى عموما من أن يعرف انسانا واحداً بالذات (٩٠) » ، وسلمت المقدمة بأن أمثاله لا تصدق على « المحظوظين القلائل ، الذين سرت السماء بأن تحفظهم . . . بنعمة خاصة(٩١) » . ولا بد أنه سلك نفسه فى زمرة هؤلاء القلائل ، لأنه كتب : « انى أخلص لأصدقائى إخلاصا لا أتردد معه لحظة فى التضحية بمصالحى فى سبيل مصالحهم(٩٢) » . — ولو أنه كان بلا شك يفسر هذا بأنه راجع لأنه يجد فى بذل مثل هذه التضحية لذة أكثر مما يجده فى منعها . وقد تحدث بين الحين والحين عن « عرفان الجميل، فضيلة العقول الحكيمة السمحة (٩٣) » و « الحب ، النقى الذى لا تشوبه شهوة (إذا وجد إطلاقا) ، الذى يكمن فى أعماق قلوبنا (٩٤) » و « مع أنه يمكن القول ، بقدر كبير من الصدق . . . ان الناس لا يفعلون شيئا دون

مراعاة لمصلحتهم ، إلا أنه لا يستتبع هذا ان كل ما يفعلونه فاسد ، وأنه لم يبق فى الدنيا شىء اسمه العدالة أو الأمانة . فالناس قد يحكمون أنفسهم بوسائل شريفة ، ويختطون (لأنفسهم)مصالح كلها الخير والنبل(٩٥) » .

وقد ألانت الشيخوخة جانب لاروشفوكو ، حتى وهى تزيده شجنا على شجن . ففى ١٦٧٠ ماتت زوجته بعد ثلاثة وأربعين عاما من الوفاء الصابر ، وبعد أن أنجبت له ثمانية أطفال ، وقامت على تمريضه طوال الأعوام الثمانية عشر الأخيرة . وفى ١٦٧٢ ماتت أمه ، وقد اعترف أن حياتها كانت معجزة طويلة من المحبة وفى تلك السنة جرح اثنان من أبنائه فى غزوة هولندة ، ومات أحدهما من جروحه . كذلك سقط فى نفس الحرب الفاجرة ابنه غير الشرعى الذى ولدته له مدام دلونجفيل ، والذى لم يؤذن له بأن يطالب به ابنا برغم أنه أحبه حبا عميقا . روت مدام دسفينييه « رأيت لا روشفوكو يبكى فى حنان جعلنى أعبده(٩٦) » . ترى أكان حبه لأمه وأولاده حبا لذاته ؟ أجل ، إذا نظرنا إليهم على أنهم جزء من ذاته وامتدادا لها . وهذا هو التصالح بين الإيثار والأثرة — فالايثار توسيع للذات ، ولمحبة الذات ، للأسرة ، أو الأصدقاء ، أو الجماعة . وفى وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأنانية السمحة الشاملة .

ومن أكثر ملاحظات لاروشفوكوسطحية قوله « ان فضل القليل من النساء يدوم أطول من جمالهن(٩٧) » . لقد كانت أمه وزوجته استثنائين ، ولم يكن من الكرم تجاهل آلاف النساء اللاتى ضيعن جمالهن الجسدى فى خدمة الرجل والأطفال . وفى ١٦٦٥ بذلت له امرأة ثالثة معظم حياتها . ولاشك فى أن مدام دلافاييت أرضت قلبها هى وهى تحاول أن تسرى عنه . فلقد كان يومها فى الثانية والخمسين ، يشكوالنقرس ونصف العمى ، أماهى فكانت فى الثالثة والثلاثين ، محتفظة بجمالها ، ولكنها عليلة تشكو حمى الملاريا . ولقد روعها مافى امثاله من كلبية ، ولعل فكرة سارة بإصلاح هذا الرجل الشقى والتسرية عنه خالطت رأيها فيه ، فدعته الى بيتها فى باريس ،

لجأه محمولا على محفة ، فصبت قدمه الموجوعة ووسدتها ، وأتت بأصحابها ، ومنهم مدام دسفينييه المتدفقة العاطفة ليساعدنها في الترويح عنه . وعاد إليها ثانية ، وكثرت زياراته حتى لغطت بها باريس . ولا علم لنا هل دخلت في هذه الزيارات الألفة الجنسية ، ولكنها على أية حال كانت جزءاً صغيراً في علاقة أصبحت تبادلا بين الأرواح . قالت « لقد اعطاني الفهم ، ولكنني أصلحت قلبه(٩٨) » . ولعله ساعدها في روايتها « أميرة كليف » وان بعدت رقتها وحنانها عن قسوة « أمثاله » بعد السماء عن الأرض .

وبعد أن ماتت مدام دلاروشفوكو أصبحت هذه الصداقة التاريخية ضربا من الزواج الروحي ، وفي الادب الفرنسي صور كثيرة لهذه المرأة القصيرة الضعيفة الجسد ، تجلس في هدوء إلى جوار الفيلسوف العجوز الذي أقعده الألم عن الحركة . قالت مدام دسفينييه « لا شيء يمكن أن يقارن بسحر صداقتهما وثقتها(٩٩) » . وقال بعضهم ان المسيحية تبدأ حيث ينتهي لاروشفوكو(١٠٠) ، وقد تبينت صحة القول في هذه الحالة ، ولعل مدام دلافاييت الصادقة الورع أقنعته بأن الدين هو الكفيل بالإجابة عن مشكلات الفلسفة . ولما شعر بدنو أجله طلب إلى الأسقف بوسويه أن يناوله الأسرار المقدسة الأخيرة (١٦٨٠) . وقد عمرت صديقته بعده ثلاثة عشر عاما حافله بالألم .

٩ — لابروبير ١٦٤٥ — ٩٦

بعد موت لاروشفوكو بثمانية أعوام اكد جان دلابروبير تحليله الساخر للآدميين من أهل باريس . وكان جان ابن موظف صغير في الحكومة . درس القانون ، واشترى وظيفة حكومية صغيره ، واصبح معلما خاصا لحفيد كونديه العظيم ، وخدم أسرة كونديه وصيفا ، وتبعها إلى شانتي وفرساي . وقد ظل أعزب الى نهاية حياته .

وقد عذبته حدة الفوارق الطبقية في فرنسا لما فطر عليه من حساسية

وجياه، ولم يستطع الاستمانة بمظاهر الغرور الطبقة التى ربما كانت تيسر له طريقه بين النبلاء وفى البلاط ، وذلك رغم انتمائه الى الطبقة الوسطى . وقد لاحظ معرض الوحوش الملكى بعين ممادية نفاذة ، وانتقم منها بوصفها فى كتاب صب فيه كل عصارته الفكرية تقريبا ، وقد سماه « الاخلاق لتيوفراست مترجمة عن الاغريقية ، مع اخلاق أو عادات هذا العصر » . وأصبح الكتاب حديث باريس ، لانه صور تحت أقنعة شفافة أشخاصا مشهورين فى المدينة أو البلاط ، وجعل كلا منهم يجد المتعة البالغة فى فضح الباقين . ونشرت « مفاتيح » للكتاب تزعم انها تطابق الصور مع اصولها ، واحتج لابروبير بأن أوجه الشبه عارضة ، ولكن أحدا لم يصدق ، وذاع صيته ، ونفدت ثمانى طبعات قبل موت المؤلف فى ١٦٩٦ ، وقد اضاف الى كل طبعة « أخلاقا » جديدة تبينت فيها باريس مرآة العصر .

ونحن الذين فقدنا اليوم مفتاح متحف الصور هذا تبدو لنا مادته هزيلة بعض الشىء ، وأفكاره قديمة مبتذلة ، وروحه يشوبها بعض الحسد ، وهجاؤه سطحيا جدا ، كهجائه لمينا لكاس الرجل الشارد الذهن (١٠١) . ولايطلب لابروبير أى تغيير فى دين فرنسا أوحكومتها . وقد رأى أن من الخير أن يكون هناك فقراء ، والا لكان العثور على الخدم عسيرا ، ولما وجد أحد يستخرج المعادن أو يفلح الأرض ، والخوف من الفقر لاغنى عنه لانتاج الثروة (١٠٢) . وكان يسلك بوسويه فى عداد أصدقائه مفاخرا بذلك ، وقد أعاد فى القسم الأخير من كتابه (« فى أحرار الفكر ») الحجج التى أعرب عنها الواعظ العظيم بحكم افضل ونثر أرفع ، وردد البراهين التى ساقها ديكارت عن الله والخلود ، واستشهد بشىء من الحذق ، فى رده على اللاأدريين فى زمانه ، بنظام السماوات وجلالها ، وعلامات الهدف المرسوم فى الكائنات الحية ، والاحساس بتقرير المصير فى الارادة وباللامادية فى الذهن . وهاجم غرور النبلاء ، وجشع رجال المال ،

وخنوع الحاشية الذين صورهم ينظرون الى لويس لا الى المذبح فى كنيسة فرساى ، ولكنه حرص على أن يقدم للملك باقات زهر يتقى بها غضبه (١٠٣) . وفى فقرة واحدة على الأقل ازاح الحذر جانبا وتسامى فى جرأة ليصف درك البهيمية الذى تردى فيه فلاحو فرنسا من جراء حروب الحكم وضرائبه . يقول : « انتشرت فى أرجاء الريف حيوانات ضارية ، ذكور واناث ، سوداء ، ممتقعة ، أحرقتها الشمس تماما ، والتصقت بالأرض التى تحفرها وتقلبها فى اصرار لايقهر ، ولهـا ما يشبه الصوت المنطوق ، فاذا انتصبت على قوائمها بدت فى سحنة البشر ، والواقع انها ناس من الناس (١٠٤) » .

وما زالت هذه الصفحة من أبلغ ما كتب فى عصر فرنسا الكلاسيكى .

١٠ — مزيد من الأدباء

هل نحشد الآن بغير نظام ، بعد أن أصابنا الاعياء ، فى ملحق هياب بعض الخالدين الذين بدأوا يموتون ؟

هناك جان شابلان ، الذى أعان على تنظيم الأكاديمية الفرنسية ، واعتبر فى زمانه (١٥٩٥ — ١٦٧٤) أشعر شعراء فرنسا . وهناك جان باتيست روسو ، الذى كتب شعرا دينيا ، ولكنه كتب أيضا إبجرامات مقذعة جرت عليه النفى من فرنسا (١٧١٢) عقابا على تشهيره بالأشخاص . وقد كتب معظم النبلاء الذين اشتغلوا بالسياسة مذكرات ، فرأينا مذكرات دريتز ولاروشفوكو ، وسنرى فى موضع لاحق مذكرات سان — سيمون . ويلى أولئك مرتبة تلك المجلدات الثلاثة التى سجلت فيها مدام دموتفيل بتواضع خلاب وقائع سنيها الاثنتين والعشرين التى قضتها فى بلاط آن النمساوية . ونلاحظ أنها وافقت لاروشفوكو على رايه اذ كتبت « ان تجربتى القاسية فى صداقة البشر الزائفة أكرهتنى على الايمان بانه ليس فى الدنيا شىء أندر من الأمانة والاستقامة ، أو من

القلب الطيب القادر على عرفان الجميل[١٠٥] . » لقد كانت هي هـذا الانسان النادر الوجود .

وقد حقق روجيه درابوتان ، كونت بوسى ، نجاحا في دنيا الفضائح بـكتابه « تاريخ غراميات الغاليين » (١٦٦٥) الذى وصف غراميات معاصريه مستخفية وراء فداى الغاليين . وغضب الملك لكونه سخر فيها من مدام هنرييتا ، فزج به فى الباستيل ، ثم افرج عنه بعد سنة شريطة أن يعتـكف فى ضيعته ، وهناك ألف « مذكراته » النابضة بالحياة ، والغيظ يبريه إلى نهاية حياته . وأقل من هـذا الـكتاب جدارة بالتصديق كتاب « الأقاصيص » الذى رسم فيه تالمان دى ريو صوراً موجزة خبيثة لشخصيات شهيرة فى الأدب أو الغرام . وقد جاهد كلود فلورى ، بـكتابه الامين « التاريخ الـكنسى » (١٦٩١) ، وسباستيان تيلمون بـكتابه « تاريخ الأباطرة » (١٦٩٠ وما بعدها) ، وكتابه « مذكرات ينتفع بها فى التاريخ الـكنسى للقرون الستة الأولى » (١٦٩٣) ذى الستة عشر مجلدا — هذان جاهـدا فى معاناة ، ودون وعى منهما ، ليمهدا الطريق وينقياه لـكتاب جيبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦ وما بعدها) .

ثم هناك أخيرا شارل دماركتيل شريف سانت — افريمون الذى كان ألطف تلك « العقول القوية » التى صدمت الـكاثوليك والهيجونوت ، واليسوعيين والجانسيين على السواء ، بالتشكك فى التعاليم الأساسية لإيمانهم المشترك وكانت حياته العسكرية الحافلة بالمغامرات تقوده إلى عصا الماريشالية حين غضب عليه الملك لأنه كان صديقا لفوكيه وناقدا لمازاران . فلما نمى إليه أن قد تقرر القبض عليه فر إلى هولندة ، ثم إلى انجلترة (١٦٦٢) . وقد جملته عاداته المهذبة وذكاؤه الشكاك أثيرا فى صالون هورتنزى مانشينى بلندن ، وفى بلاط تشارلز الثانى . وكان كالماريشال دو كنسكور ، فى واحد من أكثر حواراته مرحا[١٠٦] ، يحب الحرب أولا ، ثم النساء ، ثم الفلسفة . وإذ رشف كل المباهج التى فى مونتينى ، ودرس أبيقور مع جاسندى ، فقد

خلص مع الاغريق للمفترى عليه إلى أن لذة الحس طيبة ، ولكن لذة الفكر أطيب ، وأنه لا داعى يدعونا لشغل أنفسنا بالآلهة أكثر مما تشغل أنفسها بنا . وقد بدا له الأكل الطيب والكتابة الجيدة مزيجا معقولا . وفى ١٦٦٦ زار هولنده ثانية ، والتقى بسبينوزا وتأثر تأثرا عميقا بالحياة المسيحية التى كان يحياها اليهودى القائل بوحدة الوجود(١٠٧). وقد أتاح له معاش أجرته عليه الحكومة الإنجليزية ، بالإضافة إلى ما استنقذه من فضلات ثروته ، أن يكتب سلسلة طويلة من الكتب الصغيرة ، كلها بأسلوب خفيف رشيق شارك فى تكوين فولتير . وقد أعان كتابه « تأملات فى مختلف أجناس الشعب الرومانى » مونتسكييه ، وشاركت رسائله إلى نينون دلانكلو بجزء من ذلك العبير الذى يتضوع خلال الرسائل الفرنسية . ولما بلغ الثامنة والخمسين ، ودون وعى منه بأنه سيعمر اثنتين وثلاثين سنه أخرى ، وصف نفسه بأنه مقلقل بصورة لاشفاء له منها . « انى لولا فلسفة مسيو ديكارت التى تقول أنا أفكر فإذن أنا موجود لما صدقت انى موجود ، وهذا كل ما أفدت من دراسة ذلك الرجل الشهير(١٠٨) » وقد كاد ينافس فونتنيل فى طول عمره ، إذ لم يمت إلا عام ١٧٠٣ بعد ان بلغ التسعين ، وقد نال تشريفا ندر ان حظى به فرنسى ، وذلك هو دفنه فى دير وستمنستر .

كتب فردريك الأكبر إلى فولتير : « بعد قرون سيترجمون الكتاب المجيدين فى عصر لويس الرابع عشر كما نترجم نحن كتاب عصر بركليس وأوغسطس » . وقبل أن يموت الملك بسنين طويلة شبه الكثيرون من الفرنسيين فن العصر وأدبه بخير ما أنتج القدماء فى الفنون والآداب . وفى ١٦٨٧ قرأ شارل بيرو (أخو كلود بيرو الذى صمم من قبل واجهة اللوفر الشرقية) على الأكاديمية الفرنسية قصيدة سماها « قرن لويس العظيم » رفع فيها العهد فوق أى حقبة فى تاريخ اليونان أو الرومان . ولكن بوالو الناقد العجوز انبرى للدفاع عن القدامى رغم أن بيرو سلكه فى زمرة المعاصرين

الذين فضلهم على نظرائهم القدامى ، فقال للأكاديمية ان من العار الاستماع إلى هذا اللغو . وحاول راسين ان يخمد النار بزعمه أن بيرو كان (١١٠) يمزح ، ولكن بيرو أحس أن لديه موضوعا مجزيا . فعاد إلى المعركة فى ١٦٨٨ بكتابه « نظائر القدامى والمحدثين » وهو حوار طويل حى يؤيد تفوق المحدثين فى العمارة والتصوير والخطابة والشعر — وذلك باستثناء الالياذة ، التى هى فى رأيه أروع من الالياذة أو الاوديسة أو أى ملحمة أخرى . وقد ناصره فونتنيل بذكاء وبراعة ، أما لا برويير ولا فونتين وفينيلون فوقفوا فى صف بوالو .

لقد كان شجاراً صحيا ، عين نهاية نظرية « الانحطاط » المسيحية الوسيطة ، ونهاية تواضع النهضة والحركة الإنسانية أمام الشعر والفلسفة والفنون القديمة . وكان هناك اتفاق عام على أن العلم قد تقدم متجاوزا أى مرحلة أدركها اليونان أو الرومان ، وحتى بوالو اعترف بهذا ، وعلم بلاط لويس الرابع عشر فى غير تردد بأن فن الحياة لم يطور قط من قبل بمثل هذا الجمال الذى طور به فى مارلى وفرساى . ولن نزعم أننا فاصلون فى هذه المشكلة ، فلنتركها الآن حتى نعرض كل جوانب هذا العصر فى أوربا بأسرها . ولا حاجة بنا إلى الإيمان بأن كورنيى كان متفوقا على سوفوكليس ، أو راسين على يوربيدس ، أو بوسويه على ديموستينيس ، أو بوالو على هوراس ، وماينبغى أن نسوى بين اللوفر والبارثينون ، أو بين جيراردون وكوازفوكس وبين فيدياس وبراكستيليس . ولكن من اللطيف أن نعرف أن هذه المفاضلات تقبل المناقشة ، وان تلك النماذج القديمة لا تمتنع على المنافسة .

لقد وصف فولتير عصر لويس الرابع عشر بأنه « أكثر العصور التى شهدها العالم استنارة (١١١) » دون ان يتوقع أن عصره هو سيسمى « عصر التنوير » . ولكن ينبغى أن نخفف من غلو هذا الاطراء . فالعصر من الناحية الرسمية كان عصر ظلامية وتعصب بلغا أوجهما فى إلغاء مرسوم نانت الرحيم ، و « التنوير » كان وقفا على قلة قليلة لم يرض عنها البلاط وعابها سرفها الابيقورى أحيانا . والتعليم كان يهيمن عليه أكليروس ملتزم بعقيدة العصر

الوسيط ، وأما حرية الطباعة والنشر فلم يكد أحد يحلم بها ، وحرية الكلام كانت مغامرة سرية وسط رقابة شاملة . لقد كان فى عهد ريشليو من المبادرة والجرأة ومن مولد العبقرية قسط أكبر مما كان فى عهد الملك العظيم . إن العصر لم يكن له ضريب فى الرعاية الملكيه للادب والفن ، وفى خضوعهما البليغ للملك . وقد بلغ الفن والأدب كلاهما العظمة والجلال كما يشهد بذلك صف أعمدة اللوفر ومسرحية اندروماك ، ولكنهما انحدرا أحيانا إلى المبالغة فى الفخامة والابهة كما نرى فى قصر فرساى أوفى بلاغة كورنيى فى آخر إنتاجه . وكان يشوب المأساة والفنون الكبرى فى هذا العهد بعض التكلف والافتعال ، فقد أفرطا فى الاتكاء على النماذج اليونانية أو الرمانية أو نماذج النهضة . واتخذا موضوعاتهما من عصر قديم دخيل لا من تاريخ فرنسا ودينها وطابعها ، وعبرا عن التعليم الكلاسيكى الذى حظيت به طبقة خاصة لا عن حياة الشعب وروحه . ومن ثم نجد موليير ولافونتين العاميين يفيضان اليوم حياة وسط هذا الحشد المزوق، لأنهما نسيا اليونان والرومان وتذكرا فرنسا . صحيح ان العصر الكلاسيكى نقى اللغة ، وصقل الادب ، وهذب الحديث ، وعلم العاطفة المشبوبة أن تفكر ، ولكنه إلى ذلك فرض على الشعر الفرنسى (والإنجليزى) برودة امتدت قرابة قرن بعد هذا العهد العظيم .

ومع ذلك كان عهدا عظيما . فلم يشهد التاريخ من قبل حاكما سخا مثل هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون . لقد اضطهد لويس الرابع عشر الجانسنيين والهيجونوت ، ولكن فى عهده كتب بسكال ، ووعظ بوسويه ، وعلم فينيلون . ولقد جند الفن ليخدم به مآربه ومجده ، ولكن هذا الفن منح فرنسا بفضل تشجيعه روائع فى العمارة والنحت والتصوير . ولقد حمى موليير من جيش من الخصوم ، وآزر راسين من مأساة إلى مأساة . ولم تكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل ، ولا رسائل أفضل ، ولا نثرا أفضل ، مما كتبت فى عهده . وقد أشاعت عادات الملك المهذبة ، وضبطه

لنفسه . وصبره ، واحترامه للنساء — أعانت كلها على انتشار الاداب المحببة والمجاملات اللطيفه فى البلاط ، وعنه إلى باريس وفرنسا وأوربا . ولقد أساء استعمال بعض النساء ، ولكن تحت حكمه بلغت النساء فى الادب والحياة مقاما اضفى على فرنسا ثقافه ثنائيه الجنس يفوق جمالها أى ثقافه أخرى فى العالم . وبعد كل التحفظات ، وبعد الاعراب عن أسفنا لان هذا الجمال الكثير لوثته هذه القسوة الكثيرة ، يحق لنا أن نضم صوتنا إلى أصوات الفرنسيين فى الأشادة بعصر لويس الرابع عشر بوصفه عصراً يقف على قدم المساواة مع اليونان فى أيام بركليس ، والرومان فى أيام أوغسطس ، وإيطاليا فى أيام النهضه ، وانجلترة فى أيام اليزابيث وجيمس الاول — يقف مع هؤلاء جميعا قمة شامخة بين الشوامخ فى مسار الإنسانية المتعثر .

الفصل السادس

مأساة فى الأراضى المنخفضة

١٦٤٩ — ١٧١٥ *

شهد القرن الممتد من ١٥٥٥ إلى ١٦٤٨ الدفاع البطولى الذى قامت به الأراضى المنخفضة ضد إمبراطورية أسبانيا العالمية ، أما الفترة من ١٦٤٨ إلى ١٧١٥ فقد شهدت دفاع الجمهورية الهولندية الرائع ضد بحرية إنجلترة وجيوش فرنسا التى لم يسبق لها مثيل . وفى كلتا الحالتين صمدت هذه الدولة الصغيرة بشجاعة ونجاح من حقهما أن يتبوءا مكاناً مرموقاً فى التاريخ . وقد واصلت وسط هذه الأعباء والمجهات تطويرها للتجارة والعلوم والفنون ، وكانت مدنها ملاذاً للفكر المضطهد ، وتحدت نظمها الجمهورية الملكيات القوية المحدقة بها تحدياً ملهماً .

١ ـــ الأراضى المنخفضة الأسبانية

ظلت الأراضى المنخفضة الجنوبية ، أو الأسبانية ، حتى ١٧١٣ خاضعة للحكم الأسبانى وكانت شعوبها المختلفة سلالياً يدين معظمها بالكاثوليكية وقد آثرت أن تخضع لأسبانيا النائية التى حل بها الضعف ، على أن تخضع للبروتستنت الذين فى شمالها ، أو لجارتها فرنسا التى هددت بابتلاعها فى أى لحظة . وقد أعطى صلح البرانس (١٦٥٩) معظم أرتوا لفرنسا ، وأعطاها صلح إكس لا شابل (١٦٦٨) دويه وتورنيه ، وصلح نيميجن (١٦٧٨) فالنسين وموبوج وكبرى وسانت أومير وايبر . ولم تكن الجمهورية

(*) أرجأنا تاريخ الأراضى المنخفضة السياسى والحربى بعد ١٦٨٨ إلى فصل تال (الفصل ٢٤) .

الهولندية أقل قسوة من الملكية الفرنسية . وبمقتضى معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) لم تكتف أسبانيا ، فى حرصها على إطلاق يد جيوشها لتفرغ للحرب المتصلة مع فرنسا — لم تكتف بأن تنزل الأقاليم المتحدة عن المناطق التى استولت عليها فى فلاندر ، ولمبورج ، وبرابانت ، ولكنها وافقت كذلك على قفل نهر الشلت فى وجه التجارة الأجنبية . فأصاب هذا الإذلال الخانق أنتورب وكل اقتصاد الأراضى المنخفضة الأسبانية بالشمال . « إن السياسة لا قلب لها » كما يقولون .

وفى داخل هذه الأسوار المعادية اعتزت هذه البلاد التى نعرفها اليوم باسم بلجيكا بثقافتها المتوارثة ، ورحبت باليسوعيين ، وتبعت قيادة لوفان الفكرية . ولما قصف الفرنسيون بروكسل بمدافعهم (١٦٩٥) تحول قسم كبير من المدينة أطلالا ، ودمر كل المعمار البديع الذى ازدان به الميدان الكبير ، اللهم إلا قاعة للحرفيين والأوتيل دفيل البديع ، وقد أعيد بناء « الميزون دورا » (الذى كان يقرأ فيه الخطاب الملكى على مجلس الطبقات) بطراز قوطى كثير الزخرف (١٦٩٦) ، وهو والأوتيل دفيل من أجمل العمائر فى أوربا اليوم . وقد أفاض النحاتون من فنهم على تجميل واجهات الكنائس والمبانى المدنية ، والمنابر ، ومقاصير الاعتراف ، والمقابر التى بداخل الكنائس . وواصلت بروكسل صنع النسيج المرسوم البديع(١) .

واضمحل التصوير الفلمنكى اضمحلالا حادا بعد روبنز وفانديك ، وكأن حياة هذين الفنانين قد استنفدت العبقرية التصويرية لقرن كامل . واجتذب نهوض الفن فى فرنسا وازدياد ثرائها الكثير من الرسامين الفلمنك أمثال فيليب دشامبين . ولكن فنانا أعظم منه ، وهو دافيد تنييه الابن ، مكث فى بلده . وكان أبوه قد تولى تعليمه ، فأصبح « معلما » فى طائفة القديس لوقا الحرفية حين بلغ الثالثة والعشرين ، وبعد أربع سنوات (١٦٣٧) ضمن نجاحه بالزواج من آن بنت جان بروجل « المخملى » ،

والقاصر الموضوعة تحت وصاية روبنزذاته . وفى ١٦٥١ دعاه الارشيدوق ليوبولد وليم من أنتورب الى بروكسل ليكون مصور البلاط وأمين المتحف الملكى ، وترينا احدى لوحات تنييه الأشيدوق والمصور بين صور هذا المتحف (٢) . وقد صور فى براعة مترددة موضوعات قديمة كالابن الضال (٣) وتجربة القديس انطونيوس . (٤) . ولكنه كمعاصريه الهولنديين آثر أن يلتقط داخل اطارات صغيرة حياة الفلاحين ، لاهابطابهم الى درك الأنعام كما فعل بيتر بروجل ، بل مشاركا اياهم فى رياضاتهم وأعيادهم . وأظهرت لوحته « داخل كاباريه » المامه بتفاصيل موضوعه (٥) ، ولكنه كان يستطيع أيضا أن يرسم المناظر الطبيعية الريفية التى تغير هيئتها سماء لاتكف عن التغير . وقد أحب الضوء كما أحب رعبرانت الظل ، والتقطه على فرشاته برقة حساسة لم تفقها رقة .

٢ — الجمهورية الهولندية

كانت الأقاليم الهولندية السبعة قد توحدت الآن فى جمهورية عزيزة ظافرة أثار غناها وتوسعها عجب جيرانها وحسدهم . فهنا أمة شذت على العرف ، إذ لم يكن لها ملك ، وكانت كل مدينة يحكمها فى استقلال تقريبا مجلس من أعيانها ، وكل مجلس بلدى يوفد مندوبين لمجلس اقليمى ، وكل مجلس اقليمى يوفد ممثلين للمجلس التشريعى الذى يهيمن على مابين الأقاليم من علاقات وعلى شئونها الخارجية . وكانت الى ذلك الحد حكومة مثالية لأقطاب التجارة الذين كانت ثرواتهم تتضخم بنمو التجارة الهولندية . ولكن قوة ارستقراطية واحدة وقفت أمام أوليجركيه التجار هذه : ذرية وليم الأول (والصامت) أمير أورنج وناسو ، الذى قاد البلاد فى أحلك ايام كفاحها ضد أسبانيا ، وكان المجلس التشريعى قد كافأه بلقب رئيس الدولة وبقيادة جيوشها ، واستطاع أن يورث ذريته ذلك اللقب وتلك القيادة ، وكانت الهيمنة على رجال الجيش الآن قوة لا تفتأ تهدد بتحويل الجمهورية الاوليجركية الى ملكية.

ارستقراطية . وفى يوليو ١٦٥٠ حاول وليم الثالث أمير أورنج ، بوصفه رئيسا للدولة وقائدا عاما ، أن يبسط سلطانه المطلق على جميع الأقاليم المتحدة بانقلاب . فقاومه عـدة زعماء اقليميين ، واودع وليم وجنده ستة منهم فى السجون ، ومنهم يعقوب دى ويت عمدة دوردريشت . ولكن الجدرى هزم وليم فى انتصاره ، فمات فى ٦ نوفمبر ١٦٥٠ غير متجاوز الرابعة والعشرين : وبعد أسبوع ولدت أرملته مارى ستيوارت (ابنة حفيدة آخر ملكة للاسكتلنديين) الطفل وليم أورنج الثالث ، الذى قدر له أن يحقق فوق ماحلم به أبوه ، اذ أصبح ملكا على انجلترة .

اما الزراع وصيادو الاسماك الأدنى من هـذه الطبقات الحاكمة المتنافسة ، هؤلاء الذين كانوا يطعمون الشعب ، فلم يشاركوا الا فى فضلات ثرائها التى لم يعبأ بالتهامها التجار ورجال الصناعة وملاك الأرض . واذا صدقنا الرسامين الهولنديين تبين لنا أن الحرب والاستغلال قد طحنا الفلاحين بفقر كاد يقربهم من حياة البهائم ، فقر خففت منه الأعياد وخدره الشراب . وكان الحرفيون فى حوانيتهم ، والعمال فى مصانع امستردام وهارلم وليدن ، أعلى أجورا من نظرائهم فى انجلتره (٦) ، ولكنهم قاموا باضراب عنيف فى ١٦٧٢ . واثرى المهاجرون الهيجونوت الوافدون من فرنسا الصناعة الهولندية بمدخراتهم ومهاراتهم . فلم تأت سنة ١٧٠٠ حتى حلت الأقاليم المتحدة محل فرنسا بوصفها الامة الصناعية القائدة فى العالم .

اما اعظم الثروات فجادت بها التجارة مـع أقطار ما وراء البحار وتطويرها . ففى ١٦٥٢ استوطن الهولنديون أول مستعمرة لهم فى رأس الرجاء الصالح وأسسوا مدينـة الكاب . وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدفع ارباحا لمساهميها بلغت نسبتها فى الموسط ١٨ ٪ طوال ١٩٨ عاما (٧) . وكان الوطنيون فى المستعمرات الهولندية يباعون او يشتغلون عبيدا ، أما المستثمرون فى أرض الوطن فلم يسمعوا بهذا الا قليلا ، وأخذوا ارباح أسهمهم بهدوء هولندى . وظلت التجارة

الخارجية الهولندية حتى ١٧٤٠ تفوق تجارة أى أمة أخرى (٨) ، ومن بين عشرين الف سفينة كانت تنقل تجارة أوربا فى ١٦٦٥ ، كانت خمسة عشر ألف هولندية (٩) . وأجمع الناس على أن تجار هولندة وماليها أكفأ من انجبه ذلك العصر . وكان بنك أمستردام قد استنبط عمليا كل تقنيات المالية المصرية ، وقدرت ودائعه بما يعادل الآن مائة مليون دولار (١٠) ، وكان فى الامكان أن تسوى فيه حسابات تصل الى الملايين فى ساعة واحدة ، وبلغت الثقة بقدرة الهولنديين المالية وامكان الاعتماد عليهم مبلغا يسر للجمهورية الهولندية أن تقترض المال بفائدة أقل من أى حكومة أخرى ، وقد تهبط الفائدة أحيانا الى ٤ ٪ (١١). ولعل أمستردام كانت أكثر مدن اوربا فى هذا العصر جمالا وتحضرا . وقد رأينا ثناء ديكارت عليها ، وكذلك تحدث عنها سبينوزا (١٢) . وبمثل هذه الحماسة تحدث بيبيس عن لاهاى « مدينة غاية فى النظافة من جميع الوجوه ، بيوتها أنظف مايستطاع فى كل أماكنها ومحتوياتها (١٣) » .

ولولا طبيعة البشر لكانت هذه الأقاليم الرخية جنة فى الأرض ذلك أن ثراءها أغرى انجلترة وفرنسا بالهجوم عليها ، وقد أفضى الصراع على السلطة فى الداخل الى مأساة جان دى ويت ، ومزقت المنافسة بين العقائد الدينيا شعبا لطيفا فى غير هذا ، وبعثت الخصومات العنيفة . ومنع الكلفنيون الغالبون ممارسة الشعائر الكاثوليكية حيثما استطاعوا منعها . وفى ١٦٨٢ ، وضع مجمع دورت (الدوردريشت) اعترافا بالكلفنية القديمة — ربما انتقاما من الغاء مرسوم نانت وألزم كل راع بالتوقيع عليه والا طرد ، وعين بيير جوريو وهو هيجونوتى فرنسى سابق — ليرأس محكمة تفتيش كلفنيه ، واستدعى المهرطقين ، وحاكمهم ، وحرمهم ، واهاب بـ « الذراع الدنيوية » (السلطة الزمنية) أن تزج بهم فى السجون . ولكن هرطقه أرمينيوس نمت رغم ذلك ، واجترأ الشجعان من الرجال على الاعتقاد بأن الله لم يقدر على الكثرة من بنى البشر الهلاك فى النار

الأبدية ، ووجدت المذاهب المنشقة — مينوبيين ، وكليين (ممن آووا سبينوزا) ولو سيانيين ، وتقويين ، وحتى التوحيديين — هؤلاء جميعا وجدوا أن فى إمكانهم العيش فى هولندة بين ثغرات القانون وغفواته . وكان السوسينيون قد التمسوا فى الاقاليم المتحدة ملاذا من الاضطهاد فى هولندة ، ولكن عبادة التوحيديين حرمت بقانون هولندة فى ١٦٥٣ . ونشر دانيال زفيكر بأمستردام فى ١٦٥٨ رساله تشكك فى ألوهيه المسيح ، وأخضعت الكتاب المقدس لـ « عقل البشرية العام » ؛ ومع ذلك استطاع أن يموت فى هدوء وسلام كما يموت الجنرالات . على أن رجلا يدعى كيرباج حكم عليه فى ١٦٦٨ بالسجن عشر سنوات لأنه أفصح عن أفكار كهذه ، ومات فى سجنه . وقد سجن أوريان بيفرلاند لإلماعه الى أن خطيئه آدم وحواء الأصليه كانت الاتصال الجنسى ولم تمت للتفاح بسبب .

وازداد التسامح الدينى قرب ختام القرن السابع عشر . ذلك أن الهولنديين الذين كانوا يتعاملون مع دول كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، ويفتحون موانيهم وسوقهم الماليه لتجار يدينون بديانات كثيرة أو لا يدينون بأى دين ، هؤلاء الهولنديون وجـــدوا من الأنفع لهم أن يمارسوا ضربا من التسامح كان ، رغم ما شابه من نقص ، أرحب بكثير منه فى أى بلد مسيحى . ومع أن الكلفنيين كانوا الغالبين سياسيا ، الا أن الكاثوليك بلغوا من الكثرة مبلغا جعل قمعهم امرا غير ممكن عمليا . أضف الى ذلك أن السيطرة الاجتماعيه والسياسيه التى كانت تتمتع بها الطبقات التجارية والصناعية جعلت الإكليروس — كما قال سر وليم تمبل — أقل نفوذا بكثير من الاكليروس فى الدول الأخرى . وطالب المهاجرون من أقطار أخرى ، الذين أسهموا بقسط فى الاقتصاد أو الثقافة ، بقدر محدود من الحرية الدينية وظفروا به . وحين استولى كرومويل على السلطه فى انجلترة التمس أنصار الملكية فيها السلامة فى هولندة ؛ ولما رد تشارلز الثـــانى الى العرش ، التجأ الجمهوريون الانجليز الى الجمهورية الهولندية . ولما اضطهد لويس الرابع عشر الهيجونوت فر بعضهم الى الأقاليم

المتحدة ، ولماخشى لوك وكولنز وبيل الاضطهادفي انجلترة أوفرنسا ، وجدوا الملاذ فى هولنده ، ولما حرم مجمع أمستردام البرتغالي (اليهودي) سبينوزا ، رحب به العلماء الهولنديون وقدموا له العون ، ورتب له جان دي ويت معاشا . وأصبحت هولندة الصغيرة « مدرسة أوربا [١٥] » فى التجارة والمال والعلم والفلسفة .

ولولا ما أتيح لهذه الحضارة من حرية دينية ، ومن علم وأدب وفن ، لأصبحت حضارة مادية الى حد محزن . وسنلتقى فى فصل لاحق بهويجنس وغيره عن العلماء الهولنديين . وكان هناك شعراء ومسرحيون ومؤرخون هولنديون ، ولكن لغتهم حددت من شهرتهم . وقد حفلت المدن الهولندية بالكتب والناشرين . وبينما لم يكن فى انجلترة سوى مركزين اثنين للنشر هما لندن واكسفورد ، وفى فرنسا باريس وليون ، كان فى الاقاليم المتحدة مراكز فى أمستردام وروتردام وليدن وأوترخت ولاهاى ، تطبع الكتب باللاتينية واليونانية والالمانية والانجليزية والفرنسية والعبرية كما تطبعها بالهولندية . وكانت أمستردام وحدها تملك أربعمائة دار تطبع الكتب وتنشرها وتبيعها [١٦] .

ونافس الولع بالفن الغرام بالمال والمساومة على الخلاص الأبدى . وحلع ساكنو المدن الهولنديون ، الذين عروا كنائسهم البروتستانتية من الزخرف ، خلعوا على نسائهم وبيوتهم الزينه التى انتزعوها من بيوت الرب . فاسترضوا زوجاتهم بالمخمل والحرير والجواهر ، ونشروا على موائدهم صحاف الذهب والفضه ، وزينوا جدرانهم بالنسيج المرسوم ، ورفوفهم أوصراويتهم بالخزف أو الزجاج المحفور . وفى ديفات كان الخزافون الهولنديون بعد عام ١٦٥٠ ، الذين استوحوا الخزف الصينى والياباني ، يصنعون فخارا مزججا . أكثره أزرق على قاعدة بيضاء ، أضفى الجمال المشرق على بيوت كانت من قبل عاريه عرى التزمت الصارم . وقل أن وجدت أسرة هولندية لم تملك على الأقل واحدة من تلك الصور

الصغيرة التى جملت حلم المسكن الهادىء النظيف ، وبهجة الأشجار والأزهار والجداول ، قريبي المنال على جدران البيوت .

٣ - ازدهار صور الحياة اليومية

كان العصر البطولى للتصوير الهولندى قد ولى . فالزبائن الجدد أكثر نفرا ولكنهم أقل مالا ، لذلك طلبوا صورا صغيرة تتيح لهم أن يشهدوا حياتهم اليومية فى خلاصة مقطرة مهذبة ، مشغولة بواقعية تبعث لذة التعرف ، أوملموسة بعاطفة رقيقة ولكنها مالوفة ، أو مغريه للنفس باستشراف مشهد محرر من مشاهد الطبيعة . وقد لبي المصورون الهولنديون هذا الطلب فى رهافة خط وضوء ولون حشدت الصنعة الشديدة التدقيق فى حيز صغير . وهؤلاء الفنانون معروفون فى جميع أرجاء أوربا وأمريكا ، لأن التنافس اليائس فيما بينهم حملهم على أن يطلقوا سيلا متدفقا سريعا من الصور الصغيرة بثمن رخيص ، وهى صور لاتخلو اليوم منها جدران متحف . ونحن اذنترك الشهادة علىوفرة هؤلاء الرسامين لهامش سريع (*) ، نراه لزاما أن ننظر نظرة أكثر تريثا الى جان ستين ، المرح رغم حظه العاثر ، والى أعظم مصورى الحياة اليومية جان فرمير ، والى أعظم مصورى الطبيعة الهولنديين ، يعقوب فان رويسدال .

---

* نيقولا ميرشيم : اللعبة فى الغابة (درسدن) فردیناند بول : یعقوب أمام فرعون (درسدن) ، جيرارد دو : عجوز فى النافذة (فينا) . بارنت فابريتوس : يعقوب وبنيامين (شيكاغو) . بارتلميوس فان درهيلست : عمدة هولندى ، (نيويورك) بيبترهى هوخ : داخل بيت هولندى (لندن) . فيليب دى كونينك : منظر طبيعى (فرانسكفورت) . نيقولا مايس : عجوز تغزل (امستردام) . جابرييل ميتسو : سوق الخضر (لندن) . فرانس فان ميريس الأول : صورة ذاتية مع زوجته (لاهاى) . وليم فان ميريس : التعرف على برسبورا (درسدن) . ايرت فان درنير : منظر نهرى (برلين) . جيرار تربورش : عشاق الموسيقى (لندن) ادريان فان درفلد : المزرعة (برلين) . وليم فان درفلد الثانى . زويدرزى (برلين) جان فينكس الثانى : منظر صيد (لندن) . أدريان فان درفرف : طرد هاجر (درسدن) . فيليب فوفرمان : وقفة جماعة صيد (دولسفش) .

أما ستين فكان ابن صانع جعة فى ليدن ، واشتغل فى لاهاى ، وديلفت ، وهارلم ، وأصبح آخر المطاف صاحب حانة فى ليدن ، وخلال هذه الفترات استطاع أن يجعل من نفسه أفضل مصور الأشخاص فى الفن الهولندى باستثناء رمبرانت . وحين بلغ الثالثة والعشرين (١٦٤٩) تزوج مارجريت ابنة المصور جان فان جوين ، ولم تملك من المهر غير وجهها وقوامها ، ولكنهما أفاداه بعض الوقت نموذجين ملهمين . وكان ينقد أجرا حقيرا على صوره حتى أن صيدليا حجز (١٦٧٠) على كل الصور التى استطاع أن يجدها فى بيت ستين وباعها بالمزاد وفاء لدين قدره عشرة جولدينات . وصوره الأولى تسجل لذات السكر او عقوباتة . وصورته « الحيـــاة المنحلة [١٠] ، وهى مثال ممتاز من صوره ، فيها امرأة نعسانة وأخرى نائمة من الشراب ، وطفل ينتهز الفرصة فيسرق من صوان ، وكلب يأكل من المائدة ، وراهبة تنطلق بعد دخولها الحانه فى عظة عن خطيئة شرب الروم ، وكل شىء فى الصورة مكون ومرسوم بنظام الفن وانسجامه رغم أنه يصور الفوضى . وموضوع أجمل من هذا يبعث الحياة فى صورة أخرى له أسيئت تسميتها بـ « معرض الوحوش [١٨] » ، يرى فيها فتـاة صغيرة تطعم حملا باللبن ، ودجاج الحديقة يثب هنا وهناك ، وطاووس يدلى ذيله من شجرة ذابله ، والحمام يحط فى أعلاها ، ويمامة تحلق قادمة من الطريق . هذا كله لحن رعوى يجعل جميع معضلات الفلسفة تبدو تافهة لامعنى لها . انه الحياة ، وكل جزء له مبرره السكافى الذى يتجاهل المطلقات .

وبعد أن تجاوز ستين فترة الحانة رسم مشاهد مشرقة للحضارة الهولندية : باطن بيوت مبهجة ، ودروس موسيقى ، وحفلات موسيقى ، ومهرجانات ، وأسر سعيدة ، والفنان نفسه ، يدخن فى « الصحبة المرحـة [١٩] » ، أو يعزف على العود [٢٠] . فلما فتت فى عضده الأجور البخسة التى نقدها على عمله ، عاد الى بيع الجعة ، وراح يشرب لينسى ، ثم مات فى الثالثة والخمسين مخلفا أربعمائة صورة بأثرة .

ونظرة إلى صورة واحدة رسمها جان فرميرا و سمها « رأس فتاة »(٢١) تـكشف عن عالم وفن يـكادان يناقضان عالم ستين وفنه . وهذه اللؤلؤة التي يفوق ثمنها اللآلىء بيعت بالمزاد عام ١٨٨٢ بجولدنين ونصف ، ويقدر ناقد قدير في أيامنا هذه أنها « واحدة من اثنتي عشرة صورة هي أروع صور العالم (٢٢) » وواضح أن الفتاة من بيت طيب وأسرة كريمـة ، عيناها خاليتان من الخوف ، لا يغشاهما حتى دهش الشباب الطبيعي ، فهي سعيدة في هدوء ، متيقظة لموسيقى الحياة ؛ وقد قدمها الفنان لنا بصنعة دقيقة في اللون والخط والضوء تجعل من الفرشاة أداة مدهشة للفهم والتعاطف .

وقد ولد فرمير في ديلفت عام ١٦٣٢ ، وعاش هناك على قدر علمنا طوال حياته ومات فيها (١٦٧٥) بالغاً الثالثة والأربعين ، وكاد يكون معاصراً لسبينوزا تماما (١٦٣٢ — ٧٧) . تزوج في العشرين، وأنجب ثمانية أطفال ، وكان يتقاضى ثمنا طيبا على صوره ، ولـكنه عكف عليها في عناية مستنفدة للوقت ، وأنفق المال الـكثير عـلى شراء الصور ، حتى إنه مات مدينا ، واضطرت أرملته إلى التماس المعونة من محـكمة التفاليس . غير أن الأربع والثلاثين صورة التي بقيت من صوره توحي بجو من رفاهية الطبقة الوسطى . وتظهره إحداها(٢٣) في مرسمه لابساً طاقية رقيقة خفيفة ، « وجركينة » متعددة الألوان ، وجوارب طويلة متجعدة ولـكنها حريرية ، وقد انتفخ ردفاه من النعمـة . ولا ريب في أنه سكن حياً راقياً في ديلفت ، ربما في مشارفها حيث استطاع أن يلقي « نظرة على ديلفت (٢٤) » وفي هذه الصورة الشهيرة نحس بحبه الجم لموطنه . ويبدو أنه راض نفسه على البقاء في بيتـه بقناعة أكثر مما نلحظه في مصوري زماننا . فحب البيت يتجلى في أكثر التصوير الهولندي ، ولـكن البيت في فن فرمير يصبح معبـدا صغيرا ، والزوجة معتزة بالخدمات التي تؤديها . وفي لوحتـه « للمسيح مع مريم ومرثا » (٢٥) تشارك مرثا مريم في الجلوس على المنصة . ولم تعد نساؤه تلك الحزم الثقيلة من اللحم التي نراها أحيانا في الفن الهولندي ، ففيهن شيء

من التهذيب والحساسية . بل لقد تجدهن — كما ترى فى السيدة الجالسة فى صورة « السيدة والخادمة » (٢٦) — فاليات اللباس ، رقيقات القسمات ، مصففات الشعر فى عناية ، أو غنيات بالحرير وآلات الموسيقى ، كما فى صورة « السيدة الجالسة إلى المذراوية »(٢٧) (آلة موسيقية) . إن فرمير يصنع من الحياة العائلية ملحمة ، أو قصيدة غنائية ذات لحظات عائلية بسيطة طبيعية ، لا مشاهد جماعية ذات نشاط مختلط متعدد ، بل — فى أفضل ما رسم من لوحات — امرأة واحدة فقط ، تقرأ رسالة فى هدوء (٢٨) ، أو تكب على خياطتها(٢٩) أو تتحلى بقلادة ، أو تنام على خياطتها(٣٠) ، أو مجرد صبية وابتسامتها (٣١) . لقد سجل فرمير بفن كامل شكرانه لامرأة طيبة وبيت سعيد . ولكنه أوشك أن يكون نسياً منسياً فى القرن الثامن عشر ، ونسبت روائعه الصغيرة إلى دى هوخ ، أو تيربورخ ، أو رمبرانت ، ولم يبعث من مثواه إلا فى ١٨٥٨ . واليوم لا يعلو على اسمه غير اسم رمبرانت وهالس فى التصوير الهولندى .

بقى شىء واحد تفتقده فى هؤلاء المصورين للحياة اليومية — هو حياة الطبيعة التى أحاطت بالمدن المتطفلة عليها . فايطاليا ، وبوسان فى ايطاليا ، كانا قد التقطا شيئاً من الهواء النقى والحقول الطلقة ، وستكتشفهما انجلترة فى القرن التالى ، اما المصورون الهولنديون فقد تركوا الآن برهة بيوتهم وباطنها النظيف او المرح ، ووضعوا حواملهم ليقتنصوا سحر الغدران المترقرقة ، وطواحين الهواء الساكنة الوادعة ، والمزارع المزهرة ، والأشجار التى تخجل تمجلنا المحموم ، والمراكب الغريبة تتهادى فى الثغور المزدحمة ، والسحب التى تلون السماء بشتى الأشكال . والعالم كله يعرف لوحة «طريق ميدلهارنس» التى رسمها مايندرت هوبيما — وهى منظر يتلاشى فى فضاء لا نهاية له ، ولكن اجمل منها بكثير لوحته « طاحونة المساء ذات السقف الاحمر الكبير (٣٢) » . وقد وجد ألبرت كويب الالهام فى الابقار السمينة تخوض المستنقعات الوافرة الخضرة (٣٣) ، والخيل تقف ظامئة عند خان ، وقلوع

المراكب تختفي فوق البحر (٣٤). وتعجب سليمان فان رويسدال من ارتعاش المياه التي تعكس وتقلب صورة الزوارق والأشجار (القناة والمدينة)(٣٥)، وعلم ابن أخيه أن يتفوق عليه.

أما ابن أخيه هذا، واسمه يعقوب فان رويسدال، فقد ترعرع في هارلم، وترك لنا «منظرا لهارلم (٣٦)» لا يقل وقعا في نفس الناظر عن لوحة فرمير «ديلفت»، ويفضلها ثقلا لتعقد المدينة الكبيرة بما فيه من اتساع وزحمة. ثم انتقل إلى امستردام واصبح عضوا في الاخوان المينونيين، ولعل تصوفهم أعان فقره على إشعاره بالجانب المأساوي للطبيعة التي أحب أن يغني فيها. وعرف أن تلك الحقول، والغابات، والسماوات التي تمد بالسلام، تستطيع كذلك أن تدمر، وأن للطبيعة نزوات من الغضب قد تقلع فيها الرياح المجنونة حتى أعتى الاشجار واصلبها وتمزقها من جذورها، وأن الشقوق المهلكة قد تتكون في الارض الطيبة، وأن البرق قد ينفث ناره القتالة على كل شكل من أشكال الحياة في لامبالاة عابثة. فصورته «مسقط الماء على الجرف (٣٧)» ليست أنشودة رعوية انما هي ثورة البحر الغاضبة على صخور أقسم أن يحطمها ويغرقها أو يبريها، ولوحة «العاصفة (٣٨)» هي البحر يلطم عدوه اليابس في غضب، ولوحة «الشاطىء (٣٩)» لاتصور شاطئا للهو بل ساحلا كـدرته أمواج عالية تحت سماء مكفهرة، ولوحة «الشتاء (٤٠)» لاتعرض مرح التزحلق، بل كوخا حقيرا يرتجف تحت غيوم منذرة، وحفره الرائع «اشجار البلوط» يجردها من وقارها ليرى أغصانها شعثاء أو عارية، وسيقانها وقد أثخنها الزمن القاسي بالجروح وشوه شكلها. ولوحة «جبانة اليهود (٤١)» هي ذاتها صورة للموت — أسوار متهدمة، وشجرة تموت، ومياه فيضان تجرى فوق القبور. وليس مرد هذا كله أن رويسدال كان دائما مكتئبا، ففي لوحة «حقل القمح (٤٢)» نقل باحساس عميق هدوء طريق ريفي وبركة المحاصيل الوفيرة، وفرحة الفضاء المترامي. ويبدو أن الهولنديين أحسوا أن أرضهم ومناخهم قد افترت عليهما صور رويسدال، فلم ينقدوه عليها الأأجرا بخسا،

وتركوا صاحبها يموت فى ملجأ للفقراء . واليوم يضعه بعضهم فى مكان لايفضله فيه غير بوسان بين مصورى الطبيعه فى جميع العصور (٤٣).

ثروة لا حــد لها فى حجرة صغيرة — رمبرانت وهالس ، فرمير ورويسدال ، سبينوزا وهويجنس ، ترومب ودرويتر ، جان دى ويت ووليم الثالث ، كلهم فى زمن واحد داخل حدود ضيقة ، يكدحون غير آمنين خلف الكثبان ، يصونون فنون السلم وسط نذر الحرب . تلك هى هولندة فى القرن السابع عشر . و « ليست العبرة بكبر الحجم » .

٤ — جان دى ويت : ١٦٢٥ - ٧٢

بعــد أن ظفرت الأقاليم المتحدة باستقلالها عكفت عقب معاهدة وستفاليا على طلب المال واللهو والحرب . كان أهلها أقل أمم الأرض اكتفاء بأنفسهم ، فمحاصيل أرضها لاتقيم أكثر من ثمن سكانها ، وحياة البلاد تعتمد على التجارة الخارجية واستغلال المستعمرات ، وهــذان يعتمدان على بحرية قادرة على حماية السفن والمستوطنات الهولندية . وكان تفوق أسبانيا البحرى قد ولى بهزيمة الأرمادا الأسبانية ، ونشرت البحرية الإنجليزية التى ازدهاها النصر قلوعها فوق أرجاء مترامية من المحيط . ومالبث التوسع التجارى الإنجليزى أن اصطدم بالسفن الهولندية والمستوطنات الهولندية فى الهند وجزر الهند الشرقية ، وأفريقيا ، وحتى فى « امستردام الجديدة » التى ستصبح نيويورك . وأحس بعض الانجليز ، الذين لم تهدأ فيهم بعــد حمية هوكنز ودريك ، أن هؤلاء الهولنديين الجبابرة ينبغى أن يحــل محلهم بريطانيون جبابرة ، وأن هذا ميسور بنصر أو نصرين بحريين . وقد ذكر إيرل كلارندون فى تقرير له « أن التجار ألفوا الحديث عن الفائدة الكبرى التى يجنونها من حرب سافرة مع الهولنديين ، وعن سهولة قهرهم ، وعن حجم التجارة التى يمكن أن ينقلها الانجليز بعد ذلك » (٤٤) ووافق كرومويل الفكرة .

ففى ١٦٥١ أقر البرلمان الانجليزى قانونا للملاحة يحظر على السفن الاجنبية أن تجلب لانجلترة أى بضاعة إلا ماينتجه بلدها . وكان الهولنديون يشحنون إلى انجلترة حاصلات مستعمراتهم ، فتوقفت الآن هذه التجارة الرابحة . وأرسلوا بعثة إلى لندن للحصول على بعض التعديل فى القانون ، فلم يكتف الانجليز برفض الطلب ، بل طالبوا بأن تخفض المراكب الهولندية أعلامها إذا التقت بالمراكب الانجليزية فى «المياه الانجليزية» (أى جميع المياه بين انجلتره وفرنسا والأراضى المنخفضة) اعـترافاً بسيادة الانجليز على تلك البحار . وعاد المبعوثون الهولنديون بخفى حنين إلى لاهاى . وفى فبراير ١٦٥٢ استولى الانجليز على سبعين سفينة تجارية هولندية وجدوها فى «المياه الانجليزية» . وفى ١٩ مايو التقى أسطول انجليزى بقيادة روبرت بليك بأسطول هولندى بقيادة مارتن ترومب ، ورفض ترمب خفض علمه ، فهاجمه بليك ، وانسحب ترومب . وهكذا بدأت «الحرب الهولندية الأولى» .

وأوشكت انفصالية الأقاليم ، المفروض أنها متحدة ، أن تجر عليها الدمار . ذلك أن الزعامة الحربية الموحدة التى أتاحها لها من قبـل أمراء أورنج كانت قد انقطعت ، وأصبح المجلس التشريعى للولايات جمعية للمناقشة والجدل بدلا من أن يصبح دولة . أما الانجليز فكانوا يملكون حكومة قوية مركزة يرأسها رجل شديد البأس هو كرومويل ، وكان لهم بحرية أفضل ، وقد أوتوا جميع الميزات التى حبتهم بها الجغرافيا والرياح الغربية السائدة . فدمروا أساطيل الصيد الهولندية ، واستولوا عـلى المراكب التجارية الهولندية ، وهزموا أمير البحر الهولندى درويتر تجاه ساحل كنت . وانتصر ترومب على بليك تجاه دنجينيس (٣٠ نوفبر ١٦٥٢) ، ولـكنه مات فى المعركة فى يوليو التالى . وكانت نتيجة سنة واحـدة من الحرب إثبات تفوق انجلترة بالبرهان الدامغ . وكاد حصار الإنجليز للساحل الهولندى يشل الحياة الاقتصادية فى الأقاليم المتحدة . وأشرف الألوف من سكانها على الهلاك جوعا وهددوا بالتمرد .

فى هذه المرحلة الحاسمة التعسة اضطلع جان دى ويت بزعامة البلاد ، وكان ينتمى إلى أسرة بعيدة العهد بالتفوق فى التجارة والسياسة الهولنديتين . وقد انتخب أبوه يعقوب دى ويت عمـــدة على دوردشت ست مرات . أما جان فقد تلقى كل التعليم الميسور ، وجاب أرجاء فرنسا مع أخيه الأكبر كورنيليس ، والتقى بكروموبل فى إنجلترة ، ثم استقر فى لاهاى محامياً (١٦٤٧) . وبعد ثلاث سنوات كان أبوه واحـدا من الزعماء الجمهوريين الذين أودعهم السجن وليم الثانى أمير أورنج ، رئيس الدولة ، رغبـــة فى توطيد سلطته السياسية والحربية على جميع الأقاليم . فلما مات وليم الثانى (١٦٥٠) رفض المجلس التشريعى قبول ابنه الذى ولد عقب وفاته خلفاً له ، ربما متأثراً فى ذلك بإقامة انجلترة حكومة جمهورية فيها (١٦٤٩) بصورة بدا أن التوفيق حالفها ، وألغى منصب رئيس الدولة . وأصبحت المسرحيـــة الداخلية للأقاليم المتحدة صراعاً بين الروح التجارية الجمهورية المسالمة التى يمثلها دى ويت ، والروح الأرستقراطية العسكرية التى أزمع أن يحييها بعد قليل الشاب المتحمس وليم الثالث .

وفى ٢١ ديسمبر ١٦٥٠ ، انتخب جان دى ويت — وهو لا يزال فى الخامسة والعشرين — كبيراً لولاة دوردرشت ، وممثلا لها فى المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة . وفى فبراير ١٦٥٣ عينه المجلس حاكماً أعلى للجمهورية ، وناط به مهـــمة عسيرة هى مفاوضة إنجلترة المنتصرة على الصلح . وكان كروموبل قاسياً لا يرحم ، فطالب بأن يعترف الهولنديون بالسيادة الانجليزية ويحيوا العلم الانجليزى فى القنال الانجليزى ، وبأن يسلموا بحق القباطنة الانجليز فى تفتيش السفن الهولندية فى البحر ، وبأن يؤدوا رسـوماً نظير امتياز الصيد فى المياه الانجليزية ، وبأن يدفعوا تعويضاً عن قتل الهولنديين للانجليز فى أمبوينا عام ١٦٢٣ ، وبأن ينحوا بصفة دائمـــة عن الوظائف أو السلطة جميع أفراد بيت أورنج — الذى قطع على نفسه عهداً بأن يرد أسرة ستيوارت إلى عرش انجلترة لما بينه وبينها من مصاهرة . وحذف

دى ويت هذا البند الأخير من المعاهدة كما قدمت للمجلس التشريعى وكما تصدق عليها منه (٢٢ أبريل ١٦٥٤) ، ثم أقنع المجلس التشريعى لاقليم واحد — هو اقليم هولندة — بقبول المعاهدة بما فيها هذا البند . ولم يغتفر له وليم الثالث فعلته هذه قط .

ثم وطد دى ويت مركزه بالزواج من ويندبلا بيكر الغنية ، وأصبح عن طريقها صهرا لأمراء التجارة فى أمستردام ، وبتأييدهم شغل اهم المناصب فى هولندة هو وأبوه ، وأخوه ، وبنو عمومته ، وأصدقاؤه ، وسرعان ماقبض على زمام الحكم كله فى الاقليم . وقبلت أقاليم أخرى زعامته على مضض ، لأن هولندة التى أغنتها موانيها كانت تدفع سبعة وخمسين فى المائة من نفقات الاتحاد ، وتقدم معظم الاسطول الهولندى ، ولم يكن محبوبا من جماهير الشعب . ولكن حكمه كان مستنيرا وكفؤا . فقد حد من النفقات الباهظة ، وخفض الفائدة على الدين الفدرالى ، وأجرى خصما شاملا الأسطول ، وبنى سفنا أفضل ، ودرب عاملين جددا فى البحرية . واذ كان يعكس مشاعر التجار ، فانه كافح فى سبيل السلام ولكنه استعد للحرب . وفى ١٦٥٨ ، ثم فى ١٦٦٣ ، أعيد انتخابه حاكما اعلى للاقاليم المتحدة . وقد وقع من نفوس المراقبين باخلاصه لمهام الحكم ، وببساطة مسلكه وتواضعه ، وبنقاء حياته العائلية . ويسرت له ثروة زوجته العيش فى منزل فخم يستطيع أن يستقبل فيه المبعوثين الأجانب فى جومهيب ، ولكن ذلك المنزل كان مركزا للثقافة الهولنديه أكثر منه مركزا للمظهر المترف ، فقد امتزج فيه الشعر بالسياسة ، ونوقش العلم والفلسفة رعيا بحرية لايطيقها ناخبودى ويت الكلفنيون . وحتى سبينوزا ، ذلك المهرطق المرهوب ، وجد صديقا وفيا وحاميا له فى الحاكم الأعلى .

لقد كانت مأساته دائما أنه أحب السلام أكثر من الحرب ، بينما كان جيران الجمهورية الغنية يكتلون قواهم للقضاء عليها . وفى ١٦٦٠ رد تشارلز

الثانى الى عرش انجلترة ، فأوصى جان دى ويت مشدداً بأن يرضى عن ابن أخته وليم أورنج الثالث ، وبعد قليل طالب بالغاء « قانون الإبعاد » الذى أقصى بمقتضاه وليم عن المناصب ، ووافق دى ويت وهكذا مهد الملك الاستيوارتى لسقوط أسرة ستيوارت على غير قصد منه . وفى اكتوبر ١٦٦٤ ، استولت حملة انجليزية على مستعمرة نيو أمستردام الهولندية ، وأطلقت عليها اسماً آخر هو نيويورك تكريماً لدوق يورك (جيمس الثانى مستقبلا) وكان يومها قائد البحرية الانجليزية . واحتج المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة ، ولم تعبأ إنجلترة بالاحتجاج ، وفى مارس ١٦٦٥ بدأت الحرب الهولندية الثانية .

وقد برر الموقف ما سبق أن اتخذه دى ويت من استعدادات . ذلك أن ضعف القيادة قد انتقل من المجلس التشريعى إلى حكومة تشارلز الثانى الغافلة العاجزة ، وبينما كان الملك المرح يراقص خليلته ، ظفر دى ويت بالثناء حتى من أعدائه على الهمة والإخلاص اللذين بذلهما لكل نواحى التنظيم الحربى وتفاصيله . فقد أبحر غير مرة مع الاسطول ، وعرض نفسه لكل مخاطر المعركة ، وألهم الملاحين بشجاعته وغيرته . ولم تكن البحرية الهولندية إلى ذلك الحين كفوًا للبحرية الانجليزية فى السفن أو الرجال أو النظام ، فأوقعت البحرية الانجليزية بقيادة دوق يورك هزيمة حاسمة بالبحرية الهولندية فى أول لقاء كبير فى الحرب (لوفستوفت ، ١٣ يونيو ١٦٦٥) . على أن المواطنين الهولنديين الصابرين أعادوا بناء أسطولهم وولوا عليه رجلا من أقدر وأجرأ أمراء البحر الذين عرفهم التاريخ . وفى يونيو ١٦٦٧ قاد هذا الرجل ، وهو ميشيل أدريانسزون درويتر ، ستا وستين سفينة إلى نهر التيمز ، واستولى على قلعه شيرنيس (على نحو أربعين ميلا شرقى لندن) ، وحطم الحواجز التى تعترض الدخول فى نهر ميدواى (الذى يصب فى التيمز عند شيرنس) وأخذ ، أو أحرق ، أو أغرق ست عشرة سفينه حربيه كانت راسيه هناك دون تأهب لمثل هذا الزائر الوقح (١٢ يونيو ١٦٦٧) . وإذ

لم يكن بتشارلز الثانى ولع بالحرب ، فقد أمر دبلوماسييه أن يعرضوا على الهولنديين صلحاً مقبولا . وفى ٢١ يوليو ١٦٦٧ وقعت الدولتان معاهدة بريدا ، وبمقتضاها نزل الهولنديون لانجلترة عن نيويورك التى خالوها غيرهامه ، ووافقوا على أن يحيوا العـلم الانجليزى فى المياه الانجليزية ، ونزلت انجلترة للهولنديين عن مستعمرة سورينام (جيانا الهولندية فى أمريكا الجنوبية) وعدلت قانون الملاحة لصالح التجارة الهولندية . وكانت المعاهدة نصراً معتدلا لدى ويت وبلغت به قمة نجاحه .

غير أنه ارتكب الآن سلسلة من الأخطاء القاتلة ، فقد زاد من تنفير مؤيدى وليم الثالث بأن أجاز فى المجلس الإقليمى لهولندة (٥ أغسطس ١٦٦٧) « مرسوماً دائماً » يمنع أى حاكم لأى أقليم من تولى قيادة الجيش أو البحرية العليا للاتحاد . فاستقال على إثر ذلك أتباع الأمير الشاب من الجيش وتركوه خلوا من القواد المحنكين . ولسوء الحظ وقع هذا الحدث ، الناجم عن المنافسة بين أسرتين ، بينما كانت فرنسا تغزو الأراضى المنخفضة الأسبانية ، فهددت بذلك المصالح الحيوية للأقاليم المتحدة . فلو أن فرنسا هيمنت على الأقاليم الجنوبية لأسرعت بفتح الشلت للتجارة الأجنبية من جديد ، فإذا انتعشت بذلك أنتورب تحدت السيادة التجارية لأمستردام ، وأصبح اقتصاد الأقاليم الشمالية كله فى خطر . ثم كم من الزمن سيقف لويس الرابع عشر عند الحدود الهولندية لا يتجاوزها ؟ لو أن رأيه استقر على أن يلتهم الأقاليم المتحدة ، ويستولى على مصاب الراين ، لما بقى للبلد فى الواقع وجود ، ولقضى على البروتستنتية الهولندية قضاء مبرماً .

وعرض دى ويت على الملك المعتدى سلسلة من الحلول الوسط ، ولكنه رفضها . فاتفق مع أنجلترة (٢٣ يناير ١٦٦٨) ، ثم مع السويد ، على حلف ثلاثى للدفاع المشترك ضد التوسع الفرنسى . ووافق لويس فى لباقة على إنهاء « حرب الأيلولة » (الوراثة الأسبانية) شريطة أن يستبقى نطاقاً من المدن

والحصون التى استولى عليها فى فلاندر وإينو . وارتضت هذه الشروط أنجلترة والسويد ، ثم الأقاليم المتحدة ، فى معاهدة إكس — لا - شابل (٢ مايو ١٦٦٨) . وبدا أن دبلوماسية دى ويت جنبت البلاد الخطر ، وفى يوليو انتخب للمرة الرابعة ليشغل منصب الحاكم الأعلى للجمهورية فترة خمس سنوات أخرى .

ولكنه أخطأ استقراء سياسات ملكى فرنسا وأنجلترة . ذلك أن لويس لم يغتفر للهولنديين قط تدخلهم فى غزوه للأراضى المنخفضة الأسبانية . فأقسم أنه « إن ضايقته هولنده كما ضايقت الأسبان فسيرسل رجاله بالجارف والمعاول ليقذفوا بها فى البحر[45] » ، ربما بفتح الجسور البحرية عليها . كانت تغيظه الجمهورية ، وكان يطمع فى الراين ، فعقد النية على تدمير تلك ، والسيطرة على هذا . وزادت الصراع شدة حرب التعريفات الجمركية التى نشبت بين الخصمين ، فقد فرض كولبير رسوما مانعة على البضائع الهولندية التى تدخل فرنسا ، ورد الهولنديون عليها بمثلها . ولكن الذخيرة الحربية استثنيت استثناء بارعاً من هذه القيود ، ذلك أن لوفوا ، وزير الحربية الفرنسى ، أقنع رجال الصناعة الهولنديين بأن يبيعوه مقادير هائلة من العتاد الحربى[46] ، وفى الوقت نفسه امتنع رجال الأعمال الهولنديون عن الموافقة على الضرائب التى أراد دى ويت فرضها لتزويد الجيش بالأمداد والمؤن . وأثبت السلك الدبلوماسى الفرنسى حذقه ، أو ثراءه ، بعزله إنجلترة والسويد عن تحالفهما مع الأقاليم المتحدة . فوافق تشارلز الثانى فى معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) على التخلى عن الحلف الثلاثى والانضمام إلى لويس فى حربه مع الهولنديين . أما السويد فقد انسحبت من الحلف فى ١٦٧٢ لحاجتها للمعونة الفرنسية ضد الدنمرك وألمانيا ، ووعدت أسبانيا ، والأمبراطورية ، وبراندنبورج ، الجمهورية بالمساعدة ، ولكن ما كان تحت تصرفها من قوات كان أضأل أو أبعد من أن يكون له كبير وزن أمام

القوات المجندة الضخمة التي أطلقت الآن على الأقاليم المتحدة براً وبحراً . وعاد دي ويت يعرض التنازلات والحلول الوسط ، فرفضها لويس

وفي ٢٣ مارس ١٦٧٢ بدأت إنجلترة الهجوم على الجمهورية الهولندية ، وفي ٦ أبريل أعلنت فرنسا عليها الحرب . وسرعان مازحف نحو ١٣٠٫٠٠٠ مقاتل على الدولة الصغيرة يقودهم تورين ، وكونديه ، ولكسمبور ، وفوبان ، ولويس نفسه . يقول فولتير « لم يشهد الناس من قبل جيشاً فخماً كهذا الجيش(٧) » ، واخترقت القوة الفرنسية الرئيسية ، باستراتيجية بارعة وغير متوقعة ، الأراضي الألمانية — مهدئة ثائرة القرى بـ « الهدايا » — لتهاجم النقط الأضعف تحصيناً . وفي ١٢ يونيو ، وتحت نيران الهولنديين وبصر الملك ، عبر الفرنسيون الراين ، وهم يسبحون عرض الأقدام الستين التي لم يسمح لهم عمقها أن يخوضوها ، وأصبح هذا حدثاً محبباً تتناوله الصور والأيقونات الملكية . وزحفت الجيوش الملكية شمالا إلى قلب الأقاليم المتحدة ، فاستولت بسهولة على المدينة تلو المدينة . واستسلمت أوترخت دون مقاومة . وأذعن أقليما أوفريسيل وجلدرلاند ، ولم يبق بعد قليل غير أمستردام ولاهاي . ولم تجد كثيراً تلك الهزيمة التي أوقعها درويتر في ٦ يونيو بالأسطولين الإنجليزي والفرنسي مجتمعين في خليج ساوثوولد . وطلب دي ويت الصلح ، فطالب لويس بتعويض ضخم ، وبسيطرة الفرنسيين على جميع الطرق الهولندية البرية والبحرية ، وبرد الكاثوليك إلى جميع أرجاء الجمهورية . ورفض الهولنديون هذه الشروط لأنها لا تفضل العبودية ، فلجأوا إلى دفاعهم الأخير : وفتحوا الجسور ، وأدخلوا البحر عدوهم القديم صديقاً منقذاً ، وما لبثت المياه أن تدفقت على اليابس ، وتقهقر الفرنسيون عاجزين أمام هذا الفيضان الذي أخذهم على غرة .

ومع هذا فقد خربت البلاد ، فكانت جيوش أسقف مونستر وناخب كولونيا ، المتحالفين مع لويس ، تزحف دون عائق على إقليم أوفريسيل ،

والسفن الفرنسية والإنجليزية تغير على التجارة الهولندية رغم أنف درويتر ، وأشرفت الحياة الاقتصادية للدولة المحاصرة على الانهيار . أما دي ويت فقد كافح خلال هذه الشهور القاسية كما لم يكافح أي رجل قبله في تاريخ هولنده — فجمع الأموال ، وجهز الأسطول وزوده ، ووقف إلى جوار درويتر في معركة خليج ساوثوولد ، وحاول بالبعثة تلو البعثة أن يفاوض على صلح ينقذ وطنه . وفي يونيو ١٦٧٢ عرض على لويس أن ينزل له عن ماسترشت واجزاء من برابانت الهولندية ، وأن يدفع كل نفقات الحرب . ولكن لويس ازدرى هذا العرض أيضاً ، ولما سمع مواطنوه بأمر العرض نددوا به رجلا يبيت استسلام الخيانة للويس[٨] . وألقى عليه الشعب الآن كل تبعة ما أصابهم من نكبات . واتهموه بالثقة الساذجة المستهترة في وعود تشارلز الثاني ولويس الرابع عشر ، ورموه بتعيين أقاربه في أكثر من عشر وظائف مجزية ، وفوق هذا كله لم يستطيعوا أن يغتفروا له حرمان بيت اورنج من امتيازاته الحربية والسياسية التي حفظت على الأقاليم الهولندية حريتها طوال قرن من الزمان . ثم لاموه على عجز قواده البورجوازيين وجبنهم . ورماه القساوسة الكلفنيون بانه ملحد مقنع ، وتابع لديكارت وصديق لسبينوزا [٤٩] . وحتى طبقات التجار التي كانت من قبل سنده الأكبر انقلبت عليه الآن واتهمته بانه منظم الهزيمة .

وشاركه أخوه كورنيليس في تلقي بغض الجماهير وشتائمها ، وهو الذي قاسمه من قبل مكافآت المنصب وأعباء الحرب ومخاطرها . وفي ٢١ يونيو ١٦٧٢ بذلت محاولة فاشلة لاغتيال جان ، وبعد يومين تلتها محاولة أخرى لقتل كورنيليس . وفي ٢٤ يوليو قبض موظفو لاهاي على كورنيليس بتهمة التآمر على أمير اورنج وفي ٤ أغسطس استقال جان من منصبه حاكماً أعلى . وفي ١٩ أوغسطس عذب كورنيليس وحكم عليه بالنفي . وشق جان طريقه خلال المدينة المعادية الى سجن الجيفانجينبورن ليرى أخاه رغم أنه حذر بانه يعرض حياته للخطر . ومالبث جمع من

الغوغاء أن احتشد خارج السجن يحرضه رئيس شرطة وصائغ وحلاق . وكان هناك حارس مدنى كلف برد الغوغاء ولكنه شاركهم حقدهم على الأخوين دى ويت ، فلم يبد أى مقاومة حين حطموا أبواب السجن واندفعوا الى داخله . وقبضوا على جان وكورنيليس ، وجروهما الى الميدان ، وضربوهما حتى الموت ، وعلقوا جثتيهما على عمود نور ورأساهما منكسان (٢٠ أغسطس ١٦٧٢) . ومات الجمهورية الهولندية بموتهما ، وعاد بيت أورنج الى السلطة من جديد .

٥ - وليم أورنج الثالث

نشأت مارى ستيوارت ولدها على لون مكتئب من ضبط النفس يترقب فى صمت فرصته حتى يأتى التجلد بالنصر ، وذلك بعد أن حطم روحها إعدام أبيها تشارلز الأول (١٦٤٩) ، وموت زوجها الشاب وليم أورنج الثانى (١٦٥٠) ، والغاء منصب رئاسة الدولة ، واقصاء بيت أورنج عن الوظائف . هذا الصبي الهزيل الجسد ، الذى أحدق به فى نموه الأعداء المكلفون بحراسته ، والذى ورث رغم ذلك عن وليم أورنج الأول شعاره «سأقاوم» — تقول انه شب فتى عليلا يخفى وراء وجهه الجامد نارا مستعرة من العزيمة والثأر . واذ كان صارما ، مؤدبا ، مجاملا فى برود ، فقد زهد فى اللهو والمرح ، ومارس الرياضات الخلوية علاجا لصداعه المتكرر ولتعرضه لنوبات الاغماء . لقد كان إناء ضعيفا لتلك الروح التى ستستولى على عرش انجلترة وتؤدب ملك فرنسا .

وذهبت أمه الى انجلترا فى ١٦٦٠ ابتهاجا بتتويج أخيها ، وماتت هناك بالجدرى فى ليلة عيد الميلاد . وفى ١٦٦٦ أعلنت حكومة الاقاليم مولدها الأمير ذا الستة عشر عاما قاصرا تحت وصاية الدولة ، واستبدل جان دى ويت بأوصيائه ومعلميه المحبوبين اشخاصا اكثر استجابة لسياسة المجلس

الاقليمي (٥٠). وكان كره وليم لدى ويت يزداد على الايام . وفى قتة سلطان جان ، أفلت الأمير من رقابة أوصيائه الجدد وركب جواده من لاهاى الى بيرجن أوب – زوم (١٦٦٨) ، ثم استقل زورقا الى زيلندة ، وكانت اكثر الأقاليم ولاء لأجداده وحياه سكان عاصمته مدلبورج بمظاهرات كبيرة تفيض حبا واخلاصا . فتولى دون تردد أو مقاومة رئاسة مجلس الاقليمي لزيلندة . فلما عاد الى لاهاى أعلن انه بلغ الآن رشده فى عيد ميلاده الثامن عشر (٤ نوفمبر ١٦٦٨) ، وأنه منذ الآن سيستغنى عن الأوصياء الذين عينهم له مجلس هولنده . ولكن المجلس رفض سحبهم ، فطردهم ، ولكنهم بقوا . وترقب وليم فرصته .

وقد واتته حين اكتسحت الجيوش الفرنسية والألمانية الأقاليم الهولندية ، واستسلمت الجيوش الهولندية بلدا بعد بلد ، وبدا أن لاهاى ذاتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وعين المجلس التشريعى وليم قائدا عاما للاتحاد (٢٥ فبراير ١٦٧٢) ، مذعنا لمطالب العسكريين ، ومؤملا أن تعود الى الأمة وحدتها ومعنويتها برد بيت أورنج الى مكان القيادة وفى ٢ يوليو انتخب مجلس زيلندة وليم حاكما لاقليمهم ، ضاربا بالمرسوم الدائم عرض الحائط ، وفى ٤ يوليو حذا مجلس هولنده حذوه ، وفى ٨ يوليو عين قائدا أعلى لقوات الاتحاد المسلحة فى البر والبحر . وقد ظهر معدنه حين عرض ملك فرنسا الصلح نظير تعويض بلغ ستة عشر مليون فلورين ، والنزول عن مساحات كبيرة لفرنسا ، ومونستر ، وكولونيا ، وقدم عرض سرى بالاعتراف بوليم ملكا على الباقى . واتجه اليه مجلس هولنده يطلب النصيحة فأجاب ، « خير لنا أن نقطع إربا من أن نقبل هذه الشروط (٥١) . » وحين حضر دوق بكنجهام الثانى من انجلترة ليحث وليم على الصلح وقال له « الا ترى أن وطنك قد ضاع ؟ » أجاب « ان وطنى فى خطر عظيم ، ولكن هناك سبيل مؤكد لمنعه من الضياع ، وهو الموت فى آخر خندق (٥٢) » . ومع ذلك فى حكمة تستغرب من فتى فى الثانية والعشرين ، اهار بالمفاوضات الصابرة المجاملة مع الانجليز ، ولعله رأى آنئذ أن فى التعاون

بين الانجليز والهولنديين الأمل الوحيد لكبح اعتداءات فرنسا . واتخذ من التدابير ما يكفل توثيق الروابط بين الأقاليم المتحدة ، والامبراطورية ، وبراندنبورج . وكانت الخطوط العريضة للحلف الأعظم تتشكل فى ذهنه .

ومضى الى المقر الرئيسى للجيش ، لذلك كان غائبا عن لاهاى حين قتل الأخوان دى وبت . والظاهر أنه لم يكن ضالعا فى تدبير هذه الفعلة ، التى ربما لم يدبرها أحد ، ولكنه لم يخف ارتياحه حين سمع بنبئها ؛ وحمى الرجال الذين قادوا الغوغاء ورتب لهم معاشا (٥٣) . ثم حاول الآن أن يكون قائدا كفؤا ، فلم يوفق قط فى محاولته ، غير أن المقاتلين المحنكين الذين انضووا تحت لوائه فى حماسة أعادوا تنظيم الجيش والبحرية ، وبدأت الانتصارات ترجح الهزائم ، وتفوق درويتر وكورنيليس ترومب (بن مارتن) على الأسطولين الانجليزى والفرنسى فى شونفيلت وكيكدوين (١٦٧٣) ، وصد الغزاة الألمان عند جرونتجن ، واستولى ولبم على . ناردن ، وطهرت أقاليم جلدرلاند وأوترخت ، واوفريسل ، من العدو . وراح الفرنسيون يتقهقرون فى كل مكان تقريبا ، وأنقذت الأقاليم المتحدة ، مؤقتا على الأقل ، فهللت لوليم منقذا لها .

ثم أضاف الى هذه الانتصارات انتصارات دبلوماسية . ففى ١٩ فبراير ١٦٧٤ أقنع انجلترة بأن تبرم معه صلحا منفردا إذ وافق على أن يدفع لها تعويضات حربية قدرها مليونا فلورين ؛ وفى ٢٢ أبريل و ١١ مايو وقع معاهدتين مع مونستر وكولونيا ، ثم اكد التحالف القائم بين الأقاليم المتحدة ، وأسبانيا ، وبراندنبورج ، الدنمرك ، والامبراطورية ، ضد فرنسا التى أصبحت الآن معزولة . وكانت الضربة الأخيرة ظفره بيد مارى ، كبرى بنات جيمس دوق يورك وشقيق ملك انجلترة . وتقاربت الآن الدولتان البروتستنتيتان الكبريان ، وراحت الشبكة تحكم خيوطها حول فرنسا ، ولم يكن أمرا هينا أن يكون لمارى حق فى وراثة العرش الانجليزى لايتقدم عليه غير حق أبيها فيه . والمدرف التاريخ أن دبر حاكم صغير السن كوليم مثل هذه الخطط البعيدة النظر ، ولا حقق لها نجاحا كهذا النجاح .

على أن الفرنسيين جددوا هجومهم خلال ذلك ، فاستولوا على إيبروغنت ، وزحفوا نحو الحدود الهولندية . وهزم أسطول فرنسي درويتر تجاه شاطىء صقلية (٢٢ أبريل ١٦٧٦) ، وبعد أسبوع مات درويتر متأثراً بجراحه . وعرض لويس الصلح على الأقاليم المتحدة بشروط مغرية : أن يرد كل الأراضي الهولندية التي استولى عليها الفرنسيون ، شريطة أن توافق الأقاليم المتحدة على احتفاظه بفرانش - كونتيه واللورين . واحتج الامبراطور ، وبراندنبورج ، والدنمرك على هذا الصلح ، وأيدهم وليم ، ولكن المجلس التشريعي الذي غلبت عليه المصالح التجارية تغلب على رأيه ، وتخلى عن حلفائه ، ووقع مع فرنسا صلح نيميجن المنفصل (١٠ أغسطس ١٦٦٧) .

أما وليم فقد نظر إلى الصلح على أنه مجرد هدنة ، وكافح طوال السنوات العشر التالية ليعيد بناء الحلف وكبح التجار الهولنديون طمحه العسكري ، محتجين بأن الأقاليم المنهكة في حاجة لأن تستريح من النضال ، وأن الرخاء في طريقه إليها . على أن حدثين وقعا عام ١٦٨٥ فاستغلهما وليم ذلك أن لويس ألغى مرسوم نانت ، فاحتشد الهيجونوت المضطهدون في الأقاليم المتحدة ، وتزعموا دعوة نشيطة لتوحيد الدول البروتستينية ضد فرنسا . وفي انجلترة كشف جيمس الثاني ، بعد أن تولى عرشها ، عن أمله في رد الأمة إلى الكثلكة ، فدبر البروتستنت الإنجليز عزله ، وبذلك يحل حق ماري زوجة وليم في العرش . وكان وليم قد عشق اليزابيث فيلييه ، صديقة ماري(٥٤) الحميمة ، ولكن ماري غفرت له ، ووافقت على طاعة زوجها يوم أن هي أصبحت ملكة على انجلترة وفي ١٦٨٦ أفلح وليم في تنظيم حلف مع الامبراطورية ، وبراندنبورج ، وأسبانيا ، والسويد ، للدفاع المشترك . وفي ٣٠ يونيو ١٦٨٨ دعا الزعماء البروتستنت الانجليز وليم وماري إلى دخول انجلترة بقوات مسلحة ومساعدتهم على خلع ملكهم الكاثوليكي . وتردد وليم ، لأن لويس الرابع عشر كان تحت يده جيش عرمرم ينتظر قرار الملك ليهاجم الأراضي المنخفضة أو الامبراطورية . وأرسل لويس الأمر للجيش بأن يزحف على ألمانيا ، فأطلق بذلك يد وليم . وفي ١ نوفمبر ١٦٨٨ أبحر بأربعة عشر ألف رجل ليكسب عرش انجلترة .

فهرس

الجزء الأول

من المجلد الثامن

الكتاب الأول

فرنسا فى أوج عظمتها ١٦٤٣ – ١٧١٧

الفصــل الخامس

الفصــل السادس

المراجع

م

CHAPTER I

1. Motteville, Mme. de, *Memoirs*, I, 79.
2. Retz, Cardinal de, *Memoirs*, 103.
3. Motteville, I, 81.
4. Retz, 103.
5. Motteville, III, 232.
6. *History Today*, July 1959, p. 461.
7. Bishop, M., *Life and Adventures of La Rochefoucauld*, 149.
8. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 36.
9. Retz, 281.
10. Sainte-Beuve, *Portraits of the Seventeenth Century*, I, 335.
11. Retz, 55, 73.
12. Voltaire, *Louis XIV*, 67.
13. Michelet, *Histoire de France*, IV, 388; Acton, *Lectures on Modern History*, 235.
14. Motteville, III, 237.
15. Palmer, *Molière*, 15.
16. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 361.
17. Sainte-Beuve, I, 422.
18. *Ibid.*, 417.
19. *History Today*, March 1954, p. 149.
20. Voltaire, 256.
21. *Ibid.*, 69.
22. Rea, Lilian, *Countess of La Fayette*, 170.
23. Ferval, *Louise de La Vallière*, 55.
24. Saint-Simon, II, 369.
25. Sainte-Beuve, I, 413.
26. Saint-Simon, II, 361.
27. Sainte-Beuve, I, 423.
28. Louiv XIV, *Mémoires*, 35.
29. In Sainte-Beuve, I, 417.
30. Boulenger, *Seventeenth Century*, 178.
31. Motteville, III, 248.
32. Lewis, W. H., *Splendid Century*, 30.
33. Voltaire, 257.
34. Barine, *La Grande Mademoiselle*, 117.
35. Louis XIV, 76.
36. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 63-65; Michelet, IV, 424-27.
37. Guizot, *History of Civilization*, I, 260.
38. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 533.
39. Louis XIV, 96.
40. King, J. E., *Science and Rationalism in the Government of Louis XIV*, 87.
41. Saint-Simon, II, 34.
42. Louis XIV, 68.
43. King, 95.
44. Saint-Simon, II, 106, 370.
45. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 153.
46. Louis XIV, 70.
47. France, Anatole, *Nicolas Fouquet*, 258.
48. Voltaire, 262.
49. Martin, H., I, 23, quoting de Choisi.
50. Louis XIV, 74.
51. Martin, I, 22.
52. Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 93.
53. Martin, I, 34.
54. *Ibid.*, 33f.; Michelet, IV, 410.
55. Boulenger, 356.
56. Mousnier, R., *Histoire générale des civilisations*, IV, 148.
57. Voltaire, 324; Martin, I, 79.
58. Michelet, IV, 418.
59. Mousnier, IV, 148.
60. Voltaire, 273; Martin, I, 86.
61. Boulenger, 357; Lewis, *Splendid Century*, 81.
62. *History Today*, March 1954, p. 155.
63. Mousnier, IV, 252.
64. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 154.
65. Mousnier, IV, 250; *Cambridge Modern History*, V, 11.
66. Boulenger, 355.
67. Levasseur, *Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789*, I, 394.
68. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 366.
69. In Acton, *Lectures*, 326.
70. Martin, I, 489-90, 496.
71. Voltaire, 323.
72. Martin, I, 558.
73. Barine, 13.
74. Saint-Simon, I, 383; Voltaire, 288.
75. *Encyclopaedia Britannica*, XIII, 778c; Brereton, *Jean Racine*, 245-51.
76. Molière, *Théâtre: École des femmes*, I, i.
77. Sainte-Beuve, I, 250; Day, Lillian, *Ninon*, 34.
78. Sévigné, Mme. de, *Letters*, I, 98, April 1, 1671.
79. Day, *Ninon*, 141.
80. Parton, *Life of Voltaire*, I, 33.
81. Saint-Simon, I, 344.
82. Sévigné, I, 105, April 8, 1671; Day, *Ninon*, 242.
83. *Ibid.*, 80.
84. Saint-Simon, I, 344.
85. Day, 246.
86. *Ibid.*, 185.
87. Saint-Simon, I, 345.
88. Day, 260.
89. Sainte-Beuve, II, 199.

90. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 109.
91. Michelet, V, 118.
92. Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 74.
93. Boulenger, 349.
94. Bourgeois, 77; Guizot, *History of France*, IV, 587.
95. La Bruyère, *Characters*, chap. "Of the Gifts of Fortune."
96. Voltaire, 278.
97. Saint-Simon, II, 11.
98. Fulop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 415.
99. Martin, I, 172.
100. *Ibid.*, 171.
101. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 942.
102. Day, *Ninon*, 163.
103. Cartwright, *Madame; A Life of Henrietta, Duchess of Orléans*, 89.
104. Racine, *Oeuvres: Andromaque*, Dedication.
105. Michelet, IV, 405.
106. *Ibid.*, V, 158.
107. Cartwright, 371; Voltaire, 284; Martin, I, 312.
108. Ferval, *La Vallière*, 67.
109. *Ibid.*, 302.
110. Voltaire, 282.
111. Michelet, IV, 437.
112. Saint-Simon, I, 391.
113. Boulenger, 192.
114. Cruttwell, *Mme. de Maintenon*, 29.
115. *Ibid.*, 46.
116. *Ibid.*, 53.
117. Michelet, V, 69; Martin, I, 535.
118. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 46.
119. Cruttwell, 89, Martin, I, 530.
120. Boulenger, 195, Michelet, IV, 490; Cruttwell, 118-19.
121. Saint-Simon, II, 381.
122. *Ibid.*, III, 15.
123. Acton, 236; Ogg, *Europe in the 17th Century*, 231.
124. Louis XIV, 121-25.
125. Martin, I, 417.
126. Voltaire, 260, Martin, I, 400.; *Enc. Brit.*, XII, 682c; Acton, 243.
127. *Camb. Mod. History*, V, 77.
128. Lewis, *Splendid Century*, 239.

CHAPTER II

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 393; Guerard, 186-90.
2. Mesnard, *Pascal*, 99.
3. Campbell, *The Jesuits*, 259; Fülop-Miller, 195.
4. Voltaire, 430.
5. Saint Simon, II, 84.
6. *Ibid.*, III, 37.
7. Louis XIV, 119.
8. Ranke, *History of the Popes*, II, 420.
9. Fülop-Miller, 105.
10. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 74f
11. *Ibid.*, 83; Beard, Charles, *Port Royal*, II, 30.
12. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 89.
13. Beard, Charles, I, 30.
14. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 90.,
15. *Ibid.*, II, 407n.
16. Beard, C., I, 52.
17. Sainte-Beauve, *Port-Royal*, I, 94.
18. Pascal, *Provincial Letters*, Introd., 97, and 421n.
19. Voltaire, 419; Beard, C., I, 260.
20. Pascal, *Letters*, Introd., 109.
21. Mesnard, *Pascal*, 12.
22. Mornet, Daniel, *Short History of French Literature*, 75.
23. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 379; Mesnard, 40.
24. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 748.
25. Pascal, *Pensées*, Havet ed. Introd., p. civ.
26. Mesnard, 57.
27. *Ibid.*, 209.
28. Pascal, *Pensées*, Introd., p. *cxxiii.*
29. Pascal, *Provincial Letters*, 197.
30. *Ibid.*, 417.
31. *Ibid.*, 465; *Pensées*, II, 118.
32. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 235.
33. Mesnard, 92.
34. Voltaire, 424.
35. In Pascal, *Provincial Letters*, 127n.
36. Fülop-Miller, 195.
37. Voltaire, 424, 358.
38. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 118.
39. Voltaire, 359.
40. Sainte-Beuve, III, 173f.; Beard, C., I, 84.
41. Pascal, *Pensées*, Introd., *xxviii;* Mesnard, 137-38.
42. *Cf.* Rabelais, Book III, Ch. xiii.
43. *Pensées*, Introd., p. *xxv*; text, 17*bis*.
44. *Ibid.*, text, i, 1.
45. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, 174.
46. *Pensées*, Everyman's Library, No. 82.
47. *Pensées*, Havet ed., Book III, No. 18.
48. Everyman ed., No. 4.
49. Havet ed., XVI, p. 1*bis*.
50. *Ibid.*, XX, p. 19.
51. *Ibid.*, I, p. 1.
52. Everyman ed., No. 349.
53. *Ibid.*, No. 418.
54. Havet ed., VIII, p. 1.
55. *Ibid.*, II, p. 8.
56. *Ibid.*, VI, p. 51; Everyman ed., No. 451.
57. Havet, IV, p. 1.
58. *Ibid.*, II, pp. 6, *cnit.*, 3.
59. Everyman, No. 402.

60. *Ibid.*, No. 397; Havet, I, p. 3.
61. Havet, I, p. 6; Everyman, No. 347.
62. Everyman, No. 277.
63. Havet, XXIV, p. 52.
64. *Ibid.*, X, p. 1; Everyman, No. 233.
65. Everyman, No. 233.
66. Havet, II, p. 8.
67. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 508.
68. Havet, IV, 7.
69. *Ibid.*, XIV, 2.
70. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 124.
71. Owen, 800.
72. *Ibid.*, 775.
73. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 320.
74. Beard, C., II, 75.
75. *Provincial Letters*, 59.
76. *Pensées*, Havet, Introd., *cxii.*
77. Beard, C., II, 352.
78. Disraeli, Isaac, *Curiosities of Literature*, I, 97.
79. Saint-Simon, II, 12.
80. Boulenger, 284.
81. Michelet, V, 298.
82. In Martin, H., I, 231.
83. Lewis, *Splendid Century*, 108.
84. Sanders, *Bossuet*, 53.
85. *Camb. Mod. History*, V, 22.
86. Martin, I, 529.
87. *Ibid.*
88. *Ibid.*, 532.
89. Michelet, IV, 520.
90. Guizot, *History of France*, V, 23.
91. *Camb. Mod. History*, V, 23.
92. *Ibid.*
93. Boulenger, 263.
94. Martin, I, 552.
95. Ogg, *Seventeenth Century*, 305.
96. Martin, II, 33.
97. *Ibid.*, 43.
98. Buckle, H. T., *History of Civilization*, Ib, 492n., quoting Benoist, Élie, *Histoire de l'Édit de Nantes* (1695), V, 887f.
99. Michelet, IV, 507.
100. Voltaire, 409.
101. Martin, II, 44.
102. Robertson, J. M., II, 142.
103. Saint-Simon, III, 14.
104. Beard, Miriam, 373.
105. Bacon, "Of Unity in Religion," in *Essays*.
106. Sanders, *Bossuet*, 46.
107. Bossuet, *Oraisons funèbres et sermons*, 69.
108. *Ibid.*, 108.
109. Eccles. xvii, 14.
110. Romans xiii, 1.
111. Isaiah xiv, 1.
112. Sanders, 213.
113. Bossuet, in Ogg, 202.
114. Sanders, 260.
115. Buckle, Ib, 569.
116. Faguet, *Literary History of France*, 446.
117. Michelet, IV, 517.
118. Martin, II, 268.
119. Sanders, 280; Michelet, IV, 412.
120. Fénelon, *Télémaque*, end of Book IX.
121. *Ibid.*, Book XIII.
122. Faguet, *Literary History*, 446.
123. Hazard, *The European Mind: The Critical Years*, 108.
124. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 191.
125. Bayle, *Philosophical Commentary on . . . "Let Them Come in,"* in Robinson, H., *Bayle the Sceptic*, 73.
126. Bayle, *Dictionnaire historique et critique*, *s.v.* "Xénophanes."
127. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 302.
128. Mornet, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 24.
129. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 35.

CHAPTER III

1. Pradel, *L'Art au siècle de Louis XIV*, 101.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 376.
3. *Ibid.*, 325.
4. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 583.
5. Pradel, 96.
6. *Ibid.*, 99.
7. Boulenger, 365.
8. Fergusson, *History of the Modern Styles of Architecture*, 236-8.
9. Saint-Simon, I, 186.
10. Martin, II, 212; Blomfield, *Three Hundred Years of French Architecture*, 86.
11. Victoria and Albert Museum, London.
12. Dillon, *Glass*, 210.
13. Guizot, *History of France*, IV, 566.
14. Stranahan, *History of French Painting*, 50.
15. Louvre.
16. Dimier, Louis, *Histoire de la peinture française* (Paris, 1927), II, 45.
17. Versailles.
18. Benoist, *Coysevox*, 115; the bust is in the Louvre.
19. Louvre.
20. Louvre.
21. Louvre.
22. Louvre.
23. Louvre.

CHAPTER IV

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 258.
2. Palmer, *Molière*, 40.

3. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, IV, 42.
4. Molière, *Le Misanthrope*, II, v, 711f.
5. Lucretius, *De rerum natura*, iv, 1155f.
6. Martin, I, [illegible], Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 95-97.
7. Palmer, 59.
8. Voltaire, *Life of Molière*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 628.
9. Palmer, 147.
10. *Les Précieuses ridicules*, scene iv, in Molière, *Plays*, Everyman's Library ed.
11. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 271.
12. Palmer, 145.
13. *Les Précieuses ridicules* (Everyman ed.), scene ix.
14. *L'École des maris* (Everyman), I, i.
15. *L'Impromptu de Versailles* (Everyman), I, i.
16. *L'École des femmes*, I, i.
17. *L'École des femmes* (Everyman) I, i.
18. *Critique de l'École des Femmes*, vi.
19. *Ibid.*
20. Michelet, IV, 419.
21. Molière, *Théâtre*, II, 40.
22. Palmer, 335.
23. *Tartuffe* (Everyman), I, vi.
24. *Ibid.*, III, ii.
25. III, vii.
26. IV, v.
27. *Le Festin de pierre* (Everyman), I, i.
28. *Ibid.*, III, i.
29. IV, ii.
30. Palmer, 380f.
31. As in the Everyman's Library edition.
32. *Le Festin de pierre* (Everyman), III, i.
33. Garrison, *History of Medicine*, 296.
34. *L'Amour médecin* (Everyman), II, v.
35. Palmer, 410.
36. *Le Misanthrope* (Everyman), II, i.
37. *Le Misanthrope*, I, i.
38. *Ibid.*, Classiques Larousse ed., 97-98.
39. In Sainte Beuve, *Seventeenth Century*, II, 126-27.
40. *L'Avare*, II, vi.
41. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), II, iv.
42. Guizot, *History of France*, IV, 560.
43. Michelet, IV, 421.
44. *Le Malade imaginaire* (Everyman), III, iii.
45. Edwards, *Idols of the French Stage*, I, 40.
46. *Ibid.*, 45.
47. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), I, i.
48. *Critique de l'École des femmes* (Everyman), vi.
49. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 140.
50. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 204.

CHAPTER V

1. Martin, I, 142; Boulenger, 360; *Camb. Mod. History*, V, 152; Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 93.
2. Guizot, *History of Civilization*, II, 231; Hauser, *Social History of Art*, I, 470.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii^e siècle*, III, 404.
4. Van Laun, *History of French Literature*, II, 184.
5. *Enc. Brit.*, VI, 441b.
6. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 203; Brereton, *Racine*, 29.
7. Racine, Louis, *Mémoires sur la vie . . . de Jean Racine*, in Racine, Jean, *Oeuvres*, I, 42.
8. Brereton, 29.
9. Guizot, *History of France*, IV, 539.
10. Racine, *Andromaque*, I, iii.
11. Brereton, 154; Martin, I, 170.
12. Suetonius, *De vita Caesarum: Divus Titus*, vii, 2.
13. Racine, *Bérénice*, I, v.
14. Desnoiresterres, VI, 96.
15. Guizot, *France*, IV, 541.
16. Smith, Adam, *Theory of Moral Sentiments*, I, 255.
17. Racine, *Oeuvres*, I, 765.
18. Brereton, *Racine*, 245-52.
19. *Ibid.*, 19.
20. 2 Kings xi; 2 Chronicles xii.
21. Racine, *Athalie*, IV, iii.
22. Parton, *Voltaire*, I, 591; Mme. du Deffand, in Strachey, *Books and Characters*, 99; Guizot, *France*, IV, 546; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 147; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 314.
23. Guizot, *France*, IV, 548.
24. Racine, Louis, *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, p. *iii*.
25. Saint-Simon, I, 155; Guizot, *France*, IV, 548-49; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 153; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 303.
26. Guizot, IV, 548.
27. *Ibid.*
28. Racine, L., *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, 113.
29. Babbitt, Irving, *The Spanish Character*, 98.
30. *Brereton*, 143.
31. Sévigné, Mme. de, *Letters*, II, 210 (Mar. 16, 1672).
32. Desnoiresterres, VI, 102, 281.
33. Hume, "Of Civil Liberty," in *Essays*, 52.

34. La Fontaine, *Choix de contes*, 15f.
35. *Fables*, Preface.
36. Rea, *Life of . . . Countess of La Fayette*, 230.
37. Guizot, IV, 552.
38. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 148.
39. Guizot, IV, 553.
40. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, V. 24.
41. *Ibid.*
42. Faguet, *Dix-septième Siecle*, 238.
43. Boileau, Satire 1, in *Poètes français*, VII, 21.
44. Satire ix.
45. *Poètes français*, VII, 182-85; *Enc. Brit.*, III, 790d.
46. Day, *Ninon*, 211.
47. Boileau, *L'Art poétique*, i, ll. 75-76.
48. *Ibid.*, ll. 171-74.
49. IV, 59-60.
50. IV, 125-26.
51. III, 45-46.
52. III, 391-94.
53. In Fischer, *Descartes and His School*, 511.
54. Guizot, *France*, IV, 551.
55. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 261.
56. Lewis, *Splendid Century*, 268.
57. Guizot, IV, 519.
58. La Fayette, Mme. de, *La Princesse de Clèves*, 104.
59. Rea, *Countess of La Fayette*, 184.
60. Bishop, *La Rochefoucauld*, 266.
61. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 27.
62. Sévigné, *Letters*, I, 170 (June 10, 1671).
63. Letter of Jan. 20, 1672.
64. In Boissier, 145.
65. *Ibid.*, 145-47.
66. *Letters*. Introd., *xxxviii*.
67. Letter of July 5, 1761.
68. Apr. 8, 1761.
69. Boissier, 201; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 251.
70. Apr. 10, 1671.
71. Guizot, IV, 516.
72. Bishop, *La Rochefoucauld*, 128.
73. *Moral Maxims and Reflections*, 84.
74. *Ibid.*, 150.
75. 84.
76. 122.
77. 178.
78. 11.
79. 471.
80. 9.
81. 219.
82. 87, 465.
83. In Bishop, 68.
84. *Moral Maxims*, 15.
85. *Ibid.*, 77.
86. 138.
87. 140.
88. 74.
89. 307.
90. 436.
91. Preface to the first edition.
92. In Bishop, 244.
93. *Moral Maxims*, 688.
94. *Ibid.*, 70.
95. *Ibid.*, 658-59.
96. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, I, 380.
97. *Moral Maxims*, 476.
98. Rea, *Countess of La Fayette*, 265.
99. Sainte-Beuve, *loc. cit.*
100. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 395.
101. La Bruyère, *Characters*, p. 173, Ch. xii, 7.
102. *Ibid.*, p. 492, Ch. xii, 7.
103. E.g., Ch. xi, 35, and Ch. xvii, 28, in La Bruyère, pp. 267, 469.
104. Guizot, *France*, IV, 528.
105. Motteville, *Memoirs*, I, 150.
106. French text in Fellows and Torrey, *The Age of the Enlightenment*, 35-39.
107. Hazard, *The Critical Years*, 127.
108. Saint-Évremond, Letter to de Créqui, in King, J., *Science and Rationalism*, 26.
109. Frederick II to Voltaire, Sept. 19, 1774, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*.
110. Lewis, *Splendid Century*, 282.
111. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 1.

CHAPTER VI

1. A good example in Metropolitan Museum of Art, New York.
2. Vienna.
3. Dresden.
4. Madrid.
5. Louvre.
6. Wolf, *History of Science . . . in the XVIth and XVIIth Centuries*, 626.
7. Beard, Miriam, 305.
8. Day, Clive, *History of Commerce*, 194; Marx, *Capital*, I, 826.
9. *Camb. Mod. History*, V, 12.
10. Adam Smith, in Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 72.
11. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 44.
12. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx.
13. Pepys, *Diary*, May 14, 1660.
14. Hazard, *Critical Years*, 93.
15. Graetz, H., *History of the Jews*, V. 20.
16. Hazard, 88.
17. Vienna.
18. The Hague.
19. New York.
20. Baron Thyssen Collection.
21. The Hague.
22. Mather, F. J., *Western European Paint-*

9

ing of the Renaissance, 549.
23. Czernin Collection, Vienna.
24. The Hague.
25. Edinburgh.
26. Frick Gallery, New York.
27. London.
28. Dresden.
29. Louvre.
30. New York.
31. Washington.
32. Chicago.
33. Budapest.
34. Frick Gallery.
35. Brussels.
36. Berlin.
37. London.
38. Louvre.
39. The Hague.
40. Amsterdam.
41. Dresden.
42. New York.
43. Mather, 590.
44. In Beard, Miriam, 288.
45. In Browne, Sir Thomas, *Religio Medici*, 19.
46. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 94; Martin, *Louis XIV*, I, 333.
47. Voltaire, 93.
48. Bowen, Marjorie, *William Prince of Orange*, 196.
49. Martin, I, 347.
50. Bowen, 92.
51. *Camb. Mod. History*, V, 158.
52. Burnet, Bishop, *History of His Own Times*, 117.
53. *Camb. Mod. History*, V, 160; Acton, Lectures, 228.
54. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 30.

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر
بسكال وموليير وكرومول وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا
١٦٤٨ - ١٧١٥

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد الثامن



بيروت




تونس

الكتاب الثانى

انجلترا

١٦٤٩ — ١٧١٤

الفصل السابع

كرومول

١٦٤٩ — ١٦٦٠

١ — الثورة الإشتراكية

بعد أن أطاح البيوريتانيون (المتطهرون) برأس الملك شارل الأول ، فى ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، واجهوا مشاكل إقامة حكومة جديدة وإستعادة أمن الناس عـلى حياتهم وممتلكاتهم ، فى انجلترا التى أشاعت فيها الفوضى والاضطرابات الحرب الأهلية التى دامت سبع سنين . ونادى « البرلمان المبتور Rump. p » — وهم الأعضاء الستة والخمسون النشطون الذين بقوا من البرلمان الطويل بعد « حركة تطهير برايد » (١٦٤٨) — بأن لمجلس العموم السيادة والمقام الأول ، وأن فيه الكفاية ، وألغى مجلس اللوردات (٦ فبراير ١٦٤٩) ، كما ألغى الملكية ، وعين بمثابة جهاز تنفيذ له « مجلسا للدولة » يتألف من ثلاثة لواءات وثلاثة نبلاء وثلاثة قضاة وثلاثين من أعضاء مجلس العموم ، كلهم مستقلون — أى بيوريتانيون جمهوريون . وفى ١٩ مايو أقام مجلس العموم ، بصفة رسمية ، الجمهورية الإنجليزية : « ولسوف يتولى الحكم فى إنجلترا منذ الآن ، بوصفها جمهورية أو دولة حرة ، السلطة العليا للأمة ، وهم ممثلو الشعب فى البرلمان ، ومن يعينونهم إلى جانبهم من وزراء ، لخير الشعب[1] » . ولم تكن الجمهورية ديموقراطية . لقد طالب البرلمان بإقامة أساس ديموقراطى ، ولكن طرد الأعضاء الملكيين أثناء الحرب ، والمشيخيين (البرسبتريان) فى حركة التطهير ، كان كما قال كرومول ، « قد شتت البرلمان وغربله واختزله إلى مجرد حفنة من الرجال[2] » .

إن الملاك وحدهم هم الذين كانوا ينتخبون البرلمان فى الأصل ، أما الآن فإن مقاطعات برمتها باتت وليس لها ممثلون فى «البرلمان المبتور » ولم تستند سلطة هذا البرلمان المبتور إلى الشعب بل إلى الجيش . فإن الجيش وحده هو الذى استطاع أن يحميه من الثوار الملكيين فى إنجلترا ، والثوار الكاثوليك فى إيرلنـــده ، والثوار المشيخيين فى اسكتلندة ، والثوار المتطرفين فى الجيش نفسه .

ولمواجهة نفقات الحكومة ومتأخرات رواتب الجند اشتط هذا البرلمان فى فرض الضرائب قدر مافعل الملك الراحل . واقترح مصادرة أملاك كل من حمل السلاح دفاعا عن شارل ، ولكنه فى معظم الحالات ارتضى تسوية الأمر بحل وسط ، هو تقاضى غرامة تعادل جزءا يتراوح بين العشر والنصف من القيمة الأساسية للضيعة . من أجل هذا عمد كثير من صغار النبلاء الذين عانوا الفقر والعوز فى انجلترا إلى الهجرة إلى أمريكا حيث كونوا أسرات أرستقراطية ، مثل آل : وشنجطن ، وآل راندولف ، وآل ماديسون وآل لى(*) . وأعدم بعض زعماء الملكين ، وأودع بعضهم السجن . ومع ذلك بقيت حركة الملكيين تقض مضاجع الحكومة ، لأن روح التعاطف مع الملكية سيطرت على الشعب ، فإن إعدام الملك حوله من جابى ضرائب إلى شهيد . وبعد عشرة أيام من موت شارل ظهر كتاب عنوانه « صورة ملكية » لمؤلفه القسيس المشيخى جون جودن ، ولكنه يوهم بأنه أفكار ومشاعر شارل كما دونها هو بيده قبل موته بزمن وجيز . وربما صيغ بعض هذا الكتاب من مذكرات تركها الملك(٢) . ومهما يكن من أمره ، فإن الصورة التى عرضها الكتاب هى صورة حاكم طيب القلب كان فى واقع الأمر يدافع عن انجلترا ضد طغيان أقلية حاكمة (أوليجاركية) غليظة القلب

(*) جددت الحرب الأهلية الأمريكية الحرب الأهلية الانجليزية حيث حرضت أبناء الارستقراطيين الانجليز فى الجنوب على أبناء البيوريتانيين الانجليز فى الشمال .

لا ترحم . وطبع الكتاب ستا وثلاثين مرة وترجم إلى خمس لغات في سنة واحدة ، ولم تفلح الضجة التي أثارها كتاب ملتون «تحطيم الصور المقدسة» (١٦٤٩) في محو أثر كتاب جون جودن هذا ، وأسهم الكتاب في إثارة الرأي العام ضد الحكومة الجديدة . وشجع وكلاء الملكيين الذين شرعوا لفورهم في كل مقاطعة في انجلترا يهيجون الشعور العام لاعادة أسرة ستيوارت . وقابل مجلس الدولة هـــذه الحركة ببث العيون والأرصاد على أوسع نطاق ، والاسراع في القبض على الزعماء الذين يحتمل أنهم كانوا يقومون بتنظيم ثورة .

وفي الناحية الأخرى كانت هناك أقلية من الأهالي وقسم كبير من الجيش، يطالبون بديموقراطية شاملة بكل ما في الكلمة من معنى . كما طالب بعضهم بديموقراطية اشتراكية . وأمطرت السماء نشرات متطرفة . وأصدر الكولونيل جون للبيرن وحده مائة منها . ولم يكن ملتون في تلك الحقبة شاعراً بل مؤلف نشرات وكتيبات . وهاجم للبيرن كرومول على أنه طاغية مرتد منافق . وشكا أحد الكتاب من « أنك قلما تحدثت إلى كرومول في أي موضوع إلا وضع يده على صدره ورفع عينيه وقال اللهم فاشهد . أنه سوف يبكي ويصرخ ويبدي الندم ، حتى وهو يسدد إليك ضربة تصيب منك مقتلا[٤] ». وفي إحدى النشرات تساءل كاتب آخر : « كان يحكمنا من قبل الملك واللوردات والنواب ، أما الآن فيتولى الحكم فيناقائد الجيش والمحكمة العسكرية والنواب، فقل لنا بربك ، ما هو الفرق ؟ »[٥] وأحست الحكومة الجديدة بأنها مضطرة إلى تشديد الرقابة على الصحف والمنابر . وفي أبريل ١٦٤٩ قبض على للبيرن وثلاثة آخرين لاصدارهم نشرتين تصفان إنجلترا وهي « مكبلة في أغلال جديدة » . وهاج الجيش مطالبا بالافراج عنهم . وتوعد نساؤهم كرومول بالويل والثبور إذا مس المعتقلون بأذى . وأرسل للبيرن من سجنه إلى طابع نشراته، متحديا ، إتهاما بالخيانة العظمى « موجها ضد كرومول وأيرتون » . وفي أكتوبر قدم الكتاب الأربعة إلى المحاكمة في قضية أثارت اهتمام الرأي

العام وشدت الآلاف من الناس إلى المحكمة . وتحدى لبيرن القضاة، وطالب بعرض القضية على هيئة المحلفين . فلما صدر الحكم ببراءة الكتاب الأربعة جميعهم انطلقت من الجمع الحاشد صيحة مدوية جماعية ، يعتقد أنه لم يسمع مثلها قط فى دار البلدية ، استمرت نحو نصف ساعة بلا انقطاع ، حتى علا الشحوب وجوه القضاة من شدة الفزع(٦) وظل لبيرن لمدة عامين بطل الجيش . ونفى فى ١٦٥٢ ثم عاد فى ١٦٥٣ فقبض عليه ثانية ، ثم برىء (أغسطس ١٦٥٣)، ولكنه ظل مع ذلك سجينا . وفى ١٦٥٥ أفرج عنه وقضى نحبه ١٦٥٧ ، وهو فى الثالثة والأربعين من العمر .

وذهب بعض « أنصار المساواة » (حزب نشأ فى البرلمان الطويل ١٦٤٧ ١٦ يدعو إلى ازالة الفوارق بين الناس) إلى أبعد مما ذهب إليه لبيرن والديمقراطية ، فدعوا إلى توزيع السلع توزيعا أقرب إلى المساواة . أنهم تساءلوا : لم يكون هناك أغنياء وفقراء ؟ لماذا يتضور بعض الناس جوعا على حين يحتكر الأغنياء الأرض ؟ . وفى أبريل ١٦٤٩ ظهر « نبى » يدعى وليم إفرارد Everard ، وقاد أربعة من الرجال إلى تل سان جورج فى سرى ، ووضعوا أيديهم على بعض الأرض غير المشغولة ، وفلحوها ، ونثروا فيها البذور ، ودعوا الناس إليها . فانضم إليهم ثلاثون آخرون من جماعة « الحفارين » (وهو اسم أطلق عليهم) . وأنهم — كما جاء فى تقرير إلى مجلس الدولة ، ليهددون الجيران بأنهم سيحملون الجماعة كلها على القدوم وشيكا إلى التلال للعمل فيها(٧) . » ولما سبق افرارد للمثول أمام نقيب الجيش سيرتوماس هيرفاكس ، أوضح له أن أتباعه قد اعتزموا احترام الأملاك الخاصة ، « وأنهم لن يقربوا إلا الأراضى العامة غير المفلوحة ليعملوا فيها حتى تؤتى ثمارها » « وأنهم يأملون » فى أن يحين فجأة الوقت الذى يأتى فيه كل الناس طائعين مختارين وينزلون عن أراضيهم وضياعهم ويذعنون لجماعة الأخيار هذه(٨) » . فما كان من هيرفاكس إلا أن أخلى سبيل الرجال على أنهم أفراد متعصبون لا يخشى منهم أى أذى . وتابع أحدهم — وهو

جيرارد ونستانلى – الحركة ببيان أصدره فى ٢٦ أبريل ١٦٤٩ ، تحت عنوان « لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الامام » : « فى البدء جعل العقل (الخالق العظيم) الأرض ملكا عاما مشتركا للحيوان والإنسان » ، ولكن الإنسان فيما بعد عميت بصيرته فأصبح عبدا أكثر خضوعا لبنى جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو ، وجرى التصرف فى الأرض بالبيع والشراء ، وأحاطها الحكام بالحواجز والأسياج ، وبقيت فى حوزة فئة قليلة من الناس . وكل ملاك الأرض لصوص ولن تنقطع الجريمة والكراهية والبغضاء مالم تسترد الملكية العامة المشتركة(٩) . وفى « قانون الحرية » (١٦٥٢) توسل ونستانلى إلى الجمهورية أن تقيم مجتمعا لايوجد فيه بيع ولا شراء ، ولا محامون ، ولا أغنياء ولا فقراء ، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين ، وبعد ذلك يعفون من الكدح . ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور ، ويكون الزواج إجراء مدنيا ، والطلاق حرا مباحا(١٠) . وتخلى « الحفارون » عن مشروعهم ، ولكن دعايتهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز ، وربما عبرت القنال إلى فرنسا ، وعبرت المحيط إلى أمريكا .

أن كرومول نفسه ، وهو من ملاك الأرض ، وهو الشديد الخبرة بطبيعة الإنسان ، لم يثق فى هذه المثل العليا فى الملكية العامة ، بل لم يثق حتى فى حق الاقتراع للبالغين . وفى فترة الفوضى التى لامعدى عنها ، عقب قلب أية حكومة ، تدعو الحاجة إلى شىء من سلطة مركزة فى بعض الأيدى ، وقد تمثلت فى كرومول ، وأن كثير ممن أوغر صدورهم منه اعدام الملك ، رحبوا لبعض الوقت بدكتاتورية بدت البديل الوحيد للإنحلال الاقتصادى والسياسى بل أن الجيش نفسه ، حين ترامت إليه أنباء الثورة المضادة التى تدبر فى أيرلنده واسكتلنده ، غمره الفرح إذ أيقن أن يد كرومول الحديدية على أتم استعداد لقيادته ضد العصاة والثوار الذين

لم يسعوا وراء « يوتوبيا » أو دنيا مثالية ديمقراطية ، بل وراء عودة ملكية تثأر وتنتقم .

٢ — ثورة أيرلنده

فى أيرلنده وحد رد الفعل ضد الثورة الكبرى ، بشكل عابر ، بين البروتستانت فى اقليم (The Pale) فى شرق أيرلنده حول دبلن والكاثوليك فيه وفيما وراءه . فقد حدث حتى قبل اعدام شارل الأول ، أن وقع أرل أورموندجيمس بتلر ، بوصفه نائب الحاكم فى ايرلنده ، معاهدة مع اتحاد الكاثوليك فى كلكنى Kilkenny (١٧ يناير ١٦٤٩) وافقوا بمقتضاها ، وفى مقابل الحرية الدينية وبرلمان أيرلندى مستقل ، على تزويده بخمسة عشر ألفا من المشاه وخمسمائة من الجياد . وبعث أورموند برسالة إلى أمير ويلز ، الذى اعترف أورموند لتوره بأنه شارل الثانى ، يدعوه فيها للقدوم إلى ايرلنده ليقود جيشا مشتركا من البروتستانت والكاثوليك . وآثر شارل الذهاب إلى اسكتلنده ، ولكن كرومول اعتزم أن يواجه تهديدات أيرلنده أولا .

وحين حط كرومول رحاله فى ايرلنده فى أغسطس ، كانت القوات الموالية للجمهورية قد هزمت بالفعل أورموند فى راثمينز ، وتراجع هو مع ما تبقى من قواته (٢٣٠٠ جندى) إلى مدينة دروجيدا المحصنة ، الواقعة على نهر بوين . فحاصرها كرومول بعشرة آلاف جندى وافتتحها واستولى عليها عنوة (١٠ سبتمبر ١٦٤٩) وأمر بقتل من من بقى من حاميتها على قيد الحياة(١١) . ولم يفلت من المذبحة بعض المدنيين ، وقتل كل قسيس فى المدينة(١٢) ، حتى بلغ عدد ضحايا المذبحة المنتصرة نحو ٢٣٠٠ . واشترك كرومول فى شرف النصر مع الله : « أرجو أن تنسب القلوب الطاهرة هذا المجد إلى الله الذى يرجع إليه الفضل فى هذه الرحمة حقا(١٣) » وعنى »

أن تساعد هذه المحنة كثيرا على حقن الدماء بفضل كرم الله(١٤) » .
وإنا لنشاركه رجاءه المخلص فى أن تضع مثل هـذه الضربة الواحدة من الإرهاب حدا للثورة ، وتنقذ حياة الكثيرين من الجانبين .

ولكن الحرب استمرت ثلاثة أعوام أخر ، فان كرومول تقدم من دروجيدا لحصار وكسفورد ، واستولى عليها ، ولقى ١٥٠٠ من المدافعين عنها ومن سكانها مصرعهم . وقال كرومول « أن الله ، بشىء من عناية إلهية غير متوقعة ، فى عدله القويم ، قد أنزل بهم حكما عادلا . . . . حيث كفروا بدمائهم عن أعمال القسوة الوحشية التى اقترفوها ضد حياة الكثيرين من البروتستانت المساكين(١٥) » . ولكن سياسة المذابح أخفقت فان مدينتى دنكانون ووترفورد تحدتا حصار كرمول . واستسلمت كلكنى لمجرد أنها تلقت شروطا كانت مرفوضة فى أى مكان آخر ، وتم الاستيلاء على كلونمل ولكن بعد فقد ألفى رجل . وما أن ترامى إلى كرومول نبأ وصول شار الثانى إلى اسكتلنده حتى ترك مواصلة الحرب فى ايرلنده لصهره هنرى أيرتون ، وأبحر هو إلى انجلترا (٢٤ مايو ١٦٥٠) .

وكان أيرتون قائدا قديرا ، ولكنه مات بالطاعون فى ٢٦ نوفمبر ١٦٥١ . ونبذت سياسة المذابح ، وصدر العفو عن الثوار ، وبمقتضى معاهدة كلنكنى (١٢ مايو ١٦٥٢) استسلموا جميعا تقريبا ، شريطة السماح لهم بالهجرة دون عائق . وفى ١٢ أغسطس صدر « قانون التسوية فى أيرلنده » ، الذى ينص على مصادرة كل ممتلكات الأيرلنديين أو بعضها — أيا كان مذهبهم — ممن يعجزون عن اثبات أنهم كانوا موالين للجمهورية ، وبهذه الطريقة انتقلت ملكية نحـو مليونين وخمسمائة ألف فدان (أيكر) من أراضى ايرلندة إلى جنود أو مدنيين إنجليز أو ايرلنديين كانوا يناصرون كرومول فى ايرلنده . وبهـذا انتقل ثلثا أرض ايرلنده إلى أيدى الإنجليز(١٦) . وانضمت مقاطعات كلدار ودبلن وكارلو وكلو ووكسفورد

لتشكل « Pale » أو إقليما إنجليزيا جديداً فى ايرلنده ، وبذلت محاولات لإقصاء كل ملاك الأرض الايرلنديين أياً كانوا ، ثم المواطنين الآيرلندين عن هذه المقاطعات . وجردت آلاف الأسرات الايرلندية من أملاكها ، وأعطوا مهلة نهايتها أول مارس ١٦٥٥ ليجدوا لأنفسهم وطنا آخر . وشحن المئات منهم على ظهور السفن إلى برابادوس ، (جزر الهند الغربية) أو أماكن أخرى بتهمة التشرد .

وقدر سير وليم ربتى أنه من بين سكان ايرلنده البالغ عددهم ٤٦٦٫٠٠٠ر١ فى ١٦٤١ ، كان قد هلك حتى ١٦٥٢ نحو ٦١٦٫٠٠٠ بسبب الحرب أو الموت جوعاً أو الطاعون ، وقال أحد الضباط الانجليز : فى بعض المقاطعات « قد يسير المرء عشرين أو ثلاثين ميلا دون أن يجد مخلوقاً على قيد الحياة ، إنساناً أو حيواناً أو طائراً » وقال آخر : « إن الشمس لم تشرق قط على أمة أشد تعاسة من هذه[17] » . وحرم المذهب الكاثوليكى بحكم القانون وصدرت الأوامر إلى رجال الدين الكاثوليك بمغادرة ايرلندة فى بحر عشرين يوماً ، وكان الموت عقوبة من يخفى أياً منهم ، وفرضت عقوبات صارمة على التخلف عن حضور الطقوس البروتستانتية يوم الأحد . ومنح القضاة والحكام سلطة جمع أطفال الكاثوليك وإرسالهم إلى انجلترة لتلقى أصول المذهب البروتستانتى[18] . إن كل الوحشية التى لقيها البروتستانت على يد الكاثوليك فى فرنسا بين ١٦٨٠ — ١٨٩٠ ، صبها البروتستانت على رؤوس الكاثوليك فى ايرلنده بين ١٦٥٠ — ١٦٦٠ . وأصبحت الكثلكة جزءاً لا يتجزأ من الروح الوطنية الإيرلندية ، لأن الكنيسة والشعب قذف بهما فى بحران من المعاناة والشقاء . وعلقت هذه السنين المريرة بذاكرة ايرلندة وكأنها تراث من البغضاء لا يفنى .

٣ ــ ثورة اسكتلندة

صعق الاسكتلنديون باعدام شارل الأول الذى كانوا هم أنفسهم قد أسلموه إلى البرلمان الانجليزى ، وعاد إلى ذاكرتهم فجأة أن والده كان اسكتلنديا . ورأوا فى «تطهير برايد» الذى أخرج المشيخيين (البرسبتريانز : كنيسة بروتستانية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية) من البرلمان الطويل ، نقضا « للعصبة المقدسة والميثاق المقدس » الذى أقسم فيه ذلك البرلمان يمين الإخلاص لاسكتلنده وللمذهب المشيخى ، وأوجسوا خيفة من أن يحاول البيوريتانيون المنتصرون فرض مذهبهم البروتستانتى على اسكتلندة كما فرضوه على انجلترا . وفى ٥ فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد مضى أقل من أسبوع على أعدام شارل الأول ، نادى البرلمان الاسكتلندى (مجلس الطبقات) بأبنه شارل الثانى ، الذى كان آنذاك فى الأراضى الوطيئة ، ليكون الملك الشرعى على بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلنده .

وقبل أن يجيز الاسكتلنديون لشارل الثانى الدخول إلى اسكتلنده طلبوا إليه أن يوقع للميثاق الوطنى وعهد العصبة المقدسة وللميثاق المقدس ، ويقسم يمين الحفاظ على المذهب المشيخى أو إقامته فى كل أرجاء مملكته وفى بيته . على أن شارل الذى كان يدين بالفعل بمزيج من الكاثوليكية والتشكك ، لم يكن يروقه مذهب المشيخية ، فى الوقت الذى كان يتوق فيه أيما توق إلى العرش ، فوقع على كره منه ، كل هذه المطالب فى « بريدا » فى أول مايو ١٦٥٠ . وقاد مونتروز ، أنبل الاسكتلنديين فى ذاك العصر ـ قوة صغيرة من جزر أوركنى إلى اسكتلنده ، أملاً فى أن يجمع لشارل جيشا مستقلا عن الميثاقين المشيخيين ، ولكنه هزم وأسر وأعدم شنقا (١١مايو ١٦٥٠) . وفى ٢٣ يونيه حط شارل رحاله فى اسكتلندة ، وهو يتلهف على أن يكون على رأس جيش يغزو به الجمهورية البيوريتانية التي أطاحت برأس

أبيه . وقبل أن يهب الاسكتلنديون لنجدته ، استحثوه على إصدار بيان يرغب فيه « أن يركع فى ذلة وخشوع أمام الله تكفيرا عن معارضة أبيه العصبة المقدسة والميثاق المقدس ، ومن أجل خطيئة أمه بسبب عقيدتها الوثنية (أى اعتناقها الكثلكة)[١٩] . » وللتكفير عن خطيئات شارل الأول والثانى فرض رجال الكنيسة الاسكتلندية على الجيش والشعب صوما جادا رهيبا ، وأكدوا للجيش أنه لن يقهر ، [٢٠] لأن الملك الشاب قد أرضى السماء . وتحت إلحاح القساوسة طهر الجيش من الضباط الذين وضعوا ولاءهم للملك فوق ولائهم للميثاق والكنيسة الاسكتلندية ، وبهذه الطريقة طرد ثمانون من أقدر القواد .

واقترح كرومول على البرلمان الانجليزى غزو اسكتلنده فى الحال ،دون إنتظار هجوم من جانبها . واعتزل فيرفاكس آنذاك القيادة العليا لجيوش الجمهورية، وكان قد رفض الاشتراك فى محاكمة شارل الأول ، وعين كرومول خلفا له ، فنظم قواته بعزيمته وعجلته المعهودتين ، وعبر إلى اسكتلنده (٢٢ يوليه ١٦٥٠) ، على رأس ١٦ ألف رجل . وفى ٣ أغسطس أرسل إلى لجنة الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية رسالة زاخرة بالشجاعة والثبات والقدرة على الاحتمال : « هل كل ماتقولون يلتئم إلتئاما لاشبهة فيه مع كلمة الله ؟ أتوسل إليكم ، بحق أحشاء المسيح ،أن تفكروا فى أنكم قد تكونون مخطئين[٢١] » . وفى دنبار (٣ سبتمبر) أوقع بالجيوش الاسكتلندية الرئيسية هزيمة منكرة وأسر عشرة آلاف رجل ، وسرعان ما استولى على أدنبره وليث . وانهارت مكانة الوعاظ الاسكتلنديين ، وتبدد زعمهم بأنهم معصومون من الخطأ . واستدعى الضباط المطرودون على عجل ، وتوج شارل الثانى رسميا فى « سكون Scone . » أما كرومول فقد إنتابه المرض فى ادنبره ، وتوقف القتال بضعة شهور .

ثم تقدم الجيش الاسكتلندى بعد إعادة تنظيمه ، وعلى رأسه شارل ،

إلى انجلترا ، أملا فى أن ينضم إلى لواء الشرعية والحق ، كل الملكيين والمشيخيين المخلصين . فتعقبهم كرومول ، حيث كان يحشد أثناء مروره بالمدن الإنجليزية كل قوات الطوارىء ، والمواطنين الصالحين للجندية ، وفى ووستر ، فى ٣ سبتمبر ١٦٥١ ، دارت رحى المعركة التى أبقت على الجمهورية ، وحكمت على شارل بأن يلوذ بالمنفى مرة أخرى . وفيها ، بفضل الاستراتيجية الفائقة والبسالة ، استطاعت قوات كرومول الأقل عددا ، أن تهزم ثلاثين ألفا من الاسكتلنديين . وكان شارل شجاعا ولكنه لم يكن قائدا . أنه بذل أقصى الجهد فى أن يستحث ويلم شمث جنوده الذين اختل نظامهم ، ولكن يبدو أنهم ذعروا وارتعدوا فزعاً من مقمة كرومول محارباً لم يخسر قط معركة ، فألقى كثير منهم السلاح ولاذ بالفرار . وتوسل شارل إلى ضباطه أن يطلقوا عليه الرصاص فأبوا . واقتاده نفر من أشد أتباعه اخلاصا إلى مكان آمن مؤقت فى مقر أحد الملكيين . وهنالك تجرد من شعر رأسه إلى حد كبير ، وغير لون يديه ووجهه واستبدل بملابسه ثياب أحد العمال ، وبدأ مسيرة طويلة ، على ظهر جواد ، وعلى قدميه ، متسللا من مخبأ إلى مخبأ . ينام تحت سطوح المنازل أو فى الحظائر والغابات . ونام مرة فى احدى أشجار « رويال أوك » فى بوسكوبل ، على حين كان جنود الجمهورية يفتشون عنه تحتها . وكثيرا ما عرفه الناس ، ولكنهم لم يغدروا به أو يكشفوا أمره . وبعد أربعين يوما من الفرار ، وجد هو ومرافقوه ، فى شورهام فى سسكس ، قاربا ارتضى ربانه ، مخاطرا بحياته ، أن ينقلهم إلى فرنسا (١٥ أكتوبر) .

وعهد كرومول إلى القائد جورج مونك بالضرب على أيدى الثوار الاسكتلنديين بصفة نهائية ، وتم هـــذا فى فبراير ١٦٥٢ . وأخضعت اسكتلنده لانجلترا ، وحل برلمانها المستقل ، ولكن أجيز لها إرسال ثلاثين نائبا عنها إلى برلمان لندن . وعوقبت الكنيسة الاسكتلندية بحظر

انعقاد جمعياتها العامة ، وإقرار التسامح الدينى مع كل الشيع البروتستانية المسالمة . ومن الناحية الاقتصادية أفادت اسكتلنده من الحرية الجديدة فى الإتجار مع انجلترا . أما من الناحية السياحية فقد ظلت ترقب عودة أسرة ستيوارت وتدعو الله أن يحقق هذا الرجاء .

٤ — أوليفر حاكماً مطلقاً

عاد كرومول إلى انجلترا منتصراً انتصاراً يكلله التواضع . وإذ رأى الجموع التى احتشدت لتشهد مقدمه ، فقد جال بخاطره أن جمهوراً أكبر من هذا كان يمكن أن يحتشد ليشهد مصرعه على حبل المشنقة(٢٢) . ومنحه البرلمان المبتور راتبا سنويا قدره أربعة آلاف جنية ، وخصص له قصراً كان يوما ملكيا فى هامبتون كورت . واعتقد البرلمان أنه سيقنع بالبقاء فى منصب القيادة العامة . كما اقترح اجراء انتخابات جديدة ، وزيادة عدد أعضائه إلى ٤٠٠ ، على أن يحتفظ الأعضاء الحاليون بمقاعدهم دون الدخول فى الانتخابات الجديدة ، وكان عليهم أن يحددوا شروط حق الانتخاب وصحة الأصوات . وحمى البرلمان نفسه ضد حملات النقد بالحد من حرية الصحافة والخطابة بشكل صارم : « لن يسمح بإسم حرية الخطابة أو حرية الوعظ ، بأى شىء يعكر صفو الحكومة أو يسىء إلى كرامتها(٢٣) » . وحرم رجال الكنيسة الأنجليكانية الرسمية من أرزاقهم وحكم بمصادرة ثلثى ممتلكات من يعتنقون المذهب الكاثوليكى ، بصفة غرامة . وقدمت الجوائز لمن يقبضون على القساوسة الكاثوليك(٢٤) .

أن كرومول ، على الرغم من بطئه فى اتخاذ قرار ، كان حازما متأهبا لسرعة التصرف إذا اعتزم أمرا . وقد احتمل فى صبر نافد المناقشات التى أفسدت السياسة فى البرلمان وعوقت الإدارة . أنه اتفق مع شارل الأول على أن تكون السلطة التنفيذية متميزة ومستقلة عن السلطة التشريعية .

ثم بدأ يتساءل : ألم يكن خيرا وبركة أن يكون كرومول ملكا . ولمح بهذه الفكرة (ديسمبر ١٦٥٢) إلى صديقه هوايتلوك الذى فقد صداقته باعتراضه عليها[٢٥] . وفى صبيحة يوم ٢٠ أبريل ١٦٥٣ ، عندما علم أن البرلمان المبتور كان على وشك أن ينصب نفسه سيدا غير منتخب على البرلمان الجديد ، جمع حفنة من الجنود اتخذوا مواقعهم على باب مجلس العموم ، ودخل هو إليه ، وإلى جانبه اللواء توماس هاريسون ، وأصغى لبعض الوقت إلى المناقشة فى صمت رهيب . وعندما بدأ أخذ الأصوات على موضوع البحث ، نهض كرومول ، وتحدث أول الأمر فى اعتدال ، ومالبث حتى تحدث فى عنف ، فنعى على البرلمان المبتور أن يكون أوليجاركية (أقلية حاكمة) تخلد نفسها بنفسها ، لاتصلح لحكم انجلترا . ثم صاح : « أيها السكارى » متجها إلى عضو بعينه ، ثم صرخ فى عضو آخر « أيها الداعر الفاجر » « أنتم لستم برلمانا . أقول إنكم لستم برلمانا . ولسوف أضع حدا لاجتماعاتكم » . ثم التفت إلى هاريسون وأمره : « استدع الجنود ، استدعهم إلى هنا » . ودخل الجنود إلى القاعة . وأمرهم كرومول باخلائها ، وغادرها الأعضاء محتجين قائلين :

« ليس هذا من الأمانة فى شىء » . ووضعت الأقفال على القاعة الخالية ، وفى اليوم التالى وجد معلقا عليها لافتة « بيت للايجار ، غير مؤثث الآن[٢٦] » . ثم ذهب كرومول بصحبة اثنين من القواد إلى حيث يجتمع مجلس الدولة ، وقال لأعضائه « إذا كنتم تجتمعون الآن بصفتكم الشخصية فلا بأس ، ولا يزعجنكم أحد — أما إذا كنتم مجتمعين كمجلس الدولة ، فلا مكان لكم هنا ... وأرجو أن تعلموا أن البرلمان قد حل[٢٧] » . وهكذا كانت كانت النهاية المخزية المزرية للبرلمان الطويل الذى كان قد اجتمع فى وستمنستر ، بكامل هيئته أو بشكله المبتور ، منذ ١٦٤٠ ، والذى كان قد حول دستور إنجلترا وحكومتها . ولم يعد هناك الآن دستور ، بل جيش وملك غير ذى لقب أو ملك غير متوج .

وكان الشعب بصفة عامة فرحا بالتخلص من برلمان كان قد جر إنجلترا إلى حافة الهاوية . وعلى حد قول كرومول ، لم يكن هناك « مجرد نباح كلب ، ولا تذمر ظاهر لحله[٢٨] » . وتقبل البيوريتانيون الغيورون المتحمسون حل البرلمان على أنه إفساح الطريق « للملكية الخامسة » أى مجيء المسيح المنتظر وحكمه وتشجع الملكيون وتهامسوا بأن كرومول سوف يستدعى الآن شارل الثانى ، ويقنع هو بدوقية أو بمنصب نائب الملك فى أيرلنده . ولكن أوليفر لم يكن بالرجل الذى يرتضى أن يكون رهن مشيئته رجل آخر . فأصدر توجيهاته إلى معاونيه العسكريين أن يختاروا ـ بصفة أساسية من الجامع البيوريتانية فى إنجلترا — ١٤٠ رجــلا ، من بينهم خمسة من اسكتلندة وستة من أيرلنده ، ليجتمعوا على هيئة « برلمان ممين » . ولما إنعقد هذا البرلمان فى هويتهول فى ٤ يوليه ١٦٥٣ أعترف كرومول بأن الجيش هو الذى إختارهم ، ولكنه رحب بهم باعتبار أنهم يبدأون فترة يحكم فيها القديسون حكما صحيحا تحت رياسة يسوع المسيح[٢٩] ، وإقترح أن يخولهم السلطة العليا ، ويكل إليهم مهمة وضع دستور جديد — وظل هذا البرلمان طيلة خمسة أشهر يبذل أقصى الجهد فى إنجاز هذه المهمة ، ولكنه ضل الطريق فى متاهات المناقشة ، الطويلة . وإنشق الأعضاء على أنفسهم ، يأسا وعجزا ، فى موضوعات الدين والتسامح الديني . وأطلق ظرفاء لندن عليه اسم « برلمان باربيون » ، نسبة إلى أحـد أعضائه Barebone ، وهو أحد القديسين فى « الملكية الخامسة » سالفة الذكر .

وضاق الجيش ذرعا بهؤلاء الأعضاء ، كما ضاق من قبل ذرعا عن طردهم فى أبريل . وعرض الضباط — وهم يمثلون دور أنطونيو — على كرومول أن ينصب نفسه ملكا ، وتردد قيصر وإعترض فى رفق ، ولكن ثمانين من أعضاء البرلمان ، بايعاء محدد من الجيش ، أعلنوا إلى كرومول فى ١٢ ديسمبر أن الجمعية الجديدة لم تصل إلى اتفاق ، وأنها تقترع على حلها . وعرضت « وثيقة حكومية » أعدها زعماء الجيش ، على كرومول أن يكون « حامى

جمهورية انجلترا واسكتلنده وايرلنده » ، وأن ينتخب برلمان جديد على أساس نصاب من الثروة يخول حق الاقتراع ، مع استبعاد الملكيين والكاثوليك ، وأن تكون السلطة التنفيذية فى يد مجلس من ثمانية من المدنيين وسبعة من ضباط الجيش ، يختارون لمدى الحياة ، على أن يعمل هذا المجلس بمثابة هيئة استشارية « لحامى حمى الجمهورية » وللبرلمان ، كليهما . ووافق كرومول ووقع هذه الوثيقة ، وهى « أول وآخر دستور انجليزى مسطور[٣٠] » ، وفى ١٦ ديسمبر ١٦٥٣ أقسم اليمين بوصفه « حامى الحمى » . وبذلك انتهت الجمهورية ، وبدأت الحماية — امتحان لأوليفر كرومول .

هل كان كرومول طاغية مستبدا ؟ من الواضح أنه استساغ السيطرة والسلطان . ولكن تلك نزعة عامة ، وهى أمر طبيعى إلى أبعد حد فى الموهبة الواعية . لقد فكر من قبل فى تنصيب نفسه ملكا ، وتأسيس اسرة ملكية جديدة[٣١] . ويبدو أنه كان مخلصا حين عرض أن ينزل عن سلطته « للبرلمان المعين » . ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هى آنذاك البديل الوحيد عن الفوضى فإذا تخلى هو ، فقد كان يبدو أنه ليس ثمة رجل آخر يحظى بتأييد كاف للمحافظة على النظام . واستنكر المتطرفون فى الجيش هذه « الحماية » باعتبارها مجرد « ملكية أخرى » . واتهموا كرومول بأنه « وغد منافق كذاب » وتوعدوه « بمصير أسوأ من المصير الذى لقيه الطاغية السابق[٣٢] » . وأرسل كرومول بعض هؤلاء المتمردين إلى السجن « برج لندن » ومن بينهم اللواء هاريسون الذى تولى قيادة الجنود عند طرد أعضاء البرلمان المبتور . أن خوف كرومول على سلامته هو نفسه أدى به شيئا فشيئا إلى المزيد من الاستبداد ، لأنه أدرك أن نصف الأمة كان يمكن أن يهلل لقتله . إنه أحس ، مثل سائر الحكام ، بالحاجة إلى احاطة نفسه بمظاهر الفخامة والوقار التى تثير الرهبة فى النفوس ، فانتقل إلى قصر هويتهول (١٦٥٤) وأعاد تأثيثه بأفخر

الرياش ، واتخذ لشخصه كل الجلال وكل العظمة الملكية(٣٣) . ولكن مما لاريب فيه أن كثيرا من هذه المظاهر كان لابد أن يخلق انطباعا قويا فى نفس السفراء ، ويثير الفزع فى نفوس الأهالى .

وفيما يتعلق بحياة كرومول الخاصة ، فإنه كان رجلا غير ميال إلى المظاهر والأبهة ، يعيش عيشة طابعها البساطة والإخلاص مع أمه وزوجته وأولاده . وأحبته أمه حبا ممزوجا بالخوف عليه ، ترتعد فرقا على حياته لكل طلقة تسمعها ، وعند وفاتها فى الثالثة والتسعين (١٦٥٤) قالت : « ولدى العزيز إنى أترك قلبى معك(٣٤) » . أنه هو نفسه ، فى أواسط الخمسينات من عمره ، كان يدب إليه الهرم بسرعة ، أن ما واجهه من أزمة تلو أزمة كان يهد من أعصابه التى قيل أنها حديدية . أن حملات ايرلنده واسكتلنده زادت الحمى على داء النقرس ، ولم يمر عليه يوم دون نصب أو قلق ورسم له المصور لى فى ١٦٥٠ لوحة مشهورة . وأن كل انسان ليعرف تحذير كرومول للمصور حيث قال له : « مستر لى ، بودى أن تستغل كل ماأوتيت من مهارة فى رسم صورة حقيقية مثل شخصى تماما ، ولا تتملقنى على الإطلاق ، بل يجب أن تبرز هذه الخشونة والبثور والنتوءات وكل شىء ، وإلا ، فلن أنقدك فلسا واحدا(٣٥) » . وقبض لى أجره ، ورسم « حامى الحمى » فى صورة معقولة إلى حد بعيد ، ومع ذلك أبرز الوجه الصارم القوى ، والإرادة الحديدية كما أبرز روحا عصبية متوترة إلى حد الإنفجار .

ووجه النقد إلى كرومول من أجل البساطة الكئيبة فى لباسه العادى — سترة وبذلة بسيطتان سوداوان — ، ولكنه كان فى المناسبات الرسمية يرتدى سترة موشاة بالذهب . أنه بين الناس كان يحتفظ بوقار لا أثر فيه للتكلف أو التظاهر ، ولكن فى حياته الخاصة كان ينصرف إلى ألوان التسلية والدعابة والمزاح ، بل إلى مزحات عملية وهزل ماجن طارىء(٣٦) .

وأحب الموسيقى وعزف على الأرغن عزفا جيدا[٣٧]. وواضح أنه كان، حسب مايبديه، مخلصا فى ورعه وتقواه[٣٨]، ولكنه كثيرا ما استخدم اسم الله (لا عبثا) لتدعيم أهدافه، إلى حد اتهمه معه الكثيرون بالنفاق. ويحتمل أنه كان ثمة بعض الرياء فى تقواه العلنية، وقليل منه فى تقواه الخاصه، مما شهد به كل من عرفوه. وكانت رسائله وخطبه نصف مواعظ، ولا نزاع فى أنه اعتبر، بكل طيب خاطر أن الله هو ساعده الأيمن.. ولم تكن أخلاقياته الخاصة تشوبها شائبة، على حين أن أخلاقياته العامة لم تكن تفضل أخلاقيات الحكام الآخرين، فاستخدم الخداع أو القوة حينما رآهما ضروريين لأهدافه الكبرى. أن أحدا لم يوفق بعد بين المسيحية والحكم.

أن كرومول من الناحية الفنية، لم يكن حاكما مطلقا. فإنه تنفيذاً، لوثيقة الحكومة» التى أسلفنا ذكرها شكل «مجلس الدولة» وانتخب برلمانا. «وعلى الرغم من كل مساعى حامى الحمى والجيش لضمان عودة النواب الذين تميزوا بالكياسة ولين العريكة، ضم مجلس العموم الذى اجتمع فى ٣ سبتمبر ١٦٥٤ بعض الجمهوريين المزعجين، بل كذلك بعض الملكيين. وثار النزاع حول من يسيطر على الجيش: حامى الحمى أو البرلمان. واقترح البرلمان إنقاص عدد الجنود وأعطياتهم، فتمردوا وحرضوا كرومول على حله (٢٢ يناير ١٦٥٥). والواقع أن حكومة إنجلترا أصبحت دكتاتورية عسكرية منذ طهر برايد البرلمان فى ١٦٤٨.

وسيق كرومول آنذاك إلى الحكم طبقا للأحكام العرفية وحدها دون سواها، وفى صيف ١٦٥٥ قسم إنجلترا إلى خمسة أقسام عسكرية. ووضع على رأس كل منها هيئة من الجند يرأسها ضابط برتبة لواء وللوفاء بنفقات هذه التجهيزات فرض ضريبة قدرها ١٠٪ على ضياع الملكيين. واحتج الناس، وانتشر النقد والتمرد، وسمعت أصوات تنادى بعودة شارل الثانى. وأجاب كرومول على هذا كله بتشديد الرقابة والتوسع فى أعمال التجسس

والإعتقالات التعسفية وإجراءات قاعة النجم التى أغفلت المحلفين وقانونية الإعتقال . وكان « سيرهارى فين Vane » من الثوريين السابقين الذين اقتيدوا إلى السجن . إن الثورات تأكل آباءها .

ولما كان كرومول فى حاجة إلى مزيد من المال أكثر مما استطاع تحصيله عن طريق مافرض من ضرائب أخرى مباشرة ، فإنه دعا برلمانا آخر . ولما التأم عقده فى ١٧ سبتمبر ١٦٥٦ ، وضع مجلس الدولة على باب مجلس العموم بعضا من ضباط الجيش ، ومنع دخول ١٠٣ من الأعضاء الذين إنتخبوا إنتخابا صحيحاً ، ولكن يشتبه فى أن لهم ميولا جمهورية أو ملكية أو مشيخية أو كاثوليكية . فقدم الأعضاء المبعدون احتجاجا استنكروا فيه إبعادهم بأنه انتهاك صارخ لإرادة ناخبيهم التى عبروا عنها ، ودمغوا بأشد النفاق « تصرف الطاغية وإستخدامه اسم الله والدين والصوم والصلوات الشكلية ليستر قتام الحقيقة الواقعة ومرارتها(٤٠) » . ومن بين الأعضاء البالغ عددهم ٣٥٢ الذين إجتازوا تمحيص المجلس ودقته كان هناك ١٧٥ عضوا من رجال الجيش أو من المعينين أو من أقرباء كرومول . وفى ٣١ مارس ١٦٥٧ قدم البرلمان المختزل المنقوص الخاضع المذعن إلى « حامى الحمى » توسلا ونصيحة متواضعين « يطلب إليه فيها أن يتخذ لنفسه لقب « ملك » . ولكنه كان يشم رائحة المعارضة من جانب الجيش لهذا العمل ، فأبى . ولكن ثمة حل وسط أعطاه الحق فى تعيين خلفه « حامى الحمى » . وفى يناير ١٦٥٨ وافق على إعادة الأعضاء المبعدين إلى مقاعدهم فى مجلس العموم . وفى نفس الوقت اختار تسعة من النبلاء و٦١ من العامة ليشكلوا المجلس الثانى (مجلس اللوردات) . ورفض كثير من ضباط الجيش تأييد هذه الحركة . وعندما عقدوا إتفاقاً مع الجمهوريين فى مجلس العموم للحد من سلطات المجلس الثانى ، غضب كرومول غضبا شديدا وأقتحم قصر وستمنستر وطرد البرلمان (فى فبراير ١٦٥٧) . وآنذاك من الوجهة القانونية ، ومن حيث الأمر الواقع ، انتهت الجمهورية الأنجليزية وأعيدت الملكية . وكأن التاريخ

بهذا قد ضرب مثلا جديداً للتعاقب التهكمى الساخر الذى ذكره أفلاطون ، وهو تعاقب الملكية ، فالارستقراطية ، فالديموقراطية ، فالدكتاتورية ، فالملكية(٤١) .

٥ — ذروة البيوريتانية

لقد إنطوى إنتصار البيوريتانية على ثورة دينية . وتحطمت الكنيسة الإنجليزية فى ١٦٤٣ بالغاء الحكومة الأسقفية فى الكنيسة ، وصادر مذهب البروتستانتية المشيخية (البرسبتريان) حيث كان يحكم مجامع الكنيسة قساوسة يوجههم مجلس (سنودس) فى كل قسم ، وتخضع مجالس السنودس هذه للجمعية العمومية — نقول أن مذهب الكنيسة المشيخية هذا جعل المذهب الرسمى للدولة فى ١٦٤٦ ، ولكن سيطرة مذهب المشيخية انتهت بعد عامين اثنين ، حين طهر « برايد » البرلمان من أتباع هذا المذهب . وبدا لبعض الوقت أن الديانة يجدر تركها حرة طليقة من أية رقابة أو إعانة مالية من جانب الدولة . ولكن كرومول (الذى حدث أنه اتفق فى كل شىء تقريباً مع الملك الذى كان قد أودى بحياته) آمن بأن كنيسة معانة من قبل الدولة أمر لاغنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق . وفى ١٦٥٤ شكل « لجنة من الفاحصين » لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين فى رتب كنيسية والحصول على رواتب . ولم يكن أهلا لذلك سوى المستقلين (البيوريتانيين) وأنصار التعميد والبرسبتريانز . وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخى أو نظام الكنيسة المستقلة ـ وفيه يحكم كل مجمع نفسه . وإختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة . أما التنظيم المشيخى الذى ساد فى اسكتلندة ، فقد اقتصر فى إنجلترا إلى حد بعيد ، على لندن ولنكشير . أما رجال الدين الأنجليكانيون . الذين بلغوا يوما حداً كبيراً من القوة ، فقد حرموا من رواتبهم ، وباتوا يخدمون أتباعهم أى يقومون لهم بالمراسم فى أماكن خفية ، مثل الكهنة الكاثوليك . وفى ١٦٥٧ أعتقل جون أفلين بسبب

حضوره الصلوات الأنجليكانية(٤٢) . وكانت الكاثوليكية لاتزال خروجا على القانون . وأعدم قسيسان شنقا (١٦٥٠ — ١٦٥٤) بتهمة « تضليل الشعب » ، وفى ١٦٥٧ أصدر برلمان البيوريتانيين، بموافقة كرومول ، قانونا يقضى بمصادرة ثلثى ممتلكات أى فرد جاوز السادسة عشرة ، لم يتنصل من الكاثوليكية ويبرأ منها(٤٣) . وفى ١٦٥٠ كانت العقيدة الدينية قد أصبحت أساساً لوضع اجتماعى طبقى : فكان الفقراء يتحيزون للمذاهب المعارضة — أنصار العماد ، الكويكرز ، أصحاب فكرة الملكية الخامسة ، وغيرها ، أو الكاثوليك . أما الطبقات الوسطى فكانت البيوريتانية غالبة فيها . على حين أن الأرستقراطية ومعظم ذوى الحسب والنسب (ملاك الأرض الذين لا ألقاب لهم) كانوا يشايعون الكنيسة الأنجليكانية التى لم تعد الدولة تعترف بها .

وإنعكس التعصب الدينى رأسا على عقب ، أكثر مما تناقص أو خفت حـــدته . ذلك أنه بدلا من اضطهاد الأنجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين تعالت صيحاتهم من قبل طلبا للتسامح ، باتوا الآن يضطهدون الكاثوليك والمنشقين والأنجليكانيين . وحرموا استعمال « كتاب الصلوات العامة » ولو سرا فى المنازل . وقصر برلمان البيوريتانيين التسامح على أولئك البريطانيين الذين ارتضوا التثليث والإصلاح الديني والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله ، كما إرتضوا نبذ الأساقفة . أما أتباع سوسينوس أو التوحيديون فلم يشملهم التسامح بناء على ذلك . وفرضت عقوبات صارمة على أى نقد يوجه إلى العقيدة أو الطقوس الكلفنية(٤٤) . وكان كرومول أكثر تسامحا من برلماناته ، فتغاضى عن بعض الصلوات الأنجليكانية ، ورخص لجماعة صغيرة من اليهود بالإقامة فى لندن ، بل وبناء معبد لهم ، واتهمه إثنان من الوعاظ من أنصار عدم تجديد العماد بأنه « وحش سفر الرؤيا » (النبي الكذاب) ، ولكنه احتمل هجومهما صابرا(٤٥) .

واستخدم نفوذه فى وقف اضطهاد الهيجونوت فى فرنسا وأتباع والدونى بيد مونت . ولكنه عندما طالبه مازاران ، فى مقابل ذلك ، بمزيد فى التسامح مع الكاثوليك فى إنجلترا ، تذرع بعجزة عن الحـــد من حماسة البيوريتانيين(٤٦) .

ومن الجائز القول بأن الدين لعب دورا هاما وتغلغل فى الحياة اليومية عند اليهود وحدهم ، كما فعل عند البيوريتانيين . والحق أن البيوريتانية اتفقت مع اليهود فى كل شىء تقريبا ، فيما عدا ألوهية المسيح . وشجعت معرفة القراءة والكتابة حتى يقبل الجميع على قراءة الكتاب المقدس . وكان ثمة ولع شديد بالتوراة (العهد القديم) لأنه يقدم نموذجا لمجتمع تسيطر عليه الديانة . وكان الشغل الشاغل فى الحياة هو الخلاص من نار جهنم . والشيطان موجود حقاً وفى كل مكان . وبنعمة الله وحدها يمكن لفئة قليلة مختارة أن تفوز بالخلاص وتضمن كلام البيوريتانيين وأقوالهم عبارات من الكتاب المقدس ومجازاته . وأشرق فى عقولهم التفكير فى الله وفى المسيح أو تجلياتها لهم ، وملأتهم خشية ورهبة ولكن لم يفكروا قط فى السيدة مريم . واتسمت ملابسهم بالبساطة والكآبة ، وخلت من أية زينة أو زخرف ، كما اتسم كلامهم بالوقار والرزانة مع البطء . وكان منتظر منهم أن ينأوا بأنفسهم عن اللهو والدنس واللذة الحسية . وكانت المسارح قد أغلقت فى ١٦٤٢ بسبب الحرب ، فظلت مغلقة حتى ١٦٥٦ بسبب شجب البيوريتانز واستنكارهم لها . وحرم سباق الخيل ومصارعة الديكية ومباريات المصارعة ، ومطاردة الدببة أو الثيران ، إلى حد أن الضابط (الكولونيل) البيوريتانى نيوسن قتل كل الدببة فى لندن ليتأكد أنها لن تطارد بعد الآن(٤٧) . واقتلعت كل أعمدة مايو (كانت تزدان بالأشرطة والزهور وتقام فى أول مايو) . وكان الجمال شبهة ، واحترموا النساء بوصفهن زوجات مخلصات وأمهات صالحات ، وفيما عدا ذلك لم يتمتعن بحسن السمعة لدى البيوريتانيين لأنهن مصدر غواية وإغراء ، وأنهن سبب طرد الإنسان من الجنه . ونفروا من الموسيقى ، ماعدا فى التراتيل الدينيه .

وقضوا على الفن فى الكنائس ولم يسمحوا باخراج جديد منه ، اللهم إلا بعض اللوحات الممتازة من عمل صمويل كوبر ، ويتر للى ، وكان هولنديا .

وربما كانت محاولة البيوريتانز تقنين الأخلاق أجل عمل منذ شريعة موسى . واعترفوا بصلاحية الزواج المدنى ، وأبيح الطلاق ، لكن الزنى كان جريمه عقوبتها الإعدام . على أنه بعد تنفيذ حكم الإعدام مرتين عقابا على هذه الجريمة ، لم يكن المحلفون يحكمون بالإدانة . وكانت عقوبة الأيمان تتدرج وفقا للسلم الإجتماعى ، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون ، وثلاثة أمثال ما يكلف المالك الذى لا يحمل لقبا ، وعشرة أمثال مايدفع الرجل العادى ، بصفة غرامة ، ودفع رجل واحد الغرامه لأنه قال : « الله شهيد على[٤٨] » . وكان الأربعاء يوم صوم إجبارى عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد المجيد . وكان من حق الجنود إقتحام البيوت للتأكد من صوم الأهالى . ولم يكن مسموحا بفتح الحوانيت يوم الأحد ، كذلك كانت الألعاب والرياضه والأعمال الدنيوية محظورة فيه . ولم يسمح فيه بأية رحلة أو سفر يمكن إجتنابه ، كما كان محظورا « التسكع أو المشى الدنس بلا هدف[٤٩] » . وعلى الرغم من عودة الملكية وما صحبها من انتكاس فى الأخلاق ، ظل يوم الأحد قاسيا متزمتا حتى أيامنا هذه .

أن كثيرا من هذه المحرمات القانونية أو الإجتماعية أثبت أنه أقسى مما تحتمل الطبيعه البشرية . وقيل أن نسبة كبيرة من السكان لجأت إلى النفاق ، فكانوا يقترفون الآثام كما هى العادة ، ويجرون وراء المال والنساء والسلطة ، ولكن دائما تعروهم الكآبة ويخرجون أصواتا من أنوفهم وتنساب من أفواهم العبارات الدينية . ومع ذلك يبدو أن عددا كبيرا من البيوريتانيين التزموا بانجيلهم فى إخلاص وشجاعة . ولسوف نرى ألفين من الوعاظ البيوريتانيين بعد عودة الملكية يؤثرون العوز والفاقة على التخلى على مبادئهم . إن نظام البيوريتانية ضيق العقل ولكنه قوى الإرادة .

والخلق . أنه ساعد الإنجليز على حكم أنفسهم . وإذا كان الفزع من نارجهنم والطقوس البيوريتانية قد أشاعت فى البيت الكآبة والظلمة ، فإن حياة الأسرة عند عامة الناس قد أسبغ عليها نظام ونقاوة بقيتا بعد الإنحلال الذى تميزت به صفوة المجتمع فى عهد شارل الثانى .

وجملة القول أن النظام البيوريتانى ربما أحدث أصلاحا خلقيا جددته ودعمته حركة المنهجية فى القرن الثامن عشر (الميثودية حركة إصلاح دينى قادها تشارلز وجون ويزلى فى أكسفورد ١٧٩٢ لإحياء كنيسة إنجلترة) – وإليه يرجع أكبر الفضل فى الأخلاقيات العالية نسبيا التى تتميز بها الأمة البريطانية اليوم .

٦ — الكويكرز

تألقت فى الكويكرز كل فضائل البيوريتانيين ، وهم فرع منهم ، ولو أخفاها لبعض الوقت الخيال الجامح والتعصب الأعمى . وكانت خشية الله والخوف من الشيطان قويين جداً فيهم إلى حد يصيب أجسامهم برعدة . وقال واحد منهم هو روبرت باركلى ١٦٧٩ .

أن قوة الله سوف تقتحم الإجتماع الشامل ، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطني ، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر فى النفوس ، إلى حد أنه بأعمال هاتين القوتين المتعارضتين ، وكأنهما تياران متضادان ، يجهد الإنسان نفسه وكأنه فى يوم المعركة ، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته فى معظم الناس إن لم يكن كلهم وهى هزات وحركات ، تنتهى بعد أن تسود قوة الحق ، من الوخزات والأنات ، بصوت رخيم من الشكر والحمد . ومن هنا أطلق اسم الكويكرز ، أى المهتزين ، علينا ، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية فى بداية الأمر(٥٠) .

وتفسير مؤسس الطائفة جورج فوكس يختلف إختلافا يسيرا عن هذا .

« إن القاضى بنت من دربى هو أول من أطلق علينا هذا الاسم ، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله . وهذا كان فى فى ١٦٥٠ [٥١] » أما الاسم الذى أطلقوه هم أنفسهم على طائفتهم فكان « أنصار الحق » . وبعد ذلك أكثر تواضعا ، فقالوا : مجتمع الأصحاب » .

وواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر بيوريتانيين ، مع اقتناع شديد بصفة خاصة بأن ترددهم بين الفضيلة والخطيئة لم يكن إلا صراعا ، فى عقولهم وأجسامهم ، بين قوتين روحيتين ، قوة الخير وقوة الشر ، تحاول كل منهما أن تسيطر عليهم هنا ، وإلى مالا نهاية . إنهم تقبلوا المبادىء الأساسية عند البيوريتانيين : نزول الأسفار المقدسة عن طريق الوحى الإلهى ، خطيئة آدم وحواء ، كون الإنسان خطاء بطبيعته ، موت المسيح بن الله لتخليص البشر ، امكان نزول الروح القدس من السماء لتنوير نفس الإنسان وتشريفها. أن إدراك هــــذا « النور الباطن » ، والإحساس به والترحيب بإرشاده وتوجيهه ، كان جوهر الدين عند الكويكرز . وإذا نهج الإنسان سنن ذاك « النور » لم تعد به حاجة إلى واعظ أو كنيسة . فان هذا « النور » أسمى من العقل البشرى ، بل من الكتاب المقدس نفسه ، لأنه صوت مباشر من عند الله إلى النفس .

لم يتلق جورج فوكس من التعليم إلا أيسره . ولكن « مذكراته » التى دبجها كانت من الآثار الأدبية فى الإنجليزية ، التى تكشف عن القوة الأدبية فى الكلام غير الأدبى ، إذا كان بسيطا جادا مخلصا . وكان جورج ابن أحد النساجين ، والتحق للعمل بمصنع أحذية ، ثم ترك سيده وأقرباءه ، « بأمر من الله » ، وبدأ فى سن الثالثة والعشرين (١٦٤٧) ، الوعظ المتجول الذى لم يتوقف إلا بوفاته (١٦٩١) . وفى سنيه الأولى حيرته وأقضت مضجعه المغريات فراح يلتمس النصح والمشورة لدى رجال الدين ، فأشار عليه أحدهم بالدواء وفصد الدم ، وأوصاه آخر بالتدخين وتلاوة الترانيم

الدينية(٥٢) . وفقد جورج ثقته بالقساوسة ، ولكنه وجد السلوى والعزاء حيثما فتح الكتاب المقدس .

غالبا ما حملت الكتاب المقدس وقصدت لآخذ مكانى فى احدى الأشجار المجوفة فى مكان منعزل حتى يرخى الليل سدوله ، وكثيرا ماسرت فى الليل محزونا وحدى ، لأنى كنت رجلا مثقلا بالأحزان فى أيام أعمال الله الأولى فى نفسى ..... ثم وجهنى الله إلى الطريق ، ويسر لى إدراك حبه ، وهو حب خالد لانهاية له ، يفوق كل معرفة تتيسر للناس فى حالتهم الطبيعية أو يمكنهم الحصول عليها من صفحات من التاريخ أو من بطون الكتب(٥٣) .

وسرعان ما أحس بأن الحب الإلهى قد اختاره ليبشر الجميع بالنور الباطن ويعظهم . وفى اجتماع الأنصار العماد فى لبسترشير « حل الله عقدة لسانى فأعلنت لهم جميعا الحقيقة الخالدة ، وظللتهم جميعا قوة الله(٥٤) » وذاع عنه أنه يتمتع « بروح بصيرة » ، ومن ثم جاء الناس أفواجا ليستمعوا إليه . « حلت قوة الله وكان لها ايحاءات وإلهامات وتنبؤات عظيمة(٥٥) » . بينما كنت أسير فى الحقول قال لى الله : اسمك مكتوب فى سجل الحياة لدى المسيح ، الذى وجد قبل خلق العالم(٥٦) . أى أن جورج قر الآن عينا بما وقر فى نفسه من أنه بين القلة التى اختارها الله قبل الخليقة ، لتتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية . وأحس آنذاك أنه مساو لأى إنسان . ومنعه زهوه بهذا الاصطفاء الإلهى من « أن أخلع قبعتى لأى من كان : حقيرا أو أميرا ، وأنتم فى حاجة إلى ، أيها الرجال والنساء ، دون اعتبار لغنى أو فقير ، وعظيم أو حقير(٥٧) » .

وإذ اقتنع بأن الدين الحق لايوجد فى الكنائس بل فى القلب المستنير، فإنه دلف إلى كنيسة فى نوتنجهام وقاطع الموعظة صائحا بأن الاختبار الحق ليس فى الأشعار المقدسة بل فى « النور الباطن » . وقبض عليه فى

١٦٤٩ ، ولكن عمدة البلدة أطلق سراحه ، وصارت زوجة هذه العمدة من أول المعتنقين لمذهبه . واستأنف فوكس جولاته التبشيرية ودخل كنيسة أخرى وهناك كما قال « دفعت لأعلن الحق للكاهن والناس ، ولكنهم انهالوا على » في غضب شديد وطرحونى على الأرض . وضربونى ضربا مبرحا وآذونى ايذاء شديدا بأيديهم وكتبهم المقدسة وعصيهم » فاعتقل مرة ثانية ، وأخلى الحاكم سبيله ، ولكن الأهالى قذفوه بالحجارة إلى خارج البلدة(٥٨) . وفى دربى تحدث مهاجما الكنائس والأسرار المقدسة على أنها تقرب لاغناء فيه إلى الله . فحكم عليه بالإقامة فى الاصلاحية لمدة ستة شهور (١٦٥٠) ، وعرضوا عليه اخلاء سبيله شريطة الالتحاق بخدمة الجيش ، فكان جوابه مهاجمة فكرة الحرب . عند ذلك أودعه سجانوه معتقلا قذرا كريه الرائحة غائرا فى الأرض ، ليس فيه فراش ، مع ثلاثين من المجرمين ، « حيث قضيت قرابة نصف عام(٥٩) . ومن سجنه كتب إلى القضاة والحكام معترضا على عقوبة الاعدام . وربما ساعدت شفاعته على انقاذ امرأة شابة محكوم عليها بالاعدام بتهمة السرقة من حبل المشنقة .

وبعد عام قضاه فى السجن استأنف التجوال لنشر تعاليمه . وفى ويكفيلد حول جيمس نايلر ، وفى بفرلى دخل كنيسة ، وجلس منصتا حتى انتهت الوعظة ثم سأل الواعظ : هل لم يشعر بالخجل « حين يتقاضى ثلثمائة جنيه سنويا ليبشر بالأسفار المقدسة(٦٠) ؟ » وفى بلدة أخرى دعاه القسيس لالقاء عظة فى الكنيسة فأبى ، ولكنه تحدث فى فنائها إلى جمع من الناس .

أعلنت إلى الناس أنى لم أحضر لأعترض سبيل معابدهم الوثنية ولا قساوستهم . ولا عشورهم ... ولا احتفالاتهم وتقاليدهم اليهودية الوثنية لأنى أنكرت هذا كله . وقلت لهم أن هذا المكان ليس أكثر قدسية من أى مكان آخر ... لذلك نصحت الناس أن ينبذوا كل هذه

الأشياء ، وأرشدتهم إلى روح الله ونعمته فيهم أنفسهم ، وإلى نور المسيح في قلوبهم(٦١) .

وفي سوورثمور في يور كشير حول إلى مذهبه مرجريت فل ، ثم زوجها القاضي توماس فل ، وأصبحت دارهما ، قاعــة سوورثمور ، أول مركز أساسي لاجتماع الكويكرز ، وهو إلى يومنا هذا مزار يحج إليه الأصحاب

وليس علينا أن نتتبع قصة فوكس إلى أبعد من هذا . وكانت أساليبه لجة غير ناضجة ولكنه عوض بما تذرع به من صبر وجلد في ملاقاة سلسلة الاعتقالات والصدمات العنيفة ، وهاجمه البيوريتانيون والمشيخيون والانجليكانيون ، لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والقساوسة . وأرسل الحكام الكويكرز إلى السجون ، لا لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك في الحرب ، فحسب ، بل كذلك لأنهم رفضوا تأدية يمين الولاء للحكومة . واحتج الكويكرز بأن اليمين أيا كانت عمل غير أخلاقي ، ويكفي القول (بنعم) أو (لا) . وتعاطف كرومول مع الكويكرز ، واجتمع مع فوكس في لقاء ودي (١٦٥٤) وقال له عند انصرافه : « تعال إلى ثانية أننا ، أنت وأنا ، لو اجتمعنا ساعة من نهار ، لاقترب الواحد منا من الآخر »(٦٢) . وفي ١٦٥٧ أصدر (حامي الحمى) توجيهاته بالافراج عن المسجونين من الكويكرز ، كما أصدر تعليماته إلى القضاء بأن يعاملوا هؤلاء الوعاظ الذين لا كنائس لهم على أنهم (أشخاص واقعون تحت تأثير وهم شديد)(٦٣) .

إن أسوأ اضطهاد وأشده هو ما أصاب شيعة جيمس نايلر الذي بلغ به الإيمان بنظرية النور الباطن ، حد الاعتقاد أو الإدعاء بأنه هو المسيح مجسدا من جديد ، وأنبه فوكس على هذا ولكن بعض أتباعه المخلصين الغيورين عبدوه ، وأكدت إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أن ظلت يومين في عداد الموتى ، وعندما ركب نايلر إلى بريستول ، ألقت

النسوة بأوشحتهن أمام جواده وأنشدن : « مقدس ، مقدس ، مقدس رب القربان المقدس » وقبض عليه بتهمة التجديف . ولما سألوه عن دعاواه أو الدعاوى التى نسبوها إليه ، لم يكن جوابه سوى جواب المسيح « أنت قلت » . وعرض البرلمان إذ ذاك ، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه لقضية نايلر (١٦٥٦) وظل أحد عشر يوما يناقش موضوع إعدامه . وسقط القرار بأغلبية ٩٦ ضد ٨٢ صوتا . ولكن سادت روح تنادى بحل وسط إنسانى فحكم عليه بأن يقف ساعتين كاملتين وعنقه فى آلة التعذيب (المشهرة) ، ويجلد ١٣٠ جلدة ، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظة مجدف (B فى الانجليزية) ، وأن يثقب لسانه بقضيب من الحديد المحمى ، واحتمل هذه الفظائع بشجاعة . وحياه أتباعه على أنه شهيد ، وقبلوا جراحه وامتصوها واحتجزوه وحيدا فى معتقل لا قلم ولا ورق ولا تدفئة ولا ضوء فيه ، وانهارت روحه المعنوية يوما بعد يوم ، فاعترف بأنه غرر به ، فأفرج عنه فى ١٦٥٩ ، وقضى نحبه فقيرا معدما فى ١٦٦٠ (٦٤) .

ولقد تميز الكويكرز بما بدا لبعض معاصريهم بأنه أشياء غريبة تثير المتاعب . إنهم لم يجيزوا أى أثر للزخرف والتبرج فى ملابسهم . وأبوا أن يخلعوا قبعاتهم لأى إنسان مهما كانت مكانته ، حتى فى الكنيسة أو القصر أو المحكمة . ولم يخاطبوا أى فرد بغير ضمير المفرد (أنت) بدلا من ضمير الجمع (أنتم) الذى يوحى أصلا بالتشريف والتكريم . ونبذوا الأسماء الوثنية لأيام الأسبوع وشهور السنة ، فكانوا يقولون على سبيل المثال : « اليوم الأول من الشهر السادس » وأقاموا الصلوات فى العراء أو بين الجدران بنفس السهولة واليسر وطيب النفس ، وكان كل فرد من المصلين يدعى ليخبر بما أوحى به إليه الروح القدس أن يقول ، ثم يروح الجميع بعد ذلك فى صمت رهيب يكلله الجلال والوقار ، وكأنما هذا الصمت عقار مهدىء مسكن بعد نوبة الحماس والغيرة — وهو صمت يعنى فى أساسه عندهم « إحساس بروح خيرة فى أعماقهم » . ورخص للنساء فى الصلاة

الزوجية فوق أى لوم أو أية شائبة . وحد من تكاثرهم ما تواضعوا عليه من الزواج بعضهم من بعض ، وعلى الرغم من ذلك بلغ عدد الكويكرز فى ١٦٦٠ فى انجلترا ستين ألف « صاحب » إذ ما اشتهروا به من أمانة وكياسة وجد وبعد عن الإسراف ، ارتفع بهم من المراتب الوضيعة التى ظهروا فيها أول ما ظهروا إلى الطبقات الوسطى التى ينتسب معظمهم الآن إليها .

٧ ـ الموت والضرائب

أن الطبقات الوسطى هى التى تمتعت بأعظم الازدهار، فى عهد كرومول، وفوق كل شىء انصرف التجار إلى التجارة الخارجية ، وضم البرلمان آنذاك أفرادا يمثلون للصالح الاقتصادية أو يمتلكونها . ومن أجلهم قضى قانون الملاحة الصادر فى ١٦٥١ بنقل الواردات من المستعمرات إلى بريطانيا على مراكب إنجليزية — ومن الواضح أن هذا إجراء موجه إلى الهولنديين . وراودت كرومول فى بعض الأحيان فكرة التحالف مع المقاطعات المتحدة ، ابتغاء حماية البروتستانتية وتعزيزها ، ولكن تجار لندن آثروا الربح على التقوى والورع . وسرعان ما وجد كرومول نفسه (١٦٥٢) متورطا فى الحرب الهولندية الأولى . وكانت النتائج مشجعة كما رأينا .

واستعرت حمى الإمبريالية بنمو البحرية . وأوحت ذكرى هو كنز ودريك إلى التجار وإلى كرومول نفسه بإمكان كسر شوكة الأسبان وسيطرتهم فى الأمريكتين ، واستيلاء انجلترا على تجارة الرقيق الرابحة وتوجيه المعادن النفيسة من الدنيا الجديدة إلى لندن ، وفوق ذلك كله ، كما أوضح كرومول ، فان غزو جزر الهند الغربية يمكن المبشرين والوعاظ الإنجليز من تحويل هذه الجزر من الكاثوليكية إلى البروتستانتية(٦٥) .

وفى ٥ أغسطس ١٦٥٤ بعث كرومول إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا بتوكيدات الصداقة بينهما . وفى ٦ أكتوبر أرسل إلى البحر المتوسط أسطولا بقيادة بليك . وفى ديسمبر أتبعه بأسطول آخر تحت امرة وليم بن (والد أحـــد أعضاء الـكويكرز) وروبرت فينابل ، للاستيلاء على جزيرة هسبانيولا (احدى جزر الهند الغربية) من أسبانيا وأخفقت هذه المحاولة الأخيرة ، ولـكن بن استولى على جمايكا لانجلترا (١٦٥٥) .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٦٥٥ وقع كرومول ومازاران « وكلاهما يخضع الدين للسياسة » تحالفا انجليزيا فرنسيا ضد أسبانيا . إن الحرب التى كانت أسبانيا قد استمرت تشنها على فرنسا بعد معاهدة وستفاليا ١٦٤٨ كانت قد شغلت هاتين الدولتين أيما شغل عن التدخل فى شأن كرومول واستيلائه على مقاليد الحـكم فى انجلترا ، أما الآن فإنها هيأت لسياسته الخارجية نجاحا رائعا ، وإن كان عابرا . وتربص بليك لوقت غير قصير ، لأسطول الفضة القادم من أمريكا ، حتى عثر عليه فى ميناء سانتاكروز فى جزر كنارى ، ودمره عن آخره (٢٠ أبريل ١٦٥٧) . وأخذ الجنود الإنجليز زمام المبادرة فى هزيمة الجيش الأسبانى فى معركة تلال الدونز (بالقرب من دنـكرك) فى ٤ يونيه ١٦٥٨ . ولما انتهت الحرب بصلح البرانس (١٦٥٩) تخلت فرنسا عن دنـكرك لانجلترا ، ويبدا كرومول وكأنه عوض عن فقدان مارى تيودور لثغر كاليه قبل ذلك بقرن من الزمان . أنه فـكر فى أن يضفى على اسم الإنجليز من العظمة ماكان للرومان من قبل ، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه ، فقد أصبح لانجلترا السيادة على البحار ، ومن ثم كانت المسألة مسألة وقت حتى تسيطر على أمريكا الشمالية ، وتمـد حكمها وسلطانها فى آسيا . ونظرت أوربا كلها بعين الفزع إلى البيوريتانى الذى كان يسبح الله ولـكنه ابتنى بحرية ، وألقى المواعظ ولـكنه كسب معركة ، والذى أسس الإمبراطورية البريطانية بالقوة العسكرية وهو يردد اسم المسيح . أن الرؤوس التى تملوها

التيجان ، والتي حسبته محدث نعمة دعيا مغرورا ، بدأت الآن تخطب وده وتلتمس التحالف معه دون أن تعير اللاهوت اهتماما .

ولكن جون ثورلو سكرتير مجلس الدولة أنذر كرومول بأنه كان من الخطأ أن يساعد فرنسا ضد أسبانيا ، لأن فرنسا آخذة في الصعود على حين أن أسبانيا كانت آيلة للإضمحلال ، وأن سياسة انجلترا في تدعيم توازن القوى في القارة ، إن لم تتطلب مساعدة أسبانيا ، تقتضي يقينا عدم مساعدة فرنسا . والآن في ١٦٥٩ كان لفرنسا السيادة في البر ، وكان الطريق أمامها مفتوحا للتوسع في الأراضي الوطيئة وفرانش كونتيه واللورين . وكم من رجل إنجليزي كان يجود بحياته لوقف أطماع لويس الرابع عشر العدوانية .

وفي نفس الوقت ازدهرت أحوال أمراء التجارة بسبب الحروب ، وأعيد في ١٦٥٧ تنظيم شركة الهند الشرقية بوصفها مشروعا برأس مال مشترك ، « وأقرضت » كرومول ستين ألف جنيه ، حتى تتجنب تدقيق الحكومة في شئونها(٦٦) . وكانت هذه الشركة الآن من أقوى العوامل في اقتصاد انجلترا وفي سياستها . وواجهت الحكومة نفقات الحرب برفع الضرائب إلى حد لم تبلغه في عهد شارل الأول وشارل الثاني . وباعت معظم أراضي التاج وأراضي الكنيسة الأنجليكانية ، وضياع كثير من الملكيين ، ونصف أراضي أيرلنده ، وبرغم ذلك كله بلغ متوسط العجز السنوي ٤٥٠ ألف جنيه بعد ١٦٥٤ . ولم ينتفع المواطن العادي إلا قليلا . وطرحت جانبا كل الأهداف التي ناضلت من أجلها الثورة الكبرى فيما بين ١٦٤٢ — ١٦٤٩ . ولم يقل فظاعة عن ذي قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان ، والاعتقال غير القانوني ، والمحاكمة دون محلفين ، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون تستر أشد ازعاجا وظلما عن ذي قبل ، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين . وأضحى حكم كرومول بغيضا بغضا ليس له مثيل ، لا من قبل ، ولا من بعد(٦٢) » .

وكانت انجلترا ترقب موت حامى الحمى بصبر نافذ . وكم من مؤامرة دبرت لاغتياله ، وكان عليه دوما أن يأخذ حذره ، وزاد الآن عدد حرسه إلى ١٦٠ رجلا ، واستخدم ضابط متطرف سابق (برتبة مقدم) يدعى سكسبى Sexby ، أحد السفاحين لقتله . وكشفت المؤامرة (يناير ١٦٥٧) ، واعتقل السفاح ومات فى السجن . وفى شهر مايو نشر سكسبى كتيبا بعنوان « قتل ليس بقتل » ، كان دعوة صريحة للاطاحة برأس كرومول ، وعثر على سكسبى ومات هو أيضا فى السجن . ودبرت المؤامرات فى الجيش وفى دوائر الملكيين ، حيث ازداد أملهم بشكل جنونى فى عودة أسرة ستيوارث إلى الحكم . واعتنقت ابنة كرومول الكبرى ، زوجة اللواء المتطرف شارل فليتوود المبادىء الجمهورية ، ونمت على والدها دكتاتوريته(٦٨) .

وحطمت الهموم والمخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدى . إنه مثل كثير ممن بلغوا ذروة السيطرة والسلطان ، استشعر الأسف أحيانا لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء فى أيامه الأولى يوم كان من مالكى الأرض فى الريف . « إنى أقول ، وأشهد الله على ما أقول » لو أنى عشت فى ظل تعريشة ورعيت قطيعا من الغنم ، لكان خيرا من أن أتولى حكومة مثل هذه(٦٩) » وفى أغسطس ١٦٥٨ ماتت اليزابث أحب بناته إليه ، بعد مرض طويل أليم ، وبعد تشييع جنازتها بفترة وجيزة لزم كرومول فراشه وقد انتابه حمى متقطعة ، وربما أفاد الكينين فى شفائه ، ولكن طبيبه أبى أن يستخدمه لأنه علاج حديث أتى به الجزويت الوثنيون إلى أوربا(٧٠) . وبدا أن كرومول أبل من مرضه ، وتحدث فى جرأة وشجاعة إلى زوجته قائلا : « لاتظنى أنى سأفارق الحياة ، انى واثق من عكس هذا(٧١) » . وطلب إليه مجلسه أن يعين من يخلفه فأجاب « ريتشارد » أى ابنه الأكبر . وفى الثانى من سبتمبر أصيب بنكسة ، وأحس باقتراب

منيته . ودعا الله أن يغفر له خطاياه ويحفظ البيوريتانيين . وبعد ظهر اليوم التالى فارق الحياة . وكتب السكرتير ثورلو : « لقد صعد إلى السماء مضمخا بدموع شعبه ، على أجنحة صلوات القديسين ودعواتهم[٧٢] » ولما وصلت أنباء موت كرومول إلى أمستردام « أضيئت المدينة أيما اضاءة ، وكأنما نطلقت من عقالها ، ومضى الأطفال فى القنوات هاتفين متهللين فرحا لموت الشيطان[٧٣] » .

٨ – طريق العودة

١٦٥٨ — ١٦٦٠

لم يمتلك الشيطان نفس ريتشارد بن كرومول . كما أنه لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية مايمكن أن يقيد به انجلترا فى الأغلال التى صنعتها القوة والتقوى . وكان ريتشارد يشارك أخته ، رقة العقل مما جعلهما ينظران فى فزع خفى إلى سياسة الدم والحديد التى انتهجها والدهما . لقد جثا ريتشارد من قبل على ركبتيه أمام أبيه ، ضارعا إليه أن يبقى على حياة شارل الأول . وطيلة عهد الجمهورية والحماية ، عاش فى هدوء وسلام فى الريف على الضيعة التى حصل عليها بالزواج ولم يكن به من طموح فى أن يصبح فى ٤ سبتمبر ١٦٥٨ ، بناء على وصية والده ، « حامى الحمى » انجلترا ووصفته لوسى هتشنسون بأنه « وديع مهذب فاضل ، ولكنه فلاح بطبيعته ، ولم تكن تليق له العظمة[٧٤] » .

وأفلتت الآن ، فى جرأة أكثر ، كل العناصر التى كان أوليفر قد كبح جماحها ، عندما أدركت وهن نسيج ريتشارد . من ذلك أن الجيش الذى كره فيه خلفيته المدنية ، والذى رغب فى أن يحتفظ بالسلطة التى كانت على عهد والده عسكرية بشكل صريح ، تقول إن هذا الجيش التمس منه أن يتخلى عن إدارة الجيش إلى فليتوود ، فأبى ، ولكنه هدأ من روع زوج أخته

بتعيينه قائدا . ولما كانت الخزانة خاوية مثقلة بالديون ، فإنه دعا برلمانا اجتمع فى ٢٧ يناير ١٩٥٩ ، وراجت الشائعات بأنه يدبر عودة أسرة ستيوارت إلى العرش . فجاء ضباط الجيش تتبعهم زمرمن الجنود إلى ريتشارد وطلبوا إليه فض البرلمان ، فأرسل إلى حرسه ليتولوا حمايته فتجاهلوا أوامره . واستسلم ريتشارد للقوة ووقع أمرا بحل البرلمان (٢٢ أبريل) ، وأصبح الآن تحت رحمة الجيش . ودعا الجمهوريون المتحمسون فى الجيش يتزعمهم اللواء جون لمبرت ، أعضاء البرلمان الطويل الباقين على قيد الحياة للاجتماع من جديد ، وممارسة السلطة التى كانت لهم ، كما كانت للبرلمان المبتور ، حتى مجىء كرومول ، وطرده إياهم بمعونة الجمهوريين المتحمسين فى الجيش ١٦٥٣ . والتأم عقد هذا البرلمـان المبتور الجديد فى وستمنستر فى مايو ١٦٥٩ . ولـكن ريتشارد الذى لقى من السياسة نصباً ، أرسل استقالته إلى هذا البرلمان فى ٢٥ مايو . واعتزل الحياة العامة ، وفى ١٦٦٠ آوى إلى فرنسا حيث عاش فى عزلة تحت اسم مستعار هو جون كلارك . وعاد إلى انجلترا فى ١٦٨٠ ، حيث وافته منيته فى ١٧١٢ وهو فى السادسة والثمانين من العمر .

وكتب أحد الملـكيين فى ٣ يونية ١٦٥٩ يقول : « أن الفوضى كانت تعتبر كمالا ، إذا قيست إلى نظامنا الراهن وحكومتنا الحاضرة(٧٥) » واستمر الصراع على السلطة بين الجيش والبرلمـان ، ولـكن قطاعاته المقيمة فى اسكتلنده وايرلنده أيدت البرلمان . وكان ثمة حزب ملـكى قوى فى البرلمان الذى كانت غالبيته من الجمهوريين . وفى ١٣ أكتوبر حشد لمبرت جنوده عند مدخل قصر وستمنستر وطرد البرلمان ، وأعلن أن الجيش سيتولى مقاليد الحكومة . وبدا أن تعاقب الأحداث التى بدأت بحركة برايد فى التطهير ، سوف تتـكرر : مع كرومول آخر هو لمبرت .

وقال ملتون عن « انقـلاب » لمبرت « أنه عمل أبعد ما يكون عن

الشرعية ، ومن أشد الأعمال خزيا وعارا .... إنى لأخشى أن أكون واحدا فى مجتمع همجى متبربر ... والا فكيف يجرؤ جيش مأجور أن يخضع لسلطانه هو السلطة العليا التى أقامته ، على هذا النحو(٧٦) » ولكن الشاعر كان عاجزا لا حول له ولا قوة . إن القوة الوحيدة فى بريطانيا ، التى كان فى مقدورها أن تقف فى وجه الدكتاتورية العسكرية هى جيش آخر ، أو العشرة آلاف جندى الذين خصصهم البرلمان من قبل للجنرال جورج مونك لإقرار سيادته فى اسكتلنده . ولسنا ندرى إذا كانت ثمة أطماع شخصية خفية وراء اعتزام مونك تحدى الجيش فى لندن ومقاومة اغتصابه السلطة. فأعلن مونك : « أن الضمير والشرف يقضيان على بأن أحرر انجلترا من حكومة السيف التى كبلتها فى أغلال العبودية التى لا تحتمل » . وأثار بيانه الحماسة والحمية فى عناصر مختلفة معارضة للحكم العسكرى . ورفض الأهالى دفع الضرائب وأعلن الجيش فى أيرلنده والأسطول وصبيان الحرفيين انضمامهم إلى البرلمان . ورفض صرافو لندن أن يدفعوا للقادة المغتصبين القروض التى اعتمدوا عليها فى دفع الرواتب للجند . وأحست الآن طبقات التجار والصناع الذين كانوا قد أقروا من قبل خلع شارل الأول ، أن الفوضى التى تنتشر ويتفاقم خطرها ، تهدد الحياة الاقتصادية فى انجلترا ، وبدأوا يعجبون ويتساءلون : هل من المستطاع استعادة الاستقرار السياسى أو الاقتصادى دون ملك ، تهدىء شرعية مركزة من روع الناس ، وتوفر الضرائب وتسكن العاصفة ؟ . وفى ٥ ديسمبر قاد مونك قواته إلى انجلترا . وأرسل قادة الجيش قوات لاعتراض طريقه ، ولكنها رفضت القتال ضد مونك ، وسلم الضباط المغتصبون بالهزيمة وأعادوا البرلمان ، واستسلموا له ، وصاروا تحت رحمته (١٤ ديسمبر) .

وكان عدد أعضاء البرلمان المنتصر ٣٦ عضوا ، ولا يزال يميل إلى النظام الجمهورى . وكان من أول القرارات التى اتخذها ، قرار يتطلب من الأعضاء

الحاضرين ومن ينضمون إليهم فى المستقبل ، أن يتعهدوا بالتخلى عن أسرة ستيوارت . كما رفض هذا البرلمان عودة للشيخيين الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء البرلمان المبتور السابق ، على أساس أنهم يحبذون عودة شارل الثانى . وازدري الناس هـــذا البرلمان على أنه مجرد أحياء لبركان مبتور لا يمثل انجلترا ، وعبروا عن مشاعر الاحتقار « بشواء ردف البقرة » على هيئة تمثال يلقى به فى النيران الكثيرة المشتعلة فى الهواء الطلق ، حتى بلغ عدد هذه الحرائق ٣١ فى شارع واحد فى لندن . وأما الجنرال مونك الذى كان جيشه قد وصل إلى لندن فى ٣ فبراير ١٦٦٠ فقد أنذر البرلمان القائم بأنه إذا لم يدع إلى انتخابات جديدة موسعة ، ويحل نفسه فى موعد غايته ٦ مايو ، فإنه — أى مونك — لن يتولى حمايته بعد ذلك . كما أشار على البرلمـــان بإعادة الأعضاء المشيخيين الذين سبق إبعادهم ، ففعل . وأعاد مجلس العموم الموسع (ازداد عـــدد أعضائه) إقرار مذهب المشيخية (البرسبتريانز) فى انجلترا ، وأصدر الدعوة إلى انتخابات جديدة ، وأعلن حل نفسه . وعند ذلك كانت النهاية الرسمية الشرعية للبرلمان الطويل (١٦ مارس ١٦٦٠) .

وفى اليوم نفسه محا أحد العمال ، أو لطخ بالطلاء ، عبارات « أخرج أيها الطاغية ، هذا آخر ملك » التى كانت الجمهورية قد علقتها فى « بورصة لندن » . ثم ألقى العامل بقبعته وهتف « فليبارك الله الملك شارل الثانى » وعندئذ ، كما يروى ، « انضم كل من كان فى المكان يهتفون بأصوات مدوية[٧٨] » . وفى اليوم التالى التقى مونك سرا برسول شارل ، سيرجون جرينفل ، الذى أسرع فى الذهاب إلى بروكسل يحمل رسالة مونك إلى الملك غير ذى العرش .

٩ — ويعود الملك ١٦٦٠

منذ غادر شـــارل الثانى انجلترا فى ١٦٥٠ هاربا لاقى فى هربه عنتا ومشقة ، عاش متشرداً قلقاً فى القارة . واستقبلته أمه هنريتا ماريافى باريس ، ولـكن الفرنسيون كانوا قدأفقروها • وقضى شارل وحاشيته بعض الوقت فى أشـد العوز ، عالة على الإعانات ، حتى أن مستشاره المخلص ، فيا بعد ، ادوارد هايد كان يعيش على وجبة واحدة فى اليوم • أماشارل نفسه الذى لم يكن لديه مايسد الرمق فى البيت ، فـكان يتناول الطعام فى الحانات فى معظم الأحوال نسيئة ، على حساب تطلعاته . ولما عاد لويس الرابع عشر إلى أيام الوفرة والرخاء أجرى شارل معاشا سنوياً قـــدره ستة آلاف فرنك ، ومن ثم بدأ شارل يستمتع بحياة رغـدة طليقة إلى أبعد حد ، حتى يدخل السرور على قلب أمه •

وتعلم فى أيام باريس هذه كيف يحب أخته هنريتا آن أعمق حب وأخلصه وجهدت الأم والأخت كلتاهما فى ضمه إلى الـكاثوليكية ، كما أن الكاثوليك الانجليز للهاجرين إلى فرنسا لم يألوا جهداً فى تذكيره ، حتى لا ينسى ، مافعلوه من قبل لنصرة أبيه . ووعده مبعوثو المهاجرين المشيخيين بالمساعدة على عودته إذا ارتضى حماية مذهبهم . واستمع لـكلا الجانبين فى لطف وكياسة ، ولـكنه عبر عن تصميمه على التزام مذهب الـكنيسة الانجليكانية الذى قاسى أبوه من أجله ماقاسى(٧٩) ، وربما نزع به الجدل الذى حاصروه به ، إلى الشك فى الدين كله • ولـكن يبدو أن العبادة الـكاثوليكية التى رآها حوله فى فرنسا ، كان لهـا أثر قوى عليه ، وبات سراً مكتوما فى حاشيته الصغيرة أنه لو أطلقت يداه لانحاز إلى الـكنيسة الـكاثوليـكية (٨٠) وفى ١٦٥١ كتب إلى البابا انوسنت العاشر يعـده بأنه لو عاد إلى عرش انجلترا فلسوف يبطل كل القوانين التى صدرت ضد الـكاثوليك • ولم يجب البابا بشىء • ولـكن جماعة الجزويت أبلغوا شارل أن الفاتيكان لا يمـكن أن يؤيد أميراً هرطيقاً (٨١) .

وعندما شرع مازاران فى التفاوض لعقد تحالف مع كرومول أقنع شارل مستشاروه بمغادرة فرنسا، ووافق الكاردينال مازاران على الاستمرار فى صرف المعاش لشارل ، فانتقل إلى كولون ومنها إلى بروكسل . وهناك فى ٢٦ مارس ١٦٦٠ حمل إليه جرينفيل رسالة مونك : إذا وعد شارل بعفو عام ، باستثناء مالا يزيد عن أربعة أشخاص ، ومنح ، حرية الفكر ، وثبت الملاك الحاليين للممتلكات المصادرة ، فإن مونك يلتزم بمساعدته . وفى نفس الوقت ، حيث أن انجلترا مازالت فى حرب مع أسبانيا ، فيحسن بشارل أن يترك الأراضى الوطنيئة الأسبانية . فانتقل شارل إلى بريدا فى إقليم برامانت الهولندى ، وهناك فى ١٤ ابريل وقع اتفاقا قبل فيه شروط مونك من حيث المبدأ ، تاركا التفاصيل الدقيقة للبرلمان الجديد .

وجاءت الانتخابات بمجلس عموم ذى أغلبية ساحقة من الملكيين ، واتخذ اثنان وأربعون من صغار النبلاء مقاعدهم فى مجلس اللوردات الجديد وفى أول مايو تليت فى المجلسين كليهما الرسائل التى حملها جرينفيل من شارل وفى « إعلان بريدا » قدم الملك الشاب عفوا عاما فيما عدا الأفراد الذين يستثنيهم البرلمان فيما بعد » ، وترك للبرلمان تسوية موضوع الأملاك المصادرة ووعد « بألا يزعج شخصاً أو يستدعيه لمساءلته لخلاف فى الرأى فى أمور العقيدة ، وألا يعكر صفو الأمن فى المملكة » . ثم أضاف بياناً حكيما أعده له المستشار هايد :

> أنا نؤكد لكم ، تحت كلمتنا الملكية أن بعض أسلافنا كانوا يقدرون البرلمان أكثر مما نقدره نحن . وإنا لنؤمن بأن هـذا كله جزء حيوى من دستور المملكة ، ضرورى لحكومتها ، إلى حد أننا ندرك تمام الإدراك أنه ليس ثمة شعب أو أمير يمكن أن يحيا حياة سعيدة إلى درجة مقبولة بدونه . ولسوف ننظر دوما إلى نصائحهم على أنها أفضل تراث منهم ، ولسوف نكون معتزين بمآثرهم مهتمين بالمحافظة

عليها وحمايتها ، قـدر اعتزازنا واهتمامنا بأقرب شيء إلى
أنفسنا ، وألزم شيء لصيانتنا والحفاظ علينا .

وسر البرلمان لهذا ، وفى ٨ مايو نادى بشارل الثانى ملكا على انجلترا ، مؤرخا لقبه من يوم وفاة والده ، غير مستند فى ذلك إلى أى قرار برلمانى ، بل إلى حق المولد الوراثى . كما أقر إرسال مبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات إلى شارل مع دعوته إلى القدوم فوراً لاعتلاء عرشه .

وابتهجت انجلترا كلها تقريبا بانتهاء عقـدين من السنين سادهما العنف ، بعودة النظام دون إراقة قطرة من الدماء . ودقت النواقيس فى طول البلاد وعرضها . وفى لنـدن جثا الناس فى الشوارع وشربوا نخب الملك (٨٢) . وهللت كل الرؤوس المتوجـة فى أوربا لانتصار الشرعية ، حتى للمقاطعات المتحدة ، وهى جمهورية بشكل قوى ، كرمت شارل طوال رحلته من بريدا إلى لاهاى ، وقدمت له الجمعية التشريعية التى كانت قد تجاهلته حتى الآن ، مبلغ ثلاثين ألف جنيه لنفقاته ، عربونا للنيات الطيبة فى المستقبل . وجاء إلى لاهاى أسطول انجليزى ترفرف عليه الأعـلام مزدانة بالحروف الأولى من « الملك شارل » وحمله إلى انجلترا فى ٢٣ مايو .

وفى ٢٥ مايو وصل الأسطول إلى دوفر ، واحتشد على الشاطىء عشرون ألفا لاستقبال الملك . ولما اقتربت السفينة من الشاطىء سجد الجميع ، كما سجد الملك عنـدما وطئت قدماه الأرض ، شكرا لله . وكتب فولتير : « أنبأنى العجائز الذين كانوا هناك أن معظم العيون أغرورقت بالدموع » . وربما لم يحدث من قبل مشهد مؤثر إلى هذا الحد (٨٣) . وعلى طول الطريق الذى احتشدت فيه الجموع السعيدة على مسافات قريبة ، ركب شـــارل ومرافقوه ، تتبعهم مئات الناس ، إلى كنتربرى ، ثم روشستر ومنها إلى لندن . وهناك خرج (١٢٠ ألفا للترحيب به ، حتى الجيش الذى حارب ضده ، انضم الآن إلى قوات مونك ، فى هذا العرض . وانتظره أعضـاء مجلسى

البرلمان فى قصر هو يتهول . وقال رئيس مجلس الوردات : « أيها الملك المهيب ، أنت مناط رغبة ثلاث ممالك ، وقوة لمختلف طبقات الشعب وسند لها ، فى تخفيف الانفعالات والآلام ، وتسوية الخلافات .... واستعادة شرف هذه الأمم المنهار (٨٤) . » وتقبل شارل كل هـذه التحية والإطراء فى لطف وتملكه شعور خاص ، وعندما آوى إلى شىء من الراحة بعد أن أرهقه الانتصار ، قال لأحد أصدقائه : « لابد أنه كان من الخطأ أنى لم أحضر من قبل ، فإنى لم ألتق اليوم بفرد واحـــد لم يحتج بأنه كان دوما راغبا فى عودتى (٨٥) » .

الفصل الثامن

ملتون

١٦٠٨ — ١٦٧٤

١ — جون بنيان : ١٦٢٨ — ١٦٨٨

في غمرة التحمس للدين والأخلاق لم يحس البيوريتانيون بالحاجة إلى أدب دنيوى . وكان فى انجيل الملك جيمس الأول (أى الذى ترجم إلى الإنجليزية فى عهده) زاد كاف لهم من الأدب . وبدا كل شىء فيما عداه ، تقريبا ، تافها أو خبثا آثما . وفى ١٦٥٣ اقترح أحد أعضاء البرلمان ألا يدرس فى الجامعات سوى الأسفار المقدسة و «كتاب يوم وما عاناه[1]» . وقد يبدو هذا الأمر مزعجا محزنا ، ولكن يجدر أن نلاحظ أنه فى ذروة هيمنة البيوريتانيين (١٦٥٣) نشر سير توماس اركهارت ترجمته الرائعة لرابليه(*) ، مؤثرا الأدب الداعر المكشوف على الإيمان بالبعث والحساب . وفى العام نفسه أخرج إيزاك والتون كتابه صياد السمك المثالى Compleat Angler كشف فيه عما فى الماء من أسماك ، وحتى فى أيامنا هذه التى نقفز فيها قفزات حكيمة من نوع من السمك إلى آخر ، نجد هذا الكتاب ممتعا فى بساطته وعذوبة أسلوبه ، كما أنه يذكرنا بأنه على حين كانت انجلترا تمر بثورة لا تقل عنفا عن ثورة ١٧٨٩ ، فإن الناس كانوا يستطيعون أن يقصدوا فى هدوء إلى القنوات فى الريف ليصيدوا ويوقعوا فى شراكهم مخلوقا حذرا يقظا .

(*) الكتابان الأول والثانى ١٦٥٣ ، والثالث ١٦٦٣ . واكمل بيير موتيه الترجمة فى ١٧٠٨ .

انحرف قليلا عن الطريق أيها العالم الجليل ، أعرج بنا عن الطريق قليلا حيث يمكن أن نجلس ونغنى عند هذا السياج من الشجيرات الغنية برحيق الأزهار ، حتى تفرغ هـــذه السحابة ماءها على الأرض التى تنبت الزرع[٢] » .

وحافظ أندرو مارفل على حياته بحكمة وتعقل ، طيلة التعديل المستمر فى الحكومات من يوم مولده فى ١٦٢١ إلى يوم وفاته فى ١٦٧٨ ، ورحب بعودة كرومول من أيرلنده فى قصيدة غنائية قوية عذبة ، ولكنه تجرأ فيها على التعاطف مع الملك القتيل شارل الأول : —

إنه لم يأت بأمر مبتذل أو دنىء ، فى هذا المنظر المشهود ، بل تفحص ببصره الحاد نصل البلطة ، كما أنه ما أهاب بالآلهة فى حنق بذىء لتدافع عن حقه اليائس ، ولكنه حنى رأسه الوسيم ، وكأنه يحنيه على الفراش[٣] .

وأصبح مارفل مساعدا لملتون فى وظيفة سكرتير لكرومول للغة اللاتينية . وانتخب عضوا فى برلمان ١٦٥٩ ، وساعد على انقاذ ملتون من انتقام الملكيين المنتصرين ، وعاش ١٨ عاما فى ظل الملكية العائدة ، واستنكر مباذلها وفسادها وعجزها ، فى قصائد هجاء أحجم فى حرص شديد عن نشرها .

وكتبت روائع جون بنيان ، مثلها فى ذلك مثل ملاحم ملتون ، بعد عودة الملكية . ولكن الرجلين كليهما تشكلا فى ظل النظام البيوريتانى . وهو يقول : « كان منبتى وضيعا حقيرا ، وكان بيت أبى من أحط البيوت مكانة ، وكان موضع أشد الازدراء من الأسرات ممن حولنا[٤] » . وكان أبوه (سمكريا) يصلح القدور والغلايات فى قرية الستو بالقرب من بدفورد . وحصل الوالد ، توماس بنيان ، من مهنته على ما يكفى لإرسال ابنه جون إلى مدرسة بدفورد حيث تعلم من القراءة والكتابة قدرا كافيا على الأقل « ليتفحص الأسفار المقدسة » ، ويكتب أشهر الكتب الإنجليزية .

وفى القرية اشتغل صبيا لوالده الذى لقنه تعليما شفويا بطريقة السؤال والجواب فى أمسيات أيام الأحد . وعن أولاد المدينة تعلم الكذب والتجديف فى الدين . وهو يؤكد لنا « أنه لم يضارعه إلا القليل فى هـذه الأفانين »[٥] . وأكثر من هذا أنه أدين بالرقص وممارسة الألعاب وتناول قدح من الجعة فى إحـدى الحانات . وكلها أمور يحاسب عليها البيوريتانيون الذين لم يـكونوا قد استولوا بعد على مقاليد الأمور ، فى سنى شبابه (١٦٢٨ — ١٦٤٨) . وهو يقول عن نفسه « كنت أتزعم أعمال الرذيلة والشر والفسوق[٦] » ومثل هـذه الاعترافات بالخطايا الجسيمة كانت أمرا شائعا مألوفا بين البيوريتانين ، حيث عملوا على جذب أشد الانتباه إلى اصلاحهم الدينى ، وأظهروا قدرة الله على أن يهبهم نعمة الخلاص . ولما انتشرت التعاليم البيوريتانية من حوله ، أغض مضجعه وحد من نزعة الشر عنده ، تفكيره فى الموت وفى يوم الحساب وفى الجحيم . ورأى مرة فيما يرى النائم أن السماء كلها فوقه تضطرم بالنيران وأن الأرض تحته تزلزلت ، فنهض من نومه مذعورا ، وأزعج الأسرة بصرخاته : « يا إلهى ، أسألك الرحمة بى ، وقعت الواقعة ، ولم أعد نفسى ليوم الحساب[٧] » .

وفى سن السادسة عشرة سيق إلى جيش البرلمان حيث خدم لمدة ثلاثين شهرا فى الحرب الأهلية . وهو يقول عن فترة الجندية « لم أكف عن الخطيئة والإثم ، وإزداد تمردى على الله ، وعدم اكترانى بالخلاص[٨] » . وبعد تسريحه من الجيش تزوج من فتاة يتيمة (١٦٤٨) كان كل صداقها اثنين من الكتب الدينية ، وذكرياتها التى لاتفتأ ترددها عن تقى أبيها وورعه . ومذ خلف جون أباه فى الحانوت ، فأنه استطاع أن يعولها « بالسمكرة » . وازدهرت أحواله ، وتردد على الكنيسة بانتظام ، وتخلى عن نزوات شبابه شيئا فشيئا . وكان يقرأ الكتاب المقدس كل يوم تقريباء حتى صارت لغته الإنجليزية البسيطة هى لغة بنيان نفسه . وتحدثت قرية الستو عنه على أنه مواطن نموذجى .

ولكن الشكوك اللاهوتية أرهقته ، كما يقول . ولم يكن على ثقة من أن رحمة الله قد وسعته ، وبدون هذه الرحمة سيلاقى أشد العذاب . وارتاب فى أن معظم أهل الستو وبدفورد سيكون مصيرهم بالفعل إلى نار الجحيم . وأزعجه تفكيره فى أن معتقداته المسيحية كانت مجرد حدث جغرافى . وتساءل فيما بينه وبين نفسه : « ماذا نقول إلا أن الأتراك لديهم كتاب مقدس عظيم ، مثل كتابنا ، يثبت أن رسولهم (محمداً) سوف يكون شفيعا لهم ، كما يجب أن نثبت نحن أن المسيح مخلصنا (٩) ؟ » « لقد غرقت روحى فى بحر من التجديف على الله والمسيح والأسفار المقدسة ... وثارت فى نفسى التساؤلات عن حقيقة وجود الله وابنه الوحيد الحبيب . وهل يوجد حقا إله أو مسيح ؟؟ . وهل كانت الأسفار المقدسة إلا خرافة أو قصة بارعة أكثر منها كلمة الله المقدسة الخالصة ؟ (١٠) وانتهى إلى أن هذه الشكوك أثارها شيطان يسكن بين جنبيه . « إنى لحظت الكلب والضفدعة وحسبت ما أعد الله لهما مما جعلهما فى حالة أفضل من حالى بكثير ... لأنهما ليس لهما نفس ترزح تحت وطأة عذاب النار أو الخطيئة ، كما هو محتمل أن تفعل نفسى (١١) » .

وبينما كان يوما فى طريقه إلى الريف مستغرقا فى التأمل فى شرور قلبه تذكر كلمات القديس بولس : « صنع السلام بما سفك من الدم على صليبه (١٢)

« وقويت فى ذهنه فكرة أن المسيح مات من أجله ومن أجل الآخرين » ، حتى كنت مستعدا أن أغرق فى نشوة ... من الحبور والهدوء الحقيقيين (١٣) » . وانضم إلى كنيسة معمدانية (١٦٥٣) فى بدفورد ، وعمد ، وقضى عامين فى حياة تسودها السعادة والهدوء الروحيين ، وفى ١٦٥٥ انتقل إلى بدفود وعين شماسا فى هذه الكنيسة ، وفى ١٦٥٧ كلف بالوعظ ، وكان موضوعه هو رسالة لوثر : ما لم يؤمن المرء إيمانا راسخا بأنه قد تخلص من جنوحه إلى الإثم بالطبيعة ، بسبب موت المسيح بن الله ،

فإنه لابد بصرف النظر عن فضائله — لاحق بالأكثرية العظمى من البشر الذين يحشرون فى نار جهنم . إن تضحية المسيح المقدسة بنفسه ، هى وحدها التى يمكن أن تعدل جسامة خطيئات الإنسان . وكان من رأيه أن يلقن الأطفال هذا الأمر فى وضوح تام : —

فى اعتقادى أن الناس يسلكون طريقا خاطئا فى تعليم أبنائهم العبادة ويبدو لى أنه من الأفضل أن ينبيء الناس أطفالهم ، فى وقت مبكر ، وقبل فوات الأوان ، أية مخلوقات بغيضة لعينة هم ، وكيف أنهم يبوؤون بغضب من الله ، بسبب الخطيئة الأولى الأصلية الفعلية ، كما يظهرونهم على طبيعة غضب الله ، وخلود البؤس والشقاء (١٤) .

ووسط هذه النصائح والتحذيرات ، ضمت مواعظ بنيان كثيراً من الآراء الحكيمة فى تنشئة الأطفال ومعاملة المستخدمين ، وكان مثل غيره من الوعاظ ، عرضة لتحديات الكويكرز ، الذين قالوا إنه ليست الأسفار المقدسة ، بل النور الداخلى هو الذى يهيىء المعرفة والخلاص . وفى ١٦٥٦ وضع كتابين هاجم فيهما الطائفة الجديدة المزعجة ، فكان جوابهم أنهم اتهموه بأنه يسوعى ، قاطع طريق ، زان ساحر(١٥) . أما أسوأ الشدائد فقد حلت عليه بعودة الملكية ، فقد جدد القانون القديم الذى صدر فى عهد اليزابث والذى قضى بحضور كل الانجليز الصلوات الأنجليكانية دون غيرها ، وأذعن بنيان إلى حد إغلاق مكان اجتماعاته الخاص فى بدفورد ، والتقى بجمهور المصلين فى أماكن خفية وألقى عليهم مواعظه ، فاعتقل ، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا وعد بألا يعظ علانية . فرفض وأودع سجن بدفورد (نوفمبر ١٦٦٠) ، وهناك قضى اثنى عشر عاما ، مع بعض فترات تمتع فيها بحرية محدودة . وتجدد فى أوقات متفرقة عرض الإفراج عنه ، بنفس الشروط ، مثيراً نفس الرد : « إذا أطلقتم سراحى اليوم فسأشرع فى الوعظ غداً (١٦) » .

وربما أصبحت حياة الأسرة عبئا ثقيلا ، لقد توفيت زوجته الأولى في ١٦٥٨ تاركة له أربعة أطفال أحدهم أعمى ، وكانت الثانية حاملا . وعاون الجيران في إقامة أود الأسرة ، وأسهم بنيان في نفقاتها بصنع بعض المخرمات في السجن وتدبير أمر بيعها ، وأجيز لزوجته وأولاده أن يزوروه كل يوم كما أجيز له أن يعظ رفاق السجن ، وأن يغادر السجن متى شاء ، حتى للسفر إلى لندن (١٧) . ولكنه استأنف الوعظ سراً فضيقوا عليه الخناق في السجن . وفي المعتقل قرأ الكتاب المقدس المرة تلو المرة ، كما قرأ كتاب فوكس « سجل الشهداء » ، وأذكى حرارة الإيمان عنده بمحارق الأبطال البروتستانت ، ووجد متعة عظيمة في رؤى سفر الرؤيا ، ولابد أنه كان مزوداً بالقلم والقرطاس ، لأنه في السنوات الست الأولى من احتجازه كتب ست قطع دينية ، كما وضع مؤلفه المظيم « الرحمة تتسع لكبير الخطائين » . وهو سيرة حياته الروحية ، وهو رؤيا تكاد تكون مفزعة من رؤى العقل البيوريتاني .

وفي ١٦٦٦ . وفي ظل « الإعلان الأول للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، أطلق سراح بنيان فعاود الوعظ فأعيد إلى السجن . وفي ١٦٧٢ أجاز « الإعلان الثاني للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، للقساوسة المنشقين أن يلقوا المواعظ ، فأفرج عن بنيان ، وانتخب على الفور راعيا للكنيسة القديمة . وفي ١٦٧٣ أبطل العمل باعلان التسامح ، وتجدد تحريم الوعظ على المنشقين ، فلم يمتثل بنيان له ، وأعيد إلى السجن (١٦٧٥) ، ولكن سرعان ما أخلى سبيله .

وفي هذه المرحلة الثالثة والأخيرة كتب بنيان الجزء الأول من « انطلاق الحجيج من هذه الدنيا إلى العالم الثاني » ، وقد نشر هذا الجزء في ١٦٧٨ وأعقبه الجزء الثاني في ١٦٨٤ . (في مقدمة شعرية مضحكة رديئة غير معقولة زعم بنيان أنه كان قد وضع هذا الكتاب ملهاة وتسلية لنفسه دون أن يفكر في نشره) وعرض القصة ، في لطف ، في صيغة وهم أو

خيال جامح .

« بينما كنت أضرب فى فيافى هـذا العالم ، جئت إلى مكان معين حيث كانت ثمة « خلوة » فتمددت فى هذا المكان لأنام ، وإذ غلبنى النعاس رأيت فيما يرى النائم حلما (١٨) » .

إن كريستيان استبد به فى هذه الرؤيا . التفـكير فى أنه يجب عليه أن يتخلى عن كل شىء وينسى كل شىء ، وألا يلتمس سوى المسيح والجنـة . فيهجر زوجته وأولاده ، ويبدأ رحلته إلى « المدينة السماوية » . ويلحق به « الموحى بالأمل Hopeful » الذى يعبر عن العقيـــدة البيوريتانية فى إحكام بارع :

كنت يوما فى حزن شديد ، أحسب أنه أشد مالقيت فى حياتى . ونتج هذا الحزن عن رؤية صادقة لجسامة آثامى وفظاعتها ، ولما كنت آنذاك لا أفـكر فى شىء إلا الجحيم والعذاب المقيم . فإنى فجأة ، وأنا غارق فى التفـكير ، رأيت يسوع المسيح ينظر إلى من علياء السماء ، قائلا : « آمن بيسوع المسيح وسيكتب لك الخلاص (١٩) » . ولـكنى أجبته : إنى خطاء كبير خطاء كبير جداً ، فأجاب « رحمتى تتسع لك » ... وهنا غمرنى الفرح (٢٠)

وبعد شىء كثير من المحنة والنزاع يصل الحجيج إلى « المدينة السماوية » فندرك هذ الذى كانوا يأملون فيه فى حماسة بالغة :

ومن عجب أنهم حين دخـلوا ، تغيرت هيئتهم وأحاطت بهم هالة من الجلال ، وارتدوا ملابس بدت وكأنها من ذهب . كما كان هناك من قابلهم بالقيثارات والتيجان وأعطاهم إياها — القيثارات — لترتيل آيات المدح والثناء والتيجان رمز للتكريم والتشريف ، وانظر » ان « المدينة السماوية » يتألق نورها وكأنه ضياء الشمس ، والشوارع مـكسوة أرضها بالذهب ، وفيها سار خلق كثير تعلو رؤوسهم التيجان ويمسكون بأغصان الغار فى أيديهم ، ومعهم قيثارات من الذهب ينشدون عليها ترانيم الثناء والشكر (٢١) .

أما « الجهل المسكين » الذى تبعهم ، متعثرا فى عرجه ، دون أن يتزود بالإيمـان الصادق ، فإنه يأتى إلى أبواب « المدينة السماوية » ، ويطرقها ، فيسأل عن جواز مروره فلا يجده ، فيلقى به فى الجحيم(٢٢) — إن القصة تروى بشكل جذاب ، ولـكننا نعطف أحيانا على « العنيد » الذى يقول عن المسيحى ورفاقه ، « هناك فئة من هؤلاء المخبولين المغرورين الذين ، حين يمسكون بطرف من الخيال ، يظنون أنهم أعقل حتى ممن يستطيعون تحـكيم عقولهم(٢٣) » .

أن فـكرة حج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة ، فـكرة قديمة ، وتلك كانت صفتها المجازية فى العصور الوسطى ، ويحتمل أن بنيان كان قد قرأ بعضا من هذه الـكتب(٢٤) . وجر النسيان ذيوله الآن عليها فى غمرة النجاح الخارق الذى لاقته القصة الجديدة ، حيث صدر منها تسع وخمسون طبعة فى المائة العام الأولى من ظهورها ، وبيع منها مائة ألف نسخة قبل وفاة بنيان . وبيع منها ملايين من النسخ منذ هذا الوقت ، وترجمت إلى ١٠٨ من لغات أمريكا البيوريتانية . وكانت تقتني فى كل بيت تقريبا . ودخلت منها إلى الحديث الدارج عبارات كثيرة — (سلمخ) التخلص من الجزع ، غرور الدنيا رجل الدنيا الحكيم . وفى القرن العشرين فقد الـكتاب شعبيته بسرعة ، حيث لم يعد للخلق البيوريتانى وجود ، ولم يعد هناك إيمـان بمـا جاء فى الـكتب ولم يعد يقتنى ، ولـكنه لايزال فيضا من اللغة الإنجليزية البسيطة المذبة الواضحة .

وضع بنيان نحو ستين كتابا ، وليس ثمة ما يدعو اليوم إلى قراءتها . وبعد إطلاق سراحه للمرة الأخيرة ١٦٧٥ أصبح واحداً من ألمع الوعاظ فى عصره ، والزعيم المعترف به لطائفة المعمـدانيين فى انجلترا . وأبدى إعجابه بشارل الثانى . وأمر أتباعه بالولاء والإخلاص لملك أسرة ستيوارت بوصفه درع انجلترا وحاميها ضد البابا(٢٥) . وبعد انقضاء ثلاث سنوات على إعلان شارل الثانى اعتناقه الـكثلـكة وهو على فراش الموت ، أنهى

بنيان رسالته ، ومن الغريب أن نهايته كانت مثل نهاية لوثر . ذلك أنه حدث في ريدنج (مدينة في وسط انجلترا) نزاع باعد بين والد وولد كان بنيان حولها بهما ، فسافر إليهما على ظهر جواد من بدفورد ، فأصلح بين الفريقين المتخاصمين ، ولكنه عندما قفل راجعا على ظهر جواده ، فاجأته العاصفة وبللته قبل أن يعثر على مأوى يعصمه منها ، وانتابته حمى لم يبل منها قط . ووري التراب في مقبرة للمنشقين في بنهل فيلدز (Bunhill Fields) حيث يرقد حتى اليوم مع شاهد حجري على قبره .

الشاعر الشـــــاب ١٦٠٨ – ١٦٤٠

كان جد ملتون كاثوليكيا حكم عليه في ١٦٠١ بدفع غرامة قدرها ستون جنيها لتغيبه عن الصلوات الأنجليكانية ، وحرم ابنه من الميراث لأنه تخلى عن الكنيسة الرومانية . أما جون ملتون ، الذي تبرأوا منه وأنكروه فقد حصل على قدر لا بأس به من المال بوصفه كاتبا عموميا في لندن ، صاحب قلم برع في كتابة أو نسخ المخطوطات والوثائق والمســتندات القانونية . وأولع بالموسيقى ، ونظم القصائد الغزلية القصيرة ، واحتفظ في داره بكثير من الآلات الموســيقية ومن بينها أرغن ، وانتقل هذا الانعطاف نحو الموسيقى إلى الشاعر الذي ربما أقر بأن المرء لكي يجيد الكتابة ، لابد أن تتغلغل الموسيقى في نفسه ، وأن تكون له أذن موسيقية واعية . أما الأم ، ساره جفري ، فكانت ابنة خياط تاجر ، أنجبت لزوجها ستة أبناء كان صاحبنا جون ثالثهم . أما أخوه الأصغر فأصبح ملكيا يدين بالولاء لأسرة ستيوارت ، وواحدا من رجال الكنيسة التقليدية . على حين أن جون أصبح جمهوريا بيوريتانيا من أنصار كرومول . وكان البيت في « برد ستريت » مؤسسة بيوريتانية تقية مخلصة ، ولكن غير متزمتة ، فإن حب الجمال الذي ساد عصر النهضة ، امتزج هنا بالنزوع إلى الخير والفضيلة ، الذي أتى به الإصلاح الديني .

واشترى جون الأكبر عقارا ، وأثرى، واستخدم معلمين (بيوريتانيين) من أجل جون الأصغر ، وأرسله فى سن الحادية عشر إلى مدرسة سانت بول . وهناك تعلم الصبي اللاتينية واليونانية والفرنسية والإيطالية وبعض العبرية ، وقرأ شكسبير ولكنه آثر عليه سبنسر . وأنا لاحظ ، عابرين ، أنه تأثر كثيرا بالترجمة الإنجليزية لكتاب « الأسبوع » لمؤلفه دي بارتاس (١٥٧٨) ، وهو عبارة عن ملحمة تصف خلق الدنيا فى سبعة أيام :

كان بي نهم شديد إلى العلم والمعرفة ، إلى حد أنى ، منذ بلغت الثانية عشرة كدت لا أترك الكتاب أبداً ، ولا آوى إلى النوم قبل منتصف الليل . وهذا أدى فى الأساس إلى فقد بصرى . وكانت عيناى (مثل عيني أمه) ضعيفتين بطبيعتهما ، وكنت عرضة للإصابة بالصداع كثيرا ، ولكن هذا على أية حال لم ينقص من حبي للاطلاع ، ولم يعوق تقدمى فى التحصيل[٢٦] .

وفى سن السادسة عشرة انتقل إلى كريست كولدج فى كمبردج . وهناك أدى نزاعه مع أحد المدرسين إلى التضارب والتلاكم بالأيدى . وأحس صمويل جونسون « بالخجل حين أروى ما أخشى أن يكون حقيقة ، وهى أن ملتون كان من أواخر من وقعت عليهم العقوبة البدنية من طلبة الجامعتين كلتيهما »[٢٧] . وطرد لمدة فصل دراسى واحد ثم سمح له بالعودة ، وكان بالفعل ينظم شعرا جيدا . وفى ١٦٢٩ ، وهو فى الحادية والعشرين ، نظم قصيدة غنائية رائعة فى الاحتفال « بصبيحة عيد الميلاد » . وبعد ذلك بعام واحد ، نظم قصيدة من ستة عشر بيتا ، احياء لذكرى شكسبير ولتنقش على قبره ، وقد ووفق بعد ذلك على نشرها فى الطبعة الثانية لأعمال شكسبير : —

ماحاجة شكسبير العزيز إلى جهد جيل فى إقامة أحجار مكومة لعظامه المكرمة ، أو لإخفاء رفاته المقدسة تحت هرم يشير إلى النجوم ؟

أيها العزيز الذى لايغيب عن الذاكرة ، أيها العظيم سليل الشهرة ، ماذا

يريد من شاهد هزيل على اصطك الرنان(*) .

وقضى ملتون فى كمبردج ثمان سنوات، وحصل على درجة البكالوريوس فى ١٦٢٨، والماجستير فى ١٦٣٢ . ثم تركها دون أن يحس بالولع المعهود فى المتخرجين بحضور يوم الكلية التى تخرجوا فيها . وكان أبوه يتوقع أن ينخرط فى سلك الخدمة الكهنوتية . ولكن الشاب المغرور أبى أن يقسم يمين الولاء للمذهب الأنجليكانى وطقوسه الدينية : —

ومذ رأيت كيف غزا الطغيان الكنيسة — بمعنى أن الذى يرسم قسيسا يجب أن يتعهد بأن يكون عبدا رقيقا ، وفوق ذلك يقسم اليمين الذى لو لم يلتزم به إلتزاما يبعث على الضجر فإنه أما أن يحنث فى يمينه أو يرائى فى إيمانه — فأنى وجدت من الأفضل ايثار الصمت البرىء أمام الوظيفة المقدسة ، وظيفة الكلام والوعظ ، التى تشترى بالعبودية والقسم الكاذب(٢٩) .

وآوى ملتون إلى بيت والده الريفى فى هورتون بالقرب من وندسور ، ومن الواضح أن والده تولى الانفاق عليه هناك ، وتابع هو دراساته ، القديمة بصفة أساسية ، إلى أن ألم حتى بأصغر المؤلفين اللاتينيين شأنا . وكتب قصائد باللغة اللاتينية ، أثنى عليها كاردينال كاثوليكى . وسرعان ماجمل دفاعه باللاتينية عن سياسة كرومول يرن صداه فى أنحاء أوربا . وحتى حين كتب نثرا بالإنجليزية ، فأنه كتب باللاتينية حيث كان يخضع الإنجليزية لتقديم وتأخير وتعقيدات والتواءات كلاسيكية ، ولكنه كان يكتب فى لغة غريبة ساحرة رنانة .

ويحتمل أنه فى هورتون وسط الحقول المورقة والخضرة فى الريف الإنجليزى ، كتب القطع المزدوجة ، التى خلدت ذكرى الابتهاج الخالى من

(*) يؤسفنا أن نضيف أنه لما وكل إلى ملتون مهمة الدفاع عن اعدام شارل الأول ، ذكر من بين المساوىء التى تلطخ ذكرى هذا الملك اعتزازه وولعه بشكسبير(٢٨) .

الهم ، ونوبات الكآبة فى شبابه العابر ، سواء بسواء . إن كل سطر من « Allegro » يطالب بأن يتغنى به الناس . و « اللجرو » هى « الإبنة الجميلة ، الممتلئة الجسم ، المرحة اللطيفة ، المولودة من « زفير » الريح الغربية العليلة وهى تداعب أورورا الفجر » أن كل شىء فى مشهد الريف يدخل الآن البهجة على قلب الشاعر : القنبرة تشق سكون الليل ، الديك يختال فى مشيته أمام دجاجاته ، الكلاب تقفز عند سماعها بوق الصياد ، شروق الشمس « فى أشعة وضاءة فى لون الكهرمان » (أصفر ضارب للحمرة) ، بائعة اللبن التى تغنى والقطعان التى تلوك غذاءها ، ورقص الشبان والشابات على الحشائش ، والأمسيات بجوار المدفأة أو فى المسرح :

إذا مثل بن جونسون احدى تمثيلياته الراقية أو صدح شكسبير الشاعر العذب القوى الخيال بألحان الغابة الشعبية الفطرية الموسيقى .

وتفك الأغلال التى تقيد روح التآلف والانسجام الخفية ، إنك إذا استطعت أيها المرح أن توفر لى هذه المباهج كلها ، فإنى أود أن أحيا معك .

وحتى الآن لم يكن ثمة بيوريتانى متجهم عبوس مكتئب ، بل شاب إنجليزى مفعم بالصحة يجرى فى عروقه بعض دم شعراء عصر اليزابث .

ولكن طرأ بين الحين والحين مزاج آخر ، حتى بدت هذه المسرات تافهة للعقل المفكر ، حين يتذكر المأساة (التراجيديا) ، ويفتش عن مغزى ، ولا يجد فى الفلسفة إجابات ، بل تساؤلات لم يحس بها من قبل . عندئذ يأتى « Penseroso » المفكر : يسير دون أن يراه أحد :

حيث يرى القمر المتجول ، راكبا قرب الظهيرة ، وكأنه رجل ضل الطريق ، عبر السموات المترامية الأرجاء الخالية من المسالك .

أو يجلس وحيدا إلى جانب المدفأة :

حيث الجمرات المتوهجة فى الغرفة تعلم الضوء كيف يكتسى بالظلمة بعيدا عن أى مصدر للابتهاج والفرح ، اللهم إلا صرار الليل على الموقد .

أو أنه قابع « فى برج عال منعزل » ، تغلبت عليه النجوم ، يقلب صفحات أفلاطون ، ويتساءل أين المساء .

أية عوالم وأية أقطار شاسعة تتسع لهذا العقل الخالد الذى تخلى عن قصره فى زاوية من جسده .

أو هو يتذكر مآسى العشاق والميتات الحزينة للملوك . وخير من هذه الفلسفة الصارمة هناك « صحن الدير الذى يعج بالجهد والجد فى العمل والدرس » فى الكاتدرائية الكبرى ، ونوافذها التى تروى مشاهد التاريخ وضوئها المظلل :

فليعزف الأرغن المجلجل ، للمرتلين ذوى الأصوات الممتلئة أدناه ، فى أصوات عالية وترنيمات صافية ، فلربما غمرتنى عذوبة الأنغام فى أذنى بنشوة ، وأبرزت كل السموات أمام ناظرى » .

تلك هى المتعة والمسرات التى يجدها « الرجل المفكر » ، وإذا بدت مرتبطة بالكآبة ، فان الشاعر سيقضى حياته مع الكآبة . فى هاتين القصيدتين البهيجتين ، يكشف ملتون عن ذاته وهو فى الرابعة والعشرين ، شابا تتحرك مشاعره لكل مافى الحياة من جمال ، ولايجد حرجا فى المسرات والملذات ، كما وجد التفكير المحير فى الحياة والموت طريقه إلى نفسه فتأثر به ، كما أحس بالصراع بين الدين والفلسفة يحتدم بين جوانحه .

وجاءت أول فرصة ليبرز فيها الشاعر ويذيع صيته فى ١٦٣٤ حين كلف بكتابة مسرحية ريفية يمثلها ممثلون مقنعون فى الاحتفالات بتولية ارل برد جوروتر رئيسا « لمجلس الغرب » . ولحن هنرى لاوس الموسيقى التصويرية . أما شعر ملتون فكان مجهولا اسم مؤلفه تواضعا . وكان موضع ثناء واطراء إلى حد أنه حمل على الاعتراف بأنه مؤلفه . واطراه سير هنرى وتون قائلا : فى أغانيك وقصائدك رقة دورية (نسبة إلى الدورين الذين غزوا بلاد الأغريق فى القرن ١٢ ق . م) لم أر لها مثيلا فى لغتنا حتى اليوم(٣٠)

« وكان عنوان القطعة فى الأصل » مسرحية فى قصر لدلو (فى شروبشير)، أما اليوم فهى تسمى « كومس Comus » (المسرحية) وقد مثلها اثنان من صغار النبلاء مع شقيقتهما ، وكانت فتاة فى ربيعها السابع عشر ، من وصيفات الملكة هنريتا ماريا . وعلى الرغم من أن معظم المسرحية كان شعرا مرسلا غير مقفى ، محشوا بالأساطير ، فقد كانت زاخرة بالغناء العاطفى المرح والأناقة الرائعة الشجية : وتميزت ببراعة لم تتكرر فى شعر ملتون فيما بعد وكانت الفكرة الرئيسية فكرة تقليدية : عذراء فاتنة ، تتجول فى الغابات على غير هدى ، وهى تشدو : « بأغنيات ربما خلقت نفسا من تحت براثن الموت » .

ويدنو منها الساحر « كومس » ويقرأ عليها تعويذة حتى تتخلى عن عفتها ، ويتوسل إليها أن تلهو معه ، وقد تألقت نضارة وشبابا ، فتدافع الفتاة ، فى فصاحة بالغة عن الفضيلة وضبط النفس و « الفلسفة السماويه » ، وجرت كل الأبيات على خير وجه . فيما عدا قطعة ربما كانت مشئومة ، أشارت إلى « الجمهورية » ، كان من المحتمل أن تؤدى بهذا الجمع الحاشد المسرف النفور والاستياء :

إذا كان لكل رجل منصف ، يصيبه الآن الهزال والنحول تحت وطأة العوز قدر متواضع يليق به ، من هذا الترف الفاجر الذى تنعم به الآن فئة قليلة فى إسراف بالغ ، لتوزعت كل خيرات الطبيعة توزيعا عادلا فى أنصبة متساوية غير زائدة عن الحاجة ، ولما اختزنت الطبيعة مثقال ذرة هذه الخيرات(٣١) .

وفى ١٦٣٧ اعتل مزاج الشاعر وتكدر صفو حياته بغرق صديقه الشاب ورفيقه الشاعر إدوارد كنج . وأسهم ملتون فى كتاب تذكارى عن كنج ، بقصيدة رثاء « ليسيداس Lycidas » منظومة فى شكل رعوى مصطنع محشوة بالآلهة الموتى ، ولكنها غنية بالأبيات التى لاتزال تحلق فيها الذكرى الحبيبة .

وا أسفاه ماذا يحملنا على أن نرهق أنفسنا بهذا الهم المقيم ، فى النهوض بصنعة الراعى (نظم الشعر) البسيطة المحتقرة ، وللتأمل بكل ما أوتينا من قوة فى ربة الشعر الجحود ؟ . أما كان من الخير ، كما يفعل الآخرون ، أن يلهو ويلعب مع الراعية أما ريلاس فى الظل ، أو يعبث بخصلات شعر « نيرا » . أن الشهرة هى الحافز الذى يثير الروح الصافية وهى آخر الوهن فى العقل الرفيع) ، ليزدرى بالمباهج ، ويكد ويشقى طوال أيامه. ولكن حين نأمل فى الحصول على الجزاء الوفاق . وتفكر فى الانطلاق إلى الوهج الخاطف تأتى « الروح العمياء » (ملك الموت) بآلاتها البغيضة ، لتقضى على الحياة الواهنه الخيوط .

ويبدو أن جون ملتون الأكبر (الوالد) أحس بأن ست سنوات من الإنصراف إلى العمل فى روية وأناة فى هورتون كانت جزاء وفاقا للموهبة التى أبدعت مثل هذه القطع الغنائية . وليكمل حسن صنيعه أرسل ابنه ليتجول فى أنحاء القارة مع دفع كل النفقات . وغادر ملتون انجلترا فى أبريل ١٦٣٢ يرافقه خادم . وقضى بضعة أيام فى باريس (وكانت آنذاك تحت قبضة ريشليو العسكرية) ، وأسرع إلى إيطاليا ، حيث أقام شهرين فى فلورنسة ، زار خلالها جاليليو الكفيف نصف السجين ، وألتقى برجال الأدب ، وجاس إلى الجامعيين ، وتبادل معهم التحية فى شعر باللاتينية ، ونظم بالإيطالية قصائد السونيت ، وكأنه نشأ وترعرع على ضفاف نهر أرنوا أو نهر بو . وفى نابلى استقبله ورحب به وكرمه نفس المركيز مانسو الذى صادق وناصر تاسو ومارينى من قبل وقضى فى رومه أربعة أشهر ألتقى فيها ببعض الكاردينالات المثقفين وأحبهم ، ولكنه أعلن بصراحة مذهبه البروتستانتى . ثم عاد إلى إلى فلورنسة ، ثم قصد إلى البندقية عبر بولونيا وفيرارا ، ثم ذهب إلى فينيس عبورا بمدينة فيرونا وميلان ثم قفل راجعا إلى لندن مرورا بجنيف وليون وباريس (أغسطس ١٦٣٩) .

وفى كتاباته الأخيرة دون قطعتين مشهورتين عن رحلته فى إيطاليا .

وكتب ردا على تعريض أحد الخصوم به : « أشهد الله أنه في كل تلك الأماكن التي لا تلقى فيها الرذيلة إلا أيسر الاستنكار والتثبيط ، وترتكب في أقل خجل وأيسره ، لم أحد أنا قط عن جادة الفضيلة والنزاهة[٣٢] » .

ويتذكر كيف امتدح النقاد الايطاليون شعره :

وهكذا بدأت أوافق كل الموافقة على ماذكره هؤلاء النقاد الايطاليون أو يقول نفر من أصدقائي هناك في بلدي ، كما استمع بنفس القوة إلى استحثاث داخلي ينمو بين جوانحي كل يوم ، من أنه بالعمل الجاد والانكباب على الدرس (وهذا ما اعتبره قدري في هذه الحياة) بالاضافة إلى الميل الطبيعي ، بهذا كله يمكن أن أخلف شيئا مكتوبا للأجيال القادمة ، قد لا يرتضون أن يفنى (بل يبقى ويخلد على الزمن)[٣٣] .

وبدأ ملتون الآن يخطط لملحمة تخلد ذكر وطنه وعقيدته ، وتخلد اسمه على مر القرون . وكان لزاما أن تمضي الآن عشرون سنة قبل أن يتمكن من البدء فيها ، وتسع وعشرون سنة قبل أن يتمكن من نشرها . وفيما بين فترتي نظمه الشعر : الفترة الأولى (١٦٣٠ - ١٦٤٠) والثانية (١٦٥٨-١٦٦٨) ، لعب دورا في الثورة الكبرى ، وسخر قلمه للحرب والنشر .

٣ — المصلح : ١٦٤٠ — ١٦٤٢

في ١٦٣٩ استأجر ملتون مسكنا لرجل أعزب في « سانت بريد تشير شيارد » في لندن ، حيث تولى التدريس لأبناء أخته . وبعد سنة واحدة انتقل معهم إلى أولد رزجيت ستريت » ، وهناك (١٦٤٣) استقبل عددا آخر من التلاميذ بين سن العاشرة إلى سن السادسة عشرة آواهم وعلمهم ، وحصل من ذلك على دخل متواضع يكمل به المبلغ الذي خصصه له والده . وفي كتاب إلى « مستر هارتلب (١٦٤٤) صاغ ملتون آراءه في التعليم . فأتى لهذه اللفظة بتعريف قوي رائع : « أقول أن التعليم التام الواسع هو الذي يعد الانسان لينهض ، بحق ومهارة ورحابة صدر ، بكل مهامه الخاصة

والعامة ، فى السلم والحرب ، سواء بسواء[٣٤] » وأول واجب على المعلم هو أن يغرس الخلق القويم فى نفس التلميذ ، «ويصلح ماأفسده آباؤنا الأولون» — أى أن يقهر نزعة الشر الطبيعية فى الانسان (الخطيئة الأولى) — أو (كما يجدر بنا أن نذكر الآن) أن يعيد تكييف الخلق القومى الذى سبق تشكيله وفقا لحاجات مرحلة الصيد ، نقول تكييفه تبعا لمتطلبات حياة المدنية الحالية » . وأحس ملتون أن هذا يمكن تحقيقه على خير وجه بأن نغرس فى الذهن الناشىء إيمانا قويا بإله واحد بصير ، وأن نعوده على ضبط النفس وفقا لنظام رواق (التحرر من الانفعال ، عدم التأثر بالفرح أو الترح ، الخضوع دون تذمر لحكم الضرورة) وضرب لتلاميذه مثلا يحتذونه : « الدراسة الشاقة والطعام اليسير » . فقلما أجاز لنفسه يوما « للهو والمتعة[٣٥] وبعد الدين والأخلاق ، يجب أن تأتى الدراسات اللاتينية والأغريقية القديمة ، والتى لم يستخدمها ملتون مجرد نماذج للأدب ، بل وسائل لدراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والقانون والأخلاق والفسيولوجيا والطب والزراعة وهندسة العمارة ، والخطابة والشعر والفلسفة واللاهوت . وإذا كان هذا التوفيق الفريد بين العلم والانسانيات قد افترض أن النزر اليسير قد أضيف إلى العلم منذ سقوط روما ، فيجب أن نلاحظ أن هذا حقيقى فعلا ، اللهم إلا بالنسبة لجاليليو ، بل أن كوبرنيكس نفسه كان له سلفه الأغريقى فى شخص أرستارخوس . وفوق ذلك ، اقترح ملتون تعريف تلاميذه كذلك ببعض النصوص الحديثة فى العلوم والتاريخ ، بل حتى ببعض النماذج الحية فى الفنون العملية ، وكان يأمل فى أن يستقدم إلى حجرات الدراسة صيادين وبحارين وبستانيين ومشتغلين بالتشريح وصيدلين ومهندسين ومعماريين ، لينقلوا إلى التلاميذ أحدث ألوان المعرفة فى هذه المجالات[٣٦] وخصص وقتا كافيا للموسيقى والتمثيل ، وساعة ونصف الساعة يوميا للرياضة البدنية والتدريب العسكرى . ويمكن أن يطوف طلابه أرجاء البلاد فى جماعات على صهوات الجياد ، يرافقهم أدلاء معروفون

بالرزانة والحصافة ، ليتعلموا و يلاحظوا ، « أو » يلتحقون بالبحرية بعض الوقت ليتعلموا الملاحة ومصارعة البحر ، وأخيراً وبعد بلوغهم سن الثالثة والعشرين ، يمكنهم أن يسيحوا خارج انجلترا . وهذا برنامج شاق ، ليس لدينا دليل على تطبيقه تطبيقا كاملا فى مدرسة ملتون ، وربما كان فى حيز الامكان تطبيقه لو أن التلاميذ اقتبسوا من معلمهم شيئا من غيرته وجده .

وراوده أحياناً حلم إنشاء أكاديمية تنافس أكاديمية أفلاطون وأرسطو . ولكنه افتتن بأحداث العصر البارزة وانشغل بها . من ذلك أن التئام البرلمان الطويل (١٦٤٠) كان نقطة تحول فى حياته ، بل يكاد يكون تحولا عنيفاً غير طبيعى عن الشعر والتعليم إلى السياسة والاصلاح . وفى ١١ ديسمبر قدم حزب « الجذر والفرع » البيوريتانى الذى انتسب إليه بعض أصدقائه قدم إلى البرلمان عريضة صارخة ممهورة بخمسة عشر ألف توقيع (يحتمل أن يكون من بينهم ملتون) يلتمسون فيها اقصاء الأســاقفة عن الكنيسة الانجليزية . ورد جوزيف هول أسقف اكستر على العريضة « باحتجاج متواضع إلى المحكمة العليا فى البرلمان » (يناير ١٦٤١) ، دافع فيه عن النظام الأسقفى بأنه مأخوذ عن « عصر الرسل الأبرار بلا انقطاع ... حتى العصر الحــاضر (٣٨) » فاستل خمسة من الكهنة المشيخيين أقلامهم فى « الرد على الاحتجاج المتواضع » (مارس ١٦٤١) وقعوه باسم مستعار مكون من الأحرف الأولى من أسمائهم (*) . ورد الأسقف هول وبعض الأسقفيين الآخرين ، وأقر مجلس العموم الاقتراح ، ورفضه اللوردات . واشتد الجدل على المنابر وفى الصحف وفى البرلمان ، وانضم ملتون إلى المعمعة بكتيب من تسعين صفحة « إصلاح يمس نظام الكنيسة فى انجلترا (يونية ١٦٤١) .

وفى عبارات قوية لاهثة ، استوعب بعضها نصف صفحة ، عزا ملتون تدهور الكنيسة الرسمية إلى سببين : الابقاء على الطقوس الكاثوليكية ،

(*) هم ستيفن مارشال ، ادموند كالامى ، توماس ينج ، ماثيو نيوكومن ، وليم سبرستو .

واحتكار الأساقفة لسلطة تعيين القساوسة . وهزأ ملتون « بهذه الطقوس الفارغة التى لا معنى لها ، والتى تحتفظ بها الكنيسة لمجرد أنها علامة خطيرة للإنزلاق نحو رومه ، والتى لا تستخدم إلا كمجرد مسرحية تعرض أبهة الأساقفة(٣٩) » . إن الأساقفة — كانوا يتسللون خاسة إلى الكاثوليكية فى طقوسهم — وتلك طعنة صريحة لرئيس الأساقفة لود الذى كان قد قدمت له قبعة الكاردينالية . وأنكر ملتون مازعمه جيمس الأول وشارل الأول من أن الأساقفة ضرورة لازمـــة لحكومة الكنيسة وللنظم الملكية . وأهاب بالاسكتلنديين المشيخيين أن يواصلوا حربهم القديمة ضد النظام الأسقفى ، وتضرع إلى الثالوث الأقدس أن يرعى المصلحة العامة :

يا الهى : أول عنايتك لكنيستك البائسة التى كادت تنهار وتلفظ أنفاسها الأخيرة ، لا تتركها هكذا فريسة لتلك الذئاب المزعجة التى تتربص وتفكر طويلا لتلتهم قطيعك الوديع ، تلك الخنازير البرية التى سطت على كرمنك ، وتركت بصمات حوافرها المدنسة على نفوس عبادك . لا تدعهم ينفذون خططهم اللعينة التى تقف الآن على مدخل الهاوية غير ذات القرار ، مترقبة أن يفتح الحارس ويطلق الجراد والعقارب الفتاكة ، لتحتوينا فى ظلام جهنم الدامس ، حيث لن تشرق علينا بعده شمس حقيقتك ، ولن نعود نأمل فى بزوغ الفجر البهيج ، أو نسمع زقزقة العصافير فى الصباح(٤٠) .

واختتم هذه العبارة بإلقاء جماعه الطقوس التقليدية فى الجحيم :

ولـكن أولئك الذين يتوقون إلى مناصب الحكم الرفيعه والارتقاء هنا فى هذه الدنيا ، على حساب إفساد عقيدتهم الحقه والانتقاص منها ، وعلى حساب كروب بلدهم واستعباده ، لابد أنهم ، بعد خاتمه مزرية فى هذه الحياة (التى وهبهم الله إياها) ، سيلقى بهم فى الدرك الأسفل من النار ، وهناك يتلقاهم من سبقهم من المحكوم عليهم بالهلاك الأبدى ، فيتحكمون فيهم فى حقد وحسد ، ويطأونهم بأقدامهم ويزدرونهم ، وفى حمأة تعذيبهم ، لن يجدوا الراحه إلا فى ممارسه أشـــد ألوان الطغيان عسفاً ووحشيه ، مهم

بوصفهم أرقاءا وعبيداً لهم ، وسيبقون على هذه الحال إلى الأبد ، مخلدين فى أحط وأسفل مهاوى الهلاك الأبدى وأشـــدها كآبة واحتقاراً واضطهاداً (٤١) .

وعندما رد الأسقف هول على القساوسه الخمسه للشيخيين وهاجمهم بعنف ، انبرى ملتون لنصرتهم فى بيان عاصف لابدأنه أخرج الأسقف وهو فى الخامسه والستين من ردائه الـكهنوتى : « نقد لاذع لدفاع المحتج على بيان الشيخيين » ، ظهر ، مجهولا كاتبه ، فى يوليه ١٦٤١ . واعتذر ملتون فى المقدمه عن عنفه فقال :

فى الـكشف عن إنسان سيء السمعه عدو للحق ، ولسلام بلاده وإدانته وبخاصه إذا اغتربأن له لساناً ذرياً منطلقاً مؤثراً ، فإنه لا يتنافى مع اعتدال المسيحيه وتواضعها أن ترد على مثل هذا الرجل بأسلوب أعنف وأشد من أسلوبه ، وأن تشيع غطرسته إلى مثواها مضمخه بمائه المقدس(٤٢) .

وأعاد الأسقف وابنه الـكرة ببيان عنوانه « حجه داحضه متواضعه جديدة » (يناير ١٦٤٢) هاجما فيه كاتب « النقد اللاذع » بحدة تميز بها هذا العصر المغيظ المحنق(٤٣) . فرد ملتون كيد الأسقف فى نحره ببيان عنوانه « دفاع ضد الحجه الداحضه المتواضعه » (أبريل) اعتذر فيه مرة أخرى عن سوء معاملته للأسقف هول ، وشجب القريه المريضه « التى أوردها هول » وهى اتهام ملتون بأنه طرد من كمبردج ، وأكد ملتون للعالم بأسره بأن زملاءه فى « كريست كولدج » دعوه ، بعد تخرجه ، للإقامه معهم ، وأكد من جديد طهارته التى لا مطعن فيها :

على الرغم من أنى لم ألقن إلا قدراً يسيراً من المسيحية ، فإن شيئاً من التحفظ والنزعة الطبيعية والقواعد الخلقية ، استقيته من أنبل فلسفة ، كان كافياً ليجعلنى أحتقر من ألوان الفجور ماهو أقل كثيراً مما يجرى فى المواخير . ولـكننى قد عرفت مبـدأ الأسفار المقدسة التى تـكشف عن الأسرار السامية الطاهرة ... التى تقول بأن « الجسد للرب ، والرب للجسد »

فإنى كذلك سألت نفسى : إذا كان التجرد عن العفة فى المرأة التى ينعتها القديس بولص بأنها فخر الرجل ، فضيحة وخزياً وعاراً ، فالأمر يقيناً كذلك فى الرجل الذى هو صورة الله وفخره معاً ، فإنه لا بد أن يكون أشد فساداً وعاراً ، لأنه يقترف الإثم ضد جسده ، وهو الجنس الأكمل ، وضد فخره الذى يكمن فى المرأة ، والأنكى من ذلك ضد صورة الرب وفخره ماثلين فى شخصه هو(٤٤) .

ومن ثم نجد ملتون يرثى لأخلاق كثير من الشعراء القدامى ، ويؤثر عليهم دانتى وبترارك ، اللذين لم يكتبا قط إلا تكريماً وتشريفاً منهما لأولئك الذين نذرا لهم أشعارهما التى عرضا فيها أفكاراً سامية نقية ، دون تأثيم وانتهاك للحرمات . ولم ألبث إلا قليلا حتى تأكد عندى هذا الرأى : إن هذا الذى لا يمكن أن يخيب أمله فى أن يكتب كتابة جيدة ، يجدر أن يكون هو نفسه قصيدة صادقة ، أى مركباً مكوناً من أفضل الأشياء وأشرفها ، لا يقدم على أن يكون قصيده عقود مدح وثناء للرجال البطوليين أو المدائن المشهورة ، إلا إذا أوتى من التجربة والخبرة والمران على كل ماهو أهل للثناء والاطراء(٤٥) .

وبعد هذا المثال الذى اقتبسناه ، انتقل ملتون إلى الحديث عن قدمى الأسقف وجوربه الذى يبعث « بروائحه منتنة إلى السماء » . وإذا بدت هذه اللغة غير لائقة باللاهوت فإنه دافع عنها « بقواعد أعظم البابماه » وبأنه يحذو حذو لوثر ، وذكر قراءه بأن « المسيح نفسه وهو يتحدث عن التقاليد البغيضة لايتردد فى استعمال ألفاظ مثل الغائط والمرحاض »(٤٦) .

والآن نكتفى بهذا القدر من النزاع الكريه الكئيب ، الذى سقناه لأنه يلقى ضوءاً على شخصية ملتون وعلى آداب السلوك فى ذاك العصر ، ولأنه وسط هذا الهراء القاسى وفوضى الأجرومية والجمل الطويلة ، كانت هناك قطع نثرية ذات جرس موسيقى ، مشرقة تهز المشاعر مثل شعر ملتون

وفى نفس الوقت (مارس ١٦٤٢) ، كان قد نشر باسمه كتيباً أكثر موضوعية : « اثارة تفكير حكومة الكنيسة فى حظر السلطة الأسقفية » : « هذا النير البغيض الذى لا يمكن أن يزدهر أى عقل حر أو موهبه ممتازة تحت وطأة مايفرضه من غباء وعداء تعسف وطغيان »(٤٧) . وسلم بالحاجة إلى نظام أخلاقى واجتماعى . والحق أن ملتون أدرك أن فى نهوض النظام وسقوطه مفتاح ارتقاء الدول وانهيارها :

ليس فى هذا العالم شىء أعظم أهمية وأشد إلحاحاً وخطراً فى كل حياة الإنسان بأسرها من النظام • وهل أنا فى حاجة إلى ضرب مثل على ما أقول ؟ إن كل من قرأ فى تبصر وتدبر عن الأمم والدول ••• لابد أن يقر على الفور بأن ازدهار المجتمعات المتحضرة واضمحلالها ، وكل تحركات الأحداث البشرية وتحولاتها ، إنما تروح وتجىء وكأنها على محور عجلة النظام . وأنه ليس ثمة كمال اجتماعى فى هذه الحياة ، مدنى أو دينى ، يمكن أن يسمو فوق النظام وقواعد الانضباط . لأن النظام هو الذى ، بفضل أوتاره الموسيقية يحافظ على كل أجزاء الحياة ويمسك بها متضامة بعضها إلى بعض(٤٨) .

ومثل هذا النظام ، على أية حال يجب ألا يستقى من أية هيئة كهنوتية متسلسلة فى رتب كنسية ، بل من ادراك أن كل إنسان بذاته يمكن ان يكون كاهنا .

وفى كل المراحل كان ملتون يعى ويدرك كل قدراته ومواهبه . أنه قدم للجزء الثانى من رسالته بقطعة عن سيرة حياته ، أبدى فيها حزنه لأن النزاع قد باعد بينه وبين إخراج عمل عظيم شغل باله طويلا : إن هذا الذى أداه أعظم العباقرة وصفوتهم فى أثينا وروما أو ايطاليا الحديثة ، والعبرانيون القدامى لبلادهم ، يمكن أن أقوم به أنا لبلدى ، بدورى ، وبقدر حظى من الحياة والعمل ، هذا بالإضافة إلى أنى فوق كل شىء مسيحى(٤٩) . « وروى ملتون كيف أنه كان بالفعل يعد الموضوعات التى يضمنها مثل هذا

الكتاب . ولكنه أراده عملا يستطيع من خلاله « أن يصور تصويرا نابضا بالحياة وبعنف . . . سجل الطهر والفضيلة بأسره » ، و « كل ماهو سام ومقدس فى العقيدة الدينية(٥٠) ، « وكأنما كان يتنبأ بأن الأعوام الستة عشر قد تنقض قبل أن تدع له الثورة الكبرى فرصة للشروع فى الكتابة : فقال يعتذر عن تأخره :

لست أخجل من الاتفاق مع قارىء فطن ذى دراية ، على أنه فى بضع سنين يتعهد بدفع ديونى الحالية ، لأنه عمل ليس نتاجا لنزوة الشباب أو لعب الخمر بالعقل ، مثل هذا الذى يسيل به « قلم عاشق شرس » بذىء فى أوقات الضياع ، أو شاعر متطفل فى فورة حقده . كما أنه عمل لايمكن إنجازه بالتضرع وقراءة التماويذ للذاكرة وبناتها المغويات (بنات الأفكار) ، بل بالدعوات والصلوات المخلصة الخاشعة « للروح الأبدى الخالد الذى يستطيع اثراءنا بالتعبير والمعرفة ، ويبعث إلينا بأحد ملائكته (وحارس عرشه) ساروفيم ، مع نار مذبحة المقدسة ، ليمس ويطهر شفتى من يشاء . ويجدر أن يضاف إلى هذا ، دأب على القراءة الجادة المنتقاة ، ومثابرة على الملاحظة الدقيقة ، وتبصير بالفنون والمسائل العامة الجذابة والواسعة ، حتى إذا تم العمل ، إلى حد ما تحت مسؤليتى وبجهدى الخاص ، فإنى عندئذ لا أرفض أن أزكى هذا الأمل المنشود عند كثير ممن لا ينفرون من المغامرة بالوثوق إلى هذا الحد بما أقطع على نفسى لهم من تعهدات أو وعود(٥١) .

٤ – زواج وطلاق ١٦٣٤ – ١٦٤٨

فى « الحجة الداحضة المتواضعة » كان الأسقف هول قد اتهم ملتون بأنه يسعى لشهرة أدبية ، ويعلن عن مواهبه وقدراته وتجاربه وثقافته وبيئته السابقة ، أملا فى الفوز « بأرملة ذات ثراء » أو أية جائزة أخرى . وفى « الرد » عليه عمد ملتون إلى تسفيه هذه الفكرة والتنديد بها ، وقال أنه على النقيض من ذلك ، « نشأ فى بحبوحة من العيش » واتفق فى الرأى مع « أولئك الذين يؤثرون فى حكمة وتبصر وبروح طيبة ، عذراء غير ذات

تراه مريض ، وذات أصل كريم ، على أغنى الأرامل »(٥٢) . وبينما انساقت انجلترا إلى الحرب الأهلية (١٦٤٢) ، انطلق ملتون إلى الزواج (١٦٤٣) .

لم ينضم ملتون إلى جيش البرلمان ، وعندما اقتربت القوات الملكية من لندن (١٢ نوفمبر ١٦٤٢) نظم قصيدة (سونيت) يشير فيها على قادتها أن يحموا بيت الشاعر وشخصه ، كما فعل الاسكندر الأكبر مع الشاعر بندار من قبل ، واعدا إياهم بأن ينشر على الملأ شعرا « حسن صنيعهم (٥٣) » . على أن القوات الملكية ردت على أعقابها . ولم يمس بيت ملتون بأذى ، وبقى ليستقبل زوجته .

وكان ملتون قد التقى بمارى باول Powell فى فورستهل فى اكسفوردشير ، حيث كان والدها قاضى الصلح . وهذا الوالد ، ريتشارد باول كان قد اعترف من قبل ، فى ١٦٢٧ ، بأنه مدين لملتون ، وكان آنذاك فى كمبردج ، بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، خفف فيما بعد إلى ٣١٢ ، ولكن لم يسدد بعد . والظاهر أن الشاعر قضى عند أسرة باول شهراً (مايو ـ يونية ١٦٤٣) ولسنا ندرى ليسترد الدين أو يحظى بزوجة . وربما أحس جون وهو فى الرابعة والثلاثين ، بأنه قد آن الأوان للزواج والنسل ، وواضح أن مارى كانت تتحلى بالعذرية التى ينشدها . وفاجأ أبناء أخته بعودته إلى لندن متأبط ذراع زوجة .

ولم تدم السعادة طويلا لأحد . فقد كره أبناء الأخت مارى كدخيلة عليهم ، وكرهت هى كتب ملتون ، وافتقدت أمها و « القدر الكبير من الصحبة والأنس والبهجة والرقص . . » الذى كانت تنعم به فى فورست هل . ويقول أوبرى « كثيراً ما كانت تسمع أبناء الأخت هؤلاء يضربون فيتعالى صراخهم(٥٤) مذ رأى ملتون أن مارى محدودة التفكير ضيقة الأفق ليس فيها سوى النزر اليسير من الأفكار ، التى هى فى جلتها ملكية ، فإنه انصرف ثانية إلى كتبه . وتحدث فيما بعد عن « شريكة حياة بكماء

جامدة كئيبة لا روح فيها » ، ورنى « للإنسان الذى يجـد نفسه مرتبطا بأوثق رباط بهيكل من طين وبلغم ، كان يأمل منه أن يكون شريك مجتمع تملؤه السعادة والبهجة والسرور(٥٥)» ويعتقد بعض الباحثين فى الزواج غير المتكافىء أن مارى أبت عليه البناء بها(٥٦) . وبعد شهر طلبت السماح لها بزيارة والديها ، فوافق ملتون ، مع التفاهم بينهما على عودتها . ولـكنها ذهبت ولم ترجع . وبعث إليها برسائل تجاهلتها ، ولما لم يجـد أى متنفس آخر لمشاعره ، كتب ونشر دون توقيع « مبدأ الطلاق ونظامه » (أغسطس ١٦٤٣) ، وأهداه إلى « برلمان انجلترا والجمعية « أى جمعية وستمنستر التى كانت تصوغ آنذاك اعترافا بالمذهب المشيخى . وتقدم إلى البرلمان برجاء أن يتحلل من أغلال التقاليد ، ويسير بالإصلاح قدما ، باقرار أسس أو شروط أخرى للطلاق ، غير الزنى ، وعرض أن يوضح : —

أن التصور ، وعدم الأهلية أو تنافر العقول الناشىء عن سبب طبيعى لا يتسنى تغييره ، مما عوق ، والأرجح أنه كثيراً ما يعوق إلى الأبد ، مزايا الحياة الزوجية ، وهى السلوى والبهجة والهدوء والطمأنينة ، نقول أن هذا سبب للطلاق أقوى من البرودة الزوجية الطبيعية ، لا سيما إذا لم يكن هناك أطفال ، وكانت هناك موافقة من الطرفين (٥٧) .

واقتبس ملتون القانون اليهودى القديم الذى ورد فى التوراة (سفر التثنية ٢٤ ـ ١) « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء . وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته » . وواضح أن السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى . فقد جاء فى انجيل متى (٥ ـ ٣١ ، ٣٢) « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى » ، واحتج ملتون بأنه « المسيح لم يقصد أن يؤخذ كلامه بمعناه الحرفى ، كلمة بكلمة »(٥٨) ، وكثيراً ما أعلن أنه لم يأت ليغير مقدار ذرة من شريعة موسى . وكافح ملتون حتى يجعل تفسيره الواسع يشتمل

قضيته الشخصية ، حتى أنه ذهب إلى حد تبرير الطلاق لعدم القدرة على الإسهام « فى حديث مناسب معقول . « لأن عدم الصلاحية والتخلف فى العقلية التى تنفر من الزواج » يمكن أن تهبط بالزواج إلى « حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة » حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة إلى مجرد جثة (٥٩) .

ونفد الكتاب الصغير بسرعة ، لأنه قوبل باستنكار عام . وفى فبراير ١٦٤٤ نشر ملتون طبعة مزيدة منقحة ظهر عليها اسمه فى جرأة وشجاعة . ورد على ناقديه فى أسلوب العالم المتفقه ، فى « Tetrochordon » ثم فى أسلوب أخف فى Colasterion (صدر كلاهما فى ٤ مارس ١٦٤٥) ، تناولهم فيهما بأقسى القدح والألفاظ المقذعة — كتلة من الطين ، خنزير ، خنزير برى ، ذو أنف بشع ، محام له مخ الديك ، حمار صفيق ، بغيض ، كريه الرائحة (٦٠) لقد استطاع ملتون فى الصحيفة الواحدة أن يقفز من مرتفعات بارناسوس إلى أحط مهاوى السفاهة والبذاءة .

وحيث أخفق فى أن يحصل من البرلمان على تعديل فى قانون الطلاق ، اعتزم أن يتحدى القانون ، ويتخذ زوجة ثانية ، وكان يفضل مس دافيز التى لا نعرف عنها شيئاً إلا أنها رفضته . ولما ترامت شائعات هذه الخطبة إلى مسامع مارى باول قررت أن تستعيد زوجها ، على أى الأحوال ، حلوها أو مرها ، قبل فوات الأوان . وذات يوم بينما كان ملتون فى زيارة لصديق فاجأته مارى وجثت بين يديه وتوسلت إليه أن يعيدها إلى مخدعه وبيته . وتردد هو ، ولكن أصدقاءه ناصروا قضيتها ، فقبل عودتها إليه . وانتقل الآن إلى بيت أوسع فى باربيكان ستريت ، ضمها كما ضم أباه وتلاميذه . وسرعان ما جاء أبواها للاقامة أيضاً مع الشاعر ، بعد أن تدهورت حالهما بهزيمة الملكية ، مما جعل هذا البيت أقرب ما يكون إلى دار المجانين ، أو للفلسفة . وزاد الامر ضغثاً على أبالة فى ١٦٤٦ ، مولد طفلة ملتون الأولى آن . وخفف من هذه الفوضى موت ريتشارد باول فى يولية ، كما أن جون

ملتون الأكبر (الوالد) اختتم حياته المديدة الكريمة فى مارس التالى . ومن ثم أصبح الشاعر وريثا لمنزلين أو ثلاثة فى لندن ، ولبعض المال ، وربما لبعض العقارات فى الريف . وفى ١٦٤٧ فض ملتون مدرسته وانتقل مع زوجته وابنته واثنين من أبناء أخته إلى « هاى هلبورن ستريت » وفى ١٦٤٨ ولدت له ابنته الثانية مارى .

٥ — حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩

فى ١٣ أغسطس ١٦٤٤ ، تحدث الكاهن المشيخى هربرت بالمر أمام مجلس البرلمان ، واقترح أن تحرق علنا رسالة ملتون عن الطلاق . ولم تحرق الرسالة ، ولكن شكوى بالمر ربما أدت « بشركة المكتبات » التى تضم كل باعة الكتب الإنجليز ، إلى لفت نظر مجلس العموم (٢٤ أغسطس) إلى أن الكتب والنشرات تخالف القانون الذى يتطلب تسجيلها وإجازتها بمعرفة الشركة . وكان هذا القانون قد صدر فى عهد اليزابث ، كما أن البرلمان كان قد جدد العمل به فى ١٤ يونيه ١٦٤٣ ، بإصداره أمرا ينص على :

أنه لا يطبع كتاب أو نشرة أو ورقة ، أو أى جزء من شىء من هذا القبيل ، أو يعرض للبيع ، قبل التصديق على نسخة منه وإجازته من أشخاص يعينهم لهذا الغرض أحد المجلسين أو كلاهما معا ، وقبل أن يسجل فى السجل المعد لذلك فى شركة المكتبات ، طبقا لما جرى عليه العرف من زمن بعيد(٦١) .

ويعاقب أى خرق لهذا القانون بالقبض على من تولوا التأليف والطبع .

وكان ملتون يهمل دوما تسجيل ما ينشره نثرا . وعلى الرغم من أن كتابه « مبدأ الطلاق ونظامه » ظهر بعد صدور الأمر سالف الذكر بشهرين ، فإنه تجاهل ما يقضى به . وربما كان شاعرنا ذا حظوة لدى البرلمان لأنه ناصره فى صراعه مع الملك . على أن البرلمان على أية حال ، تغاضى عنه وحده ولكن الأمر ظل سيفا مصلتا على رأسه وعلى رؤوس سائر المؤلفين فى بريطانيا . وبدا لملتون ضربا من المحال أن يزدهر الأدب فى ظل

مثل هذه الرقابة . فماذا يجدى خلع ملك وتحطيم نظام أسقفى استبدادى قاس ، إذا استمر البرلمان والكنيسة على التدقيق والتحقيق فى كل كلمة يتفوه بها الإنجليز ؟ . وفى ٢٤ نوفمبر ١٦٤٣ أخرج دون تسجيل أو إجازة أروع أعماله النثرية « أريوباجيتيكا : حديث من جون ملتون عن حرية المطبوعات دون أجازة ، إلى برلمان انجلترا »(*) وليس فى هذا الحديث قذف ولا طعن ولا نقد لاذع ، بل كان على مستوى عال من اللغة والفكر وفيه يطلب إلى البرلمان بكل اجلال واحترام ، أن يعيد النظر فى قانون الرقابة ، من حيث أنه ينزع إلى « تثبيط الهمم فى سبيل العلم والمعرفة ، ويعوق بل يقضى على أى ابداع واكتشاف يمكن أن يخرج فى المستقبل إلى حيز الوجود فى مجال الحكمة الدينية والمدنية كليهما . » ثم يستطرد فى قطعة مشهورة قيمة :

لست أنكر أنه من أعظم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ، ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر لأن الكتب ليست أشياء ميتة اطلاقا ، بل أن فيها من الفعالية والحيوية مايجعلها نشيطة فى مثل نشاط النفس التى أنتجتها . ليس هذا فحسب ، بل أنها كذلك ، تحفظ ، وكأنما تحفظ فى قنينة ، أنقى عصارة وقوة مؤثرة للفكر الحى الذى نماها وأبدعها . وإنى لأدرك أنها نشيطة قوية الإنتاج مثل أسنان التنين الخرافية إذا نثرت على الأرض هنا وهناك انبعث منها رجال مسلحون (هكذا تقول الخرافة) . ومن جهة أخرى ، فإنه إذا لم يكن ثمة حيطة وحذر ، فان قتل الإنسان يعدل تقريبا قتل الكتاب الجيد . إن من يقتل رجلا يقتل مخلوقا عاقلا ، صورة الله ، على حين أن من يدمر الكتاب الجيد ، يقتل العقل نفسه ، بل يقتل صورة الله ، فى صميمها . وكم من إنسان

(*) Areopagitica — يقصد بها المسائل المتعلقة بالحكمة العليا فى أثينا ، واسمها أريوباجوس ، نسبة إلى الجبل الذى كانت تجتمع عليه . واقتبس ملتون هذا العنوان من رسالة وجهها آيزوقراط ٣٥٥ ق . م . إلى هذه الحكمة .

يعيش حملا ثقيلا على الأرض ، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الغالى للروح السامية يصان ويختزن ، قصدا لحياة وراء الحياة . حقا أن أى عصر لن يستطيع استعادة الحياة ، وقد لايكون فى هذا خسارة ، ولا تعوض ثورات العصور فى الغالب عن فقدان حقيقة منبوذة ، ساءت حال امم بأ كلها من أجل افتقارها إليها .

وينبغى لذلك أن تكون حذرين يقظين لأى اضطهاد نصبه على الأعمال الحية لمشاهير الرجال البارزين ، وكيف نبدد حياة الرجل الناضجة المحفوظة المختزنة فى كتاب . فإذا رأينا عملا من أعمال القتل يرتكب على هذه الصورة ، وهو فى بعض الأحيان استشهاد ، وإذا امتد هذا إلى كل الإنتاج ، حتى ينتهى الأمر إلى مذبحة ، فمن ثم لاينتهى الإعدام عند خنق الحياة الفطرية ، بل ينفذ إلى الجوهر السماوى الخامس البالغ الرقة ، أى روح العقل ذاته ، فيقضى على الخلود أكثر مايقضى على مجرد حياة(٦٢) .

ويستشهد ملتون بالنشاط الفكرى فى أثينا القديمة ، حيث لم تفرض الرقابة إلا على الكتابات التى تتضمن إلحادا أو قذفا ، وهكذا حكم قضاة محكمة أريوباجوس العليا بإحراق كتب بروتاجوراس ، وبنفيه خارج البلاد ، لمقالة بدأها بالاعتراف بأنه لايدرى « إذا كان هناك آلهة أم لا » . ويمتدح ملتون حكومة رومة القديمة لإتاحتها قدرا كبيرا من الحرية للكتاب ، ثم يصف نمـــو الرقابة فى رومة الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية . ويحس ملتون بأن قانون الرقابة هذا اشتم منه رائحة « البابوية » « وما فائدة أن تكون رجلا : لامجرد تلميذ فى مدرسة ، إذا كنا فقط هربنا عن الدرة أو العصا « لنقـــع تحت نير الرخصة (للطباعة)(٦٣) » ؟ أن الحكومات ومراقبيها ليسوا معصومين من الخطأ ، فليس لهم أن يفرضوا ما يروق لهم أو ما يفضلونه من آراء ومبادىء على الناس ، والأولى بهم أن يتركوا الناس ليختاروا ويتعلموا ، حتى ولو كلفتهم التجربة والخطأ أبهظ الثمن :

إنى لا أستطيع أن أمتدح فضيلة مفروضة عليها الحماية والرقابة ، لا يمارسها أحد ولا ينشق عبيرها أحد ، لا تنطلق قط لترى خصومها ، بل تتسلل بمعزل عن الناس[٦٤] . . أعطنى الحرية لأعرف وأتحدث وأناقش ، بلا قيد ، وفقا لما يمليه الضمير ، فوق كل الحريات[٦٥] . . ومع أن كل رياح المذاهب والمبادىء أطلقت لتهب على الأرض ، حتى إذا دخلت الحقيقة إلى الميدان ، أسأنا إليها بالرقابة والحظر ، لتشكك فى قوتها ، فلنتركها مع البهتان يتصارعان ، فمن ذا الذى رأى يوما أن الحقيقة تهزم فى معركة حرة مفتوحة[٦٦] ؟ .

ومهما يكن من أمر فان ملتون لا يطالب بالحرية المطلقة للمطبوعات ، فهو يؤمن بأن الإلحاد والتشهير والفحش يجب أن يحرمها القانون ، ويرفض التسامح مع الكاثوليكية لأنها عدو للدولة ، ولأنها هى نفسها موصومة بالتعصب[٦٧] . وفيما عدا ذلك ، فان الدولة التى تسود فيها حرية الفكر والكلام لابد أن ترقى وتنمو فيها سائر الأشياء سواء بسواء .

يخيل إلى أنى أرى بعين البصيرة أمة كريمة قوية تستيقظ وتنفض النوم عن جفونها ، مثل رجل قوى يفيق من سباته ، وتهز خصلات شعرها . ويبدو لى أنى أراها مثل نسر ، يجدد شبابه ويفتح عينيه الحادتين[٦٨] فى وقدة الظهيرة .

ولم يلتفت البرلمان لدفع ملتون أو حجته ، بل على النقيض من ذلك ، سن قوانين تصاعدت صرامتها (١٦٤٧ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٣) ضد اصدار مطبوعات غير مرخصة . وشكا أعضاء شركة المكتبات من أن ملتون لم يكن قد سجل « الأريوباجيتيكا » . وعين مجلس اللوردات اثنين من رجال القضاء لمساءلته ، ولسنا نعرف النتيجة . ولكن من الواضح أنهم لم يزعجوه ، لأنه كان صوتا ذا نفع وقيمة للبيوريتانيين المنتصرين .

وفى فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد اعدام شارل الأول بأسبوعين اثنين ، نشر ملتون رسالة عن « ولاية الملوك والحكام » ، ارتضى فيها نظرية العقد

الاجتماعى التى تقول بأن سلطة الحكومة مستمدة من سيادة الشعب ، وأنه من حق من يملكون السيادة أن يحاسبوا أى طاغية أو ملك شرير ، وعزله وإعدامه ، بعد إدانته إدانة عادلة(٦٩) » . وبعد شهر واحد دعاه مجلس الدولة فى الحكومة الثورية ليكون « سكرتير المجلس للغات الأجنبية » . فنحى ملحمته جانبا ، ليتفرغ لمدة أحد عشر عاما ، لخدمة جمهورية البيوريتانيين وحكومة « الحماية » على عهد كرومول .

٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩

كان النظام الجديد فى حاجـــة إلى من يتقن اللغة اللاتينية ، ليحرر للراسلات الأجنبية ، وكان ملتون المرشح البارز لهذا العمل ، حيث كان يستطيع الكتابة باللغات اللاتينية والايطالية والفرنسية كأحد أبناء رومة القديمة أو فلورنسة أو باريس ، كما أنه كان قد أثبت فى أشد أوقات الحرج أنه مخلص لقضية البرلمان فى نزاعه ضد الأساقفة والملك . وكان مجلس الدولة لا « كرومول » هو الذى استخدمه لهذا العمل . ولم يكن له صلة وثيقة بالحاكم الجديد ، ولكنه لابد أن يكون قد رآه كثيراً ، وأنه قد أحس فى تفكيره وفى كتاباته ، بالتقارب مع هذه الشخصية المرعبة . ولم يستخدم المجلس ملتون لمجرد ترجمة رسائله الأجنبية إلى اللاتينية ، بل كذلك ، ليبرز للحكومات الأجنبية ، فى نشرات لاتينية ، وجه العدالة والحق فى السياسة الداخلية التى ينتهجها المجلس ، كما يبرز ، فوق ذلك كيف كان من الحكمة وسداد الرأى الاطاحة برأس الملك .

وفى أبريل ١٦٤٩ ، فور تقلده منصبه ، انضم ملتون إلى موظفين آخرين فى المجلس فى وقف نشرات الملكيين وأنصار المساواة ضـــد نظام الحكم الجديد(٧٠). وكانت الرقابة على المطبوعات آنذاك أشد صرامة منها فى أى وقت مضى فى تاريخ انجلترا ، متبعة فى ذلك القاعدة العامة التى تقول بأن الرقابة تشتد بتزعزع مركز الحكومة . إن الرجل الذى كان قد دبج بأفصح بيان النداء الذى لم يكن له نظير من قبل ، من أجل حرية الصحافة

بات الآن ينظر إلى الرقابة من وجهة نظر السلطة الحاكمة . على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن ملتون قال من قبل الأريوباجيتيكا : إنه من أهم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ماتقضى به العدالة على عوامل الشر »(٧١) .

ومذ كان جون للبيرن بصفة خاصة كاتباً مزعجاً من أنصار المساواة ، فإن المجلس أصـــدر تعليماته إلى ملتون ليتولى الرد على كتابه المتطرف « اكتشاف أغلال جديدة » . ولسنا ندرى هل قام ملتون بهذه المهمة أو لم يقم . ولكنه يروى هو نفسه(٧٢) أنه « أمر » أن يرد على « صورة ملك » وامتثل لهذا الأمر فنشر فى ٦ أكتوبر ١٦٤٩ كتاباً من ٢٤٢ صفحه تحت عنوان « محطم الصورة » . وارتياباً ، ولكن اعتراضاً منه بأن « صورة الملك » هو ما أوهم بأنه من تأليف شارل الأول نفسه ، فإنه — أى ملتون تناول حجة الملكية فقرة فقرة ، وانبرى لتفنيدها بكل ما أوتى من قوة ومن خلال ذلك دافع عن سياسة كرومول ، وبرر إعدام الملك ، وأبدى احتقاره « لتلك الشرذمة من الغوغاء المتقلبين الذين يعوزهم التفكير الملهم المولعين بالصور ، . . . قطيع ساذج عاجز تربى على الذل والخنوع . . . . يفتتن بالطغيان(٧٣) » .

واستبد الغيظ والحنق بشارل الثانى ، وهو يتجول فى القارة ، فاستأجر أعظم علماء أوربا كلود سوميز ليتولى الدفاع عن الملك الميت ، وسرعان ماأصدر « سالماسيوس » « دفاعه عن الملك السابق شارل الأول » ، فى ليدن (نوفمبر ١٦٤٩) ، نعت فيه كرومول وأتباعه بأنهم « أوغاد متعصبون . . . وأنهم العدو المشترك للبشرية » وأهاب بكل الملوك ، من أجلهم هم أنفسهم : أن يجهزوا الجيوش للقضاء على هذا الوباء . . . يقينا أن دم الملك العظيم يستصرخ كل الملوك والأمراء فى العالم المسيحى للثأر له . ولا يمكن أن يقوموا بعمل فيه هدوء روحه وسكونها خيرا من أن يعيدوا لوريثه

الشرعى كل حقوقه كاملة ، ويستردوا له عرش أبيه .... وأن يذبحوا ، كضحايا على جدث الميت المقدس ، هذه الوحوش البالغة الضراوة ، الذين تآمروا على قتل مثل هذا الملك العظيم(٧٤) .

وخشى كرومول أن — تزيد حملات مثل هذا العالم الذائع الصيت فى أوروبا من الاستياء السائد فى القـــارة ضد حـكومته ، فطالب إلى ملتون الرد على سالماسيوس . وجهد السكرتير اللاتينى فى انجاز هذه المهمة قرابة عام كامل ، فى ضوء الشموع ، على الرغم من تحذير طبيبه له بأنه يفقد بصره تدريجيا ، وأنه مهدد بالعمى . وكانت احدى العينين عاطلة بالفعل ، وفى ٣١ ديسمبر ظهر « دفاع الشعب الإنجليزى عن نفسه ضد دفاع سالماسيوس عن الملـكية — لجون ملتون » ، بدأ بالسخرية من سالماسيوس لبيعه خدماته لشارل الثانى ، واستطرد ليظهر أن سالماسيوس قبل أربع سنوات فقط كـتب يهاجم النظام الأسقفى الذى يدافع عنه الآن :

أيها العميل الفاسد المرتشى المـــأجور ... أيها الجبان المحتقر المرتد الخارج على مبادئك ... يا أشد الحمقى سذاجة وبلاهة .... أنت جدير بعكازة المهرج ، حين تظن أنك تغرى الملوك والأمراء بالحرب ، بمثل هذه الحجج الصبيانية الواهية ... هل تتخيل إذن ، أيها المتلعثم المحامى الصغير الحقير ، الذى لم يولد إلا لينسخ ويقلد كبار الـكتاب ، الذى لم يؤت أية موهبة أو ذكاء أو عبقرية ، أنك ستنتج شيئا تـكتب له الحياة من عندياتك ؟ صدقنى أنك وكتاباتك العقيمة معا ، ستلقى فى زوايا النسيان فى الجيل القادم . لولا أن « دفاعك عن الملك » سيدين ببعض الفضل للرد عليه ، بمحض الصدفة ، وعلى الرغم من أنه قد أغفل وطرح جانبا لبعض الوقت ، فإنه لذلك سيبعث من جديد(٧٥) .

وهذا هو ماحدث على وجه الدقة . أن سالماسيوس كان قد أضفى على شارل الأول صورة مثالية . ولـكن ملتون يحط من قدره . ويشتبه فى أن شارل حرض دوق بكنجهام على دس السم لوالده جيمس الأول ، ويتهم

الملك الميت بكل « ضروب الفساد الخلق والإثم «مع الدوق المذكور ، ويتهم شارل بتقبيل النسوة فى المسرح ، وبمداعبته أثداء العذارى والعقيلات علنا(٧٦) . » وكان سالماسيوس قد أطلق على ملتون أسماء كثيرة ، فثأر ملتون بأن نعت سالماسيوس بأنه ، غبى ، خنفساء ، حمار ، كذاب ، قذاف مفتر، مرتد ، معتوه ، جهول ، متشرد ، عبد ذليل ، ويسخر من سالماسيوس لسيطرة زوجته عليه ، ويعنفه على أخطائه اللاتينية . ويدعوه إلى أن يشنق نفسه ، ويضمن له الدخول إلى الجحيم(٧٧) . ونظر توماس هوبز إلى هذه الكتب المتنافسة من علياء فلسفته ، فأعلن أنه عاجز عن أن يقرر أى الفريقين أقوى لغة وأيهما أضعف حجة(٧٨) . على أن مجلس الدولة قدم الشكر لملتون .

تلقى سالماسيوس نسخة من « دفاع » ملتون أثناء وجــوده فى بلاط الملكة كريستينا فى ستكهلم ، ووعد بالرد عليه ، ولكنه أبطأ . وفى الوقت نفسه انصرف ملتون عن الشئون الخارجية إلى شئون بيته . ففى ١٦٤٩ انتقل إلى دار فى « شيرنج كروس » ليكون قريبا من عمله . وهناك وضعت زوجته ولدا ، لم يلبث أن مات ، وفى ١٦٥٢ وضعت بنتا ، « ديبورا » كلفته ولادتها حياة أمها . وفى تلك السنة فقد ملتون بصره تماما . وعندئذ نظم قصيدة من أروع قصائده (السونيت) « عندما أتدبر كيف فقدت نور عينى » . وأبقى عليه المجلس سكرتيرا لاتينيا ، وخصص له كاتبا ليدون له ما يمليه عليه .

ومنى ، وهو رهين العمى ، بخسارة أخرى ، ففى ١٦٥٣ انهارت الجمهورية التى طالما هلل لها ورحب بها ، إلى « ملكية عسكرية » وأصبح فيها « حامى الحمى » كرومول ، فى واقع الأمر ملكا . وراض ملتون نفسه على هذه التطورات بقوله : « أن أساليب العناية الإلهيـــة يحوطها الغموض والإبهام(٧٩) . وظل على اعجابه بكرمول وامتدحه بأنه « أعظم بنى الوطن وأكثرهم تألقا وامتيازا... » إنه أبو البلاد » ، وأكد له « أنك فى ائتلاف

المجتمع الإنساني ليس ثمة شيء أحب إلى الله ، أو أكثر إلتئاما مع العقل من أن يتولى أسمى العقول السلطة العليا(٢٨) » .

وسرعان ماطلب إليه أن يتولى الدفاع عن « حامى الحمى » فى اتهام خطير . ذلك أنه فى ١٦٥٢ ظهر كتاب يشكل عنوانه نفسه صيحة الحرب « صرخة الدم الملكى إلى السموات ضد الإنجليز الذين قتلوا أباهم » وبدأ الكتاب بأن نعت ملتون بأنه « حيوان شرير بشع ، قبيح المنظر ، ضخم الجسم ، مكفوف البصر .... جلاد ... يستحق الشنق » . وقرن الكتاب اعدام شارل الأول بصلب المسيح ، واعتبر قتل الملك كبرى الجرائم(٨١) وسخر من جهر « الغاصبين » بإيمانهم بالدين :

أن لغة وثائقهم العامة محشوة بالتقى والورع وكان لزاما أن يجاريها أسلوب كرومول ومن يدافعون عنه ، وأنه لمما يثير الاشمئزاز ، كما يثير السخرية المريرة ، إلى أى حد من الوقاحة والصفاقة يخفى هؤلاء الأوغاد الخفيون واللصوص الظاهرون حقيقة شرورهم بذريعة أوستار من الدين (٨٢) .

وكما فعل سالماسيوس ، أهاب المؤلف المجهول بدول القارة أن تغزو انجلترا وتعيد آل ستيوارت إلى العرش . وختم الكتاب بتوجيهه إلى الحارس القذر المتوحش ، جون ملتون ، المدافع عن قتل الآباء وقتلتهم ، مع الأمل فى أن يلقى وشيكا شر الجزاء فيضرب بالسياط :

حول هذا الرأس الخائن سدد الضربات جيدا ، وشوه كل بوصة فيه بآثار العصا ، إلى أن تصبح الجثة كتلة هلامية واحدة . هل توقفت ؟ اضرب حتى تتفجر الصفراء من كبده من خلال عينيه الداميتين(٨٣) .

واستحث مجلس الدولة ملتون للرد على هذا العنف ، ولكنه تمهل توقعا لحملة من سالماسيوس ، أملا فى أن يرد على الخصمين فى رسالة واحدة . ولكن سالماسيوس قضى نحبه (١٦٥٣) دون أن يتم رده . وخدع ملتون فى اعتقاده بأن كاتب « صرخة الدم الملكى » هو الكسندر مورس —

Morus ، وهو قسيس عالم فى مدلبرج فطلب إلى مراسليه فى المقاطعات المتحدة موافاته ببيانات عن حياة مورس العامة والخاصة(٨٤) . وكتب أوريان أولاك ، طابع الكتاب ، إلى هارتاب ، صديق ملتون ، مؤكدا أن مورس ليس هو المؤلف(٨٥) . ولكن ملتون أبى أن يصدق هذا ، وأيده فى هذا ، ما يتناقله الناس فى امستردام . وفى أبريل ١٦٥٤ كتب جون درورى إلى ملتون ، محذرا اياه بأنه مخطىء فى نسبة « صرخة الدم الملكى » إلى مورس ، ولكن ملتون تجاهل هذا التحذير ، وفى ٣٠ مايو كتب الدفاع الثانى للشعب الإنجليزى » - جون ملتون .

وكان سحر البيان فى هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ١٧٣ ، أمرا مشهودا ، حيث أملاه باللاتينية رجل كف بصره تماما . وعزا أعداؤه ما أصابه من عمى إلى العقاب الإلهى جزاء خطاياه الفادحة . وأجاب ملتون على هذا بأنه لا يمكن أن يكون ، لأن حياته كانت مثالية ، وهو يشعر بالفرح والابتهاج لأن الدفاع الأول :

هكذا أصاب غريمى بهزيمة ساحقة .... إلى حد أنه استسلم من فوره وقد تحطمت روحه وانهارت سمعته ، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية من حياته ، ولو أنه كان يهدد ويرغى ويزبد كثيراً . فإنه لم يعد يزعجنا ، فيما عدا أنه استعان بالجهد التافه لشخص جدير بكل الازدراء ، حرضه بما لست أدرى من الملق القبيح المسرف ، على أن يرقعا قدر الإمكان عديمهما ، ماحل بشخصه مؤخراً من دمار غير متوقع(٨٦) .

ثم يعرج ملتون على عدوه الجديد ، فيذكر أن « مورس » تعنى بالأغريقية « مغفل » ، ويتهمه بالهرطقة والتهتك والزنى ، وبأن خادمة سالما سالماسيوس حملت منه سفاحا ، ثم هجرها . بل أن طابع « صرخة الدم الملكى » نفسه يجلد بالسوط ، وكل إنسان يعرف أنه غشاش مفلس سىء السمعة(٨٧) .

وفى ظرف ومرح أكثر ، يستعرض ملتون أعمال كرومول ، ويدافع عن حملاته فى أيرلنده ، وعن حل البرلمان ، وعن استيلائه على السلطة ،

ويوجه الحديث إلى « حامى الحمى » :

إننا جميعاً نقدرك حق قدرك ونقر بفضلك الذى لايدانيه فضل ، فامض في طريقك القويم ، يا كرومول ، ... يامحرر بلادك ، ويامن أرسى دعائم الحرية فيها ، ويامن تفوقت بأعمالك الجيدة ، لا على انجازات الملوك فحسب ، بل على مغامرات أبطالنا الأسطورية أيضاً (٨٨) .

ولكن بعد عبارات الإجلال والإكبار هذه ، لم يتردد ملتون فى أن يمحض كرومول النصح فى أمر السياسة . فأشار عليه بأن يحيط نفسه برجال من أمثال فليتوود ولمبرت (وهما من المتطرفين) ، وأن يدعم حرية الصحافة وأن يترك الدين منفصلا تمام الانفصال عن الدولة . كما ينبغى ألا تجمع أية عشور لرجال الدين ، فانهم بالفعل متخمون ، (وكل مافيهم سمين ، حتى عقولهم دون استثناء ٨٩) » . ويسترسل ملتون فيحذر كوومول من أنه « ونحن نعده ، دوننا جميعاً ، أعدل وأقدس وأفضل رجل » إذا أقدم على قمع الحرية التى دافع عنها ، فلن تكون النتيجة إلا وبالا ودماراً ، لا لشخصه فحسب ، بل كذلك لكل متطلبات الفضيلة والتقوى (٩٠) . ويوضح ملتون بأجلى بيان أنه لا يقصد « بالحرية » الديموقراطية ، وهو يسأل الناس :

لماذا يؤكد لكم أى إنسان حقكم فى الاقتراع العام ، أو قدرتكم على انتخاب من تريدون للبرلمان ؟ هل من أجل أن تتمكنوا من انتخاب رجال من حزبكم فى المدن ، وفى الأقاليم ، تنتخبون الرجل الذى مد لكم الموائد فى بذخ بالغ ، أو أسرف فى تقديم الشراب لرجال الريف والفلاحين السذج ، سواء كان جديراً أو غير جدير بالانتخاب ؟ ومن ثم لا يجتمع لنا فى البرلمان أعضاء اتسموا بالحصافة والحكمة والخبرة والثقة ، بل أعضاء صنعتهم الحزبية وموائد الطعام !! . وبعبارة أخرى نحصل على أعضاء من تجار الخمور والباعة المتجولين ، من الحانات فى المدن ، ومن الرعاة ومربى الماشية فى الريف ، فهل يجدر بأى إنسان أن يكل أمور الجمهورية لأمثال هؤلاء الذين لايثق أحد فى أن يعهد إليهم بشأن من شئونه الخاصة (٩١) ؟ .

كلا ، إن مثل هذا الاقتراع العام لا يعتبر حرية :

فلأن أن تكون حراً ، هو بالضبط أن تكون تقياً عاقلا عادلا معتدلا مكتفياً بذاتك ، لا تمد يديك إلى ما بأيدى الناس ، وقصارى القول ، أن تكون شهماً رحب الصدر شجاعا . أما إذا تجردت من هذا كله أو كنت على نقيضه ، فإنك لن تعدو أن تكون عبداً رقيقاً . وقد حكم الله على الأمة التى لا تستطيع أن تحكم نفسها وتدبر أمورها بنفسها ، والتى استعبدتها شهواتها ، بأنها لابد أن تستسلم لسلطان غيرها ، فتقع فى ذل العبودية بإرادتها وضد إرادتها معاً (٩٢) .

وفى أكتوبر ١٦٥٤ أعاد أولاك طبع « الدفاع الثانى » لملتون ، فى لاهاى ، مع رد عليه بقلم مورس بعنوان « دليل دامغ » . وفى المقدمة أكد الطابع أن مورس ليس مؤلف « صرخة الدم الملكى » ، وأنه ، أى أولاك ، تسلم مخطوطته من سلماسيوس الذى أبى أن يميط اللثام عن إسم المؤلف . وأنكر مورس انكاراً تاماً أنه المؤلف ، وأكد أن ملتون قد أبلغ بهذا مراراً وتكراراً ، واتهمه بأنه قد رفض من قبل تغيير « دفاعه » ، لأنه لن يتبقى منه شىء يذكر إذا حذف منه السباب الذى وجهه إلى مورس . وفى أغسطس ١٦٥٥ أصدر ملتون كتاباً من مائتين وأربع صفحات « دفاع عن النفس » ورفض أن يصدق انكار مورس ، وأورد من جديد قصته الشائنة مع خادمه سالماسيوس ، وأضاف أنها ، فى شجار مشروع أوسعت مورس ضرباً وطرحته أرضاً ، وكادت أن تفقأ عينيه(٩٣) . ولكن تبين فى خاتمة المطاف أن أحد رجال اللاهوت البروتستانت ، واسمه بيير دى مولان ، هو الذى كتب « صرخة الدم الملكى » ، وأن مورس هو الذى نشره وكتب إهداءه(٩٤) . ولما دعى مورس ليكون راعياً لإحدى كنائس الإصلاح قرب باريس ، أرسل شاعرنا عدة نسخ من « الدفاع الثانى » إلى الأبرشية لمنع تعيينه(٩٥) . ولكن مجلس الأبرشية عينه على الرغم من ذلك كله ، وختم مورس سيرته التى اكتنفتها المضايقات (١٦٧٠) وهو أنصح

الوعاظ البروتستانت بياناً فى باريس أو فيما حولها .

ويبدو ملتون فى مظهر أرق فى قصيدة السونيت « مذبحة بيد مونت » (١٦٥٥) (*). ويحتمل أنه هو الذى دون الرسائل التى أهاب فيها كرومول بدوق سافوى ليضع حداً لاضطهاد « الفدوا Vaudois » (أتباع بيتر فالدو — بيوريتانيون منشقون فى جنوب فرنسا) ، وإلى مزران وحكام السويد والدنمرك والمقاطعات المتحدة ومقاطعات سويسرا ، ليتوسطوا لدى الدوق .

وفى ١٦٥٦ ، بعد أربع سنوات من حياة العزوبة ، تزوج ملتون من كاترين وودكوك التى لم تكتحل عيناه بمرآها ، بطبيعة الحال ولكنها أثبتت أنها بركة ونعمة عليه ، فكانت ممرضة صابرة متجلدة لزوج مكفوف عنيف ، وأما لبناته الثلاث ، ولكنها قضت نحبها (١٦٥٨) ، أثناء وضع طفل لم يعمر . وكانت تلك سنة عصيبة على ملتون ، حيث رحل عن الوجود وكرومول أيضاً ، فكان لزاماً على السكرتير اللاتينى أن يحافظ على منصبه ، قدر طاقته ، فى غمرة فوضى الأحزاب التى انحدرت بريتشارد كرومول إلى مجرد رجل عاجز تافه محب للخير . وعلى الرغم من أن ملتون لابد كان يدرك أن انجلترا سائرة فى طريق استعادة ملكية آل ستيوارت ، فإنه أصدر فى أكتوبر ١٦٥٨ طبعة جديدة من « دفاع الشعب الانجليزى عن نفسه » فى أسلوب يغرى بالاستشهاد . وفى مقدمة رائعة وصف ملتون « الدفاع الأول » بأنه « أثر ... تتعذر إزالته بسهولة » ، وزعم أنه من وحى السماء ووضعه فى المرتبة التالية لمآثر كرومول ، الذى أنقذ حرية انجلترا(٩٦).

وقاوم فى شجاعة عمياء حركة إعادة شارل الثانى ، وعندما وصل جيش مونك إلى لندن ، وتردد البرلمان بين الجمهورية والملكية ، نشر ملتون فى فبراير ١٦٦٠ رسالة موجهة إلى البرلمان ، تقع فى ١٨ صحيفة ، « الطريق الممهد السهل لإقامة جمهورية حرة ، ومزاياه المرتقبة بالمقارنة إلى مساوىء ومخاطر

* أنظر الفصل السادس عشر — الفقرة الأولى .

إعادة الملكية فى هذه الأمة » . ومهرها فى جرأة وبسالة باسمه (بقلم جون ملتون) وفيها ناشد البرلمان :

ألا يلوث ويهزأ بدم آلاف الانجليز المخلصين البواسل الذين خلفوا لناهذه الحرية ، التى اشتريت بحياتنا نحن . وماذاعسى أن يقول جيراننا عنا وعن إسم انجلترا عامة ، إلا أنهم على أحسن الفروض ، سيسخرون منا ؛ قدر السخرية بهذا الرجل الغبى ، الذى أورد (مخلصنا) ذكره ، والذى بدأ يبنى صرحاً وعجز عن إتمام البناء ؟ أين صرح الجمهورية الشامخ الذى تباهى الانجليز بأنهم سيقيمونه ليتقلص ظل الملوك ، وتصبح انجلترا رومة أخرى فى الغرب ؟ .... ماهذا الجنون الذى اعترى هؤلاء الذين يستطيعون فى شرف وكرامة أن يدبروا شئونهم بأنفسهم ، حتى يحولوا كل هذه السلطات إلى شخص رجل واحد ! ياللجبن والنذالة أن نحسب أن مثل هذا الفرد هو مناط حياتنا ، وتعلق عليه كل سعادتنا وأمتنا وسلامتنا وخيرنا ، وبدونه لا يكون لنا وجود ، أو نكون مجرد أفراد كسالى بلداء أو أطفال ! إنه ليجدر بنا أن نعتمد على الله وحده ، وعلى أنفسنا نحن ، وعلى فضائلنا العملية وعملنا الجاد(٩٧) .

وتنبأ ملتون بأن كل (الاعتداءات القديمة) التى ارتكبتها الملكية ضد حرية الشعب سوف تعود وشيكا بعودة الملكية . واقترح أن يحل محل البرلمان (مجلس عام) يضم أقدر الرجال الذين ينتخبهم الشعب للعمل حتى الموت ، ولا يخضعون للعزل إلا عند الإدانة بإحدى الجرائم ، ويجدد المجلس بانتخابات دورية . وعلى هذا المجلس ، على أية حال أن يوفر أكبر قدر ممكن من حرية الكلام والعبادة والحكم المحلى . واختتم ملتون رسالته بقوله : «أرجو أن أكون تحدثت إلى حد الإقناع إلى مجموعة كبيرة من الرجال الواعين المخلصين ، أو إلى بعض من قد يقيمهم الله من هذه المقاعد الحجرية ليصبحوا « أبناء الحرية » ، ويوفقهم ويجمعهم على قرارات حكيمة تقيم ما أعوج من أمورنا ، وتصلح ما فسد من أحوالنا ، وتعالج هذا الخلل العام

المتفشى فى الجمهور الذى أسىء استغلاله وأعوزه من يوجهه و يرشده(٩٨) » .

وتجاهل البرلمان هذا الالتماس الذى ينطوى على القضاء عليه . وظهرت النشرات المطبوعة التى تهاجم ملتون ، وحبذت إحداها شنقه وأصدر مجلس الدولة ، وهو آنئذ ملكى النزعة ، أمراً بالقبض على طابع رسالة ملتون ، وفصله من منصبه (السكرتير اللاتينى للمجلس) فكان جوابه على ذلك إنه أصدر طبعة ثانية مزيدة من الرسالة «الطريق الممهد السهل » (أبريل ١٦٦٠) وحذر البرلمان من أن الوعود التى يقطعها الآن شارل من اليسير أن تنقض بمجرد تثبيت دعائم السلطة الملكية الجديدة . وسلم بأن غالبية الشعب ترغب فى عودة شارل الثانى ، ولكنه دفع بأن الأغلبية ليس لها الحق فى استعباد الأقلية أو التحكم فيها . إنه لمن الأعدل .... إذا وصل الأمر إلى حد الفرض بالقوة ، أن ترغم الأقلية مجموعة أكبر منها على أن تعيد إليها حريتها، من أن تفرض الأغلبية على أقلية من الناس من بنى وطنهم أن يكونوا عبيداً أرقاء لهم ، بشكل يسىء إليهم أبلغ اساءة (٩٩) . وتكاثرت الهجمات والحملات على ملتون وناشدت إحداها الملك شارل الثانى ، وكان آنذاك فى بريدا أن يتذكر جيداً الإهانات التى وجهها ملتون من قبل فى رسالته « محطم الصور » وغيرها ، إلى والده شارل الأول . واقترحت أن يضم ملتون إلى قائمة قتلة الملك الفعليين ، لأنه يستحق الإعدام(١٠٠) .

وقبل أن تصل هذه النشرة إلى شارل الثانى ، كان قد أبحر هو بالفعل إلى انجلترا ، وفى ٧ مايو ، ودع ملتون أولاده وآوى إلى مخبأ مع أحد الأصدقاء . ولكن كشف أمره وأودع السجن وبات مصيره لمدة ثلاثة أشهر مرهوناً بما يقرره البرلمان الملكى ورأى كثير من الأعضاء أنه إذا كان ثمة من يستحق الإعدام ، فهو ملتون . وكان هذا متوقعاً . ولكن مارفل دافينانت وبعض الأعضاء الآخرين توصلوا إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته وبصره المكفوف فاكتفى البرلمان بالأمر بإحراق بعض كتب بعينها من مؤلفاته ، حيثما وجدت . وأطلق سراحه فى ١٥ ديسمبر ، فاتخذ داراً

فى هلبورن ، انتقل إليها هو وأولاده ، حيث انصرف — بعد أحد عشر عاما صاخبا عصيبا مضطربا ، عن النثر ، إلى الفترة الثانية من نظم الشعر ، وهى فترة بالغة الروعة والعظمة .

٧ — الشاعر العجوز : ١٦٦٠ — ١٦٦٧

وجد ملتون بعض السلوى والعزاء فى العزف على الأرغن وفى الغناء ، ويقول أوبرى « كان صورته رخيما رقيقا(١٠١) » وفى ١٦٦١ انتقل إلى دار أخرى ، وفى ١٦٦٤ استقر به المقام نهائيا فى بيت فى Artillery WolK ، فيه حديقة صغيرة استطاع أن يتمشى فيها دون أن يقوده أحد سوى يديه وقدميه . وكثيرا ماقدم إليه أبناء أخته لزيارته ومعاونته ، وقد نسوا ماكان لهم من ضرب فى سابق الأيام ، كما جاء إليه الأصدقاء ليقرأوا له ، أو يكتبوا ما يمليه عليهم . وتولى بناته الثلاث خدمته بصبر نافد وجهد جهيد . وكانت كبراهن — آن — عرجاء شوهاء لكتاء . وكانت ديبورا تتولى له الكتابة ، وتعلمت هى وأختها مارى قراءة اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والإيطالية والأسبانية ولو أنهما لم تكونا تفهمان ماتقرآن(١٠٢) . والحق أن أيامهن لم تذهب قط إلى مدرسة ، ولكنهن تلقين بعض الدروس الخاصة . ولكن لم يحظين من التعليم إلا بأقل نصيب ، على أحسن الفروض وباع ملتون معظم مكتبته قبل وفاته ، لأن بناته لم تعنين بالكتب إلا قليلا . وشكا من أنهن بعن الكتب خفية ، وأنهن أهملن شأنه فى وقت الحاجة والشدة ، وأنهن تآمرن مع الخدم على مغالطته وسلبه عند شراء حاجيات المنزل(١٠٣) ، ولم يشعر البنات بالسعادة فى هذا البيت الكئيب ، مع والد قاس كثير المطالب سريع الغضب . ولما سمعت ابنته مارى بأنه يرتب لزواج جديد قالت : « ليس ثمة أنباء تستحق أن تسمع عن زفافه ، ولكن النبأ الجدير بالاستماع هو نبأ وفاته »(١٠٤) . واتخذ ملتون فى ١٦٦٣ ، وهو آنذاك فى الخامسة والخمسين ، زوجة ثالثة ، هى اليزابث منشول M nshull ، وكانت فى الرابعة والعشرين من العمر . وتولت خدمته

باخلاص وأمانة حتى آخر أيام حياته . وبعد سبع سنوات مع زوجة الأب التى وصفها أوبرى بأنها « وديعة مسالمة مرحة مقبولة »[١٠٥] هجر البنات الثلاث منزل والدهن ، ليتعلمن ، على نفقة ملتون بعض الحرف .

وكانت عودة الملك قد كلفته كثيراً ، وكادت أن تكلفه حياته ، ولكنها مهدت الطريق لنظم « الفردوس المفقود » . فلولاها ربما أفنى ملتون نفسه فى التراشق بالنشر فى المعركة ، لأن « المقاتل » كان فى مثل قوة « الشاعر » فى شخصه . ورغم هذا كله ، لم يودع ملتون قط الأمل فى أن يكتب لانجلترا شيئاً تتغنى به لقرون قادمة . وفى ١٦٤٠ أعد بياناً بموضوعات يمكن أن تكون ملحمة أو دراما ، كان من بينها موضوع خطيئة آدم (خروجه من الجنة) ، وأساطير الملك آرثر (ملك بريطانيا الذى يفترض أنه عاش فى القرن السادس ق . م ، وبطل المائدة المستديرة) وتأرجح بين اللاتينية والإنجليزية ، بأيتهما يكتب ، وحتى حين قرقراره على « الفردوس المفقود » ، موضوعاً له ، فكر فى أن يكتبه على شكل مأساة إغريقية ، أو رواية دينية ، على غرار روايات العصور الوسطى ، وفى أوقات مختلفة نظم بعض أبيات أو مقطوعات أدخلت فيما بعد فى القصيدة . ولم يتسن له إلا بعد وفاة كرومول ، أن يجد فسحة من الوقت يومياً ، ليكتب الملحمة ، وفى ١٦٥٨ فقد بصره تماما .

فى الأيام السود ، وألسنة السوء ، ولو أنها ولت ، فقد لفنا الظلام واكتنفتنا الأخطار من كل جانب[١٠٦] .

وتواردت على ذهنه الأبيات ، حين كان يرقد عاجزاً أرقاً ، ويكاد ينفجر بها . فينادى على من يكتب له قائلا : « إنه يحتاج إلى من يحلبه[١٠٧] » . وكانت تنتابه حمى الشعر ، فيملى أربعين بيتا « فى نفس واحد » ، ثم يجد فى تصحيحها عندما تعاد تلاوتها عليه . ويحتمل ألا تكون ثمة قصيدة نظمت بمثل هذا الجد والكد والشجاعة والجراءة . وداخل ملتون شعور قوى بأنه يمثل لانجلترا هوميروس واشعيا معا ، حيث اعتقد بأن الشاعر

صوت الله ، وأنه نبي أوحى إليه أن يعلم الناس .

وفى ١٦٦٥ ، حين انتشر الطاعون بلندن ، اتخذ التدابير صديق سجين من الكويكرز «هوتوماس الوود» ، لنقل ملتون ليقيم فى « كوخه المكون من عشر حجرات فى « كالفونت سانت شيل فى بكنجها مشير » . وهناك فى هذه « المقصورة الجميلة » أكمل الشاعر « الفردوس المفقود » ولكن من ذا الذى يقدم على نشرها ؟ لقد كانت لندن فى اضطراب بالغ فى ١٦٦٥ — ١٦٦٦ بسبب الحريق الذى جاء فى أعقاب الطاعون ، وإذا كان ثمة شىء من الفرح والمرح باق ، فهو عودة الملكية فى صخبها وعربدتها . وفى حالة نفسية ليس معها مجال للملحمة من ١٠٥٥٨ بيتا عن الخطيئة الأولى . لقد حصل ملتون من قبل على ألف من الجنيهات عن رسالته « دفاع الشعب الإنجليزى » أما الآن ، فى ٢٧ أبريل ١٦٦٧ ، فقد باع كل حقوقه فى « الفردوس المفقود » إلى الناشر صمويل سيمونز لقاء خمسة جنيهات نقداً، مع الاتفاق على دفعات أخرى قيمة كل منها خمسة جنيهات ، يتوقف تسديدها على ما يباع من الكتاب ، فكان كل ما حصل عليه هو ١٨ جنيها(١٠٨) . ونشرت القصيدة فى أغسطس ١٦٦٧ . وبيع منها فى العامين الأولين ١٣٠٠ نسخة ، وفى الأحد عشر عاما الأولى بيع ٣٠٠٠ نسخة . وربما لا يقبل على قراءة القصيدة بأكملها مثل هذا العدد من القراء فى أية سنة فى أيامنا هذه ، فليس لدينا فراغ كبير ، حتى لقد اخترعنا كثيرا من الأدوات التى توفر الجهد .

وتشترك « الفردوس المفقود » مع « الياذة فرجيل » ، فيما أصاب كلتيهما من نكسة وتعويق ، لظهورهما بعد الياذة هوميروس ؛ فان مشاهد المعركة والمحاربين الخارقين للطبيعة يفقدون قوتهم وسحرهم ، لكونهم تقليدا ومحاكاة . ولا ريب فى أن هوميروس قلد نماذج قديمة ، ولكننا نسيناها ولم نعد نذكرها ، وذهب جونسون إلى أن « الفردوس المفقود » ، بطبيعة موضوعها ، تمتاز على ما عداها ، بأنها ممتعة مشوقة للجميع دائما « ولكنه

اعترف بأن « أحدا لم تساوره الرغبة فى أن تكون أطول مما هى(١٠٩) ».
أن موضوع « الخطيئة الأولى للإنسان . وثمار الشجرة المحرمة التى جلب مذاقها القاتل الموت والفناء على العالم ، وجلب علينا كل الكروب والويلات » ، كان موضوعا مناسبا إلى حد كبير ، لأيام شباب ملتون ، حين كان يتلقى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وحين كانت الجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، هى نسيج التفكير اليومى . أما اليوم فإن موضوع القصيدة أكبر عائق فى سبيلها ، إنها قصة خرافية تروى للشبان فى أحد عشر قسما ، وأن الاستمرار فى مشاهدة مثل هذا العرض الطويل اللاهوت من البداية حتى النهاية جاف قاس عتيق ، ليتطلب اليوم جهدا شاقا متصلا . وما كان القراء ليسيغ عليه يوما مثل السمو والرفعة قط . ان عظمة المشهد وجلاله ، ومعانقة الجنة والنار والأرض ، والانسياب الفخم المهيب للشعر المرسل ، ومعالجة الموضوع المعقد ببراعة فائقة ، والوصف الرقيق الجديد للطبيعة ، والمحاولة الموفقة لأسباغ الوقعية والشخصية على آدم وحواء ، وكثرة القطع الشعرية البالغة الروعة والقوة ، كل أولئك بعض الأسباب التى جعلت من « الفردوس المفقود » أعظم قصيدة فى اللغة الإنجليزية .

وتبدأ القصه فى جهنم حيث الشيطان على هيئه طائر « ضخم الجسم » ، ذى جناحين مبسوطين ، ينصح ملائكته الهابطين بألا ييأسوا :

لم يضع كل شىء ، فان الإرادة التى لاتقهر ، وتدبر الأخذ بالثأر والكراهيه التى لايخبوا أوارها أبداً ، والشجاعه التى لاتخضع ولاتستسلم ، أما أن تنثنى متوسلة للرحمه ، على ركبتين ضارعتين ، وتعظم من سلطانه ... فهذا أمر دنىء حقا هذا خزى وعار أنكى من هذا السقوط ويبقى العقل والروح ولا سبيل إلى قهرهما(١١٠) ...

وكأنى بهذه الأبيات تردد صدى كرومول وهو يتحدى شارل الأول ، وصدى ملتون وهو يتحدى شارل الثانى ؛ وثمه عدة قطع فى وصف الشيطان تذكرنا بملتون :

عقل لايغير منه زمان أو مكان ، فالعقل راسخ في مكانه ، يستطيع في نفسه أن يجعل من الجنه جحيما ، ومن الجحيم جنه (١١١) .

وفي الأجزاء القديمه من القصيدة نجد أن فصاحه ملتون أغرته بأن يرسم لابليس صورة تكاد تتسم بالود والعطف ، وكأنه زعيم ثورة ضد السلطة الرسمية الاستبدادية . وتخلص الشاعر من أن يجعل الشيطان بطل الملحمة بتصويره ، فيما بعد ، بأنه «أبو الأكاذيب» الذي « يجثم مثل ضفدع الطين» أو كالأفعى التي تنزلق ملتوية فوق الوحل (١١٢) . ولكن في هذا القسم من الملحمه نفسه ينهض الشيطان مدافعا عن المعرفه :

المعرفه محرمه محظورة ؟ لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك ؟ هل تكون المعرفه اثما ؟ أو تكون فناء ؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده ؟ أو أن حالتهما السعيدة هي دليل طاعتهما وإيمانهما ؟ سأثير في عقليهما مزيدا من الرغبه في المعرفه (١١٣) . . .

ومن ثم يحاور حواء وكأن كنيسة عقلانيه تحمل على كنيسة جامدة تعيش في ظلام الجهل ، تقف عقبه كأداة في طريق انتشار المعرفه :

لماذا إذن كان هذا التحريم ؟ . لماذا كان ، إلا ليرهب عباده ويبقيهم على حالة من الإنحطاط والجهل ، إنه يعلم أنه في اليوم الذي تأكلان من تلكما الشجرة ، فان أعينكما التي تبدو الآن صافيه ولكنها كليلة ، سوف تتفتح وتصفو تمام الانفتاح والصفاء ، ومن ثم تكونان مثل الآلهه (١١٤) .

ويأمر روفائيل ، وهو أحد الملائكة ، آدم ، بأن يكبت من حبه لاستطلاع الكون ، فليس من الحكمة أن يتطلع الانسان إلى معرفة ماوراء نطاقه الفاني (١١٥) فالإيمان أعقل من المعرفة .

وكان لنا أن نتوقع ألا يفسر ملتون « الخطيئة الأولى » بأنها رغبة في المعرفة ، بل أنها علاقة جنسية . أنه على النقيض من ذلك ، ينشد تسبيحة غير بيوريتانيه اطلاقا ، من أجل مشروعيه اللذة الجنسيه ، في حدود الزواج ، ويصور آدم وحواء منغمسين في مثل هذه القيم المادية ، مع

بقائهما على « حالة البراءة »[١١٦] ، ولكن بعد « الخطيئة » أى أكل الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة — بدأا يستشعران الخزى والعار فى الاتصال الجنسى[١١٧] . وهنا ينظر آدم إلى حواء على أنهما مصدر كل الشر ، « ضلع أعوج بالطبيعة » ويرثى لأن الله خلق المرأة :

لماذا خلق الله فى النهاية هذه البدعة على الأرض ، هذه العلة الجميلة فى الطبيعة ، ولم يملأ العالم على الفور ، برجال مثل الملائكة ، دون إناث ، أو يجد طريقة أخرى لتوالد بنى البشر[١١٨] ؟ .

ومن ثم فان الإنسان الأول ، فى تاريخ الزواج فى الكتاب المقدس ، سرعان ما اصطنع ذريعة ليطلق الرجل زوجته فى سهولة ويسر ، وهنا نجد ملتون ينسى آدم ، ويكرر شعرا ما سبق أن ذكره نثرا ، عن خضوع المرأة خضوعا حقيقيا تاما للرجل[١١٩] . وسيعود إلى هذه اللازمة فى قصيدة «Samson Agonistes»[١٢٠] . فهى حمله الأثير الحبيب إلى نفسه . وفى رسالته السرية « العقيدة المسيحية » دافع عن إعادة « تعدد الزوجات » ألم يجزه العهد القديم . ألم يترك العهد الجديد هذا القانون الحكيم الشجاع دون إلغاء أو تعطيل ؟[١٢١] .

ومهما فسرت « مخالفة الإنسان الأول لأمر ربه » (الخطيئة الأولى) ، فقد ثبت أنها موضوع أصغر من أن يملأ اثنى عشر قسما ، لأن الملحمة تتطلب سلسلة من الأحداث والأعمال ، ولكن حيث أن ثورة الملائكة انتهت حين بدأت القصة . فان المسرحية لا تدخل إلى القصيدة إلا عن طريق الذكريات أو العودة إلى الماضى ، وهو صدى آخذ فى الذبول والزوال. ومشاهد المعركة موصوفة وصفا جيدا ، بما فى ذلك التصارع المناسب بالسلاح ، وشج الرؤوس وتقطيع الأوصال ، ولكن من العسير أن تشعر بالألم أو بنشوة الابتهاج لهذه الضربات الخيالية . وعلى غرار الكتاب المسرحيين الفرنسيين يطلق ملتون لنفسه العنان للخطابة ، فالجميع ابتداء من « الله » إلى حواء يخطبون ، ولم يجد الشيطان فى سعير جهنم ما يحول بينه وبين البلاغة وأنه

لمن المزعج حقا أن نعلم أنه حتى فى الجحيم سنكون مضطرين إلى الاستماع إلى محاضرات » .

« والرب » فى هذه القصيدة ليس هو التألق الذى يجل عن الوصف الذى تحس به فى « جنة دانتى » فهو فى القصيدة فيلسوف سكولاس (فيلسوف نصرانى من العصور الوسطى) ، يدلى بأسباب مطولة غير مقنعة ، لأنه وهو القادر على كل شىء ، يجيز للشيطان أن يوجد ، وأن يغوى الإنسان ، متنبئا ، طوال الوقت ، بأن هذا الإنسان سيذل ويخضع ، ويجلب على البشرية بأسرها قرونا من الخطيئة والشقاء والتعاسة. ويحاج بأنه بدون حرية الإثم لا تكون الفضيلة ، وبدون التجربة لا توجد الحكمة والتعقل ، ويرى أنه من الأفضل أن يواجه الإنسان الإغراء ويقاومه ، من عدم التعرض للاغراء اطلاقا ، دون أن يتوقع أبدا أن الصلوات سوف تتوسل إلى الله ألا يقود الإنسان إلى الغواية والإغراء . ومن ذا الذى يطيق التعاطف مع تمرد الشيطان على هذا السادى الذى لا يصدق ؟ (السادية : الابتهاج بالقسوة المفرطة) .

وهل كان ملتون يؤمن حقا بهذا الهول الجبرى المقدر ؟ . من الواضح أنه كان كذلك ، لأنه بسط الكلام فيه ، لا فى « الفردوس المفقود » فحسب ، بل فى رسالته السرية « العقيدة المسيحية » كذلك ١٢٢) . أى أن الله ، قبل خلق الإنسان بزمن طويل ، قدر أى الأرواح يكتب لها الخلاص ، وأيها قدر عليها العذاب المقيم . وانطوت هذه الرسالة ، على أية حال ، على شىء من الهرطقة . ولم ينشرها ملتون قط ، ولم يكشف أمرها إلا فى ١٨٢٣ ، ولم تصل إلى المطبعة إلا فى ١٨٢٥ .

إن هذه الرسالة وثيقة جديرة بالذكر ، فهى تبدأ فى إطار من التقوى ، ودون جدل أو لجاجة ، بافتراض أن كل كلمة فى الكتاب المقدس هى وحى من عند الله . وسلم ملتون بأن نصوص الكتاب المقدس قد طرأ عليها « التزييف والتشويه والتبديل » ولكنها حتى فى صيغتها الراهنة ، من صنع

الله . وهو لايجـيز غير التفسير الحرفى الأمين . فإذا جاءت الأسفار بأن « الرب » ، إستراح ،أو خاف ، أو ندم ، أو كان غاضبا ، أو حزينا ، فإنه ينبغى أن تؤخذ هـذه الألفاظ بمعناها الظاهرى ، وألا تخفف على أنها مجازات ، بل كذلك أجزاء الجسم والصفات الجسدية التى تنسب إلى « الله » يجب قبولها على أنها حقيقية من الوجهه الماديه(١٢٣) . ولـكن « الله » بالإضافه إلى هذا الـكشف الظاهرى الذى جاءت به الأسفار المقدسه والذى يكشف به عن كنهه فإنه ، زودنا بوحى داخلى ، هو الروح القدس الذى يتحدث فى داخل قلوبنا . وهذا الوحى الداخلى « الملك الخاص لـكل مؤمن ، أسمى بكثير ... ومرشد أصدق ، من الأسفار المقدسة(١٢٤) . ومهما يكن من أمر ، فإن ملتون يقتبس من الـكتاب المقدس ، مايؤيد ما يسوق من حجج ، على أنه البرهان الحاسم الدامغ .

وعلى أساس من الأسفار المقدسة ، ينبذ ملتون نظرية الثالوث الأقدس التقليدية ، ويؤثر عليها هرطقة آريوس (الذى يقول بأن المسيح ليس من مادة الله ، بل هو خير خلقه فقط) ، فالمسيح بكل معنى الـكلمة ، ابن الله ولـكن الأب ولده فى زمن ما ، ومن ثم فهو غير معاصر للأب وليس متساويا معه أبدا . فالمسيح هو الوسيط الذى خلقه الله على أنه « اللوجوس أى الـكلمة » الذى سيخلق منها كل من عداه . ولا يسلم ملتون « بالخلق من العدم » ، فعالم المادة ، مثل عالم الروح ، إنبثاق أو فيض سرمدى من المادة الألهية . وحتى الروح نفسها ، فهى مادة رقيقة جدا أثيرية ، ولا يجوز تمييزها تمييزا حادا عن المادة . وفى النهاية ، المادة والروح ، والجسم والنفس فى الإنسان ، شىء واحد(١٢٥) . وثمة شبه كبير يستحق الملاحظة بين هذه الآراء ، وآراء هوبز (١٥٨٨ — ١٦٨٩) وسبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧) ، وقد نرى أنهما فارقا الحياة فى نفس العقد من السنين الذى مات فيه ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) . وربما اطلع ملتون على مؤلفات هوبز التى كان لها دوى ملحوظ فى بلاط شارل الثانى .

وظلت عقيدة ملتون خليطا غريبا من التوحيد والمادية ، ومن مذهب حرية الإرادة عند جاكوب أرمينيوس (لاهوتى برتستانتى هولندى ١٥٦٠ — ١٦٠٩) ، ومن مذهب الجبرية أو القضاء والقدر عند كلفن . ويبدو فى كتاباته أنه كان رجلا متعمقا فى أمور الدين . ومع ذلك لم يذهب قط إلى الكنيسة حتى قبل فقـــد بصره ، ولم يقم الشعائر الدينية فى بيته(١٢٦) . وكتب دكتور جونسون : « فى توزيع ساعاته لم يخصص وقتا للصلاة ، وحده ، أو مع أهل بيته . وحذف الصلوات العامة ، لقد حذف الصلوات جميعا ١٢٧) » . وازدرى رجال الدين ، ونعى على كرومول احتفاظه بعدد من رجال الدين تدفع الدولة رواتبهم ، على أنه لون من « عبادة الأوثان » ، يؤذى الدولة والكنيسة معا(١٢٨) . وفى أحد بياناته الأخيرة « بحث فى العقيدة الحقة ، والهرطقة والإنشقاق عن الكنيسة والتسامح ، وأمثل الطرق للحيلولة دون نمو البابوية » (١٦٣٣) عارض بطريق مباشر الاعلان الثانى الذى أصدره شارل الثانى عن التسامح (١٦٧٢) ، محذرا انجلترا من التسامح مع الكاثوليك وأنصار التوحيد ، أو أية شيمة أخرى لا تعترف بالكتاب المقدس أساسا وحيدا لمذهبها .

أن هذا الرجل الذى تفوح منه رائحة الهرطقة ، عرف عنه مقاومة رجال الدين وتدخلهم فى الشئون العامة والخروج على الكنيسة ، هو نفس الرجل الذى أخرج للعقيدة المسيحيه أكرم شرح حديث لها .

٨ — السنوات الأخيرة : ١٦٦٧ - ١٦٧٤

احتفظ ملتون مع دخوله فى العقد السابع من العمر ، فيما خلا فقد البصر ، بصحه جسمه وإعتداده بنفسه ، وهما اللذان دعماه وسانداه فى كل الصراعات الدينيه والسياسة التى خاضها . ويصفه أوبرى بأنه « نحيل ... متوسط القامه » ... فهو جسم جميل متناسب الأجزاء ، وبشرته فوق المتوسطه ... صحيح الجسم ، لا يشكو علة ، قلما يتناول الدواء ، وكل ما فى الأمر أن النقرس انتابه فى أخريات أيامه(١٢٩ » . وكان شعره الذى فرقه

فى الوسط يتدلى على كتفيه فى حليقات أو عقصات . ولم تنبىء عيناه عن فقد بصره . وظلت مشيته ثابتة منتصبة . وكان إذا غادر بيته بدا على زيه شدة الحساسة والكلف بملابسه ، وتمنطق بسيف، لأنه كان فخورا ببراعته فى المبارزة واللعب بالسيف(١٣٠). وأضفت عليه الثقة الزائدة عن الحد وقارا ، وعزوفا عن المرح . ولكنه كان مع ذلك حلو الحديث إلا إذا لقى معارضه . ولم يكن بيوريتانيا بكل معنى الكلمة : كان عنده شعور البيوريتانيين بالإثم ، والجحيم والإصطفاء والأسفار المقدسه التى لا تخطىء ، ولكنه استساغ الجمال واستمتع بالموسيقى ، وألف روايه ، واحتاج إلى عدة زوجات ، وتخلفت أثارة من حيويه عصر اليزابث وسط رزانته الخاليه من المرح . وكان أنانيا ، أو أنه كشف عن أنانيته الطبيعيه إلى حد الافراط غير المألوف . إنه كما قال أنطونى رود : « لم يكن يجهل مواهبه(١٣١) » ، وكما قال جونسون « قل من الرجال من كتب كثيرا وامتدح قليلا من الناس ، مثله(١٣٢) » ، وربما تطلبت العبقريه أنانيه يدعمها اعتداد داخلى بالنفس ، حتى تقف فى ثبات فى وجه الجمهور . إن أثقل ما يمكن قبوله فى ملتون هو طاقه الكراهيه والبغضاء عنده ، وإساءته المفرطه لمن اختلفوا عنه وذهب إلى أنه ينبغى علينا أن نصلى من أجل اعدائنا ، ولكن ينبغى أيضاً أن نستنزل اللعنات جهاراً على أعداء الله وأعداء الكنيسه ، وكذلك على الأخوان المضللين الزائفين ، أو من يقترفون الآثام الفظيعه ضد الله ، أو حتى ضد أنفسهم(١٣٣) » . أما الوجه الآخر لهذه العاطفه المشبوبه ، فهو شجاعه النبى فى استنكار زمانه ، فإنه بدلا من أن يكمم فاه مااقترن بعودة الملكيه من شغب وصخب ، هاجم فى عنف ، غراميات البلاط » فى عهد شارل الثانى ، « والشهوات والاغتصاب » فى القصور ، و « البسمات المشتراة على شفاه بنات الهوى » و « المسرحيات الخليعه أو حفلات الرقص فى منتصف الليل(١٣٤) » .

وكأنما كان ملتون يقذف بآخر سهم فى جعبته تحديا للعصر المظلم ،

حين نشر فى يوم واحد (٢٠ سبتمبر ١٦٧٠) فى غير ماشفقه ولا رحمة ، اثنين من أعماله : « الفردوس المستعاد » و « شمشون الجبار » . فى ١٦٦٥ بعد أن انتهى توماس الوود من قراءة ملحمة ملتون الأولى تحداه قائلا : « لقد تحدثت هنا كثيرا عن الفردوس المفقود ، فماذا عساك تقول الآن عن الفردوس الذى وجد ؟(١٣٥) » ، وطرقت الفكرة ذهنه بشدة ، ولكنه تساءل : كيف يعرض استعادة الفردوس فى أيه مرحلة فى التاريخ ، فإن موت المسيح نفسه لم يطهر الإنسان من الجريمة والشهوة والحرب ولكنه فكر أنه رأى فى مقاومة المسيح لاغراء الشيطان ، وعدا بأن جانب الله فى الإنسان لابد يوما أن يقهر جانب الشيطان فى الإنسان نفسه ، ويهيئه للحياة تحت حكم المسيح والعدالة على الأرض .

ومن ثم فان ملتون فى الأقسام الأربعة من « الفردوس المسترد » ، لم يركز فى حياة المسيح على الصلب ، بل على « تجربة الاغراء فى البرية » ، حيث يقدم الشيطان للمسيح « ولدانا ... أجمل من سقاة الآلهة » ، ثم « الحور والعذارى الفاتنات ، وسيدات من حدائق التفاح الذهبى » ثم يعرض عليه المال والثراء — ولكن أولئك دون جدوى . ثم يريه الشيطان رومه الإمبراطورية تحت حكم تيبريوس المنهوك المكروه الذى لم يعقب ، فهلا يريد المسيح أن يقود ثورة بعون من الشيطان ، وينصب نفسه امبراطور على العالم ؟ . ولما لم يرق هذا فى عيني يسوع ، ولم يستهو قلبه فإن الشيطان أراه أثينا بلد أرسطو وأفلاطون ، فهلا رغب فى اللحاق بهما ليكون فيلسوفا ؟ ثم يدخل المسيح والشيطان فى حوار غريب حول مزايا الأدب اليونانى والعبرى . فينحاز المسيح إلى جانب أنبياء وشعراء بنى إسرائيل على أنهم أسمى بكثير من اليونانيين :

أخذت اليونان عنا هذه الفنون ، ولم تحسن تقليدها(١٣٧) .

وبعد قسمين من الملحمة استغرقهما الحوار ، أقر الشيطان بهزيمته ، وبسط جناحيه وطار ، على حين تتجمع فرقة من الملائكة حول المسيح

للمنتصر ، وتنشد :

الآن انتقمت لآدم المغدور به ، وبالتغلب على الإغراء استعدت الفردوس المفقود(١٣٨) .

ولم يرو ملتون لنا القصة بمثل الروعة الفياضة الرنانة التى تجلت فى الملحمة الأولى الكبرى ، ولكن بمثل براعته فى الشعر ، وميله إلى المحاجة ، وهما أمران معهودان فيه ، كما كشف فى القصة طوال الوقت عن سعة معلوماته فى الجغرافية والتاريخ . ولم يستمر فى القصة حتى حادث صلب المسيح ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يتفق مع القائلين بأن موت المسيح هو الذى فتح أبواب الجنة من جديد . فالفضيلة وضبط النفس وحدهما اللذان يجلبان السعادة . ولم يدرك ملتون قط لماذا رفضت إنجلترا أن تأخذ بأخذ الجد ، إعادة كتابة الأناجيل على هذا الشكل المضحك ، وذهب إلى القول بأن الملحمة الثانية ليست أقل من الملحمة الأولى ، اللهم إلا من حيث مداها(١٣٩) . وكان لا يطيق أن يسمع أن « الفردوس المفقود » تفضل « الفردوس المسترد »(١٤٠) .

وتألقت عبقرية ملتون لآخر مرة فى « شمشون أجونست — الجبار » . إنه بعد أن تحدى هوميروس وفرجيل ودانتى ، بملحمته ، نراه الآن يتحدى أخيلس وسوفوكليس برواية ارتضت كل قيود المأساة (التراجيديا) اليونانية . وهو فى المقدمة يطلب إلى القارىء أن يلاحظ أن المسرحية (الدراما) تخضع للوحدات التقليدية القديمة ، وتتجنب « خطأ الشاعر فى خلط المادة الهزلية (الكوميدية) بأحزان المأساة ووقارها ورهبتها ، أو فى إدخال شخوص تافهين متبذلين . وهنا نجد ملتون يولى ظهره لعصر النزابث ويشق طريقه إلى اليونان ولا يبعد كثيراً عن النماذج اليونانية . إن شمشون الذى فارقته قوته بعد أن حلقت دليلة سبع خصلات من شعر رأسه ، وقلع من أوثقوه من الفلسطينيين عينيه ، نقول أن شمشون هذا لا يحكى فقط ، أوديب المكفوف فى كولونس ، بل أنه يحكى ملتون نفسه يعيش فى عالم بغيض لا يرى منه أثرا :ـ

« ضريرين أعداء ، أواه هذا شيء أسوأ من الأغلال أو الزنزانة أو التسول ، أو العجز بفعل الهرم ، فالضياء ، وهو فاتحة صنع الله ، منطفىء أمامى ، ولا أملك من مباهجه شيئاً . ربما كان يهدىء من آلامى وأحزانى ، آه ، أه . ظلام والقتام والحلكة وسط وهج النور عند الظهيرة ، ينشر كسوفاً كلياً لاخلاص منه ، دون أى أمل فى بزوغ النهار(١٤١) » .

والحق أن الرواية كلها يمكن تفسيرها بأنها قصة رمزية متناغمة متماسكة : فلتون هو شمشون يناضل ويتعذب فى محنته ، وبنو إسرائيل المقهورون هم البيوريتانيون ، أى الشعب المختار حطمته عودة الملكية ، والفلسطينيون هم الملكيون الوثنيون المنتصرون ، وهدم هيكلهم يكاد يكون تنبؤاً « بالثورة الجليلة » التى أطاحت بآل ستيورات « الوثنيين » فى١٦٨٨ . أما دليلة فهى المرأة الخائنة مارى باول ، Powell . وتكرر فرقة الموسيقى (الكورس) حجج ملتون ومناقشاته من أجل الطلاق(١٤٢) . ويكاد ملتون يكون قد تخلص من غضبه وحقـــده بترديد تلك الحجج والمناقشات على لسان شمشون الذى يتقبل نهايته التى لابد آتية :

« سوف تمضى سلالة المجد ، أما سلالة الخزى والعار التى ستبقى فسألحق بها وشيكاً(١٤٣) » .

وفى يوليه ١٦٧٤ أحس ملتون بأنه يضعف وتنحط قواه ، ولأسباب لانعلمها أهمل تدوين وصيته . وبدلا من ذلك ، وجه إلى أخيه كريستوفر وصية « شفوية » تكاد تكون غير مسطورة ، نقلها كريستوفر على الوجه الآتى :

« أخى ، إنى أترك نصيبى من تركة مستر باول Powell والد زوجتى السابقة ، لأولادى العاقين ، ولكنى لم أتسلم شيئاً منه ووصيتى ومقصدى ألا يستولوا على أى جزء آخر من ضيعتى أكثر من الجزء المذكور ، ومما ضيعت من أجلهم ، غيره ، لأنهم قصروا أشد التقصير فى القيام بواجبهم نحوى ، أما بقية ضيعتى فأنى أضعها تحت تصرف زوجتى الحبيبة اليزابث »(١٤٤) وأعاد ملتون هذه الوصية الشفوية على أسماع زوجته وأناس غيرها فى أوقات مختلفة .

وتشبث ملتون بالحياة فى عزيمة قوية . ولكن آلام النقرس اشتدت عليه يوما بعد يوم حتى شلت يداه وقدماه . وفى ٨ نوفمبر ١٦٧٤ أنهكت الحمى قواه ، وفارق الحياة فى تلك الليلة . وعاش ملتون خمسا وستين سنة وسبعة أشهر . ودفن فى مقبرة كنيسة الأبرشية ، فى سانت جيل كربلجيت ، بجوار والده .

وكان القانون الإنجليزى يعترف بالوصايا الشفوية حتى ١٦٧٧ ، ولكن المحاكم كانت تدقق فيها تدقيقاً شديداً . واعترض البنات على وصية أبيهم ، ورفضها القاضى ، وأعطى ثلثى المال للزوجة ، والثلث الباقى ، وقدره ٣٠٠ جنيه للبنات . أما الحصة فى أموال باول فلم يدفع منها شىء قط .

وأنا لنعلم عن ملتون أكثر كثيراً مما نعلم عن شكسبير ، ولا بد من تدوين الكثير عنه حتى نخرج له صورة حقيقية أو نصفه وصفا كاملا . ولكننا لا نزال نجهل مايكفى للحكم عليه ــ إذا كان هذا ممكنا بالنسبة لأى رجل . فنحن لا نعلم ، بشكل كاف ، لماذا أثار بناته إستياءه إلى هذا الحد ، ولا كيف عاملن زوجته الثالثة التى واسته وأراحته فى سنى شيخوخته ، ولكننا نستطيع فقط أن نبدى الأسف على أنه عجز عن كسب حبهم . ولسنا ندرى بالتفصيل لماذا ارتضى أن يكون رقيبا على الصحافة أيام كرومول ، بعد دفاعه المجيد عن « حرية المطبوعات » . ويمكن أن نعزو كثيراً من تعسفه وبذاءته فى الخصومة إلى أحوال العصر ومعاييره . وقد نغتفر غروره وأنانيته باعتبارهما الركيزة التى تستند إليها العبقرية إذا لم تجد إلا القليل من ثناء الدنيا واطرائها . ولسنا بحاجة إلى الاستمتاع به رجلا ، والإعجاب به شاعراً ، وواحداً من أعظم الناثرين الإنجليز .

إن الذين يعتزمون قراءة الفردوس المفقود من البداية إلى النهاية ، سيتولاهم الدهش إذ يجدون أنها غالبا ما تحلق فى آفاق عالية من الخيال والبيان ، حتى ليغتفرون ان عاجلا أو آجلا ، الصفحات المملة المحشوة بالنقاش أو العلوم أو الجغرافيا ، وكأنها بمثابة فترات لالتقاط الأنفاس من من فرط التأثر والتحليق . وأنه لمن الحق أن نتوقع أن تبقى هذه التحليقات

المفرطة فى التناغم والعاطفة بصفة مستمرة ، فقد يكون هذا فى القصائد القصيرة . وهناك فى نثر ملتون وبخاصة فى « الأريوباجيتيكا » ، قطع ، لايسمو عليها ، فى قوتها وروعتها ، وفكرها وموسيقاها ، شىء من سلسلة الأدب الدنيوى فى العالم .

وأضفى عليه معاصروه شهرة يشوبها الحسد والتذمر ، وفى الفترة التى صعد فيها حزبه إلى منصة الحكم ، كان مناضلا ثائراً ، ونسيت قصائده الغنائية الأولى . ونشر ملتون قصائده الكبرى فى عهد عودة الملكية ، ذلك العهد الذى احتقر شيعته ، ورضى له البقاء على قيد الحياة ، على كره منه . وعندما طلب لويس الرابع عشر من سفيره فى لندن أن يمدد له أحسن الكتاب الإنجليز الأحياء ، كان جواب السفير : لايوجد منهم من يستحق الذكر إلا ملتون الذى دافع من قبل ، من سوء الحظ ، عن قتل الملوك الذين كانوا آنذاك يشنقون أحياء أو أمواتا . وحتى فى هذا العصر المستهتر المشاغب ، على أيه حال ، نجد أن أشهر شعرائه ، جون دريدن ، الذى قال عنه ملتون من قبل أنه « ناظم قواف جيد ، وليس بشاعر(١٤٥) » . نقول ان دريدن هذا ، اعتبر « الفروس المفقود » « من أعظم وأروع وأسمى ماأبدع هذا العصر وهذه الأمة من قصائد(١٤٦) » . وبعد أن دالت دولة أسرة ستيوورات عاد إلى ملتون مجده ومكانته الرفيعة . وأطنب أديسون فى إمتداحه فى مجلة « سبكتاتور » . ومنذ ذلك الوقت إزدادت صورة ملتون رفعه وقداسة فى ضمير بريطانيا (١٤٧) حتى ناجاه وردزورث فى ١٨٠٢ :

«أى ملتون ، ما كان أجدرك أن تكون حيا بيننا فى هذه الساعة . . . ، أن روحك مثل نجم رحل عنا بعيدا ، لقد كان لك صوت يهدر كالبحر ، صاف مثل السموات المكشوفة ، صوت كريم حر » .

أن نفسه كانت مثل أثر باق ، قام بعيدا عن أقرب الناس إليه ، ولكن عقله حلق مثل السموات العلى ، فوق كل هموم البشر ، وصوته يدوى فى الأسماع مثل « البحر المتلاطم الأمواج » عند هوميروس .

الفصل التاسع

عـــودة الملكية

١٦٦٠ — ١٦٨٥

١ — الملك السعيد

دخل الملك شارل الثانى لندن فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٦٦٠، أى بعد ثلاثين سنة كاملة من مولده ، وسط مظاهر فرح وابتهاج ، تفوق كل ماتعيه ذاكرة انجلترا من مثلها ، يواكبه عشرون ألفا من حرس المدينة ، ترفرف أعلامهم اعتزازا وزهوا ، ويلوحون بأسيافهم وسط شوارع انتشرت بها الأزهار ، تتدلى فيها البسط المزدانة بالرسوم والصور ، تدوى فيها الطبول والنواقيس وهتافات الترحيب ، وتكتظ بنصف سكان المدينة . وكتب ايفلين : « وقفت على « الشاطىء » ورأيت هذا المشهد « وحمدت الله[1] » . وهو مشهد كشف عن مزاج انجلترا ، وخيبة البيوريتانيين واخفاقهم ، فقد اقتضى خلــع شارل الأول ست سنوات من الحروب والاضطرابات ، على حين لم ترق نقطة دم واحدة فى سبيل عودة ابنه إلى العرش . وتقاطر الإنجليز على قصر هويتهول لتحية الملك ، طوال هذا الصيف الذى غمرته البهجة . وقال أحد شهود العيان : « كان تلهف الرجال والنساء والأطفال على رؤية جلالته وتقبيل يديه ، شديدا إلى حد أنه لم يـكد يجد فسحة من الوقت لتناول الطعام لعدة أيام ... ولما كان الملك راغبا كل الرغبة فى ارضاء نفوسهم ، فإنه لم يرد عنه أحدا ، ولم يغلق الأبواب دون أى من الناس[2] » وصرح بأنه يريد أن يكون كل شعبه سعيدا مثله .

ولو أن الملك أخذ أية مشكلة مأخذ الجد فى أيام الظفر هذه ، لجلت

الشدائد والمصاعب التى ورثها شهر العسل بالسواد والقتام . فقد بلغ رصيد الخزانة ١١ جنيها و ٢٨ شلنا و ١٠ بنسات ، وكانت الحكومة مدينة بمليونى جنيه . ولم تسدد رواتب الجيش والبحرية لعدة سنوات ، وكانت انجلترا فى حرب مع أسبانيا . وأخذت ميناء دنكرك ، بشكل غير مستقر ، لقاء مائة ألف جنيه سنويا ، وطالب بالتعويض عشرة آلاف من الفرسان الذين حاربوا من قبل فى صفوف شارل فسلبهم كرومول أموالهم . ثم أن عشرات الآلاف من الرجال الوطنيين قدموا ظلامات يلتمسون فيها إلحاقهم بالوظائف ذوات الرواتب الكبيرة والعمل اليسير ، وأجاب شارل على كل هذا بالإيجاب ، فى غير اكتراث ، تراوده الثقة فى أن يوفر البرلمان الاعتمادات .

وكان البرلمان ، بدوره ، سعيدا ، سيطرت عليه للوهلة الأولى ، نزعة الامتثال الموسوم بالابتهاج للملك العائد : إننا وأبناءنا من بعدنا نضع أنفسنا تحت تصرف جلالتكم ونلتزم بطاعتكم إلى الأبد[3] » وقرر مجلس العموم « أن أعضاءه أنفسهم وشعب إنجلترا بأسره لن يبرأوا من الجريمة البشعة ، جريمة الثورة الأخيرة غير الطبيعية ، ولن ينجوا من العقوبات المترتبة على هذه الجريمة إلا إذا حظوا بصفح صاحب الجلالة وعفوه وبناءا على ذلك قصد إليه البرلمان بكامل هيئته وجثوا أمام الملك الضاحك المبتهج ، لينالوا غفرانه[4] . وأحس مجلس العموم بمزيد من الإثم لأنه اجتمع دون دعوة من الملك ، أو دون موافقته ، ولذلك أطلق المجلس على نفسه متواضعا اسم « اجتماع أو مؤتمر » ، حتى تطيب نفس الملك ، فيعلن أنه برلمان شرعى[5] . وبعد انتهاء هذه المراسم ، ألغى البرلمان كل التشريعات التى أصدرها البرلمان ولم يكن قد وافق عليها شارل الأول ، ولكنه أكد على الامتيازات التى كان ذلك المجلس قد منحها للبرلمان ، بما فى ذلك سيادة البرلمان فى كل ما يتعلق بالضرائب ، وثبت شارل الثانى هذه الامتيازات . وشارك البرلمان للملك الانتصار الحاسم الذى أحرزته السلطة المدنية على

السلطة العسكرية ، فدفعت الرواتب المتأخرة للجيش الذى حكم انجلترا لمدة عقد من السنين ، وسرح الجنود البالغ عددهم أربعين ألفا ، وانصرفوا إلى بيوتهم .

وكان شارل قد وافق على الصفح عن كل أعدائه ، فيما عدا من يستثنيهم البرلمان من العفو العام . وقضى البرلمان عدة أسابيع فى جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد ، ومن يبقى على حياتهم . وفى ٢٧ يولية ١٦٦٠ ، شخص الملك إلى مجلس اللوردات ، مناشدا إياهم أن يصدروا قرارا سريعا حكيما :

« أيها اللوردات ، إنكم إذا لم تشاركونى فى القضاء على الخوف الذى استولى على قلوب الناس وأرقهم ، ... فإنكم بذلك تحولون بينى وبين الوفاء بالوعد الذى قطعته على نفسى ، وأنا مقتنع بأنه لولاه لما كنا ، لا أنا ولا أنتم هنا الآن ... ولقد أدركت جيدا أن هناك أناسا لا يمكن أن يغفروا لأنفسهم ما اقترفوه ، ولا أن نغفر لهم نحن ذلك .. وإنى لأشكر لكم عدالتكم مع هؤلاء - القتلة المباشرون لوالدى - ولكنى - وسأكون صادقا معكم - لم أفكر قط فى استثناء أحد غيرهم من العفو العام . أن هذه الرحمة ، وهذا التسامح هما خير وسيلة تجعل الناس يستشعرون خالص الندم ، وتجعلهم رعايا صالحين مخلصين ، كما تجعلهم أصدقاء وجيرانا صالحين لكم أنتم(٦) » .

ورغب البرلمان فى التوسع فى عملية الانتقام ، ولكن شارل أصر على ألا يستثنى من العفو إلا من واقعوا الحكم بإعدام والده(٧) . وكان ثلث هؤلاء قد فارقوا الحياة ، كما لاذ الثلث الثانى بالهروب ، وقبض على ٢٨ وحوكموا ، وحكم على ١٥ بالسجن مدى الحياة ، وشنق ١٣ ثم مزقوا أربا (١٣ ، ١٧ أكتوبر ١٦٦٠) . ويقول شاهد العيان بيبز : أن توماس هاريسون ، وهو أول من نفذ فيه الحكم ، « كان يبدو مرحا ، كما يمكن أن يفعل أى رجل فى مثل هذا الموقف » وتحدث بشجاعة من فوق المشنقة

قائلا أن دوره في الاقتراع على إعدام شارل الأول أملاه الله عليه(٨).
ويضيف بيبز « وفي الحال مزق أربا ، وعرض رأسه وقلبه على الجمهور ، فتعالت صيحات الفرح(٩) » وفي ٨ ديسمبر أصدر البرلمان أمرا بإخراج جثث كرومول وأيرتون وجون برادشو من كنيسة وستمنستر ، وتعليقها على أعواد المشانق . وتم ذلك بالفعل في ٣٠ يناير ١٦٦١ ، وكأنما كان هذا لونا من الاحتفال بذكرى موت شارل الأول ، وعرضت رؤوسهم طيلة يوم كامل في أعلى قاعة وستمنستر (حيث اجتمع البرلمان) . ودفنت الأشلاء في حفرة تحت مشنقة تيبرن ، كل أولئك جعل جون ايفلين يبتهج ويهلل « لحكم الله ، وهو حكم هائل تحار فيه الألباب(١٠) » . وثمة ضحية أخرى ، هاري فين ، الذي كان يوما محافظا لمستعمرة خليج ماساشوست ، فقد شنق في ١٦٦٢ ، لأنه كان أداة فعالة في تدبير إعدام سترافورد . وفي هذه القضية أغمضت رحمة الملك جفونها ، فقد وعد من قبل بالإبقاء على « سير هاري » الرجل الشعبي المحبوب ، ولكن جراءة السجين وشجاعته أثناء المحاكمة أوغرت صدر الملك فتحجر قلبه .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٦٦٠ حل « المؤتمر » (البرلمان) نفسه ، حتى يمهد الطريق لانتخاب أعضاء أكثر تمثيلا للشعب . وفي غضون ذلك واجهت الحكومة أول مظاهرة عدائية تنازع في شعبيتها في العاصمة . أن هذه الحكومة لم تفعل شيئاً لاسكات الشيع الدينية التي ظلت تأمل في نظام جمهوري : فكان المشيخيون وأنصار تجديد العماد والمستقلون وأصحاب مذهب الملكية الخامسة يخطبون ضد الملكية ، وتنبأوا بأن الإنتقام الإلهي سيحل بها سريعاً ، فيرسل الزلازل والدم والضفادع تنقض على بيوت موظفي الملك . وفي ٦ يناير ١٦٦١ ، وبينما كان الملك في تورتسموث يودع أخته الحبيبة هنريتا وهي في طريقها إلى فرنسا ، نادى بالتمرد والعصيان أحد المشتغلين بصناعة دنان النبيذ في مجمع « لقديسي الملكية الخامسة » ، وعندئذ سلح سامعوه المهتاجون أنفسهم ، وأسرعوا إلى الشوارع يرددون أن المسيح

وحده هو الذى ينبغى أن يكون ملكا ، ويعملون القتل فى كل من اعترض سبيلهم ، وعاشت المدينة فى ظل الإرهاب طيلة نهارين وليلتين ، وانتشر « القديسون » فى كل مكان يقتلون الناس فى حماسة بالغة ، حتى تمكنت آخر الأمر فرقه صغيرة من الحراس كانت الحكومة الواثقة من نفسها تعتمد عليها فى حفظ الأمن ، من تطويق للشاغبين وإقتيادهم إلى حبل المشنقة . وعاد شارل مسرعا إلى العاصمة ، ونظم فرقا جديدة من الشرطة للمحافظة على الأمن فيها .

وفى ٢٣ أبريل ، فى يوم عيد سانت جورج راعى إنجلترا وحاميها ، توج الملك السعيد فى كنيسة وستمنستر ، فى كل مظاهر العظمة والجلال ، ذات القيمة الكبرى لدى الملوك والتى يعتز بهـا الشعب ، وحرص رجال الكنيسة الأنجليكانية التى استعادت مكانتها ، وهم يمسحون الملك الداعر بالزيت المقدس ، على التوكيد على تعهد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة . وفى مايو اجتمع « برلمان الفرسان » الذى سمى كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملكيين أكثر من الملك ، متلهفين على الإنتقام من البيوريتانيين . ووجد شارل مشقة فى أن يثنيهم عن الاسترسال فى إعدام أعداء والده ، واسترد البرلمان ، من الوجهة النظرية ، كثيراً من الإمتيازات التى كان قد فقدها شارل الأول : من ذلك أنه لايصبح أى تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما ، والملك . وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة فى البر والبحر ، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات ، وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية ، ولكنه رفض تجديد قاعة النجم أو محكمة اللجنة العليا وأبقى على حق التحقق فى قانونية القبض على المسجونين بغير محاكمة ، وأعيدت إلى الفرسان أملاكهم التى صادرها كرومول من قبل ، مع تعويض ضئيل لمن اشتروها ، واسترجعت الأرستقراطية القديمة ثراءها ونفوذها . وانقلبت الأسرات التى جردت من أملاكها على ملوك آل ستيوارت ، وانضمت فيمابعد إلى صغار النبلاء وأبناء

الطبقات الوسطى ليشكلوا « الأحرار » ضد « المحافظين » .. إن شارل في النصف الأول من حكمه بلغ من الضعف والوهن حداً لم يستطع معه أن يفرض أي قدر من السلطة المطلقة ، من ذلك أنه أجاز « لبرلمان الفرسان » أن يستمر لمدة سبعة عشر عاما ، على الرغم من حقه الشرعي في حله . أنه كان من الناحية العملية ملكا دستوريا . فإن النتيجة الجوهرية لثورة ١٦٤٢ — ١٦٤٩ ، وانتقال السلطة العليا من يد الملك إلى البرلمان ، ثم من مجلس اللوردات إلى مجلس العموم ، كل أولئك عاش بعد عودة الملكية ، على الرغم من قيام الملكية المطلقة من الوجهة النظرية .

وكان من حسن حظ البرلمان أن شارل كان عزوفا عن الحكم ، وكأنه بعد أربعة عشر عاما من التشرد والشقاء ، قد منحته العناية الآلهية الحق في السعادة والهناءة ، وأدخل جنات عدن التي وعد بها المسلمون . وكان الملك أحيانا ينهمك بجد وكد في شئون الدولة ، وقد بولغ في إهماله لها(١١). وقبيل نهاية حكمه دهشت الأمة إذ رأته يأخذ كل شيء على عاتقه ، وينصرف بكليته إلى إدارة شئون البلاد في كفاية وعزيمة صادقة . ولكنه في أعوام العسل كان قد فوض إلى إدوارد هايد ، الذي عينه أرل كلارندون في ١٦٦١ ، إدارة دفة الحكم ، بل تقرير السياسة .

وتسربت شخصية الملك ، بشكل مؤثر إلى عادات العصر وأخلاقه وسياسته وغلب الطابع الفرنسي على أصله وتعليمه . فأمه فرنسية ، وأبوه ابن حفيدة ماري جيز أو اللورين ، أضف إلى هذا جدا اسكتلنديا ودنمركيا وإيطاليا ، ومن ذلك نجد خليطا صافيا ولكنه غير راسخ . إنه عاش من سن السادسة عشرة إلى سن الثلاثين في القارة ، حيث تعلم الأساليب الفرنسية، ثم رآها في أبهى صورها في أخته هنريتا آن . وكان شعره الأسود وجلده الأسمر يذكران بجدته الإيطالية ماري دي مديتشي ، وكان مزاجه لاتينيا مثل والدة جدته لأمه ماري ملكة اسكتلنده ، وربما ورث عن جده الغسقوني هنري نافار ، شفتيه الشهوانيتين وعينيه البراقتين وأنفه المتطفل .

بل وربما ميله إلى النساء كذلك .

أما فيما يتعلق بالناحية الجنسية ، فقد كان شارل الثانى أخزى قادة زمانه ، وأسوأهم ، فإن تصرفاته كانت أسوأ مثال تحتذيه حاشيته والمجتمع الإنجليزى والمسرح بعد عودة الملكية ، فانفلت الزمام للفجور والخلاعة فى هذه كلها ، وأنا لنعرف أسماء ثلاث عشرة من خليلاته ، أنه وهو فى الثامنة عشرة ، حين جاء من هولنده إلى إنجلترا ليقاتل من أجل والده ، وجد فسحة من الوقت لينجب من « السمراء الجميلة الجريئة » لوسى وواتر ، ولدا كبر وترعرع تحت اسم جيمس سكوت ، اعترف شارل ببنوته فيما بعد ، وعينه دوق موغوث . ولحقت لوسى بشارل فى القارة ، وخدمته باخلاص ، والواضح أنه كان معها مساعدون آخرون لانعرف الآن أسماؤهم . وفور أن استقر به المقام فى القصر الملكى ، دعا بربارا بالمر لتسرى عنه همومه وتخفف من متاعبه . وكانت بربارا هذه — مثل بربارا فلبيرز — قد أقامت لندن وأقعدتها بجمالها . وفى سن الثامنة عشرة (١٦٥٩) تزوجت من روجر بالمر الذى أصبح أرل كاسلمين . وفى سن التاسعة عشرة وجدت طريقها إلى مخدع الملك ، ومن ثم سيطرت على روحه الوادعة ، إلى حد أنه خصص لها جناحا فى قصر هويتهول ، وأنفق عليها أموالا طائلة وأجاز لها بيع المناصب السياسية ، والتحكم فى مصائر الوزراء . وولدت له ثلاثة أبناء وابنتين أعترف ببنوتهم جميعاً ، وساورته الشكوك على أية حال ، لأنها وسط حبها الشديد للملك ، لم تتورع عن الاتصال برجال آخرين[١٢] ، وازدادت نفوذها بازدياد علاقاتها غير المشروعة . وفى ١٦٦٣ — أعلنت تحولها إلى الكاثوليكية . والتمس أقاربها من الملك أن يثنيها عن عزمها ، فأجابهم بأنه لم يتدخل قط فى « نفوس » السيدات[١٣] .

وفى ١٦٦١ فكر شـــارل فى أنه قد حان الوقت للزواج ، ومن بين المرشحات اختار كاترين براجنزا ابنة جون الرابع ملك البرتغال التى قدمت إليه مع صداق هيأته العناية الالهية ليفى بحاجات ملك مبذر ودولة تاجرة :

٥٠٠٠٠٠ جنيه نقداً ، وميناء طنجة ، وجزيرة (والمدينة الصغيرة فيابعد) عباى ، وحرية الاتجار مع كل ممتلكات البرتغال فى آسيا وأمريكا وتعهدت انجلترا فى مقابل ذلك ، بمساعدة البرتغال فى المحافظة على استقلالها ولما وصلت الأميرة العروس الغالية إلى بورتسموث كان شارل فى استقبالها للترحيب بها ، وتزوجا فى ٢١ مايو وفقاً للطقوس الكاثوليكية أولا ثم الأنجليكانية ، وكتب شارل إلى والدتهايقول أنه « أسعد إنسان فى العالم » وأحسن معاملة حاشيتهامن السيدات ذوات « الثنورات » الواسعة للطوقة ، ومن الرهبان الوقورين ، ووقعت الأميرة فى غرامه لأول نظرة ، وسارت الأمور سيراً حسناً لعدة أسابيع ، ولكن فى يوليه وضعت كاسلمين ولداً شهد شارل تعميده على أنه « العراب » (أبوه فى العماد) — وتلك مناسبة أخرى يستخدم فيها إسم الله عبثاً ولغواً . ومذ هجرت باربارا زوجها ، أصبحت الآن تعتمد كل الاعتماد على الملك ، وتوسلت إليه ألا يتخلى عنها ، فاستسلم لرجائها ، وسرعان ما استأنف علاقته بها ، وفى إخلاص موصوم بأشد الخسة والعار . ونسى الملك قواعدالسلوك القويمة المألوفة ، فقدم باربارا علانية إلى زوجته . فنزفت أنف كاترين دما وانتابتها إغماءة ، من فرط الشعور بالمهانة والإذلال ، وحملت إلى خارج القاعة وبناء على إلحاح من الملك ، أوضح لها كلارندون أن عملية الزنى امتيازملكى معترف به للملوك فى أعرق أسرات أوربا . وبمرور الوقت كيفت الملكة نفسها مع أساليب زوجها الشرقية ، ولكنها كانت تزوره ذات يوم ، فوقعت عيناها على « شبشب » صغيربجوارسريره ، فانسحبت فى رفق وتلطف «حتى لاتصاب الحمقاء الجميلة الصغيرة » المختفية وراء الستائر بالبرد(١٤) ، وكانت هذه المرة الممثلة — هول دافيز . هذا فى الوقت الذى حاولت فيه كاترين كثيراً أن تنجب لشارل طفلا ، ولكنها — مثل كاترين أراجون مع ملك سابق — أجهضت عدة مرات . وفى ١٦٧٠ أقر البرلمان قانوناً بالتوسع فى أحكام الطلاق . وأشار بعض رجال البلاط المتلهفين على وريث بروتستانتى ، على

شارل بأن يطلق كاترين ، ولكنه أبى ، حيث كان قد عرف آنذاك كيف يحبها حباً عميقاً على طريقته الخاصة .

ويصف بيبز البلاط في ٢٧ يوليه ١٦٦٧ فيقول :

« يقص على فن Fenn أن الملك وسيدتي كاسلمين قد حدثت بينهما جفوة شديدة ، وأنها ستفارقه ، ولكن بين جنبيها جنين ، إن الملك لابد معترف ببنوته ، وإلا فإنها ستحمل الوليد إلى قصر هويتهول ، وتهشم رأسه أمام عيني الملك . ثم يضيف أن الملك والحاشية لم يكونوا في أي زمان في العالم بأسره أسوأ منهم الآن ، بسبب اللهو والدعارة والفجور والسكر والعربدة ، وغيرها من أحط الرذائل البغيضة ، مما لم ير العالم مثيلا لها ، وهذا أمر يجر الهلاك والدمار على الجميع ، لا محالة[١٥] » .

وضاق شارل ذرعا بغضبات كاسلمين ، وفي إحدى زياراته الأخيرة لها ، فاجأ عندها جون تشرشل — دوق مالبرو فيما بعد — ، الذي قفز من النافذة حتى يتجنب لقاء الملك[١٦] ، كما روى الأسقف بيرنت . على أن شارل خلع على كاسلمين لقب دوقة كليفلند ، ورتب لها مخصصات من الأموال العامة مدى الحياة .

وقد يشوقنا أن نقص كيف أن امرأة واحدة بعينها خيبت علانية أمل الملك المغرور المختال وصدته : تلك هي فرانسيس ستيوارت التي قيل إنها ربما كانت أجمل وجه وقعت عليه العين[١٧] ويقول أنطوني هاملتون « يندر أن يتيسر العثور على امرأة أقل ذكاء أو أكثر جمالا[١٨] » . وظل الملك يلحف في الوصول إليها حتى بعد زواجها من دوق وتشموند ويصف بيبز الملك وهو يجدف وحده في الليل إلى قصر سومرست ، « وهناك حيث وجد باب الحديقة موصدا تسلق الجدران ليزور هذه المرأة وتلك فضيحة مخزية فظيعة[١٩] » .

وفي ١٦٦٨ رأى شارل « نل جوين » وهي تمثل في « مسرح دروري لين » ، وهي التي نشأت في فقر مدقع ، وكانت تسلي رواد الحانة بأغنياتها ،

وتبيع البرتقال في المسرح ، وتقوم بالأدوار الصغرى أو الأدوار الرئيسية في الروايات الهزلية ، واحتفظت طوال عملها ، تلقائياً بروح طيبة وارادة طيبة ، مما سحر لب الملك الذي لا يبالي بشيء ، والذي سئم الملذات ، ولم تقم الممثلة أية عقبات في سبيل أن تكون عشيقة لجلالته . واستنزفت مبالغ طائلة من كيسه الذي يشكو خلو الوفاض ، ولكنها أنفقت القدر الأكبر منها في أعمال البر والإحسان . ولكن سرعان ما كان عليها أن تنافس امرأة مغوية خطرة موفدة من فرنسا (١٦٧١) لتثبت شارل على العقيدة الكاثوليكية والتقاليد الفرنسية ، تلك هي لويز كيروال التي قلدت نل مظاهرها الارستقراطية تقليداً ساخراً شيطانياً . وكل العالم يعرف ، كيف أنه ، حيث حسب سكان لندن خطأ أن نل هي منافستها الكاثوليكية ، فسخروا منها ، أخرجت رأسها الصغير من نافذة العربة وصاحت بهم « صه أيها الشعب الطيب ، أنا البغي البروتستانتية(٢٠) » واستمرت تحظى بعطف شارل إلى آخر حياته ، ولم تبرح مخيلته حتى في ساعة احتضاره . أما كيروال التي عينت على الفور دوقة بورتسموث ، فقد أثارت حفيظة لندن ، حيث نظروا إليها هناك على أنها عميلة فرنسية باهظة التكاليف تبتز من الملك في كل عام ٤٠ ألف جنيه ، لتقتني الجوهرات وتعيش في ترف باذخ أهاج معدة جون ايفلين(٢١) وتقلص ظل سلطانها في ١٦٧٦ حين اكتشف شارل هورتنس مانسيني ابنة شقيق الكاردينال مازاران المرحة المفعمة بالحيوية والنشاط .

وكان لشارل سقطات أخرى : انه في أيام شبابه التعس فقد كل الثقة في البشر ، وحكم على الرجال والنساء جميعاً بأنهم كما وصفهم « لاروشفوكول » ومن ثم فإنه قلما استطاع أن يكون مخلصاً لأحد — اللهم إلا أخته — وضيع نفسه في أهوائه وغرامياته ، ولم تكن ثمة ود خالص متيم باقي ضياء حقيقياً على البريق الأجوف في حياته . وباع بلاده بنفس اليسر الذي اشترى به النساء . وضرب لحاشيته أكبر المثل في المقامرة بمبالغ طائلة . وعلى الرغم

من الجمال الطائش فى سلوكه وعاداته ، فانه أبدى فى بعض الأحيان افتقاره إلى الرقة والكياسة التين كان من العسير التماسهما عند والده . من ذلك ، على سبيل المثال ، أنه لفت نظر جرامونت إلى أن خدمه يؤدون عملهم وهم راكعون(٢٢) . ولم يكن كثير الادمان على الخمر فى أغلب الأحيان ، ولكنه أدمن بشكل مخيف لمدة أيام عقب صدور قانون ضد تعاطى المسكرات(٢٣) . وكان عادة يتقبل النقد بصدر رحب ، ولكن حين جاوز سيرجون كوفنترى حده ، وتساءل فى البرلمان علانية « هل يجـــد الملك متعته بين الرجال أو بين النساء ؟ » . أمر شارل رجال حرسه أن « يجعلوا منه عبرة » فكمنوا له وهاجموه وهشموا أنفه(٢٤).

على أن فئة قليلة من الناس كانوا لا يملكون إلا أن يحبوه ، ومنذ شباب هنرى الثامن لم يوجـــد فى انجلترا ملك فى مثل شعبية شارل بين حاشيته ، وكانت حيويته الجسمية تبعث على الرضا والسرور ، ولم يكن به شح أو بخل ، بل كان يرعى الحقوق ، عطوفاً كريماً . فانه ، بعد أن ينقد رجال حاشيته رواتبهم ، كان يجد الوسيلة للبر والإحسان والصدقات . وجعل من المتنزه الخاص به مرتعاً لمختلف الحيوانات ، ولم يلحقها أى أذى . وكانت كلبته المدللة تنام ، ويفترسها رفيقها وتلد وترضع صغارها فى حجرة نوم الملك(٢٥) . وكان شارل بعيداً عن التكلف ، أنيساً ، حلو المعاشرة ، يسهل الوصول إليه أو التحدث معه ، سرعان ما يهدىء من روع محدثيه ويطمئن بالهم . وذكر كل الذين تحدثوا عن شارل — فيما عدا كوفنترى ، أنه « ملك ودود طلق المحيا(٢٦) » ، وعده جرامونت « من ألطف الرجال وأرقهم وأكثرهم وداعة(٢٧) » . وقال عنه أوبرى « إنه نموذج فذ فى المجاملة(٢٨) » وكان شارل قد صقل عاداته وسلوكه فى فرنسا ، وكان ، مثل لويس الرابع عشر يرفع قبعته لأية سيدة ، حتى ولو كانت من أحط الطبقات وكان يفضل شعبه بكثير فى التسامح مع أية آراء أو مذاهب دينية معارضة إلى حـــد أنه شرب نخب خصومه السياسيين ، وسر كثيراً بالهجاء حتى

ولو كان موجها إلى شخصه . وكان حسن التقدير فيه ، مبعث ابتهاج لدى حاشيته . ووصفه بيبز بأنه كان يقود الحلقة فى رقصة ريفية قديمة cuckoldo All Awry . وما كان يقطع عليه مرحه ولهوه الصاخب — لفترات قصار ، إلا أنباء الطاعون أو الحريق أو الافلاس أو الحرب .

ولم يكن الملك شارل الثانى عميق التفكير ، ولكنه لم يتعلق بتوافه الأمور إلى حد كبير ، وتخلص يوما من رجل زعم أنه يتنبأ بالطالع ، بأن أخذه إلى سباق الخيل ، ولحظ أنه يخسر ثلاثة أشواط متوالية . وأولع ولعا شديدا بالعلوم ، وأجرى التجارب ، وأصدر براءة تشكيل « الجمعية الملكية » وأغدق عليها الهبات والمنح ، وشهد كثيراً من اجتماعاتها . ولم يهتم كثيراً بالأدب ، ولكنه أولى الفنون عناية كبيرة ، واعتز برافائيل وتيشيان وهولبين وجمع أعمالهم . وتجلى فى حديثه كثير من الحيوية والتنوع اللذين تميزت بهما الجماعات المثقفة فى فرنسا . فتحدث جيدا عن الشعر مع دريدن ، وعن الموسيقى مع بورسل (الملحن) ، وعن هندسة العمارة مع رن . وكان حاميا ونصيراً حسن التمييز فى كل هذه المجالات ، ولابد أنه كان ثمة قدر كبير من مناقب ومآثر حميدة محببة تحلى بها رجل قالت عنه أخته وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة « إنى أحببته أكثر من حبى للحياة نفسها . وليس ثمة شىء آسف عليه فى موتى ، إلا إنى أفارقه »(٢٩) .

٢ - مرجل الدين

هل تمسك الملك بأية عقيدة دينية ؟ أن حياته من هذه الناحية توحى بنفس النزعة التى سادت كثيراً من الفرنسيين المعاصرين الذين عاشوا ملحدين وماتوا كاثوليكيين . ويبدو أن هذا يسر الفوز بمتاع الدنيا والآخرة معا ، كما أنه كان أفضل كثيرا من « رهان » بسكال . ويقول بيرنت « أن إحساسه الدينى كان ضعيفا ، إلى درجة أنه لم يكثر من التظاهر بالنفاق ولكن بسلوكه الموصوم بالتهاون فى الصلوات وفى الأسرار المقدسة ، كان لأى

إنسان يراه أن يدرك كيف وقر فى ذهن الملك أنه لا علاقة له بهــذه الأمور[٣٠] » . وقال أحد الوعاظ مرة لنبيل غلبه النعاس وهو جالس بين جماعة المصلين « سيدى ، سيدى : إنك تغط فى نومك بصوت عال ، وقد توقظ الملك[٣١] » : وقال عنه سانت إيفرموند الذى كان يعرفه حق المعرفة أنه كان « ربوبيا[٣٢] » - وهو الذى يؤمن بوجود كائن أسمى غير مجسم تقريباً ، ويفسر بقية المذاهب الدينية بأنها شعر شعبى . واتفق أرل بكنجهام ومركيز هاليفاكسى مع سانت إيفرموند فى هذا الرأى[٣٣] ويروى بيرنت « قال لى الملك ذات مرة ، أنه ليس ملحدا ، ولكنه لا يظن أن الله يعذب الإنسان لأخذه بشىء من أسباب المتعة واللذة عرضا أو خطأ[٣٤] » . ورحب الملك بصداقة هوبز الذى يدين بالمادية ، وتولى حمايته من رجال اللاهوت الذين طالبوا بتقديمه للقضاء بتهمة الهرطقة . ويرى فولتير أن « لامبالاة الملك المطلقة » بكل الصراعات الدينية التى تفرق بين الناس عادة ، أسهمت بدرجة غير يسيرة ، فى حكمه السلمى[٣٥] .

ويحتمل أن شارل كان متشككا ، مع شىء من الإنعطاف نحــو الكثلكة ، بمعنى أنه كان يشك فى اللاهوتيات ، ويؤثر الكاثوليكية ، لطقوسها النابضة بالحياة ، وتعلقها بالفنون ، وتساهلها مع الجسد ، وتأييدها للملكية . وربما غاب عن ذاكرته أن العصبة الكاثوليكية وبعض الآباء اليسوعيين قد أقروا من قبل قتل الملك . ولكنه تذكر أن الكاثوليك الإنجليز دافعوا عن أبيه ، وأن ثلث النبلاء الذين ماتوا فى سبيل النضال عن شارل الأول كانوا من الكاثوليك[٣٦] ، وأن الكاثوليك الأيرلنديين بقوا على ولائهم لأسرة ستيوارت ، وأن حكومة كاثوليكية كانت تمد له يد العون فى منفاه الطويل الأمد — إذ روح التسامح التى تملكته بصفة عامة ، جنحت به إلى الرغبة فى التخفيف بعض الشىء من القوانين التى صدرت فى انجلترا ضد الكاثوليك ، وهى فى تقدير « هلام » قوانين « صارمة غاية الصرامة ، بل هى فى بعض الأحيان ، دموية أو متعطشه للدم[٣٧] . ولم

يشارك الملك البروتستانت الإنجليز فيما علق بأذهانهم من ذكرى « مؤامرة البارود « ١٦٠ » » أو الخوف من محاكم التفتيش أو البابا فى رومه . ولم يغضب لالتزام أخيه العلنى بالمذهب الكاثوليكى — والمفروض أنه وريث العرش . وقد يجوز لنا أن نحكم ، من تحوله إلى الكثلكة وهو على فراش الموت ، أنه كان من الجائز أن يعترف هو أيضا بها ، لو أن الاعتراف بها كان أمرا عمليا من الوجهة السياسية .

وهكذا فإن شارل ، وهو السياسى اللطيف الودود ، قبل الكنيسة الأنجليكانية ودعمها إنها قد دانت بالولاء لوالده ، وفنيت فى الدفاع عنه ، وعانت ما عانت فى أيام كرومول ، وكافحت كفاحا شديدا فى سبيل عودة الملكية . واعتبر شارل أنه من القضايا المسلم بها أن تكون هناك عقيدة دينيه تحظى بموافقة الدولة ومعونتها ، على أنها وسيلة لنشر التعاليم وإقرار النظام الاجتماعى . انه ، أساسا ، كانت تزعجه البيوريتانية ، فوق أنها أتيحت لها من قبل فرصة الحكم ، فكانت صارمة بغيضة إلى حد بالغ . ولم ينس قط أن البرسبتيريانز سجنوا أباه وأن البيوريتانز اطاحوا برأسه ، وأنه هو نفسه أرغم على قبول مذهبهم والاعتذار عن أخطاء آبائه . ووقع القانون الذى أصدره « البرلمان المؤتمر » ، بإعادة الكهنة الأنجليكانيين إلى أبرشياتهم ، التى كانت « الجمهورية » قد جردتهم منها ، وكان وجه العدالة والإنصاف واضح فى هذا القانون . وعلى الرغم من ذلك ، كان قد وعد « بالحرية لذوى الضمائر الواهنة » ، وألا يضار أى إنسان بسبب الخلافات الدينية مادامت مسالمة . واقترح شارل فى أكتوبر ١٦٦٠ تسامحا شاملا مع كل الفرق المسيحية ، بل كذلك تخفيف القوانين المعاديه للكاثوليكية . ولكن البرسبتيريانز والبيوريتانز الذين خشوا مغبة هذا التراخى ، انضموا إلى الأنجليكانيين فى رفض هـــذا المشروع . ورغبة فى المصالحة بين البرسبتيريانز والأنجليكانيين عرض الملك طقوسا تكون حلا وسطا بين الطائفتين ونظاما أسقفيا محدوداً يتولى بمقتضاه بعض المشايخ المنتخبين

تقديم العون والمشورة للأساقفة . ولكن البرلمان عارض هذه الفكرة . وأبلغ « مؤتمر سافوى » المكون من اثنى عشر أسقفا ، ومثلهم من المشايخ — أبلغ الملك « أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق(٣٨) » .

وتلك فرصة ضيعت، لأن البرلمان الجديد كان أنجليكانيا بأغلبية ساحقة. فنكأ الجراح القديمة بإعادة النظام الأسقفى فى اسكتلنده وأيرلنده ، وأعاد المحاكم الكنسية المعاقبة على « التجديف » ، والتخلف عن دفع العشور للكنيسة الأنجليكانية ، وجعل « كتاب الصلوات العامة الانجليكانى » إلزاميا على جميع الإنجليز ، وبمقتضى «قانون التوحيد» (٢٠ نوفمبر ١٦٦١) حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص الذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقا للطقوس الأنجليكانية قبل الانتخابات ، وبمقتضى « مرسوم التنسيق (١٩ مايو ١٦٦٢) طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك ، وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة. وكان على رجال الدين الذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم فى موعد غايته ٢٤ أغسطس ورفضها نحو ١٢٠٠ منهم فطردوا. وهؤلاء بالإضافة إلى ١٨٠٠ آخرين أخرجوا عند عودة الأنجليكانيين ، انضموا جميعا ، مع مجموعة كبيرة من المجامع ، إلى العدد المتزايد من « الشيع » أو « المنشقين » ، الذين أرغموا أولى الأمر فى النهاية على أصدار قانون التسامح ١٦٨٩ .

وحاول شارل أن يعدل من « مرسوم التنسيق » فطلب من البرلمان أن يستثنى من العزل أولئك القساوسة الذين لم يعترضوا إلا على ارتداء اللباس الكهنوتى الأبيض ، أو استخدام الصليب فى التعميد ، فوافق اللوردات ورفض النواب. وسعى الملك للتخفيف من أثر الطعنة ، بتأجيل تنفيذ المرسوم لمدة ثلاثة أشهر ، ولكن أحبطت هذه المساعى كذلك . فأصدر فى ٢٦ ديسمبر ١٦٦٢ بيانا أعلن فيه عن عزمه على أن يستثنى من العقوبات التى نص عليها القانون الأشخاص المسالمين الذين أبت عليهم ضمائرهم

أداء القسم المطلوب ، ولكن البرلمان ، إرتاب فى هذا الاجراء ورفضه ، باعتبار أنه ينطوى ضمنا على سلطة الملك فى الاعفاء من إطاعة القوانين . وعبر الملك عن مشاعره بالإفراج عن الكويكرز المعتقلين (٢٢ أغسطس ١٦٦٢) وبالتوكيد على التسامح الدينى فى المواثيق التى منحها لجزيرة رود وكارولينا ، وفى التعليمات التى وجهها إلى جامايكا وفرجينيا .

وأحس البرلمان أنه ليس ثمة متسع لهذا التسامح فى انجلترا . ولكى يمنع اجتماعات الكويكرز السرية للعبادة ، قال إنها تضم أكثر من خمسة أشخاص بالإضافة إلى أفراد البيت ، وحكم ١٦٦٢ على كل شخص يحضرها بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات ، أو بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ، للمخالفة الأولى ، ومضاعفة العقوبة (١٠ جنيهات غرامة أو ستة أشهر فى السجن) للثانية ، والنفى إلى مستعمرات المجرمين ، للثالثة ، أما المخالفون الذين يعجزون عن دفع نفقات إنتقالهم إلى المستعمرات فكان عليهم أن يخدموا لمدة خمسة سنوات ، مما لا يعقود عمل خاصة . أما المدانون أو المخالفون المرحلون الذين يهربون أو يعودون إلى إنجلترا قبل انقضاء ، المدة المحكوم بها ، فتكون عقوبتهم الإعدام ، وفى ١٦٦٤ امتدت هذه الإجراءات إلى البرسبتيريانز والمستقلين . وحظر « قانون الأميال الخمسة » (١٦٦٥) على القساوسة الذين امتنعوا على حلف اليمين ، أن يقيموا فى نطاق خمسة أميال فى أية مدينة ذات مجلس بلدى ، أو يقوموا بالتدريس ، فى أية مدرسة خاصة أو عامة . وأطلق على هذه القوانين « تشريع كلارندون » لأن الذى فرضها هو كبير وزراء الملك ضد إرادة الملك أو رغباته الصريحة ، وقبل شارل هذه التشريعات الصارمة لأنه كان يناشد البرلمان إقرار الاعتمادات التى طلبها . ولكنه لم يغفر قط لكلارندون ، كما فقد ثقته فى الأساقفة وقل إحترامه لهم ، لأنهم ما لبثوا أن اعيدوا حتى بدأوا ينتقمون أشد الإنتقام ، ويقبضون أيديهم عن البر والإحسان . وانتهى شارل إلى « أن المشيخية ليست مذهبا يليق بالرجل الماجد المهذب ، وأن الأنجليكانية ليست

مذهبا يليق بالرجل المسيحى(٣٩) » .

وإذ أدركت الكنيسة الأنجليكانية اعتمادها على الملكية ، فإنها أكدت من جديد ، وبشكل أكثر إيجابية عن ذى قبل ، « حق الملك الإلهى » ، والإثم العظيم الذى يؤدى إلى الهلاك ، فى مناهضة حكومة ملكية قائمة . وفى ١٦٨٠ نشر كتاب سير روبرت فلمر « سلطة الملوك الطبيعيه المعترف بها » بعد موت المؤلف بسبعه وعشرين عاما ، وأصبح الدفاع القياسى عن النظرية . وفى كتاب أكسفورد « القضاء والقانون » (١٦٨٣) أعلن زعماء الكنيسه الأنجليكانيه أنه « زيف وتحريض على الفتنه ، بل هو هرطقه وتجديف « ومن ثم جريمه عقوبتها الإعدام » « أن يتمسك امرؤ » بأن السلطه مستمدة من الشعب ، وأن الحكام الشرعيين يفقدون الحق فى الحكم إذا أصبحوا طغاة ، وأن الملك ليس له إلاحق مناظر لحق السلطتين الأخرين: مجلس اللوردات ومجلس العموم . وأضاف الكتاب « أن الطاعه العمياء هى سمه كنيسه إنجلترا وخصيصتها(٤٠) » . وتلك كانت نظريه تثير القلق والمتاعب ، عندما حاول جيمس الثانى ، بعد عامين من هذا التاريخ ، أن يحول إنجلترا إلى الكاثوليكيه .

ان الكنيسه الأنجليكانيه ، التى استعادت مكانتها ، على الرغم من تعصبها ، تجلت فيها صفات تدعو إلى الإعجاب ، فقد أباحت آفاقا رحبه للتفكير اللاهوتى بين أعضائها ، ابتداء من « الودبين » (الذين عرفوا فيما بعد بأنهم الذين يؤكدون على الطقوس التقليديه High Churchmen) الذين اقتربوا من المذهب والطقوس الكاثوليكيه ، إلى « المتحررين المتسامحين » (الذين عرفوا فيما بعد باسم ذوى الأفق الواسع — Brood Charchmen) وهم الذين جنحوا إلى لاهوت متحرر ، وأكدوا على الجانب الأخلاق ، لاعلى الجانب المذهبى أو العقائدى ، فى المسيحيه ، ووقفوا فى وجه الاضطهاد ، وسعوا إلى المصالحه وتسويه الخلاف بين البيوريتانيين والمشيخيين والأنجليكانيين . وساعد شارل هؤلاء المتحررين

المتسامحين » وقدر فيهم الإيجاز النسبي فى عظاتهم (٤١) . وكان أعظم هؤلاء المتحررين ، جون تلوتسون ، الذى عينه شارل قسيس القصر ، ثم عينه وليم الثالث رئيس أساقفه كنتربرى (١٦٩١) . وكان رجلا « راجح العقل حلو الشمائل (٤٢) » ، ناهض « البابويه » والإلحاد والاضطهاد بنفس القدر من الحماسه والغيرة ، وتجاسر فبنى المسيحيه على العقل . وكان يقول « لسنا فى حاجه إلى دليل على خطأ إنسان أقوى من أن نسمعه يتهم العقل ويحط من قيمته ، ومن ثم يرى أن العقل ضده (٤٣) » ومال صغار رجال الدين الأنجليكانيين « الكهنه » إلى أن يكونوا الخدم الروحيين للوردات المحليين ، بل حتى لبعض مالكى الأرض ، حتى قاربوا أن ينحدروا إلى وضع العامه (*) . ولكن فى المدن والمناصب الكنسية ذوات الرواتب الأكبر ، اشتهر كثير من رجال الدين الأنجليكانيين بسعه الإطلاع والمقدرة الأدبيه حتى أنهم أخرجوا فيما بعد بعضا من أفضل كتب التاريخ الرسمى فى أوربا . وبصفه عامه سادت روح من الاعتدال المذهبي فى الكنيسه الأنجليكانيه ، أكثر منها بين المنشقين الذين زاد الاضطهاد من تعصبهم لمذهبهم وتزمتهم .

ولم يعان البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسى وحده ، بل إنهم كذلك كانوا موضع سخريه وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضيق والإنزعاج أيام الحكم البيوريتانى بسبب أخلاقياتهم الهينه اللينه الخاليه من التزمت . ولكن البيوريتانيين احتملوا فى جلد وشجاعه دوران عجلة الزمن . وهاجر بعضهم إلى أمريكا ، وأدى كثير منهم القسم المطلوب . وكان ريتشارد باكستر ألمع شخصية بينهم فى ذلك العصر ، وكان رجلا ذا إتجاه معقول ، مستعدا لقبول أيه تسويه لا تخل بلاهوته المتقدم . فإنه على الرغم من إخلاصه الشديد للمذهب البيوريتانى حتى النهايه ، استنكر إعدام شارل

(*) هناك وصف مبالغ فيه لهذا الموضوع فى كتاب ماكولى « تاريخ انجلترا » (١ : ٢٥٢ – ٢٥٥) أنظر لكى « تاريخ انجلترا فى القرن الثامن عشر » (٢ : ٧٥ – ٧٩) .

الأول ، وحكم كرومول حكما استبداديا مطلقا ، وحبذ عودة الملكية . ومنع بعد ١٦٦٢ من الوعظ ، واعتقل مرارا وتكرارا لمخالفته أمر الحظر. وكان من أكثر البيوريتانيين استنارة ، ولكنه مع ذلك استحسن أحراق السحرة فى سالم ومساشوست ، وفكر فى ربه على أساس جعل « مولوخ » (اله سامى كان يعبد عن طريق تضحيه الأطفال على مذبحه) بجانبه ودودا لطيفا من هم الذين كتب لهم الخلاص ؟ ويجيب باكستر : «إنهم فئه قليلة من البشر الضائع ،قدر لهم الله منذ الأزل هذه الراحه(٤٤). وأكد فى عظاته على عذاب الجحيم التى « أوجدها الرب بنفسه » .. إن تعذيب الملعونين المحكوم عليهم بالهلاك ينبغى أن يكون شديداً ، لأنه مظهر الإنتقام الإلهى .. إن العقاب رهيب ، ولكن الإنتقام أمر لا سبيل إلى التخفيف منه(٤٥) » وحرم باكستر الإتصال الجنسى إلا بقصد الإنجاب مع حليلة شرعيه . ومذ رأى أن هذا التقييد يتطلب ضبط النفس على طريقه الرواقيين ، فإنه أوصى بالحمام البارد والتغذى على الخضروات ، للتخفيف من الشهوة الجنسيه(٤٦) وقد نغتفر له لاهوته إذا رأيناه ، وهو فى السبعين من العمر (١٦٨٥) واقفا فى قفص الإتهام أمام القاضى الوحشى الغليظ القلب « جفرى » ، لأنه تفوه ببضع كلمات ضد مزاعم الأنجليكانيين ولم تتح له أيه فرصه للدفاع عن نفسه أو تفسير آرائه ، وحكم عليه بدفع غرامة قدرها ٥٠٠ جنيه ، أو السجن حتى يدفع المبلغ كاملا(٤٧) . وأفرج عنه بعد ١٨ شهرا ، ولكنه لم يسترد عافيته بعد ذلك قط .

وظل الكويكرز يعانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأديه القسم أو لتخلفهم عن الصلوات الأنجليكانيه ، أوعقد الاجتماعات غير المشروعه. وفى ١٦٦٢ كان فى السجون الإنجليزيه أكثر من ٤٢٠٠ منهم : « وحشر بعضهم فى السجن حشراً لايدع مجالا للجلوس وحرموا من فرش القش ليرقدوا عليها ، وكثيرا ما منع عنهم الطعام(٤٨) . ولكن جلدهم ومثابرتهم وتشبثهم أكسبهم المعركة آخر الأمر ، وخفت حدة الاضطهاد عمليا ، إن

لم يكن قانونا • وفى ١٦٧٢ أطلق شارل سراح ١٢٠٠ رجل منهم(٤٩) ، وفى ١٦٨٢ منح أخوه جيمس دوق يورك براءة مقاطعه جرسى الشرقية فى أمريكا ، إلى روبرت باركلى وهو كويكرى اسكتلندى ، و « الصاخب » الكويكرى الغنى « وليم بن » وبعض زملائهم الآخرين .

وكان بن وهو إبن أمير البحر وليم بن الذى استولى على جمايكا لانجلترا. قدمر وهو صبى فى الثانية عشرة بأطوار مختلفة من الانفعال الدينى الذى فوجىء فى أثنائه لفوره براحة فى أعماق نفسه ، وبهالة متألقة فى الغرفة ، إلى حد أنه قال عدة مرات بأنه منذ تلك اللحظة ختم بخاتم القداسة والخلود . « الإيمان الراسخ » بأن هناك الها وأن نفس الإنسان يمكن أن تنعم بهذا الاتصال الإلهى(٥٠) . وفى ١٦٦١ طرد من أكسفورد وحكم عليه بدفع غرامة لأنه رفض حضور الصلوات الأنجليكانية . ولما عاد إلى أبيه أوسعه ضربا بالسياط ، وطرده من المنزل لإعلانه اعتناق مذهب الكويكرز . ثم رق قلب الوالد فبعث بإبنه إلى فرنسا ليتعلم « المرح الباريسى » ، وربما اكتسب من هناك بعض الكياسة والأساليب المصقولة التى تحلى بها ، وفى ١٦٦٦ ارتضى لنفسه اثم الخدمة فى الجيش الإنجليزى الذى يعمل فى ايرلنده ، ولكن بعد عام واحد شهد اجتماعا للكويكرز فى كورك ، والتهبت حماسته من جديد ، فطرد جنديا ضايقه بكثرة الأسئلة فاقتيد إلى السجن ، ومنه كتب إلى حاكم مونستر يلتمس إباحة حرية العبادة. وبعد عودته إلى إنجلترا أحرق مراكبه من خلفه ، وأصبح واعظا كويكريا ، وقبض عليه المرة بعد المرة . ولعبت محاكمته ١٦٦٩ دورا فى تاريخ القانون الإنجليزى . ذلك أن هيئة المحلفين برأته ، فحكم القاضى على المحلفين بالسجن والغرامة بتهمة إهانة المحكمة وإزدرائها . فاستأنف المحلفون أمام محكمة الدعاوى المشتركة ، التى أعلنت عدم شرعيه القبض عليهم ، وكان فى هذا تثبيت لحق هيئة المحلفين وسلطتهم فى انجلترا . ولكن بن أودع السجن ، على أية حال ، لأنه رفض أن يخلع قبعته فى المحكمة . وأخلى سبيله فى الوقت

المناسب ليحضر وفاة أبيه (١٦٧٠) ، وقد ترك له دخلا يقدر بألف وخمسمائة جنيه فى العام ، ودينا على التاج قدره ١٦ ألفا من الجنيهات أقرضه أبوه لشارل الثانى وأعيد إلى السجن لقيامه بإلقاء العظات، وفيه كتب أبلغ دفاع عن التسامح تحت عنوان « القضية الكبرى لحرية الضمير » ، (١٦٧١) ، وفى احدى الفترات التى تمتع فيها بالحرية تزوج من امرأة ثرية ، واشترى حصة فى النصف الغربى لما يعرف الآن بولاية نيوجرسى . وصاغ لهذه المستعمرة دستورا يؤكد فيه على التسامح الدينى وسلطة المحلفين فى التحقيق والحكومة الشعبية ، ولكن الزمام أفلت من يده ، ولم تطبق مواد هذا الدستور .

وفى ١٦٧٧ عبر بن وجورج فوكس وروبرت باركلى وجورج كيث القنال الإنجليزى ليبشروا بمذهب الكويكرز فى القارة . وأسس جماعة من « كرهيم » ممن حولهم بن إلى مذهبه، مدينة « جرمانتون » ، فى بنسلفانيا، وكانوا أول من أعلن أنه من الخطأ أن يكون للمسيحيين رقيق . ورجع بن إلى انجلترا ، وأخذ زمام المبادرة فى منع الكويكرز من الإنضمام إلى حركة اضطهاد الكاثوليك من أجل ما يسمى « بالمؤامرة البابوية » . وكان « خطابه إلى البروتستانت من جميع المذاهب » (١٦٧٩) نداء قويا للتسامح الدينى فى أكمل صوره . وفى ١٦٨١ قبل التاج اقتراح بن التنازل عن حقه فى المطالبة بالدين ، لقاء منحه ما يعرف الآن باسم بنسلفانيا . أن بن اقترح اسم « سلفانيا » للجزء المترامى الأطراف الكثيف الأحراش ، فالحق شارل الثانى « مقطع » بن « بهذه اللفظة » تخليدا لذكر أمير البحر . وعلى الرغم من الخضوع التام للملك ، فان حكومة المستعمرة الجديدة كانت ديموقراطية، وكانت العلاقة مع الهنود دودية قائمة على العدل والإنصاف ، كما أطاق الكويكرز، وهم يشكلون غالبية المستوطنين ، الحرية الدينية . وعمل بن فى هذه المستعمرة بجد لمدة عامين ، ولكنه فى ١٦٨٤ سمع بنبأ اضطهاد جديد عنيف تتعرض له طائفته . فأسرع بالعودة إلى لندن . وهناك بعد عام واحد أصبح صديقه دوق يورك ملكا على إنجلترا ، وهو جيمس الثانى ، كما صار بن من ذوى

النفوذ والمكانة فى الحكومة ، ولنا معه لقاء آخر .

أن طريق المقاومة السلبيه الذى انتهجه الكويكرز ضد الاضطهاد كان أكبر قوة فعاله ساعدت على التسامح الدينى فى عصر التعصب ، وقدر أحد المنشقين أنه كان هناك ستون ألف حاله اعتقال بسبب الخلاف الدينى بين عامى ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضوا نحبهم فى السجن(٥١) . وكان تعصب البرلمان أسوأ من فجور البلاط والمسرح . وذكر مؤرخ كتب التاريخ مثل ما صنعه تقريبا « فى هذه الفترة الدقيقة الحرجة » كاد الملك أن يكون الصوت الوحيد الرحيم الذى ينادى بآراء عصرية حديثة ودأب طوال حكمه على النضال من أجل التسامح(٥٢) وفى ١٦٦٩ عندما صدر الحكم على ثلاثه أشخاص بدفع غرامة كبيرة للتاج ، بناء على قانون قديم صدر فى عهد الملكة اليزابيث ، لتخلفهم عن حضور الصلوات الأنجليكانية ، أعفاهم شارل من دفعها ، وأعلن أنه لن يسمح بتطبيق هذا القانون بعد اليوم « لأنه من رأيه وقناعته الخاصة أنه لا يجوز أن يضار أحد بسبب تفكيره وما يمليه عليه ضميره(٥٣) » .

وكان من المحتمل أن يقر وجهة نظر الملك فى التسامح عدد متزايد من الانجليز ، لولا أنهم كانوا يرتابون فى رغبته فى التخفيف من ويلات الكاثوليك فى انجلترا التى كانت لا تزال تخشى سيطرة البابا ، ومحاكم التفتيش الأسبانية وحكومة القساوسة ، إلى حد أن البرسبتيريانز والبيوريتانيين آثروا تحريم عبادتهم على السماح بالعبادة الكاثوليكية فى انجلترا . وكان الانجليز الكاثوليك يشكلون آنذاك نحو ٥ ٪ من السكان(٥٤) . وكانوا من الناحية السياسية ضعافا عاجزين . ولكن الملكة كانت كاثوليكية ، كما أن شقيق الملك لم يبذل إلا أيسر الجهد فى إخفاء تحوله إلى الكثلكة (١٦٦٨) وكان فى انجلترا حينذاك ٢٦٦ من اليسوعيين . كان أحدهم أبنا غير شرعى للملك ، وبدأوا يظهرون علنا فى جرأة وثقة . على الرغم من القوانين البالغة التشدد . وكانت المدارس الكاثوليكيه تقام فى الدور الخاصه .

وأرهقت انجلترا . وأقام البروتستانت في كل عام عرضا تظاهروا فيه ضد البابوية ، وحملوا إلى « سميثفيلد » تماثيل للبابا والكرادلة ، أحرقوها هناك. أنهم لم ينسوا « جي فوكس » . ولكن الكاثوليك صبروا وصابروا ولم يفقدوا الأمل ، فمن الجائز الآن أن يرقى كاثوليكي عرش انجلترا في أية لحظة

٣ — الاقتصاد الانجليزى ١٦٦٠ — ١٧٠٢

قدر عدد سكان انجلترا وويلز في ١٦٦٠ بنحو خمسة ملايين نسمة(٥٥) ربما ازداد إلى خمسة ملايين ونصف المليون في ١٧٠٠ (٥٦) ، أي أنه لا يكاد يبلغ ربع عـــدد سكان فرنسا أو ألمانيا ، وأقل من ربع سكان إيطاليا أو أسبانيا ٥٧) . وكان سبع السكان من طائفة « اليومن » ، أي صغار مالكي الأرض الأحرار الذين يملكون الأرض التي يفلحونها ، وشكل المزارعون المستأجرون الذين يعملون في أراضي النبلاء وذوي الحسب والنسب ، نحو سبع آخر من السكان . أما بقية السكان فكانوا يقيمون في المدن .

وبازدياد السكان نقص نصيب الأسرة من الخشب ، وتزايد استخدام الفحم في البيوت والحوانيت ، وتطور علم المعادن واستخراجها من المناجم. وأصبحت شفيلد مركزاً لصناعة الحديد، وسرت في انجلترا حمى الانتاج وجمع الثروات ، وتوسل أصحاب المصانع إلى البرلمان أن يصدر تشريعات ترغم العاطلين الكسالى على مزاولة العمل ، وتزايد تشـــغيل الأولاد في الصناعات المحلية ، وبخاصة النسيج ، وتهلل وابتهج ديفو لأنه في كولشستر وتونتون» لم يكن ثمة ولد فوق الخامسة من العمر ، في المدينة أو فيما حولها من القرى ، أهمله والده أو لم يتلق تعليما ، إلا استطاع أن يكسب قوته » وبالمثل حول « وست رايدنج » : « لا يكاد يوجد ولد جاوز الرابعة إلا كفته يداه مؤونة العيش(٥٨) » .

وكان معظم الصناعة يتم في المنازل أو في حوانيت الأسرة ، وحدث

توسع فى نظام المصانع فى النسيج والحديد . وتذكر نشرة ظهرت فى ١٦٨٥ كيف أن « أصحاب المصانع يشيدون بتكاليف باهظة ، دوراً ضخمة تضم كل القائمين بعمليات صناعة الصوف ، من فرز وتمشيط وغزل ونسج وكبس بل وصباغة ، فى صعيد واحد » . وقيل أنه كان هناك مصنع من هذا القبيل يعمل فيه ٣٤٠ شخصا . وكان فى جلاسجو فى ١٧٠٠ مصنع نسيج يضم ١٤٠٠ عامل(٥٩) . وكان تقسيم العمل والتخصص فيه آخذين فى التقدم ، وكتب سير وليم بتى فى ١٦٨٣ « فى صناعة الساعة » ، إذا قام فرد بعمل التروس ، وآخر يصنع الزنبرك ، فثمه ثالث يحفر القرص المدرج ، ورابع يتولى صناعه الأغلفه ومن ثم تخرج الساعه أحسن وأرخص مما لو كاف بالعمل كله فرد واحد(٦٠) .

وظلت أجور الأعمال الزراعية يحددها الحكام المحليون وفقا لقانون الغلمان المهنيين « الذى صدر فى ١٥٨٥ فى عهد اليزابث ، فإذا دفع رب العمل ، أو أخذ العامل ، أكثر من الأجر المحدد ، تعرض كلاهما للعقاب . وتراوحت أجور الأعمال الزراعية فى تلك الفترة بين خمسة وسبعة شلنات فى الأسبوع مع الإقامة والطعام(٦١) . أما الصناعة فكانت الأجور فيها أعلى قليلا . فكان الأجر اليومى شلنا فى المتوسط ، وربما كان هذا ، من حيث القيمة الشرائية ، يعادل ، دولارين ونصف دولار فى ١٩٦٠ . أما أجور المساكن فكانت منخفضة نسبيا ، حيث كان ايجار البيت المتوسط الاتساع فى لندن يبلغ نحو ٣٠ جنيها فى السنة(٦٢) . وكانت البيرة رخيصة الثمن ، أما السكر والملح والفحم والصابون والأحذية والملابس ، فكانت أثمانها فى ١٦٨٥ تعادل أثمانها فى ١٨٤٨(٦٣) . وازدادت أسعار الحبوب إلى خمسة أمثالها بين عامى ١٥٠٠ و ١٧٠٠(٦٤) . وأكلت طبقات العمال خبز الجاودار والشعير والشوفان ، أما خبز القمح فكان ترفا ينعم به ذوو اليسار ، ونادرا ما ذاق الفقراء اللحم . واعتبر الفقر الذى كان عليه جمهور الشعب أمرا عاديا ، ولو أنه ربما كان أشد منه فى أخريات العصور الوسطى(٦٥) . ويقول ثورولد روجرز :

« سعى مالكو الأرض طوال القرن السابع أن يحصلوا من مستأجرى الأرض على أكبر مايستطيعون من ايجار ، وبأقصى مايمكن من قوة فرضوا على العمال أجورا تؤدى بهم إلى الجوع والعوز ، وبذلوا قصارى جهدهم فى استغلال التشريع ليحصلوا من المستهلك على أسعار عالية تقرب الناس من حافة المجاعة والقحط . والتاريخ زاخر بالشواهد الكثيرة على تفاقم الحال يوما بعد يوم(٦٦) » .

وفى ١٦٩٦ قدر جريجورى كنج أن ربع سكان انجلترا كان يعيش على الصدقات ، وأن الأموال التى تجمع لإعانة الفقراء كانت تعادل ربع تجارة الصادرات(٦٧) . وقهر الأغنياء الفقراء وغلبوهم على أمرهم إلى حد بات معه الأجراء والفلاحون أضعف من أن يثوروا ويتمردوا ، ولمدة نصف قرن خمد صراع الطبقات فى انجلترا(٦٨) .

أما الكنيسة الانجليكانية التى كانت قد تجاسرت أيام شارل الأول على أن تدافع عن الفقراء من وقت لآخر ، فقد خلصت الآن ، نتيجة للثورة البيوريتانية ، إلى أن مصالحها تحقق على أحسن وجه ، إذا ربطتها بمصالح طبقات الملاك ربطا تاما(٦٩) . وكان البرلمان شكلا من ائتلاف بين مالكى الأرض وأصحاب المصانع والتجار والرأسماليين . ومن ثم أصغى ، بحكم شعور الزمالة المتبادل ، إلى صيحات طبقة أرباب العمل ليخلصهم من القوانين التى تعوق انطلاق القوى الاقتصادية للعمل دون قيود . وقبل نهاية القرن السابع عشر ، وقبل ظهور آدم سميث بزمن طويل ، سمعت انجلترا صيحة رب العمل « اتركه يعمل » (سياسة عدم التدخل) من أجل الحرية الاقتصادية ، وتخلص أرباب العمل من العوائق القانونية والإقطاعية والنقابية ، فى تشغيل العمال والإنتاج والتجارة(٧٠) ، وتجاوزوا القيود النقابية وانهارت النظم المهنية ، وبطل العمل بتحديد الأجور عن طريق الحكام المحليين ، بفعل القوة النسبية للمساومة بين أرباب العمل الأثرياء والعمال الجياع(٧١) . إن الأيديولوجيه الحديثه للحريه ، بدأت هنا الآن ، حين طالب المقاولون

والملتزمون المغامرون ، في صخب وغضب ، بالتحرر من القيود القانونيه والأخلاقيه .

وباتت التجارة الآن عنصرا هاما فعالا في الاقتصاد الإنجليزي ، وعاملا حيويا في حصول البرلمان على الاعتمادات التي يقررها ، إلى حد أنها ، أي التجارة ، شقت طريقها لتفعل ما تشاء مع حكومه يسيطر عليها مالكو الأرض . وأصبح التشريع الإنجليزي في التجارة ، يحابي الإنجليز لا على حساب الهولنديين وحدهم ، بل على حساب الايرلنديين والاسكتلنديين كذلك ، وحرم استيراد الماشية والأغنام والخنازير من ايرلندة واستبعد الغلال الاسكتلندي ، وفرضت ضرائب ثقيلة على واردات اسكتلنده . إن الرغبه في التوسع في التجارة الإنجليزيه وتوفير الحمايه العسكريه لها ، هي التي حثت على التحالف مع البرتغال ، وزواج شارل الثاني من كاترين براجانزا ، وعلى تجدد الحرب مع المقاطعات المتحدة ، والتصميم على الاحتفاظ بجبل طارق . وتضاعف حجم تجارة إنجلترا بين عامي ١٦٦٠ و١٦٨٨ ، بسبب الانتصار على الهولنديين ، إلى جانب أسباب أخرى(٧٢) ، وكتب شارل الثاني إلى أخته يقول : « إن أقرب شيء إلى قلب هذه الأمة هو التجارة وكل ما يتعلق بها(٧٣) » . وبات ثراء التجارة ينافس الآن اقتناء الأراضي الواسعة الطيبة.

ومدت المشروعات المغامرة الإنجليزية أذرعها في كل اتجاه ، فاتسعت المستعمرات الجديدة في نيويورك ونيوجرسي ومنسلفانيا وكارولينا وكندا ، ومنحت شركة الهند الشرقية كل الحقوق فيما تستطيع أن تضع يدها عليه في الهند ، وكان لهذه الشركة أسطولها وجيشها وحصونها وعملتها وقوانينها ، وكانت تعلن الحرب وتفاوض لعقد الصلح ، وتم الاستيلاء على بمباى بالمصاهرة في ١٦٦١ ، وعلى منهاتان (في نيويورك) بحق الفتح في ١٦٦٤ . وفي العام نفسه استولى الإنجليز على الممتلكات الهولندية على الساحل الغربي لأفريقية . ومن أجل تزويد هذه المستعمرات بالأيدي العاملة نشأت عادة « الإكراه » وهي إغراء الشبان الإنجليز بالعمل في هذه « المزارع » بتقديم الخمر لهم أو ضربهم حتى يفقدوا وعيهم ، وعندئذ يحملونهم إلى ظهر سفينة

على وشك الإفلاس ، ثم يوضحون لهم فيما بعد أنهم كانوا قد وقعوا فقدا العمل(٧٤) . إن القانون حرم هذا الإجراء ، ولكنه لم ينفذ . وكان موقف البرلمان واضحا ، فإنه على حين انتهت ثورتا ١٦٤٢ — ١٦٤٩ و ١٦٨٨ — ١٦٨٩ إلى تغلب البرلمان على الملك ، حدثت فى نفس الوقت ثورة إقتصادية متزامنة انتهت بسيطرة التجارة والصناعة والمال على البرلمان .

وكان فى انجلترا فى تلك الأيام مئات من « الصائغين أصحاب المصارف » (مقرضو النقود) الذين يدفعون ٦٪ أرباحا على الودائع ، ويتقاضون ٨٪ على القروض(٧٥) . وكان شارل الثانى يلتمس أى منفذ لتجنب سلطة البرلمان على الخزانة ، فلجأ إلى الاستدانة كثيراً من أصحاب المصارف هؤلاء ، حتى بلغت ديونه منهم فى ٢ ينـاير ١٦٧٢ ، ١،٣٢٨،٥٢٦ جنيها(٧٦) ، وفى هذا التاريخ كان مجلس الملك على وشك أن يشن الحرب على المقاطعات المتحدة فأحدث فى مجتمع المال هزة عنيفة « باغلاق خزانة الدولة » أى منع تسديد فوائد ديون الدولة لمدة عام . فساد الذعر ، ورفض أصحاب المصارف الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الودائع ، أو تنفيذ إتفاقاتهم مع التجار ، وعمل المجلس على تهدئة العاصفة بوعود قاطعة باستئناف الدفع فى نهاية العام . واستؤنف الدفع فى ١٦٧٤ ، وسدد رأس المال عن طريق تعهدات والتزامات حكومة جديدة . والواقع أنه فى ٢ يناير ١٦٧٢ تحددت بداية الدين الوطني فى انجلترا ، وتلك حيلة جديدة فى تمويل الدولة .

ومذ باتت لندن موطن أصحاب المصارف وأمراء التجارة ومركز الثروة المجموعة عن طريق نظام الأسعار ، من منتجى الطعام والسلع ، فإنها كانت الآن أكثر مدن أوربا اكتظاظا بالسكان ، فنافست قصور رجال الأعمال قصور الأرستقراطية فى البذخ والترف ، إن لم يكن فى الذوق . وكانت فيها مجموعة من المخازن بشاراتها الفاتنة ولافتاتها المزخرفة ونوافذها ذات العمد الحجرية ، تعرض منتجات العالم(*) أمام أنظار الأقلية ، ورصفت

(*) حوالى هذه الفترة بدأت النوافذ الزجاجية تحل محل النوافذ القديمة ذات الاطارات

الشوارع الرئيسية وحدها بالحصى عادة وحوالى ١٦٨٤ أضيئت بنور ضعيف حتى منتصف الليل فى الليالى غير المقمرة بقناديل يعلق واحد منها كل عشرة أبواب . ولم يكن فى الشوارع أرصفة للمشاة ، وكانت نهاراً تعج بالحركة الصاخبة من الباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم فى سلال أو عربات يد ، أو عجلات يد ، وبالمنادين الذين يعرضون القيام بخدمات منزلية مثل « قتل الفيران والجرذان(٧٧) » . وكان هناك المتسولون واللصوص فى كل شارع ، كما وجد أيضاً المغنون الذين يرفعون عقيرتهم بالأغنيات من أجل الحصول على بنس . وكان حى الأعمال يسمى « السيتى » . وكان يحكمه عمدة وهيئة البلدية ومجلس ينتخب أرباب البيوت فى الأحياء أعضاءه . وإلى القرب من هذا الحى ، كان يقع « الحى السياسى » وستمنستر ، وفيه الكنيسة والقصر اللذان يحملان هذا الاسم (وكان القصر مقر البرلمان) ، وفيه القصران الملكيان هويتهول وسانت جيمس . وخارج هذين القسمين من المدينة كانت أحياء الأكواخ التى تعج بالفقراء الكثيرى التناسل . ولم تكن الشوارع فيها مرصوفة فكانت العربات ترش ، مزهوة ، ماء المطر أو الوحل على المشاة ، وهى تصطدم بالجدران فى الأزقة الضيقة . وكانت المنازل متقاربة جداً بعضها من بعض ، والأدوار العليا متلاصقة متقابلة ، مما لا يدع مجالا لضوء الشمس المتقطع أن ينفذ إليها . ولم يكن نظام المجارى الحالى معروفا فى لندن آنذاك ، بل كانت مراحيض خارجية وبالوعات ، وكانت العربات تحمل الفضلات وتقذف بها خارج حدود المدينة ، أو فى نهر التيمز بطريقة خفيه غير مشروعة

وكان تلوث الهواء آنذاك بالفعل مشكله وبناء على طلب الملك أعد جون افلسين ونشر فى ١٦٦١ خطه لتبديد الدخان الذى علق بسماء لندن ، قال :

« إن الاسراف فى استخدام الفحم يعرض لندن لأسوأ الازعاج والخزى

= الخشبية الثقيلة ، لأن الزجاج يسمح بنفاذ قدر أكبر من الضوء .

والعار ، وليس هذا ناشئا من نيران المطابخ التى لايكاد يرى لها أثر ، بل من بعض مداخن معينة فى مصانع البيرة ومعامل الصباغة وإحراق الجير ، ومصانع الملح وغلى الصابون وبعض مصانع أخرى ، تكفى فوهة إحدى المداخن فيها ، وحدها وبشكل واضح ، لتلويث الهواء وإزعاج لندن أكثر مما تفعل كل مداخن المدينة مجتمعة ... إن لندن تكون أقرب شبها ببركان اتنه أو بضواحى جهنم ، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات عاقلة ، حين تفتح هذه المداخن أفواهها وتنفث القتام والسخام ... أن السائح المنهوك سرعان مايشم ، من مسافة عدة أميال ، رائحة المدينة التى يقصد إليها ، قبل أن يراها ... أن هذا الدخان الأسود الكريه ... يقرح الرئتين ، وهذا داء لا شفاء منه ، إلى حد أنه يقضى على أعداد كبيرة من الناس ، نتيجة السل المنهك الخطير ، كما ينبىء بذلك نشرات الوفيات الأسبوعية(٧٨) » .

وأعد ايفلين مشروع قانون للبرلمان الذى كان أقرب منالا لرجال الصناعة الأثرياء منه للجمهور الذى يعوزه التنظيم ، ومن ثم لم يحرك هذا البرلمان ساكنا . وبعد ثلاثة عشر عاما سويا رفع سير توماس براون صوت الطب عاليا ، يحذر من :—

« الروائح الكريهة التى تنفثها البالوعات العامة ، والأماكن المنتنة وفضلات المواد المغلية التى تستخدمها المصانع القذرة غير الصحية كما أن الضباب والسديم يعوقان دخان الفحم من أن يهبط ويتبدد ، ومن ثم يمتزج بالسديم ويتنفسه الناس ، ولكل هذا آثار سيئة ، حيث يلوث الدم ويعرض السكان للنزلات الشعبية والسعال(٧٩) » .

إن الهواء الفاسد ، وضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية كان يهدد بانتشار الأوبئة فى كل عام وما أن تجىء فترة تتجمع فيها ظروف غير مواتية ، حتى تنزل كارثة الطاعون . وفى ٣١ أكتوبر ١٦٦٣ دون بيبز فى مذكراته : « أن الطاعون منتشر فى أمستردام ، ونحن فى فزع منه هنا » . وكانت السفن القادمة من هولنده تخضع للحجر الصحى ، وفى ديسمبر ١٦٦٤ مات شخص واحد بالطاعون فى لندن ، واثنان فى أبريل ١٦٦٥ ،

وفى مايو ٤٣ شخصاً ، وهكذا تفاقم الحال حتى حل الصيف الحار مع مطر قليل يساعد على تنظيف الشوارع ، فكان ضغثا على إبالة ، وأيقنت لندن التى ملأها الفزع والجزع ، أنها تواجه شيئاً شبيها بالموت الأسود ١٣٤٨ الذى لا تزال ذكراه عالقة بالأذهان . وكان ديفو آنذاك صبيا فى السادسة ، ولكنه استطاع أن يعى قدرا كبيراً مما تردد فى هاتيك الأيام عن الطاعون : فكتب قطعة خيالية بعنوان « صحيفة عام الطاعون » تكاد تكون فى منزلة التاريخ(٨٠) :

« منذ الأسبوع الأول من يونيه انتشرت العدوى بصورة رهيبة ، وارتفعت أرقام الوفيات ، وعمد الناس إلى إخفاء قلقهم قدر الطاقة ، حتى يحولوا دون ابتعاد جيرانهم عنهم ، أو دون إغلاق الحكومة لبيوتهم . وفى يونيه تزاحم الأغنياء على مغادرة المدينة ، وفى هويتشا بل ما كان يمكن أن ترى إلا العربات ، وعربات اليد تحمل البضائع والنسوة والأطفال وغيرهم ، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الرجال على ظهور الخيل .. وهو منظر رهيب كئيب(٨١) » .

وزادت النذر والتنبؤات عن المصير المشئوم من الرعب ، وأغلقت المسارح وحلبات الرقص والمدارس ودور المحاكم . وانتقل الملك وحاشيته فى يونيه إلى أكسفورد « حتى يحوطهم الله برعايته إن شاء » دون أن يمسهم سوء ، ولو أن صيحات التأنيب تعالت ضدهم لأنهم هم الذين جلبوا هذا البلاء ، عقابا من عند الله ، على فسادهم وفجورهم ، وبقى رئيس أساقفة كنتربرى فى مقره فى لامبث ، ينفق فى كل أسبوع عدة مئات من الجنيهات عونا للمرضى والأموات . وبقى موظفوا المدينة فيها يقومون بأعمال بطولية . وأرسل الملك ألف جنيه ورجال الأعمال فى « السيتى » ستمائة جنيه أسبوعيا ، وهرب كثير من الأطباء ورجال الدين ، وبقى آخرون وقضى كثيرون نحبهم متأثرين بالعدوى . وجرب الناس الأدوية والعلاجات على اختلاف أنواعها ، فلما أخفقت لجأوا إلى التمائم والتماويذ التى قد تصنع

المعجزات . وفى ٣١ أغسطس ١٦٦٥ قال بيبز « فى هذا الأسبوع مات ٧٤٩٦ شخصا منهم ١٦٠٢ بالطاعون » . وكان حفارو القبور يحملون من يموتون فى الشوارع على عربات اليد ، ويدفنونهم فى مقابر عامة . وبلغت جملة من ماتوا بالطاعون من أهالى لندن فى ١٦٦٥ ، نحو سبعين ألفا ، وهذا سبع السكان . وخف الوباء فى ديسمبر ، وعاد الناس لمزاولة أعمالهم شيئاً فشيئاً . وفى فبراير ١٦٦٦ عادت الحاشيه إلى العاصمة .

وما كاد السكان الباقون على قيد الحياة يروضون أنفسهم على احتمال ما كلفهم الطاعون من خسائر حتى داهمت المدينة كارثة اخرى . وكانت كارثة حقا ، ذلك أنه فى يونيه ١٦٦٦ أبحر الهولنديون فى جرأة إلى التيمز ودمروا المراكب الإنجليزية فيه بمدافع سمع صوتها فى لندن . ولكن فى الساعة الثالثة من صباح الأحد ٢ سبتمبر ، فى حانوت خباز فى بودنج لين ، شب حريق ، أتى فى ثلاثة أيام على معظم الجزء من لندن الواقع شمال النهر . ومرة أخرى تآمرت الظروف وتجمعت المصائب : صيف جاف ، وبيوت كلها تقريباً مبنية من الخشب ، متلاصقة ، كثير منها خال من السكان الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع فى الريف ، مخازن ملاى بالزيت والقار والقنب والكتان والخمور وغيرها من المواد القابلة للاحتراق فى الحال ، ثم هبت ريح عاصفه حملت النار من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، أضف إلى ذلك سوء التنظيم وعدم الاستعداد لمواجهه مثل هذا الحريق فى مثل هذا الوقت من الليل . ومن حسن حظ ايفلين أنه كان فى سوثوارك ، فأسرع إلى شاطىء النهر .

« حيث شهدنا المدينة بأسرها وقد اندلع فيها اللهب الرهيب بالقرب من الماء ، فى كل الدور من جسر لنـــدن ، وفى شارع التيمز ، صعدا نحو تشيسيد ... وامتدت النيران فى كل مكان ، وعرت الدهشة الناس ، إلى حد أننا لم ندر منذ البداية ، ماذا تولاهم من قنوط وجزع حتى أنهم بشق النفس تحركوا لاخمادها ، فلم نكن نسمع أو نرى إلا الصرخات والعويل والنواح

وهم يجرون هنا وهناك ، ذاهلين مخبولين . كذلك أحرقت النار الكنائس والقاعات العامة ، وسوق الأوراق المالية والمستشفيات والآثار والزخارف والبيوت والأثاث أنها أتلفت كل شيء ...»

وهنا رأينا النهر مغطى بالبضائع الطافية فوق الماء والزوارق والقوارب محملة بالبضائع التي وجد بعض الناس فسحة من الوقت وأوتوا شيئاً من الشجاعة لانقاذها . كما كان هناك على الجانب الآخر العربات وغيرها ، تنقل إلى الحقول ، التي انتشرت لمدة أميال كل المنقولات من كل نوع ... كما نصبت الخيام ليأوى إليها الناس وما استطاعوا أن يستخلصوه من بضاعة ومتاع . ياالهول المنظر الأليم المفجع الذى لم تصادف الدنيا مثله منذ بدء الخليقة . وغطت ألسنة النيران وجه السماء ، فبدت وكأنها أتون ملتهب ... انى أرجو الله ألا تقع عيناى ثانية على مثل هذا المنظر ، منظر أكثر من عشرة آلاف بيت تحترق كلها فى لحظة واحدة وكان صوت اللهب المندلع وفرقعته ورعده ، وصراخ النساء والأطفال ، وهرولة الناس ، وسقوط الأبراج والمنازل والكنائس ، أشبه شيء بعاصفة هوجاء ، وكان الهواء ساخناً إلى حد أن الناس اضطروا إلى الوقوف جامدين ، تاركين النار يشتد أوارها ، وتمتد ألسنتها لمسافة تقرب من ميلين طولا وميل عرضا(٨٢) » .

وأبلى الملك وأخوه المكروه جيمس ، كلاهما ، بلاء حسنا فى هذه الأزمة ، وجدوا فى العمل بأيديهم مع مكافحى النيران ، وأشرفوا على أعمال الإغاثة ومولوها وهيأوا المأوى والطعام لمن بأتوا بلا مأوى ، وأصروا ، برغم المعارضة الشديدة ، على هدم البيوت ليحولوا دون امتداد الحريق ، مما كان له أثره فى انقاذ جزء من المدينة فى شمال التيمز(٨٣) وكاد الحى التجارى أن يمحى عن آخره ، أما حى السياسة « وستمنستر » ، فقد أنقذ ، ودمر ثلثا مدينة لندن ، بما فى ذلك ١٣٢٠٠ منزل ، ٨٩ كنيسة بما فيها كنيسة سانت بول العتيقة ، ولقى ستة أشخاص فقط مصرعهم ، ولكن مائتى ألف شخص فقدوا مساكنهم(٨٤) . ودمرت معظم المكتبات واحترق من الكتب

ما قيمته ١٥٠ ألف جنيه . وقدر مجموع الخسائر والأضرار بنحـو ١٠٫٧٣٠٫٠٠٠ جنيه(٨٠) ، وهو ما ربما يعادل اليوم ٥٠٠ مليون دولار .

وبعد الكارثة نظم المجلس البلدى فى لندن إدارة المطافىء ، وركبت خراطيم الماء فى أنابيب الماء الرئيسية . وكان على كل شركة أن تعين بعض أعضائها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتشغيلها لدى سماع أى انذار ، وكان على كل العمال أن يحذوا حذوهم إذا استدعاهم عمدة المدينة . وأعيد بناء لندن فى شىء من التمهل ، على طراز أمتن وأقوى ، وإن لم يكن أجمل من ذى قبل . وبأمر من الملك حل الطوب والحجر محل الخشب ، واختفت الطوابق العليا الناتئة ، وأصبحت الشوارع أوسع وأكثر استقامة ، ورصفت بالحجر السلس الأملس ، وخصصت الطوارات للمشاة . وتحسنت الرعاية الصحية . وقضت النيران على كثير من الأقذار والفيران والبراغيث والجراثيم فتخلصت لندن من الطاعون ، وجدد المهندس المعمارى « رن » بناء كنيسة سانت بول .

٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠-١٧٠٢

ولد كرستوفر رن Wren فى أحضان الدين ، ورضع لبان العـلم ، وتوجه بالفن . كان أبوه كبير كهنة وندسور ، وعمه أسـقف الى Ely ، والتحق بمدرسة وستمنستر ، ثم كلية وادهام فى « أكسفورد » وفى ١٦٥٣ حصل وهو فى الحادية والعشرين على منحة لمتابعة الدراسة فى كليـة « جميع النفوس » . ثم أصبح فى سن الخـامسة والعشرين أستاذا للفلك فى كلية جريشام فى لندن ، وفى سن التاسعة والعشرين شغل « كرسى » « سافيل » للفلك فى أكسفورد . وبدا أنه وهب نفسه للعلم ، فقد سحرت لبه الرياضيات والميكانيكا والبصريات والأرصاد الجويه والفلك . فقوم السيكلويد (وجد أن الخط المستقيم مكافىء لانحناء السيكلويد) . وشرح قوانين التصادم ، ونسب إليه نيوتن كثيرا من التجارب التى أدت إلى وضع قوانين الحركة الثلاثة(٨٦) . وعمل بجـد على تحسين التلسكوب وصقل

العدسات وبحث فى دوائر زحل . وابتكر طريقة لتحويل الماء المالح إلى ماء عذب ، وأدى من أجل بويل أول عملية حقن للسائل فى مجرى الدم فى الحيوان . وأثبت أن الحيوان يمكن أن يعيش بسهولة بعد إزالة طحاله . واشترك مع توماس ولس Willis فى تشريح المخ • وأعد الرسوم اللازمة « لتشريح ولس المشهور » وكان من أوائل أعضاء « الجمعية الملكية » وهو الذى كتب مقدمة ميثاقها • وما كان أحد ليحلم أنه سيخلد فى التاريخ على أنه أعظم مهندس معمارى انجليزى .

أن الظروف قد تغير مجرى الحياة • وربما كانت مهارة رن فى الرسم هى التى حدت بشارل الثانى إلى تعيينه مساعدا لسير جون دنهام (١٦٦١) رئيس المساحة فى الأشغال العامة . وسرعان ما وجد فى العمارة ذلك التزاوج بين العلم والفن ، أى اضفاء الجمال على الحقيقة ، وهذا هو ما كان يشغل كل تفكيره . وكتب يقول : « هناك لونان من الجمال : الجمال الطبيعى والجمال المألوف أو العادى المتعارف عليه • والجمال الطبيعى تأتى لنا به الهندسة ، أما الثانى ، الجمال المألوف ، فإنه يتأتى من ترويض حواسنا على الأشياء التى تبعث السرور والبهجة عادة ... فى نفوسنا ولكن المعيار الحقيقى دائما هو الجمال الطبيعى أو الجمال الهندسى[٨٧] » • فالشىء الصحيح هندسيا ، كما يرى رن ، يسرنا هو نفسه ، ويكون جميلا (أحد الجسور الكبرى فى العالم مثلا) • ومن هذه الزاوية آثر العمارة الكلاسيكية على العمارة القوطية • وفى تصميماته الأولى ترسم خطى اينجو جونز .

وفى ١٦٦٣ وضع تصميم مسرح شلدون فى أكسفورد للأسقف جلبرت شلدون ، وهنا منذ البداية ، اتبع مبادىء كلاسيكيه • فرفع المسرح الدائرى الضخم ، على نفس الطراز الذى وضعه فتروفيوس فى قديم الزمان وفينولا فى عصر النهضه • وساعدت إقامته الطويلة فى فرنسا ١٦٦٤ — ١٦٦٦ على ترسيخ ميوله الكلاسيكيه • ولكن إعجابه بكنيسه فرنسوا مانسارت فى فال - دى - جراس ، جنح به إلى إضافه شىء من زخارف الباروك إلى

واجهات مبانيه . كما أنه تذكر قبه فال ـ دى ـ جراس ، وهو يعيد بناء كنيسه سانت بول .

وعاد رن إلى لندن فى مارس ١٦٦٦ . وفى أبريل ، بناء على طلب الأسقف شلدون وضع خطة لإصلاح الكاتدرائية المتداعية ، التى سامخت من العمر آنذاك نحو ٦٠٠ عام . وفى ٢٧ أغسطس وافقت لجنة اصلاح كنيسة سانت بول على مشروع رن . ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى دمر حريق لندن التاريخى الكنيسة ، وجرى الرصاص الذى أذابته النيران من سقفها فى الشوارع .

أن هذا الحريق الذى أتى على ثلثى العاصمة هيأ للعمارة فرصة لم تتح لها منذ حريق رومه . وكانت النيران لاتزال كامنة تنفث الدخان حين عرض رن على شارل الثانى مشروعه الرائع لإعادة بناء المـــدينة . وقبل الملك المشروع ، ولكن أعوزه المال اللازم له ، كما أن المشروع تعارض مع حقوق الملكية القوية . وشغل رن نفسه بمشروعات أخرى ، وأعد فى ١٦٧٣ تصميما لكنيسة سانت بول جديدة . ولكن رجال الكاتدرائية اعترضوا بأن التصميم تبدو عليه سيماء معبد وثنى ، وحثوا رن على التزام الطراز القوطى فى الكنيسه العتيقة ، ووافق كارها على حل وسط ، بحيث يكون الداخل عبارة عن أقواس وجناح من الكنيسه ومكان خاص بالمرتلين ، وكلها على الطراز القوطى ، على أن تكون الواجهه من طراز عصر النهضة : مدخل ذو رواق معمد وقوصرة كلاسيكية وبرجان من طراز الباروك . وكانت النتيجة خليطا كريه المنظر من الطراز ، ولو أن رن أصلح منه بعض الشىء بتتويج الجزء الداخلى بقبة تنافس قبة برونلسكى فى فلورنسة وميكلانجلو فى رومه وستظل سانت بول أروع كنيسة شادها البروتستانت

وعلى حين مضى هذا المشروع فى طريق التنفيذ لمدة خمسه وثلاثين عاما ، فان رن الذى خلف دنهام فى تولى شئون المساحة العامة ، وضع تصميما

لثلاث وخمسين كنيسة أخرى . اشتهر كثير منها بأبراجها وقممها المستدقة التى جمعت بين حاسة الجمال عنده وبين نزعته الرياضية •أضف إلى هذا دار الجمارك فى لندن ، والمستشفى فى كل من جرينتش وشاس ، والكنائس الصغيرة فى كلية بمبروك فى كمبردج وترينتى كولدج فى أكسفورد ، ومكتبة ترينتى كولدج فى كمبردج والجناح الشرقى الكلاسيكى فى قصرها مبتون كورت ، وستا وثلاثين داراً نقابية ، وعدداً من الدور الخاصة بل يبدو أنه فى الأربعين عاما الأخيرة من القرن السابع عشر . لم يشيد مبنى له قيمته وأهميته ، إلا كان رن هو المهندس الذى تولاه(٨٨) •واحتفظ رن بمنصبه فى المساحة طوال حكم شارل الثانى ، وجيمس الثانى ، ووليم ومارى ، وآن . وتقاعد عن العمل فى سن السادسة والثمانين ، ولكنه ظل لخمس سنوات أخرى يشرف على العمل فى كنيسة وستمنستر ، وينسب بعضهم إليه فضل إقامة أبراجها ، وفارق الحياة فى سن الحادية والتسعين ، ودفن فى كنيسة سانت بول .

وكان فن النحت لايزال يتيما فى انجلترا . ولكن الحفر على الخشب كان فنا رفيعا ، وكان جرنلنج جيبونز معاونا له قيمته للمهندس رن ، قام بحفر المقاعد فى المكان المخصص للمرتلين وصندوق الأرغن الفخم فى كنيسه سانت بول ، والزخارف فى قصر وندسور وقصر كنسنجتن وهامبتون كورت .

واستمر فن الرسم فى انجلترا على أن يستقدم الأساتذة ويثبط من همم بنيه . وعلى الرغم من ذلك ، كان بعضهم يعد جون ريلى أعظم رسام لصور الأشخاص فى فترة عودة الملكيه وأدرك جون أن الوجه المدروس الذى يرسم فى روية ، هو فى ذاته سيرة حياة ، فاستطاع أن يقــرأ خطوطه ، وفى بصيرة نافذة كشف فى ثناياه عن خفاياه وأسراره وأبرزها فى شجاعه غير مريحه . وكاد تعليق شارل الثانى على صورة رسمها له ريلى يكون سببا فى انهيار الفنان ودماره ،حين قال الملك : « أهذه صورتى » ؟ ياخيبه الأمل ،

اذن أنا رجل قبيح المنظر »ومضى زمن طويل قبل أن تدرك الحاشية أن هذا كان مجرد تحية عفوية لأمانة الفنان . وبنفس الدقة والأمانة أخرج ربلى صور الملك الأحمق جيمس الثانى ، وادموند وإلر الشاعر المرتد ، وارل آروندل الأرستقراطى التافه المختال . ولـكنه حين رسم كرستوفررن وربرت بويل ، وقع على العبقرية ووضع يده على إماراتها فى الوجه ، وعلى بريقها فى العينين . قال هوراس وولبول «ربما كان فى مقدور ربلى ، بربع غرور سيرجودفرى نللر ، أن يقنع العالم بتفوقه وسموه(٨٩) . وفارق الحياة فى ١٦٩١ وهو فى سن الخامسة والأربعين .

وكان للى الهولندى ونللى الألمانى فارسى الحلبة المرموقين فى رسم الأشخاص فى عصر آل ستيوارت الثانى . وكان والد للى جنديا هولنديا اسمه فان درفاس . (واشتق لقبه هذا (للى) من زنبقة كانت مرسومة على داره . وانحدر اللقب إلى الإبن . ولد بيتر فى وستفاليا ١٦١٨ ، ودرس الرسم فى هارلم ، وعبر البحر إلى انجلترا (١٦٤١) حين سمع أن شارل الأول أوتى الذوق والمال ، ووفق فى أن يخلف فانديك بوصفه مصور الأشخاص الذى يبتغيه الناس ، وظل محتفظا بمكانته هذه على عهد كرومول وشارل الثـــانى ، واقتبس للى أسلوب فانديك فى اضفاء الأناقة والرشاقة على الجالسين أمامه (لرسمهم) . ولو فى اللباس فقط . وحاصرته ربات الجمال فى الحاشية ، من ذلك أننا نرى فى قاعة المتحف الوطنى لوحة نل جوين ريانة خائنة داعرة . وكونتس شروزبرى التى ساءت سمعتها ، بمغامراتها الغرامية كما نرى على جدران قصر هامبتون كورت ليدى كاسلمين ولويزدى كيروال ، تزدهيان بحلمات أثدائهما . وأجمل من ذلك جون تشرشل وهو طفل مع أخته (٨٩) أزابللا(٩٠) ومن الذى كان يتوقع أن يصبح هذا الطفل الملائكى والطفلة الملائكية دون مالبرو القوى الجبار ، والعشيقة التى تصدب زهرحتها لجيمس دوق يورك ؟ . وعن طريق مثل هذه اللوحات حصل للى على لقب فارس ، وجمع ثروة . فقد جلس أمامه شارل الثانى وستة من الأدواق

لرسمهم . ورأى بيبز أنه جبار معتد بنفسه .. يحظى بمنزلة رفيعة[٩١] ، وكان يعيش « عيشة مترفه باذخه[٩٢] » وحدد له موعدا للقائه بعد ثلاثة أسابيع .

وفى ١٦٧٤ ، أى قبل وفاة للى بست سنوات ، قدم إلى لندن رجل ألمانى عقد العزم على أن يخلف سير بيتر (للى) فى رسم الأشخاص وفى كسب المال وفى الفروسية ، وحقق الرجل برنامجه وكان الرجل ، وهو جوتفريد فون نللر ، آنذاك فى الثامنة والعشرين ، وعينه شارل الثانى « مصور البلاط » واحتفظ نللر بهذا المنصب فى عهد جيمس الثانى وولیم الثالث الذى منحه لقب فارس ، ورسم سير جودفرى لوحات لثلاثة وأربعين من أعضاء « نادى كيت كات » ذى المكانة السياسية البارزة[٩٣] ولعشر من النساء الخطيرات المغويات فى بلاط وليم[٩٤] . وغطى على شهرة دريدن ولوك . ومثلما يتلهف أى إنسان على الخلود ، حول نللر مرسمه الفخم إلى مصنع ينتج بالجملة ، بهيئة لم يسبق لها مثيل من المساعدين ، يتخصص كل منهم فى شىء معين : الأيدى ، الثياب الأشرطة والخطوط الملونة . وفى بعض الأحيان جلس أمامه أربعة عشر شخصا فى يوم واحد . وشيد قصرا فى الريف ، وتنقل بينه وبين بيته فى المدينة فى عربة تجرها ستة جياد . واحتفظ بحياته فى كل التقلبات السياسية . وفاضت روحه وهو فى فراشه معززا مكرما فى سن السابعة والسبعين (١٧٢٣) وفى تلك السنة ولد رينولدز ، وكان هوجارث فى السادسة والعشرين من العمر ، وبدأ الرسم الوطنى يترعرع ويشق طريقه .

وقضى البيوريتانيون تقريباً على الفن ، ولكنهم لم يخرسوا الموسيقى . ولم يخل من الآلات الموسيقية إلا أحقر البيوت ، ولحظ بيبز وجود العذراويه (آلة تشبه البيان الصغير بدون قوائم) فى كل قارب من ثلاثة من القوارب التى تحمل البضائع المنقذة فى التيمز أثناء الحريق[٩٥] ، وكتب يقول : « لابد أن أفسح المجال للموسيقى والنساء مهما كنت مشغولا » .

وكان يورد ذكر صفارته ومزهره وعوده وقيثارته . قدرما يذكر أسلحته(٩٦) وكل إنسان ورد ذكره فى مذكراته ، كان يعزف ويغنى . وكان من القضايا المسلم بها عنده أن أصدقاءه كان فى مقدورهم أن يشاركوا فى الغناء(٩٧) ، وأنه هو وزوجته وخادماتهما كانوا يغنون فى حديقته غناء متناغما ، بشكل مقبول إلى حد أن جيرانهم كانوا يفتحون النوافذ ليستمعوا إليهم .

وفى الابتهاج بعودة الملكية صدحت الموسيقى من كل شكل ولون . واستقدم شارل الموسيقيين من فرنسا . وسرعان ماجعل الناس يدركون أنه كان يحبذ الألحان الرخيمة المبهجه الواضحه التى لاتحسب الرياضيات تناسقا أو تناغما . ووضعت آلات الأرغن من جديد ولعلعت فى الكنائس الرسميه . وكان الأرغن الذى صمم لكنيسه سانت جورج فى وندسور ، والكاتدرائيه فى أكستر ، من بين عجائب الدنيا التى أحدثت دويا فى ذاك العصر . ولكن حتى فى جماعه المنشدين فى الكنيسه حل محل الوقاروالرهبه عروض مسرحيه من فنانى والالآت المنشدين المنفردين . وأمر شارل الثانى وجيمس الثانى باعداد الموسيقى للشعر الغنائى وحلبات الرقص التى تقام إحتفالا بالمناسبات الملكيه . واستخدمت الكنائس الموسيقى لقاء أجر ، وجازفت المسارح بالأوبرا ، وبدأ الملحنون والعازفون الانجايز يرتزقون من جديد .

وفى ١٦٥٦ أقنع سير وليم دافنانت حكومه الحمايه لترخص له فى إعادة افتتاح مسرح ، على أساس أنه سيخرج أوبرا ، لاروايه وفى « حفلة الأيام الأولى » التى مثلها لم يكن هناك أوبرا بقدر ما كان هناك سلسلة من الحوارات سبقتها وتخللتها وأعقبتها الموسيقى . ولكن فى العام نفسه عرض دافنانت فى مسرحه الخاص « رتلندهاوس » أول أوبرا إنجليزيه « حصار رودس(٩٨) » ولكن إغلاق المسارح بسبب الطاعون والحريق ، عوق هذة التجارب . على أنه فى ١٦٦٧ عرض دافنانت المغامر ، فى صورة

صوره موسيقية معدلة « العاصفة » التى زعم أنها من عمل أبيه . وحددت أوبرا بورسل « ديدو وإينياس » بداية الأوبرا الكاملة فى إنجلترا .

وكما هو الحال غالبا فى تاريخ الموسيقى ، فإن عبقرية هنرى بورسل كانت فى معظمها نتاج وراثة اجتماعية — أى بيئة سن المراهقة . فكان أبوه رئيس المرتلين فى وستمنستر ، وكان عمه يشغل وظيفة « ملحن القيثارات لصاحب الجلالة » . وكان أخوه ملحنا وكاتبا مسرحيا . وتابع ابنه وحفيده عمله فى العزف على الأرغن فى الكنيسة . أما هو فلم يمتد به الأجل لأكثر من سبعة وثلاثين عاما (١٦٥٨ — ١٦٩٥) ، وتولى الترتيل فى الكنيسة الملكية وهو لا يزال صبيا ، حتى ضعف صوته . وألف فى شبابه ترانيم دينية ظلت تسمع فى الكاندرائيات الإنجليزية على مدى قرن من الزمان : وألحانه الإثنى عشر من نوع السوناتة (١٦٨٣) لقيثارتين أو لأرغن وبيان قيثارى ، هى التى جلبت شكل السوناتة من إيطاليا إلى إنجلترا ، ويقول بيرنى أن أغانيه وترانيمه والكانتاتا (قصه تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) وموسيقى الفرقه التى ألفها « فاقت إلى حد بعيد كل ما أنتجته أو استوردته بلادنا من قبل ، إلى حد يبدو معه أن سائر الألحان الموسيقيه باءت بالاحتقار أو لاذت بزاويا النسيان(٩٩) .

ولما كان بورسل منهمكا فى عمله ، عازفا على الأرغن وملحنا ، فإنه لم يتيسر له أن يخرج « ديدو وإينياس(*) » قبل ١٦٨٩ ، لنخبه مختارة من المتفرجين ، فى إحدى مدارس البنات فى لندن . وتبدو الموسيقى لنا الآن ، حتى الاستهلال المشهور ، هزيلة نحيلة ، ولكن يجب أن نتذكر أن الأوبرا كانت آنذاك فى المهد ، وأن جمهور المستمعين آنذاك لم يولع بالضوضاء والصخب مثلنا اليوم . أما اللحن الأخير — عويل ديدو واواحها : « عندما

(*) فى الأساطير الرومانية — ديدو أميرة صور إلى أسست قرطاجه وأصبحت ملكة عليها ، وتقول انيادة فرجيل ، أنها رحبت بإينياس حين قدم إلى قرطاجة بعد سقوط تراوده ، ووقعت فى شراك غرامه ، ثم قتلت نفسها حين غادرها .

أتوسد الثرى » فإنه من أكثر ما يهز المشاعر ويؤثر فى النفوس من الحان فى تاريخ الأوبرا بأسره » .

أما « الملك آرثر » (١٦٩١) التى كتب كلماتها دريـــدن ووضع موسيقاها بورسل ، فليست أوبرا بالمعنى الكامل ، حيث يبدو أن الموسيقى لم تكن مرتبطه إلا إرتباطا يسيراً بجو الروايه أو أحداثها ، مثلما أن الروايه لم يكن لها صلة وثيقه بعصر آرثر كما نراه فى مالورى وتنيسون . وبعد ذلك بعام واحد ، أحرز بورسل تقدما أكثر فى موسيقى ثانويه لروايه « فيرى كوين : الملكة الجنيه » ، وتكييف مجهول الاسم « لحلم ليله منتصف الصيف » . ولم يمتد به الأجل ليشهد إخراجه ، وضاعت الألحـــان ، ولم تكتشف إلا فى ١٩٠١ وهى الآن تعد من أحسن ما أنتج بورسل .

وفى ١٦٩٣ وضع أكثر قصائده الغنائيه الكثيرة ، أحكاما واتقانا ، فى الاحتفال بيوم سانت سيسيليا . ولكن أرق هذه القصائد هى « تسبيحة الشكر والابتهاج » المرحة ١٦٩٤ . وكانت تعزف سنويا فى الإحتفال « بأبناء رجال الكنيسة » حتى ١٧١٣ ، حتى اشتركت فى هذا الشرف مع مقطوعة هاندل « تسبيحة الشكر من أوترخت » ، فكانتا تعزفان بالتبادل سنويا حتى ١٧٤٣ . ومن أجل جنازة الملكة مارى ١٦٩٥ ، ألف بورسل ترتيلة مشهورة « يا ربنا : أنت أعلم بخفايا قلوبنا » . وفى سنواته الأخيرة اسهم فى الموسيقى الثانويه لروايه دريدن « الملكة الهنديه » ومن الواضح أنه مرض قبل أن يتمها لأن موسيقى الخاتمة وضعها أخوه دانيل . وحانت منيته ، ربما بسبب السل ، فى ٢١ نوفمبر ١٦٩٥ .

وعلى الرغم مما امتلأت به فترة عودة الملكية من حيوية ونشاط ، فإن الموسيقى الانجليزية لم تكن قد أفاقت بعـــد من نكستها على يد البيوريتانيين بعد عهد اليزابث . وبدلا من ترسيخ جذورها ثانية فى التربة الانجليزية ، حذت حذو الملك ، فانحنت إجلالا وإكباراً أمام الأساليب

الفرنسية والآلات الايطالية . وبعد أوبرا « ديدو واينياس » غزت الأوبرا الايطالية مسرح الأوبرا الانجليزى ، يقدمها مغنون ايطاليون . كتب بورسل فى ١٦٩٠ « ان الموسيقى الانجليزية لم تبلغ بعد سن الرشد إنها طفل تواق طموح يبشر بما يمكن أن يكون عليه فى المستقبل ... إذا وجد أساتذته مزيداً من التشجيع (١٠٠) » .

٥ — الأخلاق

فلنبدأ لفورنا هنا بالتفريق بين عامة الشعب وأبناء الطبقات العليا ، فالاستهتار الجنسى الذى ساد فترة عودة الملكية ، سرى عن طريق الحاشية إلى الطبقة الوسطى العليا وسكان المدن وماحولها الذين ترددوا على المسارح وربما كانت أخلاق العامه المغمورين أفضل منها فى عصر اليزابث ، لأن النظام الاقتصادى أبقاهم على اعتدالهم وبعدهم عن السرف ، فلم يكونوا يملكون الوسائل التى يترددون بها فى مهاوى الرذيلة والشر ، وظلوا يحسون بوازع من عقائدهم البيوريتانيه . ولكن فى لندن ، وبوجه أخص ، فى الحاشيه الملكيه ، فإن التحلل من القيود البيوريتانيه ورد الفعل الناجم عن ذلك ، أديا إلى اتصال جنسى غير مشروع ومرح صاخب غير برىء . أما الشباب الارستقراطى الذى اقتلع من أرض الوطن وأطلق لنفسه العنان فى فرنسا ، فقد ترك أخلاقه وراءه فى المنفى ، وأتى معه لدى عودته بضروب من الفوضى الموسومه بالرشاقه والظرف ، وانتقاما منهم للسنوات التى عاشوا فيها عنت الظلم والحرمان والسلب والنهب ، شنوا بكل ما أتوا من قوة وذكاء ، الحرب على زى البيوريتانيين وحديثهم ولاهوتهم ومبادىء الأخلاق عندهم ، إلى حد لم يجرؤ معه واحد من أبناء طبقتهم أن ينبس ببنت شفه من أجل الحشمة والوقار . وباتت الفضيلة والتقوى والأمانة الزوجية كلها ألوانا من البراءة أو السذاجة الريفية وأصبح الزانى الذى يوفق كل التوفيق فى هذه الرذيله ، هو بطل عصره وفريد زمانه ، (كما هو الحال فى رواية وتشرلى : الزوجة الريفية) والواقع أن الديانه فقدت مكانتها

واعتبارها بين الناس ، ولم يبق لها شيء من هذا إلا عند الحرفيين والفلاحين. وصار الوعاظ موضع الإحتقار والازدراء على أنهم منافقون كئيبون أغبياء منزعجون يملون ثقال الظل . وأصبحت الديانة الوحيدة الصالحة للسيد الماجد هي الأنجليكانية المهذبة التي يحضر فيها المولى (رب العمل أو مالك الأرض) صلاة الأحد لتدعيم مركز القسيس الذي يزرع الخوف من نار الجحيم في نفوس القرويين ، ويسبح بالحمد والشكر ، في إيجاز مناسب، من جانب المنصة التي يجلس إليها المولى أو سيد القرية . وأصبح أقرب إلى طابع العصر أن يكون المرء ماديا على مذهب هوبز ، لامسيحياً مثل ملتون ، الأحمق العجوز الأعمى الذي نظر إلى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وفقدت نار الجحيم التي بولغ فيها في العشرين سنة الماضية ، رهبتها وهيبتها لدى طبقات المالكين . أما الجنة في رأيهم ، فهي ماثلة دوما في مجتمع متحرر من الثورة الإجتماعية والكبت الخلقي في ظل حاشية وملك ضربا المثل وتقدما الركب في الفسق والفجور والميسر واللهو والعبث .

وكان ثمة عدة رجال أفاضل ونساء فضليات بين أفراد البلاط الملكي ، وكان كلارندن مثلا رجلا ذا مبادىء وسلوك قويم حتى سارت ابنته في طريق الغواية فاهتاج وفقد صوابه ، وأوصى بقتلها وتحلى أرل سوثمبتون الرابع ودوق أورمند الأول بالحشمة والوقار ، وكان بين رجال الدين الأنجليكانيين نفر من المخلصين الأتقياء ، حتى من الأساقفة أو ذوى المراتب الكنيسة العالية . وصدقت عزيمة الملكة وليدى فانشو والآنسة هملتون ، أو السيدة جودولفين فيما بعد ، في التمسك بأهداب الفضيلة . ويقينا كان هناك أفراد غير هؤلاء وهؤلاء ، ضاعت ذكراهم في ثنايا التاريخ لأن الفضيلة لا تعلن عن نفسها .

وكلما علت المكانة انحطت الأخلاق . فهناك جيمس ، دوق يورك ، شقيق الملك ، الذي يبدو أنه بز الملك في حصته من الخليلات العشيقات (١٠١) . وبينما هو في المنفى تسلل إلى مخدع آن هايد ابنة قاضي القضاة ، فلما حملت

منه توسلت إليه أن يتزوجها ولكنه كان يماطل ، وأخيراً وقبل أن تضع وليدها بسبعة أسابيع (٢٢ أكتوبر ١٦٦٠) اتخذ منها زوجة شرعية سراً . وعندما سمع أبوها (كلارندون) بنبأ هذا الزواج ، كما تروى سيرة حياته(١٠٢) احتج لدى الملك بأنه لم يعلم شيئاً عن هذا الاتفاق ، وأنه «كان يؤثر أن تكون ابنته خليلة الدوق لا زوجته ، وأنهما إذا كان حقا قد تزوجا « فينبغى على الملك أن يزج بالمرأة فى السجن فورا » ، وأن يصدر فى الحال قرار من البرلمان بقطع رأسها ، وأنه لن يوافق على هذا القرار فحسب ، بل سيكون عن طيب خاطر أول من يقترحه » . وهز الملك كتفيه استهجانا للموضوع على أنه هراء لاغناء فيه ، وكأنه يسمع جعجعة ولا يرى طحنا ، وربما أدرك قاضى القضاة أن الملك لن يلزمه بكلمته . وتحدث فى صرامة وتجهم ، على الطريقة الرومانية ، ليعوض عما ثار من ريبه فى أنه رتب أمر الزواج من قبل ، ليجعل من ابنته ملكة على أن ابنته آن ماتت بالسرطان فى ١٦٧١ ، فى سن الرابعة والثلاثين .

واتخذ جيمس ، بينما كانت زوجته (آن) تمانى مشا كل الأمومه ، من أرابلا تشرشل عشيقة له ، وهى التى إرتضى أخوها هذا الوضع حتى يحظى بالترقى فى مناصب الجيش . ورغبة فى معاونة آن وأرابلا والتخفيف عنهما اتخذ الدوق بضع خليلات أخريات لمضاجعته واستاء إيفلين بصفة خاصة من من سلوكه الشائن مع ليدى دنهام (١٦٦٦)(١٠٣) . ولم يغير تحول جيمس إلى الكثلكة من خلقه شيئاً . فكان كما كتب بيرنت «دائم التنقل من غرام إلى غرام دون أن يحسن الاختيار ، حتى قال الملك يوما أنه يعتقد أن القساوسه هم الذين يقدمون له العشيقات عقوبة يكفر بها عن ذنوبه(١٠٤) » ودامت علاقته بأرابلا نغمة عذبة من الأرغن ، وسط هذا التنقل بين مطارح الهوى ، وبقيت بعد موت آن ، وبعد زواج جيمس (١٦٧٣) من مارى مودينا .

وينبغى علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا ، أن دوق يورك نفسه كان يتحلى بمناقب تدعو إلى الإعجاب ، فإنه — وهو أمير البحر

(١٦٦٠ — ١٦٧٣) ، بذل أقصى الجهد فى التغلب على سوء النظام والفساد فى البحرية ، نتيجة لضآلة الأجور والمؤن التى تصرف لرجال البحر وتدريبهم الهزيل ، وأبدى مهارة وشجاعة فى اشتباكاته مع الهولنديين . ونهض بمهام الإدارة فى مقدرة واخلاص . ولم تشب أية شائبة قط اخلاصه العميق لأخيه الملك ، بل انتظر صابرا طيلة ربع قرن من الزمان قبل أن يخلفه على العرش . وكان صريحا مخلصا يسهل الوصول إليه ، ولكنه كان شديد الكلف بمكانته وسلطانه إلى حد لم يكن معه شعبيا ، وكان صديقا يقيم على الود، وعدوا عنيدا لايغتفر الاساءة . وكان ذا جلد على العمل الشاق ولكنه لم يكن متوقد الذكاء . وكان يأبى النصح والمشورة أيما إباء .

وكان يحتل المركز الثانى فى البلاط، جورج فليبر دوق بكنجهام الثانى . وكان ابن محظية جيمس الأول التى لقيت حتفها ، ومن ثم قاتل إلى جانب شارل الأول فى الحرب الأهلية ، ومع شارل الثانى فى وورستر ، وعينه الملك الذى استرد العرش عضوا فى مجلسه الخاص وكان بارعا ذكيا أنيسا كريما ، ولذلك سيطر فى البلاط بسحره وفتنته لبعض الوقت ، وكتب «ملهاة» رائعة . « التجربة » ، وتلهى بالكيمياء القديمة والعزف على القيثارة إلى حد ما . ولكن وجهه وثراءه جلبا عليه الدمار . انه تنقل من امرأة إلى أخرى، وانغمس فى عبث مخزشائن . وبدد ضيعته الهائلة . وكان يتوق إلى الظفر بكونتيس شروزبرى ، فتحدى زوجها لمبارزته ، وتنكرت هى فى زى خادم، وأمسكت بجواد بكنجهام أثناء المبارزة ، وصرع بكنجهام الكونت ، وعانقت الأرملة السعيدة الدوق المنتصر الذى كان لايزال مضرجا بدم زوجها ، وعادا ظافرين إلى قصر الفريسة(١٠٥) . وعزل بكنجهام عن منصبه (١٦٧٤) ، وانصرف إلى اللهو والعبث ، ومات فقيرا معدما يجلله الخزى والعار .

وكان ينافس بكنجهام فى المكانة والذكاء والقصف والعربدة والانحلال

جون ولموت أرل روشستر الثانى ، حصل جون على درجة الأستاذية من أكسفورد فى سن الرابعة عشرة (١٦٦١) وهو أمر لا يصدق ، والتحق بالبلاط فى السابعة عشرة • وأصبح المشرف على حجرة الملك • وكان فى حاجه إلى المال وهو فى سن التاسعه عشرة ، فتودد إلى وريثه ثرية تباطأت فى تحقيق بغيته ، فاختطفها ، ومن أجل ذلك زج به فى السجن ، فرق قلبها له ، ثم حظى بالزواج منها ، ثم بثروتها ، وكم من مرة أبعده شارل عن الحاشيه وأعاده إليها ، مستسيغا فطنته وذكاءه • وكان روشستر — مثل بكنجهام — خبيرا فى التقليد والمحاكاة ، وكان يسر بالتنكر فى زى حمال أو متسول أو تاجر أو طبيب ألمانى ، وكان يوفق فى هـذا التمثيل والمحاكاة إلى حد ضلل أو خدع معه أوثق أصدقائه صلة به • وزعم بوصفه طبيبا أنه يبرىء من الأدواء المستعصية عن طريق علمه بالتنجيم • وجذب إليه مئات من المرضى ، وشفى عددا منهم ، وسرعان ماقصدت إليه سيدات البلاط لعلاجهن • وعجز أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ، عن التعرف عليه[١٠٦] وفى كل هذه التنكرات تقريبا كان يطارد السيدات ، دون أى اعتبار لمكانتهن . وكن هن يتعقبنه كذلك . وتسلى جون بكتابة قطع من الهجاء البذىء الداعر • وقضى على حياته بالخمر والفجور ، وكان يفخر بأنه كان ثملا مخمورا لمدة خمس سنوات بلا انقطاع — ومات فقيرا نادما فى سن الثالثه والثلاثين .

وكان فى الحاشية رجال كثيرون من أمثال ولموت ، حتى أن بيبز نفسه ، وهو غيرها ولم يزنى تسائل : « ماذا ستكون نهاية كل هذا الشراب وهذا السباب وهذه العلاقات الغرامية الفاجرة[١٠٧] » وعبر بوب عن هذه الحالة فى « بحث فى النقد » ، ولكنه لم ينصف الملك كل الإنصاف ، فهو يقول :

« إذا كانت المهمة الهينة اللينة للملك هى العشق والغرام ، فقلما نراه فى مجلس الحكم ، ولا نراه أبدا فى ساحة الوغى ، فان الدولة يحكمها النساء الحانثات بالعهد اللائى يتنقلن من حب إلى حب ، أما رجال الدولة والسياسة فيكتبون المسرحيات الهزلية الساخرة ولا يستفاد بذوى المواهب ،

والوردات الشبان اليافعون خلو من الذكاء والفطنة ، ..... ولم تعد المروحة المتواضعة المحتشمة ترفع ، وعلت الابتسامة وجوه العذارى لما كانت وجناتهن تحمر له حياء وخجلا من قبل(١٠٨) .

وكان من الأمور المسلم بها أن الزوجات — مثل الأزواج — تعوزهن الأمانة والاخلاص ، فإن الرجال لم يتطلبن الأمانة والإخلاص إلا في عشيقاتهم(١٠٩) . إن مذكرات كونت فيليبرت دي جراموت التي دونها بالفرنسية أخو زوجته ، أنطوني هملتون ، كانت ، أحيانا ، عبارة عن قائمة بالمغرورين المختالين، أو سلسلة من الديوثين الذين لا يغارون على زوجاتهم وهم يعلمون انهن يأتين الفاحشة ، كما رآهم الكونت في منفاه السعيد في بلاط شارل الثاني .

وكم كانت الساعات تقضى وتخصص للرقص وسباق الخيل وصراع الديكة ولعب البلياردو والورق والشطرنج ، والألعاب الأرضية والحفلات التنكرية المرحة ، ثم كما يقول بيرنت « يطوف الملك والملكة وكل أفراد البلاط ، وهم جميعا متنكرون ، بالبيوت غير المعروفة ، حيث يرقصون ويعبثون ويلهون في صخب فاجر(١١٠) » وكانت المراهنات على مبالغ طائلة . يقول ايفلين « في هذه الليلة ، افتتح جلالة الملك الحلبة ، كما هي العادة ، فألقى « الزهر » بنفسه في القاعة الخاصة ، . . . وخسر مائة جنيه . (وكان قد كسب في العام الماضي ١٥٠٠ جنيه) . وأقبل السيدات كذلك على اللعب اقبالا شديدا(١١١) » وحذت الطبقات العليا حذو الحاشية في القمار والدعارة . وتحدث ايفلين عن شباب انجلترا الفاسق الفاجر الذى فاقت إلى حد كبير دعارته للذهلة ، حماقات سائر الأمم المتحضرة مهما كانت(١١٢) . وانتشر اللواط ، وبخاصة في الجيش . وكتب روشستر رواية عنوانها « سودومى » (نسبة إلى سودوم قرية قوم لوط) مثلت أمام الحاشية . والظاهر أنه كان في انجلترا عدد من المواخير لهذا الاختلاط الجنسي الشاذ(١١٣) .

وكان عدد الزيجات القائمة على الحب يتزايد . وهناك أمثلة رائعه ، منها زواج دوروثى أو زيبورن من وليم تمبل ، الذى ثبت أنه زواج سعيد ، ولو أن دوروثى كتبت تقول . « ليس الزواج القائم على الحب تصرفا معيبا ملوما ، إذا كنا لم نر من بين ألف من الزوجين الحبيبين الذين يقدمون عليه ، زواجا واحد يمكن أن يتخذ مثلا على أنه يمكن اتمامه دون ندم عليه فى المستقبل »(١١٤) » . وكتب سويفت إلى سيدة شابة فى موضوع زواجها فتحدث عن الشخص الذى اختاره أبواها ليكون زوجا لها . وأضاف « أن زواجك كان قائما على الحكمة والحصافة والتدبر والشعور الطيب المتبادل ، خاليا من عوائق الانفعال السخيف فى الحب الرومانتيك(١١٥) » . ويذكر كلارندون : « إن رغبتى الأولى فى الزواج لم تتعلق إلا بضيعة ملائمة مريحة(١١٦) » .

ومن الناحيه النظرية كان للزوج كل السيطرة على زوجته ، كما يتحكم حتى فى الصداق الذى أتت به إليه . وفى كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانونا . وفى الطبقات الدنيا استعمل الزوج حقوقه المشروعه فى ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سمكها سمك ابهامه(١١٧) . وكان انضباط الأسرة أو نظامها قويا ، اللهم إلا فى الطبقات العليا فى لندن ، حيث شكا كلارندون من أن الوالدين ليس لهما أى سلطان على الأبناء ، كما أن هؤلاء لايذعنون للاباء ولا يطيعونهم . بل « ان كل انسان يتصرف كما يحلوله »(١١٨) . وكان الطلاق نادرا ، ولكن يمكن اجازته بقرار من البرلمان . ورأى الأسقف بيرنت — مثل لوثر وملتون — أنه يمكن السماح بتعدد الزوجات فى حالات معينة ، وعرض هذه الفكرة على شارل الثانى ، بسبب عقم الملكة ، ولكن الملك رفضها ، تحاشيا للتمادى فى اذلال زوجته(١١٩) .

وهددت الجريمة الأرواح والممتلكات بشكل مستمر . وكان اللصوص والنشالون يتجمعون فى عصابات ويسطون فى جنح الليل . وكانت المبارزة

محرمة بحكم القانون ، ولكنها بقيت امتيازا للسادة الأماجد ، فإذا صرع مبارز غريمه وفقا للقواعد ، نجا المنتصر عادة بسجن قصير مريح . وسعى القانون جاهدا ليكافح الجريمة عن طريق ما يبدو الآن عقوبات وحشية . ولكن ربما كانت الاجراءات الصارمة لازمة لغزو العقول المتحجرة أو المتبلدة . وكان التعذيب والموت عقوبة الخيانة العظمى . وكان الشنق عقوبة القتل أو الجناية أو تزييف العملة . وكانت الزوجة التي تقتل زوجها تحرق حية . أما السرقات الخفيفة فكانت عقوبتها الجلد ، أو قطع احدى الأذنين ، وضرب أي فرد من حاشية الملك يعاقب بقطع اليد اليمنى . أما التزوير والخداع وغش الموازين والمقاييس فكانت عقوبتها التعذيب في المشهرة ، أحيانا مع دق الأذنين كلتيهما بالمسامير في آلة التعذيب ، أو ثقب اللسان بقضيب من الحديد المحمى (١٢٠) . وكان الناس عادة يستمتعون بمشاهدة مثل هذه العقوبات (١٢١) ، ويحتشدون ، وكأنهم في يوم عطلة ، ليشهدوا سجينا على حبل المشنقة . وضمت السجون في عهد الملك السعيد عشرة آلاف سجين من أجل الديون ، وكانت السجون قذرة ، ولكن كان من الممكن أن يقدم الحراس بعض التيسرات مقابل رشورة . كانت العقوبات أشد صرامة وقسوة منها في فرنسا المعاصرة ، ولكن القانون كان أكثر تحرراً . ولم تكن في انجلترا « أوامر مختومة » (لا لقاء أي شخص في السجن دون محاكمة) ، بل كان فيها نظام التحقيق في قانونية الاعتقال . إلى جانب نظام المحلفين .

وشاركت الأخلاقيات الاجتماعية في الانحلال العام . وتزايدت أعمال البر . ولكن ربما كان الواحد والأربعون ملجأ في انجلترا مجرد وجه آخر لجشع الأقوياء ، وكان كل فرد تقريبا يعمد إلى الغش أثناء لعب الورق (١٢٢) ودب الفساد في كل الطبقات بمعـدل أكبر من المستوى العادي . ومن مذكرات بيبز تفوح رائحـة الفساد في مختلف الأعمال ، في السياسة وفي البحرية وفي بيبز نفسه . من ذلك أن المؤسسات والمصانع زادت في اسهمها دون زيادة مقابلة في رأس المال ، وزورت في حساباتها ، وتقاضت من

الحكومه أعمالا فادحة (١٢٣) . وكانت الاعتمادات التى يقرها البرلمان للجيش أو الأسطول يتحول جزء منها إلى جيوب الموظفين ورجال البلاط . وباع موظفى الدولة — حتى ولو كانت رواتبهم كافية تدفع بانتظام — الألقاب والعقود والبراءات والتعيينات وأوامر العفو ، إلى حد « بات معه الراتب الأصلى يشكل الجزء الأصغر مما يدخل إلى جيوبهم (١٢٤) » . وأثرى كبار رجال الحكومة مثل كلارندون ودانبى وسندرلند — أثروا فى سنوات قليلة واشتروا أو بنو ضياعا لا تتناسب قط مع رواتبهم . وباع أعضاء البرلمان أصواتهم للوزراء ، بل حتى للحكومات الاجنبية (١٢٥) وفى القرارات انتزع مائتا عضو من صفوف المعارضة ، نتيجة لأن الوزراء اشتروا أصواتهم (١٢٦) . وفى ١٦٧٥ قدر أن ثلثى أعضاء مجلس العموم كانوا مأجورين من قبل شارل الثانى ، والثلث الباقى من قبل لويس الرابع عشر (١٢٧) حيث وجد العاهل الفرنسى أنه من الميسور أن يرشو الأعضاء ليصوتوا ضد شارل إذا حاد بشكل مزعج عن سياسة البوربون . أما شارل نفسه فكم من مرة تسلم أموالا طائلة من لويس ، حتى يلتزم الدوران فى فلك فرنسا فى السياسة أو الديانة أو الحرب ، وهكذا كان المجتمع الانجليزى أكثر المجتمعات استهتارا وفساداً فى التاريخ .

٦ — العادات

حاولت العادات أو أساليب الحياة هنا أن تعوض عن النقص فى الآداب — كما فى فرنسا — ، وأن تضفى كياسة متكلفة على الملابس المزركشة الأنيقة والأدب الفاجر ، والحديث الدنس . وكان شارل نفسه مثالا لأسلوب الحياة وتسرب إلى الطبقات العليا ماتجمل به الملك من ظرف ولطف ومجاملة وسحر وفتنة ، وترك كل أولئك بصماته على الحياة فى انجلترا . فتبادل الرجال القبلات عند اللقاء . وقبلوا يد المرأة إذا قدموا إليها . وفى لندن — كما كان فى باريس — استقبلت السيدات الرجال فى الفراش ، فكان هناك صراحة

منعشة واحتقار النفاق فى الأدب وفى المسرح وفى البلاط . ولكن الصراحة أطلقت فيضاناً من الخشونة على المسرح وفى الحديث اليومى . وكانت البذاءة فى انجلترا بغير مثال . وفى هذا كان شارل من بين الشواذ الخارجين على القاعدة ؛ حيث كان لا يتجاوز فى السباب « عبارته المفضلة Odds Fish وكان البيوريتانيون الباقون ينأون بأنفسهم عن فحش القول إلا إذا هاجموا خصومهم وسخروا منهم . أما السكوبكرز فامتنعوا عن الحلف

وبز الرجال النساء فى الأزياء الغريبة ، من الشعر المستعار للضمخ بالمساحيق لأجل التبرج ، إلى الجوارب الحريرية والأحذية ذات « الابزيم » وكان الشعر المستعار بدعه أخرى مستوردة من فرنسا . وكان الفرسان والمختالون وغيرهم ، ممن كان شعرهم قصيراً ، أو ممن يخافون أن يخطئهم الناس على أنهم من البيوريتانيين ذوى الرؤوس المستديرة الذى كانوا يقصون شعورهم قصا قصيرا جدا ، تقول ان هؤلاء وهؤلاء كانوا يغطون قصر شعرهم بشعور أجنبية مستعارة . أما الرجال الذين أبيض شعرهم أو مال إلى الشيب فقد وجدوا فى الشعر المستعار وسيلة ناجحة لاخفاء أعمارهم . وكان كل الرجال تقريبا يحلقون اللحى آنذاك . وكان هذا الشعر المستعار يصلح من شأن بشرة الملك الأسبانية وأنفه الضخم . وجعل بيبز من أول شعر مستعار وضعه مسألة خطيرة ، ورثى لشعره المحبب إليه الذى كان لزاما أن يقص ليفسح الطريق « للباروكة — الشعر المستعار » ويزود بالشعر رأس إنسان آخر (١٢٨) ، وكان لزاما أن يتم تنظيف شعره المستعار من القمل فى أوقات منتظمة (١٢٩) — واختفى الآن طوق الرقبة المكشكش المتيبس الذى كان سائدا فى عهد اليزابث وجيمس الأول . كما اختفت السترة الضيقة والعباءة الطويلة ليحل محلهما الصدرية والمعطف . ووصلت الصدرية على أية حال إلى ربلة الساق . وكانت تشـــد إلى الجسم بحزام . وتوقفت « بنطلونات » الركوب عند الركبتين . وتدلت السيوف إلى جوانب الأرستقراطيين أو الأغنياء . وساعد المخملات والمخرمات وبالأشرطة والأهداب وكشكشة الثياب

على استكمال الظرف والكياسة ، وربما استخدم الناس لتدفئة اليدين فى الشتاء ، « الموقه » وهى غطاء أنبوبى طويل مكسو بالفراء « يعلق فى العنق .

أما نساء الطبقات العليا الأنيقات (طبقا لآخر طراز) فكن يضمخن شعورهن بالمساحيق والعطور ، ويمشطنها فى خصلات فوق جباهن « وزدن عليهن خصلات مستعارة مرفوعة على أسلاك خفية ، وكسون قبعاتهن بالريش النادر ، ووضعن على خدودهن أو جبهاهن أو أذقانهن « لصوقات تجميلية » (و وهى قطع صغيرة جداً من حرير أسود يلصقها النساء كوسيلة لاخفاء العيوب أو للتبرج) ، زيادة فى إغراء الرجال بمطاردتهن . وكشفن عن أكتافهن وعن أجزاء كبيرة من نهودهن « وهكذا جلست لويز دى كيروال أمام الرسام للى ليصورها وأحد نهديها عار تماما ، وبزتها نل جوين فى ذلك . وكانت النساء تحجبن سيقانهن بشكل مغر . وتزايد الطلب على أدوات التجميل الأنيقة . فكانت للمرأة بالفعل شيئا معقدا استخدم الإنسان كل براعته فى تشكيله وصنعه « حتى صورتها احدى الروايات فى فترة عودة الملكية ، فى شيء من المغالاة والإغراق فى الوصف .

« صنعت أسنانها عند ناظم اللالىء (فى بلاك فرايرز) ، وحواجبها من خيوط أو أسلاك مجدولة (فى استراند) « وشعرها فى شارع « الفضة » ، فإذا آوت إلى الفراش نزعت عن نفسها كل ماعليها لتضمه فى عشرين صندوقا . حتى إذا نهضت من نومها ظهر اليوم التالى ، ركبت كل شىء فى مكانه على جسمها من جديد . وكأنها ساعة حائط ألمانية ضخمة(١٢٠) » .

وكان التبذير واجبا حتميا « لقد أصبحت الحياة مظهرية متكلفة من جديد ، ومن ثم اقتضت تجهيزات معقدة مفصلة . وكان لزاما استئجار عدد كبير من الخدم . فكان منهم لدى والد ايفلين نحو خمسين وكان لدى بيبز طباخ ومديرة للمنزل ووصيفة وخادمة . وكانت وجبات الطعام مروعة

ضخمة . أنظر إلى غداء بيبز في ٢٦ يناير ١٦٦٠ قبل أيام الطيش والغرارة بزمن طويل :

« أعدت زوجتى غداء شهيا جدا : أعنى طبقا من « عظام النخاع » ، ونخذا من الضأن ، وقطعة من لحم العجل ، وصحنا من الطيور ، وثلاث دجاجات ، واثنى عشر زوجا من القنبر على طبق واحد ، وكعكة ضخمة محشوة بالمربى والفاكهة المطبوخة (تورتة) ، ولسان بقرة ، وطبقا من السمك الصغير « الأنشوجة » ، وطبقا من القريدس (الجمبرى) والجبن » .

وكانوا يتناولون الوجبة الرئيسية فى الساعة الواحدة . وكان للطبخ إنجليزيا . وعندما أوضح شارل الثانى لجراموت أن الخدم كانوا يقدمون الطعام للملك ، وهم ركوع ، رمزا للاحترام والإجلال ، قال جراموت (أوروى أنه قال) : « أشكر لجلالتكم هذا الإيضاح ،فقد ذهب تفكيرى إلى أنهم إنما كانوا يلتمسون المغفرة لتقديمهم طعاما رديئا(١٣١) » .

ولم يكن تناول للشروبات الروحية مجرد مظهر اجتماعى . فقلما كان الناس ، حتى الأطفال ، يشربون الماء(١٣٢) ، وكانت « البيرة » أيسر منالا من الماء الصالح للشرب . ومن ثم تناول كل الناس من مختلف الأسنان ، البيرة ، وأضاف الموسرون إليها الويسكى أو استوردوا النبيذ . وتردد معظم الناس على الحانات مرة واحدة فى اليوم ، وتناول كل الأفراد من جميع الطبقات الخمر من حين إلى حين .

ودخل البن من تركيا حوالى ١٦٥٠ . وحتى ١٧٠٠ كان معظم البن يستورد من اقليم مخا فى اليمن . وفى القرن الثامن عشر نقل الهولنديون زراعته إلى جاوة والبرتغاليون إلى سيلان والبرازيل ، والانجليز إلى جامايكا . وساعد استخدام القهوة فى التغلب على الخمول والكسل وفى شحذ الذهن ، على انتشارها وإقبال الناس عليها . وافتتحت لندن أول مقهى فيها فى١٦٥٢ ، وماوافى عام ١٧٠٠ حتى كان بها ٣٠٠٠ مقهى(١٣٣) واتخذ كل فرد مهما كانت مكانته ، أحد المقاهى محلا مختارا لمقابلاته بانتظام ، حيث يلتقى بأصدقائه

ويستمع إلى آخر الأنباء والخازى . وحاول شارل الثانى أن يحد من انتشار المقاهى ومن نشاطها باعتبارها مراكز لإهاجة المشاعر السياسية والمؤامرات ، ولكن شهوة الحديث والشراب والاستمتاع برائحة التبغ أحبطت مساعيه . ومن بعض المقاهى نشأت الأندية التى لعبت دوراً فى سياسة القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت آنذاك ملاذاً ومهرباً من أحادية الزواج ، واختلفت المقاهى عن الأندية التى ظهرت متأخرة عنها ، لا لمجرد أن القهـوة كانت هى المشروب المفضل فيها ، بل لأن الحديث كان يلقى تشجيعاً فيها . كما أن مشاهير الأدباء مثل دريدن وأديسون وسويفت وجدوا فيها منابرهم (فى المقاهى) . كما أن حرية الكلام فى انجلترا انتعشت وازدهرت هناك .

وجاء الشاى إلى انجلترا من الصين حوالى ١٦٥٠ ، ولكنه كان غالى الثمن . إلى حد أنه لم يحل محل البن فى الحياة الانجليزية إلا بعد قرن من الزمان . وحسب بيبز أنه انما كان يقوم بمغامرة حين تناول أول فنجان من الشاى(١٣٤) . وفى نفس الوقت استورد حب الكاكاو من المكسيك وأمريكا الوسطى . وحوالى ١٦٥٨ استحدث شراب جـديد بإضافة « الفانيليا » والسكر إلى إلى الكاكاو . وأصبحت « الشكولاته » الناتجة عن هذا المزيج شراباً محبباً مألوفاً فى فترة عودة الملكية ، وكان يقدم فى كثير من المقاهى .

وفى تلك الآونة دخنت التبغ كل الطبقات ، بما فى ذلك كثير من النساء وبعض الأولاد ، فى أنابيب طويلة دوما . وظن الناس أن لهذا التبغ بعض الفائدة فى التطهير وقاية من الطاعون . وربما نشأت عن هذه الفكرة عادة « السعوط » فى تلك الأيام ، أى نشوق التبغ المسحوق .

والآن وقد تخلص الناس من كابوس البيوريتانية ، فقـد ازدهرت الألعاب وأسباب التسلية واللهو . واستمتع الفقراء من جديد بمسرح العرائس وعروض السيرك وصراع الديكة ومطاردة الدببة والثيران ، وألعاب البهلوان على الحبال والمصارعة ، والشعوذة والملاكمة والسحر ، وانغمس الموسرون

فى الصيد بنوعيه : صيد النساء وصيد الحيوان . وظل شارل الثانى يمارس لعبة التنس حتى بلغ الثالثة والخمسين . أما ايفلين فقد أحب لعبة البولنج على الأرض الخضراء ، التى لا تزال منظراً محبباً إلى الانجليز حتى اليوم . وكانت لعبة الكريكت قد بدأت تكون وسيلة لقضاء وقت الفراغ فى الأمة بأسرها ولأول مرة فى ١٦٦١ يرد ذكر قطعة من الأرض مخصصة لهذه اللعبة ، ففى تلك السنة خططت حدائق فوكسهول على الضفة الجنوبية للتيمز ، وسرعان ما أصبحت منتجعاً أنيقاً على أحدث طراز . وافتتح شارل الثانى للجمهور متنزه سان جيمس . وأقيمت آنذاك حدائق هايد بارك حيث يقصد إليها فى الامسيات الظريفة « علية القوم وعلى رأسهم الملك والملكة . إن « المجتمع » بدأ آنذاك يستشفى فى مياه باث المعدنية .

وتنقل الناس — فيما خلا أفقر الطبقات — فى عربات تجرها الجياد ، التى كانت قد بدأت تؤدى خدمة بريدية منتظمة لقاء بنس فى ١٦٥٧ ، ثم استخدمت لنقل الركاب فى مواعيد منتظمة فى ١٦٥٨ ، وكانت هذه العربات قد استخدمت لنقل السلع والتجارة داخل المدينة منذ ١٦٢٥ . وتنقل كبار الأغنياء فى عربات تجرها ستة جياد . وكانوا يصطحبون ثلاث فرق من الجياد ، لا لمجرد العرض وحب الظهور ، ولكن لتجر العربة فى الطريق الموحلة . وكانت الماشية المحلية فى بعض الأحيان تربط أمام الجياد لتشد العربة وتسحبها من المستنقعات العميقة . لقد كانت الطرقات مغطاة بالأتربة أو الأوحال . إن الحانات والانزال على جانبى الطريق ، بالخليط العجيب من نزلائها من سائقى العربات والمسافرين والممثلين والبائعين واللصوص والبغايا ، كانت تهيىء السبيل أمام هؤلاء جميعا للاسهام فى الأدب فى انجلترا وهكذا كانت تتشكل انجلترا الخشنة المحببة الى النفس والمفعمة بالحيوية ، التى عرفها دكنز فى شبابه .

٧ — الدين والسياسة

استمر الصراع بين المذاهب الدينية ، وتجدد النزاع القديم بين الملك والبرلمان ، وسط تفتح الناس وتوافر أسباب الحياة لديهم وتكاثرهم . وأحزن الملك المبتهج أن يرى مجلس العموم ، بعدما أظهر من اذعان وامتثال فى شهر العسل ، يغار من سلطة الملك وقوته ، ويقبض عنه الاعتمادات . لقد كان الملك رقيق القلب ولكنه حازم صلب العود . فولى وجهه شطر ملك فرنسا ليحصل منه على قروض خاصة ، ووعد ، وواضح أنه رغب — فى التخفيف من ويلات الكاثوليك الانجليز ، كما وعد بتأييد سياسة لويس الرابع عشر ضد الأراضى الوطيئة ، وبيع ثغر دنكرك على القنال الانجليزى لفرنسا ، وكان جنود كرومول قد استولوا عليه . والحق أن الدفاع عنه كان يكلف أموالا طائلة ، وكان شوكة فى جنب فرنسا . فتخلى شارل عن دنكرك (١٦٦٢) مقابل خمسة ملايين فرنك بالاضافة الى اعانات سرية من البوربون ، استطاع بها لبعض الوقت أن يتجاهل أو ليجار كية الأرض والمال التى تحكمت فى البرلمان آنذاك

ان هؤلاء الأوليجاركين ، على أية حال ، رأوا أن أموال الحكومة ينبغى أن تستخدم فى شن حرب مربحة أخرى ضد الهولنديين . ان نفس المنافسة على التجارة ومصايد الأسماك التى أدت الى الحرب الهولندية الاولى من قبل فى ١٦٥٢ هى التى عززت فكرة الحرب الثانية ١٦٦٤ . وقاوم شارل هذا الاتجاه الى الحرب ، لأطول مدة ممكنة ، لأنه آثر المحبة والمودة إيثار . وكتب لأخته يقول : لم أر قط مثل هذه الشهوة الجامحة للحرب فى الريف والحضر كليهما ، وبخاصة لدى رجال البرلمان . إنى لأجد أننى الرجل الوحيد الذى لا يريد الحرب فى مملكتى(١٣٥) » .

لقد ساءت الأحوال . وحارب الأسطول الإنجليزى ببسالة على الرغم من سوء تغذيته وضآلة ملابسه وذخائره ، ولكنه خسر بقدر ما انتصر ،

وفى الوقت الذى حمى فيه وطيس الحرب ، ترك الطاعون والحريق لندن موحشة مقفرة ، كما ترك انجلترا مفلسة ، وفى أخريات عام ١٦٦٦ فتح الهولنديون باب المنازعات لعقد الصلح وسر الملك بقرب التوصل إلى تفاهم ، فأرسل مندوبين إلى بريدا . ووثوقا منه بأن الإتفاق كان وشيكا ، ومذ رأى أن أمواله على وشك النفاد ، فإنه نحى جانبا من أسطوله فى « مدواى » ، وسمح للبحارة بالاشتغال على السفن التجارية . فما كان من « دى رويتر » إلا أن قاد أسطولا هولنديا إلى التيمز ومدواى ودمر معظم السفن الإنجليزية التى خلت من الرجال . ويقول بيبز أنه فى تلك الليلة « كان الملك يتناول العشاء مع ليدى كاسلمين عند دوقة مونموث ، وقد شغل الجميع إلى حد الجنون باصطياد فراشه مسكينة(١٣٦) » وعندما وصلت أنباء الهجوم إلى لندن ، دعى كل رجل مفتول العضلات إلى حمل السلاح . ولكن الهولنديين كذلك رغبوا فى الصلح ، لأن الفرنسيين كانوا قد أغاروا على إقليم فلاندرز . وأنهت معاهدة بريدا فى ٢١ يوليه ١٦٦٧ ، الحرب الهولندية الثانية بشروط لم يرتح لها الجميع .

وأضعف هذا الإخفاق التام وتلك الكوارث التى توالت على لندن ، مركز الملك إلى حد أن بعض الإنجليز فكروا فى خلعه . وطالب البرلمان بفرض رقابة برلمانية على مصروفات الحكومة . وأذعن الملك ، لأنه كان خالى الوفاض ، ولأن خطوة أخرى قد اتخذت نحو سيادة البرلمان الذى طالب كذلك بعزل كلارندون ، لسوء معالجته للشئون الخارجية . ولم يكن شارل يكره عزله ، لأن مستشاره كان يعارض تحركه فى إتجاه التسامح الدينى ، وينتقد إنغماسه مع الخليلات ، ولم يكتف مجلس العموم باستقالة كلارندون ، فقدم إقتراحا بتنحيته بتهمة خضوعه الذليل لفرنسا . فاستمع كلارندون لنصيحة الملك ، ولاذ بالفرار إلى القارة . وكانت خاتمة محزنة قاسية لرجل حفل سجل حياته بالخدمات . وكرم الشيخ الهرم منفاه بتدوين أجل مؤلف تاريخى أخرجه الأدب الإنجليزى حتى ذاك اليوم . ووافته المنية فى روان

(على السين فى شمال فرنسا) فى ١٦٧٤ ، وهو فى الخامسة والستين .

وعين الملك شارل (١٦٦٨) خمسة رجال ليحلوا محل كلارندون : توماس كليفورد ، إرل آرلنجتون ، ودوق بكنجهام ، ولورد آشلى (الذى أصبح على الفور إرل شافتسبرى الأول) وإرل لودرديل . وكونت الحروف الأولى من أسمائهم لفظة « كابال Cabal » التى سميت بها الوزارة الجديدة . وكان كليفورد يعلن عن كثلكته، وكان آرلنجتون ميالا إلى هذا المذهب، وكان بكنجهام خليعا فاسقا ، وكان شافتسبرى متسامحا شكاكا ،أما لودرديل فكان من « رجال المواثيق » السابقين ، وهو الذى فرض النظام الأسقفى بالنار والسيف ، على مواطنيه الاسكتلنديين . واستمع شارل إلى آرائهم أو مشوراتهم المتعارضة . ولكن تزايد ، على مر الأيام اعتماده على نفسه والتزامه برأيه الخاص .

وكان للملك هدفان أساسيان : تجديد الملكية المطلقة وإقامة الكاثوليكية ورفع شأنها فى إنجلترا . ونظر بعين الأمل إلى أن الذى سيخلفه على العرش هو أخوه الكاثوليكى جيمس ، وتبادل الرسائل مع زعيم اليسوعيين فى رومه ، واستقبل سرا مندوبا بابويا قدم إلى لندن من بروكسل(١٣٧) . وفى يناير ١٦٦٩ أبلغ أخاه وكليفورد وآرلنجتون ولورد آرندل أنه يرغب فى المصالحة مع كنيسة رومه ، وفى إعادة كل الإنجليز إلى المذهب القديم(١٣٨) . أن أخته هنرييتا لم تكف يوما عن أن تحضه على أن يعلن للملأ فى جرأة وشجاعة عن إرتداده إلى الكثلكة .

وفى مايو ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر هنرييتا إلى إنجلترا وفى معيتها عدد من الدبلوماسيين الدهاة ، ليعاونوها على ربط شارل بسياسة فرنسية كاثوليكية . وفى أول يونية ١٦٧٠ وقع كليفورد وآروندل وآرلنجتون باسم إنجلترا معاهدة دوفر السرية . ووافق ملك فرنسا على أن يدفع لشارل ١٥٠ ألف فرنك عند إعلان إرتداده إلى الكثلكة . وتزويده ، عند الاقتضاء ، بستة آلاف جندى تتولى فرنسا الانفاق عليهم ، وكان على شارل أن يدخل الحرب إلى جانب فرنسا ضد المقاطعات المتحدة عندمايطلب

إليه ذلك . على أن يتسلم من فرنسا ٢٢٥ ألف جنيه طيلة قيام الحرب ، وكان لشارل أن يستولى على بعض الجزر الهولندية ويحتفظ بها ، كما كان عليه أن أن يؤيد مطالب لويس الرابع عشر فى أن يرث أسبانيا(١٣٩) . وامعاناً فى خداع البرلمان والشعب فى إنجلترا ، بعث شارل بدوق بكنجهام إلى إلى باريس ليصوغ معاهدة صورية زائفة وقعت فى ٢١ ديسمبر ١٦٧٠ ونشرت على الملأ ، تعهدت فيها إنجلترا بالاشتراك فى الحرب ضد الهولنديين ، ولكن لم يرد ذكر العقيدة الدينية .

وتلكأ شارل نحو خمسة عشر عاما فى اعلان تحوله الى الكثلكة . ولو أن أخاه أعلن تحوله إليها صراحة فى ١٦٧٠ ، ولكن ارل أرلنجوت نفسه ، وهو الذى يؤيد الكاثوليكية ويميل اليها ، حذر الملك من اعلانه التحول الى هذا المذهب — كما فعل أخوه — قد يعجل بقيام ثورة . ومهما يكن من أمر ، فان شارل تحرك نحو هدفه بأن أصدر فى ١٥ مارس ١٦٥٢ ، إعلان التسامح الثانى ، « لذوى الضمائر الرقيقة » يوقف فيـــه العمل » بكل قوانين العقوبات ، أيا كانت ، فى الأمور الكنسية ، ضد المنشقين أو المتمردين والمخالفين وفى الوقت نفسه أخلى سبيل كل من كانوا أودعو السجون بسبب مخالفتهم لتشريعات البرلمان فى المسائل الدينية . وبذلك أطلق سراح مئات من المنشقين ، من الكويكرز . وأرسل زعماؤهم وفدا عنهم لتقديم الشكر للملك . وصعق المشيخيون والبيوريتانيون حين رأوا أن الحرية الجديدة التى منحت لهم امتد نطاقها لتشمل الكاثوليك وأنصار تجديد العماد ، كما فزع الأنجليكانيون من «أن البابويين والفرق الدينية ذوات المذاهب المختلفة » يجتمعون علنا فى لندن . ولمدة عام كامل نعمت انجلترا بالتسامح الدينى أو شقيت به .

وفى ١٧ مارس ١٦٧٢ شنت انجلترا الحرب الهولندية الثالثة . وتلك مسألة كان الملك والبرلمان كلاهما على اتفاق فيها . واعتمد البرلمان ٠٠٠ر ٢٥٠ر ١ جنيه للحرب . على أن يسلم هذا المبلغ للحكومة على أقساط كان من الواضح أنها تعتمد على استرضاء الملك البرلمان وموافقته على تشريعاته الدينية وأعلن مجلس العموم « أن قوانين العقوبات فى المسائل الدينية لا يمكن ابطال العمل

بها الابة نون يسنه البرلمان . وأرسل الى الملك طلبا بسحب اعلان التسامح ومذ كان لويس الرابع عشر يتوق الى أن يرى انجلترا صفا واحدا كالبنيان المرصوص ، تأييدا للحرب ضد الهولنديين ، فانه نصح الملك شارل بالغاء اعلان التسامح حتى تنتهى الحرب بالفوز ، وأذعن شارل ، وألغى الاعلان فى ٨ مارس ١٦٧٣ .

ومن المحتمل أنه فى هذا الوقت ، ترامت الى زعماء البروتستانت أنباء معاهدة دوفر السرية أو أشتموا رائحتها ورغبة فى الحيلولة دون تحول الملك الى الكثلكة ، سن المجلسان كلاهما « قانون الاختبار » الذى ينص على أنه يجب على كل أصحاب الوظائف المدنية والعسكرية فى انجلترا أن يقسموا علنا على تخليهم عن النظرية الكاثوليكية التى تقول بتحول خبز القربان والخمر الى جسد المسيح ودمه وأن يتناولوا الاسرار المقدسة طبقا للطقوس الانجليكانية وكافح كليفورد هذا المشروع بضراوة ، وبعد اقراره استقال من الحكومة ، وآوى الى ضيعته ، وما لبث حتى مات منتحرا كما يظن ايفلين . أما شافتسبرى فقد عضده بكل قوة ، وعزل من الوزارة ، فجعل من نفسه زعيما « لحزب الريف » الذى ناهض ، بعنف يقارب الثورة ، « حزب البلاط » الذى كان يؤيد الملك . وبذلك قضى على الوزارة « الكابال » (١٦٧٣) . وأصبح أرل دابى كبير الوزراء .

واعتزل جيمس كل مناصبه الحكوميه . وخفف من حدة المعارضة ضده بعض الشيء ، أنه على الرغم من أن زوجته الأولى إرتضت الكثلكة مذهبا من قبل ، فإن إبنتيها — الملكة مارى والملكة آن فيما بعد — نشأتا على المذهب البروتستانتى . لكن زواجه آنذاك (٣٠ سبتمبر ١٦٦٣) من أميرة كاثوليكية أثار ضده حملة من أقسى الإتهامات . تلك هى الأميرة مارى مودينا التى دمغت بأنها « كبرى بنات البابا » ، والمفروض أنها لابد أن تنشىء أولادها على الكاثوليكية . وفى الحال قدمت إلى البرلمان مشروعات قوانين تقضى بتنشئة أبناء الأسرة المالكة على المذهب البروتستانتى .

إن تطور الأحداث على هذا النحو أثار سخط انجلترا على الحرب ضد المقاطعات المتحدة وجعلها تحس بالمرارة ، فلو أن ملك انجلترا كان كاثوليكيا لانحاز إن عاجلا أو آجلا إلى جانب فرنسا وأسبانيا فى تدمير الجمهورية الهولندية تدميرا ، تلك الجمهورية التى لم تبد الآن منافسا تجاريا ، بل بدت معقل البروتستانتية فى القارة ، فإذا سقط هذا الحصن الحصين فكيف يتسنى للبروتستانتية الإنجليزية أن تثبت وأن تقاوم ؟ وفوض شارل عن طيب خاطر ، سير وليم تمبل فى توقيع صلح منفرد مع الهولنديين . وفى ٩ فبراير ١٦٧٤ وقعت معاهدة وستمنستر التى أنهت الحرب الهولندية الثالثة .

٨ - (المؤامرة البابوية)

وأعقبت هذه الأحداث فترة كادت أن تتسم بالصفاء والتعقل . وحيث تسلم شارل من لويس الرابع عشر مبلغا اضافيا قدره ٥٠٠ ألف كراون ، فإنه عطل البرلمان المتعب إلى أجل ، وعاد إلى عشيقاته . ولكن السياسة لم تتوقف . فان شافتسبرى وغيره من زعماء المعارضة أسسوا فى ١٦٧٥ « نادى الوشاح الأخضر » . ومن هذا المركز نشر « حزب الريف » دعايته دفاعا عن البرلمان والبروتستانتية ضد ملك يتآمر مع فرنسا الكاثوليكية ، ووريثه الذى زف علنا إلى زوجة كاثوليكية . وفى ١٦٨٠ أطلق على رجال حزب الريف اسم Whigs ، وعلى المدافعين عن سلطة الملك اسم Tories* وبدا للملك شارل أن شافتسبرى « أضعف الرجال وأخبثهم(١٤١) » . وقال عنه بيرنت « أن علمه سطحى هزيل ، وأن غروره سخيف ، وأن

(*) من الواضح ن هويج اختصار لكلمة « هويجامور » ، وهذا اسم عصبة من الاسكتلنديين نشطت فى مقاومة شارل الأول (١٦٤٨) . أما تورى فهى لفظة أيرلندية معناها لص . وقد أطلقها تيتسى أوتس على « حزب البلاط » لأول مرة (١٦٨٠)(١٤٠) .

عقليته تافهة(١٤٢) » ولكن جون لوك الذى عاش مع شافتسبرى لمدة خمسة عشر عاما رأى أنه مناضل باسل جرىء عن الحرية المدنية والدينية والفكرية أو الفلسفية. وقال عنه بيرنت أنه يدين بالربوبية (مذهب طبيعى يقوم على العقل لا على الوحى) وقد يحق لنا أن نرتاب فى ديانته من قوله هو نفسه « ليس للعقلاء من الرجال إلا دين واحد » ، فلما سألته احدى السيدات ، وما هو ، كان جوابه « أن عقلاء الرجال لا يفصحون عنه قط »(١٤٣) .

وخفت حدة التوتر الدينى بعض الشىء فى ١٦٧٧ ، حين تزوج وليم أورنج من مارى البروتستانتية كبرى بنات دوق يورك . فإذا ظل جيمس دون عقب ذكر ، فان مارى سوف تخلفه ، فى وراثة العرش ، ومن ثم ترتبط انجلترا بهولنده البروتستانتية بحكم المصاهرة ، ولكن فى ٢٨ أغسطس ١٦٧٨ مثل تيتس أوتس أمام الملك وأعلن أنه أكتشف « مؤامرة بابوية : ذلك أن البابا وملك فرنسا ورئيس أساقفة أرماج واليسوعيون فى انجلترا وأيرلنده وأسبانيا كان يدبرون قتـــل شارل وخلع أخيه ، وفرض الكاثوليكية فى انجلترا بحد السيف ، وأن ثلاثة آلاف سفاح سيتولون ذبح زعماء البروتستانت فى لندن ، وأن لندن نفسها ــ قلعة البروتستانتية ــ كانوا يدبرون احراقها عن آخرها .

كان أوتس ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين من العمر ، ابن أحد أنصار تجديد العماد . وكان قد أصبح قسيسا أنجليكانيا ، ولكنه فصل من وظيفته الكنسية لسوء سلوكه(١٤٤) . ثم قبل — أو تظاهر بقبول — التحول إلى الكثلكة . وكان قد درس فى الكليات اليسوعية فى بلد الوليد (أسبانيا) وسانت أومر حيث فصل أيضا . آخر الأمر(١٤٥) . وفى نفس الوقت ، زعم الآن أنه كان قد اطلع على خطط الجزويت السرية لغزو انجلترا . واعترف أنه شهد فى ٢٤ أبريل ١٦٧٨ مؤتمرا يسوعيا فى لندن نوقشت فيه

وسائل قتل الملك، وعدد أسماء خمسة من النبلاء الكاثوليك ، على أنهم مشتركون فى المؤامرة هم : أروندل ، بويس ، بتر ، ستافورد ، بلاسيس . وعندما أضاف أوتس أن بلاسيس هذا كان سيعين قائدا عاما لجيش البابا ، ضحك شارل ساخرا ، حيث كان بلاسيس طريح الفراش بداء النقرس . وخلص الملك إلى أن أوتس لفق القصة كلها أملا فى الحصول على مكافأة ، وصرفه من حضرته .

ولكن المجلس المخصوص ارتأى أنه من الحكمة أن يفترض بعض الصدق فى الاتهامات ، واستدعى أوتس ليمثل أمامه فى ٢٨ سبتمبر . وخشى أوتس أن يزج به السجن ، فقصد إلى قاضى الصلح سيراد موند برى جودفرى وأودعه اعترافا خطيا مقرونا بقسم ، فصل فيه المؤامرة تفصيلا . وأصدر المجلس ، متأثرا بهذه الأدلة ، أوامره بالقبض على عدد من أنصار البابوية الذين تضمنهم اعتراف أوتس . وكان من بينهم أدوارد كولمان الذى كان لمدة سنوات (حتى عزل بأمر من الملك) سكرتير الدوقة يورك . وأحرق كولمان بعض أوراقه قبل القبض عليه ، ولكن الأوراق التى لم يكن لديه متسع من الوقت لاحراقها أوضحت أن كولمان والأب لاشيز قسيس لويس الرابع ، تبادلا من الرسائل مايعبر عن أمل الطرفين (شارل ولويس) فى أن تصبح انجلترا كاثوليكية فى أسرع وقت وفى هذه الرسائل اقترح كولمان أن يرسل إليه « لويس الرابع عشر أموالا ليكسب بها أعضاء البرلمان إلى جانب قضية الكثلكة ، ثم أضاف « أن نجاحنا سوف يكون ضربة شديدة للعقيدة البروتستانتية ، لم تلق مثلها منذ نشأتها .... تلك هى تحول ثلاث ممالك ومن ثم ، فربما كان فى هذا القضاء التام على هذه الهرطقة الوبيلة(١٤٦) إن اعدام كولمان لمعظم أوراقه حدا بالمجلس إلى الاعتقاد بأن كولمان على علم بالمؤامرة التى وصفها أوتس ، وربما كان شريكا فيها . واستنتج شارل نفسه من تلك الرسائل ، وجود مؤامرة حقيقية بشكل ما .

وفى ١٢ أكتوبر اختفى القاضى جودفرى ، وبعد خمسة أيام وجدت جثته فى أحد الحقول فى الضواحى . وبات من الواضح أنه قتل بيد عملاء مجهولين ، ولأسباب غير معروفة حتى الآن ، ولكن البروتستانت نسبوا القتل إلى الكاثوليك الذين كانوا يأملون فى الحيلولة دون نشر اعترافات أوتس . ويبدو أن هذا الحادث أكد الاتهامات . وفى هذا الجو الذى سادته الريبة وعدم الثقة ، الذى خلقته معاهدة دوفر السرية ، والخوف من اعتلاء جيمس عرش انجلترا ، كان طبيعيا أن تصدق انجلترا البروتستانتية آنذاك كل ماجاء على لسان أوتس من اتهامات ، وأن يعتريها نوبة من الجنون بدامعها أن حماية البروتستانية تتطلب اعتقال كل من أورد أوتس ذكرهم فى المؤامرة ، إن لم يكن اعدامهم .

وبدأت فترة من حكم الإرهاب امتدت لنحو أربع سنوات . وفر جيمس إلى الأراضى الوطيئة وتسلح أهالى لندن استمدادا لمقاومة أى غزو متوقع . ونصبت المدافع فى هويتهول . واتخذ الحراس أماكنهم فى الأقبية والسراديب تحت مبنى البرلمان بمجلسيه ليحولوا دون « مشروع بارود » آخر لنسف المبنى . وأقر البرلمان قانونا لطرد الكاثوليك من مجلس اللوردات ، وكرم أوتس بوصفه « مخلص الأمه » وكافأه بتخصيص معاش سنوى له قدره ١٢٠٠ جنيه لمدى الحياة ومنحه مسكنا فى قصر هويتهول . وسرعان ما ازدحمت السجون باليسوعيين والكهنه غير المنتسبين إلى رهبنات ، والكاثوليك العلمانيين الذين أورد ذكرهم أوتس أو وليم بدلو الذى ظهر ، مدعيا العلم بأشياء تؤكد صحه اتهامات أوتس .

وفى ٢٤ نوفمبر وضع أوتس أمام المجلس اتهاما جديدا مروعا ، ذلك أنه كان قد سمع الملكه تبدى موافقتها على قتل زوجها بالسم ، بيد طبيبها الخاص . وهنا أخذه شارل بهذه الكذبه الصارخه . وفقد ثقته فى أقواله كلها ، وأمر بالقبض عليه . ولكن مجلس العموم أمر بالإفراج عنه ، وبالقبض على ثلاثه من خدم الملكه . واقترع على اصدار بيان يطالب

بعزلها . وقصد الملك إلى مجلس اللوردات ودافع عن إخلاص زوجته وولائها، وأقنع اللوردات بالامتناع عن الموافقة على بيان النواب . وفى ٢٧ نوفمبر حوكم كولمان وكاثوليكى علمانى آخر ، وثبتت إدانتهما وأعدما . وفى ١٧ ديسمبر أعدم ستة من اليسوعيين وثلاثة من الكهنة المنتسبين إلى رهبنات . وفى ٥ فبراير ١٦٧٩ شنق ثلاثة رجال بتهمة قتل جودفرى . وثبت فيما بعد براءة هؤلاء الاثنى عشر .

وتزايدت الحملات إقترابا من الملك ، ففى ١٩ ديسمبر ١٦٧٨ تلقى البرلمان من باريس أنباء تفيد أن دانبى كان قد تسلم من لويس الرابع عشر مبالغ طائلة من المال . ورفض الوزير إيضاح أنها كانت إعانات فرنسية للملك . ووجه مجلس العموم الإتهام إلى الوزير . وخشى الملك الحكم على مستشاره الملكى بالاعدام ، فحل ، فى ٢٤ يناير ١٩٧٩ « برلمان الفرسان » الذى كان قد التأم على فترات متقطعة ، لمدة ثمانية عشر عاما ، أى أنه كان أطول من « البرلمان الطويل » .

ولكن برلمان « الهويج » الذى اجتمع فى ٦ مارس ، كان فى عدائه للكاثوليكية وللملك ، أشد إندفاعا وتحمسا من البرلمان السابق . واتهم مجلس العموم دانبى بالخيانة العظمى ، ولكن اللوردات أنقذوه بزجه فى سجن لندن ، حيث قضى فيه ، فى هدوء وقلق ، السنوات الخمس المضطربة التالية . وبناء على نصيحة سير وليم تمبل ، عين شارل مجلسا جديداً من ثلاثين عضوا ، بينهم — رغبة فى تخفيف حدة المعارضة — زعيما حزب الهويج : شافتسبرى وجورج سافيل ، مركيز هاليفاكس وبناء على توصية الملك اختير شافتسبرى رئيسا للمجلس . وسعيا وراء المزيد من تهدئة العاصفة ، عرض الملك على البرلمان تسوية بديلة لاستبعاد أخيه عن العرش : ألا يسمح لأى كاثوليكى بمقعد فى البرلمان أو بتولى منصب قيادى يتطلب الثقة ، وألا يكون للملك حق التعيين فى المناصب الدينية ، وأن يخضع تعيين القضاء لموافقة البرلمان . وان يكون للبرلمان حق الرقابة والاشراف

على القوات البرية والبحرية(١٤٧). ولكن البرلمان أحس بشيء من الارتياب وعدم الثقة فى موافقة جيمس على مثل هذه الاتفاقية. وفى ١١ مايو قدم شافتسبرى نفسه أول مشروع قانون لاستبعاده (جيمس) فى عبارة واضحة جلية لا لبس فيها « إسقاط حق دوق يورك فى وراثة التاج الامبراطورى لهذه المملكة ». وكان موضع فخر وشرف للبرلمان أنه فى ٢٦ مايو توسع فى حق التحقيق فى قانونية الاعتقال: بمعنى أنه يمكن الإفراج بكفالة عن أى سجين، فيما عدا المتهمين بالخيانة أو بجناية، وفى مثل هذه الحالة ينبغى أن يحاكم المتهم فى الدورة التالية للمحكمة، وألا أطلق سراحه. وكان على فرنسا أن تنتظر ١١٠ سنوات حتى تنعم بضمانات مماثلة ضد الاعتقالات التعسفية. وفى ٢٧ مايو خشى الملك إقرار « مشروع قانون الاستبعاد » فحل البرلمان.

ولم يكن حق التحقيق فى قانونية الاعتقال مجديا بالنسبة لأنصار البابوية الذين اتهمهم أوتس، لأنهم حوكموا مع شيء من التباطؤ، حتى إذا أدينوا بالخيانة أعدموا فى سرعة غاضبة، وحشد الكثير منهم إلى المقصلة أو ساحة الإعدام طيلة عام ١٦٧٩، وكانت محاكمتهم سريعة جداً لأن القضاة الذين روعتهم صيحات الجموع المتعطشة للدماء خارج المحكمة، أدانوا كثيرا من المدعى عليهم دون تمحيص الأدلة أو مواجهة الشهود بعضهم ببعض. وهب الشهود المزيفون الذين أغراهم ما أغدق على أوتس من مكافأة، وكأنما هبوا من مرقدهم، وأقسموا بأغلظ الأيمان على ما يقولون: فروى أحدهم أن جيشا من ثلاثين ألفا كان قادما من أسبانيا، وقال آخر أنهم وعدوه بخمسمائة جنيه وبضمه إلى قاعة القديسين إذا هو أطاح برأس الملك، وذكر شاهد مزيف ثالث بأنه كان قد سمع أحد رجال المصارف الكاثوليك الأثرياء يأخذ على نفسه عهد بأن يقوم بمثل هذا العمل(١٤٨). ولم يسمح للمتهم بأى محام أو مستشار قانونى. ولم يبلغ بما نسب إليه إلا فى يوم المحاكمة. وكان يفترض أنه مذنب حتى يستطيع أن يثبت براءته(١٤٩). وحتى تسهل

الإدانة أحيوا قانونا قديما كان معمولا به فى عهد اليزابث : وهو أن وجود أى كاهن فى إنجلترا جريمة عقوبتها الإعدام . وكانت الجموع المحتشدة حول مبنى المحكمة تصرخ وتولول فى وجوه شهود الدفاع استهجانا ، وتقذفهم بالحجارة ، ويهتفون ويهللون فرحا عند إعلان الحكم بالأدانة(١٥٠) .

فت كل هذا فى عضد شارل ، وكان إمتحانا قاسيا للملك الذى غمرته يوما البهجة والفرح ، والذى رأى الآن كل آماله تنهار ، وسلطاته تنتقص ، وزوجته تعانى الاذلال ، وأخاه ينبوه بالاحتقار والازدراء وينحى . وفى ذروة العاصفة خر شارل مريضاً مرضا خطيراً حتى توقعوا موته بين ساعة وأخرى . واستدعى هاليفاكس جيمس من بروكسل ، ولكن زعماء الهويج أمروا الجيش بالحيلولة دون عودته . واتفق شافستبرى ومونموث ولورد رسل ولورد جراى على أنهم — فى حالة وفاة شارل — ، سيتزعمون عصيانا مسلحا لمنع أخيه من ارتقاء العرش(١٥١) ، وتيسر لجيمس أن يدخل البلاد متنكرا ، وشق طريقه إلى جوار الملك . وتظاهر شارل بأنه أبل من مرضه ، وابتسم للمخاوف التى ساورت حتى أعداءه الذين توقعوا موته . والحق أنه لم يبرأ من علته قط .

وبقى العداء للكاثوليك على أشده حتى تخبط أوتس أثناء محاكمة سير جورج ويكمان طبيب الملكة . ففى شهادته أمام المجلس كان قد برأ الطبيب ، ولكنه فى المحاكمة اتهمه بتدبير دس السم للملك . واكتشف هذا التناقض فى الأقوال قاضى القضاة سكروجز الذى سبق له أن تولى محاكمة الكاثوليك بمنتهى الشدة . وصدر الحكم ببراءة ويكمان ، ومن ثم صارت شهادة أوتس تسمع فى مزيد من التدقيق ، وامتنع الشهود المزيفون الذين كانوا يعززون أقواله ، عن مساندته . وكان إعدام أوليفر بلنكت رئيس أساقفة آرماج الكاثوليكى ، آخر إجراء تم فى حركة الارهاب التى قامت ضد الكاثوليك (١ يوليه ١٦٨١) .

ولما خفت وطأة الرعب والانفعال تأكد لدى بعض عقلاء الرجال أن

أوتس ، عن طريق الريب التي لا تستند إلى أساس من ناحية ومن ناحية أخرى عن الأكاذيب ، عجل بإرسال كثير من الأبرياء إلى الموت قبل الأوان . وانتهوا إلى أنه لم يكن ثمة تدبير لقتل الملك أو ذبح البروتستانت أو إحراق لندن . ولكنهم أحسوا بأنه كانت هناك مؤامرة حقيقية ، كاثوليكية ، وأن لم تكن « بابوية » : تلك هي أن أركان الحكومة دبروا ، أو راودهم الأمل ، بمساعدة أموال (أو جنود إذا لزم الأمر) من فرنسا ، أن يقضوا على عجز الكاثوليك وعدم أهليتهم الشرعية في إنجلترا ، ويحولوا الملك إلى الكاثوليكية ، ويثبتوا حق أخيه الذي تحول فعلا في ارتقاء العرش ، ويستخدموا كل الوسائل لتدعيم الكثلكة دينا للدولة ، وفي النهاية للشعب . والواقع أن كل هذا تضمنته معاهدة دوفر السرية التي وقعت من قبل في ١٦٧٠ وكان شارل قد تراجع عن هذه الإتفاقية . ولكن رغباته لم تتبدل ولم يتخل عنها قط ، وظل مصمما على أن يعتلي أخوه عرش إنجلترا ويكون ملكا عليها .

٩ - خاتمة الملهاة

أما شافتسبري فقد وطد العزم على نقيض ما يبتغيه الملك . لقد اعترف كولمان أثناء محاكمته بأن جيمس علم أمر المراسلات المتبادلة بينه وبين الأب لاشيز ، وأقرها(١٥٢) . وأحس شافتسبري بأن ارتقاء جيمس عرش انجلترا لا بد أن يحقق المرحلة الأولى من « المؤامرة البابوية » وعرض أن يساند شارل ويقف إلى جانبه إذا هو طلق الملكة العقيم وتزوج من بروتستانتية قد ينجب منها ابنا بروتستانتيا . وأبى شارل أن يدع كاترين دي براجانزا تكرر الدور الذي لعبته كاترين أوف أراجون . فولى شافتسبري وجهه شطر دوق مونموث الإبن غير الشرعي للملك ، الذي لم يغفر قط لأبيه خداعه وابعاده عن العرش بتقصيره في الزواج من أمه . ونشر شافتسبري فكرة أن شارل كان بالفعل قد تزوج من لوسي والتر ، وأن دوق مونموث

هو الوريث الشرعى للعرش . فما كان من شارل إلا أن كذب هذا بإعلانه أنه لم يتزوج قط إلا من كاترين أوف براجانزا ، وإذ وجد أن شافتسبرى خصم عنيد ، فإنه أقصاه عن المجلس المخصوص (١٣ أكتوبر ١٦٧٩) .

وأثناء توالى الأزمات والمحن على هذا النحو كاد شارل أن يبدل من خلقه ومن شخصيته، فودع حياة البهجة والدعة. وباع اسطبلاته ، وانصرف بكليته إلى الإدارة والسياسة ، وحارب أعداءه بتراجع محكم التدبير ، حتى جاوزوا حدودهم فانتهوا إلى الفشل . إن الملك فى سنواته الخمس الأخيرة أبدى من قوة العزيمة والمقدرة ما أدهش حتى الأصدقاء. وإذ عاودته الطمأنينة والثقة فقد دعا برلمانه الرابع .

واجتمع البرلمان فى ٢١ أكتوبر ١٦٨٠ . وأقر مجلس العموم فى شهر نوفمبر « مشروع قانون الاستبعاد » الثانى ، وقدم إلى مجلس اللوردات . وهنا تحول هاليفاكس الذى كان يصوت حتى تلك اللحظة إلى جانب « حزب الهويج » تقول تحول الآن إلى جانب الملك ، وبدأ يحظى بلقب « القلب الحول » ويزهو ويختـــال به . إنه كان يبغض جيمس ويرتاب فى الكاثوليكية ، ولكنه اتفق مع شارل فى ضرورة الإبقاء على مبدأ الملكية الوراثية . كما خشى أن يقود شافتسبرى انجلترا إلى حرب أهلية ثانية(١٥٣) . ومن ثم فإنه بفصاحته ومنطقه فى المناقشة الطويلة التى جرت بشأن « مشروع قانون الاستبعاد » أقنع اللوردات برفض المشروع . ورد مجلس العموم على هذا ، برفض الموافقة على أية اعتمادات مالية للملك، وحظر على التجار وأصحاب المصارف ، اقراضه أية أموال . وحاكم هاليفاكس وسكروجز وفيكونت ستافورد وهو أحد اللوردات الخمسة المعتقلين فى سجن لندن . وحكم على ستافورد بالإعدام بناء على شهادة أوتس ، وضرب عنقه فى ٧ ديسمبر . وفض الملك البرلمان فى ١٨ يناير ١٦٨١ .

وبدلا من أن يضحى شارل بأخيه بسبب حاجته إلى المال، اعتزم شارل أن يحول الحكومة بأن يصبح من جديد أسيرا للملك الفرنسى لويس الرابع

عشر . وارتضى أن ينظر فى شىء من التجلد ورباطة الجأش إلى سياسة فرنسا العدوانية ، مقابل ٧٠٠ ألف جنيه(١٥٤) — وهو مبلغ يغنيه لمدة سنوات عن إعانات البرلمان واعتماداته . فلما أحس بالقوة دعا برلمانه الخامس . ولكى يحرمه من تأييد جمهور لندن وقوات الطوارىء فيها ، فإنه ، أى الملك أمر باجتماعه فى أكسفورد . وهناك إلتقى الجمعان مدججين بالسلاح : شارل مع عدد كبير من حرسه ، وزعماء الهوبج مع أتباعهم حاملين السيوف والمسدسات رافعين أعلاماً كتب عليها « لا بابوية ولا عبودية » وأقر مجلس العموم فى الحال « مشروع قانون الاستبعاد » الثالث ، ولكن قبل أن يصل المشروع إلى مجلس اللوردات حل شارل البرلمان (٢٨ مارس ١٦٨١) .

وتوقع كثير من الناس أن يلجأ شافتسبرى الآن إلى الحرب الأهلية . أما الرأى العام الذى استرجع فى ذاكرته أحداث ١٦٤٢ — ١٦٦٠ فقد تحول عنه وانحاز إلى صف الملك . ودافع رجال الكنيسة الأنجليكانية دفاعا مجيدا عن حق جيمس الكاثوليكى فى ارتقاء العرش . وعندما حاول شافتسبرى أن يعيد تنظيم صفوف النواب المشنتين فى ميثاق تورى(١٥٥) ، أمر شارل باعتقاله ، ولكن هيئة المحلفين برأته (٢٤ نوفمبر) وعلى الرغم من أنه كان آنذاك مريضا بدرجة لا يكاد معها يقوى على المشى ، فإنه انضم إلى دوق مونموث فى ثورة علنية(١٥٦) . وأمر الملك باعتقالهما كليهما وهرب شافتسبرى من سجن لندن ، وفر إلى هولنده ، وهناك وافته منيته (٢١ يناير ١٦٨٣) بعد أن أنهكته الأحداث ، ولكنه خلف وراءه صديقه لوك ، ليتابع فى مجال الفلسفة ، المعركة التى لم يكتب لها لبعض الوقت التوفيق فى ميدان السياسة .

وصفح شارل عن مونموث ، ولكنه لم يغتفر فط المحلفين فى لندن تبرئتهم لشافتسبرى . والآن وقد تحول الملك النشوان إلى شخص آخر ، وكان متطرفا فى تحوله هذا ، فإنه عقد العزم على تحطيم استقلال المدن التى ترعرت فيها فكرة الهويج (الأحرار) بل الفكرة الثورية ، فأمر

بمراجعة المواثيق والعهود والقوانين التى هيأت الأجهزة البلدية الخروج على الارادة الملكية ، ووجد بالفعل فى هذه بعض النقص والخلل من الوجهة التشريعية ، فأعلن إلغاءها جميعا ، وصدرت عهود وقوانين جديده تنص على أن يكون للملك حق الاعتراض وحق عزل كل الموظفين الذين ينتخبون لهذه الهيئات البلدية (١٦٨٣) . وخضعت الآن حرية الكلام وحرية الصحافة لقيود جديدة ، وبدأت موجة اضطهاد المنشقين — لا الكاثوليك : لأن معظم المنشقين كانوا من الأحرار (الهويج) . وفى اسكتلنده قاد جيمس حملة التعذيب بنفسه ، وبدا أن انتصار حقوق الملك على اصلاحيات البرلمان بات انتصارا ساحقا كاملا ، وأن انجازات الثورة الكبرى كان واضحا أنه ينبغى التضحية بها فى نكسة أو رد فعل تؤيده أمة تخشى تجدد الحرب الأهلية . وعكس هاليفاكس شعور البلاد حين تخلى عن شافتسبرى ، وانحاز بحكمته المعتدلة البعيدة عن التطرف إلى جانب الملك ليكون فى خدمته (١٦٨٢ — ١٦٨٥) فكان حامل الأختام الملكية .

وقام أتباع شافتسبرى بمحاولة أخيرة . ففى يناير ١٦٨٧ ، اجتمع دوق مونموث وإرل اسكس وإرل كارليل ، ووليم لورد رسل وألجرنون سدنى فى دار جون همدن (حفيد بطل الحرب الأهلية) ورسموا الخطط لتطويق جيمس والتغلب عليه ، وقتل شارل إذا لزم الأمر . وراود سدنى أمل التقدم إلى خطوة أبعد ، وهى إعادة إقامة الجمهورية الانجليزية . وكان حفيد أحد أخوة سير فيليب سدنى « رئيس الفروسية » ، وحارب فى صف البرلمان أثناء الحرب الأهلية وجرح فى مارستن مور . وعين عضوا فى اللجنة التى شكلت لمحاكمة شارل الأول ، ولكنه رفض العمل بها على إعتبار أن الشعب لم يمنح اللجنة سلطة محاكمة الملك . وألقى نفسه فى القارة حين عادت الملكية ، فظل بها ، مشغولا بدراساته وأبحاثه ، وتدبير المؤامرات ضد شارل الثانى . وفى الحرب الهولندية الثانية حرض الهولنديين على غزو إنجلترا ، وعرض خدماته على الحكومة الفرنسية ليشعل نار الثورة فى إنجلترا إذا أمدته الحكومة الفرنسية بمائة

ألف كروان(١٥٧) . وفى ١٦٧٧ سمح له شارل بالعودة ليشهد وفاة والده ، وبقى فى إنجلترا وانضم إلى « حزب الريف » (الأحرار ، الهويج) . وفى كتابه « مقالات عن الحكومة » (الذى كتب ١٦٨١ ولم ينشر إلا فى ١٦٨٨) دافع سدنى عن المبادىء شبه الجمهورية ، واستبق لوك فى مهاجمته دفاع فلمر عن حقوق الملوك الإلهية ، وأكد حق الشعب فى محاكمة الملوك وخلعهم . ومن الواضح أن سدنى ورسل ، كليهما تسلما أموالا من الحكومـــة الفرنسية التى كان يهمها أن يظل شارل مشغولا بمشاكله الداخلية(١٥٨) .

وصح عزم « مجلس الستة » على أسر الملك . وكان معروفا أنه سيشهد سباق الخيل فى شهر مارس فى نيومارکت . وكان لابد له ، لدى عودته إلى لندن من أن يمر « براى هاوس » فى هودزدون فى شمال المدينة ، فتقرر أن تسد عربة محملة بالحشائش الجافة الطريق فى هذا المكان ، ومن ثم يمكن أسر الملك وربما أسر أخيه معه كذلك ، حيين أو ميتين . ولكن فى ٢٢ مارس شب حريق فى ميدان السباق ، وانتهت المسابقات قبل موعدها المقرر بأسبوع ، وعادالملك سالما إلى لندن قبل أن يعد المتآمرون عدتهم . وخشى أحدهم افتضاح الأمور واودالأمل فى العفو ، فأفضى بسر المؤامرة إلى الحكومة (١٢ يونية) . وقبض على كارليل فأكد الاعتراف وعفواعنه . واحتج مونموث بأنه برىء ، وعلى الرغم من أن شارل علم علم اليقين أن ابنه كاذب فيما يقول ، فإنه ألغى أمر إعتقاله . أما رسل فحوكم وثبتت إدانته وأعدم (٢١ يوليه ١٦٨٣) . وانتحر اسكس فى السجن . وعندئذ قال الملك « ما كان له أن يقنط من الرحمة ، فإنى مدين له بحياة(١٥٩) » فقد مات أبوه من قبل من أجل شارل الأول . وشنق عدد من صغار المشتركين فى « مؤامرة راى هاوس » وأخذ سدنى بجرم لم يقم عليه دليل كاف من الناحية القانونية ، ودافع عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقابل الموت بصدر رحب (٧ ديسمبر) . وكان شعاره « يدى هذه هى عدوة الطغاة » . ولكنه كان قد اختار سيفا

ذا حدين . ونطق وهو على المشنقة بكلمات تستحق الذكر : « إن الله ترك للشعوب حرية إقامة الحكومات كما تشاء(١٦٠) » . ورفض أية طقوس دينية قائلا أنه فى سلام مع الله فعلا .

لقد انتصر شارل ولكنه كان مشرفا على النهاية، ونعم ، مع جهد مضن، بشعبية جديدة ، وكانت إقتصاديات إنجلترا قد ازدهرت فى عهده ، أما الآن، والبلاد تتطلع إلى هدوء سياسى ، فقد ركنت إلى ملك كان يمثل بقاء الأمة ونظامها ، ولو كان معنى هذا ، لفترة من الزمن « ملكا كاثوليكيا » . وغفرت إنجلترا لشارل أخطاءه ، حين رأته ينهار ويذبل قبل الأوان . واتفقت معه ، بعض الشىء ، على أن الحكومة الإنتخابية ـ لا الملكية الوراثية ـ مدعاة للاضطراب والهرج اللذين يصاحبان انتخاب الحاكم عندما يحين موعده . واحترمت فيه اخلاصه لأخيه ، حتى فى الوقت الذى حزنت فيه لنتيجة هذا الإخلاص ، ورأت جيمس منتصرا ، ورأته ثانية قائدا أعلى للأسطول ، يتعقب أعداءه ليثأر منهم . وفى ينابر ١٦٨٥ رفع جيمس دعوى مدنية ضد تيتس أوتس يطالبه فيها بتعويض قدره مائة ألف جنيه . وكسب جيمس القضية . ولما كان أوتس عاجزاً عن الدفع فقد أودع السجن . وقال شارل فى حزن بالغ « لست أدرى ماذا سيفعل أخى عندما ينتهى الأجل وأفارق الحياة . أخشى ما أخشاه أنه عندما يأتى ليضع تاج الملك على رأسه ، أن يرغم على العودة من حيث أتى . على أنى سأعنى العناية كلها بأن أترك له مملكة يسودها السلام ، وكل أملى أن يحتفظ لها بهذا السلام لأمد طويل . ولكن هذا يثير كل مخاوفى ، ولست أؤمل فيه كثيرا ، بل لا يكاد أمل يدور بخلدى أنه سيتحقق(١٦١) » . ولما اعترض جيمس على تجول شارل حول لندن راكبا عربته دون حرس ، أمره شارل أن يهدىء من روعة : « لن يقتلنى أحد ليجلسك أنت على العرش(١٦٢) » .

ولا بد أنه اعترض على الأطباء . فإنه فى ٢ فبراير ١٦٨٥ أصيب بحالة تشنج واضطراب شديدة ، شوهت وجهه ، وجعلت فمه ، يرغى ، وأجرى

له دكتور كنج عملية فصد بشق أحد الأوردة . وكان لهذا نتيجة طيبة . ولكن مرافقى للملك استدعوا ثمانية عشر طبيبا آخرين ليشخصوا الداء ويصفوا الدواء . وطيلة خمسة أيام فى عذاب أليم ، استسلم الملك للحملة التى جردوها عليه مجتمعين . فبزلوا أوردته ، ووضعوا كئوس الحجام إلى كتفيه . وقصوا شعره ليزيلوا البثور والقروح من جلدة رأسه ، ووضعوا على باطن قدميه لصوقا من القاروروث الحـــام . وقال مؤرخ طبيب « ولـكى يزيلوا النزوات من عقه نفخوا فى أعلى خياشيمه الخربق (وهو عشب جميل الزهر) ثم جعلوه يعطس . ولـكى يتقيأ صبوا فى حلقة الأنتيمون وسلفات الزنك . ولتنظيف أمعائه أعطوه مطهرات قوية ، وعددا من الحقن الشرجية فى تعاقب سريع[١٦٣] » .

ونادى الملك الذى يحتضر زوجته التى عاشت فى شقاء عقيم ، ولم يـكن يدرك أنها جاثية فى أسفل الفراش تدلك قدميه . وفى ٤ فبراير قدم له بعض الأساقفة الأسرار الدينية الأخيرة وفقا للطقوس الأنجليكانية ، ولـكنه رجاهم أن يـكفوا ، ولما سأله أخوه ، هل يريد كاهنا كاثوليكيا أجاب « نعم ، نعم ، من كل قلبى[١٦٤] » فأرسلوا فى طلب الأب جون هدلزتون الذى كان قد أنقذ حياة شارل فى معركة وورسيستر ، كما أن شارل كان قد أنقذ حياة الأب جون أيام « الارهاب البابوى » وأعلن شارل إعتناقه للمذهب الـكاثوليكى ، واعترف بذنوبه وخطاياه ، وعفا عن أعدائه ، وطلب المغفرة من الجميع . ومسحوه مسحا تاما بالزيت المقدس ، وتلقى الأسرار المقدسة . وطلب الصفح والعفو ، بخاصة من زوجته ، ولـكنه كذلك أوصى أخاه خيرا بالسيدة لويز كيروال وأبنائه (منها) « لاتترك تلك المسكينة تتضور جوعا[١٦٥] » واعتذر لمن حوله عن أنه قضى مثل هذا الوقت الطويل بشكل غير معقول ، وهو يعانى سكرات الموت[١٦٦] .

وعند ظهر اليوم السادس من فبراير ، كان دوق يورك ملـكا .

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ - ١٧١٤

١ — الملك الكاثوليكى : ١٦٨٥ — ١٦٨٨

من ذا الذى كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة(١) التى رسمها فانديك فى اللونين الأزرق والذهبى لدوق يورك وهو فى الثانية من عمره ، أن هذا الطفل البرىء الحيى سيقضى قضاء مبرما على أسرة ستيوارت ، ويكمل آخر الأمر » فى « الثورة الجليلة » انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان ، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل مخز من قبل ؟ ولكن فى الصورة التى رسمها ريلى(٢) الشخص عينه تحت اسم جيمس الثانى ، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك . وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب ، وأن البراءة تحولت بين أحضان العشيقات المذعنات الطيعات إلى لاهوت جامد لاينثنى . فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيرا فاجعاً ، وفيه ، وكما يحدث فى كل التراجيديات أو المآسى الكبرى ، كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق ، ومن ثم يستحق منا بعض العطف .

لقد أوردنا من قبل ذكر بعض فضائل جيمس الثانى ، فكم من مرة عرض نفسه لخطر الموت فى عمله فى البحرية . ووازن الناس بينه وبين أخيه ، موازنة مرضية ، فى النشاط الحكومى والإدارى ، والاعتدال فى الإنفاق ، وفى ارتباطه بكلمته . أنه استمسك بما أوصاه به شارل وهو يحتضر ، من العناية بأمر نل جوين ، فسدد ديونها ، وخصص لها ضيعة تكفل لها رغد العيش . وبعد ارتقائه العرش ظل لبعض الوقت على علاقتة مع آخر عشيقاته كاترين سدلى . ولكنه بناء على اعتراضات الأب بتر أجزل لها العطاء على

خدماتها وأقنعها بمغادرة انجلترا ، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بصره عليها ثانية فإنه لا يملك فكاكا من سلطانها عليه(٣) . إن الأسقف بيرنت الذى ساعد على خلعه ، حكم عليه بأنه « صريح مخلص بطبيعته ، ولو أنه فى بعض الأحيان متلهف محب للانتقام ، صديق ثابت على العهد ، إلى أن أفسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى(٤) » وكان مقتصدا ينمى ثروته بسرعة ، ولم يعمد قط إلى غش العملة ، كما كان رحيما بالشعب فى موضوع الضرائب(٥) . إن ماكولى بعد أن دون ثمانمائة صحفية عن حكم جيمس الذى لم يدم لأكثر من ثلاثة أعوام ، انتهى إلى « أنه تحلى بمناقب كثيرة ، إلى حد أنه لو كان بروتستانتيا ، لا بل كاثوليكيا معتدلا ، لكان عصره عصرا زاهرا مجيدا(٦) » .

وتفاقمت أخطاؤه بنمو سلطانه . وكان مغرورا متحجرا حتى قبل اعتلائه العرش ، ينظر إلى معظم الناس باحتقار ، لا ينفتح قلبه إلا لقلة منهم ، وتمسك تمسكا حرفيا بنظرية أبيه ، وهى أنه ينبغى أن يكون للملك مطلق السلطة ، ولم يكن له المزاج الواقعى الذى كان لأخيه والذى أدرك به الحدود العملية لهذه السلطة المطلقة . ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية ، ورغبته فى منح إخوانه الكاثوليك فى انجلترا حرية العبادة والمساواة فى الحقوق السياسية . وكان مخلصا لأمه وأخته الكاثوليكيتين ، وكان طوال الخمسة عشر عاما السابقة محاطا بالكاثوليك فى بيته ، وكان موضع استغراب عنده أن الديانة التى أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفاضل الرجال وفضليات النساء ، يضع الانجليز أمامها العراقيل ويبغضونها ويحدون من انتشارها . ولم يشاطر البروتستانت ماتناقلوه من ذكريات حية فى أذهانهم عن مؤامرة البارود ، أو خوفهم من أن يولى عليهم ملك كاثوليكى ، يميل ، عاجلا أو آجلا ويقتنع ، بانتهاج سياسة ترضى البابا الايطالى . ان انجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أى ملك كاثوليكى لابد أن يعرض للخطر استقلالها الدينى والفكرى والسياسى .

إن تصرفات جيمس الأولى بعد ارتقائه العرش خفضت من هذه المخاوف شيئا قليلا : أنه عين هاليفاكس رئيسا لمجلس الملك ، وسندرلند وزيرا ، وهنرى هايد (أرل كلارندن الثانى) حاملا لأختام الملك ، وكل هؤلاء من البروتستانت . وفى أول خطاب له فى هذا المجلس وعد بالابقاء على نظم الكنيسة والدولة ، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة انجلترا لاعتلائه العرش ، ووعد بأن يوليها عناية خاصة وعند تتويجه أدى اليمين المألوفة لدى ملوك انجلترا الحديثين ، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمايتها . وحظى الملك جيمس الثانى لمدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة .

وأول اجراء مؤيد للكاثوليكية اتخذه جيمس ، لم يكن يحمل عدوانا مباشرا على البروتستانت . أنه أمر بالإفراج عن كل المسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة . وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك ، بل أخلى معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم . ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك فى المسائل الدينية . وأطلق سراح داني واللوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتسى أوتس . وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الأيمان الكاذبة التى أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء ، وأعربت المحكمة عن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام ، وحكمت عليه بغرامة قدرها ألفان من الماركات ، وأن يربط خلف عربة ويجلد بالسياط مرتين علانية ، الأولى من أولدجيت إلى نيوجيت ، والمرة الثانية بعد الأولى بيومين ، من نيوجيت إلى تايبيرن ، وأن يوضع فى آلة التعذيب ، المشهرة ، خمس مرات سنويا طيلة بقائه على قيد الحياة . وعاش أوتس بعد هذا التعذيب ، وأعيد إلى السجن (مايو ١٦٨٥) وطلبوا إلى الملك اعفاءه من الجلد للمرة الثانية ، ولكنه رفض .

وتحطمت الهدنة المزعزعة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة . ذلك أنه فى مايو نزل أرشيبالد كامبل ، إرل أرجيل التاسع ، فى اسكتلنده ، وفى

يونية رسا جيمس دوق مونموث على الشاطىء الجنوبى الغربى لانجلترا ، فى مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكى . وأصدر مونموث بلاغا وصم فيه الملك جيمس بأنه غاصب طاغية سفاح ، كما اتهمه بإحراق لندن والمؤامرة البابوية ، ودس السم لشارل الثانى ، وتعهد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يكفوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحريات الشعب والبرلمان . ومنى أرجيل بالهزيمة فى ١٧ يونية ، وأعدم فى ٣٠ يونيه ، وبذلك أخفق الجناح الشمالى للثورة . ولكن أهالى دورستشير — وهم بيوريتانيون شديدو التمسك بمذهبهم — رحبوا بمونموث وحيوه مخلصا ومنقذا لهم . وانضم تحت لوائه عدد كبير جدا من الناس ، إلى حد أنه فى ثقة وجلال ومهابة ، اتخذ لقب جيمس الثانى ملك انجلترا . ولم يقدم له الأشراف والطبقات الغنية أى عون أو تأييد . وهزم جيشه المختل النظام على يد القوات الملكية فى سدجمور (٦ يوليه ١٦٨٥) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب انجلترا قبل الحرب العالمية . ولاذ مونموث بالهرب ، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى ، وضرب عنقه .

وتعقب جيش الملك ، بقيادة برس كيرك ، فلول الثوار ، وشنق الأسرى دون محاكمة . وشكل جيمس لجنة يرأسها قاضى القضاة جفريز ، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالإنضمام إلى الثورة أو التحريض عليها . وسمح للمحلفين بالاشتراك فى المحاكمات ، باعتبار أن هذا من حق المتهمين ، ولكن جفريز قذف فى قلوب المحلفين الرعب ، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هى التى أصابت شيئا من الرحمة لدى هذه « المحكمة الدمويه » (سبتمبر ١٦٨٥)(*) . وشنق نحو أربعمائه ، وحكم على ثمانمائة بالعمل الإجبارى فى مزارع جزر الهند الغربيه(٧) . وكانت اليزابث فى ١٥٦٩ وكرومول فى ١٦٤٨ ، قد اتهما قبل ذلك بمثل هذه الأعمال الوحشيه ،

(*) Assizes الجلسات الدورية للمحاكم العليا فى كل مقاطعة

ولـكن جفريز تفوق عليهما فى إرهاب المتهمين والحلفين والتجهم والعبوس ، وصب اللعنات على ضحاياه ، والتحديق فى وجوههم فى كثير من الخبث ، والإدانة لمجرد الشك ، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة(٨) . وبذل جيمس جهودا متواضعة ليضع حدا للوحشية ، ولـكن ما أن تمت الإبادة الـكاملة وخمدت النار المحرقة حتى رفع جفريز إلى مرتبة النبلاء ، وعينه رئيسا لمجلس اللوردات (٦ سبتمبر ١٦٨٦) .

وأسهم هذا الاجراء الانتقامى فى إبعاد النبلاء عن الملك . وعندما طلب من البرلمان إلغاء « قانون الاختيار » (الذى يقضى باقصاء الـكاثوليك عن الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون « حق التحقيق فى قانونية الاعتقال » وإنشاء جيش دائم تحت امر الملك ، لم يستجب البرلمان لشىء من هذا . فعطله جيمس (٢٠ نوفمبر) وأخذ يعين الـكاثوليك فى وظائف الدولة . ولما اعترض هاليفاكس على امتهان البرلمان على هذا النحو ، عزله جيمس من المجلس . وأحل محله ، رئيسا للمجلس ، سندرلند الذى أعلن تحوله إلى الـكاثوليكية على الفور (١٦٨٧) . وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع لرسوم نانت(٩) استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل السلطة المطلقة التى يتمتع بها البوربون ، لما تردد فى إتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت فى إنجلترا ولم يخف جيمس إعتقاده بأن سلطته الآن باتت مطلقه بالفعل ، وأن لويس الرابع عشر فى نظره هو المثل الأعلى للملك . وقبل الاعانات من لويس لفترة من الزمن ، ولـكنه أبى عليه أن يملى سياسة الحـكومة الانجليزية . فتوقفت الاعانات .

وكان لويس أكثر تعقلا فيما يتعلق بانجلترا منه بالنسبه لبلاده . وعلى حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت ، نراه يحذر جيمس من مغبة التسرع فى تحويل إنجلترا إلى الـكاثوليكيه . كما أن البابا إنوسنت الحادى عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحه . وعندما أرسل إليه الملك الانجليزى يعده بقرب إنضواء إنجلترا تحت راية الـكنيسه الكاثوليكيه فى رومه(١٠) ،

نصحه البابا بأن يقنـع بالحصول على التسامح الديني للكاثوليك الانجليز ، كما حذر هؤلاء أن يـكفوا عن الأطماع السياسية ، ووجه رئيس الجزويت لتعنيف الأب بتزولومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير فى الحكومة(١١). إن البابا أنوسنت لم يخفف من غيرته الكاثوليكية ، ولكنه كان يخشى قوة لويس الرابع عشر التى تبتغى التطويق والسيطرة ، كما كان يأمل فى إمكان تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم ذليل للسياسة الفرنسية ومشروعاتها إلى قوة متوازنة ضدها . وأوفد البابا مبعوثا بابويا — للمرة الأولى منذ عهد مارى تيودور — ليوضح لجيمس أن أى تصدع فى العلاقة بين البرلمان والملك لا بد أن يضر بالكنيسة الكاثوليكية(١٢) .

ولم يستفد جيمس من هذا النصح . إنه أحس ، وكان فى الثانية والخمسين حين اعتلى العرش ، أنه قد لا يتيسر له فسحة من الأجل لتنفيذ التغييرات الدينية التى ينشدها والتى يجيش بها صدره ، ولم يؤمل كثيرا فى أن ينجب ابنا ، وهنا قد تخلفه ابنته البروتستانتية ، وتقلب عمله رأسا على عقب ، إلا إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيد راسخ قبل موته . وطغت آراء الأب بتر وللملكة وسلطانهما على كل نصح بالتروى والتريث . ولم يـكتف الملك بالذهاب إلى القداس ، تحفه الجلالة والمهابة الملكية ، بل طلب كذلك إلى مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القداس . وتكاثر الأساقفة حول الحاشية ، وعين الكاثوليك فى المناصب العسكرية ، وحرض القضاة (الذين كان له حق تعيينهم وعزلهم) على توكيد حقه فى أعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات التى فرضها عليهم « قانون الاختبار » . وجند ، تحت أمرة ضباط أغلبهم من الكاثوليك ، جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا لأوامره هو ، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان . وعطل العمل بالقانون الذى يفرض العقوبات على حضور العبادة الكاثوليكية علانية . وأصدر فى يونية ١٦٨٦ مرسوما يحرم على رجال الدين القاء عظات فى الخلافات المذهبيه . ولما خطب الدكتور جون شارب فى « دوافع

المرتدين » أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعى للكنيسه الإنجليزية ، هنرى كمبتون أسقف لندن ، بفصل شارب مؤقتا من سلك رجال الكنيسه الأنجليكانيه ، فرفض كمبتون . فعين جيمس ، متجاهلا قانونا صدر فى ١٦٧٣ ، « محكمه كنسية » جديدة ، سيطر عليها سندرلند وجفريز ، وحاكمت كمبتون بتهمه شق عصا الطاعه على التاج ، وعزلته من وظيفته . وبدأت الآن الكنيسه الأنجليكانيه ، التى كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقه ، نقول بدأت تقلب للملك ظهر المجن .

أن الملك جيمس كان يأمل فى كسب الكنيسه الأنجليكانيه إلى جانب المصالحه والتراضى مع رومه ، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسه . وبدلا من ذلك انتهج سياسه التوحيد بين الكاثوليك والمنشقين ضد الكنيسه الرسميه . ان وليم بن الذى وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته ، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الانجليز ، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بجرة قلم ألغى القوانين التى تحرم العبادة العلنيه على فرق المنشقين وفى ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول « إعلان للتسامح » فى عهده . ومهما تكن دوافع الملك ، فإن هذه الوثيقه تحتل مكانا فى تاريخ التسامح الدينى . إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة ، وأبطل كل الاختبارات الدينيه ، ومنح الحرية الدينيه للجميع ، وحظر التدخل فى شئون الاجتماعات الدينيه المسالمه . وأخلى سبيل كل المسجونين بسبب الخلافات الدينيه • أن هذا الاعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح فى عهد شارل الثانى ، التى كانت قد أبقت على الاختبار الدينى لمن يتولون الوظائف • وسمحت بالعبادة الكاثوليكيه داخل الدور الخاصه فقط • وأكد للكنيسه الرسميه أن الملك سيواصل حمايته لها فى كل حقوقها القانونيه • ومما يدعو إلى الأسى والأسف أن هذا الاجراء قدر له أن يكون إعلانا ضمنيا للحرب على البرلمان ، الذى كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهليه التى ألغيت الآن • ولو سلم

البرلمان بسلطة للملك فى إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لزاما أن تنشب الحرب الأهلية من جديد .

ودخل هاليفاكس الذى كان فى هاتيك الأيام ألمع عقلية فى انجلترا ، المعركة بكتيب لايحمل اسم المؤلف بعنوان « رسالة إلى منشق » (أغسطس ١٦٨٧) — « أكثر النشرات توفيقا فى هذا العصر[١٣] » حث فيه البروتستانت ان يكونوا على يقين من أن هذا التسامح الذى قدم إليهم الآن ، صدر عن ملك موال لكنيسة تدعى العصمة من الخطأ ، وتنكر التسامح صراحة . وهل يمكن أن يكون ثمة انسجام دائم بين حرية الفكر والعبير وبين كنيسة لاتخطىء ؟ وكيف يطمئن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين دمغوهم بالأمس القريب بأنهم هراطقة ؟ « كنتم بالأمس أبناء الشيطان ، وأنتم اليوم ملائكة النور[١٤] » . ومن سوء الحظ أن الكنيسة الأنجليكانية كانت قد اتفقت مع رومه فيما يتعلق بأبناء الشيطان ، وأنها فى السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخضعت مخالفيها لألوان من الاضطهاد والتعذيب تمنعهم من قبول الحرية حتى على أيد كاثوليكية . وأسرع رجال الدين الأنجليكانيون إلى التماس التصالح مع المشيخيين والبيوريتانيين والكويكرز ، وتوسلوا إلى هؤلاء جميعا أن يرفضوا التسامح الراهن ، ووعدوهم على الفور بتسامح يحظى بموافقة كل من البرلمان والكنيسة الرسمية . وبعث بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك ، ولكن الأغلبية نأت بجانبها فى تحفظ . وعندما حانت ساعة الفصل نبذ الجميع الملك .

وتابع جيمس خطواته . لقد تطلبت جامعات انجلترا لمدة سنوات عدة من أساتذتها وطلبتها الالتزام بمذهب الكنيسة الأنجليكانية ، ولم يستثن من ذلك إلا منح درجة لطالب لوثرى ، ومنح درجة فخرية لدبلوماسى مسلم . على أن القساوسة الأنجليكانيين رأوا فى أكسفورد وكمبردج هيئات وظيفتها الرئيسية اعداد الرجال لقبول المذهب الأنجليكانى ، وتقرر ألا يلتحق بهما أى كاثوليكى . ورغبة فى كسر هذا القيد أرسل جيمس ، إلى نائب رئيس

جامعة كمبردج رسالة يلزمه فيها بأن يستثنى من الأنجليكانى راهبا بندكتيا يسعى للحصول على درجة الأستاذية . ورفض نائب رئيس الجامعة ففصل بأمر من لجنة المحكمة الكنسية . فأرسلت الجامعه وفدا من بين أعضائه ايزاك نيوتن ، ليشرح للملك موقف الجامعه . ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (١٦٨٧) . وفى نفس العام رشح الملك لرياسه كلية مجدلن فى أكسفورد ، رجلا لايتمتع بغزارة العلم ، ولكنه ذو ميول كاثوليكيه ، فرفض الزملاء انتخابه ، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحا ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه ، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكانى ، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئه الانتخابيه رفضوه كذلك ، ففصلوا بأمر من الملك ، وعين الأسقف باركر قسرا .

واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتمى الملك أكثر فأكثر فى أحضان مستشاريه الكاثوليك . وكان إعجابه بالأب بتر شديدا إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفا ، بل كاردينالا ، ولكن أنوسنت أبى . وفى يوليه ١٦٨٧ عين جيمس الجزويتى القدير ، ولكن المستهتر ، عضوا فى المجلس المخصوص (الملكى) ، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش ، ولكن جيمس كان فى عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى غايته . وكان فى هذا المجلس الآن سته من الكاثوليك ، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبه(١٥) . وفى ١٦٨٨ عين أربعه من الأساقفه الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسه الكاثوليكيه فى انجلترا ، وخص جيمس لكل منهم راتبا سنويا قدره ألف جنيه ، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكانيين فى أنه أصبح لكل من الفريقين كنيسه تساندها وتعاونها الدولة .

وفى ٢٥ أبريل ١٦٨٨ جدد جيمس نشر « إعلان التسامح » الذى مضى على صدوره عام واحد ، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير » لكل الانجليز إلى الأبد . فمن الآن فصاعدا لابد أن

يعتمد التعيين فى الوظائف والترقى فيها على الجدارة الشخصية لا المذهب الدينى . وتنبأ بأن الاقلال من الخلافات الدينية لابد أن يفتح أسواقا جديدة للتجارة الانجليزية ، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها . وتوسل إلى رعاياه أن يطرحوا جانبا كل الأحقاد ، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية ، وللتحقق من انتشار هذا الاعلان الموسع على أوسع نطاق ممكن ، أصدر مجلس الملك توجيهاته إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته فى كل كنيسة فى الأقاليم فى انجلترا ، يوم ٢٠ أو ٢٧ مايو . واستخدام رجال الدين على هذا النحو ، وسيلة للاتصال بالجماهير ، أمر له سوابقه الكثيرة فى انجلترا . ولكن لم تكن الرسالة قط يوما بغيضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد . وفى ١٨ مايو رفع سبعة أساقفة أنجليكانيين إلى الملك ظلامة أوضحوا فيها أنهم لم ترتض ضمائرهم أن يوصوا قساوستهم بتلاوة الاعلان ، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لايجوز إلغاء تشريع برلمانى إلا بموافقة البرلمان نفسه ، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عظاتهم وخطبهم دوما على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيسا للكنيسة ، وأنه ليس فى الاعلان ما يخدش أو يسىء إلى كرامة أحد . ووعد بأنه سوف ينظر فى ظلامتهم ، ولكنهم إن يتلقوا منه ردا فى الغد فعليهم أن يذعنوا لأمره .

وفى صبيحة اليوم التالى بيعت آلاف النسخ من هذه الظلامة فى شوارع لندن ، فى الوقت التى مازالت فيه قيد البحث عند الملك . وأحس جيمس بأن هذا يجافى قواعد اللياقة ، وعرض الظلامة على القضاة الاثنى عشر فى المحكمة الملكية ، فأشاروا بأنه تصرف فى حدود حقوقه المشروعة . ومن ثم أغفل الرد على الظلامة . وفى ٢٠ مايو تليت الظلامة فى أربع كنائس فى لندن ، وتجاهلوها فى الكنائس الست والتسعين الباقية . وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت ، وأمر الأساقفة السبعة بالمثول أمام المجلس . فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أوقذف فيه تحريض

على الفتنة ، وعلى أية حال فإنهم لكي يتفادوا السجن في الحال ، يمكن أن يقبل الملك منهم وعدا كتابيا بالحضور عند استدعائهم . فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشراف المملكة ، ليسوا في حاجة إلى تقديم أي ضمان سوى كلمتهم . وأحالهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحياهم الأهالي وهتفوا لهم على الجانبين عند نقلهم عبر نهر التيمز .

وفي يومي ٢٩ و٣٠ يونيه حاكم الأساقفة السبعة ـ أمام محكمة الملك ـ أربعة قضاة مع هيئة المحلفين . وبعد يومين من مناقشات حادة في قاعة يحيط بها عشرة آلاف من أهالي لندن المهتاجين ، أصدر المحلفون حكما بعدم الإدانة . وابتهجت كل انجلترا البروتستانتية ، وقال أحد النبلاء الكاثوليك « لم تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصيحات والهتافات ودموع الفرح التي حدثت اليوم(١٦) » وتوهجت الشوارع بالمشاعل والنيران التي أضرمت في الهواء الطلق . وسار الناس في موكب خلف شخوص من الشمع تمثل البابا والكاردينالات والجزويت ، أحرقت وسط احتفالات صاخبة . إن هذا الحكم كان يعني عند البسطاء من الناس أنه لاينبغي التسامح مع الكاثوليكية ، وعند ذوي الادراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعني تثبيت حق البرلمان في سن قوانين ليس للملك أن يبطلها ، وأن انجلترا ، في الواقع ، حتى ولو لم تكن من الناحية النظرية ، ملكية دستورية ، لا ملكية مطلقة .

على أن جيمس الذي عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمة ، أخذ يتعزى بالطفل الذي وضعته له الملكة في ١٠ يونيه ، قبل الموعد المتوقع للولادة بشهر ، وفي مقدوره أن ينشيء هذا الولد النفيس تنشئة قوامها الولاء والاخلاص للكاثوليكية ، وكان يمكن للوالد والولد ، في وجه أية معارضة أو معوقات ، أن يقتربا يوما بعد يوم خطوة من الهدف المقدس ـ ألا وهو الملكية القديمة ، تعيش في وئام ووفاق مع الكنيسة ، في انجلترا يسودها الهدوء والسلام والتراضي ، في أوربا نادمة على

ارتدادها عن عقيدتها ، موحدة فى ظل هذه العقيدة الحقه الوحيدة العالميه .

٢ — الاطاحة بالعرش والملك فى المهد

ربما كانت هذه الولادة التى جاءت قبل الأوان هى التى جلبت الكارثه على رأس الملك المتهور . واتفقت انجلترا البروتستانتيه مع جيمس فى أن هذا الولد قد يواصل السعى لاعادة الكثلكه ، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيته لنفس السبب الذى أحبه الملك من أجله وأنكرت انجلترا البروتستانتيه فى أول الأمر ، بنوة الطفل للملك . واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع الملكه وليدا اشتروه ، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الأبنه البروتستانتيه مارى عن وراثه العرش . وانعطفت انجلترا أكثر فأكثر نحو مارى ، على أنها أمل البروتستانيه الانجليزيه ، ووطنت النفس على القيام بثورة أخرى لاجلاس مارى على العرش لتكون ملكه انجلترا .

ولكن مارى كانت آنذاك زوجه وليم أورانج الثالث ، رئيس الدولة فى المقاطعات المتحدة . ماذا يقول وليم المزهو بنفسه فى أنه مجرد زوج الملكه ؟ لماذا لايعرض عليه الاشتراك فى الحكم مع مارى ؟ وفوق كل شىء ، أنه هو أيضاً يجرى فى عروقه الدم الملكى الانجليزى . أن أمه كانت مارى أخرى ، وكانت ابنه شارل الأول . وليس فى نيه وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج لزوجه الملكه . ومن الجائز أن الأسقف بيرنت — الذى كان قد اتخذ سبيله إلى القارة هربا ، عند إرتقاء جيمس العرش — أقنع مارى ، بايعاز(١٧) من وليم ، أن تتعهد بالطاعه التامه لوليم « فى كل الأمور » أياكانت السلطه التى تخولها التصرف فيها ، فوافقت على « أن يكون الحكم والسلطه فى يديه هو ، لأنها لاترغب إلا فى أن يعمل هو بالوصية التى تقول : أيها الأزواج أحبو زوجاتكم ، كما تعمل هى بالوصيه التى تقول : أيتها الزوجات أطعن أزواجكن فى كل شىء(١٨) » وتقبل وليم الطاعه ، ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقتــه بعشيقته السيدة

فلبير[١٩] ، فان الحكام البروتستانت أيضا ، يجوز لهم فوق كل شيء ، أن يخدعوا أو يخونوا زوجاتهم .

إن وليم الذي يحارب لويس الرابع عشر حفاظا على استقلال هولنده والبروتستانتية ، راوده الأمل لبعض الوقت في كسب والد زوجته (جيمس) في تحالف ضد ملك فرنسا الذي كان يحطم توازن القوى والحريات في أوربا ، ولما خاب فأله ، عمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة للمقاومة ضد جيمس . إنه تغاضى من قبل عن الحملة التي إنظمها مونموث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس ، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون عائق[٢٠] ، وخشي بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لوراثة عرش انجلترا . ومتى ولد للملك ابن فمن الواضح أن يسقط حق ماري في العرش . وفي أوائل ١٦٨٧ أوفد وليم افرهارد فان ديكفلت إلى انجلترا ليقيم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت . وعادت البعثة برسائل مبشرة من مركيز هاليفاكس ، وأرسل شروزبري وأرل كلارندون (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن دانبي ، والأسقف كمبتون وغيرهم . وكانت الرسائل غامضة مبهمة إلى حد لايثم عن خيانة صريحة ، ولكنها انطوت على تأييد حار لوليم في نضاله من أجل العرش .

وفي يونيه ١٦٨٧ أصدر كاسبار فاجل ، الحاكم العام ، رسالة أوضح فيها بصورة جازمة آراء وليم في التسامح . إن وليم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء « قانون الاختبار » الذي يقصر حق تولي الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكاني[٢١] . أن هذا البيان الرسمي المتحفظ أكسب وليم تأييد الأنجليكانيين البارزين . ولما قضى مولد ابن لجيمس على فرص وليم في أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة وليم للقدوم والاستيلاء على العرش عنوة . ووقع الدعوة (٣٠ يونيه ١٦٨٨) إرل شروزبري الثاني عشر ، دوق ديفونشير الأول ، إرل دانبي ، إرل سكاربره ، وأمير البحر ادوارد رسل (ابن عم وليم رسل الذي أعدم في

١٦٨٣)،هنری سدنی (أخو الجرنون) ، والأسقف كمبتون. أما هاليفاكس فإنه لم يوقع متذرعا بأنه يؤثر المعارضة الدستورية . ولكن كثيرين غير هؤلاء ، من بينهم سندرلندوجون تشرشل،وكلاهما آنذاك فى خدمة جيمس) بعثوا إلى وليم يؤكدون مساندتهم له(٢٢) . وكان الموقعون يعلمون علم اليقين أن دعوتهم خيانة ، ولكنهم وضعوا حياتهم على أكفهم عمدا ، ونذروا أموالهم للمغامرة ، من ذلك أن شروزبری الكاثوليكى السابق الذى تحول إلى البروتستانتية ، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيه ، وعبر البحر إلى هولنده ليساعد فى توجيه الغزو(٢٣) .

ولم يكن فى مقدور وليم أن يتخذ أى اجراء فورى . لأنه لم يكن على ثقه من شعبه . كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على هولنده فى أيه لحظه . وخشيت الولايات الألمانيه كذلك مهاجمه فرنسا لها ، ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضا على غزو وليم لانجلترا ، لعلمها بأن الهدف الأسمى لوليم هو كبح جماح ملك البوربون . أما حكومتا آل هبسبرج فى النمسا وأسبانيا فقد نسيتا كثلكيتهما فى بغضهما للملك لويس الرابع عشر ، وأقرتا خلع ملك كاثوليكى يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح الحمله بركته ورضاءه السامى . ومن ثم أصبح يأذن من الدول الكاثوليكيه أن يأخذ وليم البروتستانتى على عاتقه الإطاحه بجيمس الكاثوليكى وتعجل لويس وجيمس كلاهما الغزو ، وأعلن لويس أن روابط «الصداقه والتحالف» القائمه بين انجلترا وفرنسا تحتم عليه أن يعلن الحرب على كل من يغزو انجلترا . ولكن جيمس الذى خشى أن يؤدى هذا البيان إلى توحيد صفوف رعاياه البروتستانت ضده بشكل أقوى ، نفى وجود مثل هذا التحالف ، ورفض مساعدة فرنسا له . وانتصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته ، فأمر جيوشه بمهاجمه ألمانيا ، لاهولندة (٢٥ سبتمبر ١٦٨٨) ، ووافقت الجمعيه العموميه للمقاطعات المتحدة ، التى تحررت لبعض الوقت من الخوف من فرنسا ، على أن يقود وليم حمله قد تؤدى بإنجلترا إلى الدخول فى

تحالف ضد فرنسا .

وفى ١٩ أكتوبر تحرك الأسطول — خمسين سفينة حربية ، وخمسمائة سفينة نقل ، وخمسمائة فارس ، وأحد عشر ألفا من المشاة ، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد فى فرنسا . وصدت الرياح الأسطول ، فانتظر حتى يهب « نسيم بروتستانتى » (مؤات) ، وأقلع ثانية فى أول نوفمبر . وخرج أسطول إنجليزى ليعترض سبيله ، ولكن مزقته العاصفة . وفى ٥ نوفمبر ، وهو يوم عطلة وطنية احتفالا بذكرى « مؤامرة البارود » ألقى الغزاة مراسيهم فى « توربای » ، وهو منفذ على المانش على شاطىء دورستشير . ولم يلق الغزاة أية مقاومة ، ولكنهم كذلك لم يلقوا أى ترحيب . فإن الناس لم يكونوا قد نسوا جفريز وكيرك . وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع فى سالسبورى تحت أمرة لورد جون تشرشل ، ولحق الملك به هناك ، ولكنه وجد القوات يعوزها الولاء والاخلاص ، يخيم عليها الفتور إلى حد الإرتياب فى اشتراكهم فى معركة ، فامر بالتقهقر ، وفى تلك الليلة (٢٣ نوفمبر) إنحاز تشرشل واثنان من كبار الضباط فى جيش الملك إلى وليم مع أربعمائة رجل(٢٤) . وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدنركى ، زوج الأميرة آن ابنة جيمس ، إلى جماعة الخارجين على الملك ، والذين يتزايد عددهم ، ووجد الملك التعس ، لدى عودته إلى لنـــدن ، أن ابنته آن وسارا جنجز زوجة تشرشل قد هربتا إلى نوتنجهام . وتحطمت روح الملك الذى كان يوما مزهوا مختالا ، حين وجد أن إبنتيه كلتيهما قد انقلبتا ضده . فأوفد هاليفا كس للتفاوض مع وليم وفى ١١ ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملكه . ولما عاد هاليفا كس من الجبهة ، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم ، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيسا لحكومة مؤقتة . وفى يوم ١٣ تسلموا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع فى أيدى الأعداء ، فى فافرشام فى كنت . فأنفذوا بعض القوات لانقاذه ، وفى يوم ١٦ عاد الملك الذليل إلى قصر هويتهول وأرسل

وليم أثناء تقدمه نحو لندن ، بعض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر ، وهناك يسهلون له طريق الفرار . وقد كان ، ووقع جيمس فى الفخ الذى نصب له ، وغادر انجلترا إلى فرنسا (٢٣ديسمبر) . وعمر ثلاثة عشر عاما بعد سقوطه ، ولكنه لم ير انجلترا ثانية قط .

ووصل وليم إلى لندن فى التاسع عشر من ديسمبر . واستغل انتصاره فى حزم وحذر واعتدال ممتاز ، ووضع حدا للشغب الذى آثاره البروتستانت فى لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها . وبناء على طلب الحكومة المؤقتة ، دعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع فى كوفنترى . وأعلن « المؤتمر » الذى انعقد هناك فى أول فبراير ١٦٨٩ أن جيمس اعتزل العرش بفراره . وعرض المجتمعون أن يتوجوا مارى ملكة ، ويرتضوا وليم نائبا لها . فقبلا (١٣ فبراير) . ولكن المؤتمر قرن هذا العرض « باعلان الحقوق » الذى سنه وأصدره البرلمان من جديد فى ١٦ ديسمبر على أنه « وثيقة الحقوق » ، وأصبح (بالرغم من عدم موافقه وليم عليه صراحة) جزءا حيويا أساسيا فى قوانين المملكة :

حيث أن الملك السابق جيمس الثانى .. سعى جهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحريات هذه المملكة من جذورها :

١ — بانتحاله لنفسه وممارسته سلطه التحلل من القوانين وإلغائها ، أو تنفيذها دون موافقه البرلمان . .

٣ — بانشاء « محكمه خاصه بالقضايا الدينيه » .

٤ — بجباية أموال من أجل الملك وليستخدمها هو ، بحجه الامتيازات والحقوق الملكيه ، فى غير الوقت ولغير الغرض اللذين أقرهما البرلمان .

٥ — بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقه البرلمان .

٧ — باقامه الدعوى أمام « محكمه الملك » فى مسائل وقضايا هى من إختصاص البرلمان وحده .

وكل هذا يتعارض تماما ، وبطريق مباشر ، مع قوانين هذه المملكة

وشرائعها المعروفه . ولما كانوا (أعضاء البرلمان ـ المجتمعون) على ثقه تامه من أن .. أمير أورانج .. سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التى أثبتوها هنا ، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم الدينيه وحرياتهم ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين فى وستمنستر ، يقررون أن يعينوا وليم وماري ، أمير وأميرة أورانج ، ملكا وملكه على إنجلترا وفرنسا وأيرلنده ، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد ، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء ..

« أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأنبذ من كل قلبي على على أنها كفر وهرطقه ، تلك النظرية الدنسه اللعينه .. التى تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل ، بيد رعاياه أو غيرهم أيا كانوا ، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئه فى المقر البابوى فى رومه ، قرارا بالحرمان من الكنيسه أو من العرش .. كما أعلن أنه ليس ، ولا ينبغى أن يكون . لأى حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبى ، أية ولايه أو سلطه أو سيادة أو سلطان .. فى هذه المملكه . أسألك العون على هذا يارب » .

وحيث ثبت بالتجربه أنه لايتفق مع سلامه هذه المملكه ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا ، أو ملك أو ملكه متزوجه من أحد أشياع البابا ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضى بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيذعنون للبابا أو الكنيسه فى رومه ، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما ، أو سيدينون بالمذهب البابوى ، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشايعات له ، يجب استبعادهم وحرمانهم إلى الأبد من وراثه أو إمتلاك أو التمتع بتاج وحكومه هذه المملكه(٢٥) .

أن هذا الإعلان التاريخى عبر من النتائج الجوهرية لما أسمته انجلترا البروتستانتية « الثورة الجليلة » : وهى الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية للبرلمان ، التى طالما نازع فيها أربعة ملوك من آل ستيوارت ، وحماية المواطن

ضد السلطة التعسفية للحكومة ، واستبعاد الكاثوليك من تولى عرش انجلترا أو المشاركة فيه . ويلى هذه النتائج فى الأهمية ، هو ادماج سلطة الحكومة فى الارستقراطيه مالكة الأرض ، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء ، وسار بها إلى غايتها صغار الملاك الممثلون فى مجلس العموم . وواقع الأمر أن الملكية « المطلقة » المتمسكة « بحق الملك الإلهى » تحولت إلى أوليجاركية اقليمية أو ذات علاقه بالملكيه الخاصه للأرض . وهى أوليجاركيه تميزت بالاعتدال والجد والبراعه فى إدارة دفه الحكم ، متعاونة مع ملوك الصناعه والتجاره والمال ، كما أهملت بصفه عامه أمر الحرفيين والفلاحين . إن الطبقات المتوسطه العليا أفادت من الثورة بصورة فعليه . واستردت مدن انجلترا حريتها ، لتحكمها أوليجاركيات التجار المستغلين . أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس ، أقرضوا وليم مائتى ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمه ، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة(٢٦) . إن هذا القرض عزز اتفاقيه غير مسطورة : فالتجار يتركون لملاك الأرض حكم انجلترا ، على أن توجه الارستقراطيه الحاكمه سياسه البلاد الخارجيه نحو المصالح التجارية ، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسميه .

وثمه عناصر مخزيه غير كريمه كانت فى « الثورة الجليله(٢٧) » . فيما يبدو أنه مدعاة للأسف أن تضطر انجلترا إلى استدعاء جيش من هولندة ليصلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم ، وأن تساعد الإبنه على خلع أبيها عن عرشه ، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة ، وأن تشارك الكنيسه الوطنيه فى الإطاحة بملك سبق لهذه الكنيسه أن بررت وقدست سلطته الإلهيه المطلقه فى وجه أيه ثورة أو أى عصيان . كما كان مدعاة للأسف أن يكون تثبيت سيادة البرلمان على حساب مناهضه حريه العبادة . ولكن السيئات التى اقترفها هؤلاء الرجال والنساء طويت فى الأحداث مع رفاتهم ، أما حسناتهم التى أدوها فقد بقيت بعدهم وآتت أكلها ، أنهم حتى فى إقامه الأوليجاركيه وضعوا أسس ديمقراطيه كان لابد أن تنشأ مع توسيع القاعدة الإنتخابية .

وجعلوا من دار الرجل الانجليزى قلعته ، آمنا نسبيا من « عجرفة الحكم » و « أخطاء الظلم » وأسهموا إلى حد ما فى هـذا التوفيق الذى يدعو إلى الاعجاب بين النظام والحرية ، وهذا هو قوام الحكومة الانجليزية اليوم . إنهم فعلوا هذا كله دون اراقة قطرة من الدم ، اللهم إلا ما نزف من أنف الملك المنزعج المنهوك الأخرق الذى تخلى عنه الجميع فى ساعة العسرة .

٣ — انجلترا تحت حكم وليم الثالث ١٦٨٩ — ١٧٠٢

عين الملك لمجلسه الخاص : دانبى رئيسا ، وهاليفا كس حاملا للأختام الملكية ، وإرل شروزبرى وإرل نوتنجهام وزيرين ، وإرل بورتلاند رئيسا للخاصة الملكية ، وجلبرت بيرنت أسقف سالسبورى .

وكان أبرز هذه الشخصيات وأكثرها نفوذاً هو جورج سافيل مركيز هاليفا كس . ولما كان ابن أخى لورد سترافورد الذى أعدمه البرلمان الطويل من قبل ، فإنه — أى هاليفا كس — كان قد فقد جزءاً كبيراً من ممتلكاته فى الثورة الكبرى ، ولكنه كان قد أنقذ ما يكيفيه ليعيش رغيد فى فرنسا أيام حكم كرومول . وهناك عثر عـلى « مقالات » مونتانى ، وأصبح فيلسوفا . وإذا كان المركيز قد ارتقى فيما بعد من السياسة إلى فن الحكم ، فما ذاك إلا لأن الفرق بين السياسة وفن الحكم هو الفلسفة أى القدرة على رؤية اللحظة العابرة والجزء الصغير فى ضوء الزمن الخالد ، والكل الذى يضم كل الأجزاء ، ولم يكن هاليفا كس ليرضى قط بأن يكون كله رجل أعمال وكتب يقول : « إن حكومة العالم (يعني حكم الشعوب) عمـل عظيم ، ولكنه شاق خشن جداً كذلك ، إذا قورن برقة المعرفة التأملية(١٢٨) » . فقد كان على السياسة فى بعض الأحيان أن تتعامل مع الجماهير وهو ماأزعج هاليفا كس . إن فى الجمع من الناس قساوة منرا كمة ، على الرغم من أنه ليس بينهم فرد واحد بالذات ردىء الطبع .... ان الضخمة الغاضبة فى حشد

من الناس من ألمن وأسوأ الضوضاء فى العالم »(٢٩) . لقد عاش من قبل فى ظل « الارهاب البابوى » حين كانت الجماهير تقذف الرعب فى المحاكم . ومذ رأى كثيراً من المذاهب الدينية المولعة بكسب الأنصار ، طرح معظم اللاهوت ، إلى حد أنه ، كما يقول بيرنت « تحول إلى ملحد جرىء ثابت العزم ، على الرغم من أنه كان غالبا ما يحتج لى بأنه ليس كذلك ، وأنه قال أنه يعتقد أنه ليس فى العالم رجل ملحد ، واعترف بأنه لم يستسغ كل مافرضه رجال الدين على العالم . وكان مسيحياً ، امتثالا ، وآمن قدر طاقته » (٣٠)

وعندما عاد إلى انجلترا استرد ممتلكاته ، وبلغ من الثراء حداً استطاع معه أن يكون أمينا . وخدم شارل الثانى حتى علم بأمر « معاهدة دوفر » السرية . ودافع عن حق جيمس فى عرش انجلترا ، ولكن عارض فى إلغاء « قانون الاختبار » ، وتطلع إلى حكم بروتستانتى بعد فترة حكم كاثوليكى قصيرة . وحقق آماله حين لعب دوراً قيادياً فى انتقال الحكم بطريقة سلمية من جيمس الثانى إلى وليم الثالث . والتزم هاليفاكس بما يعتقد هو أنه حق ، وما كان لينحاز إلى أى حزب . وكتب فى « أفكار وتأملات » : « ان الجهل يقود معظم الناس إلى الانضمام إلى حزب ما ، والخجل يحول بينهم وبين الخروج منه » (٣١) . ولما هوجم بسبب خروجه على اتجاهات الحزب ، دافع عن نفسه فى كتيب مشهور « شخصية الحول القلب »

إن اللفظة البريئة (قلب حول) لا تعنى أكثر من أنه إذا كانت مجموعة من الرجال فى قارب . ومال به قسم منهم إلى جانب ، فلا بد أن يميل الباقون بنفس القدر إلى الجانب الآخر ، ويحدث أن يكون هناك رأى ثالث لأولئك الذين يرون أنه يكفى أن يكون القارب مستويا أو متعدلا (٣٢) .

وكان فى بعض الأحيان عديم الضمير ، فصيحاً دائماً ، ذكياً بشكل خطير ولما اجتاح صائدوا المناصب الذين ادعوا مساعدة الثورة ، بلاط وليم الثالث ناصبوه العداء لأنه قال : « إن الأوز أنقذ رومه ، ولكنى لا أذكر أن

هذه الأوزات هيئت فى مناصب القناصل »(٣٣) (١)

ولا بد أن هاليفا كس ابتسم ساخراً عندما حول « المؤتمر » نفسه الى برلمان ، ثم عمد إلى ما حسبه أول ما تحتاج إليه الحكومة — ألا هو قسم جديد للولاء والطاعة لوليم الثالث ، لا بوصفه رئيساً للدولة فحسب ، بل للكنيسة الرسمية كذلك . انها لإحدى مهازل التاريخ المضحكة ، إن الكنيسة الأنجليكانية وهى التى ظلت لمدة قرن من الزمان تضطهد الكلفنيين (البرسبتريانز ، والبيوريتانز وغيرهم من مخالفيها) تقبل الآن رئيساً لها كلفنيا هولنديا .

إن أربعمائة من رجال الدين الأنجليكانيين المتمسكين بنظرية « حقوق الملوك الالهية » ومن ثم ينازعون حق وليم فى الحكم ، رفضوا أن يؤدوا القسم الجديد . وعزل هؤلاء الرافضون »من وظائفهم الكنسية ، وشكلوا شعبة أخرى من المنشقين أو المخالفين . أما الذين أقسموا اليمين فإن كثيراً منهم فعلوا ما فعلوا مع « تحفظ عقلى »(٣٥) ربما أضحك الجزويت الباقين فى انجلترا . ويرى بيرنت « أن مراوغة الكثيرين ومواربتهم فى موضوع بمثل هذه القدسية أسهم إسهاماً غير قليل فى تدعيم الالحاد الآخذ فى التفاقم(٣٦) » وصعق الأنجليكانيون من ذوى المشارب والأمزجة المختلفة ، حين ألغى وليم — إذعاناً للشعور السائد بشكل طاغ فى اسكتلندة — ألغى هناك النظام الأسقفى الذى كان آل ستيوارت قد أقاموه قسراً . وحزن كثير من الأنجليكانيين حين ألفوا وليم يجنح إلى التسامح الدينى .

إن وليم الذى نشأ فى أحضان الكلفنية الجبرية المؤمنة بالقضاء والقدر لم يطق تعاطفاً مع وجهة النظر الأنجليكانية التى تقضى بإقصاء البرسبتريانز عن الوظائف العامة أو مقاعد البرلمان . انه شجع بالفعل التسامح فى المقاطعات

---

(١) ان قأقأة الأوز المقدس المنزعج فى الكابيتول أيقظت الحامية الرومانية لتصد غارة ليلية قام بها الكلت فى ٣٩٠ ق م (٣٤)

المتحدة ، ولم يكن يسمح بأى تمييز دينى فى صداقاته . إن الكلفنية الجبرية كانت قد أصبحت بالنسبة لوليم ثقة فى النفس وكأنها عامل من عوامل القدر . وفى ظل هذه الثقة ينظر ، دون ما تعصب ، إلى الانشقاق الدينى على أنه فى حد ذاته أداة من أدوات تلك « القوة الخفية » أكثر منها شخصية التى سماها تارة « الحظ » وتارة « العناية الالهية » وأخرى « الله »(٣٧) . ورأى فى الخلافات الدينية فى انجلترا قوة تمزق الأمة اربا إذا لم يحده التفاهم والمحبة من مثل هذه القوة .

وكانت خطوة بارعة من جانب المجلس المخصوص (أو مجلس الملك) أن يمهد بتقديم « قانون التسامح » الذى أعده ، إلى البرلمان ، إلى نوتنجهام الذى عرف بأنه ابن غيور بار للكنيسة الأنجليكانية . وأبطل دفاع نوتنجهام عن هذا القانون أمام البرلمان حجة للمعارضين للمتشددين وجردهم من سلاحهم وهكذا أقر المجلسان أول انجازات العهد الجديد دون معارضة تذكر (٢٤ مايو ١٦٨٩) . وسمح هذا القانون بحرية العبادة العلنية لكل الفرق التى سلمت بمبدأ التثليث وبأن الكتاب المقدس نزل به الوحى ، والتى نبذت صراحة تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وسيادة البابا الدينية . وسمح لأنصار تجديد العماد بتأجيله إلى سن البلوغ . وبمقتضى « قانون تثبيت التسامح » الذى صدر فى ١٦٩٦ سمح للكويكرز باستبدال وعد قاطع بالقسم سالف الذكر . واستثنى التوحيديون والكاثوليك من التسامح . وقام وليم ومجلسه فى مشروع « قانون التسامح الشامل » الذى قدم فى أواخر ١٦٨٩ ، بمحاولة للسماح بدخول كل طوائف المنشقين إلى الكنيسة الأنجليكانية ، ولكن لم تتم الموافقة على هذه الخطوة . وظل المنشقون محرومين من الجامعات ومن مقاعد البرلمان ومن الوظائف العامة إلا إذا تلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، وجدد فى ١٦٩٧ العمل بقانون يقضى بعقوبة السجن على من يهاجم أية نظرية مسيحية أساسية . ولم يصدر بعد ذلك أى تشريع بالتوسع فى الحرية الدينية فى انجلترا حتى ١٧٧٨

وعلى الرغم من ذلك كان التسامح هنا أكبر منه فى أية دولة أوربية أخرى بعد ١٦٨٥ ، باستثناء المقاطعات المتحدة . والواقع أن التسامح اتسعت دائرته فى انجلترا بازدياد قوة انجلترا إلى الحد الذى تحررت معه من مخاوفها من أن تغزوها أية دولة كاثوليكية أو تعمل على تخريبها فى الداخل .

إن الكاثوليك أنفسهم نعموا فى عهد وليم بأمن متزايد . وأوضح الملك أنه ليس فى مقدوره أن يحتفظ بالأحلاف مع الدول الكاثوليكية إذا هو صب العذاب والظلم على رؤوس الكاثوليك فى انجلترا(٣٨) . وظل القساوسة الكاثوليك لعشر سنوات يقيمون القداس فى دور خاصة . وما كان أحد ليتحرش بهم لو تستروا فى شىء من الحزم والحكمة ، أمام الجمهور . وفى أخريات عهد وليم (١٦٩٩) ، حين كان للمحافظين (أنصار السلطة الملكية المطلقة) وللمتشددين ، الغلبة فى البرلمان ، شددت القوانين ضد الكاثوليك ، فتعرض لعقوبة السجن مدى الحياة أى كاهن يدان باقامة القداس أو أداء أية مهمة كهنوتية أخرى إلا فى دار أحد السفراء . وتنفيذا للقانون كانت ثمة مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يدبر الإدانة . ونص القانون على نفس العقوبة لأى كاثوليكى يقوم بالتعليم العام للصغار . وما كان يجوز للوالدين أن يرسلوا أولادهم إلى الخارج لتلقى العلم وفق المذهب الكاثوليكى . وما كان يجوز لأى فرد أن يشترى أو يرث أرضا إلا بعد أداء القسم على أن الملك رئيس الكنيسة ، وعلى أنه لا يؤمن بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وصودر من أجل الحكومة ارث أى فرد امتنع عن أداء القسم(٣٩) . وفى ١٦٨٩ عفا وليم عن تيتس أوتس وأجرى عليه معاشا .

وجلب الكاثوليك فى أيرلنده على أنفسهم اضطهادا مجددا بتنظيمهم ثورة تهدف إلى إعادة جيمس الثانى إلى العرش . ذلك أن ريتشارد تالبوت جمع جيشا قوامه ٣٦ ألف رجل ودعا جيمس للقدوم من فرنسا ليتولى قيادته . وكان لويس الرابع عشر قد أسكن الملك المخلوع أحد قصوره فى سان جرمان ، وخصص له ستمائة ألف فرنك سنويا ، وجهز له الآن أسطولا

و لى ميناء برست ، وودعه بكلمات مشهورة : « أن أحسن ما أرجوه لك ألا يرى الواحد منا الآخر ثانية أبدا [٤٠] » . وفى ١٢ مارس ١٦٨٩ ألقى جيمس مراسيه فى أيرلنده مع ألف ومائتى رجل ، ورافقه تالبوت إلى دبلن ، حيث دعا برلمانا أيرلنديا ، وأعلن حرية العبادة لكل الرعايا المخلصين . واجتمع البرلمان فى ٧ مايو وألغى « قانون التسوية » الذى صدر فى ١٦٥٢ ، وأمر باعادة الأراضى التى انتزعت من أصحابها منذ ١٦٤١ إلى ملاكها السابقين . وأرسل وليم قائده الهيجونوتى شومبرج إلى أيرلنده على رأس عشرة آلاف جندى . ورد لويس الرابع عشر على ذلك بإرسال سبعة آلاف من الفرنسيين المحنكين لمساعدة جيمس . وعبر وليم بنفسه إلى أيرلنده فى يونيه ١٦٩٠ . فلما ألتقى الجمعان فى معركة بوين (أول يوليه) فر جيمس من الميدان مذعورا ، ولو أنه اشتهر بالبسالة يوما ، حين رأى قواته تنهزم . وسرعان ماعاد أدراجه إلى سان جرمان .

وربما ابتهج وليم بعقد الصلح وإقرار السلام مع الأيرلنديين على أساس الوضع الراهن . ولكن الزعماء والقوات البروتستانتية الذين كانوا تحت أمرته ، طالبوا بالقضاء التام على العناصر الثورية ، وبالاستيلاء على المزيد من أراضى أيرلنده . وعاد وليم إلى انجلترا تاركا جيشه تحت قيادة جودرت دى جنكل ، إرل أتلون آنذاك ، وكان شومبرج قد قضى نحبه فى انتصاره فى بوين . وأوصى الملك جنكل باصدار عفو عام دون قيد أو شرط ، واطلاق حرية العبادة ، وبالإعفاء من أداء القسم بعدم الاعتراف بسيادة البابا ، وباسترداد الثوار لضياعهم شريطة أن يضعوا السلاح [٤١] . وعلى أساس هذه الشروط ضمن جنكل استسلام جولواى وليمرك وبمقتضى معاهدة ليمرك (٣ أكتوبر ١٦٩١) وافق الثوار الأيرلنديون على التسوية التى عرضها وليم . وفى مارس ١٦٩٢ صدر بيان ملكى يعلن انتهاء الحرب مع أيرلنده .

واستنكر البروتستانت فى أيرلنده هذه المعاهدة على أنها استسلام

ذليل للبابويين ، ولجأوا إلى البرلمان الانجليزى • ووضع هذا البرلمان على الفور (٢٢ أكتوبر ١٦٩١) قانونا يحرم من عضوية برلمان أيرلنده ، كل من يمتنع عن أداء يمين السيادة وإعلان رفضه لفكرة تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . ورفض البرلمان الأيرلندى الجـــديد ، وكان بروتستانتيا تماما ، الاعتراف بمعاهدة ليمرك . وعلى حين كان وليم منهمكا فى تكتيل أوربا ضد لويس الرابع عشر ، سن برلمان دبلن سلسلة جديدة من قوانين العقوبات ضد الكاثوليك فى أيرلنده ، تنقض صراحة الصلح الذى وقعه وليم ومارى من قبل ، ونصت هذه القوانين على عدم شرعية المدارس والكليات الكاثوليكية ، وعلى أن القساوسة الكاثوليك معرضون للترحيل خارج البلاد ، وعلى أنه ليس للكاثوليكى أن يحمل سلاحا ، أو يمتلك حصانا تزيد قيمته على خمسة جنيهات ، وعلى مصادرة أملاك أية وريثة بروتستانتية تتزوج من كاثوليكى(٤٢) . واستمرت مصادرة أراضى أيرلنده حتى « لم يعد هناك فى الواقع أرض تصادر »(٤٣) . وكاد يكون من المستحيل أن يكسب كاثوليكى أيرلندى قضية فى محكمة أيرلندية ، وقل أن صدرت عقوبة على من يقترف جريمة ضد الكاثوليك . واستكمالا لخراب أيرلنده قضت قوانين برلمان إنجلترا قضاء تاما على صناعة الصوف التى كانت قد نمت إلى حد منافسة صناعة الصوف فى انجلترا ذاتها ، حيث حظرت هذه القوانين تصدير الصوف من أيرلنده إلى أى بلد آخر سوى انجلترا ، وخنقت حتى هذه التجارة نفسها بما وضع من تعريفات جمركية معوقة عمدا (١٦٩٦) . ومن ثم انتشر الفقر والتسول والمجاعة والتمرد على القانون فى الجزيرة ، خارج نطاق « البـــال » الانجليزى (قسم فى شرق أيرلنده حول مدينة دبلن) . وفى الستين عاما التى أعقبت الثورة الجليلة هاجر من أيرلنده نصف الكاثوليك الذين كان عددهم يقرب من المليون فى ١٦٨٨ ، أى أن أزكى الدماء وأطيب العناصر نزحت إلى البلاد الأجنبية .

وازدهرت آنذاك كل الطبقات الاقتصادية فى انجلترا فيما عدا طبقة

الكادحين (البروليتاريا) وطبقة الفلاحين . وعانى عمال النسيج من المنافسة الأجنبية ومن الاختراع . وفى ١٧١٠ أضرب عمال الجوارب بسبب ادخال أنوال الجوارب واستخدام الغلمان لتشغيلها لقاء أجور منخفضة(٤٤) على أن الانتاج القومى كان آخذا فى الارتفاع . ويمكن أن نحكم على هذا الارتفاع من زيادة متوسط ايرادات الحكومة من ٥٠٠ ألف جنيه فى القرن السادس عشر إلى سبعة ملايين ونصف المليون من الجنيهات فى القرن السابع عشر(٤٥) . وقد ترجع الزيادة إلى حد ما إلى التضخم ، ولكنها نتجت أساسا من التوسع فى الصناعة وفى التجارة الخارجية .

ومع هذا لم يكن الدخل كافيا ، لأن وليم كان يجند الجيوش لمحاربة لويس الرابع عشر ، فارتفعت الضرائب إلى حد لم يسبق له مثيل ، بل اشتدت الحاجة إلى مزيد من المــال . وفى يناير ١٦٦٣ أحدث شارل مونتاجو — إرل هاليفاكس الأول — بوصفه وزير الخزانة تغييرا أساسيا فى مالية الحكومة ، باقناع البرلمان بطرح قرض عام قدره ٩٠٠ألف جنيه ، ووعدت الحكومه بدفع ٧ ./ٌ فائدة سنويه عنه . وفى أخريات ١٦٦٣ ، حين زادت النفقات عن الإيرادات، اتفق جماعة من أصحاب المصارف على اقراض الحكومه مبلغ مليون ومائتى ألف جنيه بفائدة قدرها ٨ ./ٌ تحصل من رسم اضافى على السفن . وكانت فكرة القروض المتحدة (الجماعية) هذه ، قد اقترحها وليم باترسون قبل ذلك بثلاثة أعوام . وجاء الآن مونتاجو فعززها من الناحية الرسمية . وأقر البرلمان هذه الخطة . واتباعا للسوابق التى جرى عليها العمل فى جنوه والبندقية وهولنده ، عمد المقرضون إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى « محافظو وشركة بنك انجلترا » الذى صدرت براءة تأسيسه فى ٢٧ يوليه ١٦٩٤ . واقترضوا هم النقود من مصادر مختلفة بسعر ٤½ ./ٌ وأقرضوها للحكومه بسعر ٨ ./ٌ ، وجنوا أرباحا اضافية عن طريق القيام بكل الأعمال المصرفية. وهكذا نشأ بنك انجلترا ، وقدم للحكومه قروضا أخرى . وفى ١٦٩٦ حصل من البرلمان على حق احتكار مثل هذه القروض.

وبعد تقلبات كثيرة مر بها هذا البنك ، أصبح العامل الرئيسى فى استقرار الحكومة الانجليزيه المشهور منذ اعتلاء وليم ومارى عرش انجلترا حتى يومنا هذا . ومنذ ١٦٩٤ أصدر البنك أوراقا نقديه تضمنها الودائع ، قابلة للدفع بالذهب ، عند الطلب . وتداولها المتعاملون على أنهـا مال قانونى ، فكانت أول عملة ورقيه حقيقيه غير زائفه فى انجلترا(٤٦) .(*)

واشتهر عهد مونتاجو فى وزارة الخزانه بعمل ممتاز آخر ، هو اصلاح العملة المعدنية . ذلك أن العملة الجيده التى سكت فى عهد شارل الثانى وجيمس الثانى اختزنت أو صهرت أو صدرت . أما العمله المشوهه أو التالفه منذ أيام اليزابث وجيمس الأول ، فقد طرحت للتداول والاستعمال ، وفقدت فى القوة الشرائيه جزءا لا يستهان به من قيمتها الاسميه. ودعا مونتاجو أصدقاءه جون لوك واسحق نيوتن وجـون سومرز ليعدوا لانجلترا عمله أكثر استقرارا فصمموا قطع نقد جديدة ذات حافه مسننه تتحدى التشويه . واستردوا العمله القديمه وسحبوها من التداول بقيمتها الاسميه ، وتحملت الحكومه الخسارة الناجمه عن ذلك . وصار لانجلترا نقد ثابت صحيح ، كان مثار حسد أوربا ، ومثالا تحتذيه. وفى ١٦٨٩ فتحت بورصه الأوراق الماليه فى لندن، وبدأت فترة مضاربة مالية ، سرعان ما أنتجت « شركة البحر الجنوبى »(١٧١١) وانفجار « فقاعتها » (١٧٢٠) . وفى ١٦٨٨ أقام إدوارد لويد فى أحد مقاهى لنـدن شركة للتأمين تعرف الآن بشكل بساطه تبعث على الفخر باسم « لويدز » وفى ١٦٩٣ أصدر أدموند هالى أول نشرة وفياته معروفه. وأكدت هذه التطورات الماليه ووسعت دور المصالح القائمة على المال فى شئون إنجلترا ، وحـددت بداية الأهمية المتزايدة

(*) صدرت أول عملة ورقية معروفة فى القرن السابع الميلادى فى الصين على عهد أسرة تانج . ورأى ماركو بولو مثل هذه العملة فى الصين ١٢٧٥ ، وحاول عبثا ادخال أسلوب التعامل هذا الى ايطاليا . واستخدمت السويد أوراق العلة فى ١٦٥٦ ومستعمرة ماساشوستس ١٦٩٠ .

الرأسماليين ـ الذين يعدون برأس المال والذين يديرونه ـ في بريطانيا .

وفوق الاقتصاد الآخذ في التوسع احتدمت المعركة السياسية حول النزاع على السلطة بين المحافظين (التورى) مالكى الأرض وبين الأحرار (الهويج) جامعى الثروات ، وبين الإنجليز والاسكتلنديين ، وصحب هذا مؤامرات لقتل وليم ، ومشروعات لاعادة جيمس إلى العرش . ولم يكن وليم مهتما بالشئون الداخلية فى إنجلترا ، انه غزاها أساساً ، ليجمع بينها وبين هولنده (موطنه الأصلى) ودول أخرى ، لتقف جميعاً فى وجه لويس الرابع عشر ، أو كما قال هاليفاكس من قبل : «أنه استولى على انجلترا وهو فى الطريق إلى فرنسا(٤٨) » ولما اكتشف الإنجليز أن هذا هو شغله الشاغل أوالشعور المستولى عليه فقد كل شعبيته ولم يعد ملكا محبوبا . وقد يقسو دون مبالاة ، كما حدث حين أمر باستئصال عشيرة مكدونالد فى جلنكو لتأخرهـا فى إعلان ولائها له (١٦٩٢) ، وكان « صموتا فظا غليظا فى المعاشرة » لأنه كان يتكلم الانجليزية بصعوبة . ولم يعن كثيرا بالسيدات . وكان سلوكه على المائدة يدعو إلى الاشمئزاز ، حتى أطلق عليه سيدات المجتمع فى لندن « الدب الهولندى الوضيع(٤٩) » وأحاط نفسه بحراس ورفاق هولنديين ، ولم يخف رأيه فى تفوق الهولنديين تفوقا عظيما عـلى الإنجليز فى المقدرة الإقتصادية والتفكير السياسى والأخلاق وعلم أن كثيراً من النبلاء يفاوضون جيمس الثانى سرا . ووجد الفساد يستشرى حوله إلى درجة تلوثه هو نفسه ، واتجر فى شراء أصوات أعضاء البرلمان . وكان الخير كل الخير فيما يمكن عمله لكبح جماح فرنسا الهائجة المتحفزة .

وحيث ترك وليم الشئون الداخلية لوزرائه ، فقـد بدأ عهد الوزراء الأقوياء (١٦٩٥) و « الوزارات » المتضامنة فى المسئولية والعمل ، والتى يسيطر عليها رجل واحد ، هو فى العادة وزير الخزانة . وفى ١٦٩٧ جاء أعداؤه المحافظون (التورى) أثر انقلاب إنتخابى ، ومن ثم حدوا من سلطانه ونازعوه سياسته الخارجية ، إلى حـد أنه فكر فى الاعتزال

(١٦٩٩) . ولكنه حين رقد رقدته الأخيرة (٨مارس ١٧٠٢) وقدأنهك الربو والسل جسمه ، كان يمكن أن يتعزى عن هزائمه فى الداخل حين يدرك كل الإدراك أنه هيأ لانجلترا مشاركة أكيدة فى « الحلف الأعظم » (١٧٠١) الذى استطاع بعد اثنى عشر عاما من الصراع ، أن يخضع ويذل الملك البوربونى العظيم ، وينقذ استقلال أوربا البروتستانتية ، ويطلق يد انجلترا فى بسط نفوذها على العالم .

٤ — إنجلترا فى عهد الملكة آن : ١٧٠٢ - ١٧١٤

بعد وفاة الملكة مارى ١٦٩٥ أصبحت أختها آن وريثة العرش . ومذ نشأت آن وسط الخطر والشغب ، أصبحت بنتا مخلوعة الفؤاد ، قويمة الخلق ، بسيطة التفكير ، قوية الشعور ، تلتمس العزاء والسلوى والجرأة فى صداقة خاصة متواضعة مع رفيقة صباها ساره جننجز الضاحكة الوفيه الشكاكة الواثقة من نفسها المفعمه بالحياة والنشاط . وفى ١٦٧٨ تزوجت سارة التى كانت تكبر آن بخمس سنين من جـون تشرشل ، وفى ١٦٨٣ تزوجت آن من الأمير جورج الدنمركى . وحالف التوفيق الزيجتين كلتيهما . ولكنهما لم تمسا العلاقه الوثيقة بين المرأتين . وتخلت آن عن كل الشكليات والرسميات ، فاطلقت مازحه على سارة (التى كانت آنذاك وصيفه مخدعها) « مسز فريمان » وأصرت على ألا تناديها سارة « بالأميرة » بل « مسز مورلى » ولما تخلى الزوجان عن الملك جيمس وانحازا إلى وليم ، كان أمام آن أن تختار بين أمرين أحلاهما مر : بين الوالد والزوج ، ولكن حبها لزوجها ولصديقتها أوجب عليها السفر إلى نوتنجهام (٢٨ نوفمبر ١٦٨٨) . وفى ١٩ ديسمبر عادة هى وسارة إلى لندن وإلى ملك أجنبى غريب عنهما .

لم تأخذ آن قط نفسها بحب وليم ، ولقد ما أحست بالامتهان والأذى والألم ، حين منح أحد أصدقائه ضيعة أبيها التى كان لها نصيب فيها . وكانت فى ١٦٩١ تتطلع إلى عودة أبيها إلى عرشه . واشتبه وليم ، بحق ، فى أن

تشرشل (إرل مالبرو آنذاك) وزوجته سارة تحيكان له الدسائس مع الملك المخلوع . وأمرت الملكة مارى أختها آن بطرد سارة من بطانتها ، ولكن الأميرة رفضت . وفى صباح اليوم التالى (يناير ١٦٩٢) عزل مالبرو من مناصبه الرسمية ، وأبعد هو وسارة عن الحاشية ، وبدلا من أن تفترق الأميرة عن صديقتها ، تحدت الملك والملكة (وليم ومارى) وغادرت قصر هويتهول لتعيش مع سارة فى « سيون هاوس » . وفى ٤ مايو أودع مالبرو سجن لندن . وكثيرا ما كانت سارة تزوره هناك . وعرضت أن تنهى صداقتها للأميرة آن لتهدىء من غضب الملكة . ولهذا كتبت آن لسارة تقول :

« فى آخر مرة كان هنا وورستر ، أبلغته أنك عرضت على عدة مرات أن تبتعدى عنى ••• وإنى لاتوسل إليك ، من أجل يسوع المسيح ، ألا تعودى إلى مثل هذا الحديث ثانية . وإنى لأؤكد لك أنك ان أقدمت على مثل هذه الجفوة القاسية ، فإنى لن أنعم بلحظة من الهدوء والراحة بعد ذلك . فإن فعلت دون موافقتى ، (ولو قدر لى أن أوافق لما كان لى أن أرى وجه الله قط) فلسوف أعتزل الحياة ، ولا أرى العالم بعد ذلك ، وأعيش حيث ينسانى البشر جميعا(٥٠) » .

ولما لم يقم أى دليل حاسم على اشتراك مالبرو فى أية مؤامرة لاعادة جيمس إلى العرش ، ولما كان وليم فى مسيس الحاجة إلى قادة مهرة . فإنه أخلى سبيله وأعاده إلى سابق مكانته ونفوذه .

ولما أصبحت آن ملكة ، وكانت آنذاك فى سن الثامنة والثلاثين ، بدل وغير إيثارها الخلق الكريم والأمانة والإخلاص والعزله ، من طبيعة البلاط الانجليزى ، فلم يجد المولعون بالقصف والصخب واللهو والفجور إليه منفذا . وآووا ساخطين ناقين إلى المقاهى والمواخير . وحل رجل الأخلاق أديسون محل روشستر المستهتر الخليع . وكتب ستيل « البطل المسيحى » . وكان لتجنب الملكة آن التردد على المسرح ولنموذج حياتها ، بعض الأثر فى تحسين أسلوب المسرح الإنجليزى . وعبرت الملكة عن ورعها

وتقواها بأن حولت إلى فقراء رجال الدين فى الكنيسة الرسمية نصيب العرش فى « بشائر الثمار » والعشور الكنسية (١٧٠٤) ، ولا تزال الحكومة البريطانية تدفع « منحة الملكة آن » هذه . وأنجبت الملكة أطفالا فى كل عام بانتظام تقريبا ، ولكنهم ماتوا فى سن الطفولة عدا واحدا . ولم يبق على قيد الحياة بعدها منهم أحد . ولقد ما أظلمت حياتها وتحطم قلبها لكثرة ما شيعت من جنازات .

ولو كان فى مقدور الملكة الآن أن تحدد هى السياسة القومية لعقدت الصلح مع فرنسا ، واعترفت بما طالب به أخوها من أبيها المتوفى ، أن يتربع على العرش تحت اسم جيمس الثالث . ولكن وليم الثالث بإرادته القوية كان قد أدخل انجلترا فى « الحلف الأعظم » كما أن الرجل الذى غلبت آراؤه ومشورته على كل ما عداها ، والذى كانت قد رفعته فور اعتلائها العرش من إرل إلى دوق مالبرو ، نقول أن هذا الرجل أغراها بأن تشق فى حكمها لمدة أكثر من عشر سنوات بحرب داميه باهظه التكاليف . وكانت لا تزال واقعه تحت تأثير صديقتها ، وهى آنذاك دوقه والمشرفه على ملابس الملكة ، وعلى أموالها الخاصه . وكانت سارة تتقاضى ٥١٠٠ جنيه سنويا . واستغلت تأثيرها الذى كاد يكون مغناطيسيا على الملكه ، فى زيادة ثراء زوجها ، فعين مالبرو قائدا عاما للقوات البرية . كما عين بناء على اقتراحه (صديقه سدنى جودولفين وزيراً للخزانة لأنه كان أمينا بشكل شاذ ، كما كان قديرا فى الشؤن الماليه كما كان يمكن الاعتماد عليه فى تحويل الأموال فورا إلى قادة الجيش الذين كان جنودهم يبدون من الشجاعه بقدر مايقبضون من نقود . وقد يشوقنا أن نسجل أن جودولفين مات فقيراً ، بعد أن قضى نصف عمره يضطلع بشؤن الخزانة ، وذهبت دوقه مالبرو العنيدة إلى أنه « خير من عاش من الرجال »(٥١) ومهما يكن من أمر فإنه قضى وقت فراغه فى صراع الديكة ومباق الخيل والميسر ، وهى رذائل معتدلة تعتبر مقاربه الفضيلة .

أن تجرد آن من الذكاء والفطنه سمح لوزرائها بالاستحواذ على قدر

كبير من السلطة وحقوق المبادرة التى كان البرلمان قد تركها للتاج ، ومن ثم نشبت المعارك السياسية (فيما عدا فترة حكم جورج الثالث) بين البرلمان والوزراء، لا بين البرلمان والملك . وفى ١٧٠٤ دخل الوزارة شخصيات جديدة : روبرت هارلى وزيرا للدولة ، وهنرى سانت جون وزيرا للحرب. ومس كلا الرجلين تاريخ الأدب مسا خفيفا : فان هارلى كان يستخدم ديفو وسويفت ، كما كان سانت — بوصفه فيسكونت بولنجبروك فيما بعد — ذا تأثير على بوب وفولتير ، كما أنه هو نفسه مؤلف أبحاث كانت يوما مشهورة . « أبحاث فى دراسة التاريخ » و « فكرة عن ملك محب لوطنه . وكان كلا الوزيرين يد من الشراب ، ولكن هذا لم يكن ميزة فى انجلترا فى ذلك الزمان . وكلاهما تولى منصبه بعون من مالبرو ، ولكنهما انقلبا ضده بتهمة اطالة أمد حرب الوراثة الأسبانية دون مبرر يدعو إلى ذلك .

ولد سانت جون (١٦٧٨) فى عهد شارل الثانى ، وتوفى (١٧٥١) فى أول سنى « دائرة المعارف » ، ومن هنا مثل تمثيلا دقيقا عبور أوربا من عودة الملكية إلى عصر الاستنارة فى فرنسا ، وتلقى أيام صباه تعليما دينيا كثيرا ، وأهدر قدرا كبيرا منه أيام كان رجلا . وأنه ليروى لنا : « كنت أرغم حين كنت صبيا على قراءة تعليقات دكتور مانتون الذى كان يفخر بأنه ألقى ١١٩ عظة عن المزمور رقم ١١٩[٥٢] » وفى ايتون وأكسفورد سعى جون وأحرز قصب السبق فى الذكاء والتكامل الخالى من الهموم ، والانغماس فى الملذات والادمان على الشراب فى لباقة . وكان يفاخر بأنه يتناول أكبر قدر من الخمر دون أن يثمل . وبأنه يخادن ابهظ الماهرات نفقة فى المملكة[٥٣] . وفى لحظة أراد أن يكتفى فيها بواحدة تزوج من وريثة ثرية . ولكنها سرعان ماهجرته لخياناته ولكنه استمر ينعم بضياعها ، مع بعض فترات انقطاع يسيرة . ووجد فى ١٧٠١ أن الانتخاب للبرلمان لا يكلف كثيرا ، نسبيا . وهناك حقق فى مجلس العموم بنفوذ عظيم نتيجة لوسامته وسرعة بديهته وبيانه المتدفق . ودخل الوزارة ولما يجاوز

السادسة والعشرين من العمر .

وكان أبرز انجازات هذه الوزارة هو توحيد برلمان انجلترا واسكتلندة، فإن البلدين على الرغم من خضوعهما لمليك واحد، كان لهما برلمانان منفصلان. واقتصاديات متعارضة ومذاهب دينية متنافرة ، وشنت كل منهما الحرب على . الأخرى ، زد على ذلك أن التعريفة الجمركية التى أملاها الحقد والحسد بين البلدين عوقت تجارتهما. وفى ١٦ يناير ١٧٠٧ وافق البرلمان الاسكتلندى، وفى ٦ مارس صدقت الملكة ، على بنود « الاتحاد » التى بمقتضاها أصبحت المملكتان — على حين احتفظت كل منهما بمذهبها الدينى المستقل — « المملكة المتحدة » لبريطانيا العظمى ، ولها برلمان بريطانى واحد ، مع حرية مطلقة فى الاتجار . على أن يختار ١٦ نبيلا اسكتلنديا لمجلس اللوردات، وينتخب ٤٥ عضوا فى اسكتلنده لمجلس العموم ، وينضم صليب سان جورج وصليب سانت أندرو فى علم جديد واحد . «اتحاد جاك » ولم يرحب أهالى اسكتلنده بالاندماج، ولمدة نصف قرن من الزمان تفاقمت المداوات القديمة. ولكن ماجاءت ١٧٥٠ حتى اعترف الجميع بأن الاتحاد كان خيرا وبركة. وتخلصت اسكتلندة من نفقات مزدوجة ، وانطلقت طاقتها الفكرية لتبدع فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر باكورة نتاج مشرق من الأدب والفلسفة .

وعزل هارلى وسانت جون عن الوزارة أثر فوز الأحرار (الهويج) فى أكتوبر ١٧٠٧ ، ولكن استمر تأثير نفوذ هارلى على الملكة عن طريق ابنة عمه « مسز أبيجيل ماشام » وكانت دوقة مالبرو قدمت هذه السيدة إلى الملكة آن من قبل . فخفف هدوؤها ولين عريكتها ورقة مزاجها عن الملكة التى أرهقت مسئولياتها الجديدة أعصابها كما أزعجتها نظرات سارة وصوتها المنيف . ورحبت سارة لبعض الوقت بتحررها من مداومتها على البقاء فى البلاط ، ولكنها سرعان ما فزعت حين اكتشفت تضاؤل نفوذها لدى الملكة : وكادت آن تكون بالطبيعة « محافظة — تورى » تقية محبة السلام ، على حين كانت سارة « متحررة — هويج » ضعيفة الإيمان ،

تسخر صراحة من حقوق الملوك الالهية على أنها تدجيل على الشعب وخداع له . وكم ألحت على الملكة في تأييد مشيئة مالبرو في شن الحرب على فرنسا حتى يتم القضاء عليها . وكشفت آن عن شيء جديد من قوة العقل والتفكير بعد أن تقلص ظل سارة . وعندما ثارت ثائرة ساره عليها بشكل وقح طردتها من الحاشية (١٧١٠) ، وصرحت الملكة آنذاك بأنها تحررت من أسر طال أمده .

وفي نفس السنة فاز « المحافظين » في الانتخابات ، بهارلي وبولنجبروك إلى الحكم ، وحل هارلي محل جودولفين في وزارة الخزانة ، وتولى بولنجبروك وزارة الحربية ، وأصبح جوناثان سويفت كاتب الكراسات والنشرات ، البالغ الأثر ، لهما . وعين هارلي إرل أكسفور (١٧١١) وحظى سانت جون بلقب فيكونت بولنجبروك (١٧١٢) . وابتهجت مومسات لندن حين سمعن بنبأ ترقية بولنجبروك ، قائلات : « أنه يحصل على ثمانية آلاف جنيه في العام ، وكلها لنا(*) » وقدمت الأغلبية « المحافظة » إلى المجلسين (١٧١١) مشروعا ينص على أنه يشترط للترشيح للبرلمان امتلاك أرض ذات دخل سنوي لا يقل عن ٣٠٠ جنيه لممثلي المدن ، وستمائة جنيه لمندوبي الريف(٥٤) . لقد بلغت الارستقراطية مالكة الأرض ذروتها آنذاك في انجلترا .

واعتزمت الوزارة الجديدة — على حين رفض مالبرو — انهاء الحرب بعقد صلح منفرد مع فرنسا . وفي ١٧١١ قدم هارلي إلى مجلس العموم اتهاما بالاختلاس ضد مالبرو . فتذرعوا بأن الدوق كان يجمع ثروة خاصة طائلة بوصفه القائد العام للقوات البريطانية ، وعن طريق مهام أخرى يتولاها ، وأنه بالاضافة إلى رواتبه السنوية التي تصل إلى نحو ٦٠ ألف جنيه . كان يقبض ستة آلاف جنيه سنويا من سير سولومون مدينا متعهد توريد

(*) من رسالة مؤرخة ٢٤ أبريل ١٧٦٩ ، لفولتير ، وهو في الغالب كذوب .

الخبز للجيش . وأنه اقتطع لنفسه خاصة ٢½ ٪ من المبالغ التى كان يتسلمها من الحكومات الأجنبية لدفع رواتب القوات الأجنبية التى كانت تحت امرته . ولم توق عمارة قصر بلنهيم الضخم لأحد إلا لعين مهندسه . وكان مالبرو يشيد هذا القصر فى وودستوك قرب أكسفورد . وكانت الملكة قد أمرت أن تتولى الحكومة الانفاق على بنائه . وشرعوا فى البناء ١٧٠٥ ، ولم يتم فى ١٧١١ إلا نصفه الذى تكلف ١٣٤ ألف جنيه بالفعل(٥٥) ، وكان اتمامه يستلزم مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه دفعت الحكومة أربعة أخماسه(٥٦) .

ودفع مالبرو بأن المبلغ المقتطع (٢½ ٪) كان مسموحا به بحكم العادة والعرف للقائد للصرف منه — دون تسجيل علنى فى الحسابات — على الخدمات السرية وأعمال التجسس التى أتت بأحسن النتائج . وأبرز ترخيصا موقعا من الملكة تجيز له الاقتطاع ، كما أكد الحلفاء الأجانب أنهم أيضاً فوضوه فى الاقتطاع ، وزاد ناخب هانوفر على ذلك أن هذا المال استخدم بحكمة ، وأدى إلى كسب معارك كثيرة(٥٧) ، أما عن المنحة التى كان مالبرو يتقاضاها من مدينا فإن دفاعه كان غير مقنع . وأدانه المجلس بأغلبية ٢٧٦ صوتا ضد ١٧٥ . وعزلته الملكة من جميع مناصبه (٣١ ديسمبر ١٧١١) ، فغادر انجلترا إلى المنفى الذى اختاره لنفسه بنفسه ، وعاش فى هولنده أو ألمانيا حتى نهاية العهد . وعين الوزراء جيمس بتلر دوق أورمند الثانى ليتولى قيادة الجيوش البريطانية ، وفوضوه فى اقتطاع نفس النسبة من عقود توريد الخبز ومن الأموال الأجنبية ، وهو ماأدانوا به مالبرو(٥٨) . ولكن الشعب البريطانى تقبل سقوط مالبرو على أنه خطوة على طريق السلام ،

وتفجر النزاع من جديد بين حزبى المحافظين والأحرار حول موضوع الوراثة الأسبانية . ذلك أنه فى ١٧٠١ حين مات آخر من بقى على قيد الحياة

من أولاد الملكة آن ، أقر البرلمان - رغبة منه فى احباط عودة أسرة ستيوارت إلى الملك مرة ثانية ، قانونا للتسوية ينتقل عرش انجلترا بمقتضاه فى حالة عدم وجود عقب لوليم الثالث والأميرة آن — إلى الأميرة صوفيا وورثتها من صلبها ، وهم بروتستانت . وكانت صوفيا ، زوجة ناخب هانوفر ، بروتستانتية يقينا ، يجرى فى عروقها بعض الدم الملكى البريطانى لأنها من حفيدات جيمس الأول . وكانت آن قد قبلت هذا التدبير ضمانا للحفاظ على انجلترا بروتستانتية . ولكن الآن وقد آذنت شمس حياتها بمغيب فإن عطفها على أخيها المحروم من حقه فى العرش ، نما واشتد ، ولم تدع مجالا للشك فى أنها لابد أن تساند مطالبة جيمس الثالث بالعرش إذا هو ارتضى نبذ الكثلكة . وأعرب الأحرار «عن تأييدهم التام لوراثة آل ها وفر للعرش ، على حين مال المحافظون إلى وجهة نظر الملكة . وفاوض بولنجبروك جيمس ، ولكن الأمير أبى التخلى عن عقيدته الكاثوليكية . على أن بولنجبروك الذى لم تكن الديانات فى نظره إلا أثوابا متباينة تكسو الموت جلالا وشرفا ، حاول بكل الوسائل إلغاء « قانون التسوية » وإبقاء وراثة العرش لجيمس ، وعاب على هارلى تباطأه الشديد فى هذه المسألة ، وبناء على اقتراح منه عزلت الملكة آن هارلى وهى كارهة . وبدا لمدة يومين اثنين أن بولنجبروك سيد الموقف .

ولكن فى ٢٩ يوليه انتاب الملكة مرض خطير نتيجة تأثرها وحزنها الشديد للخلافات بين وزرائها . وهنا تسلح البروتستانت فى انجلترا لمقاومة آية عودة للملكية آل ستيوارت ، ونبذ المجلس الخصوص سياسة بولنجبروك ، وأقنع الملكة المترددة بتعيين دوق شروزبرى وزيرا للخزانة ورئيسا للحكومة . وفى أول أغسطس ١٧١٤ فارقت آن الحياة . وكانت صوفيا قد قضت نحبها قبل ذلك بشهرين ، ولكن « قانون التسوية » مازال قائما . وأرسل المجلس إلى ابن صوفيا ، ناخب هانوفر ، يبلغه أنه أصبح الآن جورج الأول ملك انجلترا

أن سنى حكم وليم ومارى وآن (١٦٨٩ - ١٧١٤) كانت سنين حيوية بارزة فى تاريخ انجلترا . وعلى الرغم من الإنحلال الخلق والفساد السياسى والنزاع الداخلى ، شهدت هذه السنوات انقلابا أسريا (تغييرا جذريا فى الأسرة المالكة) ، وإقرار البروتستانتيه نهائيا فى انجلترا ، وانتقال سلطة الحكم من الملك إلى البرلمان بشكل لارجعة فيه . كما شهدت نشوء الوزراء الأقوياء ، وهذا بدوره أدى إلى الانتقاص من سلطان الملك . وشهدت لآخر مرة فى ١٧٠٧ اعتراض الملك على تشريع البرلمان ، وخطت خطوة أوسع فى اقرار التسامح الدينى وحرية الصحافة . ووحدت بطريقة سلمية بين انجلترا واسكتلنده ، فى دولة أقوى ، هى بريطانيا . وأحبطت محاولة أقوى ملوك العصر الحديث ليجعل من فرنسا الدكتاتور الآمر الناهى فى أوربا ، وبدلا من ذلك جعلت انجلترا سيدة البحار ، ووسعت ممتلكات انجلترا فى أمريكا، مما كان له نتائج تاريخية بعيدة المدى وشهدت هذه السنوات أيضا انتصارات العلم والفلسفة فى انجلترا فى « مبادىء اسحق نيوتن » ، وفى كتاب لوك « بحث فى التفاهم الإنسانى » . أما سنى حكم آن الوديعة ، وهو حكم قصير لم يتجاوز اثنى عشر عاما ، فقد كان عهد انبثاق فى الأدب — ديفو ، أديسون، ستيل ، والفترة الأولى من حياة الاسكندر بوب — لم يكن له نظير فى أى مكان فى العالم فى ذاك العصر .

الفصل الحادي عشر

من دريدن إلى سويفت ١٦٦٠ — ١٧١٤

١ — صحافة حـــرة

ترى ماذا حدا برجل فرنسي أن يكتب في ١٧١٢ بزت « انجلترا فرنسا في الانتاج الأدبي كما وكيفا وأن مركز الحياة العقلية والفكرية .. انتقل أكثر فأكثر إلى الشمال حتى قام الإنجليز حوالي عام ١٧٠٠ « بأكبر دور خلاق(١) » إن رجلا انجليزيا نعم بمآثر فرنسا يرد التحية فيقول : إن جزءا من هذا الحافز جاء عن طريق آداب السلوك والعادات التي جلبها شارل الثاني والمهاجرون العائدون ، وأن جزءا آخر نبع من ديكارت وباسكال وكورنيل وراسين وموليير وبوالو ومدموازيل دي سكودري ومدام دي لافايت ، ومن الفرنسيين المقيمين في انجلترا مثل سانت أفرموند وجرامونت . وأننا لنرى التأثير الفرنسي في الملهيات الشهوانية الجنسية والمآسيات البطولية التي ظهرت على المسرح في عودة الملكية ، وفي الانتقال من غزارة النثر في عهد اليزابث وتلافيف فترات ملتون إلى النثر المهذب المصقول المنطقي الذي دبجه دريدن وهو يكتب المقدسات وإلى الشعر الذي نظمه بوب : ومضى الآن قرن من الزمان (١٦٧٠ — ١٧٧٠) كان الأدب الإنجليزي فيه نثرا ، حتى ولو كان موزونا مقفى ، ولكنه نثرا نثرا واضحا ممتازا من الطراز الأول .

ومهما يكن من أمر فان الأثر الفرنسي كان مجرد استحثاث ، ولكن جذور المسألة كانت في وسع انجلترا نفسها : في عودة الملكية المقرونة بالبهجة والفرح والتحرر ، وفي التوسع الاستعماري ، وفي إثراء الفكر بفضل

التجارة ، وفى الانتصارات البحرية على الهولنديين ، وفى قهرها (١٧١٣) لفرنسا التى كانت قد انتصرت على أسبانيا . ومن ثم انفتح الطريق إلى الامبراطورية شمالا ، وكما أجرى لويس الرابع عشر الرواتب على المؤلفين بوصفها رضيخة أو رشوة تمنح الأنصار ، فان الحكومة الإنجليزية ، بطريقة شبيهة بهذه ، كافأت الشعراء أو الناثرين المحبين لوطنهم أو المشايعين للحكومة — دريدن كونجريف ، جاى ، بريو ، أديسون ، سويفت — بالرواتب تخصصا لهم ، ويتناول الطعام على موائد الارستقراطية ، وبحصة على المبيعات من المطبوعات ، أو بالوظائف ذوات الدخل الكبير والجهد اليسير فى الإدارة ، من ذلك أن أحدهم صار وزيرا ، ونظر فولتير فى شيء من الحسد إلى هذه الوظائف السياسية(٢) . ورعى شارل الثانى العلم والجمال لا الأدب والفن . ولم يكترث وليم الثالث والملكة آن بالأدب . ولكن وزراءهم — حين وجدوا أن الكتاب نافعون فى عصر الصحافة والنشرات والمقاهى والدعاية — أغدقوا المال على الأقلام التى يمكن أن تخدم التاج أو الحزب أو الحرب . وأصبح الكتاب سياسيين ثانويين ، وبعضهم مثل بريور Prior ، صار من رجال السلك الدبلوماسى ، وبعضهم مثل سويفت وأديسون برع فى التعيين فى الوظائف وفى المحسوبية وفى التدخل فى شئون السلطة . وأهدى المؤلفون أعمالهم إلى اللوردات وسيدات المجتمع ، تقديرا كريما لما ينتظر أن يحظوا به من خيرات وفضل وعطف ووصال ، فى عبارات اهداء ملؤها المديح والاطراء والتحيات والتمنيات ، مما جعل هؤلاء السيدات وأولئك اللوردات أسمى من أبوللو أو فينوس فى جمال الجسم والقوام ، ومن شكسبير وسافو فى كمال العقل والذهن .

وساعدت الحرية الذهب على اطلاق العنان لفيضان المداد وجريان القلم . وكانت قصيدة ملتون « أريوباجيتيكا » قد اخفقت فى القضاء على « قانون الرقابة » ، الذى تمسكت به الرقابة فى الصحافة فى عهد ملوك أسرتى التيودور وستيوارت ، واستمر القانون نافذ المفعول فى عهد كرومول غير المستقر ،

وبعده فى عودة الملكيه لآل ستيوارت ، ولكن حين بدأت حكومة جيمس الثانى فى إزعاج الأمه ، شرع عدد أكبر فأكبر من كتاب الكراسات والنشرات يتحدون القانون ويدخلون السرور على قلوب الشعب . وعندما اعتلى وليم الثالث العرش ، كان هو وأنصاره « الأحرار » مدينين بأكبر الفضل للصحافة إلى حد أنهم عارضوا تجديد قانون الرقابة ، فانتهى العمل به ١٦٩٤ ، ولم يجدد ، وتدعمت حرية الصحافة تلقائياً . وربما ظل الوزراء الملكيون يمتقلون الكتاب بسبب هجماتهم المنيفة المتطرفة على الحكومة وظل « قانون التجديف » (١٦٩٧) يفرض عقوبات صارمة على التشكك فى أساسيات الدين المسيحى ، ولكن انجلترا نعمت منذ ذلك الوقت فصاعدا بحرية الأدب التى أسهمت ، على الرغم من سوء استخدامها غالباً ، إسهاماً كبيراً فى نمو الفكر الانجليزى .

وتضاعف عدد الدوريات ، وانتظم صدور الصحف الأسبوعية منذ ١٦٢٢ ، وعطلها كرومول جميعاً ماعدا اثنتين ، ورخص شارل الثانى فى صدور ثلاث منها تحت إشراف رسمى ، أصبحت واحدة منها هى « أكسفورد » وفيما بعد لندن جازيت « الناطقة باسم الحكومة » وكانت تصدر نصف شهرية أو نصف أسبوعيه منذ ١٦٦٥ . وفور إلغاء قانون الرقابة صدرت عدة صحف أسبوعية . وفى ١٦٩٥ أسس المحافظون أول جريدة يومية انجليزية « ساعى البريد Post Boy » والتى لم تصدر إلا أربعة أيام فقط ، حيث عاكسها « الأحرار » فى الحال بصحيفة « البريد الطائر Flying Post » . وأخيراً فى ١٧٠٢ أصبحت The Eng lsh Gourant هى الصحيفة اليومية المنتظمة فى انجلترا — فرخ صغير من الورق مطبوع على وجه واحد فقط ، تقص الأنباء ولا تدون آراء ، ومن هـذه الهبات المتقطعة نشأت عمالقة الإعلان التى نراها اليوم بين أيدينا .

وأتى ديفو بمستوى جديد فى صحيفه « ريفيو » (١٧٠٤ ١٧١٣) وكانت أسبوعية تقدم التعليقات كما تقدم الأنباء . وهى التى بدأت القصة

المسلسلة وتبعه ستيل فى « تاتلر » (١٧٠٩ - ١٧١١) . وسما هو وأديسون بهذا التطور إلى ذروته التاريخية فى « سبكتاتور » (١٧١١ — ١٧١٢) وروع حكومة المحافظين التوزيع الإجمالى وتأثير الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية ، ففرضت عليها ضريبة ثمة تتراوح بين نصف بنس و بنس واحد.مما جعل البقاء مستحيلا بالنسبة لمعظم الدوريات . وكانت « سبكتاتور » إحدى الدوريات التى احتجبت . وقال سويفت لبطلته وصديقته ستللا : « لقد دمروا شارع Grub بأسره(٣) (الشارع الذى يقطنه محررو الصحف) . وأصدر بولنجبروك فى ١٧١٠ « أجزامنر Examiner » الأسبوعية ليدافع فيها عن سياسة وزارة المحافظين . ووجد فى جوناتان سويفت رجلا واسع الاطلاع لاذع القدح والطعن ، متوقد الذكاء . لقد وقع المال على أداة جديدة ، وطغى سلطان الصحافة الدورية شيئاً فشيئاً على تأثير المنابر فى تشكيل الرأى العام ، وإعداده للأهداف الخاصة ، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأمور الدنيوية .

١١ — المسرحية فى فترة عودة الملكية

فيما بين عامى ١٦٦٠ و ١٧٠٠ كان ثمة أداة أخرى شكلت أو شوهت أو عبرت مجرد تعبير عن روح لندن المجردة من الحيوية والنشاط . وحيث استطاب شارل الثانى المسرحية الباريسية فإنه أجاز فتح مسرحين : الأول للملك وجماعته فى « درورى لين » والثانى لدوق يورك وجماعته فى « لنكولن ان فيلدز » وفى ١٧٠٥ افتتح مسرح الملكة فى هايماركت ، ولكنها نادراً ماشهدت التمثيل فيه وفى أيام شارل الثانى كان مسرحان اثنان يفيان بالحاجة عادة . وظل البيوريتانيون يقاطعون المسرحية ، أما الجمهور بصفة عامة على أية حال ، فلم يكن يرخص له بدخول المسارح بين ١٦٦٠ و ١٧٠٠(٤) ولم يقصد إليها فى معظم الأحوال إلا كل عربيد ماجن من رجال الحاشية ، وحثالة الطبقة الأرستقراطية والمتصلين بها ، والأثرياء المتعطلين الذين

يقضون أوقاتهم فى المسارح والنوادى وسباق الخيل وغيرها . يقول : دكتور جونسون الوقور : « أن المحامى الوقور ليحط من قدره ويمتهن كرامته ، وأن المحامى الناشىء ليسىء إلى سمعته ، إذا غشى بيوت الاباحية المنحلة هذه[٥] » وشكل النساء قسما صغيراً من النظارة على أنهن إذا ذهبن إلى المسرح كن يخفين شخصياتهن وراء الأقنعة[٦] . وكانت العروض تبدأ فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، حتى إذا تحسنت الإضاءة فى الشوارع (حوالى ١٦٩٠) أجلت إلى السادسة . وكان أجر الدخول أربعة شلنات للمقصورات وللمقاعد الخلفية شلنين ونصف وللشرفات شلنا واحداً . وكانت أجهزة التأثير المسرحى وتغيير المناظر أكثر إتقاناً بكثير مما كانت عليه فى أيام اليزابيث . ولو أن حجرة نوم واحدة وملحقاتها ربما كانت تكفى لمعظم ملهيات عصر عودة الملكية ، وحلت الممثلات محل الغلمان فى تأدية أدوار النساء ، وكن كذلك عشيقات ، من ذلك أن مرجريت هيوز التى مثلت ديدمونا لأول مرة ظهرت فيها امرأة على المسرح الانجليزى (٨ ديسمبر ١٦٦٠) كانت عشيقة الأمير روبرت[٧] . وفى عرض لمسرحية دريدن « الحب الاستبدادى » تعلق قلب شارل الثانى لأول مرة بخليلته نل جوين التى كانت تمثل دور فاليريا[٨] . إن طبيعة جمهور المشاهدين ، ورد الفعل ضد البيوريتانية ، وأخلاق البلاط ، وذكريات روايات عصرى اليزابيث وجيمس الأول (وبخاصة روايات بن جونسون) وأحياء هذه الروايات واستعادة تلك الذكريات من جديد ، وتأثير المسرح الفرنسى والملكيين المهاجرين ، كانت كلها عوامل تجمعت لتشكل المسرحية أيام عودة الملكية .

وكان الإسم اللامع فى « مسرحية المأساة » فى عودة الملكية هو دريدن لنتركه مؤقتاً ، لنتحدث عن مسرحية توماس أوتواى « الحفاظ على فينيسيا » التى عمرت بعد كل روايات دريدن وظلت تمثل حتى ١٩٠٤ . إنها قصة حب مطعمة بمؤامرة أصدقاء كونت دى أوزونا لقلب سناتو فينسيا فى ١٦١٦ . ويرجع ماصادفته من نجاح فى البداية من ناحيه ، إلى الصورة الساخرة التى

رسمتها لإرل شافتسبرى الأول (عدو شارل الثانى وصديق لوك) فى شخصيه أنطونيو الذى يحب أن تضربه عشيقته البغى ، ومن ناحية أخرى إلى التشابه بين هذه المؤامرة وبين المؤامرة البابويه «الحديثه» ومن ناحيه ثالثه إلى تمثيل توماس بترتون ومسز اليزابيث بارى ، ولـكن الروايه تقف اليوم على قدميها إن مناظرها الهزليه سخيفه مؤذية ، خاتمتها تنشر الموت فى إجماع أقرب شبها بالمسرحيه الموسيقيه (الأوبرا) ، ولـكن حبكه الروايه متقنه دقيقه ، وشخوصها مصورة تصويراً مميزاً ، والحركة مسرحيه إلى أبعد حد ، والشعر المرسل فيها ينافس مثيله فى المسرحيه فى عصر اليزابيث ، باستثناء مارلو وشكسبير . ووقع أوتواى فى غرام مسز بارى ، ولـكنها آثرت عليه معاشرة إرل روشستير ، وبعد كتابه عدة مسرحيات أخرى ناجحه أخرج الشاعر سلسلة من الروايات لم يكتب لها النجاح ، وانحدر إلى مهاوى الفقر والعوز وفى روايه أنه مات جوعا(٩) .

إن ذكرى المسرحيه فى فترة عودة الملـكيه حيه من أجل ملهياتها . فإن ما كان فى هذه الملهيات من مرح وسخريه ، ومحاورات داعرة، ومغامرات فى الخدع ، بالإضافه إلى قيمتها فى أنها مرآة تعكس حياة طبقه واحدة فى جيل واحد . كل أولئك أكسبها شعبيه جزئيه ، إن لم تـكن مختلسه لا تكاد تستحقها . فإن مجالها ضيق إذا قيست بملهيات عصر اليزابيث أو موليير ، وأنها لا تصور الحياة بل تصف عادات المتعطلين المتسكعين فى المدن والحاشيه الخليعه المتهتكه ، وتتجاهل الريف إلا إذا أخذوه هدفاً للاستهزاء والسخريه ، أو « سيبيريا » ينفى إليها الأزواج زوجاتهم للتطفلات . إن بعض المسرحيين الإنجليز شاهدوا موليير يمثل أو تمثل رواياته ، واستعار بعضهم شخوصه أو حبكات مسرحياته ، ولـكن أحداً منهم لم يبلغ نزعته فى مناقشه الأفكار الاساسيه ، فالفـكرة الأساسيه الوحيدة فى هذه الملهيات هى أن الزنى هو الهدف الرئيسى لأعظم عمل بطولى فى الحياة . وكان المثل الأعلى للرجل فيها هو ماوصفه دريدن فى « المنجم الهزاة » على أنه « سيد ماجد » رجل ثرى

عاطل يغشى النوادي والمقاهي والمسارح والمواخير ، يرتدي أفخر الثياب ، يأكل ويشرب ويفسق ويباشر البغايا إلى أقصى حد ممكن » . وفي رواية فاركو « خداع العاشقين » جاء على لسان أحد الشخصيات ، وكأنما يقول سيد مهذب لآخر : « إني أحب جوادا جميلا ولكني أتركه لرجل آخر ليتولى العناية بأمره ، وإني كذلك بالمثل أحب سيدة جميلة »(١٠) وهذا لا يعني أنه لا يشتهي زوجة جاره ولا يمد عينيه إليها ، بل أنه يريد أن يستمتع بكل مفاتنها وأطايبها ، على حين ترك لزوجها أن يرعى شئونها وينفق عليها . وفي رواية كونجريف « طريق الحياة الدنيا » يقول ميرابل للمعشوق موضع الإعجاب لزوجة صديقه « يجب أن تشعري بالاشمئزاز والنفور والكراهية لزوجك مما يجعلك تستمتعين بحبيبك أو عشيقك(١١) » . ويندر أن ترى الحب في هذه الروايات يرتفع فوق الشهوة الجسدية التي تلتهب بين جوانح الطرفين ، يريدان إطفاءها . وإنا لنتلهف عند قراءتها أن تقع العين على ظل لمعاني النبل والشرف ، ولكننا لا نرى فيها إلا أخلاقيات للمواخير وبيوت الدعارة .

إن وليم وتشرلي هو الذي استهل هذا التقليد . وكان أبوه ملكيا من أسرة عريقة تملك ضيعة كبيرة ، وأرسل ولده إلى فرنسا لتلقي العلم ، عندما تولى البيوريتانيون مقاليد الحكم في إنجلترا ، إصرارا منه على ألا ينشأ الولد بيوريتانيا . ولم يعتنق وليم قط هذا المذهب ، ولكن الأسرة صعقت حين أصبح كاثوليكيا . وسرعان ما عاد إلى البروتستانتية لدى عودته إلى انجلترا ، وهناك درس في أكسفورد وتركها دون الحصول على درجة جامعية . وانصرف إلى كتابة الروايات . وجمع ثروة من رواية « حب في الغابة » (١٦٧١) التي أهداها إلى ليدي كاسلمين . واستقبله في البلاط الملك الودود اللطيف الذي لم يشك ولم يتذمر حين وجد آن وتشرلي وتشرشل كليهما ، يشاركانه غرام عشيقته كاسلمين(١٢) .

واشترك وليم في الحرب الهولندية ١٦٧٢ ، ببسالة متوقعة من سيد

ماجد ، وعاد إلى انجلترا ولم يمسه سوء ، وأحرز نجاحا آخر فى « الزوجة الريفية » (١٦٧٢) . ودعى النظارة فى المقدمة – إذا لم تعجبهم الرواية – إلى دخول غرفة ملابس الممثلين فى ختامها ، وهناك :

« فإننا عن طيب خاطر ... نتخلى لكم يا شعراءنا ، عن العذارى ، لا بل عن عشيقاتنا كذلك » .

وخلاصة الموضوع أن مستر بنشويف اصطحب زوجته معه لقضاء أسبوع فى لندن ، وأحكم حراستها إلى حد أنها أوقعت فى شرك الغواية تحت سمعه وبصره ، ذلك أن من يدعى مستر هورنر – العائد من فرنسا لتوه ، والمتلهف على الوصول إلى الزوجات دون عائق – أذاع بين الناس أنه خصى ، ومن هنا يستنتج بنشويف أنه لاحرج فى أن يفتح بيته لمثل هذا العنين العاجز ، ولكنه سرعان ما يكتشف أن زوجته تكتب رسالة غرامية إلى هذا الزير المتودد إليها الذى أدعى المنة ، فيرغمها على كتابة رسالة أخرى تكيل له فيها أقذع السباب والشتائم ، وما أن أدار الزوج ظهره حتى أسرعت هى فوضعت رسالتها الغرامية الأولى مكان الرسالة الثانية التى تنم عن الغضب والاستياء . وسلم الزوج المزهو المفاخر بالسيطرة على الموقف الرسالة الأصلية إلى هورنر . وبعد فترة اتجه ظن الزوج إلى أن هورنر أقدر مما تردده عنه الشائعات ، ففكر فى أن يشغله ، ووافق على أن يأخذ إليه أخته أليثيا . وتتنكر الزوجة حتى تبدو وكأنها أليثيا ، ويحملها زوجها إلى عشيقها . وتختتم الرواية « برقصة الديوث » ، وهورنر هو المنتصر فى النهاية ، ثم تلقى إحدى الممثلات شعراً توجه فيه اللوم والتقريع إلى الرجال الحاضرين ، لأنهم لايتحلون بقدر كاف من الرجولة .

« وقد يظل الناس على اعتقادهم بأنكم تمتلئون قوة ورجولة ، ولكننا نحن النساء لاسبيل إلى خداعنا » .

واقتبس ونشرلى كثيراً من « الزوجة الريفية » من رواية موليير « مدرسة الأزواج ومدرسة الزوجات » وفى روايته التالية « التاجر

الشريف » حول وتشرلى شخصية « ألست » فى رواية موليير « مبغض البشر » إلى شخصية كابتن مانلى الذى لم تتعد فكرته عن التعامل الشريف، مجرد تناول كل الناس والأشياء بلغة بذيئة مقذعة . والغريب المدهش فى الأمر أن سكان لندن ، بل حتى سكان بعض الضواحى ، أحبوا وصف الحياة على أنها سعى متصل وراء شهوة الجسد ، يلطف منه بعض التجديف فى الحديث . وفى إحدى المكتبات فى « تنبريدج ولز » سمع وتشرلى إحدى السيدات تسأل عن كتابه المنشور حديثاً « التاجر الشريف » فغمرته نشوة الفرح ، ولم تكن هذه إلا كونتس دور جيدا ، الأرملة الثرية ، فطلب يدها وتزوجها . ووجد أنها كانت تضعه تحت مراقبة أشد وأكثر مثابرة مما كان يفعل بنشويف ، ولكنها ماتت فجأة فظن أن أموالها لا بد أن تؤول الآن إليه ، ولكن القضايا القانونية التى تشابكت فيها التركة حالت دون ذلك ، فلم يستفد منها شيئاً . وعجز عن تسديد الديون التى كان قد اقترضها ثقة منه بأيلولة التركة إليه ، فأرسل إلى السجن حيث قضى سبع سنين وهنت فيها عزيمته وذبل نشاطه ، حتى جاء جيمس الثانى ، وسدد — قبل إرتداد وتشرلى إلى الكاثوليكية ثانية أو بعده — ديونه وأجرى عليه راتباً . وبلغ وتشرلى أرذل العمر فى شقاء ومعاناه . وظل مع عجزه يلاحق النساء ، ويكتب نظماً ، حاول صديقه الشاب بوب أن يحوله إلى شعر . وفى سن الخامسة والسبعين تزوج الفاجر العجوز امرأة شابة ، ولم يعمر بعد الزواج إلا عشرة أيام ، ووافته المنية فى أول يناير ١٧١٦

وكان سيرجون فابر وألطف من كتب عن الزنى والزناة . وكان « جون بول » (الرجل الإنجليزى النموذجى) يتجسد فيه تماماً ، فهو خشن مرح طلق المحيا ، يحب طعام انجلترا وشرابها ، ولو أن جده لوالده هو جلليس فإن برو ، وهو فلمنكى من مدينة غنت قدم إلى بريطانيا فى عهد جيمس الأول . وكان جون يبشر بحسن المستقبل إلى حد أنه أرسل إلى باريس فى سن التاسعة عشرة ليدرس الفن . فلما عاد فى الحادية والعشرين التحق

بالجيش ، وقبض عليه فى كاليه بتهمة أنه جاسوس بريطانى ، وقضى مدة فى الباستيل ، وهناك كتب المسودة الأولى « للزوجة المغيظة » حتى إذا ماخرج من السجن عكف على كتابة الروايات . وفى ستة أسابيع ـ كما يروى لنا هو ـ فكر وتصور ، ثم كتب ومثل رواية « النكسة » (١٦٩٦) ، بمافيها من هجاء مرح للمتأنقين فى لندن ، مثل لوردفوبنجتون وملاك الأرض فى الريف مثل سيرتنبلى كلزى ، ومس هويدن الشهوانية . وكان سيرتنبلى يضعها تحت الرقابة والحراسة منذ بلغت الحلم ، وفرح وابتهج لبراءتها وطهرها . « يا البنت المسكينة : إنها ستفزع وتنزعج فى ليلة عرسها ، لأنها ، والحق أقول ، لا تميز الرجل من المرأة إلا بلحيته وبطلونه القصير »(١٤) . ولكن مس هويدن تصف نفسها على نحو آخر : « من حسن حظى ، هناك عريس قادم ، وإلا تزوجت الخباز ، سأفعل ذلك . فما من أحد يستطيع أن يقرع الباب ، ولكن حاليا يجب على أن أختبىء ، وهنا يمكن الكلبة السلوقية الصغيرة تحوم حول البيت طوال اليوم ، إنها تستطيع ذلك » . وعندما يأتى توم فاشون ليطلب يدها ، ويمهله أبوها أسبوعا ، تحتج الفتاة وتقول « أسبوع : ولماذا ؟ إنى أكون عند ذاك امرأة عجوزاً »(١٥) :

ونجحت مسرحية « النكسة » نجاحا كبيرا إلى حد أن فانبرو تعجل إكمال « الزوجة المغيظة » (١٦٩٧) وكانت هذه من أنجح أعمال ذاك العصر . وظل دافيد جارك طيلة نصف القرن التالى يتحف لندن ويمتعها بتمثيله المستهتر لشخصية سيرجون بروت ، وهى أعظم شخصية مشهورة مذكورة بين كل شخوص المسرحيات فى فترة عودة الملكية . وسيرجون هذا وسيم هزلى ساخر يمثل المظاهر الأقرب شبها بالخنزير فى ملاك الأرض الانجليز ـ يشرب الخمر ، ويتباهى ، ويهدد ويتوعد ، ويستأسد ، ويطلق ويضحكو من « عصر الالحاد المهين هذا » . ويفتتح المسرحية برأيه فى الزواج حيث يقول :

«أى لحم متخم هو الحب ، إذا كان متبلا بالزواج ، إن عامين قضيتهما متزوجا قد أفسدا على حواسى الخمس . فكل شيء أراه ، وكل شيء أسمعه ، وكل شيء أحس به ، وكل شيء أشمه ، وكل شيء أتذوقه ، أظن أن فيه زوجة . فما ضجر ولد بمؤدبه ، ولا بنت ولا رجل بعمل الكفارة ، ولا عذراء عجوز بطهرها وعفتها ، قدر ضجرى بزواجى وسأمى إياه .

ومذ عرفت زوجته آراءه ، فانها تفكر فى ترويضه بأن تجعل منه ديوثا.

ليدى بروت : إنه أساء معاملتى أبلغ اساءة مؤخرا ، حتى كاد يستقر عزمى على أن ألعب دور الزوجة بكل ما فى الكلمة من معنى ، وأجعل منه ديوثا وأخونه . . .

بيلندا : ولكنك تعلمين أنه ينبغى علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان .

ليدى بروت : ربما كان هذا خطأ فى الترجمة(١٦) » .

وهنا تأتى جارتها ليدى فانسيفل التى تميل إلى ما تميل إليه ليدى بروت ، وتناقش شكوكها ومخاوفها مع وصيفتها الفرنسية التى تجيب بالفرنسية ، وهى هنا مترجمة :

ليدى ف : سمعتى يا آنسة : سمعتى :

الوصيفة : سيدتى ، إذا فقد المرء سمعته يوما ، فلن تعود بعد ذلك تزعجه .

ليدى ف : تبالك يا آنسة ، تبالك ، أن السمعة جوهرة .

الوصيفة : وقيمتها غالية جدا يا سيدتى .

ليدى ف : لماذا إذن ، يقينا أنك لن تضحى بمرنك من أجل متعتك ؟

الوصيفة : إنى فيلسوفة .

ليدى ف : انه لايتفق مع الشرف (لقاء العاشقين) .

الوصيفة : ولكنه للمتعة . . .

ليدى ف : ولكن إذا كان العقل يصلح من شأن الطبيعة .

الوصيفة : عندئذ يكون العقل وقحا ، لأن الطبيعة أخته الكبرى . .

ليدي ف : إذن أنت تؤثرين طبيعتك على عقلك ؟

الوصيفة : نعم ، بكل تأكيد .

ليدي ف : ولمــــاذا ؟

الوصيفة : لأن طبيعتى تغمرنى بالبهجه والسرور ، أما عقلى فيورثنى الجنون(١٧) .

وربمـا كانت هذه الزاوية هى التى أثارت غضب جرمى كوليير إلى حد أنه فى العام الذى تلا ظهورها ، نشر هجوما عنيفا على المسرحية فى فترة عودة الملكية ، وعلى فانبرو بصفة خاصة . وكان كوليير كاهنا أنجليكانيا على درجة من العلم ، ومن الشجاعة والتشدد فى عقيدته، وحيث كان قد أقسم يمين الولاء لجيمس الثانى ١٦٨٥ ، فإنه أبى أن يقسم يمين الولاء لوليم ومارى ١٦٨٩ . واستنكر « الثورة الجليلة » ، حتى إلى حد التحريض على التمرد والعصيان . وقبض عليه ، ووجد أصدقاؤه مشقة كبيرة فى اقناعه بأن يسمحوا لإطلاق سراحه بكفالتهم . ومنح الغفران للطلاق لرجلين كانا على وشك أن يشنقا بتهمة التآمر على ما اعتبر كوليير أنها حكومة اغتصبت الحكم . فأنكر أسقفه عليه تصرفه وأدانه النائب العام، ولكنه رفض المثول أمام أية محكمة. وعاش طريد العدالة محروما من الكنيسة حتى وافته المنيه . ولكن الحكومه قدرت نزاهته ، ولم تلاحقه بعد ذلك . وعبر وليم الثالث عن تقديره الكبير للعصفة التاريخيه التى قام بها كوليير .

وكان الكتاب الذى نشره كوليير يحمل عنوان « لمحة قصيرة عن الانحلال والدنس فى المسرح الإنجليزى » . وكان يحوى ، كما حوت معظم الكتب ، هراء كثيرا . واستنكرا الراعى الغاضب فى المسرحية الانجليزية أخطاء كثيرة قد تبدو لنا الآن تافهة ، أو أنها ليست أخطاء اطلاقا ، واعترض على أيه اشارة غير كريمه لرجال الدين ، ونشر فى سخاء شديد ، مظلة العصمه

من الخطأ فوق زعماء الوثنية والكهنة الكاثوليك والقساوسة المنشقين .
أدان كثيرا من كتاب المسرح ، من أشيلس إلى شكسبير إلى
كونجريف ودريدن ، حتى ليشعر كل المتهمين ببراءتهم لمجرد حشرهم فى زمرة
هؤلاء العظماء . ولكن كوليير أضعف قضيته فى مجادلته فى أن للمسرح العام
يجب ألا يتناول الجريمة أو الانحلال الخلقى مطلقا . ولكنه وجه بعض
ضربات ناجحة لأن الأهداف البراقة واجهته فى كل مكان . فنعى على كثير
من كتاب المسرح فى فترة عودة الملكية ما أبدوا من اعجاب بالاسفاف
فى الزنى والفسق ، وأثر ذلك على جمهور المشاهدين . وظل الكتاب حديث
لندن طيلة عام كامل . ودافع الروائيون عن أنفسهم بأساليب متنوعة ، وتحول
فانبرو عن المسرحية إلى هندسة العمارة ، وانهمك لأكثر من عشر سنوات
فى بناء قصر بلنهيم ، ثم شاد قصر هوارد على طراز عمارة بلاديو الرومانى
الجميل (١٧١٤) . واعترف دريدن بخطاياه ، وأظهر ندمه على ما فعل
وأنكر كونجريف جريمته ، ولكنه أصلح من فنه .

وبلغ وليم كونجريف بمسرحية عصر عودة الملكيه ذروتها ونهايتها
معا . ولد بالقرب من ليدز فى ١٦٧٠ ، فى أسرة كانت عراقتها موضع فخره
واعتزازه وسط كل ما أحرز من فوز ونجاح . وكان والده قائد حامية
انجليزية فى أيرلنده ، ولذلك درس وليم فى مدرسة كلكنى ، وجلس على
نفس المقعد الذى جلس عليه جوناثان سويفت ، ثم فى ترنتى كولدج فى دبلن ،
ثم فى مدل تمبل فى لندن . وسرى فى دمه جرثومة الطموح الأدبى من بيئة
كان فيها الأذواق أنفسهم يؤلفون الكتب . وفى أول سنة كان يدرس فيها
القانون كتب « المستخفية » (١٦٩٢) التى امتدحها ادموند جروس
« لمرحها ودعابتها الخفيفة » ولأنها أقدم قصة طويلة (عن العادات وآداب
السلوك ؟) فى الإنجليزية[١٨] » . ولكن صموئيل جونسون قال عنها »
خير لى أن أمتدحها من أن أقرأها[١٩] » ، وحظى كونجريف بالشهرة من

فقفزة بملهاته الأولى « الأعزب العجوز » ١٦٩٣ ، التى أقسم دريدن – وهو عميد الأدب المعترف به فى انجلترا فى هاتيك الأيام – بأنه لم ير قط خيرا منها ، باكورة للعمل فى مجال الرواية ومذكان كونجريف غير واثق من أن الرجل الماجد ينبغى أن يكتب للمسرح ، فأنه اعتذر بأنه إنما كتبها « لمجرد التسلية فى فترة إبلال بطىء من علة ألمت به » ، ومن هنا قال كولبير « ليس لى أن أتساءل ماذا كانت علته ، ولكن لا بد أنها كانت خطيرة جدا ، وأسوأ من العلاج[٢٠] » . أما هاليفاكس فإنه اتفق فى الرأى مع دريدن ، حتى أنه عين كونجريف فى منصبين يدران عليه دخلا كافيا يستطيع بفضله أن يحتفظ بمكانته ، سيدا كريما ، وأن يعمل فى عالم المسرح .

ولم تلق روايته الثانية « التاجر المخادع » (١٦٩٤) ترحيبا كبيراً ، ولكن اطراء دريدن ، الذى وضع كونجرف مع سكسبير فى مرتبة سواء ، شد من أزر المؤلف الناشىء ، وفى ١٦٩٥ ، فى سن الخامسة والعشرين ، عاد إلى خشبة المسرح برواية « الحب للحب » التى فاق نجاحها كل ما عرف من نجاح . ولكن كولبير شجب الرواية واتهمها بأنها تؤيد الفسق والفجور وتشجعهما ، وبلغ رد كونجريف عليه من التفاهة حــدا انقطع معه عن المسرح طيلة ثلاثة أعوام وعندما عاد إليه برواية «طريق الدنيا » (١٧٠٠) كان قد أفاد من النقد القاسى ، وأوضح أن الموهبة لا تعتمد على قلب الوصايا العشر رأسا على عقب . وكان فى هذه الرواية التى قال عنها سوينبرن المغالى أنها « التحفة التى لا نظير لها والتى لا تدانيها رواية أخرى فى روائع الملهاة الإنجليزية[٢١] » ، نقول كان فيها بعض أخطاء المسرحية فى عصر عودة الملكية ، ولكن ليس فيها شىء من رذائلها . وقد ترهقنا عند قراءتها بظرفها المازح الساخر ، وتذكرنا بالتلاعب السخيف بالألفاظ فى أعمال سكسبير الأولى ، ولكن إذا مثلت (ونطق بها بترتون ومسز بريسجيردل كما حدث فى أول عرض لها) ، فلربما كانت أمتعتنا بما فيها من حيوية وتألق

يقول وتوود « أعرف سيدة تحب الكلام بلا إنقطاع ، ولا تترك أثراً حسناً(٢٢) » وحبكة الرواية بالغة التعقيد ، وقد تتذمر من طول الوقت المطلوب لفهم شجارات ومشروعات الشخوص التافهه الطائشة ، وحل العقدة لايعدو أن يكون سخفا لاحد له . ولكن في الرواية بعض تهذيب في اللغة وفي الدعابه ، وتفكير لطيف (ولو أنه غير عميق أبداً) ، مما يمكن أن يدخل السرور على الذهن غير المتعجل ، وليس فيها سخرية لاذعة ، كما هو الحال في مسرحيات فانبرو ، بل فيها تهكم مهذب رقيق ، تسرب من قصر فرساى إلى قصر هويتهول وإلى البلاط في فترة عودة الملكية . وفي الرواية خلق الشخصيات الروائية وتصوير لخصائصها . فالبطل ، ميرابل شخص غير جذاب ، ولكنه نابض بالحياة ، صياد للتركات والثروات . وجدير بالذكر أنه يسعى للزواج من ميللامانت ، بدلا من إغوائها . ولكن لديها ثروة تساوى اثنى عشر زاليا ، وهي أجمل ما أبدع كونجريف ، ماجنة عابثة تريد ألف عاشق ، وتود الهيام بها لمدى الحياة ، من أجل مفاتن أو جمال لن يدوم إلا لسنوات عشر ، وترتضى الزواج ولكن بشروط :

ميللامانت : ... لاشك يامبرابل أنى سأبقى فى الفـــراش فى الصباح كيفما أشاء .

ميرابل : هل من شروط أخرى تفرضينها ؟

ميللامانت : توافه : ـ أ كون حرة في تناول طعامي متى أشاء ، وأتناوله وحدي في حجرة ملابسي ، إذا كنت متعكرة المزاج ، دون إبداء الأسباب . وألا يقتحم على أحد خلوتى . وأن أجلس « امبراطورة » وحدى إلى مائدة الشاى التى لايجوز لك أن تفكر فى الاقتراب منها قبل أن تستأذنى أولا وأخيراً حينما كنت ينبغى عليك أن تطرق الباب قبل الدخول . تلك هى شروطى ، حتى إذا استطعت أن احتملك لمدة أطول ، فقد أتضاءل هيناً فشيئاً حتى أصبح زوجة .

ميرابل : ألست حرا أن أعرض شروطى ؟

ميللامات : هات أقصى ما عندك ...

ميرابل : أشترط عليك أن تستمرى تحبين وجهك وتعجبين به طالما أحببته أنا أو أعجبت به ، حتى إذا ألفته أنا ، فلا تحاولى قط تشكيله من جديد .. اشترط ثانيا ، أنك إذا حملت .

ميللامات : آه : لا تذكر شيئاً من هذا .

ميرابل : وهذا هو المفروض ، وليبارك الله فى محاولتنا

ميللامات : هذه محاولة كريهة قبيحة :

ميرابل : إنى أعترض وأمنعك من إرتداء الملابس المحبوكة التى تشد جسمك لتحتفظى بقوامك حتى لاتشوهى ولدى ويخرج وكأن رأسه قمع سكر (٢٣) ..

وهكذا ، وتلك سفسطة سارة ، وهجاء معقول ، يمر بخفة وسرعة ، فى أمان ، على مظاهر الحياة .

وضرب كونجريف نفسه مثلا لمظاهر كثيرة ، مؤثراً التركيب على المادة ، والتنوع على الوحدة . ولم يتزوج قط ، ولكنه اختلف إلى سلسلة من العشيقات ، ولم نسمع عن ذرية أشقته أو أسعدته . وكان رفيقا لطيفا فى المقاهى والنوادى . وكانت أكرم العائلات تستقبله ببالغ الترحيب . وكان أكولا ، وكان يدهن قدميه ويعالجهما بانتظام من داء النقرس . وعندما زاره فولتير ١٧٢٦ استنكر كونجريف إطراء الشاعر الفرنسى لرواياته ، وأبدى عدم اكتراثه لها ، على أنها توافه لاتستحق الذكر ، وطلب إلى فولتير أن يعتبره مجرد رجل مهذب . عندئذ أجاب فولتير (طبقا لروايته) « لو كان الأمر كذلك ، وأنك مجرد رجل مهذب ، لما جئت لأراك (٢٤) » .

وفى ١٧٢٨ ، فى رحلة للاستشفاء بالمياه المعدنية فى باث ، انقلبت عربة كونجريف ، وظل يعانى من بعض إصابات باطنية حتى وافته المنية فى ١٩ يناير ١٧٢٩ . ودفن فى كنيسة وستمنستر . وفى وصيته ترك مائتى جنيه لمسز بريسجيردل التى كانت تقاسى الفقر فى شيخوختها ، أما معظم الضيعة ،

أى نحو عشرة آلاف جنيه ، فقد أوصى به لدوقة مالبرو الثانية البالغة الثراء ، ومضيفته الأثيرة لديه ، فحولت المال إلى عقد من اللآلىء . وكانت تضع على الدوام ، فى المكان الذى اعتاد الشاعر أن يجلس فيه إلى مائدتها ، تمثالا من العاج والشمع تدهن قدميه وتعالجهما بانتظام من النقرس(٢٥) .

وقبل موت كونجرف بزمن طويل ، كان المسرح الإنجليزى قد شرع يطهر نفسه ، حيث أمر وليم الثالث مدير الملاهى والمسارح أن يمارس بشكل أشد صرامة ، سلطته فى رقابة الروايات أو منع عرضها . وعززت موجة من الاستياء فى الرأى العام هذه الرقابة . وحرم قانون أصدرته الملكة آن إرتداء السيدات للأقنعة فى المسرح ، وقاطعت النساء اللاتى حرمن هذا التستر ، الروايات المجردة من الاحتشام والوقار على وجه اليقين(٢٦) . واتفق سويفت مع الأساقفة على أن مسرح لندن وصمة فى جبين الخلق الانجليزى . وعرض ستيل روايته « العشاق الشاعرون بالاثم » (١٧٢٢) على أنها مسرحية أخلاقية . ونافس أديسون وقار للأساة الفرنسية وجلالها فى مسرحيته « كاتو » (١٧١٣) . وثمة علامة أقدم من هذا ، على التغيير الذى حدث فى المسرح ، ظهرت فى أسلوب رد دريدن على كوليير ، حيث أحس دريدن أن الكاهن غالبا ماحمل على كتاب المسرح دون وجه حق ، وأنه « فى كثير من المواضع .. فسر كلماتى بأنها تجديف وفجور ، وهى بريئة من هذا كله » ، ولكنه أضاف :

لن أتحدث كثيرا عن مستر كوليير لأنه اتهمنى فى أشياء كثيرة ، وله فى هذا كل الحق . واعترفت بذنبى فى كل الأفكار والتعبيرات التى أوردتها والتى يمكن أن توصم بحق بالفحش أو الدنس أو مجافاة الأخلاق الكريمة ، ولابد من سحبها . فإذا كان يناصبنى العداء ، فقد كتب له الانتصار على . أما إذا كان صديقا ، حيث أنى لم أهيىء له فرصة خاصة ليكون غير ذلك ، (لم أسىء إليه إساءة شخصية) ، فإنه سيسر بأنى ندمت(٢٧) .

٣ ـ جون دريدن ١٦٣١ ـ ١٧٠٠

كان أبوه من صغار ملاك الأرض ، يملك ضيعة متواضعة فى نورثمبتونشير وأرسل إلى مدرسة وستمنستر التى علمه فيها ، هو ورفيق دراسته جون لوك ، الأستاذ الضليع ريتشارد بزبى Buzby كثيرا من اللاتينية والنظام والانضباط . وهناك حصل على منحة دراسية مكنته من الذهاب إلى ترنتى كولدج فى كمبردج . وفى العام الذى حصل فيه على الدرجة الجامعية مات أبوه (١٦٥٤) وورث جون ، بصفته أكبر الأبناء البالغ عددهم أربعة عشر ، الضيعة التى كانت تدر ستين جنيها فى العام . وانتقل إلى لندن وحاول عن طريق الشعر أن يضيف شيئا إلى دخله ، احتيالا على العيش . وفى ١٦٥٩ نشر « مقطوعات شعرية بطولية » تخليدا لذكر كرومول — وهو شعر تافه غير ذى قيمة بشكل ملحوظ من شاعر فى التاسعة والعشرين من عمره . والحق أن دريدن نضج فى بطء ، وكأنه رجل يتخطى فى جهد جهيد مائة عقبة ليرقى مدارج الثراء فى نجاح . وبعد ذلك بعام واحد هلل الشاعر لعودة الملكية فى قصيدته « عودة النجم » ، التى قارن فيها نجمة شارل الثانى بنجمة بيت لحم ، وما كاد أحد يتجرأ على اتهام دريدن بالتقلب ، لأن كل الشعراء تقريبا — عدا ملتون — ولوا ظهورهم إلى البيوريتانية وولوها شطر الملكية مع تغيير بارع لأساليبهم .

ولكن دريدن كان أشد اهتماما بالمسرح منه بمجرد نظم الشعر ، حيث أثرى الكتاب المسرحيون على حين حالف البؤس والشقاء الشعراء الجدد . إن دريدن لم يكن به ميل إلى المسرحية ، ولكنه كان يتطلع إلى الحصول على لقمة العيش بانتظام . وحاول كتابة الملهاة فأخرج « زير النساء الطائش » (١٦٦٣) التى وصمها بيبز بأنها « أحقر شىء رأيته فى حياتى تقريبا(٢٨) » . وفى أول ديسمبر ١٦٦٣ تزوج دريدن من ليدى اليزابث هوارد ابنة إرل بركشير ، وأشرأبت الأعناق دهشا من سيدة ذات مكانة وثراء تتزوج من

عشر ، ولكنها كانت فى سن الخامسة والعشرين ، وفى خطر من فوات الأوان ، كما كان أخوها سير روبرت هوارد للتلهف على التأليف والكتابة ، قد ضمن تعاون دريدن معه فى رواية « الملكة الهندية » التى أخرجاها ١٦٦٤ ، فى مشاهد بالغة البذخ ، مع نجاح عظيم .

وحددت هذه المسرحية « للأساة » طورا فى تاريخ الأدب ، حيث تخلت عن الشعر المرسل الذى كان سائدا فى عصر اليزابيث ، واستخدمت المقاطع للقفاة ذات البيتين اللذين يتكون كل منهما من خمس تفاعيل ، أسلوبا منتظما لها . وكان لورد أوريرى قد تأثر بحلاوة واتساق القافية فى المأساة ، وأدخل هذا الأسلوب فى رواياته . وعاد دريدن إلى الشعر المرسل بعد ١٦٧٥ ، معترفا بأن القافية تفضى إلى تعويق سيل الكلام والتفكير . ولو أنه لقى عناه أكثر فى نظم الشعر لأصبح شاعرا أعظم مما كان .

وواصل نجاحه التعاونى بعمل مستقل ، وهو « الامبراطور الهندى » (١٦٦٥) ، وكان مونتزوما بطل الرواية . وما كاد يجد لمسرحيته مكانا على المسرح الانجليزى حتى داهم الطاعون لندن فأغلقت المسارح أبوابها لمدة عام . ولما زال كابوس الطاعون والحريق احتفل دريدن بخروج انجلترا من هـــذه المحنة المثلثة — الطاعون والحريق ثم الحرب — بقصيدة « سنة العجائب » (١٦٦٦) وهى مكونة من ٣٠٤ مقاطع رباعية الأبيات ، تتأرجح بين الوصف الرائع (المقاطع ٢١٢ — ٢٨٢) والتفاهة الصبيانية (مثل المقطع ٢٩) ولما فتحت المسارح أبوابها من جديد فى ١٦٦٦ عجل دريدن بالعودة إلى المسرحية . ولم ينتج حتى ١٦٨١ غير الروايات . وتميل مأسياته إلى أن تكون كلاما منمقا رنانا طنانا ، ولكنها بدت لأعين معاصريه أسمى منزلة من مأسيات شكسبير(٢٩) — ولما انضم دريدن إلى دافننانت فى إعادة صياغة « العاصفة » كانت النتيجة باجماع المشتركين فيها أن الصياغة الجديدة تنطوى على تحسين كبير للأصل . وربما اتفقت معهم « شركة الملكية » فى هذا الرأى لأنها كلفت دريدن بتزويدها بثلاث روايات فى السنة مقابل

حصة فى الأرباح التى بلغت ٣٥٠ جنيها فى العام . أما ملهيات دريدن ، على الرغم من أنها داعرة فاحشة مثل غيرها ، فإنها لاقت نجاحا أقل من نجاح مأسياته السبع والعشرين ، لأنه فى هذه الأخيرة استطاع أن يثير اهتمام الرأى العام فى الدنيا الجديدة والهمجيين البدائيين المدهشين فيها ، وهكذا يقول المنصور فى « فتح غرناطة » .

« أنا حر طليق مثلما خلقت الطبيعة الإنسان لأول مرة ، قبل أن يظهر قانون الاسترقاق الحقير ، حـــين هام النبلاء المتوحشون على وجوههم فى الغابات » .

وربما كان نجاح هـــذه الرواية بالإضافة إلى ما تضمنته رواية « سنة العجائب » من مديح منمق لشارل الثانى ، هو الذى كسب لدريدن منصبى مؤرخ الملك وشاعر التاج (١٦٧٠) . وبلغ دخله السنوى آنذاك ألف جنيه فى المتوسط .

وفى خاتمة القسم الثانى من « فتح غرناطة » زعم دريدن تفوق مسرحية فترة عودة الملكية على المسرحية فى عصر اليزابيث . وذهب منافسوه ، على حين قدروا له هذه التحية والمجاملة ، إلى القول بأن فى هذا الإطراء مثاليا لمسرحياته . ولم يشارك المفكرون فى المدينة جمهور المسرح إعجابه وتذوقه اللغة الطنانة الرنانة المسرفة فى مأسيات دريدن ، وأصدر دوق بكنجهام بالاشتراك مع آخرين فى ١٦٧١ هجاء صرحا تحت عنوان « التجربة » سخر كثيرا من المستحيلات والحماقات واللغة الطنانة للنمقة فى المأسيات المعاصرة ، وبخاصة ما كتبها دريدن . وأحس الشاعر بأنها لطمة له ، ولكنه كظم غيظه لمدة عشرة أعوام . وبعدها شهر بالدوق بكنجهام أيما تشهير فى شخصية « زمرى » فى أقوى أبيات رواية « أبشالوم وأخيتوفل » .

وفى الوقت نفسه عملت دراسته لشكسبير على تحسين فنه . وفى أروع مأسياته (كله من أجل الحب) (١٦٧٨) تحول عن راسين والقافية إلى

شكسبير والشعر المرسل . وأفرغ كل جهده وبراعته فى أن يبارى ما كان منه فى عصر اليزابث ، بصفة عامة ، وعرض فى ثوب جديد قصة أنطونيو وكليوبترة التى فقدت الدنيا من أجل قصة غرام قصيرة . ولو أن الرواية القديمة لم توجد لحظيت رواية دريدن بثناء وإعجاب أكبر ، ففى مواضع كثيرة منها ترتفع من الكلام الشديد البساطة إلى الشعور النبيل المكظوم، كما يتمثل فى قدوم أوكتافيا إلى أنطونيو لتعرض عليه صفح أو غسطس عنه(٣٠) . ورواية دريدن محكمة فى ايجاز ، بقصد مراعاة الوحدات ولكنه بتضييق الحدث فى أزمة واحدة فى مكان واحد ثلاثة أيام ، اختزل الفكرة الرئيسية البطولية إلى قصة غرام ، وضيع المشهد الكبير الذى رأى فى « أنطونيو وكليوبترة » (لشكسبير) أن هذه القصة الغرامية ليست إلا جزءا من الأحداث التى هزت عالم البحر المتوسط وشكلته .

وأكثر الجوانب امتاعا وتشويقا اليوم فى مسرحيات دريدن هى المقدمات التى قدمها بها مطبوعة ، والأبحاث التى شرح فيها وجهات نظره فى الفن المسرحى . وكان كورنى قد ضرب له المثل ، ولكن دريدن جعل منه مجالا لنثر رائع . وإنا إذ نمر مرور الكرام بهذه الأبحاث الموجزة وهذه الحوادث القوية ، لنلمح أن عصر الخلق والابداع فى الأدب الإنجليزى كان يعبر إلى عصر النقد الذى قد يبلغ ذروته فى بوب . ولكن اجلالنا لتفكير دريدن وعقليته يزداد إذ نراه يسير فى رشاقة ورفق غور أسلوب المسرحية ومعالجة تفاصيلها ، وفن الشعر ، ويقارن فى مقدرة فائقة على التمييز والمقارنة ، بين المسرحين الفرنسى والإنجليزى . وانك لترى فى هذه المقالات والبحوث أن الالتواء المثير فى النثر فى عصر اليزابث ، والجمل الطنانة المتراكمة عند ملتون ، كل أولئك يفسح الطريق لأسلوب أبسط وأسلس وأكثر تنظيما ومنهجية ، أسلوب خلا من التراكيب ، اللاتينية ، وزاده صقلا التعرف على الأدب الفرنسى ، لم يجار الإبانة الفرنسية كل المجاراة قط ، ولكنه أخرج إلى القرن الثامن عشر — قرن النثر — نماذج

من كلام يتميز بالصفاء والروعة والسلاسة وسحر البيان ، وعدم التكلف والقوة . وهنا اتخذت المقالة الإنجليزية شكلها ، ويبدأ العصر الكلاسيكى (النموذجى الممتاز) للأدب الإنجليزى .

ولكن إذا كانت مقالات دريدن تبدو الآن أعلى مكانة من الروايات التى كانت سببا فى كتابة المقالات ، فإنه فى الهجاء ساد عصره وأرهبه . وربما وقع حادث أطلق لسانه اللاذع . ذلك أنه فى ١٦٧٩ وزع جون شفيلد إرل ملجريف نشرة مخطوطة بعنوان « مقال فى الهجاء » لا تحمل اسم كاتبها ، هاجمت إرل روشستر ، ودوقة بورتسموث (لويزدى كيروال) ، بلاط شارل الثانى بصفه عامه . واتجه الظن خطأ إلى أن كاتب المقال هو دريدن الذى كان آنذاك يحصل على معظم دخله من الملك . وفى ليلة ١٨ ديسمبر فى « زقاق روز — كوفنت جاردن » هجم على دريدن نفر من السوقه وأوسعوه ضربا بالهراوات ، والمفروض أن روشستر استأجرهم لهذا الغرض ، ولو أن هذا لم يثبت على سبيل اليقين . وكان دريدن رجلا ودودا كريما مستعدا لمد يد المعونة وكيل المديح . ولكن نجاحه وغروره وافراطه فى التحدث عن نفسه وتوكيداته الخلافية ، كل أولئك جلب عليه عداوات كثيرة . واحتمل دريدن لبعض الوقت حملاتهم عليه دون رد عانى منه ، بل أن « كمين زقاق روز » لم يلق استجابة سريعة من قلمه . ولكنه فى ١٦٨١ جمع عديدا من اعدائه فى مرجل واحد وسلقهم بالسنة حداد ، فى ألذع هجاء عرف فى اللغة الإنجليزية .

وتلك هى السنة التى حاول فيها شافتسبرى أن يقوم بثورة ليخلف ابن شارل الثانى غير الشرعى أباه على العرش وعندما ظهر القسم الأول من قصيدة « أبشالوم وأخيتوفل » كان شافتسبرى على وشك أن يقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . وانحاز هجاء دريدن إلى جانب الملك ، وربما كان بإيعاز منه(٢١) . وهزأ الشاعر من شافتسبرى فى شخص أخيتوفل الذى يحرض

أبشالوم (وهو دوق مونموث) على الثورة ضد أبيه داود (شارل الثانى).
ولما كان داود وشارل كلاهما قد أحبا عددا من النساء ، فإن القصيدة تبدأ ببحث فى قيمة تعدد الزوجات :

« فى عهد التقى والورع ، قبل ظهور الكهنة وأساليبهم ، وقبل أن يصموا تعدد الزوجات بأنه خطيئة ، وحين تكاثر الإنسان بتعدد زوجاته وقبل أن يقتصر الواحد على واحدة بشكل بغيض . وحين استحثت الطبيعة — ولم يمنع أى قانون — على مباشرة الخليلات والزوجات دون تمييز ، وحين عاش ملك بنى اسرائيل، برضا السماء، على الزوجات والاماء من مختلف الأنحاء ، فى قوة وحيوية ، ونشر صورة خالقه على أوسع نطاق على الأرض ، بأسره » .

ويبتهج دواد بجمال ابنه أبشالوم . وكان مونموث ، حتى قيام الثورة ، قرة عين أبيه الملك السعيد (شارل الثانى) ، أما بنو اسرائيل فهم الإنجليز (فى القصيدة) :

جنس عنيد متقلب متذمر ، أرهق النعمة الإلهية إلى آخر مداها ، شعب الله المدلل الذى انغمس فى الملذات والشهوات ، والذى لم يستطع أن يحكمه ملك أو يرضيه إله(٣٢) .

وأستروفل هو رئيس شياطين الخيانة ، وتتحقق لهذن لفورها أنه شافتسبرى :

وكان على رأس هؤلاء جميعا اخثيوفل الكاذب ، وهو اسم ملعون كريه على مر العصور ، أهل لكل التدابير الخفية والمشورات الملتوية ، ذكى جرىء مضطرب الحواس ، قلق ، لايثبت على مبدأ ولا يستقر فى مكان ، غير راض إذا تملك وتسلط ، ضائق صدره إذا تجرد من سلطانه ، يحمل بين جنبيه نفسا محمومة مضطرمة انهكت وأبلت جسم القزم وهى تشق طريقها ، ضاق بها جسده الهزيل . قائد جسور لأخطر الأعمال اليائسة، يطرب للأخطار

حين ترتفع الأمواج . أنه يلتمس الأعاصير والزوابع ، لأنه لايحب الهدوء . يدنى سفينته من الرمال بفطنته وذكائه . يقينا أن ذوى المواهب العظيمه قريبون من الجنون ولا يفصله عنهم إلا حواجز رقيقة . وإلا ، لماذا — وهو ذو الثراء العريض والمناصب الرفيعة — يضن على شيخوخته بما تحتاج من راحة ودعة ؟ .. لايقيم على ود ولا يخلص فى صداقة ، عنيد حقود فى عدائه وبغضه ، مصمم على أن يدمر الدولة أو يحكمها هو(٣٣) .

ثم يجىء دور الانتقام من دوق بكنجهام و « التجربة » :

ويقف على رأس هؤلاء (العصاة الثائرين) زمرى ، وهو رجل متعدد الجوانب ، حتى إنك لا تحسبه واحدا ، بل صورة مصغرة لكل بنى البشر ، جامد الرأى ، يجافى الصواب دائما . كان يندفع فى كل أعماله . ولكنه لا يثبت على حال . وخلال قمر منير واحد ، كان الكيميائى والعازف ، ورجل الدولة والمهرج . ثم ينصرف بكليته إلى النساء والتصوير ، والشعر والشراب ، فضلا عن عشرة آلاف نزوة تموت فى المهد .. وكان تبديد المال فنا خاصا برع فيه . أغدق على كل الناس إلا من يستحقون المكافأة ، أفقره الحمقى المهرجون الذين اكتشفهم بعد فوات الأوان . وحظى هو بالمرح ، وحصلوا هم على ماله وضيعته(٣٤) .

ولم تر انجلترا قط من قبل مثل هــذا الهجاء اللاذع الذى لا يرحم ، الذى يركز كل التشويه والتجريح فى سطر واحد ، ويترك جثة ممزقة مهشمة فوق كل صفحة . وبيعت القصيدة بالمئات خارج نفس المحكمة التى كان يحاكم فيها شافتسبرى ، مخاطراً بحياته . ورفضت المحكمة ببراءته ، فصك أشياعه الأحرار (الهويج) « ميدالية » تمجيدا له ، وانبرى عــدد من الشعراء والكتاب يتزعمهم توماس شادويل لإصدار ردود ظافرة على الرجل الذى أيقنوا أنه باع عقله ، ولسانه السليط وبيانه الكاوى إلى الملك . وطورد دريدن الكرة بهجاء آخر ، « للميدالية » (مارس ١٦٨٢) سلق فيه شادويل ، بصفة خاصة ، فى قصيدة « ماكفلكنو » (أكتوبر) . وهنا كان الدم

والقدح أسكى وأمر ، فانحط أحيانا إلى شتائم لفظية صريحة ، لم تتميز ، مثل الهجاء السابق ، بمقاطع فاصلة تنشر السم فى دقة دون اسراف أو اسفاف .

إنا لا نستسيغ اليوم هذا اللون من « الذبح » الأدبى ولم نعد نتذوقه إلا قليلا ، وانا لنرتاب بعد قرون من الجدل والمناقشة ، فى أن هناك بعض الصدق فى كل عاطفة أو هوى ، وأن فى كل خصم أو عدو شيئا محببا . وما السياسة حتى فى أيامنا هذه إلا حرب بوسائل أخرى ، أكثر بكثير مما كانت حين كان عرش أسرة ستيوارت يترنح على حافة الثورة ، وكان الظهور إلى جانب الفريق الخاسر المنهزم قد يعنى الموت المحقق . وعلى أية حال ، فإن دريدن بذل كل الهمه ، مما أكسبه امتنان الملك ودوق يورك ، ولم ينازعه أحد آنذاك التربع على عرش مملكة الشعر . وكانوا يحجزون له — إذا قصد إلى « حانة ول Will » مقعدا إلى جانب المدفأة فى الشتاء ، وفى الشرفة صيفاً ، وهناك رأى بيبز وسمع « أحاديث طريفه ذكية (٣٥) » وصورة سير والتر سكوت ، فى خيال مبدع ، وهو يدخل إلى هذه الحانة ، « رجل عجوز بدين قليلا ، ذو شعر أشيب ، يرتدى حلة سوداء بالغة الأناقة ، محبوكة الأطراف وكأنها قفاز ، تشرق فى وجهه أرق ابتسامه رأيتها فى حياتى (٣٦) » وكان الانحناء تحية لشاعر التاج والاستماع إلى رأيه فى آخر مأساة أخرجها راسين ... يعتبر ميزة ، كما كانت القبضة من علبة سعوطه شرفا كفيلا بأن يريك المتحمس الناشىء . وكان كل العطف بعينه بالنسبة لأصدقائه ، ولكن ما كان أسرعه فى كيل السباب لمنافسيه وخصومه (٣٧) وما كان لأحد أن يبزه فى اطراء شعره . إن تملقه للملك وليدى كاسلمين ولكل أولئك الذين يجزلون له العطاء مقابل الإهداء اليوم ، جاوز الحد المألوف من الاستسلام الذليل فى مهنته فى عصره (٣٨) . ومع ذلك فإن كونجريف بادله التشجيع بمثله حين وصفه بأنه « بالغ الإنسانية والرحمة ، مستعد أن يغتفر الإساءة ، أهل للتراضى بإخلاص مع من أساء إليه (٣٩) » .

والآن ، وقد آذن جسمه بالضعف والانحلال ، بدأ الشاعر يفكر فى الدين بشكل أكثر انعطافا وميلا ، مما كان عليه فى سنى القوة والفتوة والزهو والغرور . لقد اندفعت مسرحياته وقصائد هجائه اندفاعا طارئا بين هـذا وذاك من مختلف المذاهب الدينية ، أما الآن ، وقد ربط الشاعر مصيره بالمحافظين (الملكيين — التورى) ، فإنه تحول إلى الكنيسة الأنجليكانية بوصفها ركيزة للاستقرار فى انجلترا ، مستنكراً عدوان العقل المتغطرس على هذا الحرم المقدس ، ألا وهو الإيمان والعقيدة . وفى نوفمبر ١٦٨٢ أدهش أصدقاءه الدنيويين بنشره قصيدة « الدين والدنيا » دفاعا عن الكنيسة الرسمية . وبدا له أن الكتاب المقدس المنزل ، بل وكنيسة معصومة من الخطأ تفسره وتكمله ، دعامتان لاغنى عنهما للمجتمع ولسلامة العقل . وكان على علم بالخلافات وبالجدل بين الربوبين ، وكان رده عليهم أن شكوكهم إنما تعكر صفو النظام الاجتماعى المعقد الذى لايمكن أن يدعمه إلاقانون أخلاق تقره عقيدة دينية .

لأنه لاقيمة ولا فائدة فى تعلم النقاط الغامضة ، أما السلام العام فهو كل مايهم العالم .

وتلك حجة كان يمكن أن تخـدم قضية الكنيسة الكاثوليكية أيضاً ، وتابعها دريدن إلى غايتها بتحوله إلى الكاثوليكية ١٦٨٦ . ولسنا ندرى إذا كان لاعتلاء ملك كاثوليكى العرش فى السنة السابقة ، ولتلهف الشاعر على الاستمرار فى الحصول على رواتبه — نقول لسنا ندرى إذا كان لهذا الأمر أو ذاك دخل فى هذا التحول(٤٠). على أن دريدن على أية حال ، صب كل فنه — الشعرى ليشرح وجهة النظر الكاثوليكية فى قصيدة « الأيلة والنمرة » The Hind and The Panther (١٦٦٧) وفيها (أيلة ناصعة البياض » تدافع عن المذهب الكاثوليكى ، ضد نمرة « هى أجمل النوع المرقط » التى تمثل المذهب الأنجليكانى . وكانت صورة حيوانين من ذوات الأربع يناقشان موضوع الوجود الحقيقى فى القربان المقدس مدعاة للسخرية (٤٢) والتسخيف.

سرطان ماأثارهما ماثيو برير Prior ولورد هاليفاكس فى محاكاة تهكمية تحت عنوان « الأيلة والهرة تنتقل إلى قصة فأرة القرية وفأرة المدينة » (١٦٨٧).

وفى ١٦٨٨ فرجيمس الثانى إلى فرنسا . ووجد دريدن أنه يعيش من جديد فى ظل ملك بروتستانتى ، فلزم مذهبه الجديد ، وكان أولاده الثلاثة يعملون فى روما تحت إمرة البابا . كما أن الردة إلى مذهب آخر أمر غير مقبول ، فاحتمل فى شجاعة وجلد فقدانه لمنصب شاعر التاج ولراتبه ولوظيفته « مؤرخ للملك » ، على أن التاريخ ، زاد من أحزانه ، لأنه أضفى كل هذه المناصب والشرف على شادويل الذى توجه دريدن ملكا على الهراء ، وصوره نموذجا للغباء . وعاد فى شيخوخته يكسب بقلمه قوت يومه . فكتب مزيدا من الروايات ، وترجم مختارات من تيوكريتس وهوارس وأوفيد وبرسيوس ، وأخرج الأنيادة فى شعر بطولى فى أداء غير محكم ، ولكنه سلس ، ونقل بأوزانه القصرية الخاصة بعض أساطير هوميروس وأوفيد وبوكاشيو ، وتشوسر . وفى ١٦٩٧ وهو فى السابعة والستين نظم قصيدته المشهورة « وليمة الاسكندر Alexanders Feast » التى حظيت بأعظم الثناء والإطراء .

ووافته المنية فى أول مايو ١٧٠٠ ، وشهدت جنازته اضطرابا شديدا ، وتنازعت الشيع المتنافسة جثمانه ، وأخيرا وورى التراب إلى جانب تشوسر فى كنيسة وستمنستر .

ومن الصعب أن تحب هذا الشاعر ، فكل الظواهر تقول بأنه كان انتهازيا نفعيا متقلبا ، امتدح كرومول فى فترة الحماية ، وكال المديح لشارل الثانى وخليلاته ، وأثنى على البروتستانتية فى عهد ملك بروتستانتى ، وأطرى الكاثوليكية فى ظل ملك كاثوليكى ، والتمس موارد كسب المال بكل الطرق ، وجلب على نفسه عداوة كثير من الناس ، مما لا بد معه أن يكون ثمة شىء يكره الناس فيه . وجارى كل منافسيه فى إباحية رواياته وتحررها من كل القيود ، وفى تورعه فى شعره . وبلغت قوته فى الهجاء مبلغا يستدر العطف على ضحاياه ، مثل العطف على الشهداء وهم يحترقون على الخازوق . ولكن

لاجدال فى أنه كان أعظم الشعراء الانجليز فى جيله . وكتب معظم شعره فى المناسبات ، وقلما حفظ الزمن شعرا نظم للمناسبات . ولكن هجاءه لايزال حيا ، لأن أحداً غيره لم يستطع أن يأتى بمثل هذا الهجاء الذى صور الشخصيات فى ازدراء قارص وسخرية لاذعة . وطور المقطع الشعرى البطولى ذا البيتين إلى درجة من الإيجـــاز المحكم والمرونة ، سيطرت على الشعر الانجليزى طيلة قرن من الزمان وكان أثره على النثر أقوى ، حيث نقاه من التراكيب المزعجة والمصطلحات الغريبة ، وضبطه على درجة ممتازة من الصفاء والسهولة . وكان معاصروه على حق حين كانوا يرهبونه أكثر مما يحبونه . ولكنهم أدركوا أن له الحق كل الحق ، بفضل قوة إرادته وبراعته فى فنه فى صناعة الأدب والكتابة ، وملكا على عرش القوافى ، فكان بن جونسون الروائى : ودكتور صمويل جونسون الكاتب ، فى وقت مماه فى عصره .

٤ — فى ثبت واحد

والآن نجمع فى قائمة غير نابضة بالحياة بعض الشخصيات الأصغر شأنا الذين أمدوا هذه الفترة بالحياة وبالأدب ، ولكننا لن نستطيع أن نمكث معهم طويلا لنتتبع مجرى حياتهم .

وأعظم قصيدة فى الجانب الوثنى من فترة عودة الملكية كانت ملحمة بيوريتانية ، ولكن أشهرها هى ملحمة هجاء ساخر ضد البيوريتانية : « هو دبراس » (١٦٦٣ — ١٦٧٨) . ذلك أن الشاب الفاجر ، صمويل بتلر ، قضى عدة سنوات مضنية فى خدمة سير صمويل لوك ، وهو مشيخى (برسبتيريان) متحمس غيور ، ضابط برتبة زعيم فى جيش كرومول ، كان مقره فى « كوبل هو » ، وهى قلعة بيوريتانيه للسياسه والعبادة . وعندما عادت الملكيه ثأر بتلر لنفسه بنشر هجاء مرح ، يصور فيه كيف أن سير هو دبراس الفارس المغوار يقودسيده صاحب الأرض « رالفو » إلى حرب

صليبية ضد الخطيئة والإثم . وتستطيع أن تحكم منذ بداية القصيدة عليها .

«حين اشتدت ثورة الغضب والحقد بين الناس لأول مرة وتشاجروا لأنهم لم يدركوا السبب ، وحين أشعلت الكلمات النابية والأحقاد والمخاوف نار الحرب بين الجماعات وجعلتهم يقتتلون كالمجانين أو المخمورين ، من أجل «السيدة : الديانة» وكأنما يقتتلون من أجل عاهرة فاجرة ... وحين أعلن نافخ البوق الإنجيلي يحيط به الرعاع ذوو الآذان الطويلة ، النفير من أجل الحرب ، ودقت طبول المنبر والكنيسة بجماع الأيدي بدلا من العصى . عندئذ غادر السيد الفارس مسكنه وامتطى صهوة جواده متزعما الركب ... وكان كثيرون من الناس يرون ، أنه كما اشتكى مونتانى من أن قطته حسبته، وهو يداعبها ، حماراً ، فلابد أن القطة تحسب هو دبراس حماراً أو أكثر من حمار ، وإنا لنسلم بأنه على الرغم مما أوتى من ذكاء شديد ، فانه يخجل من استخدامه ، وكأنما يكره أن يستنفذه ويبليه ، ولذلك لم يظهره أو لم يلبسه إلا في أيام العطلة أو مايشابهها ، كما يرتدى الناس أحسن ملابسهم ... وكان من الملائم ، من أجل عقيدته ، أن يوفق بين علمه وذكائه ، وكان مذهبه مشيخياً صادقا متشددا ، لأنه كان من بين العصبة العنيدة من القديسين الضالين الذين يقر الناس جميعاً بأنهم المناضلون الصادقون عن الكنيسة المجاهدة الذين يبنون عقيدتهم على الرمح والمدفع ، ويحسمون كل الخلافات بمدفعية لا تخطىء المرمى ، ويثبتون صحة نظريتهم بالضربات واللكمات. الرسولية.. فرقة تتمثل أعظم تقواهم في كراهياتهم الحمقاء الضالة ، الشاذة فرقة تحرص على الخطأ في يوم العطلة أكثر من حرص سائر الناس على الصواب ، بجمعة على الخطايا التي فطرت عليها ، تلعن أولئك الذين لا يفكرون فيها(٤٣) .

وهكذا مما آلم البيوريتانيين أيما إيلام وسر الملك كل السرور ، ومنح شارل المؤلف جائزة قدرها ثلثمائة جنيه . وامتدح كل الملكيين القصيدة فيما عدا بيبز الذي لم يستطع « أن يتبين موضع العبقرية فيها » ، على الرغم من أنها تعتبر الآن من أحدث طراز من الهزل والسخرية(٤٤) ، وبادر بتلر

إلى الاستزادة من الكتابة (١٦٦٤ — ١٦٧٨) ، ولكن لم يعد فى جعبته سهام ، ولم تسعفه القوافى . وحل النزاع بين البروتستانت والكاثوليك محل النزاع بين الملكيين والبيوريتانيين . ونسى القوم بتلر ، وقضى نحبه مغمورا معدما (١٦٨٠) . وبعد أربعين عاما أقيمت له لوحة تذكارية فى كنيسة وستمنستر ، تحمل هذه العبارة « طلب الخبز فمنح حجرا[٤٥] » .

وخير من هذا الشعر الهزلى المعتل الوزن الذى يتصيد القوافى ، نثر كلارندون الفخم فى كتابه « تاريخ الثورة » الذى ظهر فى ١٧٠٢ على الرغم من أنه كتب فى ١٦٤٦ — ١٦٧٤ — وشهد الناس فى عهد الملكة آن مقدار العناية التى بذلت فى تأليف هذه المجلدات الثمانية ، وروعة أسلوبها ، وكيف كان تصوير الشخصيات أخاذا ، وكيف كانت روح قاضى القضاة الذى ضرب قدما عالية . وبالمثل لعب جلبرت بيرنت دورا ليس بهزيل فى كتابه « تاريخ زمانه » الذى لم ينشر ، بأمر منه ، إلا بعد وفاته ١٧٢٤ . أما كتابه « تاريخ إصلاح كنيسة انجلترا » (١٦٧٩ ، ١٦٨١ ، ١٧١٥) فكان عملا أضخم ، وكان ثمرة بحث طويل ، وظهر فى وقت كانت فيه انجلترا البروتستانتية تخشى إحياء الكاثوليكية . وقدم له مجلسا البرلمان كلاهما الشكر عليه . ووجد فيه الأعداء والمحررون ألفا من الأخطاء . ولكنه لا يزال يحظى بمن يشايعه وينتصر له ، وفى بعض الأحيان يكون موضع ذم وطعن . ولكنه يظل أعظم مرجع فى موضوعه ، وحاول بيرنت أن يوسع دائرة التسامح الدينى ، فكسب عداء السوقة .

وسعى ثلاثة رجال آخرين إلى تكبير الحاضر بأن يضيفوا إليه صورا من الماضى . وطاف توماس فولر Fuller بأرجاء الأرض الحبيبة متنقلا من بلد إلى بلد ، حيث جمع كتابه « تاريخ مشاهير الرجال فى انجلترا (١٦٦٢) ، وأحيا أبطاله الأموات بما روى عنهم من نذلكات وحكايات ودعابة وذكاء ، وبما كتب على شواهد قبورهم . وقص أنتونى وود تاريخ أكسفورد ، وجمع ثبتا حوى سير حياة خريجيها ، وللمؤلفات القيمة

التي اقتبس منها كثير من المؤلفين خاصة . وجمع جون أوبرى شذرات ممتعة عن نحو ٤٢٦ من مشاهير الإنجليز ، على أمل أن ينسق هذه المادة المجموعة فى تاريخ كامل ، ولكن الخول والمنية حالتا دون طبع « سير الحياة » قبل ١٨١٣(٤٦) . وقد شجعتنا ذخائره على المضى فى طريقنا . وهناك الكولونيل (الزعيم) جون هتشنسون ، وهو بيوريتانى أيد إعدام شارل الأول ، وزج به شارل الثانى فى السجن ، وما أن أخلى سبيله حتى عاجلته المنية ، وخلدت أرملته لوسى ذكراه فى كتاب «حياة كولونيل هتشنسون» وهو كتاب لطيف رفع من مكانة صاحب السيرة . ولكن لوسى كان يعيبها الوقفات الطويلة فكانت عباراتها أحيانا تمتد إلى صحيفة كاملة أما جون آربوتنوت ، الطبيب البارع ، والصديق المخلص لسويفت وبوب والملكة آن ولكثيرين غيرهم ، فإنه انضم إلى حملة المحافظين لوقف الحرب مع فرنسا ، بأن أصدر فى ١٧١٢ سلسلة من النشرات يهجو فيها الأحرار ، ويصف شخصية خيالية هى « جون بول » الذى أصبح منذ ذاك الوقت رمزا على انجلترا . ويقول جون آربوتنوت عن جون بول :

«أنه شخص أمين شريف صريح فى التعامل مع الناس ، سريع الغضب ، جرىء ، متقلب المزاج ... إذا تملقته ولاطفته كان سلس القياد ، إن مزاج جون يعتمد كثيرا على الهواء ، يبرق مزاجه أو يتكدر تبعا لحالة الجو . وكان جون ذكيا . يدرك مهمته تمام الإدراك ، ولكن ليس على قيد الحياة إنسان أشد منه إهمالا فى إمعان النظر فى حساباته ، ولا أكثر انخداعا بشركائه أو غلمانه أو خدمه . ذلك لأنه رفيق مرح ، مولع بالخمر واللهو والتسلية . والحق أنه لا يوجد انسان أشد عناية ببيته ولا أكثر سخاء فى الانفاق من جون(٤٧) » .

وماذا عسى أن يقول سيروليم تمبل إذا وجد أنه اختزل فى فقرة من فصل بلغ الذروة بسكرتيره ؟ ربما قال — إذا سمحت له آدابه الرفيعة — إن المؤرخين أهملوه لأنه لم يحتفظ بامرأتين تطمعان فى الزواج ، حتى قضت

إحداهما نحبها ، وأنهكت الأخرى ، أو لأنه لم يبع قلمه لوزراء المحافظين استيياء من الأحرار ، أو لأنه لم يغمس هذا القلم فى ذم البشر ، ولكن خدم وطنه فى هدوء بدبلوماسية ناجحة ، وفى عصر ساده الفساد والفجور ، ضرب لانجلترا مثلا صادقا غير مصطنع لحياة أسرية تزينها الحشمة والوقار . وظل لمدة سبع سنين يتودد إلى دوروثى أو زبورن التى أصبحت رسائلها الرقيقة إليه قطعا من الأدب الانجليزى (٤٨) وارتضته زوجا لها رغم معارضة أسرتيهما . وتزوجها بعد أن شوه الجدرى جمالها . ودخل تميل معترك الحياة السياسية ، ولكنه آثر الأعمال التى نأت به عن حمى لندن ، وتجنب « العبودية المضنية التى تثير البغض والحسد ، والتى تحصى فيها الحركات والسكنات ، والتى يطلقون عليها من قبيل السخرية والاستهزاء « السلطة والنفوذ (٤٩) » . وكان من أوائل ، من حذروا من أطماع لويس الرابع عشر التوسعية ، وكان المخطط الرئيسى للحلف الثلاثى الذى وقف فى طريق الملك الفرنسى ١٦٦٨ . وعرضت عليه الوزارة فى ١٦٧٤ و ١٦٧٧ ولكنه آثر منصبه الدبلوماسى فى لاهاى . وأدت مفاوضاته الموسومة بالحصافة والنظر الثاقب إلى زواج مارى ابنة جيمس الثانى من وليم الثالث الذى أصبح ملكا فيما بعد . وهو الزواج الذى مهد الطريق « للثورة الجليلة » . وفى ١٦٨١ اعتزل السياسة وانصرف إلى الدراسة والتأليف فى « موربارك » ، ضيعته فى « سرى » وحسبه سويفت جامدا متحفظا ، ولكن زوجة سير وليم وأخته ، كلتيهما ، أحبتاه إلى حد العبادة ، على أنه ملاك الرحمة والكياسة واللطف . وأهم أبحاثه « المعرفة قديمها وحديثها » (١٦٩٠) ، الذى رفع فيه من ذكر الأقدمين وانتقص من قدر العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، فى شخص نيوتن وهوبز وسبينوزا وليبنتز ولوك . وتصيد بنتلى الكاتب خطأ جسيما . فآوى سير وليم إلى حديقته ، وتسلى بابيقور . ولسوف نلتقى به ثانية .

٥ - إيفلين وبيبز

اتفق جون ايفلين مع تمبل فى « أنه إذا دخلت الأحزاب فى الدولة وتعمقت جـذورها فيها ، فمن الحق عنـدئذ أن يتدخل أفاضل الرجال فى الشئون العامة (٥٠) » ولما بدأت الحرب الأهلية رأى أنه قد آن الأوان للرحيل . وغادر انجلترا فى يولية ١٦٤١ . ولـكن وخز الضمير أعاده إليها فى أكتوبر ، وانضم إلى جيش الملك فى برنتفورد ليشترك فى الانسحاب فى نفس الوقت الذى وصل فيه . وبعد شهر من الخدمة فى الجيش آوى إلى ضيعة أبويه فى ووتون فى سرى . وفى ١١ نوفمبر ١٦٤٣ عبر البحر ثانية إلى القارة . وطاف على مهل بأرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولنده ، ثم قفل راجعا إلى فرنسا . وفى باريس تزوج من فتاة انجليزية . وتنقل لبعض الوقت بين فرنسا وانجلترا ، حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، حيث عاد إلى الوطن (٦ فبراير ١٦٥٢ . ورشا حكومة كرومول لتتركه وشأنه . وتبادل الرسائل مع شارل الثانى فى منفاه ، وفى ١٦٥٩ بذل جهدا جبارا للتعجيل بعودة الملكية . وبعـد ارتقاء شارل الثانى عرش إنجلترا أصبح ايفلين شخصية مرموقة فى البلاط ، ولو أنه دمغه بالانحلال والفساد ، وشغل بعض المناصب الحكومية الصغيرة ، ولـكنه فى معظم الأحوال آثر أن يغرس الأشجار ويؤلف ثلاثين كتابا فى بيته الريفى . ودون كل شىء من لوكريشس إلى سبنتاى زيفى . وعجز كتابه « للبخرة » عن تنقية هواء لندن ، ولـكن فى كتابه « أشجار الغابات » دعا دعوة حارة إلى إعادة تشجير انجلترا ، وحث الحكومة على غرس الأشجار فى مختلف أنحاء لندن ، التى تمد أشجارها اليوم من أعظم مفاخرها ومباهجها . أما كتابه « حياة مسز جودولفين » ، فهو مثل أعلى فى فضائل النساء وسط عربدة عودة الملكية وصخبها .

ومن ١٦٤١ إلى ٣ فبراير ١٧٠٦ ، قبل وفاته بأربعة وعشرين يوما ، دون ايفلين فى مذكراته كل ما رأى وسمع فى انجلترا أو فى القارة . وبوصفه

رجلا من ذوى المكانة لم يكن فى مقدوره أن يسجل من الخطايا أو الآراء الشخصية جداً ، مثل تلك التى تغرينا بقراءة « مذكرات » بيبز المسهبة ، ولكن وصفه لمدن أوربا ساعدنا كثيراً على اكتناه ماهية العصر . فى مذكرات ايفلين صفحات رائعة عن « عمر صمبلون (٥١) » وكان فى بعض الأحيان يفصح عن مكنون صدره فى قطع تفيض بالحب والحنان والرقة ، مثلما كتب عن وفاة ابنه وهو فى سن الخامسة . ولم تنشر مذكرات ايفلين إلا فى ١٨١٨ .

إن إشارات ايفلين إلى بيبز فى مذكراته أدت إلى فحص المجلدات الستة المكتوبة بطريقة الاختزال ، والتى كان بيبز قد أوصى بها لكلية مجدلن فى كمبردج . وحلت رموز المذكرات التى بلغ عدد صفحاتها ٣٠١٢ بعد ثلاث سنوات من جهد شاق ، ونشرت فى ١٨٢٥ ، بعد اختصارها وتنقيتها . وهى الآن ولو أنها لم تستكمل ، تملأ أربعة مجلدات ضخمة . على أنها جعلت من بيبز شخصية من أكبر الشخصيات المعروفة فى التاريخ بالصراحة وعدم الصحة . اما من حيث الصراحة ، فن الواضح أنه قصد أن تنشر المذكرات إذا قدر لها أن تنشر — بعد وفاته ، لا قبلها — ولهذا حوت تفاصيل كان ينبغى كتمانها فى حياته ، ولا يزال بعضها « غير قابل للنشر » . أما عدم صحتها ، فيرجع إلى أنها تتناول حقبة تقل عن عشر سنوات (١ يناير ١٦٦٠ — ٣١ مايو ١٦٦٩) من حياة بيبز ، ولم تورد سردا وافيا لعمله فى أركان حرب القوات البحرية الانجليزية ، حيث تدرج فى أعمال ازدادت أهمية من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٩ ، وبعد وفاته بزمن طويل تذكروه وكرموه على أنه رجل إدارة قدير نشيط مجد .

وكان أبوه خياطا (ترزيا) فى لندن ، وكان ابنا صغيرا لأحد الملاك اتجه إلى العمل والتجارة لأن الإبن الأكبر ورث الضيعة طبقاً للقانون . ودخل صموئيل كمبردج على منحة ، وحصل على درجتى الليسانس والاستاذية ، ولم تسجل له أية عقوبة ، إلا تأنيب علنى « لأنه شوهد يوما يحتسى الخمر

بشكل مخز » ، ومرة أخرى لأنه كتب قصة « الحب خداع » التى أعدمها فيما بعد . وفى سن الثانية والعشرين (١٦٥٥) تزوج من اليزابث سانت ميشيل ابنة أحد الهيجونوت . وفى ١٦٥٨ أجريت له عملية « الحصاة فى الكلى » ، ونجحت العملية وظل يحتفل بذكرى نجاحها سنويا بعد ذلك ، تعبيراً عن الحمد والشكر ، كما يظهر من السنوات المسجلة فى مذكراته .

وكانت هناك صلة قرابة بعيدة تربطه بسيرادوارد مونتاجو ، فعين بيبز سكرتيراً له ، (١٦٦٠) ورافقه صمويل فى الأسطول الذى قاده لإحضار شارل الثانى من المنفى . وقبل أن ينصرم هذا العام عين بيبز كاتبا للعمليات فى إدارة البحرية . فثابر على دراسة الشئون البحريه بالقدر الذى سمح له به مطاردته للنساء . ومذ كان رؤساؤه منكبين أيضاً على هذه الرياضة القديمه ، فإنه سرعان ما أصبح أكثر دراية بتفاصيل البحرية من أميرى البحر كليهما (مونتاجو ودوق يورك) ، إلى حد أنهما اعتمدا على معلوماته . وفى أثناء الحرب مع هولنده (١٦٦٥ — ١٦٦٧) نجح نجاحا مشهودا فى تموين الأسطول ، وعند تفشى الطاعون لزم عمله فى الوقت الذى فر فيه معظم موظفى الحكومة . وفى ١٦٦٨ حين حمل البرلمان على إدارة الأسطول ، وكل إلى بيبز أمر الدفاع عنها ، وبفضل خطابه الذى استمر ثلاث ساعات فى مجلس العموم برئت إدارة الأسطول تبرئه لاتستحقها . وبعد ذلك كتب بيبز لدوق يورك ثلاث مذكرات عرض فيها وجوه النقص والخلل فى هيئة البحرية ، وقد لعبت هذه المذكرات الثلاث دورا فى إصلاح الأسطول . وبذل بيبز جهداجبارا ، وكان يصحو من نومه عادة فى الرابعة صباحا(٥٢) . ولكنه وجد أنه كان يستعين على راتبه الذى يبلغ ٣٥٠ جنيها فى العام ، بالهدايا والعمولات والمنح التى يمكن أن يسمى بعضها رشوة ، ولكنها كانت فى هاتيك الأيام اللطيفة تعتبر زيادات إضافية مشروعة . وكان رئيسه لورد مونتاجو نفسه قد أوضح له « أنه ليس مرتب أيه وظيفة هو الذى يجعل شاغلها غنيا ، ولكن فرصة الحصول على

الأموال وهو يشغلها(٥٣) .

وكل ما ارتكب بيبز من أخطاء مدون بصراحة خالصة تامة نسبيا . وليس واضحا أمام أعيننا السبب الذى من أجله احتفظ بها عثل هذه الأمانة . إنه أخفاها فى حذر وعناية طوال حياته ، ودونها بطريقة الاختزال الخاصة به ، مستخدما ٣١٤ حرفا مختلفا ، ولم يضع ترتيبا خاصا لنشرها بعد وفاته . وواضح أنه وجد لذة ومتعة فاستعرض أنشطته اليومية والاضطرابات فى أعضاء جسمه وشجاراته الزوجية ، ومغازلاته وعبثه ، وعلاقاته النسائية الشائنة . إنه ـ إذا أعاد قراءة هذا السجل ـ بينه وبين نفسه ـ لا بد أن يشعر بما نشعر به نحن من رضا خفى إذا نظرنا لأنفسنا فى المرآة . وهو يروى لنا كيف أنه جعل زوجته تحلق له شعره « فوجدت فى رأسى وجسمى نحو عشرين قملة » وهذا فى إعتقادى ، أكثر مما وجدت فى هذه السنوات العشرين(٥٤) . وتعلم أن يحب زوجته ، ولكن بعد مشاجرات كثيرة ، تميز فى بعضها غيظا ، وكثيراً ، على حد قوله ، ما أساء معاملتها ، وفى إحدى المرات « جذبها من أنفها(٥٥) » . وفى مرة أخرى « لطمتها على عينها اليسرى لطمة جعلت البائسة المسكينة تصرخ من شدة الألم ، ولكنها اهتاجت وحاولت أن تعضنى وتخدشني بأظافرها ، ولكنى تظاهرت بالخجل مما فعلت حتى أمسكت هى عن العويل(٥٦) » ووضع على عينها ضمادة ، وانصرف للقاء إحدى خليلاته . وعاد إلى البيت لتناول العشاء ، ثم غادره ، حيث لقى « زوجة باجول ، فصحبتها إلى إحـــدى حانات الجعة ، وهناك لاطفتها كثيراً ، ثم افترقت عنها إلى امرأة أخرى حاولت أن أطارحها وأقبلها ، ولكنها لم ترغب فى شىء من هذا ، مما ضايقنى كثيراً » .

وقد يبعث على العجب والدهشة أن يكون للرجل مثل هذه الطاقة الحيوية فاستبدل المشيقه كل بضعة شهور ، وطارد النساء حتى صددنه عنه بالدبابيس(٥٧) . واعترف بأنه « وقع فى أسر الجمال إلى حد غريب(٥٨) » . وقال « كنت استمع فى كنيسة وستمنستر إلى العظة ، وقضيت الوقت (ساعتين

الله) محدقا النظر فى مسز بتلر(٥٩) » وكان يتطلع فى شغف خاص ولهف جارف مما يكاد يكون خيانة عظمى ـ إلى ليدى كاسلمين (عشيقة الملك)» ومذ وقع نظره عليها فى قصر هويتهول « استغرق فى النظر إليها(٦٠) » . ولكنه قنع بثيابها المرصوصه فى صف واحد ، وفى هذا يقول « وكان من الخير لى أن أتطلع إلى هذه الثياب(٦١) » ، فلما « عدت إلى البيت وتناولت العشاء وآويت إلى الفراش ، تخيلت أنى أغازل مسز ستيوارت (ليدى كاسلمين وأعبث معها . فى نشوة غامرة من السرور(٦٢) » . ولكن نفسه لم تهف إلى فاتنات البلاط فحسب . فقدمرت ببابه يوما مسز ديانا ، إحدى جاراته ، فجذبها « إلى البيت وصعدت بها الطابق الأعلى ، وبقيت ألهو وأعبث معها فترة طويلة(٦٣) » . وأخذ مسز لين إلى لامبث (أحد أقسام لندن) «وبعد أن سئمت رفقتها « صممت» على ألا أعود لمثل هذا ماحييت(٦٤)»وضبطته زوجته ذات مرة يعانق فتاة ، فهددت بالانفصال عنه ، فهدأ من روعها بالوعود والأيمان . وإنطلق إلى آخر عشيقاته . ذلك أنه أغوى وصيفة زوجته ـ ديبورا ويلت ـ وكان يحب أن تمشط ديبورا له شعره ، ولكن زوجته انقضت عليه أثناء مغامراته مع ديبورا . فعاد يقسم ويعد يتعهد من جديد ، وطردت الوصيفة ، وأخذ بيبز يتردد عليها وكان زيارتها جزء من عمله اليومى .

وظلت رغبته الجنسية على حدتها حتى حين ضعف بصره . إن عادة القراءة والكتابة فى ضوء الشمعه بدأت تضعف بصره فى ١٦٦٤ . ولكن فى سنوات العسرة التى تلت ذلك ، بذل فى العمل جهدا شاقاً بصفة خاصة ، على الرغم من تفاقم علته . وفى ٣١ مايودون آخر ما سجل فى مذكراته :

« وهكذا ينتهى ما أشك فى قدرتى على المضى فيه إطلاقا بنور عينى ، ألا وهو تدوين مذكراتى . ومهما تكن النتيجة فليس لى ألا أن أتجلد وأحتمل . ومن ثم اعتزمت أن يدونه من حولى بطريقتهم فى الكتابة العادية ، ولذلك ينبغى أن أقنع بألا يسجل إلا ما هو صالح لأن يعرفوه

ويعرفه العالم أجمع . وإذا كان هناك شيء ـ وهو ليس بالكثير ، بعد أن ولت كل خليلاتي مع ديبورا ، وقعد بي ضعف بصري عن الاستمتاع بأية ملذات أو مسرات ـ فلا بد أن أحاول أن احتفظ في كتابي بهامش ، أضيفه فيه ، هنا وهناك ، بعض الملاحظات بخط يدي ، بطريقة الاختزال . وهكذا أروض نفسي على هذه الطريقة التي لا تقل مرارة عن أن أراني محولا إلى القبر الذي يتولى الله العلي العظيم إعدادي له ، ولكل المتاعب والمشاق التي لابد أن تنتابني عندما أفقد نور عيني . صموئيل بيبز » .

وتبقى له من عمره بعد ذلك أربعة وثلاثون عاما . وظل يتعهد في عناية بالغة ما بقي له من نور عينيه ، ولم يعم بصره تماما قط ومنحه الدوق والملك أجازة طويلة انقطع فيها عن العمل ، عاد بعدها إليه . وفي ١٦٧٣ صار سكرتيرا لامارة البحر ، وفي نفس الوقت تحولت زوجته إلى الكاثوليكية . ولما وقعت مؤامرة البابا على انجلترا اعتقل بيبز وأودع سجن لندن (٢٢ مايو ١٦٧٩) للاشتباه في أن له ضلعا في مقتل جودفري . ثم دحض الإتهام وأخلي سبيله بعد تسعة أشهر قضاها بين جدران المعتقل . وبقي بعيدا عن الوظيفة حتى ١٦٨٤ ، حيث أعيد سكرتيرا لإمارة البحر كما كان ، واستأنف العمل على إصلاح البحرية . ولما أصبح رئيسه (دوق يورك) ملكا على انجلترا ـ جيمس الثاني ـ كان بيبز في واقع الأمر على رأس إدارة القوات البحرية ، ولكن عندما هرب الملك جيمس إلى فرنسا ، أعيد بيبز إلى السجن ثم أفرج عنه وعاش أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره ، متقاعدا عن العمل وكأنه « مرشد البحرية العجوز » . ووافته المنية في ٢٦ مايو ١٧٠٣ ، وقد بلغ السبعين ، مكللا بالاجلال والاحترام ، مطهرا من الذنوب والآثام .

وكم كان في هذا الرجل من خلال محمودة . لقد عرفنا حبه للموسيقى ، كما أنه تابع الحركة العلمية ، وكان ضليعا في الفيزياء . وأصبح عضوا في « الجمعية الملكية » وانتخب رئيسا لها في ١٦٨٤ وكان مزهوا برجولته ، وكان يقبل

الرشوة ، وضرب خادمه حتى جرح ذراعه(٦٥) وقسا فى معاملته لزوجته ، وكان فاسقا بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، ولكن كم كان له فى الملوك والأذواق من أسوة أخزى وأقبح فى مجال الدعارة والفجور ، ومن منا يمكن أن يتمتع بسمعة طيبة لا تشوبها شائبة إذا ترك مثل هذه المذكرات الأمينة ؟ .

٦ — دانيال ديفو : ١٦٥٩ - ١٧٣١

هنالك امرأة أفلتت من يد بيبز، تستحق منا هنا انحناءة احترام فى شيء من الحذر ، بوصفها « أم القصة الطويلة » فى فترة عودة الملكية ، وأول امرأة انجليزية تعيش على قلمها . إن افرابن Aphra Behn جديرة بالذكر من عدة نواح : ولدت فى انجلترا ، وترعرعت فى أمريكا الجنوبية . وعادت إلى انجلترا فى سن الثامنة عشرة (١٦٥٨ ، وتزوجت تاجرا لندنيا من أصل هولندي . وتركت انطباعا قويا فى نفس شارل لدهائها وذكائها . وأوفدت فى مهمة سرية إلى الأراضى الوطيئة ، فقامت بها خير قيام ، ولكنها تلقت أجرا زهيدا إلى حد أنها انصرفت إلى الكتابة ، وسيلة لكسب العيش ، وكتبت مسرحيات هزلية فاجرة لاقت نجاحا ملحوظا . وفى ١٦٧٨ نشرت « أورونوكو » وهى قصة « رفيق ملكى » زنجى ، وحبيبته امواندا . وكانت مزيجا أصيلا من الواقعية والرومانسية أو الخيال . وكان الطريق ممهدا أمام قصة روبنسن كروزو ، والقصة الرومانسية .

كذلك عاش ديفو على قلمه . وكان من أكثر الأقلام تعددا للجوانب والبراعات : وكان أبوه جيمس ديفو قصابا فى لندن، شديد التمسك بمذهب البرسبيتريان . وكان من المتوقع أن يكون دانيال واعظا ، ولكنه آثر الزواج والعمل والسياسة . وأنجب سبعة أطفال ، وأصبح تاجر جوارب بالجملة . والتحق بجيش دوق مونموث فى الثورة (١٦٨٥) ، ثم انضم إلى جيش وليم فى الإطاحة بعرش جيمس الثانى وفى ١٦٩٢ أفلس وبلغت ديونه

١٧ ألفا من الجنيهات ، ثم دفع لدائنيه استحقاقاتهم كاملة تقريبا فيما بعد ، وفيما هو يكسب ويخسر . أصدر كتيبات فى طائفة من الموضوعات زاخرة بكنز مدهش من الأفكار الأصيلة . ففى مؤلفه « بحث فى المشروعات » عرض مقترحات عملية متقدمة كثيرا عن زمانه ، فى المصارف ، والتأمين ، والطرق ، ومستشفيات الأمراض العقلية ، والكليات الحربية ، والتعليم العالى للبنات . وانتقل إلى Tilbary حيث أصبح سكرتيرا لمصنع للقرميد ثم مديرا ، وفى النهاية مالكا له . ولما قدموه إلى وليم الثالث عينه فى وظيفة حكومية صغيرة ، وأيد سياسة الملك تأييدا كبيرا إلى حد اتهامه بأنه هولندى أكثر منه انجليزى ، فدافع عن نفسه فى قصيدة رائعة ، عنوانها « الإنجليزى الصميم الأصيل » (١٧٠١) ذكر فيها الإنجليز بأن الأمة كلها مختلطة الدماء والأعراق ، ولما كان هو نفسه من المنشقين فإنه فى ١٧٠٢ نشر كراسة غفلا من اسم المؤلف ، تحت عنوان « أقصر طريق مع المنشقين » استبق فيها أسلوب سويفت فى التسفيه والتسخيف عن طريق المبالغة ، وهاجم فيها اضطهاد الأنجليكانيين للمنشقين ، باستحسانه اعدام كل منشق يقوم بالوعظ ، وطرد المنشقين الذين يستمعون إليه من انجلترا . وقبض عليه فى فبراير ١٧٠٣ ، وحكم عليه بالغرامة والسجن وعذب فى المشهر . وأفرج عنه فى نوفبر ، ولكن فى نفس الوقت كان مصنع القرميد قد تخرب وتوقف العمل فيه .

وكان الرجل الذى ساعد فى الإفراج عنه هو الوزير روبرت هارلى الذى تحقق من مقدرة ديفو الصحفية ، ومن الواضح أنه عقد معه اتفاقا لاستغلال قلمه ، ومن ثم إلتحق ديفو بخدمة الحكومة طيلة بقية حكم الملكة آن . وبدأ فور إطلاق سراحه فى إصدار صحيفة ذات أربع صفحات ثلاث مرات فى الأسبوع . اسمها « ريفيو » التى ظلت تظهر حتى ١٧١٣ ، وكان معظمها بقلم ديفو .

وفى عام ١٧٠٤ / ١٧٠٥ طاف ديفو بأرجاء انجلترا على ظهر جواد ،

يدعو المستر هارلى فى الانتخابات . وفى تلك الأثناء جمع مادة كتابه « جولة فى انجلترا وويلز » . وفى ١٧٠٦ — ١٧٠٧ عمل لحساب هارلى وجودولفين جاسوسا فى اسكتلنده ، وحظيت كراساته القوية بكثير من القراء كما جلبت إليه الكثير من الأعداء . واعتقل ثانية فى ١٧١٣ وفى ١٧١٥ ، ومرة أخرى أطلق سراحه بناء على وعد بتسخير قلمه فى خدمة الحكومة .

وكان له قدرة على ابتكار كثير من الموضوعات الأدبية . وفى ١٧١٥ نشر بعض مقتطفات يفترض أن كاتبها من الكويكرز . وفى نفس السنة نشر « حروب شارل الثانى عشر » كما يرويها « استكلندى فى خدمة السويد » . وأصدر فى ١٧١٧ رسائل يظن أن كاتبها تركى ، يندد بالتعصب المسيحى . وأسهم فى تحرير مجلة اسمها مجلة الضباب « Mist » بتوقيع مراسلين وهميين . وقلما وقع ديفو كتاباته باسمه . وإلى جانب هذه البراعة فى تمثيل شخصيات مختلفة ، جمع ديفو سمة الاطلاع فى الجغرافيا، وبخاصة جغرافية افريقية والأمريكتين . وظاهر أنه افتتن بكتاب وليم دامبيير « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) ، وفى احدى رحلات دامبيير ألقت سفينته المسماة « الثغور الخمسة » مراسيها فى جزر جوان فرنانديز على بعد نحو أربعمائة ميل إلى الغرب من شيلى . وكان أحد البحارة الاسكتلنديين يدعى اسكندر سلكيرك قد تشاجر مع القبطان ، فطلب إليه أن يتركه فى احدى الجزر الثلاث ، على أن يزوده ببعض الحاجيات الضرورية . وبقى البحار هناك وحيدا لمدة أربعة أعوام ، حيث أعيد إلى انجلترا ، وهناك قص قصته على ريتشارد ستيل الذى كتبها فى عدد « الرجل الإنجليزى The Englishman » الصادر فى ٣ ديسمبر ١٧١٣ ، كما رواها كذلك لديفو ، وزعم أنه أعطاه بيانا مكتوبا عن مغامرته فى الغربة والوحدة(٦٦) . وحول ديفو هذه الخلاصة إلى قطعة من الأدب . وفى ١٧١٩ نشر أشهر قصة فى القصص الإنجليزى .

وألهبت « حياة روبنصن كروزو ومغامراته العجيبة المدهشة » خيال انجلترا . وظهرت منها أربع طبعات فى أربع شهور . وهنا كان مفهوم جديد للمغامرة والصراع – لا صراع الإنسان ضد الإنسان ، ولا صراع الإنسان المتحضر ضد الإنسان المتوحش . بل كفاح الإنسان ضد الطبيعة ، صراع رجل وحيد ، يتملكه خوف حقيقى ، لايجد أى عون أو مساعدة ، حتى جاء « التابع المخلص الأمين » ، وبنى حياة من المواد الخام فى الطبيعة . وتلك كانت تاريخ حضارة رجل واحد فى مجلد واحد . واعتبرها كثير من القراء تاريخا ، حيث لم ترو قط فى الأدب من قبل قصة جمعت بين مثل هذه الأشياء التى تحتمل الصدق والكذب فى مثل هذه التفاصيل التى أخذ بعضها بخناق بعض بشكل عارض . إن تمرس ديفو فى الخداع الأدبى رفعه من الصحافة إلى الفن .

وعاش ديفو فى شيء من بحبوحة العيش فى لندن ، ولكنه لم يتخل عن اتجاهه الذى لايبارى . فبينما ظل يصدر الكراسات ، أخرج كتبا فى الحجم الطبيعى ، تضم قصص صغيرة . فنشر فى ١٧٢٠ « تأملات جادة فى حياة روبنصن كروزو ومغامراته المدهشة » ، « حياة ومغامرات مسز دنكان كامبل » (وهى ساحرة مشعوذة صماء بكماء) . وبعد ذلك بشهر واحد « مذاكرات فارس » « وبن نروفاتو » وقدحسبه بت الأكبر تاريخا وبعد شهر آخر أخرج « حياة القبطان المشهور سنجلتون ومغامراته وقرصناته » وهو كتاب حوى توقعات مدهشة عن كشوف فى أفريقية . وفى ١٧٢٢ أصدر « هناء وشقاء مول فلاندرز » و « صحيفة عام الطاعون » ، و « تاريخا كولونيل جاك » ، و « الغزل الدينى » ، و « التاريخ النزيه لبيتر السكسوفنش « قيصر المسكوف الحالى » — وهذه هى المرة الثانية التى يستبق فيها فولتير فى كتابه سير الحياة . وقصد بهذه المجلدات الضخمه أن توفر سبل العيش لأسرته ، ولكنها بفضل قوة خيال الكاتب وأسلوبه الفياض ، أصبحت أدبا . وفى « مول فلاندرز » اندس ديفو إلى عقل بغى وقلبها ، حتى أفضت إليه بقصتها بشكل يتضح معه صراحتها واخلاصها ويدعو إلى تصديقها

ولو ظاهريا ، حتى تركها فى النهاية راضيه « آمنه مطمئنه فى خير عافية » وهى فى السبعين(٦٧) . أما « صحيفه عام الطاعون » فكانت مدعمه بأدق الوقائع والحقائق والاحصاءات ، حتى اعتبرها المؤرخون تاريخا .

أما عام ١٧٢٤ فلا يثير دهشة كبيرة : ذلك أن ديفو نشر احدى أمهات قصصه « السيدة السعيدة الحظ » المعروفة باسم « روكسانا » وهى المجلد الأول من مجلدين يتناولان جولته فى ربوع جزيرة بريطانيا العظمى ، و « حياة جون شبرد » وهو يوهم بأنه مخطوطة سلمها شبرد إلى صديق له قبل إعدامه . وكانت هذه إحدى السير القصيرة المديدة التى كتبها ديفو عن حياة المجرمين ، ومهدت إحدى سير الحياة واسمها « وغد المرتفعات » (١٧٢٤) الطريق لـكتاب سكوت « روب روى » كما مهدت سيرة أخرى ، هى « حياة جوناثان ويلد » الطريق أمام فيلدنج . والحق أن أى موضوع شعبى أسال قلم ديفو ، وأفاض عليه الجنيهات من خزائن ناشرى كتبه ، من ذلك « التاريخ السياسى للشيطان » (١٧٢٦) ، و « خفايا السحر » (١٧٢٠) ، و « الـكشف عن أسرار الدنيا الخفية » ، أو تاريخ حقيقة الأشباح (١٧٢٧ — ١٧٢٨) أضف إلى هذا كله قصيدة فى اثنى عشر جزءا « العدل الإلهى » يدافع فيها عن الحقوق الطبيعية لـكل إنسان فى الحياة وفى الحرية وفى التماس السعادة ووسط هبوط ديفو كثيراً إلى مستوى ذوق الشعب وأخيلته ، نرى أنه أسهم اسهاما مخلصاً فى أفـكار جادة : مثل « التاجر الإنجليزى الـكامل » (١٧٢٥ — ١٧٢٧) ، و « خطة التجارة الإنجليزية » (١٧٢٨) ، والـكتاب الذى لم ينته منه « الرجل الإنجليزى الـكامل » ، فإنه فى هذه الـكتب جميعها قدم معلومات مفيدة ونصائح عملية ، لم تتلاءم فى كل الأحوال مع أخلاقيات الانجيل .

وقد لا نحبذ أخلاقيات ديفو أو سلوكه الأدبى ، ولـكننا نملك الاعجاب بمثابرته وجده ، وربما لم يشهد التاريخ قط منذ انجاب رمسيس الثانى ١٥٠ ولدا مثل وفرة ديفو فى الانتاج . والشىء الوحيد الذى يـكاد لا يصدق

فى ديفو هو أنه الذى كتب كل ما كتب ، لأننا كذلك يتولانا العجب كل العجب من توجيه عقل ديفو الذى سخرت فيه قوة الخيال وقوه الذاكرة لهذا العمل الشاق أو الجهد الجهيد ، والذى أخرج هذه الأشياء الوهمية المقبولة شكلا إلى أبعد حد فى الأدب . وأننا لنعترف بعبقرية وشجاعة رجل استطاع مع ضخامة العمل والعجلة فى انجازه ، أن يحتفظ بهذا المستوى الرفيع فى المادة والأسلوب . فنى المائتين والعشرة مجلدات التى أخرجها (إذا صدقنا ماقيل) لا يكاد المرء يقع على صحيفة واحدة مملة باهتة ، وإذا اتفق أن كان ديفو أحيانا بليدا غبياً فإنه كان يفعل ذلك عن عمد ليضيف إلى حكايته شيئاً من احتمال الصدق والكذب . ولم يبزه أحد فى بساطة السرد ووضوحه ، وفى كونه طبيعيا بعيدا عن التكليف إلى حد الاقناع . وهنا كانت عجلته ضربا من ضروب الحظ السعيد له ، حيث لم يكن لديه فسحة من الوقت للتنميق و الزخرف . وأرغمه تدريبه الصحفى ونزعته الصحفية على الإيجاز والوضوح . وكان أكبر صحفى فى زمانه بكل معانى الكلمة ، ولو أن هذا الوصف ينطبق على ستيل وأديسون وسويفت . فإن صحيفته « ريفيو » مهدت الأرض التى أنبتت فيها صحيفة « سبكتاتور » بذورا منتقاة بشكل أفضل . والحق أن هذا شرف أى شرف ، ولكن أضيف إليه الشهرة العالمية الباقية على مر الدهور لقصة روبنصن كروزو ، وأثرها على قصص المغامرات ، حتى على قصة تختلف اتجاهاتها كل الاختلاف مثل « رحلات جلليفر » وإذا استثنينا مؤلف ذلك الإتهام الذكى لبنى الإنسان (سويفت فى رحلات جلليفر) ، فإن ديفو كان أعظم عبقرية فى رجال الأدب الانجليزى فى عصر زخر بهم .

٧ – ستيل وأديسون

يحدد ريتشارد ستيل أكثر من أى إنسان غيره بداية عصر الانتقال فى الأدب ، من عودة الملكية إلى حكم الملكة آن . واتصف فى شبابه

بكل صفات العربدة والصخب والفجور التي سادت فترة عودة الملكية .
ولد في دبلن ، وكان أبوه موثقا عاما (كاتب عدل) ، وتعلم في مدرسة تشارترهاوس وأكسفورد وكان حساسا سريع الاهتياج كريما ، وبدلا من الحصول على درجته الجامعية انضم إلى جيش الحكومة في ايرلنده ، وكان يسف في شرب الخمر اسفافا ، ويبارز حتى يقارب أن يصرع خصمه . وأكسبته التجربة رصانة عابرة ، فبدأ يحمل على المبارزة ، وكتب مقالا عن « البطل المسيحي » (١٧٠١) جادل في امكان أن يكون المرء سيدا ماجـــدا مهذبا « جنتلمان » مع بقائه مسيحيا . ووصف الفساد الذي ساد العصر ، وعاد بذاكرة قرائه إلى الكتاب المقدس بوصفه منبع الإيمان الصادق والخلق القويم ، وناشد الرجال أن يحترموا جمال النساء وعفتهن .

وكان في التاسعة والعشرين ، حين وجد أنه حتى الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها ، تتبرم به على أنه واعظ ممل ، فعقد العزم على النهوض برسالته عن طريق الروايات ، وامتدح تنديد جرمي كولير بالخلاعة والفحش في المسرح ، فانبرى في سلسلة من الملهيات يدافع عن الفضيلة يشن حملات صادقة على الأوغاد . ولكن هذا الإنتاج لم يلق نجاحا . فالحق أن المسرحيات حوت مشاهد حية ودلت على ذكاء وموهبة ، ولكن جمهور النظارة تشككوا في حل عقدة الرواية أو في نتيجتها ، وطالبوا باللهو والتسلية على حساب الوصايا العشر مهما كان الثمن غاليا ، على حين أن اللندنيين الحصفاء الذين قد يتعاطفون مع مشاعره ، قلما كانوا يظهرون في المسرح . كيف الوصول إلى هؤلاء الناس ؟

وقرر ستيل أن يجرب وسيلة يواجههم بها في المقاهي . وفي ١٢ أبريل ١٧٠٩ أخذ ورقة من صحيفة ديفو « ريفيو » وأصدر العدد الأول من صحيفة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ، أطلق عليها « The Tatler » وحررها وكتب معظم مادتها تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » . ووجهها إلى المقاهي ، حيث أعلن : —

« كل ضروب البسالة والكياسة ، وللمسرات والتسلية ، تلتقون بها فى « مقهى هوايت للكاكاو » والشعر فى « مقهى ول Will » والعلم وللمعرفة تحت عنوان « جريشيان » . والأنباء الخارجية والداخلية من « مقهى سان جيمس » . أما سائر الموضوعات التى ساقدمها فمن عندى أنا .

وكان مشروعا بارعا ، أثار اهتمام رواد المقاهى ، واستقى الأنباء والموضوعات من مناقشاتهم هناك ، وأتاح لريتشارد ستيل أن يعبر عن آرائه دون مقاطعة أو نزاع ، وفى العدد ٢٥ الصادر بتاريخ ٧ يونيه ١٧٠٩ ذكر أنه تلقى رسالة من « سيدة شابة ... ترثى فيها لسوء حظ . . حبيبها الذى أصيب مؤخرا بجرح أثناء المبارزة » واستطرد ستيل ليبين سخف عادة تحتم أن يدعو الشخص الذى أوذى الشخص المسىء ليضيف ضغثا إلى ابالة أو القتل إلى الإساءة ، فماذا تعنى . المبارزة أو التحدى إلا هذا !!

سيدى ، أن سلوكك الشاذ فى الليلة الماضية ، وتطاولك على فى جرأة وحرية طابت لهما نفسك ، كل هذا يدفعنى إلى أن أوجه إليك هذا الإنذار ، لأنك مغرور أحمق غير مهذب .. سألتقى بك فى هايدبارك فى ظرف ساعة ، حاملا مسدسا ، وحاول أن تصوبه إلى رأسى ، حتى ألقنك درسا فى آداب السلوك » .

وهنا كان صوت الطبقة الوسطى يسخر من الأرستقراطية . والحق أن الطبقة الوسطى أساسا هى التى زحمت المقاهى .

وفى مقالات أخرى سخر ستيل من بذخ الأرستقراطية ولغوها ومظاهرها الكاذبة وزينتها وزخارفها وملابسها ، وتوسل إلى النساء أن يرتدين الثياب البسيطة ، ويعتنمن عن الحلى والمجوهرات . فإن عقد اللؤلؤ فوق الصدر لايضيف شيئاً إلى الصدر العاجى الجميل الذى يحمله(٦٨) » . إن رقته مع النساء كانت تتبارى مع ولعه بالخمر . وألح على القول بأنهن بحق يتمتعن بالذكاء وسلامة البنية . ولكنه إمتدح الكثير من تواضعهن وطهرهن — وتلك صفات لم تعترف بها ملهاة فترة عودة الملكية . وقال عن

إحدى النسوة « إن حبك لها يعني أنك تتسم بالتحرر فى تعليمك » واعتبر تا كرى « أن هذه العبارة ربما كانت أرق تحية قدمت لامرأة[٦٩] » . ووصف ستيل ، فى إحساس عميق ، مباهج الحياة الأسرية ، والوقع الجميل لأقدام الأطفال ، وإقرار الزوج بفضل زوجته المسنة وعرفانه لجميلها :

« إنها فى كل يوم تدخل على قلبي سرورا أ كثر بـكثير مما عرفت فيها أيام كنت أستمتع بجمالها وأنا فى نضارة الشباب ، إن كل لحظة فى حياتها تقدم لى أمثلة جديدة على تجاوبها مع ميولى ورغباتى ، وحسن تدبيرها بالنسبة لمواردي فى أوقات اليسر والعسر . إن وجهها أجمل بـكثير مما رأيته لأول مرة . وليس ثمة ذبول فى تقاطيعه إلا إستطعت أن ألحظه منذ اللحظه التى حدث فيها نتيجه إهتمام شديد قلق بمصالحى ربما يعود على بالخير .. إن حب الزوجه أسمى بـكثير من ذلك الهوى التافه الذى يسمونه عادة بهذا الاسم (الحب) ، بقدر هبوط مستوى ضحكات المهرجين العاليه الماجنه عن مستوى المرح الهادىء الرشيق عند الأماجد المهذبين[٧٠] » .

وكان ستيل قد تزوج مرتين عندما كتب هذا ، وإن رسائله إلى زوجته لهى نماذج للاخلاص والحب ، ولو أنها سرعان ما تشتمل على اعتذارات عن عدم الحضور لتناول الطعام فى البيت . إنه أخفق فى أن يـكون الرجل البرجوازى الفاضل الذى كان فى نظره نموذجا للحياة ، فإنه سكر كثيراً وأنفق كثيراً وإستدان كثيراً ، وإجتاز الشوارع الجانبية ليتحاشى لقاء أصدقائه الذين أقرضوه المال ، وإختفى عن الأنظار تملصا من دائنيه ومراوغة لهم ، ولـكنه فى نهاية الأمر أودع السجن بسبب الدين ، وقارن قارئو صحيفته « Tatler » بين عظاته وتصرفاته . وأصدر جون دنيس نقدا لاذعا لآراء ستيل ، وتناقص عدد المشتركين فى الصحيفه واحتجبت عن الظهور فى ٢ يناير ١٧١١ ، ولـكنها تحتفظ بمـكانتها فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، لان بين جنباتها بدأت الأخلاقيه الجديدة تعبر عن نفسها ، وبدأت القصه

القصيرة تأخذ شكلها الحديث ، كما طور أديسون المقالة الحديثه ، حيث بلغ بها حدا الاتقان والكمال فى صحيفه « سبكتاتور » .

وولد أديسون وستيل كلاهمـــا فى ١٦٧٢ ، وكانا صديقين منذ كانا يدرسان معا فى مدرسه تشارترهاوس . وكان والدجوزيف أديسون قسيسا أنجليكانيا ، أشرب ابنه من التقوى والورع ماقاوم به كل مساوىء ومفاسد فترة عودة الملكيه . وكسبت له براعته فى اللاتينيه منحه دراسيه . وفى سن الثانية والعشرين أعجب إرل هاليفاكس بمواهبه ، إلى حد أنه أقنع رئيس كليه ماجدلن بتحويل الشاب من سلك الكهنة إلى خدمة الحكومة . وقال هاليفاكس « يقولون عنى أنى عدو الكنيسه ، ولكنى لن أعود للإساءة إليها قط ، بعد أن أحتفظ بمستر أديسون بعيدا عنها(٧١) » ولما كانت المقدرة فى اللاتينية غير مقرونة بمعرفه اللغه الفرنسيه ، وكانت الحاجة إلى معرفة اللغة الفرنسية أساسية عند الدبلوماسيين فإن هاليفاكس خصص لأديسون ثلثمائة جنيه سنويا لينفق منها أثناء إقامته فى القارة . ولمدة عامين تجول أديسون على مهل فى أرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا .

وبينما هو فى جنيف إرتقت الملكة آن عرش إنجلترا فأبعد أصدقاؤه عن مناصبهم ، وانقطع عنه راتبه . ولما لم يبق له إلا دخله الضئيل ، فإنه اشتغل معلما ومرشدا خاصاً لسائح إنجليزى شاب ، وطاف معه بأنحاء سويسرا وألمانيا والمقاطعات المتحدة . ولما انتهت هذه المهمة عاد إلى لندن ١٧٠٣ ، وعاش لبعض الوقت فى فقر يستره التعفف وحسن المظهر . ولكنه كان « مغنا طيساً » يجذب الثراء والحظ السعيد . ذلك أنه عندما انتصر دوق مالبورو فى معركة بلنهيم فى ١٣ أغسطس ١٧٠٤ فتش جودولفين وزير الخزانة عن شخص يخلد ذكر هذا النصر شعرا . وأوصى هاليفاكس بأديسون للقيام بهذا العمل ، واستجاب الشاب الموهوب بقصيدة رنانة « الحملة » ونشرت فى نفس اليوم الذى دخل فيه مالبورو العاصمة دخول المنتصر الظافر ، وساعد نجاح القصيدة على أن توطن انجلترا نفسها على

مواصلة القتال . إن جورج وشنجطن آثر الشعر المحلق عاليا الذى كتبه أديسون على سائر القصائد . وإليك أبياتا مشهورة منها :

« ايه يا ربة القريض ، أى شعر ترين أن أنشده القوات التى أشتعلت فى نفوسها نيران الغضب ، المتراصة فى ميدان المعركة ! إنى ليخيل إلى أنى أسمع دقات الطبول الصاخبة وصيحات النصر وأنات الموتى يختلط بعضها ببعض وطلقات المدافع المرعبة تشق أجواز الفضاء ، وصيحات الحرب تدوى مثل الرعد . وهنا أثبت مالبورو العظيم بروحه العالية أنه راسخ كالطود ، لايهتز لالتحامات الجيوش الهائجة ، وفى غمرة الضجة والفزع واليأس ، يشهد كل مناظر الحرب المروعة ، ويشرف على ساحة الموت ثابت الجنان ، يفكر فى هدوء . ويرسل المدد فى الوقت المناسب للفرق المتخاذلة ، وينفخ فى المحاربين المترددين من روحه فيدفعهم إلى الالتحام مع العدو ، ويحـــدد المعركة المتأرجحة أين تشتد وتحتدم . كما لو أن ملـكا من السماء ، بأمر من عند الله زلزل أرض الأعداء بريح عاتية (كما حدث مؤخرا لبريطانيا الواهنة) . وفى هدوء ورصانة يسوق مالبورو العاصفة العاتية ، ويطيب نفسا بتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى ، فيمتطى صهوة جواده وسط الرياح الهوجاء ويقود العاصفة ويوجهها كيف يشاء » .

وحقق البيت الأخير والتشبيه الملائـكى لأديسون العودة سالما إلى وظيفة حـكومية تدر عليه راتبا ، بقى فيها طيلة السنوات العشر التالية . وفى ١٧٠٥ عين عضوا فى لجنة الاستئناف ، خلفا لجون لوك . وفى ١٧٠٦ وكيلا للوزارة . وفى ١٧٠٧ ألحق ببعثة هاليفا كس إلى هانوفر ، التى هيأت لأسرة هانوفر السبيل لارتقاء عرش انجلترا . وفى ١٧٠٨ اتخذ مقعده فى البرلمان ، وبفضل خدماته الجليلة احتفظ به حتى الممات . وفى ١٧٠٩ أصبح السكرتير الأول لنائب الملـكة فى أيرلنده . وفى ١٧١١ أثرى إلى حد إستطاع معه أن يشترى ضيعة فى رجبى بعشرة آلاف جنيه .

إن أديسون فى أيام الرخاء لم ينس ستيل . فأنبه على أخطائه ولـكنه

هيأ له منصبا حكوميا ، وأقرضه مبالغ كبيرة من المال ، وطالبه مرة واحدة أن يسددها(٧٢) . وعندما صدرت صحيفة «The Tatler» غفلا من الاسم ، لاحظ إشارة إلى فرجيل كان قد لمح بها إلى ستيل ، وفى « إيزاك بيكرستاف » عرف ثانية صديقه المترف المفلس وسرعان ما اشترك فى الصحيفة . وفى ١٧١٠ سقطت حكومة الأحرار ، وفقد ستيل وظيفته الحكومية ، وفقد أديسون كل مناصبه باستثناء عضوية لجنة الاستئناف . واحتفلت صحيفة تاتلر بهذا العام بالاحتجاب عن الظهور . وشارك أديسون وستيل الواحد منهما الآخر آلامه وآماله ، وفى أول مارس ١٧١١ أخرجا أول عدد من أشهر الدوريات فى تاريخ الأدب الإنجليزى .

وظهرت صحيفة « سبكتايور » يومية ـ ماعدا يوم الأحد ، فى فرخ مطوى ذى أربع أو ست صفحات . وبدلا من تحديد المقالات من مراكز مختلفة ، ابتدع المحرر المجهول الإسم ناديا وهميا يمثل أعضاؤه قطاعات مختلفة من دنيا الانجليز : سير روجردى كوفرلى سيد من الريف ، سير أندرو فريبورت يمثل طبقة التجار ، ويتحدث الكابتن سنترى باسم الجيش ، أما ول هنيكوم فهو الرجل العصرى المتأنق ، أما المحامى فى دار العدل فيمثل العلم والمعرفة ، ويجمع مستر « سبكتاتور » نفسه بين وجهات نظرهم فى إطار من المرح اللطيف والكياسة والذكاء ، مما نفذت معه الصحيفة إلى بيوت الانجليز وقلوبهم جميعاً . وفى العدد الأول وصف مستر سبكتاتور نفسه ، حتى جعل النوادى والمقاهى تحاول الكشف عن شخصيته بالحدس والتخمين :

« قضيت سنواتى الأخيرة فى هذه المدينة حيث يرانى الناس كثيرا فى معظم الأماكن العامة ، ولو أن عدد الصفوة المختارة من الأصدقاء الذين يعرفوننى لا يجاوز الستة ، وسأتحدث عنهم فى العدد القادم بشكل أدق . ولا يكاد يوجد مكان يأوى إليه الناس بصفة عامة إلا وظهرت فيه ، فأحيانا يروننى أدس أنفى فى حلقة من رجال السياسة فى « مقهى ول » ،

مصغيا بأكبر إهتمام إلى ما يدور فى هذه الاجتماعات الدورية . وأحيانا أدخن غليونى ، وعلى حين يبدو أنى غير منصت لشىء إلا ساعى البريد ، فإنى أسترق السمع إلى النقاش الذى يدور على كل مائدة فى الغرفة . وفى أمسيات الأحد أقصد إلى مقهى سان جيمس ، وانضم أحيانا إلى جماعة السياسيين الصغيرة فى الحجرة الداخلية ، بوصفى رجلا يذهب إلى هناك ليسمع ويستفيد . ووجهى كذلك معروف تمام المعرفة فى « جريفان » وفى مقهى « شجرة الكاكاو » « وفى مسارح « درورى لين » و « هاى ماركت » على حد سواء . وكانوا يحسبوننى تاجرا فى « البورصة » طيلة هذه السنوات العشر أو أكثر . وأحيانا حسبوا أنى يهودى من جماعة السماسرة الذين لا يوثق بهم فى « جوناثان » وجملة المقول إنى لا أرى حشداً من الناس إلا حشرت نفسى فى زمرتهم ، ولو أنى لا أنبس ببنت شفة إلا فى النادى الخاص بى .

وهكذا أعيش فى هذه الدنيا متفرجا ، لا واحدا من الجنس البشرى ، وبهذه الطريقه جعلت من نفسى رجل دولة وسياسة يطيل التأمل والتفكير ، وجنديا وتاجرا ، وصانعاً ماهراً ، دون أن أمارس العمل فى أى قطاع من قطاعات الحياة . كما أنى على دراية تامة بشئون الزواج والأبوة ، وأستطيع تبين وجوه الخطأ فى الإقتصاد وفى الأعمال وفى الإنحراف ، أفضل بكثير ممن يتولون هذه الأمور بأنفسهم ، لأن المتفرجين يكتشفون أخطاء يمكن ألا تقع عليها أعين المشتركين فى اللعبة . إنى لم أناصر قط حزبا فى اندفاع أو عنف . وإنى عاقد العزم على أن أقف موقف الحياد الدقيق بين الأحرار والمحافظين ، إلا إذا اضطررت إلى إعلان الإنحياز إلى أى من الفريقين بسبب تصرفات غير ودية من الفريق الآخر . وصفوة القول إنى كنت طوال حياتى « متفرجا » وتلك هى الشخصية التى أقصد ألا أحيد عنها فى هذه الصحيفة » .

ويتقدم المشروع ، جمعت « سيكتاتور » بين الموضوعات الاجتماعية

ودراسات العادات والسلوك والأخلاق والنقد الأدبي واستعراض أحوال المسرح . وكتب أديسون سلسلة من المقالات عن ملتون أدهش بها الإنجليز حين سما بقصيدة « الفردوس المفقود » فوق مرتبة « الإلياذة » هومیروس « والإنيادة » فرجيل . وتجنبت المنـــاقشات الخوض فى السياسة التى تثير العداوات والتقلبات ، ولـكن ألحت — واشترك فى هذا أديسون عن طيب خاطر — على دعوة ستيل إلى الإصلاح الاجتماعى . وظهر من جديد شيء من الروح البيوريتانية هذبته المحنة ، كرد فعل للنسكسة التى اجتاحت فترة عودة الملـكية ، ولـكنها لم تعد الآن انهماكا لاهوتيا كئيبا مفرطا فى التخويف من الشيطان ومن الخطيئة المهلـكة ، بل دعوة إلى الاعتـدال والاحتشام موسومة بالتفاؤل مغلفة بالدهاء والظرف . وعلى هذا النسق بدأ عدد ١٠ نوفبر :

« إنه لمما يبعث على الرضا والارتياح أن أرى المدينة العظيمة تلح يوما بعد يوم على طلب صحيفتى هذه . وتستقبل مقالاتى الصباحية فى جـدية واهتمام مناسبين . ويقول الناشر أن ثلاثة آلاف نسخة منها توزع يومياً بالفعل . فإذا حسبت أن النسخة الواحدة يتداولها عشرون قارئا ، وهو تقدير متواضع ، لأحصيت من المريدين ستين ألفا فى لندن ووستمنستر ، آمل أن يلحظوا الفرق بينهم وبين القطيع الطائش من أخوانهم الجهلة الغافلين ، ومذ حظيت بمثل هذا العدد الـكبير من القراء فإنى لن أدخر وسعا فى أن يكون ما أزودهم به من علم ومعرفة مقبولا ، ومن تسلية نافعاً مفيداً . ولهذا أحاول أن أحيى الأخلاق بالدعاية وألطف الدعابة بالفضيلة ، لعل قرائى يشقون إذا أمكن ، عن هذا السبيل أو ذاك ، طريقهم إلى التأمل فيما يجرى حولهم كل يوم ، رغبة منى فى ألا يكون حظهم من الفضيلة قليلا عابرا ، أو مجرد ومضات متقطعة من التفـكير ، صح عزمى على أن أنعش ذاكرتهم وعقولهم بين الحين والحين ، حتى أخرجهم من ظلمات اليأس والرذيلة والحماقة التى تردى فيها هذا العصر . فإن العقل الذى يخلد إلى الدعة والراحة ولو يوماً

واحداً ، يشب على الحاقات والسخافات التى لا يمكن اقتلاعها إلا بالمداومة على تثقيفه تثقيفا جادا مثابرا . ولقد قالوا عن سقراط أنه أنزل الفلسفة من السماء لتسكن بين الناس على الأرض ، وكم تهفو نفسى أن يقال عنى أنى أتيت بالفلسفة من الخابىء والمكتبات والمدارس والجامعات ، لتستقر فى النوادى والجمعيات ، وعلى موائد الشاى ، وفى المقاهى .

من أجل ذلك أوصى ، بالنسبة لتأملاتى هذه ، وبصفة خاصة ، الأسرات التى ترعى النظام والدقة فى حياتها ، أن تخصص فى كل صباح ساعة محددة لتناول الشاى والخبز والزبد ، وأنصحها جديا ، وتخيرها هى ، أن تثابر على ثراء هذه الصحيفة ، وتعتبرها جزءا من تجهيزات الشاى » .

واتجهت صحيفة « سبكتاتور » إلى النساء والرجال سواء بسواء ، فعرضت أن تعالج موضوع الحب والجنس ، وتصور « الحب الزائف أقبح وأشد فتاما من . . . الخيانة فى الصداقة أو النذالة والخسة فى التجارة وسائر الأعمال (٧٣) . وكتب أديسون يقول : « سيكون من أعظم مفاخر هذه المهمة التى أنهض بها أن تهيىء هذه الصحيفة بعض الموضوعات التى يخوض فيها بعض السيدات العاقلات المفكرات على موائد الشاى (٧٤) » . وشجعت الرسائل وطبعت ، وكتب ستيل نفسه سلسلة من الرسائل التى تشكو الحرمان من الحب والأحباب ، كان بعضها موجها إلى خليلاته ، وبعضها دبجه المحرورون فى أسلوب حديث جداً . وجمعت الصحيفة بين الدين والحب . وزودت باللاهوت المعتدل جيلا بدأ يتساءل عن أثر تخلخل إعان الطبقات العليا على الأخلاق . وأهابت بالعلم أن يتابع طريقه ، ويدع الكنيسة وحدها حارسا حكيما محنكا على الأخلاق ، فإن حقوق الوجدان ومتطلبات النظام تدل على إدراك الفرد وعقله ، فهو دوما فى دور المراهقة . وخير للأخلاق ولسعادة الإنسان تقبل العقيدة القديمة فى خشوع ، وحضور صلواتها وخدماتها والالتزام بعطلاتها ، والمساعدة على خلق الجو المناسب ليوم العبادة الهادئة فى كل أبرشية .

« إنى لأجد السرور كل السرور فى يوم الأحد فى الريف ، وكم أتمنى لو أن تقديس اليوم السابع والتعطيل فيه كان مجرد نظام إنسانى ، إذن لأصبح أفضل وسيلة فكر فيها الإنسان لتهذيب الجنس البشرى وصقله وتمدينه ، ومن المؤكد أن أهل الريف سيخطون سريعا إلى نوع من المتوحشين والمتبربرين إذا لم يعودوا دوما إلى زمن محدد تجتمع فيه القرية كلها بوجوه باسمة فى أبهى حلة ليتدارس أهلها فيما بينهم مختلف الموضوعات ، وليوضح لهم ما ينبغى عليهم أداؤه من واجبات ، وليجتمعوا معا لعبادة الله « الكائن الأسمى » .

إن يوم الأحد يزيل صدأ الأسبوع كله ، لا لأنه يحيى الأفكار الدينية فى العقول ، بل لأنه يجمع بين الرجال والنساء . والكل يبدو فى أحسن صورة(٧٥) » .

أما الأدب الذى كان مطية الأباحية والخلاعة طوال الأربعين عاما الماضية ، فقد انحاز الآن إلى جانب الأخلاق والإيمان . وأسهمت صحيفة سيكتاتور فى انقلاب السلوك والأسلوب الذى استبق فى عهد الملكة آن ، بقرن من الزمان ، روح أواسط العصر الفكتورى ، التى قضت بألا يحترم إلا من هم حقا جديرون بالإحترام ، وغيرت مفهوم الانجليز عن السيد الماجد « جنتلمان » من الرجل ذى اللقب الذى يحسن مغازلة النساء ، إلى المواطن المهذب الكريم النشأة . وفى « سبكتاتور » وجدت فضائل الطبقة الوسطى من يدافع عنها دفاعا مهذبا معقولا . وكان التعقل وحسن التدبير وعدم التبذير أجدى على المجتمع وأثمن لديه من أناقة الثياب وسرعة الخاطر وكان التجار سفراء الحضارة إلى الشعوب المختلفة . وكانت عائدات التجارة والصناعة عصب الحياة للدولة .

وأحرزت صحيفة سبكتاتور نجاحا ومنزلة رفيعة ليس لهما مثيل فى الصحافة الانجليزية . وكان توزيعها ضئيلا ، لا يكاد يجاوز أربعة آلاف ، ولكن تأثيرها كان عظيما إلى حد بعيد . وكان يباع من مجموعاتها المجلدة

نحو تسعة آلاف نسخة سنويا(٧٦) ، وكأنما أدركت انجلترا فعلا أنها لون من الأدب . ولكن بمرور الزمن بليت جدتها وخبا بريقها ، وبدأت شخصيات « النادي » تكرر نفسها ، وفترت حيوية الكتاب المنهوكين ونشاطهم ، وأصبحت عظاتهم تبعث السأم في نفوس القراء . وهبط توزيع الصحيفة ، وزادت المصروفات على الايرادات نتيجة ضريبة الدمغة التي فرضت ١٧١٢ . وفي ١٦ ديسمبر ١٧١٢ احتجبت الصحيفة عن الظهور . وواصل ستيل الكفاح في صحيفة « جارديان » .وأحيا أديسون صحيفة سبكتاتور ١٧١٤ . ولم يطل عمر الصحيفتين كلتيهما ، لأن أديسون كان قد أصبح آنذاك كاتبا مسرحيا ناجحا ، وأعيدت إليه وظائفه ورواتبه الحكومية .

وفي ١٤ أبريل ١٧١٣ أخرج مسرح « دروري لين » مسرحية « كاتو » لأديسون كتب لصديقه بوب مقدمة زاخرة بالحكم والأفكار التي عرفت عنه ، مثقلة بالوطنية الثائرة المتفائلة معا ، وأخذ ستيل على عاتقه أن يحشد لمشاهدة المسرحية كل « الأحرار » الغيورين المتحمسين ، فلم يوفق في ذلك كل التوفيق ، ولكن « المحافظين » انضموا إلى الأحرار في استحسان وقفة « كاتو » الأخيرة دفاعا عن « الحرية الرومانيه » (٤٦ ق. م.) وتبارت صحيفة المحافظين « اجزامنر » مع صحيفة ستيل « جارديان » في نشوة الابتهاج والاستحسان . واستمر العرض لمدة شهر كامل مع تزايد عدد المترددين على المسرح لمشاهدتها ، حتى قال بوب « لم يكن كاتو محل إعجاب ودهشة رومه في زمانه قدر ماهو موضع إعجاب ودهشة بريطانيا في أيامنا هذه(٧٧) . واعتبرت كاتو في القارة أجل مسرحية « تراجيديه » في اللغة الانجليزية . وأعجب فولتير بالتزامها بالوحدات ، وعجب كيف أن انجلترا تطيق صبرا على شكسبير بعد مشاهدة رواية أديسون(٧٨) . ويهزأ النقاد اليوم بها على أنها خطابة نافهة مضجرة ولكن أحد القراء وجد أن انتباهه مشدود حتى النهاية بفضل الحبكة المحكمة البناء وقصة الحب المدمجة بشكل بارع في الصراع الأكبر .

وازدادت الآن شعبية أديسون إلى حد قال معه سويفت « أعتقد أنه لو فكر فى أن يختار للجلوس على العرش لـكان من العسير أن يأبى عليه أحد هذه الرغبة(٧٩) » . ولـكن أديسون الذى كان دوما نموذجا للاعتدال ، قنع بتعيينه وزيراً فى الحـكومة ، لشئون أيرلنده آنذاك ، ثم كبير مفوضى التجارة . وكان شخصية محبوبة جداً فى النوادى ، لأن إدمانه على الشراب منعه من أن يكون « الرجل الشاذ البشع غاية البشاعة والشذوذ الذى لا يحبه الناس أبدا » . ورغبة منه فى تتويج مجده وعظمته ، تزوج (١٧١٦) من كونتيسة ، ولم يكن سعيدا فى حياته مع السيدة المتجمرفة فى « هولندهاوس » فى لندن . وفى ١٧١٧ عين ثانية وزيراً ، ولـكن مقدرته كانت محل نزاع وشك . وسرعان ما استقال بمعاش قدره ١٥٠٠ جنيه فى العام . وعلى الرغم من تجلده وأدبه الجم انزلق فى عراك مع أصدقائه ـ ومنهم ستيل وبوب ـ الذى هجاه بأنه مترمت اعتاد « أن يلعن الناس بالاطراء الباهت الحقير » فهو:

مثل كاتو يقدم للسناتو الحزيل القوانين ، ثم يتخذ مقعده لينصت إلى ما يكال له مد مديح(٨٠) .

وكانت خاتمة حياة ستيل أقل عظمة وجلالا من أديسون . أنه انتخب للبرلمان فى ١٧١٣ ، ولـكن الغالبية التى تنتمى إلى حزب المحافظين أخرجته بتهمة أن لغته محرضة مثيرة للفتنة . وفاز حزب الأحرار فى السنة التاليـة ، فحظى ستيل بعدة مناصب إدارية تدر عليه مالا ، وتعادلت لفترة من الزمن موارده مع نفقاته ، ولـكن ديونه طغت ، وطارده دائنوه ، وآوى إلى ضيعة زوجته فى ويلز ، وهناك وافته المنية فى أول سبتمبر ١٧٢٩ ، بعـد شريكه بعشر سنين . أنهما معا : ستيل بأصالته وحيويتـه ونشاطه ، وأديسون بذوقه الفنى المصقول ارتفعا بالقصة القصيرة والمقال إلى آفاق جديدة من الجودة والاتقان ، وأسهما فى ابتعاث الأخلاق من جديد فى ذلك العصر ، وحددا طابع الأدب الانجليزى وشكله لمدة قرن من الزمان باستثناء العبقرية البالغه القوة والعنف فى هذا العصر .

جوناتان سويفت: ١٦٦٧ — ١٧٤٥

كان سويفت يكبر ستيل وأديسون بخمس سنين. ولكنه عمر بعد أحدهما ست عشرة سنة، وبعد الآخر ستا وعشرين. وكان بمثابة شعلة متأججة سرت من قرن إلى قرن، من دريدن إلى بوب. ولم يستطيع قط أن يغتفر مولده فى دبلن الذى كان طائفاً مثيراً للغضب فى انجلترا. وكم كان قاسياً عليه أن يقضى أبوه نحبه قبل ولادته، وكان الوالد قهرمان قصر الملك فى دبلن. وعهد بالطفل إلى مرضعة حملته منها إلى انجلترا، ولم تعد به إلى أمه إلا عندما بلغ الثالثة من العمر، وربما ولدت هذه للمغامرات والمخاطر فى نفس الصبي شيئاً من قلق اليتيم. ولابد أن هذا الشعور ازداد عمقا فى نفسه، بانتقاله إلى عم له. سرعان ما تخلص منه، وهو فى السادسة بإلحاقه بمدرسة داخلية فى كلكنى. وفى سن الخامسة عشرة التحق بترانتى كولدج فى دبلن، حيث ظل بها سبع سنين. وشق طريقه فى الكلية بصعوبة لأنه كان مهملا فى اللاهوت بصفة خاصة، وكثيرا ما قصر وعوقب، وذاق مرارة الفقر والحرمان عندما تعثر حظ عمه الذى تولى الانفاق عليه، وأصيب بانهيار عصبي (١٦٨٨). وعند موت عمه ١٦٨٩، وفى غمرة ثورة أيرلنده لنصرة جيمس الثانى، هرب جوناتان إلى انجلترا، وإلى أمه التى كانت تعيش فى ليستر على عشرين جنيها فى العام. وعلى الرغم من طول الفراق بينهما، انسجما معا إلى حد معقول، وتعلم كيف يحبها، وزارها من حين إلى حين، حتى وفاتها (١٧١٠).

وفى أواخر عام ١٦٨٩ وجد سويفت عملا براتب قدره عشرون جنيها فى العام مع الإقامة والطعام، سكرتيرا لسير وليم تمبل فى موربارك. وكان تمبل حينذاك فى أوج عظمته، صديقا ومستشارا للملوك، ويجدر بنا ألا نقسو فى لومه لاخفاقه فى التعرف على العبقرية فى الشاب ذى الاثنين والعشرين ربيعا الذى جاءه ببعض اللاتينية واليونانية، وببعض اللهجة الايرلندية مع جهل ماكر باستخدام الشوكة والملعقة وعلاقة الواحدة منهما بالأخرى

على المائدة(٨١) وكان سويفت يجلس مع كبار العاملين فى خدمه تمبل ، إلى مائدة سيدهم(٨٢)، الذى لحظ دوما الفرق بينه وبينهم . ولكن تمبل كان فأرسل سويفت ١٦٩٢ إلى أكسفورد ليحصل على درجه الأستاذية . وأوصى به عطوفا ، وليم الثالث خيرا ، ولكن دون جدوى .

وفى نفس الوقت كان سويفت يكتب مقطوعات شعرية من ذات البيتين، عرض بعضها على دريدن الذى قال له « ياسويفت ، يابن العم ، إنك لن تكون شاعرا أبدا » — وهى نبؤة كانت دقتها تجل عن إدراك الشاب وتقديره . وفى ١٦٩٤ ترك سويفت خدمة تمبل ، مع توصية منة . فعاد إلى ايرلنده ، ورسم قسيسا أنجليكانيا (١٦٦٥) وعين فى وظيفة كنسية صغيرة صغيرة ذات راتب فى كاروت بالقرب من بلفاست . وهناك وقع فى غرام جين دارنج التى سماها « فارنيا » ، وعرض عليها الزواج ، ولكنها أمهلته حتى تتحسن صحتها ويزداد دخله . ولما لم يطق صبرا على هده العزلة القاتلة فى أبرشية ريفية ، هرب من كلروت ١٦٦٩ وعاد أدراجه إلى تمبل وظل فى خدمته حتى مات هذا الأخير .

وكان سويفت فى عامه الأول فى موربارك ، قد التقى بأستر جونسون التى قدر لها أن تصبح « Stella » . وتناثرت بعض الشائعات بأنها نتاج شىء من طيش سيروليم تمبل ، الذى كان نادرا . والأرجح أنها ابنة تاجر من لندن . التحقت أرملته بخدمة ليدى تمبل . وعندما رآها سويفت لأول مرة كانت فى سن الثامنة ، تبعث على السرور والابتهاج مثل سائر البنات فى هذه السن ، ولكنها كانت أصغر من أن تثير فيه لواعج الغرام والهيام . أما الآن وهى فى الخامسة عشرة ، فقدا كتشف سويفت ، معلمها الذى ناهز التاسعه والعشرين ، أن مفاتنها تثير المشاعر البدائية لدى الكاهن المحروم ، لها عينان سوداوتان براقتان ، وشعر أسحم ، وصدر منتفخ ، « رشيقه رشاقة غير معهودة فى البشر . فى كل حركة وفى كل كلمة وفى

كل عمل » (هكذا وصفها سويفت فيا بعد) ، « ركبت كل تقاطيع وجهها في أحسن صورة[٨٣] » فكيف لاتفتن هلواز هذه معلمها أبيلاد(*) .

وعندما توفي تمبل ١٦٩٩ ترك لأستر ألف جنيه واسويفت مثلها . وبعد آمال خائبة في الالتحاق بوظائف الحكومة ، قبل سويفت الدعوة ليكون قسيسا وسكرتيرا لدى أرل بركلى الذي كان قد عين لفوره قاضي القضاة في أيرلنده . وعمل سكرتيرا للرحلة إلى دبلن ، ولكنه هناك فصل عن عمله . فطلب أن يعين رئيسا لكنيسة « درف » وهو منصب كان على وشك أن يشغر . ولكن السكرتير الجديد، لقاء رشوة قدرها ألف جنيه ، خص بالوظيفة مرشحا آخر . واتهم سويفت إرل بيركلى والسكرتير كليهما ، وجها لوجه ، بأنهما « وغدان حقيران » . فعملا على تهدئته بتعيينه قسيسا في « لاراكور » ، وهي قرية على بعد نحو عشرين ميلا من دبلن ، لا يزيد شعبها على خمسة عشر شخصا . والآن في ١٧٠٠ بلغ دخل سويفت ٢٣٠ جنيها ، وهو دخل حسبته جين وارنج كافيا لإتمام الزواج . ومهما يكن من أمر ، فقد مضت أربع سنوات على مفاتحته لها في أمر الزواج ، وفي نفس الوقت كان قد وقعت عينه على استر . فكتب إلى جين يقول أنها إذا تزودت بقسط من التعليم يؤهلها لتكون شريكة صالحة لحياته ، وتعد بأن ترضى عن كل ما يحب ويكره ، وتخفف من متاعبه ودراسته ، فإنه يتزوجها دون نظر إلى وسامتها وجمالها أو إلى دخلها[٨٤] .

ومذ كان سويفت وحيدا في لاراكور ، فإنه كثيرا ما تردد على دبلن . وهناك في ١٧٠١ حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت ، وبعد ذلك في نفس العام ، دعا استر جونسون وصديقتها مسز رويرت دنجلى ليحضرا ويقيما معه في لاراكور ، فقدمتا واتخذتا مسكنا بالقرب منه . وفي أثناء تغيبه في انجلترا شغلتا مسكنه الذي كان قد استأجره في دبلن وكانت أستر

(*) فيلسوف ولاهوتي فرنسي في القرن الحادي عشر ، تزوج تلميذته وعشيقته هلواز .

(ستيللا) تتوقع منه أن يتزوجها ، ولكنه تركها تنتظر طيلة خمسة عشر عاما ، واحتملت هي هذا الموقف الذي وضعها فيه على مضض ، وانتابها الاضطراب والكآبة . ولكن قوة شخصيته وحدة تفكيره ، أخمدتا جذوتها وكأنما وقعت تحت تأثير تنويمه المغناطيس حتى النهاية .

وتألقت حدة ذهنه بشكل مباغت حين نشر فى ١٧٠٤ فى مجلد واحد « معركة الكتب » و « حكاية حوض الاستحمام » . والأول اسهام موجز لا يستحق الذكر فى الجدل حول المزايا النسبية للأدب قديمة وحديثة . أما الثانى فهو عرض هام لفلسفة سويفت الدينية أو غير الدينية . وقال سويفت عندما أعاد قراءة كتابه هذا فى أخريات أيامه : « ياإلهى : أية عبقرية أملت على هذا الكتاب ؟(٨٥) . وأحبه كثيرا إلى حد أنه فى الطبعات التالية أتحفه بخمسين صحيفة أخرى من الهراء ، على شكل مقدمات واعتذارات . وكان يفاخر ويزهو بأن الكتاب ينم عن أصالة بالغة . ومع أن الكنيسة كانت منذ أمد بعيد قد أكدت أن المسيحية هى « رداء المسيح السليم الذى لاشية فيه » ولكن الإصلاح البروتستانتى مزقه اربا كان أحدا - خصوصا كارليل فى Sartor Resortus - لم يطمن فى القوة التى لم يسبق لها مثيل التى ردفيها سويفت كل الفلسفات والديانات إلى مجرد أردية تستخدم لستر جهلنا المرتجف أو اخفاء رغباتنا الجامحة المفضوحة :

«هل الإنسان نفسه إلاارداء بالغ الصغر أوعلى الأصح مجموعة كاملة من الملابس بكل زخارفها وزركشتها ؟ . أليست الديانة عباءة ، والأمانة حذاء بلى بالوحل ، وحب الذات معطفا ضيقا غاية الضيق ، والغرور قيصا ، أليس الضمير إلا سروالا (بنطلونا) يستر الخلاعة والقذارة ، ولكن من السهل نزعه لخدمه الخلاعه والقذارة كلتيهما ؟ فإذا وضعت بعض قطع الفراء الرخيص أو الثمين فى موقع معين من الرداء فإننا بذلك نصنع قاضيا وحكما ومن ثم كان وضع بعض الشاش والأطلس الأسود بعضهما إلى بعض بشكل مناسب يصنع لنا أسقفا(٨٦)» .

وجرت استعارة الرداء هنا بدقة ورقة . أن بيتر (الكاثوليكية) ، ومارتن (اللوثرية والأنجليكانية)وجاك (الكلفنية) تسلموا ، ثلاثتهم ، من أبيهم وهو يحتضر ، ثلاثة أردية جديدة متماثلة (كتبا مقدسة) إلى جانب وصية توجههم كيف يلبسونها ، وتحرم عليهم إبدالها ، أو إضافة خيط واحد إليها أو انتقاص خيط واحد منها ووقع الأبناء الثلاثة في غرام سيدات ثلاث: «دوقة المال». أي الثراء ، و « آنسة الألقاب الفخمة » أي الطمع ، «وكونتيسة الكبرياء» أي الغرور . ولكن الأخوة الثلاث ، رغبة منهم في إرضاء هؤلاء السيدات، يعمدون إلى إحداث بعض التغيير في أرديتهم الموروثة . ولما بدا لهم أن التغييرات تتعارض مع وصية أبيهم ، أعادوا تفسير الوصية بتأويلات صادرة عن علماء ومثقفين . أما بيتر فقد أراد أن يضيف حواشي وأهدابا من الفضة (البذخ البابوى) . وسرعان ما اتضح للعلماء الثقاة أن لفظة « الهدب أو الحاشية » في الوصية تعني عصا المكنسة الطويلة . وهكذا اختار بيتر الحواشي الفضية ، ولكنه حرم على نفسه عصا المكنسة الطويلة « السحر؟ »، وفرح البروتستانت (المحتجون) حين وجدوا أقسى الهجاء والنقد يوجه إلى بيتر : إلى شرائه قارة كبيرة (المطهر ـ مكان تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل) ثم بيعه (أي المطهر) في أجزاء متفاوتة (صكوك الغفران) المرة بعد الأخرى ، وإلى علاجاته الناجعة الخالية من الآلام عادة (الكفارات) للديدان (أي وخزات الضمير) ـ وعلى سبيل المثال : « الامتناع عن أكل شيء بعد العشاء لمدة ثلاث ليال . وألا تخرج على الاطلاق ريحا من الجانبين دون سبب واضح[٨٧] » ، وكذلك وجه النقد إلى بيتر لابتداع « وظيفة الهمس » (أي الاعتراف) « لخير وراحة المصابين بوسواس المرض أو الذين أرهقهم المغص » و « ووظيفة التأمين » (أي مزيد من الغفران) ، « الخلل البالي المشهور (الكاثوليكي) ويعني به « الماء المقدس » ، على أنه وقاية من الضعف والانحلال . وحيث زود بيتر بهذه الوسائل والحيل الحكيمة فإنه ينصب نفسه ممثلا للرب ، ويصف

فوق رأسه ثلاث قبعات ذات تاج عال . ويمسك فى يده بعصا يختال بها ، وإذا رغب الناس فى مصافحته ، قدم لهم « كأن كلب مدرب تدريبا جيدا » قدمه(٨٨) . ويدعو بيتر إخوته إلى الغذاء ، ولا يقدم لهم غير الخبز ، ويؤكد لهم أنه ليس خبزا بل لحما ، ويدحض اعتراضاتهم ويقول « لاقناعكما بأنكما لستما إلا شخصين أحمقين جاهلين عنيدين أعميين حقا » ، لن استخدم إلا حجة واحدة : والله إنه لحم ضأن طيب طبيعى مثل أى لحم ضأن فى « ليدنهول ماركت » ، صب الله عليكما اللعنة الأبدية إذا صدقتما غير ما أقول(٨٩) » . ويثور الأخوان ، ويستخرجان « نسخا حقيقية » من الوصية (ترجمة الكتاب المقدس باللغة الوطنية) ، ويشجبان بيتر على أنه دجال محتال . وبناء على هذا طرد بيتر أخويه من داره ، ولم يستظلا بسقفه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا(٩٠) » . وسرعان مادب النزاع بعد ذلك بين الأخوة : إلى أى حد ينبذون أو يغيرون من أثوابهم الموروثة . ويعتزم مارتن ، بعد ثورة غضبه الأولى ، أن يلتزم جادة الاعتدال . ويتذكر أن بيتر أخوه . أما بيتر ، فإنه على أية حال يمزق ثوبه أربا (شيع كلفنية) . ويصاب بمسات من الجنون والغيرة . ويستطرد سويفت ليصف عمليات الريح (ويقصد بها الوحى والالهام) عند العواسيين ـ نسبة إلى عولس إله الرياح « ويعنى بهم » الوعاظ الكلفنيين . ويسخر كثيرا — سخرية لا يجوز نقلها هنا ـ من ألفاظهم الأنفية الحادة ومن نظرياتهم فى القضاء والقدر ، وتقديسهم الأعمى للنصوص المقدسة(٩١) .

وإلى هنا ، لم يصب مذهب الكاتب ـ المذهب الأنجليكانى إلا اليسير من الجراح . ولكن سويفت يسترسل فى القصة ، ويغير الأثواب إلى رياح ، ومن الواضح أنه ينتهى إلى أن كل الديانات والفلسفات ـ لا لاهوتيات المنشقين فحسب ـ ليست إلا أضاليل وأوهاما كاذبة سريعة الزوال .

« إذا استعرضنا الانجازات العظيمة التى تمت فى العالم . . . مثل تكوين الامبراطوريات الجديدة عن طريق الغزو والفتح ، وابتداع ونشر مذاهب

جديدة فى الفلسفة ، واستنباط أديان جديدة ونشرها ، فلسوف نجد أن الذين قاموا بهذا كله ، ليسوا إلا أشخاصا هيأت لهم عقولهم الطبيعية أن يقوموا بانقلابات كبيرة ، بفضل غذائهم وتعليمهم ، ومزاج معين سائد ، بالإضافة إلى تأثير خاص للهواء والمناخ .. لأن عقل الإنسان المستقر فى مخه لابد أن ترهقه وتغمره أبخرة ورياح صاعدة من القوى والوظائف الجسدية الدنيا لتسق المخترعات وتجعلها مثمرة(٩٢) .

ويسترسل سويفت فى تفصيل فسيولوجى لا يمكن ذكره ، لما بدا له أنه مثال رائع لا فرازات داخلية تولد أفكاراً قوية ، من ذلك « المشروع الكبير » لهنرى الرابع : ذلك أن ملك فرنسا لم يوح إليه بشن الحرب ضد آل هبسبرج ويستحثه عليها ألا تفكيره فى الإستحواذ فى طريقه على امرأة (هى شارلوت مونمورنس) التى حرك جمالها فى الملك عصارات مختلفه « صعدت إلى مخه(٩٣) » وهذا هو بالمثل ما حدث بكبار الفلاسفه الذين حكم عليهم معاصروهم بحق بأنهم « فقدوا عقولهم » :

« ومن هذا الطراز كان أبيقور ،ديوجين ، ، أبوللونيوس ،لوكريتس ، باراسلسوس ، ديكارت ، وغيرهم ، ممن لو كانوا على قيد الحياة الآن ، .. لتعرضوا فى هذا العصر المتميز بالفهم ، لخطر واضح ، خطر فصد الدم ، والسياط ، والأغلال ، والحجرات المظلمه والقش (فى السجون) أما الآن فقد يسرنى أن أعرف كيف أنه من الميسور أن نعلل لهـــذه التصورات والأفكار ، .. دون إشارة إلى الأبخرة التى تتصاعد من القوى والوظائف الجسديه الدنيا ، حيث تلقى ظلالا معتمه على المخ ، فتقطر أو تتساقط مفاهيم لم تضع لها لغتنا الضيقه بعد أسماء غير الجنون أو الخبل(٩٤) .

ولمثل « هذا الخلل أو التحول فى المخ بفعل الأبخرة المتصاعدة والقوى والوظائف الجسديه الدنيا » يعزو سويفت كل الانقلابات أو الثورات التى حدثت فى الإمبراطوريه والفلسفه والدين(٩٥) ويخلص إلى أن كل مذاهب الفكر عبارة عن رياح من الألفاظ ، وأن الرجل العاقل لاينبغى له أن ينفذ

إلى الحقيقة الباطنة للأشياء ، بل يقنع نفسه بالسطح أى بظواهر الأشياء ، وبناء على هذا يستخدم أحد التشبيهات اللطيفة التى ينعطف إليها دائماً :
« رأيت فى الأسبوع الماضى امرأة سلخ جلدها ، ولن تصدق أنت بسهولة إلى أى حد تغير شكلها إلى أسوأ مما كانت(٩٦) » .

إن هذا الكتاب الصغير المخزى الذى وقع فى ١٣٠ صحيفة ، جعل من سويفت فى الحال « سيد الهجاء » — أو كما سماه فولتير : رابليه آخر فى صورة متقنة . إن القصص الرمزى أو المجازات إتسقت إتساقاً حرفياً مع معتقده الأنجليكانى التقليدى . ولكن كثيراً من القراء أحسوا بأن الكاتب متشكك ، إن لم يكن ملحداً . أما رئيس الأساقفة شارب فإنه أبلغ الملكة آن أن سويفت لم يفضل الكافر بشىء كثير(٩٧) . وكان من رأى دوقة مالبورو الصديقة الحميمة للملكة ، أن سويفت :

« حول ، منذ زمن طويل ، كل الديانة إلى « قصة حوض الاستحمام » على أنها وباءها دعابة . ولكنه كان قد إستاء من أن « الأحرار » لم يكافئوه بالترقية فى الكنيسة على ما أظهر من غيرة شديدة على الدين بهزله الدنس ، ولذلك سخر الحاده ومزاحه ومرحه فى خدمة أعدائهم(٩٨) » .

كذلك نعته ستيل بأنه كافر ، ووصفه نوتنجهام فى مجلس العموم بأنه عالم لاهوتى « من العسير أن يشك فى أنه مسيحى(٩٩) . وكان سويفت قد قرأ هوبز ، وهى تجربة ليس من اليسير نسيانها . ذلك أن هوبز كان قد بدأ بالخوف ، وانتقل إلى المذهب المادى ، وانتهى بأن يكون « محافظا» يناصر الكنيسة الرسمية .

وكان لرجال الدين قليـــل من العزاء فى أن سويفت أخرج مؤلفاً فى الفلسفة :

« إن مختلف الآراء الفلسفية انتشرت فى أنحاء العالم ، وكأنها أمراض طاعون أصابت العقـل ، كما نشر صندوق بندورا (*) الأوبئة التى تصيب

(*) Pandora — فى الأساطير اليونيانية ـ أول امرأة فانية مهلكة أرسلها الاله =

الجسم ، مع فارق واحد ، هو أن الطاعون لم يترك شيئاً من الأمل فى القاع إن الحقيقة خافية على الناس ، قدر خفاء منابع النيل ، ولا يمكن وجودها إلا فى « يوتوبيا » (المدينة المثالية) (١٠٠) .

ومن الجائز أن سويفت ، لأنه أحس بأن الحقيقة لم تقصد للبشر ، نبذ فى إصرار شديد كل الفرق الدينيـة التى ادعت أن مذهبها « هو المذهب الصحيح » . وازدرى الرجال الذين زعموا — مثــل بانيان وبعض الكويكرز — أنهم رأوا الله أو كلموه . وانتهى ، مع هوبز ، إلى أنه ضرب من الانتحار الاجتماعى أن تترك لكل انسان الحرية فى أن يصنع عقيدته أو مذهبه بنفسه ، حيث لن تكون نتيجة ذلك إلا عاصفة هوجاء من السخافات يصبح معها « بيمارستانا » أو مستشفى الأمراض العقلية . ومن ثم عارض سويفت حرية الفكر ، على أساس أن « جمهور البشر مؤهــل للطيران قدر ما هو مؤهل للتفكير (١٠١) » . واستنكر التسامح الدينى ، وظل لآخر حياته يؤيد « قانون الاختبار » الذى قضى باقصاء غير أتباع الكنيسة الرسمية عن كل الوظائف السياسية والعسكرية (١٠٢) . واتفق مع الحكام الكاثوليك واللوثريين على أنه يجب أن يكون للأمة عقيدة دينية واحدة . وحيث أنه ولد فى انجلترا ، ومذهبها الرسمى هو الأنجليكانى ، فإنه رأى أن الاتفاق العام الكامل على اعتناق هذا المذهب أمر لا غنى له عنه لعملية تمدين الانجليز ونشر سويفت فى ١٧٠٨ بعض القطع : «أحاسيس رجل يتبع كنيسة انجلترا » ، « والدليل على أن الغاء المسيحية فى انجلترا قد يستتبع بعض المتاعب والمشاكل والمزعجات « وكان آنذاك فى طريقه من الأحرار إلى المحافظين » .

وكان أول ارتباط سياسى له — بعد ترك تمبل — مع الأحرار ، حيث

ـــــــــــــــ

=زيوس ، عقابا للبشر على سرقة بروميثيوس للنار . أعطاها زيوس صندوقا فتحته فانطلقت منـه إلى الدنيا كل العلل والأمراض التى تصيب الجسم ، (وفى رواية حديثة أطلقت منه كل نعم الحياة فتبددت وضاعت هباء منثوراً ، ولم يبق إلا مجرد الامل .

بدا له أنهم حزب أكثر تقدمية ، ومن الأرجح أن يجدوا عملا لرجل أكبر عقلا وأقل ثراءا . وفى ١٧٠١ نشر كتيبا يناصر فيه حزب الأحرار وكله أمل فى الظفر بشىء . ورحب هاليفا كس وسندر لند وغيرهما من زعماء الأحرار ، بانضمامه إلى حزبهم ، ووعدوه خيرا إذا تولوا الحكم . ولكنهم لم ينجزوا ما وعدوا ، ويحتمل أنهم خشوا من أن سويفت رجل لا يسهل قياده ، وأن قلمه سلاح ذو حدين ، وفى رحلة موسمة من ايرلنده إلى لندن فى ١٧٠٥ كسب سويفت صداقة كونجريف وأديسون وستيل . وأهداه أديسون نسخة من « رحلات إلى إيطاليا » وكتب فى عبارة الاهداء « إلى جوناثان سويفت ، أحسن رفيق وخير صديق ، أعظم عبقرية فى زمانه يقدم خادمه الذليل ، المؤلف ، هـــذا الكتاب (١٠٣) » ، ولكن هذه الصداقة ، مثل صداقة جوناثان مع ستيل وبوب ، لم تدم ، وأتت عليها نيران سويفت المتقدة أو ثورته المتصاعدة .

وفى زيارة أخرى لمدينة لنــدن ، تسلى سويفت بتدمير منجم دعى . ذلك أن جون بارتريدج ، الاسكافى ، أخرج كل عام تقويما زاخرا بالنبوءات المؤسسة على حركات النجوم . وفى ١٧٠٨ نشر سويفت تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » تقويما منافسا . وكان من بين تنبوءات ايزاك ، أنه فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٩ مارس سيقضى بارتريدج نحبه . وفى ٣٠ مارس نشر بيكرستاف فى نشوة الانتصار رســالة أعلن فيها أن بارتريدج مات فى ظرف بضع ساعات من الموعد المحدد فى النبوءة ، وذكر فى تفصيل مقنع ترتيبات الجنازة . وأكد بارتريدج لمدينة لندن بأسرها أنه لا يزال حيا يرزق . ولكن ايزاك رد بأن هذا محض افتراء . وأدرك ظرفاء المدينة الخدعة . ورفع مكتب التسجيلات اسم بارتريدج من سجلاته أما ستيل فإنه اختار ايزاك بيكرستاف اسما لمحرر وهمى فى صحيفة « تاتلر » عند افتتاحها فى السنة التالية .

وفى ١٧١٠ غادر سويفت لاراكور مرة أخرى ، موفدا عن الأساقفة

الأيرلنديين ليطلب إلى الملكة آن أن تمديد معونتها إلى رجال الدين الأنجليكانيين فى أيرلنده : ورفض جودلفين وسومرز ، وهما عضوان من حزب الأحرار فى مجلس الملكة ، الموافقة على هـذا إلا إذا وافق رجال الدين هؤلاء ، على التخفيف من حدة « قانون الاختبار » والارخاء من قبضته . وعارض سويفت بشدة التخفيف المطلوب . وا كتشف الأحرار أنه كان « محافظا » بالنسبة للعقيدة الدينية . واعترف سويفت عمليا بأنه « محافظ » بالنسبة للسياسة أيضا ، حين كتب : « انى كنت أمقت دوما هذا النهج السياسى . . ألاوهو وضع مصالح ذوى المال فى مواجهة مصالح مالكى الأرض(١٠٤) » . ولجأ الى زعيمى المحافظين ، هارلى وبولنجبروك ولقى ترحيبا حارا ، وأصبح بين عشية وضحاها « محافظا » راسخا . وعين محررا لصحيفة المحافظين « إجزامنر » • وأبرز أسلوبه بوضوح عنـدما وصف نائب حا كم ايرلنده — وهو من حزب الأحرار ، وكان أديسون صديق سويفت ، سكرتيرا له :

« ان توماس إرل وارتون ••• يحكم دستور غريب ، فقى بضعـــة أعوام من سنى اليأس التى تقدم بها عمره ، دون آثار بارزة للشيخوخة فى جسمه أو فى عقله . وعلى الرغم من مقارفته المستمرة لكل الموبقات التى تمتصر الجسم والعقل كليهما ••• فإنه يذهب دوما إلى الصلاة . ويتحدث حديث الفسق والفجور والتجديف على باب الكنيسة ، فهو مشيخى فى السياسة ملحد فى العقيدة . ولكنه يؤثر الآن أن يفجر مع البابوية (١٠٥) »

وسر الوزراء « المحافظون بهذا الهجاء اللاذع الذى يشبه القتل ، فعهدوا إلى سويفت بكتابة فذلكة « سلوك الحلفاء » (نوفمبر ١٧١١) ، كجزء من حملتهم لاسقاط مالبورو وانهاء حرب الوراثة الأسبانية ، واحتج سويفت بأن الضرائب الاستثنائية التى فرضت لتمويل الحروب الطويلة ضـد لويس الرابع عشر يمكن خفضها بقصر اسهام انجلترا فى الحروب عـلى البحر ، وأوضح بأجلى بيان شكوى مالكى الأرض من أن عبء نفقات الحرب

وقع على عاتقهم أكثر مما على عاتق للتجار وأصحاب المصانع الذين كانوا يستفيدون من الحرب . أما بالنسبة لدوق مالبورو فقد قال سويفت «هل كان من حسن الرأى شن الحرب ، أو لم يكن ؟ ... واضح أن الدافع إلى الحرب ، هو الرفع من شأن أسرة بعينها ، وبعبـــارة موجزة أنها حرب لحساب القائد ووزارة الأحرار ، وليست حربا لحساب الملك والشعب (١٠٦) وقدر الـكاتب رواتب مالبورو وتعويضاته بنحو ٥٤٠ ألف جنيه « وهذا الرقم دقيق (١٠٧) » . وبعد شهر واحد سقط مالبورو وصورت الدوقة زوجته الجريئة الصريحة وهى الوحيـدة فى انجلترا التى كان لسانها حادا لاذعا ، مثل لسان سويفت — صورت فى مذكراتها المسألة من وجهة نظر الأحرار ، فقالت :

«أن السيدين المحترمين مستر سويفت ومستر ريور أمرها فعرضا نفسيهما للبيع ... وكلاهما من للوهوبين القادرين ، وهما مستعدان لتسخير كل مالديهما لخدمـــة أية فرية مخزية طالما كانت المكافأة مجزية . لأن كليهما لايبالى بحمرة الخجل ولا بالسقوط أو الانزلاق من أجل مصلحة سادتهم الجدد (١٠٨)

وكافأ المحافظون تابعيهما الجديدين . فعينوا ماتيو بريور فى منصب دبلوماسى فى فرنسا حيث أبلى بلاء حسنا . ولم يحصل سويفت على أى منصب ولـكنه كان صديقا حميا وثيق الصلة بوزراء المحافظين ، فاستطاع بذلك أن يحصل لـكثير من أصدقائه على وظائف تدر مالا وفيرا ولا تقتضى عملا كثيرا . وكان مثال الـكرم والعطف على من لم يعارضوه أو يهاجـوه . وزعم فيما بعد أنه أهدى لخمسين شخصا أكثر خمسين مرة مما أهداه إليه سير وليم تمبل (١٠٩) . واقنع بولنجبروك بمساعدة الشاعر جاى Gay وألح على وجوب استمرار الوزارة فى دفع الراتب الذى كان الأحرار يدفعـــونه لـكونجريف . ولما طلب بوب جمع بعض التبرعات لمعاونته على ترجمة هوميروس ، أمر سويفت كل أصـدقائه وكل طلاب الوظائف بالتبرع ،

وأقسم « أن المؤلف لن يشرع فى الطبع قبل أن يجمع له ألف جنيه (١١٠)» وغطت شخصيته على مكانة أديسون فى الأندية ، وكان فى كل ليلة تقريبا يتناول العشاء مع العظماء . ولم يكن يطيق من أحدهم أية سمة من سمات التعالى عليه . وكتب يوما إلى ستيللا « إننى مزهو متكبر إلى حد أنى أجعل اللوردات يأتون إلى ... كان مفروضا أن أتناول العشاء فى قصر أشبيرنهام ، ولكن هذه السيدة المنحطة القذرة لم تعرج علينا لتصحبنا فى عربتها ، ولكنها أرسلت فى طلبنا فحسب ، ولذلك أرسلت إليها اعتذارا (١١١) » .

وفى السنوات الثلاث (١٧١٠ — ١٧١٣) فى انجلترا كتب سويفت الرسائل العجيبة التى نشرت فيما بين ١٧٦٦ ـ ١٧٦٨ تحت عنوان « يوميات إلى ستيللا » . إنه كان فى حاجة إلى صديقة حميمة إلى جانبه فى العشاء لدى الأدواق والدوقات ، وفى انتصاراته السياسيه . أضف إلى ذلك أنه أحب للمرأة الصابرة ، التى ناهزت الثلاثين آنذاك ، ولكنها ظلت تنتظره حتى يحزم أمره . ولا بد أنه أغرم بها ، لأنه كتب لها أحياناً مرتين فى اليوم الواحد ، وأظهر اهتمامه وتعلقه بكل ما يعنيها ، اللهم إلا الزواج . وما كان ينبغى لنا أن نتوقع من مثل هذا الرجل المستبد المتغطرس ، هذا المزاح الرقيق ، وهذه الألقاب والكنيات الغريبة ، والنكات والتوريات ، والحديث الصبيانى ، مما صبه سويفت فى رسائله التى لم يتوقع نشرها . أنها رسائل زاخرة بالملاطفة والتدليل ، ولكنها خلو من أى عرض أو اقتراح ، اللهم إلا إذا كانت ستيللا قد قرأت وعدا بالزواج فى رسالته المؤرخة ٢٣ مايو ١٧١١ : « لن أطيل الحديث ، ولكنى أتوسل إليك أن تهدئى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وأن تثقى بأن سعادتك هى غاية ما أصبو وأسعى إليه فى كل ما أعمل(١١٢) » ومع ذلك فإنه فى هذه الرسالة يطلق عليها « الطفلة المزعجة ، الساذجة الفتاة المغناج ، البغى » للمرأة القذرة ، الكلبة المحبوبة» ، وغير ذلك من ألقاب التدليل والملاطفة . وانا لنلمس روح الرجل

حين يقول لها :

« كنت هذا المساء مع الوزير فى مكتبه . وحلت بينه وبين العفو عن رجل اتهم باغتصاب امرأة . وكان الوزير راغبا فى انقاذه ، على أساس فكرة قديمة تقول بأن المرأة لا يمكن أن تغتصب . ولكنى أبلغت الوزير أنه لا يمكن العفو عن الرجل إلا بناء على تقرير مناسب من القاضى . هذا بالإضافة إلى أنه عازف كان عابث ، ومن ثم فهو وغد ، ويستحق الشنق لتصرفات أخرى . ومن ثم لا بد أن يموت شنقا . ماذا ؟ إنى لا بد أن أدافع عن شرف الجنس اللطيف ، حقاً أن الرجل قد ضاجعها مائة مرة من قبل ، ولكن ماذا يعنينى فى هذا ؟ . هل يجب أن تغتصب المرأة لأنها بغى (١١٣) » ؟ .

وقد تعيننا علل سويفت الجسيمة على فهم السر فى رداءة طبعه وسرعة غضبه ، أنه منذ ١٦٩٤ ، وهو فى السابعة والعشرين من العمر ، بدأ يعانى من دوار فى الأذن الداخلية ومن حين لآخر ، وبشكل لا يمكن التنبؤ به ، أصابته نوبات من الدوار وتشويش الذهن والصمم . ونصح طبيب مشهور هو دكتور رادكليف بأن يوضع سائل مركب داخل كيس فى لمة (الشعر الذى يجاور شحمة الأذن) سويفت ، واشتدت به العلة على مر السنين ، وكان من الجائز أن تسبب له الجنون . ويحتمل أنه فى ١٧١٧ قال للشاعر ادوار ينج ، مشيراً إلى شجرة ذابلة « إنى سأموت مثل هذه الشجرة سأموت فى القمة (١١٤) . » وكان هذا وحده كافيا ليتشكك فى قيمة الحياة ، وليرتاب قطعا فى وجه الحكمة فى الزواج . ومن الجائز أنه كان عنينا ، ولكنا لا نستطيع الجزم بهذا . واعتاد على كثرة المشى اتقاء لهزال جسمه ، فمشى مرة من فارنام إلى لندن : ٣٨ ميلا .

وزاد من شدة مرضه حدة حواسه حدة مؤلمة ، وهى عادة تلازم حدة الذهن وفرط الذكاء . وكان بشكل خاص شديد الحساسية للروائح فى شوارع المدن وفى الناس . فاستطاع أن ينبىء ، بمجرد الشم ، عن صحة من يقابل من

الرجال والنساء ، وخلص من هذا إلى أن الجنس البشرى أصابه النتن(١١٥) .
ولذلك كان مفهوم المرأة الجديرة بالحب والإعجاب عنـــده ينحصر إلى حد ما فى :

« أنها لا يخرج من جسمها النقى هبات كريهة الرائحة تثير الاشمئزاز ، لا من خلف ولا من قدام ، ولا من فوق ، ولا من تحت ، ولا يتصبب منها العرق البغيض(١١٦) » .

أنه يصف « غادة جميلة فى طريقها إلى الفراش » ، ونفس المرأة حين تفيق .

« إن من يرى كورينا فى الصباح يتقيأ ، ومن يشم رائحتها يصاب بالتسمم » .

إن مفهومه عن المرأة الشابة الجميلة مرتبط بحاسة الشم :

« إن أعز رفيقاتها لم يرينها يوما تجلس القرفصاء لتتبول ، والك أن تقسم بأن هذه المخلوقة الملائكية لم تحس يوما بضرورات الطبيعة ، فإذا مشت فى شوارع المدينة فى الصيف لم يلوث ابطاها ثوبها . وفى حلبة الرقص فى القرية أيام القيظ لن يستطيع أنف أن يشم رائحة أصابع قدميها(١١٧) » .

وكان سويفت نفسه نظيفا إلى حد التزمت . ومع ذلك فإن كتابات هذا الكاهن الأنجليكانى تعد من أفحش ما كتب فى الأدب الانجليزى . أن تبرمه بالحياة جعله يقذف بأخطائه فى وجه زمانه . ولم يبذل أى جهد فى إرضاء الناس ، ولـكنه بذل كل الجهد فى أن يسيطر ويتحكم ، لأن السيطرة خففت من شعوره الخفى بعدم الثقة فى نفسه . وقال أنه يكره (أو يرهب) كل من لا يستطيع أن يأمره(١١٨) ، على أن هذا لم يصدق على حبه لهارلى . وكان غضوبا عند الشدة ، متغطرساً فظا وقت الرخاء والنجاح . وأحب السلطة أكثر مما أحب المال . وعندما أرسل إليه هارلى بخمسين جنيهاً أجراً لمقالاته ، رد الحوالة وطالب بالاعتذار ، وكان له ما أراد ، فـكتب إلى ستيللا « لقد استرضيت مستر هارلى ثانية(١١٩) » .
وكان يكره الرسميات ويحتقر النفاق . وبدا له أن الدنيا تميل إلى قهره ،

وقابل هو العداء بمثله صراحة ، وكتب إلى الشاعر بوب :

« إن غاية ما أصبو إليه في كل أعمالي أن أزعج العالم وأضايقه ، لا أن أسليه ، فإذا استطعت أن أحقق هذا الغرض دون أن ألحق الأذى بشخصي أو بثروتي ، لكنت أعظم كاتب لا يكل ولا يمل رأيته أنت في حياتك .. إذا فكرت في الدنيا فأرجوك أن تجلدها بالسوط بناء على طلبي . لقد كنت أبداً أكره الأمم والوظائف والمجتمعات . وكان كل حبي للأفراد ، إني أكره طائفة رجال القانون ، ولكني أحب مستشاراً بعينه أو قاضيا بعينه ، وهكذا الحال مع الأطباء . (ولن أتحدث عن صناعتي) ، والجنود ، والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين وغيرهم ، ولكني أساساً أكره وأمقت هذا الحيوان الذي يسمى إنساناً ، ولو أني من كل قلبي أحب جون وبيتر وتوماس وهكذا (١٢٠) » .

عند هذا الحد يبدو أن سويفت أقل الرجال جدارة بالحب ، ولو أن امرأتين أحبتاه إلى أن فارقتا الحياة . وأقام في هذه السنوات في لندن قريبا من أرملة غنية تدعى فانهو مراى ، وكان لها ابنان وابنتان ، فإذا لم تتيسر له الدعوة إلى موائد العظماء ، كان يتناول العشاء مع « آل فان » . ووقعت الابنة الكبرى « هستر » في حبه وكانت آنذاك في الرابعة والعشرين (١٧١١) ، وهو في الثالثة والأربعين ، وأفصحت له عن حبها . فحاول أن يصرف النظر عن هذا باعتباره مرحا أو مزاحا عابرا ، وأوضح لها أنه قد كبرت سنه بحيث لم يعد يصلح لها . فأجابت ، بحدوها كل الأمل ، بأنها تعلمت منه في كتبه أن تحب عظماء الرجال قرأت (مونتاني في المرحاض) ، فلماذا لا تحب رجلا عظيما إذا وجدته ماثلا أمامها ؟ فرق قلبه ولانت قناته بعض الشيء فنظم قصيدة من أجل عينيها فقط « كادينوس وفانيسا » قصيدة تجمع بين المرح والمأساة . وكان « فانيسا » اسمه هو عندها ، أما « كادينوس » فكان تصحيفا للفظة « ديكانوس » أي الكاهن الكبير .

ذلك أنه فى أبريل ١٧١٣ عينته الملكة كارهة رئيسا لكاتدرائية سان باتريك فى دبلن . وسافر إلى هناك فى يونيه ليتسلم العمل ، ورأى ستيللا وكتب إلى فانيسا بأنه كاد يموت كآبة وكمداً وإستياءا(١٢١) وفى أكتوبر ١٧١٣ عاد إلى لندن وشارك فى كارثة حزب المحافظين المفاجئة ١٧١٤ . ومذ فقد السلطان السياسى بعودة الأحرار الذين كان قدهاجمهم ، إلى الحكم فى ظل الملك جورج الأول ، فإنه قفل راجعا إلى ايرلنده الكريهة ، وإلى كاتدارئيته . ولم يكن محبوبا فى دبلن لأن الأحرار الذين تولوا الآن الحكم كرهوه لنقده الساخر العنيف وخطبه اللاذعة ، كما كرهه المنشقون لإصراره على استبعادهم من الوظائف العامة . وانطلقت من الناس أصوات الاستهجان والإزدراء به فى الشوارع ، ورجموه بقاذورات البالوعات(١٢٢) ووصف أحد رجال الدين الأنجليكانيين منظر ردائه فى قصيدة ثبتها بالمسامير على باب الكاتدرائية :

«يستقبل هذا المعبد اليوم رئيساً ذا مذاهب وشهرة غير عادية استخدمها جميعاً فى الصلاة وفى الدنس ، خدمة للرب والشيطان كليهما .. وهو مكان حصل عليه بالدهاء والقصيد وبوسائل أخرى من أعجب الوسائل . وربما أصبح بمرور الزمن أسقفا ، لو أنه آمن بالله(١٢٣) » :

وصمد سويفت للمحنة فى شجاعة واستمر يناصر المحافظين ، وعرض أن يشارك هارلى سجنه فى برج لندن . وقام بواجباته الدينية ، وألقى المواعظ بانتظام . ومنح الأسرار المقدسة ، وعاش عيشة بسيطة ، وتصدق بثلث دخله . وفى أيام الأحد فتح أبواب مسكنه للقاصدين ، وجاءت ستيللا لخدمة الضيوف ، وسرعان ماخفت كراهية الناس له ، وبدأوا يقبلون عليه . وفى ١٧٢٤ نشر تحت اسم مستعار « م . ب . درابيية » ست رسائل يندد فيها بمحاولة وليم وود جمع أرباح طائلة من إمداد أيرلنده بعملة نحاسية . واستنكر الأيرلنديون هذه المحاولة . وعندما إكتشفوا أن درابيية لم يكن إلا سويفت ، كاد الكاهن المكتئب أن يصبح شعبيا محبوبا تماما .

وربما استطاع سويفت أن يحظى بلحظات من السعادة لو أنه كان فى مقدوره أن يحتفظ بالبحر الأيرلندى بين السيدتين اللتين أحبتاه. ولكن فى ١٧١٤ ماتت مسز فانهو مراى، وإنتقلت ابنتها فانيسا إلى أيرلنده لتستغل بعض الممتلكات التى تركها لها والدها فى سلبردج، على بعد أحد عشر ميلا إلى الغرب من العاصمة. ولتكون بالقرب من رئيس الكاتدرائية، استأجرت مسكنا فى زقاق تيرنستيل فى دبلن، على مسافة قصيرة من مسكن ستيللا، وكتبت إلى سويفت ترجوه أن يزورها، وإلا ماتت كمداً. ولم يستطع أن يقاوم توسلاتها، وفيما بين ١٧١٤ — ١٧٢٣ تردد عليها خفية مراراً وتكراراً. ولما خفت زياراته لها أصبحت رسائلها إليه أشد حرارة والتهاباً. وقالت له فى إحداها أنها ولدت بهذه «العواطف الجارفة» التى تنتهى كلها إلى شيء واحد: هو حبى لك الذى لا يمكن وصفه أو التعبير عنه». وأبلغته أنه قد يكون من العبث أن يحاول تحويل حبها إلى حب الله، «فلو أنى غيورة متحمسة فستظل أنت المعبود الذى يجب أن أعبده»(١٢٤).

وربما فكر سويفت فى الزواج للخروج من هذا المأزق الذى تورط فيه بين المرأتين اللتين أحبتاه، وربما طالبت ستيللا، وهى تعلم أن لها منافسة، بالزواج على أنه عدالة مطلقة وأبلغ دليل على ذلك أنه تزوجها فعلا فى ١٧١٦(١٢٥) وواضح أنه طلب إليها كتمان أمر زواجه. واستمرت تقيم بعيدا عنه. ويحتمل أنه لم يباشرها قط. واستأنف سويفت زياراته لفانيسا، لا مغازلا، ولا وحشاً بهيميا، بل المفهوم أن قلبه لم يطاوعه على أن يتركها يائسة بلا أمل، أو أنه خشى أن تقدم على الإنتحار. وأكدت رسائله لفانيسا أنه أحبها وقدرها فوق كل شيء، وأنه سيكن لها هذا الحب والتقدير حتى آخر لحظة من حياته. وسارت الأمور على هذا المنوال حتى ١٧٢٣، حين كتبت فانيسا إلى ستيللا تسألها فى صراحة تامة عن العلاقة بينها وبين رئيس الكاتدرائية. فأخذت ستيللا الخطاب إلى سويفت الذى ركب لفوره

إلى ڤانيسا ورمى بالخطاب على مائدتها . وروعها بنظراته الغاضبه . وتركها إلى غير رجعة دون أن ينبس ببنت شفة .

وعندما أفاقت ڤانيسا من غشيتها، تحققت آخر الأمر من أنه كان يخدعها. واجتمعت خيبه الرجاء عندها إلى نزعه جامحه فى إفناء ما بقى لها من أسباب الصحه والحياة ، وقضت نحبها فى بحر شهرين من هـــذا اللقاء الأخير (٢ يونيه ١٧٢٣) وهى فى الرابعه والثلاثين . وثأرت لنفسها فى وصيتها . فألغت وثيقه قديمه كانت قد جعلت فيها سويفت وريثاً لها ، ثم أوصت بكل متاعها لروبروت مارشال والفيلسوف جورج بيركلى ، وأمرتهما أن ينشرا دون تعليق رسائل سويفت إليها ، وقصيدة «كادينوس وڤانيسا» . وهرب سويفت فى « رحلة إلى الجنوب » فى أيرلنده ، ولم يظهر فى الكاتدرائيه إلا بعد مضى أربعه شهور على وفاة ڤانيسا .

وعند عودته إنصرف إلى كتابه أشهر وأقسى هجاء وجه إلى الجنس البشرى . وكتب إلى شارلى فورد أنه مشغول بوضع كتاب « يمزق العالم ويهزه هزاعنيفا بشكل عجيب(١٢٦) » . وانتهى سويفت منه بعد سنه ، وحمل المخطوط بنفسه إلى لندن ،ورتب أمر نشره تحت اسم مستعار ،ورضى بمائتى جنيه ثمناً له ، ثم قصد إلى دار الشاعر بوب فى توبكنهام ليستمتع بالعاصفه المرتقبه . وهكذا استقبلت إنجلترا فى أكتوبر ١٧٢٦ «رحلات إلى عدة شعوب بعيدة فى العالم » بقلم لمويل جلليفر . وكان أول رد فعل عام هو الابتهاج بالواقعيه المفصلة فى سرد الأحداث . وإعتبره كثير من القراء تاريخاً ، ولو أن أسقفاً أيرلنديا (كما يقول سويفت) ذهب إلى أنه مملوء بأشياء بعيدة الاحتمال : أما معظم القراء فإنهم لم يذهبوا إلى أبعد من الرحلات إلى أرض الأقزام Lilliput وأرض العمالقه Brobdinqnaq، وهذا سرد جميل يوضح بطريقه مفيدة النسبيه فى الحكم على الأشياء أو التمييز بينها ، ولم يزد طول الأقزام عن ست بوصات ، ولذلك نفخوا فى جلليفر روحا متزايدة من التسامى . وكان الذى يميز بين الأحزاب السياسيه لديهم هو

الكعوب العالية أو المنخفضة لأحذيتهم . أما الفرق الدينية فهى فريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الكبير ، وفريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الصغير . وكان طول العمالقة ستين قدما ، وقد هيأوا لجليفر مشهدا آخر جديدا من مشاهد البشرية . وحسبه ملكهم حشرة ، واعتبر أوربا بيتا للنمل . ومن وصف جليفر لأساليب الحياة ، خلص الملك إلى أن « كل مواطنيكم أخبث جنس من الحشرات الطفيلية الصغيرة البغيضة التى تركتها الطبيعة تزحف على سطح الأرض[١٢٧] » . وكانت صدور غادات العمالقة ، وهى صدور ضخمة ، تنفر جليفر (ويشير الكاتب هنا إلى النسبية فى الجمال) .

وتضعف القصة فى رحلة جليفر الثالثة . إنه يشد بالسلاسل والأغلال فى دلو إلى « لابوتا » وهى جزيرة سابحة فى الهواء يقطنها ويحكمها رجال العلم والمثقفون والمخترعون والأساتذة والفلاسفة « فإن التفاصيل التى جاءت فى أماكن أخرى لتزود القصة باحتمالات كثيرة ، كانت هنا (فى المرحله الثالثه) سخيفة بعض الشىء ، من ذلك أكياس الهواء الصغيرة التى يسد بها الخدم آذان وأفواه المفكرين العميقى التفكير ليفيقوا من شرود الذهن الخطير أثناء تأملاتهم . وأكاديمية لاجادو ، بمخترعاتها وقراراتها الوهمية ، ليست إلا نقدا هزيلا لقصة بيكون « قارة الأطلنطس الجديدة » ، وللجمعية الملكية فى لندن . ولم يكن سويفت يثق فى جدوى اصلاح الدول أو حكمها بواسطة رجال العلم ، وكان يسخر من نظرياتهم ، وفنائها السريع لها . وتنبأ بسقوط كوزمولوجيا نيوتن (آرائه فى الكون) « إن الأنظمة الجديدة فى الطبيعة ليست إلا أزياء أو أنماطا جديدة قد تختلف من عصر إلى عصر ، وحتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يوضحونها على أسس رياضية (تعريضا بكتاب المبادىء الرياضية ١٦٨٧) لن يكتب لهم النجاح إلا لفترة قصيرة من الزمن[١٢٨] » .

ثم ينتقل جليفر إلى أرض « الجناجيين Luggnaggians » الذين

لايحكون على أكابر مجرميهم بالموت بل بالخلود .

« فإذا بلغ هؤلاء المجرمون سن الثمانين وهى السن للمتبرة نهاية الحياة فى بلدهم ، لاتكون فيهم كل الحماقات والسقام والعلل التى فى سائر المسنين فحسب ، بل أكثر منها بكثير ، مما نشأ من توقعاتهم الرهيبة بأنهم لن يموتوا قط ، ولم يكونوا عنيدين شكسين طامعين فيما فى أيدى غيرهم ، مكتئبين عابثين ثرثاريين فحسب ، بل كانوا كذلك غير أهل للصداقة ، لايستجيبون لأية عاطفة أو حب طبيعى ، لم يهبط قط عن حضرتهم . وكان الحسد والرغبات العاجزة هى الشعور السائد بينهم ... وإذا رأوا جنازة ولولوا وتذمروا من أن الآخرين ذاهبون إلى دار الراحة التى لايأملون هم أنفسهم فى الوصول إليها ... أبداً وكان هذا أفظع منظر مخز مميت للشهوات رأيته فى حياتى . وكانت النساء أشد ازعاجا من الرجال ... ومن هذا الذى سمعت ورأيت ، خفت كثيرا شهوتى الحادة فى البقاء على قيد الحياة(١٢٩) » .

وفى القسم الرابع نبذ سويفت الهزل والمزاح إلى شجب قوى ساخر للانسانية . فان أرض « الهويهن » يحكمها جياد نظيفة وسيمة بهيجة ، تنطق بالحكمة وتتحلى بكل مظاهر المدنية ، على حين أن الخدم الحقراء فيها ، وهم « الياهو المتوحشون » ، هم رجال أقذار كريهو الرائحة ، جشعون مخمورون ، غير متعقلين مشوهون . ومن بين هؤلاء المنحلين المنحطين (هكذا كتب سويفت فى أيام جورج الأول) :

« كان هناك رجل حاكم من « الياهو » (ملك) » ، أبشع شكلا وأكثر نزوعا إلى الشر والأذى من الآخرين ... وكان لهذا الزعيم عادة شخص مثله محسوب عليه أثير لديه ، عمله الوحيد هو أن يلعق قدمى سيده ... ويأتى بنساء الياهو إلى حظيرته ، ومن أجل هذا كان يكافأ من حين إلى حين بقطعة من لحم الحمار (علامة على النبالة ؟) ... وكان يبقى عادة فى عمله هذا ، حتى يمكن العثور على من هو أسوأ منه(١٣٠) » .

وبالمقارنة ، فإن « الهوييمين » ، لأنهم متعقلون ، كانوا سعداء فضلاء ، ولذلك لم يكونوا في حاجة إلى أطباء أو محامين أو رجال دين أو قواد جيوش ، وسمعت تلك الجياد المهذبة « الماجنة » ببيان جلليفر عن الحروب في أوربا . كما ذهلت أكثر فأكثر لسماعها بالخلافات التي أدت إلى الحروب — « هل يكون الجسد خبزا أو يكون الخبز جسدا في القربان المقدس ، وهل يكون عصير ثمار معينة دما أم نبيذا(١٣١) ، وكانوا يقاطعون جلليفر حين يفاخر بالعدد الكبير عن البشر الذي يمكن نسفه بالآلات العجيبة التي اخترعها قومه .

وعندما يعود جلليفر أدراجه إلى أوربا ، نراه لايكاد يضيق برائحة الشوارع والناس الذين يبدو في نظره الآن أنهم من « الياهو » .

« استقبلتني زوجتي وأسرتي بكثير من الدهشة لأنهم كانوا قد قدروا مماتي . ولكن ينبغي على أن أعترف بصراحة أن منظرهم ملأني بالبغضاء والاستياء والازدراء ... وما أن دخلت البيت حتى احتضنتني زوجتي بين ذراعيها وقبلتني ، من أجل ذلك رحت في اغماءة لما يقرب من ساعة ، لولا أني معتاد على لمس هذا الحيوان البغيض (الإنسان) لأعوام طويلة . وطيلة السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتي وأطفالي معي ، حيث كانت رائحتهم لاتحتمل ... وأول مال أنفقته كان في شراء جوادين صغيرين احتفظت بهما في أسطبل مناسب . وكان السائس أعز ما عندي بعدهما ، لأن الرائحة التي تنبعث منه في الاسطبل كانت ترد إلى روحي(١٣٢) » .

وفاق نجاح « جلليفر » كل توقعات المؤلف وأحلامه وربما خفف من بغضه للجنس البشري بسبب حاسة الشم . واستمتع القراء باللغة الإنجليزية الواضحة في غير أطناب ، وبالتفاصيل المريضة ، وبالفحش المرح . وتنبأ آربوثنوت للكتاب « رواجا عظيما مثل كتاب جون بانيان — يقصد كتاب « تقدم الحجيج » . ولا ريب أن سويفت يدين ببعض الفضل لهذا الكتاب ، وبفضل أكبر لكتاب « روبنسن كروزو » ، وربما بشيء من

الفضل لكتاب سيرانودى برجراك « التاريخ الهزلى لدول امبراطورية القمر » . أما الشيء الجديد حقا فهو « الكلبية » أو السخرية الرهيبة فى الأجزاء المتأخرة من الكتاب . وحتى هذه وجدت من يعجب بها ، فأن دوقه مالبورو ، وقد بلغت آنذاك أرذل العمر ، غفرت لسويفت هجماته على زوجها ، إلى جانب حملاته على الجنس البشرى بأسرة . وصرحت بأن سويفت أتى « بأدق وصف يمكن أن يكتب للملوك والوزراء والأساقفة والمحاكم . وروى جاى أنها « فى نشوة غامرة من الابتهاج بالكتاب ، ولا يمكن أن تحلم بشيء آخر »(١٣٣) .

وتكدر انتصار سويفت بنشر قصيدة كادينوس وفانيسا ، فان منفذى وصية هستر فانهو مراى أذعنوا لأمرها بنشرها ، ولم يطلبوا من الكاتب ترخيصاً بذلك ، وظهرت فى طبعات مستقلة فى لندن ودبلن وادنبره ، وكانت ضربة قاسية للزوجة ستيللا لأنها رأت أن عبارات الحب والهيام التى كانت قد وجهت يوما إليها ، تكررت لفانيسا ، ولم يمض كبير زمن على افتضاح هذا الأمر حتى مرضت ، وقصد سويفت إلى ايرلنده لعيادتها والتخفيف عنها ، وتحسنت صحتها ، وعاد هو إلى انجلترا (١٧٢٧) ، وسرعان ما ترامت إليه الأنباء بأنها تحتضر ، فأرسل تعليمات عاجلة إلى مساعديه فى الكاتدرائية بأن ستيلا يجب ألا تلفظ أنفاسها الأخيرة فى مقر رئاسة الكاتدرائية(١٣٤) ، وعاد ادراجه إلى دبلن ، ومرة أخرى أبلت ستيللا بعض الشيء ، ولكنها فارقت الحياة فى ٢٨ يناير ١٧٢٨ ، وهى فى السابعة بعد الأربعين ، وانهارت قوى سويفت ، واشتد عليه المرض فلم يستطع تشييع الجنازة .

وبعدها أقام فى دبلن « مثل فأر مسموم فى جحر(١٣٥) » (كما كتب إلى بولنجبروك) . وكان يقوم بأعمال البر والصدقات ، وأجرى راتبا على مسز دنجلى ، ومد يد العون إلى ريتشارد شريدان فى محنة شبابه ، وكان فى ظاهره رجلا قاسياً ، ولكنه تأثر تأثراً بالغاً لفقر الشعب الايرلندى ، وصعق لكثرة عدد المتسولين من الأطفال فى شوارع دبلن ، وفى ١٧٢٩

أصدر أشد مقالاته التهكمية الساخرة ضراوة ولذعاً تحت عنوان « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا عالة على آبائهم وعلى بلدهم » :

« لقد تأكد لدى كل التأكيد .... أن الطفل الصغير الصحيح الجسم الذى بلغ من العمر سنة ، يصلح لأن يكون طعاما شهياً مغذياً صحياً ، إلى أبعد حد ، مطهواً بالغلى البطىء أو مشوياً أو محمصاً أو مسلوقا ، كما يصلح بالمثل لأن يكون « مفروما محمراً » أو يخنة كثيرة التوابل » . ومن ثم فانى بكل تواضع ، أعرض على الرأى العام ، أنه من بين المائة والعشرين ألف طفل الموجودين الآن ، يمكن الاحتفاظ بعشرين ألفاً فقط لتربيتهم وتنشئتهم ، على أن يكون ربعهم من الذكور ، أما المائة ألف طفل الباقون فيمكن عرضهم للبيع إلى ذوى المكانة والثراء فى طول المملكة وعرضها ، مع نصيحتى دوماً إلى الأمهات بالإكثار من ارضاعهم فى الشهر الأخير ، حتى تمتلىء أجسامهم ويكونوا سماناً تزدان بهم الموائد الفخمة ، إن الطفل الواحد يمكن أن يكون طعام يقدم للأصدقاء ، أما إذا كانت الأسرة تتناول غذاءها وحدها فان الربع الأمامى أو الخلفى من الذبيحة يكون طبقاً كافياً ، وإذا تبل ببعض الفلفل أو الملح لكان طيب المذاق ...

أما الذين هم أكثر تدبيراً واقتصاداً فيمكنهم أن يسلخوا الجثة ، ويعالجوا جلدها بطريقة خاصة ليصنعوا منه قفازات لطيفة للسيدات ، وأحذية صيفية للرجال الأنيقين ....

إن بعض الذين جزعوا لهذه الظاهرة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العدد الضخم من المسنين أو المرضى أو المقعدين والمشوهين ، ورغبوا إلى أن أعمل التفكير فى الوسائل التى يمكن أن تتخذ لتخليص الأمة من هذا العبء الثقيل المحزن ، ولكنى لا أتألم كثيراً لهذه المسألة لأن المعروف جيداً أنهم يموتون وتبلى أجسامهم فى كل يوم من البرد والجوع والقذارة والهوام ، بالسرعة المتوقعة بداهة . .

وأظن أن مزايا الاقتراح الذى عرضته واضحة متعددة ...

وأولى للزايا ، أن هذا يخلصنا إلى حد كبير من عـــدد البابويين (اليسوعيين) الذين يجتاحوننا كل عام ، لأنهم للربون الأساسيون للأمة ، قدر ماهم ألد أعـدائنا وأخطرهم ... وثالثها أنه من حيث أن تربية مائة ألف طفل من سن الثانية فما فوق ، لا يمكن أن يتكلف الواحد أقل من عشر شلنات فى العام ، فبهذا الاقتراح سيتوفر للأمـــة خمسون ألف جنيه سنوياً ، هذا بالإضافة إلى فائدة اللون الجديد من الطعام الذى يقدم إلى موائد ذوى الثراء والوجاهة ..... الذين يتحلون بالذوق الرفيع » ..

إن نتاج يراع سويفت ، ذلك النتاج الغريب ، والثائر أحياناً ، وبخاصة بعد وفاة ستيللا ، يوحى بأنه قد أصابه مس من الجنون ، « إن شخصاً من ذوى المكانة فى ايرلنده (كان يسره أن ينحى كثيراً ليدقق النظر فى عقلى) اعتاد أن يقول لى أن عقلى مثل روح مسحورة ، قد يؤذى ويسىء إذا لم أشغله بشىء(١٣٦) » .

وتساءل أحد الأصدقاء : إن مبغض البشرية الكئيب هـــذا ، والذى تركته الأخطاء الصارخة فى بيت من زجاج ، بينما هو يسلق البشرية بألسنة حداد من الهجاء ، ألا يغنى فساد الناس ومساوئهم جسدك ويستنزف روحك ؟ » « إن غضبه على العالم كان امتداداً لغضبه على نفسه ، فقــد أدرك أنه على الرغم من عبقريته ، معتل الجسم مريض النفس ، ولم يكن يغتفر للحياة حرمانه من الصحة والأعضاء السليمة وهدوء البال ، والتقدم الذى يتناسب مع قوة عقله .

وكان آخر مظهر لقسوة الحياة على سويفت ، هو اختلال قواه العقلية يوماً بعد يوم . وازداد بخله وجشعه ، حتى وسط أصدقائه وقيامه بأعمال البر . فكان يضن بالطعام على ضيوفه ، وبالنبيذ على أصدقائه(١٣٧) . وازدادت نوبات الدوار عنده سوءا ، فما كان يدرى فى أية لحظة منحوسة ينتابه هذا الدوار ليجعله يترنح ويتلوى من الألم فى هيكله أو فى الشارع .

وكان قد رفض أن يضع النظارات على عينيه فضعف بصره وترك القراءة . ومات بعض أصدقائه ، ونأى بعضهم بنفسه عنه ، اجتنابا لحدة طبعه واكتئابه ، وكتب إلى بولنجبروك : « كثيراً ما فكرت فى الموت ، ولكنه الآن لا يغيب عن ذهنى أبداً (١٣٩) » وبدأ يتلهف عليه . واحتفل بيوم ميلاده يوم حداد وحزن . وقال « ليس هناك رجل عاقل يرغب فى استعادة شبابه (١٤٠) » . وفى أعوامه الأخيرة كان يودع زائريه دوماً بقوله « سعدتم مساء ، أرجو ألا أراكم ثانية (١٤١) » .

وظهرت أعراض الجنون التام عليه فى ١٧٣٨ . وفى ١٧٤١ عين بعض الأوصياء ليتولوا شؤونه ، ويراقبوه حتى لا يلحق بنفسه أى أذى فى نوبة من نوبات العنف والجنون التى تصيبه . وفى ١٧٤٢ عانى ألماً شديداً من التهاب فى عينه اليسرى التى تورمت حتى صارت فى حجم البيضة . وأحاط به خمسة من الأتباع ليحولوا بينه وبين فقء عينه بيده . وقضى عاما لا ينطق ببنت شفة . وآذنت محنته بالإنتهاء فى ١٩ أكتوبر ١٧٤٥ ، وقد بلغ الثامنة بعد السبعين . وأوصى بكل ثروته البالغة اثنى عشر ألف جنيه لبناء مستشفى للأمراض العقلية . ووورى التراب فى كاتدرائيته ، ونقش على ضريحه عبارة اختارها بنفسه :

« حيث لا يمود السخط المرير يمزق قلبه » .

فهرس

الفصـــل السابع

كرومول ١٦٤٩ — ١٦٦٠

الفصل الثامن ملتون ١٦٠٨ — ١٦٧٤

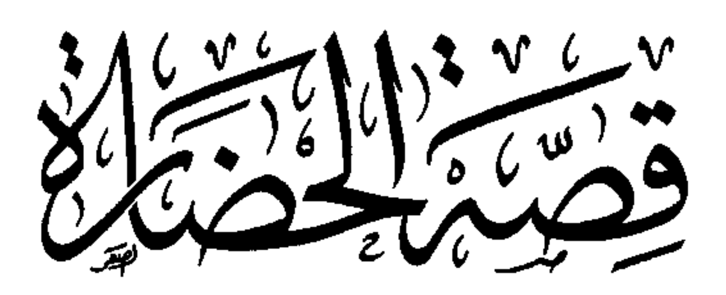
الفصـل التاسع عودة الملكيه ١٦٦٠ ـ ١٦٨٥

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ ـ ١٧١٤

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سويفت ١٦٦٠ ـ ١٧١٤!



ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر
بسكال وموليير وكرومول وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا
١٦٤٨ - ١٧١٥

ترجمة
فؤاد أندراوس

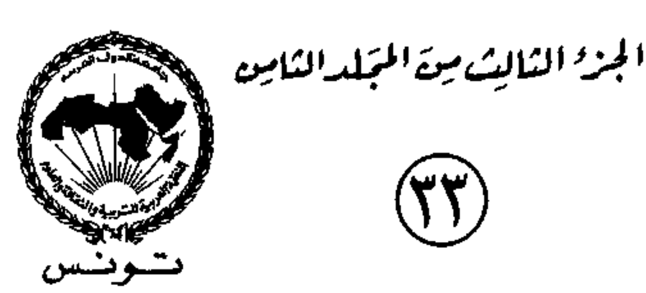
مراجعة
علي أدهم



بيروت

الجزء الثالث من المجلد الثامن





تونس

دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب ـ بيروت ـ لبنان

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل التاسع عشر

الكتاب الثالث

محيـــط القارة

١٦٤٨ — ١٧١٥

الفصل الثانى عشر

الصراع على البلطيق

١٦٤٨ ــ ١٧٢١

١ ــ السويد المغامرة : ١٦٤٨ ــ ١٧٠٠

ان التاريخ شظية من البيولوجيا ــ انه اللحظة البشرية فى موكب الانواع . وهو أيضا وليد الجغرافيا ــ لأنه فعل الأرض والبحر والهواء ، واشكالها ونتاجها ، وتأثيرها فى رغبة الانسان ومصيره . فلنتأمل هنا أيضا تلك المواجهة بين الدول المحيطة بالبلطيق فى القرن السابع عشر . فالسويد فى شماله ، واستونيا وليفونيا ولتوانيا فى شرقه ، ومن خلفها روسيا الباردة الجائعة ، وفى جنوبه بروسيا الشرقية وبولنده وبروسيا الغربية وألمانيا ، وفى غربه الدنمرك بموقعها الاستراتيجى على منافذ البلطيق الضيقة الى بحر الشمال والاطلنطى . لقد كان هذا سجنا جغرافيا سيصطرع نزلاؤه على السيطرة على تلك المياه والمضايق ، والشواطىء والثغور ، ومسالك التجارة ودروب الهرب برا أو بحرا . هنا خلقت الجغرافيا التاريخ .

أما الدنمرك فقد لعبت الآن دورا صغيرا فى مسرحية البلطيق . ذلك أن نبلاءها الذين احتكروا الحرية لأنفسهم غلوا أيدى ملوكها وأرجلهم . وكانت قد نزلت عن سيطرتها على مضايق الاسكاجراك والكاتيجات (١٦٤٥) وبقيت النرويج خاضعة لها ، ولكنها فى ١٦٦٠ فقدت أقاليم السويد الجنوبية . وشعر فردريك الثالث (١٦٤٨ ــ٧٠) بحاجته الى سلطة ممركزة تتصدى للتحديات الخارجية ، فأرغم النبلاء على أن ينزلوا له عن السلطة المطلقة والوراثية ، مستعينا على ذلك برجال الدين والطبقات الوسطى . وقد وجد ابنه كرستيان الخامس (١٦٧٠ ــ ٩٩) معينا له فى بيدر شوماخر ، كونت جريفنفلد ، الذى ظفر بثناء لويس الرابع عشر عليه وزيرا من أكفأ الوزراء فى عصر الدبلوماسية الذهبى ذاك . أصلح مالية الدولة ، ودفع التجارة والصناعة

قدما ، وأعاد تنظيم الجيش والبحرية . واستن الكونت سياسة السلم ، ولكن الملك الجديد كان تواقا لاستعادة القوة والاقاليم التى كانت الدنمرك تملكها فيما مضي . ومن ثم ففى ١٦٧٥ جدّد الحرب القديمة مع السويد ، ولكنه هزم ، وثبتّت من جديد سيادة السويد على اسكندناوة .

وقد تعاقب على عرش السويد فى تلك الحقبة طائفة ممتازة من الملوك الأشداء ، وظلوا نصف قرن أعجوبة زمانهم لا ينافسهم فى ذلك منافس غير لويس الرابع عشر . ولو اتيح لهم سند أكبر من الموارد لبلغوا ببلدهم من القوة والمنعة مبلغ فرنسا ، ولاستطاع الشعب السويدى - بوحى من منجزات الجوستافين ، والكارلين الثلاثة ، ووزرائهم العظام - أن يموّل ازدهارا ثقافيا يتناسب مع انتصاراتهم وتطلعاتهم . غير ان الحروب التى عززت قوتهم استنزفت ثروتهم ، فخرجت السويد من ذلك العهد مستنزفة القوى وان تكللت بأمجاد البطولة . وانه لما يثير الدهشة أن تحقق أمة من الامم هذا القدر الكبير من المنجزات فى الخارج على ما بها من ضعف شديد . فسكانها لم يجاوزوا مليونا ونصفا ، ينقسمون طبقات لم تتعلم الى ذلك الحين أن يعيش بعضها مع البعض فى سلام . وكان النبلاء يتسلطون على الملك ، ويقررون لانفسهم شراء أراضي من املاك التاج بشروط ميسرة ، والصناعة مقيدة محددة بحاجات الحرب تحديدا أعجزها عن تغذية التجارة التى أطلقت الحرب عقالها ، وكانت الاملاك الخارجية عبئا لا تبرره غير العزة القومية . ان حنكة الوزراء المخلصين وحدها هى التى دفعت عن البلاد خطر الافلاس الذى بدا أنه ثمن المجد .

كان شارل العاشر جوستافس ابن عم كرستينا الرهيبة ، ورفيق لعبها ، وعاشقها ، وخلفها بعد ان نزلت له عن العرش فى ١٦٥٤ . وقد درأ خطر الافلاس بأكراه النبلاء على رد بعض الضياع الملكية التى سطوا عليها . واستطاعت الدولة بفضل هذا « الاختزال » لأملاك الاقطاعيين أن تسترد ثلاثة آلاف مسكن بأراضيها وتستعيد قدرتها على الوفاء بديونها . ورغبة فى استكمال النقص فى العملة الفضية والذهبية ، عهد شارل الى يوهان بالمسترو بانشاء مصرف قومى واصدار نقود ورقية

(١٦٥٦) - وهى أول ما صدر منها فى أوربا . وقد حفز ازدياد تداول العملة الورقية الاقتصاد حينا ، ولكن المصرف أصدر منها فوق ما يستطيع الوفاء به نقدا عند الطلب ، فاوقفت التجربة . ونقل الملك المقدام اثناء ذلك صناعة الحديد والصلب التى اختصت بها ريجا الى السويد ، فارسي بذلك اسس قاعدة صناعية أقوى تستند اليها سياسته العسكرية .

اما هدفه الذى جاهر به فكان توسيع رقعة ملكه . فالامارات التى كسبها جوستافس أدولفس على ارض القارة تهدد بالثورة ، والحكومة البولندية تابى أن تعترف بشارل العاشر ملكا على السويد ، ولكن بولنده اضعفها تمرد القوزاق ، وقد خفت الروسيا لنجدة القوزاق ، وكان الأمل ولا ريب يراودها فى شق طريق لها الى البلطيق . ثم ان للسويد جيشا حسن التدريب خافت أن تسرحه ، وخير سبيل الى اعاشته أن يخوض حربا ظافرة . ورأى شارل فى هذه الظروف كلها ما يزكى الهجوم على بولنده . وعارض الفلاحون ورجال الدين ، فاسترضاهم بالزعم بأن مشروعه ليس الا حربا مقدسة لحماية حركة الاصلاح البروتستنتى وتوسيع نطاقها (١٦٥٥) (١) .

ولكن تبين أن بولنده بلد يسهل غزوه ، ويصعب اخضاعه . كانت مقاومتها فى الغرب ضعيفة لما حاق بها فى الشرق من خلل وما عانته من غارات العدو . ودخل شارل وارسو ، وهدأ النبلاء البولنديين بوعده أن يبقى على امتيازاتهم الموروثة ، وتلقى ولاء البروتستنت البولنديين، وعرض اللتوانيون أن يعترفوا بسيادته . ولما حاول فردريك وليم ، « ناخب براندنبورج الاكبر » الافادة من انهيار بولنده بالاستيلاء على بروسيا الغربية (وكانت يومها اقطاعة بولندية) ، سيّر شارل جيشه غربا بسرعة نابليونية وحاصر الناخب فى عاصمته ، وأرغمه على توقيع معاهدة كونيجزبيرج (يناير ١٩٥٦) . واعلن الناخب ولاءه لشارل فيما يتصل ببروسيا الشرقية باعتبارها اقطاعة سويدية ، ووافق على أن يؤدى للسويد نصف رسوم تلك الولاية وضرائبها ، ووعد بأن يمد الجيش السويدى بالف وخمسمائة مقاتل .

غير أن الخصومة الدينية التى اثارها شارل هزمته . ذلك أن البابا اسكندر السابع والامبراطور فرديناند الثالث سخرا كل ما يملكان

من نفوذ ليؤلفا حلفا ضد السويد ، لا بل ان الدنمركيين والهولنديين البروتستنت انضموا الى الحلفاء فى تصميمهم على كبح جماح الفاتح الشاب مخافة أن يعدو بعد ذلك على ممتلكاتهم أو تجارتهم . فهرع قافلا الى بولندة ، وهزم قوة بولندية جديدة ، واحتل وارسو من جديد (يوليو ١٦٥٦) . غير أن بولنده امتشقت الآن الحسام لقتاله بعد ان ثارت حماستها الدينية ، والفى شارل نفسه – وهو بلا صديق رغم انتصاره – وقد أحدق به الأعداء من كل حدب . وهجره ناخب براندنبورج وتعهد بتقديم العون لبولندة . اما شارل – الذى كان خبيرا بكسب المعارك فقط لا بدعم فتوحه بصلح عملى – فقد اكتسح البلاد غربا فى هجوم على الدنموك ، وعبر الكاتيجات فوق ثلاثة عشر ميلا من الجليد (يناير ١٦٥٧) ، وهزم الدنمركيين ، وأكره فردريك الثالث على توقيع صلح روسكيلدى (٢٧ فبراير) . وانسحبت الدنمرك كلية من شبه الجزيرة السويدية ، ووافقت على أن تغلق مضيق الساوند فى وجه أعداء السويد . فلما تباطأ الدنمركيون فى تنفيذ هذه الشروط استانف شارل الحرب ، وحاصر كوبنهاجن . وعقد العزم الآن على خلع فردريك الثالث ، وتوحيد الدنمرك والسويد والنرويج من جديد تحت تاج واحد .

ولكن القوة البحرية هزمته . ذلك أن انجلترة والأقاليم المتحدة ، وهما أعظم أمم العصر البحرية آنذاك ، اتفقتا الآن – رغم ما بينهما عادة من عداء – على ألا تقبض أى دولة من الدول على مفتاح البلطيق بالهيمنة على الساوند بين الدنمرك والسويد . ففى أكتوبر اقتحمت قوة هولندية الساوند ، ورفعت الحصار عن كوبنهاجن ، وساقت أمامها الأسطول السويدى الصغير الى ثغوره فى أرض الوطن . وأقسم شارل أن يقاتل الى النهاية . ولكن الشدائد التى عاناها فى حملاته كانت قد فعلت فيه فعلها ، فبينما كان يخطب الديت السويدى فى جوتيبورج أخذته الحمى . وما لبث أن قضي نحبه فى ربيع حياته (١٣ فبراير ١٦٦٠) .

وكان ابنه شارل الحادى عشر (١٦٠٠ – ٩٧) لا يزال فى الخامسة ، فاضطلع بالحكم مجلس وصاية أنهى الحرب بصلح أوليفا

ومعاهدة كوبنهاجن (مايو ، يونيو ١٦٦٠) . ونزلت الملكية البولندية عن دعواها فى تاج السويد ، وثبتت تبعية ليفونيا للسـويد ، ونالت براندنبورج الحق الكامل فى بروسيا الشرقيـة ، واحتفظت السـويد بمقاطعاتها الجنوبية (سكانى) واقاليمها على ارض القارة (بريمن ، وفيردن ، وبومرانيا) ، ولكنها انضمت الى الدنمرك فى ضمان حق السفن الأجنبية فى دخول البلطيق . وبعد عام وقعت السويد وبولنده فى كارديس صـلحا فاترا مع قيصر الروس . واسـتمر الصراع على البلطيق خمسة عشر عاما بوسائل اخرى غير الحرب .

كانت هذه المعاهدات نصرا لا يستهان به للسويد ، ولكن البـلاد أشرفت مرة أخرى على الأفلاس . وكافح عضوان من مجلس الوصـاية هما جوستاف بوندى وبير براهى للحد من النفقات الحكومية ، ولكن المستشار ماجنس دى لا جاردى اضـاف الى الديون القديمـة ديونا جديدة ، وأتاح للنبلاء ولأصدقائه ولنفسه جنى المنافع على حسـاب الخزانة ، وفى سبيل تلقى المعونة المالية ربط السويد بحلف مع فرنسا (١٦٧٢) قبل أن ينقض لويس الرابع عشر على الاقاليم المتحـدة ، حليفة السويد ، بأيام معدودات فقط . وما لبثت السويد أن وجـدت نفسها تخوض حربا ضد الدنمرك ، وبراندنبورج ، وهولندة . وهزمت على يد الناخب الأكبر فى فيربيللن (١٨ يونيو ١٦٧٥) ، واجتـاح أعداؤها اقاليمها القارية ، وغزا جيش دنمركى « سكانى » من جـديد ونكبت البحرية السويدية بكارثة تجاه أولاند « ١ يونيو ١٦٧٦) .

وانقذ السويد ملكها الشاب شـارل الحادى عشر ، الذى اضطلع الآن بزمام الأمر ، وذلك بسلسلة من الحملات ألهمت فيهـا بسـالته الشخصية جنوده ، فدحروا الدنمركيين فى لوند ولاندسكرونا . وبفضل هذين الانتصارين وتاييد لويس الرابع عشر اسـتردت السـويد كل ما فقدته . وتعاون بطل جديد من أبطال الدبلوماسية السويدية ، هـو الكونت يوهان جيلنشتييرنا ، مع الكونت جريفنفلد ـ لا فى الترتيب لصلح بين السويد والدنمرك فحسـب ، بل فى ابرام حلف عسـكرى وتجارى بينهما . واتفقت الدولتان على عملة مشتركة ، وكانت الوحدة الاسكندناوية كلها قاب قوسين أو ادنى حين قطع هذا التطـور موت

جيلنشتييرنا وهو فى الخامسة والأربعين (١٦٨٠) . وحافظت الأمتان على السلام عشرين عاما .

وكان جيلنشتييرنا قد علم الملك الشاب أن الســـويد لن تستطيع الأبقاء على مكانتها بين الدول العظيمة اذا مضي نبلاؤها فى التهـــام أراضي التاج ، وهو أمر يهوى بالملكية الى ذل الفقر وبالدولة الى درك العجز . وفى ١٦٨٢ اتخذ شارل الحادى عشر خطوة حاسمة . فاستانف بتأييد من رجال الدين والفلاحين وأهل المدن ، فى تدقيق وشـــمول يحفزهما السخط « اختزال » أراضي النبلاء ، أى استرداد ما فقـــدته الملكية من ضياعها . ثم حقق فى فساد الموظفين وعاقبه ، وبلغ بايرادات الدولة النقطة التى أتاحت للسويد القدرة من جـــديد على الاحتفـــاظ بممتلكاتها والاضطلاع بتبعاتها . ولم يكن شارل الحـــادى عشر بالملك المحبب جدا الى شعبه ، ولكنه كان ملكا عظيما . فلقد آثر انتصـــارات السلام الأقل ضجيجا على انتصارات الحرب ، وذلك رغم ما خلف فى الحرب من سجل يحسده عليه الكثيرون . وقد وطد حكم الملكية المطلق، ولكن هذا النظام كان يومها البديل لاقطاعية رجعية فوضوية .

وفى هدوء هذه الهدنة الصافية ازدهرت علوم السويد وآدابهـــا وفنونها . وبلغت العمارة السويدية أوجهـــا فى القصر الملكى الفخـــم الضخم باستوكهولم ، الذى صممه (١٦٩٣ — ٩٧) نيقوديموس تيسين . وكان لارس يوهانسون للسويد بمثابة ليوباردى (الايطالى) ومارلو (الانجليزى) مجتمعين ، فهو يتغنى غناء شجيا بكراهية الانسان ، ويلقى حتفه بطعنات السلاح فى شجاربحان قضي عليه وهـــو بعد فى السادسة والثلاثين . وقد ألف جونو دالشتيرنا ملحمة شعرية ببحر دانتى سماها Kunga Skald (١٦٩٧) اشادة بمآثر شارل الحادى عشر . ومات الملك فى تلك السنة ، بعد ان أنقذ وعمر بلدا كاد يدمره من بعده ابنه الأشهر منه .

وكان هذا الابن ، شارل الثانى عشر ، قد بلغ الخامسة عشرة . ولما كانت خريطة أوربا يعاد رسمها آنئذ بالدم والحديد ، فقد ُدرِّب أولا وقبل كل شيء على فنون القتال . فهياته العابه كلها للأعمال العسكرية، وتعلم الرياضيات فرعا من العلوم الحربية ، وقرأ من اللاتينية ما يكفيه

لأن يستوحى من سيرة الاسكندر التى كتبها كنتوس كورتيوس طمـــوح التفوق فى السلاح ان لم يكن الطموح لغزو العالم . واذ كان فارع القامة، وسيما ، قويا ، لا يثقل بدنه درهم زائد من لحم وشحم ، فقد استمتع بحياة الجندى ، وتجلد لما فيها من حرمان ، وهزأ بالخطر والموت ، وتطلب هذه الصلابة عينها فى جنده . ولم يابه كثيرا بالنســـاء ، فلم يتزوج قط وان خطبت وده الكثيرات . وكان يصيد الدببة وسلاحه شوكة خشبية ثقيلة لا أكثر ، ويركب خيله بسرعة طائشة ، ويسبح فى ميـاه تغطى الثلوج نصفها ، ويلتذ المعارك الزائفة التى كاد هو وأصـــدقاؤه يلقون حتفهم فيها غير مرة . وقد رافقت بسالته العنيدة وحيويته البدنية بعض فضائل الخلق والعقل : صراحة تزدرى الاعيب الدبلوماســـية ، واحساس بالشرف تشوبه لحظات شاذة من القسوة الوحشية ، وعقـــل يلتقط لب الأمور لتوّه ، ولا يطيق المداخـــل الملتـــوية فى التفكير أو التدبير ، وكبرياء صموت لم يغب عنها قط محتـــده الملكى ولم تعترف قط بالهزيمة . وآية ذلك أنه فى حفلة تتويجه توج نفسه بيده على طريقة نابليون ، ولم يقطع على نفسه يمينا تحدّ من سلطته ، فلما تشكك أحد رجال الدين فى صواب خلع السلطة المطلقـــة على فتى لم يتجـــاوز الخامسة عشرة ، حكم عليه شارل أولا بالاعدام ، ثم خفف الحكم الى السجن المؤبد .

كانت السويد يوم ارتقى عرشها دولة قارية كبرى ، تحكم فنلنده ، واينجريا ، واستونيا ، وليفونيا ،وبومرانيا ، وبريمن ، وكانت تهيمن على البلطيق وتقوم سدا حائلا بين روسيا وبين ذلك البحر . ورات روسيا، وبولنده ، وبراندنبورج ، والدنمرك ، فى حداثة سن ملك الســـويد فرصة لمد حدودها دعما لتجارتها ومواردها . وكان « العامل الهدّام » فى هذا الحل الجغرافى فارسا ليفونيا يدعى يوهان فون باتكول ، انخرط فى سلك الجيش السويدى بوصفه من رعايا السويد ، وارتقى الى رتبـــة النقيب . وفى ١٦٨٩ و ١٦٩٢ احتج بشدة على « اختزال » شارل الحادى عشر لضياع النبلاء فى ليفونيا ، فاتهم بالخيانة ، وفر الى بولنده ، ثم التمس من شارل الثانى عشر أن يعفو عنـــه فرفض ، وفى ١٦٩٨ اقترح على أوغسطس الثانى ملك بولنده وسكسونيا تاليف حلف ضد السويد من بولنده ، وسكسونيا ، وبراندنبورج ، والدنمـــرك ، وروســـيا . ورأى

أوغسطس أن الخطة جاءت فى اوانها ، فاتخذ الخطوة الأولى بالدخول فى حلف مع ملك الدنمرك فردريك الرابع (٢٥ سبتمبر ١٦٩٩) . وذهب باتكول الى موسكو . وفى نوفمبر وقع بطرس الاكبر مع مبعوثى سكسونيا والدنمرك اتفاقا لتقطيع أوصال السويد .

٢ - بولنده وسوبيسكى : ١٦٤٨ - ٩٩

فى مستهل هذه الحقبة اثر حدثان تاثيرا عميقا فى تاريخ بولنده ففى ١٦٥٢ هزم عضو واحد من اعضاء البرلمان البولندى Sejm للمرة الأولى قانونا بممارسته حق « الفيتو المطلق » ، الذى كان يسمح لأى نائب فى ذلك البرلمان بابطال قرار اية أغلبية . ذلك أن النظام فى الماضي كان يشترط موافقة جميع الاقاليم قبل اقرار أى قانون ، وكانت أقلية ضئيلة احيانا تجعل التشريع مستحيلا ، ولكن فردا من الأفراد لم يؤكد الى ذلك الحين الحق فى نقض اقتراح يقبله الباقون كلهم . وقد استطاع « الفيتو المطلق » لنائب واحد أن « ينسف » أو ينهى ثمانى واربعين دورة من الدورات الخمس والخمسين التى عقدها البرلمان بعد ١٦٥٢ . وقد افترضت الخطة أنه ما من اغلبية تستطيع بحق أن تطغى على اقلية مهما صغرت . ولم يكن مبعثها النظرية الشعبية بل الكبرياء الاقطاعية ، اذ اعتبر كل مالك نفسه سيدا أعلى فى أرضه . واسفر هذا عن أكبر قدر من الاستقلال المحلى والعقم الجماعى . ولما كان الملوك خاضعين للبرلمان ، والبرلمان خاضعا للفيتو المطلق ، فقد كانت السياسة القومية المتسقة ضربا من المحال عادة . وبعد تسع سنوات من الفتيو الاول تنبأ الملك جون كازيمير للبرلمان بنبوؤة لافتة للنظر ، قال :

« أتمنى على الله ان يتبين أننى نبى كذاب ، ولكنى أقول لكم انكم ان لم تجدوا علاجا لهذا الشر (اى الفيتو المطلق) فستغدو الدولة فريسة للدول الأجنبية . سوف يحاول الموسكوفيون ان يقتطعوا بالاتيناتنا الروسية ربما الى الفستولا. وسوف يحاول البيت المالك البروسي الاستيلاء على بولنده الكبرى . وسوف تلقى النمسا بثقلها على كراكو . وسوف تؤثر كل من هذه الدول اقتسام بولنده دون الاستيلاء عليها كلها ولها هذه الحريات التى تتمتع بها اليوم » (٢) .

وقد تحققت هذه النبوءة بحذافيرها تقريبا .

وكانت ثورة القوزاق فى أوكرانيا (١٦٤٨) حدثا لا يفوقه فى أهميته التاريخية سوى هذا الفيتو . ذلك ان دمج لتوانيا مع بولنده فى « اتحاد لوبلين » (١٥٦٩) أخضع اقليم أوكرانيا ، الذى يجرى فيه نهر الدنيير ، لحكم غلب عليه العنصر البولندى ، وكان أكثر سكان الاقليم من قوزاق زابوروج الذين ألفوا الاستقلال وتمرسوا بالحرب . وحاول النبلاء البولنديون الذين ابتاعوا الأرض فى أوكرانيا أن يرسوا فيها أسس الأحوال الاقطاعية ، وثبّط الكاثوليك البولنديون ممارسة تلك الحرية التى كفلها اتحاد لوبلين للعبادة الارثوذكسية . وانبعثت ثورة من ثورات القوزاق من هذا المركب من أسباب السخط والتذمر ، وتزعمها حينا زعيم حربى (هتمان) غنى يدعى بوجدان شميلنيكى ، وناصرها تتار القرم المسلمون . وفى ٢٦ مايو ١٦٤٨ دحر التتار والقوزاق الجيش البولندى الرئيسي فى كورسون ، وسرت الحماسة للثورة بين الأغنياء والفقراء على السواء .

وقد خلفت وفاة لاديسلاس الرابع فى ٢٠ مايو عرش بولنده فى هذه الأثناء مثارا لنزاع بين النبلاء استمر حتى ٢٠ نوفمبر ، حين اختارت هيئة الديت الانتخابية جون الثانى كازيمير . أما شيملنيكى فقد خشي ألا تستطيع الثورة الصمود للجيوش البولندية المعززة الا بقبول المعونة والسيادة الأجنبيتين ، فاختار الاستنجاد بروسيا الأرثوذكسية . وعرض أوكرانيا على القيصر الكسيس ، ورحبت الحكومة الروسية بالعرض وهى عليمة بأن معناه الحرب مع بولنده ، وبمقتضى « قانون بيريياسلاف » ١٨ يناير ١٦٥٤ ، انضوت أوكرانيا تحت الحكم الروسي . وكفل للاقليم الاستقلال الذاتى تحت حكم زعيم حربى ينتخبه القوزاق ويصدق على انتخابه القيصر .

وفى الحرب التى تلتذلك بين بولنده وروسيا، حول تتار القرم الذين آثروا أوكرانيا بولندية على أوكرانيا روسية ـ حولوا معونتهم من القوزاق الى البولنديين . وفى ٨ اغسطس ١٦٥٥ استولى الروس على فلنو ، وذبحوا آلافا من الأهالى، وأحرقوا المدينة وسووها بالتراب. وبينماكان البولنديون يدافعون عن أنفسهم على جبهتهم الشرقية ، قاد شارل العاشر

جيشا سويديا الى غربى بولنده واستولى على وارسو (٨ سبتمبر) . وانهارت المقاومة البولندية . وأعلن النبلاء البولنديون ، بل حتى الجيش البولندى ، الخضوع للفاتح واقسموا يمين الولاء له (٣) . وأرسل له كرومويل تهانئه لأنه قبض على أحد قرون البابا (٤) ، وأكد شارل لـ « حامى الجمهورية » (كرومويل) أنه عما قليل لن يبقى فى بولنده بابوى واحد (٥) ، ومع ذلك وعد بالتسامح الدينى فى بولنده .

على أن خططه أحبطها جيشه الظافر . ذلك أنه الجيش أفلت زمامه ، فراح ينهب المدن ويذبح السكان ويسلب الكنائس والأديار . وقاوم الحصار دير ياسنا جورا ، القريب من تشستوتشوا ، مقاومة باسلة ، وأثار نجاحه الذى عد من المعجزات حماسة الجماهير الدينية ، وأهاب الكهنة الكاثوليك بالأمة أن تطرد الغزاة الكفار ، وبادر الفلاحون الى امتشاق الحسام ، ففرت الحامية التى تركها شارل فى وارسو امام الحشد الزاحف وأعيد كازيمير الى عاصمته (١٦ يونيو ١٦٥٦) وانقلب التتار على روسيا ، ووقعت روسيا هدنة مع بولندة مؤثرة جيرتها على جيرة السويد (١٦٥٦) . وأفضي موت شارل العاشر فجاة الى صلح أوليفا (٣ مايو ١٦٦٠) الذى انهى الحرب بين بولندة والسويد . وفى ١٦٥٩ استؤنف الصراع مع روسيا . وبعد ثمانية أعوام من الفوضي والحملات وذبذبات الولاء القوزاقى ، نالت روسيا بمقتضي صلح أندروسوفو (٢٠ يناير ١٦٦٧) سمولينسك ، وكيف ، وأوكرانيا شرقى الدنيبر . وظلت تجزئة أوكرانيا على هذا النحو سارية حتى التقسيم الأول لبولنده (١٧٧٢) .

ثم اعتزل جون كازيمير عرش بولنده (١٦٦٨) بعد أن أرهقته الحرب وأضناه الفيتو مطلق ، واعتكف فى نيفير بفرنسا ، وعاش حياة هادئة بين الدرس والصلاة الى ان مات (١٦٧٢) . وخاض خلفه ميخائيل فسنيوفيكى حربا مدمرة مع العثمانيين ، وبمقتضي صلح بوكزاكز (١٦٧٢) اعترفت بولندة بالسيادة العثمانية على أوكرانيا الغربية ، وتعهدت بأداء جزية سنوية للسلاطين تبلغ ٢٢٠٫٠٠٠ دوكاتية . وفى تلك الحرب اكتشفت بولندة عبقرية جان سوبيسكى الحربية ، فلما مات فسنيوفيكى (١٦٧٣) ، انتخب الديت أعظم ملوك بولندة قاطبة (١٦٧٤) بعد أن ضيّع وقتا ثمينا على عادته .

اما جان هذا ـ الذى يسمى الآن يوحنا الثالث ـ فكان يبلغ الرابعة والاربعين اذ ذاك ٠ وقد حالفه الحظ فى مولده ، لان أباه كان الحاكم العسكرى لكراكو ، اما أمه فكانت حفيدة القائد البولندى ستانسلاس زولكيفسكى الذى استولى على موسكو فى ١٦١٠ ، وكان حب الحرب يسرى فى دم جان ٠ وبفضل تعليمه فى جامعة كراكو وأسفاره فى المانيا والاراضي المنخفضة وانجلترة وفرنسا ، حيث قضي بباريس قرابة عام ، أصبح رجلا مثقفا فضلا عن بسالته ومهارته الحربيتين ٠ وفى ١٦٤٨ مات ابوه ، عقب اختياره ممثلا لبولنده فى معاهدة وستفاليا ٠ وسارع جان بالعودة الى أرض الوطن ، وانضم الى الجيش البولندى فى قتال الثوار القوزاق ٠ ولما غزا السويديون بولنده ، وفر جان كازيمير ، كان سوبيسكى واحدا من الموظفين البولنديين الذين ارتضوا شارل العاشر ملكا على بولندة ، وظل يخدم عاما فى الجيش السويدى ٠ ولكن حين ثار البولنديون علىالغزاة عاد سوبيسكى الى ولائه القومى، وأبلى فى الدفاع عن وطنه بلاء رفعه الى منصب القائد العام للجيوش البولندية فى ١٦٦٥٠ وفى تلك السنة تزوج المراة الممتازة التى أصحبت نصف حياته والمشكل لسيرته ٠

هذه المرأة ، واسمها ماريا كازيميرا ، التى كان يجرى فى عروقها الدم الفرنسي الملكى ، ولدت فى نيفير عام ١٦٤١ ، وربيت فى فرنسا وبولندة ٠ وفى وارسو يوم كانت فى الثالثة عشرة الهب حسنها ومرحها عاطفة سوبيسكى وهو فى الخامسة والعشرين ٠ ولكن سعود الحرب ونحوسها افصته عنها ، فلما عاد وجدها زوجة لنبيل فاسق يدعى جان زامويسكى ٠ واذ كانت ماريا مهملة من زوجها ، فقد قبلت سوبيسكى وصيفا مرافقا ٠ ويبدو انها حافظت على عهودها الزوجية ، ولكنها وعدت بالزواج من سوبيسكى حالما يفسخ زواجها من زامويسكى ٠ على أن الزوج كفاها مئونة هذا الشرط بموته ٠ وما لبث العاشقان أن تزوجا ، واصبح غرامهما الطويل أسطورة فى التاريخ البولندى ٠ وكان الكثير من النساء البولنديات ينافسن النساء الفرنسيات فى الجمع بين الجمال الكلاسيكى ، والشجاعة والذكاء القريبين من شجاعة الرجال وذكائهم ، والولع بصنع الملوك او ارشادهم٠ وقد بدات ماريا من يوم زواجهاتخطط لكى تبوىء سوبيسكى عرش بولنده ٠

وكان حبها أحيانا حبا لا يقيم وزنا لصوت الضمير كما قد يكون الحب . ففى ١٦٦٩ يبدو أن سوبيسكى قبل المال الفرنسي ليؤيد كردينالا فرنسيا ضد فسنيوفيكى . وبعد انتخاب ميخائيل انضم جان الى غيره من النبلاء فى مؤامرات تستهدف خلع الملك لانه جبان لا يصلح للدفاع عن بولنده ضد العثمانيين ولا رغبة له فى هذا الدفاع . وقاد بنفسه رجاله الى انتصارات أربعة خلال عشرة أيام . وفى ١١ نوفمبر ١٦٧٣ ، وهو اليوم الذى مات فيه الملك ، دحر سوبيسكى العثمانيين فى خوتين ببسارابيا . وجعله هذا النصر المرشح المنطقى لعرش لا قبل الآن بدفع الأعداء المحدقين به من كل جانب الا لأصلب القتال وأشده تصميما . ولكى يدعم المنطق حضر الى هيئة الديت الناخبة على رأس ستة آلاف مقاتل . ولعب المال الفرنسي دورا فى انتخابه ، ولكن هذا كان يتفق ومنّة العصر تمام الاتفاق .

ولقد كان ملكا بجسمه وروحه كما كان باسمه . وصفه الأجانب بانه « من أكثر الرجال وسامة وأكملهم بنية » فى أوربا ، « له طلعة نبيلة شماء، وعينان تشعان نورا ونارا(٦) » قوى البدن، مثابر على الانجاب، متطلع العقل متيقظه . وقد حفز حبه الطبيعى للتملك اسراف حبيبته ماريزنيكا ، ولكنه كثيرا ما عوض عن بخل البرلمان الشحيح بدفع رواتب جنده من جيبه ، وبيع أملاكه ليشترى لهم البنادق (٧) . وقد استحق كل ما أخذ ، لأنه انقذ بولنده وأوربا جميعا .

ذلك أن سياسته الخارجية كانت بسيطة فى هدفها ، وهو ردّ العثمانيين الى آسيا ، أو على الأقل صد هجماتهم على معقل العالم المسيحى الغربى بفيينا . وقد عاكس جهده هذا تحالف حليفته فرنسا مع السلطان العثمانى ، ومحاولات الامبراطور أن يزج به فى الحروب التركية ، وكان ليوبولد الأول يامل اذا وفق فى محاولاته هذه أن تطلق يد النمسا فى تملك الأراضي الدانيوبية أو المجرية التى كانت كل من النمسا وبولنده تدعى الحق فيها لنفسها . وبينما كان سوبيسكى يتحسس طريقه غاضبا وسط هذه المتاهة ، تاقت نفسه لحرية تخطيط السياسة واصدار الأوامر دون أن يكون خاضعا فى كل خطوة للبرلمان والفيتو المطلق . وحسد لويس الرابع عشر والامبراطور على سلطتهما فى اتخاذ القرارات بصورة قاطعة ثم اصدار الأوامر دون ابطاء .

وعقب انتخابه اضطلع باسترداد أوكرانيا الغربية من العثمانيين ، الذين تقدموا الآن شمالا حتى بلغوا لفوف . وهناك ، وبقوة لا تزيد على خمسة آلاف فارس ، هزم عشرين الف تركى (٢٤ أغسطس ١٦٧٥) . وبمقتضي معاهدة زورافنو (١٧ أكتوبر ١٦٧٦) أكره العثمانيين على النزول عن حقهم المزعوم فى الجزية ، والاعتراف بسيادة بولنـــدة على أوكرانيا الغربية . ثم شعر بأن الفرصة مواتية لطرد القوة العثمانية من أوربا . فدعا الامبراطور للانضمام اليه فى حرب ضروس يخوضانها مع الترك ، ولكن ليوبولد اعترض بأنه لا يملك تأكيدا بألا يهاجمـــه لويس الرابع عشر فى الغرب ان أرسل جيوشه الى الشرق ، ورجا سوبيســـكى فرنسا أن تعطى النمسا هذا التأكيد ، ولكن لويس الرابع عشر أبى (٨) . وتحول سوبيسكى أكثر فأكثر الى التحالف مع النمسا . فلما حاول العملاء الفرنسيون رشوة البرلمان ضده فضح مؤامراتهم ونشر رسائلهم السرية . وفى رد الفعل التالى ضد فرنسا وقع البرلمان (١ أبريل ١٦٨٣) حلفـاً مع الامبراطورية ، واتفق على أن تحشد بولنده أربعين ألف مقـاتل ، والامبراطورية ستين ألفا . فاذا حاصر العثمانيون فيينا أو كراكو ، خف الحليف لنجدة حليفه بقوته كلها .

وفى يوليو زحف العثمانيون على فيينـا . وفى أغسطس غـــادر سوبيسكى والجيش البولندى وارسو بهذا الهدف المعلن ، وهو « أن يمضوا الى الحرب المقدسة ، ويردوا بعون الله الحرية القديمة لفيينا المحاصرة ، فيعينوا بذلك جميع العالم المسيحى المتخاذل (٩) » . وبدا أن أنبـــل ما عرفت العصور الوسطى من فروسية قد بعث من جـــديد . ووصـــل البولنديون الى العاصمة المحـاصرة فى الوقت المناســب ، لأن المرض والجوع كادا يفتكان بأكثر المدافعين عنها . وقاد سوبيسـكى بشـــخصه جيشي بولنده والامبراطورية المجتمعين فى معركة من أحسم المعارك فى التاريخ الأوربى (١٢ سبتمبر ١٦٨٣) . ولقى نصف البولنـديين الذين تبعوه فى هذه الحرب الصليبية ـ وعددهم خمسة وعشرون ألفا ـ حتفهم فى المعركة أو فى طريقهم اليها .

ثم قفل الى بولنده مكللا بنصر يشوبه شعرر الخيبة . واســـتقبلته وارسو فخورة به بطلا لأوربا ، ولكن الامبراطور كان قد خيّب آماله فى

تزويج ابنه من ارشيدوقة النمسا . ولكى يؤمن ملكا لابنه حاول فتح ملدافيا ، وانتصر فى جميع المعارك الا معاركه مع الجو والقدر ، وعاد الى بلده صفر اليدين .

ووسط ضجيج السياسة وصخبها ، وفى الفترات التى تخللت الحرب جعل من بلاطه مركز احياء ثقافى. فلقد كان هو نفسه رجلا واسع الاطلاع: درس جاليليو وهارفى ، وديكارت وجاسندى ، وقرأ بسكال ، وكورنيى، وموليير . ومع انه أيد الكنيسة الكاثوليكية باعتبار هذا التاييد سياسة للدولة ، فانه بسط الحرية الدينية والحماية على البروتستنت واليهود(١٠) واحبه اليهود كما احبوا قيصر من قبل . وكان يريد ، وان لم يستطع ، أن ينقذ من الموت رجلا من احرار الفكر اعرب عن بعض شكوكه فى وجود الله (١٦٨٩) (١١) ، وكان هذا أول احراق لمهرطق فى تاريخ بولنده. ثم مضت بولنده فى انجاب شعرائها ، ولكنها ظلت تستورد أكثر فنانيها الأفذاذ . فنظم فاكلاو بوتوكى ملحمة عن انتصار بولنده فى خوتين ، وكتب فسبازيان كوشوفسكى ملاحم مماثلة ، ومجموعة مزامير بولندية فى نثر شعرى ، أما أندرزى مورزيتن ، فبعد أن ترجم « أمينتا » تاسو و « سيد » كورنيى ، أظهر فى غنائياته تاثير الشعر الفرنسي والايطالى فى بولنده . وقد شجع سوبيسكى التاثير الفرنسي ، لأنه كان معجبا بكل شيء فى فرنسا الا سياستها . واستقدم المصورين والمثالين الفرنسيين والايطاليين ليعملوا فى وارسو ، واستخدم المعماريين ، ولا سيما الأبطاليين منهم ، ليشيدوا قصورا بطراز الباروك فى فيلانوف ، وزولكييف ، ويافوروف . وبنيت الكنائس الفخمة ابان حكمه : كنيسة القديس بطرس فى فلنو وكنيستا الصليب المقدس والراهبات البندكتيات فى وارسو . وأقبل أندرياس شلوتر من المانيا لحفر الزخارف للقصر المبنى فى فيلانوف ، ولقصر كرازنسكى فى العاصمة . ووسط هذه التاثيرات الغربية فى الفن ، غلب التاثير الشرقى فى الملبس والمظهر : العباءة الطويلة والمنطقة العريضة الزاهية الألوان ، والشاربان المفتولان الى أعلا كانهما سيفان احدبان .

وقد كدر صفاء شيخوخة الملك تمرد ولده يعقوب ، وعناد زوجته ، وفشله فى جعل الملك وراثيا فى أسرته . وكان الفيتو المطلق سيفا مصلتا فوق رأسه على الدوام . ولم يستطع ان يصلح من حال الفلاحين ، لأن

سادتهم سيطروا على البرلمان ، ولم يستطع اكراه الأغنياء على دفع الضرائب ، لأن الأغنياء كانوا هم البرلمان ، ولم يستطع السيطرة على النبلاء المشاغبين، لانهم ابوا أن يكون له جيش دائم. ومات من تبولن الدم فى ١٧ يونيو ١٦٩٦ ، لاكسير القلب كما زعمت الرواية ، بل آسفا على انحدار بلده الحبيب من قمة البطولة التى رفعه اليها .

وتخطى الديت ابنه وباع التاج الى فردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا ، الذى تحول فى غير عناء من البروتستنتية الى الكاثوليكية ليصبح أوغسطس الثانى ملك بولنده . وكان شخصية عجيبة فى ذاته . ويسميه التاريخ اوغسطس القوى ، لانه كان الرياضي الشديد البأس فى جسمه وفراشه ، وقد نسبت اليه اسطورة انجاب ٣٥٤ طفلا غير شرعى(١٢) . وفى يناير ١٦٩٩ وقع فى كارلوفتز معاهدة نزلت بمقتضاها تركيا عن كل دعوى لها فى أوكرانيا الغربية . فلما شعر اوغسطس بالأمان فى الجنوب والشرق ، استمع الى باتكول ، وربط بولنده بحلف مع الدنمرك وروسيا لاقتسام السويد .

٣ — روسيا تتجه الى الغرب : ١٦٤٥ — ٩٩

استطاع كل من المتآمرين الثلاثة أن يختلق عذرا ويدعى استفزازا ما . فشارل العاشر ملك السويد كان قد حاصر كوبنهاجن وحاول فتح الدنمرك ، وغزا بولنده واستولى على عاصمتها ، وكان جوستافس ادولفس قد دعم قوة السويد فى ليفونيا واينجريا دعما أتاح له أن يتحدى روسيا أن تنزل زورقا فى البلطيق دون موافقة السويد . أما الدب الروسي الحبيس فكان يحرق الأرم لمرأى المخارج كلها مغلقة فى الغرب ، والمنافذ الى البحر الاسود كلها يسدها التتار والترك . ولم يبق غير الشرق مجال لتحرك روسيا — الى سيبيريا ، وذلك يبدو الطريق الى الشدائد والهمجية . لقد كانت أسباب الراحة ومفاتن الحياة تومىء لروسيا أن تتجه غربيا ، وكان الغرب مصمما على أن يبقى روسيا بلدا شرقيا .

وحين اعتلى الكسيس ميخايلوفتش رومانوف عرش القياصرة كانت روسيا لاتزال يطغى عليها طابع العصر الوسيط . فهى لم تعرف القانون الرومانى ، ولا انسانية النهضة الأوربية ، ولا اصلاح الحركة

البروتستنتية • وفى عهد الكسيس صيغ القـــانون الروسي من جـــديد (أولوزينى ١٦٤٩) لكن هذه الصياغة لم تكن أكثر من جمع وتنسـيق للقوانين القائمة المبنية على الحكم المطلق واستقامة العقيدة الدينيـــة • فمثلا ظل القانون يرى من الجريمة أن يتطلع انسان الى الهلال الجديد أو أن يلعب الشطرنج او يغفل الذهاب الى الكنيسة فى الصوم الكبير • وهذه الجرائم وعشرات غيرهـا تعاقب بالجـــلد • وكان الكسيس ذاته متعصبا فى تدينه رغم ما فى طبعه من لطف وسماحة ، وكثيرا ما كان ينفق خمس ساعات كل يوم فى الكنيسة ، وقد انحنى فى احدى المناسبات الفا وخمسمائة انحناءة (١٣) • وكأن يبتهج باطعام الشحاذين الذين يتجمعون حول قصره ، ولكنه كان يعاقب كل انشقاق سياسي أو دينى عقابا صارما ، ويفرض الضرائب الباهظة على شعبه ، ويسمح لاســـتغلال الفلاحين وفساد للحكومة أن يستشريا الى درجة أشعلت الثورةفى موسكو، ونوفجورود ، وبسكوف ، وأهم من ذلك بين قوزاق نهر الدون • وقد الف قوزاقى من هؤلاء يدعى ستينكا رازين عصابة لصـــوص ، وســلب الأغنياء وقتلهم ، ونصب نفسه سيدا على استراخان وزارتســين (التى اصبحت ستالنجراد) • ثم اقام جمهورية قوزاقية على الفولجا ، وهدد مرة بالاستيلاء على موسكو • وانتهى أمره بأن أسر وعـــذب حتى مات (١٦٧١) ، ولكن الفقراء حفظوا له ذكرى عزيزة تعدهم بالانتقام من الملاك والحكومة •

على أن بعض المؤثرات العصرية سرت حتى الى هذه البيئة الوسيطة فقد اقتضت الحروب مع بولنده اتصـالات أكثر مع الغـــرب • واقبـــل الدبلوماسيون والتجار فى أعداد متزايدة من بلاد أطلق عليها الروس اسم « أوربا » • وشهد نهر دوينا وثغرا ريجا وأركانجل تجارة ناميــــة مع الدول الغربية • ودعى الفنيون الأجانب لتطوير المناجــم ، وتنظيـــم الصناعة ، وصنع السلاح • ونمت مستوطنة كاملة للمهاجرين حـــوالى ١٦٥٠ فى أحد أحياء موسكو ، وجلب الألمان والبولنـــديون مسحة من الأدب والموسيقى الغربيين الى هذه المستوطنة ، وزودوا الأسر الروسية بمدرسين خصوصيين للاتينية • وكان الكسيس نفسه أوركسترا المانى • وقد سمح لوزيره أرتامون ماتفيف باستيراد الأثاث الغربى والعـادات الفرنسية ، الى حد اباحة اختلاط النساء بالرجال فى المجتمع ، ولبســا

بعث السفير الروسي لدى دوق توسكانيا الأكبر الى الكسيس أوصافا للدرامات والأوبرات والباليهات الفلورنسية ، سمح الكسيس ببناء مسرح فى موسكو ويعرض المسرحيات ، لا سيما المقتبسة من الكتاب المقدس . وقد سبقت احداها ، وهى « استير » ، تمثيلية راسين التى تحمل هذا الاسم بسبعة عشر عاما . ولما شعر الكسيس أنه أذنب باختلافه الى هذه الحفلات التمثيلية ، ذكرها لكاهن اعترافه ، فاباح له هذه المتع الجديدة (١٤) . وتزوج ماتفيف سيدة اسكتلندية تنتمى لأسرة هاملتن الشهيرة ، وقد تبنيا وربيا يتيمة روسية تدعى ناتاليا ناروبشكينا ، وقد اتخذها الكسيس زوجة ثانية له .

على ان مغامرات التغريب هذه أثارت رد فعل وطنيا ، فشجب بعض الروس الارثوذكس دراسة اللاتينية باعتبارها شرا قد يغرى الشباب بالأفكار غير الأرثوذكسية . وأحس الجيل المخضرم أن أى تغيير فى العادات أو الايمان أو الطقوس يزيح حجرا فى بناء المجتمع ، ويقلقل الاحجار كلها ، وقد يهوى بعد حين بالبناء المزعزع كله ويحيله خرابا . وكان الدين فى روسيا يعتمد على الطقوس اعتماده على العقيدة . ومع أن قدرة الجماهير على تفهم الأفكار كانت الى ذلك الحين محدودة جدا ، فقد أمكن تدريبها على الطقوس الدينية التى اعان تكرارها المنوّم على الاستقرار والسلام الاجتماعيين والنفسيين . ولكن التكرار يجب أن يكون دقيقا حتى يحدث الأثر المنوّم ، وأى تغيير فى التتابع المألوف قد يحطم التعويذة المهدئة ، ومن هنا كان لابد من بقاء كل تفاصيل المراسم الدينية ، وكل كلمة من كلمات الصلوات ، على حالها كما كانت منذ قرون . وقد وقع خلاف من اشد الخلافات والانقسامات مرارة فى التاريخ الروسي حين ادخل نيكون ، بطريرك موسكو ، على الطقوس بعض الاصلاحات المبنية على دراسة للممارسات والنصوص البيزنطية . فقد دله الاكليريكيون الذين درسوا اليونانية على أخطاء كثيرة فى النصوص التى تستعملها الكنيسة الروسية ، فامر نيكون بمراجعة النصوص والطقوس وتنقيحها ، فمثلا تقرر أن يكتب اسم يسوع بعد ذلك Iisus بدلا من Isus ، وأن ترسم علامة الصليب بثلاثة إصابع لا اصبعين ، وأن يخفض عدد المطانيات (الركعات) فى صلاة معينة من اثنتى عشرة الى أربع ، وأن تحطم الأيقونات التى يظهر فيها التاثير الايطالى ويستبدل بها أيقونات تتبع

النماذج البيزنطية . وتقرر بصفة عامة ان يطـابق مطابقـة أوثق بين الشعائر الروسية واصولها البيزنطية . وقـد انزلت رتب بعض رجـال الكنيسة الروس الذين أبوا قبول هذه التغييرات او اوقع عليهم الحرم أو نفوا الى سيبيريا . وساءت القيصر اساليب نيكون الدكتاتورية ، فنفاه فى ١٦٦٧ الى دير ناء . وانقسمت الكنيسـة الروسـية الى حزبين ، فاما الكنيسة الرسمية التى يؤيدها الكسيس فقد قبـلت الاصـلاحات ، وأما المخالفون (راسكولنيكى) أو قـدامى المؤمنين (ستاروفيرتسي) فقد تطوروا الى هيئة منشقة اضطهدتها الارثوذكسية الجديدة بالنار والحديد. وقد احرق زعيمهم افاكوم عـلى الخـازوق (١٦٨١) بامـر القيصر فيودور . وقتل كثيرون من قدامى المؤمنين انفسهم مؤثرين الموت عـلى دفع الضرائب لحكومة كانت فى نظرهم عدوا للمسيح . وهـذه الفوضي الدينية كانت بعض التركة التى ورثها بطرس الأكبر .

ومهد موت الكسيس (١٦٧٦) لصراع عنيف بين أبنائه . فقد خلف من زوجته الأولى ماريا ميلوسلافسكى ولدا عليلا يدعى فيودور (المولود فى ١٦٦٢) ، وآخر اعرج نصف أعمى ونصف معتوه يدعى ايفان(المولود فى ١٦٦٦) ، وست بنات كانت اكفاهن وأشدهن طموحا صوفيا الكسيفنا (المولودة فى ١٦٥٧) . وخلف من زوجته الثانية ناتاليا ناروىشـكينا ولده الأشهر بطرس (المولود فى ١٦٧٢) . وورث فيـودور العرش ، ولكنه مات فى ١٦٨٢ . وأراد البويار (النبلاء الروس) أن يولوا بطرس عرش القيصرية ، بوصاية أمه ، لما رأوه من عجز ايفان الشديد . ولكن اخوات بطرس لأبيه كن يكرهن ناتاليا ويخشين أن يهملن تحت حكمها ، فحرضن جنود حامية موسكو (السترلتسي) ، تتزعمهن صوفيا ، على أن يغزوا الكرملين ويصروا على تنصيب ايفان . وناشد ماتفيف ، حاضن ناتاليا ، الجند أن ينسحبوا ، فانتزعوه من قبضة بطرس ، وقتلوه على مرأى من الصبى ذى العشرة الاعوام ، وقتلوا أخوة ناتاليا ونفـرا من انصارها ، واكرهوا البويار على قبول ايفان قيصرا ، يشـاركه بطرس تابعا له ، وصوفيا وصية عليه . ولعل هذه الفظائع اسهمت فى اصابة بطرس بتلك التشنجات التى نغصت حياته فيما بعد ، وهي، على أى حال اعطته دروسا لا تنسي فى العنف والوحشية .

واعتكفت ناتاليا مع بطرس فى احدى ضواحى موسكو المسماة بريوبرازينسكى، وحكمت صوفيا البلاد بكفاية، وقد استنكرت عزل النساء فى مساكنهن (التيريم أى الحريم terem) ، وظهرت أمام الناس سافرة، وراست فى غير خشية اجتماعات الرجال حيث راح الشيوخ يهزون رءوسهم أسفا وحسرة على هذه الوقاحة ، ولكنها كانت قد تلقت من التعليم أكثر من معظم الرجال المحيطين بها ، وكانت ميالة الى الاصلاح والى الأفكار الغربية ، واختارت رئيسا لوزرائها ، وربما عشيقا لها ، رجلا افتتن بحياة الغرب . وكان هذا الرجل ، وهو الأمير فازيلى جوليتسين ، يكتب اللاتينية ، ويعجب بفرنسا ، ويجمل قصره بالصور وقطع نسيج جوبلان المرسومة ، ويقتنى مكتبة كبيرة تضم كتبا لاتينية وبولندية وألمانية . والظاهر ان قدوته وتشجيعه كان لهما الفضل فى بناء ثلاثة آلاف مسكن حجرى بموسكو فى سنوات وصايته السبع ، فى حين كانت كل البيوت تشاد قبل ذلك بالخشب . ويبدو أنه كان يخطط لعتق ارقاء الأرض (١٥) . وفى عهده ألغى الاسترقاق بسبب الدين ، وكفت الحكومة عن دفن القتلة أحياء ، وألغيت عقوبة الاعدام على التفوه بعبارات التحريض . على ان جهوده فى الاصلاح أودى بها فشله فى قيادة الجيش ، فقد أعاد تنظيمه وقاده مرتين ضد الترك ، وفى الحالتين أساء ادارة تموين الجند ، فعادوا مهزومين متمردين ، وأعطى سخطهم بطرس الاشارة للقبض على زمام السلطة .

٤ ـ بطرس يتعلم

كان يتلقى التعليم من أمه ، ومن معلميه الخصوصيين ، ومن جولاته فى شوارع موسكو . ولم يكن مبكر النضج ، ولكنه كان تواقا الى العمل ، طلعة ، ذكيا ، بهرته الآلات المجلوبة من الغرب كالساعات ، والاسلحة ، والادوات . وهفت نفسه الى روسيا تنافس الغرب فى فنون الصناعة والحرب . وكان يحب لعب الألعاب الحربية مع رفاقه الخشنين ـ كبناء القلاع ، ومهاجمتها ، والدفاع عنها . وحلم ببحرية روسية قبل أن يتاح لروسيا الوصول الى بحر لا يتجمد ؛ فبنى قوارب أكبر فأكبر ، حتى اضطر الى رحلة ثمانين ميلا من موسكو ليجد فى بيريسلافل بحيرة يستطيع أن يعوّم فيها أسطوله الصغير .

فلما اشتد عوده ازداد ضيقه بهيمنة اخت غير شقيقة ، اغتصبت مع فازيلى جوليتسين سلطة ايفان وسلطته . وفى ١٨ يوليو ١٦٨٩ ، انضم بطرس الى ايفان فى الموكب الذى كان يحتفل كل سنة بتحرير موسكو من قبضة البولنديين . ومشت صوفيا فى الموكب على غير ما قضت به التقاليد . فأمرها بطرس ، وقد بلغ الآن السابعة عشرة ، أن تنسحب ، ولكنها اصرت على السير ، فغادر المدينة غاضبا ، وبحث عن حلفاء ضد الوصية . فوجدهم فى « البويار » الذين لم يستطيعوا أن يروضوا انفسهم على الرضى بحكم امرأة ، وفى حامية موسكو (الستريلتسي) ، التى كان رجالها على استعداد للخدع الحربية والاسلاب بعد أن صدتهم صوفيا غير مرة . وحرك بوريس جوليتسين ، ابن عم الوزير ، الانقلاب بارساله رسالة مزورة الى بطرس زعمت ان صوفيا تدبّر القبض عليه . وفر بطرس وتبعته أمه ، واخته ، وزوجته التى تزوجها مؤخرا ، الى دير ترويتسكو - مرجيفسكايا ، على خمسة واربعين ميلا من موسكو . ومن هناك أرسل الاوامر لكل كولونيل فى الحامية بالذهاب الى الدير المذكور . ونهتهم صوفيا عن الذهاب ، ولكن كثيرين ذهبوا . وسرعان ما اقبل زعماء الاشراف ، ثم يواقيم بطريرك موسكو . واستدعى فازيلى جوليتسين ، فخضع ، ونفى الى قرية قريبة من أركانجل . وقبض على نفر من مؤيدى صوفيا ، وعذب بعضهم ، واعدم آخرون . وكتب بطرس لايفان يستأذنه فى تقلد زمام الحكم ، فاعطى ايفان الاذن أو افترض أنه أعطاه ، وأمر بطرس صوفيا أن ترحل الى دير للراهبات ، فاحتجت ، وتمردت ، ثم استسلمت . وهناك زودت بكل أسباب الراحة وبالخدم الكثيرين ، ولكن حظر عليها أن تبرح الدير . وفى ١٦ أكتوبر ١٦٨٩ دخل بطرس موسكو ، ورحب به ايفان ، فتقلد زمام السلطة العليا . واعتزل ايفان الحياة العامة فى لباقة ، ومات بعد سبع سنوات .

على أن بطرس لم يكن قد تهيأ بعد للحكم . فترك الحكومة لبوريس جوليتسين المتزمت الرجعى ، وليواقيم ، وغيرهما ، بينما انفق هو كثيرا من وقته فى المستوطنة الأجنبية . وهناك صنع اصدقاء جددا كانوا ذوى أثر قوى فى تطوره . ومن هؤلاء باتريك جوردون الاسكتلندى ، المقاتل المغامر الذى كان الآن ضابطا فى الجيش الروسي وهو فى الخامسة والخمسين ، ومنه تعلم بطرس المزيد عن فنون الحرب . ثم فرانسوا

ليفور ، الذى ولد فى جنيف ، وكان الان لواء فى الرابعة والثلاثين . وقد ابتهج القيصر الشاب بحسن طلعته وسرعة خاطره وأســاليبه اللطيفة ، فكان يتناول الطعام معه مرتين او ثلاثا فى الأسبوع ، الأمر الذى أفــزع اهل موسكو ، فهم ينظرون الى جميع الاجانب نظرتهم الى المهرطقين الاشرار . وقد فضل بطرس عشرة هذين الأجنبيين على عشرة الروس ، لأنه رآهما أكثر تحضرا وان لم يقلا عن الروس اسرافا فى الشراب ، وقد فاقا الروس كثيرا فى معارفهما الصناعية والعلمية والحربيـــة ، وكان حديثهما أرقى وملاهيهما أرفع . ولاحظ بطرس تسامحهما المتبادل فى امور الدين — فجوردون كان كاثوليكيا ، وليفور بروتستنتيا — ووقف فى ابتسام عرابا للأطفال الكاثوليك والبروتستنت على السواء عنـد جـــرن المعمودية . ثم تعلم من لغتى الالمـــان والهولنديين ما يكفى لتحقيـــق اهدافه .

اما اهدافه هذه فهى أن يجعل روسيا شديدة البأس فى الحرب ، منافسة للغرب فى فنون السلم . لقد تعلم من النزيل الهولندى ، البارون فون كيلر ، كيف حافظ الهولنديون على ثروتهم وقوتهم ببناء الســـفن الجيدة . وتاقت نفسه لايجاد منفذ الى البحر ، ولبناء أسطول بحرى . ولم يكن له منفذ بحرى الا فى أركانجل ، التى كان يكتنفها الجليد نصف العام . ومع ذلك اتخذ طريقه اليها فى ١٦٩٣ . واشترى سفينة حربية هولندية رأسية فى الميناء ، فلما تغلب على خوفه من البحر وابحر على هذه السفينة اسكرته الفرحة ، وكتب الى ليفور يقول : « ستقودها أنت ، وساخدم انا بحارا بسيطا فيها (١٦) » . وارتدى سترة قبطان هولندى ، واختلط مغتبطا بالبحارة الهولنديين فى حانات الثغر . لقد كان الهواء الملح الذى هب عليه من ذلك البحر البارد نسمة منعشة من الغرب ، من ذلك الاقليم ، اقليم الصناعة والمنعة والعلم والفن ، الذى كان يناديه فى اغراء يزداد قوة يوما بعد يوم .

وكان هناك طريقان عمليان الى الغرب : أولهما طريق البلطيـــق الذى تسده السويد وبولنده ، وثانيهما طريق البحر الأسود ، الذى يسده التتار والترك . وكان التتار والترك يسيطران عند ازوف على مصـــب الدون ، ويغيران المرة بعد المرة على الاراضى الموســكوفية ، ويأسران الروس — أحيانا عشرين الفا فى مئة واحـــدة — ليبيعوهم عبيـــدا فى

الاستانة . وفي ١٦٩٥ أمر بطرس جيشه أن ينتقل من التلهي بالألعاب الى التمرس بالحرب ، وأن يزحف مخترقا السهوب ، ويبحر هابطا الأنهار ، ويهاجم آزوف . واضطلع ثلاثة قواد بالقيادة قسمة بينهم - جولوفين ، وجوردون ، وليفور . وعمل بطرس بتواضع مدفعيا برتبة رقيب في فوج بريوبرازينسكي . وأسيئت ادارة العملية ، وكان الجند سيئي التدريب ، وبعد اربعة عشر أسبوعا من التضحيات أقلع الروس عن الحصار ، وعاد بطرس الى موسكو وهو يقسم ليدربن جيشا أفضل ويعيدن الكرة .

وبنى فورونيز أسطول ناقلات وبوارج . وفي مايو ١٦٩٦ ابحر هابطا الدون على رأس ٧٥٫٠٠٠ رجل ، واستانف حصار آزوف . وفي يوليو ، وبفضل بسالة قوزاق الدون على الأخص ، استولى الروس على المدينة . وعلى الفور أمر بطرس ببناء أسطول كبير في فورونيز ليعمل في البحر الاسود . وفي سبيل هذا الهدف فرضت الضرائب على روسيا كلها بما فيها كبار ملاك الاراضي ، وجنّد العمال ، وجلبت الآلات الأجنبية . وبعث خمسون من أشراف الروس على نفقتهم الى ايطاليا ، وهولنده ، وانجلتره ، ليتعلموا فن بناء السفن . وفي ١٠ مارس ١٦٩٧ تبعهم بطرس .

ولو خطر ببال روسيا أن القيصر سيمضي الى بلاد تدنسها الهرطقة لأفزعتها الفكرة وروعتها . لذلك نظم سفارة من خمسة وخمسين نبيلا ومائتي تابع ، يرأسها ليفور ، لتزور « أوربا » وتبحث عن حلفاء ضد الترك . وكان من هؤلاء المبعوثين الخمسة والخمسين صف ضابط لا يدعى الا باسم بطرس ميخايلوف ، ويستعمل ختما عليه صورة نجار سفن وهذه العبارة « رتبتي تلميذ ، وأنا في حاجة الى معلمين (١٧) » فلما خرج بطرس من روسيا ، لم يدقق في الاحتفاظ بهذا التنكر ، فقد استضافه ناخب براندنبورج فردريك الثالث ، والملك وليم الثالث في انجلتره ، والامبراطور ليوبولد الأول في فيينا ، بوصفه قيصر روسيا . ولقد صدم أهل القصور ، حتى وهو يسفر عن مقامه الملكي ، بجلافة سلوكه وحديثه ، وبقذارته واهماله ، وبعزوفه عن استعمال السكين والشوكة (١٨) . ولكنه شق طريقه .

ولقيت السفارة المصاعب - التى لم ينسها بطرس قط - فى سفرها الى ريجا مخترقة ليفونيا السويدية . ومن هناك اسرع الى كونيجزبيرج . حيث وقّع مع الناخب معاهدة تجارة وصداقة . وفى براندنبورج درس المدفعية والتحصين على يد مهندس حربى بروسى اعطاه شهادة بتقدمه . وفى كوبنبروجى أقنعته صوفيا ، ناخبة هانوفر الارملة ، وابنتها صوفيا شارلوت ، ناخبة براندنبورج ، هو وبطانته بالعشاء والرقص معهما وقد وصفته الناخبة الارملة فيما بعد بهذه العبارات :

« ان القيصر رجل فارع الطول ، دقيق الملامح ، رائع السمت ، له ذهن شديد الحيوية ، وبديهة حاضرة . . . وليت عاداته اقل جلافة . . . كان مرحا جدا ، كثير الحديث ، وقد كونا صداقة حميمة فيما بيننا . . . . اخبرنا أنه يعمل فى بناء السفن ، وأرانا يديه ، وجعلنا نلمس المواضع القاسية التى خلفها بهما العمل . . . انه رجل شديد الغرابة . . . طيب القلب جدا ، نبيل العاطفة الى حد عجيب . . . ولم يشرب حتى يثمل فى حضرتنا ، ولكن ما ان بارحنا المكان حتى عوض أفراد بطانته عن قصده فى الشراب . . . وهو حساس لمفاتن الجمال . . . ولكنى لم اجد فيه ميلا للتودد للنساء . . . وفى أثناء الرقص حسب الموسكوفيون عظام الحوت المصنوعة منها مشدّاتنا عظامنا ، وأبدى القيصر دهشته بقوله ان للنساء الالمانيات عظاما قاسية الى حد رهيب (١٩) » .

ومن كوبنبروجى ، أبحرت السفارة هابطة الرين الى هولنده وترك بطرس ونفر من أخصائه أكثر الجماعة فى امستردام ، ومضى الى زاندام ، وكانت يومها مركزا كبيرا لبناء السفن (١٨ أغسطس ١٦٩٧) . فقد سمع الكثير ، حتى فى روسيا ، عن مهارة بناة السفن فى هذه المدينة الجميلة . وتعرف فى شوارعها على صانع عرفه فى موسكو ، اسمه جيريت كيست . وطلب اليه بطرس أن يتستّر على تنكره ، واقترح أن يسكن كوخ كيست الخشبى الصغير . وهناك مكث أسبوعا يرتدى زى عامل هولندى ، وينفق نهاره فى مراقبة نجارى السفن وهم يشتغلون ، ويجد فى ليله متعا لمنازلة فتاة تخدم فى حانة الحى . وفى سنوات لاحقة زار جوزف الثانى ونابليون هذا الكوخ كأنه مكان مقدس ، وجمّله القيصر اسكندر الأول بلوحة رخامية ، وكتب شاعر

مولندى على الحائط بيتا مشهورا : لا شيء يصغر فى نظـــر الرجـــل العظيم (٢٠) » .

فلما ضاق بطرس بالجموع التى تبعته فى كل خطوة بزاندام ، عاد الى امستردام وسفارته . وهنا أيضا اصر على التنكر ، ولكنه سمى نفسه الآن « النجار بطرس الزاندامى » . واقنع شركة الهند الشرقية الهولندية بأن تسمح له بالانخراط فى سلك عملها باحواض السفن فى اوستنبورج وهناك اشتغل بهمة مع عشرة من اتباعه طوال شهور أربعة ، وعاونوا فى بناء سفينة وانزالها الى الماء . ولم يسمح بأى تفرقة بينه وبين العمـــال الآخرين ، وحمل على كتفه الأخشاب كما حملها سائرهم . وكان فى الليل يدرس الهندسة ونظرية بناء السفن ، وتبين مذكراته مبلغ دقة هـــــذه الدراسات . ووجد متسعا من الوقت لزيارة المصانع ، والورش ، ومتاحف التشريح ، والحدائق النباتية ، والمسارح ، والمستشفيات . وقابل الطبيب وعالم النبات العظيم بويرهافى ، ودرس المكروسكوبيا على ليوفينهويك ، واصطحب بطانته الى مدرج تشريح بويرهافى . ودرس الهندسة الحربية على البارون فان كويهورن ، والعمارة على شينفويت ، والميكانيكا على فان درهيدن . وتعلم كيف يخلع الأسنان ، ولقى بعض مساعديه عنتا من جراء حماسته فى علاج الأسنان . ودخل منازل الهولنديين ليدرس حياتهم الأسرية وتنظيم بيوتهم . واشترى فى الأسواق ، وخالط الناس ، وتعجب من حرفهم المتنوعة ، وتعلم ان يصلح ملابسه ويرقع حذاءه . واحتسي الجعة والنبيذ مع الهولنديين فى مشاربهم . وأغلب الظن ان التـــاريخ لم يشهد رجلا أشوق منه الى تشرب الحياة وتذوقها .

وفى هذا النشاط كله لم تغب روسيا عن نظره . فوجه برســـائله اعمال حكومتها النائبة عنه . واستخدم وارسل الى روسيا عدة قباطنة بحريين ، وخمسة وثلاثين ملازما ، واثنين وسبعين مرشدا ، وخمسين طبيبا ، وأربعة طباخين ، و ٣٤٥ بحارا . وبعث الى روسيا على عجل ٢٦٠ صندوقا من البنادق ، وقماش القلوع ، والبوصلات ، وعظم الحوت والفلين ، والمراسي ، والعدد ، وحتى ثمانى قطع من الرخام ليشـــتغل عليها النحاتون الروس (٢١) . ولكن اهتمامه كان يفتر اذا اتصل الأمر بتهذيب العادات ، أو لطائف المجتمع ، أو دقائق الفكر ، ولم يكن لحبه

متسع من الوقت للميتافيزيقا أو المراقص أو الصالونات ، وعلى اية حال ، لا ضير في أن ترجأ هذه الأشياء غير الملموسة . أما الآن فمهمته أن يدخل صنائع الغرب وعلومه العملية الى روسيا « حتى اذا تمكنا منها تمكنـــا كاملا استطعنا عند عودتنا الى الوطن ان ننتصر على أعداء يســوع المسيح (٢٢) » وهو يقصد الاستيلاء على الآستانة واطلاق روســـيا من سجنها لتعبر البوسفور الى العالم .

وبعد أن قضي في هولنده أربعة شهور طلب الى وليم الثالث الاذن له بزيارة انجلتره ، شبه متنكر أيضا . وبعث وليم باليخت الملكى ليأتى به ، ووصل بطرس الى لندن في يناير ١٦٩٨ . ومع أن الوقت كان شتاء فانه زار أرصفة الموانيء والمؤسسات البحرية ، والجمعية الملكية ، ودار ضرب النقود ، ولعله التقى بنيوتن هناك . وقلب ايفلين بيته وهيأ أرضه بعناية في دبتفورد لبطرس وجماعته ، وقد منحت الحكومة الانجليزية السر جون بعد ذلك ٣٥٠ جنيها ليصلح التلف الذى أحــدثه الروس . وأدهش القيصر جيرانه بالذهاب الى فراشه مبكرا ، والاســـتيقاظ في الرابعة ، والسير الى أحواض السفن يحمل على كتفه بلطة وفي فمـــه « بيبة » . واتخذ ممثلة كبيرة خليلة له ، وقد شكت من ضآلة المال الذى نقدها اياه . وتسلم درجة الدكتوراة في القانون في اكسفورد ، وحضر الخدمات البروتستنتية في لياقة توقع معها القساوسة الانجليز أنه سيحول روسيا الى حركة الاصلاح البروتستانتي . وحاول الأسقف بيرنت التاثير عليه ، فوجده محبا للاستطلاع ولكنه لا يلتزم بموقف متميز ، وخلص الى أن القيصر « هيأته الطبيعة فيما يبدو لأن يكون نجار ســـفن أكثر منه ملكا عظيما (٢٣) » .

وأبحر بطرس عائدا الى امستردام بعد أن انفق أربعة اشـــهر في انجلتره ، وانضم الى بعثته ، وواصل معهم رحلتـــه الى فيينا مرورا بليبزج ودرسدن (٢٦ يونيو ١٦٩٨) . وعبثا حاول ، طوال شهر نفــد خلاله صبره ، أن يضم الامبراطور اليه في حلف ضد تركيا . وقد تلطف مع اليسوعيين الذين بدأوا يحلمون بروسيا الكاثوليكية الرومانية . وبينما هو على وشك مغادرة فيينا ، وصلته رسالة تنبئه بأن حامية موســـكو تمردت ، وأنها تهدد بالاستيلاء على موسكو وعلى مقاليد الحكم . فخف

من فوره الى روسيا ، ولكن قرب كراكو وصله تاكيد بأن الثورة أخمدت.
ولبث أربعة أيام فى رافا مع أوغسطس الثانى ملك بولنده . وأدهشه
وأبهجه ن يجد ملكا يستطيع أن يباريه فى قوة البدن ، وصيد الوحوش ،
والاسراف فى الشراب . وقد أحب أحدهما الآخر ، وتعانقا ، وتناقشا فى
أى البلدين يجب أن يكون أول ضحية لصداقتهما ، السويد أم تركيا .
وفى ٤ سبتمبر وصل بطرس الى موسكو بعد ثمانية عشر شهرا من رحلة
عينت فى رأى ماكولى « حقبة فى التاريخ ـ لا تاريخ بلده فحسب ...
بل تاريخ العالم (٢٤) » . لقد اكتشفت روسيا أوربا ، واكتشفت أوربا
روسيا . وبدأ ليبنتز يدرس الروسية .

على أن بطرس كان لا يزال له طبع مسكوفيى القرن السابع عشر .
انه لم يغتفر قط لحامية موسكو اشتراكهم فى قتل أخواله وماتفيف ، وفى
تمكين صوفيا من اغتصاب السلطة . ولم يكن فى خططه لتنظيم جيش
جديد مكان لهذا « الحرس الامبراطورى » المثير للمتاعب . فلما نمى
اليه أن صوفيا فاوضتهم من ديرها ليعيدوها الى الحكم ، وأنهم هددوا
ليفور وغيره من أهل « المستوطنة الالمانية » ، وأنهم أذاعوا الشائعات
بأنه يخون ديانة روسيا فى ولعه بالغرب ، استحال غضبه تشنجا يطلب
الانتقام . فأمر بتعذيب نفر كبير من الحامية ليحملهم على الاعتراف
بدور صوفيا فى تمردهم ؛ ولكنهم تجلدوا لأروع ضروب العذاب دون أن
يحملوها أى تبعة ، وأمر بتعذيب اتباعها بنفس الهدف والنتيجة .
وأكرهت صوفيا على أن تقطع على نفسها نذر الرهبنة ، وأحكم حبسها
فى ديرها ، حيث ماتت بعد ست سنوات . ثم أعدم ألفا من رجال الحامية
قتل بطرس منهم خمسة بيده ، وأكره مساعديه على أن يقتدوا به ، ولكن
ليفور أبى . وما وافى عام ١٧٠٥ حتى كانت حامية موسكو (السترلتسي)
قد اختفت من التاريخ .

وشرع بطرس من فوره فى بناء جيش جديد . وكان الجيش القديم
قوامه رجال الحامية ، والمرتزقة الاجانب ، والمجندون من الفلاحين
جمعهم الأشراف . فاستبدل بطرس بهذا الخليط جيشا دائما عدته
٢١٠,٠٠٠ مقاتل بتجنيده رجلا من كل عشرين أسرة من أسر الفلاحين .
والبس هؤلاء الجنود سترات عسكرية « أوربية » ودربوا على تكتيك
الغرب . اما مدة الخدمة لجميع الرتب فهى مدى الحياة . وفضلا عن

هذا دعا بطرس ١٠٠٫٠٠٠ قوزاقى للخدمة . وبنيت السفن على عجل على البحيرات ، والأنهار ، والبحار ، فما وافى عام ١٧٠٥ حتى كان للبحرية الروسية ثمان وأربعون بارجة ، وثمانمائة سفينة أصغر منها ، و ٢٨٫٠٠٠ بحار .

كان هذا كله لا يزال فى طريق التنفيذ ، ناقصا لم يكتمل بعد ، حين جاء باتكول الى موسكو واقترح أن ينضم بطرس الى فردريك الرابع ملك الدنمرك وأوغسطس الثانى ملك بولنده ليطردوا السويد من أرض القارة وينتزعوا منها الهيمنة على البلطيق . ورأى بطرس ان كل هذه السفن التى يجرى بناؤها تتوق لأن تمخر عباب البحر ، وهى تؤثر البحر المتوسط الدافىء — ولكن الامبراطورية العثمانية كانت لا تزال قوية الى حد يفت فى العضد . وكانت الآستانة عصية على الهجوم ، والنمسا وفرنسا الآن صديقتين للأتراك . فعلى روسيا اذن ان تتطلع الى الباب الآخر ، وان تلتمس لها منفذا فى الشمال . وكان من سوء التوقيت ان يحضر المبعوثون السويديون الى موسكو قبيل ذلك ويحصلوا على موافقة بطرس على تجديد معاهدة كاردس التى تعاهدت فيها روسيا والسويد على السلام . ولكن الجغرافيا والتجارة تهزءان بالمعاهدات . ثم ألم يكن ساحل البلطيق بين نهرى نيفا ونارفا — ولايتا اينجريا وكاريليا — من قبل ملكا لروسيا ، ولم يسلم للسويد فى ١٦١٦ الا لأن روسيا كانت فى فترة شدتها تلك عاجزة عن المقاومة ؟ فلم لا تسترد القوة ما أخذ بالقوة ؟ وعلى ذلك ، ففى ٢٢ نوفمبر ١٦٩٩ انضم بطرس الى الحلف ضد السويد ، واتخذ اهبته لشق طريقه الى البلطيق . وفى ٨ أغسطس ١٧٠٠ أمن جبهته الجنوبية على قدر ما تستطيع معاهدة تامينها ، وذلك بابرامه صلحا مع تركيا . فى ذلك اليوم بعينه أمر جيشه بالزحف على ليفونيا السويدية .

٥ — شارل الثانى عشر والحرب الشمالية الكبرى :

١٧٠٠ — ٢١

ونمى الى استوكهولم نبأ غامض عن اتفاق الحلف . فالتأم المجلس الملكى ليناقش اجراءات الدفاع . وكان الرأى الغالب وجوب فتح باب المفاوضات مع احد الحلفاء لعقد صلح منفرد معه . واستمع شارل

مليا وهو صامت ، ثم انتفض قائما وقال : « أيها السادة ، لقد عقدت النية على الا أخوض حربا ظالمة ما حييت ولكني ... لن أنهى حربا عادلة الا بالقضاء المبرم على أعدائي (٢٥) » . ثم طلق كل لهو وترف واتصال بالنساء ومعاقرة للخمر . وكان جيشه وبحريته مستعدين ، فغادر معهما استوكهولم في ٢٤ أبريل ١٧٠٠ ليبدأ واحدة من أروع السير الحربية في التاريخ . ولم يشهد عاصمة ملكه بعدها قط .

وبدأ بمهاجمة الدنمرك ، فقد كان عليه أن يحمى ولايات السويد الجنوبية من هجمات الدنمرك وهو يواجه بولنده وروسيا . ثم قاد سفنه عبر مضيق الساوند ـ المفترض أنه لا يصلح للملاحة ـ بما عهد فيه من جرأة وسرعة ، رغم اعتراض أميرال بحريته ، ورسا على سيبلاند ، التي لا تبعد عن كوبنهاجن سوى أميال (٤ أغسطس ١٧٠٠) . وسارع فردريك الرابع ملك الدنمرك الى ابرام صلح ترافندال معه (١٨ أغسطس) خشية أن تسقط عاصمته ، ودفع تعويضا قدره ٢٠٠,٠٠٠ ريال دنمركي ، وأقسم انه لن يهاجم السويد أبدا .

وفي مايو ١٧٠٠ حاول أوغسطس الثاني الاستيلاء على ريجا . ولكن هزمه الكونت ايريك دالبيرج ، القائد السويدي البالغ من العمر خمسة وسبعين عاما ، والذي اكتسب لقب « فوبان السويد » لمهارته في فن التحصين . وتقهقر أوغسطس وناشد بطرس أن يخفف عنه بغزوه اينجريا . واستجاب بطرس بان أمر اربعين الف مقاتل بحصار نارفا . وأراد شارل الثاني عشر أن يساعد دالبيرج ، فنقل جيشه بالبحر الى برناو (بارنو) ، على خليج ريجا ، ولكنه حين وجد ذلك المقاتل منتصرا ، اتجه شمالا . واخترق المناقع والممرات الخطرة ثم ظهر فجاة في مؤخرة جيش بطرس . وأخذ القيصر على غرة ، فبدر منه ما بدا جبنا معيبا ، اذ ترك الجيش (الذي كان يخدم فيه ملازما فقط) ، وفرّ الى نوفجورود وموسكو . وأغلب الظن انه عرف أن مجنديه الغشم سينهارون في أول امتحان لهم ، ولم يكن في وسعه أن يترك العدو يأمره ، لأنه رأى نفسه أعظم قيمة لروسيا حيا منه ميتا . أما الجيش الروسي ، الذي بلغ أربعين الفا ، والذي كان يقوده الامير المجري كارل يوجين ديكروا قيادة عاجزة ، فقد هزمه جنود شارل الثمانية الآلاف في موقعة نارفا (٢٠ نوفمبر ١٧٠٠) ، وكانت أول نكسة في حياة بطرس بعد صباه .

والح القواد السويديون على شارل فى ان يزحف على موسـكو ويجهز على بطرس . ولكن جيش شارل كان صغيرا ، والشتاء حل ، وكل شجاعة ، حتى شجاعة هذا النابليون الشاب ، لابد أن تتردد أمام مسافات روسيا المترامية فضلا عن مشكلة اطعـام الجيش فى أرض معادية . ثم (ما دامت العهود والمواثيق حبرا على ورق) هل يستطيع أن يركن الى ملك الدنمرك ، أو ملك بولنده ، فى ألا يغزو أحدهمـا السويد وجيشها الرئيسي وقائدها نائيان عن أرض الوطن ؟ وبعد أن أعاد شارل تنظيم حكومة ليفونيا ودفاعها ، سار جنوبيا الى بولنده ، واحتل وارسو دون عناء (١٧٠٢) على نحو ما فعل جده قبل سبعة وأربعين عاما ، وخلع أوغسطس ، ونصب ستانيسلاس لزكزنسكى ملكا على بولنده (١٧٠٤) . لقد هزم الآن كل حليف من الحلفاء ، ولكن الدب الروسي لم يكد يبدأ النزال .

ذلك أن بطرس لم يفق من رعبه فحسب ، بل نظم جيشا آخـر وجهزه . ولكى يزوده بالمدافع أمر بأن تصهر أجراس الكنائس والأديار، وصنع ثلاثمائة مدفع ، وانشئت مدرسة لتدريب رجـال المدفعيـة . وسرعان ما أخذت القوات المجندة الجديدة فى احراز الانتصـارات ، وتقدمت كتيبة مدفعية بطرس غيرها فى الاستيلاء على نينسكانس ، عند مصب نيفا (١٧٠٣) ، وهنا شرع القيصر لتوه فى بناء « بطرسبرج » دون أن يدرك الى ذلك الحين أنها ستكون عاصمة ملكه ، ولكنه صمم على أن تكون أحد منافذه الى البحر . وبينما كان شارل مشـغولا فى بولنده ، ظهر بطرس ثانية أمام نارفا . وكان شارل قد ترك فيها حامية ضئيلة ، واقتحم الروس القلعة الكبيرة (٢٠ أغسطس ١٧٠٤) ، وثأر المنتصرون لأنفسهم من فشلهم السابق بمذبحة رهيبة ، وضع لها بطرس حدا فى النهاية بأن قتل بيديه اثنى عشر من الروس المتعطشين للدماء .

وفى بولنده بدا أن انتصار شارل كامل . فقد وقـع أوغسطس المخلوع معاهدة اعترف فيها بلزكزنسكى رلكا ، وتخلى عن أحلافه ضد السويد ، واسلم لشارل الرجل الذى نظم الحلف أولا ، فحطم جسـد يوهان فون باتكول على دولاب التعذيب ثم قطع رأسـه (١٧٠٧) . ووجد بطرس نفسه وحيدا أمام هذا الارهاب السويدى الشاب . فحاول

أن يرشو الوزارة الانجليزية لترتب له صلحا ، ولكنها رفضت أن تتدخل . ومضى عامل بطرس راسا الى ملبره ، فوافق على الوساطة لقاء امارة فى روسيا (٢٦) ، وعرض عليه بطرس كييف أو فلاديمير أو سيبيريا ، وضمانا من خمسين الف طالير فى العام ، و « ياقوتة ماسية لا يملك نظيرها أى ملك أوربى » (٢٧) ، ولكن هذه المفاوضات اخفقت . وتعاطف الساسة الغربيون مع شارل ، واحتقروا أوغسطس ، وخافوا من بطرس ، وكانت حجة بعضهم أنه لو سمح لروسيا بالتوسع غربا ، فان أوربا كلها سترتعد بعد قليل أمام فيضان سلافى (٢٨) .

وفى أول يناير ١٧٠٨ عبر شارل الفستولا فوق جليد غير مامون على رأس ٤٤٫٠٠٠ مقاتل نصفهم من الفرسان . فوصل الى جرودنو فى اليوم السادس والعشرين بعد أن رحل عنها بطرس بساعتين فقط . ذلك أن رأى القيصر استقر على الدفاع بالعمق والتخريب . فامر جيوشه بأن تتقهقر ، وتستدرج شارل ليوغل داخل الفرشة الروسية أبعد فأبعد ، وتحرق كل المحاصيل أثناء مسيرتها ، وأمر الفلاحين بأن يخفوا قمحهم فى باطن الأرض أو تحت الثلوج ، ويشتتوا ماشيتهم فى الغابات والمستنقعات . وعهد الى الزعيم القوزاقى ايفان مازيبا بمهمة الدفاع عن « روسيا الصغيرة » وأوكرانيا . وكان مازيبا قد نشىء وصيفا فى البلاط البولندى ، وبأمر من نبيل بولندى أغوى ايفان زوجته ربط عريانا على حصان أوكرانى وحشي ، وأرهب الحصان عمدا بضربات سوط واطلاق مسدس عند أذنه (كما سيروى بيرون) ، واندفع الحصان خلال الأحراج والغابات الى مسارحه الأولى ، ولكن مازيبا ظل على قيد الحياة وان تمزق لحمه وسال دمه ، وارتقى حتى أصبح زعيما لقوزان زابوروج . وتظاهر بالولاء لبطرس ، ولكنه كره أوتقراطية القيصر ، وترقب الفرصة للثورة . فلما سمع بأن بطرس يتقهقر وشارل يتقدم ، قرر أن فرصته قد حانت . فارسل الى شارل يعرض عليه التعاون معه .

ولعل هذا العرض هو الذى حدا بشارل الى المضي فى زحفه المتهور داخل روسيا . وبدأت سياسة « الأرض المحرقة » تؤتى ثمارها، فلم يجد السويديون غير برية متفحمة فى طريقهم وأخذوا يتضورون جوعا . وكان شارل قد اعتمد على تعزيزات انتظر وصولها من ريجا ،

وقد حاولت أن تصله ولكن الروس دمروها نصف تدمير فى طريقها . وعلل شارل نفسه بأن مازيبا سينضم اليه بالامداد وقوة قوزاق الدنيبر كاملة ، ولكن بطرس ، الذى توجس من خيانة مازيبا ، جرد جيشا بقيادة الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ليقبض عليه ، وفوجىء الزعيم قبل أن يستطيع ايقاظ فرسانه ، ففر الى شارل عند هوركى جالبا معه ألفا وثلثمائة رجل فقط . وزحف شارل جنوبا ليستولى على عاصمة مازيبا ، واسمها باتورين ، ويأخذ مؤنها ، ولكن منشيكوف سبقه اليها ، وأحرق المدينة وسواها بالتراب ، وعين زعيما مواليا لروسيا . واستعمل بطرس كل سلاح ، فثنى القوزاق عن الانضمام الى السويديين بمنشورات وصفت الغزاة بأنهم مهرطقون « ينكرون عقائد الدين الصحيح ويبصقون على صورة العذراء المقدسة » (٢٩) . ولم يبق لشارل من أمل الا فى أن يخف التتار والترك لنجدته انتقاما لاستيلاء بطرس على آزوف .

ولكن أحدا لم يأت ، وكان شتاء ١٧٠٨ - ٩ عدوا رهيبا للسويديين . كان شتاء قارسا جدا فى كل أرجاء أوربا ، فتجمد البلطيق الى عمق سمح لعربات النقل الثقيلة أن تعبر الساوند على الجليد ، وفى المانيا ماتت أشجار الفاكهة ، وغطى الجليد الرون فى فرنسا ، والقنوات فى البندقية . وفى أوكرانيا كست الثلوج الأرض ، من أول أكتوبر الى ٥ أبريل ، وسقطت الطيور نافقة أثناء طيرانها ، وتجمد اللعاب فى طريقه من الفم الى الأرض ، وتجمد النبيذ والمسكرات فاصبحت كتلا صلبة ، واستحال اشعال الحطب فى العراء ، وكانت الريح ماضية كالمدى فى هبوبها على السهول المنبسطة وعلى وجوه الناس . واحتمل جنود شارل فى تجلد صامت بينما لقى ألفان منهم حتفهم جوعا أو بردا . قال شاهد عيان « كنت ترى بعضهم بغير أيد ، وبعضهم بغير أرجل ، وبعضهم بغير آذان أو أنوف ، وكثيرين يزحفون فى سيرهم على نحو ما تفعل ذوات الأربع (٣٠) » وأمرهم شارل بالسير قدما ، أملا فى انهم لن يلبثوا أن يباغتوا جيش بطرس الرئيسى فى مكان ما ويظفر بروسيا كلها فى نصر ساحق واحد . وكان أينما التقى بالعدو ، فى هولوفكزين ، وسركوفا ، وأوبرسيا ، ينتصر بفضل التفوق فى القيادة والشجاعة ، على قوات كثيرا ما بلغت عشرة أضعاف

قواته . ولكن حين انتهى ذلك الشـــتاء ، كان جيشـــه قد تقلص من ٤٤٫٠٠٠ الى ٢٤٫٠٠٠ مقاتل .

وفى ١١ مايو وصل الى بلطاوه الواقعة على فرع من فروع الدنيبر على خمسة وثمانين ميلا جنوب غربى خركوف . هنالك لمح شـــارل أخيرا جيش بطرس ، وكانت عدته ثمانين ألف مقاتل . وبينما كان فى احدى جولاته الاستطلاعية أصابته رصاصة فى قـــدمه . فلم يعبـــأ بالجرح . وانتزع الرصاصة فى هدوء بسكينه ، ولكنـــه حين عاد الى معسكره اغمى عليه ، فلما عجز عن قيادة جيشه بشخصه ، وكل بهـــا الجنرال كارل رينسكيول ، وأمره بأن يهاجم العدو فى الغـــد (٢٦ يونيو) . وفى بداية المعركة اكتسح السويديون كل شيء أمامهم ، وهم الذين لم يخسروا قط معركة تحت امرة شارل . ورغبة فى اســـتنفار جنوده أمر شارل أن يحمل الى ساحة القتال على محفة ، ولكن نيران العدو حطمتها من تحته . وركب بطرس الى المقدمة رغـــم أنه مازال رسميا مجرد ملازم فى الجيش ، مستنهضا همم جنده ، ولكن رصاصة مرقت خلال قبعته ، وثانية صدها صليب ذهبى على صدره . وأسعفته الآن سنواته التى أعد فيها المدفعية ودربها ، فكانت مدافعه تطـــلق خمس مرات مقابل مرة يطلقها السويديون . فلما نضـــبت ذخـــيرة السويديين فتكت المدفعية الروسية بالمشاة السويديين على بكرة أبيهم ، واستسلم الفرسان السويديون حين رأوا الموقف ميئوسا منه . أما شارل فقد امتطى جوادا وفر مع مازيبا والف مقـاتل عبر الدنيبر الى أرض تركية . وفقد السويديون أربعة آلاف رجل بين قتيل وجريح ، والروس ٤٫٤٣٥ ولكنهم أسروا ١٨٫٦٧٠ فيهم قائدان وضباط كثيرون . وعامل بطرس الضباط معاملة كريمة ، ولكنه استخدم الأسرى فى التحصينات والأشغال العامة . وأشاد ليبنتز بانسانيته واستنتج من ضخامة الكتائب الروسية أن الله يقف فى صف الروس (٣١) . ووافقه بطرس ، وكتب يقول : « الآن بعون الله أرســـيت أساســـات بطرســـبرج وأمنتهـــا الى الأبد (٣٢) » .

وكان للمعركة نتائج بعيدة المدى لا حصر لها . فقد فر لزكزنسكى الى الألزاس ، واعتلى أوغسطس الثانى عرش بولنـــده من جـــديد . واستولت روسيا على امارات البلطيق وكل أوكرانيا . وعادت الدنمرك

الى الحلف ضد السويد ، وغزت سكانى ، ولكنها ردت على أعقابها . واستولى فردريك وليم ملك بروسيا على ستتين وهولشتين وجـزء من بومرانيا . وارتفع شان روسيا وازدادت عزة وكبرياء . وعرض لويس الرابع عشر التحالف مع بطرس ، فرفضه هذا ، ولكنه رضي أن يستقبل مبعوثا للويس .

اما شارل فانه لم يعترف بانه هزم هزيمة ساحقة . واغدق الاتراك الشاكرون صنيع أى انسان يثير القلاقل لروسيا على لاجئهم الملكى كل أسباب التكريم ، باستثناء الامتيازات الملكية . ففى بندر (وهى اليوم تيغينا) القريبة من الدنيستر ، احتفظ ببلاطه ، وتلقى من السـلطان أحمد الثالث المئونة له ولألف وثمنمائة سويدى بقوا فى خدمته . وحالما التأم جرح قدمه استانف التمرينات العسكرية ودرب جيشه الصـــغير . وشاع عنه أنه اعتنق الاسلام لزهده فى الخمر واختلافه الى الصلاة العامة بانتظام . ولم يدخر وسيلة ليقنع السلطان أو الصدر الأعظـــم بشـن الحرب على روسيا ، وبهذا الامل رفض أن تعيده الى الســويد سـفن فرنسية وضعت تحت تصرفه . وبذلت محاولة لتسميمه ، ولكنها كشفت فى أوانها . وطالب بطرس بان يسلم اليه مازيبا باعتباره مواطنـــــا روسيا خائنا ، ولكن شارل أبى أن يسمح بهذا ، وقطع مازيبا العقـدة بأن مات (١٧١٠) .

ان كل انتصار يولد أعداء جددا أو يلهب الأعداء القدامى . وقد استطاع شارل أن يقنع السلطان بأن قـــوة روســـيا المتزايـدة ، التى لا يكبحها الآن كابح فى الشمال ، ستتحدى هيمنة الترك على البحـــر الاسود والبوسفور ان عاجلا أو آجلا . فاعلن السلطان الحــرب على روسيا ، وجرد عليها ٢٠٠٫٠٠٠ مقاتل بقيادة الصدر الأعظم . وأخـذ بطرس على غرة ، فلم يستطع ان يحشد أكثر من ٣٨٫٠٠٠ مقاتل فى الجنوب ليصد هذا السيل الجارف . وخذله حلفاؤه البلغار والصرب . فلما التقى الجيشان على نهر بروت (وهو اليوم حد رومانيا الشرقى) اضطر بطرس لمنازلة الترك ، لان الاقليم المحيط به كان قد دمر . ولم يكن لديه غير مئونة يومين . وتوقع الهزيمة والموت ، فارسل تعليماته الى موسكو لانتخاب قيصر جديد اذا تحققت مخـاوفه ، ثم اعتكف فى خيمته ومنع أى انسان من الدخول عليه . ولكن زوجته الثانية كاترين

اتفقت مع قواده على ان الاستسلام خير من الانتحـــار الجمـــاعى . وواجهت غضب بطرس اذ حملت اليه خطابا طلبت اليه التوقيع عليه ، يطلب فيه الى الصدر الاعظم شروط الصلح . ووقع بطرس يائســـا . وجمعت كاترين كل مجوهراتها ، واقترضت مالا من الضباط ، وبعثت بطرس شافيروف نائب المستشار ، مســـلحا بـــ ٢٣٠٫٠٠٠ روبـــل ، ليفـــاوض الوزير فى شروط الصـــلح . وأخـــذ الوزير الروبـــلات والمجوهرات ، وسمح لبطرس بأن يسحب جيشه وعتـــاده دون عائق ، شريطة أن يسلم آزوف ، ويجرد القلاع والسفن الروسية هناك من سلاحها ويسمح لشارل بالعودة الى السويد فى أمان ، والا يتدخل بعدهـــا فى شئون بولنده . ولم يتردد بطرس فى بذل هذه الوعود (أول أغسطس ١٧١١) وانصرف بجنوده . واقبل شارل مستعدا لخوض المعـــركة ، ولكنه استشاط غضبا حين وجد الصلح أمامه . فحمل الســـلطان على طرد الوزير المسالم وواصل جهوده لاستئناف الحرب ، ولكن شافيروف، الذى حمل معه ٨٤٫٩٠٠ دوكاتية ، أقنـــع الوزير الجـــديد بتثبيت معاهدة بروت .

وأعيت السلطان هذه العقد ، فطلب الى شارل أن يرحـــل عن تركيا ، ولكنه أبى . فارسل السلطان قوة تركية عدتهـــا اثنا عشر الف رجل لاجلائه ، واستطاع شارل باربعين رجلا أن يصمد لهم ثمـــانى ساعات ، قتل خلالها عشرة أتراك بشخصه ، وأخيرا قهـــره اثنا عشر انكشاريا (أول فبراير ١٧١٣) . فنقل الى ديموتيكا قـــرب أدرنه ، ولكن سمح له بأن يمكث فيها عشرين شهرا بينما كان وزير جديد يفكر فى مقاتلة روسيا . فلما تضاءل هذا الأمل وافق شارل على العـــودة للسويد . فزود بالحرس العسكريين والهدايا والأموال . وغادر ديموتيكا (٢٠ سبتمبر ١٧١٤) ، واخترق الأفلاق وترانسلفانيا والنمسا ، وفى منتصف ليلة ١١ نوفمبر وصل الى بومرانيـــا وثغـــرها وحصـــنها سترالسوند ، على ساحل البلطيق جنوب السويد مباشرة . وكانت هى وفيسمار الى الغرب آخر القلاع السويدية على أرض القارة .

وكان اصرار شارل قبيل ذلك على حكم الســـويد من تركيـــا ، ورفضه بذل أى تنازلات لبطرس ، قد جرا الخراب على الامبراطورية

)السويدية . ففى أول أغسطس ١٧١٤ كان جورج ناخب هانوفر قد أصبح جورج الأول ملك انجلترة . فلما عقد العزم على استخدام قوته الجديدة فى ضم بريمين وفيردين الى هانوفر ، جمع بين بريطانيا وبين الدنمرك وبروسيا فى حلف جديد ضد السويد ، وعزز الأسطول الانجليزى الأسطول الدنمركى فى المضايق . ووجد شارل نفسه حبيسا فى سترالسوند ، فى حرب مع انجلتره ، وهانوفر ، والدنمرك ، وسكسونيا ، وبروسيا ، وروسيا . وظل يقاوم الحصار هناك اثنى عشر شهرا بستة وثلاثين الف مقاتل ، يقود حاميته المرة بعد المرة فى هجمات بطولية عقيمة . فلما حطمت مدافع المحاصرين المدينة واسوارها ، ولم يكن مفر من التسليم ، قفز شارل فى سفينة صغيرة ، وابحر بها وسط نيران العدو ، وبلغ كارلسكرونا على ساحل السويد (١٢ ديسمبر ١٧١٥) .

وانتظرت استوكهولم وصول بطلبها اليائس ، ولكنه أبى أن يعود اليها الا قائد ظافرا . فامر بتجنيد قوات جديدة حتى من الغلمان الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة ، وصادر جميع السلع الجديدية ليبنى بها أسطولا جديدا ، وفرض الضرائب على كل شيء تقريبا يستعمله شعبه حتى شعورهم المستعارة . فاذعنوا صامتين ، ظنا منهم بانه ربما قد جن ، ولكنه مع ذلك عظيم . وجاهد البارون جيورج فون جورتز ، كبير وزرائه الآن ، ليحطم الحلف . ولاحظ أن جورج الأول مختلف مع بطرس على تقسيم الاسلاب ، فحاول أن يعقد صلحا بين السويد وروسيا ، ويعين ثورة أسرة ستيوارت فى انجلتره ، ولكن خططه باءت بالفشل . وما وافى خريف ١٧١٧ حتى كان شارل قد حشد جيشا من عشرين ألف مقاتل . فى تلك السنة ، ثم فى ١٧١٨ ، غزا النرويج ، أملا فى أن يكسب أرضا تعوضه ما فقد على أرض القارة . وفى ديسمبر حاصر قلعة فريدريكستين . وفى اليوم الثانى عشر رفع رأسه لحظة فوق متراس الخندق الامامى واذا رصاصة نرويجية تصيبه فى صدغه الايمن فترديه قتيلا لفوره . وكان يومها فى السادسة والثلاثين .

لقد مات كما عاش ، مشدوها ببسالته . كان قائدا مغوارا ، كسب انتصارات لا تصدق فى ظروف معاكسة جدا ولكنه عشق الحرب عشق

المخمور بها ، ولم يشبع من الانتصـــارات ، وفى ســبيل البحث عن انتصارات جديدة راح يدبر الحملات الى حد أشرف على الجنون . وقد افسدت الكبرياء كرمه وسماحته ، كان يعطى كثيرا ، ويطلب أكثر ، ولقد عاق السلام غير مرة برفضه تنازلات ربما أنقذت امبراطوريته وماء وجهه . ولكن التـــاريخ يغتفر له أخطـــاءه ، لأنه لم يكن البـــادىء بـ « الحرب الشمالية العظمى » ، هذه الحرب التى أبى أن يختتمهـــا الا بالانتصار .

أما الحكومة السويدية ، التى ندر أن جنحت الى التطرف ، فقد سارعت بمفاوضات الصلح . وبمقتضي معـــاهدتى اســتوكهولم (٢٠ نوفمبر ١٧١٩ و ١ فبراير ١٧٢٠) نزلت عن بريمين وفيردين لهانوفر ، وعن ستيتين لبروسيا ، ورفضت أول الأمر مطـــالب بطرس بجميـع الأراضي السويدية فى البلطيق الشرقى ، فغزت الجيوش الروسية ثلاث مرات هذه الدولة التى استنزفت الحروب دماءها ، وخربت أراضيهـــا الساحلية ومدنها . وأخيرا ، وبمقتضي معاهدة نيستاد (٣٠ أغسطس ١٧٢١) حصلت روسيا على ليفونيا ، واستونيا ، واينجريا ، وجزء من فنلنده . وهكذا ترك الصراع على البلطيق روسيا ظافرة ، وجعل منهـا « دولة عظمى » .

أما القيصر المكدود ، المكتهل ، الظافر رغم ذلك ، والذى وصل الى بطرسبرج ومعه نبأ السلام ، وهتاف السلام ، السلام « مير ! ميرا» فقد حياه شعبه أبا لوطنه ، وامبراطورا لأقاليم روسيا كلها ، ولقبـــه ببطرس الأكبر .

الفصل الثالث عشر

بطرس الأكبر

١٦٩٨ ـ ١٧٢٥

١ ـ الهمجي

أراد فولتير « أن يعرف ما الخطوات التى انتقل بها الناس من الهمجية الى المدنية (١) » فلا عجب اذن أن أثار بطرس اهتمامه ، لأنه كان يجسد على الأقل ذلك الجهد ، ان لم يكن تلك العملية ، فى بدنه وروحه وشعبه . أو استمع الى ملك « أكبر » آخر ، هو فردريك الثانى ملك بروسيا ، يكتب الى فولتير عن بطرس فى شيء من الخلط :

« لقد كان الملك الوحيد المتعلم حقا . ولم يكن مشرع وطنه فحسب ، بل كان يفهم جميع العلوم البحرية فهما تاما . وكان معماريا ، ومشرحا ، وجراحا ... وجنديا خبيرا ، واقتصاديا بارعا .. .. ولم يعوزه الا تعليم أقل همجية وضراوة (٢) ليكون المثل لجميع الملوك » .

ولقد لاحظنا ذلك التعليم الهمجى الضارى ، وما اكتنف طفولة بطرس من عنف وسفك للدماء ، مما هز جهازه العصبى وعوده الشراسة . وكان حتى فى شبابه يعانى من تقلص عصبى لاارادى فى عضلاته ربما استفحل بعد ذلك بالافراط فى الخمر وبالمرض السرى(٣). كتب بيرنيت بعد أن زاره بانجلتره فى ١٦٩٨ (٤) يقول : « انه عرضة لتشنجات تصيب بدنه كله » . وقال روسي من أهل القرن الثامن عشر « من المشهور أن هذا الملك ... كان عرضة لنوبات مخية قصيرة متكررة من نوع عنيف بعض الشيء . وكان ضرب من التشنج يعتريه ، يحدث به فى فترة قد تمتد ساعات حالة من الاكتئاب تجعله لا يطيق النظر الى انسان ولو كان أقرب أصحابه . وكان يسبق هذه النوبة دائما التواء شديد فى العنق نحو الجانب الأيسر ، وتقلص عنيف فى عضلات

الوجه (٥) » • ومع ذلك كان متين البناء قوى البـــدن • وروى أنه حين التقى باوغسطس الثانى تباريا فى ثنى الأطـــباق الفضــــية فى ايديهما • وقد صوره نيلر عام ١٦٩٨ شابا يتقلد السلاح وشعارات الملك، غاية فى اللطف والبراءة ، بعد ذلك نجده مصورا تصويرا أكثر واقعية، فهو عملاق محدودب ، طوله ستة أقدام وثمانى بوصات ونصف ، ذو وجه تام الاستدارة ، وعينين واسعتين وأنف كبير ، وشعر بنى يتساقط فى خصل لا تقص الا نادرا • ولا تكاد نظرته الآمرة الناهية تنسجم وثوبه المهمل المهوش ، وجواربه الخشنة المرفوة ، وحذاءه المرقع ترقيعـــــا بدائيا • ومع أنه نظم أمة باسرها الا انه كان يترك محيطة المباشر فى فوضى أينما ذهب • ذلك أن الجهود الكبيرة استغرقته استغراقا ضن معه على التوافه باى وقت •

وأما عاداته فكانت كلباسه لا تعمل فيها ولا تانق حتى لتحســبه فلاحا لا ملكا ـ لولا أنه كان خلوا من صبر الفلاحين الروس المتبلد • بل لقد كانت عاداته أحيانا أسوأ من عادات الفلاحين لأنه لم يكبحه خوف من سيد أو خشية من قانون • مرة رأى تمثالا لآلة الذكر فى مجموعة عاديات ببرلين ، فامر زوجته أن تقبله ، فلما رفضت كاترين هددهــا بضرب عنقها ، ولكنها أصرت على الرفض ، ولم يهـــدىء من ثائرته الا تقديم التحفة هدية له يزين بها حجرته الخاصــــة (٦) • وكان فى أحاديثه ورسائله يبيح لنفسه استعمال انكر الالفاظ وافحشها • وكثيرا ما كان يعنف أخص أصدقائه بضربات من قبضته الهائلة ، ومرة ضرب منشيكوف على أنفه فأسال دمه ، ومرة ركل ليفـــور • وكان ولعـــه بـ « المقالب » يتخذ أحيانا صورا قاسية ، من ذلك انه الزم أحــــد مساعديه بأن ياكل السلاحف ، وآخـــر بان يشرب قـارورة كاملة من الخل ، وفتيات صغيرات بان يبتلعن حصة جندى من البراندى • وكان يجد لذة شاذة فى تطبيب الأسنان ، وكان على المقربين منه أن يحذروا من أن تبدر منهم أقل شكوى من ألم فى أسنانهم ، فكلابته دائمـا فى متناوله • ولما شكا اليه تابعه من أن زوجته تحتج بألم مزعوم فى ضرسها لتحرمه من متع الزواج ، أرسل فى طلبها ، وخلع لها ضرسا سليما ، وقال لها أن تنتظر المزيد اذا ظلت عزباء (٧) •

ولقد جاوزت قسوته الفاجرة النقطة التى يمكن أن يعتذر عنهـا

بانها طبيعية أو ضرورية فى زمانه ومكانه . حقـا لقـد الف الروس القسوة ، ولعلهم كانوا اقل حساسية للالم من ذوى الاعصـاب الاكثـر رهافة ، وربما كانوا فى حاجة الى تاديب صارم ، بيد ان قيام بطرس شخصيا تقريبا بذبح حامية موسكو يوحى بلذة سادية بالقسوة ، وشبق للدماء ، وما كان هناك ضرورة من ضرورات الدولة تقتضي تقطيع اثنين من المتآمرين شرائح حتى يموتا (٨) . لقد كان فى بطرس مناعة ضد الرحمة أو الحنان ، واعوزه ذلك الاحساس بالعدالة الذى كبح نزوات لويس الرابع عشر أو فردريك الاكبر . أما انتهاكاته لوعوده القاطعـة فكانت تنسجم تماما وسنة العصر .

وكان يرى ككل فلاح روسي أن السكر استعفاء معقول من واقـع الحياة . فلقد اضطلع بكل اعباء الدولة ، وبمهمة أخطر بكثير هى مهمة تحويل شعب شرقى الى الحضارة الغربية ، ومن ثم بدا الشراب والقصف مع أصحابه تخففا يستحقه . وكان يتقبل من كل قلبه حكمة الفـلاحين التى تزعم ان الشراب فرحة الروسي . وكان مما يقيس به قدر الرجـل قدرته على احتمال الشراب . وحين كان فى باريس راهـن على أن كاهن اعترافه يستطيع أن يشرب اكثر ، ويظل أثبت جنانا ، من الكاهن أمين سر الوزارة الفرنسية ، ومضت المباراة ساعة ، فلما تدحرج الأب الفرنسي تحت المائدة ضم بطرس كاهنـه اليـه لأنه « انقـذ شرف روسيا (٩) » . وحوالى عام ١٦٩٠ الف بطرس وخلصاؤه فرقة سموها « جماعة المخمورين من الحمقى والمهرجين » » (السوبور) . وانتخب الأمير فيودور رومودانوفسكى قيصرا للسوبور ، وقبل بطرس منصـبا ادنى (كما فعل فى الجيش والبحرية) ، وكثيرا ما كان في الحيـاة الواقعية يتظاهر بان رومودانوفسكى هو قيصر روسيا . وكان « سوبور» السكارى هذا مكرسا رسميا لعبادة باخوس وفينوس ، وكانت له شعائر معقدة ، تقلد فى سوقية وفحش شعائر الكنيستين الأرثوذكسية الروسية والكاثوليكية الرومانية ، والكثير من هذه الشعائر السـاخرة كان من وضع بطرس نفسه . وشارك السوبور فى كثير من احتفـالات الدولة الرسمية . فلما تزوج بطريركه الهزلى نيكيتا زاتوف ، البالغ من العمر اربعة وثمانين عاما ، عروسا فى الستين ، صمم بطرس وأدار احتفالا بذيئا مزينا (١٧١٥) ، يشارك فيه نبلاء البلاط ونبيلاته جنبـا الى جنب مع الدببة والغزلان والتيوس ، ويعزف السفراء على النـاى أو الارغن اليدوى ، ويدق بطرس على الطبل (١٠) .

كان حبه للفكاهة صخابا لا يعرف القيود ، وكثيرا ما أسف حتى استحال تهريجا . وكان بلاطه يعج بالمهرجين والأقـــزام الذين كانوا عنصرا لا غنى عنه لكل احتفال . وذات مرة ركب القيصر ، الذى ناهز سبعة اقدام طولا وراح يلعب دور جليفر أمام الليليبوتيين ، فى موكب على رأس أربعة وعشرين قزمـــا راكبين . وكان يقتنى فى فترة من الفترات اثنين وسبعين قزما فى بلاطه ، ويقدم بعضهم على المائدة فى فطائر هائلة الحجم . كذلك كان عنده عمالقة ، ولكن اكثرهم ارسـلوا هـــدية لفردريك وليم ملك بروســيا لينخرطوا فى جيش عمالقتـــه « المسلات » . وقد أهدى الى بطرس عدة زنوج وكان يقــدرهم تقديرا كبيرا ، وبعث بعضهم الى باريس ليتعلموا ، وأصـبح احــــدهم قائدا روسيا ، وهو الجد الأكبر للشاعر بوشكين .

الى الآن صورنا بطرس رجلا ما زالت تغلب عليه الفطرة الهمجية، رجلا من طراز ايفان الرهيب ولكنه مرح ، تواقا الى التحضر ولكنــه يحسد الغرب ـ لا على لطائفة وفنونه بل على جيوشه وأساطيله ، وعلى تجارته وصناعته وثروته . وكانت فضائله موجهة الى هذه الغـــايات باعتبارها مقومات الحضارة . ومن هنا فضوله الذى لا يشبع . فهو يريد أن يعرف عن كل شيء كيف يسير ، ثم كيف السبيل الى تسييره ســيرا أفضل . وقد أضنى مساعديه أثناء رحلاته بالجرى هنا وهناك ليرى هذا وذاك حتى اثناء الليل . كان فى غمرة من أفكاره ، فأذهل بذلك ليبنتز ، الذى كان فى غمرة أخرى من افكاره ، ولكن أفـــكار بطرس كانت نفعية لاخفاء فيها . فقد كان له عقل مفتـــوح لأى شيء قد يعين وطنه على اللحاق بالغرب . وفى وسط أمة متدينة تدينا عابسا ، معادية بتعصب للعقائد الغربية ولأساليب الحياة الدخيلة ، كان مبرأ من التحيز كأنه الطفل أو الحكيم ، يجرب الكاثوليكية ، والبروتستنتية ، وحتى الالحاد . كان مقلدا أكثر منه مبتكرا ، نقل الأفكار المجلوبة أكثر ممـــا تصورها ، ولكن فى محاولته لرفع أمته الى مستوى المنافسة مع الغرب، كان من الأحكم أن تستوعب هذه الأمة خير ما يستطيع الغرب تعليمه أولا ، ثم تحاول التفوق عليه . ان المحاكاة لم تكن قط بمثـــل هـــذه الأصالة .

وقد رفعه تفانيه الدءوب فى سبيل هذا الهدف من الهمجيـة الى

العظمة . واذا كان قد سخر وافنى ملايين الروس لتحقيق غاياته فانه افنى نفسه ايضا فى محاولته اعطاء روسيا جيشا عصريا ، وحكومة اكفأ ، وصناعات اكثر تنوعا وانتاجا ، وتجارة أوسع ، وثغورا تستطيع أن تتصل بالعالم . كان يتوخى القصد فى كل شيء الا الحياة البشرية ، التى كانت السلعة الوحيدة التى تزخر بها روسيا . وكان أول اجراء له تقريبا حين تقلد زمام الحكم انه طرد جيش الخدم وموظفى القصر الذين غص بهم البيت المالك ، وباع ثلاثة آلاف جواد من المرابط الملكية ، وأطاح بثلاثمائة من الطهاة وصبيانهم ، وخفض عدد الجالسين الى مائدة الملك حتى فى الأعياد الى ستة عشر على الأكثر ، واستغنى عن الاستقبالات والمراقص الرسمية ، وحول الى الدولة المبالغ التى كانت الى ذلك الحين مخصصة لهذه الكماليات . وكان أبوه الكسيس قد خلف له من الممتلكات الشخصية ١٠ر٧٣٤ ديمياتينا (٢٨ر٩٨٢ فدانا) من الأرض المزروعة وخمسين الف بيت ، تغل ريعا قدره ٢٠٠ر٠٠٠ روبل فى العام . فنزل بطرس عن هذا كله تقريبا لخزانة الدولة ، ولم يحتفظ لنفسه الا بالميراث القديم لأسرة رومانوف — وهو ثمانمائة « نفس » فى اقليم نوفجورود . وعلى عكس لويس الرابع عشر ، خفض أعظم قيصر تبوأ عرش روسيا حاشيته فى الواقع الى بضعة أصدقاء ، مع احتفال بين الحين والحين ، غير رسمى وأحيانا صاخب ، ليضفى بعض الحيوية على جو موسكو الرتيب . وكثيرا ما استحال اقتصاده شحا شديدا . فكان يبخس موظفى قصره أجورهم ، ويقتر فى حساب نفقة القصر اليومية من الطعام ، ولا يدعو أصدقاءه لغداء أو عشاء بل لرحلات خلوية يدفع فيها كل منهم نصيبه ، ولما اشتكت البغايا اللاتى يرفهن عنه من ضآلة أتعابهن أجاب بانه ينقدهن قدر ما ينقد رامى القنابل اليدوية ، وهو رجل تفوق خدماته خدماتهن قيمة .

اما النساء فكن احداثا عارضة قليلة الخطر فى حياته باستثناء واحد . ذلك أنه لم يكن مرهف الحس بالجمال . نعم كانت له حاجات جنسية ، ولكنه اشبعها دون احتفال . ولم يكن يحب أن ينام وحيدا ، ولكن لا شأن لهذا بالجنس ، وكان أحد الخدم يقاسمه فراشه عادة ، ولعله كان يحتاج الى شخص قريب منه اذا دهمته تشنجاته فى الليل . وحين بلغ السابعة عشرة ، ورغبة فى تهدئة أمه ، تزوج يودوكسيا لوبوخينا ، التى وصفت بأنها « جميلة غبية » ، فلما وجد احدى

الصفتين اكثر دواما من الاخرى اهملها ، وعاد الى أصحابه ومراكبه . واتخذ سلسلة من الخليلات العابرات ، كن فى الكثير الغالب وضيعات الاصل رقيقات الحال . ومرة كان فردريك الثانى ملك الدنمرك يمـزح معه فى أمر اتخاذه محظية فأجـابه بطرس « ياأخى ، ان عاهراتى لا يكلفننى الكثير ، اما عاهراتك فيكلفنك آلاف الكراونات التى تستطيع ان تنفقها فى وجوه الفضل (١١) » . وقد عمل ليفور ومينشسيكوف قوادين له ، ونزل مينشيكوف عن خليلته لتكون زوجة بطرس الثانية . ولا بد أن هذه المرأة اوتيت قدرة فذة رفعتها ـ كما رفعت تيودورا خليلة جستنيان من قبل ـ الى عرش الامبراطورية بعد أن كانت مومسا .

أما هذه المرأة ، التى ستصبح كاترين الأولى ، فقد ولدت حوالى ١٦٨٥ بليفونيا من أسرة وضيعة . ولما تيتمت رباهـا الراعى اللوثرى جلوك خادمة فى مارينبورج ، وعلمها مبادىء المسيحية ولكنه لم يعلمها الأبجدية ، ولم تتعلم القرءاة قط . وفى ١٧٠٢ حاصر جيش روسي يقوده شيريميتيف مارينبورج . فلما يئس قائد الحامية من الدفـاع قرر أن ينسف القلعة وهو فيها . ونمى الى القس جلوك ما نوى القائد ، فأخـذ أسرته وخادمته وفر الى المعسكر الروسي . فارسل الى موسكو ، ولكن كاترين أبقيت لترفه عن الجنود . وارتقت منهـم الى شيريميتيف ، فمينشيكوف ، فبطرس . فى تلك الحروب والاخطار كان على المـرأة الفقيرة أن تتلطف لتاكل . ويبدو أن كاترين ظلت حينا تخـدم كلا من مينشيكوف والقيصر . وقد أحباها لانها كانت نظيفة ، بشوشة ، لطيفة ، متفهمة ، فهى مثلا لم تصر على أن تكون الخليلة الوحيدة ، ووجـد بطرس فيها ترفيها مرحا بعد ضجيج السياسة أو الحـرب وغضـبات المخظيات الغيورات . ورافقته فى حملاته ، وعاشت عيشة الجنـود ، وقصت شعرها ، وافترشت الارض ، ولم تجفل حـين رأت الرجـال يصرعهم الرصاص الى جوارها . فاذا دهمت بطـرس احـدى نوبات تشنجه وخاف الجميع أن يلمسوه ، كانت تتحدث اليه ملاطفه ، وتربته ، وتهدىء روعه ، وتدعه ينام ورأسه على صدرها . واذا افترقا كتب الى « كاترينوشكا » حبيبته رسائل تفيض حنانا معابثا ولكنه مخلص . ثم غدت ضرورة لا غنى له عنها . ولم يحل عام ١٧١٠ حتى كانت زوجته فى كل شيء الا شرعا . وولدت له عدة أطفال . وفى ١٧١١ عاونت على انقاذه فى البروث . وفى ١٧١٢ اعترف بها زوجة له علانيـة . وفى ١٧٢٢ توجها امبراطورة .

وكان تاثيرها عليه طيبا من نواح كثيرة • فهذه الصبية الفلاحـة هذبت من طباع ذلك الملك الفظ • لقد حدت من ولعه بالمسـكر ، وفى عدة مناسبات كانت تدخل الحجرة التى يعاقر فيها الخمر ويقصف مع اصحابه وتأمره بهدوء قائلة : « عد الى البيت أيها الأب الصـغير » فيطيعها • وكانت تغضي عن مغازلاته بعد الزواج • ولم تبذل محاولة للتاثير عليه فى مجرى السياسة ، ولكنها حرصت على أن يدبر القيصر امر مستقبلها ، ومستقبل أقربائها ، وأصدقائها • وتغلبت على الاستياء العام من جراء رفعها من أصلها الوضيع بسلوكها مسلك ملاك الرحمة ، ففى حالات عديدة أنقذت أشخاصاً من العقوبات التى اراد بطرس أن ينزلها بهم ، فاذا أصر على الصرامة كان عليه ن يخفى الامر عنهـا • وقد استغلت سلطانها عليه ببيع وساطتها ، وبهذه الطريقة جمعت ثروة فى الخفاء ، استثمرت بعضها بحكمة تحت أسماء مستعارة فى همبورج أو امستردام • فهل نلومها لانها نشدت شيئا من الضـمان فى زمن كل شيء فيه رهن بنزوة رجل واحد ، وكل روسيا فيه فى تقلب وتغير ؟ •

٢ ــ الثورة البطرسية

ورث بطرس السلطة المطلقة ، وتقبلها قضية مسلمة ، ولم يتطرق اليه قط شك فى ضرورتها • فالحكم بمجلس تشريعى (دوما) من النبلاء (البويار) سيعيد الانفصالية الاقطاعية والفوضي القومية أو الركود ، والحكم بمجلس ديمقراطى مستحيل فى بلد مازال بدائيا من الناحيتين الفكرية والخلقية ، ووافق بطرس كرومويل ولويس الرابع عشر على أن تركيز السلطة والمسئولية هو وحده القادر على تنظيم الخليط البشرى المتنافر ليؤلف منه دولة لها من القوة ما يمكنها من السيطرة على أهواء الشعب وصد هجمعات الأعداء المتعطشين للارض • ولم ينظر الى نفسه نظرته الى حكم مستبد بل الى خادم للأمة ومستقبلها ، وكان هذا الى حد كبير ايمانا مخلصا ، نصف صادق على الاقل •

ولقد عمل بهمة لا تقل عن همة أبسط الفلاحين فى مملكته ، فكان عادة يستيقظ فى الخامسة صباحا ويكد اربع عشرة ساعة فى اليوم • لا ينام أكثر من ست ساعات فى الليل ، ولكنه يتقيل • ومثـل هـذا البرنامج لم يكن بالامر غير العملى فى صيف سانت بطرسبورج ، حيث النهار يبزغ فى الثالثة صباحا ويستمر الى العاشرة مساء ، أما فى الشتاء

فكان لابد من مواصلة الكثير من هذا البرنامج أثناء الليل الذى يبدأ حوالى الثالثة عصرا ويستمر الى التاسعة من صباح الغد .

وكانت سانت بطرسبورج الرمز ونقطة الارتكاز الأرخميدية لثورة لم تكن موقعا مثاليا لعاصمة دولة نظرا لشدة قربها من الساحل ، ولكنها مع هذا كانت تبعد خمسة وعشرين ميلا من البحر ، فى نقطة يتفرع فيها نهر نيفا الى فرعين ، وكان بطرس يأمل أن يحميها بقلعة كرونستاد التى شادها (٧١٠) على جزيرة فى مدخل الخليج . أما المدينة نفسها فقد أسست فى ١٧٠٣ على غرار أمستردام . واذ كان الكثير من هذا الموقع تغمره المستنقعات (وكلمة نيفا باللغة السويدية معناها الوحل) فقد بنيت سانت بطرسبورج على دعامات — أو فى عبارة روسية حزينة ، على عظام آلاف العمال الذين جندوا قسرا لارساء هذه الأسس وتشييد المدينة . ففى ١٧٠٨ أرسل نحو ٤٠٫٠٠٠ رجل للقيام بهذا العمل ، وفى ١٧٠٩ أرسل ٤٠٫٠٠٠ آخرون ، وفى ١٧١١ أرسل ٤٦٫٠٠٠ ، وفى ١٧١٣ أرسل ٤٠٫٠٠٠ فوق ما سبق . وكانوا ينقدون نصف روبل فى الشهر ، لم يكن بد من أن يستكملوه بالتسول أو السرقة . وكان أسرى الحرب السويديون الذين استخدموا فى البناء يموتون بالآلاف . واذ لم يكن هناك عجلات يدوية ، فقد كان الرجال ينقلون المواد فى قفاطينهم المرفوعة . كذلك صودر الحجر ، فحرم مرسوم صدر فى ١٧١٤ تشييد بيوت بالحجر فى أى مكان بروسيا الا فى سانت بطرسبورج ، أما فى المدينة نفسها فقد أمر كل شريف فى البلاد بأن يبنى له مسكنا من الحجر. وفعل الأشراف محتجين ، اذ كرهوا مناخ المدينة ولم يشاركوا بطرس عشقه للبحر . أما بطرس فكلف بعض مهرة الصناع الهولنديين بأن يقيموا له كوخا كالأكواخ التى رآها فى زاندام ، بحيطان من جذوع الشجر ، وسقف من الحصباء ، وحجرات صغيرة . وكان يكره القصور ، ولكنه سمح ببناء ثلاثة منها للمناسبات الرسمية فى بيترهوف (وهى الآن بترودفوريتس) على المشارف الجنوبية للمدينة . وقد دمر هذا « القصر الصيفى » فى الحرب العالمية الثانية . وفى ضاحية قريبة تدعى تسارسكو سيلو (وهى الآن بوشكين) ، شاد كوخا صيفيا لحبيبته كاتيرينوشكا .

ولم يكن قصده أول الأمر أن يجعل سانت بطرسبورج عاصمة بالاضافة الى كونها ميناء ، فقد كانت شديدة القرب الى عدوته السويد .

ولكنه قرر اجراء هذا التغيير بعد انتصاره على شارل الثانى عشر فى بلطاوه · وكان تواقا الى الهرب من جو موسكو الكنسي القاتم وروحها القومية الضيقة ، وأراد أن يشعر النبلاء المحافظون برياح التقدم تهب عليهم من الغرب · وعليه فقد جعلها عاصمة له فى ١٧١٢ · وحزن أهل موسكو ، وتنبأوا بأن الله مدمر عما قريب تلك المدينة نصف الوثنية · كتب بوشكين يقول : « ان موسكو أحنت رأسها أمام العاصمة الجديدة ، كما تنحنى أرملة الامبراطور أمام امبراطورة شابة (١٢) »· لقد كان فى بطرس من شدة الشوق الى تغريب روسيا ما دفعه الى تحويلها صوب البلطيق وكأنه يجرها اليه جرا ، ثم أمرها أن تتطلع من خلال «نافذته على الغرب × »· وفى سبيل هذا الهدف ، وفى سبيل توفير قاعدة لأسطوله وميناء للتجارة الخارجية ، ضحى بكل الاعتبارات الاخرى · صحيح أن الميناء سيحيط بها الجليد خمسة أشهر فى السنة ، ولكنها ستواجه الغرب وتلمس البحر · وكما أن الدنيبر جعل روسيا بيزنطية ، والفولجا جعلها آسيوية ، فكذلك سيغريها النيفا بأن تكون أوربية (١٤) ·

وكانت الخطوة التالية بناء بحرية تحرس مسالك التجارة الروسية خلال البلطيق الى الغرب · وحقق بطرس هذه الغاية فترة ببناء ألف سفينة كبيرة خلال حكمه ، ولكنها كانت مبنية على عجل بناء سيئا · فتلفت أخشابها ، وتحطمت صواريها فى الريح ، وبعد موته استسلمت روسيا لقضائها الذى حكمت عليها به الجغرافيا ، وهى أن تكون بلدا حبيسا فى اليابس مغلقا دون الاطلنطى ، منتظرا غزو الفضاء ليقفز متجاوزا حواجزه الى العالم · وبهذا المعنى كانت موسكو على حق : فقوة روسيا ودفاعها كان يجب أن يكونا على اليابس ، بجيوشه ورقعته الواسعة · وعليه فقد ثارت موسكو لنفسها فى ١٩١٧ وأصبحت العاصمة من جديد ·

أما أعظم اصلاحات بطرس دواما فهو اعادته تنظيم الجيش ·

× الظاهر ان هذه العبارة استعملها اول مرة الكونت فرانشسكو الجاروتى فى ١٧٣٩ (١٣) ·

وكان قبله يعتمد على قوات مجندة من الفلاحين يقـودهم سـادتهم الاقطاعيون الذين لهم عليهم حـق الولاء أولا ، وكانوا يفتقرون الى النظام ، ويعوزهم السلاح الجيد . وقد قوض بطرس سلطان النبـلاء حين انشأ جيشا دائما مدده من التجنيد الاجبارى ، وعتاده من أحدث أسلحة الغرب ، وضباطه رجال ارتقوا من تحت السلاح ودربوا عـلى الهدف الجديد ، هدف خدمة روسيا فى فخر لا خدمة اقليم ضـيق واقطاعى بغيض . والضرورة الحربيـة هى التى أملت على بطرس ثورته ، فما كان فى استطاعته تطوير روسيا دون أن يفتح لها طريقـا الى البلطيق أو البحر المتوسط ، وما كان فى استطاعته أن يفعل هـذا بغير جيش عصرى ، ولا أن يحتفظ بجيش كهذا دون أن يغير اقتصاد روسيا وحكومتها ، ولا أن يغير هذين دون أن يعيد صنع الشعب الروسي من حيث عاداته وأهدافه وروحه . لقد كان عملا ينوء بحمله رجل واحد أو جيل واحد .

وقد استهله على طريقته المندفعة الهوائية بلحى الرجال المحيطين به وزيهم . ففى ١٦٩٨ ، عقب عودته من الغرب ، حلق لحيته الخفيفة ، وأمر كل الذين يريدون الاحتفاظ برضائه أن يحذوا حـذوه ، باستثناء بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية ، وبعد قليل أرسل مرسـوم الى جميع أرجاء روسيا يقضي بأن يحلق جميع العلمانيين لحاهم ، ولهم أن يبقوا على شواربهم . وكانت اللحية أشبه برمز دينى فى روسيا ، أطلقهـا الأنبياء والرسل من قبل ، وقبل ثمانية أعوام فقط شجب البطـريرك أوريان الجالس على كرسي البطريركية آنذاك حلق اللحى بوصفه عملا مهرطقا خارجا على الدين . وقبل بطرس التحـدى : فحلق اللحيـة سيكون رمزا على الحداثة ، وعلى الرغبة فى دخول الحضارة الغربية . وأباح للعلمانيين الذين يشعرون بالحاجـة الماسـة الى الاحتفـاظ بعوارضهم أن يحتفظوا بها لقاء ضريبة سنوية تبدأ من كوبك واحـد للفلاح حتى تبلغ مائة روبل للتاجر الغنى . يقول كتاب تاريخ قـديم « كان الكثير من شيوخ الروس يحرصون على شعر لحاهم أشد الحرص بعد حلقه ليوضع فى نعوشهم مخافة الا يسمح لهم بدخـول الجنـة بدونه (١٥) » .

وبعد اللحى جاء دور الزى الروسي . هنا أيضا شعر بطرس أن

المقاومة الداخلية للتغريب ستخف بارتداء الزى الغربى ، فقطع بنفسه الاكمامالطويلة التى يلبسها من يمثل أمامه من ضباط الجيش ، وقال لاحدهم « انظر ، هذه الاشياء تعوق حركتك ، فلا أمان لك فى اى مكان ما دمت تلبسها ، تارة تقلب كوبا ، وتارة أخرى تغمسها سهوا فى الصلصة ، أوص بصنع غطاء لحذائك منها (١٦) ، وعليه صدر أمر (يناير ١٧٠٠) يقضي على جميع رجال الحاشية والموظفين فى روسيا باتخاذ الزى الغربى ، وكان على الوافدين على موسكو أو الراحلين عنها أن يختاروا بين قص قفاطينهم عند الركبة ـ وكانوا يرسلونها الى الكاحل ـ وبين دفع غرامة ، كذلك حثت النساء على ارتداء الزى الغربى ، وكانت مقاومتهن اقل من مقاومة الرجال ، فالنساء فى عالم الازياء دعاة للثورة فى كل عام ،

وقضي بطرس على حجاب المرأة الروسية بقدوة أسرته أكثر مما قضي عليه بالقوانين ، وكان أبوه الكسيس وأمه ناتاليا سباقين فى هذا الطريق ، ثم وسعته اخته لابيه صوفيا ، أما بطرس فقد دعا النساء للقاءات اجتماعية وشجعهن على أن ينزعن براقعهن ، ويرقصن ، ويعزفن ، ويطلبن العلم ولو على يد المعلمين الخصوصيين ، ثم أصدر المراسيم التى تحظر على الآباء تزويج بنيهم وبناتهم على غير ارادتهم، وتشترط مضي ستة أسابيع بين الخطبة والزواج ، وفى هذه الفترة ينبغى السماح للخطيبين باللقاء المتكرر ، وبفسخ الخطبة ان أرادا ، وابتهجت النساء بالخروج من الحريم « التيريم » وبدأن سباقا فى اتخاذ الأزياء الجديدة ، وكان بعض الزيادة فى ولادة الأطفال غير الشرعيين حجة تذرع بها رجال الدين ليقاوموا ثورة بطرس ،

ولقد كانت مقاومة الدين له العقبة الكؤود فى سبيله ، ذلك أن رجال الاكليروس أدركوا أن اصلاحاته ستنتقص من مكانتهم وسلطتهم ، فناحوا وولولوا على تسامحه مع المذاهب الغربية فى روسيا ، وخامرتهم الظنون فى ايمانه بأى عقيدة دينية ، وسمعوا فى اشمئزاز شديد بالتقليدات الساخرة التى كان هو وخلصاؤه يهزأون فيها بالطقوس الأرثوذكسية ، وكان بطرس من ناحيته يغيظه تحويل القوى البشرية الى الاديار الشاسعة التى لا حصر لها ، ويشتهى الموارد الهائلة التى

تتمتع بها هذه المؤسسات . فلما مات البطـريرك أوريان (أكتـوبر ١٧٠٠) ، امتنع بطرس عمدا عن تعيين خلف له ، وأصبح هو نفسـه رئيسا للكنيسة على نحو ما فعل هنرى الثامن فى انجلتره ، وتزعـم حركة اصلاح دينى فى روسيا . وظل منصب البطريرك شاغرا احدى وعشرين سنة ، فحرمت الكنيسة الارثوذكسية زعيما يتصدى لاصلاحات بطرس . وفى ١٧٢١ ألغى المنصب كله ، وأحل مكانه « مجمعا مقدسا » من رجال الكنيسة يعينه القيصر ويخضع لوكيل علمانى . وفى ١٧٠١ نقل ادارة الممتلكات الكنسية الى احدى مصالح الحـكومة ، واختزل اختصاص المحاكم الكنسية ، واخضع تعيين الاساقفة لتصديق الحكومة. ومنعت مراسيم أخرى رسامة المتصوفين أو المتعصبين ، وحدت من عدد مراكز صنع المعجزات . وقضي على الرجال الا يقطعوا على أنفسـهم نذور الرهبنة قبل الثلاثين ، وعلى النساء ألا ينذرن أنفسـهن نهائيـا للرهبنة قبل الخمسين (١٧) . وتقرر الزام الرهبان بالقيام بعمـل نافع . وأجرت الحكومة تعدادا للممتلكات والايرادات الديرية ، وترك بعض الايـراد للأديـار ، وخصص البـاقى لانشـاء المـدارس والمستشفيات (١٨) .

واستسلم معظم الاكليروس لحركة الاصلاح الدينى الروسي هذه ، وهو اصلاح لم يمس العقيدة كما لم يمسها هنرى الثامن . وندد بعض المخالفين ببطرس عدوا للمسيح ، وأهابوا بالشعب أن يرفضوا طاعته ودفع الضرائب له . فأمر بالقبض على زعماء هذا التمـرد ، وتصرف معهم بطريقته العادية . فجلد البعض ونفوا الى سيبيريا ، وسـجن البعض مدى الحياة ، ومات أحدهم من التعذيب ، وأحرق اثنان منهم حرقا بطيئا حتى الموت (١٩) .

وفى غير هذا كان بطرس متمشيا مع الغرب فى التسامح الدينى. فحمى المخالفين من الاضطهاد ما داموا بعيدين عن السـياسة . وفى سانت بطرسبورج ، وبهدف تشجيع التجارة ، سمح ببنـاء الكنائس الكلفنية واللوثرية والكاثوليكية على « النيفسـكى بروسبكت » ، الذى أصبح يلقب « مكان التسامح (٢٠) » وحمى الرهبان الكبوشيين الذين دخلوا روسيا ، ولكنه نفى اليسوعيين (١٧١٠) لمثايرتهم الشديدة على

الدعوة لكنيسة روما . وكانت اصلاحات بطرس الدينية بوجه عام ابقى اصلاحاته كلها ، فقد أنهت العصور الوسطى فى روسيا .

ثم غيرت عملية ضخمة من العلمنة حياة روسيا وروحهـا ، من حكم الكهنة وملاك الأراضي الى حكم الدولة الذى كاد يصل الى حد التنظيم العسكرى الصارم . فقد أخضع بطرس النبلاء لارادته ، وأكرههم على خدمة الشعب ، وأعاد تنظيم مراتب المجتمع حسب أهمية الخدمة الاجتماعية التى تؤدى . فنبتت أرستقراطية جديدة ، تتألف من موظفى الجيش والبحرية ودواوين الدولة . وراس الحكومة مجلس شيوخ من تسعة رجال (زيدوا بعد ذلك الى عشرين) يعينهم القيصر ، وكان يديرها تسع هيئات أو « كليات » تختص بالضرائب والدخل ، والمصروفات ، والحسابات والرقابة ، والتجارة ، والصناعة ، والعلاقات الخارجية ، والحرب ، والبحرية ، والقضاء ، وكان حكام الاقاليم الاثنا عشر ، أو « الجوبيرنييا » والمجالس التحد تحكم المدن ، مسئولين أمام مجلس الشيوخ . وقسم سكان كل مدينة الى طبقات ثلاث : التجار الأغنياء والمهنيين ، والمدرسين والحرفيين ، والاجراء والعمال ، والطبقة الاولى وحدها هى التى يجوز انتخابها للمجلس البلدى (الماجسترا) ، والطبقتان الاوليان وحدهما لهما حق التصويت ، ولكن لكل دافعى الضرائب الذكور الحق فى الاشتراك فى اجتماعات المدينة . وظهر « المير » أو مجتمع القرية ، لا بوصفه مؤسسة ديمقراطية ، بل هيئة مسئولة بجملتها عن ضريبة الرءوس التى أدخلت فى ١٧١٩ . وحد الاشراف المركزى من الاستقلال المحلى ، ولم يكن هناك أى تفكير فى النظم الديمقراطية ، لأن التغيير السريع الذى اختطه بطرس لا سبيل الى تحقيقه — ان كان هناك سبيل على الاطلاق — لا بالسلطة الدكتاتورية .

ووجب أن يشمل ذلك التغيير الاقتصاد كما شمل السياسة ، لأن مجتمعا زراعيا خالصا لا يمكن أن يحتفظ باستقلاله طويلا أمام دول أغنتها الصناعة وزودتها بالسلاح . وقد أورد اقتصادى المانى عاصر ذلك العهد رأيا سيثبت صوابه القرنان التاليان له — وهو أن الامة التى لا تصدر فى الأكثر غير الخامات والحاصلات الزراعية لن تلبث أن

تخضع للدولل المنتجة والمصدرة للسلع المصـــنوعة أولا (٢١) ٠ وعلى ذلك لم يوجه بطرس للزراعة الا القليل من اهتمـــامه ٠ وبدلا من أن يخفف منرق الأرض طبقه على الصناعة ٠ وقد علم الفلاحين بقـدوته الشخصية كيف يحصدون غلتهم وأمر بأن يستبدل بالمناجل ذات المقبض القصير sickles مناجــل ذات مقبضين seythes ٠ وقد الف الروس حرق اراضي الغابات للحصـــول على رماد مخصـب للتربة ، فحظر بطرس هذا العمل ، لأنه احتـــاج لألواح الخشـب لســـفنه ، وللأشجار لصواريه ٠ وادخل زراعة التبغ ، والتوت ، والكروم ، وافتتح تربية الخيل والغنم فى روسيا ٠

على أن هدفه الأهم كان التصنيع السريع ٠ وكانت أولى مشاكله توفير الخامات ٠ فشجع نشر التعدين ، ومنح المكافآت الحافزة لرجال مثل نيكيتا ديميدوف والكسندر ستروجانوف ابدوا الجرأة والمهـارة فى التعدين وتشغيل المعادن ، وحث ملاك الأراضي على أن يشـــجعوا أو يسمحوا باستخراج المعادن من أراضيهم ، فان قصروا فى هذا فلغيرهم أن يستخرجوها لقاء رسم اسمى فقط يؤدونه لهم ٠ فما وافى عام ١٧١٠ حتى كفت روسيا عن اســـتيراد الحـــديد ، وقبل موت بطرس كانت تصدره (٢٢) ٠

ثم استقدم مهرة الصناع ومديرى الصناعة الأجانب ، وحض الروس من جميع الطبقات على تعلم الفنـون الصـــناعية ٠ وافتتح انجليزى بموسكو مصنعا لدبغ الجلود وصنع الأحذية ، وأمر بطرس كل مدينــة فى روسيا بأن تبعث وفدا من الحذائين الى موسكو لتعلم أحدث طرق صناعة الأحذية بنوعيها الواطىء والعالى ، وهدد المتمسكين بالأساليب العتيقة فى هذه الصناعة بتشغيلهم فى سفن العبيد ٠ ورغبة فى تشجيع صناعة النسيج الروسية لم يلبس غير المنسوجات الوطنية بعد أن نشطت صناعتها ، وحظر على المسكوفيين شراء الجوارب المستوردة ٠ وما لبث الروس أن صنعوا المنسوجات الجيدة ٠ وروع اميرال بحـرى أصحاب التقاليد ، وأبهج القيصر ، بصنعه المقصبات الحريرية ٠ وصنع فـلاح طلاء (لاكيه) يفوق أى نظير له فى « أوربا » باستثناء الطلاء البندقى وقبل أن ينتهى حكم بطرس كان فى روسيا ٢٢٣ مصنعا ، بعضهـــــا

لا يستهان بحجمه ، واستخدمت صناعة الحرير بموسكو ١٦٢ر١ عاملا ، واستخدم أحد مصانع النسيج ٧٤٢ رجلا ، وآخر ٧٣٠ ، ووظفت مؤسسة للتعدين ٦٨٣ شخصا (٢٣) . نعم كان فى روسيا مصانع قبل بطرس ، ولكن ليس على هذا النطاق . وكثير من المصانع الجديدة بدأته الحكومة ثم سلم للأهالى ليديروه ، ولكنهم مع هـــذا كانوا يتلقون اعانات من الدولة ، ويخضعون لأشراف دقيق من الحـــكومة . وكانت الرســـوم الجمركية المرتفعة الحامية درعا يقى الصناعة الوليدة من المنافســـة الأجنبية .

ولجأ بطرس الى تجنيد الرجال قسرا ليزود بهم المصـانع . ولم يتوفر من العمال الا القليل ، فحول الفلاحين صناعا طوعا أو كرها . وخول لرجال الصناعة أن يشتروا الأقنان من ملاك الاراضي ويشغلوهم فى المصانع . وزودت المشـــاريع الكبرى بفلاحين منقولين من أراضي الدولة ومزارعها (٢٤) . وحدث ما يحدث فى معظـــم المحـــاولات الحكومية للتصنيع السريع ، اذ لم يستطع القادة الانتظار ريثما تتغلب غريزة التملك على العادات والتقاليد ، وتقود العمـال من ميـــادين وأساليب عتيقة الى أعمال وأنظمة جديدة . فطورت فنية صناعية ، على كره من بطرس بوجه عام ، وعن عمد من خلفائه . واعتذر بطرس عنها فى مرسوم ١٧٢٣ ، فقال :

« الا يصنع كل شيء (أول الأمر) بالاكراه ؟ أما أن الراغبين فى الاشتغال بالصناعة قلة فصحيح ، لأن شعبنا أشبه بالأطفال ، يأبون البدء بتعلم الأبجدية ما لم يكرههم عليها معلموهم . ويبدو لهم هذا التعـلم غاية فى الصعوبة أول الأمر ، ولكنهم ما ان يتعلموها حتى يحمـــدوا لمعلميهم صنيعهم ، ونحن نسمع اليوم الكثير من آيات الحمد والشكر على الاصلاحات التى أتت أكلها فعلا ... فعلينا فى مسائل الصـــناعة أن نعمل ونلزم ، ونعين بالتعليم (٢٥) » .

ولكن الصناعة لا تتطور الا بتجارة تبيع منتجاتها . ولكى يشجع بطرس التجارة رفع المكانة الاجتماعية لطبقة التجار . وفرض نمـــو صناعة كبيرة لبناء السفن فى أركانجل وسانت بطرسبورج . وحـــاول انشاء بحرية تجارية تحمل السلع الروسية فى سفن روسية ولكنه أخفق

لأن الفلاح الروسي الذى ضربت جذوره فى الأرض وانغلق فيها لم يقبل على البحر برغبة أو كفاية · وفى داخل روسيا نفسها كانت المسافات الشاسعة والطرق الوعرة تعوق التجارة · ولكن الأنهار كانت وفيرة ، تغذيها ثلوج الشمال وأمطار الجنوب ، فاذا تجمدت الانهار ففى صلابة تتحمل بفضلها الانتقال شانها شأن الطرق المتجمدة · وكانت الحاجة ماسة لربط هذه الأنهار بقنوات ـ تصل النيفا والدوينا بالفولجا ، والفولجا بالدون ، فيرتبط البلطيق والبحر الأبيض بالبحر الأسود وبحر قزوين · وارسى بطرس الأساس لهذه المجموعة الكبيرة ، وافتتح فى ١٧٠٨ القناة الموصلة بين النيفا والفولجا ، ولكن كان لا بد أن ان تنقضى عهود ملكية عديدة قبل أن تكتمل هذه الشبكة ، وقد لقى الالوف من العمال حتفهم فى هذه المحاولة ·

واكرهت الحرب والمشروعات المتنوعة بطرس على جمع رأس المال بمقادير لم يسبق لها نظير فى روسيا · وقد حصل على بعضه باعطاء الحكومة احتكار انتاج وبيع الملح ، والتبغ ، والقار ، والدهون ، والبوتاس ، والراتنج ، والغراء ، والراوند ، والكافيار ، وحتى التوابيت المصنوعة من البلوط · وكانت هذه التوابيت تباع بربح بلغ اربعمائة فى المائة ، اما الملح فتواضع ربحه الى مائة فى المائة ، ولكن القيصر أدرك أن الاحتكارات تعوق الصناعة والتجارة ، فبعد أن ابرم الصلح مع السويد ألغاها بجرة قلم وأطلق التجارة الداخلية من عقالها· وبقيت التجارة الخارجية خاضعة لرسوم التوريد والتصدير ، ولكنها كادت تبلغ عشرة أضعافها بين ١٧٠٠ وموت بطرس فى ١٧٢٥ · وكان اكثرها تنقله سفن أجنبية ، وما بقى منها فى أيد روسية كانت تعرقله الرشوة التى استشرت بحيث لم تجد فيها حتى عقوبات بطرس الوحشية ·

أما نظام الضرائب فكان شاملا · فقد كلفت هيئة خاصة عينتها الحكومة بوضع نظام لضرائب جديدة وادارته · ففرضت الضرائب على القبعات والأحذية ، وخلايا النحل ، والحجرات ، واقباء الخمور والمؤن ، والمداخن ، والمواليد ، والزيجات ، واللحى · اما الضريبة على الأسر فقد عطلتها الهجرات الجماعية غير المنظمة ، فاستبدل بها

بطرس ضريبة على « الأنفس » اينما وجدت ، ولم تطبق هذه الضريبة على النبلاء أو الاكليروس . وارتفعت ايرادات الدولة من ١٫٤٠٠٫٠٠٠ روبل فى ١٦٨٠ الى ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٢٤ ـ خصص خمسة وسبعون فى المائة منها للجيش والبحرية . ونصف هذه الزيادة كانت غير واقعية بسبب انخفاض قيمة العملة بمقدار النصف فى عهد بطرس ، لأنه لم يستطع مقاومة اغراء الربح المؤقت بغش العملة .

وكان افتقار الجميع ـ من الملك الى الفلاح ـ للنزاهة معطلا لسير الاقتصاد ، وجمع الضرائب ، وأحكام القضاء ، وتنفيذ القوانين . وقد قرر بطرس الحكم بالاعدام على جميع الموظفين الذين يقبلون « الهدايا » ولكن احد مساعديه نبهه الى أنه ان نفذ هذا القانون فلن يجد بعد حين غير موظفين أمواتا . ومع ذلك قتل بعضهم . من ذلك أن الأمير ماتفى جاجارين ، حاكم سيبيريا ، أثرى ثراء صارخا ، فزين تمثاله المصنوع للعذراء بمجوهرات بلغت قيمتها ١٣٠٫٠٠٠ روبل ، وأراد بطرس أن يعرف كيف حصلت عليها العذراء ، فلما عرف شنق جاجارين . وفى ١٧١٤ قبض على عدد من كبار الموظفين بتهمة سرقة الحكومة والشعب ، وكان من بينهم نائب حاكم سانت بطرسبورج ، ورئيس تموين الدولة ، ورئيس الأميرالية ، وحاكما نارفا وريفيل ، وعدد من اعضاء السناتو . وشنق بعضهم ، وحكم على بعضهم بالسجن مدى الحياة ، وجدعت انوف البعض ، وجلد البعض بالعصي . ولما أمر بطرس بوقف الجلد توسل اليه الجنود الذين كانوا يقومون به قائلين « اسمح لنا يا ابتاه أن نجلدهم أكثر قليلا لأن هؤلاء اللصوص سرقوا كل شيء حتى خبزنا (٣٦) » . واستشرى الفساد ، وزعم مثل روسي أن المسيح نفسه كان من الجائز أن يسرق لولا أن يديه شدتا الى الصليب .

وفى وسط هذا النضال ، نضال ارادة واحدة تريد تغيير الحياة الاقتصادية والسياسية لنصف قارة ، وجد بطرس وقتا حاول فيه احداث ثورة ثقافية أيضا . لقد كان يكره الخرافة ، ويتوق الى أن يحل محلها التعليم والعلم . وكان الروس الى عهده يؤرخون من خلق العالم كما افترضوه ، ويبدأون السنين بشهر سبتمبر . ففى ١٦٩٩ جعل بطرس

التقويم الروسي يتفق مع التقويم اليوليانى ، كما تستعمله الدول البروتستنتية ، فتقرر أن تبدأ السنة بعد ذلك بيناير ، وتؤرخ من مولد المسيح . وتذمر الشعب ، فكيف يختار الله منتصف الشتاء زمانا للخليقة ؟ وانفذ بطرس ما أراد ، ولكنه لم يجرؤ على تطبيق التقويم الجريجورى ، الذى قبلته أوربا الكاثوليكية فى ١٥٨٢ ، فحذف عشرة أيام كما اقتضته تلك « الحيلة البابوية » كان يسلب عدة قديسين ارثوذكس أعيادهم المقدسة .

ووفق القيصر الذى لم يهدأ له بال فى مشروع آخر لا يقل عنتا ، هو اصلاح الأبجدية . ذلك أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تستعمل الأبجدية السلافونية القديمة ، ولكن الطبقات الصناعية والتجارية اقتبست أبجدية أساسها الحروف اليونانية . فأمر بطرس بأن تطبع بها كل الكتب غير الدينية . واستورد المطابع واستقدم الطباعين من الأراضي المنخفضة ، وبدأ (١٧٠٣) أول جريدة روسية ، وهى « جازيتة سانت بطرسبورج » ، وأمر بنشر كتب فى التكنولوجيا والعلوم ، ومول النشر ، وأسس مكتبة سانت بطرسبورج ، وانشأ المحفوظات الروسية بأن جمع فى المكتبة مخطوطات الأديار وسجلاتها واخبارها . وفتح عدة معاهد تقنية وأمر بأن يلتحق بها أبناء الطبقة الارستقراطية . وحاول أن ينشىء فى كل اقليم « مدرسة للرياضيات » ، وفى موسكو أنشأ مدرسة ثانوية « جمنازيوم » على غرار المدارس الألمانية لتعليم اللغات والأدب ، والفلسفة ، ولكن هذه المدارس لم يكتب لها طول البقاء . وفى ١٧٢٤ نظم أكاديمية سانت بطرسبورج ، وجلب اليها علماء أفذاذا كجوزيف دليل ليعلم الفلك ، ودانيال برنوللى ليعلم الرياضيات . وبالحاح من ليبنتز كلف (١٧٢٤) فيتوس بيرنج ، الملاح الدنمركى ، بأن يرأس بعثة الى كمشتكا ليتبين هل آسيا وامريكا متصلتان طبيعيا . وقد اقلع بيرنج بعد وفاة بطرس .

أما المسرح الروسي فكان على عهد الكميس لايقدم غير الحفلات الخاصة . فرخص بطرس مسرحا على الميدان الأحمر وفتحه للجمهور ، واستقدم الممثلين الألمان ، فمثلوا خمس عشرة مأساة وملهاة ، منها بعض ملاهى موليير . وجلب الموسيقيين الأجانب لتأليف الأوركسترات . وأدخلت فى روسيا السوناتا والكونشرتو ، واتخذت الموسيقى الطليانية

الروسية أشكالا أوربية من تآلف الألحان وامتزاجهـــا ٠ وأوصى بطرس بشراء اللوحات والتماثيل ، ولا سيما الايطالية منها ، وجمعهـــا هى وغيرها من الآثار الفنية فى متحف للفن فى سانت بطرسبورج فتحـه لجميع الزوار مجانا ، وأمر بتقديم المشروبات الخفيفة لهـم (٢٧) ٠ ووفد المصورون الأجانب ليرسموا لوحات الأشخاص باسلوب الغـرب ٠ وبنيت بعض الكنـــائس أيام الكسيس ، ولكن قـــل منها ما بنى أيام بطرس ٠ ووجد المعماريون الآن أنه أربح لهم أن يبنوا القصور ٠

ولم يزدهر أدب عظيم خلال هذه الثورة التى اقتلعت القديم من جذوره ، فلابد من انقضاء وقت حتى يمكن الاحساس بدفعة بطرس فى الشعر ٠ وقد صدر كتاب جرىء قبل وفاته بعام ، وهو « كتاب الفقر والغنى » بقلم ايفـان بوسوشـــكوف الذى وبخ الروس على همجيتهم وأميتهم ، وظاهر بقوة اصلاحات القيصر ٠ وقد جاء فى الكتاب « من سوء الحظ أن مليكنا العظيم يكاد يقف وحده ، ومعه عشرة أشخاص ، فى محاولة رفع الأمة فى حين يحاول الملايين خفضها (٢٨) » ٠ وندد ايفان بظلم الفلاحين ، وطالب بقضاء نزيه تجريه محاكم متحررة من السيطرة الطبقية ، وصدم القيصر بأن طلب جمـــع ممثلين لجميـــع الطبقات ليكتبوا دستورا جديدا ومدونة قوانين لروسيا ٠ وقبض عـلى بوسوشكوف بعد موت بطرس ببضـعة شـــهور ، ومات فى الســـجن فى ١٧٢٦ ٠

٣ ـ العقابيـــل

ازدادت المقاومة لاصلاحات بطرس من سنة الى سنة ٠ ذلك أن الروس الفوا الفقر ، والعذاب ، والاستبداد ، ولكنهم لم يسبق لهم قط ـ حتى تحت حكم ايفان الرهيب ـ أن اثقلوا بمثل هذه الأعباء ، أو دفعوا مثل هذه الضرائب ، أو ماتوا بمثل هذه الكثرة لا فى ساحة القتـــال فحسب بل فى أشغال السخرة جوعا وبردا واعياء ومرضا ٠ كتب ليفور صديق بطرس المحبوب فى ١٧٢٣ يقول « ان الشقاء يشتد من يوم الى يوم ، والشوارع تمتلىء بناس يحاولون بيع أطفالهم ٠٠٠ والحـكومة لا تدفع مالا لا للجنود ، ولا لرجال البحـــرية ، ولا لموظفى الادارات

الحكومية ، ولا لأحد (٢٩) » . وحير القيصر ازدياد الفقر وسط اصلاحاته ، فجعل التسول أو التصدق على المتسولين جريمة ، وأقام ستين منظمة لتوزيع الصدقات .

ولكن التسول استمر ، والجريمة انتشرت . وكاد يسيطر على الطرق الأقنان الآبقون من الرق ، والجنود والعمال المسخرون الذين هجروا معسكراتهم معرضين أنفسهم للموت . ونظموا أنفسهم أحيانا أفواجا عدتها مئات حاصرت المدن واستولت عليها . ذكر قائد فى ١٧١٨ « ان موسكو مباءة للسطو ، وكل شيء فيها خرب ، وعدد الخارجين على القانون يتضاعف ، واعدام المذنبين لا يتوقف أبدا » . وأقام المواطنون المتاريس فى بعض شوارع موسكو ، وأحاطوا بعض البيوت بأسوار عالية اتقاء اللصوص . وحاول بطرس منع السرقة بالعقاب الصارم ، فأمر بأن يشنق قطاع الطرق الذين يقبض عليهم ، وأن تجدع أنوف الساطين على المنازل ، الخ . ولكن هذه العقوبات لم تردع المجرمين . فقد شقت الحياة على الفقراء حتى لم يصبح هناك فرق يذكر فى نظرهم بين عقوبة الأعدام وبين السجن المؤبد الذى يقضونه راسفين فى أغلال القنية أو السخرة ، واحتملوا أبشع ضروب العذاب بتجلد من ماتت أعصابهم .

واشتد كره الناس لبطرس حتى لقد عجب الكثيرون أن أحدا لم يقتله . كرهه النبلاء لأنه أرغمهم على خدمة الدولة ، ولأنه رفع الطبقات الصناعية والتجارية مقاما وثراء ، وكرهه الفلاحون لأنه سخرهم فى عمل اقتلعهم من أوطانهم ، ومن أسرهم فى كثير من الحالات ، وكرهه رجال الكنيسة لأنه الوحش الوارد ذكره فى سفر الرؤيا ، والذى جعل المسيح ذاته خادما للحكومة ، وارتاب فيه كل الروس تقريبا لاختلاطه بالأجانب واستيراده الأفكار « الوثنية » ، وخافت روسيا كلها بأسه لعنفه ولعقوباته الوحشية . ان روسيا لم ترد هذا التغريب ، انها تمقت الغرب مقتا شديدا ، والاحتفاظ بروحها القومية كان يقتضيها أن تكون « سلافية الميول » ونشبت حركات تمرد يائسة بموسكو ١٦٩٨ ، وبأستراخان فى ١٧٠٥ ، وعلى طول الفولجا فى ١٧٠٧ ، وفى أوقات متفرقة فى أرجاء الامبراطورية وخلال العهد كله .

أما بطرس فقد رمز الى الصراع وزاده حدة بالعودة الى الغرب مرتين . ففى خريف ١٧١١ ذهب الى المانيا ليرأس فى تورجو مراسيم زواج ابنه . وهناك استقبل ليبنتز ، الذى اقترح عليه انشاء أكاديمية روسية كان يرجو الفيلسوف المتعدد المواهب أن يرأسها . وعاد القيصر الى سانت بطرسبورج فى يناير ١٧١٢ ، ولكنه فى أكتوبر ، وسط حملة شنها الى السويد ، استشفى بمياه كرلسباد ، وزار فتنبرج . وأخذه بعض القساوسة اللوثريين الى البيت الذى قذف فيه لوثر محبرة على الشيطان ، وأروه الحبر على الحائط ، وطلبوا اليه أن يكتب تعليقا عليه ، فكتب « ان الحبر جديد تماما ، فواضح اذن أن القصة غير صحيحة (٣٠) » . وعاد بطرس الى عاصمته الجديدة فى أبريل ١٧١٣ . وفى فبراير ١٧١٦ انطلق الى الغرب مرة أخرى ، فزار المانيا وهولندة ، وفى مايو ١٧١٧ بلغ باريس آملا أن يزوج ابنته اليزابيث للويس الخامس عشر . ولما التقى بطرس بالملك الصبى ذى السبعة الأعوام ، رفعه ليقبله ، وبعد أيام ، حين كان لويس يستقبله أمام القصر الملكى ، رفعه بطرس كأنه طفل وحمله صاعدا السلم مما جعل أفراد الحاشية يرتعدون. وأنفق فى باريس ستة أسابيع متفرجا ، مستوعبا كل جوانب الحياة فى المدينة – السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية . وصوره الرسامان ريجو وناتييه . وزار مدام دمانتنون العجوز فى سان – سير . ومن باريس ذهب الى سبا ، وظل خمسة أسابيع يشرب المياه هناك ، لأنه كان اذ ذاك يشكو عللا كثيرة – ولحقت به زوجته كاترين فى برلين . واكتشفت أن له خليلة ، ولكنها اغتفرت ذلك جريا على أرقى تقاليد البيوت المالكة الأوربية . فلما وصل الى سانت بطرسبورج (٢٠ أكتوبر ١٧١٦) واجه أزمة من أسوأ الأزمات فى حياته .

ذلك ان ابنه ألكسيس ، الذى كان يرجو أن يورثه ملكه ويترك له المضي قدما فى اصلاحاته ، انتهى الى كره الكثير من تلك البدع ، وكره الأساليب التى كانت تفرض بها فرضا . وكان فى بدنه وعقله ابن يودوكسيا أكثر منه ابن بطرس . وكان ضئيل الجسم ، هيابا ، ضعيفا ، ولوعا بالكتب ، مخلصا للكنيسة الارثوذكسية ، لأنه ربى على التقوى بينما كان بطرس منطلقا الى الحرب والغرب . وحين بلغ ألكسيس

التاسعة رأى أمه تقصي الى الدير (١٦٩٩) ، فلما بلغ الحادية عشرة سمع الكهنة يتحسرون على صهر أجراس الكنيسة لصنع المدافع ، وسأل اباه لم يذهب الروس خارج روسيا للقتال فى سبيل مدينة نائية كنارفا ، واشمأز بطرس حين وجد أن وريثه لا يستطيب سفك الدماء .

وبينما كان بطرس مشغولا ببناء سانت بطرسبورج ، مكث الكسيس بموسكو ، وأحب كنائسها وأساليب حياتها القديمة . وقد كره تمزيق البطريركية ومصادرة الدولةللممتلكات الديرية. وعلمه كاهن اعترافه أن يدافع عن الكنيسة دائما أيا كان الثمن . وغدا الكسيس المعبود ومعقد الآمال للجماعات الكنسية والارستقراطية التى أبغضت علمنة بطرس لروسيا وتغريبها ، وانتظرت بفارغ الصبر الوقت الذى يجلس فيه على العرش ذلك الفتى المتدين المطواع . وكان بطرس لا يراه الا لماما ، فاذا رآه وبخه عادة ، وضربه أحيانا ، كما فعل حين اكتشف القيصر أن الصبى زار أمه خفية فى ديرها . وأوشك استياء الفتى أن يكون كرها . واعتراف لكاهنه اجناتيف أنه يتمنى لو مات أبوه . ولم ير اجناتيف فى هذا اثما ، فقال لالكسيس « ان الله سيغفر لك فكلنا نتمنى موته ، لأنه حمل الشعب أحمالا ثقالا (٣١) » .

وفى ١٧٠٨ بعث بطرس ابنه الى درسدن ليدرس الهندسة وفن التحصين . وفى ١٧١١ تزوج الكسيس بمدينة تورجو شارلوت كرستينا صوفيا ، أميرة برنزويك ـ فولنفبوتل . ولم يستطع أن يغتفر لها رفضها التخلى عن مذهبها اللوثرى واعتناق المذهب الأرثوذكسي الروسى . واتخذ الخليلات حتى من المواخير ، وأفرط فى الشراب . وعقب أن ولدت له شارلوت طفلا زارها بصحبة مومس (٣٢) . وبعد عام ماتت زوجته وهى تلد (١٧١٥) . واستدعاه بطرس الى سانت بطرسبورج بخطاب غاضب حوى عبارات تنذر بالويل والثبور « اننى لا أضن بحياتى ، ولا بحياة أحد من رعاياى ، ولن استثنيك من هذه القاعدة . فعليك أن تصلح من حالك ، وأن تجعل نفسك نافعا للدولة ، فان لم تفعل حرمتك من الميراث (٣٣) » . وحاول الكسيس تهدئة ثائرة أبيه بالتخلى عن حقوقه فى العرش ، وقال انه سيقنع بالعيش عيشة هادئة فى الريف . وشعر بطرس بأن هذا ليس حلا . ففى ٣٠ يناير ١٧١٦ كتب الى الكسيس يقول :

« لا أستطيع تصديق يمينك ... لقــــد قـــال داود ان كل البشر كذابون ، فحتى لو شئت الوفاء بها لثناك عن ذلك ذوو اللحى الطويلة .. .. فكل الناس يعرفون انك تكره أعمالى التى أعملها فى ســـبيل هذه الأمة ، غير ضنين بصحتى ، وأنك بعد موتى ستقضي عليها ، ولهذا السبب فان بقاءك كما تريد أن تبقى ، بغير وجهة محددة ، ضرب من المحال . وعليه فاما أن تغير من خلقك ، وتصبح دون نفاق خلفى الكفء، أو تصبح راهبا . فاجبنى فورا .. .. فان لم تفعل عاملتك كما أعامل المجرمين (٣٤) » .

واشار عليه أصدقاؤه بالرهبانية ، وقال أحدهم ، « ان قلنســـوة الراهب لا تسمر فوق انسان ، ففى الامكان خلعهـــا » وكتب الكسيس لأبيه بأنه راغب فى الرهبانية . ولانت قناة بطرس ، وأمهله نصف سنة ليستقر على رأى . ووصل القيصر الى الغرب (فبراير ١٧١٦) . وفى ٢٩ يونيو نصحت ناتاليا ، أخت بطرس ، الكسيس بأن يرحل عن روسيا ويضع نفسه فى حمى الامبراطور . وفى سبتمبر كتب بطرس لابنه من كوبنهاجن يقول ان نصف العام قد انتهى ، وان على الكسيس أن يدخل الدير فورا ، أو يلحق بأبيه فى الدنمرك مستعدا للخدمة العســـكرية . وتظاهر الكسيس بأنه ذاهب الى أبيه ، وحصل على المال من منشيكوف ومجلس الشيوخ ، ثم انطـــلق لا الى كوبنهـــاجن بل الى فيينا (١٠ نوفمبر) . وهناك التمس من نائب المستشار الامبراطورى أن يحصـــل له على حماية الامبراطور شارل السادس قائلا « ان أبى غضوب محب للثار الى حد لا يصدق ، وهو لا يرحم أحدا ، ولو ردنى الامبراطور الى أبى لكان فى هذا حتفى (٣٥) » . وأرسله نائب المستشار الى قلعـــة ابرنبيرج بالتيرول . وهناك ظل مختبئا متنكرا ، تحت الرقابة ولكنـــه مزود بكل أسباب الراحة ، وسمح له بالاحتفاظ بخليلته افروسينيا مرتدية ثياب الوصيف . وتعقبه جواسيس بطرس الى مخبئـه ، وأنذر الكسيس ففر الى نابلى حيث كان تحت الحراسة فى « كاستيل سانتيلمو » . وعثر عليه عملاء بطرس والحوا عليه فى العودة الى روسيا واثقا من رأفة أبيه به . فقبل شريطة أن يأذن له بطرس بالعيش مع افروســينيا معتزلا فى الريف . ووعد بطرس بهذا فى خطاب بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٧١٧ . ورتب الكسيس أن تظل افروسينيا بايطاليا حتى تضع مولودها . وكان أثنـاء رحلته الطويلة الى روسيا يبعث لها بأرق الرسائل .

ووصل موسكو فى آخر يناير · وفى ٣ فبراير اسـتقبله بطرس فى اجتماع مهيب ضم كبار رجال الدولة والكنيسة · والتمس الكسيس العفو من ابيه وهو جاث ودموعه تسيل · ومنحه بطرس العفو ، ولكنه حرمه من وراثة العرش ، وأعلن ابن كاترين ، بطرس بتروفتش ، البالغ من العمر ثلاث سنين ، وريثا للعرش · واقسم ألكسيس يمين الـولاء لولى العهد الجديد · وعلق بطرس عفوه الآن على شرط ، هو اعتراف ألكسيس بشركائه فى مقاومة اصلاحات أبيه · وورط ألكسيس الكثيرين ، فقبض عليهم وعذبوا لانتزاع المزيد من التفاصيل منهـــم ، ونفى عديدون الى سيبيريا ، وأعدم البعض بعد أن عذبوا أبشع تعذيب · أما ألكسيس ، الذى ترك حرا فى الظاهر ، فقد أسكن بيتا قريبا من قصر القيصر فى سانت بطرسبورج ، ومنح معاشا سنويا قدره أربعون ألف روبل · وكتب الى افروسينيا يقول ان أباه يحسن معاملتـــه وأنه دعاه الى مائدته ، وكان يتطلع الى مجيئها ، والى الحياة السعيدة معها فى هدوء الريف ·

ووصلت فى أبريل ، فقبض عليها فورا ، ولم تعذب ولكنها امتحنت امتحانا صارما ، فانهارت ، واعترفت بأن ألكسيس اغتبط لنبأ حركات التمرد على أبيه ، وأنه أعرب عن نيته حين يعتلى العرش فى هجران سانت بطرسبورج والبحرية ، وخفض عدد الجيش الى ضرورات الدفاع · ولم يكن هذا شرا مما كان بطرس يعلمه من قبل ، فترك ألكسيس طليقا شهرين آخرين · ثم أثارته مفاجآت جديدة لا علم لنا بهـــا ، فاعلن أنه سحب عفوه عن ألكسيس ، لان هذا العفو افترض اعترافه الكامل ، وقد توافر لديه الدليل الآن على أن الاعتراف كان غير مخلص وغير كامل · وفى ١٤ يونيو قبض على ألكسيس وسجن فى قلعة القديســـين بطرس وبولس ·

وفى ١٩ يونيو ١٧١٨ ، وبعد أن فحصته محكمة القضاء العليـا ، عذب لأول مرة ، فجلد خمسا وعشرين جلدة · واعترف بأنه تمنى موت أبيه ، وبان كاهنه قال له « اننا جميعا نتمنى مـوته » · ثم ووجـــه بافروسينيا ، التى أعادت ما قالته للقيصر من قبل ، ومع ذلك أقسم أنه سيحبها حتى الموت · وقال معترفا « شيئا فشيئا أصبح شخص أبى ذاته ، لا كل شيء عنه فحسب ، بغيضا فى عينى » واعترف بأنه لو اقتضاه الامر لاستعان بالامبراطور « فى قهر التاج بالقوة (٣٦) » · وفى ٢٤ يونيو عذب مرة أخرى بجلده خمس عشرة جـــلدة لم تنتزع منـــه مزيداً من

الاعترافات . وقضت المحكمة العليا بانه مذنب بالخيانة وحكمت عليــه بالاعدام . والتمس الكسيس السماح له بمعانقة خليلته قبــل اعدامه ، ولا علم لنا هل أجيب الى طلبه . ولم يوقع بطرس على الحكم . ثم أعيد استجواب الكسيس مرتين (٢٥ و ٢٦ يونيو) وهو يعذب ، وفى المرة الثانية بحضور القيصر والحاشية ، وقال ليفور فيما بعد « اكدوا لى أن اباه جلده الجلدات الأولى بنفسه ، وان كنت غير واثق من صدق هــذا القول (٣٧) » . فى ذلك المساء مات الكسيس فى سجنه ، والظاهر ان موته كان من آثار تعذيبه . وزعمت رواية أن كاترين أمرت الأطباء بأن يقطعوا أوردته ، ولا نستطيع الحكم على هذا العمل ، أهو من أعمال الرأفة به أم الطمع فى سبيل مصلحة ولدها . أما افروسينيا فنالت نصيبا من ثروة الكسيس ، وتزوجت ضابطا فى الحرس ، وعاشت حياة مريحة ثلاثين سنة أخرى فى سانت بطرسبورج .

وكان بطرس يأمل أن يربى ابنه من كاترين ليخلفه ، ولكن الصبى مات فى ١٧١٩ . وأنجبت كاترين ولدين آخرين ، بطــرس وبولس ، ولكنهما ماتا قبل القيصر . وعزى نفسه بالألقاب الفخمـــة التى خلعت عليه بعد صلحه مع السويد . وفى ذلك العام ، (١٧٢١) ، خلع مجلس النبوخ والمجمع المقدس لقب الامبراطورة على كاترين . وبعد أن أمهل بطرس روسيا سنة سلامها الوحيدة منذ بداية حكمه النشيط ، وجــه هوانه شطر فارس . وكان يرجو أن يستخلص طريق قوافل الى وسط آسيا ، وأخيرا الى الهند ، ويسيطر عليــه ، وأخبره مبلغــوه أن فى الامكان العثور على الذهب فى الطــريق ، وكان ســباقا الى توقــع الامكانات الصناعية لزيت القوقاز والشرق الأوسط (٣٨) . وفى ١٧٢٢ جرد أسطولا على قزوين لمهاجمة فارس ، فاستولى على باكو وبعض سواحل قزوين الفارسية ، غير أن العواصف دمرت معظم سفنه ، وأتى المرض على جزء من جيشه ، وعاد بطرس من حملة ١٧٢٤ مرهقـــا ، متشائما ، مشرفا على الموت .

ذلك أنه كان يشكو مرض الزهرى سنوات طويلة (٣٩) ، ويعانى من العقاقير التى تعاطاها للعلاج منه . وزاد ادمانه السكر الطين بله ، واجتمعت عليه انفعالات الحرب ، والثورة ، وحركات التمرد ، وعنف

الارهاب ، لتنهك جسمه العملاق فى النهاية . وفى نوفمبر ١٧٢٤ قفز الى النيفا المتجمد ليساعد على انقاذ ملاحين على سفينة جانحة . وظل يعمل طوال الليل فى مياه غمـرته حتى خصره . وفى الغـــد أصيب بحمى ، ولكنه شفى منها ، واستانف برنامجا حافلا بالوان النشاط . وفى ٢٥ يناير لزم فراشه اثر التهاب مؤلم فى المثانة . وأبى أن يسـلم بأن منيته دنت حتى ٢ فبراير ، فاعترف ببعض ذنوبه ، وتناول الأسرار المقدسة . وفى السادس من الشهر وقع اعلانا بتحرير جميع السجناء فيما خلا المحكوم عليهم لجرائم القتل أو لجرائم ضد الدولة . وقـــد روع اتباعه بصرخات الألم . وطلب لوحا يكتب عليه وصيته ، ولكن ما ان كتب هاتين الكلمتين « أعطوا جميع » حتى وقع القلم من يده . وسرعان ما انتابته غيبوبة دامت ستا وثلاثين ساعة ، ولم يفق منهـــا قط . وأذيع نبأ موته فى ٨ فبراير ١٧٢٥ ، وكان يومها فى الثانيـــة والخمسين .

وتنفست روسيا الصعداء كأن كابوسا طويلا رهيبا قد انجاب عن صدرها آخر الأمر . وابتهج ملكا السويد وبولنده ، وتوقعا أن تتردى روسيا فى مهاوى الفوضي ، وتكف عن أن تكون خطرا يهدد الغـرب . ورفعت روسيا القديمة ، روسيا العصور الوسطى ، عقيرتهـــا وطلبت عودا الى الماضي . لقد دفعت الامة دفعا مفرطا فى العنف ، وأوذيت فى روحها وكبريائها بهذا التقليد الاعمى للغرب . وانتشرت الرجعية انتشارا واسعا وانتصرت ، وترك الكثير من الاصلاحات ليمـــوت من افتقاره الى التاييد . واختزلت البيروقراطية الادارية ، ولكن اطارهـا احتفظ بحياته حتى ١٩١٧ ، واستعاد النبـــلاء الكثير من ســلطانهم القديم ، واستردوا حقوقهم فيما تحويه أراضيهم من أخشاب ومعادن . أما الطبقة الصناعية والتجارية التى ظفر بها بطرس فقـــد عادت الى خضوعها الماضي . وانهار الكثير من الصناعات الجديدة بسبب النقص فى الآلات ، أو العجز فى العمال أو الادارة . واضمحلت الراســمالية الوليدة ، وظلت روسيا الاقتصادية مائتى عام أخرى كما كانت اســاسا قبل الثورة البطرسية . أما الاصلاحات التجارية فكانت أوفر حظـــا ، فاستمرت التجارة مع الغرب فى ازدياد مطرد ، وأثمرت الاتصـالات باوربا شيئا من التهذيب فى السلوك ، ولكن الأزياء الوطنية القديمـــة

عادت فى عهد كاترين الثانية (١٧٦٢ ــ ٩٦) ، وعاد الناس يطلقون لحاهم فى عهد الاسكندر الثانى (١٨٥٥ ــ ٨١) . واستمر الفساد ، ولم يبد على الاخلاق أنها جنت شيئا من وراء العهد ، ولعل ما ضربه بطرس لشعبه من مثال فى السكر ، والاباحية ، والتوحش ، خلف الشعب أسوأ خلقا من ذى قبل . ولم يبـق من التغييرات الا ما ضرب جـــذوره فى الزمن .

لقد كان بطرس أحد شخصيات التاريخ الحديث الأقل ظفرا بحب الناس ، ومع ذلك كان انجازه هائلا . واخفاقاته تنهض شـاهدا على قيود العبقرية وحدودها عاملا من العوامل المؤثرة فى التاريخ ، ولكن فى البصمة التى تركها على روسيا ما يشيد بقوة الشخصية . فلقد اعطى روسيا جيشا وبحرية ، وفتح الثغور التى اتاحت لها الاتجار مع الغرب فى السلع والأفكار ، وأرسي صناعة التعدين وتشغيل المعـادن ، وانشأ للمدارس وأسس اكاديمية . وبجذبة وحشية واحدة انتزع روســـيا من براثن آسيا وأدخلها أوربا ، وجعلها عاملا مؤثرا فى الشئون الأوربية . فمنذ الآن ستضطر أوربا لأن تحسب حسابا اكثر فاكثر لقلب القـــارة الشاسع ذاك ، ولتلك الجماهير الصلبـة ، الصـــابرة ، المتجـــلدة ، ومصيرها المحتوم .

الفصل الرابع عشر

الامبراطورية المتغيرة

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ اعادة تنظيم المانيا

هبطت حرب الثلاثين بسكان المانيا من ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ الى ١٣٫٥٠٠٫٠٠٠ • وبعد عام افاقت التربة التى روتها دماء البشر ، ولكنها ظلت تنتظر مجىء الرجال • وكان هناك وفرة فى النساء وندرة فى الرجال • وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة الى تعدد الزوجات كما ورد فى العهد القديم • ففى مؤتمر فرانكونيا المنعقد فى فبراير ١٦٥٠ بمدينة نورمبرج اتخذوا القرار الآتى : ـ

« لا يقبل فى الأديار الرجال دون الستين ••• وعلى القساوسة ومساعديهم (اذا لم يكونوا قد رسموا) ، وكهنة المؤسسات الدينية ، أن ينزوجوا •••• ويسمح لكل ذكر بان يتزوج زوجتين ، ويذكر كل رجل تذكيرا جديا ، وينبه مرارا من منبر الكنيسة ، الى النصرف على هذا النحو فى هذه المسالة (١) » •

وفرضت الضرائب على النساء غير المتزوجات (٢) • وسرعان ما اعادت المواليد الجديدة المساواة التقريبية بين الجنسين ، واصرت الزوجات على الا يقاسمهن أحد فى رجالهن • واستعاد السكان كثرتهم سريعا ، فما وافى عام ١٧٠٠ حتى ارتفع عددهم ثانية الى عشرين مليونا من الأنفس • وبنيت مجدبورج من جديد ، وبعثت الاسواق الحياة والنشاط فى ليبزج وفرانكفورت ـ أم ـ مين ، وخرجت همبورج وبريمن أقوى مما كانتا • على أن الصناعة والتجارة استغرقتا أكثر من مائة عام حتى تدركا مستواهما الذى كانتا عليه فى القرن السادس عشر • فالسويديون والهولنديون يسيطرون على مصاب الأودر ، والألب ، والرين ، والنقل بالمحيط يحدث ركودا نسبيا فى النقل البرى ،

والطبقات الوسطى قد اضمحلت ،ولم يعد يحكم المدن رجال الأعمال بل أمراء الأقاليم أو من ينوبون عنهم ٠

وكانت الحرب قد انتهت بكارثة على سلطه هابسبورج الامبراطورية ٠ ذلك أن فرنسا اذلتها ، وأذلت أسبانيا حليفة الامبراطورية ٠ وغدا الأمراء الألمان فى مجموعهم أقوى من الامبراطور فلهم جيوشهم ، وقصورهم ، وعملتهم ، وهم يفصلون فى سياساتهم الخارجية ، ويؤلفون أحلافهم مع الدول غير الألمانية ، بل ضد المصالح الامبراطورية ٠ وكان هناك نحو مائتى امارة « زمنية » تستمتع الآن بهذا الاستقلال ، وثلاثة وستون دويلة يحكمها رؤساء أساقفه أو أساقفة أو رؤساء ديورة يتبعون كنيسة روما الكاثوليكية ، واحدى وخمسون « مدينة حرة » ، لا تخضع لغير الامبراطور ، وخضوعها له لا يعدو أن يكون صوريا ٠ واغتبطت فرنسا برؤية هذه الدويلات الألمانية الكثيرة بدلا من المانيا الموحدة ٠

وكانت براندنبورج ، اقليم الحدود الألمانى ، رمزا على الامبراطورية المحتضرة ، وعلى المانيا جديدة تتخذ لها شكلا جديدا ٠ فهناك ، وعلى منأى من الامبراطور ، وفى مواجهة السويد وأمام جيش من الصقالبة ، تعلمت أسرة هوهنزولرن أنه لابقاء لدويلتهم الا بمواردها وقوتها ٠ ففى القرن العاشر كان هنرى الصياد قد أقام « الحد الشمالى للسكسون » على طول الالب حصنا ضد الطوفان السلافى ٠ وانتزع من الوند الصقالبة قلعتهم وعاصمتهم برنيبور (التى اشتق منها اسم براندنبورج) وردهم الى الأودر ٠ وظلت الاقاليم الواقعة بين الالب والأودر قرونا يتبادلها الألمان والصقالبة ٠ ودخلت براندنبورج ساحة التاريخ دخولا انشط حين اشتراها فردريك هوهنزولرن ، فى ١٤١١ - ١٠ ، هى وصوتها الانتخابى فى الديت الامبراطورى ٠ ومن ذلك التاريخ حكم بيت هوهنزولرن براندنبورج حتى أصبحت بروسيا ، وحكم بروسيا حتى تنازل القيصر فلهلم الثانى عن عرشه فى ١٩١٨ ٠ وندر أن ارتبطت أسرة بدولة هذا الارتباط الطويل الوثيق ، أو كرست نفسها لرفاهية أمة وتوسيع رقعتها بهذه الغيرة والفعالية ٠ وعلى عهد الناخب جون سجسموند (١٦٠٨ - ١٩) حصلت براندنبورج على دوقية كليف فى الغرب ودوقية بروسيا الشرقية فى الشرق ، بحيث غدا

اقليم الحدود بشيرا بمملكة بروسيا . وكان من أضعف أفراد الأسرة الناخب جورج وليم (١٦١٩ - ٤٠) ، الذى أدت تقلباته فى حرب الثلاثين الى تدمير براندنبورج على أيدى الجنود السويديين . فهجرت القرى والمدن ، وخربت برلين ، وكادت الصناعة تتلاشي ، وهبط سكان اقليم الحدود من ٦٠٠ر٠٠٠ الى ٢١٠ر٠٠٠ واستطاع فردريك وليم ، الذى ورث هذه التركة الخربة (١٦٤٠) ، أن ينجز خلال الثمانية والأربعين عاما التى حكم فيها ، معجزة من معجزات التعمير والتنمية ، حتى لقد اعترف له حتى معاصروره بلقب « الناخب الأكبر » . ولولاه لما كان فردريك الاكبر (كما سلم بهذا فردريك الاكبر نفسه) (٣) .

كان يبلغ العشرين حين ولى العرش - فتى وسيما ، أسود الشعر ، أسمر العينين ، يشق طريقه الى السلطة . كان قد نشيء على التقوى والنظام ، واكمل تعليمه فى جامعة ليدن . وقد سبق بطرس قيصر الروس فى اعجابه بالهولنديين وبشجاعتهم الصامدة وجدهم واجتهادهم ، فاستقدم بعد ذلك الوفا منهم ليعمروا وطنه المتعطش للسكان . ثم حصل بمقتضي صلح وستفاليا على بومرانيا الشرقية (البعيدة) ، وأسقفيتى مبندن وهالبرشتات ، والحق فى وراثة رآسة أسقفية مجدبورج الهامة ، وقد آلت اليه فى ١٦٨٠ ، واختتم فردريك وليم حكمه بملك مبعثر بدأ جهده ليصبح مملكة . وفى تاريخ مبكر - ١٦٥٤ - اقترح كبير وزرائه ، الكونت جيورج فردريك الفالدكى ، توحيد المانيا كلها تحت زعامة بيت هوهنزولرن (٤) . وبدا أن فردريك وليم هو الرجل الكفيل بتحقيق هذه الوحدة الحامية . فلما اعتنق أوغسطس القوى امير سكسونيا الكاثوليكية ليصبح ملك بولندة فتح الطريق لالمانيا لتتولى الزعامة البروتستنتية - ولم تعترضه سوى قوة السويد .

ذلك ان معاهدات ١٦٤٨ كانت قد تركت نقطا استراتيجية هامة بالمانيا فى قبضة السويد ، وطالبت السويد بزعامة المانيا البروتستنتية استنادا الى تضحياتها وانتصاراتها فى حرب الثلاثين . فكيف تستطيع براندنبورج - بروسيا ، بمكوناتها التى تحدق بها الدول المنافسة من أقصي المانيا الى أقصاها ، أن تبلغ من القوة والمنعة حدا يتيح لها الدفاع عن نفسها ضد تسلط السويد ، أو تسلط سكسونيا ، الدولة الموحدة

المركزية السلطة ؟ وبدأ فردريك وليم بخطة وارادة همـا أول دعامات الحكم الكفء ، ثم جمع بالضرائب والاعانات الفرنسية المال الذى هـو ثاني دعامات الحكم الكفء ، وبالمال نظم جيشا ، هو ثالث دعامات الحكم الكفء ، فما حـل عام ١٦٥٦ حتى كان له أول جيش دائم فى أوربا - عدته ثمانية عشر الف مقاتل شاكى السلاح . وبهذه الوسيلة من وسائل الاقناع أقنع الولايات المكونة لدولته أن تدفع « اشتراكا » سنويا فى نفقات الحكومة المركزية ببرلين ، وبهذه الموارد أصبح مستقلا عن سلطان المال فى المجالس الاقليمية ، وحقق ما كان فى رايه الشـكل العملى الوحيد للحكومة فى المرحلة الراهنة من مراحل التطور السياسي والفكرى - وهو الحكم المطلق المركز . وأعفى النبـلاء من الضرائب المباشرة ، ولكنه الزم أبناءهم خدمته نبلاء صغارا « يونكر » فى وظائف الجيش والادارة العليا . وكره هؤلاء « الصغار » هذه الخدمـة أول الأمر ولكنه خلع عليهم الثياب العسكرية الفاخرة والمركز الاجتمـاعى المرموق ، ودربهم على الكفاية وعـزة النفس ، وربى فيهـم « روح الفريق » التى حلت محل ولاءات النظام القديم الاقطاعيـة ، والتى جعلت الجيش خادما لا لملاك الاراضي بل للحكومة . وهكذا بدأ الجهاز العسكرى والاجتماعى الذى مكن لفردريك الأكبر أن يثبت لنصف أوربا ، والذى أعد ألمانيا لخوض الحرب العالمية الأولى .

على أن فردريك وليم أعوزته صفة واحدة - هى عبقـرية ملوك السويد الحربية . فقد ظل عشرين عاما ينقل قونه من جانب الأجانب فى صراعات السويد مع بولنده ، والامبراطورية مع فرنسا ، حافظـا بالجهد كيانه بالدبلوماسية . ولكن حين غزا شـارل الحـادى عشر براندنبورج ، برر جيش فردريك وليم وجوده بهزيمته السـويديين فى فيربللين (١٦٧٥) ، وهذا النصر هو الذى اكسبه لقب الناخب الأكبر. وفى خاتمة المطاف ، ورغم سياساته المتقلبة وموارده الضيقة ، أضاف لدولته أربعين ألف ميل مربع من الأرض .

بيد ان اصلاحاته الاقتصادية والادارية كانت أهم - فبفضل حضه حسن الاشراف وسائلهم الزراعية وزادوا من غلة ضياعهم . وقد طور صناعة ناجحة للحرير بزرعه اشجار التوت على نطاق واسع . وقلب الاتجاه الى اقتلاع أشجار الغابات ، فاشترط على الفـلاحين أن يغرس

كل منهم اثنتى عشرة شجرة قبل أن يتزوج . وصمم ومول شق قناة فردريك وليم لتربط نهرى الأودر وسبرى . ولما الغى لويس الرابع عشر مرسوم نانت ، أصدر الناخب الأكبر « مرسوم بوتسدام » (نوفمبر ١٦٨٥) الذى دعا الهيجونوت المنكوبين للمجىء الى براندنبورج - بروسيا والاقامة فيها ، وبعث مندوبين ليوجهوا هجرتهم ويمولوها (٥)، وجاء عشرون الفا ، فكانوا مهمازا حفز الصناعة البروسية ، والفوا خمسة أفواج فى الجيش البروسي . وكان فردريك وليم نفسه ، كما كان سليله فردريك الأكبر ، يكد ويكدح فى الادارة بهمة لاتنى ، وقد أرسي ذلك المبدأ الذى قبسله بعد ذلك القيصر بطرس و « المستبدون المستنيرون » من حكام القرن الثامن عشر ، ومؤداه أن على الملك أن يكون خادم الدولة المكرس . وقد أدرك أن التعصب الدينى معطل للتطور الاقتصادى والسياسي ، فتفرد فى المانيا بان سمح لشعبه بالبقاء على المذهب اللوثرى فى حين ظل هو على مذهبه الكلفنى ، ومنح الحرية الدينية للكاثوليك ، والموحدين ، واليهود .

ومات عام ١٦٨٨ وقد بلغ الثامنة والستين . وكانت وصيته التى قسم فيها ولاياته العديدة بين أبنائه كفيلة بان تمحو ما أحدثه حكمه من أثر موحد ، لولا أن خلفه رفض الوثيقة واحتفظ بالسلطة المركزية . واكتسب هذا الخلف - وهو فردريك الثالث - مودة الامبراطور ليوبولد الأول بالانضمام اليه ضد فرنسا ، ومن أجل هذا ، ومن اجل ثمانية آلاف مقاتل ، منحه ليوبولد لقب « ملك بروسيا » . وقد توج باسم فردريك الأول فى كونجزبرج فى ١٨ يناير ١٧٠١ ، وبدأت بروسيا مسيرتها نحو بسمارك والوحدة الألمانية .

ومن المفاخر التى ازدان بها سجل فردريك انشاؤه جامعة هالى ، ومفخرة أخرى تذكر له أنه عضد جهود زوجته الثانية فى النهوض بلطائف الثقافة والفكر فى برلين . وقد اشتهرت هذه الزوجة ، واسمها صوفيا شارلوت ، ابنة صوفيا ناخبة هانوفر ، بأنها أجمل النساء وأذكاهن فى المانيا. فجلبت الى بلاط برلين من مقامها الطويل فى باريس مزيجا جذابا من الثقافة والظرف . وبالحاحها والحاح ليبنتز ، انشأ فردريك أكاديمية برلين للعلوم ، التى قدر لها أن تصنع التاريخ فى عهد فردريك الثانى . وبنى الناخب لزوجته (١٦٩٦) القلعة او القصر

(شلوس) الشهير فى الضاحية التى اتخذت اسمها ، شارلوتنبرج . وتوافد على صالونها فى قصر شارلوتنبرج العلماء والفلاسفة واحـرار الفكر واليسوعيون والقساوسة اللوثريون ، وكانت شـارلوت تحب ان تحفزهم لخوض المعارك اللاهوتية التى كانت احيانا تستغرق الليـل كله . هناك استوعبت زوجة أخيها ، كارولين ملكة انجلتره ، العـلم والفن اللذين ستجفل لهما انجلتره . فلما حضرت الوفاة شارلوت (اذا صدقنا رواية حفيدها فردريك الأكبر) رفضـت عروض القساوسـة الكاثوليك والبروتستنت على السواء بالصلاة من اجلها ، وقالت لهم انها تموت فى سلام ، وانها تشعر بحب الاسـتطلاع اكثر من الرجـاء أو الخوف ، لأنها الآن ستشبع فضولها حول أصـل الأشـياء « الذى لم يستطع حتى ليبنتز أن يفسره لى قط » ، وعزت زوجها الشديد الولع بالمراسم بقولها ان موتها « سيتيح له فرصة تشييعها بجنازة فخمة (٦) » . لقد كانت صوفيا شارلوت واحدة من نساء كثيرات ذوات خلق وتعليم ، حملن المانيا والقرن السابع عشر ينزلق الى الثامن عشر .

أما بلاط برلين ، وهو واحد من نيف وثلثمائة بلاط أفنت آنئذ موارد الامبراطورية ، فلم يكن له من منافس سوى البلاط السكسونى . وقد خلف أوغسطس القوى ، الذى حكم سكسونيا (١٦٩٤ – ٢٧٣٣) باسم الناخب فردريك أوغسطس الاول ، لأوربا رهطا من الأبنـاء غير الشرعيين ، ومنهم المارشال دى ساكس الشهير . وجعل عاصمته « أجمل مدينة فى المانيا (٧) » ومركز الفنون الصغيرة ومفخرتهـا ، ولكن السكسون لم يستطيعوا أن يغفروا له ارتداده عن مذهبه ، واستعماله أموالهم ورجالهم فى حروب بولنده ، وترف بلاطه الباهظ التكاليف .

وقد أسهمت امارة هانوفر الناخبة فى التاريخ فى هذه الحقبـة بايوائها ليبنتز وضمها انجلتره . وفى ١٦٥٨ ، تزوجت صوفيا أميرة بالاتين المخلوعة ، وابنه اليزابيث ستيوارت (ملكه بوهيميـا) ، من ارنست أوغسطس ، الذى أصبح ناخب هانوفر . وقد أربك علمها الواسع زوجها ، فقد كانت تتحدث خمس لغات بطلاقة تكاد تكون تامة ، وتعرف من التاريخ الانجليزى اكثر مما يعرفه السفراء الانجليز فى بلاطها . وظلت حينا تحتفظ فى هانوفر بصالون يؤمه العلماء والفلاسفة . ولكنها كانت تتحرق شوقا للحصول على عرش انجلترة لولدها جـورج : كان

دمها يختلج بالملوكية ، لانها لم تنس قط أنها حفيدة جيمس الأول . وفى ١٧٠١ قرر البرلمان الانجليزى كما رأينا حق وراثة العرش لصوفيا و « ورثتها من دمها شريطـــة أن يكونوا من البروتستنت » . وتأملت فى سرور مشهد ولدها حين يصبح جورج الأول ، وفى كدر مشهد زوجته صوفيا دوروتيا ملكة له ، وتطلعت فى هدوء الى فسخ زواجهمـــا . واشتبه جورج فى ان تكون زوجتـــه خائنتـــه مع الكونت فيليب فون كونجزمارك ، فقتل بامره ، وطلق صوفيا دوروتيا ، وسجنها من ١٦٩٤ الى أن ماتت فى ١٧٢٦ . وفى غضون هذا ماتت الناخبة الأرملة فى يونيو ١٧١٤ وقد بلغت الرابعة والثمانين ، قبل أن يهبط تاج انجلترة على رأس ولدها بشهرين فقط . وكذلك يتصرف اله الحظ العظيم ، من عرشه الكلى الوجود ، فى المصائر والدول والرجال .

٢ ــ الروح الألمانيـــة

كان اصطراع الكاثوليكية والبروتستنتية على روح ألمانيا يخفف من غلوائه ، لأن حرب الثلاثين جعلت من الأحقاد اللاهوتيـــة « فيـاس خلف » . وتحول الى كنيسة رومـــا فى هـــذه الفترة بعض الأمـــراء البروتستنت ، ومعظم الفضل فى هذا لاقناع اليسوعيين لهم . وتفوقت الكلفنية على اللوثرية التى نزعت الى الدجماطيـــة السكســـولاستية الجامدة . وانتقاضا على هذه الشكلية قبل كل شيء ، انتشرت الحـــركة « التقوية » التى حاولت أن تستبدل بالطقوس الخارجية روحا باطنية من الوحدة مع الله . وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر حمـــل جورج فوكس ، ووليم بن ، وروبرت باركلى ، انجيل طائفة « الكويكر » الى ألمانيا ، ولعل هذه الحركة التبشيرية شاركت فى تطوير التقـــوية هناك ، ونلاحظ أن كتاب فيليب يعقـــوب ســـبينر Pia desideria (١٦٧٥) صدر بعد زيارة بن الأولى بأربع سنوات . ذلك أن سبينر ، بوصفه راعيا لكنيسة لوثرية فى فرانكفورت ــ أم ــ مين ، اســـتكمل خدماتها بعبادات صوفية تؤديها اجتماعات خاصة (هيئات تقوية) فى منزله . وقد أطلق اســـم التقـــوى Pietist ، كلفظ البيـــورتان والمثودست ، على هؤلاء العابدين نقادهم على ســـبيل الســـخرية ، فقبلوه ، وأصبح لهم شارة فخر متواضع . وتشبثوا فى حـــرارة بآمال

عصر السلام المرتقب (بعد مجيء المسيح) التى تعـزت بهـــا بعض الجماهير الألمانية خلال الحرب · ولم تكن فكرتهم عن المجيء الثانى للمسيح عقيدة لاهوتية غامضة ، بل الهاما حارا نشيطا فى حياتهـــم اليومية · ففى أى لحظة قد يظهر المسيح ثانية على الأرض ، وسيهدىء صراع الأديان وينهى حكم القوة والحرب ، وسيقيم « كنيسة روحية » خالصة ، بغير تنظيم ، ولا طقوس ، ولا كهنـــة ، تمارس فى فـــرح مسيحية القلب السمحة الكريمة ·

وواصل أوجست فرانكى الحركة تحدوه غيرة الأنبياء · وتأثرت نساء كثيرات بمسيحيته العملية وتطوعن فى قضية التقـــوى الشخصة والبر العام · وبعد أن تأثرت الحركة بالبيورتانية الانجليزية والهدوئة الفرنسية ، أثرت بدورها فى المثودية الانجليزية والشعر الألمـــانى ، وأشعرت الناس بوجودها فى أمريكا ، حيث رحب بهـــا كوتون ماذر برجاء فقال « ان العالم بدأ يشعر بدفء من النار الألهية التى تضطرم على هذا النحو فى قلب ألمانيا (٨) » · ولكن التقوية كالبيوريتانيـــة آذت نفسها لأنها جعلت تقواها علنية ومحترفة ، وترددت أحيـــانا فى مهاوى الافتعال والرياء · فأغرقها فى القرن الثـــامن عشر الطوفان العقلانى الذى تدفق من فرنسا ·

وكان لانتصارات ريشـــليو ، ومازاران ، ولويس الرابع عشر ، ولثراء البلاط الفرنسي وبهائه المتزايدين ، اثر لا يقاوم فى المجتمـــع الألمانى خلال القرن التالى لصلح وستفاليا · وطغت النزعة العالمية حينا على القومية · وسادت الأساليب الفرنسية قصور الملوك والأمراء فى اللغة والأدب والغرام والعادات والرقص والفن والفلسفة والخمر والشـــعور المستعارة· ولم يتكلم الارستقراطيون الالمان الا بالألمانية الا مع الخدمفقط· وكتب المؤلفون الالمان بالفرنسية للطبقات العليا أو باللاتينية للعـــالم المثقف · واعترف ليبنتز ، الذى كانت معظم كتابته بالفرنسـية ، بأن « العادات الألمانية تحولت قليلا الى الأناقة والأدب » بالقدوة الفرنسية، ولكنه حزن على حلول اللغة والعبارات الفرنسية محل الحديث الألمانى ، أو التسرب اليه (٩) ·

ولم يعش من كتب هذا العهد الالمانية سوى كتاب واحد اسمه « سمبلسيوس سمبليسيموس » (١٦٦٩) بقلم هانز فون جريملز هاوزن . وهو من حيث الشكل سيرة متشرد ذاتية ، ذات احداث مترابطة ، لميلكيور فون فوشهايم ، وهو انسان ربع أحمق ، وربع فيلسوف ، ونصف وغد . أما من حيث الروح فهو هجاء فكه متشائم يهجو المانيا التى خلفتها ثلاثون عاما من الحرب بين الحياة والموت. ويبدأ ميلكيور هذا ربيبا لفلاح يصف المؤلف حياته فى عبارات مهذبة فيقول :-

« كان سيدى يملك الغنم والماعز والخنازير بدلا من الاتباع والخدم والسياس ، وكانت كلها تتبعنى فى السباق حتى أسوقها الى البيت . أما مخزن ذخائره فعامر بالمحاريث ، والمعاول ، والبلط ، والفئوس ، والمجاريف ، ومذارى الروث والدريس ، التى كان يمارس استعمالها كل يوم ، لأن العزق والحفر هما تدريبه العسكرى ... واستخراج السباخ هو علم التحصينات عنده ، وامساك المحراث علم الاستراتيجية ، وتنظيف الاسطبل تسليته ومباراته الفروسيتان (١٠) ».

ولكن جماعة من الجند تسطو على هذا الفردوس الريفى ، وتعذب الأسرة لتكرهها على البوح بسر مؤن مختزنة لا وجود لها . ويهرب ميلكيور ويلتجىء الى ناسك عجوز يلقنه أول دروسه اللاهوتية . فاذا سئل عن اسمه أجاب « وغد أو رد مشانق » لانه لم يسمع احدا يدعوه الا بهذا الاسم ، أما اسم متبنيه ، جريا على القاعدة ذاتها ، فهو « صعلوك ، وبلطجى ، وكلب مخمور » . ويقبض عليه الجند ، فيأخذونه الى قصر حاكم هاناو ، وهناك يدرب على أن يكون مهرجا ، ويطلق عليه اسم سمبليسيوس سمبليسيموس . ثم يختطف ، ويصبح لصا ، ويعثر على كنز مخبوء ، ويصبح جنتلمانا ، ويغوى فتاة ، ويكره على زواجها ، ثم يهجرها ، ويعتنق الكاثوليكية ، ويزور قصبة الدنيا ، ويخسر ثروته ، ويعوضها بالشعوذة والتدجيل ، ثم يضنيه طول التجوال ، فيعتكف ليحيا حياة ناسك كشف حقيقة الدنيا وخداعها . هذه « كانديد » أولى سابقة على قصة فولتير بقرن ، والفرق أن هجاءها تلطف منه الفكاهة الألمانية ، ولا يجمله الذكاء الفرنسي . وندد النقاد بالكتاب ، وأصبح من عيون الأدب ، وأشهر ثمار الأدب الألمانى بين لوثر وليسنج .

على أننا يجب الا نتقبله صورة منصفة لألمانيا فى الجيل التالى للحرب . فربما كان الألمانى شديد الولع بالشراب ، ولكنه احتفظ بروح فكاهته الفوار حتى فى كئوس شرابه ، وربما وصفته زوجته بالكلب المخمور ، ولكنها أحبته لأنها لم تجد خيرا منه ، وربت أبناءه تربية قوية متينة . وربما كان فى ألمانيا ذلك العصر من الخلق السليم أكثر مما كان فى فرنسا . وآية ذلك أن شارلوت اليزابيث المسكينة ، اميرة بالاتين (١٦٧١) التى تزوجت على غير رغبتها بـ « المسيو » فليب أورليان أرمل « مدام » هنرييتا المنحرف جنسيا ، لم تمل قط جمال هيدلبرج الهادىء ، وبعد أن عاشت ثلاثة واربعين عاما عيشا غير مريح مع ترف البلاط الفرنسي ، لم تفتأ تتوق الى « صحن طيب من الكرنب والسجق المدخن » مؤثرة اياه كثيرا على ما تقدمه باريس أو فرساى من قهوة أو شاى أو كاكاو (١١) . ويدلنا وفاؤها الرواقى لزوجها الحقير ، وصبرها على الملك أخى زوجها الذى أمر او أذن بتدمير بلاتينات ، على أنه - حتى وسط خرائب ألمانيا - وجدت نساء استطعن أن يعلمن اللباقة والانسانية للملوك المعطرين ، الموشحين ، المطرزين ، اللابسين البواريك .

٣ - الفنون فى ألمانيا

ثم ان هذا العصر كان من أكثر العصور انتاجا فى العمارة الألمانية ، على عكس كل التوقعات المعقولة ، فقد شهد أول تفتح للباروك الألمانى ، الذى خلع واجهة جديدة من الفتنة والبهجة على كارلسروهى ، ومانهايم ، ودرسدن ، وبايرويت ، وفرنسبورج ، وفيينا . وكان زمان البنائين أمثال يوهان فيشر فون ايرلاخ ، ويعقوب برانتاور ، ويوهان وكيليان وكريستوف دينتسنهوفر ، واندرياس شلوتر ، الذين كانت أسماؤهم خليقة بأن تشتهر بين الشعوب الناطقة بالانجليزية اشتهار رين واينيجو جونز ، لولا سجن الحدود وبلبلة الألسن . على أن ما خلفوه دمر بعضه فى غزوات الجيوش الفرنسية لألمانيا (١٦٨٩) ، وبعضه فى الحرب العالمية الثانية (١٢) . ان التاريخ سباق بين الفن والحرب .

وارتفعت كنائس جميلة وسط الفقر والخراب . ويشين سجلنا هذا الا نشير فيه اشارة ولو عابرة لكتدرائية يوهان دينتسنهوفر فى فولدا أو

كنيسة ديره فى بانتز ، أو لأشغال كريستوف وكيليــان دينتسنهوفر فى كنيستى القديسين نيقولا ويوحنا فى براغ . وفى ١٦٦٣ بدأ المعمــارى الايطالى أجوستينو باريللى قصر نيمفينبورج خارج ميونيخ ، وأكمــل يوسف افنر داخله فى مزيج موفق من العمد الكلاســيكية والزخــرف الباروكى . لقد كانت الزينة هى الاغراء المتسـلط على البــاروك ، واستعملت باسراف فى الفستزال أو صالة الاحتفالات فى شلوس برلين، وفى جناح قصر زفينجر الذى بناه فى درسدن متاوس دانيال بوبلمان لأوغسطس القوى ، هنا تحول الباروك الى روكوك جميل انسب لداخل مخدع منه لواجهة قصر . وقد تهدم معظمه فى الحرب العالمية الثانية ، وكذلك شلوس شارلوتنبورج وشلوس برلين ، وهـــو القصر الملكى الذى بدأه أندرياس شلوتر فى ١٦٩٨ .

أما أبرز المثالين الألمان فى هذا العصر فهو شلوتر . فقد انتشت ألمانيا كلها بتمثال الفـــارس الراكب الذى صـــنعه للناخب الأكبـــر Der Grosse Kurfurst والذى لم تنل منه كل قنابل الحرب ، والذى يرتفع الآن فى ميدان شارلوتنبورج خارج برلين . وفى كونجزبرج أقام شلوتر تمثالا لفردريك الأول عقب تتويجه ملكا لبروسيا ، لا يقل روعة عن التمثال المذكور . ونحت يوليوس جليسكر رأسا للعـــذراء مريم ، حزينة فى صمت ، لمجموعة تماثيل للمسيح المصـلوب فى كتدرائيـــة بامبرج . وأظهر نقاشو الخشب مهارتهم فى مقاعد المرتلين الرائعة فى كلوستركيرشي بسيليسيا ، ولكنهم غالوا فى الأثاث المنقوش نقشا مسرفا والذى أمر بصنعه سادة فيهم من التفاخر أكثر مما فيهـــم من الـذوق السليم .

ولم ينجب التصوير الألمانى روائع فى هذه الفترة ، الا اذا حسبنا من الروائع صورة ساحرة بريشة كريستوف باراديزو تسمى « شـــاب ذو قبعة رمادية (١٣) » . وقطع النسيج المرسوم التى صممها رودلف بيس لقصر فورتسبورج من أبدع القطع . واشتهرت بلدة فارمبرون — ينابيع سيليسيا الحارة — بزجاجها المصقول ، وروجت درسدن استعمال « صينى درسدن » . وكان أوغسطس القوى كذلك « ملك القاشانى » ، وحين عثر على أنواع مناسبة من الطفل قــرب مايسين ، اقام بهـــا

(١٧٠٩) القمائن التى انتجت أول خزف (برســـلان) صلب فى أوربا ٠

على أن الموسيقى هى التى وجدت فيها الروح الالمانية أبرز تعبير لها ، وكان هذا العهد بمثابة العشية التى بزغ بعدها صبح يوهـــان سبستيان باخ ٠ أما الاشكال والآلات فجاءت من ايطاليا ، ولكن الالمان سكبوا فيها عاطفتهم الرقيقة وتقواهم الضخمة ٠ فبينما تفوقت ايطاليا فى اتساق الأصوات ، وفرنسا فى الايقاع الرشيق ، تقدمت المانيا الى مكان الصدارة فى الليدة (الأغنية الألمانية) ، وموسيقى الأرغـــن ، والكورال ٠ وفى الحان ج ٠ ف ٠ كريجر المسماة « ١٢ سوناتا بكمانين» (١٦٨٨) نجد متتالية السوناتا قد أرسيت فعلا فى ثلاث حـــركات ـ الالليجرو (الأعجل) ، واللارجو (البطىء جدا) ، والبريســـتو (السريع) ٠ وكانت موســـيقى الآلات ، المتطـــورة من رقصـــات (كالبافان ، والسربنده ، والجافوت ، والجبج الخ) تعلن اســتقلالها عن الرقص والصوت جميعا ٠

وكان الطلب على الموسيقيين الايطاليين لايزال كبيرا فى المانيا ٠ فملك كافاللى على ميونيخ ، كما ملك من بعده فيفالدى على دارمشتات٠ واستوردت الاوبرا الايطالية ، وعرضت أول عرض لهـــا فى المانيـــا بتورجاو (١٦٢٧) ، وتلت ذلك عروض أخرى فى ريجنســبورج ، وفيينا ، ومبونيخ ٠ وكانت اول اوبرا المانية (Singspiel) هى « آدم وحواء » من تلحين يوهان تايلى ، وقد أخرجت بهامبورج فى ١٦٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت هامبورج تتزعـــم الاوبرا والدرامـــا الالمانيتين طوال نصف قرن ٠ هناك انتج هندل « الميرا » و «نيرون» فى ١٧٠٥ ، و « دافنى » و « فلورندا » فى ١٧٠٦ ، قبل أن يذهب لغزو انجلترة ٠ والاسم الكبير فى الاوبرا الألمانية فى ذلك العهد هـــو رابنهارد كايزر ، الذى انتج ١١٦ أوبرا لفرقة هامبورج ٠

وبعد ١٦٤٤ انتزع المؤلفون الألمان مكان الصدارة من الايطاليين فى التأليف للأرغن والكنيسة ٠ وعبرت ترانيم باول جرهارت عن عقيدته اللوثرية العنيدة ٠ وسيطر يان راينكن على الأرغـــن فى كنيســـة « كاتريننكرشي » بهامبورج من ١٦٦٣ حتى وفـــاته عـــام ١٧٢٢ فى

الحادية والتسعين . واصبح ديتريش بوكستيهودى ، المولود بالدنمرك، عازف الأرغن فى كنيسة مارينكرشي بلوبيك فى ١٦٦٨ ، واشستهرت حفلاته هناك ، لا سيما حفلات « موسيقى المسـاء » التى جمعت بين الأرغن والأوركسترا والخورس ، وذاع صيتها حتى أن باخ الكبير كان يمشي خمسين ميلا من آرنشتات الى لوبيك ليسمعه وهو يعزف (١٤) . وقد عاش نحو سبعين من الألحان التى وضعها للأرغن ، وكثير منها مازال يعزف ، وقد اسهمت الحانه الكورالية فى تكوين أسلوب يوهان سبستيان . وسبق يوهان كوناو باخ عازفا على الأرغن فى كنيسة توماسكرشي بليبزج ، وقد طور السوناتا للكلافير ، ولحن الحانا(Partien من نوع متتاليات باخ .

واخذت اسرة باخ تدخل الآن عالم الموسيقى فى خصوبة مذهلة . وقد وصل الى علمنا أسماء نحو أربعمائة من آل باخ بين ١٥٥٠ و ١٨٥٠: كلهم موسيقيون ، وستون منهم يشغلون مراكز هامة فى دنيا الموسيقى فى زمانهم . وقد الفوا نوعا من النقابة العائلية التى تجتمع دوريا فى مقارهم بأيزيناخ ، أو آرنشتات ، أو ارفورت . وهم يؤلفون بلا جدال اكبر واشهر أسرة فى التاريخ الثقافى ، ويثيرون الاعجاب لا لكثرة عددهم فحسب ، بل لاخلاصهم لفنهم ، وللثبات فى الهدف جرمانى صيل ، ولغزارة انتاجهم وقوة تاثيرهم . ولم تبرز أسماؤهم فى الحوليات الموسيقية الا فى جيلهم الخامس ، بظهور يوهان كرستوف ويوهان ميكائيل باخ ، ابنى هينريش باخ ، عازف الأرغن فى آرنشتات . وكان يوهان كرستوف كبير عازفى الأرغن فى ايزناخ طوال ثمان وثلاثين سنة ، رجلا بسيطا ، جادا ، مدققا فى عمله ، درب فرق الترتيل ولحن للأرغن وللأوركسترا . واصبح اخوه يوهان ميكائيل عازف الأرغن فى جيرين فى ١٦٧٣ ، وظل هناك حتى مات فى ١٦٩٤، واعطى خامس بناته زوجة أولى ليوهان سبستيان. وكان لكريستوف باخ أخى هيزيش ، وعازف الأرغن فى فيمار ، ابنان كانا عازفى كمان ، واحدهما وهو أمبروزيوس كان أبا يوهان سبستيان . أما يوهان باخ ، أخو هينريش وكرستوف ، فكان عازف الأرغن فى ايرفورت من ١٦٤٧ الى ١٦٧٣ ، حين خلفه ابنه يوهان كرستيان باخ ، الذى خلفه فى ١٦٨٢ أخوه يوهان اجيديوس باخ . وكان قوى الطبيعة كلها وجهت لتنجب وتعد يوهان سبستيان باخ .

٤ - النمسا والأتراك العثمانيـون

ان فى فيينا اليوم من الجمال ما يصعب معه علينا أن نتصور حالها عقب حرب الثلاثين ، صحيح أن النمسا لم تقاس ما قاسته المانيـــا من ويلاتها ، ولكن خزانتها نضبت ، وجيوشها تهلهلت ، وهبط صلح وستفاليا بسمعة الأباطرة وقوتهم . على أن ظرفا واحدا كان فى صفها . ذلك ان ليوبولد الأول خلف أباه فرديناند الثالث على العرش الامبراطورى فى ١٦٥٨ وظل متربعا عليه طوال سبعة وأربعين عاما ، ومع أن هذا الحكم الطويل سمع العثمانيين يقرعون أبواب فيينا مرة أخرى ، فان النمسا أخذت تفيق من كبوتها سريعا . وكان ليوبولد ملكا على الامارات الألمانية أسما لا فعلا ، ولكنه كان الملك الفعلى لبوهيميا وغربى المجـــر ، وكان يحكم دوقيات استيريا ، وكارنثيا ، وكارنيولا ، وكونتية التيرول . ولم يكن بالحاكم العظيم ، كان يكد ويكدح بشعور الواجب فى الادارة وتشكيل السياسة ، ولكنه افتقر الى الرؤية البعيدة التى أوتيها أســلافه من آل هابسبورج ، فلم يرث منهم غير لاهوتهم وشكل ذقونهم . وكان قد درب أصلا للكهانة ، ولم يفقد قط حبه لليسوعيين ، أو ينحـــرف كثيرا عـن ارشادهم . ومع أن أخلاقه الشخصية كانت نقية لا عيب فيهـــا ، فانه قبل المبدأ الذى يحتم جعل جميع رعاياه كاثوليكا ، ونفـــذ ســـياسته بأوتقراطية صارمة فى بوهيميا والمجر . وكان ميالا الى السلم ، ولكنه اكره أو سيق الى سلسلة من الحروب بسبب اعتداءات لويس الرابع عشر والعثمانيين . وقد وجد فيما بين عمليات اراقة الدماء هذه وقتا للشعر والفن والموسيقى ، ألف الموسيقى بنفسه ، وشـــجع الأوبرا فى فيينا ، فعرضت بها أربعمائة أوبرا جديدة فى السنين الخمسين التالية لاعتلائه العرش . ويدلنا نقش يرجع الى عام ١٦٦٧ على أن المدينة كانت تملك دار أوبرا فخمة ، ذات ثلاثة صفوف من الألواج ، وكل مقعد فيها مشغول . وهكذا نرى أن هذه الدعامة المبهجة للغناء قديمة جدا .

وعلينا أن ننظر الى النمسا فى هذا العصر على أنها المدافع عن الغرب ضد تركيا المنبعثة من جديد ، المعذبة بعداء أشد حكام الغرب بأسا ، فقد عاق صراع العالم المسيحى مع العالم الاسلامى وشوشه ذلك النزاع القديم بين الهابسبورج وفرنسا . وزادت المجر المشكلة تعقيدا ، لأن ثلثها

الغربي فقط هو الذى خضع لحكم الامبراطور ، وكان جزء منه بروتستنتيا يتوق الى التحرر . وكان للمجريين مشاعرهم القومية الخاصة بهم ، والتى يغذوها ادبهم وما توارثوه من تقاليد يعتزون بها عن هونيادى يانوس وماتياس كورفينوس ، وكان ميكلوس زرينيى قد نشر قبيل هذه الفترة (١٦٥١) ملحمة تفيض بحب الوطن . وكان المجريون الذين اهانهم وظلمهم الحكم النمساوى والتسلط الكاثوليكى تحدثهم نفوسهم بالترحيب بالعثمانيين حين قرر هؤلاء محاولة فتح المجر كلها .

وقد أوقفت سلسلة من الوزراء العثمانيين الأقوياء اضمحلال تركيا ، وعاودوا ارهاب الغرب . ومن علامات الانتعاش أن شاعرا تركيا فحلا اسمه « نبى » راح يتغنى بمديح الوزراء الذين اغدقوا عليه المال ، وعلامة أخرى أن المال والذوق والورع التركى ـ كلها تضافرت لتشيد جامع يينى ـ وليدى البديع فى اسطنبول (١٦٥١ ـ ٨٠) . وعين السلطان محمد الرابع محمد كوبريلى صدرا أعظم (١٦٥٦) ، استهل وهو فى السبعين من عمره نصف قرن من الحكم تربعت فيه أسرته الألبانية على دست الوزارة ، ولم يدم استيزاره أكثر من خمس سنوات ، ولكن فى هذه الوزارة الخماسية أعدم بأمره ٣٦،٠٠٠ شخص لجرائم تتفاوت من السرقة الى خيانة الدولة ، وكان كبير جلاديه يشنق ثلاثة كل يوم فى المتوسط . واكره الخوف من العقاب المفسدين فى الادارة ودسامي الساسة فى الحريم على الاعتدال ، وأعيد النظام الى الجيش ، وخفف باشوات الولايات من استقلالهم واختلاساتهم . فلما تمرد جورج راكوكزى الثانى ، أمير ترانسلفانيا ، على السيادة العثمانية ، اكتسح كوبريلى حركة التمرد بجيش يقوده بنفسه ، وخلع راكوكزى ،وفرض على البلاد تعويضا باهظا ، وزاد الجزية التى تدفعها ترانسلفانيا للسلطان سنويا من خمسة عشر الف فلورين الى خمسين الفا .

وخلف هذا السبعينى الرهيب فى الوزارة ابنه احمد كوبريلى . فلما نشبت ثورة أخرى فى ترانسلفانيا بقيادة يوحنا كيمينيى ، عززها ليوبولد بعشرة آلاف مقاتل يقودهم قائد فذ من قواد ذلك العصر هو الكونت الايطالى ريموندو دى مونتيكوكولى . ورد احمد بالزحف بجيش عدته ١٢٠،٠٠٠ مقاتل تحت قيادته حاول به استكمال فتح المجر . وطلب ليوبولد المعونة ، واستجابت الولايات الالمانية ، البروتستنتية

والكاثوليكية على السواء ، بالمال والرجال ، وأسهم لويس الرابع عشر بأربعة آلاف جندى بعد أن تخلى عن تحالفه مع العثمانيين . ولكن المقاومة بدت أمرا ميئوسا منه حتى بعد هذ اكله ، وتوقعت أوربا سقوط فيينا ، واستعد ليوبولد للرحيل عن عاصمته . وكانت قوات مونتيكوكولى اقل كثيرا من قوات العدو ولكنها افضل تزودا بالمدافع . ولم يجرؤ على لقاء الترك فى أرض مكشوفة تعطى ميزة للكثرة العددية ، فناورهم ليحاولوا عبور نهر رابا عند زنتجوتهارد ، على نحو ثمانين ميلا جنوبى فيينا ، وهاجم كل كتيبة تركية بمجرد وصولها الى ضفة النهر اليسرى . وكتب النصر لاستراتيجيته ، وللبطولة الفذة التى قاتل بها افراد الفرقة الفرنسية (أول اغسطس ١٦٦٤) ، فى معركة انقذت أوربا مرة أخرى من ان يغرقها طوفان المسلمين .

ولكن ، كما ترك انتصار ليبانتو قبل قرن من الزمان (١٥٧١) العثمانيين محتفظين بقوتهم مفيقين بسرعة من كبوتهم ، فكذلك اضطر الامبراطور ، بسبب قدرتهم على تعويض خسائرهم ، وجيشهم الذى مازال محتفظا بضخامته ، وعدم ثقة ليوبولد بحلفائه التواقين الى العودة لأوطانهم - اضطر الى أن يبرم مع السلطان هدنة تمتد عشرين عاما (١٠ أغسطس ١٦٦٤) ، ترك بمقتضاها معظم المجر تحت حكم الترك ، واعترف فيها ليوبولد بالسيادة التركية على ترانسلفانيا ، ودفع للسلطان « هدية » بلغت ٢٠٠٫٠٠٠ فلورين . أما أحمد كوبريلى ، الذى خسر المعركة وكسب الحرب ، فقد عاد الى القسطنطينية مكللا بالغار .

وانهى هجوم لويس الرابع عشر على الأراضي المنخفضة (١٦٦٧) مؤقتا اتحاد العالم المسيحى ضد الترك . وفى ١٦٦٩ تولى أحمد قيادة الحصار الطويل لكريت ، وأكره البنادقة على تسليم الجزيرة ، وسيطر الاسطول التركى مرة أخرى على البحر المتوسط . ولم يشعر حاكم غير يوحنا سوبيسكى ، ملك بولنده ، بأن لديه من الرغبة القوية ما يغريه بقهر تركيا . وقد أعلن عن هدفه فى شجاعة فقال ان « مقارعة الهمجى غزوا بغزو ، ومطاردته من نصر الى نصر ، على ذلك الحد نفسه الذى لفظه من أوربا ... والقذف به الى موطنه فى الصحارى ، وابادته ، واقامة امبراطورية بيزنطية على انقاضه ، هذه المغامرة

وجدها هي الجديرة بأن تسمى مسيحية ، انها دون غيرها السامية الحكيمة (١٥) » . ولكن ليوبولد شجع الترك على مهاجمة بولنده ، ولويس حرضهم على مهاجمة ليوبولد (١٦) .

ومات أحمد كوبريلى فى ١٦٧٦ وقد أنهك قواه وهو بعد فى الحادية والاربعين الكثير من الهزائم الرائعة ، بعد أن خسر « معارك فاصلة » ومد الأملاك التركية الى أوسع مداها الأوربى . وخلع السلطان محمد الرابع منصب الوزارة على صهره قره مصطفى ، الذى ابهج لويس الرابع عشر بوعده بتجديد الحرب على النمسا (١٧) . وشجع قره نشوب ثورة (١٦٧٨) قام بها الوطنيون المجريون بزعامة امرى توكولى ، الذى ساءه قمع النمسا العنيف للروح القومية وللبروتستنتية فى المجر النمساوية ، حتى حمله هذا على عرض الاعتراف بالسيادة التركية على جميع أرجاء المجر اذا دعم الأتراك ثورته . أما ليوبولد فقد أقلع بعد فوات الوقت ، عن سياسة القمع وأعلن التسامح الدينى فى المجر . وأرسل لويس الرابع عشر المدد المالى الى توكولى (١٨) ، ووعد سوبيسكى بالاستيلاء على سيليسيا والمجر اذا ربط بين بولنده وفرنسا فى حلف ضد الامبراطور . أما ليوبولد فلم يكن فى وسعه أن يعد سوبيسكى بأكثر من أرشيدوقة عروسا لابنه ، وبتعهد بتأييد جهود سوبيسكى لجعل العرش البولندى وراثيا فى فرعه من الأسرة المالكة . ولسنا نعرف على التحقيق دوافع الملك الى المبادرة بمساعدة النمسا على العثمانيين ، وكل ما نستطيعه أن نقول انها كانت من أعجب وأخطر الأحداث فى التأريخ الحديث .

وأحس قره مصطفى أن الخصومات بين الهابسبورج والبوربون ، وبين الكاثوليكية والبروتستنتية ، تتيح له فرصة الاستيلاء على فيينا ، وربما على أوربا بأسرها . وكان الترك يفاخرون بأنهم حولوا القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية قلعة اسلامية فى القرن الخامس عشر ، وحولوا كنيسة القديسة صوفيا جامعا . فكذلك أعلنوا الآن أنهم لن يقفوا حتى يفتحوا روما ويربطوا خيلهم فى صحن كنيسة القديس بطرس (١٩) . وفى ١٦٨٣ حشد قره مصطفى فى أدرنة قواته ومؤنه التى أتته من الجزيرة العربية والشام والقوقاز وآسيا الصغرى وتركية أوربا ، وتظاهر انه يخطط للهجوم على بولنده . وفى ٣١ مارس ١٦٨٣

بدأ السلطان والصدر الاعظم زحفهما الطويل على فيينا . وكان الجيش كلما تقدم يضم اليه الامداد من كل ولاية تركية فى طريقه ، فانضمت اليه فرق من الافلاق ، وملدافيا ، وترانسلفانيا ، حتى اذا بلغ اوسييك (امزيك) على الدرافا كان يعد ٢٥٠٫٠٠٠ مقاتل ، ويحوى بين صفوفه الابل والفيلة والمؤذنين والأغوات والحريم (٢٠) . هناك أذاع توكولى اعلانا دعا فيه المسيحيين المحيطين بالمنطقة الى دعم الهجوم على النمسا ، وأمنهم على حياتهم وأملاكهم ، ووعدهم بحرية العبادة فى حمى السلطان . ففتح الكثير من المدن ابوابه للغزاة .

وعاد ليوبولد يستغيث بالامارات الألمانية ولكنها تباطأت . ووضع جنوده البالغ عددهم ٤٠٫٠٠٠ تحت امرة شارل الخامس دوق اللورين، الذى وصفه فولتير بأنه أنبل امير فى العالم المسيحى (٢١) . وترك شارل حامية من ١٣٫٠٠٠ رجل فى فيينا ، ثم تقهقر الى تولن ، حيث انتظر وصول البولنديين . وفر ليوبولد الى باساو ، ولامه شعبه لأنه لم يعد عاصمة ملكه للحصار المرتقب منذ زمن طويل . فلقد كانت حصونها مهدمة ، وحاميتها لا تبلغ عشر العدد الزاحف . وفى ١٤ يوليو ظهر الأتراك أمام المدينة . وبعث ليوبولد الى سوبيسكى يرجوه أن يأتى فورا قبل أن نصل مشاته البطيئة الحركة قائلا « ان اسمك وحده ، الذى يرهبه العدو كثيرا ، كفيل بالنصر (٢٢) » . وأقبل سوبيسكى بثلاثة آلاف فارس . وفى ٥ سبتمبر وصلت مشاته وعدتهم ٢٣٫٠٠٠ مقاتل . وبعد يومين وصل ١٨٫٠٠٠ مقاتل من الولايات الألمانية ، فاصبح عدد جيش المسيحيين الآن ٦٠٫٠٠٠ . ولكن فيينا كانت آنذاك تتضور جوعا ، وقلاعها تتهاوى تحت نيران المدفعية التركية ، فما هو الا أسبوع آخر من الحصار حتى تسقط المدينة .

وفى صباح ١٢ سبتمبر الباكر ، هاجم المسيحيون — الذين كانوا الآن تحت قيادة سوبيسكى العليا — الأتراك المحاصرين . ولم يكن قره مصطفى يصدق أن البولنديين آتون ، ولا أن القوات المسيحية ستهجم أولا ، فلقد رتب كل شيء للحصار لا للمعركة ، وزين ضباطه خنادقهم بقطع النسيج المرسوم والقرميد ، أما هو فزود خيمته بالحمامات ، والنافورات ، والحدائق ، والمحظيات . وأخذ خيرة جنده على غرة فى خنادقهم ، فمزقوا اربا اربا . وشاعت الفوضى فى جيشه

المخلط الذى جمعه من ولايات لا يثير حماستها ولاء للسلطان البعيد ، امام المسيحيين الذين الهمهم الشعور بانهم ينقذون أوربا والمسيحية . وبعد ثمانى ساعات قطع الظلام القتال . فلما بزغ الفجر الجديد وجد المسيحيون الذين مازالوا غير واثقين من النصر - لشدة فرحهم - ان الاتراك قد لاذوا بالفرار مخلفين وراءهم ١٠٫٠٠٠ قتيل ومعظم معدات الجيش فى المعسكر . أما المسيحيون ففقدوا ٣٫٠٠٠ رجل .

وأراد سوبيسكى ان يطادر الترك ، ولكن الجنود البولنديين رجوه أن يسمح لهم بالعودة الى وطنهم بعد أن ادوا مهمتهم . ودخل الملك الظافر فيينا وكتدرائيتها ليقدم الشكر لله ، وفى طريقه هتف له الشعب العارف بصنيعه منقذا من السماء ، وناضل أفراده ليلمسوا ثوبه ويقبلوا قدميه (٢٣) ، وأحسوا أنه ما من شيء فى سجل الفروسيه يفوق مأثرته تلك . فلما عاد ليوبولد الى عاصمته (١٥ سبتمبر) لم يلق غير استقبال فاتر من أهلها . وسأل معاونيه هل حدث أن استقبل امبراطور مجرد ملك منتخب ، وما المراسم التى يجب اتباعها فى هذه الحالة . وتباطأ فى لقاء سوبيسكى ، وأخيرا حياه شاكرا له صنيعه شكرا متواضعا ، وقد توجس من أن يكون الدافع للبطل فى رغبته فى مطاردة الترك خطة لاقتطاع مزيد من الملك لنفسه ولأسرته (٢٤) . فلم تبدأ المطاردة الا فى ١٧ سبتمبر ، ولم يلتحم الجيش بالترك المتقهقرين الا بعد ذلك بعشرة أيام . وعند باركانى ، قرب الدانوب ، أحرز سوبيسكى وشارل انتصارا حاسما آخر . ثم قاد الملك جيشه عودا الى بولنده بعد أن انهكه السير والقتال والدوزنتاريا ، فدخل كركاو فى ليلة ميلاد ١٦٨٣ . وفى اليوم التالى أعدم السلطان قره مصطفى .

وألفت النمسا وبولنده والبندقية ، بالحاح البابا انوسنت الحادى عشر ، عصبة مقدسة لمواصلة الحرب ضد الترك (١٦٨٤) . وفتح فرانشسكو موروزينى المورة (البلوبونيز) للبندقية ، وفى ١٦٨٦ حاصر أثينا واستولى عليها فى ٢٨ سبتمبر ، وأثناء هذا الحصار دمرت مدفعيته البروبيلايا والبارتينون ، اللذين استعملهما الاتراك مخزنا لبارودهم . وقد استعاد الترك أثينا وأتيكا فى ١٦٨٨ ، والمورة فى ١٧١٥ . وفى غضون هذا هزم شارل اللوريني الترك فى جران (ازترجوم) فى ١٦٨٥ ، وفى السنة نفسها ، وبعد عشر أيام من

الحصار ، استولى على بودا ــ عاصمة المجر القديمة ــ التى كانت فى قبضة الأتراك منذ ١٥٤١ · وفى ١٦٨٧ قاد شارل القوات النمساوية الى النصر فى هاركانى ، قرب موهاكس ، حيث استهل انتصار سليمان القانونى عام ١٥٢٦ عصر التفوق العثمانى · وانهت معركه « موهاكس الثانية » هذه سلطة الأتراك فى المجر ، التى أصبحت الآن ملكا للملكية النمساوية · واعترفت ترانسلقانيا بسيادة الامبراطور الهابسبورجى ، وأدمجت (١٦٩٠) فى الامبراطورية النمساوية ــ المجرية · وفى ١٦٨٨ استولى ماكس ايمانويل البافارى على بلغراد · وأعلن ليوبولد أن الطريق أصبح الآن مفتوحا الى القسطنطينية ، وأنه قد آن الأوان وواتت الفرصة لطرد الأتراك من أوربا ·

ولكن لويس الرابع عشر خف لنجدتهم · ذلك ان حرب البوربون مع الهابسبورج كانت فى نظر ذلك « الملك المسيحى جدا » أهم من الصراع بين المسيحية والاسلام · وكان يرقب فى غيرة متزايدة انتصارات العصبة المقدسة واتساع ملك الهابسبورج وعلو مكانتهم · وفى ١٦٨٨ ، استأنف حربه مع الامبراطور ، ضاربا صفحا عن ابرامه هدنة عشرين عاما معه قبل ذلك بأربع سنين فقط ، وأرسل جيشا الى البالاتينات · فأرسل ليوبولد شارل وماكس ايمانويل لملاقاة الهجوم على الراين ، وتوقف الزحف على الترك ، وتجدد الهجوم التركى ·

واستوزر السلطان الجديد ، سليمان الثانى ، رجلا آخر من أسرة كوبريلى هو مصطفى اخو أحمد · وهدأ مصطفى خواطر المسيحيين فى تركية أوربا بتوسيعه حرية العبادة ، ونظم جيشا جديدا ، واستولى على بلغراد من جديد (١٦٩٠) · ولكنه قتل بعد سنة ، ودحر الأتراك عند سلانكامين · وتولى السلطان مصطفى الثانى قيادة الجيش بشخصه ، ولكن المسيحيين هزموه فى سنتا (١٦٩٧) وكان يقودهم أوجين أمير سافوى · وطلب مصطفى الصلح ، وأبرم ليوبولد معاهدة كارلوفتز (١٦٩٩) مع تركيا وبولنده والبندقية ، مغتبطا لأن يده أطلقت فى محاربة لويس · ونزلت تركيا عن كل دعاواها فى ترانسلقانيا والمجر (فيما عدا « بنات » تيميسفار) ونزلت عن غربى أوكرانيا لبولنده ، وسلمت المورة ودلماشيا الشماليه للبندقية · واحتفظت بالبلقان كله ــ دلماشيا الجنوبية ، والبوسنه ، والصرب ، وبلغاريا ،

ورومانيا ، ومعظم اليونان ، ولكن المعاهدة عينت نهاية الخطر التركى على العالم المسيحى .

ترى ما الذى هوى بقوة العثمانيين من أوجهـا أيام سليمان القانونى ؟ ليس كالنجاح شيء يتعرض للسقوط . لقـد كانت فرص المتعة التى أتى بها النصر والثروة شديدة الاغراء ، فبدد السلاطين فى الحريم ما كانوا فى حاجة اليه من طاقة وهمة لضبط الجيش والموظفين والوزراء . واتسعت دولتهم اتساعا حال دون ادارتها ادارة فعـالة ، ودون سرعة توصيل الأوامر ونقل الجنود ، وكان يحكم الولايات باشوات جعلهم بعد الشقة بينهم وبين الآستانة مستقلين تقريبا عن السلاطين . ولم يعد الجوع يحفز الترك ، ولا الأعداء يهددونهم ، فتردوا فى مهاوى الكسل والفساد ، وأفسدت الرشوة الحكم وأشاع غش العملة الفوضى فى الاقتصاد والجيش . وتمرد الانكشارية المرة بعد المرة على رواتبهـم المدفوعة بعملة هبطت قيمتها ، واكتشفوا سطوتهم ، فاستغلوها كلما تعاظمت . وظفروا بحق الزواج ، وحصلوا لأبنائهم وغيرهم على الأذن بالانخراط فى سلاحهم الذى كان من قبل وقفا على النخبـة المنتقاة ، وتنكروا للتدريب والنظام الصارمين اللذين جعلا الانكشارية صـفوة المقاتلين فى أوربا . أما قوادهم الذين أصبحوا خبراء فى لذات الجنس، فقد فشلوا فى ملاحقة العلوم والأسلحة الحربية . وبينما كان الغـرب المسيحى يصنع مدافع أفضل ، ويطور استراتيجية وتكتيكا أرقى ، فى صراع الحياة والموت الذى دار على ساحات حرب الثلاثين ، وجـد الأتراك ، الذين كانوا تحت امرة محمد الفاتح يملكون أفضل مدفعيـة فى العالم ـ وجدوا أنفسهم ـ كما حدث فى ليبانتو ـ متخلفين فى قوة النيران والاستراتيجية . وأرهقت الحرب ، التى قوت من قبل الدولة العثمانية يوم كان السلاطين يقودون جيوشهم بأنفسهم ـ هذه الحرب أرهقت الدولة حين آثروا انتصارات الحريم السـهلة على مشـاق المعركة . وكان لسيطرة الايمان القدرى ، غير التقدمى ، على الحيـاة والفكر أثرها فى خنق العلوم الأسلامية التى كان لها القدح المعلى فى العصور الوسطى ، وازدادت المعرفة فى الغرب وتخلفت فى الشرق . وحسن المسيحيون بناء سفنهم وأصلحوا مدفعيتهم وامتدت تجارتهم الى جميع القارات ، تشق لها طرقا جديدة فى العباب ، بينما كانت معظم

التجارة العثمانية تزحف فى قوافل على اليابس . وترك الحكام الكسالى السقايات والقنوات تبلى ، بينما الفلاحون الذين قلبت الحرب حياتهم ينتظرون المطر فى ذل ومسكنة . واتخذ مسار الامبراطورية طريقه غربا ، الى أن وجد نفسه ثانية فى الشرق يوما وهو لا يزال يتحرك غربا .

وكان رد الأتراك على أعقابهم معناه بالنسبة للغرب الدعوة لحرب داخلية طاحنة . ذلك أن النمسا والمانيا تخولتا بعد تحررهما من ضغط الاسلام عليهما لمواجهة أطماع لويس الرابع عشر ، الذى كان يمد ذراعيه فى الأراضي المنخفضة ، وأراضي الراين ، والبلاتينات ، وايطاليا ، وأسبانيا . وأكملت هذه اللطمات الآتية من الغرب تفكك الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فلم يبق منها غير الصورة . وانتهى الأمر بالامبرادلور الى النظر الى نفسه على أنه نمساوى لا رومانى ، وحلت الاميراطورية النمساوية ـ المجرية محل الرومانية المقدسة . وجعلت العروش الثلاثة ـ عروش النمسا ، والمجر ، وبوهيميا ـ وراثية فى أسرة هابسبورج (١٧١٣) ، فالغيت حقوق الولايات البوهيمية والمجرية التقليدية فى انتخاب ملوكهم . وعادت المجر الى الثورة (١٧٠٣ ـ ١١) بزعامة فرانسيس راكوكزى الثانى ، ولكن الثورة خمدت ، تاركة الحنين الى الحرية يتردد صداه فى الشعر والأغانى .

وسخرت النمسا اقتصاديات المجر وبوهيميا لمنفعتها الخاصة ، وتمتعت طبقاتها العليا بثراء جديد . وارتفعت القصور الفاخرة للارستقراطية ، واسكنت الكنائس الجميلة والاديار الضخمة القساوسة والرهبان المنتصرين . وأعاد الأمير بال استرهازى بناء قلعته الكبرى فى ايزنشتات ، حيث سيقود هايدن يوما فرقته الموسيقية ويؤلف ألحانه . وفى فيينا صمم دومنيسكو مارتينللى قصر ليشتنشتين ، وقصر بلفدير لأوجين أمير سافوى . وبنى يوهان فيشر فون ايرلاخ لهذا الأمير ذاته قصرا شتويا فاخرا ، ووضع الخطط للمكتبة الملكية ، والقصر الامبراطورى فى شونبرون . وفى ١٧١٥ بدأ أعظم معماريى النمسا هذا

عمله فى كنيسة كارلسكرشي بفيينا ، بطراز كنيسة القديس بطرس بروما . وعلى ضفاف الدانوب على نحو أربعين ميلا غربى فيينا شـــاد يعقوب برانتاور دير «كلوسترميلك» اكبر الاديار البندكتية وأروعها فى الاراضى الالمانية ، وهذا اوج الباروك النمساوى . وفى أعقاب الانتصار صمم يوهان ارنست تون ، رئيس الأساقفة الكفء الوجيه ، حديقة ميرابيل الشهيرة بسالزبورج ، وجملها بمنحوتات من صنع فيشرفون ارلاخ . وهـــكذا تحركت النمسا فى كبرياء وابهة الى أعظم قرن فى تاريخها .

الفصل الخامس عشر

الجنوب المراح

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ ايطاليا الكاثوليكيـــة

من حكمة الفلاح الصامتة أن في الامكان اصلاح التربة التى كانت يرهقها الثمر الوفير باراحتها فترة ، وربما بحرثها دون زرعها . وهكذا استراحت ايطاليا بعد خصوبة النهضة التى أرهقتها . وأبطـأ تدفـــق حيويتها العارمة ، وكانها تستجمع قوتها لمزيد من جلائل الأعمـــال . فعلينا اذن الا نتوقع من أيطالية هذا العصر والعصر التـــالى له ـ بين برنيني وبونابرت ـ ثمارا كتلك التى تدفقت من معينها الفيـــاض في قرونها الذهبية . اننا نلم بها هنا مرة أخرى ، قانعين اذا استطعنا بين الحين والحين أن نسمع في مدنها التى تردد أصداء التاريخ اصـــواتا صغيرة تشهد بحياة لم تنطفىء جذوتها .

وكانت لا تزال كاثوليكية بطبيعة الحال ، فذلك من صميم روحها ، ولا سبيل الى انتزاعه منها دون انتهاك لروحها . كان فقراؤها يظلمهم الأغنياء ، الذين هيمنوا بالطبع على الحكومات وشرعوا القـــوانين . وعلل الأغنياء هذا الظلم بان الفقراء سيصبحون مشاغبين وقحين اذا رفعت اجورهم . أما النساء فكان يستغلهن الرجال والشعب ، الا أن يكن في ربيع حسنهن . في هذه الأحوال كانت طبقات الشعب الدنيـــا ، والجنس الاضعف آنذاك ، تجد عزاء في خدمات الكنيسة . وكان ايمانها بالعدل الالهى سندا بعزيها عن قسوة الانسان ، وكانت خطايا ألسنتهم الحادة وجسدهم الوثنى يغتفرها دون تردد القساوســة المتســـامحون والرهبان اللطفاء الذين أطعموهم والرجاء يمـــلأ نفوســـهم . وكانوا شاكرين لما تخلل ايامهم المثقلة بالأعباء من أعياد ومهرجانات مريحـة يحتفلون فيها بذكرى قديسيهم الحامين . وآمنوا بأن قديسيهم ، والأم العذراء الرحيمة ، سينقذونهم من أهوال الجحيم بتشفعهم أمام عرش

لله ، وبأن الغفرانات التى توزعها الكنيسة ستقصر مقامهم فى المطهر، وانهم سيدخلون ، ان عاجلا أو آجلا ، فردوسا ــ يفوق جمـــاله حتى جمال ابطاليا ــ لن يكدر صفوه مــلاك ، ولا ضرائب ، ولا عشـــور ، ولا حرب ، ولا حزن ، ولا الم .

وهكذا احتملوا بصبر ، ومرح ، وغناء ، ابتزازات كهنتهم الذين لم يخل منهم مكان ، والذين التهموا على الاقل ثلث ايرادات الامة . واحبوا كنائسهم كأنها جزر من السلام وسط حرب الحياة . وتأملوا بهاء كنيسة القديس بطرس وفخامة الفاتيكان فى فخر لا يخالطه اســـتياء ولا غيظ ، فتلك حصيلة دراهمهم ونتاج فنانيهم ، وهى ملك للفقــراء اكثر من الاغنياء ، وهى فى نظرهم ليست أفخم من أن تكون مثوى لأول الرسل (بطرس) ، أو مسكنا لزعيم العالم المسيحى ، خادم خـــدام المسيح . واذا كان ذلك الأب الأقدس يعاقب الهجمـات التى توجـــه للكنيسة ، فما ذلك الا ليمنع الحمقى من تدمير صرح الاخلاق القائم على العقيدة الدينية ، ليصون ذلك الأيمان الذى جعل من نثر الكد والشقاء ملحمة شعرية .

أما ديوان التفتيش الأيطالى فكان رحيما نسبيا فى هذا العصر . واشهر ضحاياه قس اسبانى يدعى مجـــويل دى مولينوس . ولد فى سرقسطه ، وسكن روما . وفى ١٦٧٥ نشر كتابه « المرشـــد الروحى » الذى يزعم فيه أنه وان كان التعبد للمسيح والكنيسة معينـــا على بلوغ أسمى الحالات الدينية ، الا انه يجوز للعابد الذى انقطع للاتصـــال المباشر بالله أن يتجاهل وهو مطمئن كل الوساطات الكهنوتية والطقوس الكنسية . وفى نبذة أخرى رأى مولينوس أنه لا حرج على العابد الواثق من تحرره من الخطيئة الأخلاقية فى أن يتناول القربان دون أن يعترف للكاهن قبل التناول . واجتذب « مرشد » مولينوس النساء على الأخص فالتمست نصيحته المئات ــ ومنهن الاميرة بورجيزى والملكة كرستينا ، وأرسلن له الهدايا . واعتنقت راهبات كثيرات هـذه « الهدوئيـــة » الجديدة ، ونبذن أورادهن ، واستغرقن فى صلة فخور بالله . وشـــكا العديد من الأساقفة الايطاليين من هذه الحركة التى قللت من شـــأن الخدمات والتبرعات الكنسية ، وناشدوا البابا انوسنت الحادى عشر أن يقمعها (١) . وهاجم اليسوعيون والفرنسيسكان مولينوس لانه أكد على

الايمان دون « الأعمال » تأكيدا يكان يكون بروتستنتيا . وبسط عليه البابا حمايته حينا ، ولكن ديوان التفتيش الرومانى قبض عليه فى ١٦٨٥ ، ثم على نحو مائة من أتباعه . وكان قد جمع أربعة آلاف كراون ذهبى (٥٠ر٠٠٠ دولار ؟) يفرضه رسما صغيرا على المشورة التى يبذلها لمراسليه ، ونستطيع الحكم على عدد هؤلاء المراسلين من تكاليف البريد على الخطابات التى تسلمها فى يوم القبض عليه ، والتى بلغت ثلاثا وعشرين دوكاتية (٥٠ر٢٨٧ دولارا ؟) (٢) .

وبعد أن فحص ديوان التفتيش السجناء وضع قائمة بالتهم الموجهة اليهم ، وأهمها أن مولينوس برر تحطيم صور المسيح المصلوب والتماثيل الدينية لأنها تعوق هدوء الاتحاد بالله ، وأنه ثبط همم الأشخاص الذين أرادوا نذر انفسهم للدين أو الالتحاق بالطرق الدينية ، وأنه قاد تلاميذه الى الاعتقاد بان لا شيء ياتونه بعد بلوغهم الاتحاد بالله يمكن أن يكون خطيئة . ولعله اعترف تحت ضغط السجن ، أو التعذيب ، أو الخوف ، بأنه اغتفر تحطيم الصور ، وبانه ثنى الأشخاص الذين رآهم لا يصلحون للرهبنة عن نذر أنفسهم لها ، واعترف بأنه خلال سنين كثيرة يمارس « أكثر الأعمال خروجا على اللياقة مع امرأتين » وأنه « لم ير ذلك اثما بل تطهيرا للنفس » ، وأنه بذلك « استمتع باتحاد أوثق مع الله« (٣) . وأدان ديوان التفتيش ثمانى وستين دعوى وجدها فى كتب مولينوس أو رسائله أو اعترافاته ، وفى ٣ سبتمبر ١٦٨٧ وجه اليه الاتهام فى احتفال عام مما يحرق فيه المهرطقون auto — da — fé وحضر جمع كبير ، وطالبوا بحرقه ، ولكن المحكمة قنعت بالأمر بسجنه مدى الحياة . وقد مات فى السجن فى ١٦٩٧ .

ولعلنا نتعاطف أكثر مع « المهرطقين » الألبيين الذين بكاهم ملتن فى سونيتة سماها « حول المذبحة الأخيرة فى بييدمونت » . وبيان ذلك أنه كان يسكن الاودية الرابضة بين بييدمونت السافواوية ودوفينه الفرنسية قوم يدعون الفودوا ، هم حفدة « الفالدنيز » الذين سبقوا حركة الإصلاح البروتستنتى وعاشوا بعدها ، والذين احتفظوا بعقيدتهم البروتستنتية خلال عشرات التقلبات التى طرأت على القانون والحكومة

وفى ١٦٥٥ انضم الدوق شارل ايمانويل الثانى أمير سافوى الى لويس الرابع عشر فى تنظيم جيش لأكراه هؤلاء الفـــودوا على اعتنـــاق الكاثوليكية . وأثارت المذبحة التى أعقبت ذلك سخط كرومويل ، فحصل من مازاران على أمر بوقف هذا الاضطهاد . ولكن بعد موت حـــامى الجمهورية (كرومويل) والكردينال (مازاران) تجدد الاضطهاد ، فلما الغى مرسوم نانت استأنفت الدولة الفرنسية جهودها فى استئصال شأفة البروتستنتية من الاقليم . وألقى الفودوا السلاح على وعد بالعفو العام ، وما لبث ثلاثة آلاف منهم ، مجردين من السلاح ، وفيهم النساء والأطفال والشيوخ ، أن ذبحوا ذبح الأنعام (١٦٨٦) . وسمح للباقين منهم على قيد الحياة ، الذين أبوا اعتناق الكاثوليكية ، بالهجـرة الى أرباض جنيف . ثم جاء دوق آخر لسافوى يدعى فيكتـور أمادبوس ، وجد نفسه فى مشكال السياسة حليفا لا لفرنسا بل عليها ، فدعا الفودوا للعودة الى أوديتهم (١٦٩٦) . فعادوا ، وقاتلوا تحت لوائه وسمح لهم بعدها بعبادة المجهول على طريقتهم المؤمنة .

أما الفقراء فكانوا فى الولايات البابوية يعانون فقر اخوانهم فى كل مكان بأيطاليا وكانت الأدارة البابوية (الكوريا) ، كأى حكومة ، تفرض الضرائب على رعاياها الى الحد الذى يهبط بعائدها ، فلم يتح لها قط من المال ما يكفى لأغراضها وموظفيها . وقد أنذر الكردينـــال ساكيتى البابا اسكندر السابع (١٦٦٣) بان جباة الضرائب يفقــرون السكان حتى يشرفوا بهم على حافة اليأس ، فقال : « ان أفراد الشعب ، الذين لم يعودوا يملكون من الفضة أو النحاس أو الثيـــاب أو الأثاث ما يشبع جشع الجباة ، سيضطرون الى بيع أنفسهم ليلبوا المطالب الثقيلة التى فرضتها عليهم الكاميرا (الغرفة التشريعيــة للكوريا (٤) ») . وشكا الكردينال من الرشوة فى القضاء البابوى ، ومن الاحـكام التى تباع وتشرى ، والدعاوى التى يطول نظرها سنين عـــديدة ، والعنف والطغيان يعانيهما الخاسرون الذين يجرءون على استئناف الحكم من موظف أدنى الى آخر أعلى . يقول ساكيتى « ان هذه المظالم أفدح من تلك التى نكب بها بنو اسرائيل فى مصر . فالناس الذين لم يغلبـــوا بالسيف بل اخضعوا للكرسي البابوى .. .. يعاملون معـــاملة أكثـر وحشية من معاملة العبيد فى سوريا أو افريقيا . فمنذا يستطيع أن يشهد

هذه الاشياء دون أن يذرف عليها دموع الحـــزن والأسي (٥) ؟ » وفى وسط فقر الجماهير كان العديد من الأسر النبيلة التى تربطها رابطـــة القرابة بالبابوات أو الكرادلة يتـلقى الهبـــات الســـخية من ايرادات الكنيسة ٠

أما بابوات هذا العهد فلم يكونوا زهـــادا كبيوس الخامس ، ولا رجال دولة كسيكستوس الخامس ، انما كانوا فى العادة قوما طيبين ، اضعف من أن يتغلبوا على الرذائل البشرية المحيطة بهم ، او يراقبـوا مئات الثغرات والاركان التى ينفذ من خلالها أو يختبىء فيها الفساد فى ادارة الكنيسة ٠ ولعل اى مؤسسة بلغت هذا المبلغ من الاتســـاع وكثرة الواجبات لا يمكن وقايتها من الاخطاء الملازمة لطبيعة الانسان ٠ وقد جاهد انوسنت العاشر ، (١٦٤٤ - ٥٥) ، « النقى الحياة المسـتقيم المبدأ (٦) » ليخفف من ثقل الضرائب ، ويكبح اســـتغلال النبـــلاء الجشعين للايرادات البابوية ، ويصون النظام والعـــدل فى ولاياته ٠ وتبدو عليه - كما صوره فيلاسكويز - كل مظاهر الخلق القوى ، ولكنه سمح لغيره بأن يحكموا نيابة عنه ، وترك أوليمبيا مايدالكينى ، زوجة أخيه الجشعة الطموح ، تؤثر فى تعييناته وسـياساته ، فكان الكرادلة والسفراء يتذللون أمامها ، وأثرت من هداياهم ثراء صارخا ، ولكن لما مات انوسنت زعمت انها أفقر من أن تنفق على مأتمه (٧) ٠

وروى أن كردينالا قال فى مجمع الكرادلة الذى اختار خليفتـــه « يجب أن نبحث عن رجل أمين هذه المرة (٨) » ٠ وقد وجـــدوه فى شخص فابيو كيجى ، الذى أصبح الاسكندر السابع (١٦٥٥ - ٦٧) ٠ وقد بذل قصاراه ليطهر الادارة البابوية من الفساد وتعطيل الأعمال ، ونفى ابناء اخيه النهمين الى سيينا ، وخفض الدين العـــام ٠ غير أن الفساد الذى أحاط به كان أوسع وأعم من أن يستطاع قهـــره ٠ فالقى السلاح ، وسمح لابناء اخيه بالعودة الى روما ، وخلع عليهم المناصب المجزية ، فجمع احدهم بعد قليل ثروة طائلة (٩) ٠ وانتقلت القوة من يدى الاسكندر المتعبتين الى الكرادلة ، الذين طالبوا بالمزيد من السلطة فى حكم الكنيسة ٠ وحلت أرستقراطية من الأمر تفخر بكرادلتها محل الملكية المطلقة التى ثبتها مجمع ترنت من قبل البابوات ٠

وجدد كلمنت التاسع (١٦٦٧ - ٦٩) الكفاح ضد محاباة الأقرباء . وسمح لأقربائه ببعض الامتيازات المتواضعة ولكنه ولى ظهره لطلاب المناصب . واقبل المئات من مسقط رأسه بيستويا ، واثقين من أنه سيعينهم على الأثراء ، ولكنه ردهم ، فهجوه هجوا ساخرا ، وهنا ايضا ندرك أن طبيعة البشر واحدة سواء فى الظالم أو المظلوم ، وان الناس هم أس البلاء المحيط بهم . وكان البابا الجديد رجل سلام وعدل . فبينما أصدر سلفه - بتحريض من لويس الرابع عشر - مرسوما مثيرا للمتاعب ضد الجانسنيين ، عرض كلمنت هدنة فى ذلك النزاع الناشب داخل الكنيسة . ومن أسف أنه مات ولم يقض فى دست الحكم غير عامين .

وخلفه كلمنت العاشر (١٦٧٠ - ٧٦) وهو فى الثمانين ، فترك الامور للكرادلة (كما رتبوا الأمر من قبل) ، ولكنه انهى عهده دون عيب يعيبه . وجاء انوسنت الحادى عشر (١٦٧٦ - ٨٩) وكان - كما قال رانكى البروتستنتى - رجلا « تفرد بتواضعه ... غاية فى دماثة الخلق وهدوء الطبع » ، مدققا فى مسائل الأخلاق حازما فى شئون الاصلاح (١٠) . وقد أبطل « كلية » الموثقين الرسوليين التى قال مؤرخ كاثوليكى « ان التعيينات فيها كانت تباع وتشرى بانتظام (١١) » والغى الكثير من المناصب والامتيازات ، والاعفاءات ، (التى لا فائدة منها) ووازن الميزانية البابوية لأول مرة فى سنوات كثيرة ، وأرسى للنزاهة المالية سمعة مكنت الادارة البابوية من اقتراض المال بفائدة لا تزيد على ٣ ٪ . كتب فولتير يقول عنه « كان رجلا فاضلا ، وحبرا حكيما ، ولاهوتيا ضعيفا ، وأميرا شجاعا ، قوى العزيمة ، جليل القدر (١٢) » . وقد حاول عبثا أن يخفف من تعجل جيمس الثانى فى كثلكة انجلترة ، وأدان العنف الذى استعمله لويس الرابع عشر ضد الهيجونوت ، وقال ، « ان الناس يجب أن يهدوا الى دور العبادة لا أن يجروا اليها جرا (١٣) » ولم يجد ما يدعوه لمحبة ذلك الملك المتكبر الذى ادعى لنفسه من السلطة المطلقة على الكنيسة فى فرنسا ما يقرب من السلطة التى اكدها هنرى الثامن لنفسه فى انجلتره . ولكى يقلل انوسنت الحادى عشر من الجرائم فى روما الغى حق اللجوء الذى سبق منحه لمساكن السفراء ، وأصر لويس على الاحتفاظ بذلك الحق لمبعوثيه ،

بل للشوارع المجاورة للسفارة الفرنسية ، وفى ١٦٨٧ دخل سفيره روما بفوج من الفرسان ليفرض بالقوة مطلب الملك . ووبخ البابا السفير ، واوقع حرما على كنيسة القديس لويس التى كان يصلى فيها السفير فى روما . واحتكم لويس الى مجمع عام ، وسجن ممثل البابا فى فرنسا ، واستولى على أقليم افنيون الذى كان ملكا للبابا منذ ١٣٤٨ . ومن هنا نظرة انوسنت الحادى عشر الهادئة المطمئنة الى الحملة التى جـردها وليم أورنج الثالث ، البروتستنتى ، لخلع جيمس الثـانى الكاثوليكى وادخال انجلترة فى حلف ضد فرنسا . وقد تعاون البابا مع جهود ليبنتز لاعادة الوحدة بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ووافـق على تنازلات اعلنت جامعات المانيا البروتستنتية رضاءها عنها ، وقد وصفه أحـد الانجليز بانه « بابا بروتستنتى (١٤) » .

وتوفى انوسنت الحادى عشر قبل أن يشهد انتصار أهدافه ، ولكن خلال بابوية الاسكندر الثامن (١٦٨٩ — ٩١) وانوسنت الثانى عشر (١٦٩١ — ١٧٠٠) تخلى السفير الفرنسي عن حق اللجـوء ، وردت أفنيون للبابوية ، ونقل الاكليروس الفرنسي ولاءه من الملك الى البابا وأعاد الحلف الأعظم توازن القوى ضد فرنسا العدوانية . وفى حـرب الوراثة الاسبانية وجد كلمنت الحادى عشر (١٧٠٠ — ٢١) نفسه وقد تورط فى انقسامات أوربا العنيفة ، فكان يلقى بنفوذه مترددا تارة فى جانب وتارة فى جانب آخر ، وفى النهاية اقتسم الملوك الأسلاب دون أن يستشيروه — حتى صقلية وسردانيا ، وهما — فنيـا — اقطاعتان بابويتان . كذلك كانت معاهدة وستفاليا قد تجاهلت احتجاجات انوسنت العاشر . لقد استلزم اشتداد النزعة القومية اضعاف البابوية ، وأسهمت هذه النزعة مع نمو العلم فى تشجيع العلمانية والتهوين من دور الدين فى الحياة الاوربية .

٢ — الفـن الايطالى

أحس الفن كما أحست السياسة بهذه المنافسة المشتدة بين شـئون الدنيا وشئون الدين . كان رجال الكنيسة لايزالون اغنى رعاة الفن ، يوصون بالمبانى ، والصور والتماثيل ، والزخارف ، ولكن الارستقراطية

استكثرت الآن من القصور بأسرع من الكنائس ، وتوددت الى الاجيال القادمة بالصور ، وأهدتها مجموعات من التحف الفنية . وفى ايطالية القرن السابع عشر جرى تيارا الرعاية هذان جنبا الى جنب فى انحدار بهى من النهضة الأوربية .

وكانت تورين تتخذ طريقها الى الثراء تحت حكم أدواق سافوى . وقد صمم جوارينو جوارينى لكتدرائية سان جوفانى باتيستا « كابيل ديل سانتيسيمو سوداريو » أى كنيسة الكفن الأقدس (الذى اعتقد المؤمنون أن يوسف الرامى كفن فيه جسد المسيح) . وقد انهارت قبة كنيسة سان فيليبو الكبرى ، التى بدأها جوارينى ، قبيل أن تكتمل ، فرممها فيليبو ايوفارا ، الذى ولد سنة ١٦٧٦ قبل موت جوارينى بسبع سنوات . ولعلنا نلتقى بايوفارا مرة أخرى .

وفى جنوة كان أروع بناء شيد فى هذا العهد هو قصر دوراتزو الذى بناه فالكونى وكانتونى فى ١٦٥٠ ، واشتراه بيت سافوى فى١٨١٧ ، واستخدم بعد ذلك قصرا ملكيا للأسرة . وقد تحطمت قاعة مراياه الشهيرة فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت رائدة لقاعة مرايا فرساى (١٦٧٨) ، فليس صحيحا اذن أن مارس (اله الحرب) عشق فينوس يوما ما . أما أبرز المصورين الجنوبيين الآن فكان اليساندرو مانياسكو ، وقد نجد انموذجا من فنه فى لوحة « مجمع اليهود » المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو ، أو لوحة « الغداء البوهيمى » المحفوظة باللوفر .

وواصلت البندقية انجابها للأبطال والفنانين . وأى عمل أعظم بطولة من الدفاع عن كانديا ضد ترك ؟ فطوال ربع قرن ظل جنود الباب العالى وبحارته يهاجمون كريت ، وكانت يومها مستعمرة للبندقية ، وهلك فى تلك الحملات العنيفة ١٠٠٫٠٠٠ تركى (١٥) ، ومع أن جيشا عدته ٥٠٫٠٠٠ مقاتل استولى على بعض المدن الصغيرة فى الجزيرة ، فان العاصمة صمدت للحصار عشرين عاما ، وصدت اثنين وثلاثين هجوما . وفى ١٦٦٧ أرسل فرانشسكو موروزينى ليقود الحامية المشرفة على الموت جوعا . وأخيرا سلمت (١٦٦٨) ، ولكن أحدا لم يعد يتكلم على تدهور البندقية . وفى ١٦٩٣ ، عندما تقلد موروزينى امرة الاسطول البندقى ، تقهقر الاتراك حين اقترب منهم وقد روعهم

اسمه فقط . وكان لا يزال من ذلك الطراز من الرجال الذى صوره تنتوريتو وفيرونيزى ــ الشجاعة المجسمة التى لا تعرف الرحمة .

وكان بالداسارى لونجينا رجلا آخر من هذا الطراز السبعينى . فقبل سنوات كثيرة (١٦٣٢) صمم كنيسة « سانتا ماريا ديللا سالوتى » ــ أميرة البحيرات الجليلة ، أما الآن ، وبعد سبعة وأربعين عاما ، فقد شاد قصر بيزارو على القناة الكبرى ــ قصرا متينا بديعا باعمدته المزدوجة وكرانيشه المتعددة ، ثم بنى (وهو فى السادسة والسبعين) قصر ريتزونيكو ، الذى سيموت فيه الشاعر براوننج . وهناك نبت آخر، صلب العود ، حمل البذرة البندقية الى نصف القارة ، وهو سبستيانو ريتشي ، الذى ولد (١٦٥٩) بمدينة بللونو فى اقليم فنيتسيا ، وذهب الى فلورنسة ليزخرف قصر ماروتشيللى ، ثم سار على اقل الدروب ضنكا ــ الى ميلان ، وبولونيا ، وبياتشينزا ، وروما ، وفيينا ، ولندن. وأنفق عشر سنوات فى انجلترة ، ورسم صورا فى مستشفى تشلسي ، وبيرلنجتن هاوس ، وقصر هامبتن كورت ، وكاد يظفر بمهمة زخرفة كنيسة القديس بولس الجديدة . ثم مضي الى باريس ، حيث انتخب عضوا فى أكاديمية الفنون الجميلة . ولوحته « ديانا والحوريات (١٦)» غلمة كلوحات بوشيه ، لطيفة كلوحات كوريدجو . وعمر ريتشي حتى ١٧٣٤ ، وأسلم مهاراته للقرن الثامن عشر ، ومهد الطريق للعصر الذهبى للتصوير البندقى أيام تيبولو .

أما المدرسة البولونية فلم تكن قد استنفدت قوتها تماما . فاشتهر كارلو تشينيانى برسومه الجصية فى كتدرائية فورلى . وكشف جوزيبى ماريا كرسبى (لو سبانيولو) فى « صورته الذاتية (١٧) » عن رجل مستغرق فى الفن ، متناس كل متاعبه اذا اتيح له أن يرسم . وقد صور جوفانى باتيستا سالفى (« الساسوفيراتو ») فى لوحته « العذراء تصلى (١٨) » ما فى المحبة من انكار للذات ، وارانا فى لوحته « العذراء والطفل (١٩) » مجرد امرأة بسيطة ، سعيدة بوليدها (البامبينو) ، كأى امرأة تراها فى أى يوم بين فقراء ايطاليا .

وقد حكم فلورنسه وبيزا وسيينا خلال هذه الفترة اثنان من كبار أدواق توسكانيا ، فرديناند الثانى وكوزيمو الثالث . وفى ١٦٥٩ بدأت

سيينا مهرجان الباليو (المعطف) المشهور : فكانت أحياؤهـــا العشرة تنظم موكبا بملابس بهية يسير فى شوارع زينت بالعمائر ، والرايات ، والزهور ، ونساء مرحات لابسات ثيابا جذابة ، ثم يتبارى فرســـان الأحياء بجنون فى سباق على معطف السيدة العذراء التى كرست المدينة التقية نفسها وحياتها له منذ أمد بعيد . ولم تملك فلورنســـة الآن من المصورين الا الصغار . وواصل كارلو دولتشي ، بفن أضعف ، صور جيدو رينى العاطفية ، المتأملة فى السماء ، التى رسمها للعذراء والقديسين ، والعالم كله يعرف لوحته « القديسة سيسيليا (٢٠) » . ورسم يوستوس سوسترمانس ، الذى هاجر من فلاندر الى فلورنسة ، لوحات تعد من العجائب التى تشد الانتباه فى قاعة بيتى - وليس اقلها رأس جاليليو الرائع الجليل . كذلك كان يبدو موسي وهو يشرع الناموس ، لا كمـــا نراه فى وحش ميكلانجلو ذى القرون .

وكان الفن فى روما يفيق من قيود الحركة المعارضة للاصـــلاح البروتستنتى . فعاد البابوات بقدر أخف الى روح النهضة ، وشجعوا الأدب ، والدراما ، والعمارة ، والنحت ، والتصوير . ورمم انوســـنت العاشر الكابيتول وكنيسة سان جوفانى فى لاتيرانو . وكلف الاسكندر السابع برنينى بأن ينحت نطاقا رباعيـــا من حراس مصـــنوعين من الجرانيت حول ميدان القديس بطرس (١٦٥٥ - ٦٧) - فنحت ٢٨٤ عمودا و ٨٨ ركيزة ، ووفق فى صنعها الى تحويل الذهب الى حجر . وفى عهد هذا البابا أعاد بييترو داكورتونا بناء كنيسة سانتا ماريا ديللا باتشي ، حيث كانت عرافات رفائيل لا تزال تتأمل القدر . واشـــترك جيرولامو دايناالدى مع ابنه كارلو فى تشييد كنيسة سانتاجنيزى الجميلة فى ميدان نافونا . واشترك الوالد والولد ثانية فى تصميم كنيسة « يسوع ومريم » ، وبنى كارلو هيكل سانتا ماريا فى كامبيتللى ليضم تمثـــالا للعذراء اعتقد الناس أنه أوقف طاعون ١٦٥٦ . وكان الكرادلة والنبلاء يبنون مساكنهم ومدافنهم فى فخامة القصور . وارتفع الآن قصر دوريا ويهو قصر كولونا ذو الزخارف الباروكية المسرفة ، وفى كنيسة « يسوع ومريم » حفر فرانشسكو كافالليني لأسرة بولونيتى مقبرة لابد أنها أثارت حسد الاحياء للأموات .

وأقام مصورون كثيرون الدليل على أن فنهم مازال حيا فى روما -

وقد خطب اهلها ود كارلو ماراتى ، فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، باعتباره زعيم المصورين فى الباروك الحديث . وصورته لكلمنت التاسع (٢١) كانت مذكرة بصورة فيلاسكويز لانوسنت العاشر ، ولكنها انتهت نهاية طيبة ، وصورته «العذراء مع القديسين فى الفردوس»(٢٢) تكرار لعشرات مثلها ، ولكنها صورة جميلة . وحين اراد كلمنت الحادى عشر ترميم لوحات رفائيل الجصية فى الفاتيكان عهد الى ماراتى بهذه العملية الدقيقة الخطرة على المرمم خطرها على الرسوم ، فاداهـا بكفاية . واختار اليسوعيون جوفانى باتيستا جاوللى (الباتشتشو) ليرسم قبو كنيستهم الأم « الجيزو » ، ولكن كان من بين أبناء طريقتهم راهب من اقدر فنانى عصره ، هو اندريا بوتسو ، الذى التحق بالطريقة وهو فى الثالثة والعشرين ، وصمم فى تلك الكنيسة مذبح القديس اجناتيوس – وهو من روائع الباروك . وفى ١٦٩٢ نشر بوتسو مقالا عن المنظور فى التصوير والعمارة أثار ضجة فى عدة لغات . واستهواه موضوعه كما استهوى أوتشيللو موضوعه قبل قرنين ، فطور دراساته بلطائف « الخداعية » ، كما يرى فى صوره الجصية فى فراسكاتى . ودعاه الأمير فون ليشتنتشتين الى فيينا ، فافنى نفسه بكثرة المهام التى اضطلع بها ، ومات هناك فى ١٧٠٩ بالغا من العمر سبعة وستين عاما .

كان أعظم المصورين الايطاليين الآن فى نابلى . فكل شيء أينع وازدهر هناك – الموسيقى والفن ، والأدب ، والسياسة ، والدراما ، والجوع ، والقتل ، وشيء آخر لا يكف عنه الرجال الهائجون أبدا ، وهو مطاردتهم لجسد المرأة ومفاتنه ، المطاردة المرحة ، العنيفة ، الشجية . وتأثر سلفاتور روزا بكل عناصر الحياة هذه . وكان أبوه معماريا ، وعلمه عم له التصوير ، وكان زوج أخته تلميذا لريبيرا ، وقد أذن لسلفاتور نفسه فى الوقت المناسب بالالتحاق بذلك المرسم الجليل . وعلمه استاذ آخر تقنية مناظر المعارك الحربية . واشتهر سلفاتور على الأخص بهذه الصور التى ترى فى متحف نابلى القومى أو فى اللوفر . ومن المعارك انتقل الى مشاهد الطبيعة ، ولكن هنا أيضا آثرت روحه الوحشية رسم الطبيعة فى سورات غضبها ، كما يرى فى لوحة باللوفر صور فيها الغيوم الكثيفة والارض المظلمة يضيئها فجاة برق يحطم الصخور ويصوح الاشجار فى طرفة عين . واقنعه لانفرانكو بالذهاب الى

روما والتودد للكرادلة ، فذهب وأثرى هناك ، ولكنه هـــرع قافلا الى نابلى ١٦٤٦ ليشترك فى ثورة مازانيللو ، فلما فشلت عاد الى روما ، وصور كبار رجال الكنيسة ، وكتب هجاء ساخرا تهكـم فيـــه بالترف الكنسي . ثم قبل دعوة الكردينال جانكارلو دى مديتشي ليذهب ويعيش معه فى فلورنسة ، وهناك مكث تسع سنوات ، يرسم ، ويعزف الموسيقى ، ويقرض الشعر ، ويشارك فى التمثيليات . وحين عاد الى روما ثانية ، سكن بيتا فى التل البنسي ، حيث عاش بوسان ولوران من قبل . وتقاطر عليه اقطاب الكنيسة ، ليصورهم مغضين عن هجائيـــاته ، مؤثرين فرشاته على قلمه ، وكان احب الفنانين الى الناس فى ايطاليا طــوال عشر سنوات . وقد رسم صور القديسين والاساطير المالوفة ، ولكنه فى محفوراته استسلم لعطفه على الجنود المساكين والفلاحين المعـذبين ، وهذه المحفورات من ابدع آثاره .

ولم ينافسه فى شهرته غير رجل آخر من أهـــل نابلى ، هو لوكا جوردانو . وكان فنانا وهو بعد فى الثامنة ، ثم رســـم فى كنيســـة سانتا ماريا لانوفا ملاكين بلغا من الجمال والرشاقة مبلغا جعل الحاكم يأخذه العجب حين رآهما ، ويرسل للصبى بعض القطع الذهبيـــة مع توصية لريبيرا . وظل يدرس على يد ذلك الاستاذ الغارق فى تأملاته ، ويدهش كل انسان بسرعة نسخه للروائع وتقليده للأســـاليب . وتاق للذهاب الى روما وفحص رسوم رفائيل الجصية المشهورة ، ولكن أباه عارض فى ذهابه ، لأنه يرتزق من بيع صور لوكا ورسومه . ففـر لوكا سرا ، وسرعان ما أخذ ينسخ بحماسة فى الفاتيـكان ، وفى كنيســـة القديس بطرس ، وفى قصر فارنيزى . وتبعه أبوه ، وحصل على قوته هنا أيضا ببيع صـــور ابنه العارضـــة ، ويروى أن السر فى تلقيبـــه « فا ـ برستو » هو حث أبيه له على السرعة .

فلما استوعب فن روما مضي الى البندقية ورسم على طريقة تيشان وكوريدجو صورا لا تكاد تختلف عن روائعهما . ولكنه رسـم الى ذلك صورا أصيلة ظفرت بالاستحسان ، وفى وسعنا الحكم عليها من لوحته « انزال المسيح عن الصليب » المحفوظة بأكاديمية البندقية . ولما عاد الى نابلى زخرف اثنتى عشرة كنيسة بكفاية وسرعة لم يجد معهما منافسوه حيلة الا ان يتسقطوا له الهنات . ثم دعاه كوزيمو الثالث الى فلورنسة

(١٦٧٩) حيث ظفر بالاستحسان لصورة الجصية فى كنيسة كورسينى.

وأصاب صديقه كارلو دولتشي غم شديد حين راى ما احرزه لوكا من نجاح ، فمات بعد قليل (٢٣) ، وتروى لنا ايطاليا المحبة لفنانيها من الاساطير الكثيرة عنهم قدر ما ترويه عن قديسيها . وفى رواية اخرى أن نائب الملك الأسبانى فى نابلى أوصي برسم حشوة كبيرة لكنيسة القديس فرانسس زافير ، وثار غضبه حين وجد أن شيئا لم ينجز فى هذا التكليف رغم التأجيلات الطويلة ، وما راعه بعد يومين الا أن يجد العمل كاملا وجميلا . وقال نائب الملك « ان راسم هذه الصورة اما ملاك واما شيطان (٢٤) » .

وطبقت شهرة الملاك الشيطانى الآفاق حتى بلغت مدريد ، وسرعان ما تكاثرت الدعوات على لوكا من شارل الثانى لينضم للبلاط الأسبانى . ومع أن الملك كان مشرفا على الافلاس فانه وصل الفنان بالف وخمسمائة دوكاتيه ، ووضع سفينة ملكية تحت تصرفه للرحلة . فلما بلغ جوردانو مدريد (١٦٩٢) استقبلته ست مركبات ملكية على الطريق . وما لبث أن بدأ العمل فى الاسكوريال وهو فى السابعة والستين . فزين بالصور الجصية سلم الدير الكبير ، وعلى قبو الكنيسة رسم « صورة طبق الأصل » من السماوات ، ترينا شارل الخامس وفيليب الثانى فى الفردوس — وقد غفرت ذنوبهما كلها تحية من الثالوث الأقدس لآل هابسبورج . وفى السنتين التاليتين رسم عددا كبيرا من الصور الجصية يعدها مؤرخو الفن الاسبان خير ما رسم فى الاسكوريال (٢٥) . وفى « القصر » بمدريد ، وفى بوين ريتيرو ، وفى كنائس طليطلة والعاصمة ، رسم صورا بلغت من الكثرة ، وأنفق فيها من الجهد ، ما جعل منافسيه يعيرونه بانه يعمل ثمانى ساعات فى اليوم وفى أيام الأعياد . كذلك ساءهم أنه جمع ثروة بطرق غير لائقة ، وأنه يضيق على نفسه ولكنه يشترى الجواهر الغالية استثمارا آمنا لماله لأن كل شيء فى هذه الدنيا سيتغير ويتبدل الا غرور الانسان . وقد كرمه كل البلاط ، ووصفه شارل الثانى فى لحظة صفاء بانه أعظم من ملك .

ومات شارل فى ١٧٠٠ ، ومكث جوردانو فى أسبانيا رغم ما تلا

ذلك من حرب الوراثة الاسبانية ، ولما ارتقى العرش فيليب الخامس ظل يتلقى تكليفات سخية عسيرة . ثم عاد الى ايطاليا فى ١٧٠٢ ، وتخلف فى روما ليلثم قدم البابا ، ووصل الى نابلى والغار يكلله . وعلى أسقف التشرتوزا (دير الكرتوزيين) بسان مارينو ، المطل على المدينه ، رسم فى ثمان وأربعين ساعة سلسلة من الصور الجصية أظهرت نشاطا وحذقا لا يكادان يصدقان فى رجل بلغ الثانية والسبعين (١٧٠٤) . وفاضت روحه بعد ذلك بعام وهو يقول متأوها « ايه يا نابلى ، يا نسمة حياتى (٢٦) » .

ولم يعدله شهرة عند وفاته فنان آخر فى جيله . ونافس الأعيان الهولنديون الأباطرة والملوك فى شراء صوره ، وفى انجلترة النائية تغنى مافيو برايور بمديح « جوردان الالهى » وأعجب عامة الناس بغنى الوانه ، وبأس أشخاصه ، وجلال أفكاره ، وقوة عرضه . ولكن الفنانين ـ بعد أن افاقوا من هذا الخدر العام ـ بينوا علامات التعجل فى انتاج لوكا فا ـ برستو ، والخلط المتناقض بين الافكار أو المواضيع الوثنية والمسيحية فى المشهد الواحد ، والمواقف المفتعلة ، والافراط فى الاضاءة الساطعة ، والافتقار الى التناسق والهدوء . ولقد رد لوكا على ناقديه قبل ذلك بزمن طويل ، اذ عرف المصور القدير بانه ذلك الذى يحبه جمهور الشعب (٢٧) . ومن العسير تفنيد هذا التعريف ما دمنا نفتقر الى معيار موضوعى للامتياز أو سلامة الذوق ، ولكنا قد نجد أدنى محك ذاتى للعظمة فى مبلغ تاثير انسان ما فى الزمان والمكان ، وأدنى مقياس ذاتى للشهرة فى قدرتها على البقاء . ولقد سعد جوردانو بحياة ناجحة ، وهو لا يشعر بأى أذى من جراء شهرته الآفلة .

وكان الفنان فرانشسكو سولمينا يناهز الثامنة والاربعين حين مات فا ـ برستو ، ولكن سنى عمره التسعين بلغت بمدرسة الفن النابولية قرابة منتصف القرن الثامن عشر . وكان لوكا قد رسم صحن دير مونتى كاسينو ، ورسم فرانشسكو الخورس ، وتهدم هذا وذاك فى الحرب العالمية الثانية . ولكن المتاحف تحتفظ بفن سولمينا ، ففى فيينا « اغتصاب أوريثيا » وهى نشوة بضة من عضلات الذكر ومنعطفات الانثى ، وفى اللوفر نرى صدى وتحديا لرفائيل فى لوحته « هليودوروس يطرد من الهيكل » ، وفى كريمونا صورة « مادونا

أدولورانا » وبصحب العذراء فيها ملاك فيه من العذوبة ما يجعلنا نتقبل فكرة الخلود اذا كان فى الجنة الكثير من امثاله .

٣ - أوديسة كرستينا

كانت الفنون الآن مجرد جزء صغير من حياة روما الثقافية . ففيها ايضا مئات من الموسيقيين ، والشعراء ، والمسرحيين ، والعلماء ، والمؤرخين . وقد يسرت المتاحف والمكتبات والكليات كنوز الماضي للطلاب ، وشجعت الأكاديميات الأدب والعلم . وكانت أوهام مارينى الموشاة مازالت عدواها تسرى فى الشعر الايطالى ، ولكن لذع هجائيات تاسونى ، وحرارة نزعة مارينى الحسية ، وتدفق مقاطع تاسو الفوار ، كل أولئك كان قد أعطى الشعر الايطالى حافزا والهاما مازالت تحس بهما النفوس المترنمة بالشعر .

اما اعظم الشعراء الغنائيين فى العصور الحديثة(٢٨) ، اذا صدقنا ماكولى ، فهو فنتشنزو دا فيليكايا . وقد شدا هذا الشاعر بتخليص سوبيسكى لفيينا فى قصائد غنائية شاكرة ، ورحب بمجىء كرستينا الى روما فى نملق نشوان ، ووصف فى خزى ساخط اخضاع وطنه للجيوش الدخيلة ، يقول :

« ايطاليا ، ايه يا ايطاليا ، يا من كتب عليك أن تلبسي تاج الجمال المهلك ، فأصبح سجل الويل والثبور موسوما على جبينك الى الأبد ! ليت ميراثك كان جمالا اقل وبأسا أشد ! حتى يجدك أولئك الذين يستخفهم الطرب لأن حقدهم أذلك ، أكثر ارهابا أو اقل جمالا (٢٩) » .

على أن هنرى هالام ، الذى طوف لغويا خبيرا بكل الآداب الأوربية ، ذهب الى أن كارلو اليساندرو جيدى ، لا فيليكايا ، هو الذى « ارتفع الى أسمى ذروة بلغها أى شاعر غنائى ايطالى » و .. أن « قصيدته الغنائية فى الحظ على الاقل تعدل أى قصيدة غنائية اخرى فى الايطالية (٣٠) . » ولا يستطيع أحد لم يتمكن بعد من الايطالية أن يحسم هذا الخلاف بين ماكولى وهالام ولا بين جيدى وبترارك ، ولا بين فيليكايا وبيرون أوشلى أوكيتس .

كان جيدى واحدا من شعراء عدة صدحوا بقوافيهم فى صالون كرستينا بروما . وكانت ملكة السويد هذه قد طبقت شهرتها الآفاق لا ملكة على دولة عظمى فحسب ، بل راعية ونموذجا للعلم ، والمضيفة الحفية بسالماسيوس وديكارت . وكان تخليها عن التاج فى سبيل المذهب، وتحولها عن البروتستنتية التى مات أبوها من قبل لينقذها ، ورحلتها الطويلة مارة بقصور ملوك أوربا وأمرائها لتلثم قدمى البابا - كانت هذه كلها أحداثا لا تقل عن الحروب والثورات استهواء للذهن الأوربى .

كانت فى ربيعها الثامن والعشرين يوم غادرت السويد (١٦٥٤). وأعطاها ابن عمها شارل العاشر ، الذى اختارته ليتبوأ عرشها ، خمسين ألف كراون تجمل بها رحلتها ، وقرر لها الديت السويدى دخلا كبيرا ، وحقوق ملكة على حاشيتها . فوصلت هامبورج بعد رحلة سريعة فى الدنمرك ، وهناك صدمت مشاعر الأهالى بنزولها ببيت مالى يهودى كان قد أخلص لها الخدمة وهو يعمل وكيلا ماليا لها . وأجتازت هولندة البروتستنتية متنكرة ، ولكنها اتخذت زيها السافر فى أنتورب الكاثوليكية . وهناك استقبلها استقبالا ملكيا الأرشيدوق ليوبولد ، واليزابث ملكة بوهيميا السابقة (وهى ملكة مخلوعة أخرى) ، وابنتها الأميرة اليزابث (وهى تلميذة أخرى لديكارت) . ثم واصلت رحلتها الى بروكسل ، حيث استقبلت بالألعاب النارية ، والصواريخ ، وطلقات المدافع ، والجموع الهاتفة المصفقة . وأسلمت نفسها حينا فى اغتباط للمراقص ومباريات الفروسية ورحلات الصيد والتمثيليات ، وأوفد مازاران فرقة تمثيلية من باريس للترفية عنها ، وفى عشية عيد الميلاد أرتدت سرا عن المذهب اللوثرى ، وأعلنت عزمها على الا تستمع الى مزيد من المواعظ (٣١) » ، ثم أطالت مكثها فى فلاندر ريثما تعد الكوريا البابوية بروما العدة لاستقبالها رسميا فى الكنيسة وايطاليا . وبعد أن غادرت بروكسل أخترقت النمسا فى رحلة وئيدة . وفى انزبروك جهرت رسميا باعتناقها المذهب الكاثوليكى . وكانت رحلتها فى ايطاليا قاصدة روما أشبه برحلات القياصرة الظافرين عظمة وجلالا. فتزينت المدينة تلو المدينة لتحييها ، ونظمت المهرجانات والعروض تكريما لها فى مانتوا ، وبولونيا ، وفاينزا ، وريمينى ، وبيزارو ،

وأنكونا ، واخيرا (١٩ ديسمبر ١٦٥٥) دخلت روما وسط مهـــرجان من الأضواء هزأ بتنكرها . وفي الغد مضت الى الفاتيكان حيث رحـب بها البابا اسكندر السابع . وبعد أن مكثت بروما ثلاثة أيام غادرتهـــا مصحوبة بحرس الشرف لتدخلها ثانية ذلك الدخول الرسمى الذى رتبه لها كبار رجال الكنيسة ، فمرت بقـــوس نصر ، وبالبورتا ديلبوبولو (باب الشعب) ، الى المدينة ممتطية صهوة جواد أبيض يخطر على مهل ، بين صفوف الجند وحشود الاهالى وكأنما شعرت الكنيسة القديمة أن حركة الاصلاح البروتستنتى بأسرها قد أطاح بها ارتداد امرأة واحدة عن البروتستنتية .

فلما اكتمل هذا كله ، سمح لكرستينا بأن تتصرف فى وقتها كمـا تشاء ، تستقبل الأساقفة ، والحكام ، والعلمـــاء ، وتزور المتاحف ، والمكتبات ، والأكاديميات ، والأطلال ، وتدهش مرشديها بمعلوماتها فى تاريخ ايطاليا وآدابها وفنونها . واغرقتهـــا كبـار الأسر بالولائم والهدايا والتحيات ، ووقع الكردينال كولونا فى غرامهـــا وهـــو فى الخمسين ، وعزف لها ألحان حبه ، ولم يكن بد من نفيه انقاذا لكرامة الكنيسة . وما لبثت أن وجدت نفسها وقد تورطت فى منافسات الحزبين الفرنسي والأسبانى فى البلاط البابوى . وقطعت السويد دخلها المقرر لها حين وجدت مشقة فى تمـويل حربهـــا مع بولنـــده ، فرهنت مجوهراتها ، وتلقت قرضا من البابا .

وفى يوليو ١٦٥٦ خرجت فى زيارة لفرنسا . وهناك أيضا لقيت ما تلقى الملكات من تكريم . ودخلت باريس على جواد أبيض مطهم ، وخرج ألف فارس لاستقبالها ، وهتفت لها الجموع ، وكاد كبار الموظفين يخنقونها بازهارهم الخطابية ، ووصفها دوق جيز ذلك العهد ، الذى أوفده مازاران لمرافقتها ، بهذه العبارات :

« ليست طويلة ، ولكن لها خصرا ممتـلئا وشـــفتين كبيرتين » وذراعين حلوتين ، ويدا بضة حسنة التكوين ، ولكنها أقرب الى يـد الرجل منها الى يد المرأة ... ووجهها كبير دون أن ينتقص ذلك من مظهره ... وأنفها معقوف ، وفمها كبير نوعا ولكنه ليس منفرا ... وعيناها بديعتان تشعان نارا ... وعلى رأسها غطاء عجيب جدا ...

باروكة رجل ، كثة عالية ... ترتدى جذاء رجل ، ولها نبرات صوت الرجل وكل تصرفات الرجل تقريبا ، - تتظاهر بلعب دور المرأة المسترجلة (الامازونة) .. وهى غاية في التادب والمجاملة ، وتتكلم ثمانى لغات ، لا سيما الفرنسية - وكانها ولدت فى باريس ، انها تعرف أكثر مما تعرف أكاديميتنا ، مضافا اليها الصوربون ، وتفهم التصوير فهما جديرا بالاعجاب ، وكذلك تفهم كل ما عداه . انها لشخصية غاية فى الغرابة (٣٢) » .

وأنزلت جناح الملك فى اللوفر . ثم صحبها دوق جيز بعد ذلك الى كومبيين ، حيث استقبلها لويس الرابع عشر ، وكان يومها فتى وسيما فى الثامنة عشرة . والتفت سيدات القصر حولها كالفراشات ، ولكن أربكهن استرجالها فى اللباس والحديث . وذهبت مدام دموتفيل الى انها « تبدو لأول وهلة وكانها احدى الغجريات سيئات السيرة » ولكن « بعد ذلك ... بدأت آلف لباسها .. ولاحظت أن عينيها جميلتان متألقتان ، وأن فى وجهها رقة ، ولطفا يمتزج بالكبرياء . وأخيرا أدركت فى دهشة أنها أرضتنى (٣٣) » . على انه يمكن القول عموما أن النساء اللاتى وشين ما فى المجتمع الفرنسي من عادات وأزياء وبهجة وكياسة ورشاقة ، هؤلاء ساءهن اهمال كرستينا لملبسها ، و « افراطها فى الضحك ، وتحررها فى حديثها سواء عن الدين أو عن المواضيع التى تتطلب أصول اللياقة عند النساء مزيدا من التحفظ فيها .. وقد جهرت بانها تحتقر جميع النساء لجهلهن ، ووجدت لذة فى التحدث الى الرجال سواء فى المواضيع الطيبة أو الخبيثة . وضربت بالقواعد كلها عرض الحائط (٣٤) » . ويرى فولتير أن نساء المجتمع الفرنسي قسون فى الحكم على هذه الملكة المتمردة لأنها لم تسر على الجادة . قال « لم يكن فى البلاط الفرنسي امرأة واحدة وهبت ذكاءها (٣٥) » . أما كرستينا فقد حكمت على سيدات البلاط بانهن شديدات التكلف ، وعلى الرجال بانهم شديدو التخنث ، وعلى الفريقين بالافتقار الى الاخلاص. وفى سنليس ، فى طريقها عائدة من كومبيين الى باريس ، طلبت أن ترى « آنسة تدعى نينون (دلانكلو) ، مشهورة بالرذيلة ، والتهتك ، والجمال ، والذكاء . ولم تبد أى علامة من علامات الاحترام الا لهذه المرأة وحدها ، دون سائر النساء اللائى رأتهن فى فرنسا (٣٦) » . وقد

وجدت نينون جبيسة مؤقتا فى دير للراهبات . وتحدثت اليها كرستينا فى مرح ، واقرتها على امتناعهـــا عن الزواج (٣٧) . ثم عادت الى ايطاليا بعد أن زارت مؤسسات فرنسا الثقافيـــة وأهم آثارها الفنيـــة (نوفمبر ١٦٥٦) .

وفى سبتمبر ١٦٥٧ زارت فرنسا ثانيـــة . ولم تســـتقبل ذلك الاستقبال الرسمى السابق ، ولكنها انزلت فونتنبلو بما يقرب من الحفاوة بالملوك . وهناك روعت فرنسا بما خالته استعمالا مشروعا لحقوقهـــا الملكية على حاشيتها . وتفصيل ذلك أن ياورها المركيز مونالديســـكى اشترك فى مؤامرة ضدها كشفتها باعتراض رسائله . وزاد الموقف سوءا باتهامه رجلا آخر من حاشيتها بالتآمر عليها . فواجهته برسائله التى تثبت التهمة عليه ، وأمرت قسيسا أن يسمع اعترافه ويمنحه غفـــران الكنيسة ، ثم أصدرت الامر لحراسها فاعدموا المركيز . وصعقت فرنسا ، وحتى أولئك الذين اعترفوا بما منحها الديت السويدى من حقوق على أتباعها صدمهم هذا الاستعمال الفجائى التعسفى لسلطتها فى مســـكن يملكه ملك فرنسا . وسمح لكرستينا بأن تنفـق الشـــتاء فى باريس ، وتستمتع بالتمثيليات وحفلات الرقص ، ولكن البلاط تنفس الصعداء حين رحلت الى ايطاليا (مايو ١٦٥٨) .

وقد سبب لها قطع الدخل الذى يأتيها من الســويد من الحـــرج الشديد ما جعلها فيما روى تطلب الى الامبراطور ليوبولد الأول جيشا تقوده بنفسها ضد شارل العاشر ، ولكن ثناها عن هذه المغامرة العسكرية معاش سنوى من اثنى عشر ألف سكودى قرره لها البـــابا الاســـكندر السابع . وقد زارت السويد مرتين (١٦٦٠ ، ١٦٦٧) لتستعيد دخلها، وربما تاجها . ورد اليها دخلها ، ولكنها لم تلق ترحيبا فى استكهولم ، واتهمها رجال الدين اللوثريون بانهـــا تتآمر لتحـــول الأمـــة الى الكاثوليكية ، ومنعت من الاستماع الى القداس فى مسكنها . وكانت بعد كل زيارة من هاتين الزيارتين تعتكف فى هامبورج . ومنها أرســـلت مندوبين الى وارسو فى ١٦٦٨ ليعرضوا ترشيحها نفسها لعرش بولنده الذى خلا باعتزال يوحنا كازيمير . وعزز البابا كلمنت السابع مطلبها ، ولكن الديت البولندى رفضها لأسباب كثيرة ، منها رفضها أن تتزوج . وقد قالت ان امبراطورية العـــالم بأسرها لن تحملهـــا على الرضـــا

بالزواج (٣٨) . ثم عادت الى ايطاليـــا فى ١٦٦٨ ، ومكثت بهـــا حتى ماتت .

وكانت تلك السنوات العشرون الأخيرة أجمل سنى عمـــرها . وأصبح جناحها فى قصر كورسينى أهم الصالونات فى روما ، وملتقى الاساقفة ، والعلماء ، والملحنين ، والنبلاء ، والدبلوماسيين الأجانب . هناك رحبت باليساندرو سكارلاتى ، وتلقت من أركانجلو كوريللى اهداء اول سوناتاته المنشورة . وزينت حجراتها بالصور والتماثيل وغيرهـــا من التحف المنتقاة بذوق كان مثار اعجاب الخبراء ، أما المخطوطات التى جمعتها فقد عدت فيما بعد من خيرة ما ضمنته مكتبة الفاتيكان من مخطوطات . وكانت تثبط الاسلوب المتكلف الذى نما فى الشـــعر الايطالى ، واثرت على جيدى ليتزعم حركة تعود الى نقاء اللغـــة ، واســـتقامة التعبير ، اللذين ســـادا فى أيام أسرة مديتشي . وكانت مذكراتها مثالا للكلام البسيط القوى ، و « أقوالها المأثورة » . آراء جادة سديدة لامرأة خبيرة بالدنيا ، لم تسمح لتقواها بأن تفســـد استمتاعها بالحياة . ولم تكن متعصبة ، فقد أدانت عنف الكاثوليك الفرنسيين فى تنفيذ قانون فسخ مرسوم نانت ، وكتبت تقول « انى أنظر الى فرنسا نظرتى الى مريضة بتر ذراعاها وساقاها علاجا لمرض كانت تشفى منه تماما بممارسة اللطف والصبر (٣٩) » . وذهب بيل الى أن هـــذه العواطف بقية متخلفة من تربيتها البروتستنتية ، فوبخته على هـــذا التفسير ، فكتب اليها معتذرا ، فغفرت له شريطة أن يوافيهـــا بكتب جديدة أو غريبة (٤٠) .

وماتت عام ١٦٨٩ بالغة الثالثة والستين ، ودفنت فى كنيســـة القديس بطرس . وبعد موتهـــا بثلاث ســـنوات أسس جوفانى ماريا كريسكمبينى تخليدا لذاكراها « الاكاديمية الاركادية » واكثر اعضائها الاوائل ممن اجتمعوا تحت جناحها . وواصلوا الصلة القديمـــة بين الشعر والرعوية ، وسموا أنفسهم رعاة ، واتخذوا أسماء ريفية ، وعقدوا اجتماعاتهم فى الحقول . وانشأوا فروعا فى مدن ايطاليا الرئيسية ، ومع احتفاظهم بالحيل البارعة فى بنيان قصائدهم ، فانهـم أنهـــوا تسلط الأوهام على الشعر الايطالى .

٤ - من مونتيفردى الى سكارلاتى

كانت الموسيقى فى ذلك المجتمع المرح ، مجتمع ايطاليا القرن السابع عشر ، نغمة الحياة ونسيمها . لقد خاض هذا الشعب المشبوب العاطفة الحروب فى الأوبرات ، وحارب معارك الحب فى أغانيه الشعرية ، بعد أن ألزمته أسبانيا والبابوية السلام رغم ارادته .

واتخذت الآلات الموسيقية عشرات الأشكال . واصبح الأرغن الآن منفاخا مزينا له لوحتا مفاتيح لليدين ولوحة للقدمين ، بالأضافة الى أنابيب متنوعة ، وكان هناك بالطبع أراغن متنقلة للشارع . وفى تاريخ مبكر (١٥٩٨) نسمع بآلة أخرى لها لوحات مفاتيح سميت « البيانو اى فورتى » (أى الخافت والقوى) ورد ذكرها فى قائمة الآلات التى يملكها ويعزف عليها الدوق الفونسو الثانى فى مودينا ، ولكنا مازلنا نجهل الفرق بينها وبين « البيلن القيثارى » بنوعيه clavicembalo (الهاربسيكورد) و spinetta . وينقضي قرن قبل أن نسمع بالبيانو فورت ثانية . وفى ١٧٠٩ عرض بارتولوميو كريستوفورى آلة موسيقية سماها gravicemblo col pianoe forte ، وكان صانع الآلات الموسيقية لأمير عاشق للموسيقى يدعى فرديناند دى مديتشي بفلورنسة . وكانت هذه الآلة تختلف اختلافا هاما وان كان طفيفا عن الهاربسيكورد . فالنغمة تصدرها مطرقة صغيرة ترتفع لتقرع وترا ، وفى الامكان خفض الصوت أو رفعه بتنويع لمس الاصابع للمفتاح - بينما النغمات فى الآلات السابقة ذات لوحات المفاتيح تنبعث بواسطة ريشة (من ريش الطير أو الجلد القاسي) ترتفع لتنقر الوتر ، ولا يمكن احداث تنويع فى قوة الصوت× . وحل البيانوفورت بالتدريج محل الهاربسيكورد فى القرن الثامن عشر ، لا لانه يستطيع أن يعزف الأصوات « الخافته والعالية » فحسب ، بل لأن مطارقه كانت تبلى بسرعة أقل مما يبلى ريش الطير .

أما الكمان فقد تطور من القيثارة (الليرة lyre) فى القرن

× فى متحف المتروبولتان للفنون بنيويورك أحد بيانات كريستوفورى الذى يرجع تاريخه الى ١٧٢٠ .

السادس عشر ، لاسيما فى بريشا × • فجلب أندريا أماتى فن صنع الكمان الى كريمونا ، وهناك تفوق حفيده نيكولو على جميع منافسيه فى هذه الحرفة ، الى أن تفوق عليه هو ذاته تلميذاه اندريا جارنيرى وأنطونيو ستراديفاى • وآل جارنيرى مثال آخر من الأمر التى جرى فيها النبوغ فى نفس الحرفة ، فهناك أندريا وولداه بييترو « دى مانتوا » وجوزيبى الأول ، وحفيده بييترو الثانى « دى فينيتسيا » وحفيد أخيه جوزيبى الثانى « ديل جيزو » ــ الذى جعل باجانينى يؤثر الكمان على سائر الآلات الموسيقية • وأقدم كمان يحمل توقيع ستراديفارى يرجع تاريخه الى ١٦٦٦ ، حين كان فى الثانية والعشرين ، وقد كتب عليه « أنطونيوس ستراديفاريوس الومنوس نيكول أماتى فاتشيبات آنو ١٦٦٦ » ويلى هذا شعاره الشخصي ــ وهو صليب مالطى والحرفان الأولان من اسمه ، أ • س ، داخل دائرة مزدوجة • وكان يوقع فيما بعد ببساطة يشوبها الفخر « سترافيداريوس » • وقد ألف العمل دون انقطاع ، والقصد فى الطعام ، وعاش ثلاثة وتسعين عاما ، وجمع من الثروة بفضل ما تميزت به آلاته من روعة الجمال والبناء والنغم والصقل ما أصبحت معه عبارة « غنى مثل ستراديفارى » مرادفا كريمونيا للثراء العريض • والمعروف أنه صنع ١١٦ر١ كمانا ، وفيولا ، وفيولنسيلو ، وبقيت منها على قيد الحياة ٥٤٠ كمانا ، بيع بعضها بعشرة آلاف دولار (٤١) • وقد ضاع سر الطلاء الذى كان يصقل به آلاته •

وشجع هذا التحسن فى الآلات تطور الاوركسترا ، وتأليف الموسيقى الآلاتية وأداءها • واكتشف المؤلفون والعازفون فى الكمان مرونة فى الحركة وتنوعا فى النغم يستحيلان على الصوت البشرى ، اذ كان فى استطاعتهم ان يصعدوا ويهبطوا على السلم الموسيقى بيسر يفوق الوصف فعلا ، وأن يبنوا التنويعات ويتلاعبوا بها ، وأن يهربوا من روتين اللحن ويقتحموا الجديد من الايقاعات ، والتطويرات ، والتجارب • وأمكن بعد الجمع بين الآلات الكثيرة تحرير التأليف من الرقص ومن الأغنية على السواء ، واستطاع التأليف أن يحلق على

× زعم فلودزيميرز كامينسكى فى ١٩٦١ أنه وجد أوصافا للكمان فى مخطوطات بولندية ترجع للقرن الرابع عشر ــ لوس انجيليس تايمز ، ١١ أغسطس ١٩٦١ •

جناحيه هو فى الجديد من المتتاليات ، والتجميعات ، والأشكال . وكان تومازو فيتالى سباقا بسوناتات الكمان التى لم يعرف لها مثيل من قبل فى عنى الابتكار ، والتى أعانت على ارساء تعاقب الحركات السريعة والبطيئة والبسيطة . أما أركانجيلو كوريللى ، فقد مهد الطريق بوصفه مؤلفا وعازفا ماهرا ، للموسيقى الحجرية التى شاعت فى القرن الثامن عشر بسوناتاته التى وضعها للكمان ، وكان له هو وفيتالى فى ايطاليا ، وكوناو وهينريش فون بيبر فى المانيا ، الفضل فى اعطاء السوناتا بناء وشكلا باعتبارها قطعة « تعزف » بالآلات فقط ، مقابل « الكانتاتات » التى هى مؤلفات تغنى بالصوت . وكوريللى هو الذى قـــرر شـــكل « الكونشرتو جروسو » ـ كمانان وفيولنتشيللو واحدة تقود أوركســترا وتريا ـ بألحان بسيطة مشجيه مثل « كونشرتو عيد الميلاد » (١٧١٢) ، ففتح بذلك طريقا لكونشرتو فيفالدى وهندل ومتتابعات باخ الاوركسترية وقد احتفظت ألحان كوريللى بشعبيتها فى القــرن الثــامن عشر فترة طالت حتى لقد خيل لبيرنى وهو يكتب حوالى عام ١٧٨٠ أن شــهرتها ستبقى «ما بقى النظام الحالى للموسيقى مبعث بهجة لآذان البشر(١٤٢)» .

وكما أصبح كوريللى المؤلف المفضل للكمــان ، فكذلك هيمــن اليساندرو شتراديللا على موسيقى هذا العصر الصوتية ، بالأصــوات الفردية ، والثنائية ، والثلاثية ، والأوراتوريوات . وكانت حياته ذاتها دراما فى الموسيقى ، وقد حولت الى تمثيلية وأوبرا . ذلك أنه أحرز فى عمله مدرسا للغناء بالبندقية نجاحا محزنا . فقد فرت معه لروما احدى تلميذاته الأرستقراطيات ، واسمها أورتنسيا ، مع أنهـــا كانت مخطوبة لعضو الشيوخ البندقى ألفيزى كونتاريني . وأرسل عضــــو الشيوخ فتاكا ليقتلوه . ولكن حين سمعه هؤلاء القتلة المرهفــو الحس يرتل الدور الرئيسي فى لحنه « أوراتوريو دى سان جوفانى باتيستا » فى كنيسة سان جوفانى باللاتيرانو ، تأثروا بالموسيقى (كما تقـــول القصة) تأثرا جعلهم يقلعون عن القيام بما كلفوا به ، ويحذرونه هـــو ورفيقته ليلتمسا مخبأ آمنا . وفر العشيقان الى تورينو ، ولكن سرعان ما أشتهر أليساندرو هناك بمؤلفاته وصوته شهرة هددته بالخطر . وأرسل كونتاريني فاتكين لا يهويان الموسيقى ليقتلاه ، فهاجماه ، وتركاه وهما

يحسبانه قد مات ٠ ولكنه أفاق ، وتزوج أورتنسيا ، ورحـل معها الى جنوه ٠ وهناك عثر عليهما ماجورو عضو الشيوخ ، فطعناهما طعنات أودت بحياتهما (١٦٨٢) (٤٣) ٠ وظل الأوراتوريو الذى قيل انه أنقذ حياته محتفظا بشعبيته قرنا كاملا ، وقد مهد السبيل أمام هندل ٠

وغدت الأبرا الآن هوسا فى ايطاليا ٠ فالبندقية وحدها كان بها ست عشرة دارا للأوبرا فى ١٦٩٩ ، وقد استمعت الى قرابة مائة أوبرا مختلفة بين عامى ١٦٦٢ و ١٦٨٠ (٤٤) ٠ كذلك أقبلت نابلى على هذه الفرجة المشجعة بما يقرب من هذا التهافت ٠ أما فى روما فقد أصبحت الأوبرا رمزا على حركة علمنة الموسيقى السائرة قدما ، وقد ألف كلمنت التاسع نفسه بعض الفكاهيات الموسيقية قبل أن يرتقى عرش البابوية (٤٥) ٠ وكان هناك أضمحلال مؤقت فى جودة الأوبرا الايطالية بعد مونتفردى ففقدت الحبكات بعض وقارها ودلالتها ، وازدادت سخفا وعنفا ٠ وطور فرانشسكو كافاللى ، أحد تلاميذ مونتفردى ، اللحن المنفرد باعتبـاره أحلى جزء من العرض ، وسرعان ما طالبت الجماهير بسلسلة من الالحان الدرامية ، وكانت تحتمل فترات الاستراحة بصبر نافد ٠ وقام الخصيان من الغلمان أو الرجال بكثير من أدوار السوبرانو أو الكونترالتو ، ولكن البريمادونات بدأن الآن ينافسن الملكات ٠ ووجه ملتن أغنيات لاتينيـة الىليونورا بارونى ، وخرجتنابلى على بكرة أبيها لترحب بام ليونورا ، أدريانا بازيلى ، أعظم المغنيات السوبرانو اثارة للأحاسيس فى زمانها ـ ولعل أجهزة المسرح الآلية بلغت فى هذا العصر الغاية التى ما بعدهـا غاية ٠ يقول مولمنتى أن مسرح سان كاسيانو ، فى بندقية القرن السابع عشر ، كان يستطيع عند الطلب أن يعرض قصرا ملكيـا ، وغـابة ، ومحيطا ، وجبل أوليمب ، والجنة ، ومرة علقت قاعـة رقص كاملة الاضاءة ، بكل أثاثها وراقصيها ، فوق المسرح الثابت ، وكانت تخفض لتستقر عليه أو ترفع لتوارى عن الأنظار حسب مقتضيات القصة (٤٦)٠ وحاول ماركانطونيو تشستى أن ينقذ الأوبرا من الاغنية ، فأعطى مزيدا من الاتساع والبروز للاستهلال ، ومن المنطق والرصانة للرواية ، ثم نوع الغنـاء يالريستاتيف ٠ وكان تشستى وكوريللى كلاهمـا مبعـوثين موسيقيين ، حملا الأوبرا الايطالية الواحد الى باريس على عهد لويس الرابع عشر ، والآخر الى فيينا على عهد ليوبولد الأول ٠ وهكذا كانت

أوربا شمال جبال الألب ، فى فن الاوبرا ، مستعمرة ايطالية (٤٧) .

وكان أبرز ملحنى الاوبرا الآن أليساندرو سكارلاتى . ولقد طغت شهره ابنه دومنيكو اليوم على شهرته ، ولكن اسم « سكارلاتى » كان الى عهد قريب يعنى أليساندرو ، وكان دومنيكو أشبه بتوقيع متعاقب سريع على وتر اسم مشهور . وقد وفد أليساندرو على روما وهـــو فى الثالثه عشرة ، ودرس حينا على كاريسيمى ، ولحن للكانتاتات ، وحفز همته فن ستراديللا وسيرته ، وفى العشرين أخرج أولى أوبراته المعروفة L'errore innocente (العلطة البريئـــة) وقد أعجبت الاوبرا كرستينا ملكة السويد ، فبسطت جناحها على أليســاندرو ، وأخرجت أوبراته التالية على مسرحها الخــاص . وفى ١٦٨٤ قبـــل وظيفـــة « المايسترو دى كابللا » لنائب الملك الاسبانى فى نابلى ، وظل يشغلها ثمانية عشر عاما ، يخرج الاوبرات فى تتابع سريع حتى بلغت عـند وفاته على الاقل ١١٤ ، لا يعيش منها اليوم سوى نصـــفها ، ولعـــل سوليمينا رسم فى هـــذه الفــترة اللوحـــة الممتـــازة التى ترى فى كونسرفاتوريو نابلى الموسيقى - وجه نحيـــل ، يفيض حســـاسية ، وتركيزا ، وعزيمة .

وجاءت حرب الوراثة الاسبانية فكدرت صفاء نابلى ، وتأخر صرف راتب سكارلاتى كثيرا حتى اضطر للرحيل الى فلورنسة مع زوجتـــه وأسرته ، ولحن وأخرج الاوبرات تحت رعاية الأمير فرديناند . وبعـد عام انتقل الى روما رئيسا لفرقة مرتلى الكنيسة للكردينـــال بييترو أوتوبونى ، وكان كنسيا مرحا مثقفا ، خلف كرستينا قطبا وراعيـــا للفنون فى روما ، ووزع طاقاته الدنيوية على الفن والأدب والموسيقى والخليلات (٤٨) . وفى ١٧٠٧ ذهب أليساندرو الى البندقيـــة حيث أخرج رائعته Mitridate Eupatore وهى أوبرا تتميز بخلوها تماما من تشويق الحب . فى ذلك العام دانت نابلى للحكم النمساوى ، فدعا نائب الملك سكارلاتى ليعود الى سابق وظيفته ، فوافق ، وأنفق هناك العقد الأخير من حياته ، حين بلغ أوج شهرته .

وقد قررت أوبراته أسلوبا دام نصف قرن . جعل الاستهلال مؤلفا هاما لا يرتبط بالأوبرا ، وقسمه الى ثلاث حركات ظلت قياسـية حتى

مجيء موتسارت : الألليجرو ، والأداجيو ، والألليجرو . أما اللحن (الآريا) فأعطاه سيطرته النموذجية فى القرن الثامن عشر وشكله الاعادى da capo ، الذى يعيد فيه القسم الثالث الأول ، ونفث فيه الحرارة العاطفة ، والحنان ، والتلوين الرومانسي ، وجعله أداة لابداعات المغنين فى العزف والارتجال ، ولكن تكراره قطع الوجدان والحركة قطعا مفتعلا . وقد قاوم حينا طلب الجماهير للألحان العاطفية ، وأخيرا أذعن ، وظلت دراما الموسيقى خمسين عاما تحظى بألف انتصار دون أن تنتج آثارا قادرة على مغالبة تقلبات الذوق . واضمحلت الأوبرا حتى أيقظها جلوك لحياة وشكل جديدين ، فى فيينا (١٧٦٢) وباريس ، بجمال أوبرا Orfeo ed Euridice المقيم .

٥ ـ البرتغال : ١٦٤٠ ـ ١٧٠٠

حين توج دوق براجانزا ملكا باسم يوحنا الرابع (١٦٤٠) بدأت البرتغال حربا امتدت ثمانية وعشرين عاما لتدافع عن استقلالها الذى استردته من أسبانيا . وقدمت لها فرنسا يد المعونة حتى ١٦٥٩ ، حين وافق مازاران فى صلح البرانس على أن يكف عن مساعدة البرتغال . واتجه الفونسو السادس الى انجلترة طالبا العون . وأوفدت كاترين أميرة براجانزا الى لندن عروسا لتشارلز الثانى (١٦٦٣) ، حاملة معها صداقا هو بومباى ، وطنجه ، و ٥٠٠ر٠٠٠ جنيه . وارسلت انجلترة الجند والسلاح مقابل ذلك . وبهذه المعونة وغيرها ، وبجهود البرتغاليين وقيادتهم وحسن نظامهم قبل كل شيء ، راحوا يردون جيوش أسبانيا على أعقابها الواحد تلو الآخر ، حتى اعترفت أسبانيا رسميا بمقتضى معاهدة لشبونة (١٦٦٨) باستقلال البرتغال .

وعزز بيدرو الثانى العلاقات مع انجلترة بمعاهدة ميثوين (١٧٠٣) . فوافقت كل من الأمتين على أن تمنح الأخرى تعريفات تفضيلية ، وعلى أن تستورد البرتغال السلع المصنوعة من انجلترة وتستورد النبيذ والفاكهة من البرتغال . وهكذا شربت انجلترة القرن الثامن عشر نبيذ البورت من أوبورتو ، بدلا من الكلاريت « الصافى clear » من بوردو . وقد وفر هذا التحالف الاقتصادى للبرتغال ... اتها الباقية حماية دائمة من أسبانيا وفرنسا .

وفى ١٦٩٣ كشفت مناجم ذهب ميناس جيرايس فى البرازيل ، وسرعان ما غلت لبيدرو الثانى من سبائك الذهب ما أتاح له أن يحكم بعد ١٦٩٧ دون حاجة لدعوة الكورتيز (المجلس التشريعى) للموافقة على منحه المال ، وأن يحتفظ فى لشبونه ببلاط من أفخم البلاطات فى أوربا . على أن الذهب الامريكى تمخض فى البرتغال عن نفس النتائج التى تمخض عنها فى أسبانيا : فقد استعمل لشراء السلع المصنوعة من الخارج بدلا من تمويل المشاريع الصناعية فى الداخل ، وظل الاقتصاد الوطنى اقتصادا زراعيا كسولا ، وحتى الكروم المحيطة بأوبورتو وقعت فى قبضة الانجليز الذين اشتروها بالذهب البرتغالى الذى حصلوا عليه من التجارة الانجليزية .

وواصل المؤلفون البرتغاليون تنشيط الأدب بالأعمال . من ذلك ان فرانشسكو مانويل دى ميلو اللشبونى التحق بالأفواج الأسبانية الذاهبة الى فلاندر بعد أن درس فى كلية انتاو اليسوعية ، وخاض معارك عدة كتبت له فيها الحياة ، وقاتل فى صف ملك أسبانيا فى التمرد القتلونى وألف تاريخا له (تاريخ حرب قتلونيا) فى كتاب من عيون الأدب الكثيرة التى أسهم بها البرتغاليون فى الأدب الأسبانى . فلما أعلنت البرتغال تحررها من ربقة أسبانيا عرض خدماته على يوحنا الرابع ، ولقى عرضه ترحيبا ، وجهز أسطولا برتغاليا وتولى قيادته ، ثم وقع فى غرام كونتيسة فيللانوفا الساحرة ، فقبض عليه بايعاز من زوجها ، وقضى تسع سنين فى السجن . فلما أطلق سراحه شريطة أن ينفى الى البرازيل ، ذهب ليعيش فى باهيا (بايا) ، حيث كتب Apologos dialogaes . وسمح له بالعودة فى ١٦٥٩ . فاصدر فى السنين السبع الباقية فى أجله مؤلفات فى الأخلاق والأدب ، وبعض الشعر ، وتمثيلية سبق بها موضوع وفكاهة تمثيلية موليير « البورجوازى مدعى النبل » . ومع أنه كتب بالاسبانية ، فان البرتغال تحسبه بحق ابنا من ألمع أبنائها .

وكاتب آخر هو أنطونيو فييرا ، الذى ولد فى لشبونه (١٦٠٨) ، وأخذ فى طفولته الى البرازيل ، وتلقى العلم على يد اليسوعيين فى باهيا ، وانضم الى طريقتهم ، وأدهش الناس جميعا حين اقترح فى مواعظ وكتيبات بليغة على الحكومات أن تمارس المسيحية . فلما

بعث فى مهمة الى البرتغال (١٦٤١) اثر فى يوحنا الرابع بنزاهة خلقه وتنوع مواهبه تاثيرا حدا به الى تعيينه عضوا فى المجلس الملكى، وهناك شارك بنصيب غير صغير فى التخطيط للانتصارات التى ردت لوطنه استقلاله ، ثم هز الافكار الراسخة بالمطالبة باصلاح ديوان التفتيش ، وفرض الضرائب على جميع الناس دون اعتبار للطبقة ، والسماح لليهود بدخول البرتغال ، والغاء التمييز بين « المسيحيين القدامى » و « المسيحيين الجدد » (اى اليهود الذين اعتنقوا المسيحية) . وكان مثالا ، من أمثلة كثيرة ، على حيوية اليسوعيين وتعدد قدراتهم ونزعتهم التحررية المتكررة الظهور .

فلما عاد الى البرازيل (١٦٥٢) ، أرسل مبعوثا الى مارانهاو ، ولكن نقده الصارم لهمجية سادة العبيد وأخلاقهم حملهم على السعى حتى نفى الى البرتغال (١٦٥٤) . ودافع أمام الملك عن قضية الهنود المظلومين ، وحصل على شيء من التخفيف عنهم . فلما عاد الى أمريكا الجنوبية (١٦٥٥) ، أنفق ست سنوات كان فيها « رسول البرازيل » ، يقطع مئات الأميال على الأمازون وروافده ، ويخاطر بحياته كل يوم بين القبائل المتوحشة وأهوال الطبيعة ، ويعلم الوطنيين فنون الحضارة ، ويدافع عنهم ضد سادتهم فى شجاعة حملت هؤلاء أيضا على الحصول على أمر بنقله الى البرتغال (١٦٦١) . وهناك قبض عليه ديوان التفتيش متهما اياه بأن كتاباته تحتوى على هرطقات خطرة وتطرفات تستحق الادانة (١٦٦٥) . وهالته الاحوال فى سجون الديوان - اذ رأى خمسة رجال محشورين فى زنزانة عرضها تسعة أقدام وطولها أحد عشر ، لا يدخلها الضوء الطبيعى الا من شق فى السقف ، ولا تغير فيها الأوانى الا مرة فى الأسبوع (٤٩) . واطلق سراحه بعد سنتين ، ولكنه منع من الكتابة أو الوعظ أو التعليم . فذهب الى روما (١٦٦٩) ، وهناك رحب به كلمنت العاشر وكرمه ، واستهوى الكرادلة والعامة بفصاحته . وعبثا التمست منه كرستينا ملكة السويد السابقة أن يكون مرشدها الروحى . وقد عرض على البابا اتهاما مفصلا لديوان التفتيش باعتباره وصمة على جبين الكنيسة ونكبة على رفاهية البرتغال . وامر كلمنت بأن تحال الى روما كل القضايا المعروضة.

على ديوان التفتيش البرتغالى ، وعطل انوسنت الحادى عشر تلك الهيئة خمس سنوات .

وأحس فييرا بوحشة للهنود رغم انتصاراته ، فابحر مرة أخرى الى البرازيل (١٦٨١) ، وجاهد هناك معلما ومرسلا يسوعيا حتى أدركته الوفاة وهو فى التاسعة والثمانين . وتحتوى مؤلفاته التى يضمها سبعة وعشرون مجلدا ، على الكثير من الألغاز الغيبية ، ولكن عظاته التى فورنت بعظات بوسوية ، وضعته فى صف « فحول اللغة البرتغالية (٥٠) » ، وخدماته وطنيا ومصلحا حملت الشاعر البرونستنتى صذى على أن يسلكه فى عداد أعظم ساسة وطنه وزمانه (٥١) .

٦ ـ انهيار أسبانيا : ١٦٦٥ ـ ١٧٠٠

كانت أسبانيا فى ١٦٦٥ لا تزال أعظم الامبراطوريات فى العالم المسيحى . حكمت الأراضي المنخفضة الجنوبية ، وسردانيا ، وصقلية ، ومملكة نابلى ، ودوقية ميلان ، ومساحات شاسعة فى أمريكا الشمالية والجنوبية . ولكنها كانت قد فقدت القوة البحرية والحربية اللازمة للسيطرة على تجارة هذا الملك المبعثر ومصيره . وكانت أساطيلها الثمينة قد دمرها الانجليز (١٥٨٨) والهولنديون (١٦٣٩) ، وهزمت جيوسها هزائم فاصلة فى روكروا (١٦٤٣) ولينز (١٦٤٨) ، واعترف دبلوماسيوها فى صلح البرانس (١٦٥٩) بانتصار فرنسا ، وكان اقتصادها يعتمد على تدفق الذهب والفضة من أمريكا ، وهذا التدفق كان يقطعه المرة بعد المرة الأسطول الهولندى أو الانجليزى . ونقلصت تجارتها وصناعاتها لاعتمادها على الذهب الأجنبى واحتقار شعبها للمتاجرة . وكان الكثير من التجارة الاسبانية يحمل فى سفن أجنبية . ونقص عدد السفن الاسبانية العاملة بين أسبانيا وأمريكا ٧٥ ٪ فى عام ١٧٠٠ عنه فى عام ١٦٠٠ . وكانت البضائع المصنوعة تستورد من انجلتره وهولنده ، ويدفع ثمن جزء منها فقط بتصدير النبيذ أو الزيت أو الحديد أو الصوف ، والباقى يدفع سبائك ذهبية ، ومعنى ذلك أن الذهب الامريكى انما كان يمر مرورا بأسبانيا والبرتغال فى طريقه الى انجلتره وفرنسا والاقاليم المتحدة . وكانت قرطبة وبلنسية

فى حالة اضمحلال واع برم بعد شهرتها الماضية بحرفها . وكان طرد المغاربة قد آذى الزراعة ، وغش العملة المرة بعد المرة أربك المالية . وبلغت حال الطرق من السوء وحال النقل من التخلف مبلغا وجدت معه المدن القريبة من البحر ، أو الواقعة على أنهار صالحة للملاحة ، أنه أرخص لها أن تستورد البضائع ، حتى الغلال ، من الخارج عن أن تجلبها من مصادرها فى أسبانيا . وحاولت الضرائب الباهظة ، بما فيها ضريبة بيع ارتفعت الى ١٤ ٪ ، أن تمول حروب أسبانيا ضد أعداء استعصت هزيمتهم الى حد لا يصدق ، رغم الافتراض بأنهم ملعونون من الله . وهبط مستوى المعيشة هبوطا حمل أعدادا لا تحصي من الاسبان على هجر مزارعهم ومتاجرهم وأخيرا وطنهم . وارتفعت وفيات الأطفال ، ويبدو أنه كان هناك بعض التحديد الماكر لعدد أفراد الأسرة . فقد أصبح آلاف الرجال والنساء رهبانا عقيمين أو راهبات وانطلقت آلاف أخرى للمغامرة فى أراض نائية . وفقدت اشبيليه ، وطليطلة ، وبرجوس ، وسقوبية بعض سكانها . وهبط سكان مدريد فى القرن السابع عشر من ٤٠٠٫٠٠٠ الى ٢٠٠٫٠٠٠ (٥٢) لقد كانت أسبانيا تموت من مرض الذهب .

وفى وسط الفقر المنتشر المتكاتف كدست الطبقات العليا ثروتها وعرضتها على الأنظار . وأمسك النبلاء ، الذين طال اثراؤهم باستغلال الأهالى أو بالكنوز المستوردة ، عن استثمار ثروتهم فى الصناعة أو التجارة ، وراحوا يبهرون أبصار بعضهم البعض بالجواهر والمعدن النفيس ، وبالملاهى الغالية والأثاث الفخم . من ذلك أن دوق ألفا كان يملك ٧٫٢٠٠ من صحاف الفضة و ٩٫٦٠٠ من الآنية الفضية الأخرى ، وأن أمير ستليانو صنع لزوجته محفة من الذهب والمرجان بلغ ثقلها حدا لم يسمح باستعمالها . كذلك احتفظت الكنيسة بغناها ، واستكثرت منه (٥٣) ، وسط الفاقة المحيطة بها . ورأى رئيس أساقفة سنتياجو أن يبنى كنيسة كاملة من الفضة ، فلما ثنوه عن ذلك بناها كلها بالرخام (٥٤) . لقد كان دم الشعب تربة الثروة ومجد الله .

أما ديوان التفتيش فكان على عهدنا به من شدة الباس ، بل اشد باسا من الحكومة . وقلت الإحتفالات التى يصدر فيها الحكم بالموت على المهرطقين عن ذى قبل ، لا لشيء الا لأن الهرطقة كانت قد ابيدت

حرقا . وكانت الفيود التى أعجزت الكاثوليك فى انجلتره لا تقاس بما يلقاه البروتستنت من أخطار فى أسبانيا . وعجز كروموبل عن حماية التجار الانجليز هناك . وقبض ديوان التفتيش فى ١٦٩١ على الخادم البروتستنتى للسفير الانجليزى ، وفى تلك السنة نبش الشعب جثة القسيس الأنجليكانى الخاص بالسفير ومثل بها تمثيلا . واستمر حرق اليهود المتنصرين الذين اتهموا بأنهم يضمرون يهوديتهم . وبنى ديوان التفتيش لنفسه فى ميورفه قصرا جميلا من الثروة التى صادرها فى تحقيق واحد (٥٥) . وكانت الجماهير تؤيد بحرارة هذه المحرقات وان حاول كثير من النبلاء تثبيطها . فلما أعرب شارل الثانى فى ١٦٨٠ عن رغبته فى أن يشهد احتفالا بحرق المهرطقين ، تطوع صناع مدريد بأن يبنوا مدرجا للمشهد المقدس ، وفى أثناء قيامهم بالعمل كانوا يشحذون بعضهم بعضا على الاسراع والاجتهاد بألوان من الحض الدينى ، لقد كان حقا جهدا من جهود المحبة . وحضر شارل وعروسه الشابة فى كل أبهة الملك ، وحوكم ١٢٠ سجينا ، وأحرق واحد وعشرون حتى الموت فى مرجل فى الميدان الكبير ، وكان هذا أعظم وأفخم احتفال بحرق المهرطقين فى تاريخ أسبانيا ، ونشر كتاب من ٣٠٨ صفحة يصف الحدث ويخلد ذكراه (٥٦) . وفى ١٦٩٦ عين شارل « هيئه كبرى » لفحص مفاسد ديوان التفتيش ، فقدمت تقريرا أماط اللثام عن شرور كثيرة وأدانها ، ولكن الرئيس العام للديوان اقنع الملك بأن يلقى بهذا « الاتهام الرهيب » فى زوايا النسيان . فلما طلبه فليب الخامس فى ١٧٠١ لم يعثر على نسخة منه (٥٧) . على أن الديوان خفف من غلوائه بعد ذلك وقلل من حرائقه .

أما الكنيسة فقد حاولت أن تفتدى ثروتها وتدعم الايمان بتمويلها للفن . ففى ١٦٧٧صمم فرانشسكو دى هيريرا ايلموزو كتدرائية سرقسطة الثانية التى سميت « ديل بيلار » لأنها تفاخر بعمود اعتقد الناس أن العذراء نزلت عليه من السماء . وجاءت العمارة الباروكيسة الآن الى أسبانيا ، وبين عشية وضحاها تحول المزاج الاسبانى من الاكتئاب القوطى الى الاسراف الزخرفى . وأشهر المعماريين هنا خوزى شوريجويرا ، وقد أصبح لفظ « شوربجويريسكا » حينا علما على الباروك الاسبانى . ولد فى سلمنقه عام ١٦٦٥ ، وأبدى نشاطا مفرطا

فى العمارة والنحت وصناعة الاثاث والتصوير . فلما وفد على مدريد فى الثالثة والعشرين دخل فى مسابقة لتصميم نعش لجنازة الملكة ماريا لويزا ، ففاز بالجائزة ، وتوطدت شهرته بالبراعة الزخرفية العربية بفضل هذا البناء المختلط (٥٨) ، المؤلف من أعمدة عجيبة الشكل وكرانيش مكسرة ، والمزين بالهياكل العظمية والعظام المتقاطعة والجماجم . ثم عاد الى سلمنقة حوالى ١٦٩٠ ، وظل يكد فيها عشر سنين ، يزخرف الكتدرائية ، ويبنى المذبح العالى فى كنيسة القديس اسطفان ، والبهو الفخم فى مجلس المدينة . وفى مدريد صمم قرب ختام حياته واجهة كنيسة القديس توما ، ولما مات (١٧٢٥) ترك استكمال البناء لولديه جيرونيمو ونيقولا ، وفى أثناء اشتغالهما بهذه العمليات سقطت القبة فوق رءوس الكثير من العمال والمصلين فسحقتهم . وهاجر الى المكسيك لون معتدل نوعا ما من باروك شوريجويرا ، وهناك أثمر بعض المبانى التى تعد من أجمل ما شيد فى أمريكا الشمالية .

وظل النحت تعبيرا قويا عن الروح الاسبانية . وكان مصدر هذه القوة أحيانا واقعية شاذة ، كما نراها بتفصيل دموى فى رأس يوحنا المعمدان أو غيره من القديسين مقطوعى الرءوس . وكان متحف بلد الوليد يحتفظ برأسين من هذا النوع للقديس بولس (٥٩) . وظلت حجب المذبح لونا أثيرا من ألوان الفن ، فنرى بيدرو رولدان ينحت الحجب الكبرى فى كنيسة الأبرشية الملحقة بالكتدرائية ، وفى مستشفى دى لا كاريداد فى اشبيلية ، وابنته لويزا رولدانا ، مثاله أسبانيا الفذة تنحت فى كتدرائية قادس مجموعة تماثيل تتركز حول « نوسترا سينورا دى لاس أنجوستياس » (سيدة الأحزان) . وهيمن بيدرو دى مينا على العصر بتماثيل عراياه (وما أندرها فى الفن الاسبانى) ، وتماثيل السيدة العذراء ، ومقاعد المرتلين فى كتدرائية ملقا ، ويعد تمثاله « سا نفرانسسكو » فى كتدرائية اشبيلية من أروع أمثلة النحت الأسبانى . وحوالى نهاية القرن السابع عشر أدرك هذا الفن ما أدرك غيره من تدهور عام . فأثقلت الحشوات بالزخارف ، وزودت التماثيل بأجهزة آلية لتحريك الرأس والعينين والفم ، وأضيف الشعر والملابس الحقيقية ، واللون دائما ، فى جهد للوصول الى أبسط التصور والذوق الجماهيريين .

وولى عصر العمالقة فى التصور الاسبانى ، ولكن

بقى الكثير من صغار الأبطال . فكان خوان كارينو دى ميراندا ، الذى خلف فيلاسكويز مصورا للبلاط ، محبوبا كسلفه تقريبا ـ رجلا متواضعا لطيفا ، يبلغ به الاستغراق فى عمله مبلغا ينسيه أحيانا هل أكل أو لم يأكل . وقد سرت صوره لشارل الثانى وحاشيته الملك الشاب حتى عرض عليه لقب الفروسية وصليب سنتياجو ، ولكن كارينو رفض هذا التشريف لأنه رآه فوق ما يستحق . وفى تلك الأيام ابتهجت مدريد بقصة « الكنتاريللو دى ميبل » (برطمان العسل) . وتفصيل ذلك أن فنانا مغمورا يدعى جريجوريو أوتاندى رسم لوحة للراهبات الكرمليات طلب عليها أجرا مائة دوكاتية ، فاستكثرن عليه الأجر ، ولكن وافقن على تحكيم كاربنو . وقبل أن يسمع كارينو بالأمر ، أهداه أوتاندى برطمان عسل ، ورجاه فى أن يضع اللمسات الأخيرة للوحة . ففعل ، وتحسنت الصورة كثيرا . ودهش كارينو حين طلبت اليه الراهبات تقييمها . فرفض ، ولكن فنانا ثالثا قدرها بمائتى دوكاتية ، وكتم السر حتى دفع الثمن .

وفى ختام حياته يسر كارينو سبيل النجاح لأحد خلفائه ، وهو كلوديو كويللو ، الذى ظل يرسم أثناء الليل وأطراف النهار دون أن يحقق نتائج ذات بال . فصادقه كارينو ، وحصل له على اذن بأن يدرس وينسخ أعمال تنسيانو وروبنز وفانديك فى قاعات الفن الملكية . وأعانت هذه التجربة كلوديو على النضج ، وفى ١٦٨٤ ، وقبل موت كارينو بعام ، عين كويللو مصورا للملك . وقد أحرز الشهرة فى وطنه بلوحته « ساجرادا فورما » أى القربانه المقدسة ، التى ظهرت فيها هده القربانة تقدم الى شارل الثانى لوضعها على مذبح فى الاسكوريال. والاسطورة التى من وراء الصورة تعبر عن مزاج أسبانيا . تقول الرواية انه فى أثناء الحرب مع الهولنديين داس بعض الكلفنيين الفجرة قطعة من خبز القربان المقدس تحت أقدامهم ، وسالت من القربانة المصابة قطرات من دم ، هدت للتو أحد مدنسيها الى الكاتوليكية ، وحملت القربانة التى استنقذت الى فيينا فى احترام واجلال ، وأرسلت هدية الى فيليب الثانى ، ومنذ ذلك التاريخ وهى تعرض دوريا ، ملطخة بدم المسيح على العابدين الخاشعين . وصور كويللو الملك وكبار حاشيته راكعين فى تعبد أمام الخبز المعجز . وظهر فى الصورة نحو خمسين

شخصا ، كلهم تقريبا صاحب شخصية متميزة ، وقد رتبوا فى منظور ذى عمق خداع للبصر بشكل ملحوظ (٦٠) . بعد هذا العمل الذى اقتضاه الفراغ منه عامين ، أصبح كويللو سيد الفنانين قاطبة فى العاصمة غير منازع . وبعد ست سنوات (١٦٩٢) حجبه بغتة وصول لوكا فاريريستو جوردانو من ايطاليا ، وكلف لوكا على الفور بالدور الأول فى زخرفة الاسكوريال من جديد . وزاد لوكا الطين بلة بامتداحه صور كلوديو . وأنهى كويللو الصور التى كلف بها ، ولكنه ألقى فرشاته جانبا . وبعد عام من وصول جوردانو مات كويللو وهو بعد فى الحادية والخمسين ، وفيل قهرا وغيرة (٦١) .

وخلال ذلك شهدت اشبيلية ميلاد ووفاة (١٦٣٠ ـ ٩٠) آخر فنان عظيم فى التصوير الأسبانى قبل جويا ، وهو خوان دى فالديس ليال . وكان مثل كويللو برتغالى الأبوين أسبانى المولد . وبعد أن انفق سنوات فى قرطبة ، رحل الى اشبيلية ليتحدى تفوق موريللو . وكان فيه من الكبرياء ما لم يسمح له بأن يقدم لرعاته الجمال الناعم لعذارى (مادونات) محتشمات . وقد صور العذراء فى صعودها ، ولكنه وضع قلبه وقوته فى صور أخرى لا تعرف هوادة فى الغض من لذات الحياة والايماء الى الموت الذى لا مهرب منه . فرسم القديس انطونيوس يتولى فى هلع عن فتنة النساء (٦٢) . وصورت لوحته « ان اكتو أوكولى » (أى فى طرفة عين) الموت هيكلا عظميا يطفىء شمعة الحياة التى يكشف ضوءها القصير الأجل ، فى فوضي إختلطت على أرض الحجرة ، عدة الاطماع الدنيوية ومجد العالم ـ الكتب ، والسلاح ، وتاج أسقف ، وتاج ملك ، وسلسلة لطائفة « الفروة الذهبية » . وفى صورة مغايرة تدور حول هذه الفكرة أرانا ليال حفرة مقبرة تبعثرت فيها الجثث والهياكل والجماجم ، ومن فوقها كلها يد جميلة تمسك بميزان تحتوى احدى كفتيه على شعارات فارس ، والأخرى على شارات أسقف ، والكفة الأولى كتب عليها « نيماس » أى لا أكثر ، والثانية « نيمينوس » أى لا أقل ـ فرجال الدنيا ورجال الدين على السواء وجدوا ناقصين فى موازين الله . ورأى موريللو أول الصورتين ، فقال لفالديس « انها أيها الزميل صورة لا يستطيع المرء أن ينظر اليها دون أن يمسك بأنفه (٦٣) » ـ وهى عبارة يمكن أن تفسر بأنها ثناء على واقعية المصور ، أو رد فعل عقل سليم للفن المنحط .

ذلك أن الانحطاط كان سمة للعهد ، فلم يشرفه اديب عظيم ، ولم تعرض على مسرحه تمثيلية فذة . أما الجامعات فكانت تنزوى وسط الخراب والظلامية السائدين ، ففى جامعة سلمنقة هبط عدد الطلاب فى هذه الفترة من ٧٫٨٠٠ الى ٢٫٠٧٦ (٦٤) . وجاهد ديوان التفتيش وقائمة الكتب المحرمة بنجاح ليقصيا عن أسبانيا كل أدب يسيء الى الكنيسة ، وظلت أسبانيا طوال قرن توصد أبوابها كأنها صومعة عابد فى وجه حركات الذهن الأوربى . وتربع الانحطاط بشخصه على عرش الملك رمزا للعهد .

وبيان ذلك أن شارل الثانى أصبح ملكا وهو بعد فى الرابعة (١٦٦٥) وفى سنى حداثته كانت أمه الملكة ماريانا تحكم البلاد اسما ، أما حاكمها الفعلى فكان كاهن اعترافها اليسوعى يوهانز ابرهارد نيذارد ، ثم عشيقها فرناندو فالنزويلا . وتفاقمت الفوضى ، وكانت الوزاره الكفء التى تولاها دون خوان نمساوى آخر ، أقصر أجلا من أن توقف الانحلال . وفى ١٦٧٧ تقلد الملك ذو الستة عشر عاما الحكم وجلس عاجزا على قمة هذا الصرح المنهار . ولعل التزاوج المتصل بين أفراده أسرة هابسبورج أسهم فى ضعف بدنه وعقله . وكانت الذقن الهابسبورجية فى شارل بارزة بروزا أعجزه عن مضغ طعامه ، ولسانه من الكبر بحيث لم يكد كلامه يفهم . وظل الى العاشرة يعامل كأنه طفل يحمل بين الذراعين . وكان لا يكاد يستطيع القراءة ، ولم يتلق من التعليم الا القليل ، وكان أعز ميراثه خرافات مذهبه وأساطيره . ويصفه مؤرخ أسبانى كبير بأنه « عليل ، أبله شديد التعلق بالخرافات»، وكان « يعتقد انه ممسوس ، وكان العوبه لأطماع كل من أحاطوا به (٦٥) » . وقد تزوج مرتين ، ولكن « كان من المعروف للجميع أنه لا يستطيع توقع الخلف (٦٦) » . هذا القصير الأعرج ، المصروع ، الخرف ، المصلع تماما قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين ، كان دائما على شفا الموت ، ولكنه حير العالم المسيحى المرة بعد المرة ببقائه على قيد الحياة .

وأصبح تفكك أوصال أسبانيا الآن ماساة أوربية . فقد ازدادت الحكومة اقترابا من الافلاس برغم الضرائب والتضخم واستغلال المناجم

الامريكية حتى عجزت عن دفع فوائد دينها ، وحتى المائدة الملكيـــة اضطرت الى التقتير فى خدمة الملك . أما البيروقراطية الادارية التى قلت رواتبها فكانت فاسدة متراخية . واستبد الفقر بالناس حتى كانوا يقتتلون للحصول على الخبز ، وسطت عصابات من الجياع على البيوت لتسرق وتقتل ، وكان عشرون ألف شحاذ يجوبون شوارع مدريد . أما رجال الشرطة العاجزون عن الحصول على رواتبهم فقد تشتتوا وانضموا الى المجرمين .

ووسط الفوضى والقلق والخراب واجه الملك المسكين ، الكسيح ، نصف المعتوه ، الشاعر بدنو أجله ، فى حيرة وتذبذب ، مشكلة الفصل فى وراثة عرشه . واذ كان سلطانه من الناحية النظرية مطلقا ، فان سطرا واحدا بخطه كان يكفى للتوصية بامبراطوريته التى تمتد رقعتها فى اربع قارات ، اما للنمسا واما لفرنسا . وانتصرت أمه للنمسا ، ولكن شارل كان يكره تآمرها كما يكره جشع زوجته الالمانية الخبيث . وذكره السفير الفرنسي بانه ما دام صداق عروس لويس الرابع عشر الأسبانية لم يدفع بعد ، فان تنازلها عن الوراثة قـد بطـــل ، وكان لويس يلح مطالبا بحقوقها ، ويملك القوة لفرض مطلبه . فلو أن شارل داس هذه الحقوق لا شتعلت أوربا بنيران الحرب ، وربما تمزقت أسبانيا اربا فى هذا الصراع . وانهار شارل تحت وطأة اتخاذ القرار ، وبكى واشتكى من ان ساحرة قد ابتلته بخطوب لا قبل له بتحملها . وبينما كان يستمع الى الحجج التى زادته اختلاطا حاصر مثيرو الشغب قصره صائحين فى طلب الخبز .

وفى سبتمبر ١٧٠٠ لزم شارل فراش الموت وكسب الحزب الفرنسي، وهو أحد الأحزاب التى أحاطت به ، رئيس أســاقفة طليطلة ــ وكان كبير اساقفة أسبانيا ــ الى صفه ، وقد لازم الملك المحتضر ليل نهـار ، وذكره بأن لويس الرابع عشر وحده يملك من القوة ما يتيح له الحفاظ على الامبراطورية الاسبانية سليمة واســتخدامها معقــلا للكنيســة

الكاثوليكية . ونصح البابا انوسنت الثانى عشر شارل بتفضيل فرنسا ، وذلك تحت الحاح لويس . وخيرا أذعن شارل ، ووقع الوصية المشئومة التى خلف فيها كل ممتلكاته لفيليب دوق أنجو ، حفيد ملك فرنسا (٣ أكتوبر ١٧٠٠) . وفى أول نوفمبر مات شارل ، غير متجاوز التاسعة والثلاثين ، وكأنه شبخ فى الثمانين . وهكذا كانت خاتمة فرع الهابسبورج الاسبانى فى غروب شاعت فيه حمرة الحرب الداهمة .

الفصل السادس عشر

الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية

١٥٦٤ ــ ١٧١٥

١ ــ الصــــفارديم ×

ان بقاء اليهود أحياء بعد تسعة عشر قرنا من الشدة والثأر أشبه بلحن كئيب فى تاريخ الجهل ، والكراهية ، والشجاعة ، والمرونة ٠ ذلك انهم بعد أن حرموا الوطن ، وأكرهوا على التماس الملجأ فى جيوب عنصرية بين أعداء عتاة ، وتعرضوا فى كل لحظة للاهانة والظــلم ، وللمصادرة أو الطرد و المذابح الفجائيــة ، دون أن يكون لهم ســلاح يدافعون به عن أنفسهم سوى سلاح الصــبر والمكر والتصميم اليـائس والايمان بدينهم ــ فانهم عاشوا مغالبين خطوبا وشدائد لم يقــو على مغالبتها شعب آخر فى التاريخ ، ولم تتحطم ارادتهم قط ، ومن فقرهم وحزنهم أنجبوا شعراء وفلاسفة بعثوا ذكرى المشــترعين والأنبيــاء العبرانيين الذين وضعوا الاسس الروحية للعالم الغربى ٠

وكان استئصال شأفة اليهود فى أسبانيا الآن كاملا تقريبا ، فلم يكن لهم من بقاء الاكتيار مختبىء فى الدم الاسبانى ، حتى أن أسقفا أسبانيا استطاع أن يعرب عام ١٥٩٥ عن ارتياحه لأن اليهــود المتنصرين أمكن استيعابهم بنجاح بطريق التزاوج بينهم وبين المسيحيين ، وأن أخلافهم الآن مسيحيون أتقياء (٢) ٠ ولكن ديوان التفتيش لم يوافقه على رأيه هذا ففى ١٦٥٤ أحــرق عشرة رجــال فى كوينكا واثنــا عشر فى غرناطة ، وفى ١٦٦٠ قبض على واحد وثمانين فى اشبيلية ، وأحرق سبعة ، بتهمة التمسك سرا بالشعائر اليهودية (٣) ٠

× ترد لفظة « صفارد » فى التوراة (١) اسما لاقليم فى غربى آسيا انزل فيــه المنفيون اليهود بعد استيلاء البابليين على أورشليم ٠ وفى تاريخ لاحق أصبحت الكلمة اصطلاحا عبريا على اسبانيا ، فأصبح اليهود من أصــل اســبانى أو برتغالى يسمون الصفارديم ٠

وفى البرتغال ، على الاخص ، واصل الكثير من المتنصرين فى الظاهر (الكونفرسو conversos أو المارانو) ممارسة اليهودية ونقلها فى عزلة بيوتهم ، ووقع أكثر من مائة منهم ضحايا لديوان التفتيش لانهم مرتدون (relapsos) بين عامى ١٥٦٥ و ١٥٩٥ (٤) - ووجد اليهود المتنصرون مكانا قلقا فى الحياة البرتغالية كتابا ، وأساتذة ، وتجارا ، وماليين ، بل ورهبانا وقسيسين ، على الرغم من كل أخطار الكشف عن حقيقتهم . وكان ألمع الأطباء يهودا متخفين ، وفى لشبونة طورت أسرة منديس شركة مصرفية من أعظم الشركات فى أوربا .

وبعد أن اندمجت البرتغال فى أسبانيا (١٥٨٠) ، زاد نشاط ديوان التفتيش البرتغالى ، ففى السنين العشرين التالية أقيم خمسون احتفالا لادانة المهرطقين ، وحكم على ١٦٢ بالاعدام ، وعلى ٢٫٩٧٩ تائبا بالعقوبات التكفيرية ، وأحرق فى لشبونة (١٦٠٣) راهب فرنسسكانى يدعى ديوجودا أسومساو ، يبلغ الخامسة والعشرين ، بعد أن اعترف باعتناقه اليهودية (٥) . وهاجر الى أسبانيا الكثير من المارانو بعد أن وجدوا ديوان التفتيش البرتغالى أشد وحشية من نظيره الأسبانى . وفى ١٦٠٤ ، بفضل رشوة قدرها ١٫٨٦٠٫٠٠٠ دوكاتية دفعوها لفيليب الثالث ، ورشا أقل لوزرائه ، أقنعوا الملك بأن يحصل من البابا كلمنت الثامن على مرسوم يأمر فيه قضاة التفتيش البرتغاليين بأن يفرجوا عن جميع المارانو المسجونين ويفرضوا عليهم عقوبات روحية فقط . فأطلق فى يوم واحد (١٦ يناير ١٦٠٥) سراح ٤١٠ من هؤلاء الضحايا . ولكن مفعول هذه الرشا وأمثالها كان يضعف بمضي الوقت . ولم يلبث الارهاب البرتغالى أن عاد سيرته الاولى عقب موت فيليب الثالث (١٦٢١) . ففى ١٦٢٣ قبض على مائة من « المسيحيين المحدثين » فى بلدة مونتمور أو نوفو . وفى كوامبرا ، مركز المملكة الثقافى ، قبض على ٢٤٧ فى ١٦٢٦ ، وعلى ٢١٨ فى ١٦٢٩ ، وعلى ٢٤٧ فى ١٦٣١ . وخلال عشرين عاما (١٦٢٠ - ٤٠) أحرق ٢٣٠ يهوديا برتغاليا شخصيا ، و ١٦٩ دمية تمثلهم بعد أن هربوا ، و « صولح » ٤٫٩٩٥ بعقوبات أخف (٦) . وفر آلاف المارانو من البرتغال كما فروا من قبل من أسبانيا ، مخاطرين بحياتهم وتاركين ثروتهم خلفهم الى أركان المسكونة كلها .

والتمست الكثرة العظمى من منفيين الصـــفارديم ملاذا فى بلاد المسلمين ، وكونوا أو انضموا الى مستوطنات يهودية فى شمال أفريقية وسالونيك ، والقاهرة ، والآســـتانة ، وأدرنة ، وأزمير ، وحلب ، وايران . فى هذه المراكز تعرض اليهود لقيود سياسية واقتصادية ، ولكن ندر أن تعرضوا لاضطهاد بدنى . وبلغ اليهود مكانة مرموقة لا بوصفهم اطباء فحسب ، بل مشاركين فى شئون الدولة . من ذلك أن يوســـف ناصي ، أحد المارانو كان مقربا لســـليم الثانى ، وكان بصـــفته دوق ناكسوس (١٥٦٦) يتسلم ايراد عشر جزر فى الأرخبيل(٧) . وكان يهودى ألمانى يدعى سليمان بن ناتان أشكنازى ســـفيرا لتركيـــا فى فيينا فى ١٥٧١ ، ودخل فى مفاوضات هناك لابرام صلح أنهى الحرب حينا مع الباب العالى .

أما فى ايطاليا فان حظوظ اليهود كانت بين صعود وأفول تبعـــا لحاجات الادواق والبابوات وأمزجتهم . ففى ميلان ونابلى ، وكلاهمـا كانت تحكمه أسبانيا ، كادت الحياة تستحيل عليهم ، وفى عام ١٦٦٩ طردهم مرسوم صريح من جميع الممتلكات الاســـبانية . أما فى بيزا وليفورنو (لجهورن) فقد منحهم كبار الأدواق التوسكانيون الحـرية الكاملة تقريبا ، لحرصهم على تنمية تجارة هذين الثغرين الحرين . وصدر فى ١٥٩٣ مرسوم للتجار فى هاتين المدينتين كان فى حقيقتـــه دعوة موجهة للمارانو « نود ألا يقوم أى ... تحقيق دينى ، أو افتقاد ، أو تنديد ، أو اتهام . ضدكم أو ضد أسركم ، حتى ولو كانوا فيما مضى يعيشون خارج أملاكنا متخفين كمســـيحيين ، أو تســـموا بأســـماء المسيحيين (٨) » ونجحت الخطة ، وازدهرت ليفورنو ، واشـتهرت جاليتها اليهودية ــ التى لم تفقها عددا سوى جالبتى رما والبندقيـــة ــ بثقافتها كما اشتهرت بثرائها .

أما مجلس شيوخ البندقية فكان يطرد اليهود المرة بعد المرة خوفا من علاقاتهم بتركيا ، ويسمح لهم المرة بعد المرة بالعودة باعتبارهـــم عنصرا ذا قيمة لا فى التجارة والمالية فحسب بل فى الصناعة أيضـا ، فقد استخدمت المشاريع اليهـــودية فى البندقيـــة أربعـــة آلاف عامل مسيحى (٩) . واستوطنها اليهود الألمان والشرقيون كما اســـتوطنها اليهود الصفارديم ، وبسط مجلس الشيوخ عليهم حمايتـــه من ديوان

التفتيش . وكانوا كلهم تقريبا يعيشون فى حى اليهود ، « الجوديكا »، ولكنهم لم يلزموا بسكناه ، وكان هذا « الغيت ghetto » يضم الكثير من الاسر الغنية ، والبيوت الجميلة ، ومجمعا مؤثثا تاثيثا فاخرا بنى فى ١٥٨٤ ، ثم اعيد بناؤه فى ١٦٥٥ باشراف المعمارى الشهير بلداسارى لونحينا . وكان يهود البندقية الستة الآلاف ارقى ثقافة من أى جالية يهودية فى هذا العصر .

واستقرت فى فرارا حوالى ١٥٦٠ مستوطنة من المارانو القادمين أصلا من البرتغال ، ولكنها شتتت فى ١٨٥١ بامر البابا ، الذى فعل هذا تحت ضغط ديوان التفتيش البرتغالى . وفى مانتوا كان أدواق جونزاجو يحمون اليهود ، ولكنهم يسلبونهم دوريا بالتبرعات و « القروض » ؛ وفى ١٦١٠ أجبر جميع يهود مانتوا على مسكنى حى مسور لليهود تقفل بواباته عند الغروب وتفتح فى الفجر (١٠) . فلما تفشي الطاعون فى مانتوا اتهم اليهود بأنهم هم الذين جلبوه اليها ، وحين استولى جنود الامبراطور على المدينة ابان حرب الوراثة المانتوية ، نهبوا حى اليهود تماما ، واغتصبوا ٨٠٠٫٠٠٠ سكودى جواهر ونقودا ، وأمروا اليهود أن يرحلوا عن مانتوا خلال ثلاثة أيام غير آخذين من مقتنياتهم الا ما يستطيعون حمله (١١) .

اما فى روما ، حيث درج البابوات من قبل على حماية اليهود ، فانهم بعد عام ١٥٦٥ (باستثناء سيكستوس الخامس) اصدروا سلسلة طويلة من المراسيم المعادية لهم . فامر بيوس الخامس (١٥٦٦) جميع السلطات الكاثوليكية بان تطبق تطبيقا كاملا كل ما فرض على اليهود من قيود وحدود دينية . فلا بد منذ الآن أن يقصروا على احياء معزولة عزلا ماديا عن السكان المسيحيين ، وعليهم أن يلبسوا شعارا أو ثوبا مميزا ، ولاحق لهم فى تملك الارض ، ولا فى أن يكون لهم أكثر من مجمع واحد فى أية مدينة . وفى ١٥٦٩ ، بمقتضي مرسوم بابوى اتهم اليهود بالربا ، والقوادة ، والشعوذة ، وفنون السحر ، أمر بيوس الخامس بطرد جميع اليهود من الولايات البابوية فيما عدا مدينتى أنكونا وروما (١٢) . وحرم جريجورى الثالث عشر (١٥٨١) على المسيحيين استخدام الأطباء اليهود ، وأمر بمصادرة الكتب العبرية ، ووجدد (فى ١٥٨٤) الزام اليهود بالاستماع الى مواعظ هدفها هدايتهم

الى المسيحية . وأنهى سيكستوس الخامس هذا الاضطهاد بعض الوقت ، ففتح حى اليهود (١٥٨٦) ، وسمح لليهود أن يسكنوا أنى شاءوا في الولايات البابوية ، واعفاهم من ارتداء أى شارة أو لباس مميز ، وأذن لهم بطبع التلمود وغيره من المؤلفات العبرية ، ومنحهم حرية العبادة كاملة ، وأمر المسيحيين بان يعاملوا اليهود ومجامعهم بالاحترام والرأفة (١٣) . ولكن هذه البابوية المسيحية كانت قصيرة الأجل ، فقد جدد كلمنت الثامن مرسوم الطرد (١٥٩٣) . وما حل عام ١٦٤٠ حتى كان جميع يهود ايطاليا تقريبا يسكنون الغيت ، فاذا بارحوه كان عليهم أن يلبسوا شارة تدل على سبطهم ، وحرموا من الاشتغال بالزراعة أو الانتماء الى الطوائف الحرفية . وقد وصف مونتينى أثناء جولته في روما عام ١٥٨١ كيف كان اليهود في السبت يلزمون بارسال ستين من شبابهم الى كنيسة سانتانجيلو فى بسكيريا ليستمعوا الى عظات تحضهم على اعتناق المسيحية (١٤) . وقد شهد جون ايفلين احتفالا كهذا فى روما (٧ يناير ١٦٤٥) ، ولاحظ أن « الاهتداء أمر نادر جدا » وكان كثير من خصائص اليهود المنفرة ، سواء البدنية والخلقية ، نتيجة لطول الحبس والذل والفقر .

أما فى فرنسا فقد كان اليهود من الناحية النظرية خاضعين لجميع القيود التى طلب بيوس الخامس فرضها عليهم ، أما من الناحية الفعلية فقد اكسبتهم أهميتهم فى الصناعة والتجارة والمالية تسامحا صامتا . وقد أكد كولبير فى أحد اوامره المزايا التى تحصل عليها مرسيليا من مشروعات اليهود التجارية (١٥) . واستقر لاجئو المارانو فى بوردو وبايون ، وبلغ اسهامهم فى الحياة الاقتصادية لجنوب غربى فرنسا مبلغا حمل السلطات على السماح لهم بممارسة شعائرهم اليهودية فى تخف يقل شيئا فشيئا . ولما غزا جيش من المرتزقة بوردو فى ١٦٧٥ ، خشى مجلس المدينة أن يعطل نزوح اليهود المرتاعين فى أعداد كبيرة عن المدينة ثراءها ، فبدونهم ـ كما قال ناظر ملكى فى تقريره ـ ستخرب لا محالة تجارة بوردو والاقليم بأسره (١٦) » . وبسط لويس الرابع عشر حمايته على الجالية اليهودية فى متز ، فلما عذب القضاة المحليون يهوديا حتى الموت (١٦٧٠) لاتهامه بقتل طفل قتلا طقسيا أدان الملك اعدام الرجل قائلا انه جريمة قتل ارتكبها القضاء ، وأمر

بأن تعرض بعد ذلك الاتهـامات الجنائيـة لليهـود على المجلس الملكى (١٧) . وقرب ختام حكم لويس ، حين افضت حـرب الوراثة الاسبانبة بالحكومة الفرنسية الى شفا الافلاس ، وضع المالى اليهـودى صموئيل برنار نروته تحت تصرف الملك ، ودان الملك المتكبر بالشكر المعونه « أعظم مصرفى فى أوربا (١٨) » .

٢ ـ أورشليم الهولنـدية

لعبت هجرة اليهود من أسبانيا والبرتغال دورا (مبالغا فيـه احيانا) (١٩) فى انتقال الزعامة التجـارية من هاتبن الدولتين الى الأراضي المنخفضة . هناك قصد اليهود المنفيون أنتـورب أولا ، ولكن فى ١٥٤٩ أمر شارل الخامس بأن يطـرد من الأراضي المنخفضـة كل المارانو الذين دخلوها من البرتغال فى السـنوات الخمس الاخيرة . والتمس عمد أنتورب الاستثناء من هذا المرسوم ، ولكنه نفذ ، واستانف المهاجرون الجدد بحثهم عن وطن يلجأون اليه . وفقدت أنتورب تفوقها التجارى لا نتيجة لهذه الهجرة الجزئيـة ، بل للخطـوب التى ألمت بالمدينه فى حرب التحرير ومعاهدة وستفاليا ، التى أقفلت السلب فى وجه الملاحة .

واجتذبت حرية العبادة فى الاقاليم المتحـدة ، تلك الحـرية المتزايدة رغم ما شابها من نقص ، اليهود الى المدن الهولنـدية ـ الى لاهاى ، وروتردام ، وهارلم ، وأهم من ذلك كله امستردام . هنـاك ظهر يهود المارانو فى ١٥٩٣ ، وبعد أربع سنين افتتحوا مجمعا لهم . وكانت العبرية لغة عبادتهم ، والاسبانية أو البرتغالية لغتهم فى حياتهم اليومية . وفى ١٦١٥ ، وبعد تقرير وضعه هوجو جروتيوس ، أقرت سلطات المدينة رسميا وجود الجالية اليهودية ، ومنحتها حرية العباده، ولكنها منعت اليهود من التزاوج مع المسيحيين ومن التهجم على الدين المسيحى (٢٠) ، ومن هنا هذا الذعر الذى استولى على رؤساء المجمع حين مست هرطقات أوريل أكوستا وباروخ سـبينوزا أسس العقيـدة المسيحية .

وكان من بين اليهود نفر من أغنى التجار فى الثغـر المزدهـر وكانوا يدبرون قسما هاما من التجارة الهولندية مع شـبه الجـزيرة

الاسبانية ، ومع جزر الهند الشرقية والغربية . وفى احدى المناسبات ، فى زفاف فتاة يهودية ، كان اربعون من الضيوف يمتلكون ثروات جملتها أربعون مليون فلورين (٢١) . وفى ١٦٨٨ ، حين كان رئيس الدولة وليم الثالث يخطط لحملته التى قام بها ليظفر بتاج انجلتره ، أقرضه اسحاق سواسو - فيما روى - مليـونى فلورين دون فائدة قائلا « اذا حالفك الحظ ستردها الى ، والا فانى راض بأن أخسرها (٢٢) » .
وكان بعض هذا الثراء لافتا للنظر فوق ما ينبغى ، مثال ذلك أن داود بنتو اسرف فى تزيين بيته اسرافا حمـل السـلطات المدنيـة على توبيخه (٢٣) ، على أننا يجب أن نضيف أن آل بنتو تصدقوا بالملايين على مشروعات البر اليهودية والمسيحية (٢٤) . وكان من وراء هـذه الواجهة الاقتصادية حياة ثقافية نشطة ، حفلت بالعلمـاء والأحبـار والأطباء والشعراء والرياضيين والفلاسـفة . وكانت المدارس توفـر التعليم ، وأصدرت مطبعة عبرية أسسها منسي بن اسرائيـل فى ١٦٢٧ عددا كبيرا من الكتب والنشرات ، وسوف تكون أمستردام طوال القرنين التاليين مركز التجارة اليهـودية فى الكتب . وفى ١٦٧١ - ٧٥ دلت الجالية البرتغالية - اليهودية على ثرائها بتشييد المجمع البـديع الذى ما زال أحد معالم امستردام ، وقيل ان المسيحيين ساهموا فى تكريمه . لقد كانت لحظة سعيدة فى حياة اليهود المحدثين .

على ان هذه الشمس كان يشوبها الكلف . فحوالى سـنة ١٦٣٠ وفد اليهود الأشكنازيم (أى الشرقيون ×) على أمستردام من بولنده والمانيا . وكانوا يتكلمون لهجتهم الألمانية ، وأنشأوا مجمعا خاصا بهم ، وتكاثروا سريعا ، وأثاروا الكثير من العداء بين يهود الصفارديم ، الذين كانوا فخورين بما يزوهم به من لغة ، وثقافـة ، ولباس ، وثروة ، ونظروا الى التزاوج مع اليهود الاشكنازيم كانه مروق عن الدين . وتكون داخل جماعة الصفارديم انقسام طبقى ، فكان صغار الحرفيين والفقراء

× يظهر لفظ « اشكنازى » لاول مرة فى الاصحاح العاشر والعدد الثالث من سفر التكوين اسما لحفيد بعيد من أحفاد نوح ، وفى الاصحاح ١١ والعـدد ٢٧ من سفر أرميا اطلق على مملكة فى غرب آسيا ، واطلقه الاحبار فى العصـور الوسطى على المانيا لأسباب نجهلها ، وأصبح لفظ « الاشكنازيم » مرادفا ليهود المانيا ، وبولنده ، وروسيا .

المتكاثرون يندددون بـ « أصحاب الملايين » الذين يسيطرون على سياسة المجمع وموظفيه . وقد ورد فى هجاء معاصر « ان الريال يحل ويربط ، وهو يرفع الجهال الى أكبر المناصب فى المجتمع (٢٥) » . وكان القادة الفكريون - شارل ليفى مورتيرا ، واسحاق أبوآب دا فونسيكا ، ومنسي بن اسرائيل - رجالا ذوى كفاية ونزاهة ، ولكنهم كانوا محافظين بحذر فى شئون السياسة والدين والاخلاق . وأصبحوا متزمتين تزمت الأسبان الذين اضطهدوا أسلافهم ، ومارسوا التفتيش اليقظ عن الهرطقات المحتملة (٢٦) .

وترك منسي بن اسرائيل بصمته على التاريخ بفتح انجلتره لليهود من جديد . ولد فى لاروشيل لأبوين من المارانو وصلا حديثا من لشبونة ، وأخذ الى امستردام فى طفولته ، وانقطع لدرس العبرية والاسبانية والبرتغالية واللاتينية والانجليزية ، واختير وهو فى الثامنة عشرة واعظا لمجمع نيفه شالوم . وقد سر المسيحيين واليهود على السواء بتأليفه « ال كونسليادور » ليوفق بين التناقضات المزعومة فى التوراة . وكان له الكثيرون من المراسلين والاصدقاء المسيحيين - هويت ، وجروتيوس ، وكرستينا ملكة السويد ، وديونيسيوس فوسيوس الذى ترجم كتابه الى اللاتينية ، ورمبرانت الذى حفر صورته فى ١٦٣٦ . وأهم من ذلك أنه أثار اهتمام الحالمين من المسيحيين لأنه بشر بقرب مجىء « مسيا » يحكم الأرض .

ذلك أن منسي كان قبلانيا ومثاليا صوفيا يحلم بقرب العثور على أسباط اسرائيل العشرة المفقودة وتوحيدها ، وبأنهم ربما كانوا الهنود الامريكيين ، وبأن اليهود سيسمح لهم بالعودة الى انجلتره واسكندناوه ، وبأن الارض المقدسة ستعاد عندئذ لاسرائيل فى كل مجد المسيا . وراسله البيورتان من شيعة الملكية الخامسة فى انجلتره ، ومع أن مسيحهم المنتظر لم يكن مسيحه ، فانهم رحبوا بآرائه فى قرب مجىء ملكوت الله . واذ وجد هذا التشجيع فانه نشر (١٦٥٠) رسالة عن تطلعات اسرائيل ، يناشد فيها السلطات أن ترد اليهود الى انجلتره . وقدم لترجمة لاتينية للكتاب بمقدمة موجهة الى البرلمان الانجليزى ، وبين أن عودة اليهود الى وطنهم ميسبقها طبقا لنبوات الكتاب المقدس تشتيتهم فى جميع الاقطار ، ورجا الحكومة الانجليزية أن تعين على

تحقيق هذا الشرط الاولى بقبول اليهود فى انجلتره والسماح لهم بممارسة دينهم وبناء مجامعهم . وأعرب عن أمله فى أن يؤذن له بالمجىء الى انجلتره ليساعد فى تكوين مجتمع عبرى .

وكان كرومويل ميالا لاجابة هذا الطلب ، فقال « ان تعاطفى عظيم مع هذا الشعب المسكين الذى اختاره الله وأعطاه ناموسه (٢٧) ». وبعث اللورد مدلسكس ، ربما ممثلا للبرلمان برسالة اقرار بالجميل وشكر « لأخى العزيز ، الفيلسوف العبرى ، منسي بن اسرائيل » . وزار السفير الانجليزى فى هولنده منسي ، فاستقبل بالموسيقى والصلاة العبريتين (أغسطس ١٦٥١) . ولكن فى أكتوبر أقر البرلمان قانون ملاحة وجه بشكل ظاهر ضد التجارة الهولندية ، وأفضت المنافسة التجارية الى الحرب الهولندية الاولى (١٦٥٢ — ٥٤) ، وكان على منسي أن يتريث حتى تواتيه الفرصة ، وتلقى « برلمان بيربون » (١٦٥٣) بالرضا طلبه المجدد ، وأرسل اليه اذنا بدخول انجلتره فى أمان ، فلما وضعت الحرب أوزارها أيد كرومويل الدعوة ، وفى أكتوبر ١٦٥٥ عبر منسي وابنه البحر الى انجلتره .

٣ — انجلتره واليهود

لم يكن مسموحا لليهود بالعيش فى انجلترة فى الفترة بين طردهم منها فى ١٢٩٠ وتقلد كرومويل السلطة فى ١٦٤٩ .وربما ظهر بعض الباعة اليهود المتجولين فى القرى ، وبعض تجارهم وأطبائهم فى المدن ، ولكن كل ما كان يعرفه الاليزابيثى تقريبا عن اليهود أو يراه فيهم كان مصدره الأقاويل أو المؤلفات المسيحية . من هذين المصدرين استقى مارلو شخصية باراباس وشكسبير شخصية شيلوك .

وظن بعض النقاد (٢٨) أن شكسبير كتب « تاجر البندقيه » استجابة لاقتراح من فرقته بالافادة من عاصفة العداء للسامية التى أثارتها فى انجلترة حديثا قضية رودريجو لوبيز ، الذى أعدم عام ١٥٩٤ لما قبل من محاولته تسميم الملكة اليزابث . وقد ولد لوبيز هذا فى البرتغال لأبوين يهوديين ، وأقام بلندن فى ١٥٥٩ ، وشق طريقه الى التفوق فى مهنة الطب . واستخدمه ايرل ليستر طبيبا له ، فاتهم

مساعدته على التخلص من أعدائه بالسم ، وفى ١٥٨٦ اصبح كبير أطباء الملكة . وقد عالج فيمن عالج ايرل اسكس الثانى ، ولكنه اثار عداءه لأنه إفتي سر علله . وحوالى ١٥٩٠ انضم الى فرانسس والسنجهام فى دسائس مع بلاط اسبانيا ضد دوم أنطونيو ، المطالب بعرش البرتغال ، وتلقى خاتما من الماس قدر يومها بمائة جنيه ، من عملاء فيليب الثانى فيما يبدو . وفى ١٥٩٣ قبض على اسطفان داجاما فى بيت لوبيز بتهمة التآمر على أنطونيو ، وقبض على آخرين ، واتهمت بعض الاعترافات لوبيز بالاشتراك فى مؤامرة ضد اليزابث . ونزعم انهام الطبيب اسكس ، الذى كان يؤيد انطونيو ، فلما وضع لوبيز على دولاب التعذيب ، اعترف بانه تلقى وتكتم عرضا بخمسين ألف دوكاتية ليدس السم للملكة ، ولكنه زعم انه لم يقصد الا لسلب مال ملك أسبانيا . فشنق هو واثنان آخران وافرغت أحشاؤهم وقطعوا أرباعا . وقد أعلن وهو يلفظ أنفاسه انه يحب الملكة ويحب المسيح ، وهو ما أثار احتقار المتفرجين (٢٩) . وأخرج شكسبير ، الميال الى اسكس ، « تاجر البندقية » بعد هذا الاعدام بشهرين ، ولا بد أن كثيرا من المستمعين للمسرحية لاحظوا أن اسم الضحية التى أراد شيلوك البطش بها كان انطونيو .

وقد خفف انتشار الكتاب المقدس ، الذى عجلت به ترجمة الملك جيمس ، من حده العداء لليهود لأنها وثقت معرفة انجلترة بالعهد القديم. وتغلغلت أفكار العبرانيين القدماء ومشاعرهم فى فكر البيورتان وعباراتهم . وبدت لهم حروب اليهود صورة سابقة لحروبهم مع تشارلز الاول ، وكان يهوه رب الجنود – على نحو ما – أنسب لحاجاتهم من ملك السلام الذى جاء وصفه فى العهد الجديد . ورسم الكثير من الكتائب البيورتانية أسد يهوذا على راياتهم ، وسار أعوان كرومويل « ذوو الجوانب الحديدية » الى المعركة وهم يتغنون باغانى كتابية . واذ قبل البيورتان ادب التوراة الرائع على أنه كلمة الله بحذافيرها ، فانهم أحسوا بانهم مضطرون الى الاعتراف باليهود مختارين من الله ليكونوا المتسلمين المباشرين لوحيه ، وأخبر واعظ منهم شعب كنيسته أن اليهود ينبغى أن يظلوا مكرمين باعتبارهم مختارى الله ، وسمى بعض جماعة « المسوين » انفسهم يهودا (٣٠) . وشعر كثير من البيورتان أن تأكيد المسيح الصريح لناموس موسي يرجح رفض بولس اياه ، وحملوا جميع

المسيحيين المتمسكين بالكتـــاب المقدس على الالتزام بممارســـة ذلك الناموس . واقترح احد قادة البيورتان ، وهو اللواء توماس هاريسون ، وكان من الصق مساعدى كرومويل به ، جعل الشريعة الموسوية جزءا من القانون الانجليزى (٣١) . وفى ١٩٤٩ قدم مشروع قانون لمجلس العموم بتغيير يوم الرب من الاحد الوثنى الى السبت اليهودى . فالانجليز أيضا هم الآن ـ فى زعم البيورتان ـ شعب الله المختار .

وكانت جماعة صغيرة من المارانو سكنت لندن على عهد جيمس الاول (١٦٠٣ ـ ٢٥) . وكانوا أول الأمر يتخلفـون الى الصـــلوات المسيحية ، ولكنهم بعد ذلك لم يعبأوا باخفاء ولائهم لليهودية . وشارك الماليون اليهود امثال انطونيو كارفاجال فى تلبيـــة حاجات البرلمان الطويل والجمهورية للمال (٣٢) . فلما تقلد كرومويل السلطة استخدم التجار المارانو مصادر للمعلومات الاقتصادية والسياسية المتصلة بهولندة وأسبانيا ، ولاحظ فى شيء من الحسد ما أصابته التجارة الهولندية من توفيق يرجع بعضه الى تدفق اليهود وعلاقاتهم الدولية .

وبعد أن وصل منسي بن اسرائيل الى انجلترة بقليل اســـتقبله كرومويل ، ووضع مسكنا فى لندن تحت تصرفه . وقدم منسي ملتمسا ، ونشر عن طريق الصحف « اعلانا » بالمبررات الدينيـــة والاقتصـــادية الداعية للأذن اليهود بدخول انجلترة . وبين السبب فى أن اليهـــود اضطرتهم القيود القانونية ، وعدم أمنهم المادى والمالى ، الى الزهد فى الزراعة والاقبال على التجارة . وأشار الى أن يهود أمستردام يرتزقون من الاستثمار فى التجارة لا من اقراض المال ، وأنهم لا يتعاملون بالربا بل يضعون أموالهم السائلة فى مصارف ويقنعون بفائدة قدرها خمسة فى المائة على ودائعهم . ودلل على انعدام أى اساس للأسطورة التى زعمت أن اليهود يقتلون الاطفال المسيحيين ليستعملوا دمهـم فى الشـــعائر الدينية . وأكد للمسيحيين أن اليهود لا يبذلون محاولات ليفتنوا الناس عن دينهم . واختتم بطلب السماح لليهود بدخول انجلترة ، شريطة أن يقسموا يمين الولاء للملكة ، وبأن يمنحوا الحرية الدينية ، والحماية من العنف وأن يقضي أحبارهم وقوانينهم فى خلافاتهم دون اضرار بالقانون والمصالح الانجليزية .

وفى ٤ ديسمبر ١٦٥٥ ، جمع كرومويل فى هوايتهول مؤتمرا من الفقهاء وكبار الموظفين ورجال الدين للبحث فى قبول اليهود • ودافع هو شخصيا عن الفكرة بقوة وفصاحة ، مؤكدا الجانب الدينى والاقتصادى اذ لا بد من تبشير اليهود بالانجيل الطاهر ، ولكن « انستطيع تبشيرهم اذا لم نحتمل عيشهم بين ظهرانينا (٣٣) ؟ » ولم تلق حججه تعاطفا كثيرا • وأصر رجا لالدين على أن لا مكان لليهود فى دولة مسيحيه واعترض ممثلو التجارة بأن التجار اليهود سينتزعون التجارة والثروة من أيدى الانجليز • وقرر المؤتمر أن اليهود لا يستطيعون المقام فى انجلترة « الا بأذن خاص من سموه (٣٤) » •

لقد كان الرأى العام معاديا لقبولهم عداء طاغيا • وذاعت شائعات زعمت أن اليهود اذا سمح لهم بدخول انجلترة سيحولون كتدرائية القديس بولس الى مجمع يهودى • وأصدر وليم برين (١٦٥٥ ـ ٥٦) كتابا سماه « اعتراض موجز » جدد فيه الاتهامات القديمة لليهود بأنهم يزيفون العملة ويقتلون الاطفال ، وكان قد أثار زوبعة قبل ذلك بعشرين سنة بهجومه على المسرح الانجليزى فى كتابه Historiomastix ورد بيورتانى متحمس يدعى توماس كوليز على برين ، ولكنه اضعف حججه بمطالبته باكرام اليهود باعتبارهم شعب الله المختار • ونشر منسي نفسه (١٦٥٦) « دفاعا » ناشد فيه روح الانصاف فى الشعب الانجليزى • وقال أيستطيعون حقا ان يصدقوا «تلك الفريةالعجيبة الرهيبة••• التى تزعمأن اليهود اعتادوا الاحتفال بعيد الفطير، بتخميره بدم بعض المسيحيينالذين قتلوهم لذلك الغرض ؟ » وقال كم من مرة فى التاريخ افترى شهود الزور بمثل هذه التهم أو لم يؤيدها غير اعترافات انتزعت بالتعذيب ، وكم من مرة وضحت براءة اليهود المتهمين بها بعد اعدامهم • ثم اختتم بايمان وحرارة مؤثرين قائلا :

« والى الشعب الانجليزى الاكرم ارفع رجائى المتواضع بان يعيدوا قراءة حججى دون تحيز ، ••• مسلما نفسي تماما الى فضلهم ورضاهم، متضرعا الى الله بحرارة أن يتفضل ويعجل بالوقت الذى وعد به (النبى) صفنيا ، يوم نخدمه تعالى جميعا برأى واحد ، وبطريقة واحدة ، ويكون لنا كلنا رأى واحد ، وانه بما أن اسمه واحد ، فكذلك تكون مخافته واحدة ، ونرى جود الرب (تبارك اسمه الى الابد) وتعزيات صهيون (٣٥) » •

ولكن الدعاء لم يكسب الشعب الانجليزى ، ولم يظفر منسي بقبول رسمي لليهود . وطرح كرومويل المشكلة جانبا فى غمرة جهوده لحماية حكومته وحياته ، ولكنه أجاز منسي بمعاش سنوى قدره مائة جنيه (لم يدفع قط) من الخزانة العامة . وفى سبتمبر ١٦٥٧ مات ابن منسى . وأعانته منحة من حامى الجمهورية على نقل جثة ولده الى هولنـــده لدفنها ، ولكن « الرسول المبعوث الى انجلترة » مات فى مدلبــورج فى ٢٠ نوفمبر بعد أن أعياه السفر وهده الحزن ، غير مخلف من المال ما يكفى لتشييع جنازته .

على أنه فى واقع الامر لم يفشل فى مهمتـــه . كتب ايفلين فى « يوميته » تحت يوم ١٤ ديسمبر ١٦٥٥ « الآن قبل اليهود » لم يبح عودتهم الى انجلترة شرعا أى مرسوم من حامى الجمهورية ، أو قانون من البرلمان ، ولكن اعدادا متزايدة دخلت بموافقة كرومويل الصامتة . وفى ١٦٥٧ سمح ليهود لندن ببناء مقبرتهم الخاصة بوصفهم يهـــودا لا مسيحيين ، وما لبثوا أن افتتحوا مجمعا ومارسـوا شـــعائرهم فى هدوء . فلما عادت الملكية الى انجلترة ، تذكر تشارلز الثانى الدعـــم المالى الذى تلقاه فى منفاه بهولندة من منديس دا كوســـتا وغيره من العبرانيين ، وأدرك المنافع التى حصلت عليها انجلترة من المشروعات التجارية التى اضطلع بها يهود لندن ، فاغضي عن المزيد من الهجـرة اليهودية لانجلترة . وواصل وليم الثالث هذا الموقف المتسامح وهو يذكر كذلك معونة اليهود ، وذلك برغم شكاوى التجار ورجال الدين الانجليز المتكررة . واكتسب سليمان مدينا أول لقب فروسية يهودى بخـــدماته متعهدا للجيش لوليم الثالث وملبره (٣٦) . وما أقبلت سنة ١٧١٥ حتى كان السماسرة اليهود يعملون فى سوق لندن المالية ، والماليون اليهــود قوة صغيرة فى البلاد . وفى عام ١٩٠٤ احتفـــل اليهـــود الانجـليز بالذكرى الثلاثمائة لمولد منسي .

٤ ـ الأشـــكنازيم

فى سنة ١٥٦٤ كانت بقية لا يستهان بها من المستوطنات اليهودية باقية فى المانيا لا سيما فى فرانكفــورت ـ أم ـ مين ، وهامبـــورج ، وفورمز ، برغم الحملات الصليبية الوسيطة ومئات التقلبات . غير أن

حركة الاصلاح البروتستنتى لم تكن قد خففت من تلك الكراهيـــة التى احس بها المسيحيون نحو شعب غريب لم يستطع أن يقبل المسيح عـلـى أنه ابن الله ، بل زادتها حدة . ففى فرانكفورت حرم على اليهود أن يبرحوا حيهم الا لأمر عاجل ، ولم يكن مباحا لهم استضافة زوار من خارج المدينة دون علم القضاة ، وكان عليهم أن يضعوا على ملابسـهم شعارا أو لونا خاصا ، وأن تحمل بيوتهم علامات مميزة كثيرا ما كانت غريبة قبيحة المنظر . وقد اشترت رشوة موظفى المدينة أحيانا الاعفاءات من هذه القيود المذلة ، ولكن عداء أفراد الشعب البسطاء كان خطرا دائما يتهدد حياة اليهود وممتلكاتهم . مثال ذلك ما حدث فى سبتمبر ١٦١٤ حين اقتحم جمع مسيحى باب حى اليهود بينما كان معظـم يهـود فرانكفورت يقيمون الصلاة ، وبعد أن اسـتمتعوا بليـلة من النهب والتدمير ، أجبروا ١٣٨٠ر١ يهوديا على مبارحة المدينة دون أن يحملوا من المتاع الا ما على أجسادهم من ثياب . واطعمت عدة أسر مسيحية اللاجئين وآوتهم ، والزم رئيس أساقفة مينز بلدية فرانكفورت بردهم لبيوتهـم ، وتعويضهم عن خسائرهم ، وشنق زعيم الغوغاء (٣٧) . وبعد سنة قامت حركة مماثلة فى فورمز ، فطردت اليهود من المدينة وانتهكت حرمـة مجامعهم ومدافنهم ، ولـكن رئيس أسـاقفة فورمـز وأمير هسي - دارمشتات قدما الملجأ للمنفيين ، وبسط عليهم ناخب بالاتين حمايته فى رجوعهم . ويمكن القول عموما ان كبار الاكليروس وافراد الطبقـات العليا كانوا مبالين للتسامح ، ولكن صغار الاكليروس وجماهير الشعب كان من السهل اثارتهم واشعال نار الحقد فى نفوسهم . وكانت القيود القديمة - حتى بعد تخفيفها - مصـلتة أبدا فـوق رءوس اليهـود ، واحتمالات الاهانة والأذى ماثلة فى أى يوم . وكان بعض المسـيحيين الغيورين يخطفون الاطفال من فوق صدور أمهاتهـم ويعمـدونهم بالاكراه (٣٨) . حقا لولا الجهل لما كان للتاريخ وجود .

وتركت حرب الثلاثين يهود ألمانيا فى سلامة نسبية . فقد استغرق البروتستنت والكاثوليك فى قتل بعضهم البعض استغراقا كاد ينسيهم أن يقتلوا اليهود ، حتى ولو كانوا أقرضوهم مـالا . وكان الامبراطـور فرديناند الاول قد فرض لوائح ثقيلة على يهود النمسا ، وطردهـم من بوهيميا (١٥٥٩) ، ولكن فرديناند الثانى حماهم ، وسمح لهم بأن

حبنوا مجمعا فى فيينا الكاثوليكية وأن يخلعوا شعاراتهم ، وأباح رجوع اليهود الى بوهيميا . وتعهد يهود بوهيميا بدفع أربعين ألف جولدن كل عام اسهاما منهم فى القضية الامبراطورية فى تلك الحـــرب الكبيرة . ورغبة فى تهدئة خواطر المسيحيين الذين تذمروا من سياسة فرديناند الثانى المتسامحة ، أمر (١٦٣٥) بان يستمع يهود براغ كل أحد للعظات المسيحية ، وفرض الغرامات عقابا للتهرب أو النوم أثناء العظات .

واتسعت المستوطنات العبرية فى المانيا بسرعة بعد صلح وستفاليا. فقد سوات فظائع الحرب الى حد ما سمعة التعصب والاصطهاد . وأقبل مئات اليهود من بولنده بعد المذابح المنظمة التى تلت ثورة القوزاق التى نشبت فى ١٦٤٨ . وفيمـــا بين عامى ١٦٧٥ و ١٧٢٠ كان يختلف الى أسواق ليبزج من التجار اليهود كل سنة ٦٤٨ تاجرا فى المتوســـــط . واستعان الامراء الالمان بالمهارة اليهودية فى ادارة مالياتهم وتنظيـــم تموين جيوشهم وقصورهم . مثال ذلك أن صموئل أو بنهايمر أشرف على المالية الامبراطورية خلال الحملات التى اختتم بها القرن السابع عشر ، وأشرف سمسون فرتايمر على القوميسارية الامبراطورية فى حرب الوراثة الاسبانية . وكان من أثر نفوذ الامبراطورة مارجريت تريزا ، الاســـبانية المولد اليسوعية الروح ، على زوجها ليوبولد الاول انه أمر بنفى اليهود من النمسا ، ولكن الناخب الأكبر فردريك وليم رحب بكثير من المنفيين فى براندنبورج ، ونمت الجالية اليهودية فى برلين حتى غدت من أكبر الجاليات فى أوربا .

ومنذ القرن الثانى عشر كان يهود وسط أوربا يطورون لهجتهـم « البيدية Yiddish » المؤلف معظمها من ألفاظ ألمانية مع اضافات عبرية وسلافية ، والمكتوبة بأحرف عبرية . وواصل اليهود المتعلمون دراســة العبرية ، ولكن المطبوعات العلمانية التى نشرها الاشكنازيم أصـــبح معظمها باليبدية . وظهر أدب بيدى ، غنى بالفكاهة المرة والعاطفـــة البيتية ، فى قصص شعبية منقولة عبر القرون والحدود ، وفى تمثيليات قصيرة Purimspiele لمهرجان الربيع المرح ، وفى أمثال من الحكمة البسيطة (كقولهم « أب واحد يعول عشرة أبناء ، ولكن عشرة أبنــاء لا يعولون أبا واحدا » (٣٩)). وقبل ١٧١٥ لم يكن فى استطاعة هذا الادب أن يفاخر الا بمؤلف مرموق واحد ، هو أيليا بوشر ، وهو عالم

ى العبرية وشاعر باليبدية ، كتب رومانسيات غريبة فى مقطـوعات
ـمانية من الشعر ottava rima وترجم المزامير الى لغة الشعب .
وظهرت ترجمة يبدية للاسفار الموسوية الخمسة فى ١٥٤٤ ، بعد خمسة
عشر عاما فقط من ترجمة لوثر الالمانية للكتاب المقدس ، ونشرت ترجمة
يدية للعهد القديم كله بامستردام فى ١٦٧٦ ـ ٧٩ . لقد كان اليهـود
الألمان فى طريقهم الى زعامة شعبهم الثقافية .

وفى القرن العاشر دخل اليهود بولنده من المانيا وزكوا وتكاثروا
تحت حماية الحكومة رغم المذابح العارضة . وفى ١٥٠١ كان هنا نحو
خمسين ألف يهودى فى بولنده ، وفى ١٦٤٨ نصف مليـون (٤٠) ،
وناصر الاعيان szlachta الذين يهيمنـون على مجلس الأمـة
اليهود ، لأن الملاك تبينوا فيهم كفاية خاصة فى جمع الايجارات وجباية
الضرائب وادارة الضياع ، وكان حكام بولنده فى القرنين السادس عشر
والسابع عشر ، فيما عدا قلة منهم ، من اكثر ملوك زمانهم تسامحا . فاصدر
ستيفن باتورى مرسومين يؤكدان الحقوق التجارية لليهود ، ويدمغـان
تهم القتل الطقسي التى يرمى بها اليهود بانها « افتراءات » قاسـية
لا يسمح بها فى المحاكم البولندية (١٥٧٦) (٤١) . ولكن عداء الشعب
لليهود لم يخف . فلم ينقض عام واحد على هذين المرسومين حتى هاجم
جمع من الغوغاء الحى اليهودى فى بوزنان ، ونهبوا البيوت ، وقتلوا
كثيرا من اليهود . وفرض باتورى غرامة على موظفى المدينة لفشلهم فى
وقف الشغب . وواصل سجسمند الثالث سياسة التسامح الملكى .

وتضافر عاملان لانهاء هذا العهد الذى توافرت فيه حسن نيـة
الحكومة قبل اليهود . أولهما أن التجار الألمان فى بولندة كرهوا منافسة
اليهود لهم ، فاشعلوا ثورات شعبية فى بوزنان وفيلنـو ، حيث هـدم
مجمع لليهود ونهبت بيوت اليهود (١٥٩٢) ، وقدموا للملك ملتمسا
de non tolerandis Judaeis بعدم التسامح مع اليهود (١٦١٩) .
وانصم الى الحملة لوقف التسامح اليسوعيون الذين استقدمهم باتورى
وما لبثوا ان تولوا القيادة الفكرية للكاثوليك فى بولنده . وظفـرت
اتهامات اليهود بالقتل الطقسي باعتراف الحكومة بهـا الآن . ففى ١٥٩٨
عثر فى لوبلن على جثة صبى فى مستنقع ، فاكره ثلاثة يهود بالتعذيب
على الاعتراف بأنهم قتلوه ، ثم شنقوا وانتزعت احشاؤهم وقطعـوا

أرباعا ، وأصبح جثمان الصبى الذى حفظ فى كنيسة كاثوليكية محل الاجلال الدينى • وازدادت المؤلفات المعادية للسامية ضراوة عن ذى قبل •

وفى ١٦١٨ نشر سبستيان ميشنسكى الكراكاوى كتيبا اسمه « من للناح البولندى » اتهم فيه اليهود بقتل الاطفال ، والسحر ، والسرقة ، والنصب ، والخيانة ، ودعا مجلس الامة لطرد جميع اليهود من بولنده• وأثار الكتيب الشعور العام اثارة حملت سجسموند على مصادرته • واتهم طبيب من بولندى الأطباء اليهود بتسميم الكاثوليك بشكل منظم (١٦٢٣) وأمر الملك لاديسلاس الرابع السلطات البلدية بأن تحمى اليهود من الثورات الشعبية ، وحاول التخفيف من عداء المسيحيين لهم بمنع اليهود من السكنى فى الاحياء المسيحية ، أو بناء مجامع جديدة ، أو فتح مدافن جديدة ، دون ترخيص ملكى • والزم برلمان ١٦٤٣ جميع التجار بالا تتجاوز أرباحهم ٧ ٪ ان كانوا مسيحيين ، و٣ ٪ ان كانوا يهودا ، وكانت النتيجة أن المسيحيين أقبلوا على الشراء من اليهود فأثروا وأثاروا مزيدا من الحقد •

وتكاثر اليهود البولنديون برغم الكراهية والقيود والشدائد والفقر وبنوا المعابد والمدارس ، وتناقلوا تقاليدهم وأخلاقهم ونواميسهم التى أعانتهم على الاستقرار ، وصانوا ايمانهم المعزى • ونظم المدارس الأولية معلمون خصوصيون ينقدهم الآباء أجورهم بواقع التلميذ والفترة ، أما التلاميذ العاجزون عن الدفع فان معظم الجاليات اليهودية انفقت على مدرسة خاصة بهم من الاموال العامة • وكان حضور المدرسة الاولية الزاميا على الصبية من السادسة الى الثالثة عشرة • ووفر التعليم العالى فى كلية (يشيبا) يشرف عليها الاحبار • وفيما يلى وصف للنظام بقلم حبر معاصر (١٦٥٣) :

« كانت كل جالية يهودية تعول طلاب الكلية (الباهور) وتمنحهم قدرا من المال كل أسبوع ••• ويكلف كل طالب من هؤلاء الباهور بتعليم صبيين على الأقل ••• فالجالية ذات الخمسين أسرة يهودية تعول ما لا يقل عن ثلاثين من هؤلاء الشباب والصبيان ، فتوفر الأسرة الواحدة الطعام لطالب كلية وتلميذيه ، ويجلس الطالب الى مائدة الأسرة كواحد

من أبنائها ... وندر أن وجد بيت ... لم تدرس فيه التوراه ، أو لم يكن رب البيت ، أو ابنه ، أو صهره ، أو طالب الكلية الذى يتناول الطعام على مائدته ، خبيرا فى الثقافة اليهودية (٤٢) » .

ونحن اذا نظرنا الى تعليم اليهود البولنديون وادبهم من وجهة نظرنا الحديثة والعلمانية ، وجدناهما ربانيين بشكل ضيق ، لانهما بكادان يقتصران على التلمود ، والتوراة ، والقبلانية ، والعبرية ، ولكن لما كان التلمود مشتملا على الشريعة اليهودية اشتماله على الدين والتاريخ اليهوديين ، فقد صلح أداة لضبط الذهن ضبطا صارما متعمقا . وما من ريب فى أن الجاليات المطاردة شعرت بانه لا يولد فيهم القوة على احتمال التعيير والاضطهاد والشدائد والمخاطر المتصلة غير الايمان الدينى الحار ، والدراسة التى تمد جذورها فى تقاليد الشعب اليهودى وعاداته . وقد ظل اليهود البولنديون يعيشون كأنهم فى العصور الوسطى حتى اصبحت الحداثة حديثة بقدر يكفى لاعطائهم الحرية ــ أو الموت .

وجاءهم عام ١٦٤٨ بتذكير رهيب لهم بوضعهم القلق فى العالم المسيحى . ذلك أن الثورة التى تفجرت آنذاك بين القوزاق ضد ملاكهم البولنديين و اللتوانيين وقعت وطأتها على كاهل اليهود الذين كانوا يعملون وكلاء للضياع أو جباة للضرائب . فذبح الآلاف منهم فى بيريياسلاف ، وبيريياتين ، ولوبنى ، وغيرها من المدن ، سواء كانوا يخدمون النبلاء أو لا يخدمونهم . واحتفظ بعضهم بحياتهم اما باعتناقهم مذهب الروم الارثوذكس ، واما بالالتجاء الى التتار الذين باعوهم عبيدا . وقد اشتط غيظ القوزاق المكبوت فاتسم بشراسة لا تصدق . يقول مؤرخ روسي :

« كان القتل مصحوبا بضروب من التعذيب الهمجى : فكان الضحايا تسلخ جلودهم احياء ، أو يمزقون اربا ، أو يضربون بالهراوات حتى يموتوا ، و يشوون على الجمر ، أو يحرقون بالماء المغلى ... على أن أبشع ألوان القسوة أصاب اليهود . فقد حكم عليهم بالأبادة الكاملة ، وكانت أقل علامة على الرأفة بهم تعتبر خيانة . وانتزع القوزاق لفافات الشريعة من المجامع وراحوا يرقصون عليها وهم

يشربون الوسكى . ثم طرحوا عليها اليهود وذبحوهم بغير رحمة . وألقى الاف الأطفال اليهود فى الآبار أو أحرقوا أحياء (٤٣) » .

وروى أن ٦٠٠٠ر٦ يهودى هلكوا فى هذه الثورة فى مدينة واحدة هى نيميروف . وفى تولشيمن حوصر ١٫٥٠٠ر١ يهودى فى حديقة عامة وخيروا بين اعتناق المسيحية أو الموت ، واذا جاز لنا أن نصدق المؤرخ الأخبارى اليهودى فان ١٫٥٠٠ر١ اختاروا الموت . وقيل ان ١٠٠٠٠ر١٠ (؟) يهودى فى مدينة بولونوى قتلهم القوزاق أو أسرهم التتار . ونشبت فى مدن أوكرانية أخرى مذابح منظمة أقل شأنا . ولما تحالف القوزاق مع روسيا بعد أن تصدى لهم الجيش البولندى (١٦٥٤) ، انضم الجنود المسكوفيون الى القوزاق فى قتل أو طرد يهود موجيليف ، وفيتيبسك ، وفيلنو ، وغيرها من المدن التى انتزعت من اللتوانيين أو البولنديين .

وفى ١٦٥٥ خلق غزو شارل العاشر ملك السويد لبولنده مشكلة أخرى لليهود . ذلك انهم ككثيرين من البولنديين قبلوا الفاتح السويدى دون مقاومة ، منقذا لهم من الروس المرهوبين . فلما قام جيش بولندى جديد وطرد السويديين ، ذبح البهود فى جميع أرجاء ولايات بوزنان ، وكاليتس ، وكراكاو ، وبيوتركوف ، فيما عدا مدينة بوزنان ذاتها . وعلى الجملة كانت هذه الكوارث التى منى بها اليهود من ١٦٨٤ الى ١٦٥٨ فى بولنده ولتوانياوروسيا ، حتى عصرنا الحاضر ، ادمى الكوارث فى تاريخ اليهود الأوربيين ، ففاقت فى هولها وضحاياها مذابح الحروب الصليبية ، والموت الاسود . وقد حسب تقدير متحفظ أن ٣٤٫٧١٩ يهوديا ماتوا ، و ٥٣١ جالية يهودية أبيدت (٤٤) . هذا العقد الفاجع هو الذى بدأ هجرة اليهود الجماعية من الاراضي السلافية الى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية ، مما أسفر عن توزيع جديد كامل للسكان البهود على سطح الارض .

وفى بولنده عاد من بقى من اليهود على قيد الحياة الى بيوتهم وأعادوا فى صبر بناء جالياتهم التى دمرت . وأعلن الملك يوحنا كازيمير عن عزمه على تعويض رعاياه اليهود قدر استطاعته عن النكبات التى تحملوها ، فمنحهم مراسيم جديدة بالحقوق والحماية ، واعفاء مؤقتا من الضرائب فى تلك المراكز التى اشتد كربها . ولكن العداء الشعبى

واللاهوتى ظل قائما ، تخفف منه المواساة المسيحية بين الحين والحين. ففى ١٦٦٠ أعدم حبران بالتهمة القديمة التى طالما استنكرها البابوات، وهى تهمة القتل الطقسي ، وفى ١٦٦٣ لقى صيدلى يهودى فى كركاو الموت بتهمة لم تثبت عليه ، وهى أنه كتب هجاء يندد فيه بعبادة مريم العذراء ، وكان موته بالترتيب الهمجى الذى قضت به المحكمة : فبترت شفتاه ، وأحرقت يده ، وقطع لسانه ، وأحرق جسده على الخازوق(٤٥) . وارسل قائد الطريقة الدومنيكية من روما (٩ فبراير ١٦٦٤) رسالة يحض فيها الرهبان الدومنيكان فى كركاو « على الدفاع عن اليهود التعساء ضد كل فرية تفترى عليهم (٤٦) » . وفى لفوف غزا تلاميذ أكاديمية بسوعية حى اليهود ، وقتلوا مائة منهم ، وهدموا البيوت ، وانتهكوا حرمة المحامع (١٦٦٤) ، ولكن الطلبة اليسوعيين فى فيلنو حموا اليهود من الغوغاء محدثى الشغب (١٦٨٢) (٤٧) . وحاول سوبيسكى السمح الكريم (١٦٧٤ - ٩٦) جاهدا أن يطيب خاطر يهود بولنده ، فأكد من جديد حقوقهم المنتهكة ، وحررهم من قضاء السلطات البلدية الخاضعة لعواطف الجماهير ، واستمع فى تعاطف الى المندوبين الذين قدموا التماسات اليهود الى بلاطه . فما اختتم حكمه حتى كان اليهود البولنديون قد أفاقوا ، عدديا ، من ذلك العقد القاسي ، ولكن أهواله ظلت عالقة أجيالا بذاكرة اليهود .

لم يكن فى روسيا ، قانونا ، يهود قبل ١٧٧٢ . وقد أبدى ايفان الرهيب رأيه فيهم فى جوابه على طلب رجاه فيه سجسموند الثانى أن يسمح لليهود اللتوانيين بدخول روسيا للمتاجرة (١٥٥٠) :

« ليس من المناسب السماح لليهود بالمجىء الى روسيا بسلعهم لأن شرورا كثيرة تنجم عنهم . ذلك أنهم يدخلون الاعشاب السامة الى مملكتنا ، ويفتنون الروس عن المسيحية . اذن ينبغى له (أى الملك) الا يعيد الكتابة عن هؤلاء اليهود (٤٨) » .

ولما احتل الجيش الروسي مدينة الحدود البولندية بولوتسك (١٥٦٥) ، أرسل ايفان أوامره بتحويل اليهود المحليين الى المسيحية ، أو اغراقهم . وحين نشبت الحرب بين روسيا وبولنده فى ١٦٥٤ أدهش الروس أن يجدوا مدنا كثيرة فى لتوانيا وأوكرانيا بها

اقسام كاملة آهلة باليهود . فقتلوا بعض هؤلاء « المهرطقين الخطرين »، وأخذوا بعضهم أسرى الى موسكو ، حيث أصبحوا نواة لمستوطنة يهودية صغيرة غير شرعية . وفى ١٦٩٨ تلقى بطرس الاكبر وهو فى هولندة عن طريق عمدة امستردام ، ملتمسا مقدما من بعض اليهود يرجـــونه فيه السماح لهم بدخول روسيا ، وكان جوابه :

« عزيزى ويتسن ، انك تعرف اليهــود ، وتعـــرف أخلاقهـــم وعاداتهم ، وكذلك تعرف الروس . وأنا أعرف الاثنين ، وصدقنى أن الوقت لم يحن للجمع بين القوميتين . فقل لليهود انى شـــاكر لهـــم اقتراحهم ، واننى مدرك كم ستفيدنى خدماتهم ، ولكنى مشفق عليهم ان يعيشوا بين ظهرانى الروس (٤٩) » .

وظلت هذه السياسة الروسية ، سياسة ابعاد اليهود ، معمولا بها حتى الملتمس البولندى الأول (١٧٧٢) .

٥ ـ الهامـات الايمـــان

لابد لكى نفهم عداء المسيحيين لليهود أن ننفذ الى ذهن كاثوليك العصور الوسطى وبروتستنت حركة الاصلاح الدينى . لقد تذكروا صلب المسيح ، ولكنهم لم يتذكروا جموع اليهود العريضة التى استمعت فى فرح الى المسيح ورحبت به فى دخوله أورشليم . وآمنوا بيســـوع ذلك « الممسوح » ، ابن الله ، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يروا فى المسيح ذلك المسيا الذى وعدهم به أنبياؤهم ، والمخلص الذى ســيحررهم من رقهم ويجعلهم من جديد شعبا حرا مرفوع الرأس . وكان عسيرا على المسيحيين ان ينظروا نظرة التسامح الأخوى الى قلة لم تكن وحدانيتهم منافسا بعيدا كوحدانية الاسلام ، بل صرخة حارة ، تسمع من مجامع نتكاثر فى قلب العالم المسيحى ـ « أصغ يا اسرائيل ! الرب الهنـــــا واحد ! » وشعر المسيحيون أن العقيدة السامية المتكبرة هى تحد ماثل أبدا للايمان المسيحى الاسامي ، الايمان بأن ابن الانســـان الذى مات على الصليب هو فى كل الحق ابن الله ، الذى كفرت ذبيحته غير المحدودة عن خطايا الانسان ، وفتحت له أبواب الفردوس . أيمكن أن يكون فى الحياة شيء أثمن وأعظم تشديدا للنفوس من ذلك الايمان ؟

ولكى يحمى مسيحيو أوربا ذلك الايمان حاولوا عزل اليهود بالحواجز الجغرافية ، والقيود السياسية ، والرقابة الفكرية ، والاغلال الاقتصادية . فلم يسمح لهم بالمواطنة الكاملة وبحقوقها فى أى بلد فى أوربا المسيحية قبل الثورة الفرنسية - ولا حتى فى أمستردام . وحيل بينهم وبين الوظائف العامة ، والجيش ، والمدارس والجامعات ، والاشتغال بالقانون فى المحاكم المسيحية . وفرضت عليهم الضرائب الباهظة ، وتعرضوا للقروض الاجبارية ، ولمصادرة ثروتهم فى أى وقت . وأبعدوا عن الزراعة بقيود على ملكية الارض ، وبانعدام الأمن الذى ما برح ملازما لهم والذى أكرههم على وضع مدخراتهم فى النقد او السلع المنقولة . وحرموا من الانضمام للطوائف الحرفية لانها كانت من بعض الوجوه دينية شكلا وهدفا ، واشترطت اليمين والشعائر المسيحية . واذ قصر نشاطهم على الصناعات الصغيرة ، وعلى التجارة والمالية ، فانهم وجدوا أنفسهم مطاردين حتى فى هذه الاشغال بتحريمات خاصة تتفاوت بتفاوت المكان وتتغير فى أى وقت . ففى اقليم حرم عليهم ان يكونوا باعة متجولين ، وفى آخر أن يتجروا فى دكاكين ، وفى ثالث أن يتعاملوا فى الجلد أو الصوف (٥٠) . ومن ثم عاش أكثر اليهود تجارا صغارا ، و باعة متجولين ، أو تجارا فى البضائع المستعملة أو الثياب القديمة ، او خياطين ، أو خداما لمواطنيهم الأغنياء ، أو صناعا يصنعون السلع لليهود . ومن هذه الاشغال ، ومن ذل العيش فى الغيت ، اكتسب فقراء اليهود عاداتهم تلك فى الملبس والحديث ، وحيل التجارة وخصائص الذهن التى مجتها الشعوب الاخرى والطبقات العليا من الناس .

ومن فوق هذه الكثرة المتواضعة كان الاحبار ، والاطباء ، والتجار ، والماليون . وقد لعب نشاط المصدرين والمستوردين اليهود دورا هاما فى ثراء هامبورج وامستردام . وكان جزء على اثنى عشر من تجارة انجلترة الخارجية يمر بايدى اليهود فى النصف الاول من القرن السابع عشر (٥١) . وغلب العنصر اليهودى فى استيراد الجواهر والمنسوجات من الشرق . وانتفع اليهود فى التجارة الدولية من علاقاتهم الأسرية فى مختلف الدول ، ومن اجادتهم للغات ، وكان لهم مسالكهم التى تصلهم منها المعلومات ، فهدتهم بين الحين والحين الى توقعات

نافعة فى السوق المالية (٥٢) . ومكنتهم هذه الاتصالات الأجنبية من تطوير خطابات الاعتماد والكمبيالات . ولم يكن اليهود بالطبع مخترعى الرأسمالية الحديثة ، فقد رأينا ذلك النظام ينمو مستقلا تمام الاستقلال عنهم ، وفى الصناعة أكثر منه فى المالية ، وكان دورهم حتى فى المالية صغيرا اذا قورن بدور آل مديتشي الفلورنسيين ، أو آل جريماليرى الجنويين ، أو آل فوجير الأوجزبورجيين . وكان مقرضو المال اليهود يتقاضون فوائد عالية ، ولكنها لم تكن أعلى مما يتقاضاه المصرفيون المسيحيون الذين يواجهون أخطارا معادلة .

واكتسب الذهن اليهودى ، الذى شحذته الشدائد والظلم والدراسة ، فى التجارة والمالية مقدرة مرهفة على الكسب لم يغتفرها لليهود منافسوهم قط . ولم تر اخلاقيات اليهود فى الثروة أى عيب أو وصمة عار ، شأنها فى ذلك شان أخلاقيات البيورتان . ورأى فيها الاحبار دعامة البر ، وعصب المجمع ، والملجأ الأخير اذا أريد الخلاص من أذى الملوك او الجماهير المضطهدة . ومع ذلك فصحيح انه وجد فى الجاليات اليهودية فى هولنده وألمانيا وبولنده وتركيا رجال جعلوا جمع المال مسرة نفوسهم لا مجرد أداة لحماية شعبهم ، واستعملوا فى جمعه الحيلة أكثر مما استعملوا الضمير ، وأظهروا بنى جلدتهم بذلك المظهر المزعج مظهر الثراء العريض يلوثه الترف الواضح ، ولا تكفر عنه أعمال البر الكبيرة الا جزئيا . ومن حولهم فى الغيت كان ثلث اخوانهم يعيشون فى فقر ، لا يحول دون تصورهم جوعا غير الصدفات (٥٤) .

ولقد عانى دين اليهود كما عانت أخلاقهم من فقر الحياة فى الغيت وانطوائها وهوانها . فالأحبار الذين كانوا فى العصور الوسطى رجالا ذوى شجاعة وحكمة ، أصبحوا فى هذا العصر أتباع صوفية تهرب من جحيم الاضطهاد والفاقة الى جنة الاحلام التعويضية . وقد حل التلمود فى العصور الوسطى محل التوراة روحا لليهودية ، اما الآن فقد حلت القبلانية محل التلمود . وزعم مؤلف فرانكفورتى من كتاب القرن السابع عشر انه كان فى أيامه أحبار كثيرون لم يروا توراة قط (٥٥) . وكان سليمان لوريا (١٥١٠ — ٧٢) علامه عينت هذا الانتقال ، فقد بدأ بالتلمود ، وبنى عليه كتابه « يم شيل سلومو » (بحر سليمان) ، ولكن حتى ذهنه المرهف استسلم آخر الامر للقبلانية ، فقد كانت

« التقليد السرى » لمتصوفة اليهود فى العصر الوسيط ، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا وحيا الهيا مستترا فى رمـزية الاعـداد ، والحـروف ، والألفاظ ، لا سيما فى الحروف التى يتالف منها اسم يهوه الذى لا ينطق به . وكان العالم تلو العالم فى الغيت يضل فى هذه الأوهـام ، حتى لقد صرح أحدهم بان من يهمل حكمـة القبلانيـة السرية يسـتحق الحرم(٥٦) . يقول اكبر المؤرخين اليهود المحدنين انه فى القـرنين السادس عشر والسابع عشر « خنقت القبلانية الطفيلية حياة اليهـود الدينية بجملتها . وكل الاحبار وقادة الجاليات اليهودية تقريبـا ... وقعوا فى شراكها » من أمستردام الى بولنده الى فلسطين (٥٧) .

وكان سند الحياة فى نظر اليهود المشتتين على هذا النحـو ، والذين كثيرا ما كانوا معدمين مفترى عليهم ، هو الايمان بانه فى يوم قريب سياتى المسيا الحقيقى لينتشلهم من وهدة تعاستهم وعارهم ويرفعهم الى مكان القوة والمجد . ومن المؤسف أن نرى كيـف كان دجـال أو متعصب يظهر القرن بعد القرن فيقبله اليهود على انه هذا المخلص الذى طال ارتقابهم له . ولقد راينا فى موضع سابق من هذا الكتاب كيف أن داود روبينى العربى هلل له عبرانيو البحر المتوسط فى ١٥٢٤ على أنه المسيا ، مع أنه هو نفسه لم يدع هذا . وها هو ذا يهودى من أزمير يدعى سبتاى زيفى ، يظهر عام ١٦٤٨ ويزعم أنه الفادى الموعود .

لقد بدا هذا المختار ، من الناحيه الجسمية ، اختيارا جـديرا بالاعجاب . فهو رجل طويل القامة ، حسن التكوين ، مليح الوجه ، له شعر الشاب الصفاردى ولحيته السوداوان (٥٨) « اجتذبته كتـابات سليمان لوريا الى القبلانية ، فاخضع ذاته لنظام صارم من النسك أمـلا فى أن يصبح بهذا جديرا بالتقليد السرى » فى أكمـل اعلانه . فأذل جسده ، وأكثر من الاستحمام فى البحر فى جميع الفصـول ، وغالى فى الاحتفاظ بنظافته حتى لقد احتفل اتباعه برائحة لحمه الزكية . ولم يشعر بميل للنساء ، وقد تزوج فى شبابه الباكر امتثالا للعرف اليهودى، ولكن زوجته ما لبثت أن طلقته لفشله فى أداء واجباته الزوجية . ثم تزوج ثانية ، بنفس النتيجة . والتف الشبان من حـوله ، معجبين بصوته الرخيم وهو يرتل التراتيل القبلانية ، متسائلين أليس هذا قديسا مبعوثا من السماء . وكان أبوه احد جماعة آمنت بقرب مجىء المسيا -

وبان ذلك لن يتجاوز سنة ١٦٦٦ . وسمعهم سبتاى يتنبأون بأن الفداء العظيم سيأتى على يد رجل طاهر النفس شـــديد الورع ، ملم بأسرار القبلانية ، قادر على جمع شمل كل الابرار ليعيشوا فى عصر الســـلام الموعود . وخبل اليه ، بعد أن طهره الزهد ، أنه الفادى الالهى . وكان « الظهر » ، وهو نص فى القبلانية يرجع الى القـــرن الثالث عشر ، قد حدد السنة اليهودية ٥٤٠٨ (١٦٤٨ الميلادية) فاتحه لعصر الفداء . فى تلك السنة أعلن سبتاى أنه المسيا ، وكان آنئذ فى الثانية والعشرين.

وصدقه رهط من مريديه . فادانتهم حاخامية أزمير باعتبـــارهم مجدفين ، ولكنهم أصروا ، فنفوا من المدينة . وانتقل ســـبتاى الى سالونيك ، وهناك اقام احتفالا قبلانيا زوج فيه نفسه للتوراة ، فطرده أحبار سالونيك ، فمضى الى أثينا ، ثم الى القاهرة ، حيث ضم اليه تابعا غنيا يدعى رفائيل شلبى ، ثم انتقل الى أورشليم ، وهناك وقع زهده موقعا طيبا حتى فى نفوس الاحبار . وأوفدت الجالية اليهـــودية فى أورشليم سبتاى ليلتمس المعونة فى القاهرة بعد أن أفقرها انقطـــاع الصدقات من يهود أوكرانيا المنكوبين . فعاد الى أورشليم مصـــحوبا لا بالمال بل بزوجة ثالثة تدعى ساره ، أضفى حسـنها الاشراق عـلى دعاواه وفى غزة - التى مر بها فى طريقه - انضم اليه تابع غنى آخر يسمى ناثان غزاتى ، أذاع أنه هو ذاته ايليا ، ولد من جديد ليقـــوم الطريق أمام المسيا ، وانه لن ينقضي عام حتى يسقط المسيا الســلطان العثمانى ويقيم ملكوت السماوات . وصدقه آلاف اليهـــود ، وأذلوا أجسادهم ليكفروا عن ذنوبهم ويصبحوا جديرين بالفردوس الأرضي . فلما عاد سبتاى الى أزمير ، دخل عام ١٦٦٥ المجمع فى رأس السنة اليهودية ، واعلن نفسه المسيا مرة أخرى . وقبله هذه المرة جمع غفير أخذته نشوة الفرح . فلما رماه حبر عجوز بأنه دجال نفاه ســـبتاى من أزمير .

وانتشر نبأ مجىء المسيا فى أرجاء غربى آسيا فكهرب الجاليـــات اليهودية . وحمل البشرى تجار مصر وأيطاليا ، وهولنده ، والمانيا ، وبولنده ، الى بلادهم ، وخبروا بالمعجزات التى نسبت الى سبتاى فى عدد متزايد . وتشكك بعض اليهود ، ولكن الآلاف صدقوا بعد أن أعدتهم لذلك النبوءات القبلانية والآمال الحارة . لا بل ان بعض المســيحيين

شاركوهم الابتهاج ، وقالوا ان مسيا ازمير هو حقا المسيح المولود من جديد . ذكر هنرى أولدنبرج فى رسالة من لندن الى سبينوزا (ديسمبر ١٦٥٥) أن « كل العالم هنا يتحدث عن شائعة عودة الاسرائيليين المشتتين منذ أكثر من الفى عام الى وطنهم . وقليلون يصدقون الخبر ، وكثيرون يتمنسونه ... فاذا تاكد ، فربمسا أحسدث ثورة فى كل شيء (٥٩) » . وفى أمستردام أعلن أحبار بارزون ايمانهم بسبتاى ، واحتفل فى المجمع بمجىء الملكوت بالموسيقى والرقص ، وطبعت كتب الصلوت لتعلم المؤمنين ضروب التكفير والتراتيل الممهدة لدخول أرض الميعاد . ففى مجمع هامبورج راح العائدون اليهود من جميع الأعمار يثبون ويطفرون ويرقصون وفى أيديهم درج الناموس . وفى بولنده هجر يهود كثيرون بيوتهم وأملاكهم ورفضوا أن يشتغلوا قائلين ان المسيا آت بشخصه سريعا وسيقودهم فى موكب النصر الى أورشليم(٦٠). واتخذ آلاف اليهود أهبتهم للرحيل الى فلسطين ـ كان منهم أحيانا جاليات باكملها ، كجالية افنيون . واقترح بعض المتحمسين فى أزمير، الذين أثار عواطفهم ذلك الولاء العالمى لزعيمهم ، أن توجه الصلوات اليهودية منذ الآن ، لا الى يهوه ، بل الى « ابن الله البكر ، سبتاى زيفى ، المسيا والفادى » (وكذلك كان المسيحيون يصلون للمسيح أو العذراء أكثر مما يصلون لله) . وارسل أمر من أزمير بأن يحتفل منذ الآن بايام الحداد المقدسة عند اليهود أعيادا للفرح ، وبان كل فروض الناموس المضنية ستبطل سريعا فى أمن الملكوت وسعادته .

ويلوح ان سبتاى ذاته انتهى الى الايمان بقواه المعجزة . فاعلن أنه ماض الى الآستانة ، ولعل هدفه كان تحقيق نبوءة غزانى بأن المسيا سيأخذ فى هدوء تاج الدولة العثمانية (بما فيها فلسطين) من السلطان. (على أن بعضهم زعم أن القاضي التركى فى أزمير أمره بالمثول بين أيدى كبار موظفى الدولة فى العاصمة) . وقبل أن يبرح سبتاى أزمير قسم العالم وحكومته بين أخلص معاونيه . ثم انطلق الى الاستانة فى أول يناير ١٦٦٦ وبرفقته نفر من مريديه . وكان قد تنبأ بتاريخ وصوله ، ولكن عاصفة عطلت سفينته . وقلب رفاقه خطاه الحسابى هذا الى برهان جديد على الوهيته ، وقالوا انه أسكت العاصفة بكلمة الهية منه .

وما ان رسا على ساحل الدردنيل حتى قبض عليـــه ، وجىء به الى الاستانة مكبلا بالاغلال ، وزج به فى السجن . وبعد شهرين نقـل الى سجن أرحم فى أبيدوس . وسمح لزوجته أن تلحق به ، ووفد عليه أصدقاؤه من كل فج ليواسوه ، ويقدموا له الولاء ، ويأتوه بالمال . ولم يفقد أتباعه ايمانهم به ، فزعموا ان أوثق النبوءات تنبأت بأن المسيا سيرفض أولا من رؤساء هذا العـــالم ، الذين ســـيوقعون به ألوانا من العذاب والهوان . وتوقع اليهود فى كل أرجاء أوربا الافراج عنه فى أى لحظه ، وأنه سيحقق نبوءات أسعد . وعلق حرفا اسمه الاولان ، س ، ز فى المجامع . وفى أمستردام ، ولجهورن ، وهامبورج ، كادت أعمال اليهود التجارية تتعطل تماما ، فقد اشتد ايمان اليهود هناك بانهـــم عائدون جميعا عما قريب الى الارض المقدسة . وتعرض من أعرب من اليهود عن شكوكهم فى أن سبتاى هو المسيا لخطر الموت كل يوم .

وحير السلطات التركية ذلك الهياج الذى اضطربت له الحيـــاة الاقتصادية لكثير من المجتمعات العثمانية ، ولكن الترك خشوا انهم لو أعدموا سبتاى بوصفه ثائرا ودجالا لعملوا بذلك على تقديسه شهيدا ، ولحولوا حركته الى تمرد يكلفهم ثمنا غاليا ، لذلك قرروا أن يجـربوا حلا سلميا . فأخذ سبتاى الى أدرنه . وهناك اخبر بان امرا قضي بأن يسحل فى الشوارع ويعذب بالمشاعل الموقدة ، ولكن فى استطاعته أن يتفادى هذه النهاية وأن يظفر بأسباب التكريم الكبير فى الاســلام لو اعتنق دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فقبل ، وفى ١٤ سبتمبر مثل أمام السلطان ، وأكد مروقه عن دينه بخلع ملابسه اليهودية وارتداء الزى التركى . وخلع عليه السلطان اسم محمد أفندى ، وعينه حاجبا لبابه براتب كبير . ونالت سارة ، التى اعتنقت الاسلام هى أيضا ، الهدايا الثمينة من السلطانة .

وقوبل نبأ هذا الارتداد بالتكذيب من يهود آسيا واوربا وافريقيا ، ولكن حين تأكد النبأ آخر الامر كاد ينفطر له قلب العالم اليهـــودى . فكاد الحاخام الاكبر فى أزمير يموت خزيا وهو الذى قبل سبتاى بعد تشكك كثير . واصبح اليهـود فى كل مكان أضـــحوكة المســـلمين والمسيحيين . وحاول أعوان سبتاى مواساة أتباعه بأن بينوا لهم أن اعتناقه الاسلام انما هو جزء من خطة ماكرة ليكسب المســـلمين الى

صفوف اليهود ، وأنه عما قريب عائد الى الظهور يهـــوديا والعـــالم الاسلامى كله فى ركابه . وحصل سبتاى على اذن بتبشير يهود أدرنه ، مؤكدا للسلطات التركية أنه سيهدى سامعيه الى الاسلام ، وأصدر فى الوقت نفسه رسائل سرية لليهود قال فيها انه مازال المسيا ، وان عليهم الا يفقدوا ايمانهم به . ولكن لم يبد على اليهود ، لا فى أدرنه ولا فى اى مكان آخر ، أى علامة على قبولهم الاسلام . فلما خاب امل الحكومة العثمانية رحلت سبتاى الى أولسينج فى البانيا ، حيث لا يوجد يهود . وهناك مات المسيا المحطم فى ١٦٧٦ . وظل المؤمنون به نصـــف قرن يواصلون حركته ، ويؤكدون قداســـته ، ويعـــدون بقيامتـه من بين الاموات .

٦ ـ المهرطقـــون

كان الاحبار عليمين بان الدين فى المجتمعات اليهـــودية التى يطوقها أعداء عتاة هو دعامة الحياة ، وحياة الشريعة ، لذلك زهدوا اليهود فى الدراسة العلمانية التى قد تفتح ثغرة للتشكك فى الدين . من ذلك أن يوئيل سركيس ، الحاخام الاكبر فى كركاو ، أدان الفلسفة لانها أم الهرطقة ، و « العاهرة » المهلكة التى قال فيها سليمان « كل من دخل اليها لا يؤوب (٦١) » ورأى حرم أى يهودى فى قضائه يدمـن الفلسفة . وفزع يوسف سليمان ديلميديجو لخلو منهاج الدراسة والقراءة عند اليهود من العلوم ، وكان قد وفد على بولنده (١٦٢٠) من ايطاليا التى مازالت تجيش بحرارة النهضة ، وكتب يقول « ها هى ذى الظلمة تغشى البلاد والجهلة كثيرون ... وهم يقولون ان الرب لا يبتهج بالسهام المشحوذة فى أيدى النحاة والشعراء والمناطقة ، ولا بمقاييس الرياضيين ولا بحسابات الفلكيين (٦٢) » .

وكان ديلميديجو هذا حفيدا بعيدا لايليا ديلميديجو ، الذى كان يعلم العبرية فى أوساط آل مديتشي . وبدأ انحرافاته بتعلم اليونانية كما تعلم التلمود من أبيه ، وكان حاخاما فى كريت ، وحصل على بعض التربية العلمية فى جامعة بادوا التقدمية ، حيث كان جاليليو معلمه المشرف على دراسته ثم امتهن الطب الذى يسر له الرزق وخلع عليـــه إسمه الايطالى ، ولكن العلم ـ لا سيما الرياضـــة ـ ظل يفتنـــه ، وفى

سبيل طلبه نفض عنه بعض ايمانه الدينى ، وتغيير الاهاب القديم على هذا النحو يخلف جلدا حساسا ، وقد يزعزع الخلق حينا . لذلك راح يوسف يتنقل من بلد الى بلد مقتلع الجذور لا يستقر على حال . وانضم مؤقتا وهو فى القاهرة والاستانة الى شيعة القرائين ، وهم يهود رفضوا التقاليد والتنقيحات الكهنوتية (كالبروتستنت) وتمسكوا بالتـــوراة مصدرا اوحد للاهوتهم . وفى هامبورج وامستردام وجد معلوماته الطبية أشد تخلفا من معلومات الاطباء اليهود هناك ، حتى لقد تحـــول فى سبيل الرزق سنيا ، والتحق بالحاخامية ، واخيرا دافع عن القبـلانية ومات طبيبا مغمورا فى براغ (١٦٥٥) .

أما ليو بن اسحاق مودينا فكان انسانا أكثر رهافه وعمقا . اتخذ اسمه الايطالى من المدينة التى هاجرت اليها اسرته عند طرد اليهود من فرنسا . وكان اعجوبة بين الاطفال ، فقرأ الانبياء فى الثالثة ، ووعظ فى العاشرة ، والف اول كتبه المنشورة فى الثالثة عشرة . والكتاب حوار ضد القمار ، الذى كان ليو حجة فيه ، لانه ظل وفيا له الى نهـــاية حياته . وكان أعظم مقامراته زواجه فى ١٥٩٠ وهو فى التاسعة عشرة . أما أبناؤه الثلاثة فقد مات أحدهم فى السادسة والعشرين ، وقتل الثانى فى عراك ، انصرف الثالث الى حياة الفجور ثم اختفى فى البرازيل . وماتت احدى بنتيه وهو حى ، أما الاخرى فبعد أن فقدت زوجهـــا أصبحت عالة على أبيها الذى اصيبت زوجته بالجنون . ووسط هـــذه الصدمات حرم ليو لتماديه فى لعب الورق . وكتب رسالة تثبت أن الاحبار تجاوزوا الناموس فى قرارهم ، الذى عدلوا عنه سريعا .

وكان أثناء ذلك قد ملك ناصية أدب التوراة والتلمود الربانى ، ودرس الفيزياء والفلسفة ، وكتب بالعبرية والايطالية شعرا لا بأس به . فلما تبلته الحاخامية فى البندقية ، ألقى خطبا ايطالية كان فيها من العلم والبلاغة ما اجتذب كثيرا من المسيحيين الى سماعه . وكلفه احد أصدقائه المسيحيين ، وكان نبيلا انجليزيا ، بأن يكتب عرضا للشعائر اليهودية . وقد انتهى ليو فى كتابه هـــذا Historia dei riti ebraici

« تاريخ الشـــعائر العبرية » (١٦٣٧) الى أن كثيرا من المراســـم التقليدية التى بعدت الآن عن هدفها الاصلى قـد فقـــدت الكثير من دلالتها . وفى كتاب غفل من اسم المؤلف « قول صقل » اقترح تنقيح

الصلوات والطقوس العبرية وتبسيطها ، والغاء قوانين الصوم ، وخفض عدد الايام المقدسة والتخفيف من صرامتها · وفى هذا الكتاب انتقد اليهودية الربانية لأنها مجموعة من التعقيدات التى لا مبرر لها أضيفت الى الشريعة اليهودية الأصلية ، وطالب بالرجوع من التلمود الى التوراة ، ولكنه مد هرطقاته الى التوراة ذاتها ، بل الى الوحى الموسوى بأكمله · وقد ترك هذا التصريح الثورى دون نشر ، فلما عثر عليه بين أوراقه بعد وفاته (١٦٤٨) ، كان مصحوبا برسالة مرافقة تدافع عن اليهودية السنية · ولم ير أحد الكتابين النور حتى عام ١٨٥٢ · ولو أن ليو اجترأ على نشر « قول صقل » فى حياته ، لبدأت حركة الاصلاح اليهودية نشاطها فى القرن السابع عشر ، ولكنه كان أشد ذكاء من أن يسبق التاريخ ·

أما أشقى المهرطقين اليهود فهو أوريل أكوستا الامستردامى · كان أبوه ينتمى لأسرة من المارانو اقامت فى أوبورتو ولاءمت تماما بين نفسها وبين المذهب الكاثوليكى · وتلقى جابرييل - وهو اسمه فى البرتغال - العلم على يد اليسوعيين الذين روعوه بمواعظهم عن الجحيم، ولكنهم شحذوا ذهنه بالفلسفة الكلامية · فلما درس الكتاب المقدس أثر فيه اعتراف الكنيسة بالعهد القديم كلمة لله ، وقبول المسيح ورسله الاثنى عشر لناموس موسي · وانتهى الى أن اليهودية من الله ، وتشكك فى حق القدس بولس فى سلخ المسيحية عن اليهودية ، وصمم أن يعود الى دين أجداده فى أول فرصة · فاقنع أمه واخوته (وكان أبوه قد مات) بالانضمام اليه فى محاولة للروغان من ديوان التفتيش والهروب من البرتغال · ووصلوا أمستردام بعد أن جازوا مخاطر كثيرة (حوالى ١٦١٧) وهناك غير جابرييل اسمه الى أوريل ، وأصبحت الاسرة اعضاء فى مجمع اليهود البرتغاليين ·

بيد أن هذه الروح ذاتها التى حدت به الى ترك الكنيسة ، روح التقصي والتفكير المستقل ، جعلته قلقا لا يحس بالاطمئنان النفسي داخل عقائد المجمع التى لا تقل صرامة عن عقائد الكنيسة ، فقد صدمه ادمان الاحبار ، حتى احبار امستردام المثقفين ، لسخافات القبلانية الفكرية، فوبخ شركاءه الجدد بجرأة على تلك الطقوس والنظم التى ليس لها اساس ظاهر فى التوراة ، والتى رآها تتعارض احيانا تمام التعارض

مع طرق التوراة . واذ لم يؤت من الحاسة التاريخية الا القليل ، فقد خيل اليه أنه كان خطأ كبيرا أن تتغير الشعائر والمعتقدات اليهودية على مدى تسعة عشر قرنا . وكما رجع قبل ذلك من العهد الجديد الى القديم ، فكذلك طالب الآن بالرجوع من التلمــود الى التــوراة . وكان قد نشر فى ١٦١٦ بهامبورج نشرة برتغالية عنوانها « حجج ضد التقاليد » التى بنى عليها التلمود . فأرسل نسخة منها الى مجمع اليهــود بالبندقية ، فاعلن المجمع حرمه (١٦١٨) ، وطلب الى ليو مودينا ، وهو ذاته مهرطق ، بحكم منصبه فى الحاخامية ، أن يفند دعوى أكوستا بان أوامر الاحبار فى كثير من الحالات ليس لها سند من الاسفار المقدسة . وأنذر أحبار أمستردام أكوستا بانهم هم أيضا سيحرمونه ما لم يعدل عن آرائه ، وكان قد رماهم بالفريسية . فابى ، وضرب بنظم المجمع عرض الحائط جهارا ، فاعلن حرمه (١٦٢٣) ، وهو حرم يقطع كل صلة له باخوانه اليهود ، فتجنبه الآن حتى أقرباؤه . ولم يكن قد تعلم الهولندية بعد ، فوجــد نفسه بغير صديق واحد . وراح الاطفال يرجمــونه بالحجــارة فى الشوارع .

وفى مرارة عزلته تقدم (كما تقدم سبينوزا بعده بقــرن) الى هرطقة هاجمت معتقدا أساسيا لكل شخص تقريبا فى أوربا . فجاهر بأنه برفض الايمان بخلود النفس لأنه غريب جدا على العهد القديم ، فالنفس فى رأيه انما هى الروح الحية المتدفقة فى الدم ، وهى تموت مع الجسد (٦٣) . وحاول طبيب يهودى يسمى صموئيل داسيلفا الرد على آراء أكوستا . فنشر بالبرتغالية « رســالة فى خــلود النفس » (١٦٢٣) وصف فيها أكوستا بأنه جاهل ، عاجز ، أعمى . ورد أوريل بكتاب سماه « فحص للتقاليد الفريسية ... ورد على صموئيل داسيلفا ، المفترى الكذاب » (١٦٢٤) . ورغبة فى حماية الحرية الدينية للجالية اليهودية ، أعلم زعماؤها قضاة امستردام بأن أكوستا بانكاره الخــلود انما يقوض المسيحية كما يقوض اليهودية . فقبض عليــه القضــاة ، وغرموه ثلاثمائة جولدن ، وأحرقوا كتابه . وما لبث أن أفرج عنــه ، ويبدو انه لم يلحق به أذى بدنى .

على أن عقابه كان عقابا اقتصاديا واجتماعيا . ذلك أن اخــوته الصغار أصبحوا معتمدين عليه ، واذن فعلى حريته — المحرمة الآن —

في الدخول فى علاقات اقتصادية مع اخوانه . ولعل هذا السبب ، فضلا عن رغبته في الزواج ثانية ، هو ما دعا أوريل الى أن يقرر الخضوع للمجمع ، وانكار هرطقاته ، وأن يصبح « قردا بين القردة (٦٤) » على حد تعبيره . وقبل انكاره (١٦٣٣) وعاش الشكاك المتحمس حينا فى سلام نسبى . ولكن هرطقاته استمرت فى الخفاء واتسعت . كتب فى فترة لاحقة بقول « لقد خامرنى الشك فى ناموس موسي ، أهو حقا ناموس الله ، ثم انتهيت الى أنه من مصدر بشرى (٦٥) » . ونبذ الآن الدين كله ، اللهم الا ايمانا غامضا باله هو والطبيعة واحد (كما كان ايمان سبينوزا فيما بعد) . واهمل الممارسات الدينية الثقيلة المفروضة على اليهودى السنى . فلما جاءه مسيحيان يعلنان عن رغبتهما فى اعتناق اليهودية ثناهما وحذرهما من النير الثقيل الذى سيضعانه فوق عنقيهما . فأنهيا ذلك الى المجمع . فاستدعاه الاحبار واستجوبوه ، ووجدوه غير نادم ، فاوقعوا عليه الآن حرما آخر أشد صرامة من سابقه (١٦٣٩) . وعاد أقرباؤه نقصونه عن حياتهم ، وشارك اخوه يوسف فى اضطهاده (٦٦) .

واحتمل هذه العزلة سبع سنين ، ثم عرض الخضوع حين وجدها تؤذيه أذى بليغا فى رزقه وأمام القانون . واذ أسخط القادة اليهود طول مقاومته وما جرت عليهم من متاعب ، فقد حكموا عليه بضرب من الانكار والتكفير نقلوه عن ديوان التفتيش البرتغالى (٦٧). فاكره ، على طريقة احتفالات الديوان بادانة المهرطقين ، على أن يرقى منصة فى المجمع ، ويتلو أمام جمهور كبير من المصلين اعترافا باخطائه وذنوبه ، ويتعهد باغلظ الايمان أنه منذ الآن سيمتثل لكل نظم الجماعة ويعيش عيشة اليهودى الصالح . ثم خلعت ثيابه الى خصره ، وجلد تسعا وثلاثين جلدة . وأخيرا أجبر على ان يطرح نفسه على عتبة المجمع ، وخطا من فوقه الحاضرون وهم يغادرون المكان وفيهم أخوه الذى كان يناصبه العداء .

وقام من هذه العقوبة المذلة لا مذعنا بل ناقما ساخطا . فمضي الى بيته ، وأغلق على نفسه باب مكتبه عدة أيام وليال ، وكتب آخر وأمر تنديداته باليهودية التى ضحى بالكثير فى سبيل اعتناقها ، والتى لم يفهم قط فى تعاطف تاريخها الانطوائى ، وصرامتها الواقية التى

فرضتها عليها قرون من الظلم . وفى كتابه هذا « مثال من حياة البشر» فص سيرته الفكرية مثالا على ما يصيب الانسان المفكر . وقد أحس بأن « كل الشرور تنجم عن عدم أتباع العقل الرشيد وقانون الطبيعة (٦٨)» وقابل بين الدين « الطبيعى » والدين الموحى ، وزعم أن هـــذا بعلم الناس البغضاء ، أما ذاك فيعلمهم المحبة . فلما فرغ من مخطوطته ، حشا طبنجتين ، وترصد بجوار نافذته لأخيه يوسف حتى مر ، وأطلق عليه النار فاخطاه (٦٩) . ثم أطلق على نفسه الرصاص (١٦٤٧ ؟) .

وحاول المجتمع اليهودى أن يدفن هذه الفاجعة فى صمت ، ولكن لابد ان بعض أفراده وجدوا نسيانها عسيرا . وكان سبينورا غلاما فى الخامسة عشرة حين أوقع على أكوستا طقس الحرم ، ولعله كان بين جماعة العابدين الذين رأوه يوقع عليه ، ولعله مشى فى رهبة وارتياع فوق جسد المهرطق المطروح أرضا . وعن طـــريق ذلك الفتى ، دخلت رؤيا أكوستا تراث الفلسفة بعد أن تطهرت مما علق بها من سخط (٧٠) .

الكتاب الرابع

المغامرة الفكرية

١٦٤٨ — ١٧١٥

الفصل السابع عشر

من الخرافة الى العلم

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ المعوقات

كانت الطبيعة كما تصورها كل الاوربيين فى القرن السابع عشر ـ فيما عدا قلة قليلة منهم ـ نتاجا ، أو ساحة قتال ، لكائنات خارقة ، خيرة أو شريرة ، تمكن اجساد البشر نفوسا ، أو تسكن الأشجار والغابات والانهار والرياح أرواحا محيية ، أو تدخل الكائنات الحية ملائكة أو شياطين ، أو تجوب الهواء عفاريت خبيثة . وليس من هذه الارواح ما يخضع لقانون لا يمكن خرقه ، أو يمكن حسابه ، فأى روح منها يستطيع أن يتدخل بطريقة معجزة فى حركات الاحجار او النجوم أو البهائم أو البشر ، وكانت الأحداث التى لا تنجم بشكل مرئى عن المسلك الطبيعى أو المنتظم للاجسام أو العقول ، تنسب لهذه القوى الخارقة التى تقوم بدور غامض خفى فى شئون هذه الدنيا ، ينذر بشر أو ينبىء بخير أو يتنبأ بالمستقبل . وكل الاشياء الطبيعية ، وكل الكواكب وسكانها ، وكل الأبراج والمجرات ، ان هى الا جزر لا حول لها ولا قوة فى بحر خارق للطبيعة .

وقد مرت بنا ألوان من الخرافة فى العصور السابقة لهذا القرن . وعمر اكثرها بعد مجىء العلم الحديث على يد كوبرنيق وفيساليوس وجاليليو ، وازدهر بعضها حتى فى نيوتن نفسه ، لقد استمر اضمحلال التنجيم والخيمياء (الكيمياء القديمة) ، ولكن المنجمين كانوا عديدين فى بلاط لويس الرابع عشر (١) ، وفى فيينا « كان هناك عدد هائل من المشتغلين بالخيمياء (٢) » كما روت الليدى مارى ورتلى مونتاجيو فى ١٧١٧ . وكان البريطانيون الاشداء لا يزالون يؤمنون بالأرواح ، ويتطيرون ، ويدفعون ثمنا للطوالع ، ويأخذون أحلامهم على أنها نبوءات ، ويحسبون أيام السعود والنحوس ، أما البريطانيون الأضعف منهم فيلتمسون من الملك ابراء الداء الخنازيرى الذى ابتلوا به بلمسة

منه . وقد ورد فى العدد السـابع من صحيفة « سبكتاتور » وصف للانقلاب الذى يحدثه فى أسرة بريطانية قليل من الملح يتناثر ، أو سكين وشوكة توضعان متقاطعتين على صحن ، أو ثلاثة عشر شخصا يجمعون فى حجرة أو جماعة (ويلاحظ عدم وجود طابق ثالث عشر فى بعض فنادق القرن العشرين) . وفى فرنسا أصبح جـاك ايمير بطل زمانه (١٦٩٢) لأنه كان يستطيع (فى اعتقاد الكثيرين) بشد املود بندق يمسكه بيده ان يكتشف قرب مجرم منه (٣) .

وفى المانيا كانوا يستعملون عصا سحرية لوقف النزف وشـفاء الجروح وجبر العظام (٤) . وفى السويد اتهم شتيرنهيلم بالسحر حين أحرق لحية فلاح بمرآة مكبرة ، ولم ينقذ صاحب التجربة من الموت غير تدخل الملكة كرستينا (٥) .

كان المتشككون فى السحر يتزايد عـددهم ، ولكن الراجح ان المؤمنين به كانوا أكثر منهم بكثير . وكانت حاشية تشارلز الثانى لا تابه كثيرا بأى عفاريت قد تفسد عليهم لهوهم ، ولكن « الكثرة الساحقة » وأبرز المؤلفين بين رجال الدين الانجليز ، كانوا لا يزالون يؤمنـون بأن البشر يستطيعون أن يتحالفوا مع الشيطان فينالوا بهذا التحالف قوى خارقة (٦) . وقد ذهب جوزف جلانفيل ، وهو قس أنجليكانى راجح العقل قوى الاسلوب ، فى كتابه « خواطر فلسفية حول الساحرات والسحر » (١٦٦٦) الى أنه من العجب العجاب أن « رجالا فيهـم ذكاء وحذق فى غير هذا الامر ، يتوهمون أنه ليس هناك شيء اسمه ساحرة أو شبح » ونبه قراءة الى أن شكوكا من هذا النوع تفضي الى الالحاد . كذلك رمى قسيس مشهور آخر اسمه رالف كدورث فى كتابه « نظام الكون الفكرى الصحيح » (١٦٧٩) بالكفر كل من ينكر وجود الساحرات (٧) . وقد دافع أفلاطونى كمبردج ، هنرى مـور ، فى كتابه « ترياق الألحاد » (١٦٦٨ ؟) دفاعا حارا عن قصة « ساحرة » تزوجت الشيطان ثلاثين عاما ، ورآه تجديفا كبيرا أن يتشكك متشكك فى قدرة الساحرات على اثارة العواصف بالتعزيم ، أو ركوب الهواء على مكنسة (٨).

وخف اضطهاد الساحرات تنثيا فشيئا ، ولـكن رجـال الدين

الاسكتلنديين تفردوا بغيرتهم المحرقة . مثال ذلك أن ست نساء فى مدينة ليث عذبن بشتى ضروب التعذيب عام ١٦٥٢ لحملهن على الاعتراف بالسحر ، فعلقن من أباهمهن ، وجلدن ، ووضعت الشموع الموقدة تحت أقدامهن وفى أفواههن التى فتحت عنوة ، ومات أربعة من الستة من التعذيب (٩) . وفى عام ١٦٦١ كان هناك أربع عشرة محكمة تحاكم الساحرات فى اسكتلنده ، وفى ١٦٦٤ أحرق تسع نساء معا فى ليث . واستمرت أحكام الاعدام هذه فى اسكتلندة على نحو متقطع حتى ١٧٢٢ . وفى انجلترة شنقت ساحرتان سنة ١٦٦٤ فى بورى سانت ادموندر ، وأعدمت ثلاث فى ١٦٨٢ ، وعدد غير مؤكد فى ١٧١٢ . وقوضت الحجج التى أتى بها وير ، وسبى ، وهوبز ، وسبينوزا ، وغيرهم ، شيئا فشيئا وهم السحر فى أوساط العلمانيين المثقفين ووقف المحامون والقضاة بدرجة متزايدة فى وجه اللاهوتيين ، ورفضوا الاتهام أو الادانة بالسحر . وفى ١٧١٢ قضت هيئة محلفين من الانجليز البسطاء على جين وينهام بانها مذنبة بالسحر ، ولكن القاضي رفض الحكم عليها ، فندد به رجال الدين المحليون (١٠) ، ولكن لم يعدم أحد بتهمة السحر فى انجلترة بعد ذلك التاريخ . وفى فرنسا حصل كولبير على مرسوم من لويس الرابع عشر (١٦٧٢) بمنع أحكام الادانة بتهمة السحر (١١) . واحتج برلمان روان بان هذا المنع انتهاك للأمر الوارد فى التوراة ، « لا تدع ساحرة تعيش » (خروج ٢٢ — ١٨) ، وأفلح بعض الحكام المحليين فى حرق سبع « عرافات » فى فرنسا فيما بين عامى ١٦٨٠ و ١٧٠٠ ، ولكنا لا نسمع باحكام اعدام بعد ١٧١٨ . واستمر الايمان بالسحر حتى الانتصار المؤقت الذى أحرزته العقلانية فى حركة تنوير القرن الثامن عشر ، ومازال موجودا فى أماكن متفرقة هنا وهناك .

وتعاونت الرقابة والتعصب مع الخرافة على الحد من نمو المعرفة وانتشارها . وفى فرنسا حالت الصراعات التى احتدمت بين الملوك والبابوات ، وبين الكنيسة الفرنسية والبابوية ، وبين الجانسنيين واليسوعيين ، وبين الكاثوليك والهيجونوت — هذه الصراعات حالت دون وحدة الرقابة . وثباتها ودقتها ، وهى الرقابة التى عزلت أسبانيا فى هذا العصر عن حركات العقل الأوربى . ووجد المؤلفون المهرطقون

طرقا للروغان من الرقباء ، ولعل الذكاء الفرنسي قد شـحذته ضرورة التعبير عن الافكار بطريقة تدق على فهم موظفى الرقابة . وفى كولونيا الكاثوليكية فرض رئيس الاساقفة الناخب الرقـابة على الاحاديث أو المطبوعات الدينية . وفى براندنبورج البروتستنتية أمر الناخب الاكبر برقابة دقيقة ليهدىء الصراع الدينى . وفى انجلترة واصلت الحكومة سجن المؤلفين البغيضين وحرق الكتب المهرطقة رغم صدور قانون التسامح (١٦٨٩) (١٢) . على أن تنوع الملل والنحل فى الدول البروتستنتية جعل الرقابة فيها أقل حدوى منها فى الدول الكاثوليكية ، ولعل هـذا بعض السبب فى تفوق انجلترة وهولندة فى العلم والفلسفة فى القـرن السابع عشر .

لقد اتفقت المذاهب المتنافسة على التعصب . وحاجت الكنيسـة الكاثوليكية فى اقناع بانه ما دام كل المسيحيين تقريبا يقبلون الكتـاب المقدس على انه كلمة الله ، وبما أن ابن الله اسس الكنيسـة كما نص الكتاب ، فواضح اذن أن من حقها وواجبها أن تقمع الهرطقة وانتهت المذاهب البروتستنتية الى استنتاج مماثل وان كان أقل تعطشا للدماء . فما دام الكتاب كلمة الله ، فكل من يحيد عن تعاليمـه (حسبما تفسر رسميا) يجب على الأقل أن يقمع ، وأن يكون شاكرا لانه لم يقتـل . واعترفت معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) بمذاهب شرعية ثلاثة فى المانيا : الكاثوليكية ، واللوثرية ، والكلفنية ، وترك كل حاكم حرا فى أن يختار أيا منها ، وأن يفرضه على رعاياه . أما الدول الاسكندنافية فلم تسمح بغير اللوثرية . وأما سويسرة فأباحت لكل ولاية تقـرير عقيـدتها . وافتتحت فرنسا الطريق الى التسامح باصدارها مرسوم نانت (١٥٩٨)، تم طريق العدول عنه بالغاء المرسوم (١٦٨٥) . أما انجلترة فقد خففت بعد ١٦٨٩ من القيود المفروضة على المنشقين من البروتستنت ، واستمرت تفرضها على الكاثوليك ، وأبادت ثلث الكاثوليك فى ارلندة . ووافق العقلانى هوبز البابوات على ضرورة عدم التسامح .

ولكن التسامح كان فى ازدياد . وبدأت الدراسة الناقدة للكتـاب المقدس فى هذا العصر تجعل الناس احرارا فى الاعجاب به أدبا والتشكك فيه علما ، وجعل تعدد المذاهب النظام الاجتماعى أعسر فأعسر بدون التسامح المتبادل . وفى « انجلترة الحديثة » أعلن روجـر وليمـر

(١٦٤٤) أنها « ارادة الله وأمره » أن « تباح لجميع النـــاس ، فى جميع الأمم ، أشد المعتقدات والعبادات وثنية ، أو يهودية ، أو تركية ، أو عداء للمسيح (١٣) » وطالب جون ملتن بـ « النشر دون رخصـــة » (١٦٤٤) ، ودافع جيريمى تيلور عن « حرية التنبؤ » (١٦٤٦) . واجاز جيمس هارنجتن (١٦٥٦) الحرية الدينية بغير حدود فقال : « حيث تكون الحرية المدنية كاملة ، فانها تشتمل على حرية الضمير ، وحيث تكون حرية الضمير كاملة ... فان للانسان حسبما يملى عليه ضميره الحق فى الممارسة الكاملة لدينه دون أن يكون ذلك عائقا لترقيته أو توظيفه فى الدولة (١٤) » . أما فى الدول التجارية مثل هولندة ، وحتى فى البندقية الكاثوليكية ، فقد اقتضت ضرورات التجارة التسامح مع شتى أديان التجار القادمين من بلاد أجنبية . وهولندة المتحررة هى التى نشر سبينوزا فيهـــا فى « الرســـالة اللاهوتيـــة السياســـية » (Tractatus theologico – Politicus) (١٦٧٠) دعوة للتســامح الكامل مع الأفكار المهرطقة ، وفى هولندة دافع بيل عن التســامح فى كتـــابه « تعقيب فلسفى على الآية : ألزمهم بالدخول « (١٦٨٦) ، وبعد سنين من الاقامة فى هولندة نشر لوك كتابه « رسائل فى التسامح » (١٦٨٩). وازدادت المطالبة بالحرية الفكرية عقدا بعد عقد ، حتى اذا بلغ القرن السابع عشر ختامه لا نجد كنيسة تجرؤ على صنع ما صنعته الكنيســة ببرونو فى ١٦٠٠ ، أو بجاليليــو فى ١٦٣٣ « ومع ذلك فهى تـــدور “ Eppur si muove

٢ ـ التعـــــليم

كانت المعرفة تنتشر فى بطء عن طريق الصحف ، والمجـــلات ، والنشرات ، والكتب ، والمكتبـــات ، والمـــدارس ، والأكاديميـــات ، والجامعات . وأصبحت الأنباء فى القرن السابع عشر ســـلعة تبـــاع وتشترى ؛ أولا للمصرفيين ، ثم للحكام ، ثم لأى انسان . وفى ١٧١١ كان مجموع ما وزع من الصحف البريطانية اليوميـــة أو الاســـبوعية ٤٤٫٠٠٠ (١٥) .

وأدركت « الجورنال دى ســافان » (صحيفة العلمـــاء) التى تاسست فى ١٦٦٥ أن الأحداث فى عالم الأدب والعـــلم يمكن أن تكون أيضا أنباء ، فما لبثت أن رسخت اقدامها وسيطا دوليا بين الدارســين

والعلماء والأدباء . ولم تمض سنوات قليلة حتى ظهر لها منافسون ، « الجورنالى دى ليتراتى » فى روما ، (١٦٦٨) ، و « الجورنالى فينيتو » فى البندقية (١٦٧١) و « الاكتـــا ايروديتورم » فى ليبزج (١٦٨٢) . واسس بيل مجلة مشهورة بروتردام فى ١٦٨٤ تسمى « أنباء جمهورية الأدب » ، وبعد عامين بدأ جان لكلير مجلة « المكتبة العالمية» الشهيرة ، وقد احتوت هذه الدوريات على آراء من أهم ما صـــدر عن لوك وليبنتز .

وكان تداول الكتب يزداد بسرعة . ففى ١٧٠١ كان هنــاك ١٧٨ من كبار تجار الكتب فى باريس، منهم ستة وثلاثون طباعا وناشرا (١٦). وكانت المكتبات قديمها وحديثها تجعل كنوزها ميسرة لعـــدد أكبر من القـــراء . وفى عام ١٦١٠ حصـــل السر تومـاس بودلى من « شركة الوراقين » على منحة تحصل مكتبة بودلى التى أنشأها فى أكسفورد (١٥٩٨) بمقتضاها على نسخة من كل كتـــاب ينشر فى انجلترة ، وهكذا أصبحت فى ١٩٣٠ تملك ١٫٢٥٠٫٠٠٠ مجلد . وفى ١٦١٧ قضي مرسوم أصدره لويس الثالث عشر بأن تودع فى المكتبة الملكية (القومية الآن) نسختان من كل مطبوع جديد فى فرنسا . وفى ١٦٢٢ اصـــبح مجموع كتب هذه المكتبة ٦٫٠٠٠ محلد ، وفى ١٧١٥ زاد الى ٧٠٫٠٠٠ ، ومعظم الفضل فى هذه الزيادة يرجع الى غيرة كولبير ، وفى ١٩٢٦ بلغ ٤٫٤٠٠٫٠٠٠ . وأسس ناخب براندنبورج الأكبر مكتبة قومية ببرلين فى ١٦٦١ . وفى ذلك العام أوصي مازاران بمكتبته الثمنية التى ضمت ٤٠٫٠٠٠ مجلد للويس الرابع عشر وفرنسا ، وفى ١٧٠٠ حول حفدة السر روبرت بروس كوتون ملكية المكتبة الكوتونية للمتحف البريطانى . وافتتح توماس تنسن عام ١٦٩٥ بلندن أول مكتبة انجليزية مفتـــوحة لعامة الشعب .

أما التعليم فكان يجاهد لتعويض الخسائر التى تكبدها من جراء الحروب الدينية فى فرنسا ، والحرب الاهلية فى انجلترة ، وحـــرب الثلاثين فى ألمانيا . ولم تعد المدارس والآداب الألمانية الى مكانتها التى بلغتها أيام لوثر ، وأولريش فون هتن ، وملانكتون قبل قرنين ، الا حين جاء ليسنج (١٧٢٩ — ٨١) . فى هذه الفترة ظلت اللاتينية غير الممتازة لغة غريبة مقتصرة على القلة المتعلمة ، فى حين أصبحت الألمانية مجرد

اداة سوقية بعد أن بلغت عنفوانها فى لوثر ، ولم يرق كاتب المانى واحد الى مقام الشهرة الدولية خلال هذا التكفير الطويل عن جيل من حرب التقتيل بين الاخوة . أما النبلاء الالمان ، الذين احتقــروا الحذلقــة اللاتينية للجامعات ، فقد ارسلوا ابناءهم الى « مدارس الفرســان Ritterakademicn » أو كلفوا معلمين خصوصيين ليعدوا الشــباب العريق النسب لما تتطلبه القصور الأميرية من واجبات ولطائف . وفى الطرف الآخر من السلم الاجتماعى نظم أوجست فرانكى ، التقوى ، فى هاله معاهده التى سماها Stiftungen ، وهى مؤسسات خيرية هزأ منها الساخرون ووصفوها بـ « المدارس المهلهلة » ، وظل طوال اثنين وثلاثين عاما (١٦٩٥ ـ ١٧٢٧) يطعم فيها أبناء الفقراء ويكســوهم ويعلمهم . ولم يلبث أن أضاف اليها مدرسة أعلى توفر التعليم الثانوى لألمع فتيانه ومدرسة نظيرها لألمع فتياته . وهذه المدارس كلهــا كانت تخصص نصف وقتها للدين .

ووجدت الروح العلمانية فى المانيا معبرا عنها فى شخص كرستيان توماسيوس . وسنشيد بذكره فيلسوفا فى موضع لاحق ، اما الآن فنراه أعظم المعلمين الألمان فى جيله . فبعد أن طرد من موطنــه فى ليبزج لهرطقاته ، رحل الى هاله فى دولة براندنبورج ـ بروسيا الناهضــة (١٦٩٠) ، وأدت محاضراته هناك الى انشاء الجامعة ، وقد أصبح اشهر أساتذتها ، والمناضل الذى جعل منها أول جامعة « حديثة » . وقد هزأ بالسكولاستيه ، واحل الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم ، واصدر مجلة ألمانية ، وأدخل البرامج العلمية فى المنهج ، وكافح فى سبيل حرية المعلمين والطلاب فى التفكير . ولقبــه فردريك الأكبــر أبا التنوير الألمــانى .

وجعل التعليم الأولى عاما والزاميا للجنسين فى دوقية فورتمبرج عام ١٥٦٥ ، وفى الجمهورية الهولندية عام ١٦٩٨ ، وفى دوقية فيمار فى ١٦١٩ ، وفى اسكتلنده عام ١٦٩٦ ، وفى فرنسا عام ١٦٩٨ ، وفى انجلترة عام ١٨٧٦ . وكان تخلف انجلترة راجعا الى الانتشار الواسع للتعليم الأهلى بفضل الهيئات الدينية الخاصة ، والى شعور الطبقات الحاكمة بان تعليم الفقراء فى النظام الاقتصــادى الســائد آنئذ غير ضرورى بل ربما كان غير مرغوب فيه . وقد بدأت « جمعية تشــجيع

المعرفة المسيحية » فى ١٦٩٩ تنشىء « مدارس خيرية » للأطفال الفقراء، لنشر اللاهوت والتهذيب المسيحيين بصفة خاصة ، واشترط أن يكون مدرسوها كلهم أعضاء فى الكنيسة الانجليزية ، وأن يحصلوا على ترخيص من الاسقف . وندد بهذه المدارس بزنارد ماندفيل ، الذى أحدث ضجة فى ١٧١٤ بكتابه « خرافة النحل » ، وقال انها مضيعة للمال ، وان الآباء اذا كانوا أفقر من أن يدفعوا نفقات تعليم أبنائهم « فان من الوقاحة أن يتطلعوا الى ما فوق قدراتهم (١٧) » .

أما فى فرنسا فقد فرض على كل أبرشية أن تمول مدرسة أولية . وكان المدرس عادة علمانيا ، يختاره الأسقف ويشرف عليه ، وكان التعليم كاثوليكيا لا تهاون فيه . أما « المدارس الصغيرة petites écoles التى أنشأها البور ـ رويال فلم تصل الا لقلة منتقاة من الصبيان . وفى ١٦٨٤ أسس جان باتيست دلاسال « اخوة المدارس المسيحية » ، التى عرفت بعد قليل بالاخوة المسيحيين Frères Chrétièns . وقد جعل لاسال ، ذلك القس الزاهد ، الدين جوهر التعليم الذى وفره هؤلاء « الاخوة المسيحيون » مجالنا لأبناء الفقراء . وخصص للممارسات الدينية أربع ساعات فى اليوم ، واضيفت القراءة والكتابة والحساب ، ولكن الهدف الذى لم يغب عنهم قط كان تدريب الكاثوليك الأوفياء ، وتخليص النفوس من طيش الحياة الدنيا ومن النار الأبدية . ووجد أن الجلد نافع لهذه الأغراض . وكان المعلمون يحضون على التعليم بالقدوة أكثر من المبدأ . وفى ١٦٨٥ افتتح الاخوة المسيحيون مؤسسة لعلها كانت أول مؤسسة حديثة لتدريب معلمى المدارس الأولية .

وظل التعليم الثانوى بفرنسا فى أيدى اليسوعيين ، وكان لا يزال حير تعليم فى البلاد المسيحية . وغيرت كليتهم اليسوعية الواقعة وراء الصوربون مباشرةاسمها الى «كلية لويس الأكبر "Collège Louis -le- Grand" بعد أن حضر الملك مسرحية أخرجها هناك التلاميذ فى ١٦٧٤ . وافتتح لويس الرابع عشر فى ١٦٨٦ ، تحت الحاح مدام دمانتنون ، فى سان ـ سير (على ثلاثة أميال من فرساى) أول مدرسة داخلية فرنسية للبنات . وكانت الاديار توفر التعليم العالى لبنات الصفوة ممن يدفعن نفقاته ، مع التركيز دائما على الدين . وأجمعت السلطات الكاثوليكية

والبروتستنية على أن الطبيعة البشرية تتنافر أشد التنافر مع ضوابط الحضارة بحيث لم يكن سبيل لترويضها على الفضيلة والنظام الا سبيل مخافة الله . وما زالت محاولة تهذيب الخلق دون معونة من الدين فى مرحلتها التجريبية .

اما الجامعات فكانت الآن فى دور الاضمحلال ، وذلك باستثناء الجمهورية الهولندية ، فالمذاهب الدينية المنتصرة تقوم بتطهيرها من المخالفين ، والطلبة المشاغبون ينشرون فيها الفوضي ، والخلافات اللاهوتية تسيطر عليها . وكانت الدرجات الجامعية فى فرنسا والمانيا تباع بالمال . ولم يكن بين أساتذتها أحد من أفذاذ فلاسفة العصر ، الا قلة من كبار العلماء ، وكان هوبز ، وليبنتز ، وبيل ، يتحدثون عن الاساتذة باحتقار لا يختفر ضغوط الجماهير على الموظفين العموميين . وفتحت فى هذه الفترة بعض الجامعات الجديدة : جامعة دويسبرج (١٦٥٥) ، ودرم (١٦٥٧) ، وكيل (١٦٦٥) ، ولند (١٦٦٦) ، وانسبروك (١٦٧٣) ، وهاله (١٦٩٤) ، وبرسلاو (١٧٠٢) . وكان اكثرها مؤسسات صغيرة قل ان زاد أساتذتها على العشرين وتلاميذها على الأربعمائة . وفى معظمها كان المنهج قد تجمد بمرور الزمن ، واشتراطات السنية شلت حركة الطلاب والمعلمين على السواء ، وقد شكا ملتن من أن الجامعات الانجليزية « تسلب الشبان استعمال عقولهم بتعاويذ من الميتافيزيقا ، والمعجزات ، والتقاليد ، والاسفار السخيفة » . وقال انه يشعر أنه ضيع شبابه فى كمبردج محاولا أن يهضم « وليمة حمير كلها اشواك وعليق فاسد » وغير ذلك من « الهراء السفسطائى (١٨) » وقد استمر قيد التقاليد هذا فى اكسفورد وكمبردج الى أن حفز مثال « الجمعية الملكية » ، وأستاذية نيوتن بكلية ترنتى (١٦٦٩ — ١٧٠٢) . جامعة كمبردج على أن تفسح للعلم صدارة جريئة .

وكافح الشعراء والقساوسة ، والصحافيون ، والفلاسفة ، ليبعثوا النشاط والحيوية فى التعليم . ولقد لخصنا من قبل « رسالة ملتن الى مستر هارتلب » (١٦٤٤) عن المدرسة المثالية . ولكن لم يكن لوصفاته اى تأثير فى التعليم الفعلى . اما فى فرنسا فكان أمتع ما كتب فى هذا الباب رسالة فنيلون « فى تعليم البنات » (١٦٨٧) . وكانت مدام دبوفلييه قد طلبت اليه أن يجمل بعض المبادىء التي يهتدى بها فى

تعليم بناتها . وأكد الكاهن بالطبع تقوية الناموس الاخلاقى بالدين ، ولكنه استنكر ما شاب التعليم الديرى من تقشف وعزلة . وقال انه يشعر ان اديار الراهبات « لا تهيىء للحياة فى هذه الدنيا ، وهى حياة تدخلها خريجة الدير وكانها خرجت من كهف لتقابل ضوء النهار الساطع(١٩) » وطالب بالطرق اللينة فى التعليم ، فيجب أن يوائم التعليم بين نفسه وبين طبيعة الطفل وميوله وحساسيته ، لا أن يخضع التلاميذ كلهم لقاعدة جامدة واحدة . فلنعلم بالطريقة التى تعلم بها الطبيعة ــ لا بالتجريدات، بل بهداية الطفل الى لب الاشياء ، ولتكن العابهم وميولهم الطبيعية وسيلة التعليم (ها هنا بيداجوجيه روسو ، وتعليم القرن العشرين « التقدمى » يشرحه كاهن من كهنة القرن السابع عشر) . ويريد فنيلون أن تقــرأ البنات الآداب القديمة ، بلغاتها الاصلية ان استطعن ، وينبغى أن يتعلمن شيئا من التاريخ ، ومن القانون ما يكفى لادارة ضيعة ، ولكن لا شــان لهن بالعلم ــ فعلى الفتــاة أن تبــدى « بعض الحيــاء فى العــلم » (une pudeur sur la sciemce) . لقد كان الكاهن الوسيم حساسا لمفاتن الأنثى ، ولم يرد لهذه المفاتن أن تكتسي بعلم الجبر ، وما كان ليفهم قط غرام فولتير بمدام دوشاتليه ، أستاذة الميكانيكا النيوتنية .

وبعد مقال فنيلون هذا بعشر سنوات ، نشر ديفو دعوته لتعليم النساء تعليما عاليا . فالبنات الانجليزيات فى القرن السابع عشر لم تتح لهن الا فرص ضئيلة فى التعليم الثانوى ، اذا استثنينا البيوت الغنية . فكان عليهن أن يعتمدن على المدرسين الخصوصيين ، كما كان شأن استر جونسن مع جوناثان سويفت ، او ان يختلسن المعرفة بجهدهن الخاص كما فعلت ابنة ايفلين الاثيرة لديــه . وعنــد ماكولى أن « نساء ذلك الجيل (١٦٨٥ ــ ١٧١٥) الانجليزيات ، حتى فى ارقى الطبقات ، كن قطعا أسوأ تعليما منهن فى اى فترة أخرى منذ حركة احياء العلوم » (٢٠) . وقد قدر سويفت أنه لا تكاد توجد امرأة راقية واحــدة فى كل الف لقنت القراءة أو الهجاء (٢١) ، ولكن ذلك الكاهن المتشــائم كان يزكو على المبالغات . على اى حال كان رأى ديفو أن اهمال تعليم المرأة ظلم همجى « لست أعتقد أن الله تعالى جعل النساء مخلوقات غاية فى الرقة والنبل ، وجملهن بهذه المفاتن ... ليكن مجرد مدبرات لبيوتنا ، وطاهيــات ، واماء » . لذلك اقترح أن يكون للبنات أكاديمية شبيهة بالمدارس الخاصة فى انجلترا ، يتعلمن فيها ــ بالاضافة الى الموسيقى والرقص ــ « اللغات،

خصوصا الفرنسية والايطالية ، وانا أجرؤ على تقديم اقتراح مؤذ ، هو تعليم المرأة أكثر من لسان واحد » . وينبغى أن يتعلمن التاريخ ، ويكتسبن كل آداب الحديث ولطائفه . واختتم الروائى الغزل بقوله : ان امرأة أحسنت تربيتها وتعليمها ، وزودت بفضائل اضافية من المعرفة والسلوك، لهى مخلوق لا نظير له . أبدع وأرق ما فى خليقة الله » ، وان « الرجل الذى كانت مثل هذه المرأة من نصيبه ليس عليه الا أن يغتبط بها ويكون شاكرا » (٢٢) .

كان كتاب جون لوك « خواطر فى التعليم » (١٦٩٣) (٢٣) ، الى حد كبير ، أعمق الابحاث التى كتبت فى النظرية التربوية فى عصر لويس الرابع عشر وأعظمها نفوذا ، وقد كتبه المؤلف بعد أن مارس التعليم مدرسا خصوصيا عدة سنوات فى أسرة ايرل شافتسبرى الأول . واقترح الفيلسوف - مترسما بادرات مونتينى - أن يكون هدف المعلم أولا صحة الجسد وعافيته ، فالجسم السليم شرط لا غنى عنه للعقل السليم . لذلك كان على تلاميذه أن يتناولوا الطعام البسيط ، ويعودوا أنفسهم على اللباس القليل ، والفراش القاسي ، والجو البارد ، والهواء الطلق ، والرياضة الكثيرة ، والنوم المنتظم ، والامتناع عن النبيذ أو الخمر ، وعلى « قليل جدا من الدواء أو لادواء اطلاقا » . ويأتى بعد ذلك فى الزمان ولكنه يتقدم عليه فى الأهمية تكوين الاخلاق ، فكل التعليم سواء الجسدى أو العقلى أو الخلقى يجب أن يكون تدريبا على الفضيلة . وكما أن الجسم يجب تدريبه على الصحة باحتمال المشاق ، فكذلك يجب تشكيل الخلق بغرس نكران الذات فى جميع الاشياء التى تتعارض مع العقل الناضج . « ينبغى أن يعود الاطفال على اخضاع رغباتهم ، والاستغناء عن مشتهياتهم ، حتى وهم فى المهد » . فضبط الشهوات أشبه بالعمود الفقرى للخلق . ويجب أن يجعل هذا الضبط سارا ما أمكن، ولكن لا بد من الاصرار عليه فى مراحل التربية كلها . ولن تكفى فى ذلك الافعال الطيبة المفردة ، اذ لا بد من تربية الطالب بتكرار الافعال الطيبة لتكون « عادات » طيبة ، لأن « العادات تعمل بثبات ويسر أكثر من العقل ، الذى قل أن يستشار بنزاهة ونحن أحوج ما نكون اليه ، وندر أن يطاع » . ويتردد لوك بين أرسطو وروسو . فهو يؤثر تعليما تحرريا على تعليم يتجاهل ميل الطفل وفرديته ، وينبغى أن تجعل الدروس مشوقة ؛ والنظام رحيما ، ولكنه يقبل الفكرة القائلة بانه من المرغوب فيه بين

الحين والحين توقيع العقوبات البدنية على سوء السلوك المتعمد . يضاف الى هذا « أن تعويد الاطفال فى لطف على تحمل درجات الألم دون احجام سبيل لاكساب أذهانهم الثبات وارساء أساس للشجاعة والعزيمة فى مستقبل حياتهم » .

وتربية العقل ينبغى أن تكون تدريبا على طرائق التفكير ومشقة الاستدلال ، لاخلاصة للآداب القديمة أو تراشقا باللغات . ويجب أن تعلم الفرنسية واللاتينية للاطفال فى سن مبكرة ، وبالحديث لا بالنحو . أما اليونانية والعبرية والعربية فتترك للدارسين المحترفين ويحسن افراد وقت للجغرافيا والرياضة والفلك والتشريح ، وفى مرحلة تالية للأخلاق والقانون ، وأخيرا للفلسفة . « ليست مهمة التعليم أن يمكن الصغار من علم بعينه ، بل أن يفتح اذهانهم ويشكلها بحيث يتيح لهم القدرة على اتقان أى علم حين يعكفون عليه فى مستقبل أيامهم » وكما أن الفضيلة تعلم بالعادة فكذلك يعلم الفكر بالاستدلالات المتكررة :

« ولا سبيل الى هذا خير من الرياضة ، التى أرى بناء عليه وجوب تعليمها لكل من يتاح لهم الوقت والفرصة ، لا لجعلهم رياضيين بل لجعلهم مخلوقات مفكرة ... فقد ولدنا لنكون ـ اذا شئنا ـ مخلوقات مفكرة ، ولكن سبيلنا الى هذا هى الممارسة والتمرين ، والواقع أننا لن نتجاوز فى هذا ما أوصلنا له جهدنا وعكوفنا ... وقد ذكرت الرياضة وسيلة لتقر فى الذهن عادة الاستدلال بدقة وتسلسل ، ... ، فاذا اكتسبوا طريقة الاستدلال التى توصل تلك الدراسة الذهن اليها ، استطاعوا نقلها الى ما يتاح لهم من أقسام أخرى من المعرفة (٢٤) » .

وقد قصد لوك برسالته ضربا من « التعليم المتحرر » ـ أى الذى يعنى أساسا بالفنون والأدب والسلوك، والذى يهدف الى انتاج «الجنتلمان» أى الانسان « الكريم » المولد ، الذى لن يضطر أبدا لكسب قوته بعرق جبينه × . ومع أن منهاجه يسمح ببعض العلوم ، فانه على العموم

× كلمة « جنتلمان » أصلها اللاتينى gens ، وهى العشيرة أو الأسرة من الأحرار . والتعليم الحر أو المتحرر liberal كان فى الاصل التعليم الموضوع للرجال الاحرار (liberi)

يلتزم « الانسانيات » - وهى الدراسات التى حبذها انسانيو النهضة الاوربية . وقد اشتمل كذلك على الرقص وركوب الخيل ، والمصارعة والمثاقفة ، وحتى « حرفة يدوية ، بل حرفتين أو ثلاثا » ، معوانا على الصحة والخلق ، لا سببا للرزق . أما الفنون فتعلم على سبيل الترويح لا الاحتراف ، وعلى الشباب الا يأخذ هذه الامور مأخذ الجد الشديد ، عليه أن يستمتع بالشعر ، ولا ينظمه الا للتسلية ، ويجب أن يعلم الاستمتاع بالموسيقى دون ان يحاول اتقان العزف على أية آلة ، فهذا يقتضيه الكثير جدا من الوقت ، كما أنه يلقى بالشاب فى « صحبة غريبة جدا » ، وهكذا كانت رسالة لوك تجمع بين المحافظة والتحرر ، فهى فى استنكارها الاستغراق السكولاستى فى اللغات القديمة ، وتقليلها من التركيز على الدين واللاهوت ، واهتمامها بالصحة والخلق، وجهدها فى اعداد الشباب العريق الاصل للحياة والخدمة العامتين ، كانت تومىء الى المستقبل ، وكان لها تاثير هائل فى انجلترة وأمريكا. وقد شاركت فى تكوين الجانب البدنى والخلقى للتربية فى المدارس الخاصة " public " الانجليزية . فلما ترجمت الرسالة الى الفرنسية (١٦٩٥) طبعت منها خمس طبعات فى خمسين سنة ، وأوحت الى روسو بالكثير من الآراء . أما تلميذ لوك ، ايرل شافتسبرى الثالث ، الذى سنلتقى به ثانية ، فقد شرف نظريات استاذه وخلقه .

٣ - الدارسون

واصل كبار الدارسين صياغة المستقبل بانارة الماضي ، وذلك برغم ما بدأ من انشغالهم باللغات المحتضرة والمناظرات الميتة ، ووجد بعضهم انفسهم مشتبكين فى صراع المسيحية مع الفكر الحر .

ومن صغار الادباء والعلماء من يستحق منا لفتة اجلال عابرة . مثال ذلك شارل دوفريسن ، سيد كانج ، الذى ادهش معاصريه - وقد عرفوه محاميا فى برلمان باريس - باصداره (١٦٧٨) قاموسا للاتينية الحديثة والوسيطة فى ثلاثة مجلدات ، بلغت من دقة الدراسة مبلغا يجعلها الى اليوم الحجة فى بابها . أما بيير أوويه فقد اكتشف وحقق مخطوطة هامة لأوريجانوس ، وتعلم السريانية والعربية ، والكيمياء ، وأجرى ثمانمائة تشريح ، وكتب الشعر والقصة ، واشترك

مع مدام داسييه العالمة فى نشر الطبعة « الدلفية » الشهيرة ذات الستين مجلدا للآداب اللاتينية ، وذلك لتعليم الدوفان (ولى العهد) ، وقد عين رئيسا لأساقفة آفرانش ، وحين مات خلف مكتبته التى هى الآن جزء ثمين من المكتبة القومية . وواصل أتباع بولاند من اليسوعيين نشر موسوعتهم المئينية Acta Sanctorum (أعمال القديسين) وفى باريس ، وتحت قيادة جان مابيون ، صنف مجمع سان ـ مورالبندكتى (١٦٦٨ ـ ١٧٠٢) تاريخا من عشرين مجلدا للقديسين البندكتيين ، وألقوا بهذا الضوء الهام على حوليات فرنسا الوسيطة وآدابها . وأعطى مابيون نفسه شكلا جديدا للطريقة القديمة لكتابة اللاتينية بمؤلفه De Re diplomatica (١٦٨١) ، الذى لم يكن كتيبا فى الدبلوماسية بل رسالة فى تاريخ المراسيم والمخطوطات القديمة وطبيعتها وحجيتها . كتب مابيون بعد أن أتم جزءا من أجزائه الضخمة، « ليت الله لا يؤاخذنى على أننى أنفقت هذه السنين الطوال فى دراسة أعمال القديسين ، دون أن أشابههم الا قليلا » (٢٥) .

أما عملاق التبحر فى الدراسات القديمة فى هذا العصر فكان رتشرد بنتلى ـ الناظر الصارم لكلية ترنتى (بكمبردج) طوال اثنين وأربعين عاما . فلقد أفنى شبابه فى استيعاب المكتبة البودلية ، وكان وهو بعد فى التاسعة والعشرين من أكبر علماء أوربا تفقها فى آداب اليونانية واللاتينية والعبرية وآثارها . وفى ذلك العام (١٦٩١) نشر رسالة فى مائة صفحة Epistola ad Millium موجهة الى « جون مل » سابق ، بلغ من دقتها وعمقها العلميين أنها أذاعت صيته فى طول أوربا وعرضها . واختير فى الثلاثين ليلقى أول سلسلة من المحاضرات التى دبر لها المال ووضع لها الاسم فى وصية الكيميائى الورع روبرت بويل . وقد استجاب بتقديم الحجج القوية على أن النظام الكونى الذى كشف سره فى كتاب نيوتن « المبادىء » (Principia) الحديث الصدور يثبت وجود الله . وكان هذا عزاء عظيما لنيوتن الذى اتهم من قبل بالالحاد . وعين بنتلى فى وظيفة الامين الملكى للمكتبة ، وأعطى مسكنا فى قصر سانت جيمس . وهناك كان يلتقى مرارا بنيوتن ، وايفلين ، ورن ، ومن قلعته تلك خاض معركة من أشهر معارك العلم البريطانى .

أما المعركة فنجمت عن مشاركة الانجليز فى الجدل القائم حول

مزايا الأدب القديم تجاه الجديد . بدأ السر وليم تمبل المعركة بمقالته « فى العلم القديم والجديد » (١٦٩٠) التى دافع فيها عن القديم . ولعل بنتلى كان مثنيا على المقالة لولا اشادتها بفالاريس مثالا على علو كعب اليونان فى الأدب. أما فالاريس هذا فكان دكتاتورا حكم أجراجاس (أجريجنتو) فى صقلية اليونانية فى القرن السادس قبل الميلاد . وقد وصفه التاريخ أو وصفته الاساطير بأنه كان يشوى أعداءه فى بطن ثور نحاسى ، ولكن التاريخ كرمه راعيا للأدب ، وقد انحدر الينا عبر القرون ١٤٨ خطابا قيل انها بقلمه . ونشر هذه الخطـابات عام ١٦٩٥ طالب فى كلية كرايست تشيرش باكسفورد يدعى تشارلز بويل . وطلب وليم وتون الى بنتلى الفصل فى حجية الخطابات ، اذ كان يعد طبعة ثانية (١٦٩٧) لكتابه « تأملات فى العلم القديم والحديث » الذى عارض فيه تمبل . ورد بنتلى بأن نسبتها الى فالاريس خطأ وأنها كتبت فى القرن الثانى للميلاد ، ثم أشار عرضا الى بعض الهفوات فى طبـعة تشارلز بويل ، ونشر بويل ومعلموه دفاعا حارا عن صحة نسبة الخطابات لفالاريس . ودخل جوناثان سويفت ، سكرتير تمبل ، المعركة فى صف استاذه بأن هزأ ببنتلى فى كتابه « معركة الكتب » . وظاهـر رأى الأدباء العام بويل ، وحزن أصحاب بنتلى على ما بدا من انهيـار سمعته . ولكن رده عليهم جدير بأن نتذكره : « ان أحدا من الناس لم تخسف سمعته الا بيده » (٢٦) . وفى ١٦٩٩ أصدر كتابا مطولا عنوانه « رسالة فى خطابات فالاريس » . ولم يثبت الكتاب صواب رأيه فحسب، بل ألقى من الضوء على تطور اللغة اليونانية ما جعل دنيا العلم والادب تشيد به علامة جـديرا بأن يقف على قـدم المسـاواة مع كازوبون وسلماسيوس سكاليجر . وقال بنتلى انه حتى أسلوب الخطابات ينم على القرن الذى كتبت فيه ، وأضاف :

« كل لغة حية لا تكف عن الحركة والتغيير ، شأنها فى ذلك شأن أجسام الكائنات الحية التى تفرز العرق ، فبعض الالفاظ تذبل وتصبح مهجورة ، وغيرها يدخل اللغة ويزداد استعماله شيئا فشيئا ، أو قد تحول ذات الكلمة الى معنى ومفهوم جديدين ، يحدثان بمضي الزمن من التغيير الملحوظ فى جو اللغة وملامحها ما يحدثه الزمن فى خطوط الوجه وسحنته . وكل الناس يحسون هذا فى لغاتهم القومية ، حيث

الاستعمال الدائم يجعل من كل انسان ناقدا ، فاى انجليزى لا يأنس فى نفسه ، من مجرد صياغة الاسلوب وزيه ، القدرة على التمييز بين الانشاء الانجليزى الجديد وانشاء قديم انقضى عليه مائة عام ؟ ومثل هذه الفروق الواقعية المحسوسة موجودة فى عهود اللغة اليونانية العديدة ... ولكن القلة القليلة هى التى أتبح لها من التفقه والمرانة على تلك اللغة ما يبلغها تلك الرهافة فى الذوق » (٢٧) .

ها هنا أديب قادر على كتابة الانجليزية قدرنه على قراءة اليونانية .

وفى ١٦٩٩ رقى بنتلى الى نظارة كلية ترنتى بكمبردج باجماع الأساقفة الستة الذين عينهم وليم الثالث لترشيح من يشغل الوظيفة الشاغرة . فاحكم ضبط الطلبة ، وأصلح المنهج ، وبنى مختبرا للكيمياء ومرصدا للفلك . ولكنه نفر هيئة التدريس والآداب بالكلية بغطرسته وعتوه وولعه بالمال ، حتى لقد حكم برفته مرتين ، ولكنه ناضل للرجوع الى وظيفته ، واحتفظ بها الى النهاية . ونشر خلال ذلك عددا كبيرا من الدراسات اليونانية واللاتينية ، وشجع ومول الطبعة الثانية منكتاب نيوتن « المبادىء » وهدم أنطونى كولنز فى كتابه « ملاحظات على مقال حديث فى الفكر الحر » (١٧١٣) ، وغامر فى تهور بالخروج من ميدانه ، بأن علق على قصيدة ملتن « الفردوس المفقود » بتصحيحات متقعرة لنحو ملتن ونصه . وجلب على نفسه عداء الشاعر الكسندر بوب اذ قال فى ترجمة بوب للالياذة « قصيدة جميلة يا مستر بوب ، ولكن يجب ألا تسميها هومر » . روى بنتلى أن « الشبل المنذر بالشر » لم يصفح عنه قط . وهزأ به بوب فى « ملحمة المغفلين » The Dunciad (ابريل ١٧٤٢) ببيتين من الشعر قال فيهما :

« المعلق الجبار ، الذى سفهت تحقيقاته المضنية هوراس ، وحقرت قوافى ملتن » (٢٨) .

وفى يوليو مات بنتلى بعد أن اصطلح عليه بوب وذات الجنب . لقد كان أعظم وأنقل اديب أنجبته انجلترة .

وفى هذه الاثناء مد انجليزى آخر يدعى توماس ستانلى آفاق

الذهن البريطانى باول كتاب انجليزى فى « تاريخ الفلسفة » (١٦٥٥ ـ ٦٢) ، وأدهش قراءه بتخصيص آخر مجلداته الاربعة للفلسفة الكلدية (العربية) . لقد أخذ العلم يجرؤ على تجاوز روما القديمة واليونان الى الشرق الأدنى والأوسط ، وكان لهذه الجرأة نتائج مزعجة. فاكتشف ادورد بوكوك وحقق أربع ترجمات سريانية لرسائل العهد الجديد (١٦٣٠) ، وأنشأت أكسفورد لأجله أول كرسي للغة العربية فيها ، وفتحت محاضراته فيها عيون الانجليز على الحضارة الاسلامية. أما فى فرنسا فان الموسوعة التى أفنى فيها بارتلمى ديربيلو عمره ، وهى « المكتبة الشرقية » الضخمة (١٦٩٧) ـ التى وضع لها عنوانا فرعيا هو « قاموس عالمى شامل بصفة عامة لكل ما يتصل بمعرفة .... الشرق » ـ هذه المكتبة كانت كشفا عن التاريخ والعلم العربيين ، ولعبت دورا فى توسيع الآفاق الفكرية توسيعا حطم كل القيود فى حركة تنوير القرن الثامن عشر . وتعجب الطلاب من ذلك الغنى فى شعر العرب وتاريخهم وفلسفتهم وعلومهم ، ولاحظوا كيف حافظ العرب على علم اليونان وفلسفتهم فى الوقت الذى طواهما فيه النسيان ابان عصور غربى أوربا المظلمة، وعرفوا أن محمدا لم يكن مجرد دجال افاك بل كان حاكما ذكيا وسياسيا أريبا ، وحيرهم الا يجدوا فى العالم الاسلامى جرائم اكثر ولا فضائل اقل مما فى العالم المسيحى . وأصبحت نسبية الاخلاق واللاهوت خميرة مذيبة فى الذهن المسيحى .

وكان من اثر الدراسات للتاريخ الشرقى ـ بما فيه المصرى والصينى ـ تقويض الحساب اليهودى الذى أرخ خلق العالم بسنة ٣٧٦١ قبل الميلاد ، والحساب الذى وضعه جيمس أشر ، رئيس الاساقفة الانجليكانى لأرما ـ بأرلنده ـ (١٦٥٠) وقرر فيه أن الخلق حدث « فى بداية الليلة السابقة ليوم الاثنين ٢٣ أكتوبر ٤٠٠٤ ق .م (٢٩) وكان سبينوزا ـ كما سنرى بعد قليل ـ يستهل (١٦٧٠) حركة « النقد الأعلى » للكتاب المقدس ـ أى دراسته بوصفه انتاجا بشريا ، غنيا فى العظمة والسمو ، وفى الاخطاء والسخافات .

وقد جلب أعلم ناقد الكتاب المقدس فى القرن السابع عشر على راسه غضب بوسويه وسخطه فى محاولته الرد على سبينوزا ، لانه سلم فى النهاية بالكثير مما زعمه الفيلسوف . وهذا الناقد ، واسمه ريشار

سيمون ، وأبوه كان حدادا ، التحق بالمصلى فى باريس ، ورسم قسيسا (١٦٧٠) وكتب فى ذلك العام نشرة دافع فيها عن يهود متز الذين اتهموا بقتل طفل مسيحى . وفى ١٦٧٨ ، بعد سنوات من البحث شملت دراسات مع عدة أحبار يهود ، أعد العدة لنشر كتابه « تاريخ نقدى للعهد القدمبم » . ورأى ، فى الطريق ، أن يفند حجج سبينوزا ضد الوحى الالهى للاسفار المقدسة . فسلم بأن أسفار العهد القديم ليست تماما من عمل المؤلفين الذين نسبت لهم ، وأنه لا يمكن أن يكون موسي قد كتب الاسفار الخمسة كلها (التى ورد فيها وصف لموت موسي) ، وأن أسفار الكتاب عراها التغيير الكتير عن صورتها الأصلية بأقلام الكتبة والناشرين الذين نقلوها الى الخلف . وناضل سيمون للاحتفاظ بسلامة عقيدته وبرخصة طبع كتابه ، فزعم أن هؤلاء المراجعين كانوا هم أيضا يعملون بالوحى الالهى ، ولكنه اعترف بأن جميع نسخ العهد القديم الموجودة شوهتها التكرارات والتناقضات والالتباسات وغيرها من الصعوبات بحيث لا تتيح الا أساسا واهيا للاهوت عقائدى . ورأى أن يهاجم البروتستنت بهذه النقطة ، فقال ان ايمانهم بالوحى الشفوى للاسفار المقدسة يتركهم عاجزين أمام النقد النصي فى حين يستطيع الكاثوليكى الموالى لكنيسته أن ينجو من أذى هذه الدراسة الناقدة بقبوله التفسير الذى وضعته كنيسة روما للنص . واختتم سيمون بالقول بأن الوحى الالهى للكتاب المقدس لا يصدق على أى حال الا على أمور الايمان .

ووافق رئيس المصلى على نشر كتاب سيمون . وبينما كانت أصوله فى المطبعة وقعت بعض صفحات تجارب الطبع فى يد أرنو « الكبير » رجل البور - رويال ، فروعه ما قرأ . وأطلع بوسويه على التجارب ، فندد هذا على الفور بالكتاب باعتباره « نسيجا من الكفريات ومعقلا للالحاد ... سيهدم سلطان الاسفار القانونية (٣٠) » وناشد بوسويه السلطات الزمنية أن تمنع نشر الكتاب . فصادرت الطبعة بأكملها ، وقوامها الف وثلثمائة نسخة ، وعجنتها عجنا واعتكف سيمون خوريا مغمورا فى نورمنديه ، ولكنه وجد السبل لطبع مخطوطته فى روتردام (١٦٨٥) وبعد أربع سنوات نشر كتابه «تاريخ نقدى للعهد الجديد» وأراد أن يتوج جهوده بترجمة جديدة للكتاب المقدس ، وفرغ من ترجمة

العهد الجديد ، ولكن بوسويه الذى أفزعته الحرية التى تناول بهـا سميون النص المقدس اقنع المستشار بمصادرة الكتـاب (١٧٠٣) . وتخلى سيمون عن مشروعه ، واحرق أوراقه ، ومات (١٧١٢) .

وأثارت ترجمته للعهد الجديد أربعين اعتراضا نفند هده الترجمة وتبين عصمته . على أنها ما زالت هى وكتاب سبينوزا « رسالة لاهوتية سياسية » من المعالم فى الدراسة الحديثة للكتاب المقدس . وقد حذر ليبنتز ـ بعد أن قرأ هذه الابحاث النقدية الاولى ـ من أن هذا الاتجاه فى التحقيق لو استمر سيدمر المسيحية (٣) . ولم يحن الوقت بعد للقول هل كان مصيبا أم مخطئا فى زعمه هذا .

الفصل الثامن عشر

البحث العلمى

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ دوليـــة العلم

كان مزاج أوربا يتغير فى بطء ـ سواء كان التغيير خيرا أو شرا ـ من الايمان بالخوارق الى النزعة العلمانية ، ومن اللاهوت ، ومن آمال الجنة ومخاوف الجحيم الى خطط توسيع المعرفة وتحسين حياة البشر . فاما الطبقات العليا التى واصلت أساليب حياتها الابيقورية فلم تعترض كثيرا على ايمان دينى كانت تراه مفيداً للجماهير الشقية التى حرمت فردوس الحسب والنسب ، ولكن كان هناك نفر ، حتى من بين هذه القلة المميزة ، ممن تلهوا بالعلم ، ووازنوا المعادلات ، وأحرقوا أصابعهم أو نشفوا بأنوفهم فى المختبرات ، أو تفرسوا بدهشة فى النجوم المتكاثرة . ففى باريس مثلا تزاحمت سيدات المجتمع العصريات على محاضرات ليميرى فى الكيمياء ، وعلى شروح دوفرنيه فى التشريح ، ودعا كونديه ليميرى الى صالونه الخاص جدا ، وعين لويس الرابع عشر دوفرنيه ليساعد فى تعليم الامير الوارث للعرش . وفى انجلترة كان لتشـــارلز الثانى « مختبر كيمياء » خاص به ، وحاول البارونات ، والاساقفة ، والمحامون القيام بالتجارب ، وأقبلت الخليلات الانيقات فى مركباتهن ليسهدن عجائب المغناطيسية ، وهوى ايفلين الفيزياء ، وأراد انشـــاء معهد للبحث العلمى ، ووجد بيبس وقتا ـ وسط شغله بالمراكب والنساء ـ لاستعمال المكروسكوب ، ومضخة الهواء وسكين التشريح ، وأصـــبح رئيسا للجمعية الملكية .

وتخلفت الجامعات عن الشعب فى هذا الاهتمام الجديد ، ولكن الأكاديميات الخاصة التقطته . ويلوح أن البادىء كان « أكاديمية أسرار الطبيعة » بنابلى (١٥٦٠) ، ثم أكاديمية « دى لنتشى » بروما (١٦٠٣) التى كان جاليليو ينتمى اليها ، ثم أكاديميـــة «ديل تشيمنتو»، التى أنشأها تلميذاه تفيانى وتوريتشيللى فى فلورنســـة (١٦٥٧) . وقد

كرس هذا المعهد بحكم اسمه للتجارب ، واتخذ الشك الديكارتى منطلقا له ، فلا شيء يجب التسليم به بالايمان ، ولا بد من بحث كل مشكلة دون نظر الى أى ملة أو فلسفة موجودة (١) . ولم يعمر بعض هذه الأكاديميات طويلا ، ولكنها كانت تترك خلفاء لها بعد موتها . وأنشئت الاكاديميات فى شفينفورت (١٦٥٢) ، والتدورف (١٦٧٢) ، واوبسالا (١٧١٠) ، وفى ١٧٠٠ ، وبعد ثلاثين سنة قضاها ليبنتز فى الالحاح ، خرجت أكاديمية برلين الى النور ، كذلك يرجع الفضل الى ليبنتز فى انشاء أكاديمية سانت بطرسبورج (١٧٢٤) .

وتطورت « أكاديمية العلوم » فى فرنسا من اجتماعات (١٦٣١ - ٣٨) مرسين ، وروبرفال ، وديزارج ، وغيرهم من العلماء فى بيت والد بسكال فى باريس ، أو فى صومعة مرسين . وقد صاغت برنامجا « للعمل على تحسين العلوم والآداب ، والبحث عموما عن كل ما يمكن أن يجلب المنفعة أو الراحة للنوع الانسانى » ، كذلك قررت أن « تحرر العالم من كل الأخطاء الشائعة التى انطلى زيفها على الناس منذ زمن طويل » ولكنها نصحت أعضاءها بان يجتنبوا الخوض فى الدين أو السياسة (٢) . وفى ١٦٦٦ ظفرت الأكاديمية بمرسوم ملكى ، وبحجرة فى المكتبة الملكية ، وفى فرساى ترى الى اليوم لوحة كبيرة بريشة تيستيلان يقدم فيها لويس الرابع عشر هذا المرسوم لجماعة يرأسها كرستيان هويجنز وكلود بيرو . وكان كل عضو من أعضائها الواحد والعشرين يتلقى من الحكومة راتبا سنويا ، فضلا عن مبلغ يغطى النفقات ، وقد أصبحت الأكاديمية من الناحية الفعلية مصلحة من مصالح الدولة . وكان لويس يخص الفلكيين بعطفه . فدعا كاسينى من ايطاليا ، ورويمر من الدنمرك ، وهويجنز من هولنده ، وشاد مرصدا فخما . وحين التهمت النيران المكتبة الثمينة التى يقتنيها هيفيليوس الدانزجى ، والذى تفرد بدراساته للقمر ، نفحه الملك بعطاء سخى ليعوض خسارته (٣) . وقد نسب لابلاس الفضل للأكاديمية فى معظم ما أحرزت فرنسا من تقدم علمى ، ولكن اعتمادها على ملك وثيق التحالف مع الكنيسة كان ضارا بتقدم العلم الفرنسي (٤) ، بينما مضي الانجليز فى هذا الطريق قدما .

ومن سمات انجلترة أن أكاديمياتها العلمية كانت مؤسسات أهلية لا تدين للحكومة الا بفضل عارض ، يقول جون واليس انه حوالى عام

١٦٤٥ ، تعرف فى لندن الى « نفر من فضلاء القوم ، المحبين للاستطلاع فى الفلسفة الطبيعية وغيرها من فروع العلم الانسانى ، لا سيما ... الفلسفة التجريبية (٥) » . واتفقوا على الاجتماع مرة كل اسبوع لمناقشة الرياضة ، والفلك ، والمغنطيسية ، والملاحة ، والفيزياء ، والميكانيكا ، والكيمياء ، والدورة الدموية ، وغير ذلك من الموضوعات . وقد استوحت هذه « الكلية غير المنظورة » ـ كما كانت تسمى آنئذ ـ « بيت سليمان » الوارد فى كتاب بيكون « أطلانطيس الجديدة » فلما انتقل واليس الى اكسفورد استاذا للرياضة ، انقسمت الجمعية قسمين ، يجتمع أحدهما فى مسكن روبرت بويل بالجامعة ، والآخر فى كلية جريشام بلندن ، وكان رن وايفلين من أول الاعضاء هناك . وقطع هذه الاجتماعات اللندنية ما وقع من اضطراب سياسي بين موت كرمويل وعودة الملكية ، ولكن سرعان ما استؤنفت عقب تولى تشارلز الثانى العرش ، وفى ١٥ يوليو ١٦٦٢ منح الملك « جمعية لندن الملكية لترقية المعرفة الطبيعية » براءة رسمية . وكان « الزملاء الأصليون » البالغ عددهم ثمانية وتسعين لا يشملون علماء من أمثال بويل وهوك فحسب ، بل شعراء كدرايدن ووالر ، ورن المعمارى ، وايفلين ، وأربعة عشر نبيلا ، وعدة أساقفة . وفيما بين عامى ١٦٦٣ و ١٦٨٦ ضم اليها نحو ثلاثمائة زميل اضافى . ولم يكن هناك فوارق طبقية تقسمهم ، فكان الادواق والعامة سواسية فى هذا المشروع ، وأعفى الاعضاء الفقراء من رسوم العضوية (٦) . وفى ١٦٧٣ صرح ليبنتز ، الذى سمح له بالعضوية ، بأن الجمعية الملكية أعظم الهيئات الفكرية احتراما فى أوربا . وفى تاريخ باكر (١٦٦٧) نشر توماس سبرات كتابه الممتاز « تاريخ الجمعية الملكية » وقد تأثر هو أيضا ، ، بالانسام البيكونيه التى كانت تهب على انجلتره ، وذلك برغم ترقيته أسقفا لروتشستر .

وشكا بعض اللاهوتيين من أن المعهد الجديد سيقوض الاحترام للجامعات والكنيسة الرسمية ، ولكن اعتدال الجمعية وحذرها لم يلبثا أن هدءا من معارضة رجال الكنيسة وروحت تجاربها الغريبة عن الحاشية والملك ، الذى ضحك حين سمع أنها تزن الهواء وتفكر فى الطيران الميكانيكى . وقد هجاها سويفت فى قصة « رحلات جليفرز » وسماها أكاديمية لاجادو العظمى ، وجعل أعضاءها يضعون الخطط لاستنباط

ضوء الشمس من الخيار ، ولبناء البيوت ابتداء من الاسقف فما دون ، وذكر صموئيل بطلر ، مؤلف « هوديبراس » كيف أن ناديا من العلماء هاج وماج لاكتشافه فيلا فى القمر ، ثم تبين أنه فار فى تلسكوبهم (٨) . ولكن رعاية الجمعية الملكية هى صاحبة الفضل فى تحسين ايفلين للزراعة الانجليزية ، وارساء السر وليم بنى علم الاحصاء ، وتقدم العلم والطب الانجليزيين بخطى نجاوزت كل ما عـرف فى فرنسـا أو المانيـا المعاصرتين ، وانشاء علم الكيمياء تقريبا ، واحـداث راى ثورة فى علم النبات ، وودوارد فى الجيولوجيا ، ونيوتين فى الفلك . وأجـرت الجمعية آلاف التجارب فى الكيميـاء والفيزياء ، وكانت تتسلم جثث المجرمين الذين أعدموا وتشرحها وتدرسها ، وأصبحت مستودعا للتقارير الطبية تتلقاها من الاطباء فى جميع أرجاء البلاد ، وجمعت تقـارير التطورات التكنولوجية ، وكانت على صلة بالبحث العلمى فى خـارج انجلترة . وسده تاكيدها على العمليـات الطبيعية والنامـوس الطبيعى الخرافة واضطهاد السحر .

وفى عام ١٦٦٥ بدأ سكرتيرها هنرى أولدنبرج اصدار مجلة « الاعمال الفلسفية للجمعية الملكية » التى استمرت الى يومنا هذا . وقد طلبت وتلقت المقالات من خارج البلاد . وكانت من أوائل طابعى اكتشافات مالبيجى وليوفنهويك . أما أولدنبرج هذا فقد وفد على انجلترة فى ١٦٥٣ ليفاض فى ابرام معاهدة نجارية لوطنه بريمن ، فبقى بها ، وأصبح صديقا لملتن ، وهوبز ، ونيوتبن ، وبويل ، وراسل بنشاط العلماء والفلاسفة فى جميع أنحاء العالم . وقال ان أعضاء الجمعية الملكية « يمتحنون الكون كله (٩) » ، وكتب لسبينوزا يقول :

« اننا على ثقة من أن أشكال الاشياء وصفاتها يمكن تعليلهـا أفضل تعليل بأصول الميكانيكا ، وأن كل آثار الطبيعة تحدثها الحركة والشكل ، والنسيج ، والارتباطات المختلفة لهذه كلها ، وأنه لا حاجة بنا لان نلجأ الى الاشكال التى لا تفسير لها أو الصفات السحرية ملاذا من الجهل (١٠) ».

وبفضل هذه « الاعمال الفلسفية » الانجليزية و « مجلة العلماء» الفرنسـية ، و « الجـورنالى دى لتيـراتى » الايطاليـة ،

و « الأكتا ايروديتورم » الالمانية استطاع العلماء والدارسون الاوربيون أن يتغلبوا على الحدود القومية ، ويكونوا على اتصال بأعمال بعضهم البعض وكشوفهم ، ويؤلفوا جيشا متحدا يزحف فى مغامرة خلاقة هائلة . وكانوا وهم عاكفون بمنأى عن الانظار فى مكاتبهم ، ومختبراتهم ، وبعثاتهم ، متجاهلين أو منتصرين على جلبة السياسة ، وزحف الجيوش ، وطنين العقائد الدينية ، وضباب الخرافة ، وعملاء الرقابة المدنية أو الكنسية المتطفلين - كانوا وسط هذا كله يكبون على النصوص ، وأنابيب الاختبار ، والمكرسكوبات ، ويخلطون المواد الكيماوية فى فصول ، ويقيسون القوى والاحجام ، ويضعون المعادلات والرسوم البيانية ، ويتفحصون أسرار الخلية ، وينبشون طبقات الارض ، ويرسمون حركات النجوم ، حتى بدت حركات المادة وكأنها تنتظم فى قانون ، وبدت ضخامة الكون الهائلة وكأنها تمتثل للذهن البشرى المذهل . ففى فرنسا كان فيرما ، وبسكال ، وروبرفال ، وماربوت ، وبيرو ، وفروع بأكملها من آل كاسينى وفى سويسرة كان آل برنويى ، وفى المانيا كان جويريكى ، وليبنتز ، وتشرنهاوس ، وفارنهايت ، وفى هولندة كان هويجنز وليوفنهويك ، وفى ايطاليا كان فيفيانى وتوربه تشبللى ، وفى الدنمرك كان سنينو ، وفى اسكتلنده كان جيمس وديفد جريجورى ، وفى انجلترة كان واليس ، ولستر ، وبويل ، وهوك ، وفلامستيد ، وهالى ، ونيوتن : هؤلاء كلهم وغيرهم كثيرون ، كانوا فى هذه الحقبة القصيرة من تاريخ أوربا من ١٦٤٨ الى ١٧١٥ ، يكدون فرادى وجماعات منعزلين ومتعاونين ، ليبنوا يوما فيوما ، وليلة فليلة ، صرح الرياضة ، والفلك ، والجيولوجيا ، والجغرافيا ، والفيزياء ، والكيمياء ، والاحياء ، والتشريح ، والفسيولوجيا - هذه العلوم التى قدر لها أن تحدث ثورة مصيرية فى النفس الحديثة . أما أولدنبرج ، الذى أحس دولية العلم هذه ، ولم يخطر بباله قط أن القومية قد تجعل العلم نفسه أداة حزبية ومدمرة ، فقد رأى فى هذا التعاون الملهم بشيرا بحياة أفضل . وكتب لهويجنز يقول « أرجو أن يأتى الوقت الذى تتعانق فيه كل الامم ، حتى المتخلفة فى الحضارة ، عناق الرفاق الاعزاء ، وأن تتضافر قواها الفكرية والمادية لاقصاء الجهل ، وتغليب الفلسفة الصحيحة النافعة(١١) » . ومازال هذا رجاء العالم الى اليوم .

٢ ـ الرياضيات

بدأت الدولية الجديدة بشحذ أدواتها . فطور بسكال وهوك وجويريكى البارومتر ، واستطلعت مضخة جويريكى الهوائية امكان احداث الفراغ ، وصنع جريجورى ونيوتن وغيرهما تلسكوبات أفضل من تلسكوبات كبلر وجليليو ، واخترع نيوتن آلة السدس ، وحسن هوك الميكروسكوب المركب ، الذى أحدث انقلابا فى دراسة الخلية ، وأصبح الترمومتر أوثق وادق على يد جويريكى وامونتونز ، وفى عام ١٧١٤ أعطاه فارنهايت شكله الانجليزى ـ الامريكى باستخدامه الزئبق بدلا من الكحول وسيطا متمددا ، وقسم مقياسه عند الصفر ، و ٣٢ درجة و ٩٦ درجة (التى افترض انها حرارة جسم الانسان الطبيعية).

أما أعظم الادوات قاطبة فكانت الرياضيات ، لأنها اضفت على التجربة شكلا كميا ومعايرا ، ومكنتها بمئات الطرق من التنبؤ بالمستقبل بل السيطرة عليه . قال بويل « ان الطبيعة تلعب دور الرياضي » واضاف ليبنتز « ان العلم الطبيعى ليس الا الرياضة التطبيقية (١٢) » . ويشيد مؤرخو الرياضيات بالقرن السابع عشر لأنه كان وافر الثمر فى ميدانهم على الاخص ، فهو قرن ديكارت ، ونابيير ، وكافالييرى ، وفيرما ، وبسكال ، ونيوتن ، وليبنتز ، وديزارج . وكانت السيدات المعطرات بالنبالة يختلفن الى محاضرات الرياضة ، وقالت « صحيفة العلماء » مازحة ان بعضهن جعلن تربيع الدائرة الجواز الوحيد لرضائهن (١٣) ، ولعل هذا أن يفسر جهود هويز الملحة فى حل تلك المعضلة المحيرة .

وأنجب بيير دفيرما النظرية الحديثة للاعداد (دراسة أنواعها ، وخصائصها ، وعلاقاتها) وتخيل الهندسة التحليلية مستقلا عن ديكارت ـ وربما قبله ، واخترع حساب الاحتمالات مستقلا عن بسكال ، وسبق نيوتن وليبنتز الى حساب التفاضل . ومع ذلك عاش مغمورا بعض الشيء فى عضويته ببرلمان تولوز ، ولم يدل باسهاماته فى الرياضة الا فى خطابات لاصدقائه ـ لم تنشر الا سنة ١٦٧٩ ، بعد موته بأربعة عشر عاما . وفى أحد هذه الخطابات نستشف انتشاءه

بالرياضة . « لقد عثرت على عدد كبير جدا من النظريات الجميلة جدا (١٤) » وكان يطرب لكل حيلة جديدة أو انتظام مدهش فى الاعداد . وقد تحدى رياضي العالم « ان يقسموا المكعب الى مكعبين ، وربع القوة الى ربعى القوة » ، الخ ، وكتب يقول « لقد اكتشفت برهانا عجيبا حقا لما يعرف الآن بـ «آخر نظريات فيرما » ، ولكن لا برهانه ولا أى برهان قاطع عليها قد وجد الى الآن . وفى عام ١٩٠٨ أوصي استاذ المانى بمائة ألف مارك لأول شخص يبرهن على فرض فيرما ، ولم يطالب أحد الى الآن بالجائزة ، وربما ثبط همته هبوط قيمة المارك .

وكان كرستيان هويجنز أبرز علماء هذا العصر ، باستثناء عالم واحد فقط ، فكان التالى مباشرة لنيوتن . وكان أبوه قسطنطين هويجنز من المع شعراء هولندة وساستها . ولد كرستيان فى ١٦٢٩ ، وبدأ فى الثانية والعشرين نشر الابحاث الرياضية . وما لبثت كشوفه فى الفلك والفيزياء أن أذاعت شهرته فى أوربا ، فانتخب زميلا للجمعية الملكية بلندن فى ١٦٦٣ ، وفى ١٦٦٥ دعاه كولبير للانضمام الى أكاديمية العلوم بباريس ، فانتقل الى العاصمة الفرنسية ، وتلقى معاشا سخيا ، ومكث بها حتى ١٦٨١ ، ثم عاد الى هولندة لضيقه بالحياة فى ظل ملك تحول مضطهدا للبروتستنت . وكان تراسله بست لغات مع ديكارت ، وروبرفال ، وميرسين ، وبسكال ، ونيوتن ، وبويل ، وكثير غيرهم ، دليلا على الوحدة المتزايدة التى تربط الأخوة العلمية . قال « ان العالم وطنى ، والنهوض بالعلم دينى (١٥) » . ومن عجائب زمانه عقله السليم فى جسمه السقيم ـ فقد كان جسمه عليلا ابدا ، وعقله خلاقا حتى موته فى السادسة والستين . وكان انتاجه فى الرياضة أقل جزء فى انجازاته ، ومع ذلك فان الهندسة ، واللوغاريتمات ، وحساب التفاضل والتكامل ـ كلها افادت من جهوده . وفى ١٦٧٣ أثبت « قانون المربعات العكسية » (أى ان جذب الاجسام بعضها لبعض يتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها) وهو القانون الذى أصبح بالغ الاهمية لفلك نيوتن .

وكان نيوتن الآن بالطبع أسطع نجم تكتد سماء العلم البريطانى ، وهو جدير بأن نفرد له فصلا خاصا ، ولكن كان لنجمه اقمار توابع .

ومنهم صديقه جون واليس ، القسيس الانجليكانى ، الذى أصبح استاذا « سافيليا » للهندسة فى اكسفورد عام ١٦٤٩ وهو فى الثالثة والثلاثين ، وشغل ذلك الكرسي أربعة وخمسين عاما . وقد صرف النحو والمنطق واللاهوت قلمه عن العلم ، ومع ذلك فانه كتب بحوثا ذات أثر فى الرياضة والميكانيكا ، والسمعيات والفلك ، والمد والجزر ، والنبات والفسيولوجيا ، والجيولوجيا ، والموسيقى ، ولم يعوزه سوى بعض الحب والحرب لتكتمل شخصيته . ورسالته « فى تاريخ الجبر وممارسته » (١٦٧٣) لم تسهم بأفكار أصيلة فى ذلك العلم فحسب ، بل كانت أول محاولة جدية فى انجلترة لكتابة تاريخ الرياضة . وقد ابتهج معاصروه بالجدل الطويل بينه وبين هوبز حول حساب تربيع الدائرة ، وانتصر واليس ، ولكن الفيلسوف العجوز واصل الكفاح الى نهاية سنيه الواحدة والتسعين . ويذكر التاريخ واليس على الاخص بكتابه « حساب اللانهائيات » (١٦٥٥) الذى طبق طريقة كافالييرى فى اللامنقسمات على حساب تربيع المنحنيات ، وبهذا مهد لحساب التفاضل المتناهى الصغر .

أما كلمة calculus فكانت تعنى أصلا حجرا صغيرا استعمله الرومان القدامى فى العد ، ولكن لا يستطيع تعريف حساب التفاضل على وجه الصحيح الآن غير الراسخين فيه × . وقد لمحه أرخميدس من بعيد ، واقترب منه كبلر ، واكتشفه فيرما ولكنه لم ينشر كشوفه ، وحمل كافالييرى وتوريتشيللى فى ايطاليا ، وبسكال وروبرفال فى فرنسا ، وجون والس واسحاق بارو فى انجلترة ، وجيمس وديفد جريجورى فى

× أما بالنسبة لنا نحن غير الخبيرين به ، فيمكن وصفه بانه حساب المقادير القابلة للتغير ، كمقادير الوزن ، أو المسافة ، أو الزمن ، فمنسوب الماء الذى يسكب بسرعة متماثلة فى مخروط مقلوب يرتفع بسرعة اقل فاقل ، وحساب التفاصيل يحدد مبلغ ارتفاع المنسوب فى اى وحدة زمنية معلومة . فالجسم الساقط فى « وسط خال من المقاومة » يزيد من سرعة سقوطه مع كل زيادة فى الزمن ، وحساب التفاضل يبين مدى سقوطه فى أى فترة معينة . وأشكال هذا الحساب الاكثر تعقيدا تتناول انشاء المماسات للمنحنيات ، والمساحات المحاطة بمنحنى ، وتقريب الخطوط المستقيمة المضاعفة لا نهائيا الى الدائرة . وحساب التفاضل المتناهى الصغر يحسب مقدارا قابلا للتغير باختزاله دون حد الى جزء دقيق جدا بحيث يمكن اهمال معدل التغير . وحساب التكامل يحسب مقدارا ما من واقع العلم بسرعة تغيره . وقد تبين ان جميع طرق الحساب هذه بالغة الفائدة للاعمال الهندسية .

اسكتلندة — هؤلاء كلهم حملوا لبنات للبناء فى تعاون القـــارة المدهش هذا . وأوصل نيوتن وليبنتز العمل الى التمام .

واقترح لفظة calculus على ليبنتز رجل يدعى يوهان برنويى أحد أفراد أسرة نفردت بوراثة النبوغ الاجتماعية تفرد آل باخ ، وبروجل وكوبرين . وكان نيقولاوس برنويى (١٦٢٣ — ١٧٠٨) كاسلافه تاجرا . وارتقى الحساب التجارى عند ولده يعقوب برنويى الاول (١٦٥٤ — ١٧٠٥) الى أشكال أرقى من الحساب . واتخذ يعقوب هذا شـــعارا له القول المأثور « اننى أدرس النجوم مخالفا ارادة أبى » ، فهوى الفلك ، وأسهم فى الهندسة التحليلية ، وحسن حســـاب التغبيرات ، وأصبح أستاذا للرباصيين فى جامعة بازل . وقد آتت دراســـاته للمنحنيـــات الكتينية (وهى المنحنبات التى ترسم بسلســـلة منتظمة معلقـــة بين نقطتين) — هذه الدراسات آتت أكلها فى فترة لاحقة فى تصميم الكبارى المعلقة وخطوط النقل العالية الفولت . واتخذ أخوه يوهان (١٦٦٧ ، ١٧٤٨) الطب مهنته — مخالفا خطط أبيه هو أيضا — ثم الرياضة ، وخلف يعقوب أستاذا فى بازل ، واسهم فى الفيزياء ، والبصريات ، والكيمياء والفلك ، ونظرية المد والجزر ، ورياضة القلوع ، وابتكر حساب التفاضل الأسي ، وانشأ أول نظام لحساب التكامل ، وأدخـــل استعمال كلمـــة integral بهـذا المعنى . ونال أخ آخر لهمـــا يدعى نيقولاوس الاول (١٦٦٢ — ١٧١٦) درجة الدكتوراه فى الفلسفة وهو بعد فى السادسة عشرة ، وفى القانون وهو فى العشرين ، ودرس القانون فى برن والرياضة فى سانت بطرسبورج . وسنلتقى بستة رياضيين آخرين من آل برنويى فى القرن الثامن عشر ، وكان منهم اثنان آخران فى القرن التاسع عشر ، وهنا كفت البطاريات البرنويية عن عملها .

ومن مآثر هذا العصر ارساء الاحصاء علما أو ما يشبه العلم . ذلك أن خردجيا بدعى جرونت كان يتسلى بجمع سجلات الدفن المحفـــوظة بأبرشيات لندن ودراستها . وكانت هذه السجلات تذكر عادة السـبب المتناقل لموت الميت ، مثل « مات جـوعا فى الشارع » و « أعدم وعصر حتى الموت » و « داء الملك » (الخنازيرى) و « مات جوعـا عنـــد مرضعته » و « قتلوا أنفسهم (١٦) » وفى ١٦٦٢ نشر جرونت كتـــابا سماه « ملاحظات طبيعية وسياسية ... على سجلات الوفيـــات » ،

والكتاب بداية علم الاحصـــاء الحديث ، وقد خلص من جداوله الى أن ستة وثلاثين فى المائة من الاطفال يموتون قبل بلوغهم السادسة ، وأربعة وعشرين فى المائة فى العشر السنوات التالية ، وخمسة عشر فى المائة فى العشر التالية . الخ (١٧) ، وتبدو نسبة الوفيات فى الاطفال مغالى فيها كثيرا هنا ، ولكنها تومىء الى جهد الحب فى ملاحقة ملاك الموت . قال جرونت « من الوفيات العديدة ما يحمل نسبة ثابتة الى جمـلة المدفونين ، وأعنى الوفـــاة بالامراض المزمنــة ، والامراض التى يعظـــم تعـــرض المدينة لها ، كالسل ، والاستسقاء ، واليرقان ، الخ (١٨) » ، ومعنى هذا أن أمراضا معينة ، وظواهر اجتماعية أخرى ، وان تعذر التنبؤ بها فى الافراد ، الا انه يمكن حسابها مسبقا بدقة نسبية فى الجماعة الكبيرة وهذا المبدأ الذى صاغه جرونت هنا أصبح أساسا للتنبؤ الاحصائى . وقد لاحظ أن وقائع الدفن فى لندن فى سنوات كثيرة فاقت وقائع العماد ، وانتهى الى أن لندن تتميز بوفرة احتمالات الموت ، كالموت من همـــــوم العمل ، و « الدخان ، والروائح العفنة ، والهواء الفاسد » و « الافراط فى الطعام » ولكن بما أن سكان لندن كانوا يتزايدون رغم هـذا ، فان جرونت عزا الزيادة الى وفود المهاجرين من الريف والمدن الصغيرة - وقدر سكان العاصمة فى عام ١٦٦٢ بنحو ٣٨٤٫٠٠٠ نسمة .

وطبق السر ولیم بتى ، صديق جرونت ، الاحصاء على السياسة . وهنا أيضا مثال آخر على تعدد فى القدرات يستحيل العثور عليه اليوم فى فرد واحد ، فان بتى بعد أن تلقى العلم فى كان ، وأوترخت ، وليدن وأمستردام ، وباريس ، درس التشريح فى أكسفورد ، والموســيقى فى كلية جريشام بلندن ، وجمع ثروة ونال لقب الفروسـية باشتغاله طبيبا للجيش الملكى بارلندة × . وفى ١٦٧٦ ألف كتابا هو العمدةالثانى فىعلم الاحصاء الانجليزى ، وهو « الحساب السياسى » فالسياسة فى رأى بتى لا يمكن أن تصبح علما أو كالعلم الا اذا بنت استنتاجاتها على قياســات كمية . لذلك طالب بتعداد دورى يسجل الميلاد ، والجنس ، والحــالة

× يقول أوبرى انه فى اكسفورد « كان يحتفظ بالجثة .. مخللة أو مملحة » . وكانت احدى الجثث التى جىء بها اليـــه لتشريحها جثـــة نان جـــرين ، التى قتلت ابنها غير الشرعى ، ووجدها بتى لا تزال تتنفس ، وردها الى الحيـــاة ثانية (١٩) .

الزوجية ، والالقاب ، والمهنة ، والدين ، الخ · لكل شـخص يسكن انجلترة · واعتمادا على قوائم الوفيات ، وعدد البيوت ، وزيادة المواليد على الوفيات سنويا ، قدر أن سكان لندن فى ١٦٨٢ يبلغون ٦٩٦٫٠٠٠ ، وسكان باريس ٤٨٨٫٠٠٠ ، وسكان أمستردام ١٨٧٫٠٠٠ ، وسكان روما ١٢٥٫٠٠٠ · ورأى بتى ما رآه جوفـانى بوتيرو فى ١٥٨٩ وتوماس مالثوس فى ١٧٩٨ ، وهو أن عدد السكان ينحو الى الزيادة بأسرع من موارد الرزق ، وأن هذا يفضى الى الحرب ، وأنه لن تحل سنة ٣٦٨٢ حتى تكتظ الارض الصالحة للسكنى بأهلها اكتظاظا خطرا ، اذ يعيش شخص فى كل فدانين (٢٠) ·

وأفادت شركات التأمين من الاحصاء فحولت عملها فنـا وعلمـا آخذا فى حسابهما كل شيء الا التضخم · ومن واقع تقارير الوفيات فى برسلاو أعد ادموند هالى (١٦٩٣) جدولا بالوفيات المتوقعة فى جميع الاعمار من عمر سنة الى أربع وثمانين ، وعلى أساس الجدول حسـب احتمالات وفاة الافراد فى سن معينة خلال السنة الشمسية ، واستخرج السعر المنطقى لبوليصة التأمين · وانتفعت أولى شركات التـأمين على الحياة التى أسست بلندن فى القرن الثامن عشر بجداول هالى ، وأحالت الرياضة ذهبا ·

٣ ـ الفـلك

أخضعت النجوم للعلم فى عشرات الاقطار · ففى ايطاليا اكتشف الفلكى اليسوعى ريتشولى (١٦٥٠) أول نجم مزدوج ـ أى نجم يبـدو للعين المجردة واحدا ولكنه يرى بالتلسكوب نجمين واضح أنهما يدوران الواحد حول الآخر · وفى دنزج بنى يوهان هيفيليوس مرصدا فى بيته ، وصنع آلاته الخاصة ، وصنف ١٫٥٦٤ نجما ، واكتشف أربعة مذنبات ، ورصد مرور المشترى ، ولاحظ ترجحات القمر (وهى التناوبات الدورية فى رؤية أجزائه) ، ورسم سطحه ، وسمى عددا من تضاريسه بأسماء مازالت تظهر على خرائط القمر الى يومنا هذا · فلما أذاع على راصدى النجوم فى أوربا أن فى استطاعته تمييز مواقع النجـوم باسـتعمال «ديوبتر» (رصد يستعمل عدسة واحدة أو منشورا واحدا) بنفس الدقة التى يميز بها هذه المواقع باستعمال تلسكوب مركب ، تحدى روبرت هـوك

دعواه هذه ، وسافر هالى من لندن الى دنزج ليحقق فى الأمر ، ثم قرر أن هيفيليوس صادق (٢١) .

ووفر لويس الرابع عشر المال لبناء وتجهيز مرصـد فى باريس (١٦٦٧ – ٧٢) بعد أن تبين أهمية الفلك للملاحة . ومن ذلك المركز قاد جان بيكار البعثات أو أرسلها لدراسة السماء من نقط مختلفـة على الأرض . وذهب الى أورانيبورج ليلاحظ الموقع المضبوط الذى رسم منه تيكو براهى خريطته المشهورة للنجوم ، واستطاع بمختلف الرصود التى امتدت من باريس الى أميان أن يقيس درجة طوليـة بدقـة عظيمـة (لا تختلف الا بضع باردات عن الرقم الحالى وهو ٦٩ر٥ ميلا) حتى أنه من المعتقد أن نيوتن استخدم نتائج بيكار ليقدر كتلة الارض ويتحقق من نظرية الجاذبية . وبارصاد مماثلة حسب بيكار القطر الاسـتوائى للأرض فكان ٧٫٨٠١ ميلا – وهو تقدير غير بعيد من تقديرنا الحالى وهو ٧٫٩١٣ ميلا (٢٢) . وقد يسرت هذه الكشوف للمراكب فى عرض البحر أن تحدد مواقعها بدقة لم يسبق لها نظير . وهكذا حفز توسـع أوربا التجارى وتطورها الصناعى الثورة العلمية وانتفعا بها .

وعملا باقتراح من بيكار دعا لويس الرابع عشر الى فرنسا الفلكى الايطالى جوفانى دومنيكو كاسينى ، الذى ذاع صيته فى أوربا بفضل اكتشافه شكل المشترى الكروانى ، ودوران المشترى والمريخ الدورى . فلما وصل الى باريس (١٦٦٩) استقبله الملك كانه أمير من أمـراء العلم (٢٣) . وفى ١٦٧٢ أوفد ، هو وبيكار ، جان ريشيه الى كايين بامريكا الجنوبية ليرصد المريخ فى أقصى « مواجهة » له مع الشـمس وقرب من الارض ، ورصد كاسينى نفس المواجهة من باريس . وقد أعطت المقارنة بين هذين الرصدين الآتيين من نقطتين منفصلتين قيما جديدة وأكثر دقة لاختلاف منظر المريخ والشمس وبعدهما عن الأرض ، وكشفت عن أبعاد فى المجموعة الشمسية أعظم مما قدر من قبـل . وبمـا أن الفلكيين تبينوا أن بندولا فى كايين يبطىء عن نظيره فى باريس ، فقد انتهوا الى أن الجاذبية قرب الاستواء أخف منها فى العروض العليا ، وأوحى هذا بان الارض ليست دائرة كاملة ، ورأى كاسينى أنها تفرطحت عند خط الاستواء ، ورأى نيوتن أنها تفرطحت عنـد القطبين ، وأيد المزيد من البحث رأى نيوتن ، واكتشف كاسينى أثناء ذلك أربعة أقمار

جديدة لزحل (ساتورن) ، وانقسام حلقة زحل الى قسمين (وهو الانقسام الذى يطلق عليه اسم كاسينى الآن) . وبعد موته عام ١٧١٢ خلفه فى مرصد باريس ابنه جاك ، الذى قاس قوس الزوال من دنكرك الى بربنيان ، ونشر أول جداول لأقمار زحل .

وقد أسهم كرستيان هويجنز فى لهاى اسهامات هامة فى الفلك قبل ان ينضم الى فريق العلماء العالمى فى باريس . فوفق هو وأخوه قسطنطين الى طريقة جديدة لشحذ العدسات وصقلها ، واستعان بها فى تركيب تلسكوبات أقوى وأصفى من أى تلسكوبات عرفت من قبل ، وبفضلها اكتشف (١٦٥٥) القمر السادس لزحل ، وحلقة هذا الكوكب الغامضة . وبعد عام قام بأول تحديد للمنطقة اللامعة (التى تحمل اسمه الآن (فى سديم أوريون وكشف عن الطابع المتعدد لنجمه النووى .

أما أعظم منافس لفلكيى باريس فهو الفريق الممتاز تجمع أكثره حول هالى ونيوتن فى انجلترة . وقد قدم جيمس جريجورى الأدنبرى المعونة من بعيد بتصميمه أول تلسكوب عاكس (١٦٦٣) ـ أى التلسكوب الذى تركز فيه أشعة الضوء المنبعثة من الجسم بوساطة مرآة منحنية بدلا من العدسة ، وقد حسنه نيوتن فى ١٦٦٨ . وفى ١٦٧٥ وجه جول فلامستيد وآخرون الى تشارلز الثانى مذكرة يلتمسون فيها تمويل بناء مرصد قومى ، حتى تهتدى السفن الانجليزية التى تمخر عباب البحر بطرق أفضل لحساب خطوط الطول . ودبر الملك المال للبناء ، الذى شيد فى بلدة جرينيتش قرب القسم الجنوبى الشرقى من لندن ، واستعمل هذا نقطة لطول الصفر والزمن القياسي . وقدم تشارلز لفلامستيد راتبا صغيرا على عمله مديرا ، ولكنه لم يقدم مالا تدفع منه رواتب مساعديه أو ثمن الآلات . أما فلامستيد ، الهزيل العليل ، فقد بذل حياته لذلك المرصد . فقبل تلاميذ يعلمهم ، واشترى الآلات من جيبه الخاص ، وتلقى المال هدية من أصدقائه ، وعكف فى صبر على رسم الخرائط للسماء كما ترى من جرينيتش . وقبل أن يموت (١٧١٩) كان قد أتم أوسع وأدق قائمة نجوم عرفت من قبل ، وقد أدخلت تحسينات كثيرة على القائمة التى تركها تيكوبراهى لكبلر فى ١٦٠١ . وكان فلامستيد يشقى بالافتقار الى المساعدين ، ويضطر للقيام

بنفسه باعداد الاوراق التى تترك عادة للمساعدين ، فاغضب هالى ونيوتن بتعطيله حساب نتائجه واذاعتها ، واخيرا نشرها هالى دون أذن من فلامستيد ، فثار الفلكى العليل ثورة عارمة هزت النجوم فى أفلاكها .

ومع ذلك فان ادموند هالى كان أعظم أفراد الفريق تهذيبا . كان تلميذا متحمسا لدراسة السماء ، فنشر فى العشرين بحثا عن افلاك الكواكب ، وفى تلك السنة (١٦٧٦) خرج فى رحلة ليتبين كيف تبدو السماء من نصف الكرة الجنوبى . ومن جزيرة القديسة هيلانة رسم خرائط تبين مسلك ٣٤١ نجما . وعشية عيد ميلاده الحادى والعشرين قام بأول رصد كامل لعبور عطارد . فلما عاد الى انجلترة انتخب زميلا بالكلية الملكية وهو لم يجاوز الثانية والعشرين . وقد تبين عبقرية نيوتن ، ومول الطبعة الاولى من كتابه « المبادىء » الغالى النفقة ، وقدم له بتقريظ فى شعر لاتينى رائع اخره بيت يقول « غير مسموح لأى بشر فان بان يقترب من الآلهه » (٢٤) . وحقق هالى النص اليونانى لكتاب أبللونيوس البرجاوى « المخاريط » ، وتعلم العربية ليترجم الأبحاث اليونانية المخطوطة فى العربية دون سواها .

وقد سجل اسمه فى قبة السماء بنبوءة من انجح النبوءات فى التاريخ. وكان بوريللى قد مهد لها الطريق باكتشافه الشكل القطعى المكافىء لمسالك المذنبات (١٦٦٥) . فلما ظهر مذنب فى ١٦٨٢ وجد هالى فى مسلكه نظائر مع مذنبات سجلت فى ١٤٥٦ ، و ١٥٣١ ، و ١٦٠٧ ، وقد لاحظ أن هذا الظهور حدث فى فترات من نحو خمسة وسبعين عاما ، وتنبأ بظهور آخر فى ١٧٥٨ . ولم يفسح له فى الأجل ليرى تحقيق نبوءته ، ولكن حين عاد المذنب الى الظهور أطلق عليه اسمه ، واضاف الى مكانة العلم المتزايدة . وكان الرأى فى المذنبات حتى اخريات القرن السابع عشر انها من فعل الله مباشرة ، وانذار للنوع الانسانى بالويل والثبور وعظائم الامور ، ولكن مقالات بيل وفونتنيل، ونبوءة هالى ، قضت على هذه الخرافة . وطابق هالى بين مذنب آخر شوهد فى ١٦٨٠ ومذنب شوهد فى السنة التى مات فيها المسيح ، وتتبع تكرار ظهوره كل ٥٧٥ سنة ، ومن هذا الانتظام الدورى حسب

فلكه وسرعته حول الشمس ٠ وتعقيبا على هذه الحســـابات ، خاص نيوتن الى أن « أجسام المذنبات صلبة ، متماسكة ، ثابتـــة ، متينة ، كأجسام الكواكب » وأنها ليست « أبخرة ، أو دخـــانا من الارض ، والشمس ، والكواكب ، وغبرها (٢٥) » ٠ ×

وفى ١٦٩١ حيل بين هالى والكرسي الساقيلى للفلك باكسفورد للظن بانه مادى النزعـــة (٢٦) ٠ وفى ١٦٩٨ ، بتكليـــف من وليم الثالث ، أبحر موغلا فى الاطلنطى الجنوبى ، ودرس اختـــلافات البوصلة ، ورسم خرائط للنجوم كما ترى فى القارة القطبية الجنوبية (قال فولتير : ان رحلة ملاحى سفينة جاسون (الأرجونوت ، الباحثين عن الفروة الذهبية) اذا قيست بهذه الرحلة لم تكن أكثر من عبـــور مركب من ضفة نهر الى أخرى) (٢٧) ٠ وفى ١٧١٨ قـــرر هـــالى أن عدة نجوم من المفروض أنها « ثابتة » قد غيرت مواقعها منـــذ ايام اليونان ، وأن نجما منها وهو الشعرى اليمانية Sirius ، قد تغير منذ أيام براهى ، وبعد أن أخذ اخطاء الرصد فى حسابه ، خلص الى أن النجوم تغير مواقعها بالنسبة لبعضها البعض فى فترات كبرى ، وهذه « الحركات الخاصة » تقبل الآن على أنها حقيقية ٠ وفى ١٧٢١ عين خلفا لفلامستيد فى منصب فلكى الملك ، ولكن فلامستيد كان قد مات فى فقر مدقع ، فاستولى دائنوه على آلات رصده ، ووجد هالى أن عمله يعطله نقص الأجهزة وتناقص نشاطه ، ومع ذلك بدأ وهو فى الرابعة والستين يرصد ويسجل ظواهر القمر خلال دورته الكاملة ذات الثمانية عشر عاما ٠ ومات فى ١٧٤٢ وقد بلغ السادسة والثمانين ، بعد أن شرب بحكمة قدحا من النبيذ مخالفا أوامـــر طبيبه ٠ فالحيـــاة ، كالنبيذ سواء بسواء ، يجب الا يسرف فى تعاطيها ٠

× قبيل ذلك كان درايدن فى قصته الشعرية « أبشالوم وأخيتوفل » (١٦٨١) قد وصف المذنبات بانها « تنبعث من الابخرة الارضية فتســل أن تســـطع فى السماوات » ٠

٤ ـ الأرض

كان هالى فى ولعه بالعلم قد غامر بالخوض فى مجاهل الارصاد الجوية بمقال (١٦٩٧) فى الرياح التجارية ، وخريطة رسمت لأول مرة حركات الهواء . وقد عزا هذه الحركات لفروق فى درجات حرارة الجو وضغطه ، فالشمس فى حركتها الظاهرية الى الغرب تحمل الحرارة معها ، لا سيما على طول مناطق العالم الاستوائية ، والهواء الذى تخلخل بفعل هذه الحراره يجتذب هواء أقل تخلخلا من الشرق ويحدث الرياح الاستوائبة السائدة التى اعتمد عليها كولمبس فى ابحاره من الشرق الى الغرب . وكان فرانسس بيكون قد أوما الى تفسير شبيه بهذا . وسيطوره جورج هالى فى ١٧٣٥ باضافة هذا الرأى وهو أن السرعة الاكبر لدوران الارض الى الشرق عند خط الاستواء تحدث تدفقا عكسيا للهواء نحو الغرب .

وقد جعل تطور البارومتر والترمومتر من الارصاد الجوية علما . فبارومتر حويريكى تنبأ تنبؤا صحيحا بعاصفة شديدة فى ١٦٦٠ . واخترعت « مراطيب » مختلفة فى القرن السادس عشر لقياس الرطوبة . واستعملت « الاكاديميا ديل تشبمنتو » اناء مدرجا يتلقى الرطوبة المتساقطة من خارج مخروط معدنى مملوء بالثلج . ووصل هوك فرشاة حبوب ، أو « لحية » ـ تنتفخ وتنحنى مع زيادة الرطوبة فى الهواء ـ بابرة مؤشرة تتحرك عند انتفاخ الفرشاة . كذلك اخترع هوك مقياسا للريح ، وبارومترا ذا عجلة ، وساعة جوية . وهذه الساعة التى صممها بناء على تكليف من الجمعية الملكية (١٦٧٨) كانت تقيس وتسجل سرعة الريح واتجاهه ، وضغط الجو ورطوبته ، ودرجة حرارة الهواء ، وكمية المطر ، وتبين الوقت فوق ذلك . وشرعت المحطات فى مختلف المدن ، بعد ان سلحت بالآلات المحسنة ، تسجل وتقارن بين أرصادها الآنية ، كما حدث بين باريس واستكهولم فى ١٦٤٩ . وارسل الدوق الاكبر فرديناند الثانى أمير توسكانيا ، وراعى أكاديمية التشيمنتو ، البارومترات ، والترمومترات ، والمراطيب ، الى راصدين مختارين فى باريس ، ووارسو ، وانزبروك ، وغيرها ، ومعها تعليمات بتسجيل البيانات الرصدية يوميا ، وارسال نسخة منها الى فلورنسة

للمقارنة . وأقنع ليبنتز المحطات الجوية فى هانوفر وكيل بأن تحتفظ بسجلات يومية من ١٦٧٩ الى ١٧١٤ .

أما هوك ، الذكى الذى لم يحسم عملا ، فقد فتح عشرات من مسالك البحث المبشرة بالنجاح ، ولكن افتقاره الى المال والصبر اعجزه عن المضي فيها الى نهايات مشهورة . فنحن نجده فى كل مكان فى تاريخ العلم البريطانى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . كان ابن وزير « مات بتعليق نفسه (٢٨) » ، وأرهص بتنوع مواهبه ذلك التنوع المتذبذب ، فرسم الصور ، وعزف على الأرغن ، وابتكر ثلاثين طريقة مختلفة للطيران . وفى أكسفورد انصرف لدراسة الكيمياء ، وعمل مساعدا لروبرت بويل . وفى ١٦٦٢ عين « أمينا للتجارب » فى الجمعية الملكية ، وفى ١٦٦٥ كان أستاذا للهندسة بكلية جريشام ، وفى ١٦٦٦ ، بعد حريق لندن الكبير ، اشتغل بالعمارة وصمم عدة مبان كبيرة — كبيت مونتاجيو ، وكلية الاطباء ، ومستشفى بيت لحم (« بدلام ») . وبعد طول اكباب على الميكروسكوبات ، نشر رائعته «ميكروجرافيا» (١٦٦٥) الذى احتوى على عدد من الافكار الموحية فى علم الأحياء . وعرض نظرية فى الامواج الضوئية ، وساعد نيوتن فى البصريات ، وكان سباقا الى قانون المربعات العكسية ونظرية الجاذبية . وكشف النجم الخامس فى أوريون ، وقام بأول المحاولات ليحدد بالتلسكوب اختلاف منظر نجم ثابت . ثم عرض نظرية حركية للغازات فى ١٦٧٨ ، ووصف نظاما للتلغراف فى ١٦٨٤ . وكان من أوائل من استعملوا الزنبرك فى ضبط الساعات ، وأرسي مبدأ آلة السدس لقياس الأبعاد الزاوية ، وصنع اثنتى عشرة آلة علمية . وأغلب الظن أنه كان أعظم العقول أصالة فى كوكبة العباقرة التى جعلت من الجمعية الملكية حينا محدد الخطوة للعلم الاوربى ، ولكن طبيعته المكتئبة العصبية حالت بينه وبين ما كان جديرا به من ثناء ومديح .

وقد كان له حتى فى الجيولوجيا لحظة صدق . فقد زعم أن المتحفرات تدل على قدم الارض والحياة قدما يتعارض تماما مع سفر التكوين ، وتنبأ بأن تاريخ الحياة على الارض سيحسب يوما ما على أساس المتحفرات المختلفة فى الطبقات المتعاقبة . وكان اكثر كتاب القرن السابع عشر لا يزالون يقبلون قصة الخلق الكتابية ، وكافح

بعضهم للتوفيق بين سفر التكوين وكشوف الجيولوجيا المتفرقة · وفى مقال « نحو تاريخ طبيعى للارض » (١٦٩٥) ، أعاد جون وودوارد، بعد دراسة طويلة لمجموعته الكبيرة من المتحفرات ، تفسير ليوناردو دافنشي لها بأنها بقايا نباتات أو حيوانات عاشت يوما ما على الارض، ولكنه هو أيضا ذهب الى أن توزيع المتحفرات نتيجة لطوفان نوح · ثم اقترح قسيس انجليكانى يدعى توماس بيرنيت (١٦٨٠) التوفيق بين سفر التكوين والجيولوجيا بمده « أيام » أسطورة الخليفة كما وردت فى سفر التكوين الى حقب ، وتقبل الناس هذه الحيلة ، ولكن حين استجمع توماس أطراف شجاعته وراح يفسر قصة آدم على أنها رمز ، وجد نفسه محروما من الترقية للمناصب الكنسية ·

وكان اثناسيوس كيرشر يسوعيا تقيا وعالما فذا ، وسنراه يلمع فى ميادين عديدة · وقد رسم كتابه ، عالم ما تحت الأرض « (١٦٦٥) خرائط لتيارات المحيط ، ورأى أن المجارى الباطنية يغذيها البحر ، وعزا ثوران البراكين والعيون الساخنة لنيران باطنية ، وبدا هذا تاكيدا للاعتقاد الشائع بان الجحيم فى مركز الأرض · أما بيير بيرو (١٦٧٤) فقد رفض الفكرة القائلة بان العيون والانهار لها منابع باطنية ، وقال بالرأى المقبول الآن ، وهو أنها نتاج الامطار والثلوج · وعلل مارتن لستر ثوران البراكين بأنه نتيجة سخونة الكبريت فى كبريتور الحديد والانفجار المترتب على السخونة ، وأظهرت التجربة أن خليطا من برادة الحديد ، والكبريت ، والماء ، مدفونا فى الارض ، أصبح ساخنا وشقق الارض من فوقه ، ثم تفجر لهيبا ·

اما المع العلماء فى جيولوجية ذلك العصر فقد عرفته الدنمرك باسم نيلز ستينسن ، وعرفته دولية العلم باسم نيقولاوس ستينو · ولد فى كوبنهاجن ، ودرس الطب فيها وفى ليدن ، حيث سلك سبينوزا فى زمرة أصدقائه (٢٩) · ثم هاجر الى ايطاليا ، واعتنق الكاثوليكية واصبح طبيب البلاط لفرديناند الثانى فى فلورنسة · وفى ١٦٦٩ نشر مجلدا صغيرا اسمه De solido intra solidum naturaliter contento عده احد الطلبة « أهم وثيقة جيولوجية فى ذلك القرن (٣٠) » وكان هدفه تاكيد الراى الجديد فى المتحفرات ، ولكن على سبيل التمهيد له

وضع ستينو لأول مرة أسسا تشرح تطور القشرة الارضية . وقد وجد بدراسة جيولوجية توسكانيا ست طبقات متعاقبة . وحلل تركيبهـا ومحتوياتها ، وتكوين الجبال والاودية ، وأسباب البراكين والزلازل ، وشواهد المتحفرات على مستويات الانهار والبحار التى كانت أعلى فيما سبق من الأزمنة . وكان فى الشهرة التى حظى بها الكتاب ، وفى الدراسات التشريحية التى قام بها ستينو ، ما حمل الملك كرستيان الرابع على أن يعرض عليه كرسي التشريح فى جامعة كوبنهاجن . فقبله ، ولكن كاثوليكيته الغيور أحدثت شيئا من الاحتكاك ، فعاد الى فلورنسة ، وانتقل من العلم الى الدين ، واختتم حياته أسقفا لتيتوبوليس ونائبا رسوليا لشمالى أوربا .

وكانت الجغرافيا خلال ذلك تنمو ، عادة بوصفها نتاجا جانبيا للمشروعات التبشيرية أو العسكرية أو التجارية ، وقد أخلص اليسوعيون للعلم اخلاصهم للدين أو السياسة تقريبا ، وكان كثير منهم ينتمون الى جماعات علمية رحبت بتقاريرهم الجغرافية والاثنوغرافية . وقد تغلغلوا فى بعثاتهم الدينية فى كندا والمكسيك والبرازيل والتبت ومنغوليا والصين وجمعوا وأرسلوا الكثير من المعارف العلمية ، ورسموا أفضل الخرائط للمناطق التى زاروها . وفى ١٦٥١ نشر مارتينو مارتينى « الاطلس الصينى » وهو أرقى وصف جغرافى للصين طبع الى ذلك التاريخ ، وفى ١٦٦٧ أصدر أثناسيوس كيرشر كتابه الرائع « الصين المصورة » . وأوفد لويس الرابع عشر علماء يسوعيين مزودين بأحدث الآلات لرسم خريطة الصين ثانية ، وفى ١٧١٨ أصدروا خريطة هائلة فى ١٢٠ فرخا تغطى الصين ومنشوريا ومنغوليا والتبت ، وقد ظلت مدى قرنين الاساس لكل ما تلاها من خرائط لتلك المناطق . أما أعجوبة العصر الخرائطية فهى الخريطة التى بلغ قطرها أربعة وعشرين قدما ، والتى رسمها جوفانى كاسينى ومساعدوه بالجير على أرضية مرصد باريس (حوالى ١٦٩٠) ، وبينوا عليها بالضبط مواقع جميع الاماكن الهامة على الكرة الارضية بخطوط العرض والطول (٣١) .

وينتمى لهذه الفترة بعض مشاهير الرحالة . وقد ألمنا من قبل

بكتاب تافرنييه « ست رحلات من أوربا لآسيا » (١٦٧٠) وكتاب شاردان « رحلات فى فارس » (١٦٨٦) . كتب تافرنييه يقول « فى رحلاتى الست ، وأثناء سفرى بطرق مختلفة ، أتيح لى من الفراغ والفرص ما مكننى من مشاهدة تركيا كلها ، وفارس كلها ، والهند كلها ... وفى المرات الثلاث الاخيرة جاوزت نهر الجنج الى جزيرة جاوة ، وهكذا قطعت فى اربعين عاما اكثر من ستين الف فرسخ بالبر (٣٢) » . أما شاردان فقد سبق بعبارة واحدة « روح قوانين » مونتسكيو . قال : « ان مناخ كل جنس ... هو دائما السبب فى ميول شعبه وعاداته (٣٣) » . وفى ١٦٧٠ — ٧١٠ نشر فرانسوا برنييه وصفا لرحلاته ودراساته فى الهند ، وقد اتهم بانه نفض عنه مسيحيته فى الطريق (٣٤) . وغامر وليم دامبييه بالرحلة فى عشرات الاقطار والبحار ، وكتب « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) وأعطى اشارة البدء لديفو حين روى كيف قاد فى احدى رحلاته الاخيرة السفينة التى انقذت الكسندر سيلكرك من جزيرة لابسكنها غيره (١٧٠٩) .

ولعبت الجغرافيا دورها فى الغض من اللاهوت المسيحى . فكلما تجمعت الاخبار عن القارات الاخرى لم تملك الطبقات الأوربية المتعلمة الا العجب من اختلاف الاديان على ظهر الأرض ، والتشابه بين الخرافات الدينية ، ووثوق كل دين من صدق عقيدته ، والمستوى الخلقى للمجتمعات الاسلامية أو البوذية ، ذلك المستوى الذى أخزى من بعض الوجوه تلك الحروب الدامية وذلك التعصب القتال الذى يشين شعوبا وهبت الايمان المسيحى . وروى البارون دلاهونتان أنه فى رحلته فى كندا عام ١٦٨٣ لقى عنتا من جراء نقد الوطنيين الهنود للمسيحية (٣٥) ، واستشهد بيل المرة بعد المرة بعادات الصينيين أو اليابانيين وافكارهم فى نقده المعتقدات وأساليب العيش الأوربية . وأصبحت نسبية الأخلاق من البديهيات فى فلسفة القرن الثامن عشر ، ووصف أحد الظرفاء اسفار « جاك سيدان » الخنثى ، الذى ابتهج حين وجد بلدا كل أهله لوطيون ، ينظرون الى الأوربيين الذين يشتهون الجنس الآخر نظرتهم الى هولاء فاسقة مقززة .

٥ ـ الفيزيـــاء

كان اصطدام الفيزياء والكيمياء بالعقيدة القديمة أقل ظهورا من اصطدام الجغرافيا والاحياء بها ، لانهما تتناولان الجوامد والسوائل والغازات التى تبدو انها لا علاقة لها باللاهوت ، ولكن تقدم العلم ـ حتى فى ذلك المضمار المادى ـ كان ينشر حكم القانون ويضعف الايمان بالمعجزات . واعتمدت دراســة الفيزياء على الحاجات التجـــارية والصناعية لا على الاهتمامات الفلسفية .

وبعد أن أقنع الملاحون الفلكيين برسم خرائط للسماء بدقة أكثر ، عرضوا الآن المكافآت على من يضع ساعة تعين على ايجاد خط الطول رعم اضطرابات البحر . وكان فى الامكان تحديد خط الطول فى البحر بمقارنة لحظة شروق الشمس أو الزوال بالزمن الذى تظهره فى تلك اللحظة ساعة ضبطت على وقت جرينتش أو باريس ، ولكن ما لم تكن الساعة دقيقة فان الحساب يخطىء خطأ خطرا . وفى ١٦٥٧ توصـل هويجنز الى صنع ساعة يعتمد عليها بوصـل بندول بترس شـــاكوش مسنن، ولكن ساعة كهذه عديمة النفع فى مركب يعلو ويهبط × . وبعد محاولات كثيرة ، ركب هويجنز ساعة بحرية ناجحة باحلاله محـــل البندول ترس توازن يديره زنبركان . وكانت الفكرة من بين الاقتراحات المنيرة التى فصلها فى كتاب من عيون العلم الحديث « ساعة البندول » ، وقد نشره فى باريس عام ١٦٧٣ . وبعد ثلاث سنوات اخترع هوك شاكوش الساعات الكبيرة المثبت ، واستعمل الزنبرك اللولبى على ترس توازن الساعات ، وشرح حركة الزنبرك على أساس مبدأ « كما يكون الشـــد تكون القوة » ومازال هذا يسمى قانون هوك . وأمكن الآن أن تصـنع ساعات الجيب صناعة أكفأ وأرخص من ذى قبل .

وقد درس هويجنز فى كتاب « ساعة البندول Horologium

× رسم ليوناردو دافنشي حوالى عام ١٥٠٠ رسوما لبندول وشاكوش، ساعة ووضع جاليليو بعض قوانين البندول ، وتصور فكرة ساعة البندول فى ١٦٤١ ، ولكنه مات قبل أن يطبق الفكرة عمليا . وفى ١٦٥٦ صنع كاميرينى ساعة صغيرة ببندول قبل هويجنز ببضعة شهور فقط .

وفى كتيب خاص قانون القوة المركزية الطاردة - ومؤداه ان كل جزىء فى جسم دائر لا يقع فى محور الدوران معرض لقوة طرد مركزية تزداد مع بعده عن المحور ومع سرعة الدوران • وصنع كرة من طفـل تدور بسرعة ، ووجد انها تتخذ شكلا كروانيا مفرطحا عند طرفى المحور • وعلى مبدأ الطرد المركزى هذا فسر فرطحة المشترى عند قطبيه ، وقياسا على ذلك استنتج ان الأرض أيضا لابد أن تكون مفرطحة فرطحة طفيفة عند القطبين •

وواصل كتاب **هويجنز** Tractatus de Motu Corporum ex Percussione (١٧٠٣) الذى نشر بعد موته بثمانى سنوات ، الدراسات التى قام بها جاليليو ، وديكارت ، ووالبس فى مشكلات التصادم (impact) التى تناولت أسرارا مثيرة للفضول ، من لعب البليـارد الى تصـادم النجوم • فكيف تنتقل القوة من جسم متحرك الى جسم يضربه ، ولم يحل هويجنز اللغز ،ولكنه قرر مبادىء أساسية :

١ - اذا كان هناك جسم ساكن وصدمه جسم مساو له ، فان هذا ينتهى الى السكون بعد الصدمة ، فى حين يكتسب الجسم الذى كان فى البدء ساكنا سرعة الجسم الذى صدمه •

٢ - اذا اصطدم جسمان متساويان بسرعتين مختلفتين ، فانهما يتحركان بعد الصدمة بسرعتين متبادلتين •

١١ - اذا تصادم جسمان فان مجموع حاصل ضرب الكتلتين فى مربعى سرعتيهما واحد قبل الصدمة وبعدها •

وقد عبرت هذه القضايا التى صاغها هويجنز فى ١٦٦٩ تعبير جزئيا عن اشمل أساس من أسس الفيزياء الحديثة ، وهو عدم فنـاء الطاقة • على أنها كانت صادقة من الناحية المثالية او النظرية فقط ، لأنها افترضت المرونة التامة فى الاجسام • ولمـا لم يكن فى الطبيعة جسم مرن مرونة كاملة ، فان السرعة النسبية للاجسام الصادمة تتناقص حسب المادة التى تتألف منها • وقد حدد نيوتين معدل التناقص هـذا فى الخشب ، والفلين ، والصلب ، والزجاج ، فى التعليق التمهيدى للجزء الاول من كتابه « المبادىء » (١٦٨٧) •

وتدفق نهر آخر من أنهار البحث العلمي من التجارب التى اجراها توريتشللى وبسكال على الضغط الجوى ، فقد أعلن بسكال فى ١٦٤٧ أن « أى اناء مهما كان كبره ، يمكن افراغه من كل مادة معـــروفة فى الطبيعة ومدركة بالحواس (٣٧) » وقد ظلت الفلسفة الأوربية مئـــات السنين تعلن أن « الطبيعة تكره الفراغ » ، وحتى الآن أخبر أســتاذ باريسي بسكال ان الملائكة ذاتها لا تستطيع أن تحدث فراغـــا ، وقال ديكارت بازدراء ان الفراغ الوحيد الموجود هو فى رأس بسكال · ولكن حدث حوالى عام ١٦٥٠ أن أوتو فون جويريكى ركب فى مجـــدبورج مضخة هوائية أحدثت فراغا كاملا تقريبا ، حتى لقـــد أدهش كبـــار مواطنيه واقطاب العلم بتجربة شهيرة اسمها « نصفا كرة مجدبورج » (١٦٥٤) · ففى حضرة الامبراطـــور فردينـــاند الثـــالث والديت الامبراطورى فى راتزيون قرب محارتين نصـــف كرويتين من البرونز الواحدة من الاخرى بحيث أحكم خنمهما دون أن يوصلا آليا عند حافتيهما وضخ كل الهواء تقريبا من داخليهما الملتصقين ، ثم أرى الحاضرين أن القوة المجتمعة لستة عشر حصانا ـ ثمانية منها تشد فى اتجاه ، وثمانية فى اتجاه مضاد ـ لا تستطيع فصل نصفى الكرة ، ولكن حين فتح محبس فى أحد النصفين فادخل الهواء ، أمكن فصل المحارتين باليد ·

وكان جويريكى شغوفا بتبسيط الفيزياء للأباطرة · فاســـتطاع بتفريغ كرة نحاسية من الماء والهواء أن يجعلها تسقط بفرقعة عاليـــة مفزعة ، وبهذه الطريقـــة أوضـــح ضغط الهواء · ووازن بين كرتين متساويتين ، وأسقط احداهما بتفريغه الهواء من الاخـــرى ، وهكذا أثبت أن للهواء وزنا ، واعترف بأن كل الفراغات ناقصة ، ولكنه أثبت أن فى فراغاته الناقصة تلك تنطفىء الشعلة ، وتختنق الحيـــوانات ، وتسكت الساعة الدقاقة ، وهكذا مهد للكشف عن الاوكسجين ، وبين أن الهواء ناقل الصوت · واستعمل امتصاص الفـــراغ لضخ الماء ورفـــع الأثقال ، وأسهم فى التمهيد للآلة البخارية · فلمـــا أصـــبح عمـــدة مجدبورج آخر نشر كشوفه حتى عام ١٦٧٢ ، ولكنه ابلغها لكاسبار شوت أستاذ الفيزياء اليسوعى بفورتزبورج ، الذى طبع وصـــفا لهـــا فى ١٦٥٧ · وهذا المطبوع هو الذى حفز بويل الى بحوثه التى افضت الى قانون الضغط الجوى ·

أما روبرت بويل فكان عاملا هاما فى ازدهار العلم الانجليزى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . كان أبوه رتشرد بويل ، ايرل كورك ، قد اقتنى ضيعة كبيرة فى ارلنده ، ورث روبرت معظمها وهو فى السابعة عشرة (١٦٤٤) ، وفى زياراته المتكررة للندن تعرف الى واليس ، وهوك ، ورن ، وغيرهم من أعضاء « الكلية غير المنظورة » ، فلما افتتن بجهودهم وتطلعاتهم انتقل الى اكسفورد وبنى بها مختبرا (١٦٥٤) . وكان رجلا ذا حماسات حارة وورع لا قبل لعلم من العلوم بتدميره . فقد رفض أن يمضي فى الاتصال بسبينوزا (عن طريق أولدنبورج) حين علم أن الفيلسوف يعبد « الجوهر » باعتباره الله ، ولكنه وضع قدرا كبيرا من ثروته فى خدمة العلم وأعان الكثيرين من أصحابه . كان طويلا ، نحيلا ، هزيلا معتلا أكثر الوقت ، ولكنه أوقف الموت على مبعدة منه بالحمية والتقشف الصارمين ، وقد وجد فى مختبره « ماء نهر النسيان ، ذلك الماء الذى ينسينى كل شيء الا بهجة اجراء التجارب (٣٨) » .

وبعد أن سمع بويل بمضخة جويريكى الهوائية ، صمم بمساعدة هوك (١٦٥٧) « آلة هوائية » لدراسة خواص الغلاف الغازى . وبهذه الآلة وما تلاها من مضخات أثبت أن عمود الزئبق فى البارومتر يسنده الضغط الجوى ، وقاس بالتقريب كثافة الهواء . وزاد على تجربة جاليليو المزعومة فى بيزا باثباته أن حزمة الريش تسقط بنفس سرعة سقوط الحجر ، حتى فى فراغ غير كامل . وبرهن على أن الضوء لا يتأثر بالفراغ ، واذن فهو لا يستعمل الهواء كما يستعمله الصوت وسيطا لانتقاله ، وأيد برهان جويريكى على أن الهواء لا غنى عنه للحياة (فحين أغمى على فار فى الحجرة المفرغة ، أوقف التجربة وأنعشه بادخال الهواء) . ونحن نرى دولية العلم فى تحركها حين نعلم أن جويريكى حفزته جهود بويل ليصمم مضخة هوائية أفضل ويستأنف دراساته العلمية ، وأن هويجنز ، بعد زيارته لبويل عام ١٦٦١ ، أغرى بصنع آلات شبيهة والقيام باختبارات مماثلة .

ومضي بويل فى أبحاثه الخلاقة فى الانكسار ، والبللورات ، والاوزان النوعية ، والهيدروستاتيكا ، والحرارة . وتوج اسهاماته فى الفيزياء بصياغته القانون الذى يحمل اسمه : وهو أن ضغط الهواء أو

اى غاز يتناسب تناسبا عكسيا مع حجمه ـ أو ان ضغط الغاز مضروبا فى حجمه يكون ثابتا عند درجة حرارة ثابتة . وقد أذاع هذا المبدأ أول مرة فى ١٦٦٢ ، وفى سماحة وكرم نسب الفضل فيه الى تلميذه وتشرد تاونلى . وكان هوك قد توصل الى الصيغة ذاتها فى ١٦٦٠ بتجارب مستقلة ، ولكنه لم يذعها الا فى ١٦٦٥ . وتوصل قس فرنسي يدعى ادمى ماريوت فى نحو الوقت الذى توصل فيه بويل الى نتيجة مماثلة ، وهى « ان الهواء ينضغط حسب الثقل الواقع عليه » ، ونشر هذا فى ١٦٧٦ ، واسمه لا اسم بويل هو المرتبط فى القارة بقانون الضغط الجوى . وأيا كان صاحب الفضل فى القانون ، فانه كان من أسلاف الآلة البخارية والثورة الصناعية .

وتابع بويل وهوك رأى بيكون فى ان « الحرارة حركة تمدد لا فى الجسم كله بشكل منتظم ، بل فى أجزائه الصغرى (٣٩) » . وقد وصف هوك الحرارة بأنها « خاصية تنشأ فى جسم ما من حركة أجزائه أو هيجانها » ، وميز بينها وبين النار واللهب ، اللذين نسبهما الى فعل الهواء فى الاجسام المحماة . قال « كل الاجسام لها درجة ما من الحرارة فيها » وذلك لأن « أجزاء جميع الاجسام وان لم تكن شديدة الصلابة الا أنها تتذبذب قطعا (٤٠) » ، أما البرودة فليست الا مفهوما سلبيا . وسلى ماريوت أصحابه حين أراهم أن « البرودة » يمكن أن تحترق ، فبلوح مقعر من الثلج ركز ضوء الشمس على البارود فانفجر . وقد أذاب الكونت ايرنفريد فالتر فون تشيرنهاوس ، صديق سبينوزا ، الخزف الصينى والريالات الفضية بتركيزه ضوء الشمس عليها .

وفى فيزياء الصوت برهن انجليزيان ـ هما وليم نوبل وتوماس بيجوت ـ كل على حدة (نحو ١٦٧٣) على أن أجزاء مختلفة من الوتر ، لا الوتر كله فحسب ، قد تتذبذب بنغمات توافقية ، تجاوبا مع وتر قريب ومتصل ، ينقر أو يضرب أو يثنى . وقد اقترح ديكارت هذا على ميوسين ، وعملا بهذه الفكرة توصل جوزف سوفير ، مستقلا الى نتائج شبيهة بما توصل اليه الانجليزيان (١٧٠٠) ، ويجدر بنا ان نشير هنا الى أن سوفير ، الذى كان أول من استعمل كلمة acoustics « السمعيات » ، كان اصم أبكم منذ ولادته (٤١) . وفى ١٧١١ اخترع

جون شور الشوكة الرنانة . وقام بوريللى ، وففيانى ، وبيكار ، وكاسينى ، وهويجنز ، وفلامستيد ، وبويل ، وهالى ، ونيوتن ، بمحاولات فى هذه الفترة لايجاد سرعة الصوت . وكان أقرب تقدير لتقديرنا الحالى هو تقدير بويل ، الذى قرر انها تبلغ ١٢٦ر١ قدما فى الثانية . وقرر وليم ديرام (١٧٠٨) أن هذه المعرفة يمكن الانتفاع بها فى حساب بعد العاصفة بملاحظة الفترة بين وميض البرق والصاعقة .

ولعل النصف الثانى من القرن السابع عشر ازهى فترة فى تاريخ فيزياء الضوء ، فاولا ، ما هذا الضوء ؟ لقد غامر هوك ، وهو المستعد دائما للتنقيب عن الصعوبات ، برأى يزعم أن الضوء « ليس الا حركة خاصة لأجزاء الجسم المضيء (٤٢) » - أى أن الضوء لا يختلف عن الحرارة الا فى الحركة الاسرع التى تتحركها الجزيئات × المكونة للجسم . ثانيا ، ما مدى سرعة تحركه ؟ لقد افترض العلماء الى ذلك الحين أن سرعة الضوء غير محدودة ، وحتى هوك المغامر قال انها على أية حال اكبر من أن تقاس . وفى ١٦٧٥ برهن فلكى دنمركى يدعى أولاوس رويمر ، استقدمه بيكار الى باريس ، على سرعة الضوء المحدودة ، اذ لاحظ أن فترة خسوف أقرب التوابع الى قلب المشترى تتفاوت حسب اقتراب الارض أو ابتعادها من ذلك الكوكب . وقد أثبت بحسابات مبنية على زمن دورة التابع وقطر فلك الارض ، أن التفاوت فى زمن الخسوف الملحوظ راجع الى الزمن الذى يستغرقه الضوء من التابع ليقطع فلك الارض ، وعلى هذا الاساس الهزيل حسب سرعة الضوء بنحو ١٢٠٫٠٠٠ ميل فى الثانية (وتقديرنا الحالى يبلغ ١٨٦٫٠٠٠ ميل) .

ولكن كيف ينتقل الضوء ؟ أيتحرك فى خطوط مستقيمة ، اذا كان الأمر كذلك فكيف يدور حول الزوايا ؟ لقد اكتشف فرانشسكو جريمالدى ، الاستاذ اليسوعى ببولونيا ، (١٦٦٥) ظاهرة الانحراف

× قارن المفهوم الحالى للضوء ، وهو أنه طاقة مشعة مرئية . فكل الاجسام يعرض انها ترسل باستمرار طاقة مشعة . والاشعاع من أجسام أدفأ من جسم الانسان يحس بها الجلد حرارة ، ولكن اذا زيدت درجة حرارة الجسم زيادة كافية أصبح مضيئا - اى ان بعض اشعاعه المنبعث تحسه العين ضوءا .

وسماها - وهى ان اشعة الضوء المارة من ثقب صغير الى حجرة مظلمة تنتشر على الحائط المواجه باتساع أكبر مما تتيجه الخطوط المستقيمة من المصدر الى الحائط ، وان أشعة الضوء تنحرف انحرافا طفيفا عن الخط المستقيم حين تمر باطراف جسم معتم ، وقد أفضت هذه الكشوف وغيرها بجريمالدى الى قبول الرأى الذى ألمع اليه ليوناردو دافنشي ، وهو أن الضوء يتحرك فى موجات متسعة ٠ ووافق هوك ، ولكن هويجنز هو الذى أثبت نظرية الموجات التى مازالت شائعة بين الفيزيائيين ٠ وفى كتاب آخر من عيون العلم الحديثة بدعى « رسالة فى الضوء » (١٦٩٠) أورد هويجنز النتائج التى توصل اليها من دراسات بدات قبل اثنتى عشرة سنة : وهى أن الضوء تنقله مادة افتراضية سماها « الأثير » (عن المرادف اليونانى للسماء) ، وتصور أنها تتألف من اجسام صغيرة ، قاسية ، مرنة ، تنقل الضوء فى موجات دائرية متعاقبة تنتشر خارجة من المصدر المضيء ٠ وعلى هذه النظرية أسس قوانين الانعكاس ، والانكسار المزدوج ، وعزا للحركة المغلفة للأمواج قدرة الضوء على الحركة حول الاركان والاجسام المعتمة ، وفسر الشفافية بأن افترض أن جزيئات الاثير من الدقة بحيث تستطيع أن تجافر حول الجزيئات التى تؤلف السوائل والجوامد الشفافة وبينها ٠ ولكنه اعترف بعجزه عن تعليل الاستقطاب ، وهذا من أسباب رفض نيوتن لفرض الموجات وتفضيله نظرية الجزيئات الضوئية ٠

ولم يحرز القرن السابع عشر غير تقدم متواضع فى دراسة الكهرباء بعد العمل الذى قام به جلبرت وكيرشر فى ميدان المغنطيسية ، وكابيو فى التنافر الكهربى ٠ وقد درس هالى تاثير المغنطيسية الارضية فى ابر البوصلة ، وكان اول من تبين الصلة بين مغنطيسية الأرض والفجر الكاذب aurora borealis (١٦٩٢) ٠ ووصف جويريكى فى ١٦٧٢ بعض تجاربه فى كهرباء الاحتكاك ٠ فالكرة من الكبريت ، بعد أن أديرت على يده ، جذبت الورق ، والريش ، وغيرهما من الاجسام الخفيفة ، وحملتها معها فى دورانها ، وقد ربط بين هذا وبين حركة الارض اذ تحمل معها الاجسام التى على سطحها أو بقربه ٠ وتحقق من التنافر الكهربى اذ اثبتت أن الريشة اذا وضعت بين الكرة المكهربة وأرضية الحجرة تقفز الى أعلى وأسفل من الواحدة الى الأخرى ٠ وكان رائدا فى دراسة التوصيل ، اذ برهن على أن الشحنة الكهربية تستطيع

أن تسافر على خيط من الكتان ، وان الأجسام يمكن أن تتكهرب بتقريبها من الكرة المكهربة . وقد ابتكر فرانسس هوكسبى ، عضو الجمعية الملكية (١٧٠٥ — ٩) طريقة أفضل لتوليد الكهرباء بادارته كرة زجاجية مفرغة دورانا سريعا ، ثم وضعها على يده ، وقد انبعث من الاحتكاكات شرر طوله بوصة أحدث ضوءا يكفى للقراءة . وشبه انجليزى آخر يدعى وول ، صوت وضوء شرر مماثل أحدثه ، بالرعد والبرق (١٧٠٨) . وعقد نيوتن نفس المقارنة فى ١٧١٦ ، وأكد فرانكلن العلاقة فى ١٧٤٩ . وهكذا نرى الكون الهائل المستغلق ، سنة بعد سنة ، وعقلا بعد عقل ، يفضي بنتفه مغرية من سره المكنون .

٦ — الكيمياء

شهد هذا القرن الرائع علم الكيمياء يتطور من تجارب الخيمياء وأوهامها . وكانت الصناعة منذ زمن تجمع المعرفة الكيميائية عن طريق عمليات صهر الحديد ، ودبغ الجلود ، ومزج الأصباغ ، وتخمير الجعة ، ولكن فحص المواد فى تركيبها ، واتحادها ، وتحولها ، كان فى أغلبه متروكا للمشتغلين بالخيمياء الباحثين عن الذهب ، أو للصيادلة المجهزين للعقاقير . أو للفلاسفة — من ديموقريطس الى ديكارت — الحائرين فى تركيب المادة . وقد حاول أندرياس ليبافيوس فى ١٥٩٧ ، وجان فان هيلمونت فى ١٦٤٠ ، الدخول الى علم الكيمياء ، ولكن كلا الرجلين شارك الخيميائيين أملهم فى تحويل المعادن « الخسيسة » ذهبا . وقام بويل نفسه بتجارب بهذا الهدف . ففى ١٦٨٩ حصل على الغاء لقانون انجليزى قديم ضد «تكثير الذهب والفضة (٤٣) » ، وعند وفاته (١٦٩١) خلف لمنفذى وصيته كمية من التراب الاحمر وتعليمات بمحاولة تحويلها الى ذهب (٤٤) . والآن وقد أصبح تحويل المعادن « كلشيها » للكيمياء ، فان فى وسعنا ان نشيد بالعلم الذى انطوت عليه الخيمياء بينما ندين اللهفة على الذهب وتخفيها .

وكانت أعظم لطمة وجهت الى الخيمياء هى نشر كتاب بويل « الكيميائى الشكاك » (١٦٦١) وهو أول كتاب من عيون تاريخ

الكيمياء . وقد اعتذر فيه عن « السماح » لبحثه هذا « بان يذاع وهو مبتور ناقص على هذا النحو (٤٥) » . ولكنه ـ وهو يعانى من علل كثيرة ـ عديم الثقة فى أنه سيعمر طويلا . على أن مما يعـــزيه « أن يلحظ ان الكيمياء بدأت أخيرا تحظى بما هى جديرة به حقا من رعاية العلماء الذين كانوا من قبل يحتقرونها (٤٦) » . ووصف كيمياءه بأنها شكاكة لأن من رأيه رفض جميع التفسيرات الغيبية والخصائص السحرية لأنها « محراب الجهل » وهو مصمم على الاعتماد على « التجـارب لا الأقيسة المنطقية (٤٧) » . وقد هجر ذلك التقسيم التقليدى للمادة الى العناصر الاربعة ، الهواء ، والنار ، والماء ، والتراب : وقال ان هذه مركبات لا عناصر ، أما العنـــاصر الحقيقية فهى على الأصـــح « أجسام معينة بدائية وبسيطة ، أو غير مختلطة اطلاقا ، ولأنها ليست مؤلفة من أى أجسام أخرى أو من بعضـــها البعض » فهى المكونات لجميع المركبات ، ويمكن ن تحلل اليهاكل المركبات . ولم يقصـد أن العناصر هى المكونات النهائية للمادة ، فهـــذه العناصر الطبيعيـة المتناهية الصغر هى فى رأيه جزيئات دقيقة لا ترى بالعين المجردة ، مختلفة شكلا وحجما ، كذرات لوكيبوس . ومن تنوع هذه الجزيئات وتحركها ، ومن اتحادها فى « كريات » ، تنشأ كل الاجسام ، وكل صفاتها وأحوالها ، كاللون ، والمغنطيسية ، والحـــرارة ، والنار ، وذلك بطرق وقوانين ميكانيكية خالصة .

وقد استهوت النار العلماء استهواءها للحالمين عند المدافىء . فما الذى يجعل المادة تحترق ؟ وما تفسير هذه الالسنة الدائمة التغير من اللهب الجميل ، العاتى ، الرهيب ؟ فى سنة ١٦٦٩ رد كيميائى ألمانى يدعى يوهان بيشير كل « العنـــاصر » الى عنصرين ـ المـــاء والتراب ، وسمى شكلا من أشكال التراب ، « التراب الزيتى »، الذى اعتقد بوجوده فى جميع الاجسام القابلة للاشتعال ، وهـــذا هو الذى يحترق . وفى القرن الثامن عشر سنرى جيورج شتال ـ الذى اتبـع هذا الرأى الخاطىء ـ ينحرف بالكيمياء عشرات السنين بنظـــرية مماثلة هى نظرية اللاهوب phlogiston . على أن بويل ســلك مسلكا آخر . فقد لاحظ أن مواد محترقة مختلفة تكف عن الاحتراق فى الفراغ ، فاستنتج أن « فى الهواء جوهرا حيويا صغيرا ... يعين

على انعاش حيويتنا واسترجاعها (٤٨) » • وتقدم معاصره الاصغر جون مايوو ، وكان هو أيضا ينتمى للجمعية الملكية ، (١٥٤٧) صوب نظريتنا الحالية عن النار بان افترض أن من بين مكونات الهواء مادة تتحد بالمعادن حين تتكلس (تتاكسد) ، واعتقد ان مادة مماثلة تدخل أجسامنا فتغير الدم الوريدى الى دم شريانى • وكان لابد أن تنقضي مائة عام قبل أن يكتشف شيل وبريستلى الأوكسجين نهائيا •

وحوالى عام ١٦٧٠ اكتشف كيميائى ألمانى يدعى هينيج براند أن فى استطاعته أن يحصل من بول الانسان على مادة كيميائية تتوهج فى الظلام دون تعريض تمهيدى للضوء • وعرض كيميائى من درسدن يدعى كرافت هذا النتاج الجديد أمام تشارلز الثانى بلندن فى ١٦٧٧ • ولم يستطع بويل أن يستخلص من كرافت المتكتم الا الاعتراف بأن المادة المضيئة « شيء ينتمى الى جسم الانسان (٤٩) » • وكان فى الاشارة ما يكفى ، فسرعان ما حصل بويل على كميته من الفوسفور ، وأثبت بسلسلة من التجارب كل ما نعرفه الى الآن عن توهج ذلك العنصر • وكان النتاج الجديد يكلف المشترين ست جنيهات (٣١٥ دولارا ؟) للأوقية رغم وفرة مصدره •

٧ ـ التكنولوجيا

كانت الصناعة ـ الى القرن التاسع عشر ـ تحفز العلم أكثر مما يحفز العلم الصناعة ، وكانت المخترعات الى القرن العشرين تخترع فى المختبر اقل مما تخترع فى المتجر أو الحقل • ولعل العمليتين سارتا جنبا الى جنب فى أهم الحالات جميعا ، وهى تطوير الآلة البخارية •

وقد صنع هيرو الاسكندرى ، فى القرن الثالث الميلادى أو قبله ، عدة آلات بخارية ، ولكنها على قدر علمنا كانت تستعمل لعبا أو عجائب تسلى الجماهير أكثر منها أجهزة تحل محل الطاقة البشرية • وفى أوائل القرن السادس عشر وصف ليوناردو دافنتشي بندقية تستطيع بضغط البخار أن تدفع مسمارا جديديا مسافة الف ومائتى ياردة ، ولكن مخطوطاته العلمية لم تنشر الا عام ١٨٨٠ • وقد ترجمت بعض كتابات هيرو اليونانية الى اللاتينية فى ١٥٧٥ ، والى الايطالية فى ١٥٨٩ •

وذكر جيروم كاردان (١٥٥٠) وجامباتستا ديللا بورتا (١٦٠١) أن فى الامكان احداث فراغ بتكثيف البخار ، ووصف بورتا آلة لاستخدام ضغط البخار لرفع عمود من الماء • ومثل هذه الاستخدامات للبخار المتمدد اقترحها سالومون دكاوس بباريس فى ١٦١٥ وبرانكا بروما فى ١٦٣٠ • وحصل ديفد رامسي من تشارلز الاول ملك انجلترة على براءة بآلات « لرفع الماء من الحفر المنخفضة بالنار ••• وتشغيل أى نوع من المصانع على المياه الساكنة بالحركة المستمرة ، دون مساعدة من الرياح أو الاثقال أو الخيل (٥٠) » • وفى ١٦٦٣ حصل ادوارد سومرست ، مركيز ورستر ، من البرلمان على احتكار مدته تسعة وتسعون عاماً لـ « أعجب عمل فى العالم كله » ـ وهو « آلة تتحكم فى الماء » ترفع الماء لارتفاع أربعين قدما (٥١) ، وبهذه الآلة أراد أن يشغل المصانع المائية لجزء كبير من لندن ، ولكنه مات قبل أن ينفذ خطته • وحوالى ١٦٧٥ اخترع صموئيل مورلاند ، كبير ميكانيكية تشارلز الثانى ، المضخة الكابسة ، وفى ١٦٨٥ نشر أول وصف دقيق لقوة تمدد البخار • وفى ١٦٨٠ صنع هويجنز أول آلة غازية باسطوانة ومكبس تدار بالقوة الممددة للبارود المتفجر •

وذهب دنى بابان ، المساعد الفرنسي لهويجنز ، الى انجلترة واشتغل مع بويل ، ونشر عام ١٦٨١ وصفا لـ « مهتضمة digester » ـ وهى حلة ضغط لتطرية العظم بماء يغلى فى اناء مقفل • ولكى يمنع انفجار الاناء وصل بقمته انبوبة يمكن ان تفتح اذا بلغ الضغط نقطة معينة ، وقد لعب « صمام الأمن » الأول هذا دورا منقذا فى تطوير الآلة البخارية • وزاد بابان على ذلك بان أثبت أن قوة البخار يمكن نقلها غازيا بأنبوبة من مكان لآخر • ولما انتقل الى ماربورج بالمانيا عرض (١٦٩٠) أول آلة استعمل فيها تكثيف البخار ، الذى يحدث فراغا ، لدفع مكبس • وقد ألمع الى قدرات هذه الآلة على قذف القنابل ، ورفع المياه من المناجم ، ودفع المراكب بعجلات تغديف ، وفى ١٧٠٧ (أى قبل قرن بالضبط من ابحار سفينة فولتون « كليرمون » مصعدة على نهر هدسون) استخدم آلته البخارية فى تسيير زورق بدولاب تغديف على نهر فولدا بكاسل (٥٢) • ولكن الزورق تحطم ، وثبط الحكام الالمان تطوير القوة المكنية لاطمئنانهم الى الاوضاع الراهنة آنئذ ، وربما لخوفهم من انتشار البطالة •

وعرض توماس سافوى على مجلس البحرية بانجلترة جهازا مماثلا حوالى ١٧٠٠ ، ولكن الجهاز رفض بهذا التعليق ــ فيما روى ــ « أى شأن للمتطفلين الذين لا صلة لهم بنا بتصميم أو اختراع اشياء لنا ؟ (٥٤) » وقدم سافوى عرضا لاختراعه على نهر التيمز ، ولكن البحرية رفضته ثانية . وفى ١٦٩٨ سجل أول آلة بخارية استعملت فعلا فى ضخ الماء من المناجم . وفى ١٦٩٩ منح براءة خولت له لمدة أربعة عشر عاما « احتكار استعمال اختراع جديد ... لرفع الماء واحداث الحركة بقوة النار الضاغطة ، سيكون ذا فائدة كبرى فى نزح المناجم ، وتوفير المياه للمدن ، وتشغيل المصانع بجميع أنواعها (٥٥) » على أنه تبين أن آلات سافوى غالية وخطرة . فقد كان لها صنابير للقياس ولكن لم يكن لها صمامات امن ، وكانت عرضة لانفجارات الغلايات ، ومع انها استخدمت فى بعض المناجم لنزح الماء منها ، الا أن أصحاب المناجم عادوا سريعا الى استخدام الخيل فى هذه المهمة .

عند هذه النقطة من القصة نلتقى مرة أخرى بروبرت هوك . ويروى معاصر موثوق بروايته أنه حوالى ١٧٠٢ كان يتبادل الرسائل مع تاجر حديد وحداد يدعى توماس نيوكومن حول امكان استخدام مبدأ المضخة الهوائية فى احداث القوة المكنية . كتب يقول « اذا استطعت أن تحدث فراغا سريعا تحت اسطوانتك الثانية انتهى عملك (٥٦) » ويلوح أن نيوكومن كان يجرى تجارب على آلة بخارية ، هنا اتصل العلم والصناعة اتصالا مرئيا . ولكن هوك كان شكاكا ، فتخلى عن التجربة، وفاتته فرصة مرة أخرى . وانضم نيوكومن الى سمكرى يدعى جون كولى فى صنع آلة بخارية (١٧١٢) ــ بذراع متذبذب ، ومكبس ، وصمام امن ــ يمكن الركون اليها فى القيام بعمل شاق دون خطر الانفجار ، وبقدرة كاملة على التحكم الذاتى . واستمر نيوكومن حتى وفاته (١٧٢٩) فى تحسين آلته ، ولكن فى وسعنا أن نؤرخ ــ من براءة سافوى فى ١٦٩٩ ، وآلة نيوكومن فى ١٧١٢ ــ ، بداية الثورة الصناعية التى ستغير فى القرنين التاليين وجه الدنيا وهواءها .

٨ ــ الاحياء

مدت جماعة الباحثين الممتازة التى صنعت مجد الجمعية الملكية

أبحاثها الى علوم الحياة . فاوضح هوك بالتجربة ما قرره من قبل السر كينيلم ديجبى ـ ذلك « المشعوذ الكبير » كما دعاه ايفلين(٥٢) : وهو أن النباتات تحتاج الى الهواء لتحيا . فعرض بذرة خس فى التربة فى العراء ، وفى نفس الوقت بذرة مماثلة فى تربة مماثلة فى حجرة مفرغة ، ونمت البذرة الاولى بوصة ونصفا فى ثمانية أيام ، أما الثانية فلم تنم على الاطلاق . ووحد هوك بين جزء الهواء المستعمل فى الاحتراق وبين الجزء المستعمل فى تنفس النبات والحيوان ، ووصف هذا الجزء المستهلك بانه نترى الطبيعة (١٦٦٥) . وأوضح أن الحيوانات التى توقف تنفسها يمكن الابقاء على حياتها بنفخ الهواء فى رئاتها بمنفاخ . واكتشف البناء الخلوى للنسيج الحى ، واخترع لفظ « الخلية cell » لدلالة على مركباته العضوية . ورأى أعضاء الجمعية من خلال مكروسكوبه فى ابتهاج خلايا الفلين الذى قدر هوك أن البوصة المكعبة منه تحوى ١٫٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ خلية . ودرس هستولوجيا (علم الانسجة) الحشرات والنباتات ، وعرض رسوما طريفة لها فى كتابه « ميكروجرافيا » . لقد وقف هوك دائما قاب قوسين أو أدنى من جاليليو ونيوتن .

وأسهم عضو آخر فى الجمعية هو جون راى فى اضفاء الشكل الحديث على علم النبات . وكان ابن حداد ، ولكنه شق طريقه الى كمبردج ، وأصبح زميلا لكلية ترنتى ، ورسم قسا انجليكانيا . وقد أخلص للدين والعلم على السواء ، شأنه فى ذلك شأن بويل . واستقال من زمالته لأنه أبى التوقيع على « قانون التوافق » (١٦٦٢) الذى يتعهد موقعه بعدم مقاومة تشارلز الثانى ، وانطلق مع تلميذه فرانسس ويلاجبى فى رحلة يجوبان فيها أوربا لجمع البيانات اللازمة لوصف منظم لملكتى الحيوان والنبات . واضطلع ويلاجبى بعلم الحيوان ، ولكنه مات بعد أن أكمل الفصول الخاصة بالطيور والأسماك . وفى ١٦٧٠ أصدر راى " Catalogus Plantarum Angliae قائمة بنبات انجلترة » أصبحت اطار علم النبات الانجليزى . واقترح راى « طريقة جديدة لتقسيم النبات » ـ مستعينا فى ذلك بما وضعه يواقيم يونجيوس فى ١٦٧٨ من مصطلحات محسنة وتصنيف منقح ، فقسم كل الزهريات الى ثنائية الفلقة dicotyledons وأحادية الفلقة monocotyledons

حسب ورقتيها أو ورقتها الجنبية المرافقة للبذور . وأكمل مهمته الكبرى فى رائعة من روائع العلم الحديث ، هى كتابة الضـــخم ذو المجلدات الثلاثة « Historia Generalis Plantarum تاريخ النبات العــام » (١٦٨٢ — ١٧٠٤) ، الذى وصف ١٨٫٦٢٥ نوعا من أنواع النبـــات . وكان راى اول من اســتعمل كلمــــة « نوع species » بمعنــــاها البيولوجى ، وهو مجموعة من الكائنات الحية مشتقة من والدين مماثلين وقادرة على توليد نوعها . وهذا التعريف ، مضـــافا اليــه ما أتى به لينايوس بعد ذلك من تصنيف (١٧٥١) ، هيأ للجدل حــول أصــــل الانواع وقابليتها للتغير ، وفى غضون ذلك نشر وحقق مخطـــوطات ويلاجبى عن علم الاسماك ichthyology وعلم الطيور ornithology وأضاف موجزا منهجيا عن ذوات الاربع (١٦٩٣) فأتاح لعلم الحيوان الحديث أول تصنيف علمى حقيقى للحيوان (٥٨) . لقد كان النظــام أول القوانين عند راى .

وقد تبين علماء النبات ، حتى فى العصور القديمــة ، أن بعض النباتات يجوز أن توصف بانها مؤنثة لانها تحمل ثمرا ، وبعضها مذكرة لأنها لا تثمر ، ولاحظ تيوفراستوس فى القرن الثالث قبـــل المسيح أن نخلة البلح لا تثمر الا اذا هز فوقها طلع الذكر ، ولكن هذه الافكار كانت قد نسيت تقريبا . وفى ١٦٨٢ أضاف نحميا جرو عضو الجمعية الملكيــة سحرا جديدا للزهور بتاكيد جنسانية النباتات تاكيدا قاطعا . ذلك أنه فى دراسته نسيج النبات تحت المكروسكوب ، لاحظ المســـام التى فى السطح الاعلى للاوراق ، وألمح الى أن الاوراق أعضاء التنفس . ووصف الازهار بأنها أعضاء التناسل ، فالمدقة pistil مؤنثة ، والســـداة stamen مذكر ، واللقاح pollen بزرة . وافترض خطا أن جميع النباتات خنثوية hermaphrodites ، تجمع بنيتى الذكر والانثى فى كائن حى واحد . وفى ١٦٩١ أثبت رودلف كاميراريوس ، أستاذ النبات فى توبنجن ، بشكل قاطع جنسانية النبـــاتات (sexuality) اذ أثبت أنها لا تثمر بعد ازالة المثبر anther وهو جزء السداه المحتوى على اللقاح .

وفى نفس اليوم (٧ ديسمبر ١٦٧١) الذى تلقت فيــه الجمعية الملكية اللندنية أول مقالات جرو « بداية تشريح الخضر » ، تلقت أيضا

مخطوطا من مارتشيللو ملبيجى البـولونى ، نشرته (١٦٧٥) باســم لاتينى Anatomes Plantarum Idea ، وكان استعمال اللاتينيـة مازال ييسر دولية العلم . وقد اقتسم مالبيجى مع جرو شرف ارســاء دعائم هستولوجيا النبات ، ولكن اسهامه الكبير كان فى علم الحيوان . وفى ١٦٧٦ انبت ماريوت ـ بتحليله الكيميائى لمخلفات النباتات والتربة التى نمت فيها ـ أنها تتشرب العناصر الغذائية فى الماء الذى تمتصــه من التربة . ولم يتبين ماريوت ، ولا جرو ، ولا مالبيجى ، قدرة النباتات على أن تاخذ غذاءها من الهواء ، ولكن عمليتى التغذية والتناسل اللتين اكتشفتا الأن كانتا تقدما هائلا على تعليل ارسطو الغامض لنمو النباتات بما لـ « النفس النباتية » من تطلعات الى التمدد .

وفى عام ١٦٦٨ اصيبت فكرة قديمة شائعة باول صدمة من صدمات عديدة ، حين نشر فرانتسكوَ ريدى الاريتسوى كتابه « تجارب فى توالد الحشرات » ـ وهى تجارب تنحو الى نفى التولد الذاتى abiogenesis وهو التولد التلقائى للكائنات الحية من المادة غير الحية . فالى النصف الثانى من القرن السابع عشر كانت الفكرة التى آمن بها الجميع تقريبا (فيما عدا استثناء بارزا هو وليـم هارفى) هى أن فى الامكان توالد الحيوانات والنباتات الدقيقة فى القذر او الوحل ، لا سيما فى اللحـم المتحلل ، وهذه الفكرة تكمن وراء عبارة شكسبير « الشمس التى تولد الدود فى الكلاب الميتة (٥٩) » . وقد أثبت ريـدى أن الدود لا يتكون على اللحم المحمى من الحشرات ، بل على اللحم المكشوف . وقد صاغ النتيجـة التى خلص اليهـا فى عبـارته " Omne vivum ex ovo " كل حى يخرج من بيضة أو بزرة » . ولما اكتشفت الاوليات (البرزويات Protozoa) ، انبعثت حجج القائلين بالتولد التلقائى من جديد ، وقد رد عليهم سباللانزانى فى ١٧٦٧ ، ثم باستير فى ١٨٦١ .

كان الكشف عن تلك الكائنات ذات الخلية الواحدة التى ســميت فيما بعد بالبروتوزوا أهم اسهام أسهم به هذا العصر فى علم الحيوان . وكان انطون فان ليوفينهويك هولنديا من ديلفت ، ولكنـه أنهى ـ عن طريق الجمعية الملكية بلندن ـ النتائج العلمية التى توصل اليها خـلال أربعين سنة من سنى عمره الواحدة والتسعين . كان ســليل أسرة من صناع الجعة الأثرياء ، فاستطاع أن يقنع بوظائف أتاحت له من الفراغ

اكثر مما أعطته من راتب ، وانقطع لدراسة عالم الحياة الجديد كما كشف عنه المكروسكوب ، باصرار من افتتن بهذا العـــلم . وكان يملك ٢٤٧ مكروسكوبا ، صنع معظمها بنفسه ، وكان مختبره يتألق بعدسات بلغت ٤١٩ ، ربما شحذ بعضها سبينوزا ، الذى ولد فى نفس ســـنة مولده (١٦٣٢) وفى نفس وطنه . وقد حرص بطرس الاكبر وهو بديلفت فى ١٦٩٨ على أن يحدق فى الكائنات خلال مكروسكوبات ليوفينهويك. فلما وجه هذا العالم (١٦٧٥) أحدها لدراسة بعض ماء المطر الذى سقط فى قدر قبل أيام ، راعه أن يرى « حيــوانات صـــغيرة بدت لى اصغر عشرة آلاف مرة من تلك التى وصفها المسيو سوامردام والتى سماها براغيث الماء أو قمل المـــاء ، والتى يمكن أن ترى فى المـــاء بالعين المجردة (٦٠) » ، ثم وصف كائنا نعرفه الآن باسم الجيبون الناقوسي bell animalcule (Vorticella) . ويلوح أن هذا كان أول وصـــفه للبروتوزون . . فى ١٦٨٣ اكتشف ليوفينهويك كائنات أصغر حتى من تلك ــ وهى البكتريا . وجدها أولا على أسنانه ، وقال مستدركا « مع اننى احافظ عادة على نظافة أسنانى التامة » ، وأذهل بعض جيرانه حين فحص بصاقهم وأراهم تحت المكروســـكوب « عددا عظيمـا من المخلوقات الحية » فيه (٦١) . وفى ١٦٧٧ اكتشف البزيرات المنـوية فى ماء الذكر : وتعجب من اسراف الطبيعة فى جهاز الانسال : فقـــد قدر أن هناك ألف بريرة فى كمية صغيرة من منى الرجـــل ، وحسب ان هناك ١٥٠ بليونا من البزيرات فى لقح سمكة واحـدة من ســـمك الكود ــ وهو ما يزيد عشرة أضعاف على عدد السكان الذين يحتـويهم العالم لو كانت كل أقاليمه غاصة بالسكان كالأراضي المنخفضة .

وكان جان سوامردام أصغر من ليوفينهويك بخمس ســنوات ، ولكنه سبقه الى القبر بثلاث وأربعين سنة . كان رجلا ذا جرأة ، ورغبات مشبوبة ، وعلل ، وأهداف متقلبة ، كف عن جهـــوده العلميـــة فى السادسة والثلاثين ، وأفنى عمره وهو فى الثالثة والاربعين (١٦٨٠). نذر خادما للدين ، ولكنه هجر اللاهوت الى الطب . فلما نال درجة الطب انقطع للتشريح . وقد اولع بالنحل ، لا سيما بأمعائه ، وكان ينفق نهاره فى تشريحه ، وليله فى كتابة التقارير ورسم الرســوم عن كشوفه . فلما فرغ من بحثه القيم فى النحل (١٦٧٣) انهار بدنيا ،

وما لبث أن طلق العلم لانه مطلب مسرف فى الدنيـــوية ، وعاد الى الدين . وبعد موته بسبع وخمسين سنة جمعت مخطوطاته ونشرت باسم Biblia Naturae (كتاب الطبيعة المقدس) . وقد احتـــوى الكتاب فى تفصيل دقيق غاية الدقة على وصف لحيـــاة اثنتى عشرة حشرة نموذجية ، منها ذبابة مايو ونحلة العسل ، ودراسات مكروسكوبية للحبار squid والحلزون ، والبطلينوس clam والضفدعة . كذلك وردت فى الكتاب أوصاف للتجارب التى اثبت بها سوامردام أن العضلات فى الأنسجة المقطوعة من جسم حيوان يمكن جعلها تتقلص باثارة العصب الرابط . وقد رفض نظرية التولد التلقائى كما رفضها ريدى ، وزاد بان بين أن اللحم المتحلل لا يحدث الكائنات الدقيقة ، بل ان هذه الكائنات هى التى تحدث التحلل فى المادة العضوية . وقد أسس سوامردام فى حياته القصيرة علم الحشرات الحديث ، وأرسي لنفسه مكانة رجـل من أدق الملاحظين فى تاريخ العلم . ورجوعه من العلم الى الدين تشخيص لتردد الانسان الحديث بين بحث عن الحقيقة يسخر من الأمل ، وانتكاس الى الآمال التى تجفل من الحقيقة .

٩ ـ التشريح والفسيولوجيا

أسلم جسم الانسان بعد اخضاعه للمكروسكوب بعض أسراره الدفينة لجيش العلم الزاحف . ففى عام ١٦٥١ تتبع جان باكيه سير الأوعيـــة اللبنية ، وفى ١٦٥٣ كشف أولوف روربيك ، وموطنه أوبسالا ، الجهاز اللنفاوى ، ووصف هذا الجهاز توماس مارتولين ، وموطنه كوبنهاجن ، وفى ١٦٦٤ اكتشف سوامردام الصمامات اللنفاوية وفى ذلك العام أوضح صديقه رينيه دجراف وظيفة البنكرياس والصفراء وعملهما . وفى ١٦٦١ اكتشف صديق آخر هو نيقولاوس ستينو قناة (لا تزال تحمل اسـمه) هى قناة الغدة النكفية ، وبعد سنة القنوات الدمعية للعـــين ، وخص جراف بدراسته تشريح الخصيتين والمبايض ، وفى ١٦٧٢ وصـف لأول مرة تلك الأكياس جاملة البيض التى أطلق عليها هالر تكريما له حويصلات جراف . وترك بارتولين بطاقته على جسمين بيضـــاويين ملاصـقين للمهبل ، واكتشف وليم كوبر (الطبيب لا الشاعر) فى ١٧٠٢ الغـــدد التى تفرغ افرازها فى مجرى البول وأطلق عليها اسمه . كذلك ترك فرانشسكوس سيلفيوس توقيعه على شق فى المخ (١٦٦٣) (وكان المعلم

المحبوب لجراف ، وسوامردام ، وستينو ، وويليس فى ليدن) . ونشر توماس ويليس ، أحد مؤسسي الجمعية الملكية ، فى عام ١٦٦٤ كتـــابه " Cerebri Anatome تشريح المخ » الذى كان أكمل وصف للجهاز العصبى الى ذلك التاريخ ، ولا تزال تحمل اسـمه « دائرة ويليس » ، وهى شبكة سداسية من الشرايين فى قاع المخ .

أما ألمع مشرحى العصر فهو مارتشيللو مالبيجى ، الذى ولد قرب بولونيا فى ١٦٢٨ ونال درجته الطبية منها ، وبعد أن عمل استاذا عدة سنوات فى بيزا ومسينا عاد الى بولونيا ، ودرس الطب فى جامعتهـــا خمسة وعشرين عاما . وبعد أن اشتغل بالتشريح المكروسكوبى للنبات ، ركز عدساته على دودة القز ، وسجل كشوفه فى دراسة ممتازة . وفى هذا البحث أوشك أن يفقد بصره ، ومع ذلك كتب يقول « خلال قيامى بهذه البحوث تكشف أمام عينى الكثير جدا من معجزات الطبيعة حتى استشعرت لذة باطنية لا قدرة لقلمى على وصفها (٦٢) » . ولا بـــد أن قد خالجه ما خالج الشاعر الانجليزى كيتس وهو يطـــالع لأول وهلة ترجمة تشابمن لهوميروس ، حين رأى (١٦٦١) فى رئتى الضفدعة كيف ينتقل الدم من الشرايين الى الأوزدة فى أوعية سماها « الشعيرات » لدقتها المتناهية ، وقد وجد شبكة من هذه الشعيرات حيثما تحول الدم الشريانى الى دم وريدى ، وهكذا وضح الجهـــاز الدورى لأول مـــرة أثناء دورته .

على أن هذا لم يكن ســوى جـــزء من اســـهامات مالبيجى فى التشريح ، وان كان أهم اجزائها . فقد كان أول من أثبت أن حلمات اللسان اعضاء للتذوق ، وأول من ميز الكرات الحمراء فى الدم (ولكنه ظنها خطأ كريات من الشحم) ، وأول من وصف بدقة الدورتين العصبية والدموية فى الجنين ، وأول من وصف هستولوجيا قشرة المخ والحبل الشوكى ، وأول من اتاح الوصول الى نظرية عملية للتنفس بوصفه الدقيق للبناء الحويصلى للرئتين . واسمه منتشر بحق على أجسادنا فى « الحزم المالبيجية » أو حلقات من الشـــعريات ، فى الكلى ، وفى « الكريات المالبيجية » فى الطحال ، وفى « الطبقة المالبيجية » فى الجلد . وكثير من كشوفه وتفسيراته تحداه معاصروه ، ولكنه دافع عن نفسه بقوة ، وانتصر فى معاركه وان كلف هذا النصر أعصابه عنتا . وقد أرســـل

الى الجمعية الملكية بلندن تقريرا عن جهوده ، وكشوفه ، وجدلياته ، وكأنه كان يعرض هذه كلها على محكمة العلم العليا فى جيله ، ونشرت الجمعية هذا التقرير سيرة ذاتية بقلمه ٠ وفى ١٦٩١ عين طبيبا خاصا للبابا انوسنت الثانى عشر ، ولكنه توفى عام ١٦٩٤ من اصابة بالفالج ٠ وكشفه للشعيرات من المعالم فى تاريخ التشريح ، وعمله فى جملته أرسى دعائم علم الهستولوجيا ٠

واذ تقدم البحث فى التشريح أماط اللثام عن أوجه شبه كثيرة جدا بين أعضاء الانسان والحيوان ، حتى لقد اقترب بعض الطلاب من نظرية التطور ٠ ففى عام ١٦٩٩ نشر ادوارد تيزون (الذى اطلق اسـمه على الغدد الدهنية للبشرة) كتـابا عن « الاورنج ـ أوتانج ، انسـان الغابات » ٠ وقد قارن بين تشريح الانسان وتشريح النسناس ، ورأى ان الشمبانزى وسط بينهما ٠ ولم يمنع علم الاحياء من أن يسبق داروين فى القرن السابع عشر غير الخوف من احداث زلزال لاهوتى ٠

وانتقلت الأبحاث من التشريح والبنية الى الفسيولوجيا والوظيفة ٠ وكان التنفس الى عام ١٦٦٠ يفسر بانه عملية تبريد ، أما الآن فقد شبهه أصحاب التجارب العلمية بالاحتراق ٠ فبرهن هوك على أن سر التنفس هو تعرض الدم الوريدى للهواء النظيف فى الرئتين ٠ واثبت عضو آخر فى الجمعية الملكية هو رتشرد لوور (١٦٦٩) أن الدم الوريدى يمكن تحويله الى دم شريانى بالتهوية ، وان الدم الشريانى يتحول وريديا اذا منع باستمرار من الاتصال بالهواء ٠ ورأى ان أهم عامل فى التهوية هو « روح نترى » فى الهواء ٠ وجريا على هذه المبادرات وصف جون مايو ، صديق لوور هذا العامل النشيط بانه « جزيئات نترية ـ هوائية » وفى التنفس تمتص الجزيئات النترية ـ فى رأيه ـ من الهواء فى الدم ، ومن هنا كان الهواء فى الزفير أخف وزنا واقل حجما منه فى الشـهيق ٠ والحرارة الحيوانية سببها اتحاد الجزيئات النترية بالعناصر القـابلة للاحتراق فى الدم ، والحرارة المتزايدة عقب الرياضة تنشـا من فائض الممتص من الجزيئات النترية بسبب التنفس الزائد ٠ يقول مايو ان هذه الجزيئات النترية تلعب دورا رئيسيا فى حياة الحيوان والنبات ٠

وقد أفضي تفسير العمليات الحيوية الى جدل من أبقى ما وعاه تاريخ العلم الحديث ٠ ذلك انه كلمـا أوغلت الفسيولوجيا بمزيد من

الفضول فى تشريح الانسان ، بدا أن الوظيفة تلو الوظيفة من وظائف الجسم تخضع لتفسير آلى بلغة الفيزياء والكيمياء . فلاح أن التنفس اتحاد بين التمدد ، والتهوية ، والانقباض ، وأن وظائف اللعاب ، والصفراء ، والعصارة البنكرياسية ، كيميائية لاخفاء فيها ، وأن جان ألفونسو بوريللى قد استكمل (١٦٧٩) التحليل الآلى للحركة العضلية . واعتنق ستينو ، الكاثوليكى الغيور ، الرأى الآلى فى العمليات الفسيولوجية ، ورفض عبارات جالينوس الغامضة من أمثال « الأرواح الحيوانية » لأنها « مجرد ألفاظ لا تعنى شيئا » . وبدا الآن مفهوم ديكارت للجسم على أنه آلة مبررا كل التبرير .

ومع ذلك أحس معظم العلماء أن تلك الأجهزة البدنية ما هى الا أدوات لمبدأ حيوى يتجاوز التحليل بلغة الكيمياء والفسيولوجيا . فعزا فرانسس جليسون ، أحد مؤسسي الجمعية الملكية ، للمادة الحية كلها « تهيجية » تتميز بها – وهى استهداف للاثارة – قال انها لا توجد فى المادة غير الحية . وكما أن نيوتن ، بعد أن رد الكون الى الآلية ، عزا الى الله الدفع المبدئى لآلة العالم ، فكذلك افترض بوريللى فى جسم الانسان نفسا هى المصدر لكل حركة حيوانية ، وذلك بعد أن فسر العمليات العضلية تفسيرا آليا (٦٣) . ورأى كلود بيرو ، المعمارى والطبيب ، (١٦٨٠) أن الأفعال الفسيولوجية التى تبدو الآن آلية كانت من قبل ارادية ، تهتدى بارشاد نفس ، ولكنها أصبحت آلية بفعل التكرار الكثير ، وذلك أشبه بتكون العادات ، بل ربما كان القلب ذاته خاضعا لتحكم الارادة فيما مضي (٦٤) . وزعم جيورج شتال (١٧٠٢) أن التغيرات الكيميائية فى النسيج الحى تختلف عن تلك التى ترى فى المختبرات ، لأن التغيرات الكيميائية – فى زعمه – التى تعرو الحيوانات الحية تحكمها « حساسية حيوانية " anima sensitiva " تنتشر فى جميع أجزاء الجسم . والنفس كما يقول شتال تدير كل وظيفة فسيولوجية ، حتى الهضم والتنفس ، وهى تبنى كل عضو ، بل الجسم كله ، بوصفه أداة للرغبة (٦٥) . وخيل له أن الأمراض طرق تحاول بها النفس التخلص من عائق يعوق عملياتها ، وسبق نظرية « سيكوسوماتية » (أى جسدية نفسية) من نظريات القرن

العشرين بالقول بان اضطرابات « النفس الحساسة » قد تحدث عللا بدنية (٦٦) ٠

وظلت المفاهيم الحيوية ، بشكل أو آخر ، تحتل مكان الصدارة فى العلم حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ٠ ثم استسلمت فترة أمام المكانة الصاعدة للفيزياء الميكانيكية ، ثم بعثت من جديد ،فى ثوب أدبى فتان ، فى كتاب برجسون « التطور الخلاق » (١٩٠٦) ٠ وسيمضي الجدل الى ما شاء الله حتى يقيض للجزء أن يفهم الكل ٠

١٠ ـ الطب

جاء أقوى دافع لعلوم الأحياء من حاجات الطب ٠ لقد كان علم النبات ، قبل راى ، اداة الصيدلة ٠ وكانت الصحة « الخير الأعظم » ، وتوسل الرجال والنساء والاطفال اليها بالصلوات ، والنجوم، والملوك، والضفادع ، والعلم ٠ يقول أوبرى (٦٧) ان أحد الاطباء كان قبل ان يصف الدواء للمريض يمضي الى مخدعه ليصلى حتى « تقرنت ركبتاه » فى النهاية من كثرة الصلوات وكان التنجيم لا يزال يتدخل فى الطب ٠ فقد نصح الجراح القائم على علاج لويس الرابع عشر بالا يحجم الملك الا فى ربعى القمر الاول والأخير « حتى تكون الأمزجة قد تراجعت فى هذا الوقت الى مركز الجسم » (٦٨) ٠ وفى رأى ديفو أن المال الذى انفق على المشعوذين كان كفيلا بالوفاء بالدين القومى (٦٩) ٠ وقد سافر فلامستيد ، فلكى الملك ، أميالا لكى يربت ظهره المشعوذ المشهور فالنتين جريتراكس ، الذى زعم بكل بساطة أنه يشفى من الداء الخنازيرى ، وربما كان فلامستيد واحدا من ١٠٠ر٠٠٠ لمسهم تشارلز الثانى ليشفيهم من هذا الداء الخنازيرى (scrofula) المسمى « داء الملك King's evil » (وهو سل الغدد اللنفاوية وبخاصة فى العنق) ٠ وفى سنة واحدة (١٦٨٢) لمس هذا الحاكم اللطيف ٨ر٥٠٠ مريض مصاب بهذا المرض ، وفى ١٦٨٤ بلغ التزاحم للوصول اليه حدا ديس معه ستة من المرضي تحت الأقدام حتى ماتوا ٠ ورفض

وليم الثالث أن يواصل التمثيلية . وقال حين حاصر جمع قصره « انها خرافة غبية ، فاعطوا هؤلاء المساكين بعض النقود واصرفوهم » . وفى مناسبة أخرى حين كثر الالحاح عليه ليضع يده على مريض أذعن قائلا « وهبك الله صحة افضل وعقــلا أرجح » . وقد اتهمــه الشــعب بالكفر (٧٠) .

وتضافرت عيوب عناية الأفراد بصحتهم ونقائص النظافة الصحية العامة مع ذكاء المرض القادر على التكيف . ونشر البغاء الزهرى فى المدن والمعسكرات . وقد استشرى بصفة خاصة بين الممثلين والممثلات ، كما نستنتج من قصة مستورة فى مدام دسفنييه عن « ممثـــل اعتزم الزواج برغم أنه يعانى من مرض خطير معين ، فقال له أحد أصحابه : ويحك الا تستطيع الانتظار حتى تشفى ؟ انك ستجر البلاء علينـــا جميعا (٧١) » ، وقد مثل القائد الفرنسي فاندوم فى البـــلاط الملكى بغير أنف ، لأنه أعطاها قربانا لبكتريا الزهرى (٧٢) . وكان السرطان يمضي فى طريقه قدما ، وتصف لنا مدام دموتفيل سرطان الثدى (٧٣) وقد وصفت الحمى الصفراء أول مرة عام ١٦٩٤ . وانتشر الجدرى على الأخص انتشارا واسعا فى انجلترة ، ولم يكن هناك علاج معروف له ، وقد ماتت به الملكة مارى ، وابن ملبره . وابتليت أقطـــار باسرهـا بالأوبئة لا سيما وباء الملاريا . وذكر توماس ويليس أن انجلترة كلهـا تقريبا كانت فى ١٦٥٧ اشبه بمستشفى يعالج حمى المـــلاريا (٧٤) . واجتاح الطاعون لندن فى ١٦٦٥ (٧٥) . وقتل فى فيينا سنة ١٦٧٩ ١٠٠ر٠٠٠ الـــف و ٨٣ر٠٠٠ فى بـــراغ ســـنة ١٦٨١ . وازدادت الامراض المهنية بانتشار الصـــناعة ، وفى ١٧٠٠ أصـــدر برناردينو راماتزينى ، أستاذ الطب فى جامعـــة بادوا ، رســالة ممتــازة ، De morbis artificum عن الضرر الذى يصيب النقاشـــين من المواد الكيميائية فى طلائهم ، والعاملين فى الزجاج المعشق من الانتيمون ، والبنائين وعمال المناجم من السل ، والخزافين من الدوار ، والطباعين من أمراض العيون ، والاطباء من الزئبق الذى يستعملونه .

وكان تقدم علم الطب بطيئا فى جو الجهل والفقر · وعطل المهنة شره الأطباء للمال ، فكان بعض الاطباء الذين قاموا بعلاجات ناجحة يرفضون الكشف لغيرهم من الأطباء عن العلاج الذى استخدموه (٧٦)· على أن الأطباء من أعضاء الجمعبة الملكية ارتفعوا فوق هذا الشره ، وأشركوا زملاءهم بحماسة فى كشوفهم · وكان هناك الآن مدارس طبية جيدة وفى مقدمتها مدارس ليدن ، وبولونيا ، ومونبلييه ، وعلى العموم كان الحصول على درجة من معهد معترف به شرطا لممارسة الطب قانونيا فى غربى أوربا · واستمر مدرسو الطب على انقسامهم الى مدرستين من مدارس العلاج · فدافع بوريللى عن طريقة العلاج الطبى (iartophysical) ورأى تناول الامراض على أنها اضطرابات فى آلية الجسم · أما سيلفيوس ، الذى طور حجج باراسيلسوس وهيلمونت فقد دافع عن الطريقة الكيميائية (iatrochemical) — وهى طريقة استعمال العقاقير لمقاومة الاضطرابات فى « أمزجة » الجسم ، ومعظمها فى رايه راجع لزيادة فى الحموضة · وكان أنفع من هذه النظريات العامة تلك الكشوف فى أسباب أمراض معينة ، فوصف سيلفيوس مثلا لأول مرة الدرينات فى الرئتين ، وعزا هذه الاورام المرضية الى السل ·

ومن أهم كشوف هذا العصر الجهد الذى قام به ذلك اليسوعى الممتاز ، أثناسيوس كيرشر الفولداوى ، وكان رياضيا ، وفيزيائيا ، ومستشرقا ، وموسيقيا ، وطبيبا ، ويبدو أنه أول من استخدم المكروسكوب فى فحص المرض (٧٧) · وبهذه الوسيلة وجد أن دم ضحايا الطاعون يحتوى على « ديدان » لا حصر لها لا ترى بالعين المجردة · ورأى حييونات مماثلة فى المادة المتعفنة ، وعزا التعفن وكثيرا من الامراض لنشاطها · وكتب تقريرا عن كشوفه فى « البحث فى الأمراض الوبائية Scrutinium Pestis " (روما ١٦٥٨) بين بعبارات صريحة واضحة لأول مرة ما لم يذكره فراكاستورو الا تلميحا فى ١٥٤٦ — وهو النظرية القائلة بأن انتقال الكائنات الحية الضارة من شخص أو حيوان الى آخر هو سبب المرض المعدى (٧٨) ·

وتخلف العلاج الطبى عن البحث الطبى ، لأن الذين نبغوا فى البحث جنحوا الى تاليف طبقة متميزة عن ممارسي الطب ، وكان الاتصال بين الفريقين ناقصا . وكانت بعض علاجات العصور الوسطى مازالت توصف للمرضي . وقد سجل أوبرى نجاحا جاء فى غير محله. قال « ان امرأة حاولت أن تسمم زوجها (وكان مريضا بالاستسقاء) بسلق ضفدعة فى حسائه ، الامر الذى شفاه من مرضه ، وكان هذا هو الظرف الذى عثر فيه على الدواء (٧٩) » ودخلت بعض العقاقير الجديدة الفارماكوبيا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر : عرق الذهب ipecacuanha والكسكارة ، والنعناع ... ووصف الأطباء الهونديون الشاى دواء لكل الأدواء تقريبا ترويجا للتجارة الهولندية(٨٠) .

وكان اثنان من الهولنديين أعظم معلمى الطب فى هذا العصر ، وهما سيلفيوس وبويرهافى ، وكلاهما فى ليدن . وقد علم هيرمان بويرهافى الكيمياء ، والفيزياء ، والنبات أيضا ، واقبل عليه الطلاب من شمالى أوربا كلها ، وقد رفع مقام الطب الاكلينيكى باصطحابه تلاميذه الأكثر نضجا فى جولاته اليومية على أسرة المستشفى ، وتعليمهم بالملاحظة المباشرة والعلاج النوعى لكل حالة بمفردها . وقد ترجمت مؤلفاته الى كل اللغات الاوربية الكبرى ، وحتى الى التركية ، وطبقت شهرته الآفاق حتى بلغت الصين ذاتها .

ووجد الطب الاكلينيكى فى انجلترة أبرع ممثل له فى توماس سيدنهام . قضي فى أكسفورد فترتين تفصلهما فترات خدمة فى الجيش، ثم استقر فى لندن ممارسا عاما . وانتهى بالقليل من النظريات والكثير من الخبرة الى فلسفته فى المرض ، الذى عرفه بانه « جهد من الطبيعة التى تكافح بكل قوتها لترد الى المريض عافيته بالتخلص من المادة المرضية (٨١) » . وميز بين الأعراض « الجوهرية » التى تحدثها المادة الدخيلة ، والأعراض « العرضية » التى تحدثها مقاومة الجسم لها ، فالحمى مثلا ليست مرضا بل حيلة يتوسل بها الكائن الحى للدفاع عن نفسه . ومشكلة الطبيب أن يعين عملية الدفاع هذه . ومن ثم فقد امتدح سيدنهام أبقراط لأن « أبا الطب » :

« لم يتطلب من فن الطب أكثر من معاونة الطبيعة اذا وهنت ، وكبحها اذا ازداد عنف جهودها ... ذلك ن هذا المراقب الحكيم وجد أن الطبيعة وحدها هى التى تنهى اختلال الصحة ، وتعمل على الشفاء مستعينة بعقاقير بسيطة ، وأحيانا دون عقاقير على الاطلاق (٨٢) » .

وبراعة سيدنهام فى أنه تبين أن لكل مرض كبير صورا مختلفة ، وكان يدرس كل حالة بتاريخها الاكلينيكى ليشخص نوع المرض الذى تنطوى عليه ، ويوائم بين العلاج والاختلافات النوعية للمرض . ولهذا نراه يميز الحمى القرمزية عن الحصبة ويعطيها اسمها الحالى . وكان معروفا بين الاطباء بلقب « أبقراط الانجليزى » لأنه أخضع النظرية للملاحظة ، والأفكار العامة للحالات الخاصة ، والعقاقير للعلاجات الطبيعية . وقد ظل كتابه Processus Integri طوال قرن من الزمان المرشد للممارس الانجليزى فى العلاج .

وواصلت الجراحة نضالها لتحظى بالاعتراف بها علما محترما . ووجد أكفأ ممثليها انفسهم بين نارين ، عداء الاطباء وحسد الحلاقين ــ الذين ما زالوا يجرون بعض الجراحات الصغيرة ، ومنهـا جراحة الأسنان . ولم يستطع جى باتان ، عميد كلية الطب بجامعة باريس ، أن يغتفر للجراحين اتخاذهم زى الأطباء ومسلكهم ، ورمى الجراحين جميعا بأنهم « سلالة من الحمقى ، والمغرورين ، اللئام ، المسرفين ، الذين يطلقون شواربهم ويلوحون بأمواسهم (٨٣) » . ولكن فى عام ١٦٨٦ أجرى الجراح فيلكس جراحة ناجحة على ناسور لويس الرابع عشر ، وسر الملك سرورا عظيما فنفح فيلكس بخمسة عشر الف جنيه ذهبى ، وخلع عليه ضيعة فى الريف ولقب النبالة . ورفعت هذه الترقية من مكانة الجراحين الاجتماعية فى فرنسا . وفى ١٦٩٩ صدر قانون جعل الجراحة فنا من الفنون الحره ، وبدأ ممثلوها يحتلون مكانا مرموقا فى المجتمع الفرنسي . وقد وصف فولتير الجراحة بأنها « أنفع الفنون قاطبة » وأنها « الفن الذى بز فيه الفرنسيون سائر أمم الأرض (٨٤) » .

على أن الجراحة الانجليزية كان لها فى هذا العصر مفخرتان على الأقل . ففى ١٦٦٢ قام ج. د. ميجر بحقن الانسان أول حقنة وريدية ناجحة ، وفى ١٦٦٥ ــ ٦٧ نجح رتشرد لوور فى نقل الدم من

حيوان الى أوردة حيوان آخر . وقد سجل بيبيس هذا فى يوميته (٨٥). ويستفاد من جريدة القيل والقال تلك أن الجراحات كانت تجرى عادة بمخدر ضعيف أو دون مخدر ، فلما أجريت لبيبيس جراحـــة لازالة حصاة فى مثانته لم يعط كلوروفورما ولا مطهرات ، واكتفى باعطائه « جرعة مهدئة (٨٦) » .

واستمر الناس يهجون الطبيب كما يهجونه فى كل جيـل . فقـد ساءهم منه أتعابه ، وفخامة مظهره فى عباءته وشعره المستعار وقبعته المخروطية ، وغرور حديثه ، وأخطاؤه القتالة احيانا . وروى بويل أن كثيرين كانوا يخشون الطبيب أكثر مما يخشـون المرض (٨٧) . وكانت سخريات موليير بالمهنة العظيمة فى أكثرها مزاحا لطيفا من رجل كان حريصا رغم ذلك على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع طبيبه . ويبقى ـ بعد أن رشقت السهام كلها ـ ان القرن السابع عشر شهد تقدما مشـــكورا فى علم الطب بفضـــل عشرات الكشـــوف فى التشريح ، والفسيولوجيا ، والكيمياء ، وأن التبادل الدولى للمعرفة الطبية كان فى ازدياد ، وأن كبار الاساتذة كانوا يبعثون تلاميذهم الاكفـــاء الى جميع أرجاء أوربا الغربية ، وأن الجراحة كانت تحسن طرقها وترفع مكانتها ، وأن الاخصائيين كانوا يزدادون معرفة ومهارة ، وأن مزيدا من التدابير كان يتخذ للنهوض بالصحة العامة . وشرعت الحكومات البلدية القوانين التى تكفل النظافة الصحية . وفى ١٦٥٦ ، حين ظهر الطاعون فى روما ، حتم المونسنيور جاستالدى ، المامـور البـــابوى للصحة ، تنظيف الشوارع والمجارى ، وتفتيش السقايات بانتظام ، وتوفير الامكانات العامة لتطهير الملابس ، وتقديم الشهادات الصـحية من جميع الاشخاص الذين يدخلون المدينة (٨٨) ، وبازدياد الثروة بنى الناس بيوتا أمتن تستطيع أن تبعد الفيران الى مسافة محترمة فتقلل من انتشار الطاعون . وقد يسرت امدادات أفضل من الميـــاه ـ وهى أول ضرورات الحضارة ـ النظافة للاجسام الراغبة فيها . وأخذ التحضر يصبح ـ بدنيا ـ فى متناول مزيد من الناس .

١١ ـ النتـــائج

كان القرن السابع عشر فى جملته احدى القمم فى تاريخ العلم .

انظر اليه فى سلمه الصاعد ، ابتداء من بيكون يدعو الناس للكفاح فى سبيل ترقية المعرفة ، وديكارت يزاوج بين الجبر والهندسة ، مرورا بتحسين التلسكوبات ، والمكروسكوبات ، والبارومترات ، والترمومترات والمضخات الهوائية والعلوم الرياضية ، وبقوانين كبلر الكوكبية ، وقبة جاليليو السماوية المتعاظمة ، ورسم هارفى لخريطة الدم ، ونصفى كرة جيوريكى المحكمتين ، وكيمياء بويل الشكاكة ، وفيزياء هويجنز المتعددة الصور ، ومحاولات هوك الكثيرة الاشكال ، وتنبؤات هالى الكونية ، ثم انتهاء بحساب ليبنتز التفاضلى التنويتى ونسق نيوتن الكونى ، انظر الى كل أولئك واسال : أى قرن سابق انجز مآثر هذا القرن ؟ يقول الفريد فورث هوايتهيد ان الذهن الحديث « يعيش الى اليوم على ذخيرة الافكار المتجمعة التى وفرتها له عبقرية القرن السابع عشر « فى العلم ، والأدب ، والفلسفة (٨٩) » .

وانتشر تاثير العلم فى أقواس متسعة . أثر فى الصناعة بتوفيره الفيزياء والكيمياء اللتين كفلتا المغامرات الجديدة فى التكنولوجيا . وفى التعليم الزم بتخفيف التركيز على العلوم الانسانية ـ على الأدب ، والتاريخ ، والفلسفة ، لأن تطوير الصناعة والتجارة والملاحة تطلب المعرفة والأذهان العملية . وأحس الأدب ذاته التاثير الجديد : فسعى العالم وراء النظام والدقة والوضوح أوحى بفضائل مماثلة فى الشعر والنثر ، وانسجم مع الاسلوب الكلاسيكى الذى يمثله موليير وبوالو وراسين ، كما يمثله اديسون وسويفت وبوب . واشترطت الجمعية الملكية ـ كما يقول مؤرخها ـ على أعضائها ، أسلوبا فى الحديث طبيعيا عاديا ، محكما . يقرب كل الاشياء قدر الامكان من الوضوح الرياضي (٩٠) » .

وتاثرت الفلسفة والدين بانتصارات الرياضة والفيزياء ، التى حددت للمذنبات ميقاتا ووضعت للنجوم قوانين . وتقبل ديكارت وسبينوزا الهندسة مثلا أعلى للفلسفة والعرض . ولم يعد بعد ذلك من حاجة لأن يفترض فى الكون شيء غير المادة والحركة.. ورأى ديكارت العالم كله آلة ، باستثناء العقل البشرى والالهى ، وتحدى هوبز هذا الاستثناء ، وصاغ مادية يكون حتى الدين فيها أداة للدولة تستعين بها على تسيير الآلات البشرية . ولاح أن علوم الفيزياء والكيمياء والفلك

الجديدة « تكشف عن كون يعمل طبقا لقوانين لا تتغير ، وهـــو كون لا يسمح بمعجزات ، واذن فلا يستجيب لصلوات ، واذن فلا يحتـــاج لاله . وربما جاز الابقاء عليه ليعطى آلة العالم دفعة مبدئية ، ولكنـــه بعد هذا له أن ينسحب ليكون ربا أبيقوريا ـ لوكريتيا ، لا يعبأ بالعالم ولا بالناس . روى ن هالى أكد لصديق لباركلى ان « عقائد المسيحية » اصبحت الآن « لا يمكن تصـــورها (٩١) » . على أن بويل رأى فى كشوف العلم دليلا جديدا على وجود الله . وكتب يقول « ان العالم يسلك وكأن الكون يشيع فيه كله كائن ذكى » . وأضاف فى عبارة تعيد بسكال الى الذاكرة « ان نفس الانسان كائن انبل وأثمن من العـــالم المـــادى بأسره (٩٢) » . ولما مات خلف مالا ينفق منه على محاضرات تظهـــر صدق المسيحية ازاء « مشهورى الكفار ، وهم الملحـــدون ، والقائلون بوجود آلهة ، والوثنيون واليهود ، والمسلمون » وأضاف شرطا هو أن المحاضرات يجب الا تخوض فى المجادلات الناشبة بين المسيحيين(٩٣).

ووافق علماء كثيرون على رأى بويل ، وشارك كثير من المسيحيين المؤمنين فى الاشادة بالعلم . كتب درايدن فى ختام القرن يقول « فى هذه السنين المائة الاخيرة كشف لنا القناع عن طبيعة جديدة تقريبا ـ اخطاء أكثر من كشفت ، واجرى من التجارب المفيدة ، وأميط اللثام عن أسرارا رفيعة فى البصريات ، والطب ، والتشريح ، والفلك ـ أكثر مما حدث فى جميع تلك العصور الخرفة الساذجة ، ابتداء من ارسطو الى يومنا هذا (٩٤) » ، وتلك مبالغة مفرطة ولكنهـا ذات دلالة ، تكشف لنا عن اقتناع « المحدثين » بانهم كسبوا معركة الكتب ضد « القدامى » على أية حال لم يملك الناس الا أن يروا أن العلوم تزيد المعرفة الانسانية، بينما الاديان تصطرع والساسة يقتتلون . وسما العلم الآن الى مقـــام جديد من الشرف بين مغامرات الانسان ، لا بل ان هذا العهد لم يؤذن بالنهاية الا والناس يرحبون بالعـلم بشيرا بمجىء المجتمـــع المثـــالى ومخلصا للنوع الانسانى . كتب فونتنيل فى ١٧٠٢ يقول « ان تطبيق العلم على الطبيعة سينمو باطراد فى مداه وقوته ، وسنمضي قدما من عجيبة الى عجيبة . وسوف يأتى اليوم الذى يستطيع فيه الانسان أن يطير بأجنحة تحفظه فى الهواء ، وسينمو هذا الفن ... حتى نستطيع يوما أن نطيرا الء القمر (٩٥) » . لقد كان كل شيء يتقدم ، الا الانسان.

الفصل التاسع عشر

اسحاق نيوتن

١٦٤٢ ـ ١٧٢٧

١ ـ الرياضي

ولد فى مزرعة صغيرة بوولزثورب ، فى مقاطعة لنكولن ، فى ٢٥ ديسمبر ١٦٤٢ (حسب التقويم القديم ، أى اليوليانى) وهو العام الذى مات فيه جاليليو ، وكانت الزعامة الثقافية ، كالزعامة الاقتصادية ، فى سبيلها من الجنوب الى الشمال . وكان عند ميلاده صغير الحجم جدا بحيث كان فى الامكان وضعه فى كوز سعته ربع جالون (كما أخبرته أمه فيما بعد) ، وضعيفا جدا بحيث لم يخطر ببال أحد أنه سيعيش اكثر من ايام (١) معدودات . وكفلته أمه وخاله لأن أباه كان قد مات قبل ولادته بشهور .

وحين بلغ الثانية عشرة أرسل الى المدرسة الخاصة فى جرانثام ، فلم يحالفه التوفيق فيها . وجاء فى التقارير عنه أنه « خامل » و « غير ملتفت » ، وأنه يهمل الدراسات المقررة ويقبل على الموضوعات التى تستهويه ، وينفق الوقت الكثير على المخترعات الميكانيكية كالمزاول ، والسواقى ، والساعات البيتية الصنع . وبعد أن قضي عامين فى جرانثام أخذ من المدرسة ليساعد أمه فى المزرعة ، ولكنه عاد الى اهمال واجباته ليقرأ الكتب ويحل المسائل الرياضية . وتبين خال آخر كفايته ، فاعاده الى المدرسة ، وعمل الترتيبات لقبول نيوتن بكلية ترنتى فى كمبردج (١٦٦١) طالبا يكسب مصروفاته بمخلتف الخدمات (subsizar) .وحصل على درجته الجامعية بعد أربع سنوات ، وبعدها بقليل انتخب زميلا بالكلية ، وخص باهتمامه الرياضة ، والبصريات ، والفلك ، والتنجيم ، وقد احتفظ بميله لدراسة التنجيم الى فترة متاخرة من حياته .

وفى ١٦٦٩ استقال أستاذه فى الرياضة اسحاق بارو ، وعين نيوتن خلفا له بناء على توصية منه ، وصف فيها نيوتن بأنه « عبقرى لا نظير له » ، وقد احتفظ بكرسيه فى ترنتى أربعة وثلاثين عاما . ولم

يكن بالمعلم الناجح . كتب سكرتيره عن ذكريات ذلك العهد يقول « كان الذين يذهبون للاستماع اليه قليلين ، والذين يفهمونه اقل ، حتى أنه كان أحيانا كثيرة وكانه يقرأ للحيطان بسبب قلة السامعين (٢) » . وفى بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين اطلاقا فيعود الى حجرته كاسف البال . وبنى فيها مختبرا ـ كان الوحيد فى كمبردج آنئذ . وقام بالكثير من التجارب ، لا سيما فى الخيمياء « وهدفه الأكبر تحويل المعادن (٣) » ، ولكنه اهتم أيضا بـ « اكسير الحياة » و « حجر الفلاسفة (٤) » وواصل دراساته الخيميائية من ١٦٦١ الى ١٦٩٢ ، وحتى وهو يكتب كتابه « المبادىء (٥) » ترك مخطوطات عن الخيمياء دون نشر بلغ مجموع كلماتها نيفا و ١٠٠٠٠٠ « لا قيمة لها اطلاقا(٦) » وكان بويل وغيره من أعضاء الجمعية الملكية مشغولين شغلا محموما بهذا البحث نفسه عن صنع الذهب . ولم يكن هدف نيوتن تجاريا بشكل واضح ، فهو لم يبد قط أى حرص على المكاسب المادية ، ولعله كان يبحث عن قانون أو عملية يمكن أن تفسر بها العناصر على أنها أشكال مغايرة ، قابلة للتحويل ، لمادة أساسية واحدة . ولا سبيل لنا الى التأكد من أنه كان مخطئا .

وكان له حديقة صغيرة خارج مسكنه بكمبردج ، يتمشي فيها فترات قصيرة سرعان ما تقطعها فكرة يهرع الى مكتبه ليسجلها . كان قليل الجلوس ، يؤثر أن يذرع حجرته كثيرا (فى رواية سكرتيره) « حتى لتخاله ... واحدا من جماعة ارسطو » المشائين (٧) . وكان مقلا فى الطعام ، وكثيرا ما فوت وجبة ، ونسي أنه فوتها ، وكان ضنينا بالوقت الذى لابد من انفاقه فى الاكل والنوم . « ونادرا ما ذهب لتناول الطعام فى القاعة ، فاذا فعل فانه ـ ما لم ينبه ـ يذهب فى هيئة زرية ، حذاؤه بالى الكعبين ، وجواربه بلا رباط ... ورأسه غير ممشط الا فيما ندر (٨) » . وقد رويت ، واخترعت القصص الكثيرة عن شرود ذهنه . ويؤكدون انه قد يجلس الساعات بعد استيقاظه من النوم على فراشه دون أن يرتدى ثيابه وقد استغرقه الفكر (٩) . وكان احيانا اذا جاءه زائرون يختفى فى حجرة اخرى ، ويخط افكارا على عجل ، وينسي أصحابه تماما (١٠) .

لقد كان راهبا من رهبان العلم فى هذه السنين الخمس والثلاثين

بكمبردج . وقد وضع « قواعد للتفلسف » ـ أعنى للطريقــة والبحث العلميين . ورفض القواعد التى وضعها ديكارت فى « مقاله » كمبادىء قبلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال . وحين قال نيوتن « أنا لا أخترع فروضا (١١) » كان يعنى أنه لا يقدم نظريات حول أى شىء يتجاوز ملاحظة الظواهر ، فهو اذن لا يغامر بأى تخمين عن طبيعة الجاذبية ، بل يكتفى بوصف مسلكها وصياغة قوانينها . ولم يزعم أنه يتجنب الفروض باعتبارها مفاتيح للتجارب ، فان مختبره على العكس خصص لاختبار مئات الأفكار والامكانات ، وسجله يزخر بالفروض التى جربت ثم رفضت . كذلك لم يرفض الاستدلال ، انما أصر على أنه يجب أن ينطلق من الوقائع ويفضي الى المبادىء . وكانت طريقته أن يتصور الحلول الممكنة للمشكلة ، ويستنبط متضمناتها الرياضية ، ويختبر هذه بالحساب والتجربة . وكتب يقول « يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن فى هذا ـ البحث من ظواهر الحركات فى قوى الطبيعة ، ثم ايضاح الظواهر الاخرى من هذه القوى (١٢) » . لقد كان مزيجا من الرياضة والخيال ، ولن يستطيع فهمه الا من يملكهما جميعا .

ولكن لنمض فى طريقنا رغم هذا . ان لشهرته بؤرتين ـ حساب التفاضل ، والجاذبية . بدأ عمله فى حساب التفاضل عام ١٦٦٥ بايجاد مماس ونصف قطر الانحناء عند أى نقطة على منحنى . ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل الفروق المستمرة "Fluxions" وفسر هذا المصطلح تفسيرا لا يمكننا أن نصل الى خير منه :

« ان الخطوط ترسم ، وبهذا الرسم تولد ، لا بضم الأجزاء بعضها الى بعض ، بل بالتحرك المستمر للنقط ، والسطوح بتحرك الخطوط ، والمجسمات بتحرك السطوح ، والزوايا بدوران الجوانب ، وأجــــزاء الزمن بالفيض المستمر ، وهكذا فى غير ذلك من الكميات . وعلى ذلك فيما أن الكميات ، التى تزداد فى أزمان متساوية ، وبالزيادة تولد ، أصبحت أكبر أو أقل حسب السرعة الاكبر أو الاقل التى تزداد او تولد بها ، فاننى بحثت عن طريقة لتحديد الكميات من سرعات الحركات أو الزيادات التى تولد بها ، واذ أطلقت على سرعات الحركات أو الزيادات لفظ « الفروق "Fluxions" ، والكميات المولدة « المتغيرات » ، فقد اهتديت شيئا فشيئا الى طريقة الفروق فى عامى ١٦٦٥ و ١٦٦٦ (١٣)»

وقد وصف نيوتن طريقته فى خطاب كتبه لبارو عام ١٦٦٩ ، وأشار اليها فى خطاب لجون كولنز فى ١٦٧٢ • ولعله استخدم هذه الطريقة فى التوصل الى بعض النتائج المتضمنة فى كتابه « المبادىء » (١٦٨٧) ، ولكن عرضه لها فيه جرى على الصيغ الهندسية المقبولة ربما مراعاة لما يناسب قراءه • وقد أسهم ببيان لطريقته فى الفروق — ولكن دون أن يخفى اسمه — فى كتاب واليس « الجبر » عام ١٦٩٣ • ولم ينشر الوصف الذى اقتبسناه فيما سبق الا عام ١٧٠٤ ، فى ملحق لكتابه « البصريات » • وكان فى طبع نيوتن أن يؤخر نشر نظرياته ، وربما اراد أولا أن يحل الصعوبات التى أوحت بها • وعليه فقد انتظر حتى سنة ١٦٧٦ لينشر نظرية « ذات الحدين » التى خلص اليها • ولو أنه صاغها على الأرجح فى ١٦٦٥ × •

هذه التاجيلات زجت برياضي أوربا فى جدل معيب مزق دولية العلم جيلا بأسره • ذلك أنه فى الفترة بين ابلاغ نيوتن نظريته فى « الفروق » لأصحابه فى ١٦٦٩ ونشر الطريقة الجديدة فى ١٧٠٤ ، وضع ليبنتز نظاما منافسا لها فى ماينز وباريس • ففى ١٦٧١ أرسل الى أكاديمية العلوم بحثا يحوى جرثومة حساب التفاضل (١٤) ، وقابل ليبنتز أولدنبرج فى زيارة للندن ، من يناير الى مارس ١٦٧٣ ، وكان قد تبادل الرسائل معه ومع بويل • وقد ظن أصحاب نيوتن فيما بعد أن ليبنتز فى رحلته هذه تلقى الماعا لفروق نيوتن — ولكن المؤرخين يتشككون فى هذا الآن • وفى يونيو ١٦٧٦ ، بناء على طلب أولدنبرج وكولنز ، كتب نيوتن خطابا ليبلغ الى ليبنتز ، شارحا فيه طريقته فى التحليل • وفى اوغسطس رد ليبنتز على أولدنبرج ، وضمن الرد بعض الامثلة من شغله فى حساب التفاضل ، وفى يونيو ١٦٧٧ ، فى خطاب آخر لأولدنبرج ، وصف نوع حساب التفاضيل الذى توصل اليه ، وطريقته فى التنويت notation أى التدوين بمجموعة من الرموز الرموز) ، وهما يختلفان عن حساب نيوتن وطريقته • ثم عاد فى مجلة Aeta Eruditorum عدد أكتوبر ١٦٨٤ يشرح حساب التفاضل ،

× وطبقا لهذه النظرية فان اى قوة ذات حدين (وهو تعبير جبرى مؤلف من حدين تربطهما علامة زائد أو ناقص) يمكن ايجادها بصيغة جبرية بدلا من ايجادها بالضرب • وقد سبق نيوتن جزئيا الى هذه النظرية فييت وبسكال •

وفى ١٦٨٦ نشر طريقته فى حساب التكامل . وفى الطبعة الأولى من « المبادىء » (١٦٨٧) قبل نيوتن بشكل واضح اكتشاف ليبنتز لحساب التفاضل مستقلا . قال :

« فى رسائل تبادلتها مع عالم الهندسة الألمعى ج . و . لبنتز ، قبل عشر سنوات ، حين أشرت الى أننى أعرف طريقة لايجاد الحدود القصوى والدنيا ، ورسم المماسات ، وما الى ذلك ... رد السيد المبجل بأنه اهتدى هو أيضا الى طريقة من نفس النوع ، وأنهى الى طريقته ، التى لم تكد تختلف عن طريقتى ... الا فى أشكال ألفاظه ورموزه (١٦) » .

وكان خليقا بهذا الاعتراف المهذب أن يمنع الجدل . ولكن فى ١٦٩٩ أشار رياضى سويسرى فى رسالة للجمعية الملكية الى أن لبنتز استعار حساب تفاضله من نيوتن . وفى ١٧٠٥ ذكر ليبنتز تضمينا ، فى نقد غفل من التوقيع لكتاب نيوتن « البصريات » أن فروق نيوتن تحوير لحساب التفاضل اللبنتزى . وفى ١٧١٢ عينت الجمعية الملكية لجنة لفحص الوثائق المتصلة بالموضوع . وقبل أن ينصرم العام نشرت الجمعية تقريرا Commercium Epistolicum أكد اسبقية نيوتن ، دون أن تخوض فى موضوع أصالة لبنتز . وفى رسالة كتبها لبنتز بتاريخ ٩ أبريل ١٧١٦ الى قسيس ايطالى بلندن اعترض بقوله ان تعليق نيوتن قد حسم الأمر . ومات لبنتز فى ١٤ نوفمبر ١٧١٦ . وبعد موته بقليل نفى نيوتن أن التعليق « أقر له - أى للبنتز باختراع حساب التفاضل مستقلا عن اختراعى » وفى الطبعة الثالثة من « المبادىء » (١٧٢٦) حذف التعليق (١٧) . ولم يكن النزاع مما يليق بالفلاسفة، لأن كلا المدعيين كان يصح أن ينحنى احتراما لفيرما لأنه كان رائدا لهما فى هذا المضمار .

٢ - الفيزيائى

على أن الرياضة ، على ما فيها من عجب ، لم تكن سوى أداة لحساب الكميات ، فهى لم تزعم أنها تفقه الحقيقة أو تصفها . فلما تحول نيوتن من الاداة الى البحث الجوهرى ، عكف أولا على استكناه سر الضوء . وتناولت محاضراته الاولى فى كمبردج الضوء ، واللون ،

والرؤية ، وعلى عادته لم ينشر كتـابه « البصريات » الا بعد خمس وثلاثين سنة ، فى ١٧٠٤ ، فقد كان بريئا من شهوة النشر .

وفى عام ١٦٦٦ اشترى منشورا من سوق ستوربردج وبدأ التجارب فى البصريات . وفى عام ١٦٦٨ فصاعدا صنع سلسلة من التلسكوبات . فصنع بيديه ، على أساس النظريات التى شرحها مرسين (١٦٣٩) وجيمس جريجورى (١٦٦٢) ، تلسكوبا عاكسا ليتفادى بعض العيوب الملازمة للتلسكوب الكاسر ، وقدمه للجمعية الملكية بناء على طلبها عام ١٦٧١ . وفى ١١ يناير ١٦٧٢ انتخب لعضوية الجمعية .

وكان قد توصل (١٦٦٦) الى احد كشوفه الاساسية حتى قبل ان يصنع التلسكوبات ـ وهو أن الضوء الأبيض ، أو ضوء الشمس ، ليس بسيطا أو متجانسا ، بل هو مركب من الاحمر ، والبرتقالى ، والاصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلى ، والبنفسجى . فلما مـرر شعاعا صغيرا من ضوء الشمس خلال منشور شفاف وجد أن الضوء الذى يبدو أحادى اللون انقسم الى كل الوان الطيف هـــذه ، وان كل لون مكون خرج من المنشور عند زاويته أو درجته أو انكساره الخاص ، وأن الألوان نظمت نفسها فى صف من الحزم ، مؤلفه طيفا مستمرا ، فى أحد طرفيه اللون الاحمر وفى الآخر البنفسجى . وقد اثبت الباحثون اللاحقون أن المواد المختلفة ، اذا جعلت مضيئة بحرقها ، تعطى أطيافا مختلفة . وبمقارنة هذه الاطياف بالطيف الذى يحدثه نجم معـــين ، أصبح فى الامكان تحليل مكونات النجم الكيميائية الى حـد ما . ثم دلت الملاحظات الأدق لطيف النجم على السرعة التقريبية لتحركه نحو الأرض أو بعيدا عنها ، ومن هذه الحسابات استنبط نظريا بعد النجم . وهكذا تمخض كشف نيوتن لتكوين الضوء ، وانكســـاره فى الطيف ، عن نتائج كونية تقريبا فى ميدان الفلك .

ولم تتكشف هذه النتائج لنيوتن فى ذلك الحين ، ولكنه احس (كما كتب لأولدنبرج) انه توصل « الى أغرب كشف الى الآن ان لم يكن أهم كشف فى عمليــات الطبيعة (١٨) » فارســـل الى الجمعية الملكية فى بواكير عام ١٦٧٢ بحثا عنوانه « نظرية جديدة فى الضــوء واللون » . وقرىء البحث على الأعضاء فى ٨ فبراير ، فاثار جدلا عبر المانش الى القارة . وكان هوك قد وصف فى كتابه « ميكروجرافيـا »

(١٦٦٤) تجربة شبيهة بتجربة نيوتن بالمنشور ، ولم يكن قد استنتج منها نظرية ناجحة فى اللون ، ولكنه احس بأن فى اعفال نيوتن لفضله السابق غضا من قدره ، فانضم الى بعض أعضاء الجمعية فى نقد النتائج التى خلص اليها نيوتن ، واستمر النزاع ثلاثة أعوام . كتب نيوتن المرهف الحس يقول « اننى مضطهد بالجدل الذى أثارته نظريتى فى الضوء اضطهادا جعلنى ألوم حماقتى لأننى ضحيت بنعمة عظمى ، نعمة هدوء البال ، جريا وراء سراب (١٩) » وحدثته نفسه حينا بأن « أطلق الفلسفة طلاقا بائنا لا رجعة فيه ، الا ما أفعله ارضاء لذاتى (٢٠) » .

وثارت نقطة أخرى من نقط الجدل مع هوك حول ناقل الضوء . وكان هوك قد اعتنق نظرية هويجنز ، التى زعم فيها أن الضوء ينتقل على موجات « أثير » . ورد نيوتن بأن هذه النظرية لا تفسر مسار الضوء فى خطوط مستقيمة . واقترح بدلا منها « نظرية الجسيمات أو الدقائق corpuscular theory " : فالضوء سببه اطلاق الجسم المضيء جزيئات دقيقة لا حصر لها ، تسير فى خطوط مستقيمة خلال الفضاء بسرعة ١٩٠٫٠٠٠ ميل فى الثانية . ورفض نظرية الأثير ناقلا للضوء ، ولكنه قبله بعد ذلك وسيطا لقوة الجاذبية × .

وجمع نيوتن مناقشاته حول الضوء فى كتابه (البصريات Opticks فى ١٧٠٤ . ومما له دلالة أنه كتبه بالانجليزية (فى حين كان كتاب المبادىء Psincipia باللاتينية) ، ووجهه « الى القراء الحاضرى الذكاء والفهم ، الذين لم يتضلعوا بعد فى البصريات» . وفى نهاية الكتاب وضع قائمة لواحد وثلاثين سؤالا تتطلب مزيدا من البحث . وكان السؤال الأول ارهاصا بهذه النبوءة « ألا تؤثر الاجسام فى الضوء عن بعد ، فتنحنى أشعته بهذا التأثير ، وألا يكون هذا

× فصل الفيزيائيون اللاحقون نظرية التموجات التى قال بها هويجنز على أساس أن فرض الجسيمات الذى قال به نيوتن لا يعلل تعليلا مرضيا ظواهر الانحراف ، والتداخل ، والاستقطاب . ويميل الفيزيائيون المعاصرون الى الجمع بين الرأيين تفسيرا لظواهر تبدو أنها تشتمل على الجسيمات والامواج معا . والفوتونات أو الكمات التى يقول بها الفيزيائيون اليوم تعيد الى الذاكرة جسيمات نيوتن ، أما الاثير فقد فقد الآن اعتباره .

التاثير على أشده فى أدنى الأبعاد × ؟ » والسؤال الثـــلاثون « لم لا تغير الطبيعة الأجسام الى ضوء والضوء الى أجسام ؟ » .

٣ ـ أصل نظرية الجاذبية

كانت سنة ١٦٦٦ سنة جنينية لنيوتن . شهدت بداية جهوده فى البصريات ، ولكنه كذلك يقول عن ذكرياته أن شهر مايو « كان مدخلى الى الطريقة العكسية للفروق المستمرة ، وفى نفس السنة بدأت أفكر فى امتداد الجاذبية الى مدار القمر .. .. بعد أن قارنت بين القوة اللازمة لحفظ القمر فى مداره ، وقوة الجاذبية على ســـطح الأرض ، ووجدتهما متفقتين تماما تقريبا ... فى تلك السنين كنت فى ربيع عمرى (٢١) » .

وفى عام ١٦٦٦ وصل الطاعون الى كمبردج ، فعاد نيــوتن الى موطنه وولزثورب طلبا للسلامة . وهنا نلتقى بقصة لطيفة . كتب فولتير فى كتابه « فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) :

« ذات يوم من أيام ١٦٦٦ ، حين كان نيوتن معتكفا فى الريف رأى ثمرة تسقط من شجرة كما أخبرتنى بنت أخته السيدة كوندويت ، فاستغرق فى تفكير عميق فى السبب الذى يجذب جميع الأجسام فى خط اذا مد مر قريبا جدا من مركز الأرض (٢٢) » .

وهذا أقدم ما نعرفه من ذكر لقصة التفاحة . وهى لا ترد فى كتب مترجمى نيوتن القدامى ، ولا فى روايته لكيفية اهتدائه لفكرة الجاذبية الكونية ، والفكرة السائدة اليوم عن القصة أنها أسطورة . وأرجح منها قصة أخرى رواها فولتير ، وهى أن غريبا سأل نيوتن كيف اكتشـف قوانين الجاذبية ، فأجاب « بادمان التفكير فيها (٢٣) » ومما لا ريب فيه أنه بحلول عام ١٦٦٦ كان نيوتن قد حسب قوة الجذب التى تحفظ الكواكب فى أفلاكها وانتهى الى أنها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع بعدها عن الشمس (٢٤) . ولكنه لم يستطع الى ذلك الوقت التوفيق بين النظرية وحساباته الرياضية ، فنحاها جانبا ، ولم ينشر عنها شيئا طوال الاعوام الثمانية عشر التالية .

× قارن « النسبية » لالبرت اينشتين (بنيويورك ، ١٩٠٠) ، ٨٨ .

ولم تكن فكرة الجاذبية بين النجوم جديدة قط على نيوتن . فقد ذهب بعض فلكيى القرن الخامس عشر الى أن السماوات تؤثر فى الأرض بقوة تشبه قوة تاثير المغنطيس فى الحديد ، وما دامت الأرض تنجذب بالتساوى من جميع الاتجاهات فانها تبقى معلقة فى مجموع هذه القوة (٢٥) . وقد نبه كتاب جلبرت « المغنطيس » (١٦٠٠) أذهانا كثيرة الى التفكير فى التاثيرات المغنطيسية المحيطة بكل انسان ، وقد كتب هو نفسه فى كتاب لم ينشر الا بعد موته بثمانية وأربعين عاما (١٦٥١) يقول :

« ان القوة المنبعثة من القمر تصل الى الأرض ، وبالمثل فان القوة المغنطيسية للارض تعم-منطقة القمر ، وكلتاهما تتجاوب وتتآلف بتاثيرهما المشترك ، حسب تناسب الحركات وتطابقها ، ولكن تاثير الأرض أكبر نتيجة لكبر كتلتها (٢٦) » .

وكان اسماعيلس بوريار قد قرر فى كتابه " Astronomia Philolaica " (١٦٤٥) أن جذب الكواكب بعضها لبعض يتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينهما (٢٧) ، وذهب الفونسو بوريللى فى كتابه «نظريات الكواكب المديشية » (١٦٦٦) الى أن « كل كوكب وتابع يدور حول كرة كبرى فى الكون بوصفها مصدرا للقوة ، تجذب الكوكب وتابعه وتمسكهما بحيث لا يمكن اطلاقا أن ينفصلا عنها ، بل يضطران لاتباعها أينما ذهبت ، فى دورات ثابتة مستمرة » ، وقد فسر مدارات هذه الكواكب والتوابع بانها نتيجة القوة المركزية الطاردة لدورانها (« كما نجد فى العجلة أو الحجر يدوم فى مقلاع ») تقابلها قوة شمسها الجاذبة (٢٨) . وذهب كبلر الى ان الجاذبية ملازمة لجميع الاجرام السماوية ، وقدر فى فترة من حياته ان قوتها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها ، وكان هذا خليقا بان يكون سبقا واضحا لنيوتن ، ولكنه عاد فرفض هذه الصيغة ، وافترض أن الجذب يتناقص تناقصا طرديا مع زيادة المسافة (٢٩) . على أن هذه المداخل الى نظرية فى الجاذبية حرفتها عن طريقها نظرية ديكارت فى الدوامات التى تكونت فى كتلة بدائية ، ثم عينت عمل كل جزء ومداره .

وقد فكر كثير من المستفسرين اليقظين فى الجمعية الملكية تفكيرا

عميقا فى رياضيات الجاذبية . وفى ١٦٧٤ سبق هوك بكتابه « محاولة لاثبات حركة الارض السنوية » « اعلان » نيوتن لنظرية الجاذبيــة باحد عشر عاما . قال هوك :

« ساشرح نظاما للكون مختلفا فى تفاصيل كثيرة عن اى نظـام عرف الى الآن ، متفقا فى جميع الاشياء مع القواعد الشائعة للحركات الميكانيكية . وهو يعتمد على فروض ثلاثة : (أولها) أن كل الأجرام السماوية أيا كانت ذوات قوة جاذبة الى مراكزها ، لا تجذب بهــــا اجزاءها فحسب وتحفظها من أن تتطاير منها ... بل تجذب كذلك سائر الأجرام السماوية الواقعة فى مجال نشاطها ... (وثانيها) أن جميع الأجسام أيا كانت ، التى تحرك حركة طردية وبسيطة ، تستمر فى الحركة قدما فى خط مستقيم الى أن تحرفها عن طريقها قوى فعالة أخرى ... (وثالثها) أن قوى الجذب هذه يشتد فعلها بقــدر قرب الجسم الواقع تحت حاذبيتها من مراكزها » (٣٠) .

ولم يحسب هوك فى بحثه هذا أن الجذب بتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة ، ولكنه أنهى هذا المبدأ الى نيوتن ـ اذا صدقنا رواية أوبرى ـ بعد أن توصل اليه مستقلا (٣١) . وفى يناير ١٦٨٤ شرح هوك صيغة المربعات العكسية لرن وهالى ، اللذين كانا قبــلاها من قبل . مذكرا لهوك ان الحاجة ليست الى مجرد فرض ، بل الى ايضاح رياضي يثبت أن مبدا الجاذبية يفسر مسارات الكواكب . وعرض رن على هوك وهالى جائزة قدرها اربعون شلنا (١٠٠ دولار) ان اتاه احدهما ببرهان رياضي على الجاذبية . ولم يأته البرهان على قــدر علمنا (٣٢) .

وفى أحد أيام أغسطس ١٦٨٤ ذهب هالى الى كمبردج وســال نيوتن ماذا يكون مدار كوكب ما اذا تناسب جذب الشمس له تناســبا عكسيا مع مربع المسافة بينهما . وأجاب نيوتن انه يكون قطعا ناقصا (اهليلجا) . ولما كان كبلر قد استخلص من دراســته الرياضــــية لمشاهدات تيكو براهى أن مدارات الكواكب اهليلجية ، فقــد بدا أن الفلك الآن تأيد بالرياضة ، والعكس بالعكس . واضــــاف نيوتن أنه اجرى الحسابات تفصيلا فى ١٦٧٩ ، ولكنه نحاها جانبا ، من جهــة

لأنها لم تتفق تماما مع التقديرات السائدة يومها لقطر الأرض والبعد بين الأرض والقمر ، وأرجح من هذا السبب أنه لم يكن واثقا من أنه يستطيع تناول الشمس ، والكواكب ، والقمر على أنها نقط مفردة فى قياس قوتها الجاذبة . ولكن فى عام ١٦٧١ أذاع بيكار قياسه الجديد لنصف قطر الارض ولدرجة من درجات خطوط الطول ، التى حسب اخيرا أنها تبلغ ٦٩٫١ ميلا تتريعيا انجليزيا ، وفى عام ١٦٧٢ تمكن بيكار بفضل بعثته الى سايين من حساب بعد الشمس عن الأرض فقرر أنه ٨٧٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل (والرقم الحـالى ٩٢٫٠٠٠) واتفقت هذه التقديرات الجديدة اتفاقا طيبا مع رياضة نيوتن فى الجاذبية ، واقنعه المزيد من الحسابات فى ١٦٨٥ بأن الكره تجذب الاجسام وكأن كتلة هذه الكرة كلها تجمعت فى مركزها . وشعر الآن بمزيد من الثقة فى فرضـه .

ثم قارن سرعة حجر على الأرض بسرعه سـقوط القمـر على الأرض اذا نقصت قوة جذب الأرض له بمربع المسافة بينهما . فوجد أن نتائجه تتفق وآخر البيانات الفلكية . فخلص من هذا الى أن القوة التى تسقط الحجر، والقوة الجاذبة للقمر نحو الأرض رغم قوة طرد القمر المركزية ، هما قوة واحدة . وسر الأنجاز الذى حققه هنـا كامن فى تطبيقه هذه النتيجة التى انتهى اليها على جميع الاجسـام التى فى الفضاء ، وفى تصوره أن جميع الأجرام السماوية مترابطة فى شـبكه من التاثيرات الجذبية ، وفى بيانه كيف أن حسـاباته الرياضـية والميكانيكية تتفق وملاحظـات الفلكيين ، لا سـيما قوانين كبـلر الكوكبية × .

وبدأ نيوتن اجراء حساباته من جديد ، وانهاهـا الى هالى فى نوفمبر ١٦٨٤ . وأدرك هالى اهميتها فحثه على تقديمها للجمعيـة

× قوانين كبـلر (١٦٠٩ ، ١٦١٩) : (١) ان الكواكب ترسـم مدارات اهليلجية ، فيها الشمس بؤرة واحدة (٢) ان الخط الذى يربط كوكبـا بالشمس ينتشر فوق مساحات متساوية فى أوقات متساوية . (٣) ان مربع فـترة دوران الكوكب يتناسب مع مكعب متوسط بعده عن الشمس . وهذه الصـيغة افضت الى قانون المربعات العكسية .

الملكية فوافق ، وارسل الى الجمعية رسالة فى « قضـايا الحــركة » (فبراير ١٦٨٥) ، لخص فيها آراءه فى الحركة والجاذبيـــة . وفى مارس ١٦٨٦ بدأ عرضنا أوفى ، وفى ٢٨ أبريل ١٦٨٦ قدم للجمعيـة مخطوط الكتاب الاول من كتب الحركة ، عن المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية . وللتو لفت هوك النظر الى أنه سبق نيوتن فى ١٦٧٤ . ورد نيوتن فى رسالة الى هالى أن هوك اخذ فكرة المربعات العكسية عن بوريللى وبويار . وتفاقم الخلاف حتى أصبح سخطا من الطرفين ، وحاول هالى أن يصلح ذات البين ، وهدأ نيوتن ثائرة هوك بتضمين مخطوطته حاشية ، تحت القضية الرابعة ، أقر فيها بفضل « أصدقائنا رن ، وهوك ، وهالى » ، فى أنهم « استنتجوا من قبـــل » قانون المربعات العكسية . ولكنه ضاق بالنزاع اشد الضيق حتى انه حين أعلن لهالى (٢٠ يونيو ١٦٨٧) أن الكتاب الثانى جاهز ، أضـــاف قائلا « فى نيتى الآن أن أوقف الكتاب الثالث . فالفلسفة أشـــبه بامـــرأة مشاكسة وقحة تزج بمن يتعامل معها فى قضايا أمام المحاكم » . وأقنعه هالى بأن يواصل الكتاب . وفى سبتمبر ١٦٨٧ نشر المؤلف كله برعاية الجمعية الملكية ورئيسها آنئذ ، صموئيل بيبيس . ولما كانت الجمعية فى ضائقة مالية ، فقد أنفق هالى على النشر بأكمله من جيبه الخاص ، مع أنه لم يكن بالرجل الميســـور . وهكذا ، وبعـد عشرين عاما من الاعداد ، ظهر أهم كتاب فى علم القرن السابع عشر ، كتاب لا يضارعه فى عظم تاثيره فى ذهن أوربا المثقفة سوى كتاب كوبرنيق فى الدورات (١٥٤٣) ، وكتاب دارون فى أصل الأنواع (١٨٥٩) . هذه الكتب الثلاثة هى اهم الأحداث فى تاريخ أوربا الحديثة .

٤ ـ كتاب المبادىء « برنكبيا Principia "

فسرت عنوان الكتاب مقدمته :

« بما أن القدماء (كما يخبرنا بابوس) علقوا أهمية عظمى على علم الميكانيكا فى بحثهم فى الاشياء الطبيعية ، وبما أن المحدثين ، بعد ان نحوا أشكال المادة (التى قال بها السكولاستيون) والصـفات الغيبية ، حاولوا اخضاع الظواهر الطبيعية لقوانين الرياضة ، فقـد

طورت الرياضة فى هذا البحث على قدر اتصالها بالفلسفة (الطبيعية) ... وعليه فانا نقدم هـــذا المؤلف على أنه المبـــادىء الرياضـــية للفلسفة ، ذلك لأن كل معضلة الفلسفة هى فى بحث قوى الطبيعة من ظواهر الحركة ، ثم توضيح الظواهر الاخرى من هذه القوى » .

أما وجهة نظر الكتاب فستكون ميكانيكية خالصة :

« وددت لو استطعنا استخلاص باقى الظواهـــر الطبيعية بنفس نوع الاستدلال من الأسس الميكانيكية ، لأن مبررات كثيرة تحملنى على الظن بأنها ربما كانت كلها تتوقف على قوى معينة تدفع بواســـطتها جزيئات الاجسام بأسباب مجهولة الى الآن بعضـــها نحـــو البعض ، وتتماسك فى أشكال منتظمة ، أو تصد وتتراجع بعضها عن البعض ، واذ كانت هذه القوى مجهولة ، فقد حاول الفلاســفة الى الآن البحث فى الطبيعة عبثا ، ولكنى أرجو أن تلقى المبادىء الموضوعة هنا بعض الضوء على تلك الطريقة ، أو على طريقة أصح ، من طرق الفلسفة ».

وبعد أن وضع نيوتن بعض التعاريف والبديهيات ، صـــاغ ثلاثة قوانين للحركة :

١ ـ كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ما لم يضطر الى تغيير تلك الحالة بقوى واقعة عليه .

٢ ـ تغيير الحركة يتناسب مع القوة المحركة الواقعة ، ويتم فى اتجاه الخط المستقيم الذى تقع فيه تلك القوة .

٣ ـ كل فعل يقابله دائما رد فعل مساو له .

أما وقد تسلح نيوتن بهذه القوانين ، وبقـــانون التربيع العكسى فقد تقدم الى صياغة مبدأ الجاذبية . وصورة المبدأ الحالية ، وهى أن كل جزىء من المادة يجذب كل جزىء بقوة تتناسب تناسبا طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما وتناسبا عكسيا مع مربع البعد بينهما ، هـــذه الصورة لا نجدها بهذا النص فى أى موضوع فى كتاب المبادىء ، ولكن نيوتن أعرب عن الفكرة فى التعقيب العام الذى ختم به الكتاب الثانى: « ان الجاذبية ... تعمل ... حسب كمية المادة الجامدة التى تحتويها (الشمس والكواكب) ، وتنتشر قوتها على جميع الجهات ... متناقصة

أبدا بما يتناسب مع المربع العكسي للمسافات (٣٣) » . وقد طبق هذا المبدأ ، وقوانينه فى الحركة ، على مدارات الكواكب ، ووجد أن تقديراته الحسابية تتفق والمدارات الاهليلجية التى استنتجها كبلر . وزعم أن الكواكب تحول عن حركاتها المستقيمة ، وتحفظ في مداراتها، بقوة تميل صوب الشمس وتتناسب تناسبا عكسيا مع مربع أبعادها عن مركز الشمس . وعلى أساس مبادىء مماثلة فسر جذب المشترى لتوابعه، والأرض للقمر . وبين أن نظرية ديكارت فى الدوامات باعتبارها الشكل الاول للكون لا يمكن التوفيق بينها وبين قوانين كبلر . وحسب كتلة كل كوكب ، وقدر كثافة الأرض من خمسة الى ستة أمثال كثافة الماء . (والرقم الحالى ٥ر٥) . وعلل رياضيا تفرطح الأرض عند القطبين ، وعزا انبعاجها عند الاستواء الى قوة الشمس الجاذبة ، ووضع رياضيات المد والجزر باعتبارهما راجعين الى جذب الشمس والقمر الموحد للبحار ، ويمثل هذا الفعل القمرى ـ الشمسي فسر مبادرة نقطتى الاعتدالين ، ورد مسارات المذنبات الى مدارات منتظمة ، وبهذا أيد نبوءة هالى . وقد صور كونا أعظم تعقيدا من الناحية الميكانيكية مما ظن من قبل ، لانه نسب لجميع الكواكب والنجوم صفة الجذب ، فاصبح الآن كل كوكب أو نجم ينظر اليه على أنه متاثر بكل كوكب أو نجم آخر . ولكن فى هذا الحشد المعقد من الاجرام السماوية وضع نيوتن قانونا يحكمه : فابعد النجوم يخضع لذات الميكانيكا والرياضة اللتين يخضع لهما أصغر الجزيئات على الأرض . ان رؤية الانسان للقانون لم تغامر قط بالتحليق فى الفضاء الى مثل هذا البعد ، ولا بمثل هذه الجرأة .

ونفدت الطبعة الأولى من « المبادىء » سريعا ، ولكن لم تظهر طبعة ثانية الا فى ١٧١٣ . وعزت نسخه حتى أن عالما نسخ الكتاب كله بيده (٣٤) . واعترف القراء بانه عمل فكرى من أرفع طراز ، ولكن بعض ملاحظات النقد كدرت صفو الثناء عليه . فرفضت فرنسا النظام النيوتنى لتشبثها بدوامات ديكارت ، الى أن عرضه فولتير فى ١٧٣٨ عرضا ملؤه الاعجاب والتبجيل . واعترض كاسينى وفونتنيل بان الجاذبية ليست سوى قوة أو صفة غيبية تضاف الى القوى الماضية ، وقالا ان نيوتن شرح بعض العلاقات بين الاجرام السماوية ، ولكنه لم يكشف عن طبيعة الجاذبية ، التى ظلت سرا خفيا كسر الله . وقال ليبنتز بانه

ما لم يستطع نيوتن بيان المكنية التى تستطيع الجاذبية أن تؤثر بها ، خلال فضاء يبدو فارغا ، فى أجسام تبعد عنها ملايين الأميـال ، فانه لا يمكن قبول الجاذبية على أنها شيء أكثر من مجرد كلمة (٣٥) .

ولم تحظ النظرية الجديدة بالقبـول السريع حتى فى انجلترة . وزعم فولتير أن المرء كان بالجهد يجد عشرين عالما يرضون عنها بعد أن نشرت لأول مرة باربعين عاما . وبينما شكا النقاد فى فرنسـا من أن النظرية ليست ميكانيكية بالقـدر الكافى اذا قيسـت بدوامات ديكارت البدائية ، كانت الاعتراضات عليها فى انجلترة فى اغلبها دينية ، فأسف جورج باركلى فى كتابه « مبادىء المعرفة الانسانية » (١٧١٠) لأن نيوتن يرى الفضاء والزمان والحركة مطلقة ، سرمدية فيما يبـدو ، وموجودة مستقلة عن المساندة الالهية . فالميكانيكية تطغى على النظام النيوتنى طغيانا لا يترك فيه مكانا لله .

فلما وافق نيوتن بعد ما عهد فيه من تسويفات على أن يعد طبعة ثانية الكتاب ، حاول أن يهـدىء من ثائرة نقـاده . فاكد لليبنتز والفرنسيين أنه لا يفترض قوة تعمل عن بعد خلال الفضاء الفارغ ، وأنه يعتقد بوجود ناقل متخلل ، رغم انه لن يحاول وصفه ثم اعترف بصراحة أنه لا يفقه طبيعة الجاذبية . وبهذه المناسبة كتب فى الطبعة الثانيـة كلماته التى كثيرا ما يساء فهمها ، وهى أنه « لا يضع فرضا (٣٦) » وأضاف « يجب أن تتسبب الجاذبية من عامل يعمل بثبات وفق قوانين معينة ، ولكنى أترك لقرائى النظر فى هل هذا العـامل مادى أو غير مادى (٣٧) » .

ورغبة فى المزيد من الرد على الاعتراضات الدينية ألحق بالطبعة الثانية تعقيبا عاما عن دور الله فى نسقه . فقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادى ، ورأى حتى فى ذلك العالم ادلة على وجود خطـة الهية ، فالآلة الكبرى تتطلب مصدرا أول لحركتها ، لا بد أن يكون هو الله ، ثم ان فى النظام الشمسي شذوذات فى المسلك يصححها تعـالى دوريا كلما ظهرت (٣٨) . ولكى يفسح نيوتن مجالا لهذه التدخـلات الخارقة نزل عن مبدأ عدم فناء الطاقة . وافترض الآن أن آلة العالم تفقد بعض طاقتها بمضي الوقت ، وستفقدها كلها ان لم يتدخل الله ليرد لها

قوتها (٣٩) . واختتم بهذه العبارة « ان هذا النظام البديع ، نظام الشمس ، والكواكب ، والمذنبات ، لا يمكن أن ينبعث الا من مشورة كائن ذكى قوى ومن رحابه (٤٠) » . وأخيرا تحرك صوب فلسفة يمكن أن تفسر بمعنى حيوى ، أو تفسر بمعنى ميكانيكى قال :

« وقد نضيف الآن شيئا يتصل بروح غاية فى الدقة ، روح تنتشر وتختفى فى جميع الاجسام الكبيرة ، وبقوتها وفعلها تتجاذب جزيئات الاجسام فى المسافات القريبة ، وتتماسك اذا تجاورت ، وتعمل الاجسام الكهربية الى أبعاد أعظم ، فتصد وتجذب الجزيئات المجاورة ، ويرسل الضوء ، ويعكس ، ويكسر ، ويثنى ، ويسخن الأجسام ، وكل احساس يثار ، وتتحرك أعضاء الأجسام الحيوانية بامر الأرادة ، اعنى بتموجات هذه الروح ، مبثوثة بالتبادل على خيوط الاعصاب المتينة ، من أعصاب الحس الخارجية الى المخ ، ومن المخ الى العضلات . على أن هذه أشياء لا يمكن تفسيرها فى بضع كلمات ، ثم اننا لم نزود بما يكفى من التجارب التى يتطلبها التقرير والايضاح الدقيقان للقوانين التى تعمل وفقا لها هذه الروح الكهربية المرنة (٤١) » .

ترى ماذا كان ايمانه الدينى الحقيقى ؟ لقد تطلبت أستاذيته فى كمبردج الولاء للكنيسة الرسمية ، وكان يختلف بانتظام الى الخدمات الكنسية الانجليكانية . أما صلواته الخاصة فيقول فيها سكرتيره « لا أستطيع أن أقول عنها شيئا ، واميل الى الاعتقاد بأن دراساته المفرطة حرمته من النصيب الأفضل (٤٢) » . ومع ذلك فقد درس الكتاب المقدس بنفس الغيرة التى درس بها الكون . وقد اثنى عليه رئيس أساقفة بقوله « انك تعرف من اللاهوت أكثر مما نعرف كلنا مجتمعين (٤٣)» وقال لوك عن معرفته بالأسفار المقدسة « لست أعرف من أمثاله الا القليلين (٤٤) » وقد خلف كتابات لاهوتية يفوق حجمها كل مؤلفاته العلمية .

وقادته دراساته الى نتائج اشبه بالاريوسية ، وهى قريبة الشبه بنتائج ملتن ، ومجملها ان المسيح وان كان ابن الله الا انه ليس مساويا لله الآب فى الزمن أو القوة (٤٥) . وفيما عدا ذلك كان نيوتن ، أو أصبح ، مستقيم العقيدة تماما . ويبدو أنه آمن بكل كلمة من كلمات

الكتاب المقدس على انها كلمة الله ، وانه قبل سفرى دانيـــال ورؤيا يوحنا على انهما الحقيقة بحذافيرها . لقد كان اعظم علمـــاء عصره صوفيا نسخ فى شغف فقرات طويلة من يعقـــوب بومى ، وطلب الى لوك أن يناقش معه معنى « الحصـــان الابيض » الوارد فى ســـفر الرؤيا . وقد شجع صديقه جون كريج على كتابه « الاسس الرياضـــية للاهوت المسيحى » (١٦٩٩) الذى حاول أن يثبت بالرياضة تاريخ مجىء المسيح الثانى ، والنسبة بين أقصي ما يمكن بلوغه من السعادة الأرضية وسعادة المؤمن التى يجزى بها فى الفردوس (٤٨) . وقد كتب تعليقا على سفر الرؤيا ، وزعم أن المسيح الكاذب المتنبأ به فى السفر هو بابا روما . لقد كان ذهن نيوتن مزيجا جمع بين ميكانيكا جاليليو وقوانين كبلر وبين لاهوت بومى . ولن يطالعنا الزمان بمثـــله عن قريب .

٥ ـ الأصـــيل

لقد كان بمعنى آخر مزيجا شاذا ، رجلا مستغرقا بشكل واضـح فى النظرية الرياضية والصوفية ، وهو مع ذلك ذو مقدرة عملية وفطرة سليمة اختارته جامعة كمبردج عام ١٦٨٧ ليذهب مع آخرين للاحتجاج لدى جمبس الثانى على محاولة هذا الملك أن يفرض على الجامعة أن تمنح راهبا بندكتيا درجة جامعية دون أن يحلف الايمان العادية التى يستحيل على الكاثوليكى أن يقبلها . وفشلت البعثة فى ثنى الملك عن قراره ، ولكن لا بد أن الجامعة رضيت عن رآسة نيوتن لها ، لأنه اختير عضوا ممثلا لكمبردج فى برلمان ١٦٨٩ . وظل عضوا حتى حل البرلمان عام ١٦٩٠ ، ثم أعيد انتخابه عام ١٧٠١ ، ولكنه لم يشارك فى السياسة بدور مذكور .

وتخللت حياته العملية عام ١٦٩٢ سنتان من المرض الجســمى والعقلى . فقد كتب الى بيبيس ولوك رسائل يشـكو فيهـــا من الأرق والسوداء ، ويعرب عن مخـــاوف الاضطهاد ، ويتحسر على فقـــده « تماسك ذهنه القديم (٤٧) » . وفى ١٦ ســـبتمبر ١٦٩٣ كتب الى لوك يقول :

سيدى : ان ظنى أنك حاولت توريطى فى علاقات نسائية وبطرق

اخرى أثر فى نفسي تأثيرا شديدا ، حتى أننى أجبت حين أخبرنى احدهم بأنك مريض ولن تعيش ، بان من الخير أن تمـــوت . وأود أن تغتفر لى هذه القسوة لأننى الآن مقتنع بان ما فعلتـه صـــواب ، وأسألك الصفح عن اساءتى الظن بك فى هذا الأمر ، وعن قولى انك أصبت الفضيلة فى الصميم بمبدأ وضعته فى كتـاب « الأفكار » الذى الفته ، ونويت أن تواصله فى كتابه آخر ، وعن أننى حسبتك خطأ من انصار هوبز . كذلك أسالك الصفح عن قولى أو ظنى بان هناك خطـة لبيعى منصبا ، أو لتوريطى ...

وانى خادمك الخاضع المنكود الحظ

اسحاق نيوتن (٤٨)

وذكر بيبيس فى خطاب تاريخه ٢٦ سبتمبر ١٦٩٣ « اضطرابا فى ... الرأس أو العقل » تدل عليه رسالة تلقاها من نيـــوتن . وقد خلف هويجنز عند وفاته (١٦٩٥) مخطوطة دون فيها تحت يوم ٢٩ مايو ١٦٩٤ أن « مستر كولين ، وهو رجل اسكتلندى ، أنبانى أن عالم الهندسة الشهير اسحاق نيوتن أصابته لوثة قبل ثمانية عشر شـــهرا » ولكنه استعاد صحته فبدأ يفهم كتابه « المبادىء » . وأرسل هويجنز التقرير الى ليبنتز فى رسالة مؤرخة ٨ يونيو ١٦٩٤ قال فيها : « ان الرجل الطيب المستر نيوتن أصيب بنوبة من الخبل لازمته ثمانية عشر شهرا ، وقيل أن اصحابه شفوه منها بالعقاقير وابقائه محبوسا (٤٩) » وظن البعض أن هذا الانهيار العصبى صرف نيوتن عن العلم الى سفر الرؤيا ، ولكنا لا نستطيع الجزم بهذا . وقيل « انه لم يركز قط كما ألف أن يركز ، ولم يقم بأى جهد جديد (٥٠) » ومع ذلك ففى ١٦٩٦ حل على الفور تقريبا مسألة حسابية اقترحها يوهان برنوللى « على أذكى الرياضيين فى العالم » ، وكذلك فعل بمســـألة وضـــعها ليبنتز عام ١٧١٦ (٥١) . وقد أرسل رده على برنوللى غفلا من الاسم بطـــريق الجمعية الملكية ، ولكن برنوللى حزر على الفور أن صاحبه نيوتن ، اذ تبين « الأسد من مخلبه » على حد قوله . وفى عام ١٧٠٠ اكتشف نظرية آلة السدس ، ولم يكشف النقاب عنها الا بخطاب لهالى ، ووجب أن يعاد اختراعها عام ١٧٣٠ . ويبدو انه شرف المناصب العسيرة التى بادرت الدولة بتعيينه فيها .

وكان لوك ، وبيبيس ، وغيرهما من أصدقاء نيوتن قد فاوضوا حينا للحصول له على منصب حكومى يخرجه من سجن حجرته ومختبره فى كمبردج . وفى عام ١٦٩٥ اقنعوا اللورد هاليفاكس بأن يعرض عليه وظيفة أمين دار سك النقود . ولم تكن الوظيفة شرفية ولا صدفة ، اذ أرادت الحكومة أن تفيد من علم نيوتن بالكيمياء والمعادن فى ضرب عملة جديدة . ففى ١٦٩٥ انتقل الى لندن ، حيث عاش مع ابنة أخته كاترين بارتون ، خليلة هاليفاكس (٥٢) . وقد خيل الى فولتير أن افتتان هاليفاكس ببنت الاخت هذه حمل هاليفاكس وهو وزير للخزانة على أن يعين نيوتن مديرا لدار سك النقود فى ١٦٩٩ (٥٣) ، ولكن هذه الشائعة لا تكاد تفسر استمرار نيوتن فى شغل ذلك المنصب طوال الثمانية والعشرين عاما الباقية له فى أجله ، وشغله على نحو حاز الرضاء العام .

وكان خليقا بشيخوخته أن تكون سعيدة . فقد كرمته الدولة بوصفه أعظم العلماء الاحياء ، ولم يحظ رجل من رجال العلم حتى وقتنا هذا بمثل ما حظى به من ثناء عريض . وقد انتخب رئيسا للجمعية الملكية عام ١٧٠٣ ، وظل ينتخب سنويا بعد ذلك حتى وفاته . وفى عام ١٧٠٥ خلعت عليه الملكة آن لقب الفروسية . وحين ركب عربته مخترقا شوارع لندن تفرس الناس برهبة فى وجهه الوردى ، وقد فاض جلالا وطيبة تحت لمة من الشعر الابيض . ولم يستطيعوا طوال الوقت أن يلحظوا أنه قد عرض بأكثر مما يتناسب مع طوله المتواضع . وكان يستمتع براتب طيب بلغ ١٫٢٠٠ جنيه فى العام ، وقد استثمر مدخراته بحكمة حتى انه خلف عند وفاته ٣٢٫٠٠٠ جنيه (٥٤) ، رغم سخائه فى الهدايا والصدقات . وقد أفاق من خسارته فى انهيار شركة « ساوث سي » . على أنه كان متقلب المزاج ، وأحيانا سريع الغضب سيىء الظن، كتوما ، ودائما شديد التهيب رغم كبريائه (٥٥) . كان يحب اعتزال الناس ولا يصنع الاصدقاء بسهولة . وفى عام ١٧٠٠ عرض الزواج على أرملة غنية ، ولكن العرض لم يسفر عن نتيجة ، ولم يتزوج قط . واذ كان عصبى المزاج . حساسا بشكل مرضي ، فقد كان لا يطيق النقد الا متألما ، ويغتاظ منه غيظا شديدا ، ويرد الصاع صاعين فى الجدل . وكان يعرف قدر عمله وكفايته ، ولكنه عاش عيشا متواضعا الى أن اتارح له راتبه

ومدخراته أن يستخدم ستة خدم ويستمتع بمكان مرموق فى المجتمع اللندنى ٠

فلما بلغ التاسعة والسبعين بدأ يرد دينه للطبيعة ٠ فأصابته الأمراض التى لا تقيم للعبقرية وزنا ــ حصاة المثانة وسلس البول ، وحين بلغ الثالثة والثمانين أصيب بالنقرس ، وفى الرابعة والثمانين بالبواسير ٠ وفى ١٩ مارس ١٧٢٧ اشتدت به آلام الحصاة حتى فقد وعيه ٠ ولم يفق قط ، ومات فى الغد وقد بلغ الخامسة والثمانين ، ودفن فى كنيسة وستمنستر بعد أن شيع بجنازة تصدرها رجال الدولة والنبلاء والفلاسفة ، وقد سجى فى نعش حمله الأدواق والايرلات ٠ واغرقه الشعراء بمراثيهم ، وألف بوب قبرية شهيرة قال فيها : « ان الطبيعة وقوانينها كان يلفها ظلام الليل ، وقال الله ليكن نيوتن ، فأصبح الكل ضياء » ولم يملك فولتير عواطفه ، حتى فى شيخوخته ، وهو يروى كيف شاهد ، أثناء منفاه فى انجلترة ، رياضيا يدفن بمظاهر تكريم الملوك (٥٦) ٠

وبلغ صيت نيوتن ذرى أشرفت على السخف ٠ فقدر ليبنتز أن اسهامات منافسه فى الرياضة تعدل فى قيمتها كل المؤلفات السابقة فى ذلك العلم (٥٧) ٠ وذهب هيوم الى أن نيوتن « أعظم وأندر عبقرى ظهر ليشرف النوع الانسانى ويعلمه (٥٨) » ووافقه فولتير فى تواضع (٥٩) ٠ ووصف لجرانج كتاب المبادىء بانه « أعظم انتاج انتجه الذهن البشرى » ، وضمن له لابلاس الى الابد « مكان الصدارة على جميع انتاجات العقل البشرى » ، واضاف أن نيوتن أوفر الناس حظا ، لأنه ليس هناك سوى كون واحد ، وليس سوى مبدأ مطلق واحد له ، وقد اكتشف نيوتن ذلك المبدأ (٦٠) ٠ ومثل هذه الاحكام لاثبات لهـا ، لأن « الحقيقة » حتى فى العلم ، تذبل كالزهرة ٠

ولو اننا قسنا عظمة انسان بأقل المقاييس ذاتية ، وهو انتشار تأثيره وطول بقاء هذا التأثير ، لما وجدنا لنيوتن نظيرا الا فى مؤسسي الاديان العالمية والفلسفات المحورية ٠ لقد كان تأثيره على الرياضة الانجليزية ــ حينا ــ تأثيرا ضارا ، لأن « فروقه وتنويتها كانا أقل يسرا من حساب التفاضل والتنويت اللذين هيمن بهما ليبنتز على القارة ٠ ويبدو أن نظريته فى جسيمات الضوء عاقت تقدم البصريات قرنا ، وان وجد بعض

الطلاب الآن عونا كبيرا فى نظرية نيوتن (٦١) . أما فى الميكانيكيا فقد اثبت عمله أنه خلاق الى غير حدود . كتب ارنست ماخ يقول : « ان كل ما انجز فى الميكانيكا منذ أيامه لا يعدو أن يكون تطويرا اسـتنتاجيا ، شكليا ، رياضيا ... على أساس قوانين نيوتن (٦٢) » .

وقد خشي اللاهوتيين لأول وهلة من تاثير كتاب « المبادىء » على الدين ، ولكن محاضرات بويل التى القاها بنتلى (١٦٩٢) ، بتشجيع من نيوتن ، حولت النظرة الجديدة الى العالم الى تاييد الايمان ، لانها أكدت على وحدة الكون ونظامه وعظمته الواضحة أدلة على حكمة الله وقوته وجلاله . على أن هذا النسق النيوتونى ذاته قبله الربوبيون على أنه يدعم ايمانهم ، وهو القبول البسيط لآله واحد ، أو حتى اعتبار الله واحدا هو والطبيعة وقوانينها ، بدلا من اللاهوت المسيحى . وأغلب الظن أن تاثير نيوتن النهائى فى الدين كان ضارا ، فقد افترض أحرار الفكر أنه برغم تأكيداته ، وملايين الكلمات التى احتوتها كتاباته اللاهوتية ، أنه تصور عالما قائما بنفسه ، وأنه أدخل الاله فيه فكرة لاحقة معزبة . وفى فرنسا على الأخص شجعت كونيات نيوتن ، رغم عرض فولتير لها عرضا ربوبيا ، الحاد الكثيرين من « الفلاسفة » الحـادا يقـوم على ميكانيكية الكون .

وفى الفترة بين اضمحلاء نظرية ديكارت فى نشأة الكون فى فرنسا (حوالى ١٧٤٠) وظهور نظريات النسبية وميكانيكا الكم فى القـرن العشرين ، لم يصادف « نسق العالم » النيوتنى أى تحد خطير ، وبدا مؤيدا من كل تقدم أو كشف فى الفيزياء أو الفلك . والخلافات الرئيسية بين الفيزيائيين المعاصرين وميكانيكا نيوتن ، على قدر ما يستطيع غير المتخصص فهم هذه الالغاز ، هى :

١ ــ ذهب نيوتن الى أن المكان والبعد ، والزمان والحركة ، أشياء مطلقة ــ أى أنها لا تختلف كما باختلاف أى شيء خارجها (٦٣) . أما أينشتين فقد اعتبرها نسبية ــ تختلف باختلاف موقع وحركة المشاهد فى المكان والزمان .

٢ ــ افترض اول قوانين نيوتن للحركة ، فى وضوح ، أن الجسـم قد « يستمر فى حالة سكون ، أو حركة منتظمة فى خط مستقيم » ولكن

« السكون » نسبى دائما ، كسكون مسافر فى طائرة مسرعة ، وكل الاشياء تتحرك ، ولا تتحرك أبدا فى خط مستقيم ، لأن كل خط حسركة أو فعل تحرفه الأجسام المحيطة (كما ادرك نيوتن) ٠

٣ ـ كانت فكرة نيوتن عن الكتلة انها من الثوابت ، وفكرة بعض الفيزيائيين المعاصرين عنها أنها تختلف باختلاف السرعة النسبية للمشاهد والشيء ٠

٤ ـ النظرة السائدة الآن الى « القوة » هى أنها فكرة ميسرة ٠ ولكنها ليست ضرورية فى العلم ، الذى يهدف الى الاكتفاء بوصف التتابعات ، والعلاقات ، والنتائج ٠ فلسنا نعلم ، ولا حاجة بنا الى أن نعلم (كما يقول لنا العلماء) ما هو « هذا » الذى يسرى من جسم متحرك الى آخر يصدمه ذلك الجسم ، فالحاجة فقط لتسجيل التتابعات ، والعلاقات ، والنتائج ، وللافتراض (دون أى يقينية مطلقة) بأن هذه ستكون فى المستقبل ما بدته فى الماضي ٠ والجاذبية وفقا لهذا الرأى ليست قوة ، بل نظام علاقات بين الأحداث فى الزمان والمكان ٠

ومما يعزينا أن نعلم أن هذه وغيرها من التنقيحات الطارئة على ميكانيا نيوتن لا أهمية لها الا فى ميادين (كالظواهر الكهربية ـ المغنطيسية) تبدو الجزيئات فيها تتحرك بسرعة تقرب من سرعة الضوء ، وفى غير هذا فالفرق بين الفيرياء القديمة والحديثة يمكن أن نتجاهله مطمئنين ٠ وللفلاسفة ـ الذين شفاهم التاريخ من اليقينية ـ أن يحتفظوا بارتيابية متواضعة من نحو الافكار المعاصرة ، بما فى ذلك أفكارهم هم ، وسوف يحسون نسبية متدفقة فى صيغ النسبية ، وسوف يذكرون كل المنقبين فى الذرات والنجوم بتقدير نيوتن النهائى لانجازه الخطير :

« لست أعلم كيف أبدو للعالم ، ولكنى أبدو لنفسي وكأننى صبى يلعب على شاطىء البحر ، ألهو بين الحين والحين بالعثور على حصاة املس أو صدفة أجمل من العادة ، بينما ينبسط محيط الحقيقة العظيم مغلق الأسرار امامى (٦٤) » ٠

مراجع

الجزئية ٣٢ و ٣٣

CHAPTER VII

1. Firth, *Oliver Cromwell*, 228.
2. *Ibid.*, 230.
3. Trevor-Roper, *Historical Essays*, 218-219.
4. Firth, 244.
5. Gooch, *English Democratic Ideas in the 17th Century*, 168.
6. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 294.
7. Carlyle, *Oliver Cromwell*, I, 427.
8. *Ibid.*, 428; Gardiner, S.R., *History of the Commonwealth and Protectorate*, I, 48.
9. Gooch, 183-84; Bowle, *Western Political Thought*, 343.
10. Gooch, 189-90.
11. D'Alton, *History of Ireland*, IV, 308.
12. *Camb. Mod. History*, IV, 533.
13. Carlyle, *Cromwell*, I, 458.
14. *Ibid.*
15. Firth, 255.
16. *Camb. Mod. History*, IV, 538.
17. Firth, 259.
18. Lingard, *History of England*, VIII, 178.
19. Churchill, Winston, *History of the English-speaking Peoples*, II, 235.
20. Lingard, VIII, 146.
21. Lang, Andrew, *History of Scotland*, III, 233.
22. Morley, John, *Oliver Cromwell*, 319.
23. Gooch, 165.
24. Lingard, VIII, 194-95.
25. Firth, 312; Hallam, *Constitutional History of England*, II, 229-30.
26. Gardiner, *History of the Commonwealth*, II, 208-10; *History Today*, October 1953, p. 690.
27. Morley, *Cromwell*, 336.
28. Firth, 319.
29. Hume, David, *History of England*, IV, 551n.
30. Churchill, II, 245.
31. Guizot, *History of Civilization*, I, 240-1.
32. Lingard, VIII, 207.
33. *Ibid.*, 211; Trevor-Roper, 188.
34. Morley, *Cromwell*, 427.
35. Firth, 445.
36. Hume, D., *History*, IV, 578.
37. Walpole, Horace, *Anecdotes of Painting in England*, I, 425.
38. Lingard, VIII, 271.
39. Hallam, *Constitutional History*, II, 241-243; Morley, *Cromwell*, 390.
40. Morley, 400.
41. Plato, *Republic*, §§556-65.
42. Evelyn, *Diary*, I, 331.
43. Morley, *Cromwell*, 413.
44. Macaulay, *History of England*, I, 128.
45. Lingard, VIII, 203.
46. Firth, 355; Morley, 412.
47. Hume, D., *History*, V, 45.
48. Churchill, II, 248.
49. Firth, 344.
50. In Masson, David, *Life of John Milton*, V, 23.
51. Fox, George, *Journal*, 34.
52. *Ibid.*, 4-5.
53. 8-9.
54. 11.
55. 12.
56. 20.
57. 22.
58. 27.
59. 36.
60. 43.
61. 51.
62. 105-6.
63. Firth, 357.
64. Lingard, VIII, 243-44.
65. Beard, Miriam, 397; Firth, 392.

66. Beard, 396.
67. Churchill, II, 249.
68. Hume, D., *History*, IV, 592.
69. Firth, 433.
70. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 118.
71. Lingard, VIII, 267.
72. *Ibid.*, 268.
73. Macaulay, *History*, I, 152.
74. *Enc. Brit.*, VI, 745d.
75. *Camb. Mod. History*, IV, 542.
76. Masson, *Milton*, V, 619.
77. Bowle, *Western Political Thought*, 337.
78. *Camb. Mod. History*, IV, 554; Bryant, Sir Arthur, *Charles II*, 58.
79. Lingard, VIII, 236.
80. Hallam, II, 318.
81. *Ibid.*, 329.
82. Bryant, 60.
83. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 66.
84. Bryant, 64.
85. Lingard, VIII, 304.

CHAPTER VIII

1. Allen, J. W., *English Political Thought*, 268.
2. Walton, Izaak, *Complete Angler*, 15.
3. Palgrave, *Golden Treasury*, 67.
4. Bunyan, *Grace Abounding*, No. 2, in *Entire Works*, I, 5-6.
5. *Ibid.*, No. 4.
6. No. 8.
7. In Froude, *Bunyan*, p. 8.
8. Bunyan, *Grace Abounding*, No. 14.
9. *Ibid.*, No. 97.
10. No. 96.
11. No. 104.
12. Coulton, *Life in the Middle Ages*, I, p. 20.
13. *Grace Abounding*, No. 116.
14. Froude, *Bunyan*, p. 59.
15. *Ibid.*, 65.
16. 72.
17. 74-82.
18. *Pilgrim's Progress*, 7.
19. Acts xvi, 31.
20. *Pilgrim's Progress*, 169-71.
21. *Ibid.*, 193.
22. 196.
23. 11.
24. *Camb. History of English Literature*, VII, 197-98.
25. Froude, *Bunyan*, 86.
26. Milton, *Defensio Secunda*, in *Areopagitica and Other Works*, 291.
27. Johnson, Samuel, *Lives of the Poets*, I, 57.
28. Saintsbury, *History of English Literature*, 159.
29. Milton, *Reason of Church Government*, in *Areopagitica, etc.*, 305.
30. Milton, *Poetical Works*, 46.
31. *Comus*, II. 768f.
32. *Defensio Secunda*, *loc. cit.*, 293.
33. *Reason of Church Government*, *loc. cit.*, 301.
34. "Letter to Mr. Hartlib," in *Areopagitica, etc.*, 46.
35. Johnson, *Lives*, I, 63.
36. Milton, "Letter to Mr. Hartlib," *loc. cit.*, 48.
37. As indicated in *Apology for Smectymnuus*, in *Areopagitica, etc.*, 113.
38. Masson, *Milton*, II, 215.
39. Milton, "Of Reformation," in *Areopagitica, etc.*, 58.
40. *Ibid.*, 102.
41. 103.
42. Masson, II, 257.
43. *Ibid.*, 390, 396.
44. Milton, in *Areopagitica, etc.*, 123.
45. *Ibid.*, 121.
46. 124.
47. 304.
48. *Reason of Church Government*, in Masson, II, 371.
49. *Areopagitica, etc.*, 302.
50. *Ibid.*, 303.
51. 304.
52. 146.
53. Masson, II, 487.
54. Aubrey, *Brief Lives*, 201.
55. Milton, *Doctrine and Discipline of Divorce*, in Taine, *History of English Literature*, 281.
56. Pattison, Mark, *Milton*, 58.
57. *Areopagitica, etc.*, 198.
58. *Ibid.*, 223.
59. 195.
60. Masson, III, 320-21.
61. *Ibid.*, 269.
62. *Areopagitica*, 4-5.
63. *Ibid.*, 21.
64. 13.
65. 35.
66. 36.
67. 38.
68. 34.
69. Masson, IV, 64.
70. *Ibid.*, 92.
71. *Areopagitica, etc.*, 4.
72. Masson, IV, 450.
73. In *Areopagitica, etc.*, 289.
74. Masson, IV, 168.
75. *Ibid.*, 235-5.
76. 261.
77. 263-67.
78. Johnson, *Lives*, I, 69.
79. Masson, IV, 520.
80. *Defensio Secunda*, in Johnson, I, 72.

>

81. Masson, IV, 455-56.
82. *Ibid.*, 457.
83. *Ibid.*, 458.
84. Disraeli, *Curiosities*, I, 154.
85. Masson, IV, 627.
86. *Ibid.*, 582.
87. 599
88. 605.
89. 612-15.
90. 609.
91. 610.
92. *Ibid.*
93. Masson, V, 206.
94. *Ibid.*, 215.
95. 369-70.
96. 573.
97. *Ready and Easy Way*, in *Areopagitica, etc.*, 166-69.
98. *Ibid.*, 186.
99. 181.
100. Masson, V, 603.
101. Aubrey, 202.
102. Masson, VI, 447, 649; Johnson, *Lives*, I, 87.
103. Pattison, *Milton*, 148.
104. Masson, VI, 476.
105. Aubrey, 201.
106. *Paradise Lost*, VII, 26.
107. Hutchinson, F. E., *Milton and the English Mind*, 118.
108. Johnson, I, 85.
109. *Ibid.*, 102, 108.
110. *Paradise Lost*, I, ll. 106f., 105-40.
111. *Ibid.*, I, 253-55.
112. IV, 800.
113. IV, 515f.
114. IX, 703-8.
115. VIII, 66f.
116. IV, 738f.
117. IX, 1051f.
118. X, 884, 888f.
119. *Cf.* IV, 634-38.
120. *Samson Agonistes*, 1053-60.
121. Masson, VI, p. 830.
122. *Paradise Lost*, III, l. 183; Masson, VI, p. 831.
123. Masson, 818.
124. *De Doctrina Christiana*, Ch. XXX, in Willey, *Seventeenth-Century Background*, 71-72.
125. Masson, VI, 827.
126. John Toland in Hutchinson, 152.
127. Johnson, I, 192.
128. Masson, VI, 683; Hutchinson, 104.
129. Aubrey, 201.
130. Masson, II, 473.
131. *Ibid.*, I, 312.
132. Johnson, I, 60.
133. *De Doctrina Christiana*, in Masson, VI, 837.
134. *Paradise Lost*, I, l. 416; IV, 765f.
135. Masson, VI, p. 654.
136. *Paradise Regained*, II, ll. 352f.
137. *Ibid.*, IV, 338.
138. IV, 606.
139. Masson, VI, p. 655.
140. Johnson, I, 88.
141. *Samson Agonistes*, ll. 68-72, 80-82.
142. *Ibid.*, 1034-60.
143. *Ibid.*, 597-98.
144. Masson, VI, p. 727.
145. Johnson, I, 92.
146. Dryden, *Essays*, 108.
147. *The Spectator*, Jan. 5–May 3, 1712.

CHAPTER IX

1. Evelyn, *Diary*, I, 341.
2. Bryant, *Charles II*, 85.
3. Gooch, *English Democratic Ideas in the 17th Century*, 171.
4. Taine, *English Literature*, 314.
5. Hume, *History of England*, V, 61.
6. Bryant, 90.
7. *Ibid.*, 89; Churchill, II, 264.
8. *Cf.* his speech in Peterson, H., *Treasury of the World's Great Speeches*, 96.
9. Pepys, *Diary*, Oct. 13, 1660.
10. Evelyn, *Diary*, I, 350.
11. As by Macaulay, *History of England*, I, 135; *cf.* Bryant, 128.
12. Burnet, *History of His Own Times*, 71.
13. Bryant, 133.
14. *Ibid.*, 159.
15. Pepys, July 27, 1667.
16. Burnet, 101.
17. *Grammont Memoirs*, 119n.
18. *Ibid.*, 116.
19. Pepys, May 19, 1668.
20. Bryant, 238.
21. Evelyn, Oct. 4, 1683.
22. Taine, *English Literature*, 314.
23. Bishop, A. T., *Renaissance Architecture of England*, 43.
24. Burnet, 103.
25. Evelyn, Feb. 4, 1685.
26. *Grammont Memoirs*, 350.
27. *Ibid.*, 356.
28. Aubrey, 188.
29. Bryant, 168.
30. Burnet, 33.
31. Bryant, 82.
32. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 84.
33. Buckle, Ia, 261n.
34. In Robinson, J. H., *Readings in European History*, 363.
35. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 137.
36. Hallam, *Constitutional History*, II, 317.
37. *Ibid.*
38. Burnet, 41.
39. Dick, O. L., Introd. to Aubrey, *Lives* lxxviii.

5

40. Besant, Walter, *London in the Time of the Stuarts*, 87; Lecky, W. E., *History of . . . the Spirit of Rationalism in Europe*, II, 66.
41. Burnet, 45-46; Ure, Peter, *Seventeenth-Century Prose*, 136-38.
42. Burnet, 45.
43. Quoted on title page of Toland's *Christianity Not Mysterious.*
44. In Allen, J. W., *English Political Thought*, 207.
45. Markun, Leo, *Mrs. Grundy: A History of Four Centuries of Morals*, 122.
46. Weber, Max, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, 158-9.
47. Macaulay, *History*, I, 377-79.
48. Besant, *London in the Time of the Stuarts*, 152; Green, J. R., *Short History of the English People*, III, 1338.
49. *Ibid.*
50. Aubrey, 234; *Enc. Brit.*, XVII, 473d.
51. Buckle, Ia, 301n.
52. Churchill, II, 271.
53. Bryant, *Charles II*, 162n.
54. Fülop-Miller, *The Jesuits*, 344; Macaulay (*History*, III, 261) estimated the Catholics as 1 per cent of the population of England in 1690.
55. *History Today*, March 1954, p. 150.
56. Trevelyan, *English Social History*, 276; Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 51; Macaulay, *History*, I, 321.
57. Toynbee, A. J., *Study of History*, ed. Somervell, 237.
58. Trevelyan, *Social History*, 322; Marx, *Capital*, 300n.
59. Nussbaum, *Economic Institutions*, 216.
60. Wolf, *History of Science . . . in the 16th and 17th Centuries*, 616.
61. Macaulay, *History*, I, 320.
62. Besant, *London in the Time of the Stuarts*, 287.
63. Macaulay, I, 321.
64. Mousnier, *Histoire générale*, 146.
65. Rogers, J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 267.
66. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 167.
67. Nussbaum, 108.
68. Wingfield-Stratford, 579.
69. *Ibid.*, 577.
70. Lipson, E., *Growth of English Society*, 176-7.
71. *Ibid.*, 182.
72. Hume, *History*, V, 429; Cunningham, W. C., *Western Civilization in Its Economic Aspects*, II, 216; Lecky, *England in the 18th Century*, I, 194.
73. Bryant, *Charles II*, 278.
74. Besant, 184.
75. *Camb. Mod. History*, V, 206.
76. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 212.
77. Besant, 122.
78. Ure, *Seventeenth-Century Prose*, 47; Los Angeles *Times*, Dec. 21, 1958.
79. Howard Kennedy in Los Angeles *Times*, March 2, 1958.
80. Besant, 223.
81. Defoe, *Journal of the Plague Year*, 7-8.
82. Evelyn, Feb. 7, 1666; *cf.* Pepys, Sept. 2, 1666.
83. Pepys, Sept. 2, 1666; Evelyn, Sept. 7, 1666; Lingard, IX, 65; Churchill, II, 177.
84. Besant, 251.
85. *Ibid.*, 245.
86. Summerson, *Sir Christopher Wren*, 55.
87. *Ibid.*, 134.
88. Fergusson, *History of Modern Styles of Architecture*, 294.
89. In Wingfield-Stratford, 605, where Riley is handsomely restored.
90. Duke of Marlborough Collection.
91. Pepys, Mar. 25, 1667.
92. *Ibid.*, Oct. 20, 1662.
93. London, National Portrait Gallery.
94. In Hampton Court Palace.
95. Pepys, Sept. 2, 1666.
96. *Ibid.*, Jan. 16, Feb. 3, Mar. 5, Apr. 9, 1660, etc.
97. Jan. 16, 1660.
98. Brockway and Weinstock, *The Opera*, 32.
99. Burney, Charles, *General History of Music*, II, 383.
100. *Ibid.*, 399.
101. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 98.
102. Hallam, *Constitutional History*, II, 344n.
103. Pepys, Mar. 26, 1666.
104. In *Grammont Memoirs*, 90; Macaulay, *History*, I, 561.
105. Taine, *English Literature*, 315.
106. *Grammont Memoirs*, 281f.
107. Pepys, Aug. 31, 1661; Nov. 9, 1663.
108. Pope, *Essay on Criticism*, II. 536-43, in *Collected Poems*, p. 71.
109. *Grammont Memoirs*, 112.
110. *Ibid.*, 284n.
111. Evelyn, I, 366.
112. Ure, 36.
113. Markun, *Mrs. Grundy*, 127.
114. *History Today*, October 1958, p. 672.
115. Trevelyan, *Social History*, 313.
116. *History Today*, *loc. cit.*, 668.
117. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 529.
118. James, B. B., *Women of England*, 295.
119. *Camb. Mod. History*, V, 213.
120. Besant, 345.
121. Macaulay, I, 327.
122. Saintsbury, *Dryden*, 182.

123. Bryant, 119; *Camb. Mod. History*, IV, 265.
124. Macaulay, I, 240; II, 416.
125. Hallam, II, 377.
126. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 376.
127. *Camb. Mod. History*, V, 218.
128. Pepys, Nov. 2, 1663.
129. *Ibid.*, Aug. 18, 1664.
130. Besant, 303.
131. Day, *Ninon*, 182.
132. Traill, H. D., *Social England*, IV, 489.
133. Ashton, J., *Social Life in the Reign of Queen Anne*, 163.
134. Pepys, Sept. 15, 1666.
135. *Camb. Mod. History*, V, 208.
136. Pepys, June 1, 1667.
137. *Camb. Mod. History*, V, 202.
138. *Ibid.*; Lingard, IX, 85.
139. Text in Lingard, IX, Appendix; *cf.* Bryant, 168; Acton, *Lectures*, 210; *Camb. Mod. History*, V, 204.
140. *Ibid.*, 216; Lecky, *History of England*, I, 18.
141. Bryant, 183.
142. Burnet, 34.
143. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 347.
144. Macaulay, I, 183.
145. *Camb. Mod. History*, V, 210.
146. *Enc. Brit.*, XVI, 662c.
147. Hallam, II, 413.
148. Macaulay, I, 186.
149. Trevelyan, *Stuarts*, 400-2.
150. Macaulay, I, 186; Bryant, 215.
151. Hume, *History*, V, 320.
152. Trevelyan, *Stuarts*, 387-88.
153. Hallam, II, 421.
154. Acton, 215.
155. Churchill, II, 298.
156. Acton, 215; Hume, V, 320.
157. *Enc. Brit.*, XX, 616b; Guizot, *History of Civilization*, I, 258.
158. Macaulay, *Essays*, I, 63; Wingfield-Stratford, 622; Lecky, *History of England*, III, 53.
159. Bryant, 270.
160. Mencken, H. L., *New Dictionary of Quotations*, 481.
161. Bryant, 283.
162. *Ibid.*, 282.
163. Turner, E. S., *Call the Doctor*, in *Time*, Dec. 8, 1958, p. 63.
164. Macaulay, *History*, I, 335; Bryant, 294.
165. Macaulay, I, 337; Bryant, 296.
166. Macaulay, I, 338.

CHAPTER X

1. Turin Gallery.
2. London National Gallery.
3. Macaulay, *History*, I, 560-64.
4. Burnet, 65.
5. *Camb. Mod. History*, V, 265, 268.
6. Macaulay, II, 387.
7. Rowse, *Early Churchills*, 152; Lingard, X, 90.
8. Hume, *History*, V, 359; Macaulay, I, 496.
9. Acton, 221; *Camb. Mod. History*, V, 233.
10. Hume, V, 345.
11. Lecky, *History of England*, I, 21.
12. Macaulay, I, 359, 525.
13. *Camb. Mod. History*, V, 239.
14. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 61.
15. Lingard, X, 128.
16. Macaulay, III, 170.
17. Lord Dartmouth's notes to Burnet's *History*, in Lingard, X, 136n.
18. Burnet, 251.
19. Lingard, X, 136.
20. *Ibid.*, 131.
21. Trevelyan, *Stuarts*, 441.
22. *Camb. Mod. History*, V, 243.
23. Shrewsbury, Duke of, *Correspondence*, 4.
24. *Churchill, Marlborough*, I, 263.
25. Robinson, J. H., *Readings*, 367-69.
26. Mantoux, *Industrial Revolution*, 97.
27. Macaulay detailed these in his essay on Hallam (1828), and countered them in his *History of England* (1848), end of Ch. X.
28. Halifax, *Thoughts and Reflexions*, in Hearnshaw, *Social and Political Ideas of . . . the Augustan Age*, 10.
29. *Ibid.*
30. Ure, *Seventeenth-Century Prose*, 72.
31. Hearnshaw, 60.
32. Halifax, *Character of a Trimmer*, in Trevor-Roper, 255.
33. Hearnshaw, 53.
34. Livy, *History of Rome*, v, 47.
35. Buckle, Ia, 297.
36. *Ibid.*, 298.
37. Bowen, *William Prince of Orange*, 277-8.
38. Burnet, 306.
39. Lecky, *England*, I, 275.
40. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 141.
41. *Camb. Mod. History*, V, 317.
42. *Ibid.*, 321; Lecky, I, 279-80; D'Alton, *Ireland*, 467; Wingfield-Stratford, 665.
43. *Camb. Mod. History*, V, 323.
44. Renard and Weulersse, *Life and Work in Modern Europe*, 95.
45. Day, *History of Commerce*, 162.
46. Groom, *History of Money*, 41-46.
47. *Ibid.*

48. *Camb. Mod. History*, V, 249.
49. Macaulay, III, 418-19; Churchill, *Marlborough*, I, 302.
50. *Ibid.*, 348.
51. Rowse, 134.
52. Goldsmith, *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1032.
53. *Ibid.*; *cf.* Chesterfield, *Letters*, I, 161 (Dec. 22, 1749).
54. Lecky, *England*, I, 128.
55. *Enc. Brit.*, XXIII, 725.
56. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 247.
57. Churchill, *English-speaking Peoples*, III, 76.
58. Rowse, 170.

CHAPTER XI

1. Mousnier, 308.
2. Desnoiresterres, I, 212.
3. Swift, *Journal to Stella*, Aug. 7, 1712.
4. Theater History Exhibition, New York Public Library, Sept. 28, 1956.
5. Johnson, *Lives*, I, 201.
6. Besant, *Stuarts*, 323.
7. Holzknecht, *Background of Shakespeare's Plays*, 417.
8. Besant, 321.
9. Hume, *History*, V, 436; *Camb. History of English Literature*, VIII, 209.
10. Farquhar, *Beaux' Stratagem*, I, i, in Gosse, *A Volume of Restoration Plays*.
11. Congreve, *Way of the World*, II, iv, in Gosse, 185.
12. Macaulay, *Essays*, II, 426.
13. Gosse, 161.
14. Vanbrugh, *The Relapse*, III, in Gosse.
15. *Ibid.*, IV, i.
16. Vanbrugh, *Provoked Wife*, I, i.
17. *Ibid.*, I, ii.
18. *Enc. Brit.*, XVI, 574b.
19. Johnson, *Lives*, II, 2.
20. Macaulay, *Essays*, II, 446.
21. *Enc. Brit.*, VI, 255d.
22. Congreve, *Way of the World*, II, v.
23. *Ibid.*, IV, v.
24. Macaulay, *Essays*, II, 449.
25. Thackeray, *English Humorists*, 139.
26. Lecky, *England*, I, 539.
27. Dryden, Preface to *Fables, Ancient and Modern*, in *Essays*, 290.,
28. Pepys, Feb. 23, 1663.
29. Nettleton, G. H., *English Drama of the Restoration*, 5.
30. Dryden, *All for Love*, IV, i, in Gosse.
31. *Camb. Mod. History*, V, 134.
32. Dryden, *Poems*, 75.
33. *Ibid.*, 78.
34. *Ibid.*, 89.
35. Pepys, Feb. 3, 1664.
36. Scott, *The Pirate*, 147-49.
37. Macaulay, *History*, I, 285.
38. Johnson, *Lives*, I, 187.
39. *Ibid.*, 219; *Camb. History of English Literature*, VIII, 231-32.
40. Johnson, I, 216.
41. As Macaulay believed (*History*, I, 657).
42. Dryden, *The Hind and the Panther*, in *Poems*, 113.
43. Butler, Samuel, *Hudibras*, 3-9.
44. Pepys, Dec. 10, 1663.
45. *Camb. History of English Literature*, VIII, 68.
46. An excellent edition, *Brief Lives*, appeared in 1957, with a lively and learned introduction by O. L. Dick.
47. *Camb. History of English Literature*, IX, 151.
48. A good example in Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 131.
49. Macaulay, *Essays*, I, 195.
50. Temple, Sir William in Taine, *English Literature*, 333.
51. Evelyn, I, 129f. The passage on his son is under Jan. 27, 1658.
52. Pepys, June 13, 1662; June 17, 1663.
53. *Ibid.*, July 16, 1660.
54. Jan. 23, (1670).
55. Apr. 5, 1664.
56. Dec. 19, 1664.
57. Aug. 18, 1667.
58. Sept. 6, 1664.
59. July 15, 1660.
60. Aug. 23, 1663.
61. May 21, 1662.
62. July 30, 1663.
63. Sept. 4, 1660.
64. Sept. 24, 1663.
65. Feb. 28, 1662.
66. *Enc. Brit.*, VII, 139.
67. Defoe, *Moll Flanders*, 295.
68. Steele, *Tatler*, No. 151.
69. Thackeray, *English Humorists*, 183.
70. Steele, *Tatler*, No. 95.
71. Johnson, *Lives*, I, 330; Macaulay, *Essays*, II, 465.
72. *Ibid.*, 486; Johnson, I, 328.
73. Addison, *Spectator*, No. 4.
74. *Ibid.*
75. No. 112.
76. Macaulay, *Essays*, II, 499; Enc. Br. I, 161d.
77. Thackeray, 157n.
78. Voltaire, *Works*, XIXb, 137.
79. Stephen, Leslie, *Swift*, 81.
80. *Id.*, *Alexander Pope*, 60.
81. *Id.*, *Swift*, 15.
82. Hardy, Evelyn, *The Conjured Spirit: Swift*, 40.

83. *Ibid.*, 61.
84. Stephen, *Swift*, 52.
85. *Ibid.*, 37.
86. Swift, *Tale of a Tub, etc.*, 56.
87. *Ibid.*, 72.
88. 77.
89. 78.
90. 81.
91. 121.
92. 103.
93. 105.
94. 106.
95. 109.
96. 110.
97. Stephen, *Swift*, 42.
98. Rowse, 269.
99. Hardy, *Conjured Spirit*, 148.
100. Swift, "A Critical Essay upon the Faculties of the Mind," in *Tale of a Tub, etc.*, 192.
101. In Stephen, *Swift*, 47.
102. *Ibid.*, 161.
103. *Ibid.*, 57.
104. Hardy, 125.
105. In Trevelyan, *Social History*, 444.
106. In Rowse, 265.
107. *Ibid.*, 266.
108. *Ibid.*, 269.
109. Stephen, *Swift*, 103.
110. *Ibid.*, 102.
111. Swift, *Journal to Stella*, Letters XXVII and XXXIII.
112. *Ibid.*, 172 (Letter XXIII).
113. *Ibid.*, 203 (Letter XXVII).
114. Stephen, *Swift*, 143.
115. Hardy, 57.
116. Swift, "Strephron and Chloe," in Hardy, 59.
117. In Hardy, 176.
118. Stephen, *Swift*, 110.
119. *Journal to Stella*, Letter XVI.
120. Swift to Pope, Sept. 29, 1725, in Thackeray, *English Humorists*, 118n.
121. Stephen, *Swift*, 108.
122. Hardy, 164.
123. *Ibid.*, 157.
124. Stephen, 131.
125. Johnson, II, 258; Hardy, 174f; Stephen, 133f.
126. Hardy, 219.
127. Swift, *Gulliver's Travels*, Book II, Ch. vi, p. 120.
128. *Ibid.*, III, viii, p. 183.
129. III, x, pp. 198f.
130. IV, vii, p. 240.
131. IV, v, p. 250.
132. IV, xi, pp. 272-73.
133. Stephen, 168.
134. Hardy, 230.
135. Stephen, 160.
136. In Taine, *English Literature*, 436.
137. *Ibid.*
138. Stephen, 184.
139. *Ibid.*, 195.
140. In Woods, George, etc., *The Literature of England*, I, 813.
141. Stephen, 195.

CHAPTER XII

1. Morton, J. B., *Sobieski*, 41.
2. *Ibid.*, 57.
3. *Cambridge History of Poland*, I, 520.
4. Morton, 47.
5. *Camb. History of Poland*, I, 521.
6. *Ibid.*, 537.
7. Morton, 5.
8. *Camb. History of Poland*, I, 545.
9. *Ibid.*, 547.
10. *Ibid.*, 556.
11. Ogg, *Europe in the 17th Century*, 499.
12. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 263; Michelet, V, 154.
13. Kluchevsky, V., *History of Russia*, III, 334.
14. *Ibid.*, 282.
15. *Ibid.*, 367.
16. Waliszewski, *Peter the Great*, 63.
17. *Ibid.*, 75.
18. Florinsky, M. T., *Russia: History and an Interpretation*, I, 321.
19. Schuyler, E., *Peter the Great*, I, 350.
20. Waliszewski, 87.
21. *Ibid.*, 91.
22. Schuyler, I, 358.
23. *Ibid.*, 374.
24. Macaulay, *History*, IV, 374.
25. Voltaire, *Charles XII*, 37.
26. *Camb. Mod. History*, V, 595.
27. *Ibid.*; Schuyler, II, 85.
28. *Camb. Mod. History*, V, 596.
29. Waliszewski, 322.
30. Voltaire, *Charles XII*, 163; Schuyler, II, 138; *Camb. Mod. History*, V, 600.
31. Schuyler, II, 160.
32. *Ibid.*, 162.

CHAPTER XIII

1. In Buckle, *History of Civilization*, Ib, 580.
2. Frederick to Voltaire, Mar. 6, 1737, in Voltaire and Frederick, *Letters*, 55.
3. Florinsky, I, 327, 334.
4. Schuyler, I, 374.
5. Waliszewski, *Peter the Great*, 105.
6. *Ibid.*, 143.
7. 133.
8. 137.
9. 218.
10. 152-53, 161-63; Florinsky, I, 319; Schuyler, I, 422.

τ

11. Schuyler, II, 405.
12. Rambaud, *History of Russia*, I, 104.
13. Réau, L., *L'Art russe*, II, 18n.
14. Semple, Ellen, *Geography of the Mediterranean Region*, 348.
15. Robinson, J.H., *Readings*, 390.
16. Schuyler, I, 411.
17. Waliszewski, 448f.
18. Ogg, 511.
19. Schuyler, II, 492.
20. Rambaud, I, 94.
21. Pokrovsky, M., *History of Russia*, 279.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 319.
23. Pokrovsky, 287; Florinsky, I, 380.
24. Mavor, *Economic History of Russia*, I, p. *xxxi*; *New Camb. Mod. History*, VII, 319.
25. Pokrovsky, 285; Schuyler, II, 471.
26. Schuyler, II, 453; Florinsky, I, 382.
27. Waliszewski, 436.
28. Rambaud, I, 99.
29. Schuyler, II, 609-10.
30. *Ibid.*, 283.
31. *Ibid.*, 338.
32. Waliszewski, 517.
33. *Ibid.*, 518.
34. Schuyler, II, 345.
35. *Ibid.*, 410.
36. Waliszewski, 534.
37. *Ibid.*, 538.
38. Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 169.
39. Pokrovsky, 330; Florinsky, II, 334.

CHAPTER XIV

1. Westermarck, *History of Human Marriage*, III, 51; Bebel, *Woman under Socialism*, 71.
2. Rocker, *Nationalism and Culture*, 125.
3. *New Camb. Mod. History*, VII, 293.
4. *Camb. Mod. History*, IV, 416.
5. Acton, *Lectures*, 286.
6. Quennell, *Caroline of England*, 5-7.
7. Montagu, Lady Mary W., *Letters*.
8. Francke, K., *History of German Literature*, 175.
9. Richard, E., *History of German Civilization*, 332.
10. Thieme, *Women of Modern France*, 199.
11. Wormeley, *Correspondence of Mme. Princess Palatine*, letter of Nov. 22, 1714.
12. Hurlimann, *Germany*, 232; La Farge, H., *Lost Treasures of Europe*, 33.
13. Dresden.
14. Spitta, K., *Bach*, I, 257. The walking is doubtful.
15. Morton, *Sobieski*, 130.
16. *Ibid.*, 132.
17. *Camb. Mod. History*, V, 355.
18. *Ibid.*, 355-56; Ogg, 490.
19. Ogg, 488.
20. Lane-Poole, S., *Story of Turkey*, 226.
21. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 165.
22. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 445.
23. Morton, 202; Coxe, II, 447.
24. Ogg, 496.

CHAPTER XV

1. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 53-54.
2. *Ibid.*, 49.
3. *Ibid.*, 57. Lea adds, "I cannot but regard this as a truthful report."
4. Ranke, *History of the Popes*, II, 381n.
5. *Ibid.*, 380; III, Appendix, 145.
6. Ranke, II, 325.
7. Funk, *Manual of Church History*, II, 148.
8. Ranke, II, 330.
9. *Ibid.*, 333; Funk, II, 177.
10. Ranke, II, 418.
11. Funk, II, 178.
12. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 135.
13. Churchill, *English-speaking Peoples*, II, 317.
14. Acton, 226.
15. Sismondi, *History of the Italian Republics*, 789.
16. Bonacossi Collection, Florence.
17. Wadsworth Athenaeum, Hartford, Conn.
18. Dresden and Rome.
19. Wallace Collection.
20. Dresden.
21. Vatican.
22. Rome, Santa Maria in Vallicella.
23. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 1152.
24. *Ibid.*, 1154.
25. *Ibid.*, 1101.
26. *Enc. Brit.*, X, 361b.
27. *Ibid.*
28. Garnett, *History of Italian Literature*, 283.
29. *Ibid.*, 284.
30. Hallam, *Literature of Europe*, IV, 213.
31. Bain, F. W., *Christina, Queen of Sweden*, 253.
32. Motteville, *Memoirs*, III, 104.
33. *Ibid.*, 106-8.
34. *Ibid.*, 109-10.
35. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 60.
36. Motteville, III, 110.
37. Day, *Ninon*, 149.
38. Bain, 321.
39. In Voltaire, 405.
40. Bain, 339.

44. Fox-Bourne, *John Locke*, II, 123-15.
45. Boyle, Robert, *Sceptical Chymist*, 1.
46. *Ibid.*, 2.
47. *Ibid.*, 17.
48. Butterfield, *Origins of Modern Science*, 105.
49. Wolf, 349.
50. *Ibid.*, 545.
51. Kirby, R. S., *Engineering in History*, 154.
52. Wolf, 550.
53. Beard, Miriam, 465.
54. Wolf, 551.
55. *Ibid*, 552.
56. Wolf, A., *History of Science . . . in the 18th Century*, 611.
57. Evelyn, *Diary*, Nov. 7, 1651.
58. Wolf, *18th Century*, 406.
59. *Hamlet*, II, ii.
60. Locy, W. A., *Growth of Biology*, 212.
61. *Ibid.*, 214-16.
62. *Ibid.*, 136.
63. Castiglioni, *History of Medicine*, 537-538.
64. Brett, G. S., *History of Psychology*, 337.
65. *Ibid.*, 339; Sigerist, *The Great Doctors*, 184.
66. Garrison, *History of Medicine*, 313.
67. Dick in Aubrey, *xix*.
68. Lewis, *Splendid Century*, 181.
69. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
70. Macaulay, *History*, III, 78.
71. Sévigné, *Letters*, I, 106 (April 8, 1671).
72. Michelet, *Histoire*, V, 29.
73. Motteville, *Memoirs*, I, 186.
74. Castiglioni, 560.
75. *Ibid.*, 562; Garrison, 304.
76. Dick in Aubrey, *xix*.
77. Garrison, 252.
78. *Ibid.*, 253.
79. Dick in Aubrey, *xix*.
80. Hallam, *Literature of Europe*, IV, 341.
81. Wolf, *16th Century*, 438.
82. *Ibid.*
83. Garrison, 295.
84. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 374.
85. Pepys, Nov. 14, 1666.
86. MacLaurin, C., *Post Mortem*, 170f.
87. Dick in Aubrey, *xx*.
88. Castiglioni, 566.
89. Whitehead, Alfred North, *Science in the Modern World*, 58.
90. Sprat, *History of the Royal Society* (1667), 113, in Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 336.
91. Newman, *World of Mathematics*, I, 286.
92. Wolf, *16th Century*, 668-70.
93. *Enc. Brit.*, V, 994c.
94. In Smith, P. I, 150.
95. In Hazard, *Critical Years*, 316; Mousnier, *Histoire générale*, IV, 331.

CHAPTER XIX

1. Brewster, *Newton*, I, 4.
2. *Ibid.*, 92.
3. Newton's secretary, in Brewster, II, 96.
4. Keynes, J. M., in Newman, J. R., *World of Mathematics*, I, 282.
5. Smith, D. E., *Isaac Newton*, 207.
6. Keynes in Newman, *loc. cit.*
7. Brewster, II, 96-97.
8. *Ibid.*, 93.
9. *Ibid.*, 413.
10. Andrade, E. N., *Sir Isaac Newton*, 77.
11. Newton, *Principia*, 546.
12. *Ibid.*, xvii, preface to first edition.
13. Newton, *Opticks*, Appendix "De Quadratura Curvarum," in Wolf, *16th Century*, 211.
14. Brewster, II, 24n.
15. Wolf, 217.
16. *Principia*, scholium to Prop. 7 of Book II.
17. *Cf. ibid.*, 656.
18. Wolf, 266.
19. *Enc. Brit.*, XVI, 361b.
20. Brewster, I, 96.
21. *Enc. Brit.*, XVI, 361b.
22. In Parton, *Voltaire*, I, 213.
23. *Ibid.*
24. Brewster, I, 26.
25. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, IV, 158.
26. Gilbert, W., *De Mundo Nostro Sublunari Philosophia*, in Whewell, *Inductive Sciences*, I, 394.
27. Brewster, I, 281.
28. Whewell, I, 393.
29. Brewster, I, 287.
30. Aubrey, 166.
31. Butterfield, 118.
32. Brewster, I, 293.
33. *Principia*, 546.
34. Brewster, I, 337.
35. Leibniz, Letter to Hartsoeker, Feb. 10, 1711.
36. *Principia*, 546, General Scholium.
37. *Ibid.*, 634.
38. Cajori in *Principia*, 677.
39. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 96.
40. General Scholium.
41. *Principia*, 547.
42. Brewster, II, 97.
43. *Ibid.*, 84.
44. Andrade, in Newman, I, 274.
45. Robertson, *Freethought*, II, 112-13.
46. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 249.

47. Keynes, address at tercentennial celebration of Newton's birth by the Royal Society, July 1946, in Newman, I, 283.
48. In Bell, E. T., *Men of Mathematics*, 113.
49. Brewster, II, 132-35.
50. Keynes, *loc. cit.*
51. Andrade, in Newman, I, 274.
52. Keynes, *loc. cit.*
53. Parton, *Voltaire*, I, 213.
54. Andrade, *Newton*, 121.
55. Keynes in Newman, I, 278; Locke in Brewster, II, 163.
56. Parton, I, 213.
57. Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 404.
58. Hume, *History of England*, V, 433.
59. Voltaire, *Works*, XXIb, 66.
60. Smith, D. E., *Newton*, 15; Brewster, I, 343.
61. S. Brodetsky in Smith, D. E., *Newton*, 8.
62. Andrade in Newman, I, 275.
63. *Principia*, First Scholium.
64. Andrade, *Newton*, 131.

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الرابع من المجلد الثامن





بيروت



تونس

الفصل العشرون
الفلسفة الانجليزية
١٦٤٨ – ١٧١٥

صفحة

الفصل الحادى والعشرون
الايمان والعقل فى فرنسا
١٦٤٨ – ١٧١٥

الفصل الثانى والعشرون
سبينوزا
١٦٣٢ ــ ١٦٧٧

الفصل الثالث والعشرون
ليبنــتز
١٦٤٦ ــ ١٧١٦

الكتـــاب الخامس
فرنسا تواجـه اوربا
١٦٨٣ - ١٧١٥

الفصل الرابع والعشرون
غـروب الشـمس

الفصل العشرون

الفلسفة الانجليزية

١٦٤٨ ــ ١٧١٥

١ ــ توماس هوبز : ١٥٨٨ ــ ١٦٧٩

٢ ــ المؤثرات التي شكلت شخصيته :

ولد هوبز فى ٥ أبريل ١٥٨٨ ، ولما يكتمل المدة المقررة للحمل ، وتعزو أمه ولادته المبتسرة قبل الأوان الى فزعها من مجىء الأسطول الاسبانى « الأرمادا » ، ومن الخطر الذى يتهدد انجلترا بغزو ساحق على أيدى الوثنيين السفاحين . أما الفيلسوف فينسب الى خروجه غير المرتقب قبل الأوان الى الحياة نزعة الجبن التى تملكته وغلبت عليه ، ولكنه كان أجرأ الهراطقة فى عصره . وربما ورث الوالد ــ وكان قسيسا أنجليكانيا فى مامز برى فى ولتشير ــ ابنه بعض نزوع الى المشاكسة ، فان هذا الوالد اشتبك يوما فى شجار على باب كنيسته ثم اختفى ، تاركا أبناءه الثلاثة ليتولى تربيتهم أخ له .

وأثرى هذا الأخ وأيسر ، والتحق توماس بكلية مجدلن فى اكسفورد ، هبابا جبانا ، ولا ريب ، مثله فى ذلك مثل أى شاب يجرؤ على اقتحام المغارات المخصصة لأصنام العشيرة . ولم يجد فى الفلسفة التى تدرس هناك الا قليلا مما يروقه ، فتسلى بقراءات خارج المنهج المقرر ، وتعرف بطريق مباشر على الآداب الاغريقية واللاتينية . ولما تخرج فى سن العشرين أسعده الحظ ليكون معلما خاصا لوليم كافندش الذى أصبح أرل دبفونشبر الثانى . وقد ثبت أن الحماية التى بسطتها عليه هذه الأسرة كانت ذات قيمة كبيرة له أيام هرطقته . وفى ١٦١٠ طاف فى صحبة تلميذه بأرجاء القارة . وعند عودته اشتغل لبعض الوقت سكرتيرا لفرنسيس ببكون ، وربما أسهمت هذه الخبرة المثيرة فى تكوين فلسفته التجريبية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . ويروى أوبرى أنه حوالى هذه الفترة « كان مستر بنجامين جونسون شاعر التاج صديقه الحميم الذى يكثر التردد عليه(١) وكان أغزر علما من هوبز . ولم

يكن قد أشتد عوده بعد ، وسرعان ما عـاد هوبز الى أسرة كافندش ، واحتفظ بصلته بها طيلة ثلاثة أجيال ، ومن الجائز أن الفيلسوف اقتبس من هؤلاء الحماة الكرام ذوى المنعة والقوة الآراء المتعلقة بالنظام الملكى والكنيسة التقليدية ، وتلك الآراء هى التى غفرت له ميتافيزيقيته المادية وخلصته من الموت حرقا ٠

وكان اكتشافه لاقليدس نقطة تحول فى حياته العقليـة ٠ ذلك انه وهو فى سن الأربعين ، وقع بصره فى مكتبـة خاصـة ، على كتـاب « العناصر » مفتوحا على المسالة رقم ٤٧ من القسم الأول ٠ وما أن قرأها حتى صاح « يا الهى ، هذا مستحيل » واشار شرحها الى انها برهـان على مسالة سابقة ، وهذه على أخرى ، وهكذا ، حتى رجع الى التعاريف الأولية والبديهيات٠ وابنتهجبهذا البناء المنطقى ، واغرم بعلمالهندسة(٢) ولكن أوبرى بضيف « أنه كان منصرفا ـ انصرافا كبيرا الى الموسـيقى ومارس العـزف على الكمـان الكبير » ٠ وفى ١٦٢٩ نشر ترجمـة لتيوكيديدس (المؤرخ اليونانى فى القرن الرابع ق ٠ م) وكان غرضه السافر المزعوم من ذلك هو أن يحذر انجلترا من أخطار الديموقراطية٠ وفى تلك السنة استأنف رحلاته ، معلما آنذاك لابن أول تلاميذه ، ارل ديفونشير الثالث ٠ وربما قوت زيارته لجاليليو (١٦٣٦) من نزوعه الى تفسير الكون على أسس ميكانيكية ٠

وعاد الى انجلترا فى ١٦٣٧ ، ولما اشتد الصراع بين البرلمـان والملك شارل الأول ، كتب رسالة بعنوان « مبـادىء القـانون الطبيعى والسياسي » ، دافع فيها عن السلطة المطلقة للملك ، بوصـفها أمرا لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والوحدة الوطنية ٠ وجرى تداول هـذه الرسالة مخطوطة ، وربما ـ كانت تؤدى الى القبض على المؤلف لولا أن شارل حل البرلمان ٠ وعندما احتدم النزاع فقد رأى هـوبز أنه من الحكمة ان يعود أدراجه الى القارة (١٦٤٠) ، وبقى هناك ، ومعظم وقته في باريس ، طيلة الأحد عشر عاما التالية ٠ وفى باريس كسب صداقة مرسن وجاسندى ، ولكنه جلب على نفسه عداوة ديكارت ٠ فان مرسن دعاه الى تدوين بعض التعليقات على « تاملات » ديكارت ، فاستجاب هوبز فى شيء من الكياسة ولكن فى كثير من الحدة ، ولم يغتفر له ديكارت هذا قط ٠ وعندما نشبت الحرب الأهلية فى انجلترا

(١٦٤٢) أسس المهاجرون الملكيون لانفسهم مستعمرة فى فرنسا ، وربما أخذ هوبز عنهم مزيدا من التعاطف مع الملكيـــة ، فانه لمـدة عامين (١٦٤٦ / ١٦٤٨) اشتغل بتدريس الرياضـــيات لأمير ويلز المنفى ، الملك شارل الثانى فيما بعد . وجاءت حركة الفروند ضد لويس الرابع عشر فى فرنسا — وكانت مثل الثورة فى انجلترا ، تهدف الى الحـــد من سلطة الملك — فاكدت اقتناعه بأن الملكية المطلقة وحدها هى التى يمكن أن تحافظ على الاستقرار والأمن الداخلى .

وفى بطء شديد وصل هوبز الى صياغة محددة واضـحة لفلسفته . ويقول أوبرى : « انه سار طويلا وأعمل الفكر وتأمل ، وكان فى رأس عصاه قلم ومحبرة ، وكان يحمل فى جيبه دائما كراســـة ، حتى اذا عرضت له فكرة ، فسرعان ما كان يدونها على الفور حتى لا تضيع (٣) » وأصدر سلسلة من التاليف الاقل قيمة × ، التى ليس لها الآن ذكـر ، ولكنه — فى ١٦٥١ جمع كل افكاره فى كتاب يجمع بين طـرافة الفكر والأسلوب وعدم المبالاة ، هو « لواياثان » (التنين) أو « المـــادة والشكل » ، و « سلطة الدولة دينية ومدنية » (التنين) أو « المـادة فى تاريخ الفلسفة ، وجدير بنا أن نتوقف عنده فى شىء من التروى .

٣ — المنطق وعلم النفس :

يكاد دسلوب هوبز يقارب أسلوب بيكون فى الجودة ، ولكنه ليس غنيا بالصور الوضاءة مثله ، ولكنه قوى متميز فعال صريح مثله تماما ، مع شىء من التهكم اللاذع بين الحين والحين . وليس فيه زخـــرف ولا تظاهر بالبلاغة والفصاحة ، فما هو الا تعبير واضح عن فكر واضح ، مع اقتصاد حكيم فى الوسائل اللفظية . يقول هـوبز « ان الكلمـــات بالنسبة للعقلاء ليست سوى أنضاد « فيشـــات » أى وسائط للعـــد

× أهمها « المواطن » (١٦٤٢ / ١٦٤٧) و « مبادىء القانون » الذى طبع ١٦٥٠ فى جزءين : « الطبيعة الانسانية » و « الهيئة السياسية » ، ومبادىء « الفلسفة » (١٦٥١) ، « الاصول الفلســـفية » ١٦٥٥ / ١٦٥٨ وهى ثلاثية استنباطية عن الجسم والانسان والمجتمع هذا الى جانب شـــذرات كثيرة فى الرياضيات ، وترجمة للالياذة والاوديسية . ثم « بهيموث » (١٦٧٠) وهو عبارة عن تاريخ الحرب الاهلية مفسرا على ضوء آرائه عن الانسان والمجتمع ، ثم تاريخ حياته شعرا باللاتينية .

والحساب ، ولكنها ثروة الاغبياء ، التى تضفى عليهم قيمة وقـــدرا ، استنادا الى أرسطو او شيشرون أو توما الأكويني(٤) » . وبهذا السلاح الجديد ـ قضي هوبز على كثير من الكلام الطنان الرنان الأجوف الذى لا يحمل معنى . وعندما وقع بصره على تعريف توما الأكويني «للأبدية» بأنها « الحاضر الخالد » هم كتفيه استهجانا لهـــذا التعريف على انه « من البسيط جدا أن يقال ، ولكن على الرغم من أنى قد أسر به ، فانى لم أستطع أن افهمه قط ، وأولئك الذين يستطيعون فهمه أســـعد منى حظا » . وعلى ذلك كان هوبز « اسميا صريحا » (مذهب الاسمين : مذهب فلسفى يقول بأن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجـــود حقيقى ، وانها مجرد اسماء ليس غير) : فالأنماء أو الأسماء المجردة مثل « الرجل ، الفضيلة » هى مجرد أسماء لأفكار تعميمية ، ولا تمثل شيئا مدركا بالحواس ، فكل الأشياء لها وجود فردى ـ أعمال فاضـلة فردية ، ورجال فرديون .. ..

انه يحدد مصطلحاته وألفاظه تحديدا دقيقا . وعلى الصـــفحة الأولى من كتابه يعرف « لواياثان » بأنه مصلحة مشتركة أو رابطة أو دولة . أنه وجد اللفظ فى التوراه (سفر أيوب ـ الاصحاح ٤١) حيث استعملها الرب اسما لحيوان بحرى هائل غير ذى نوع محدد ، رمزا للقوة الالهية ، واقترح هوبز أن يجعل من الدولة نظاما ضخما عليه أن يستوعب كل النشاط الانسانى ويوجهه . ولكنه قبل أن يصل الى قضيته الأساسية ألقى نظرة شاملة على المنطق وعلم النفس بيد لا ترحم .

ان هوبز فهم الفلسفة على أنها ما نسميه الآن علما : « معـــرفة الآثار والظواهر المكتسبة من معرفة الأسباب ، أو بالعكس معرفة العلل او الأسباب الممكنة كما تدلنا عليها معرفة آثارها المعروفة لدينا (٥) » . وتبع بيكون فى توقعه ان يجنى من وراء هذه الدراسة أو هذا ـ المنهج فوائد عملية عظيمة للحياة الانسانية . ولكنه تجاهل دعوة بيكون الى التعليل الاستقرائى ، وأخذ « بالاستدلال المنطقى » أى الاستنتاج من التجربة . وفى اعجابه بالرياضيات أضاف « أن الاستدلال المنطقى هو بعينه مع الجمع والطرح » أى الجمع بين الصور والأفكار ، أو الفصـــل بينهما . وذهب الى أننا لا نفتقر الى التجربة ، ولكن الذى نفتقر اليه هو التعليل الصحيح لها ، اننـــا اذا اســـتطعنا أن نقضي على خبث

الالفاظ الخالية من المعنى فى الميتافيزيقا ، وعلى التحيزات التى نقلناها بحكم العادة أو التعليم أو روح التشيع والتحزب ؛ إننا اذا استطعنا هذا فأى عبء ثقيل نطرحه عن كواهلنا ، والعقل على أية حال ليس معصوما من الخطأ ! ولا يمكن الا فى الرياضيات ، أن يزودنا بالحقيقة اليقينية التى لا ريب فيها . « ان معرفة النتيجة ، التى قلت من قبل انها تسمى العلم ، ليست مطلقة ، بل هى مشروطة . ولا يستطيع احد أن يعرف عن طريق التعليل أن هذا الشيء أو ذاك كان أو يكون أو سيكون ، مما يعرف بشكل مطلق ، بل يعرف أنه حين يكون هذا يكون ذاك ، واذا كان هذا كان ذاك ، وحين سيكون هذا سيكون ذاك ، أى أن هذا الشيء أو ذاك يعرف مشروطا » (٦) .

وكما سبقت هذه العبارة حجة هيوم فى أننا نعرف النتائج فقط دون الأسباب ، فان هوبز كذلك سبق لوك فى علم النفس الحسي . ان كل المعرفة تبدأ بالحس « ليس ثمة فكرة فى عقل الانسان الا تولدت بادىء ذى بدء ، تامة أو على دفعات ، فى أعضاء الحس (٧) » . وهذا علم نفس مادى صريح : لا يوجد شيء خارجنا أو داخلنا - الا المادة والحركة ، وكل الصفات محسوسة « أو حسية (الضوء ، اللون ، الشكل ، الصلابة ، النعومة ، الصوت ، الرائحة ، الطعم ، الحرارة البرودة ، هى فى الشيء الذى يسببها أو يحدثها ليست الا عدة حركات كثيرة للمادة تؤثر بها على أعضائنا باشكال مختلفة ، كما أنها ، فينا نحن الذين تاثرنا بها ، ليست الا حركات مختلفة ، لأن الحركة لا تنتج الا حركة (٨) » ، فالحركة فى شكل تغيير أمر ضرورى للحس - ان احساسك - بنفس الشيء دائما يساوى أنك لا تحس بشيء مطلقا (٩) . (وهكذا فان الرجل الأبيض أو الرجل الملون لا يتنبه أى منهما الى رائحته لأنها دائما تحت أنفه) .

ومن الحس يتابع هوبز سيره ليستلخص التصور والذاكرة عن طريق تطبيق فريد لما صار قانون الحركة الأول عند نيوتن :

انه اذا بقى جسم ساكنا ما لم يحركه شيء آخر ، فانه يظل ساكنا الى الأبد ، فتلك حقيقة لا يشك فيها أحد . أما اذا كان الجسم متحركا ، فانه يظل متحركا الى الأبد الا اذا أوقفه شيء آخر ، فانه على الرغم من أن

السبب واحد فى الحالين (وهو على التحديد أن أى شيء لا يمكنه التغيير بذاته) فهذا أمر لا يمكن التسليم به بسهولة ..

اذا تحرك الجسم مرة ، فانه يظل يتحرك الى الأبد (الا اذا عاق حركته شيء آخر) ، وهذا الذى يعطل حركته ، أيا كان ، لا يستطيع أن يعطلها دفعة واحدة انما يعطل حركته تماما فى الوقت المناسب وشيئا فشيئا . وكما نرى فى الماء ، فقد تسكن الريح ولكن الأمواج لا تهدأ الا بعد فترة طويلة من سكون الريح . وهذا ما يحدث للحركة التى تتم داخل الأجزاء الداخلية فى الانسان ، ثم حين يرى أو يحلم .. .. الخ . حيث أنه عندما يزول ويختفى الشيء أو تغلق العين ، فاننا نظل نستبقى صورة الأشياء التى رؤيت ، ولو أنها تكون أكثر غموضا منها حين كنا نراها . وهذا ما يسميه اللاتينيون « خيالا » .. .. وهو على هذا الأساس ليس الا « حسا يضعف » ، فاذا عبرنا عن هذا الضعف ، فما يدل على أن الحس يتضاءل وأنه قديم ، وأنه غابر ، فان هذا يسمى « الذاكرة » .. .. .. الذاكرة العامرة ، أو تذكر أشياء كثيرة يسمى « الخبرة أو التجربة (١٠) ».

والأفكار عبارة عن تصورات ينتجها الحس أو الذاكرة . والفكر هو نتيجة لمثل هذه التصورات . ولا تتحكم الارادة الحرة فى هذه النتيجة ، بل انها تخضع لقوانين ميكانيكية تحكم توارد الخواطر .

ان الأفكار أو الخواطر لا يعقب الواحد منها الآخر اعتباطا ، ولكن حيث اننا لا يكون لدينا تصور لما لم نكن قد أحسسنا به جملة أو تفصيلا من قبل ، فاننا كذلك لن ننتقل من تصور الى تصور ليس لدينا عهد به فى حواسنا من قبل . وهذا هو السبب : ان كل التصورات (الأخيلة والأفكار) انما هى حركات فى داخلنا ، وهى بقايا ما تم فى حواسنا . وهذه الحركات التى تعاقبت الواحدة منها بعد الأخرى فى الحس تستمر أيضا مجتمعة بعد الحس .. .. ولكن بما أنه فى الحس بالنسبة لشيء واحد بعينه يدرك ، قد يأتى أحيانا شيء . وأحيانا يأتى شيء آخر ، فقد يحدث عاجلا أو آجلا ، فى تصور شيء ما ، ألا نكون على يقين من أننا سنتصور شيئا بعده . وهذا مؤكدا فقط اذا كان ثمة شيء قد أعقب مثيلا له من قبل فى وقت من الأوقات (١١) .

وقد تكون هذه السلسلة من الأفكار مشوشة أو غير موجهة ، كما

هو الحال فى الأحلام ، وقد تكون « مضبوطة أو محددة طبقا لرغبة أو هدف أو خطة ما » . وفى حالة الأحلام نجد أن الصور الساكنة الهاجعة فى المخ « توقظها وتهيجها أية اثارة فى الأجزاء الداخلية فى جسم الانسان » . لأن كل أجزاء الجسم مرتبطة ، بطريقة ما ، بأجزاء معينة فى المخ . « اعتقد أن هناك تبادلا فى الحركة من المخ الى الأجزاء الحيوية ، ومنها ثانية الى المخ ، بهذا لا يولد التصور حركة فى تلك الأجزاء فحسب ، بل ان الحركة فى تلك الأجزاء كذلك تولد تصورا شبيها بهذا الذى أنتجها (١٢) » . واحلامنا هى شكل معكوس لتصوراتنا فى اليقظة : الحركة ونحن متيقظون بادئة بطرف ، وبادئة بالطرف الآخر حين نحلم(١٣) » والتسلسل غير المنطقى للصور فى الأحلام يرجع الى عدم وجود أى احساس خارجى يضبطها أو أى غرض يوجهها .

وليس للارادة الحرة أى مكان فى علم النفس عند هوبز . والارادة نفسها ليست موهبة أو وجودا مستقلا ، بل هى مجرد الرغبة الأخيرة أو النفور الأخير فى عملية التدبر (حركتان جسميتان أساسيتان هما الاشتهاء أو الحركة نحو الأشياء والنفور أو الحركة بعيدا عن الأشياء) ، والتدبر تناوب بين حالات الرغبة أو النفور ، وهو ينتهى عندما يمكث احد الدوافع وقتا كافيا ليتحول الى عمل أو تصرف ما . « وفى التدبر نجد أن الاشتهاء أو النفور الأخير الذى يقترن فى الحال بالعمل أو بالاغفال الناتج عنه (عن الاشتهاء أو النفور) هو ما نسميه الارادة (١٤) » « ان الشهوة والخوف والأمل وغيرها من الانفعالات لا تسمى اختيارية ، لأنها لا تنبع من الارادة ، بل هى الارادة نفسها ، والارادة ليست اختيارية (١٥) » « لأن كل فعل من أفعال ارادة الانسان وكل رغبة وكل ميل ، انما ينتج عن سبب ما ، وهذا السبب ينتج عن سبب آخر ، وهكذا فى سلسلة متصلة (حلقتها الأولى فى يد الله أول كل الاسباب) وكلها تنبع من الضرورة . وعلى هذا فان الذى يستطيع أن يدرك الصلة بين تلك الأسباب ، قد تبدو له واضحة جلية « ضرورة » كل أفعال الانسان الاختيارية (١٦) » . وهناك فى الكون بأسره سلسلة متصلة الحلقات من الاسباب والنتائج أو الآثار . وليس هناك شيء طارىء غير متوقع ، أو خارق معجز ، أو من قبيل الصدفة .

والعالم كله آلة من المادة ، متحركة طبقا لقانون ، والانسان نفسه آلة شبيهة بهذه . والاحاسيس تدخل اليه كانها حركات ، وتولد صورا وأفكارا وكل فكرة هى بداية حركة ، وتصبح فعلا اذا لم تعقهـا فكرة اخرى (١٧) . وكل فكرة ، مهما تكن مجردة ، تحرك الجسم بدرجة ما ، مهما تكن غير منظورة . والجهاز العصبى عبارة عن تركيب آلى لتحويل الحركات الحسية الى حركة عضلية . والأرواح موجودة ولكنها مجرد أشكال دقيقة للمادة (١٨) . والنفس والعقل ليسا غير ماديين ، ولكنهما اسمان للعمليات الحيوية للجسم ولأعمال المخ . ولا يحـــاول هوبز أن يفسر السبب فى أن الوعي يتمو بمثل هذه العملية الميكانيكية من الحس الى الفكرة الى الاستجابة . انه باختزال كل الصفات المدركة للأشياء الى صور في « الذهـــن » ، يقترب كثيرا من الموقف الذى اتخذه باركلى فيما بعد فى دحض المادية ـ ان كل الحقيقة المعـروفة لنا ادراك حسي ، وذهنى .

٣ ـ الأخلاق والسياسة :

ان هوبز مثل ديكارت قبله ، وسبينوزا بعـده ، تولى تحليـــل الانفعالات ، لانه يرى فيها مصدر كل افعال الانسان ، ويستخدم الفلاسفة الثلاثة جميعهم لفظة « الانفعال » على نطاق واسع لتشمل أية غريزة أو وجدان أو عاطفة ـ وبصفة أساسية ، الاشتهاء (الرغبة) والنفور ، الحب والكراهية ، الفزع والخوف ، ووراء هذه كلهـــا اللذة والالم ـ العمليات النفسية التى ترفـع أو تخفض من حـــوية الكائن الحى . والاشتهاء بداية حـــركة نحـــو شيء ببشر باللذة . والحب ضرب من الاشتهاء ، موجه نحو شخص . وكل الاندفاعات (كمـا كان يقـــول لاروشفوكولد بعد ذلك بأربعة عشر عاما) هى أشكال من حب الذات ، وكلها تنبع من غريزة المحافظة على الذات . فالاشـفاق هو تصـــور لمصائب تنزل بنا فى المستقبل ، يثيره علمنا بمصائب الغير ، والصدقة ارضاء للشعور بالقوة فى مساعدتنا للآخرين . والاعتراف بالفضل ينطوى أحيانا على شيء من العداء « ان حصولنا ممن نرى انه مساو لنا عـــلى فوائد او منفعة أعظم مما كنا نامل منه ، ينزع بنا الى التظاهر بالحب ، والحق انه بغض خفى ، وهو يضع المرء فى موقف المدين اليائس ، حتى

أنه فى حالة تصنعه عن رؤية دائنة ، انما يرغب ضمنا فى أن يذهب هذا الدائن الى حيث لا يراه المدين أبدا . لأن المنفعة التى حصل عليها منة طوق بها عنقه ، وفى هذه المنة أو الفضل عبودية (١٩) » . والنفـــور الأساسي هو الخوف . والاشتهاء الأساسي هو اشتهاء السلطة . « انى أرى فى البشر جميعا نزعة عامة . هى الرغبة الدائمـة التى لا تهـــداء فى السلطة فوق السلطة ، وتلك رغبة لا يخمد أوارها الا عند الموت (٢٠) ». اننا نرغب فى الثراء والمعرفة بوصفهما وسائل للسلطة . وفى الأوسمة ومظاهر الحفاوة والتكريم ، لأنها دليل على السلطة ، ونحن نريد السلطة لأننا نخشى التعرض للخطر . والضحك تعبير عن التفـــوق والســـمو والسلطة .

ان الانفعال بالضحك ليس الا تألقا أو اعتزازا مفاجئا (رضى ذاتيا) ينشأ عن ادراك مفاجىء لبعض السمو والرفعة فينا ، بالمقـارنة بوهن الآخرين وعجزهم ، أو بوهننا وعجزنا فيما مضى ، لأن الناس يضحكون من حماقاتهم السابقة عندما تخطر ببالهم فجاة ، الا اذا استحضروا معها شيئا من مواطن الخزى والعار فى حاضرهم .. .. ويكون الضـحك أكثر ما يكون عارضا لأولئـك الدين بكونون على وعى تام بقدراتهـــم البالغة الضآلة ، الذين يضطرون الى التماس شيء من الراحة فى ملاحظة نقائص الآخرين . ومن ثم فان كثرة الضحك من عيوب الناس دليل على ضعة النفس . فان من أروع الاعمال التى ينهض بها ذوو العقول الكبيرة أن يساعدوا الآخـــرين ويحرروهم من الذل والازدراء ، والا يقارنوا أنفسهم الا بأقدر الناس (٢١) .

والخير والشر مصطلحان ذاتيان بختلفان فى المضمون ، لا من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان فحسب ، بل من شخص الى شخص أيضا. «ان الانسان يسمى موضوع شهوته أو رغبته خيرا، وموضوع كراهيته أو نفوره شرا ، لأن هاتين الكلمتين تســـتعملان دائمـــا فيما يتعلق بالشخص الذى بستخدمهما ، لأنه ليس ثمة خير أو شر بسيط أو مطلق، وليس هناك قاعدة عامة للخير أو الشر يمكن اســـتنباطها من طبيعة الأشياء ذاتها (٢٢) » . وقد تكون الانفعالات خيرا ، وقد تؤدى الى العظمة . « وهذا الذى ليس لديه رغبة قوية .. .. فى السيطرة أو

الثروة أو المعرفة أو الشرف والمهابة . لا يمكن أن يكون لديه خيال واسع أو عقل راجع » . ان ضعف الانفعال غباء ، وقوته بشكل غير طبيعى جنون وانعدام الرغبات موت (٢٣) .

ان بهجة هذه الحياة لا تكمن فى هجوع الذهن فى حالة من الرضي والاكتفاء . لأنه ليس هناك ما يسمونه « الغرض الأسمى » و « الخير الأسمى » كما تحدثت عنهما كتب الفلاسفة الأخلاقيين القدامى .. .. فالبهجة هى تقدم الرغبة المستمر من هدف الى هدف ، وتحقيق الهدف السابق يظل طريقا لتحقيق ما بعده (٢٤) .

ان حكم رجال هكذا تكوينهم وميلهم الى الكسب ، والمنافسة وحدة الاهواء والانفعالات فيهم ، ونزعتهم الى النضال والكفاح ، نقول ان مثل هذا الحكم هو اشد مهام البشر تعقيدا ومشقة ، ويجدر بنا أن نهيىء لمن يتولونه كل عون أو سلاح من علم النفس ومن القوة والسلطان. وعلى الرغم من أن ارادة الانسان غير حرة فان للمجتمع ما يبرر تشجيعه لبعض الأعمال ويطلق عليها « أعمالا فاضلة » ويثيب عليها ، على حين يندد باعمال اخرى ، ويقول بانها « أعمال مرذوله » ويعاقب عليها . وليس ثمة تناقض هنا مع « الحتمية » ، فان هذه الاستحسانات والتنديدات الاجتماعية تضاف ، من أجل خير الجماعة ومصالحها ، الى الدوافع التى تؤثر فى السلوك . « ان العالم يحكمه الرأى (٢٥) »، فالحكومة والدين والقانون الاخلاقى ، هى الى حد كبير تلاعب بالرأى، للتخفيف من الضرورة ونطاق القوة .

ان الحكومة ضرورية ، لا لأن الانسان شر بالطبيعة ـ لأن « الرغبات وسائر الانفعالات ليست آثمة فى حد ذاتها (٢٦) » ـ بل لأن الانسان بطبيعته اكثر نزوعا الى الفردية منه الى الروح الاجتماعية ، ان هوبز هنا لم يتفق مع ارسطو فى أن الانسان « حيوان سياسي » ، أى مخلوق مهيأ بالطبيعة للاجتماع . انه على النقيض من ذلك ادرك « حالة طبيعية » اصلية (وهى على ذلك الطبيعة الأصلية للانسان)، على أنها حالة تنافس وعدوان متبادلين لا يوقفهما الا الخوف ، ؛ القانون . ويمكننا (كما يقول هوبز) أن نتصور هذه الحالة لافتراضية اذا لاحظنا العلاقات الدولية فى زماننا هذا ، فان الامم

لا تزال الى حد كبير فى « حالة من الطبيعة » ، ولم تخضع بعد لقانون أو سلطة مفروضة عليها .

ان الملوك وأصحاب السلطان فى كل الأزمان ، بسبب استقلالهم ، يعيشون وسط الأحقاد والحذر ، يقفون وقفة المصارعين والمجالدين دائما ، أسلحتهم مشرعة ، وعيونهم مثبتة كل منهم على الآخر - أى قلاعهم وحامياتهم ومدافعهم على حدود ممالكهم - يبثون العيون والارصاد على جيرانهم ، وتلك هى وقفة الحرب ، لا توجد سلطة عامة ، لا يوجد قانون ولا يوجد ظلم ولا جور . والقوة والخداع هما فى الحرب فضيلتان أساسيتان (٢٧) .

وهكذا اعتقد هوبز أن الافراد والاسرات كانت قبل ظهور التنظيم الاجتماعى ، تعيش فى حالة حرب دائمة ، فعلية أو محتملة ، « كل انسان ضد الآخر (٢٨) » . ولا تقتصر الحرب على الالتحام فى المعركة فقط ، بل قد ياتى وقت يبدو فيه بشكل واضح ، عزم الانسان على الاشتباك فى معركة (٢٩) . ونبذ نظرية فقهاء الرومان وفلاسفة المسيحية فى أن هناك ، أو كان هناك اطلاقا ، « قانون طبيعى » بمعنى قوانين الصواب والخطا ، مؤسسة على طبيعة الانسان بوصفه « حيوانا عاقلا » . وسلم بان الانسان كان عقلانيا فى بعض الاحيان ، ولكنه أدرك أنه « مخلوق ذو انفعالات وأهواء - ورغبة السلطان والقوة فوق كل شيء - يستخدم العقل أداة للرغبة أو الاشتهاء ، ولا يحكمه الا الخوف من القوة . والحياة البدائية - أى الحياة قبل التنظيم الاجتماعى - كانت بلا قانون ، عنيفة مخيفة ، « قذرة كريهة وحشية فقيرة (٣٠) » .

وفى تصور هوبز أنه من « حالة الطبيعة » المفترضة هذه ، خرج الناس باتفاق ضمنى بين بعضهم بعضا ، على أن يخضعوا جميعا لسلطة عامة . وتلك هى نظرية « العقد الاجتماعى التى أصبحت مالوفة شائعة بفضل رسالة روسو التى تحمل هذا الاسم (١٧٦٢) . ولكنها كانت بالفعل قديمة مطروقة فى أيام هوبز . فان ملتون فى رسالته « ولاية الملك والحكام » (١٦٤٩) كان قد فسر العقد بأنه اتفاق بين ملك ورعاياه - على انهم يطيعونه ، وعلى أنه سيقوم بمهام منصبه

على خير وجه ، فاذا أخفق هذا ، كما قال ملتون (مثل ما قال بوكانان وماريانا وكثيرون غيرهما) ، كان للشعب الحق فى خلعه . واعترض هوبز على النظرية بهذه الصيغة ، على أساس انها لم تؤسس سلطة مخولة أن تنفذ العقد ، أو تحدد كيف ومتى نقض . وآثر القول بأن هذا الاتفاق مبرم ، لا بين الحاكم والمحكومين ، بل بين المحكومين الذين اتفقوا فيما بينهم :

انهم منحوا كل سلطانهم وقوتهم (أى حقهم فى استخدام القوة بعضهم ضد بعض) لرجل واحد أو لجماعة من الرجال .. .. فاذا تم هذا ، اتحد الجميع فى رجل واحد يسمى الدولة . وهذا هو منشأ اللوياثان الكبير .. .. بل على الأرجح منشأ « الرب الفانى » الذى ندين له ، فى ظل « الاله الحى الباقى » بسلامنا والدفاع عنا لأنه بمقتضى هذه السلطة التى خولها اياه كل فرد فى الدولة ، له الحق فى أن يستخدم كثيرا من السلطات والقوة اللتين منحتا له ، ومن ثم فانه بالارهاب يكون قادرا على تشكيل ارادة الناس جميعا .. .. غايته من ذلك أن يستخدم كل قوتهم وكل ما يملكون من وسائل . كلما وجد الضرورة تدعو الى ذلك ، من أجل سلامهم والدفاع المشترك عنهم . وهذا الذى يمثل هذا « الشخص » ويحمل هذا العبء يسمى ملكا ، ويقال ان له سلطة ملكية ، وكل من عداه من رعاياه (٣١) .

وفى شيء من الطيش افترضت النظرية فى هؤلاء الهمج « القذرين المتوحشين » الذين سبق ذكرهم ، درجة من النظام والعقلانية والاتضاع ، وهى درجة تسمح بتنازلهم عن سلطاتهم . وأجاز هوبز فى شيء من الحكمة ، أن تنشأ الدولة عن أصول بديلة : -

ويمكن الوصول الى هذه السلطة الملكية الحاكمة عن طريقين ، أولهما القوة الطبيعية ، كما هو الحال حين يعمد رجل ما الى اخضاع بنيه وذرياتهم لحكومته ، لأنه قادر على تدميرهم والقضاء عليهم اذا أبوا عليه ذلك ، أو يخضع أعداءه لارادته عن طريق الحرب . أما ثانيهما فهو حين يتفق الناس فيما بينهم على الخضوع طواعية واختيارا لرجل أو جماعة من الرجال ، ثقة من الناس بأن هذا الرجل أو جماعة الرجال سيتولون حمايتهم ضد الآخرين . ويمكن ان يطلق على هذا « رابطة سياسية » (٣٢) (دولة).

ومهما كان الاساس الذى قام عليه الحاكم ، فانه لكى يكون حاكما وملكا حقا ، لا بد أن يكون ذا سلطة مطلقة ، فانه بدونها لا يستطيع أن يحقق امن الفرد أو سلام الجماعة . ومقاومته انمـــا تعنى نقض العقد الاجتماعى الذى اقره ضمنا كل فرد فى الجماعة بقبوله حماية رأس الدولة له . وقد تسلم هذه « الاستبدادية المطلقة » النظرية ببعض قيود وحدود عملية . فيمكن مثلا الوقوف فى وجه الملك اذا أمر انسانا بأن يقتل نفسه أو يبتر عضوا من جسمه ليعطله أو يشوهه ، أو يعترف بجريمة لم يرتكبها ، أو اذا لم يعد الحاكم قادرا على حمـــاية رعاياه . « المفهوم أن التزام الرعايا نحو الملك يبقى ما بقيت سلطته التى يستطيع بها حمايتهم ، ولا بقاء لهذا الالتزام اذا فقد السلطان (٣٣) » . والثورة دائما جريمة الا اذا حققت نجاحا . انها دائمـــا غير مشروعة وغير عادلة ، لأن القانون والعدالة كلتيهما يحددهما ويحكمهمـــا الملك ، ولكن اذا اقامت الثورة حكومة مستقرة فعالة ، فان على المواطـــن أن يلتزم بطاعة السلطة الجديدة .

ولا يحكم هذا الملك بمقتضي الحق الالهى ، حيث أنه يســـتمد سلطته من الشعب ، ولكن يجب أن تقيد سلطته جمعية شعبية أو قانون الكنيسة . ويجدر أن تمتد هذه السلطة الى الملكية ، فيجب على الملك أن يحدد حقوق الملكية (التملك) ، وعليه أن يعيد توزيع الممتلكات الخاصة ، حيثما يقدر أن هذا يحقق المصلحة العامة (٣٤) . « والحكم المطلق » ضرورى ، لأنه اذا كانت السلطة شركة ، بين الملك والبرلمان مثلا ، فسرعان ما ينشب النزاع ، ثم الحرب الأهلية ، فتعم الفوضي وتتعرض الحياة والممتلكات للخطر . وحيث أن الأمن والسلام همـــا الضرورتان الاساسيتان للمجتمع ، فانه لا ينبغى أن يكون هناك فصل، بل وحدة كاملة وتركيز تام فى السلطات الحكومية . وحيثما توزعت السلطات لا يكون هناك ملك ، وحيثما لا يكون ملك ، لا تكون هناك دولة (٣٥) .

وبناء على هذا يكون الشكل المنطقى للحكومة هو الملكيـــة . ولا بد أن تكون وراثية ، لأن حق اختيار الخلف جـــزء من ســـيادة الملك ، ونكرر القول بأن البديل لهذا هو الفوضي (٣٦) . وقد تصلح الحكومة عن طريق جمعية ولكن شريطة أن تكون سلطتها مطلقة ، غير

خاضعة لرغبات متقلبة لدى شعب غير متعلم . « ان الديمقراطيــة لا تعدو أن تكون أرستقراطية خطباء (٣٧) » فما أسهل أن يهيج زعماء الدهماء مشاعر الشعب ، ومن ثم كان لزاما أن تمارس الحكومة الرقابة على الخطابة والصحافة ، وينبغى أن تكون هناك رقابة صادقة على المطبوعات والواردات وقراءة الكتب (٣٨) . ولا يجوز أن يكون هناك جدل عقيم حول الحرية الفردية والآراء الخاصة والضمير . وينبغى أن يقتلع من الجذور كل ما يهدد ســيادة الملك ، ومن ثم الســلام العام (٣٩) . فكيف يتسنى حكم دولة أو حماية علاقاتها الخارجيــة اذا بقى كل فرد حرا فى طاعــة القــانون أو مخالفته وفقــا لرأيه الخاص ؟

٤ ـ الدين والدولة :

وكذلك يجب على الملك أن يحكم دين شعبه ، لأن الدين يمكن أن يكون قوة مدمرة متفجرة اذا تشدد فيه الناس . ويقدم هوبز تعريفا موجزا : « ان الخوف من القوة الخفية التى يلفقها العقل أو تصورها الأقاصيص ، اذا سمح بانتشاره فهو « الدين » .

واذا لم يسمح فهو « الخرافة » (٤٠) . وهذا يهبط بالدين الى مجرد الخوف والخيال والادعاء ، ولكن فى مواضع أخرى نرى هوبز يعزوه الى التساؤل الملهوف عن علل الأشياء والحوادث وبداياتهــا (٤١) . وتقود ملاحقة الأسباب هذه فى النهاية الى الاعتقاد (كمــا اعترف الفلاسفة الوثنيون) « بأنه لا بد أن يكون هناك « محرك » واحد ، أى سبب واحد خالد لكل الاشياء ، وهو ما يعنيه النــاس بقــولهم الله (٤٢) » وذهب الناس بشكل طبيعى الى أن هذا « السبب الأول» كا نمثلهم : شخصا ونفسا وارادة ، ولكنه فقط اقوى منهــم بكثير . ونسبوا الى هذا « السبب » كل الأحــداث التى لم يستطيعوا تبين محدداتها الطبيعية بعد ، ورأوا فى الأحداث العجيبــة معجــزات ونبؤات للارادة الالهية .

فى هذه الأشياء الأربعة : فكرة الأرواح ، والجهل بالأســباب الثانوية ، والتفانى فيما يخشاه الناس ، وأخذ الاشياء الطارئة على أنها نذر أو بشائر ، تنطوى البذور الطبيعية للدين ، التى نمت بسبب

مختلف أوهام الكثير من الناس وأحكامهم وأهوائهم ، نقول نمت حتى اصبحت طقوسا متباينة الى حد أن ما يقوم به فرد ، يعتبر فى معظم الاحوال سخيفا مرذولا عند الآخر (٤٣) .

كان هوبز « ربوبيا » لا ملحدا . فاعترف « بكائن اسمى (٤٤) » ذكى ، ولكنه أضاف « قد يعرف الناس ... بالطبيعة أن الله موجود ، ولو أنهم لا يدركون ما هو (٤٥) . « ويجب الا ندرك أن لله شكلا ، لأن كل شكل محدود ، أوله أجزاء ، أو له مكان ما هنا او هناك ، « لأن أى شيء له مكان ، لا بد أن يكون مقيدا محـــدودا » ، أو أنه يتحرك أو يظل فى مكانه ، لأن هذا مكانه ، لأن هذا ينسب له مكان ، كما يجب الا نقول الا عن طريق المجاز بانه يمارس الحزن والنـــدم والغضب والرحمة والحاجة والشهوة والأمل أو أية رغبة أخرى (٤٦) . وخلص هوبز الى أن « طبيعة الله خافية لا يمكن فهمها (٤٧) » وقد لا يصفه هوبز بانه روحى غير مادى ، لاننا لا نستطيع أن ندرك شيئا بلا جسم ، ويحتمل أن كل « روح » جسدية ولكن بشكل دقيق (٤٨) .

وبعد أن حـــدد هوبز لكل من الدين والرب مكانه ، عرض أن يستخدمهما أداتين للحكومة ليكونا فى خدمتها ، ومن أجل هذا أورد سوابق ذوات شان خطير .

ان المؤسسين والمشرعين الأولين للدول بين « الامميين » (غير اليهود) الذين كانت غاياتهم الابقاء على طاعة الناس وعلى السلام ، عنوا فى كل مكان :

أولا : بأن يطبعوا فى اذهان الناس أن تلك التعاليم التى جاءوا بها فيما يتعلق بالدين ، لا يجوز الظن بأنها جاءت من عندياتهم ، بل انها جاءت بامر من بعض الآلهة أو الارواح ، والا كانوا (المؤسسون والمشرعون) من طبيعة أسمى وأرقى من مجرد بشر معرضين للفناء ، حتى يمكن تقبل قوانينهـــم فى كثير من اليسر . وهـــكذا زعـــم « توما بومبليوس » (ثانى ملوك رومه) أنه تلقى الطقـوس التى اقامها بين الرومان من الحورية ايجريا ، كما زعم مؤسس بيرو وأول ملوكها أنه وزوجته من أبناء الشمس .

ثانيا : أن يشيعوا الاعتقاد بأن الاشياء التى تغضب الآلهـة هى نفسها الاشياء التى حرمها القانون (٤٩) ٠

ولكيلا يستنتج احد أن موسي استخدم وسائل شبيهة بهـذه فى نسبة شرائعه لله ، يضيف هوبز ، فى نفور خاص من النار ، أن « الرب بنفسه ، بوحى خارق ، اقام الدين » بين اليهود ٠

ولكنه يشعر بأنه على حق ، بالأمثلة التاريخية ، فى أن يوصي بأن يصبح الدين أداة للحكومة ، وبناء على هذا يفرض الملك مبادىء الدين وتعاليمه ٠ واذا كانت الكنيسة مستقلة فانه يكون هناك ملكان ، ومن ثم لا يكون هنـاك ملك أبدا ، وتكون الرعيـة موزعـة بين السيدين ٠

اذا انتحلت السلطة الروحية حق الحكم بأن هذا أو ذاك اثم ة فانها تنتحل ، نتيجة لذلك ، حق الحكم بأن هذا هو قانون (لأن الاثم ليس الا مخالفة القانون) ٠٠ ٠٠ واذا كانت هاتان السلطتان (الكنيسة والدولة) تناوىء الواحدة منهما الاخرى فان الدولة تتعرض لخطر كبير هو خطر الحرب الأهلية والتمزق (٥٠) ٠

وفى مثل هذا الصراع يكون للكنيسة اليد العليا « لأن أى انسان، وهو فى كامل وعيه ورشده لابد أن يدين فى كل الامور ٠ بالطاعـة المطلقة ، للرجل الذى يعتقد أن حكمه عليه سينجيه أو يقضي عليه »٠ وحين تثير السلطة الروحية نفوس الرعايا « بالخوف من العقاب أو الامل فى الثواب » من هذا النوع الخارق للطبيعة » ، وتخنق تفكيرهم وتعطل عقولهم بالكلمات الغريبة القاسية ، فلا بد أنها بذلك توقـع الشعب فى حيرة ، واما أن ترهق البلاد بالظلم والجور ، واما أن تلقى بها فى أتون حرب أهلية (٥١) ٠ ويرى هوبز أن المخرج والوحيد من مثل هذا المأزق الحرج أن تكون الكنيسة خاضـعة للدولة ٠ ولما كانت الكنيسة الكاثوليكية ترى فى هذا رأيا آخر ، فان هوبز ، فى الجزء الرابع من « لواياثان » يهاجمها على أنها الد واقوى عدو لفلسفته ٠

ثم يورد هوبز « نقدا أشد » للكتاب المقدس ـ يرتاب فى تاليف موصي للأسفار الخمسة الأولى من التـوراة ، ويؤرخ « الأسـفار

التاريخية » فى زمان متأخر عما هو وارد فى النواميس التقليدية . ويرى الا تتطلب المسيحية من معتنقيها الا الايمان « بيسوع المسيح » أما بالنسبة لبقية أركان العقيدة ، فيجدر بها أن تجيز اختلاف الرأى بين الناس فى نطاق الحدود الآمنة للنظام العام . ولمثل هذه العقيدة البسيطة المطهرة لا يوفر هوبز مجرد تاييد الحكومة فحسب . بل كل قوة الدولة لنشرها ما وسعها الجهد . ويتفق مع البابا فى أن يكون للدولة دين واحد (٥٢) . ويشير على المواطنين بأن يتقبلوا لاهوت مليكهم دون تردد محرج ، لأن هذا واجب اخلاقى ، كما هو واجب للدولة . « لأن الحال بالنسبة لأسرار ديانتنا هى الحال بالنسبة للأقراص الصحية عند المرضى ، اذا ابتلعت دفعة واحدة كان لها فضل الشفاء ، أما اذا مضغت ، فانها فى معظم الاحوال تلفظ ثانية ولا يكون لها أى تاثير (٥٣) » . وانتهى أشد هجوم شنه انجليزى على المسيحية ، بمسيحية قامت وكأنها قانون لا مفر منه لدولة استبدادية مطلقة .

٥ ـ اصطياد الدب :

جاء فى الفقرة الأخيرة من « لوياثان » : « وهكذا أختم دون تحيز ، حديثى عن الحكومة المدنية والدينية التى تضطرب بفوضى العصر الحاضر ... وليس لى من هدف الا أن أضع تحت أنظار الناس العلاقة المتبادلة بين الحماية والطاعة » .

ولم يتحقق الناس من عدم التحيز على نطاق واسع . فان المهاجرين الذين تجمعوا حول شارل الثانى فى فرنسا رحبوا بدفاع هوبز من النظام الملكى ، ولكنهم استنكروا ماديته على أنها حمق وطيش ان لم تكن تجديفا ، وعراهم الأسى والأسف لما استنفد فيلسوفهم العنيد من صفحات فى مهاجمة الكنيسة الكاثوليكية ، على حين كانوا لفورهم يلتمسون العون من ملك كاثوليكى . أما رجال الدين الانجليكانيون الذين كانوا بين اللاجئين الى فرنسا من وجه البيوريتانيين المنتصرين ، فقد تعالت صيحاتهم ضد الكتاب الى حد أن هوبز « أمر الا يعود الى بلاط شارل الثانى (٥٤) » . ولما الفى هوبز أنه بات بلا صديق ولا صاحب ، وبلا حماية فى فرنسا ، قرر أن

يتصالح مع كرومول ويعود الى انجلترا . وطبقا لما رواه الاسقف بيرنت ، أدخل هوبز بعض تعديلات على نصوص اللوياثان « ارضاءا للجمهوريين (٥٥) » وليس هذا مؤكدا ، ولكن المؤكد ، على أية حال ، أن نظرية الثورة غير ذات الأصل الشرعى ، والتى بررها نجاحها ، التأمت بشكل مبتور وكأنها ترقيع ، مع نظرية الطاعة المطلقة لحاكم مطلق . ان كتاب « العرض والنتيجة » النهائيتين الذى يبدو وكأنه تفسير متأخر جاء بعد أوانه ، شرح الظروف التى يمكن فيها لمواطن كان يدين بالولاء للملك من قبل ، أن يخضع فى الوقت المناسب ، وفى لباقة ، للنظام الجديد الذى كان قد أطاح بالملك . ونشر الكتاب فى لندن فى ١٦٥١ بينما كان هوبز فى باريس . وفى آخر هذا العام ، وسط شتاء قاس ، عبر البحر الى انجلترا ، حيث أوى الى ملاذ طيب عند ارل ديفونشير الذى كان قد استسلم منذ أمد طويل لبرلمان الثورة . وأعلن هوبز ولاءه وخضوعه للحكم القائم ، فلقى قبولا ، ومن ثم انتقل الفيلسوف الى دار فى لندن ، مستعينا بمعاش ضئيل أجراه عليه ارل ديفونشير ، « لأن الافتقار الى حديث العلم والعلماء كان أشد ما يضايق الفيلسوف فى الريف (٥٦) » . وكان آنذاك فى الثالثة والستين من العمر .

وشيئا فشيئا ، كلما وجد الكتاب قراء ، تكاثر النقاد على المؤلف أسرابا . فانبرى رجال الدين الواحد تلو الآخر للدفاع عن المسيحية ، وتساءلوا : من هو « وحش مامزبرى » الذى قام يتحدى أرسطو واكسفورد والبرلمان والله ؟ . وكان هوبز جبانا ولكنه مقاتل ، وفى ١٦٥٥ أثبت من جديد فى « أصول الفلسفة » آراءه فى المادية والحتمية . وفى كتاب « اصطياد اللوياثان (١٦٥٨) نصب جون برامهول ، أسقف درى العلامة ، شراكه لهوبز وسدد الضربات اليه جيدا ، وقال أسقف آخر « أن هوبز لا يزال فى الشرك (٥٧) » . واستمرت الهجمات فى كل عام تقريبا حتى قضى الفيلسوف نحبه . ولما اعتزل ارل كلارندون منصبه (وكان قاضي القضاة) تسلى فى منفاه بنشر « رأى وعرض موجزان للأخطاء الخطيرة المؤذية فى الكنيسة والدولة فى كتاب مستر هوبز - لوياثان » (١٦٧٦) . وفى ٣٢٢ صحيفة تابع تقنين المجلدات بشكل منتظم ، وهو يقرع الحجة بالحجة فى نثر مشرق رفيع . وتحدث

كلاوندون بوصفه رجلا ذا خبرة طويلة فى المناصب السياسية ، وسخر من فلسفة هوبز على انه رجل لم يسبق له أن تقلد مناصب ذات مسئولية، حتى يلطف من نظرياته عن طريق الممارسة والتجـــربة ، وتمنى لو أن « مستر هوبز أتيح له أن يتبوأ مقعدا فى البرلمان أو فى المجلس ، أو فى دور القضاء أو أية محكمة أخـــرى ، حيث كان يحتمـــل أن يتبين أن تاملاته فى عزلته ، مهما تكن عميقة ، والتزامه المتعجرف الزائد عن الحد ببعض افكار فلسفية ، بل حتى ببعض قواعد الهندسة ، نقول يتبين أن هذا كله قد ضلله وحاد به عن جادة الصواب فى بحثه فى السياسة (٥٨) .

ولم تكن كل الحملات على هذا النسق من الهدوء والاعتـــدال . وفى ١٦٦٦ أمر مجلس العموم احدى لجانه « بكتابة تقارير عن الكتب التى تنزع الى الالحاد والتجديف وانتهاك حرمة المقدسات أو تتناول بالتعريض لسمة الله وصفاته . وبخاصة الكتاب الذى نشر باسم «هوايت» (قسيس كاثوليكى سابق ارتاب فى خلود النفس) ، وكتاب هوبز ، « لواياثان (٥٩) » . يقول أوبرى « كان هناك تقرير (صحيح يقينا) بأن بعض الأساقفة فى البرلمان قدموا اقتراحا باحراق الرجل الطيب العجوز بجريمة الهرطقة (٦٠) » . واعدم هوبز كل ما كان يمكن أن يورطه أو يدينه بعد ذلك من ابحاثه التى لم تنشر ، ثم كتب ثلاث محاورات حاول فيها أن يبرهن باسلوب العـــالم المتفقة على أن أية محكمة فى انجلترا لا تستطيع أن تحاكمه بتهمة الهرطقة .

وهبَّ الملك الذى استعاد عرشه لانقاذ الفيلسوف . ذلك أن شارل الثانى بعد وصوله الى لندن بزمن قصير ، رأى هوبز فى الشارع ، وعرف فيه معلمه السابق ، ورحب به فى البلاط . وكان بلاط عودة الملكية ينزع بالفعل الى شيء من التشكك الدينى ويدافع عن الملكيـــة المطلقة ، ومن ثم وجد فى فلسفة هوبز بعض العناصر التى تتمشى مع الأفكار السائدة فى هذا البلاط . ولكن رأسه الأصلع وشـــعره الأشيب وزيه الشبيه بزى البيوريتانيين ، كل أولئك كان مدعاة للســـخرية . وأطلق عليه الملك شارل نفسه اسم الدب ، وكلما اقترب منـــه قال : « ها قد جاء الدب لنقدم له الطعـــم ونغـــويه (٦١) » . ومع ذلك استساغ الملك اجاباته البارعة وسرعة بديهته ، وأمر برسم صـــــورة الفيلسوف العجوز ، وتعليقها فى حجراته الخاصة ، وخصص له معاشا

سنويا قدره مائة جنيه ، ولم يكن الراتب يدفع بانتظام ، ولكنه مع ذلك ، بالاضافة الى خمسين جنيها أخرى فى السنة من أسرة كافندش، كان كافيا لسد حاجيات الفيلسوف البسيطة .

ويصف أوبرى بانه كان عليلا فى شبابه ، موفور الصحة نشيطا فى شيخوخته ، ومارس لعب التنس حتى بلغ الخامسة والسبعين . فاذا لم يتيسر ملعب التنس ، عمد الى المشي لفترة طويلة فى خفة وسرعة ، حتى « يتصبب منه العرق ، وعندئذ ينقد الخادم بعض النقود ليدلكه » . وكان معتدلا فى أكله وشربه ، وامتنع عن أكل اللحم وشرب الخمر بعد السبعين . وكان يفاخر بانه « كان قد افرط فى حياته مائة مرة » ولكن أوبرى حسب أن هذا الافراط لم يحدث لأكثر من مرة فى كل عام ، ولذلك لم يكن شيئا فظيعا . ولم يتزوج الفيلسوف قط ، ولكن يبدو أنه كان له ابنة غير شرعية وفر لها سبل العيش الكريم بسخاء (٦٢) . وكان يقرأ قليلا فى سنيه الأخيرة ، « وتعود أن يقول انه اذا كان قد قرأ قدر الآخرون لما عرف أكثر مما عرفوا » . وفى الليل عندما كان يأوى الى الفراش ، والأبواب موصدة ، وهو واثق أن احدا لا يسمعه ، كان يغنى بصوت عال (لا لأن صوته رخيم ولكن من اجل صحته) ، حيث اعتقد بأن الغناء يفيد رئيته ويؤدى الى اطالة العمر (٦٣) . ومهما يكن من أمر ، فانه أصيب منذ ١٦٥٠ بشلل ارتجافى فى يديه ، واشتدت به هذه العلة حتى كادت كتابته فى ١٦٦٦ أن تكون غير مقروءة .

وعلى الرغم من هذا استمر هوبز يكتب . وتحول من الفلسفة الى الرياضيات ، وهنا انزلق فى غير ما حرص ولا حذر ، الى خلاف مع عالم خبير هو جون واليس الذى انتقص من قيمة ادعاء الرجل العجوز بانه كشف تربيع الدائرة . وفى ١٦٧٠ ، وهو فى الثانية بعد الثمانين نشر كتابه « بهيموث » وهو عبارة عن تاريخ الحرب الأهلية فى انجلترا ، كما كتب عدة ردود على ناقديه ، وترجم الى اللاتينية كتابه « لواياثان » ترجمة رائعة . وفى ١٦٧٥ كتب سيرة حياته نظما باللاتينية ، كما نظم فى نفس العام الالياذة والأوديسية شعرا بالانجليزية ، حيث « لم أجد عملا أؤديه أفضل من هذا » .

وفى تلك السنة ، حيث بلغ السابعة والثمانين ، عاد من لندن

الى الريف حيث قضي بقية أيام حياته فى ضيعة آل كافندشي فى دربيشير . وفى تلك الاثناء اشتد عليه الشلل ، كما عانى من عسر البول . ولما انتقل ارل كافندشي آنذاك من تساتسورت الى هاردويك هول أصر هوبز على مرافقته . وثبت أن الرحلة مرهقة ، وبعدها باسبوع انتشر الشلل فى جسمه ولم يعد قادرا على الكلام . وفى ٤ ديسمبر ١٦٧٩ فاضت روحه بعد أن تناول الأسرار المقدسة ، انجليكانيا مخلصا ، وقد بلغ من العمر اثنين وتسعين عاما الا اربعة اشهر .

٦ - النتائج :

كان علم النفس الذى جاء به هوبز رائعة من روائع الاستنتاج من مقدمات غير وافية ، وقد يبدو منطقيا لأول وهلة ، ولكنه مفكك الأوصال مهلهل بما فيه من فروض غير دقيقة وبما صوب منها مزيد من التحقيق والتمحيص والحتمية منطقية ، ولكن قد يحددها طراز منطقنا ، ويشكلها معالجتنا للاشياء لا الافكار . ووجد هوبز مشقة فى ان يتصور أن أى شيء غير مادى ، ويبدو أنه من الصعب بنفس القدر أن نتصور أن الفكر والشعور ماديان ، ومع ذلك فان هذه هى الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر - وكل ما عداها فرضيات . وانتقل هوبز من الشيء المدرك بالحواس الى الاحساس الى الفكرة دون أن يلقى ضوءا كافيا أو يوضح تماما العملية الخفية التى يولد بها الشيء المادى ظاهريا الفكر غير المادى ظاهريا . ان علم النفس الميكانيكى يترنح أمام الوعى .

وعلى الرغم من ذلك فانه فى مجال علم النفس أسهم هوبز أكثر ما أسهم فى تراثنا . فقضي على « الأرواح » الميتافيزيقية مثل «الملكات» التى جاءت بها المذاهب السكولاسية (مذاهب العصور الوسطى) ولو أن هذه يمكن على الفور تفسيرها ، لا على أنها كيانات عقلية . بل مظاهر للنشاط العقلى . وارسي قواعد المبادىء الأكثر وضوحا فى تداعى المعانى والخواطر ، ولكنه انتقص من قيمة الفرض والانتباه فى تحديد انتقاء الافكار وتسلسلها وتشبثها . وأورد وصفا ناجحا للتروى والاختيار . وكان تحليله للانفعالات ودفاعه عنها خلاصة رائعة ، ردت

الى سبينوزا الفضل التى كانت مدينة به لديكارت . وبفضل أبحاث علم النفس هذه ، طور لوك كتابه الأكثر دقة وتفصيلا « رسالة فى العقل البشرى » . وفى الرد على هوبز ، (لافلمر) ، كان تطوير لوك لرسالته عن الحكومة .

وأعادت فلسفة هوبز السياسية صياغة مكيافللى بلغة شارل الأول، ونبعث هذه الفلسفة من الاستبدادية المطلقة الموفقة التى انتهجها هنرى الثامن واليزابث فى انجلترا ، وهنرى الرابع وريشليو فى فرنسا ، كما أنه لا ريب فى أنها استمدت بعض القوة من مخالطته لأصدقائه الأدواق والملكيين المهاجرين . ومن حيث الاثر المباشر بدا أن لهذه الفلسفة ما يبررها ، فى العودة السعيدة لملك من آل ستيوارت ما زال يدعى ويطالب بسلطان مطلق غير محدود ، وينهى فترة من الفوضى المدمرة . ولكن بعض الانجليز النابهين أحسوا بأنه اذا كانت موافقة الهمجيين « القذرين المتوحشين » كافية لاقامة حكومة ، فانه موافقة الناس ، وهم فى حالة يفترض أنها أكثر تقدما ورقيا ، قد يكون من شانها أن تكبح جماح هذه الحكومة أو تطيح بها . وهكذا نجد فى الثورة الجليلة ١٦٨٨ أن فلسفة الحكم الاستبدادى المطلق سقطت أمام اعادة البرلمان توكيد سيادته ، وسرعان ما حل مكانها تحررية « ليبرالية » لوك التى تدعو الى تحديد السلطات والفصل بينها . وبعد ديمقراطية القرن التاسع عشر النسبية ، التى نمت فى انجلترا التى يحرسها القنال ، وفى أمريكا التى تحميها البحار ، عادت استبدادية مطلقة معدلة فى دول دكتاتورية تمارس رقابة حكومية على الحياة والممتلكات والصناعة والدين والتعليم والمطبوعات والفكر . وتخطت الاختراعات الجبال والخنادق ، واختفت الحدود ، وتلاشت العزلة القومية والامن القومى . ان نظام الحكم المطلق ابن الحرب ، والديمقراطية ترف السلم .

ولسنا ندرى هل كان « لحالة الطبيعة » التى قال بها هوبز ، وجود يوما ما ، فربما كان النظام الاجتماعى سابقا للانسان ، فالقبيلة سبقت الدولة ، والعرف أقدم وأوسع وأعمق من القانون . والاسرة هى أساس بيولوجى لا يثار ينمى الذات (الانا) وولاءاتها . وربما أصبح « علم الأخلاق » الذى جاء به هوبز أكثر ملاءمة لو أنه عمد الى تنشئة أسرة ، أما أن يترك للدولة تحديد الأخلاقيات (ولو أن هذا انتقل الى

النظم الدكتاتورية) فمعناه تدخير احدى القوى التى تعمل على تحسين الدولة والأخذ بيدها . ان الحس الخلقى يوسع فى بعض الاحيان دائرة التعاون أو الاخلاص والحب الشديد ، ثم يستحث القانون على توسيع مجال حمايته تبعا لذلك . وفى المستقبل البعيــد قد يتسنى لدولة أن تكون مسيحية ، كما كان الحال يوما مع أشوكا الذى كان بوذيا .

وبرز أقوى تأثير لفسلفة هوبز فى « ماديته » . وسرت « افكار هوبز » من الجماعات المفكرة الى طبقات المهنيين ورجال الاعمال . وفى هذا قال بنتلى الغضوب ١٦٩٣ « لقد زخرت بها الحانات والمقاهى بل وستمنستر هول (البرلمان) والكنائس ذاتهـــا كذلك (٦٤) » . وتقبلها كثير من رجال الحكومة فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم فى العلن حجبُوها باحترام أبدوه للكنيسة الرسمية على أنها شكل مفيـــد للانضباط الاجتماعى لا يقــوم على تدميره الا الحمقى والاغبيـــاء . واثرت هذه الفلسفة المادية فى فرنسا فى تشكك بيــل ، واتت عليهـــا تطورات أشد جرأة عند لامترى ودى هولباخ وديدرو .

وكان بيل بعد هوبز من أعظم عباقرة القرن السابع عشر (٦٥) . ومهما اصاب من مدح أو قدح فقد اعترفوا بانه اقوى فيلسوف انجبتـــه انجلترا منذ عهد بيكون ، وأول انجليزى يعرض بحثا منهجيا أساسيا فى النظرية السياسية . وانا لندين له بفضل واضح ، ذلك أنه صـــاغ فلسفته فى ترتيب منطقى وفى نثر مشرق . واننا اذ نقرأ هوبز وبيكون ولوك ، أو فونتفل وبل وفولتير لندرك من جديد ما أنسانا الالمان اياه ، من انه ليس من الضرورى ان يكون الغمـــوض هو العـــلامة المميزة للفيلسوف ، وانه يجدر بكل فن أن يتقبل الالتزام الأدبى الاخـــلاقى واضحا أو خامدا .

٢ ـ يوتوبيا هارنجتون :

فى الوقت الذى دافع فيه هوبز عن ملكية مزعجة موجعة ، اقترح جيمس هارنجتون يوتوبيا ديمقراطية ، والآن وقد كانت الكشـــوف الجغرافية والتجارة تفتح آفاقا سحيقة من الكرة الارضـــية ، وجاءت الأساطير الى أوربا مع كل بضاعة من وراء البحار ، فقد كان من اليسير

على أرباب الخيال والقلم أن يسبحوا فى الخيال الى ركن سعيد على الخريطة ـ الى القمـر أو الى الشـمس مثل سـيرانو دى برجراك وتوماسو كمبانللا ـ ركن قد تخزى أعرافه السياسية والاجتماعية طغيان الناس الذين تظلهم « المدنية » وبؤسهم . ان اعجاب عصر النهضـة بالقديم قد افسح المجال لقصص خيالية عن دول مثالية بشكل أو بآخر فى أراض بعيدة لم يعثورها فساد . وهكذا قدم هارنجتون فى ١٦٥٦ الى مقاهى لندن « الاقيانوسة » .

ولد هارنجتون فى بيت كريم ، وكان طبيعيا أن ينحاز الى فلسفة سياسية تناصر صغار مالكى الارض فى انجلترا . وبعد تخرجـه فى اكسفورد طاف بارجاء القارة ، واعجب بجمهـورية الأراضي الوطيئة ، وخدم فى جيشها ، وزار البندقية ، وتاثر بنظمها الجمهورية ، ورأى البابا وابى ان يقبل اصبع قدمه ، ولما عاد الى انجلترا اغتفرت له كل خطاياه حين ذكر لشارل الاول انه لم يستطع أن يفكر تقبيـل قدم أى سيد أجنبى بعد أن سبق له تقبيل يد ملك انجلترا . وعنـدما اعتقل شارل عين البرلمان هارنجتون لملازمته . فاحب السـجين البائس ، ولكنه أوضح له ان « الجمهورية » أمر مرغـوب فيـه . ولازمه حتى النهاية ، وكان على المنصة ساعة اعدام شارل ، ويقولون انه كاد يموت جزعا وحزنا (٦٦) . وهدأ من روعه مولد « الجمهورية الانجليزية »، فانصرف الى شرح آرائه الجمهورية فى شكل روائى . ولكن بينما كان هارنجتون يكتب ، غير كرومول الجمهورية الجديدة الى حماية شبه ملكية ، وحين كانت « دولة الأوقيانوسة » فى طريقها الى الطبع أمر « الحامى » بوقف العمل فيها . وهنا تدخلت ابنـة كرومول الأثيرة لديه ، السيدة كلايبول ، من أجل الكتاب ، واهداه المؤلف الى أبيها ، وخرج الى النور فى ١٦٥٦ .

ان « الأوقيانوسة » هى انجلترا بالشكل الذى كان المؤلف يامل من كرومول أن يعيد تشكيلها فيه . انه يضع مبدأ فصل تفصـيلا بعد قرنين من الزمان ليصبح التفسير الاقتصادى للتاريخ . ويقول هارنجتون بأن السيطرة السياسية تتبع ، بشكل طبيعى وبحـق ، السـيطرة الاقتصادية ، وبهذا الانسجام وحده يمكن لأية دولة أن تنعم بالاستقرار . « على قدر ما يكون التناسب فى ملكية الارض تكون طبيعة الامبراطورية

ـ أى الحكومة (٦٧) » . فاذا امتلك فرد واحد الارض كلها (كما هو الحال فى تركيا) كانت الحكومة ملكية مطلقة ، واذا امتلكت الارض أقلية لأصبحت الحكومة « ملكية مختلطة » تؤيدها كما تحد من سلطانها الارستقراطية . « واذا كان كل النـــاس ملاكا للأرض ، أو اذا وزعته الأرض بينهم ، بحيث لا يطغى فرد أو مجموعة افراد ، فان الامبراطورية أى الحكومة (دون فرض بالقوة) تكون دولة جمهورية (٦٨) » ورد هارنجتون على هوبز الذى ذهب الى أن كل الحكومات تستند الى القوة ، رد عليه بانه لابد من اطعام الجيوش وتسـليحها ، ومن ثم تنتقل السلطة الى أولئك الذين يوفرون المال اللازم لهذا وذاك (٦٩) . ان أى تغيير فى شكل الحكومة أو اتجاهها ، انما هو مجرد توافق بينـه وبين أى تغيير فى توزيع الملكية . وعلى هذا الاساس فسر هارنجتون انتصار البرلمان الطويل ، حيث كان يمثل صغار الملاك على الملك الذى كان يمثل كبارهم .

وللحيلولة دون أن تصبح الحكومة اوليجاركية من ذوى الضـياع الكبيرة ، اقترح هارنجتون قانونا « لاعادة توزيع الأراضي توزيعـا عادلا » يحدد للفرد الواحد أرضا لا تدر أكثر من ألفى جنيه فى العام. ان الديمقراطية الفعلية تتطلب التوسع فى توزيع الملكيـة ، وخير ديمقراطية هى التى يكون فيها لكل مالك أرض دورة عمل فى الحكومة وفى الجمهورية الانجليزية الحقة يمكن للمواطنين أن يرسـلوا ملاك الأراضي ليعملوا فى جمعية شعبية وسناتو (مجلس الشـيوخ) . والسناتو وحده يقترح القوانين ، والجمعية وحدها تقرها أو ترفضها . ويسمى أعضاء السناتو المرشحين للوظائف العامة ، وينتخب المواطنون من هذه القائمة الحكام بالاقتراع السرى (٧٠) . وفى كل عام يحـل محل ثلث اعضاء الجمعية والسناتو والحكام افراد آخرون فى انتخاب جديد . وفى هذه الدورة يتسنى لكل ملاك الارض أن يكون لهم فى النهاية دور للعمل فى الحكومة . ان هذا الانتخاب الشعبى يحمى المجتمع من المحامين الذين يخدمون المصالح الخاصـة ، ومن رجـال الدين ـ « وهم الاعداء السافرون الالداء لسلطة الشعب (٧١) » . ولسوف يكون هناك تعليم عام وشامل فى مدارس وكليات وطنية ، وحرية تامة مطلقة فى العقيدة الدينية .

« وكانت النظرية اخاذة جذابة جدا . « كما قال أوبرى . وسرعان ما وجدت مؤيدون متحمسين لها . وجمع هارنجتون بعضـــهم (ومن بينهم أوبرى) فى أحد نوادى « روتا » Rota (١٦٥٩) حيث أهاجوا الشعور العام للمطالبة بتشريع برلمانى يقر هذه الجمهورية الدورية التى اقترحها هارنجتون الذىنسب الانهيار الذى أصابالدولة آنذاك الى عجزها عن مصادرة الضياع الكبيرة واعادة توزيع الأرض على الناس بمساحات أصغر ، وكان هذا سببا فى احتفاظ النبلاء بقوتهم وسلطانهم . وبقـــاء الشعب على حاله من الفقر والضعف ، على أساس أن ملكية الارض هى التى تفرض الحكومة ، وأن عودة الملكية الاوليجاركية أمر لا مفر منـه اذا لم يقـر البرلـــان قانـــون « اعادة توزيع الاراضي » . ويقـــول أوبرى : « ولكن القسم الاكبر من رجال البرلمان كانوا يمقتون كل المقت مشروع « دورة العمل بالاقتراع العام » لانهم كانوا طغـــاة ملعونين مولعين بسلطتهم وقوتهم (٧٢) » ، وآثروا أن يستدعوا شارل الثانى . وحيث استمر هارنجتون بنشر دعوته ، حتى بعد عودة الملكية ، فان الملك أمر بايداعه برج لندن (السجن) بتهمة التآمر (١٦٦١) . ولما بذلت المساعى لاخلاء سبيله بمقتضي « التحقيق فى قانونيـــة حبس المتهم » ، نقلوه الى معتقل أكثر تضييقا واحكاما فى جزيرة بعيدة عن بليموث ، وهناك أصابته نوبات من الجنون . وأطلق سراحه ولكنـه لم يسترد صحته قط .

وكانت « اليوتوبيا » التى نادى بها هارنجتون عملية أكثر من معظم « المدن الفاضلة المثالية » ، وتحقق قدر كبير منها . وربما كانت احدى نقاط الضعف فيها انها افترضت أن الارض هى الشكل الوحيد للثروة . ان هارنجتون ذكر سلطان المال فى التجارة والصناعة ، ولكنه لم يتوقع أو لم يتنبأ بتبوئه السلطة السياسية ، وربما كان قد أحس بانه حتى الثروة التجارية والصناعية لابد خاضعة فى خاتمة المطاف لملاك الأرض . وكان التوسع فى حق الانتخاب وفى الاقتراع السرى يتفق مع آماله المرجوة ، وعلى الرغم من أن بريطانيا رفضـــت فكرته فى « دورة العمل والوظائف » ، على أنها تبديد سنوى للخبرة والتجربة فان الولايات المتحدة أخـــذت بها فى التجـــديد الدورى لجـــزء من الكونجرس الأمريكى ، ووافق لوك مونتسكيو وأمريكا على نظريته فى الفصل بين السلطات فى الحكومة . فلا تياسوا أيها الحالمون ، فلعـل

الزمان يفاحئكم بتحقيق احلامكم ويحول شعركم الى نثر ، أو وهمكم الى واقع ملموس .

٣ - الربوبيـــون :

وكما أضرت الحروب الدينية بالعقيدة الدينية فى فرنســا ، فان الحرب الأهلية فى انجلترا أسهمت فى اثارة الشكوك اللاهوتية . وأشاعت ذكريات الحكم البيوريتانى الزندقة والمروق عن الدين حتى بات أمــرا مالوفا بين الملكيين المنتصرين ، كما جعلت الالحاد يقترن بالمرح الصاخب والبذاءة فى بلاط الملكية العائدة . واشتبه فى الحــاد ارل شافتسبرى الأول ودوق بكنجهام الثانى وارل روشستر الثانى ، كما اشتبه فى الحاد هاليفاكس وبولينيروك بعد ذلك .

وأدى اتساع دائرة المعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية وانتشارها الى ارتفاع موجة التشكك . وفى كل يوم ، كان أحد الســائحين أو المؤرخين يطلع على الناس بانباء أمم عظيمة تختلف دياناتها وأخلاقها عن المسيحية بشكل مثير فظيع ، ولكنها عادة فاضلة مستقيمة مثلها . ويندر ان كانت نزاعة الى القتل متعطشة الى ســفك الدماء مثــل المسيحية . كما بدا أن النظرة الميكانيكية الى العالم التى رسمها ديكارت التقى الورع ، ونيوتن العالم البصير ، نقــول بدا أن هذه النظــرة تصرف النظر عن دور العناية الالهية » فى تسيير الكون ، وكان اكتشاف القانون فى الطبيعة يجعل من المعجزات أمرا غير مستساغ غير مقبول . واسهم الانتصار البطىء الذى أحرزه كوبرنيكس ، والمحاكمة المثيرة التى عانى منها جاليليو ، فى تزعزع الايمان وتقويض أركانه . بل ان المحاولة الجريئة التى قام بها كثير من رجــال اللاهــوت المسيحيين لشرح العقيدة على اساس من العقل ، أضعفت العقيدة . ويقول انطونى كولنز : لم يكن ثمة أحد يشك فى وجود الله ، حتى جاءت « محاضرات بويل » واخذت على عاتقها اثبات وجوده (٧٣) .

ان تفنيد الالحاد كان شاهدا على انتشــاره . وفى ١٦٧٢ كتب سيروليم تمبل « عن أولئك الذين يبدو انهم اذكياء لانهم يذكرون اشياء قالها الجاهل فى نفسه ، كما جاء على لسان داود(٧٤) » وفى نفس العام قال سير تشارلز ولزلى « ان المروق عن الدين كان أمرا واقعــة

في كل عصر ؛ ولكن يبدو أن الدفاع عنه صراحة وعلانية من خصائص هذا العصر (٧٥) » .

ويقول رئيس الشمامسة صمويل باركر ١٦٨١ :

.. .. .. ان الجهال وغير المتفقهين منا أصبحوا أكبر المتظاهرين بالتشكك والكفر ... واصبح الالحاد والمروق عن الدين فى النهـــاية شائعين شيوع الرذيلة والفسوق . وفلسف الأجلاف والميكانيكيون لأنفسهم مبادىء بعيدة عن التقوى ، وقرأوا دروسهم فى الالحاد على الناس فى الشوارع والطرقات العامة ، وانهم لقادرون على أن يستخلصوا من كتاب « لواياثان » أنه ليس هناك اله (٧٦) » .

وبين الطبقات المتعلمة التمس الشك حلا وسطا فى التوحيد ـ الدين الطبيعى ـ والربوبية . وارتاب التوحيديون فى المساواة بين المســيح والاب ، ولكنهم عادة ارتضوا الكتاب المقدس نصــوصا الهيـــه . وآثر المدافعون عن الدين الطبيعى عقيدة مستقلة عن الأسفار المقدسة ومحصورة فى المعتقدات التى رأوا أنها شاملة كلية ـ فى الله وفى الخلود . أمــا الربوبيون ، الذين قاموا بحركتهم أساسا فى انجلترا ، فانهم طالبوا فقط بالايمان بالله الذى اعتبره أحيانا مفهوما تجريديا غير مشخص ، مرادفا للطبيعة ، أو « الدافع الأصلى » لاله الدنيـــا التى قــال بهــا ديكارت ونيوتن . وبرزت لفظة « ربوبى » Deist فى ١٦٢٧ فى « رسالة الى ربوبى » لرئيس الشمامســـة ادوارد ستللنجفليت ، ولكن مطبـــوعات الربوبيين كانت قد بدأت بكتاب لورد هربرت شربرى « الحقيقة » فى ١٦٢٤ .

وتابع تشارلز بلونت ، احد مريدى لورد هربرت ، رســـالته فى كتاب « النفس البشرية » (١٦٧٩) . وكانت حجته أن كل ديانة أسست انما كانت من وخلق أو ابتداع دجالين افاكين سعوا الى السلطة السياسية أو الكسب المادى ، وأن الجنة والجحيم كانتا من بين المخترعات البارعة التى اصطنعوها للتحكم فى الأهالى واستغلالهم . ان الروح تموت مع الجسد . ان الانسان والحيوان متشابهان الى حد أنه « من رأى بعض الكتاب ان الانسان ليس الا قردا مصقولا » . وفى « عظمة ديانا الهة اهل افسوس » أو « منشأ الوثنية » (١٦٨٠) جعل بلونت من القساوســـة

أدوات فى أيدى الطبقات الغنية التى سمنت واكتنزت بفضل كدح الشعب الصابر وسذاجته . وفى دقـــة ماكرة مؤذية ترجـــم بلونت كتـــاب فيلوستراتوس « حياة أبوللنيوس أوف تيانا » ، وحدد أوجه الشبه بين المعجزات المنسوبة الى صانع الأعاجيب الوثنى والمعجزات المنسوبة الى المسيحيين ، وأوحى برفق الى التشكك فيها وعدم تصديقها جميعا على حد سواء . وفى « بيان موجز عن ديانة الربوبيين ـ (١٦٨٦) اقترح بلونت ديانة خالية من أية عبادة أو طقوس ، اللهم الا عبادة الله بحياة فاضلة قائمة على الأخلاق » . وفى « وحى العقل » (١٦٩٣) أوضح بلونت أن اللاهوت المسيحى قام أول الأمر على توقع خاطىء لانتهـــاء العالم فى وقت قريب أو مبكر ، وسخر من قصص الكتـــاب المقدس عن الخليقة ، ومن مولد حواء من ضلع أدم ، ومن الخطيئة الأصلية ، ومن ايقاف يشوع الشمس ، على أنها جميعا سخافات صبيانية . وأوما الى أن « الاعتقاد بأن أرضنا الحديثة (جسم مظلم تافه فى الكون ، أصغر شانا من النجوم الثابتة فى الحجم والمنزلة معا) هى قلب هذا الكون الشاسع الهائل وأعظم اجزائه سموا وحيوية ، انما هو اعتقاد غير منطقى وغير عقلانى ، يتعارض مع طبيعة الأشياء » . وحاول كتاب آخر غفل من اسم المؤلف ، منسوب الى بلونت بصفة غير مؤكدة ، عنوانه « معجزات لا خرق لقوانين الطبيعة (١٦٨٣) » ، حاول تفسير كثير من قصص المعجزات بانها افكار خاطئة راودت العقول البسـيطة عن الأسـباب والاحداث الطبيعية ، وأضاف الكتاب نفسه أن الكتاب المقدس انما كتب « ليثير مشاعر التقى والورع » ، لا ليعلم الفيزياء ، وينبغى تفسيره على هذا الأساس : « ان كل ما هو مناف للعقل ، وكل ما هو مناف للعقـــل سخيف يدعو الى السخرية وينبغى رفضة (٧٧) » على أن بلونت نفسه لم يعبد العقل الى النهاية ، اذا صدقنا ما يروى من أنه قتـــل نفســـه (١٦٩٣) لأن القانون الانجليزى لم يكن ليجيز له الزواج من أخت زوجته المتوفاة .

وتابع جون تولاند الحملة . وبحكم مولـده فى أيرلنـــده نشـــأ كاثوليكيا ، ولكنه ارتد الى البروتستانتية فى شبابه . ودرس فى جلاسجو وليدن وأكسفورد . وفى سن السادسة والعشرين اصدر كتابا غفلا من اسم المؤلف « المسيحية لاتكتنفها أسرار » (١٦٩٦) وصفه بأنه « رســالة

توضح أنه ليس فى الانجيل شيء ينافى العقل « أو يسمو فوق العقل » . ومذ تقبل بقبول حسن كتاب لوك الحديث « بحث فى العقل البشرى » حيث أثبت أن الاحساس هو أصل كل المعرفة ، فانه أى جون تولاند ، خرج منه بعقلانية متطرفة .

انا نعتقد أن « العقل » هو الأساس الوحيد لكل حقيقة يقينية ، ولا يستثنى من مجال بحث هذا العقل اى وحى أكثر مما تستثنى الظواهر العادية للطبيعة « .. .. .ان الاعتقاد بالوهية الاسفار المقدسة أو معنى اية قطعة فيها ، دون برهان عقلانى أو حجة دامغة قوية ، انما هو سذاجة أو سرعة تصديق جديرة باللوم ...ومن المألوف أن يميل بعض الناس الى سرعة التصديق عن جهل وعن عمد ، لكن الأكثر من هذا أن ما يتوقعون من نفع هو الذى يدفعهم الى سرعة التصديق (٧٨) .

وكان هذا بمثابة اعلان للحرب . ولكن تولاند فى سياق حديثة بعد ذلك رفع غصن الزيتون ، حيث أردف أن المبادىء المسيحية الأساسية عقلانية باستثناء تحول خبز القربان والخمر الى جسد المسيح ودمه . وعلى الرغم من ذلك لم يسكتوا على هذا التحدى ، فقد اجتمع كبار المحلفين فى مدلسكس ودبلن عبر بحر أيرلنده ليستنكروا الكتا ب، فأحرق بصفة رسمية أمام أبواب البرلمان الايرلندى ، وحكم على تولاند بالسجن ، ولكنه هرب الى انجلترا ، ولما عجز عن ايجاد عمل له فيها ، هاجر الى القارة . ولبعض الوقت لقى ترحيبا لدى صوفيا ناخبة هانوفر وابنتها صوفيا شارلوت ملكة بروسيا .

والى صوفيا شارلوت هذه وجه تولاند « رسائل الى سيرينا » (١٧١٤) . وفى احداها حاول أن يتعقب أصل عقيدة الخلود ونموها ، وكانت هذه احدى المحاولات الأولى فى التاريخ الطبيعى للمعتقدات الخارقة للطبيعة . وفى رسالة ثانية عارض تولاند الرأى القائل بأن المادة فى حد ذاتها جامدة لا حركة فيها ، وقال ان الحركة صفة أساسية للمادة ملازمة لها ، وليس ثمة جسم فى سكون مطلق . وكل الظواهر المدركة بالحواس ان هى الا حركات فى المادة ، بما فى

ذلك الافعال التى يأتيها الحيوان ، وقد يصدق هذا على الانسان كذلك (٧٩) . ومهما يكن من أمر فان تولاند عرض نفسه هنا للخطر، فان مثل هذه الافكار ينبغى الا تنشر علانيسة ، حيث يجب ترك الجمهور غير المتعلم على معتقداته التقليدية دون ازعاج أو تشويش ، باعتبار أن هذا وسيلة للسيطرة عليه أو التحكم فيه من الناحيتين السياسية والاجتماعية . ويجدر أن يكون التفكير الحر واجب الاقلية المتعلمة وامتيازا مقصورا عليها ، وينبغى الا يكون ثمة رقابة على هذه الاقلية « فلندع كل الناس يتحدثون بما يفكرون فيه كما يحلو لهم ، دون أو يوصموا بالعار أو يعاقبوا الا على ما يأتون من اعمال سيئة ضارة (٨٠) » . وظاهر أن تولاند هو الذى ابتكر مصطلحى « المفكر الحر » و « المؤمن بوحدة الوجود » (٨١) (القائل بان الله والطبيعة شيء واحد ، وأن الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر للذات الالهية) .

ويوحى بحثه « ابن الناصرة » (١٧١٨) بأن المسيح لم يكن يقصد الفصل بين اتباعه وبين اليهودية ، وأن المسيحيين اليهود الذين ظلوا يتبعون شريعة موسى كانوا يمثلون « الخطة الأصلية الحقة للمسيحية » وهناك رسالة صغيرة « الايمان بوحدة الوجود » شرح فيها مذهب وطقوس جمعية سرية وهمية . وربما كان تولاند عضوا فى Mother Grand Dlodge الماسونيين الاحرار التى أسست فى لندن ١٧١٧ . ان هذه الجمعية كما وصفها تولاند نبذت كل الوحى الخارق للطبيعة ، وقدمت دينا جديدا يتفق مع الفلسفة ، وقالت بالتماثل بين الله والكون ، واستبدلت بالقديسين فى التقويم المسيحى أبطال الحرية والفكر . وأجازت الجمعية لأعضائها القيام بالعبادات العامة المألوفة ما داموا ، عن طريق نفوذهم السياسي يستطيعون الحيلولة دون ان يكون التعصب أمرا مؤذيا ضاريا (٨٢) .

وزاول تولاند أعمالا مختلفة لفترات متقطعة ، وركن تولاند الى حياة الفقر والعوز ، لم ينقذه منها من الموت جوعا الا لورد مولزورث والفيلسوف شافتسبرى . واحتمل فى صبر وجلد حملات التفنيد التى شنت على كتبه (٥٤ مرة فى ستين عاما) . وزعم أن الفلسفة أسبغت

عليه « هدوءا تاما » ، وحررته من « فزع الموت (٨٣) • وفى سن الثانية والخمسين اصيب بداء عضال يستعصي البرء منه (١٧٢٢) وكتب بنفسه عبارة قصيرة ملؤها الزهو والفخر لتنقش على قبره :

هنا يرقد جون تولاند الذى ولد •• بالقرب من لندندرى •• •• نهل من مختلف الآداب والمعارف ، وكان ملما باكثر من عشر لغات ،وكان نصير الحق والمدافع عن الحرية، لم يربط نفسه بانسان، ولم يتملق اى انسان، ولم يحد تحت تاثير التهديد أو تحت ضغط البؤس والفاقة عن نهجه المرسوم الذى سار عليه حتى النهاية ، مضحيا بمصلحته فى سبيل السعى وراء الخير العام ، ان نفسه متحدة مع الاب الذى فى السماء الذى جاء منه فى البداية ، وليس ثمة أدنى شك انه سيحيا ثانية فى الخلود ، ومع ذلك فانه لن يكون هناك تولاند آخر •• •• لأن سائر الناس سوف يسترشدون بكتاباته (٨٤) •

وحمل أنطونى كولنز أمانة مذهب الربوبية بعد تولاند ، فى براعة وتواضع أكثر • وكان خير عون له فى مهمتـــه انه كان ثريا ، وأن له بيتا فى الريف وآخر فى المدينة ، فلم يكن لينبذ لأنه معدم يتضـــور جوعا • وكان ذا سلوك قويم ، وخلق ليس فيه مطعن • كتب اليه لوك الذى عرفه كل المعرفة : « ان حب الحق من أجل الحق وحـــده هو الجانب الأساسي فى الكمال الانسانى فى هـذه الدنيـــا ، ومنبت كل الفضائل ، واذا لم اكن مخطئا ، فانك جمعت منها قدر ما وجدته فى اى انسان (٨٥) » • ان كتـاب كولنز « بحث فى التفكير الحـــر » (١٧١٣) أحسن شرح للربوبية فى هذا العصر •

انه عرف التفكير الحر بانه « استخدام الفهم فى ايجـــاد معنى لأية قضية أيا كانت ، والتأمل فى طبيعة الدليل ، لها أو ضدها ، والحكم عليها وفقا لنقاط القوة أو الضعف الظاهرة فى الدليل » « وليس ثمة وسيلة أخرى للكشـــف عن الحقيقـة (٨٦) » • ان تبـــاين المذاهب والتفسيرات المتناقضة لنصوص الكتاب المقدس لتضطرنا الى قبول حكم العقل ، فلمن نحتكم بعده اذن ، اللهم الا ان نحتكم الى القـــوة ؟ • وكيف يتسنى الا عن طريق البينة والتأمل والاستنتاج ، أن نقـــرر اى

الأسفار فى الكتاب المقدس حجة موثوقة ، وايها يطرح جانبا على أنها مشكوك فى صحتها . وينقل كولنز عن أحد رجال الدين أن احصى ثلاثين الف قراءة مختلفة اقترحها العلماء لنصوص العهد الجديد (الانجيل) وحده . ويشير الى ريتشارد سيمون ونقده المتعلق بنصوص الأسفار المقدسة (٨٧) .

ويحاول كولنز ان يرد على الاعتراضات التي أثارها المحاذرون من الرجال ضد الفكر الحر : حيث ذهبوا الى أن معظم الناس لم يؤتوا القدرة على أن يفكروا تفكيرا حرا لا يضر ولا يؤذى فى أمهات المسائل الأساسية ، وان مثل هذه الحرية قد تؤدى الى انقسامات لا نهاية لها فى الرأى وفى الشيع والمذاهب ، ومن ثم تؤدى الى الخلل والاضطراب فى المجتمع ، وان حرية التفكير قد تفضي الى الالحاد فى الدين والفجور والخلاعة فى الخلق . ويضرب كولنز اليونان القديمة وتركيا الحديثة مثلا للنظام الاجتماعى الذى يحتفظان به على الرغم من حرية الرأى واختلاف الأديان . وينكر أن حرية الفكر تؤدى الى الالحاد . ويقتبس عن بيكون قوله المأثور بان الفكر الضيق ينزع بنا الى الالحاد ، وبأن التفكير الواسع يصرفنا عنه ، ويؤيد كولنز حكمة بيكون ، ثم يضيف فى اخلاص واضح ، أن الجهل « هو أساس الالحاد ، والتفكير الحر هو علاجه (٨٨) » . ويعدد المفكرين الأحرار الذين كانوا « أفضل الناس فى كل العصور » : سقراط ، أفلاطون ، أرسطو ، ابيقور ، بلوتارك ، فارو ، كاتو الوقيب ، كاتو أوتيكا ، شيشرون ، سنكا ، سليمان ، الرسل ، أوريجن ارازمز ، مونتانى ، بيكون ، هوبز ، ملتون ، تللوستون ، ولوك . وهنا وعند تولاند ايضا ، نجد نموذجا لقائمة أوجست كونت عن أعلام مذهب الوضعية ، ويرى كولنز أنه فى الامكان وضع قائمة اخرى تضم أعداء الأفكار الحرة الذين جلبوا الخزى والعار على الانسانية بقساواتهم الوحشية بحجة تمجيد الله .

وانبرت له المنابر والجامعات وأمطرته وابلا من الردود ، وقالت ان كولنز راى أن التعقل يتطلب الترحال . انه ربما تاثر اثناء اقامته فى هولنده بآراء سبينوزا وبيل ، ولدى عودته الى انجلترا أثار عاصفة اخرى بكتابه « بحث فى الحرية الانسانية » (١٧١٥) الذى بسط فيه ببيان قوى واضح موضوع « الجبرية » أو الايمان بالقضاء والقدر ،

حيث وجد كولنز نفسه مفكرا حرا عبدا لارادة غير حرة . وبعد ذلك بقسع سنين أثار جو اللاهوت برسالته « بحث فى أسس الدين المسيحى وتفسيره » . واقتبس عن الرسل وعن بسكال ما بنـــوا به شرحهـــم للمسيحية على نبوءات العهد القديم التى حققتها الشريعة الجديدة فيما يبدو ، وجادل فى أن هذه النبوءات لم تتضمن أية اشارة الى المسيحية والمسيح . ورد عليه خمسة وثلاثون من رجـــال اللاهــوت فى خمس وثلاثون رسالة . وكان الخلاف ما زال محتد ما حين وصل فولتير الى انجلترا ١٧٢٦ ، وطابت به نفسه فى عبث مزعج ، ونقله الى فرنسا حيث وجد طريقه الى « الاستنارة » المتشككة .

وواصل حركة الربوبية فى انجلترا وليم هويستون ، ماثيو تندال، توماس تشب وكونيرز مدلتون ، وانتقلت عن طريق بولنبرك والفيلسوف شافتسبرى الى جيبون وهيوم . ولم تعد مقبولة عند الطبقات الحاكمة مذ ارتابوا في انها تشجع الافكار الديمقراطية ، ولكن اثرهـا المباشر كان ملموسا فى تزعزع عابر فى العقيدة الدينية . وفى ١٧١١ رفع الى مجلس اللوردات تقرير رسمى عن هذا الموضوع . من المجلس الكنسي والانجيلى فى مقاطعة كنتربرى . ويصف التقرير سعة انتشـــار الكفر والدنس ، والشكوك فى الخلود ، والانتقاص من قدر القساوسة عـلى انهم دجالون (٨٩) . وفى مطلع القرن الثامن عشر فى انجلترا « هبط الدين الى الربوبية (٩٠) » ، وهنا فى هذه الأزمة هب نفر من ذوى العقول الجبارة فى بريطانيا فى قوة ونشاط للدفاع عن المسيحية .

٤ ـ المدافعون عن العقيدة :

كان معظم هؤلاء المدافعين مسـتعدين لمواجهـــة مهاجميهم على أساس من العقل والعلم والتاريخ ، وقد كشف هذا فى حد ذاته عن روح العصر .

وقاد تشارلز لزلى الدفاع برسالته « منهـج قصـــير ســـهل مع الربوبيين » (١٦٩٧) قصد به فى الاصل أن يكون ردا على بلونت . وحاول أن يدلل على أن شواهد صحة قصص الكتاب المقدس هى من نفس طبيعة الشواهد على اعمال الاسكندر وقيصر ، وانها مقنعة مثلها تماما . كما أن المعجزات تبثت ببينات كثيرة موثوقة يعتد بها ، قدر

ما تغتبره المحاكم الانجليزية أدلة كافية ، وما كان الكهنة ليقنعوا الناس بمعجزات مثل « انشقاق ماء البحر الاحمر » لو لم يؤيدهم فى ذلك كثير من شهود العيان . وانهى لزلى بحثه بتصوير اليهودية بانها ميثاق بدائى نسخه ظهور المسيح ، والوثنية بانها مجمـــوعة من الخرافـات الصبيانية الى حد لا يقبله العقل . والمسيحية وحدها هى التى صمدت أمام البينات والعقل ×.

أما صمويل كلارك الذى ألم بقدر كبير من الرياضيات والفيزياء ، يكفى للدفاع عن نيوتن ضد ليبتز ، فانه أخذ على عاتقه اثبات الدين المسيحى ببراهين فى دقة الهندسة وقساوتها . وفى محاضرات بويل للدفاع عن المسيحية فى ١٧٠٤ ، صـاغ كلارك سلسلة من اثنتى عشرة قضية تثبت ، فى تقديره ، وجود الله فى كل زمان ومكان ، وأنه قدير عليم كريم . وأن سلسلة الكائنات والأسباب المحتملة أو المعتمـدة على غيرها لتفرض علينا أن نعتبر أمرا مفروغا منه وجود كائن مستقل لا غنى عنه هو السبب الأول لكل الأسباب . ولا بد أن يكون الله متحليا بالذكاء لأن الذكاء من صفات المخلوقات ، وأن يكون الخالق أعظم كمالا من المخلوق ، ولا بد ان يكون الله حرا ، والا كان ذكاؤه عبودية لا معنى لها . كل هذا بطبيعة الحال ، لم يضف جديدا الى الفلسفة القديمة أو فلسفة العصور الوسطى . ولكن فى السلسلة الثانيـــة من محاضراته ، عرض كلارك أن يثبت « صدق الوحى المسيحى وانه حقيقـــة لا ريب فيها » . فقال بان المبادىء الاخلاقية مطلقة مثل قوانين الطبيعة ، وأن طبيعة الانسان المنحرفة يمكن على اية حـال توجيههـــا الى الامتثال لقواعد الأخلاق عن طريق واحد هو غرس المعتقدات الدينية ، ومن ثم كان لزاما أن ينزل الله علينا الكتاب المقدس وفكرة الجنـــة والنار . ويضيف التاريخ ، بسخريته المالوفة أن الملكة آن فصلت كلارك ، وكان الكاهن الخاص لها ، بتهمة ارتيابه فى التثليث . وفى العهـد التالى لحكم آن ، كما يقول الشيطان الماكر فولتير ، حيل بين كلارك وبين الوصول الى منصب رئيس أساقفة كنتربرى لأن احد الأساقفة وشي به عند الأميرة كارولين ، حين قال بأن كلارك أعلم الرجـــال فى انجلترا ، ولكن به عيبا واحدا ، ذلك أنه غير مسيحى (٩١) .

× هنا تعرض المؤلف للاسلام بما آثرنا حذفه .

وكان بنتلى الأوسع علما قد أوضح بالفعل « حماقة الالحاد وبعده عن التعقل » فى « محاضرات بويل » ١٦٩٢/١٦٩٣ . وبعد ذلك بعشرين عاما اثاره كتاب كولنز فاصدر « بعض ملاحظات على البحث الاخير فى حرية التفكير » . وتضمن هذا الكاب بالدرجة الأولى عرضا لأخطاء فى بحث كولنز . وبدت الحجة دامغة والجدل عنيفا ، وقرر مجلس جامعة كمبردج بالاجماع تقديم الشكر الى بنتلى . ورأى جوناثان سويفت الذى كان آنذاك ملتحقا بخدمة بولنبروك وهو « ربوبى » ، أن كولنز يستحق مزيدا من العقاب لأنه كشف سرا يحتفظ به كل افاضل الرجال لانفسهم ووقع عليه هذا العقاب فى مقال بعنوان « بحث مستر كولنز فى حرية التفكير بسط فى لغة انجليزية سهلة ... ليستخدمه الفقراء » وسخر من الحجج التى ساقها كولنز فى مبالغات فكاهية . وأضاف قوله : حيث أن معظم الناس حمقى أغبياء فانه لما يجلب الكوارث أن نتركهم احرارا فى التفكير ، « ان معظم بنى الانسان مؤهلون للطيران قدر أهليتهم للتفكير (٩٢) » - وتلك عملية متوقعة فى أيامنا هذه أكثر مما كان يقصد سويفت . واتفق مع هوبز فى أن الدكتاتورية حتى فى الروحانيات هى البديل الوحيد عن الفوضى . وقد رأينا ان الانجليكانيين الأيرلنديين ذهبوا الى أن الكاهن العابس المكتئب يمكن أن يكون مطرانا ممتازا اذا آمن بالله .

اما افلاطنيو كمبردج فقد دافعوا عن المسيحية باسلوب اقل براعة وأشد اخلاصا . انهم ارتدوا الى افلاطون وفلوطين يلتمسون جسرا بين العقل وبين الله ، ولم يستعينوا على ايضاح ايمانهم والتعبير عنه بالحجج والجدل قدر استعانتهم بالنزاهة والتقوى فى حياتهم . وغمرهم احساس قوى بالفضيلة والقدسية فى أسمى مراتبهما ، حتى بدا هذا لهم أبلغ دليل واقربه على العقل . ومن ثم زعم أول زعمائهم بنجامين هوتشكوت « أن العقل صوت الله (٩٣) » .

ذهب هنرى مور العضو البارز فى هذه الجماعة التى ذاع صيتها حينا ، الى ما وراء فلسفات اوربا ، الى فكرة هندية تقريبا عن الفراغ ، أو التفاهة الواقعية للمعرفة الحسية ، وعدم قدرتها على اشباع تطلع النفس المنفردة المنعزلة الى بعض الرفقة أو المغزى فى الكون . ولم يرتح هنرى مور الى ميكانيكية الكون التى قال بها ديكارت . ولكن

أشبعت حاجته الأفلاطونية الحديثة والمتصوفون اليهود وجاكوب بوم . وتساءل « هل معرفة الأشياء هى حقا اسمى مصدر لسعادة الانسان ، أى شيء آخر أعظم وأقدس ، أو اذا افترضنا أنه كذلك ، فهل تلتمس السعادة فى التلهف و الاقبال على قراءة الكتب ، أو التامل وامعـــان النظر فى الأشياء ، أو فى تطهير العقــل من كل ألوان الرذيلة . أيا كانت (٩٤) » . وعقد العزم على تطهير نفسه من كل أنانية أو انشغال بأمور الدنيا ، أو فضول عقلى . « فلما خمدت عندى هكذا هذه الرغبة الجامحة فى معرفة الأشياء ، ولم تتق نفسي الا الى هذه الطهارة والبساطة فى العقل وحدهما ، اشرقت كل يوم بين جوانحى ثقة اعظم مما توقعت يوما ما ، حتى فى الأشياء التى كنت أرغب أشد الرغبة فى معرفتها من قبل (٩٥) » . ويقول هنرى مور انه مذ طهر نفسه جسما وروحا بهذا الشكل ، فقد فاحت من جسمه فى فصل الربيع رائحة زكية ، وان البول عنده كان له عبير البنفسج (٩٦) .

ومذ تطهر هنرى على هذا النحو ، فقد بدا انه يحس بحقيقة الروح فى نفسه على أنها أعظم اختبار ممكن اقناعا للانسان ، ومن هذا الاقتناع انتقل على الفور الى الاعتقاد بأن العالم معمور بأرواح أخرى على درجات تصاعدية ، من أدناها الى الله سبحانه وتعالى . وذهب الى أن كل الحركة فى المادة هى من عمل نوع من الأرواح . وبدلا من الحيز المادى الذى قال به هوبز ، جاء هنرى مور بكون روحانى ليست المادة فيه الا وسيلة وأداة للروح . وانتشرت بين آن وآخر هذه « الروح » المفعمة بالحيوية فيمـــا وراء مستقرها ، والا كيف يمكن بغير هذا تفسير المغناطيسية والكهـــرباء والجاذبية ؟ وتابع مور بحثه ، وارتضى فكرة وجود الشياطين والسحرة والأشباح . وكان رجلا لطيفا غير أنانى ، رفض كل المناصب الرفيعـــة الدنيوية التى عرضت عليه ، وظل على علاقته الودية بهوبز الذى يدين بالمادية ، والذى قال انه اذا وجد يوما أن آراءه الخاصة يتعذر الدفاع عنها فانه « لا بد أن يعتنق فلسفة الدكتور مور (٩٧) » .

أما رالف كودورث ، أعلم الأفلاطونيين فى كمبردج ، فانه أخذ على عاتقه إن يثبت أن آراء هوبز هشة يسهل دحضها . إن رسالة « الجهـــاز العقلى الحقيقى للكون » (١٣٧٨) تحدث هوبز أن يفسر لماذا ، بالاضافة الى مختلف الحركات الحسية والعضلية التى اختزل اليها كل عمليـــات

الذهن ، هناك ايضا ، فى احوال كثيرة ، ادراك لهذه الحركات ، وكيف تجد اية فلسفة مادية مجالا او وظيفة للوعى او الشعور ؟ واذا كان كل شيء مادة متحركة ، فلماذا لا يخدم الجهاز العصبى كل شيء عن طريق الاحساس والاستجابة ، كما هو الحال فى الافعال المنعكسة اللا ارادية ، ولا يزعجه الشعور الزائد او غير الضرورى ؟ كيف يمكن أن ننكر حقيقة الشعور وواقعه ـ بل أولويته واهميته ـ وهو الذى لا يتسنى بدونه معــرفة أية حقيقة كانت ؟ ليست المعرفة وعاء سلبيا غير فعال للاحاسيس ، انها تحول نشيط فعال للاحاسيس الى أفكار (٩٨) . وهنا فى كلام كودورث نرى انه يستبق بزمن طويل ، رد باكلى وكانت على هوبز وهيوم .

ولم يكن جوزيف جلانفيل ، كاهن شارل الثانى ، من الناحيــة الجغرافية ، واحدا من الافلاطونيين فى كمبردج ، ولكنه اتفق معهم اتفاقا قويا . وفى « غرور الدوجماتية » (التمسك برأى دون دليل كاف) ١٣٦٦١ الصق جوزيف جريمة الدوجماتية بالعلم والفلســفة ، محتجا بأنهما اقاما نظما تتسم بالتكلف والمبالغة الحمقاء لوضع النظريات والمبادىء ، على أسس مزعزعة غير آمنة . وعلى هذا فان فكرة العلة أو السبب (التى ظنها جلانفيل اساسية لا غنى عنها للعلوم) افتراض غير معقول ولا مبرر له . فنحن نعرف التعاقبات والعلاقات والمناسبات ، ولكن ليست لنا اية فكرة عما هو الحال فى شيء يحدث اثرا فى نفسه أو فى شيء آخر (هاجس آخر لهيوم) . ويقول جلانفيل : تصــور مدى جهلنا بالاشياء الاساسية جدا ـ طبيعة النفس ونشاتها ، وعلاقتها بالجسم « كيف يتحد الفكر مع كومه من الطين ؟ ان تجمد الكلمــات فى المناطق الشمالية ، وحدوث هذا الاتحاد العجيب ، أمران لا يمكن تخيلهما او تصديقهما ، سواء بسواء . ان تعليق بعض الاثقــال فى أجنحة الريح يبدو أمرا أيسر كثيرا ن يدركه العقل (٩٩) » . واستبق جلانفيل بيرجسون فى أنه يسم العقل بانه ذو بنية مادية الف التعامل مع المادة الى حد فقدان القدرة على التفكير فى حقائق اخرى الا « بالرجوع الى الصور المادية (١٠٠) » . الى اى حد نجد حواسنا عرضة للخطأ : انها تظهر الارض وكانما هى ساكنة فى الفضاء ، على حين يؤكد لنا العلماء المحدثون أنها مشوشة الذهن بمجموعة مختلفة من الحــركات المتزامنة . وحتي من افتراض ان حواســنا قد خدعتنا ، فما اكثــر

ما نخطىء فى الاستنتاج من مقدمات صحيحة . ان مشاعرنا تضللنا المرة بعد المرة . « وما اسهل ان نؤمن بما ترغب فيه » . وغالبا ما تسيطر بيئتنا العقلية على تفكيرنا :

> ان للافكار اجواءها وتنوعاتها الوطنية .. .. ان هؤلاء الذين لم يختلسوا النظر قط الى ما وراء المعتقدات العامة التى اشربتها أفهامهم البسيطة منذ البداية ، موقنون يقينا راسخا بصدق ما تلقوه وتفوقه نسبيا على غيره .... أما النفوس الكبيرة التى جاست خلال أجواء الفكر المختلفة (وهنا ولدت عبارة مشهورة) فانهم أشد حرصا وأكبر محاذرة فيما يتخذون من قرارات وأكثر اقتصادا وتريثا فى الفصل فى الامور (١٠١) .

وعلى الرغم من هذه التحذيرات للعلوم ، كان جلانفيل عضوا غيورا فى الجمعية الملكية ودافع عنها ضد اتهاماتها بالمروق عن الدين، وأثنى على منجزاتها ، وتطلع الى عالم زاخر بالاعاجيب يأتى به البحث العلمى :

> لا يخامرنى الشك فى أن أعقابنا سيجدون أشياء كثيرة هى الآن مجرد اشاعات قد تأكد لهم أنها حقائق عملية . وبعد عدة أجيال من الآن ، قد لا تبدو رحلة الى الاقاليم الجنوبية المجهولة ، لا بل الى القمر ، أشد غرابة من رحلة الى أمريكا . وسوف يكون أمرا عاديا لمن يأتون بعدنا أن يشتروا جناحين ليطيروا الى المناطق النائية مثلما نشترى اليوم حذاء عالى الساق للركوب فى رحلة . كما يكون التشاور مع اقاليم الانديز البعيدة بوسائل مريحة أمرا مألوفا للاجيال القادمة مثلما هو مألوف لدينا الآن أن نتبادل الرسائل الأدبية . ان اعادة الشعر الاشيب لليافعين وتجديد الحيوية المستنزفة قد يكون من الميسور على مر الزمن تحقيقهما دون معجزة ، كما أنه ليس من المستبعد فى زراعة المستقبل أن تتحول الأرض القفر الآن الى جنة (١٠٢) .

ويجدر بنا أن نضيف الى ما سبق أن جلانفيل ، مثل كودورث

وهنرى مور آمن بالسحرة . ان هؤلاء احتجوا بانه اذا كان هناك عالم روحى وعالم مادى سواء بسواء ، فلابد من وجود الارواح والأجسام فى الكون . وبناء على الخطر الكامن فى الاشياء فلا بد أن تكون بعض هذه الأرواح شيطانية شريرة . واذا كان الاتقياء الورعون يتصلون بالله أو القديسين او الملائكة ، فلماذا لا يتصل الاشرار بالشيطان وعفاريته ؟ وقال جلانفيل ان آخر خدعة للشيطان أن ينشر الاعتقاد بعدم وجوده . « ان هؤلاء الذين لا يتجرأون على القول بصراحة بانه لا يوجد اله ، يقنعون (كخطوة مقبولة أو نقطة بداية) بان ينكروا ان هناك أرواحا وسحرة (١٠٣) » ان الشيطان يجب انقاذه من أجل الله .

٥ - جون لوك : ١٦٣٢ - ١٧٠٤ :

١) سيرة حياته .

ولد أعظم فلاسفة العصر اثرا فى رنجتون بالقرب من برستول ، فى نفس العام الذى ولد فيه سبينوزا . ونشأ وترعرع فى انجلترا التى قامت فيها ثورة دامية وقتلت مليكها ، واصبح الصوت المنادى بثورة سلمية وعصر يسوده الاعتدال والتسامح ، ومثل التسوية الانجليزية فى أحكم صورة وأفضلها . كان ابوه محاميا بيوريتانيا ناصر مع شيء من التضحية قضية البرلمان ، وشرح لابنه نظريتى سيادة الشعب والحكومة النيابية ، وبقى لوك مخلصا لهذه الدروس مؤمنا بها ، شاكرا معترفا بفضل أبيه فى تعويده على الرصانة الدروس مؤمنا بها ، شاكرا معترفا ليدى ماشام عن والد لوك أنه : -

> سلك معه فى صغره نهجا تحدث عنه الابن فيما بعد فى استحسان بالغ . ذلك أنه كان قاسيا عليه بابقائه فى رعب شديد منه ، وعلى ابعد منه ، حين كان صبيا . ولكنه كان يخفف من هذه القسوة شيئا فشيئا حتى استوى جون رجلا ، آنس منه رشدا ومقدرة فعاش معه صديقا حميما (١٠٤) .

ولم يقر لوك لمعلميه بمثل هذا الفضل . وفى مدرسة وستمنستر

أرهق باللاتينية واليونانية والعبرية والعربية ، ومن الجـائز أنه لم يسمح له بشهود اعدام شارل الأول (١٦٤٩) فى ساحة قصر هويتهول القريب من المدرسة ، ولكن هذه الحادثة تركت أثرا فى فلسـفته . وعوقت اضطرابات الحرب الأهلية التحاقه بكلية كريست فى أكسفورد حتى بلغ العشرين من عمره . وهناك درس أرسطو مصوغا فى قوالب سكولاسية باللاتينية ، كما درس مزيدا من اليونانية ، وبعض الهندسة والبلاغة ، وكثيرا من المنطق وعلم الأخلاق ، لفظ معظمها فيما بعد ، على أنها عتقية مهجورة موضوعا . غير مستساغة ولا مقبولة شكلا . وبعد حصوله على درجة الماجستير (١٦٥٨) بقى بكليته باحثـا فى الدراسة العليا ، يدرس ويحاضر . ووقع لبعض الوقت فى غـرام « سلبنى عقلى (١٠٥) » ، ثم استرد عقله وخسر عشيقته . ولم يتزوج لوك قط ، مثله فى ذلك مثل كل فلاسفة هذا العصر تقريبا ـ ماليرانش، بل ، فونتنل ، هوبز ، سبينوزا ، ليبنتز . ونصحوه بالالتحاق باحدى وظائف الكنيسة ، ولكنه تردد وقال : « اذا رقيت الى مكان قد لا أستطيع أن أملأ فراغه فان الهبوط منه لن يكون الا سقوطا مروعـا يسـمع له دوى شديد (١٠٦) » .

وفى ١٦٦١ مات والده بالسـل ، تاركا له ثروة ضئيلة ورئتين ضعيفتين . ودرس الطب ولكنه لم يحصل على درجة فيه الا فى ١٦٧٤. وفى الوقت نفسه قرأ ديكارت ، وأحس بسحر الفلسفة حين تحدثت فى جلاء ووضوح . وساعد روبرت بويل فى تجاربه المعملية ، وملأه الاعجاب بالمنهج العلمى . وفى ١٦٦٧ تلقى دعوة للحضـور والاقامة فى قصر اكستر ليكون طبيبا خاصا لأنطونى آشيلى كوبر الذى سرعان ما أصبح ارل شافتسبرى الأول ، عضو الوزارة أيام شارل الثانى ، ومنـذ هذا التاريخ الى ما بعده ، وعلى الرغم من احتفاظه رسميا بمنصـبه فى أكسفورد حتى ١٦٨٣ ، وجد لوك نفسه غارقا فى خضـم السياسة الانجليزية حيث شكلت أحداثها ورجالاتها أفكاره .

وأنقذ لوك ، الطبيب ، حياة شافتسبرى حيث أجرى له عمليـة بارعة لاستئصال ورم خبيث (١٦٦٨) . وساعد فى المفاوضات لاتمام زواج ابن شافتسبرى ، وسهر على زوجة ابنه أثناء الوضـع ، وأشرف

على تعليم حفيده ، خليفته فى الفلسفة . ويذكر هذا الحفيد ، ارل شافتسبرى الثالث أن :

> مستر لوك حظى بتقدير كبير لدى جدى ، حتى أنه وقد عرف بالتجربة أنه عظيم فى الطب ، رأى أن هذا جانب صغير من جوانب عظمته ، وشجعه على الاتجـــاه بافكاره الى منحى آخر ، ولم يسمح له بمزاولة الطب الا فى أسرته أو من قبيل العطف أو الرحمة بصديق حميم . وهيـــأه لدراسة المسائل الدينية والمدنيـة التى تهم البــلاد ، وكل ما يتصل بمهمة الوزير فى الدولة . وقد أحرز فى هذا نجاحا كبيرا حدا بجدى الى أن يتخذ منه صديقا يساله المشـورة فى أية قضية من هذا النوع (١٠٧) .

ولمدة عامين (١٦٧٣ - ١٦٧٥) اشـــتغل لوك سكرتيرا لمجلس التجارة والزراعة (المستعمرات) الذى كان يراسه شافتسبرى . وساعده على وضع دستور لكارولينا التى اسســـها شافتسبرى وكان اكبر ملاك الأرض فيها . ولم تطبق هذه « النظم الاساسية » فى المستعمرة بصفة عامة ، ولكن حرية الضمير التى تضمنتها هذه النظم لقيت قبولا حسنا الى حد كبير لدى المستوطنين الجدد (١٠٨) .

ولما تخلى شافتسبرى عن مهامه السياسية ١٦٧٥ جال لوك ودرس فى فرنسا حيث التقى هناك بفرنسوا برنييه الذى اظهره على فلسفة جاسندى التى وجد فيها رفضا معقولا « للافكار الفطرية » وهى مقارنة عقل الطفل الذى لم يولد باللوح النظيف الخالى من اى شىء ، والجملة المأثورة التى نقلت فيما بعد عبر القنال الانجليزى : « ليس ثمة شىء موجود فى العقل الا كان موجودا أولا فى الحواس » .

وفى ١٦٧٩ عاد لوك الى انجلترا والى شافتسبرى ، ولكن الارل زج بنفسه أكثر فاكثر فى غمار الثورة ، فآوى لوك الى اكسفورد حيث استأنف الدرس والبحث . وأثار القبض على شافتسبرى وهــربه من السجن ثم فراره الى هولنده شبهات الملكيين حول أصدقائه . وانبث الجواسيس فى أكسفورد للقبض على لوك متلبسا بما يمكن أن يكون أساسا لتقديمه الى المحاكمة (١٠٩) . فلما أحس بالخطر وتنبأ باعتلاء

عدوه جيمس الثانى عرش انجلترا ، فانه كذلك لجأ الى هولنـــده (١٦٨٣) . على أن ثورة دوق مونموث القصيرة الأجـل التى ماتت فى مهدها (١٦٨١) استفزت الملك جيمس الثانى الى أن يطلب من الحكومة الهولندية تسليم خمسة وثمانين لاجئا انجليزيا بتهمة اشـــتراكهم فى المؤامرة لقلب عرش الملك الجديد . وكان من بينهم لوك ، فاختبأ واتخذ اسما زائفا . وبعد سنة أرسل اليه جيمس عرضا بالعفو عنه ولكنه آثر البقاء فى هولنده . وأقام فى أوترخت وأمستردام وروتردام ، حيث لم يستمتع بصداقة الانجليز اللاجئين فحسب ، بل سعد كذلك بصداقة العلماء الهولنديين مثل جين لى كُلرك وفيليب فان لمبورخ ، وكلاهمـا من زعماء اللاهوت الارمينى المتحرر . وفى هذا الوسط وجـــد لوك تشجيعا كبيرا لآرائه فى سيادة الشعب والحرية الدينية . وهناك كتب « بحث فى العقل الانسانى » ، والمسودات الأولى لأبحاثه فى التعليم والتسامح الدينى .

وفى ١٦٨٧ اشترك فى مؤامرة لاحلال وليم الثالث محل جيمس الثانى على عرش انجلترا (١١٠) . فلما نجحت حملة نائب الملك فى هذه المغامرة أبحر لوك الى انجلترا (١٦٨٩) على نفس السفينة التى أقلت الملكة المقبلة مارى (١١١) . وقبل مغادرة هولنده كتب باللاتينية الى لمبورخ رسالة تفيض بأحر العواطف ، مما يدحض أو يصحح ما ظن من أن اعتداله المألوف نبع من برودة طبعه :

> انى اذ أرحل عنكم ، أكاد أشـــعر أنى أفارق بلادى وعشيرتى واهلى فان كل شىء يتعلق بالقرابة والسنة الحسنة والحب والشفقة ـ كل ما يربط الناس بعضهم ببعض بوشائج قوى من رابطة الدم ـ وجدته بينكم موفورا . انى أترك ورائى أصدقاء لا سبيل الى نسيانهم ابدا . ولن أودع الرغبة فى سنوح الفرصة لأستمتع ثانية بالرفقة الحقة لأصدقاء ، لم أشعر وأنا بينهم بأى حنين أو غربة ، حين كنت بعيدا عن ارتباطاتى الخاصـــة ، واعانى من أشياء كثيرة ، أما انت يا أفضل الرجال وأعزهم وأنبلهم ، فانى حين أفكر فى علمك وحكمتك وشفقتك وصراحتك واخلاصك ورقتــك ودماثة خلقك ، يتضح لى أنى وجدت فى صـــداقتك أنت

وحدك ما يجعلنى أبتهج دوما لانى ارغمت على قضاء هذا العديد من السنين فى رحابك (١١٢) .

وفى انجلترا التى تولى فيها أصدقاء لوك مقاليد الحكم ، تقلد الفيلسوف عدة مناصب رسمية . ففى ١٦٩٠ كان مفوض الاستئناف ، وفيما بين ١٦٩٦ — ١٧٠٠ كان مفوض التجارة والزراعة ، وكان صديقا حميما لجون سومرز النائب العام ، وشارل مونتاجو ارل هاليفاكس الأول ، وايزاك نيوتن الذى ساعده لوك فى أصلاح العملة . وبعد ١٦٩١ قضي معظم وقته فى أوتس مور فى اسكس مع سير فرانسيس ماشام وقرينته ليدى داماريس ماشام احدى بنات رالف كودورث . وظل فى هذا الركن الهادىء يكتب وينقح ما كتب حتى وافته المنية .

٢) الحكومة والملكية :

كان لوك قد بلغ السادسة والخمسين من العمر حين عاد من منفاه، ولم يكن قد نشر سوى بعض مقالات قليلة الشان ، وخلاصة بالفرنسية « للمقال » فى المكتبة العالمية التى كان يصدرها لى كلرك (١٦٨٨) ولم يكن يعرف عن اشتغاله بالفلسفة الا نفر قليل من أصدقائه . وما هى الا سنة واحدة ، هى « سنة العجائب » حتى دفع الى المطبعة ثلاثة كتب سمت به الى مصاف الشخصيات البارزة الكبرى فى عالم الفكر فى أوربا . وظهرت « رسالة عن التسامح » فى مارس ١٦٨٩ ، فى هولنده، ثم ترجمت الى الانجليزية فى الخريف . واعقبها فى ١٦٩٠ « برسالة ثانية عن التسامح » . وفى فبراير ١٦٩٠ أصدر مقاليه عن « الحكم المدنى » ، وهما حجر الزاوية فى النظرية الحديثة للديمقراطية فى انجلترا وامريكا ، وبعد شهر واحد اخرج كتابه « بحث فى العقل الانسانى » ، وهو أعظم المؤلفات اثرا فى علم النفس الحديث . وعلى الرغم من اتمامه هذا الكتاب الاخير قبل مغادرته هولنده فانه عجل بطبع مقالى « الحكم المدنى » قبله ، لانه كان تواقا الى تزويد « الثورة الجليلة ١٦٨٨/١٦٨٩ بأساس فلسفى . وقد اثبت هذا الهدف صراحة فى مقدمة المقال الاول « لتثبيت عرش منقذنا العظيم مليكنا الحالى وليم الثالث ، وتدعيم حقه الشرعى أمام الناس .. .. وابراز عمل الشعب الانجليزى فى نظر العالم ، ذلك الشعب الذى انقذ حبه

لحقوقه الطبيعية العادلة وتصميمه على المحافظة عليها ، انقذ الامة التى كانت على شفا العبودية والدمار (١١٣) » .

وكان المقال الاول والاصغر ردا على « دفاع عن السلطة الطبيعية للملك » الذى كان سير روبرت فيلمر قد الفه حوالى ١٦٤٢ تدعيمـــا لحقوق شارل الالهية ، والذى لم يكن قد وصل الى المطبعة الا مؤخـــرا (١٦٨٠) فى ذروة حكم شارل الثانى المطلق المنتصر . ولم يكن هذا الكتاب أحسن ما دبج قلم سير روبرت ، فانه نشر فى ١٦٤٨ دون أن يذكر اسمه ، « فوضى الحكم المختلط المحدد » الذى اســتبق به آراء هوبز . وعلى الرغم من ايداع فيلمر السجن لدفاعه عن قضية خاسرة فانه دافع عنها ثانية فى « ملاحظات على كتاب السياسة لارسطو » الذى نشر غفلا من اسم المؤلف فى ١٦٥٢ ، قبل وفاته بعام واحد .

صور فيلمر الحكومة بانها امتداد للأسرة . واودع الله السيادة فى الأسرة الانسانية الأولى ، فى آدم الذى انحدر منه الآباء . وعلى أولئك الذين (مثل خصوم فيلمر) يؤمنون بان الكتاب المقدس منزل من عند الله ، أن يسلموا بان الأسرة الأبوية وسلطة الأب . أقرهمـــا الله . وانتقلت هذه السيادة من الآباء الى الملوك . وكان الملوك الأوائل آباء ، وكان سلطانهم شكلا من حكم الآباء ، مشتقا منه ، فالملكية اذن ترجـع الى آدم ، ومن ثم الى الله . وسيادة الملوك ، الا اذا أمروا بخـــرق صريح للقانون الالهى ، مقدسة مطلقة . والتمرد عليها خطيئة وجريمة فى وقت معا (١١٤) .

وعلى نقيض النظرية التى تقول بان الانسان ولد حرا ، يقـول فيلمر بأن الانسان ولد خاضعا لعادات الجماعة وقوانينها ، وللحقوق الطبيعية والشرعية للوالدين على أولادهم . « ان الحرية الطبيعية » خرافة رومانسية . وانها لخرافة أيضـــا أن الحكومة قامت برضا أفراد الشعب واتفاقهم . « والحكومة النيابية » خرافة أخرى . فالممثـــل لا يختاره الا اقلية ضئيلة نشيطة فى كل دائرة انتخابية (١١٥) . وكل حكومة هى من اغلبية عن طريق أقلية . ومن طبيعة الحكومة أن تكون فوق القانون . فللهيئة التشريعية ، بمقتضى تعريفها ، سلطة سن القوانين وتغييرها أو الغائها . « وانا لنخدع أنفسنا اذا راودنا الأمل يوما فى

أن تحكمنا سلطة غير استبدادية (١١٦) » واذا كان للحكومة أن تعتمد على ارادة المحكوميين ، فسرعان ما ينتهى الأمر الى عدم وجود حكومة البتة ، فان كل فرد او مجموعة افراد ستزعم لنفسها الحق فى العصيان والتمرد وفقا لما يميله « الضمير » . وتلك هى الفوضى أو حكم الرعاع». وليس هناك طغيان يمكن ان يقاس بطغيان الجماهير (١١٧) » .

وأحس لوك ان مهمته الأولى ، وهو المدافع عن الثورة الجليلة أن يدحض حجج فيلمر . وقال « انه لم يكن هناك يوما مثل هذ االهراء المرتجل دون ترو بمثل هذه الكثرة فى لغة انجليزية رنانة » كما جاء فى مقالات سير روبرت (١١٨) . ليس لى أن أتحدث بمثل هذه الصراحة عن رجل لم يعد يستطيع أن يرد » ، لو لم يعتنق المنبر فى السنين الخوالى علانية نظريته ويجعل منها عقيدة مقدسة رائجة فى هذا العصر » - يعنى لو لم يعتنق رجال الكنيسة الانجليكانية نظرية حقوق الملوك الالهية حتى فى عهد الملك الكاثوليكى جيمس الثانى ، وانتقل لوك ، فى تهكم هازل ، لاذع أحيانا ، ليعترض على أن فيلمر أرجع سلطة الملك الى ما افترض من سلطة آدم وآباء التوراه ، ولسنا فى حاجة الى تتبعه فى طول دحضه للكتاب المقدس . ونحن اليوم نبرر خلافاتنا السياسية بوسائل أخرى غير الأسفار المقدسة ان شيئا من تفكير فيلمر لا يزال باقيا بعد أن تناوله لوك بهذه الطريقة الخشنة - المحاولة مهما كانت خاطئة فى تفصيلها لالقاء الضوء على طبيعة الحكومة بالتماس اصولها فى التاريخ ، حتى فى البيولوجيا . ومن المحتمل ان فيلمر ولوك كليهما انتقصا من قدر الدور الذى لعبه الغزو والقوة فى اقامة الدول .

وفى المقال الثانى من « الحكم المدنى » تحول لوك الى مهمة البحث لحكم وليم الثالث فى انجلترا عن سند اقوى من الحق الالهى الذى يعيد لسوء الحظ السلطة الى جيمس الثانى . ان لوك حين اسند ارتقاء وليم العرش من رضا المحكوميين افترض أكثر مما استطاع اثباته بالتاريخ : ان الشعب لم يكن قد أعلن قبوله غزو وليم لانجلترا ، كما ان النبلاء أو أبناء الطبقة الارستقراطية الذين كانوا قد وضعوا الخطة لهذا الغزو لم يكونوا فكروا فى الحصول على موافقة الشعب ، ولم يفكروا الا فى تجنب مقاومته ، ومع ذلك فان لوك فى التماسه سندا من الفلسفة

لسلطة وليم ، أتى بدفاع مؤثر عن سيادة الشعب . وفى سبيل دفاعه عن الملك الحاكم بسط نظرية الحكومة النيابية ، وفى سياق عرضه الاساسي المنطقى لحركة الأحرار (الهويجز) والمدافعين عن حق التملك ، صاغ انجيل الحرية السياسية ، وانهى هيمنة هوبز على الفلسفة السياسية الانجليزية .

وحذا لوك حذو هوبز فى افتراض « حالة طبيعية » بدائية . قبل نشوء الدول . وشكل ـ مثل هوبز وفيلمر ـ التاريخ وفقا لأغراضه ولكنه على عكس هوبز ، تصور أن الأفراد فى « الحالة الطبيعية » كانوا أحرارا متساوين ، واستخدم هذه اللفظة ، كما استخدمها جفرسون حين نسج على منواله ، لتعنى انه ليس لأحد بالطبيعة « حقوق » أكثر مما لسواه ، وهو يبيح للانسان فى « الحالة الطبيعية » غرائز معينة بمثابة اعداد سيكولوجى للمجتمع ، ويأتى لوك أحيانا بافتراضات لطيفة « من حيث أن كل انسان حر بالطبيعة ، فليس فى امكان أى شيء أن يخضعه لأية سلطة دنيوية الا برضاه وموافقته ...(١١٩) » ولم يكن « الطور الطبيعى » فى هذه النظرية ـ كما صوره هوبز ـ حربا بين الناس بعضهم بعضا ، لأن « سنة أو قانون الطبيعة » أيد حقوقهم بوصفهم حيوانات عاقلة . وذهب لوك الى أنه بمقتضي العقل توصل الناس الى اتفاق « عقد اجتماعى » ، الواحد منهم مع الآخر تنازلوا فيه عن حقوقهم الفردية فى القضاء والعقاب ، لا للملك ، بل للجماعة ككل . وعلى هذا تكون الجماعة هى السيد أو الحاكم الحقيقى، وهى تختار باغلبية الأصوات رئيسا أعلى ينفذ مشيئتها (١٢٠) . ويمكن أن يسمى ملكا ، ولكنه ، مثل أى مواطن آخر ملتزم بطاعة القوانين التى تسنها الجماعة . فاذا سعى (مثل جيمس الثانى) الى خرقها أو المراوغة فى تطبيقها ، كان للجماعة الحق فى سحب السلطة التى منحتها اياه .

والحق أن لوك لم يكن يدافع عن وليم ضد جيمس ، بل عن البرلمان (المنتصر الآن) ضد أى ملك ، ان أعلى سلطة فى الدولة ينبغى أن تكون السلطة التشريعية ، التى يجب أن تختارها الأصوات الحرة غير المشتراة . ويجدر أن توقع القوانين أشد العقوبة على كل محاولة

لشراء اصوات المواطنين أو المشرعين . ولم يتنبأ لوك بأن وليم الثالث الذى اعجب الفيلسوف به قد يضطر الى شراء أصوات أعضاء البرلمان ، وأن الأسرات القوية قد تستمر لمائة وأربعين عاما بعده تتحكم فى أصوات « المدن الفاسدة القابلة للرشوة » أو تقرر مصيرها . وينبغى أن تكون السلطة التشريعية مستقلة تمام الاستقلال عن السلطة التنفيذية ، وأن يكون كل من جهازى الحكومة هذين رقيبا على الآخر .

ويقول لوك « ليس للحكومة من هدف الا صيانة الملكية (حق التملك) (١٢١) » لقد كانت هناك شيوعية بدائية ، حين نما الطعام دون زراعة ، واستطاع الانسان أن يعيش دون كد ولا كدح ، ولكن عندما بدأ العمل انتهت الشيوعية ، لأن الانسان أخذ لنفسه ، ملكا خاصا به ، أى شيء ذا قيمة أضفاها عليه جهده هو . فالعمل اذن هو مصدر « ٩٩ ٪ » من كل القيم المادية (١٢٢) . (وهنا قدم لوك للاشتراكية الحديثة على غير قصد منه اطلاقا ، احد مبادئها الاساسية) . ان المدنية تنمو عن طريق العمل ، ومن ثم عن طريق نظم الملكية بوصفها نتاج العمل . ومن الناحية النظرية ليس لانسان أن يمتلك أكثر مما يستطيع استخدامه (١٢٣) . ولكن اختراع النقود مكنه من بيع فائض نتاج عمله ، مما لم يستطع الانتفاع به ، وعن هذا الطريق ساد التفاوت الكبير أو عدم المساواة فى الملكية بين الناس — وربما كنا نتوقع ، عند هذه النقطة ، من لوك أن ينتقد تركيز الثروة ، ولكنه بدلا من ذلك نظر الى الملكية مهما كان سوء توزيعها ، على انها أمر طبيعى مقدس ، فاستمرار النظام الاجتماعى والمدنية يستلزم أن تكون حماية الملكية أسمى غرض للدولة . « وليس فى مقدور السلطة العليا أن تستولى على أى جزء من أملاك الانسان الا بموافقته ورضاه (١٢٤) » .

وعلى هذا الأساس لم يقر لوك أية ثورة تنطوى على التجريد من الملكية . ولكنه بوصفه نبى الثورة الجليلة وصوتها لم يستطع ان ينكر « الحق فى قلب الحكومة(١٢٥) » . ان الشعب فى حل من الطاعة اذا كان ثمة محاولات غير مشروعة للاعتداء على حرياته وممتلكاته ، « لأن » هدف الحكومة هو الصالح العام للبشر . وايهما افضل لبنى الانسان : تعرض الناس دائما للرغبة الجامحة فى الطغيان ، أو أن

يتعرض الحكام أحيانا للمقاومة اذا أسرفوا فى استخدام سلطتهم واستغلالها فى القضاء على ممتلكات الشعب ، لا فى المحافظة عليها (١٢٦) ؟ » وعلى حين أجاز بعض الهيجونوت والفلاسفة اليسوعيين الثورة لحماية الدين الحق الواحد ، نجد لوك لا يقرها الا لحماية الممتلكات . ان النزعة الدنيوية كانت تغير من مركز القداسة وتعريفها .

وظل تاثير لوك على الفكر السياسي مسيطرا حتى ظهور كارل ماركس . وكانت فلسفته عن الدولة ملائمة كل الملاءمة لحكم الأحرار (الهويجز) وللخلق الانجليزى الى حد تجاهل اخطائها طيلة قرن من الزمان باعتبارها هنات هينات فى عهد أعظم (مجنا كارتا) جليل الشان للبرجوازية . انها لم تضف هالة على ١٦٨٩ فحسب ، بل ، مع سبق مشهود ، كذلك على ١٧٧٦ و ١٧٨٩ - أعنى المراحل الثلاث لثورة العمل ضد المحتد . والمال ضد الأرض . ويسخر النقاد اليوم من لوك اشتقاقه للحكومة من رضا الأفراد الأحرار وموافقتهم فى الطور الطبيعى ، كما سخر هو من فيلمر اشتقاقه الحكومة من الآباء ومن آدم ومن الله . ان « الحقوق الطبيعية » مشبوهة ونظرية ، والحق الطبيعى الوحيد فى مجتمع ليس فيه قانون هو القوة المتفوقة ، كما هو حادث الآن بين الدول . أما فى المدنية فالحق هو الحرية التى يرغب فيها الفرد ولا تكون ضارة بالجماعة « وقد يوجد حكم الأغلبية فى الجماعات الصغيرة فى الأمور غير الحيوية » وتمارس الحكم عادة أقلية منظمة . والحكومات الآن تضطلع بالتزامات أكبر من مجرد حماية الملكية .

ومع ذلك فان تحقيق هذه الرسالة الثانية يظل انجازا عظيما . انه وسع من قيمة انتصار البرلمان و « الاحرار Whigs على « المحافظين » Tories ، حتى صاغ من هذا الانتصار نظرية الحكومة النيابية المسئولة . تلك النظرية التى الهبت مشاعر الشعوب الواحد منها بعد الآخر فى تسنمها مراقى الحرية . ونبذت انجلترا فكرة السلطات التى جاء بها لوك ، واخضعت الحكومة باسرها للسلطة التشريعية ، ولكن نظريته كانت تهدف الى الحد من قوة السلطة التنفيذية . وقد تحقق هذا الهدف تحقيقا كاملا . ان كثيرا من ثقته فى

حصافة الناس ولباقتهم ، واعتداله فى تطبيق النظرية على الممارسة أو العلم على العمل ، أصبح منهجا قياسيا ذا قيمة معترف بها فى السياسة الانجليزية ، جعل الثورة أمرا تدريجيا دقيقا لا يكاد يدرك ، بينما هى حقيقة واقعة .

وانتقلت آراء لوك من انجلترا الى فرنسا مع فولتير فى ١٧٢٩ ، واعتنقها مونتسكيو عند زيارته لانجلترا ١٧٢٩ / ١٧٣١ ، وكان لهـا صدى عند روسو وغيره قبل الثورة الفرنسية وفى أثنائهـا ، وبرزت بأجلى معانيها فى « اعلان حقوق الانسان » الذى أصدرته الجمعيـة التاسيسية ١٧٨٩ . وعندما ثار مستعمرو أمريكا فى وجه جورج الثالث حين استعاد قوة الملك وسلطانه ، نراهم اقتبسوا آراء لوك وصيغه بل ألفاظه تقريبا فى « اعلان الاستقلال » الذى أصدروه . كما أن الحقوق التى أثبتها لوك أصبحت « وثيقة الحقـوق » فى التنقيحات العشرة الأولى للدستور الأمريكى . أما نظريته فى فصل السلطات ، كما وسعها منتسكيو لتشمل السلطة القضائية ، فقد أصبحت عنصرا أسـاسيا فى شكل الحكومة الأمريكية ، كما أخذت عنايته البالغة بالملكية طريقها الى التشريع الأمريكى ، وأثرت مقالاته عن التسـامح فى الآباء المؤسسين فى فصل الكنيسة عن الدولة واقرار الحرية الدينية ويندر أن نجـد فى تاريخ الفلسفة السياسية رجلا بمفرده كان له مثل هذا الأثر الخـالد الباقى .

٣) الذهن والمادة :

كان تأثير لوك شاملا وعميقا فى علم النفس قدر تاثيره فى نظرية الحكم المدنى . وظل يكتب رسالته عن « العقل الانسانى » منذ ١٦٧٠ ويتميز هذا البحث بأنه دفع به الى المطبعة بعد عشرين عاما قضاها فى مراجعته وتنقيحه ، ثم تسلم عن هذه التحفة الرائعـة فى علم النفس التحليلى ثلاثين جنيها . ويعزو لوك نفسه مشروعه فى هذا البحث الى مناقشة جرت فى لندن ١٦٧٠ :

> اجتمع فى حجرتى خمسة أو ستة من الأصدقاء ، وكنا نناقش موضوعا بعيدا عن هذا كل البعد ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى مأزق نتيجة الصـعوبات التى اعترضتنا من كل النواحى ، وبعـد أن تملكتنا الحيرة لبعض الوقت دون

الوصول الى حل قريب لهذه الشكوك ... خطر ببالى اننا نهجنا نهجا خاطئا . واننا قبل ان نشرع فى التحقيق فى طبيعة هذا الموضوع ، كان لزاما علينا أن نختبر قدراتنا نحن ، ونرى أى « الموضوعات » تصلح ، أو لا تصلح أفهامنا لمعالجتها ، وعرضت هذا على الرفاق الذين وافقوا جميعا من فورهم ، ومن ثم اتفقنا على أن يكون هذا اول ما نبحث فيه . وكانت بعض الأفكار السريعة المهوشة التى عرضتها فى اجتماعنا التالى ، هى المدخل الأول لهذا المبحث(١٢٧) .

ومن الواضح أن الذى حفز لوك الى كتابة « مقال عن العقل الانسانى » هو الخلاف الذى نشب بين الأفلاطونيين فى كمبردج من الذين حذوا هنا حذو الفلاسفة السكولاسيين - فى اننا نستمد أفكارنا من الله ومن المثل الأخلاقية العليا ، لا من التجربة والخبرة ، بل من الاستبطان ، وأن هذه الأفكار فطرية أصيلة فينا ، وجزء من جهازنا العقلى ، مهما كنا غير واعين عند الولادة . وهذه الفكرة ، لا بيانات ديكارت الثانوية عن « الأفكار الفطرية » ، هى التى أدت بلوك الى النظرفى مسألة هل هناك أية أفكار لم تكن وليدة تأثيرات العالم الخارجى (١٢٨) . وخلص لوك الى القول بأن كل المعرفة بما فى ذلك أفكارنا عن الله وعن الصواب والخطأ مستمدة من الخبرة ، وليست جزءا من التركيب الفطرى للعقل . وعرف أنه فى محاولته للبرهنة على هذه النظرية التجريبية قد يسىء الى كثير من معاصريه الذين أحسوا بأن الأخلاق تتطلب مساندة الدين لها ، وأن الأخلاق والدين كليهما ينهار ويضعف اذا نبعت أفكارهما الأساسية من منبع أقل شرفا من الله سبحانه وتعالى . وطلب الى قرائه أن يتجملوا بشيء من الصبر معه ، أما هو من جانبه فقد كان قاب قوسين أو أدنى من منزلق المناقشة الخطيرة ، فى روح من الشك المتواضع . « أنا لا أزعم أنى ألقى درسا ، بل أنا أسأل (١٢٩) » . وفى ايجاز ، اعترف بأنه كان « كسولا مشغولا الى حد بالغ(١٣٠) » .

ولكنه على الأقل استطاع أن يحدد مصطلحاته ، وهو يعترض على « الغموض المتكلف عند بعض الفلاسفة (١٣١) » ان معرفتنا الدقيقة بما تدل عليه وتعنيه الفاظنا قد ينهى .. .. النزاع ... فى كثير من

الأحوال (١٣٢) » . وينبغى التسليم بأن مذهب لوك فى هذه النقطة يفضل ممارسته له . انه يعرف « العقل » بأنه « قوة الادراك الحسي »، ولكنه يستخدم الادراك الحسي ليشمل : (١) ادراك الأفكار فى عقولنا . (٢) وادراك معانى الألفاظ ، (٣) وادراك التوافق أو التنافر بين الأفكار (١٣٣) . ولكن ما هى الفكرة ؟ ان لوك يستخدم هذا الاصطلاح ليعنى : (١) تأثير الأشياء الخارجية على حواسنا (وهو ما يجب أن نسميه الاحساس) ، أو (٢) الوعى الداخلى بهذا التأثير (وهو ما يجب أن نسميه الادراك الحسي) ، أو (٣) صورة الفكرة أو الذكرى المتصلة بها (وهو ما يجب أن نسميه الفكرة) ، أو (٤) « الحركة التى تجمع صورا منفردة كثيرة لتكون مفهوما عاما أو مجردا أو شاملا لمجموعة من الأشياء المتشابهة . ان لوك لا يوضح دائما فى أى معنى يستخدم اصطلاحه المزعج × ».

لن لوك يبدأ بنبذ « المبادىء الفطرية » . ان هناك رأيا ثابتا لدى بعض الناس بأن هناك فى العقل بعض « مبادىء فطرية معينة ، أو بعض مفاهيم غامضة أولية مطبوعة فى ذهن الانسان تتلقاها النفس منذ بداية نشأتها ، وتأتى بها معها الى الدنيا » . ويأخذ فى ايضاح « بطلان هذه الفرضية (١٣٥) » . أنه لا ينكر « النزعات » الفطرية - التى سميت فيما بعد الانتحاء (النزعة الى الحركة استجابة لمنبه ما) أو الأفعال المنعكسة اللا ارادية أو الغرائز ، ولكن هذه فى رأيه عادات سيكولوجية ، وليست أفكارا . وحذا حذو هوبز فوصف مثل هذه العمليات بأنها « سلاسل من الحركات فى روح الحيوانات ، اذا انطلقت استمرت فى الخطوات التى اعتادت عليها ، والتى تصبح بعد كثرة ارتيادها طريقا ممهدا ، كما تصبح الحركة فيه سهلة ، وكأنها طبيعية » أو فطرية (١٣٦) .

× ان لوك - فى دراسته لذاتية الأفكار العامة أو المندرجة فى طائفة واحدة - يوضح أن اصطلاح « النوع » كما هو مطبق على الكائنات . هو تركيب عقلى ، وملاءمة عقلية ، وأن العالم الموضوعى لا يحتوى على أنواع مستقلة ، بل مجرد أفراد مستقلين ، تنحدر كلها « فى خطوات يسيرة ، وفى سلسلة مستمرة من الأشياء التى يختلف الواحد منها عن سائرها قليلا فى كل انتقال . حتى نأتى الى أحقر جزئيات المادة وأقلها حيوية .... والحدود أو الفوارق بين الأنواع ، والتى يصنفها الانسان بمقتضاها ، انما هى من صنع الانسان (١٣٤) » .

وهو يميل الى أن يوجز توارد الخواطر فى أنها طرق سيكولوجية . وكان ديكارت قد ذهب الى أن فكرة الله فطرية أصيلة فينا ، ولكن لوك ينكر هذا الرأى . فان بعض القبائل وجدت دون أن تكون لديها فكرة عدالة ، كما أن بعض الذين يعتنقونها تتباين لديهم المفاهيم أو الصور عن الآلهة الى حد يكون معه من الحكمة أن نرفض فكرة « نشوئها بالفطرة أو بالسليقة » ، وأن نبنى ايماننا بالله على « لآيات البينات على كمال حكمته وقدرته ... فيما خلق وأبدع (١٣٧) » - أعنى الخبرة . وبالمثل ليس هناك « مبادىء عملية فطرية » - ليس هناك مفاهيم فطرية عما هو صواب وما هو خطأ . فالتاريخ يوضح لنا مجموعة متباينة ، عظيمة إحيانا متناقضة أحيانا أخرى ، من الأحكام الخلقية ، مما لا يمكن معه اعتبارها جزءا من التراث الطبيعى للانسان ، بل هى تراث اجتماعى يختلف من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان (١٣٨) .

وبعد أن تخلى لوك عن « الأفكار الفطرية » جاء ليتساءل : كيف تولد أو تنشأ الأفكار ؟ « فلنفترض أن العقل (عند الولادة) ، كما يمكن أن يقال ، صفحة بيضاء خالية من أى رسم أو نقش ، ومن أية أفكار ، فكيف يتأتى تزويده ؟ .. .. وعلى هذا السؤال نجيب بكلمة واحدة ، من الخبرة ، وعليها تبنى كل المعرفة ، ومنها تستمد فى النهاية (١٣٩) » . فكل الأفكار مستمدة اما من الاحساس و الانعكاس على نتاج احساسنا . والأحاسيس كلها مادية ، ونتائجها العقلية هى الادراك الحسي ، وهو « أولى مواهب العقل » (١٤٠) .

ولم يجد لوك سببا للارتياب فى امكان حصولنا على معرفة حقيقيته صحيحة عن العالم الخارجى ، ولكنه قبل الرأى الذى استقر منذ أمد طويل ، ألا وهو التمييز بين الصفات الأولية والصفات الثانوية للأشياء المدركة . أما الصفات الأولية « وهى التى لا يمكن فصلها عن الجسم اطلاقا ، فى أية حالة مهما كانت » مثل : الصلابة ، الامتداد ، الشكل ، العدد ، والحركة أو السكون . أما الصفات الثانوية « فليست شيئا فى هذه الأشياء نفسها ، بل مجرد قوى تحدث فينا احساسات متعددة بصفاتها الأولية » . فالألوان والأصوات والطعوم والروائح صفات ثانوية تحدث فينا بكتلة هذه الأشياء وشكلها ونسيجها أو حركتها . أما الأشياء نفسها فليس لها لون ولا وزن ولا طعم ولا رائحة ولا صوت ولا حرارة . وكان هذا

التمييز قد ظهر منذ البرتوس ماجنوس وتوما الاكوينى (القرن ١٣) ، وقد قبله ديكارت وجاليليو وهوبز وبويل ونيوتن ، ولكن عرض لوك لفكرة التمييز هذه وتوكيده لها هيالها انتشارا واسعا من جديد . فقد تصور العلم الآن ان العالم الخارجى محايد صامت غير متحيز ، فقدت أزهاره وثماره عطرها ونكهتها . وربما هبط هذا المفهوم بالشعر الى الشعر المنثــور فى « العصر الأوجستى » ــ أوائل القرن الثامن عشر فى انجلترا ، عهد الملكة آن ، ولكنه اكتشف فى آخر الأمر أن الصفات المحسة حقيقة مثل الأجسام نفسها ، وثارت الرومانسية لنفسها من الكلاسيكية حيث جعلت المشاعر أسمى حقيقة .

وادى تحليل الشيء أو الجسم الى صفات ، على هذا النحو ، الى هذا السؤال : ما هو الجوهر الذى يبدو أن الصفات الأولية تلازمه باعتبـــارها جزءا منه ؟ واعترف لوك باننا لا نعرف من هذا الجوهر الخفى الغامض شيئا الا صفاته ، فاذا نزعت هذه الصفات فان الجوهر ــ أى الأساس الضمنى أو المفهوم ضمنا لهذه الصفات ــ يفقد كل معنى له ، وظاهرا أيضا انه يفقد وجوده (١٤١) . وهنا يتدخل باركلى : اذا كنا لا نعرف الا صفات الأشياء أو الأجسام ، ونعرف أن هذه الصفات هى مجرد افكار ، فكل الحقيقة اذن ادراك حسي ، وعند ئذ يصبح لوك ، بطل التجريبية العظيم ــ الخبرة هى مصدر كل المعرفة ــ يصبح مثاليا يحيل المادة الى فكرة : أضف الى ذلك أن « العقل » افتراضي مثل الجوهر أو الجسم أو المـــادة تماما . وفى فقــرة مشهورة يتجاوز لوك باركلى ويسبق هيوم :

> ونفس الشيء يحدث فيما يتعلق بعمليات الذهن ، مثــل التفكير والاستنتاج والخوف وغيرها ، التى لا نخلص الى القول بانها توجد من نفسها ولا نعى كيف تتبع الجسم أو كيف يمكن أن يحدثها الجسم ، ولكنا نميل الى الظن بانها نشاط جوهر ما نسميه الروح ، بواسطتها ، ولو أنه من الواضح انه ليس لدينا فكرة أو مفهوم آخر من المادة الا انها شيء توجد فيه هذه الصفات المحسوسة التى تؤثر على حواسنا ، فانه كذلك بافتراض جوهر فيه التفكير والمعرفة والشك والقــدرة على الحركة وغيرها ، فيكون لدينا فكرة واضحة عن الروح كما هو الحال بالنسبة للجسم : الأولى يفترض (دون أن نعرف

ماهتيها) ، انها جوهر لتلك الأفكار البسيطة التى نستمدها من الخارج ، والآخر يفترض (مع نفس القدر من الجهل بماهيته) أنه جوهر لهذه العمليات التى نمارسها فى داخل أنفسنا (١٤٢) ٠

وحيث أقر حينئذ « بأن فكرتنا عن الجوهر غامضة ، أو ليس لدينا فكرة اطلاقا عنه فى « العالمين » (الخارجى والداخلى) كليهما، وأن الأمر لا يعدو » أن يكون افتراض الجهل بما يدعم هذه الأفكار التى نسميها أحداثا ، فان لوك يخلص الى انه فى كلتا الحالتين يسوغ لنا الاعتقاد بوجود جوهر ، على الرغم من أننا لا يمكن أن نعرفه : فى مادة وراء الصفات المحسوسة أو أنها تبتعثها ، وفى عقل وراء الأفكار أو يحتويها ـ عامل روحى يؤدى مختلف عمليات الادراك والتفكير والشعور والارادة (١٤٣) ٠

وهما يكن من أمر العقل ، فان عملياته كلها من نوع واحد ـ حركة الأفكار أو نشاطها ٠ ويرفض لوك الفكرة السكولاسية عن « المواهب » فى العقل ، مثل التفكير والشعور والارادة ٠ فالتفكير هو اتحاد الافكار أو الجمع بينها ، والشعور هو ترجيح فكرة سيكولوجية أو صداها ، والارادة فكرة تنطلق الى العمل أو التصرف ، مثلما تنزع كل الأفكار الى العمل الا اذا عوقتها فكرة أخرى × ٠ ولكن كيف يمكن أن تصبح الفكرة عملا ـ كيف يمكن أن تصبح العملية « الروحية » عملية فسيولوجية وحركة مادية ؟ ان لوك يقبل كارها ثنائية الجسم المادى والعقل غير المادى ، ولكنه فى فترة من فترات الطيش يوحى بأن العقل يمكن أن يكون شكلا من « المادة » ٠ وهناك فى هذا الصدد عبارة مأثورة عن لوك :

> من الممكن أنه لن يكون فى مقدورنا أبدا أن نعرف أن مجرد كائن مادى يفكر أو لا يفكر ، وحيث أنه يستحيل علينا ، بالتأمل فى أفكارنا نحن ، دون وحى أو الهام ، أن

× فى الطبعة الأولى من مقال العقل الانسانى لم يسلم لوك بوجود « ارادة حرة » الا فى حالة التحرر من اى قيد أو كبت خارجى ٠ وفى الطبعات الأخيرة عدل عن هذه « الجبرية » ليجيز القول بأن العقل يمكن أن يؤجل أو يوقف مؤقتا تنفيذ رغباته أو شباعها (١٤٤) ٠

نكتشف هل زودت القدرة الالهية بعض أنواع المادة الميالة بطبعها ، بالقدرة على الادراك والتفكير ، أو أنها (أى القدرة الالهية) ضمت الى المادة الميالة على هذا النحو ، أو ثبتت فيها جوهرا مفكرا غير مادى ، فانه بالنسبة لأفكارنا ، ليس يبعد عن الفهم أن ندرك أن الله قادر اذا شاء أن يضيف الى المادة « موهبة للتفكير » ، أكثر من أنه سبحانه وتعالى يمكن أن يضيف اليها جوهرا آخر فيه موهبة للتفكير .. ان من يرى كيف انه من الصعب ، فى أفكارنا ، توافق الاحساس مع المادة الممتدة ، أو توافق الوجود مع شيء ليس له امتداد اطلاقا ، سوف يقر ويعترف بانه بعيد كل البعد عن معرفة ماهية نفسه على وجه اليقين ... وهذا الذى يطلق لنفسه العنان ليتأمل فى حرية ... يندر أن يجد فى عقله القدرة على تحديد موقفه تحديدا تاما من « مادية النفس » سلبا أو ايجابا (١٤٥) .

وعلى الرغم من أن لوك كان قد تغلب بالفعل على الجانب المادى من المعضلة ، فان الايحاء باحتمال صدقه أو حقيقته ، بالنسبة لتيار الفكر فى ذاك العصر ، أساء الى الدين القويم الى حد أن مائة من المدافعين عن الديانة هاجموه بتهمة أنه أيد « فى طيش وتهور » آراء الملحدين . ولم يلقوا بالا لاحترامه واجلاله للوحى ، ولبيانه القديم « أن الرأى الأرجح والأكثر احتمالا هو أن الشعور مرتبط بجوهر فرد غير مادى ، وهو حب هذا الجوهر والتعلق به (١٤٦) » ، وربما تنبأ هؤلاء المدافعون بأن لامترى وهولباخ وديدور وغيرهم من فلاسفة المادية قد يرون فى كلام لوك نزوعا خفيا الى وجهة نظرهم .. واتهمه الأسقف ستللنجفليت بمثل هذه النزعة المادية على وجه التحديد ، وأنذره بانها تعرض اللاهوت المسيحى كله للخطر . وتنامي لوك حرصه المعهود ، وأكد من جديد وبقوة ، احتمال صدق الفرضية المادية وظل على خلاف بشأنها مع ستللنجفليت وغيره حتى ١٦٩٧ .

على أن مقال « العقل الانسانى » على الرغم من نقاده وما فيه من تناقضات وغموض وابهام ، وغير ذلك من الأخطاء ، تزايدت قيمته واهميته وأثره عاما بعد عام . وتهافت الناس على طبعاته الأربع فى

الأربعة عشر عاما التى انقضت بين ظهوره ووفاة مؤلفه لوك . وظهرت له طبعة بالفرنسية فى عام ١٧٠٠ ، وتقبلوه هناك فى اعجاب حماسي . وأصبح حديث الناس فى قاعات الاستقبال فى انجلترا . وأكد ترستزام شاندى لسامعيه أن الرجوع الى « المقال » يمكن أى انسان من « الابتعاد بنفسه عن التفكير فى الميتافيزيقا (١٤٧) » . وكان تاثيره على باركلى وهيوم عظيما الى حد اننا نستطيع أن نؤرخ بظهوره تحول الفلسفة البريطانية عن الميتافيزيقا الى المعرفة . وربما كان لوك ماثلا فى ذهن بوب حين كتب « أن الدراسة الصحيحة للجنس البشرى هى الانسان ».

وفى ١٧٠٠ ظهرت طبعة بالفرنسية للمقال ، ولقيت هناك ترحيبا حماسيا بالغا . وكتب فولتير يقول : « بعد أن صاغ بعض السادة المفكرين أسطورة رومانسية عن النفس ، ظهر رجل واحد حكيم حقا ، وأمدنا بتاريخها الصحيح فى أعظم حالة من التواضع يمكن تصورها . ان مستر لوك قد كشف للانسان تشريح النفس ، كما لو أن بعض علماء التشريح يشرحون الجسم (١٤٨) » . ونعود فنقول « ان لوك وحده » بسط العقل الانسانى فى كتاب لا يضم الا حقائق وهو كتاب بلغ حد الكمال والاتقان - لأن هذه الحقائق مبسوطة فيه بأجلى بيان (١٤٩) » وبات المقال الانجيل السيكولوجى لعصر الاستنارة فى فرنسا . وتبنى كونديللاك « المذهب الحسي الذى جاء به لوك وتوسع فيه وذهب الى أن شيئا لم يستجد فى علم النفس فيما بين أرسطو ولوك (١٥٠) - وهذا اجحاف واضح بالفلاسفة السكولاسيين (العصور الوسطى) وهوبز وينسب دالمبرت ، فى « بحث تمهيدى فى دائرة المعارف » الى لوك الفضل فى خلق الفلسفة العلمية ، كما خلق (فى رأيه) نيوبين الفيزياء العلمية . وعلى الرغم من مجاهرات المقال بالمعتقد القويم ، فانه مهد لتجريبية عقلانية ، سرعان ما نبذت النفس باعتبارها فرضية غير ضرورية ، وانطلقت الى تطبيق نفس التفكير بالنسبة لله سبحانه وتعالى .

٤ - الدين والتسامح :

لم يتعاطف لوك نفسه مع مثل هذا التطرف ، ومهما يكن من أمر شكوكه الخاصة ، فانه أحس ، كأى رجل انجليزى مهذب ، بأن السلوك

القويم والخلق الكريم يتطلبان من الكنيسة المسيحية دعما شاملا . واذا كانت الفلسفة تنزع عن الناس ايمانهم بعدل الهى كامن وراء جور الحياة وشقائها ، فماذا عساها تقدم لتقوية آمال الناس والابقاء على شجاعتهم ؟ تقدم بطيء نحو يوتوبيا ديمقراطية ؟ ولكن فى مثل هذه اليوتوبيا هلا يبتدع الجشع الطبيعى فى الناس وعدم المساواة بينهم وسائل جديدة ليستخدم الدهاة والأقوياء غيرهم من البسطاء والضعفاء أو يسيئوا استغلالهم ؟ .

وكان أول همه أن « يضع المقاييس والحدود بين العقيدة والعقل». وعمد الى تحقيق هذا فى الفصل الثامن عشر من الباب الرابع من المقال . « انى أجد كل شيعة تحاول جهدها ، بقدر ما يسعفها العقل، ان تفيد منه عن طيب خاطر ، وحيثما يخفق العقل تصرخ وتصيح باعلى صوت : تلك مسالة ايمان وعقيدة فوق العقل (١٥١) » . ان كل ما أوحى به الله حق على وجه اليقين (١٥٢) » . ولكن التأمل وحده فى الدليل المتاح هو الذى ينبئنا اذا كانت الأسفار المقدسة هى كلمة الله ، « وليس ثمة قضية يمكن تقبلها على أنها وحى الهى ، اذا كانت تناقض معرفتنا الأكيدة البديهية (١٥٣) » . واذا كان فى مقدورنا تقرير مسالة ما بمثل هذه الملاحظة المباشرة ، فان معرفتنا تسمو على أى وحى مزعوم ، لأنها أوضح وأكثر توكيدا من أى توكيد بأن هذا الوحى الذى نحن بصدده الهى حقا . ومهما يكن من أمر « فهناك أشياء كثيرة لدينا عنها أفكار غامضة ناقصة ، أو ليس لدينا عنها أفكار البتة ، وثمة أشياء أخرى لا نستطيع بالاستخدام الطبيعى لمواهبنا ، الوصول الى معرفة شيء عن وجودها فى الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، مطلقا ، ولكونها فوق العقل ، فانها اذا كشفت ، تكون « المادة الصحيحة للعقيدة والايمان (١٥٤) » . ويخلص لوك الى القول : « ليس هناك شيء يناقض أوامر العقل الواضحة البديهية أولا يلتئم معها ، يحق له أن يشجع أو يؤكد على انه مسالة عقيدة لا دخل للعقل فيها (١٥٥) » « وثمة أمارة لا تخطيء » على حب الحق . « الا نهلل ونرحب بأية قضية فى توكيد أكبر مما تجيزه الأدلة التى تقوم عليها القضية (١٥٦) » . « وينبغى أن يكون العقل أول حكم ومرشد لنا فى كل شيء (١٥٧) » .

ومن ثم نشر لوك فى ١٦٩٥ « معقولية المسيحية كما تنقلها الأسفار المقدسة » . وأعاد قراءة العهد الجديد ، كما يمكن أن يقرأ الانسان كتابا جديدا ، طارحا كل التعاليم والتعليقات جانبا (كما قال) . وسيطر عليه نبل السيد المسيح المحبب الى النفس ، وجمال كل تعاليمه تقريبا ، باعتبارها خير آمال الانسان واكثرها اشراقا . واذا كان ثمة شيء يمكن ن يكون رسالة الهية فان هذه القصص وذاك المذهب تبدو وكانهما من عند الله . ورأى لوك ان يتقبلها جميعا على انها مقدسة ، بل أن يقرها ايضا ، فى كل ساسياتها ، باعتبارها متفقة كل الاتفاق مع العقل .

ولكن بدا له أن هذه الأساسيات أكثر اعتدالا وبساطة من اللاهوت المعقد فى المواد التسع والثلاثين ، أو اعتراف وستمنستر أو مذهب اثناسيوس . واقتبس من الانجيل فقرة بعد فقرة ، لا تطلب كلها من المسيحى الا أن يؤمن بالله وبان المسيح رسول من عند الله . وهنا ـ كما يقول لوك ديانة بسيطة صريحة واضحة ، صالحة لكل انسان ، لا تعتمد على أى فقه أو لاهوت . وفيما يتعلق بوجود الله ، فقد شعر لوك « بان أعمال الطبيعة بكل دقائقها أوفى دليل على وجود الله (١٥٨) » وحاول لوك من وجوده هو نفسه أن يبرهن على « سبب اول » ، وانتهى الى أن مثل هذه الخصائص لابد أن تنسب أيضا الى الله ، والله « عقل سرمدى خالد (١٥٩) » وحينما شكا نقاد لوك من أنه اغفل بعض التعاليم الحيوية مثل خلود النفس والعذاب المقيم والنعيم المقيم ، اجاب بانه فى الاعتراف بالمسيح ارتضي تعاليمه التى شملت تلك الآراء والعاليم . ومن ثم خرج لوك من الباب الذى دخل منه .

ومهما يكن من أمر ، فان لوك ألح على أن تتمتع بالحرية الكاملة فى انجلترا كل المذاهب المسيحية فيما خلا الكثلكة . وكان قد كتب مقالا عن التسامح فى ١٦٦٦ . وعندما ارتحل الى هولنده ١٦٨٣ وجد هناك من حرية العبادة أكثر مما كان فى انجلترا . ولا بد أنه قرأ أثناء اقامته فى هولنده دفاع بيل القوى عن التسامح الدينى (١٦٨٦) . وحركت مشاعره هجرة الهيجونوت واضطهادهم (١٦٨٥) فكتب الى صديقه لمبورخ رسالة استحث نشرها . فطبعت باللاتينية ١٦٨٩ تحت عنوان

« رسالة فى التسامح » وظهرت ترجمتها الى الانجليزية قبل نهاية العام . واستنكرها أحد أساتذة أكسفورد ، فدافع عنها لوك ، وكان آنذاك فى انجلترا ، فى رسالة ثانية وثالثة » عن التسامح فى ١٦٩٠ / ١٦٩٢ . ولم يحقق قانون التسامح الذى صدر فى ١٦٨٩ من مقترحات لوك الا قليلا جدا ، ذلك أن القانون استبعد الكاثوليك والتوحيديين واليهود والوثنيين وحظر تولى الشئون العامة على المخالفين . ان لوك أيضا أتى باستثناءات فلم يكن ليتسامح مع الملحدين حيث رأى أنهم غير أهل للثقة ما داموا لا يخشون الها ولا ديانة توقع عذابا ماديا ، بالتضحية بالانسان مثلا ، ولم يتسامح مع مذهب يتطلب الولاء لسلطة أجنبية ، ومفهوم أنه كان يعنى الكثلكة (١٦٠) . ودعا صراحة الى التسامح مع المشيخيين والمستقلين ، وانصار تجديد العماد ، والأرمينيين والكويكرز . ولم يتجاسر على القول بالتسامح مع التوحيديين ولو أن أرل شافتسبرى الأول الذى قضي نحبه فى أمستردام ١٦٨٣ كان قد ذكر أنه كان قد استقى مذهب الأرمينيين والتوحيديين من سكرتيره لوك (١٦١) .

وقال لوك بأن القانون ينبغى أن يهتم فقط بالمحافظة على النظام الاجتماعى . فان للقانون الحق فى القضاء على كل ما من شانه العمل على التخريب فى الدولة ، ولكن ليس له ولاية ولا سلطان على نفوس الناس ، وليس لأية كنيسة سلطة لارغام الناس على مشايعتها .. فما أسخف أن يعاقب الناس فى الدنمرك لأنهم غير لوثريين ، أو فى جنيف لأنهم لا يتبعون مذهب كلفن ، أو فى فيينا لأنهم لا يعتنقون المذهب الكاثوليكى . وفوق كل شيء ، أى فرد أو أية جماعة أتيح لها ادراك الحقيقة الكاملة عن حياة البشر ومصير الانسان ؟ ولحظ لوك أن معظم الديانات تنادى بالتسامح فى أيام ضعفها ، ولكنها تأباه فى أيام قوتها .. ورأى أن الاضطهاد مصدره شهوة السلطان والسيطرة ، والحقد المقنع فى ثياب الغيرة الدينية . والاضطهاد يصنع المنافقين ، أما التسامح فانه يشجع المعرفة والحق ، وكيف يعمد المسيحى الى الاضطهاد والتعذيب والاساءة ، وقد أخذ على نفسه عهدا بالبر والاحسان ومحبة الناس ؟

وواصل لوك حملته من أجل التسامح حتى غابت شمس حياته .

وكان منهمكا فى كتابه رسالة رابعة فى نفس الموضوع حين وافته المنية . وعاجله الموت ١٧٠٤ بينما كان جالسا يصغى الى ليـــدى ما شام تتلو المزامير .

وحتى قبل موته كان قد وصل فى مجال الفلسفة الى مكانة لم يسـم عليها الا نيوتن فى ميدان العلوم . وتحدث عنه بالفعل بانه «الفيلسوف» وعلى حين ختم حياته على تقوى قوية تقليدية تقريبا ، فان كتبه التى لم تكن لتتغير مع الزمن ، انتقلت عن طريق الطبعات والترجمات العديدة الى فكر أوربا المتعلمة المثقفة . قال شبنجلر : « ان الاستنارة الغربية من أصل انجليزى ونبعت كلا عقلانية القارة من لوك (١٦٢) » . وليست كلها بطبيعة الحال . ولكن فيمن يمكن للمرء الآن أن يغامر بمثل هـــذه المبالغة أو الاغراق ؟ .

٦ ـ شـافتسبرى : ١٦٧١ ـ ١٧١٣

كان أنطونى آشلى كوبر ، ارل شافتسبرى الثالث ، تلميذ لوك . مفخرة لمعلمه . لا لان لوك كان مسئولا عن أسلوبه ، فان العالم النفسانى البحاثه كتب نثرا مبتذلا ، بسيطا واضحا عادة (وهنا يكمن الخطر) ، ولكنه قلما كان نثرا جميلا ، فان شافتسبرى ذا الفراغ والجدة ، كتب فى تهذيب واثق ، ودعابة متسامحة ، ورشاقة غالية (فرنسية) تقريبا ـ فقد تنازل السيد الاقطاعى الانجليزى أن يكون فيلسوفا . ويجدر بنا أن نقف عنده قليلا لأنه يكاد يكون مؤسس علم الجمال فى الفلسفة الحديثـــة ، وبانقاذه الوجدان والتعاطف من أيدى هوبز ولوك ، غذى فيض العاطفة الذى بلغ ذروته عند روسو .

وتحت اشراف لوك ، وعلى نهجه فى تعليم اللغة بالمحادثة ، مكنت اليزابث بيرش التى كانت تحذق اليونانية واللاتينية ، انطونى من قراءة كلتا اللغتين بسهولة وهو فى سن الحادية عشرة ، ثم التحق بمدرســة ونشستر ، وتجول لمدة ثلاثة أعوام تعلم فى اثنائها الفرنسية وأســاليب الحياة الفرنسية ، ومال الى الفـــن ميــلا لابد أنه بدا غير لائق بلورد انجليزى . ودخل البرلمان لمدة عام واحد ـ وهذا كاف جدا ليظهره على « جور وفساد الحزبين كليهما (١٦٣) » . ولكن دخان لندن زاد من وطأة

الربو عليه فعاد أدراجه الى هولنده ، حيث وجد الجو الفكرى نابضـــا' بفلسفة سبينوزا وبيل ، ومذ حصل على لقب ارل ١٦٩٠ فانه قضي بقية أيام حياته فى ضيعته الريفية . وتزوج قبل وفاته بأربع سنوات ، وكم كانت دهشته حين وجد أنه سعيد كما كان من قبل (١٦٤) . وفى ١٧١١ نشر مجموعة مقالاته تحت عنوان شامل « خصائص الانسان ، العـــادات ، الآراء ، العصر الحاضر . ولم يمتد به الآجـــل لأكثر من اثنين وأربعين عاما ، حيث فارق الحياة فى ١٧١٣ .

ولم يكن متوقعا من رجل ورث هذا الثراء العريض على الأرض أن يعنى بأمر السماء أو يقلق باله من أجلها . انه استنكر « الغيرة » ـ التى كان زمانه يعنى بها التعصب ـ غيرة الانجليز الذين ظنوا انهم انما ينطقون بالوحى الالهى . ان اية عاطفة جامحة أو كلام عنيف كان فى رأى شافتسبرى دلالة على سوء التربية ، ولكنه رأى أنه من الحكمة أن يسخر منهم أكثر من أن يعذبهم . والحق انه بدا له أن الظرف والدعابة اللتين جعلهما موضوع رسالته الأصلية الخلاقة ، هما خير مدخل لأى شيء ، حتى اللاهوت . واتفق مع بيل على أن الملحدين مواطنـــون مهذبون ، وأنهم أساءوا الى الدين والأخلاق أقل مما فعلت وحشـــية العقائد التى سيطرت واستغلت نفوذها . واعترض على « عبادة وحب اله قلب حول شديد الغيظ ، عرضة للحنق والغضب ، مهتـــاج محب للانتقام ... يشجع الخداع والخيانة بين الناس ، يرضي عن قلة من الناس ويقسو على سائر الناس (١٦٦) » . وعجب مما كان لمثل هـذا المفهوم عن المعبود من أثر على خلق الانسان وسلوكه . وذهب الى أنه من الخسة والجبن الا يتحلى الانسان بالفضيلة الا أملا فى الثـــواب أو خوفا من العقاب . فالفضيلة لا تكون حقيقية صادقة الا اذا تحلى بهـــا المرء من أجلها هى . ومهما يكن من أمر ، وما دام الانسان هو على ما هو عليه ، فمن الضرورى أن يغرس فى نفسه الايمان بمثل هـــذا الثواب والعقاب فى المستقبل (١٦٧) . « انه من صادق الانســانية والشفقة اخفاء الحقائق الهامة عن القلوب الواهنة .. .. وقد يكون لزاما ألا يتحدث العقلاء الا رمزا (١٦٨) » ، وهكذا دافع شافتسبرى عن كنيسة رسمية ، وحاول أن يوفق بين الايمان بوجود اله واحـــد فى فلسفة متفائلة أوجزت الرذيلة فى أنها هوى انسانى (١٦٩) . ومع

ذلك فان الكساندر بوب رأى أن كتاب « خواص الانسان » أساء الى الديانة المنزلة فى انجلترا أكثر مما أساءت كل مؤلفات الكفار السافرين غير المتحفظين (١٧٠) .

واتفق شافتسبرى مع ارسطو ولوك على أن السعادة هى الهدف المشروع لأفعال الانسان ، وعرف الفلسفة بأنها « دراسة السعادة (١٧١) » . ولكنه عارض الهبوط بكل الدوافع الانسانية الى مجرد أنانية أو مصلحة شخصية ، وطبقا لهذا التحليل (الذى بسطه هوبز ولاروشفوكول حديثا) :

> يكون التلطف والكرم والانسانية تجاه الغرباء أو الناس فى وقت الشدة ، مجرد انانية أكثر تعمدا . والقلب المخلص الأمين قلب أشد مكرا ، والامانة والود مجرد حب للذات ، ولكنه حب أحسن تنظيما وضبطا . وحب الأقارب والأبناء والذرية انما هو حب خالص للنفس وللدم المباشر للانسان ... والشهامة والشجاعة ، لا ريب ، تكيف أو تعديل لحب النفس الشامل هذا (١٧٢) .

وعلى عكس هذا الرأى ، زعم شافتسبرى أن الطبيعة الانسانية مزودة بشكل مضاعف بغرائز للنفع الشخصي ، وغرائز للعيش فى جماعة . واعتقد أن المجتمع والدولة ما نشأتا عن عقد اجتماعى ، بل عن « مبدأ القطيع » أو نزعة التزامل ... وهى نزعة طبيعية قوية فى معظم البشر (١٧٣) وهناك « عواطف طبيعية قائمة فى حب الجنس البشرى . وفى محاولة ارضائه ، والشعور الودى نحوه والتعاطف معه .. .. وتوافر هذه العواطف فى بالغ قوتها معناه توافر الوسائل الاساسية للمتعة الذاتية ، أما الافتقار اليها فهو التعاسة والسقم المحققان (١٧٤) » . وكون المرء « طيبا صالحا » معناه توجيه كل ميوله ونزعاته توجيها مستقيما ثابتا نحو خير الجماعة ، وكلما كبرت الجماعة التى توحى بهذه المشاعر وتبثها ، حسنت حال الناس فيها . والشعور بهذا التعاطف الاجتماعى هو الوعى الاخلاقى . وهذا شيء فطرى ، لا من حيث المتطلبات النوعية (التى تختلف من جماعة الى جماعة) ولكن من حيث أساسه الغريزى ، « الاحساس بالصواب

والخطأ ؛ وهو فنيا أمر طبيعي مثل الميل الطبيعي نفسه ، وهو من أول المبادىء فى تكويننا (١٧٥) » .

وانتقل شافتسبرى من علم الأخلاق الى علم الجمال بالمطابقة بينهما . فالطيب والجميل شيء واحد ، فالخلق الحسن « هو تذوق الجمال واستساغة كل ما هو مهذب محتشم » ، ومن ثم نتحدث عن أعمال معادية لمصلحة المجتمع بانها قبيحة ، حيث أنها تسيء الى هذا التناسق بين الجزء والكل ، وهو صلاح وجمال معا . ويستطيع المرء أن يجعل من حياته عملا من اعمال الفن ـ من الوحدة والتناسق ـ بتنمية احساس جمالى ستكون الأخلاقيات فيه احد العناصر ، والرجل « الذى نشيء خير تنشئة » (هكذا اعتقد الارستقراطى شافتسبرى) يفعل هذا . وهو بحكم تربيته وتدريبه « لا يقبل أن يأتى عملا نكرا أو وحشيا (١٧٦) » ان ما تشكل لديه من ذوق طيب لا بد أن يوجهه فى السلوك وفى الفن معا . والحق أيضا لون من الجمال فهو تناسق أجزاء المعرفة مع الكل . ومن هنا نحا شافتسبرى نحو الكلاسيكية فى الفن . ويبدأ له الشكل والوحدة والتناسق اساسيات التفوق فى الشعر والعمارة والنحت ، وهى أقل ضرورة وامتيازا فى الرسم بالألوان منها فى الرسم العادى . وكان فى العصر الحديث أول من جعل الجمال مسالة أساسية فى الفلسفة ، وهو الذى بدأ البحث الذى بلغ ذروته ، فى أواخر القرن الثامن عشر بلورد كامس وبيرك .

كان هذا جانبا من تاثير شافتسبرى ، وهناك جوانب اخرى كثيرة . ان توكيده على الواجدان اثر على الحركة الرومانتيكية ، وبخاصة فى المانيا ، عن طريق لسنج وشيلر وجوته وهردر ـ الذين أسموه « افلاطون أوربا المحبوب (١٧٧) » وظهر هذا الأثر فى فرنسا فى ديدرو كما ظهر فى روسو . أما تفسيره للدين بانه ضعيف من الناحية النظرية ، ولكنه امر لا يستغنى عنه من الناحية الاخلاقية ، فقد كان له أثره فى أفكار كانت العملية . ظهر توكيده على التعاطف مرة ثانية باعتباره أساس الأخلاق ، عند هيوم وآدم سميث . واسهمت أفكاره عن الفن فى تشكيل نشوة ونكلمان الأصيلة الممتازة . انه بدأ حياته تلميذا لجون لوك المفكر والذى لم يعن كثيرا بالجماليات فاصبح (وربما بحكم المقاومة الطبيعية فى كل جيل لمنشئه) فيلسوف الوجدان والعاطفة

والجمال . وحيث كان يحب الأسلوب الكلاسيكى فى الفن ، فقد أصبح مصدر احياء الرومانتيكية فى قارة أوربا ، ولو أن الشعر والعمـارة فى انجلترا تبعتا نزعته الكلاسيكية . وكان له كل الفضل والفخـر فى أنه جعل الفلسفة تشرق برقة الأســلوب ورشـاقته مما أعاد الى الذاكرة أفلاطون ، ولم ينافسه فى هذا بعد ذلك الا باركلى .

٧ - جورج باركلى : ١٦٨٥ - ١٧٥٣ :

ولد فى ديرت كاسل فى مقاطعة كيلكنى . وفى سن الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتى فى دبلن . وفى سن العشرين أسس ناديا لدراسـة « الفلسفة الجديدة » ، ويقصد بها لوك . وفى الحادية والعشرين بدأ فى « الكتاب العادى » وتلك فكرة كان يؤمل من ورائها أن يقضي على « المادية » الى الأبد : أى أنه ليس ثمة شيء موجود الا اذا كان مدركا بالحواس ، ومن ثم فان العقل هو الحقيقة الواقعة ، والمادة أسطورة أو خرافة :

> كمـا كان مذهب المـادة أو الجوهـر المـادى ، السند والدعامة الاساسيتين للتشكك ، فانه على نفس الركيزة أقيمت المبادىء البعيدة عن التقى والورع فى الالحاد والمروق عن الدين .. .. وكم كان الجوهر المادى صـديقا حميما للملحدين فى كل العصور ، ممن لسنا فى حاجة لذكرهم . ان كل نظمهم الرهيبة البشعة تعتمد عليه اعتمادا سـافرا أساسيا ، حتى اذا ما انهارت يوما هذه الركيزة ، أو حجر الزاوية فى مذهبهم ، فان كل الكيان لم يلبث أن انهار ، مما لا يستحق معه أن نلقى نظرة خاصة الى حماقات كل شيعة من هؤلاء الملحدين (١٧٨) .

وهكذا فى السنين السبع التالية ، وقبل أن يتم التاسعة والعشرين اصدر باركلى أهم أعماله : « بحث عن نظرية جديدة للرؤية » (١٧٠٩) ، رسالة عن أصول العقل البشرى (١٧١٠) ، « ثلاث محـاورات بين هيلاسي وفيلونوس فى معارضة المتشككين والملحدين » (١٧١٣) . وكانت الرسالة الأولى اضافة رائعـة الى علم النفس والبصريات ، كما هزت الرسالتان الأخيرتان الفلسفة من الأعماق .

ونبعث رسالة الرؤية من قطعة لجون لوك يروى فيها كيف أن وليم مولينكس (مدرس فى كلية ترنتى ، دبلن) أثار أمامه مسألة : هل يستطيع انسان ولد أعمى ، أن يميز بعد استرداد بصره ، بالبصر وحده ، بين جسم كروى وآخر مكعب اذا كان كلاهما من نفس المادة وفى نفس الحجم . واتفق رأى مولينكس ولوك سلبا . واتفق باركلى معهما وأضاف تحليله الخاص . ان البصر لا يهيىء لنا ادراكا حسيا للبعد والحجم والمواقع أو الحركات النسبية للاجسام ، الا بعد التصحيحات التى تجريها حاسة اللمس ، وعن طريق التجارب المتكررة يصبح هذا التصحيح لحظيا تقريبا ، وعند ئذ يزودنا البصر بمثل هذا الحكم على شكل الأجسام المرئية وبعدها ومكانها وحركتها ، كما لو اننا لمسناها :

> ان الانسان الذى ولد أعمى ، ثم أعيد اليه بصره ، لن يكون لديه فى أول الأمر أية فكرة عن البعد عن طريق البصر ، فان الشمس والنجوم ، وأبعد الاجسام وأقربها على حد سواء ، تبدو فى عينه ، لا بل فى عقله ، فالأجسام التى تدخل عن طريق البصر ، لا تبدو له (كما هى فى الحقيقة) الا مجرد طائفة جديدة من الأفكار والأحاسيس ، كل منها قريب الاحساس بالألم و اللذة أو أشد الأحاسيس الداخلية فى النفس .. أما حكمنا على الأجسام المدركة بالبصر ، على أى بعد ، أو بدون العقل ، فانه حكم مبنى تماما على التجربة (١٨٠) .

فالفضاء حينئذ تركيب عقلى ، انه أسلوب للعلاقات التى تبنى عن طريق الخبرة للتوفيق بين مدركاتنا بالبصر وباللمس . وأكدت العمليات التى وردت فى تقارير الجمعية الملكية (١٧٠٩ - ١٧٢٨) وجهة النظر هذه : فان فردا مولودا أعمى ، أعيد اليه بصره عن طريق جراحة أجريت له ، كان فى أول الأمر « أبعد ما يكون عن الحكم على الأبعاد ، الى حد أنه ظن أن كل الأجسام أيا كانت لمست عينيه ... ولم يدرك شكل أى شيء ، ولم يميز بين الأشياء ، مهما اختلفت فى الشكل أو الحجم (١٨١) » .

وكان كتاب « أصول المعرفة الانسانية » نتاجا رائعا جديرا بالذكر

للفتى فى الخامسة والعشرين . ومرة أخرى تعرض باركلى لمقال لوك . اذا كانت كل المعرفة تأتى عن طريق الحواس ، وليس ثمة شي له حقيقة واقعة لدينا الا اذا كنا ندركه أو قد أدركناه ادراكا حسيا ، « موجود أى أنه مدرك » . وكان لوك قد ذهب الى أن المدركات قد أحدثتها أشياء خارجية تضغط على اعضاء الحس فينا . وهنا تساءل باركلى : كيف تعرف أن مثل هذه الأشياء (الخارجية) موجـودة ؟ السـنا نرى فى أحلامنا أفكارا واضحة مشرقة . وضوح واشراق ما نراه منها فى اليقظة. ان لوك حاول أن ينقذ استقلال الحقيقة الواقعة للأشـياء بالتمييز بين صفاتها الأولية والثانوية ، فهذه الأخيرة ذاتية « فى العقل » ، والصفات الأخرى ـ الامتداد ، الصلابة ، الشكل ، العدد ، الحركة ، السكون ـ موضوعية ، توجد فى جوهر خفى غامض اعترف لوك بأنه لا يعرف عنه شيئا ، ولكنه ، هو والعالم بأمره ، جعلوه « والمادة » شيئا واحدا . والآن أعلن باركلى أن الصفات الأولية ذاتية مثل الثانوية تماما ، وأننا لا نعرف امتداد الاشياء وصلابتها وشكلها وعددها وحركتها وسكونها ، الا عن طريق الادراك الحسي ، وأن الصفات الاولية ، بناء على ذلك ، ذاتية أيضا ، أى أنها أفكار . والعالم بالنسبة لنا طائفة من المدركات الحسية ، « ان العقل هو الذى يشكل هذه المجمـوعة المتنوعـة من الأجسام التى يتألف منها العالم المرئى ، ولا يتأتى لأى منها أن يكون موجودا لفترة أطول مما هو مدرك (١٨٢) انزع عن « المادة » صفاتها الأولية والثانوية معا ، تصبح المادة عدما لا معنى له . وعندئذ يترك « المادى » ليلعق عدما (١٨٣) .

وكان باركلى على وعى تام بان آخرين ، فضلا عن الماديين قـد يعترضون على تبخر العالم الخارجى بمثل هذه البراعة الخادعـة . ولم يعجز عن الرد حين سـئل : هل يتوقف وجـود اثاث المنزل فى حجراتنا اذا لم يوجد فيها من يدركه أو يراه (١٨٤) . انه لم ينـكر حقيقة عالم خارجى لمدركاتنا (١٨٥) ، وكل ما أنكره هو « مادية » العالم . ويمكن أن تستمر الأشياء الخارجية موجودة ولو لم ندركها أو نرها ، وما ذاك الا لأنها موجـودة باعتبـارها مدركات فى عقـل الله (١٨٦) ، واستطرد يقول ان احساساتنا فى الحقيقة تسـببها ، لا المادة الخارجية ، بل القوة الالهية التى تؤثر فى حواسنا . والروح

فقط هى التى تؤثر فى الروح · والله هو المصدر الوحيد لكل أحاسيسنا وأفكارنا (١٨٧) × ·

وذهب معاصرو باركلى الى أن هذا لهو ايرلنـدى ، وكتب لورد تشسترفيلد الى ابنه : ـ

ان دكتور باركلى الرجل الفاضل العبقرى العالم ، الف كتابا ليثبت أنه ليس هناك شيء مما يسمونه المـادة ، وأنه لا يوجد شيء الا فكرة ··· وحججه مفحمـــة ، بكل معنى الكلمة ، ولكنى أبعد ما أكون عن الاقتناع بها ، الى حد أنى مصمم على أن آكل وأشرب وأمشي وأركب ، حتى أحفظ تلك « المادة » التى أتصور خطـــأ ، فى الوقت الحاضر ، أن جسمى يتكون منها ، على أحسن حالة ممكنة (١٨٨) ·

وكل العالم يعرف ما بذل دكتور جونسون من جهد عظيم فى الرد على دكتور باركلى :

يقول :وزول : بعد خروجنا من الكنيسة ، وقفنا لبعض الوقت معا نتحدث عن سفسطة الأسقف باركلى أو مغالطته البارعة لاثبات عدم وجود المادة ، وأن كل شيء فى الكون مجرد أفكار ، ولاحظت أنه على الرغم من أننا قانعـــون بأنها غير صحيحة ، فانه من المتعذر دحضـــها · وان أنسي لن أنسي اندفاع جونسون فى الرد ، وهو يضرب بقدمه وبقوة شديدة حجرا كبيرا حتى أزاحه فارتد وسمع له صـــوت ، وقال : « انى أدحضها هكذا (١٨٩) » ·

وربما كان من الجائز بطبيعة الحال أن يوضح باركلى للرجـــل العظيم (دكتور جونسون) أن كل ما عرف عن الحجر ، بما فى ذلك الألم الذى أصاب أصبع قدمه ، كان ذاتيا : مجموعة من المدركات الحسية تسمى حجرا ، مختلطة مع طائفة أخرى من الأحاسيس السمعية تسمى بوزول ، ومجموعة من الأفكار التى تعلمتها والتى أشرب بها تســـمى

× فى أحدث فيزياء ، ان أحاسيسنا لا تسببها أية « مادية » معـروفة ، ولكن تسببها طاقات دقيقة ، جوهرها المادى غير معروف · وهو افتراضي ·

فلسفة ، ولدت كلها استجابة انتجت طائفة أخـــرى من الاحاسيس . واتفق هيوم مع بوزول وتشسترفيلد فى أن حجج باركلى « لا تدع مجالا لأى رد ، ولا تؤدى الى اقتناع » (١٩٠) .

ورأى هيوم أن لغز باركلى ساحر ، ولكنه استخلص منه نتيجة مدمرة . وسلم بأن « المادة » تتلاشي عندما نسلبها صفاتها التى تنسبها اليها مدركاتنا الحسية ، ولكنــه أوحى بأن نفس الشيء قد يقـــال عن « العقل » . ولقد رأينا عرض لوك المسبق لهذه النقطة . لكن باركلى تنبأ بها أيضا . فانه فى المحاورة الثالثـــة جعـــل هيلاس يتحـــدى فيلونوس :

أنت تعترف ، حقـــا بأنك ليس لديك أية فكرة عن نفسك .. .. وتسلم مع ذلك بأن هناك جوهرا روحيا ، وعلى الرغم من أنه ليس لديك أية فكرة عنه ، بينما تنكر امكان وجود جوهر مادى ، لأنه ليس لديك أى مفهوم أو فكرة عنه . فهل هذا من الانصاف فى شيء ؟ .. .. أما أنا فيبدو لى ، طبقا لطريقة تفكيرك ، وبناء على مبادئك، أن هذا يستتبع أنك مجرد جهاز من أفكار عائمـــة ، دون جوهر يساندها . ان الكلمات لا يمكن استخدامها دون معنى وحيث أنه ليس فى الجوهر الروحى معنى أكثر مما هو فى الجوهر المادى ، فيجب تسفيه كليهما سواء بسواء (١٩١) ويرد فيلونوس (نصير العقل) على هيلاس (الذى يمثل المادة) :

كم من مرة يجب أن أعيد وأكرر انى اعرف او انى اعى وجودى وجوهرى ، وأنى أنا نفسي ، لا أفكارى ، بل شيء آخر عنصر مفكر فعال يدرك بالحواس ، ويعرف ، ويريد ، ويعمل حول الأفكار . انا أعرف أنى بالذات ، ادرك الألوان والأصوات ، وأن اللون لا يدرك الصوت ، ولا الصوت يدرك اللـــون ، وأنى لذلك عنصر فـــرد ، متميـــز عن اللـــون والصوت (١٩٢) .

ولم يقتنع هيوم بهذا الجـــواب ، وانتهى الى أن باركلى ، طوعا

أو كرها ، دمر المادة والروح كلتيهما ، وأن كتابات الأسقف اللامع الذى تطلع الى الدفاع عن الدين ، « تشكل أحسن دروس التشكك التى يمكن العثور عليها عند الفلاسفة القدامى والمحدثين على حد ســـواء ، دون استثناء بيل (١٩٣) » .

وعمر باركلى اربعين عاما بعد نشر رسائله الثلاث . وفى ١٧٢٤ عين رئيسا لكاتدرائية درى . وفي ١٧٢٨ أبحر ، بناء على وعبـــد من الحكومة بامداده بمعونة مالية ، الى برمودا لينشىء فيها كلية « لتقويم عادات الانجليز فى مزارعنا فى الغرب ـ المستعمرات ـ ، ونشر الانجيل بين الأمريكيين الهمجيين (١٩٤) . ووصل الى نيوبورت فى رود أيلند ينتظر ورود المنحة الموعودة وقدرها عشرون ألفا من الجنيهات التى لم يصل منها شيء . وهناك ألف كتاب « الفيلسوف الصغير » ليضع حدا لكل الشكوك الدينية . وترك بصماته على ذهن جوناثان أدواردز ، وكتب بيتا مشهورا « ان الامبراطورية تشق طريقها غربا » . وبعد ثلاث سنوات من توقعات لا طائل تحتها عاد الى انجلترا . وفى ١٧٣٤ عين أسقفا فى كلوين . وقد رأينا كيف أن فانيسا صديقة سويفت جعلته أحد منفـــذى وصيتها وتركت له نصف ثروتها . وفى ١٧٤٤ نشر رسالة غريبة « مزايا ماء القطران » الذى قدمه اليه هؤلاء الهمجيون الذين سبق ذكرهم ، والذى أوصي به الآن علاجا للجدرى . وقضي نحبه فى أكســـفورد فى ١٧٥٣ بعد حياة دامت ثمانية وستين عاما .

ولم يبزه أحد فى اثبات عدم واقعية الواقع . وفى جهوده لاستعادة الايمان الدينى وتطهير البلاد من مادية هوبز التى كانت تلوث انجلترا وتفسدها ، قلب الفلسفة رأسا على عقب ، وجعل « كل طبقات السماء وكل ما على الأرض .. .. كل تلك الأجسام التى تؤلف هيكل الجبار للعالم بأسره (١٩٥) » ، موجودة بالنسبة للانسان ، باعتبارها مجرد أفكار فى عقله . وكانت مغامرة محفوفة بالمخاطر ، وربما ارتاع باركلى نفسه اذا وجد هيوم وكانت يقتبسان من مبادئه التقية الورعة نقدا للعقل لم يترك أية تعاليم أساسية فى صرح الديانة المسيحية العريقـــة الحبيبة الا زعزع أركانها . اننا لنعجب بدقة نسيج العنكبوت الذى جاء به ، ونسلم بأنه منذ أفلاطون لم يكتب أحد مثل هذا الهراء الخلاب . وسنرى أثره فى كل مكان فى بريطانيا والمانيا فى القرن الثامن عشر ، وكان الأثر اقـــل فى

فرنسا ، ولكنه تعاظم فى تعويذة نظرية المعرفة غير المفهومة عند أتباع كانت فى القرن التاسع عشر . وحتى فى يومنا هذا لم تقررا لفلسفة الأوربية بعد قرارا حاسما وجود العالم الخارجى . وحتى توطن هذه الفلسفة نفسها على أقصي احتمال فى هذا المجال ، وتواجه مشاكل الحياة والموت ، فان العالم سوف يغفلها ويتغاضي عنها .

ان هذه الفترة كانت فى حقيقتها أزهى فترات الفلسفة الانجليزية . ان الناقوس الذى كان فرانسيس بيكون قد دقه لدعوة المفكرين للعمل بعضهم مع بعض ، كان قد سمع بعد أن خمد أوار الحرب الأهلية . وكان هوبز جسرا فوق هذا الفراغ الغبى ، وكان نيوتن الرافعة التى حرك عليها نيوتن اللاهوت . وكان لوك القمة التى تحدرت منها مسائل الفلسفة الحديثة فى رؤية صافية واضحة . ومن هذا الرباعى الانجليزى الذى سرعان ما أغراه هيوم الحكيم الغريب بالاثم ، دخل الى فرنسا والمانيا تأثير قوى . ولم يكن المفكرون الفرنسيون فى تلك الفترة على نفس القدر من العمق والأصالة مثل الانجليز ، ولكنهم اكثر لمعانا واشراقا ، من ناحية لانهم « غاليون » ، ومن ناحية أخرى لأن الرقابة الأشد صرامة أرغمتهم على افراغ همهم فى الشكل ، ووضع حكمتهم فى الرقة والظرف . ثم جاء فولتير الى انجلترا ١٧٢٦ ، فلما عاد حمل فى جعبته أفكار نيوتن ولوك وبيكون وهوبز وغيرها من المهربات ، واستخدمت فرنسا لمدة نصف قرن بعد ذلك علم انجلترا وفلسفتها أسلحة لتمحو ضلالة الخرافة والغموض والجهل . ان قابلة انجليزية سهرت على ولادة الاستنارة الفرنسية .

الفصل الحادي والعشرون

الدين والعقل فى فرنسا

١٦٤٨ ــ ١٧١٥

١ ــ تقلبات الديكارتية :

فى ١٦٩٤ عرف قاموس الأكاديمية الفرنسية الفيلسوف :

> بأنه رجل توفر على البحث فى مختلف العلوم ، واستقصاء آثارها ونتائجها سعيا للوصول الى أسبابها وأصولها ومبادئها ، ويطلق الفيلسوف كذلك على رجل يحيا حياة هادئة منعزلة ، بعيدا عن صخب الدنيا ومتاعبها . وقد يطلق أحيانا على الرجل الهوش الذهن الذى يعتبر نفسه فوق مسئوليات الحياة المدنية وتبعاتها (١) .

ومن الفقرة الأولى من هذا التعريف يتبين أنه لم يكن بعد ثمة تمييز بين الفلسفة والعلم ، فالعلم باعتباره « فلسفة طبيعية » يمكن أن يكون فرعا من الفلسفة ، حتى القرن التاسع عشر . ومن العبارة الأخيرة من هذا التعريف نستنتج أن « الأربعين الخالدين » فى عهد لويس الرابع عشر قد اشتموا رائحة الثورة فى جو الفلسفة ، وكأن المبشرين بعصر الاستنارة أو رواده الأوائل كانوا قد افتتحوه بخطاب تمهيدى .

وبين التفريعات الثلاثة لهذا التعريف تذبذب التراث العقلى لرينيه ديكارت بين ذيوع الصيت والانكار . وكان للتراث نفسه ثلاثة أبواق ، ردد أحدها صوت الشك أساسا واستهلالا لكل فلسفة ، وأعلن الثانى عن الآلية الشاملة للعالم الخارجى ، أما الثالث فقد عزف ألحان الترحيب بالعقيدة التقليدية ، وأخرج الله والارادة الحرة والخلود من دوامة العالم . وكان ديكارت قد بدأ بالشك وانتهى بالتقوى ، واستطاع خلفاؤه أن يتناولوه على أى من الوجهين . ان نساء الندوة القديمة ــ

السيدات المثقفات - اللائى هجاهن موليير ١٦٧٢ - وجدن بعض الراحة المثيرة من المسبحه فى دوامة الكوزمولوجيا الجديدة (علم الكونيات) وقالت مدام سيفينى عن فلسفة ديكارت بانها موضوع حديث ما بعد العشاء فى ندوتها ، وأنها ، ومدام جرينان ، ومدام دى سابلى ، ومدام دى لافاييت كن جميعا من نصيرات الديكارتية .. وكانت النساء البارزات فى المجتمع تشهدن المحاضرات التى يلقيها أتباع ديكارت فى باريس (٢) . وتبنى كبار النبلاء النهج الفلسفى . وكانت الندوات الديكارتية تعقد أسبوعيا فى قصر دوق دى لوين ، وفى قصر الأمير دى كونديه فى باريس ، « وفى افخم فنادق العاصمة (٣) . وعلمت الطوائف الدينية - الوعاظ - والبندكت والأوغسطيون - الفلسفة الجديدة فى مدارسها . وأصبحت أسلوبا جديدا لتمجيد العقل فى العلم والشئون الانسانية ، مع اخضاعه بدقة ، فى الدين ، للوحى الالهى كما فسرته الكنيسة الكاثوليكية . وتقبل أنصار جانيسن وكنيسة بورت رويال الديكارتية باعتبارها توفيقا رائعا بين الدين والفلسفة .

ولكن ألمع المرتدين فيهم ، بليزبسكال استنكر الديكارتية مدخلا للالحاد ، وقال « لن أغفر لديكارت ، ربما كان مغتبطا ، وفى كل فلسفته ، بالاستغناء عن الله ، ولكنه ما كان فى مقدروه أن يتحاشى السماح له بنقرة بطرف الأصبع ليحرك العالم ، بعد أن كان فى غير حاجة الى الله (٤) » . وفى هذه النقطة اتفق اليسوعيون مع بسكال ، وبعد ١٦٥٠ نبذوا الديكارتية باعتبارها وسيلة ماكرة خبيثة لتقويض أركان العقيدة الدينية . وأرادت السوربون حرمان ديكارت من حماية القانون ، فدافع عنه بوالو ، وحرض نينودى لنلكوس وغيره موليير على هجاء السوربون ، فاذعنت للنقد وتوقفت (٥) . أما العلامة هيوت الذى ناصر الديكارتية لأمد طويل . فانه انقلب عليها لأنها لم تقف من المسيحية موقفا ثابتا ، تناولتها بالمديح تارة وبالتجريح تارة أخرى . وتزايد انزعاج رجال اللاهوت لصعوبة التوفيق بين تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه ، وبين وجهة نظر ديكارت فى « المادة » باعتبارها امتدادا خالصا . وفى ١٦٦٥ حرم لويس الرابع عشر تدريس الفلسفة فى الكلية الملكية ، وفى ١٦٧١ امتد هذا الحظر الى جامعة باريس ، وفى ١٦٨٧ اشترك بوسويه فى الهجوم على الديكارتية .

وأثارت هذه الاتهامات وتلك الادانة الاهتمـــام بالديكارتية من جديد • وجذبت الأنظار الى مذهب الشـك الذى أدخـــله « بحث فى المنهج » ، وانتشر الشك الأولى الذى جاء به هذا المقال خفية ، أما ملحقاته أو ذيوله القويمة المستقيمة فقد ذبلت وانطفـأت جذوتهـــا • وما كان يبقى فى القرن الثامن عشر شيء من هذا « المنهج » الذى كان يوما ظافرا منتصرا اللهم الا محاولته الهبوط بالعالم الى مجـرد آلة « ماكبنة » تذعن لقوانين الفيزياء والكيمياء • وبدا أن كل اكتشـــاف جديد فى العلوم يؤيد « آلية » ديكارت ، ويضعف الثقـــة فى لاهوت ديكارت • ولم يوجد مكان لرب ابراهيم واسحق ويعقوب فى الصورة التى وضعها ديكارت للكون ، كما أن المسيح لم يكن ماثلا فيها • ولم يبق فيها الا رب عملاق أعطى العالم دفعة أولية ، ثم تقاعس ، اللهم الا بوصفه كفيلا وضامنا لاحداس ديكارت ، وهذا لم يكن الرب المهيب الرهيب الذى ورد ذكره فى العهد القديم، ولا الأب الرحيم الذى ورد ذكره فى العهد الجديد ، انه كان رب «الربوبيين» ، غير مشخص ولا عمل له، جدير بالاهمال ، خاضع لمختلف القوانين ، فمن ذا الذى يفـــكر فى الصلاة من أجل هذا العبث الابيقورى ؟ وبالفعـــل فى عامى ١٦٦٩ و ١٦٧٨ شرحت كتب غليوم لامى الاستاذ بكليـة الطب فى جامعـــة باريس ، علم نفس ميكانيكى تماما ، واســـتبقت بذلك كتب كونديناك « فى الأحاسيس » (١٧٠٤) كما شرحت فلسفة مادية اســتبقت كتـــاب لامترى « الانسان الآلة » (١٧٤٨) • وفى غمرة هــــذا العـراك قام سيرانو دى برجراك برحلاته المخزية الى القمر والشمس •

٢ — سيرانو دى برجراك : ١٦١٩ — ١٦٥٥

سيرانو بالنسبة لمعظمنا هو العاشق الولهـــان الذى قلده الروائى روستان ساخرا ، والذى خسر كل سباق مع ربات الجمـــال وهو على وشك الفوز بالوصال • ولكن سيرانو الحقيقى لم يخب رجاؤه الى هذا الحد ، بل تنعم بالحياة وبالحب ، وقضي وقته مستمتعا كل المتعة • والى التعليم المألوف الذى يتلقاه كل فتى كريم المحتد ، أضاف سيرانو (مع موليير) الاستماع فى شغف ولهف الى محاضرات بييرجاسندى القسيس المحبوب الذى أولع بابيقور المـــادى ولوكريشس الملحـــد • وأصبح سيرانو روحا قوية بشكل خاص ، فاسقا بما تحمل هذه الكلمة

من معنيين ، منكرا حرا يحيا حياة خليعة مطلقة من كل قيد . وانضم فى باريس الى جماعة دأبت على الصخب والعربدة وتدنيس المقدسات، وذاع صيته فى المبارزة . وخدم فى الجيش ، وأقعدته جراحة لبعض الوقت عن العمل . ثم انصرف عن الملذات الجنسية الى الفلسفة . وكتب أول رواية فلسفية فرنسية ، وفتح الطريق أمام سويفت بالسخرية من بنى الانسان فى رحلات الى أجزاء من العالم لم تطاها قدم . وسخر من القديسين أوغسطين الوقور « الشخصية العظيمة » الذى يؤكد لنا ، على الرعم من أن الروح القدس أنار جوانب عقله ، أن الأرض كانت على عهد مسطحه مثل التنور ، عائمة على الماء مثل نصف برتقالة (٦) .

وجرب سيرانو قلمه فى كل الوان الأدب تقريبا ، وقلما كان يأخذ أى لون مأخذ الجد ، ولكنه كان عادة يضرب على الوتر الحساس — وبدت ملهاته « المتحذلق اللعوب » فى نظر موليير صالحة لأن يسرق منها مشهدا أو مشهدين ، أما مأساته « موت أجربين » فقد مثلت مرة فى ١٦٤٠ ، ثم ما لبثت أن صادرتها السلطات الرسمية وكان عليها أن تنتظر حتى تصل خشبة المسرح ثانية فى ١٦٦٠ ، ولكنهـــا نشرت فى ١٦٥٤ ، وسرعان ما تغنى شباب باريس الطائش المتهور بأبيات الالحاد التى وردت على لسان سيجان :

« ماذا يكون هؤلاء الأرباب اذن ؟ نتاج مخاوفنـــا
وهرائنا التافه ، نعيدها دون أن ندرك لهذا سببا .. ..
أرباب لم يصنعهم انسان ، ولم يصنعوا هم انسانا قط » .
ثم الأبيات تتحدث عن الخلود : « بعد ساعة واحدة من الموت
تعود نفوسنا التى زالت من الوجود ، سيرتها قبل الخروج
الى الحياة بساعة » .

وبعد طبع هذه الرواية سرعان ما سقطت على أم رأسه عارضة أودت بحياته وهو فى سن السادسة والثلاثين ، وترك وراءه مخطوطة طبعت فى جزءين تحت عنوان « التاريخ الهزلى لدول وامبراطوريات القمر » (١٦٥٧) « والتاريخ الهزلى لدول وامبراطوريات الشمس » (١٦٦٢) ، وكانتا نوعا من القصص العلمى ، المبنى على « كونيات » ديكارت ، مستمدا الكواكب من دواماتها التى كونتها الاهاجة الثورية

فى المادة البدائية . وذهب سيرانو الى أن الكواكب كانت يوما متوهجة مثل الشمس ولكن ،

> بمرور الزمن فقدت كثيرا من ضوئها وحرارتها بفعل الانبعاث المستمر لخلاياها التى تحدث مثل هذه الظاهـــرة ، حتى أصبحت باردة معتمة ، ولبابا واهنا تقريبا . اننا نرى حتى البقع الشمسية يكبر حجمها يوما بعد يوما . وما يدرينــا الآن ان هذه البقع ليست الا قشرة على ســطح الشمس من كتلتها التى تبرد تبعا لفقدان الضوء ، أن الشمس لن تصبح كره معتمة مثل الأرض (٧) ؟

ودفعته الصواريخ فغادر الأرض حتى وصل بسرعة الى القمر . ولحظ أنه طيلة ثلاثة أرباع المسافة ، كان يحس بأن الأرض تشده الى الوراء ، وفى المربع الأخير أحس بجاذبية القمر . « فقلت فى نفسي ان هذا راجع الى أن كتلة القمر أصغر من كتلة الأرض ، ومن ثم يكون محيط تأثيره أصغر من حيث المسافة (٨) . وعندما هبط وقد أصابه الدوار ، وجد نفسه فى جنة عدن ، ويدخل فى مناقشة مع الباهو (الله) حول الخطيئة الأولى ، فيطرد من الجنة الى القفــاز البدائيـــة فى القمر . وهناك يواجه قبيلة من الحيوان طول الواحد منها تسعة أذرع، فى زى الرجال ، ولكنها تمشي على أربع . ولما كان أحـــدهم الروح الحارسة لسقراط أو شيطانه فى أثينا من قبل ، فانه يتحدث بلغـــة يونانية فلسفية ، ويقول لسيرانو ان المشي على أربع هـــو الطريقــة الطبيعية الصحية ، وان هؤلاء السادة القمريين لديهم مائة حاســة لا خمسا أو ستا فقط ، وأنهم يدركون من الحقائق ما لا يحصي ولا يعد، ممـــا يخفى على بنى البشر (وقد يتلاعب فونتنيل وفولتير وديدرو بهذه الأفكار) . ويجمح خيال سيرانو : ان هؤلاء القمريين - يتغذون على الأبخرة التى تتصاعد من الأطعمة لا على الأطعمة ذاتها ، ومن ثم يتخلصون من متاعب الهضم ومضايقاته ، ومن مهانة خروج الفضلات من الجسم ومفارقاته . وقوانين القمر يســنها الشبان الذين يجلهـــم ويحترمهم الشيوخ ، وأهل القمر هؤلاء يستنكرون العـــزوبة والتبتل والعفة ، ويمتدحون الانتحار واحراق جثث الموتى والأنوف الكبيرة . ويوضح شيطان سقراط ســـالف الذكــر أن الدنيـــا لم تخـــلق ، بل

ازلية ، وأن الخلق من العدم (تعلم هذا عن الفلاسفة السكولاسيين) أمر لا يمكن تصوره ، وأن أزلية الكون فكرة ليست أصعب تقبلا من أزلية الاله ، والحق أن فرضية وجود اله ليست ضرورية على أية حال، حيث أن العالم آلة تندفع وتستمر بذاتها . ويجادل سيرانو فى انه لابد أن يكون هناك اله لأنه رأى بعينى رأسه علاجات خارقة معجزة ، فيسخر الشيطان من هذا كله باعتباره ضربا من الايحاء أو التخيل ، ويثار اثيوبى قوى جبار للعقيدة القويمة ، حيث يمسك بسيرانو باحدى يديه، وبالشيطان باليد الأخرى ، ويلقى بالشيطان فى الجحيم ، وفى الطريق يقذف بسيرانو فى ايطاليا ، حيث تنبح كل الكلاب من حوله حين اشتمت منه رائحة القمر . وكذلك انجذب انتباه جوناثان سويفت .

٣ ــ مالبرانش : ١٦٣٨ ــ ١٧١٥ :

فى مقابل الانتاج الموصوم بالكفر والمروق عند جامسندى وديكارت، وجد الايمان سندا قويا ، لا فى بسكال وبوسيويه وفنيلون فحسب ، بل فى واحد من ادق وأبرع الميتافيزيقيين فى العصور الحديثة كذلك .

كاد نيقولا مالبرانش أن يكون معاصرا للويس الرابع عشر تماما ، فقد ولد قبله بشهر ، ومات بعده بشهر . ولم يكن ثمة شبه بينهما الا هذا . وكان نيقولا وديع النفس طاهر الذيل ، ومذ كان أبوه سكرتير لويس الثالث عشر ، وعمه نائب الملك فى كندا ، فقد اجتمع له كرم المحتد وحسن التنشئة ، اللهم الا صحته ، فقد كان جسمه ضعيفا مشوها. وليس ثمة ما يفسر أنه عمر حتى السابعة والسبعين الا التزامه بساطة العيش وهدوء الحياة فى الدير . وفى الثانية والعشرين من عمره انضم الى « جماعة المصلى » وهى طائفة دينية تفرغت للتامل والوعظ ، ورسم قسيسا فى السادسة والعشرين .

وفى العام نفسه وقع على كتاب ديكارت « رسالة عن الانسان » ، وابتهج بطريقة المناقشة والاسلوب معا ، وأصبح ديكارتيا ذا ايمان راسخ بالعقل . وعقد العزم لفوره على أن يبرهن بالعقل على المذهب الكاثوليكى الذى نبتت فيه جذور حياته ووضع فيه كل آماله ، وكانت هذه خطوة جريئة ، ارتدادا من بسكال الى توما الأكوينى . وهى خطوة كشفت عن الثقة العميقة فى الشباب ، ولكنها عرضت حصون

الايمان لغارات العقل · وبعد عشر سنوات من الدرس والكتـابة أصدر مالبرانش فى أربعة مجلدات (١٦٧٤) تحفة من روائع الفلسفة الفرنسية تحت عنوان « البحث عن الحقيقة » · وهنا ، كما هو الحال فى كل فلاسفة فرنسا ، كان وضوح الالتزام الخلقى وادراكه أمرا مقبـــولا ، وأصبحت الفلسفة أدبا ·

ولم يكن ديكارت قد بدأ دراساته المضنية عن النفس فحسب ، بل كان قد وضع مثل هذه الهوة بين الجسم ماديا وميكانيكيا وبين العقل روحيا وحرا ، بحيث لا يمكن تصور أى تفاعل بينهما · ومع ذلك بدا هذا التفاعل أمرا لا نزاع فيه : ان فكرة قد تحرك ذراعا أو جيشا ، مخدرا قد يشوش الذهن · وكان نصف حيرة خلفاء ديكارت فى عبور الهوة بين الجسم والفكر ·

ان فيلســـوفا فلمنكيا هو أرنولد جيلنكس مهـــد الطـريق أمام مالبرانش ــ وسبينوزا وليبنتز ــ بانكاره التفاعل · ان الجسم المادى لا يؤثر فى العقل غير المادى ، والعكس بالعكس ، واذا بدا أن أحدهما يؤثر فى الآخر ، فما ذاك الا لأن الله قد خلق الحقيقة فى مجـــريين متميزين للأحداث ، أحدهما مادى والآخر عقلى ، وتزامنهما أشبه بتزامن ساعتى حائط على نفس الوقت والسرعة ، تدقان نفس الســـاعات فى وقت واحد ، ولكنهما الواحدة منهما مستقلة عن الأخرى ، اللهم الا أن كلتيهما من مصدر واحد ــ الذكاء الذى وضعهما وبدأهما · ومن‌ثم يكون الله هو المصدر الوحيد لكل من سلسلتى الاســـباب والنتائج المـــادية والعقلية · والحالة العقلية هى الفرصة المناسبة ، لا السبب ، للحركة المادية الناشئة ظاهريا ، والحركة المادية ــ عملا أو احساسا ــ هى مجرد فرصة للحالة العقلية التى تبدو أنها تسببها ، والله ، فى كل حالة ، هو وحده العلة أو السبب × · وعند هذه النقطـــة نقض جلينكس ، الذى

× ان التنقيح الذى ادخله سبينوزا على « نظـرية التـــوازى فى علم النفس البدنى » قد يساعدنا على فهم جيلنكس · ان الله او الطبيعة تعمـــل فى ناحيتين او مجريين متزامنين : التعاقبات المادية للعالم الموضوعى ، بما فى ذلك اجسامنا ، والتعاقبات العقلية للعالم الذاتى ، بما فى ذلك مشاعرنا وافكارنا ورغباتنا · ولا يسبب احد هذين المجريين المجرى الاخر ، لان كليهما مجرد جانبين ــ الخارجى والداخلى ــ لعملية واحدة ــ مجرى واحد مزدوج للأحداث ·

كانه يخشي الجبرية ، منهجه ، حيث أجاز القول بانه فى الأعمال الارادية يمكن أن تكون الارادة الانسانية المتعاونة مع الله ، سببا حقيقيا للنتائج المادية .

وأكمل مالبرانش من مذهب « الاتفاقية » المتردد هذا . فالله دائما هو سبب كل من العمل المادى والحالة العقلية ، وتفاعلهما صورى، ولا يتفاعل أى منهما مع الآخر× . « ان الله وحده يرد الهواء الذى جعلنى هو أتنفسه ... لست انا الذى أتنفس ، اننى أتنفس على الرغم منى . لست انا اتحدث اليك ، وكل ما هنالك انى أرغب فى التحدث اليك (٩) » . ان الله (الطاقة الكلية للكون) هو القوة الوحيدة . وكل ما يتحرك و يفكر ، انما يفعل هذا لأن القوة الالهية تعمل من خلال العمليات المادية (البدنية) أو العقلية . والحركة هى الله يعمل فى أشكال مادية ، والتفكير هو الله يفكر فى داخلنا .

ان هذه الفلسفة الجبرية بشكل واضح تكتنفها صعاب لا تحصي حاول مالبرانش أن يتغلب عليها فى رسائل لاحقة . وحاول جاهدا التنسيق بين درجة من الارادة الحرة فى الانسان وبين قوة الله الشاملة للكون ، والتوفيق بين الشر والشقاء والنزعات الشيطانية المتعددة ، وبين السببية أو العلية الوحيدة الموجودة فى كل الوجود لنزعة خيرة عليمة قديرة ، ولن نتعقبه فى هذه المتاهات ، ولكنه فى أثناء جولاته وصولاته يترك لنا قبسا معينا فى علم النفس . فهو يرى أن الأحاسيس فى الجسم لا فى العقل . وفى العقل افكار ، وهو يعرف الأشياء باعتبارها فقط طوائف من الأفكار ـ من التركيب ، والحجم واللون والرائحة والصلابة والصوت والحرارة والطعم . ومركبات الأفكار هذه ليست مكونة من الشيء لا غير ، فان معظم الصفات المذكورة هنا ليست فى الشيء نفسه ، وكثير من أحكامنا على الشيء ـ انه كبير أو صغير ، منير أو مظلم ثقيل أو خفيف ، حار أو بارد ، يتحرك بسرعة او ببطء ـ تصف موقع المشاهد وحالته ووضعه ، لا صفات الشيء الذى يشاهده . ونحن لا نعرف الأشياء . وكل ما نعرفه هو مدركاتنا وأفكارنا المتحيزة المتحولة . (وكل هذا قبل لوك باركلى بجيل واحد) .

× قارن هذا العرض اللاهوتى بنظرية القضاء والقدر التى تقول بان كل حركة فى المادة وكل حالة عقلية ، تسببها القبلية (الماضي) الكلية ، وأن العوامل المادية والنفس والارادة الحرة ، كلها أدوات القوة الكلية أو الطاقة الكونية التى تعمل عن طريق المادة والعقل .

وعلى الرغم من الخلفية الروحانية عنـــد مالبرانش فانه ، بعد ديكارت وهوبز ، يمدنا بتفسير فسيولوجى للعـــادة والذاكرة وتوارد الخواطر فالمادة هى خفة أو رشاقة تفيض بها الأرواح الحيوانية ، نتيجة للخبرات أو الأفعال المتشابهة التى غالبا ما تتكرر ، الى أخـــاديد أو قنوات معينة فى الجسم ٠ والذاكرة هى استعادة نشاط الخواطر التى نشأت فى الخبرة ، فان الخواطر تميل الى الترابط تبعا لتسلسلها أو أو امتدادها المتصل السابق ، وقوة الشخصية وقوة الارادة هما قـــوة الروح الحيوانية التى تتدفق فى انسجة المخ ، فتعمل على تعميق مجارى الترابط ، وزيادة نشاط الخيال والتصور ٠

وعلى الرغم من تمسك مالبرانش باهداب التقوى فقـــد كان فى فلسفته عناصر كثيرة أزعجت بنين بوسويه الحارس اليقظ الأمين عـــلى العقيدة التقليدية القويمة ٠ وفى حركة بارعة لتحويل انطوان أرنولد ذى القلم اللاذع عن المنطق الجانسينى الى نجدة العقيدة القويمـــة ، نجد بوسيويه يحرض أرنولد هـــذا على تأنيب مالبرانش لهرطقتـــه المستترة ٠ ودافع الفيلسوف عن نفسه فى عدة رسائل فصيحة لا تصدق مثل الرسالة الأولى ، واستمر الجـــدال من ١٦٨٣ ــ ١٦٩٧ ، وجلب بوسويه مدفعية فنيلون الخفيفة الى ساحة المعمعمة ٠ ولـــا رأت مدام سفينى Sevigne الفيران تلتهم محصولاتها ، ويرقات الفراشات تلتهم أشجارها ، شكت من انها لم تجد الا قليلا من العزاء فى وجهة نظـــر مالبرانش مـــن أن البشر عنصر ضرورى فى أحســـن ما يمـــكن مـــن العوالم (١٠) ٠

وكان لمالبرانش أصدقاء غيورون كثيرين يمكن أن يتوازنوا مع هؤلاء النقاد ، فقد وجد الشباب وعجائز النساء فى نظريته عن الله عاملا وحيدا فى كل الافعال ، سرورا باطنيا فى الاستسلام لأمر الله والاتحاد مع الله ٠ وشق الفرنسيون والأجانب طريقهم الى صومعته ٠ وقال أحد الانجليز انه ما قدم الى فرنسا الا ليرى اثنين طبقت شهرتهما الآفاق : لويس الرابع عشر ومالبرانش (١١) ٠

وجاء باركلى ، وقدم لفيلسوفنا كل اجلال واحترام ودخـــل مع الكاهن العجوز فى نقاش طويل ٠ وسرعان ما دب الضعف الى مالبرانش بعد ذلك ، وكان فى السابعة والسبعين ، وأخذ فى الذبول والنحول

يوما بعد يوم ، حتى لم يكد عقله يجد فى جسمه مجالا أو حيزا لتفكيره . وفى ١٣ أكتوبر ١٧١٥ فاضت روحه وهو نائم .

وخبت جذوة شهرته وشيكا بعد موته ، لأن فلسفته الدينية لم تنسجم مع تشكك وصاية العرش وعربدتها ، كما أنها كانت أقل انسجاما مع النزعة الناشئة عند الفلاسفة لاحلال « ماكينة » العالم محل العناية الالهية . ولكن تأثيره ظهر فى محاولة ليبنتز لاظهار أن الواقع هو أفضل عالم ممكن ، من وجهة نظر باركلى ان الاشياء موجودة فقط فى أدراكنا الحسي أو فى إدراك الله ، وفى تحليل هيوم المدمر للسبب أو العلة باعتبارها صفة خفية مستترة ، وفى توكيد كانت على العناصر الذاتية فى تكوين المعرفة ، حتى فى نظرية الجبرية فى عصر الاستنارة . فان القول بان الله هو السبب الوحيد فى كل الحركات والرغبات والأفكار ، لا يختلف كثيرا عن القول بان كل تغيير فى المادة أو فى العقل نتيجة لا مناص منها للقوى الكلية التى تعمل فى الكون فى تلك اللحظة . وفى ساعة نشوة كان مالبراش قد اقترب - ولو أنه أنكر ذلك - من جبرية جعلت من الانسان آلة ذاتية الحركة (انسانا أوتوماتيكيا) .

ان مذهب الاتفاقية كان ، فوق كل شيء حلا وسطا بين ديكارت وسبينوزا . رأى ديكارت الآلية أو الميكانيكية فى المادة . ولكن الحرية فى العقل . ورأى مالبرانش أن الله هو السبب الوحيد فى كل عمل فى كل عقل . واتفق سبينوزا ، وهو ثمل بنشوة الوجد الالهى « مثل أى راهب ، مع مالبرانش فى أن سلسلتى الاعمال العقلية والمادية كلتيهما هما نتاج متواز لقوة خلاقة واحدة . ان العابد المتأمل الورع مذ رأى الله موجودا فى كل الوجود ، كان قد لقن ، عن غير عمد منه ، حتى المؤمنين ، « وحدة وجود » (الله والطبيعة شيء واحد ، الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر للذات الالهية) ، لم ينقصها الا عبارة « الله أو الطبيعة » لتصبح فلسفة سبينوزا أو فلسفة عصر الاستنارة .

٤ - بييربيل : ١٦٤٧ - ١٧٠٦ :

كان « أبو الاستنارة » ابن قسيس من الهيجونوت يعمل فى مدينة كارلا فى مقاطعة فوا فى سفح البرانس ، حيث قضي بيير هناك الاثنين والعشرين عاما الأولى من عمره ، يتعلم اليونانية واللاتينية والكلفنية .

وكان شابا رقيق الشعور سريع التأثر . وفى ١٦٦٩ أرسل الى الكلية اليسوعية فى تولوز ليتلقى أحسن تعليم كلاسيكى يمكن أن توفره له أمرته ومواردها ، فاحب أساتذته حبا جما ، وسرعان ما تحول الى الكثلكة فى حماسة بلغت به الى درجة محاولته تحويل أبيه وأخيه اليها. فاحتملاه فى صبر وجلد ، وبعد ذلك بسبعة عشر شهرا عاد الى مذهب أبيه . ولكنه بات الآن هرطيقا مرتدا . فكان عرضة لملاحقة الكنيسة الكاثوليكية له . فارسله أبوه حماية له منها ، الى الجامعة الكلفنية فى جنيف (١٦٧٠) ، أملا فى أن يلتحق ببير بخدمة الكنيسة البروتستانتية وهناك على أية حال وقع بيل على مؤلفات ديكارت ، وبدأ يتسرب الى نفسه الشك فى كل أشكال المسيحية .

وبعد استكمال دراسته أقام فى جنيف وروان وباريس مشتغلا بالتدريس ، ثم ارتقى الى استاذ للفلسفة فى معهد الهيجونوت فى ميدان (١٦٧٥) . ولكن المعهد أغلق فى ١٦٨١ بأمر من لويس الرابع عشر كجزء من حرب الاستنزاف ضد مرسوم نانت ، ووجد ببير له ملجأ فى روتردام ، والتحق بوظيفة استاذ للتاريخ والفلسفة فى « المدرسة الكبيرة » ، أكاديمية البلدية . وكان من أوائل المفكرين المهاجرين الكثيرين الذين اتخذوا من الجمهورية الهولندية فى ذاك الزمان قلعة للفكر المستقل .

وكان راتبه ضئيلا ، ولكنه قنع بالعيش البسيط ما دام فى مقدوره الحصول على الكتب . ولم يتزوج قط ، مؤثرا المكتبة على الزوجة . ولم يكن غير مدرك لمفاتن النساء وأفضالهن ، وربما شكر لأية سيدة فاضلة كريم عنايتها به ، ولكنه عانى طوال حياته من الصداع ، ومن « دوار نصفى » أو انقباض فى الصدر واكتئاب يلازمه ، ولا ريب فى أنه تردد فى اشراك قرينة له فيما يعانيه من علل وأمراض . ومهما يكن من أمر فقد كانت تمر به لحظات ينزع فيها الى السخرية ، ذلك أنه عندما حاول الأب ميمبورج اليسوعى الفرنسي فى كتابه « تاريخ الكلفنية » أن يبرهن على أن القساوسة الكاثوليك كانوا قد قبلوا التحول الى البروتستنتية رغبة فى الزواج ، تساءل بيل : فكيف يمكن أن يكون هذا ، « فأية محنة أكبر من الزواج ؟ (١٢) » .

وعرض بيل كتاب ميمبورج فى مجلد من الرسائل ظهر فى

١٦٨٢ . وعجيب كيف يتسنى لرجل التزم التزاما قويا بمذهب معين ، أن يكتب تاريخا صادقا نزيها غير متحيز . كيــف يمكن أن يوثق فى مؤرخ مثل ميمبورج نعت معاملة لويس الرابع عشر للهيجونوت (قبل ١٦٨٢) بأنها معاملة « عادلة رقيقة كريمة ؟ » ووجه الخطــاب الى لويس الرابع عشر ، فكتب من هولنده التى كانت فرنسا قد اجتاحتها حديثا بشكل وحشي اثيم ، متسائلا : أى حق للملك فى فرض مذهبــه الدينى على رعاياه ؟ واذا كان له هذا الحق ، لكان للأباطرة الرومان ما يبرر اضطهادهم المسيحية . وذهب بيل الى أن الضمير هو وحده الذى يحكم عقيدة المرء . ورد ميمبورج على ذلك ردا حاسما بالحصول على أمر من لويس الرابع عشر باحراق أية نسخة توجد فى فرنسا من كتاب بيل علنا بواسطة السلطات المختصة .

وفى العام نفسه ، ١٦٨٢ ، أصدر بيل اول أعماله الهامة « آراء شتى حول المذنب » وهو النجم المذنب الذى كان قد عبر السـماء فى ديسمبر ١٦٨٠ . وتولى الفزع أوربا بأسرها لهذا النجم الذى بدا أن النار فى ذنبه تنذر باحراق العالم . اننا اذا رجعنا الى الوراء لنشارك ذاك العصر خوفه وجزعه — حين فسر الكاثوليك والبروتستانت عـلى السواء هذه الظاهرة بأنها نذر الهية ، واعتقدوا أن الله سيرسل صاعقة من السماء على الأرض الخاطئة الآثمة فى أية لحظة ، فاننا عندئذ فقط نستطيع أن ندرك مدى الرعب الذى انتاب الناس عند ظهور هذا اللهب على غير انتظار ، أو أن نقدر مدى الشجاعة والحكمة فى تعليقات بيل عليه . ان العلامة ملتون نفسه كان قد قال حديثا « ان النجــم المذنب ينشر من شعره المروع الطاعون والحرب » (١٣) . ان بيل أسس بحثه على الدراسات الحديثة التى أجراها الفلكيون (ولكن لم يكن نجم هالى ١٦٨٢ قد ظهر بعد) ، ومن ثم أكد لقرائه أن النجوم المذنبة تتحرك فى السموات طبقا لقوانين ثابتة وليس لها أية علاقة بشــقاء البشر أو سعادتهم . ورثى لانتشار الخرافات والحاحها على عقول الناس . « ان الذى يقفو زلات العباد ملتمسا أسبابها لن ينتهى من ذلك أبدا (١٤) ». ونبذ الايمان بكل المعجزات الا ما ورد منهــا فى العهــد الجــديد « الانجيل » ، (ولولا هذا الاستثناء ، لما سمح بطبــع الكتــاب فى هولنده) . « فى الفلسفة الصحيحة ، ليست الطبيعة الا الله نفسه ،

يعمل وفق قوانين معينة استنها سبحانه [illegible]الى بمحض ارادته • ومن ثم فان اعمال الطبيعة هى من آثار قد[illegible] [illegible] مثل المعجزات سواء بسواء ، كما أن هذه الاعمال تدل على وجود قدرة عظمى مثل تلك التى تدل عليها المعجزات • وأن خلق انسان وفق قوانين التناسل الطبيعية ، لا يقل صعوبة عن قيامة انسان من بين الاموات (معجزة المسيح) (١٥)•

وانتقل بيل فى جرأة الى واحدة من اكثر مسائل التاريخ تعقيدا : هل يمكن أن يكون هناك علم أخلاق طبيعي ـ هل يمكن الاحتفاظ بقانون أخلاقى دون عون من معتقد خارق للطبيعة ؟ هل أدى الالحاد الى افساد الاخلاق ؟ يقول بيل : اذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن نستنتج من الجريمة والفساد وسوء الخلق السائد فى أوربا أن معظم المسيحيون ملحدون فى قرارة أنفسهم • ان اليهود والمسلمين والمسيحين والكفار يختلفون فى عقائدهم الدينية ، لا فى أفعالهم وتصرفاتهم • وظاهر أن المعتقد الدينى ـ والأفكار بصفة عامة ـ ليس لها الا تاثير ضئيل على السلوك ، فهذا السلوك ينبع من الرغبات والانفعالات ، وهى عادة اقوى من المعتقدات • وأى تاثير كان لتعاليم المسيح على مفهوم الأوربيين للشجاعة والشرف ؟ ـ ذلك المفهوم الذى اختص باعظم المديح والثناء الانسان الذى يثار فى عنف وقوة للاساءة والأذى ، والذى يبرع فى فنون الحرب باختراع ما لا يحصي من الآلات حتى يكون الحصار اشد فتكا وارهابا وازعاجا • ان الكفار يتعلمون منا استخدام أسلحة أقوى (١٦) • وخلص بيل من هذا الى أن مجت[illegible] من الملحدين قد لا يكون أسوأ خلقا من مجتمع من المسيحيين • ليس الذى يحمل معظمنا على التزام جادة الصواب والنظام هو الخشية من الجحيم ، وهذا امر بعيد غير يقينى ، قدر خوفنا من رجل الشرطة ومن القانون ، ومن ادانة المجتمع لنا • ومن العار الذى يلحق بنا ، ومن الجلاد ، خل بيننا وبين هذه العوائق تعم الفوضي فاذا تمسكت بها لأمكن انه يقوم مجتمع من الملحدين والحق أنه قد يضم رجالا كثيرين على درجة رفيعة من الشرف ونساء كثيرات طاهرات عفيفات (١٧) • وانا لنسمع عن نماذج من هؤلاء الملحدين فى الأزمنة القديمة ، مثل أبيقور وبلينى الاكبر وبلينى الأصغر ، وفى العصور الحديثة [illegible] ميشيل دى لوبيتال وسبينوزا ، (أما انحطاط أخلاق الفرد العادى عما هى عليه اذا لم [illegible]من الديانة القانون ، فتلك مسالة لم يتعرض لها بيل) •

ونشر موضوع « النجم المذنب » غفلا من اسم المؤلف . واتخذ بيل نفس الحيطة حين افتتح واحدة من أكبر الدوريات فى ذلك العصر : « أنباء جمهورية الأدب » . وظهر العدد الاول منها فى مائة واربع صفحات ، فى امستردام فى مارس ١٦٨٤ وعرضت المجلة ان تزود قراءها بكل التطورات الهامة فى الأدب والعلوم والفلسفة والبحوث والكشوف والتاريخ الرسمى . ومبلغ علمنا ان بيل نفسه كتب محتويات المجلة شهرا بعد شهر لمدة ثلاثة اعوام . وقد ندرك مبلغ الجهد الذى استلزمه هذا العمل . وسرعان ما أصبح استعراضه للكتب ذخيرة قوية فى دنيا الأدب . وفى ١٦٨٥ جمع أطراف شجاعته واعلن انه المؤلف . وبعد ذلك بعامين تدهورت صحته فترك تحرير المجلة لآخرين غيره .

وفى تلك الاثناء وقع اربعة من اسرة بيل فريسة اضطهاد الهيجونوت فى فرنسا . وكنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لعنف اضطهاد القوات الفرنسية للبروتستانت ، ماتت امه فى ١٦٨١ ، ومات أبوه فى ١٦٨٥ ، وفى نفس العام سجن أخوه ثم قضى نحبه نتيجة للتعذيب والقسوة . وبعد ذلك بستة ايام ألغى مرسوم نانت . وصعق بيل لهذه التطورات ، ولم يكن له ، مثل فولتير ، من سلاح غير قلمه ، وفى ١٦٨٦ تحدى الطغاة المستبدين باحدى الروائع فى أدب التسامح الدينى .

وكان عنوان هذه الرسالة « تعليق فلسفى على كلمات يسوع المسيح » : اخرج الى الطرق والسياجات والزمهم بالدخول . (لوقا ١٤ ــ ٢٣) .

وكان هؤلاء الطغاة الوحشيون قد التمسوا سندا لاجراءاتهم التعسفية فى القصة التى رواها المسيح عن الرجل الذى قال لعهده ، حين لم تلب ضيوفه دعوته الى عشاء عظيم أعده لهم « اخرج عاجلا الى شوارع المدينة وازقتها ، وادخل الى هنا المساكين والجدع . والعرج والعمى .. .. والزمهم بالدخول حتى يمتلىء بيتى (١٨) » (انجيل لوقا ــ ١٤ : ١٦ ــ ٢٣) . ولم يجد بيل مشقة فى ايضاح أن هذا الكلام ليس له علاقة بارغام الناس على اتباع دين أو مذهب واحد ، بل العكس ، وجدنا ان محاولة فرض معتقد دينى موحد قد خضب نصف أوربا بالدماء ، وان تباين المذاهب الدينية فى الدولة حال دون

وصول أحدها الى درجة من القوة تمكنه من الاضطهاد . وفضلا عن هذا : من منا يثق بانه على حق الى حد يستند اليه فى ايذاء من يخالفونه ؟ واستنكر بيل اضطهاد البروتستانت للكاثوليك ، والمسيحيين لغير المسيحيين ، والعكس بالعكس سواء بسواء . وعلى النقيض من لوك ، اقترح بيل أن تمتد حرية العبادة أواللا عبادة الى اليهود والمسلمين والمفكرين الاحرار ونسي ما ذهب اليه من قبل من أن الملحدين يحتمل أن يكونوا مواطنين صالحين مثل المسيحيين ، فنصح بعدم التسامح مع الطوائف التى لا تؤمن بالعناية الالهية وبوجود اله يحاسب ويعاقب ، فان هؤلاء لا تطهر من نفوسهم خشية الله ومن ثم قد يجعلون من الصعب تطبيق القانون (١٩) . أما بالنسبة للآخرين فلا يجوز التسامح مع المتعصبين منهم . فهل يجوز لدولة بروتستانتية أن تتسامح فى أن تقوم فيها كاثوليكية دافعت عن التعصب على اعتبار أن الكثلكة وحدها هى العقيدة الحقة الصحيحة ؟ . ورأى بيل أن الكاثوليك فى مثل هذه الحالات - « يجب أن يسلبوا سلطة الحاق الأذى والضرر بغيرهم ... ومع ذلك فانا لا أقر تعرضهم للاساءة والاهانة ، أو الانتقاص من تمتعهم بحق الملكية ، أو حق ممارستهم لديانتهم ، ولا أقر حرمانهم من اللجوء الى القانون (٢٠) .

ولم يكن البروتستانت أكثر ارتياحا من الكاثوليك لبرنامج التسامح هذا ، من ذلك أن بيير جوريو - الذى كان صديق بيل وزميله فى العمل فى سيدان ، وكان الآن راعيا لأبرشية كلفنية فى روتردام - هاجمه فى بحث بعنوان : « حقوق السيدين فى أمور الدين - الضمير والامير - . (١٦٨٧) وذهب جوريو الى هدم نظرية عدم الاهتمام بالأديان ، وفكرة التسامح العام والشامل ، معارضا كتابا بعنوان « تعليقات فلسفية » . واتفق مع البابوات فى أن للحكام أو الملوك الحق فى القضاء على أية عقيدة زائفة ، وقد روعه بخاصة التسامح مع اليهود والمسلمين والسوسنيين والوثنيين . وفى ١٦٩١ أهاب جوريو بعمد مدينة روتردام ان يفصلوا بيل من عمله ، فرفضوا . ولكن فى ١٦٩٣ جاءت الانتخابات بهيئة حكام جديدة ، وجدد جوريو حملته متهما بيل بالالحاد ، فطرد من وظيفته ، فقال الفيلسوف « اللهم انقذنا من محكمة التفتيش البروتستانتية ، فلن تنقضي خمس أو ست سنوات حتى تشتد

وطأتها الى درجة يتطلع الناس معها الى عـودة محـاكم التفتيش الكاثوليكية (٢١) ٠

وسرعان ما استرد بيل هدوء نفسه وعاد الى طبيعته ، فتكيف مع الظروف ، وكان له كل العزاء والسلوى فى انه استطاع أن يخصص كل ساعات عمله لانجاز « قاموس » العصر الذى كان قد شرع فى تاليفه فعلا ٠ وراض نفسه على العيش على مدخراته ، وعلى بعض مكافآت شرفية من ناشرى كتبه ٠ وتلقى عروضا بالرعاية من سفير فرنسـا فى هولنده ومن ثلاثة من نبلاء الانجليز يحملون لقب ارل ، ولكنه رفض فى لطف وكياسة ، بل انه رفض مائتى جنيه عرضها عليه ارل شروزبرى نظير اهداء القاموس اليه ٠ وكان له أصدقاء ، ولكنه لم يكن له من وسائل اللهو والتسلية الا القليل ٠ « لم أهتم بالملاهى العامة أو الألعاب أو الرحلات الريفية ٠٠٠ أو غيرها من سباب الترفيه والمتعـة ٠ ولم أضيع وقتى فيها ولا فى المهام المنزلية ، ولم أطمع قط فى منصب ٠٠٠ انى أجد كل الحلاوة والراحة فى الدراسات التى شغلت نفسي بها ، وهى كل متعتى وبهجتى انى ساغنى لنفسي وللموزيات (ربات الشعر والفنون والعلوم (٢٢) » ٠

وهكذا قبع هادئا فى حجرته يعمل أربع عشرة ساعة فى اليوم ، يضيف صحيفة الى صحيفة فى المجلدات الغريبة التى أصبحت منبـع « الاستنارة » ٠ وظهر المجلدان الضـخمان فى ٢٦٠٠ صـحيفة فى روتردام فى ١٦٩٧ تحت اسم « قاموس تاريخى نقدى » ، ولم يكن معجم مفردات ، بل دراسة نقدية للأشـخاص والأماكن والآراء ، فى التاريخ والجغرافيا وعلم الاساطير واللاهوت والأخلاق والأدب والفلسفة وصاح وهو يدفع بالتجارب النهائية الى المطبعة « سبق السيف العذل » وكان هذا العمل مغامرة ثقيلة بالحياة وبالحرية ٠ لأنه احتـوى على هرطقات أكثر مما ضم أى كتاب آخر فى هذا القرن ، وربما أكثر من حفيده ، « موسوعة » ديدرو ودالمبرت (١٧٥١) ٠

وكان بيل قد بدأ وأمامه هدف محدود هو تصحيح الأخطاء وسد النقص فى « القاموس التاريخى الكبير » الذى كان موريرى قد أصدره فى ١٦٧٤ من وجهة النظر الكاثوليكية التقليدية ، ولكن الهدف اتسع

مع تقدم العمل . ولم يزعم قط انه كتب دائرة معارف ، فلم يتعرض لشيء ليس لديه ما يقول عنه . ومن ثم يتضمن « القاموس » أية مقالات عن شيشرون ، بيكون ، مونتانى ، جاليليو هوراس ، نيرون ، توماس مور ، واغفل العلم والفن الى حد كبير ، ومن ناحية أخرى كانت هناك مقالات عن الافذاذ غير البارزين مثل اكيبا ، وأوربيل اكوستا ، وايزاك أبرابانل . ولم تخصص المساحات الكبيرة طبقا للأهمية التاريخية ، بل تبعا لرغبة و هوى بيل نفسه ، وعلى هـذا فان ارزم الذى خصص له موريرى صحيفة واحدة ، افرد له بيل خمس عشرة صحيفة ، كما أفرد لابيلارد ثمان عشرة . وكان الترتيب ابجديا ، ولكنـه أشـبه بترتيب التلمود ، وكانت الحقائق الأساسية مثبتة فى النص ، ولكن فى كثير من الاحيان اضاف بيل حاشية فى حروف صغيرة ، أطلق فيها لنفسه العنان للدخول « فى متاهة من البراهين والمناقشات .. بل فى بعض الأحيان مجموعة كبيرة من تاملات فلسفية » . وفى وسط هذه الحروف الصغيرة الدقيقة ستر بيل هرطقاته عن النظرة العامة . وأثبت مراجعه فى الهوامش ، وهذه فى جملتها تنبىء عن سعة اطلاع ودرس ينـدر أن تتسع لهما حياة فرد . وتضمنت بعض الحواشي التى كتبها بيل بعض النوادر المكشوفة البعيدة عن الاحتشام ، أملا فى أن يزيد هذا من مبيعات الكتاب . ولكن لا ريب فى أنه وجد فيها هى نفسها متعة لشخصه وهو وحيد عاكف على الدرس والبحث . وأولع القراء مقدرين شـاكرين ، باسلوبه اللاذع الأنيق المتجول بين أبواب المعرفة ، وعرضه الماكر لنقاط الضعف فى المذاهب الدينية السائدة ، واعترافاته الصريحة الجريئـة بالعقيدة الكلفنية الصحيحة . وبيعت الطبعة الأصـلية وعـددها الف نسخة عن آخرها فى أربعة أشهر .

وكانت طريقة بيل هى أن يوازن بين المراجع ، ويتتبع الحقائق ويشرح الآراء المعارضة والمتناقضة ، وكان يتمشي مع العقل الى آخـر الشوط حتى اذا لم تلتئم النتائج التى يتوصل اليها مع العقيدة الصحيحة أو أساءت اليها نبذ النتائج فى تقى وورع . انحيازا الى جانب الأسفار المقدسة والايمان . وتساءل جوريو غاضبا « اذا عرضت عبارة أو لفظة تؤيد الايمان ضد العقل . فهل لها أن تحمل الناس على التخـلى عن الاعتراضات التى قال بيل بانه لا سبيل الى دحضها (٢٣) » . وفيمـا

عدا هذا فان ترتيب القاموس جزيل ، وتندرج بعض ابحـــاثه الكبرى تحت موضوعات تافهة او عنوانات مضللة . « انا لا أستطيع ان أطيل التامل فى موضوع واحد بانتظام شديد ، فانا مولع اشد الولع بالتغيير ، وغالبا ما أتحول عن المو ـع ، واقفز الى مواضع قد يكون من الصعب تلمس الخروج منها (٢٤) . وكانت المناقشة عادة مهذبة متواضـــعة بعيدة عن التزمت وديه ، ومهما يكن من أمر ، فان بيل كان من حين لآخر ، لاذعا حاد اللسان ، ومن ذلك أن مقاله عن القديس أوغسطين لم يغفر للكلفنى العظيم طول انصرافه عن العفة ولاهوته الكئيب وتعصبه الدينى . واعلن بيل ارتضاءه الكتاب المقدس على انه كلمة الله ، ولكنه اشار فى خبث الى أ ه ـ ـ ـ ـ ر بنا الا نؤمن اطلاقـــا ببعض قصص المعجزات الا اذا صدرت عن شخصية ممتازة . ووضع بعض الأساطير الوثنية ــ ابتلاع الحوت لهركيوليز مثلا ــ جنبا الى جنب مع القصص المماثلة فى الكتاب المقدس ، ثم ترك القارىء فى حيرة : لماذا نرفض قصة ونقبل أخرى . وفى واحدة من أشهر مقالاته أنكر مذابح الملك داود وخياناته واغتصابه للنساء . وترك القارىء يعجب ويتساءل : لماذا يمجد المسيحيون مثل هذا الوغد المتوج بانه من اجداد المسيح .

ووجد بيل أنه من الايسر عليه أن يبتلع يونس والحوت معا (أن يصدق القصة) عن أن يقبل سقوط آدم وحواء . كيف يتسنى لرب قدير أن يخلقهما وهو يعلم سلفا انهمـــا ســـيلطخان الجنس البشرى كله بخطيئتهما الأولى ويلحقـــان به من البؤس والشـــقاء ما لا يحصي ولا يقدر :

اذا كان الانسان مخلوقا من أصل طيب غاية الطيبة ، بالغ القداسة ، قديرا غاية القدرة ، فهل يمكن أن يتعرض للأمراض ، للحر والبرد ، للجوع والعطش ، للألم والحزن ؟ وهل يمكن أن يكون لديه مثل هذه النزعات السيئة الكثيرة ؟ وهل للقداسة الكاملة أن تنتج مخلوقا مجرما ؟ وهل لهذا الخير التام أن ينجب مخلوقا تعسا ؟ هـلا يتسنى لهـــذه القدرة ؟ مع الخير الذى لا حدود له ، أن تزود خلقها بافضل الاشياء فى وفرة وسخاء وتباعد بينه وبين كل عـدوان أو ازعاج واساءة (٢٥) ؟ .

ان اله سفر التكوين اما أن يكون قاسيا أو ذا قدرة محـــدودة • وعلى هذا شرح بيل فى كثير من التعاطف والقوة مفهـــوم المانوية من الهين ، للخير والشر (النور والظلام) يتصارعان للسيطرة على العالم وعلى الناس • وبما أن « البابويين والبروتستانت متفقون على أن قلة ضئيلة من الناس هى التى تنجو من العقاب السرمدى « فقد يبدو أن الشيطان سيكسب المعركة ضد المسيح ، وفوق ذلك ، فاذ انتصاراته أبدية لأن رجال اللاهوت يؤكدون لنا أنه لا منجاة من النــــار • وحيث أنه هناك ، أو سيكون هناك ، فى الجحيم عدد من الأنفس أكبر مما هو فى الجنة ، « فان الذين فى الجحيـــم سيلعنون دوما اســم الرب ، فان المخلوقات التى تكره الرب ستكون أكثر ممن يحبونه » • وانتهى بيل ، فى خبث ، الى القول « ينبغى ألا نركن الى المانوية حتى نقر أولا مبدأ الرفع من شان الايمان والعقيدة والانتقاص من قدر العقل (٢٦) •

وعبرت مقالة بيل عن « بيرهو » عن الشـــكوك فى التثليث ، « لأن الشيئين اللذين لا يختلفان عن ثالث ، لا يفترق الواحد منهما عن الآخـــر (٢٧) • اما بالنســـبة لتحول الخبز والنبيذ ـ لا يمـــكن أن ودمه ، فان أحوال المادة ـ ومن ثم ظهور الخبز والنبيذ ـ لا يمكن أن توجد بدون المادة التى تعدل منها (٢٨) • وبالنسبة لتراث كل الناس فى خطيئة آدم وحواء ، يقول بيل : « ما دام المخلوق غير موجـــود فلا يمكن أن يكون شريكا فى عمل خاطىء (٢٩) • ولكنه وضع كل هذه الشكوك على السنة آخرين غيره ، ثم استنكرها هو باسم الدين • واقتبس بيل « باعتبار أن هذا من أشد ما قال المارقون زيفا » أن « الدين ليس الا مجرد بدعة من عمل الانسان ، ابتدعها الملوك ليلزموا رعاياهم بالطاعة والاذعان لهم (٣٠) • وفى المقال الذى كتبه عن سبينوزا تعمـــد أن يتهم اليهودى الذى يعتنق مذهب وحدة الوجود بالالحاد ، ومع ذلك فانه لابد أنه عثر عند هذا الفيلسوف على شيء يســـحر لبه ويستوقف نظره ، لأن هذا أطول مقال فى القاموس • وزعم بيل أنه يؤكد لرجال اللاهوت من جديد أن كل هذه الشكوك التى أوردها فى كتابة لا تهدم العقيدة الدينية ـ لأن هذه مسائل فوق مستوى عقول الناس (٣١).

وذهب فاجويه الى أن بيل « ملحد بغير جـدال (٣٢) ولكن قد

يكون أكثر أنصافا أن ندرجه فى عداد الشكاكين ، وأنه كان كذلك يشك، فى مذهب الشك . ومن حيث أن الصفات الثانوية للحس ذاتية الى حد كبير ، فان العالم الموضوعى (الخارجى) يختلف كل الاختلاف عما يبدو لنا . « ان الطبيعة المطلقة للأشياء غير معروفة لنا ، وكل ما نعرفه هو بعض علاقات بعضها ببعض (٣٣) . وفى ٢٦٠٠ صحيفة من الاستنتاج والحجج والبراهين اعترف بضعف العقل ، فان العقل ، مثل الحواس التى يعتمد عليها ، قد يخدعنا . لانه غالبا ما يتغشاه الانفعال، والرغبة والهوى ، لا العقل ، هما اللذان يحددان سلوكنا . فالعقل يمكن ن يعلمنا أن نشك ولكنه قليلا ما يحركنا للعمل .

ان أسباب الشك مشكوك فيها هى الأخرى . ومن ثم يجب على الانسان ان يشك فيما اذا كان ينبغى له أن يشك . أية فوضى . وأى عذاب للذهن .. .. ان عقلنا يؤدى بنا الى أن نتيه ونهيم على وجوهنا على غير هدى . لأنه حين يكشف عن أكبر قدر من حدة الذهن والدقة ، يلقى بنا فى الهاوية .... ان العقل البشرى أداة هدم ، لا أداة بناء ، انه لا يصلح الا ليبدأ الشك ، ويجول وينتقل هنا وهناك ليديم الصراع (٣٤) .

وبناء على هذا أشار بيل على الفلاسفة الا يقيموا للفلسفة وزنا كبيرا ، ونصح المصلحين بالا يتوقعوا كثيرا من الاصلاح . وحيث أنه واضح أن الطبيعة الانسانية هى هى على مر القرون ، فانها بفعل الجشع وحب المشاكسة والشهوة الجنسية ، ستظل تثير من المشاكل ما يفسد المجتمعات ويؤدى الى فناء أية مدينة فاضلة (يوتوبيا) فى مهدها . ان الناس لا يتعلمون من التاريخ ، وكل جيل يتمخض عن نفس الأهواء والأوهام الخادعة والجرائم . ومن ثم فان الديموقراطية خطأ فى التقدير قدر ما هى حقيقية ، فالسماح للدهماء المشغولين المضللين المتهورين باختيار الحكام ورسم السياسة هو انتحار للدولة . وأى نوع من الملكية أمر ضرورى ، حتى فى ظل اشكال ديموقراطية (٣٥) . والتقدم أيضا وهم وخداع ، اننا خطأ نحسب الحركة تقدما ، ولكن يحتمل أنها مجرد تذبذب (٣٦) . أن خير ما نامل

فيه ، هو حكومة يمكنها ، على الرغم من أنها مزودة برجال شيمتهم الفساد ويعوزهم الكمال ، أن تسن لنا من القوانين ما يكفل لنا أن نزرع حدائقنا فى أمان وننصرف الى دراساتنا وهواياتنا فى هدوء وسلام .

ولم يستمتع بيل بمثل هذا الهدوء فى السنوات التسع التى بقيت له فى حياته ، وحين انتقل قراؤه من متن الكتاب الى حواشيه المطبوعة بحروف صغيرة جدا ثارت موجة من الاستياء بينهم . ودعا مجلس كنيسة والون فى روتردام بيل ـ وهو عضو فى مجمعها ـ للمثول أمامه ليرد على الاتهامات الموجهة اليه بان قاموسه تضمن « تعبيرات ومسائل غير لائقة ، وكثيرا جدا من الاقتباسات الفاجرة ، وملاحظات عدائية عن الالحاد وأبيقور ، وبخاصة مقالات كريهة مثيرة للاعتراض على داود وبيرهو والمانويين . ووعد بيل « بمزيد من التامل فى مذهب المانوية حتى اذا عثر على اية ردود ، أو أمده قساوسة المجلس بشىء منها ، فانه « يسعده أن يضعها فى أحسن صيغة ممكنة (٣٧) » . وفى الطبعة الثانية من القاموس (١٧٠٢) أعاد كتابة المقال الوارد عن داود وخفف من حدته . ولم يهدأ روع جوريو ، وجدد الحملة على بيل ، وشن عليه عى ١٧٠٦ هجوما عنيفا تحت عنوان « اتهام فيلسوف روتردام ومهاجمته وادانته » .

وانهارت صحة بيل بعد هذه الطبعة الثانية . وعانى مثل سبينوزا من السل . وفى تلك السنوات لازمه السعال بشكل دائم تقريبا ، وانتابته الحمى الراجعة ، وزاد الصداع من اكتئابه وجزعه . واقتنع بالا أمل فى البرء من علته ، استسلم للموت ، وزاد اعتكافه فى حجرته ، واشتغل ليل نهار فى اعداد رده على ناقديه . وفى ٢٧ ديسمبر ١٧٠٦ أرسل الصيغة النهائية الى المطبعة . وفى صباح اليوم التالى وجده أصدقاؤه ميتا فى فراشه .

وانتشر تاثيره طوال القرن الثامن عشر . واعيد طبع قاموسه عدة مرات ، حتى أصبح مصدر ابتهاج خفى لآلاف العقول الثائرة . وما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان القاموس قد طبع تسع مرات باللغة الفرنسية ، وثلاث مرات بالانجليزية ومرة بالالمانية . وحاول المعجبون

به فى روتردام أن يقيموا له تمثالا الى جوار تمثال ارزم (٣٨) ، واغروا الناشرين بطبع المقال الأصلى عن داود . وعلى مدى عشر سنين من وفاته كان الطلاب يقفون صفوفا فى مكتبة مازاران فى باريس حتى ياتى دورهم فى قراءة القاموس (٣٩) . وجاء فى تقرير عن المكتبات الخاصة أن الطلب عليه كان أكثر من طلب أى كتاب آخر (٤٠) . وقد أحس بتأثيره كل مفكر ذى شان تقريبا . وكان معظم كتاب ليبنتز « الفلسفة الالهية » أو تبرير حكمة العدالة الالهية فى وجود الشر ، محاولة صريحة للرد على بيل . كذلك نبع منه كتابات اسنج عن تحرير العقل ودفاعه عن التسامح ــ ويحتمل أن فردريك الأكبر استمد تشككه أصلا من بيل ، لا من فولتير ، وأطلق على القاموس « عصارة الاحساس السليم » (٤١) . واقتنى أربع مجموعات منه فى مكتبته ، واشرف على اصدار طبعة رخيصة موجزة منه فى مجلدين ليجذب عددا أكبر من القراء (٤٢) . وكان تاثير بيل على شافتسبرى ولوك أخف ، وعرفه كلاهما فى هولنده ، وسار لوك فى « رسالة التسامح » (١٦٨٩) على خطى بيل فى « التعليقات » (١٦٨٦) .

ولكن أعظم تأثير لبيل كان بطبيعة الحال على فلاسفة الاستنارة وكان فطامهم على القاموس . ومن الجائز أن مونتسكيو وفولتير أخذا عنه أسلوب الاستشهاد بالمقارنات والنقد الآسيوى للنظم الأوربية . ولم تكن « دائرة المعارف » (١٧٥١) ، كما حكم فاجويه « مجرد طبعة منقحة مزيدة قليلا من قاموس بيل (٤٣) . ولكن كثيرا من وجهة نظرها وآرائها التوجيهية نبعت من هذين المجلدين ، كما أن المقال الذى كتب فى دائرة المعارف عن التسامح كثيرا ما أحال القارىء على قاموس بيل على اعتبار أنه « وفى الموضوع حقه » . كما أن ديدرو اعترف فى صراحته المعهودة ، بفضل بيل عليه ، وحياه بانه « أعظم شارح مهيب لمذهب الشك فى العصور القديمة والحديثة معا (٤٤) . أما فولتير فكان بيل ولد من جديد ، مع رئتين أصح ومزيد من النشاط والطاقة والسنين والثراء والذكاء . وأطلق بحق على « القاموس الفلسفى » أنه ترديد لقاموس بيل (٤٥) . وكثيرا ما اختلف قزد فرنى الفاتن عن بيل ، مثال ذلك أن فولتير ذهب الى أن الدين كان قد ساعد على تشجيع الأخلاق ورعايتها ، وأنه لو أن بيل كان لديه خمسمائة أو

ستمائة فلاح ليحكمهم . لما تردد فى أن هناك الها يعاقب ويكافىء (٤٦)، ولكنه اعتبر بيل « أعظم منطيق جدلى الف (٤٧) » وجملة القول ، كانت فلسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر هى بيل فى تكاثر متفجر . ان القرن السابع عشر بدأ ، بهوبز وسبينوزا ، وبيل وفونتيل ، الحرب الطويلة المريرة بين المسيحية والفلسفة ، تلك الحرب التى بلغت ذروتها فى سقوط الباستيل وعيد الهة العقل .

٥ - فونتنيل : ١٦٥٧ - ١٧٥٧ :

فى السنوات الاربعين الأولى من حياته التى امتدت مائة عام ، شن برنارد لى بوفييه دى فونتنيل ، حرب الفلسفة ، مستقلا عن بيل ، واحيانا قبله ، وواصل الحرب ، بلا هوادة ، طيلة نصف قرن بعد وفاة بيل . وهو احدى ظواهر طول العمر ، وملأ الفراغ بين بوسويه وديدرو ، ونقل الى معترك الحياة العقلية فى القرن الثامن عشر شكوكية القرن السابع عشر الأكثر اعتدالا وحرصا .

ولد فى روان فى ١١ فبراير ١٦٥٧ ، ضئيلا هزيلا الى حد أنهم عمدوه فور ولادته خشية أن يموت قبل أن ينقضي عليه اليوم . وظل على هذه الحالة من الضعف طوال حياته ، كانت رئتاه عليلتين وكان يبصق دما اذا أجهد نفسه حتى فى لعب « البليارد » ، ولكن بالقصد والاعتدال فى استخدام قواه الا بمقدار والامتناع عن الزواج ، وكبح جماح شهواته وأهوائه ، والاغراق فى النوم ، استطاع أن يعمر بعد كل معاصريه ، وتذكر موليير حين كان يتحدث مع فولتير .

وكان به بعض الميل الى الأدب مثل ابن شقيق كورنى . وكذلك كان يحلم هو الآخر بالمسرحيات ، ولكن الروايات والأوبرات التى ألفها ، وأناشيده الرعوية وقصائده الغزلية ومقطوعاته ، كانت تعوزها العاطفة فماتت من البرودة . وكان الأدب الفرنسي يفقد الفن ويكسب الأفكار . ولم يجد فونتنيل نفسه الا حين وجد أن العلم يمكن أن يكون رؤيا أكثر ادهاشا من سفر الرؤيا ، وأن الفلسفة معركة تثير الأسي ، وتفوق كل الحروب . ولم يكن ذلك لأنه محارب ، فقد كان رقيقا الى حد لا يقوى معه على الصراع ، شغوفا بالدنيا لا يحب ان يفقد صبره أو يتملكه الغضب فى المناقشة ، وواعيا

كل الوعى لنسبية الحقيقة فلا يقيد فكره المطلق . ومع ذلك أشعل نيران الحرب (٤٨) . وحيثما سار فى محادثاته المختلفة مع مركيزته الوهمية ، هب جيش الاستنارة بفرسان فولتير الخفيفة السريعة الاندفاع ومشاة دولباخ الثقيلة ، ومهندسي دائرة المعارف العسكريين الخبراء فى بث الألغام ، بالاضافة الى مدفعية ديدرو .

وكان أول اقتحامه مجال الفلسفة رسالة من خمس عشرة صحيفة « أصل الخرفات » والحق انها كانت استقصاء سيولوجيا (اجتماعيا) عن نشأة الالهة . ونحن لا نكاد نصدق كاتب سيرة حياته فى أن الموضوع كتب وهو سن الثالثة والعشرين ، ولو أن مخطوطته تركت فى حرص وحذر ، حتى خفت وطأة الرقابة فى ١٧٢٤ . وتكاد تكون هذه الرسالة « عصرية » فى روحها ، تعقبت الاساطير ، لا الى مجرد اختراع الكهنة لها ، بل الى تخيلها البدائى ، وفوق كل شيء ، الى استعداد العقول البسيطة لتجسيد العمليات ، فان نهرا فاض لأن الها صب ماءه ، فكل عمليات الطبيعة من عمل الأرباب .

> اعتقد الناس أن كثيرا من العجائب فوق قدرتهم : حلول الصواعق وقصف الرعود ، وهبوب الرياح واثارة الأمواج .. .. وتخيل الناس كائنات أقوى منهم ، قادرة على أحداث هذه الآثار . وكان لابد لهذه الكائنات الأسمى أن تتخذ شكلا آدميا ، فأى شكل آخر يمكن تصوره ؟ ... وعلى هذا كان الأرباب آدميين ، ولكن أسبغت عليهم قدرة عليا .. .. وما كان فى مقدور الناس البدائيين أن يدركوا صفة أدعى الى الاعجاب من القوة المادية . ولم يكونوا قد أدركوا بعد الحكمة والعدالة ، ولم يكن لديهم أسماء لهما (٤٩) .

وقبل روسو بنصف قرن نبذ فونتنيل ما قاله روسو عن مثالية الهمج غير المتمدنين ، ففى رأيه أنهم كانوا أغبياء ، متوحشين . ولكنه أضاف « كل الناس متشابهون شبها كبيرا ، وليس ثمة جنس أو عرق ، لا نرتعد نحن فرقا من حماقاته وسخافاته (٥٠) » . وكان حريصا على أن يضيف أن تفسيره للأرباب ، ذلك التفسير المبنى على المذهب الطبيعى ، لم يطبق على آلهة المسيحيين أو اليهود .

ووضع هذه الرسالة جانبا انتظارا لوقت أكثر أمنا واطمئنانا . وأمسك بالقرطاس واستعار عنوانا من لوشيان ، ونشر فى يناير ١٦٨٣ كتابا صغيرا أسماه « محاورات الموتى » . واكتسبت هذه المناقشات الخيالية بين مشاهير الموتى شعبية الى حد اشتد معه الطلب على طبعة ثانية فى مارس ، وثالثة وشيكا بعدها . وامتدحها بيل فى صحيفته « الأخبار » ، وقبل أن ينصرم العام ، ترجمت الرسالة الى الايطالية والانجليزية ، وذاع صيت فونتيل وهو فى السادسة والعشرين، فى كل أوربا ، وكانت الرسالة ميسرة فى متناول الجميع فى عالم يعج بالرقباء ، وكادت كل فكرة يعبر عنها أحد المتكلمين ، يدحضها آخر ويبرأ منها المؤلف ، وكان فونتنيل على أية حال أميل الى الدعابة منه الى الهرطقة . وكانت الأفكار التى ناقشها معتدلة ، ولم تمس أى كاهن بسوء . فان ميلو لاعب كروتونا الرياضي النباتى يتباهى بأنه قد حمل ثورا على كتفيه فى الألعاب الأولمبية ، فيعيره سمنديريد من سيباريس المجاورة - بأنه ينمى عضلاته على حساب عقله ، ولكن المسياريثى يعترف بأن الحياة الأبيقورية (الانغماس فى الملذات) عقيمة كذلك ، حيث تصبح اللذة مملة بالتكرار ، وتضاعف من مصادر الألم ودرجاته. ويثنى هومر على عيسوب لتعليمه مع الخرافات ، ولكنه يحذره من أن الحقيقة هى آخر ما يرغب فيه البشر » . ان روح الانسان تتعاطف مع الباطل الى أبعد حد .. .. وينبغى أن تلبس الحقيقة ثوب الباطل حتى يتقبلها البشر بارتياح (٥١) » . وقال فونتنيل « لو أن الحقيقة كلها بين يدى فلا بد من أن أحرص على إلا أفتحهما (٥٢) » ، ولكن ربما كان هذا من قبيل العطف والاشفاق على البشر بقدر ما هو من قبيل الحب الطائش للمطاردة .

وفى الطف المحاورات يلتقى مونتانى بسقراط ، فى الجحيم لا ريب ، ويناقش فكرة التقدم ، مونتانى - أهذا أنت ، سقراط المقدس ؟ ما أسعدنى بلقائك لقد جئت لفورى الى هذا المكان ، ومنذ تلك اللحظة كنت أبحث عنك . وأخيرا وبعد أن ملأت كتابى باسمك وبامتداحك وبالثناء عليك ، أستطيع أن أتحدث اليك .

سقراط - أنى سعيد أن أرى انسانا ميتا يبدو أنه كان فيلسوفا ، ولكن حيث أنك جئت من هناك أخيرا ... دعنى أسالك عن الأخبار. كيف حال الدنيا ؟ ألم تتغير كثيرا ؟

مونتانى حقا ـ تغيرت كثيرا . قد لا تعرفها .

سقراط ـ كم ابتهج بسماع هذا . انا لم اشك قط فى انها ستصبح أحسن أو اعقل مما كانت فى زمانى .

مونتانى ـ ماذا تقول ؟ انها أشد خبلا وفسادا من اى وقت مضي . وهذا هو التغيير الذى أردت أن أناقشه معك . وكنت مترقبا أن اسمع منك بيانا عن العصر الذى عشت فيه ، والذى ساده كثير من الأمانة والعدل

سقراط ـ وأنا ، على العكس ، كنت انتظر لأعرف منك عجائب العصر الذى عشت فيه منذ أمد قصير ، ماذا ؟ ألم يصلح الناس من الاخطاء والحماقات القديمة ؟ .. .. كنت أؤمل أن تتجه الأمور نحو العقل ، وأن يستفيد الناس من خبرة السنين الطوال .

مونتانى ـ ماذا تقول ؟ يستفيد الناس من الخبرة ؟ انهم مثل الطيور التى كثيرا ما تركت نفسها نهبا للشراك التى وقع فيها بالفعل مئات الآلاف من نفس النوع . ان كل فرد يدخل جديدا الى الحياة ، وتقع أخطاء الآباء على الأبناء .. .. وللناس على مر القرون نفس الميولوالنزعات التى لا سيطرة للعقل عليها . ومن ثم فانه حيثما وجد الناس وجدت الحماقات والأخطاء ، بل هى هى نفسها .. ..

سقراط ـ انك أضفيت مثالية على العصور القديمة لانك غاضب على عصرك .. .. اننا فى حياتنا كنا نقدر أسلافنا أكثر مما كانوا يستحقون . والان يمجدنا أعقابنا فوق ما نستحق ، ولكن أسلافنا وانفسنا وذرارينا كلهم سواء .

مونتانى : ولكن أليست هناك أزمان افضل وأزمان اسوأ ؟ .

سقراط ـ ليس هذا بالضرورة . فالملابس تتغير ، ولكن هذا لا يعنى ن شكل الجسم يتغير كذلك . فالتهذيب والفظاظة والمعرفة والجهل .. .. ليست الا خارج الانسان ، وهى التى تتغير ، ولكن القلب لا يتغير باية حال ، وكل الانسان هو فى القلب .. .. وبين للجمهور الغفير من الناس الذين يولدون على مدى مائة من السنين ،

تنثر الطبيعة هنا وهناك نفرا قليلا لا يتجـاوز عـددهم ثلاثين أو أربعين . ممن يتمتعون بعقول راجحة (٥٣) .

وبعد بضع سنين من هذه الخاتمة المتشائمة ، مال فونتنيل الى نظرة أكثر تفاؤلا الى حد ما فى « استطراد القدامى والحديثين (يناير ١٦٨٨) » ، وهنا أوضح المؤلف فارقا بينا صغيرا . فى الشعر والفن لم يكن ثمة تقدم ملموس ، لأن هذين يعتمدان على الشعور والخيـال اللذين لا يكادان يتغيران من جيل الى جيل . اما من حيث العـلوم والمعرفة والثقافة التى تعتمد على تراكم المعرفة تراكما بطيئا ، فقد نتوقع التفوق على القدماء . وذهب فونتنيل الى أن كل أمة تمر بمراحل ، مثل الفرد ، ففى عهد الطفولة تعكف على مواجهة حاجياتها المـادية ، وفى شبابها تضيف الخيال والشعر والفن ، أما فى مرحلة النضج فانها قد تدرك العلوم والفلسفة (٥٤) . وقال فونتنيل بأنه رأى الحقـائق تبرز وتنمو من خلال عملية التخلص التدريجى من الأفكار الخاطئة . « نحن مدينون للقدامى لانهم لم يبقوا على شيء من النظريات الزائفة التى كان يمكن تكوينها ، تقريبا » ـ أى أن ننسي أن بكل حقيقة عددا لا يحصي من الأخطاء الممكنة . ورأى أن ديكارت قد وفق الى طريقة جديدة أفضـل للتفكير والاستنتاج ـ الطريقة الرياضية ، وتمنى للعلم الآن أن يتقـدم بخطوات سريعة .

> حين نرى التقدم الذى أحرزته العـلوم فى المائة عام الأخيرة ، على الرغم من الأهواء والعقبات وقلة عدد الافراد العلميين ، فقد يغرينا هذا الى حد كبير بأن نؤمل كثيرا فى المستقبل ، ولسوف نرى علوما جديدة تنبع من لا شيء ، على حين أن ما عندنا منها لا يزال فى المهد (٥٥) .

وهكذا صاغ فونتنيل نظرية التقدم « تقدم الأشياء » وتصور ، مثل كوندرسيه ، أنه ليس لهذا التقدم حدود معينة يقف عندها فى المستقبل ، وهنا كان « بلوغ البشر حد الكمال بلا حدود . » . لقد وضعت النظـرية القديمة قدمها على الطريق تماما ، وسارت بخطى ثابتة طيلة القـرن الثامن عشر لتصبح أداة من أصلح أدوات الفكر الحديث .

وانا لنجد ، فى تلك الأثناء ، أن فونتنيل الذى كان خياله الرائع

يصبح محاذرا دوما غاية الحذر ، قد بات قاب قوسين او ادنى من سجن الباستيل . ذلك انه حوالى ١٦٨٥ نشر رسالة مختصرة « علاقة جزيرة بورنيو » : وهي رحلة وهمية ، صورها الكاتب في صورة واقعية (استبق بها شبيهاتها عند ديفو وسويفت) الى حد ان بيل طبعها في « الاخبار » على انها تاريخ فعلي . ولكن الصراع الذى وصفته هذه الرسالة بين أنيجو ومريو كان هجاء سافرا للصراع الدينى بين جنيف وروما . ولما اطلعت السلطات الفرنسية على الجناس التصحيفى (تغيير ترتيب الحروف فى الكلمة) بدا أن اعتقال فونتنيل امر لا مفر منه ، لان الملاحظة الساخرة بدت وكانها تنطبق على الغاء مرسوم نانت تماما . فأسرع فى نشر قصيدة يمتدح فيها « انتصار الدين فى عهد لويس العظيم » . وقبل انتشاره . ومن تلك اللحظة حرص فونتنيل على أن تكون فلسفته غامضة يصعب على الحكومات ادراك مراميها .

وعاد الى العلوم ، وجعل من نفسه مبشرا بها فى المجتمع الفرنسي . وكان شديد الكلف بالدعة والراحة ، فلم يعكف بطريق مباشر على التجارب والابحاث ، ولكنه وعى العلوم وعيا حسنا ، فقدمها لجمهور مستمعيه المتزايد ، فى جرعات صغيرة مغلفة بفن الأدب . ورغبة منه فى تقريب فلك كوبرنيكس الى الاذهان وجعله فى متناول الناس ، الف « محادثات فى تعدد العوالم » (١٦٨٦) . وعلى الرغم من ان مائة وثلاثة واربعين عاما كانت قد انقضت على ظهور كتاب كوبرنيكس فان قلة من الناس فى فرنسا ، حتى بين المتخرجين فى الجامعات ، كانت قد قبلت نظرية أن الشمس هى مركز العالم ، وأدانت الكنيسة جاليليو لانه اعتبر أمرا مفروغا منه ان هذه الفرضية حقيقية ، وما يجرؤ ديكارت على نشر رسالته « العالم » التى اعتبر فيها أن نظرية كوبرنيكس قضية مسلم بها .

وتناول فونتنيل الموضوع فى كياسة تبعد عنه النقمة ، فتصور أنه يناقشه مع مركيزة مليحة يتحرك شكلها – غير المرئى ولكنه محسوس – اثناء الحوار بصورة مغرية فاتنة ، لان الجمال اذا اتخذ لقب البطولة أمكنه أن يكسف النجوم . وكانت « المحادثات » الست امسيات . وكان المشهد فى حديقة قصر المركيزة بالقرب من روان . وكان الهدف من ذلك هو ان يفهم الناس فى فرنسا – أو على الأقل سيدات المجتمع – حركة

الأرض وتعاقب دوراتها ، ونظرية ديكارت فى الدوامات . وزيادة فى الاغراء أثار فونتنيل مسألة أخرى : هل القمر وسائر الكواكب مسكونة ؟. وكان ميالا الى أن يعتقد هذا . ولكنه تذكر أن بعض القراء قد تزعجهم فكرة أن فى العالم نساء ورجالا لم ينحدروا من آدم وحواء ، ومن ثم اوضح فى حزم ولباقة أن سكان القمر والكواكب لم يكونوا بشرا حقيقيين. ومهما يكن من أمر فانه أوحى بانه قد يكون لهم حواس أخرى ، ربما كانت أدق من حواسنا ، واذا كان الأمر كذلك فانهم قد يرون الأشياء مختلفة عما نراها نحن ، فهلا تكون الحقيقة عندئذ نسبية ؟ . وقد يقلب هذا كل شيء رأسا على عقب ، حتى أكثر مما فعل كوبرنيكس . وأنقذ فونتنيل الموقف بالاشارة الى جمال الكون ونظامه ، مقارنا اياه بساعة ، مستدلا بميكانيكية الكون على صانع بارع ذى ذكاء خارق .

ولما كانت الرغبة فى التعليم من أقوى الرغبات فينا ، فان فونتنيل عاود المخاطرة بالاقتراب من الباستيل باصداره فى ديسمبر ١٦٨٨ رسالة غفلا من اسم المؤلف ، هى أجرأ رسائله الصغيرة تحت عنوان « تاريخ الوحى » . واعترف بانه اقتبس مادتها من كتاب « الوحى » الذى ألفه أحد الباحثين الهولنديين ، فان وايل ، ولكنه حورها بأسلوبه الواضح الرشيق . وقال أحد القراء : « انه يتملقنا لمعرفة الحقيقة » وهكذا قارن الرياضيين بالعاشقين . « ضع أمام الرياضي أقل قاعدة أو مبدأ ، ولسوف يستنتج منه نتيجة ، يجدر بك أن تسلم له بها ، ومن هذه النتيجة أخرى وهكذا .. .. (٥٦) . ان رجال اللاهوت كانوا قد قبلوا بعض الوحى الوثنى باعتباره صحيحا صادقا ، ولكنهم كانوا قد نسبوا دقته المعارضة الى ايحاء شيطانى ، واعتبروا برهانها على قدسية أصل الكنيسة ، أن هذا الوحى انقطع منذ مجيء السيد المسيح ، ولكن فونتنيل أوضح أن الوحى استمر حتى القرن الخامس الميلادى . وبرأ الشيطان من أنه صانعه ، فالايحاءات كانت حيلا من الكهنة الوثنيين الذين تحركوا فى المعابد ليأتوا بمعجزات ظاهرة ، أو ليستولوا على الطعام المقدم من العابدين للآلهة . وادعى أنه ما تحدث الا عن الوحى الوثنى، وأنه استثنى صراحة الوحى والكهنة المسيحيين من هذا التحليل . ولم يكن هذا المقال ومقال « أصل الأساطير » مجرد ضربتين ايذانا بعصر الاستنارة ، بل كانتا كذلك ، مثلين لمدخل جديد الى المسائل اللاهوتية

- تفسيرا للمنابع البشرية للمعتقدات الدينية ، وبهذا يضفى الحالة الطبيعية على كل ما هو خارق للطبيعة .

وكان « تاريخ الوحى » آخر العمليات التى استنزفت حيوية فونتنيل . وفى ١٦٩١ انتخب عضوا فى الاكاديمية الفرنسية برغم معارضة راسين وبوالو . وفى ١٦٩٧ أصبح ، وبقى لمدة اثنين وأربعين عاما ، السكرتير الدائم لاكاديمية العلوم . وكتب تاريخها ، وأطنب فى امتداح من فارقوا الحياة من الاعضاء . وهذا يشكل سجلا وعرضا وضاءين للعلوم فى فرنسا لمدة نصف قرن تقريبا . ويمثل هذه الجلسات العلمية استطاع فونتنيل ان ينفذ - بمثل القدر من الغبطة والسرور الى الصالونات - صالون مدام دالمبرت أولا ، ومدام دى تنسين ، ثم مدام دى جيوفرين . وكان موضع الترحيب ، لا لمجرد شهرته باعتباره كاتبا، بل لان روح الكياسة واللطف والمجاملة لم تفتر فيه قط . انه مزج الحقيقة بالتعقل ، واستنكف أن يعكر جو المناقشة بالخلافات ، ولم يكن ذكاؤه لاذعا . « لم يكن فى عصره من هو أكثر منه تفتحا فى الذهن أو تجردا من الحقد والضغينة والتحيز (٥٧) » واتهمته فى حمق مدام دى تنسين، التى كانت سريعة الانفعال والغضب ، بان له مخا آخر لابد أنه كان يحتفظ فيه بقلبه (٥٨) . ولم يستطع الشباب قتلة الالهة الذين كانوا يتكاثرون حوله أن يفهموا اعتداله اكثر مما استساغ هو تعصبهم وعنفهم . « انى لتزعجنى الحقائق التى تسيطر من حولى (٥٩) » . ولم يرشرا محضا فى ضعف سمعه حين تقدمت به السنون .

وظاهر انه فى نحو الخمسين من العمر اعتزم الا يقدم بعد ذلك الا خدمات أفلاطونية للسيدات ، ولكن كياسته لم تتداع . وعندما قدموه الى سيدة جميلة ، وهو فى سن التسعين ، قال : « آه : لو أنى الآن فى الثمانين فقط !(٦٠) » وفى سن التاسعة والثمانين تقريبا افتتح حفل عام جديد بالرقص مع ابنة هلفيشيوسي البالغة من العمر عاما ونصف العام(٦١) . ولما قالت مدام جريموذ متعجبة ، وكانت فى مثل سنه تقريبا « حسنا . ها نحن كلانا حى يرزق » وضع أصبعه على شفتيه وهمس « صه يا سيدتى ، ان الموت قد نسينا (٦٢) » .

ولكن الموت عثر عليه أخيرا فى ٩ ينـاير ١٧٥٧ ، واختطفه فى سكون ، ولم يكن قد مرض الا يوما واحدا . وأوضح لأصحابه أنه كان

« يعانى من وجوده » وربما كان قد أحس بانه قد بلغ من العمر أرذله. وبقى له ثلاثة وثلاثون يوما ليتم من العمر قرنا كاملا . لقد كان مولده قبل أن يتسلم لويس الرابع عشر دفة الحكم ، وشب وسط انتصـــارات بوسويه ، والغاء مرسوم نانت واضطهاد البروتستانت . وعاش ليرى « دائرة المعارف » ، وليستمع فولتير وهو يدعو الفلاسفة لشن الحـرب على الموبقات .



الفصل الثاني والعشرون

سبينوزا
١٦٣٢ ـ ١٦٧٧
١ ـ الهرطيق الصغير

ان هذه الشخصية الغريبة المحببة التى بذلت فى التاريخ الحديث أجرأ محاولة للعثور على فلسفة يمكن ان تحل محل عقيدة دينية ذائعة ، ولدت فى امستردام فى ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ . ويمكن تتبع أسلافه الى مدينة سبينوزا بالقرب من برجوس فى مقاطعة ليون الاسبانية . وكانوا يهودا ، ثم ارتدوا الى المسيحية فكان منهم العلماء والقساوسة ، وكان منهم كاردينال دييجو ، كبير المحققين يوما (١). وهاجر جزء من الأسرة الى البرتغال ، والمفروض أنهم لجأوا الى الهجرة هربا من محاكم التفتيش الاسبانية . وبعد فترة من الاقامة هناك فى فيديجويرا بالقرب من باجه ، انتقل جد الفيلسوف ووالده الى نانت فى فرنسا . ومنها فى ١٥٩٣ الى أمستردام ، وكانا من أوائل اليهود الذين استوطنوا هذه المدينة ، تلهفا على التمتع بالحرية الدينية التى كفلها « اتحاد أوترخت » فى ١٥٧٩ . وما جاءت سنة ١٦٢٨ حتى اعتبر الجد زعيم الجالية الصفردية « اليهودية » فى امستردام ، وكان الوالد فى فترات مختلفة ناظرا للمدرسة اليهودية ، ورئيسا لصندوق الصدقات المنتظمة للجالية اليهودية البرتغالية . وقدمت الأم : حنه ديبورا دى سبينوزا من لشبونه الى امستردام . وماتت عندما كان ابنها باروخ فى السادسة من عمره . وأورثته السل . وتولى تربيته والده وزوجة ثالثة . ولما كانت لفظة باروخ تعنى فى العبرية « المبارك» فقد سمى الصبى فيما بعد « بندكت » فى الوثائق الرسمية اللاتينية .

وفى مدرسة الجالية اليهودية تلقى باروخ التعليم الدينى المألوف المبنى على التوراة والتلمود ، كما تلقى بعض الدراسات للفلاسفة الحبرانيين وعلى الأخص ابراهام بن عزرا ، وموسى بن ميمون وهاسداى

كريسكا ، وربما كان الى جانب هذا بعض اطلاع يسير على « القبالة » وكان من بين اساتذته اثنان من ذوى المكانة العالية والمقدرة فى الجالية: شاءول مورتيرا ، ومنشه بن اسرائيل . وتلقى باروخ ، بالأسبانية خارج المدرسة ، قدرا لا بأس به من العلوم الدنيوية ، لأن والده رغب أن يعده ليكون رجل أعمال . وبالاضافة الى اللغتين الاسبانية والعبرية تعلم البرتغالية والهولندية واللاتينية مع قدر يسير من الايطالية والفرنسية فيما بعد . ونما فى نفسه ولع بالرياضيات . وجعل الهندسة المثل الأعلى لمنهجه الفلسفى والفكرى .

وكان طبيعيا أن شابا بمثل هذا الذهن المتوقد بشكل فذ أن يثير بعض المشاكل حول النظريات والمبادىء التى تلقاها فى المدرسة اليهودية ، بل انه ربما سمع فى تلك المدرسة عن هرطقات عبرية . وكان ابن عزرا قد أشار منذ أمد طويل الى الصعاب التى تنطوى عليها نسبة الأجزاء المتأخرة من أسفار موسي الخمسة اليه . وكان اتباع ابن ميمون قد اقترحوا تفسيرا مجازيا لغير هذه الأجزاء من الكتاب المقدس (٢) . وأثاروا شيئا من الشكوك حول الخلود الشخصي (٣) ، وحول الخلق باعتباره مناقضا لأزلية العالم (٤) . وكان كريسكاسي قد نسب الامتداد الى الله ، واستنكر كل المحاولات التى قامت لتثبت بالعقل حرية الارادة وبقاء الروح بعد الموت ، بل حتى وجود الله . وبالاضافة الى هؤلاء اليهود التقليديين الى حد كبير ، لا بد أن سبينوزا قرأ ليفى بن جيرسون الذى كان قد هبط بمعجزات الكتاب المقدس الى مجرد أسباب طبيعية ، واخضع الايمان للعقل قائلا « ان التوراة لا يمكن أن تحول دون أن نعتبر حقا كل ما يستحثنا عقلنا على أن نؤمن به أو نصدقه (٥) » وحديثا جدا فى جالية امستردام اليهودية هذه ، كان أوريل أكوستا قد تحدى الاعتقاد فى الخلود ، فحز فى نفسه اصدار حكم الحرمان عقابا له وأطلق النار على نفسه (١٦٤٧) . ولا بد أن الذكرى الغامضة لهذه المأساة زادت من حدة الثورة التى تعتمل فى ذهن سبينوزا حين أحس بأن لاهوت عشيرته وأسرته العتيد يفلت منه .

ومات أبوه فى ١٦٥٤ . وطالبت أخت له بكل الضيعة والثروة ، فقاضاها سبينوزا أمام المحكمة وكسب القضية ، ثم عاد ونزل لها عن كل التركة الا سريرا واحدا . واعتمد الآن على نفسه فكسب عيشه بالاشتغال

يشحذ العدسات وصقلها من أجل النظارات والمجهر والمقراب . وبالاضافة الى القيام بتعليم بعض تلاميذ خصوصيين اشتغل بالتدريس فى مدرسة فرانس فان دن اند اللاتينية ، وهو يسوعى سابق ، حر التفكير كاتب روائى ثائر× . وهناك أتقن سبينوزا اللاتينية ، وربما حفزه فان دن اند الى دراسة ديكارت وبيكون وهوبز ، وربما اطلع الآن على « المجموعة اللاهوتية » لتوما الاكوينى . ويبدو أنه وقع فى غرام مع ابنة الناظر التى آثرت خطيبا أكثر ثراء ، ومبلغ علمنا ان سبينوزا لم يخط خطوة أخرى نحو الزواج .

وكان فى تلك الأثناء قد بدأ يفقد ايمانه . ويحتمل أنه قبل سن العشرين ، وبكل الألم والذعر اللذين تجلبهما التغيرات فى مثل هـذه السن الى الأرواح المرهفة الحس ، كان قد قامر ببعض أفكار مثيرة — أن المادة قد تكون جسم الله ، وقد تكون الملائكة أوهام الخيال ، وان الكتاب المقدس لم يذكر شيئا عن الخلود ، وأن النفس متماثلة مع الحياة (٧) . وربما احتفظ بهذه الهرطقات المغرورة لنفسه لو أن أباه بقى على قيـد الحياة ، بل ربما التـزم الصـمت حتى بعد موت أبيه ، لولا أن بعض أصدقائه أزعجوه بالأسئلة ، وبعد كثير من التردد اعترف لهم باهتزازات عقيدته وايمانه ، فوشوا به الى الكنيس .

وينبغى الا يغيب عن الأذهان ما كثرت الاشارة اليه من أن زعماء الجالية اليهودية فى امستردام كانوا يجدون حرجا فى معالجة الهرطقات التى تهاجم أساسيات المسيحية واليهودية على حد سواء . ان اليهود فى الجمهورية الهولندية نعموا بتسامح دينى انكرته عليهم سائر الأقطـار المسيحية ، ولكن كان من الميسور حرمانهم منه ، اذا تسامحوا فيما بينهم فى أفكار تزعزع الأساس الدينى للأخلاق والنظام الاجتماعى .. وطبقـا لما جاء فى سيرة حياة سبينوزا التى كتبها فى السنة التى مات فيها أحد اللاجئين الفرنسيين فى هولنده ، وهو جين مكسيمليان لوكاس ، أضاف الطلبة الذى أبلغوا عن شكوك باروخ — اضافوا كذبا وبهتانا اتهامه بانه أبدى احتقاره للشعب اليهودى لاعتقاده بانه شعب الله المختار بصـفة خاصة وأن الله هو مؤلف شريعة موسي(٨) . ولسنا ندرى الى أى حـد

× عمل فان دن اند أخيرا جاسوسا خاصا للهولنديين فى باريس ، وقبضت عليه الحكومة الفرنسية وأعدم شنقا (١٦٧٦) (٦) .

يمكن تصديق هذا الكلام . وعلى أية حال ، فلا بد أن زعماء اليهود كرهوا أى تمزق فى العقيدة التى كانت فى ذروة القوة كما كانت معينا لا ينضب من العزاء والسلوى لليهود طوال قرون الشقاء المرير .

واستدعى الأحبار سبينوزا وسلقوه بألسنة حداد لأنه خيب الآمال الكبار التى كان معلموه قد عقدوها على مستقبله فى الجالية اليهودية وكان أحد هؤلاء المعلمين ، وهو منشه بن اسرائيل ، متغيبا فى لندن . أما المعلم الآخر ، وهو شاءول مورتيرا ، فقد توسل الى الشاب أن يتخلى عن هرطقاته . وانصافا للأحبار ، يجدر بنا أن نذكر أن لوكاس ، برغم تعاطفه الشديد مع سبينوزا يسجل أنه عندما استرجع مورتيرا ذكرى العناية الفائقة التى أولاها تلميذه الأثير لديه فى تعليمه اللغة العبرية ، « رد باروخ بأنه يسعده الآن ، مقابل ما بذله معلمه مورتيرا من جهد ، أن يعلمه كيف يصدر قرار الحرم (الحرمان الدينى) (٩) » ويبدو هذا منافيا الى أبعد حد لما نسمع عن طباع سبينوزا ، ولكن ينبغى ألا نترك لعواطفنا اختيار الدليل ، (وخلافا لما قال شيشرون) يندر أن يكون ثمة شىء بالغ غاية الحمق الا أمكنك أن تجده فى حياة الفلاسفة .

وقيل ان زعماء الكنيس عرضوا على سبينوزا معاشا سنويا قدره الف جولدن اذا هو وعد الا يتخذ خطوة عدائية ضد اليهودية ، وحضر الى الكنيس من وقت لآخر (١٠) ، ويبدو أن الأحبار أصدروا ضده فى بداية الأمر قرار « الحرم الأصغر » فقط ، وهو مجرد حرمانه من الاتصال بالجالية اليهودية لمدة ثلاثين يوما فقط (١١) . وقيل انه قبل هذا الحكم عن طيب خاطر قائلا « حسنا ، انهم ارغمونى على الا افعل شيئا ما كنت لأفعله بمحض ارادتى (١٢) » ، وربما كان بالفعل يعيش آنذاك خارج الحى اليهودى بالمدينة . وحاول أحد المتعصبين أن يقتله، ولكن السلاح لم يصب الا سترته . وفى ٢٤ يوليه ١٦٥٦ أعلنت السلطات الدينية والمدنية فى الجالية اليهودية من فوق منبر الكنيس البرتغالى ، فى مهابة وكآبة ، « الحرم التام » لباروخ سبينوزا ، بما يقترن بذلك من اللعنات والمحظورات المعتادة : ألا يتحدث اليه أحد ولا يكتب اليه ، ولا يؤدى له أية خدمة ، ولا يقرأ كتاباته ، أو يقترب منه على مسافة أربعة أذرع (١٣) . وقصد مورتيرا الى السلطات الرسمية فى امستردام، وابلغها بالاتهامات وقرار الحرم ، وطلب اليها طرد سبينوزا من المدينة،

فاصدرت حكمها بنفى سبينوزا لبضعة اشهر (١٤) ، فذهب الى قرية أودركيرك القريبة ، ولكنه سرعان ما عاد الى امستردام .

وأكسبته معرفته باللاتينية عدة صداقات فى دائرة محـــدودة من الطلبة تزعمهم لودفيك مير وسيمون دى فريس ، وكان مير حاصلا على درجات جامعية فى الفلسفة والطب ، ونشر فى ١٦٦٦ « فلسفة تفسير الاسفار المقدسة » . وفيه أخضع الكتاب المقدس للعقل . وربما عكس هذا الكتاب آراء سبينوزا - أو أثر عليها . اما دى فريس فكان تاجرا ثريا ناجحا ، شديد الولع بسبينوزا الى حد انه رغب فى منحه الفى فلورين ولكن الفيلسوف ابى . فلما أحس التاجر بدنو الأجل (١٦٦٧) وكان غير متزوج ، فانه عرض أن يكون سبينوزا وريثا ، ولكنه اقنعه بان يترك كل ثروته لأخ له . وقدم الأخ الشكور المعترف بجميل سبينوزا منحة سنوية قدرها ٥٠٠ فلورين ، ولكن سبينوزا اكتفى بثلثمائة (١٥). وكتب صديق آخر من أمستردام ، هو جوهان بوفميستر اليه « أحبنى لانى أحبك من كل قلبى » (١٦) . والى جانب الفلسفة كانت الصداقة هى الأساس الرئيسي فى دعم حياة سبينوزا . وكتب فى احدى رسائله:-

من بين كل الأشياء التى فوق طاقتى لا أقدر شيئا أكثر من تقديرى لأن يكون لى شرف عقد أواصر الصداقة مع أناس يحبون الحقيقة فى اخلاص ، فانه من بين الأشياء التى فوق طاقتنا ، ليس فى العالم شيء يمكن أن نحبه فى هدوء الا مثل هؤلاء الرجال (١٧) .

ولم يكن سبينوزا منعزلا متقشفا زاهدا كل العـزلة والتقشـــف والزهد ، بل انه استحسن « جيد الطعام والشراب ، والتمتع بالجمال وتربية الازهار والاستماع الى الموسيقى والتردد على المسرح (١٨) » وفى احدى هذه الزيارات كانت محاولة قتله . وكان عليه أن يظل يخشى اغتياله . ونقشت على خاتمه كلمة واحدة « حذار ١٩ » ولكنه أحب ، اكثر كثيرا من تلك المتع والتسلية ، بل حتى أكثر من الصداقات ، أحب العزلة والدراسة وهدوء الحياة البسيطة ، يقول بيـــل : « ان زيارات اصدقائه له كانت تفسد عليه تأملاته كثيرا (٢٠) ». ومن أجل ذلك هجر امستردام ليقيم فى قرية هادئة « ريتزبرج » - (مدينة على الراين)

ـ على مسافة ستة أميال من ليدن . واتخذت شيعة من اتباع ابن ميمون (وهى تشبه الكويكرز) مقرا لها فى تلك القرية . ولقى سبينوزا ترحيبا بين احدى اسرات هذه الجماعة .

وفى هذا المنزل المتواضع ، الذى يحتفظون به الآن باعتبـــاره « متحف سبينوزا » كتب الفيلسوف عدة رسائل صغيرة والجزء الأول من « الأخلاق » . وفى ١٦٦٢ كتب « رسالة موجزة عن الله والانسان وسعادته » ، ولكنها كانت الى حد كبير انعكاســـا لديكارت . والأكثر منها امتاعا وتشويقا رسالته عن « اصلاح العقل » التى طرحت جانبا دون اتمامها فى تلك السنة نفسها . وانا لنجد فى صفحاتها الأربعـين عرضا مسبقا لفلسفة سبينوزا . وانا لنحس من أول عبارة فيها وحشة الرجل المنبوذ من المجتمع .

> بعد أن علمتنى التجربة أن كل الأشـــياء التى يكثر وقوعها فى الحياة العادية عقيمة غير ذات جدوى ، وحين رأيت أن كل الأشياء التى كنت اخشاها ، والتى خوفتنى ، ليس فيها فى حد ذاتها شيء حسن أو سيىء الا بقدر ما يتاثر الذهن بها ، فانى اعتزمت آخر الامر أن اتحرى هل يمكن أن يوجد شيء حسن حقا ، وقادر على أن ينقل حســـنه وخيره ، ويمكن أن يتأثر به الذهن الى حد استبعاد سائر الأشـــياء .

وأحس سبينوزا بأنه لا الثراء ولا الشهرة ولا الملذات الجســمية يمكن أن تفعل هذا ، وغالبا ما يختلط الاهتياج والأسي بهذه المباهج »، وليس الاحب شيء خالد لا متناه هو الذى يغذى الذهن باللذة والمتعـة .. .. مجردة من كل ألم (٢١) ، وربما امكن ان يكتب هـذا بقلم توماس كمبيس أو جاكوب بوم ، والحق انه بقى دائما فى سبينوزا اثارة أو حالة من التصوف ربما جاءته من القبالة ، والآن غذتها عزلته وزادتها قوة ، ان الخير الخالد اللامتناهى « فى ذهنه يمكن أن يسمى « الله » ولكن فقط فى تعريف سبينوزا الأخير للاله باعتباره ذا طبيعة لها قدراتها الخلاقة وقوانينها . ويقول كتاب « اصلاح العقـل » : « الخير الأعظم هو معرفة اتحاد الذهن مع الطبيعة باسرهـــا ...

وكلما ازداد الذهن فهما لنظام الطبيعة ، ازدادت قدرته على التحرر من الأشياء العقيمة غير المجدية (٢٢) » . وهنا نجد أول تعبير لسبينوزا عن « الحب العقلى لله » ـ التوفيق بين الفرد وبين طبيعة الأشياء وقوانين الكون .

وهذه الرسالة البليغة الموجزة تبين كذلك هدف تفكير سبينوزا وفهمه للعلم والفلسفة » ، بودى أن أوجه كل العلوم الى وجهة واحدة أو غاية واحدة هى بالذات ، الوصول الى أقصي درجة ممكنة من الكمال الانسانى ، ومن ثم ينبغى نبذ أى شي فى العلوم لا يسعى لهذه الغاية ، باعتباره عقيما غير مجد (٢٣) » . وهنا نجد اتجاها مختلفا كل الاختلاف عما سمعنا من فرانسيس بيكون ، أن تقدم العلوم يكون وهما وخداعا اذا أدت الى مجرد زيادة سيطرة الانسان على الأشياء ، دون تحسين أخلاقه ورغباته . وهذا هو السبب فى تسمية « تحفة » الفلسفة الحديثة « بالأخلاق » على الرغم من مقدمتها الميتافيزيقية الطويلة ، وأن كثيرا منها سوف يحلل استرقاق رغبات الانسان له ، ونحرره عن طريق العقل .

٢ ـ اللاهوت والسياسة

ترامى الى أسماع الطلبة الشبان الذين تركهم سبينوزا وراءه فى امستردام ، أنه كان قد شرع ، من أجل تلميذ فى راينزبرج ، فى ترجمة هندسية لكتاب ديكارت « المبادىء الفلسفية » . والحوا عليه فى اكمالها وارسالها اليهم ، ففعل ، ودفعوا هم نفقات طبعها (١٦٦٣) بعنوان « عرض المبادىء الفلسفية لديكارت على أساس هندسي » . ويهمنا أن نذكر عنها ثلاث نقاط : أنها عبرت عن آراء ديكارت (فى الارادة الحرة مثلا) لا عن آراء سبينوزا ، وأنها الكتاب الوحيد الذى طبع فى حياة سبينوزا حاملا اسمه . وأنه فى جزء ملحق بها « تفكير ميتافيزيقى » ، قال سبينوزا بأن الزمن ليس حقيقة موضوعية بل طريقة تفكير (٢٤) ، وهذا واحد من عناصر « كانت » فى فلسفة سبينوزا .

وكسب سبينوزا فى راينزبرج أصدقاء جدد ، فقد تعرف عليه هناك عالم التشريح العظيم ستينو . وكان هنرى أولدنبرج عضو

الجمعية الملكية قاصدا الى ليدن ١٦٦١ ، فحاد عن طريقه المرسوم ليزور سبينوزا ، وكان لذلك وقع شديد فى نفسه ، ولدى عودته الى لندن بدأت مراسلات طويلة بينه وبين الفيلسوف الذى لم تكن مؤلفاته قد طبعت بعد ، بيد أنه كان ذا شهرة واسعة . وثمة صديق آخر من راينزبرج أوريان كورباج ، استدعى للمثول أمام احدى محاكم امستردام (١٦٦٨) بتهمة دأبة على معارضة اللاهوت السائد ، وسعى أحد القضاة الى توريط سبينوزا فى القضية باعتباره مصدر هرطقة كورباج ، ولكن هذا أنكر أية علاقة لسبينوزا بالامر ، فانقذ الفيلسوف. ولكن حكم على المهرطق الشاب بالسجن عشر سنين ، حيث قضى نحبه بعد أن أمضي فيه خمسة عشر شهرا . ومن هنا ندرك لماذا لم يتعجل سبينوزا طبع مؤلفاته .

وفى يونيه ١٦٦٣ انتقل الى فوربورج قرب لاهاى . وأقام لمدة ستة أعوام فى بيت أحد الفنانين يصقل العدسات ، ويؤلف « الاخلاق ». وكانت المقاطعات المتحدة فى حرب دفاعية مستميتة ضد لويس الرابع عشر ، وقد أزعج هذا الحكومة الهولندية ودعاها الى فرض قيود أشد صرامة على حرية التعبير عن الآراء . ومع ذلك نشر سبينوزا فى ١٦٧٠ ، دون الافصاح عن اسمه « رسالة اللاهوت والسياسة » أصبحت حدثا أو معلما هاما من معالم نقد الأسفار المقدسة . وأوضحت صحيفة العنوان فى رسالة اللاهوت والسياسة « الغرض منها » : وهو ايضاح انه يمكن منح حرية الفكر والكلام دون تحيز للدين والسلام العام ، كما إنه يمكن كذلك عدم كبت هذه الحرية دون تعريض الدين والسلام العام للخطر » . وتنصل سبينوزا من الالحاد وأنكره ، وايد أساسيات العقيدة الدينية . ولكنه اخذ على عاتقه أظهار قابلية الانسان للخطأ فى هذه الأسفار المقدسة ، وهى ما بنى عليه رجال الدين الكلفنيون لاهوتهم تعصبهم ، وكان رجال الدين فى هولنده يستخدمون نفوذهم ونصوص الكتب المقدسة لمناهضة الجماعة التى تزعمها « دى ويت » والتى أيدت الفكر المتحرر ومفاوضات السلام ، وكان سبينوزا مخلصا أشد الاخلاص لهذه الجماعة ولجان دى ويت :

مذ رأيت الخلافات الحادة التى نشبت بين الفلاسفة فى الكنيسة والدولة ، وهى مصدر الكراهية المريرة والانشقاق

> ...فانى اعتزمت أن أتناول بالبحث من جديد ، الكتاب المقدس ، بدقة وروح غير متحيزة ، طليقة غير مقيدة ، دون أن أضع افتراضات أو نظريات لا أرى بوضوح أنها موجودة فيه . ومع هذه الاحتياطات وضعت طريقة لتفسير الأسفار المقدسة(٢٦) .

ان سبينوزا تنبه الى صعوبة فهم لغة العهد القديم العبرية وضرب الذلك أمثلة ، فان النص المازورى ـ الذى زود بالحروف اللينة وحركات النطق التى أهملها ناسخو التوراة الأصليون كان حدسا وتخمينا الى حد ما ، ولا يكاد يوفر نموذجا أصليا موثوقا لا يقبل الجدل ، واستفاد فى الفصول الأولى من هذه الرسالة كثيرا من رسالة ابن ميمون « دليل الحيران » . وحذا حذو ابراهام بن عزرا وآخرين فى الارتياب فى تأليف موسي للأسفار الخمسة الأولى . وأنكر أن يشوع هو الذى ألف سفر يشوع ، ونسب الأجزاء التاريخية فى العهد القديم الى القسيس الكاتب عزرا فى القرن الخامس قبل الميلاد . أما سفر أيوب فقد ذهب الى أنه كان من عمل الأمميين (الكفار) ثم ترجم الى العبرية . ولم تلق كل هذه النتائج قبولا لدى الباحثين المتأخرين ، ولكنها كانت خطوة جريئة نحو التعرف على ريتشارد سيمون ١٦٧٨ تحت عنوان « نقد العهد القديم » . وأوضح سبينوزا أنه فى حالات كثيرة ، تكررت نفس القصة أو القطعة فى مواضع مختلفة من الكتاب المقدس ، بنفس الألفاظ أو فى روايات محرفة ، توحى احداها بالاقتباس العادى من مخطوطة قديمة ، وتثير أخرى التساؤل عن بيان « كلمة الله (٢٧) » وكانت هناك استحالات وتناقضات من حيث التوقيت الزمنى ، وفى رسالة بولس الرسول الى الرومان (٣ : ٢٠ ـ ٢٨) لقنهم أن خلاص الانسان يمكن أن يكون بالايمان وحده لا بالعمل ، ولكن رسالة بولس جيمس (٢ : ٢٤) أوردت نقيض هذا على خط مستقيم ، فأيهما تتفق مع « كلمة الله وتوجيهه » ؟ وأشار الفيلسوف الى أن مثل هذه النصوص المتباينة قد خلقت بين رجال اللاهوت صراعاتمريرة أشد المرارة ، بل دامية ، بدلا من السلوك القويم الذى يحث عليه الدين .

وهل أنبياء العهد القديم صوت الله ؟ . واضح أنهم لم يتفوقوا

من حيث المعرفة على الطبقات المثقفة فى زمانهم ، فان يشوع ، على سبيل المثال ، كان يسلم تسليما جازما بان الشمس ، حتى « أوقفها » يشوع ، كانت تدور حول الأرض (٢٨) . ولم يتفوق هؤلاء الأنبياء فى العلم ، بل برزوا فى قوة الخيال والحماسة والغيرة والشعور ، كانوا شعراء وخطباء عظاما . ومن الجائز أن الوحى نزل عليهم من عند الله واذا كان الأمر كذلك ، فان عملية الوحى قد تكون تمت بطريقة اعترف سبينوزا بعجزه عن ادراكها (٢٩) . وربما حلموا بانهم رأوا الله ، وربما اعتقدوا فى صحة أحلامهم. فانا نقرأ «أبيمالك» أن الله جاء اليه فى حلم الليل » سفر التكوين ٢٠ : ٦) . ان العنصر الالهى فى الأنبياء ليس نبوءاتهم ، بل حياتهم الفاضلة ، والفكرة الرئيسية فى عظاتهم هى أن الدين يكمن فى السلوك القويم ، لا فى الطقوس المرهقة .

وهل كانت المعجزات التى دونت فى الكتاب المقدس اضطرابات حقيقية فى مجرى الطبيعة العادى ؟ وهل أدت خطايا البشر الى الحريق والفيضان ؟ وهل اتت صلواتهم ودعواتهم بخصوبة الأرض ؟ ذهب سبينوزا الى أن مثل هذه القصص استخدمها مؤلفو الأسفار المقدسة لينفذوا الى أفهام البسطاء من الناس ويحثوهم على الفضيلة والتقوى ، ويجدر بنا الا ناخذها بحروفها :

> ومن ثم ، فاننا ، حين يقول الكتاب المقدس بأن الارض مجدبة بسبب خطايا البشر ، أو أن الايمان يبرىء الأعمى ، يجدر بنا ألا نعير هذا التفاتا أكثر من التفاتنا الى قوله ، أى الكتاب المقدس ، بأن الرب غاضب على خطايا البشر . وأنه حزين وانه نادم على وعد أو فعل من خير ، أو انه عند رؤية علامة يتذكر شيئا كان قد وعد به ، فان هذه التعبيرات واضرابها اما أنها القيت القاء اشاعريا ، أى من قبيل خيال الشعراء ، او رويت وفقا لآراء الكاتب واهوائه . وينبغى أن نكون على يقين ، كل اليقين من ان كل شيء وصفته الأسفار المقدسة وصفا صادقا حقيقيا ، حدث حتما - مثل سائر الأشياء - وفقا للقانون الطبيعى ، وأن شيئا دون فيها مما يمكن اثباته على أسس موضوعة تتنافى مع نظام الطبيعة أو يتعذر استنتاجه منها ، فانه يجدر بنا أن نؤمن

بانه مدسوس على الاسفار المقدسة عن طريق أيد مارقة عن الدين • فان أى شيء مناقض للطبيعة مناقض للعقل ، وأى شيء مناف للعقل سخيف مضحك (٣٠) •

وربما كان هذا أصرح اعلان لاستقلال العقل وضعه فيلسوف حديث بعد • وبقدر ما حاز هذا الاعلان قبولا ، فانه انطوى على ثورة ذات معنى ونتائج أعمق من كل حروب ذلك العصر وسياسته •

بأى معنى اذن يكون الكتاب المقدس « كلمة الله ؟ » • بهذا المعنى وحده ، وهو أنه يحتوى على قانون أخلاقى يربط الناس بالفضيلة • انه يحتوى كذلك على أشياء كثيرة أدت الى نزعة شديدة الى الشر فى الانسان — أو هيأت لها ، وبالنسبة للكثرة الكثيرة من الناس المرهقين الى حد كبير بمشاغلهم اليومية الى درجة أنهم لا يجدون فراغا أو قدرة على تنمية عقولهم ، يمكن أن تكون قصص الكتاب المقدس خير عون لهم على التمسك بالاخلاق الفاضلة • ولكن التعليم الدينى يجب أن يتركز على السلوك لا على العقيدة • ويكفى أن تقتصر العقيدة على الايمان « بوجود الله ، كائن أسمى يحب العدل والاحسان » ، وخير عبادة له هى معاملة الجار بالعدل والانصاف وحبه • ولا ضرورة لمبدأ آخر (٣١) •

والى جانب هذا المبدأ ينبغى أن يكون الفكر حرا ، ان الكتاب المقدس لم يقصد به أن يكون كتابا مدرسيا للعلوم أو الفلسفة ، فهذه العلوم والفلسفة مكشوفة أمام أعيننا فى الطبيعة ، وهذا الوحى الطبيعى هو أصدق وأشمل صوت الله •

ليس بين العقيدة أو اللاهوت وبين الفلسفة •••• أية علاقة أو صلة نسب ••• وليس للفلسفة غاية تصبو اليها الا الحقيقية ، أما العقيدة ••• فلا تفتش الا عن الطاعة والامتثال والتقوى • فالعقيدة اذن تهيىء أعظم مدى للتامل الفلسفى ، وتسمح لنا دون عتب أو ملام أن نفكر كيف نشاء فيما نشاء ، ولا تتهم بالهرطقة والانشقاق الا أولئك الذين يميلون الى اثارة الكراهية والغضب والنزاع (٣٢)•

وهكذا نرى سبينوزا فى تحوله المتفائل قد جدد تمييز بومبوناتزى

بين حقيقتين : اللاهوتية والفلسفية ويمكن أن تتهيأ كل منهما ، برغم تناقضهما ، لشخص بعينه فى حالة كونه مواطنا ، ثم فى حالة كونه فيلسوفا وقد يجيز سبينوزا للموظفين الرسميين المدنيين حق فرض طاعة القوانين ، كما أن للدولة ، شأنها شأن الفرد ، الحق فى حماية ذاتها ، ولكنه يضيف :

> ان الأمر بالنسبة للدين يختلف اختلافا كبيرا ، فمن حيث أنه لا يتألف من عمل ظاهرى بقدر ما يتألف من بساطة الخلق وصدقه ، فانه يقف خارج نطاق القانون والسلطة العامة . ان بساطة الخلق والصدق فيه لا تنتجهما قيود القوانين ولا سلطة الدولة ، وليس ثمة فرد فى العالم بأسره يمكن أن يفرض عليه التنعم بالسعادة الروحية أو تسن له القوانين من أجلها . والوسيلة المطلوبة لتحقيق هذا هى النصح المخلص الأخوى والتعليم الصحيح ، وفوق كل شيء الاستخدام الحر للحكم أو الرأى الشخصي .. .. ان فى مقدور كل انسان أن يستخدم بنجاح حقه العظيم فى حرية الرأى والحكم ، ويستخدم سلطته فى ذلك .. .. وأن يشرح ويفسر الدين لنفسه (٣٣) .

وينبغى أن تخضع الممارسة العلنية للدين لرقابة الدولة . ذلك أنه على الرغم من أن الدين قد يكون عنصرا حيويا فى تشكيل الأخلاق ، فان الدولة يجب أن تكون صاحبة السلطان الأعلى فى كل الأمور التى تؤثر فى السلوك العام . وكان سبينوزا أرسطوسيا (يقول بأن الدولة السلطة العليا فى الشئون الكنسية) عتيدا مثل هوبز ، وحذا حذوه فى اخضاع الكنيسة للدولة ، ولكنه حذر قراءة قائلا : « انى أتحدث هنا عن الشعائر الظاهرية فحسب .... لاعن .... العبادة الباطنية (٣٤)». وكان ناقما أشد النقمة (وربما تمثل فى خاطره لويس الرابع عشر) حينما استنكر استخدام الدولة للدين فى أغراض تتنافى مع مفهومه عن الديانة الأساسية العدل وعمل الخير .

> اذا كان اللغز للغز الرهيب الأساسي فى الدولة الاستبدادية هو التغرير بالرعايا وتقنيع الخوف الذى يكبح جماحهم بلباس

خداع من الدين ، حتى يقاتل الناس من أجل العبـودية بمثل البسالة التى يناضلون بها من أجل أمنهم وسلامتهم ، ولا يعتبرونه عارا بل شرفا كبيرا أن يبذلوا دماءهم وحياتهم رخيصة من أجل زهو وخيلاء وعظمة جوفاء ينعم بها طاغية جبار ، فانه فى الدولة الحرة يتعذر تدبير وسائل نفعيـة شريرة ، أو محاولة اللجوء اليها ، وأنه ليتعارض مع الحرية العامة كل التعارض ، أن ينفذ القانون الى مجال الفكر المتامل وتتعرض الآراء للتحقيق والمسـاءلة ، وتوضـع موضـع الاتهام والعقاب مثل الجرائم سواء بسواء ، على حين يضحى بالمدافعين عنها وبأتباعها ، لا من أجل الأمن والسلامة العامة ، بها على مذبح كراهية خصومها وقساوتهم . ولو أمكن اتخاذ الأعمال وحدها اساسا لتوجيه الاتهام بالجرائم ، واطلقت حرية القول ... لتجرد التحريض على الفتنة من أية شبهة لتبريره ، ولأمكن الفصل بينه وبين مجرد الخلاف فصـلا شديدا (٣٥) .

وواجه سبينوزا أثناء دراسته الكتاب المقـدس قضـية الخـلاف الأساسية بين المسيحيين واليهود . هل كانت المسيحية غير مخلصـة للمسيح او خائنة لعهده حين نبذت شريعـة موسي ؟ ومن رأيه أن تلك الشريعة سنت لليهود فى نطاق دولتهم هم ، لا لأية أمم أخرى ، حتى ولا لليهود أنفسهم اذا كانوا يقيمون فى مجتمع غريب عنهم ، والقوانين الأخلاقية وحدها فى شريعة موسي (مثل الوصـايا العشر) هى التى تتمتع بصـلاحية ابدية عامـة لكل زمان ومكان (٣٦) . وتنم بعض الأجزاء فى بحث سبينوزا فى اليهودية عن استياء شديد من صدور قرار « الحرم » ضده ، وعلى حرص شديد منه على تبرير نبذه لتعـاليم الكنيس ، ولكنه انضم الى اليهود فيما يراودهم من أمل فى عودة عاجلة الى دولة مستقلة . « قد أذهب بعيدا الى حد الاعتقاد بأنهـم ... سيقيمون دولتهم من جديد ، وأن الله سيختارهم للمرة الثانية (٣٧)».

وتناول المسيحية عدت مرات ، وواضح انه قرأ العهد الجديد فى اعجاب متزايد بالمسيح . ونبذ فكرة قيامة المسـيح بجسـده من بين الأموات (٣٨) . ولكنه ألفى نفسه يتعاطف تعاطفا شديدا مع موعظـة

يسوع الى حد أنه اقر بان وحيا خاصا نزل عليه من عند الله :

ان انسانا يستطيع بفطرته النقيـــة أن يدرك أفكارا ليست موجودة ، كما لا يمكن استنتاجها من أساس معرفتنا الطبيعية ، لا بد أنه بالضرورة يتمتع بعقل أسمى بكثير من عقول رفاقه ، بل انى لا اعتقد أن أحدا اختص بهـــذا غير المسيح ، وقد أوحيت اليه مباشرة أوامر الله التى تؤدى الى الخلاص ، بغير كلمات ولا رؤى . ومن ثم فان الله كشف عن ذاته للرسل عن طريق عقل المسيح ، كما فعل من قبل مع موسى عن طريق الصوت الخارق للطبيعة . وبهـذا المعنى يمكن أن يسمى صوت المسيح ، مثل الصـوت الذى ســـمعه موسى ـ صوت الله ـ ، وقد يقال بان حكمة الله (وهى أسمى من حكمة البشر×) ظهرت فى طبيعة المســيح البشرية ، وأن المسيح كان طريق الخلاص . وعند هذه النقطة لابد لى أن اعلن أن هذه النظريات ، التى تقدمها بعض الكنائس فيما يتعلق بالمسيح ، ليس فى وسعى أن أؤكدها أو أنفيها لأنى أعترف بكل صراحة أنى لا أفهمها ... ان المسيح اتصل بالله عقلا لعقل وبناء على هذا يمكن أن نستخلص أنه لا أحد غير المسيح تلقى الوحى من الله ، دون عون من الخيال فى الكلمات أو الرؤى (٣٩) .

ان غصن الزيتون هذا ، الذى قدم الى الزعماء المسيحيين ، لم يكن ليخفى عنهم أن « الرسالة اللاهوتية السياسية » كانت من أجـرأ ما صدر من بيانات وآراء فى الصراع بين الدين والفلســفة . وما أن ظهرت الرسالة حتى احتج مجلس كنيسة امستردام (٣٠ يونية ١٦٧٠) لدى رئيس الدولة فى هولنده على السماح بتداول مثل هذا الكتــاب المملوء بالهرطقة فى دولة مسيحية . وتوسل اليه احد المجامع الكنسية فى لاهاى أن يلعن ويصادر « مثل هذه الكتب التى تعمل على تخريب النفوس (٤٠) » . وانضم النقاد العلمانيون الى الهجوم على سبينوزا. وسماه أحدهم « شيطانا مجسدا (٤١)» . ووصفه جـان لى كلرك بانه

× انظر « كتاب الحكمة » ، و « الكلمة ـ لوجوس » فى الانجيل الرابع .

« أشهر ملحد فى زماننا (٤٢ » • واتهمـــه لامبرت فان فلتوسن بأنه « يحتال فى مكر ودهاء على بث الالحاد ... وتقويض أركان العبادة والديانة من أساسها (٤٣) » • ومن حسن حظ ســـبينوزا أن جان دى ويت رئيس الدولة كان من المعجبين به • وكان لفوره قد أجرى عليـه معاشا ضئيلا ، وما دام دى ويت حيا متربعا فى دست الحـــكم ، فان سبينوزا كان فى مقدوره أن يعتمد على حمايته له • ولم تدم هذه الحماية لأكثر من عامين فقط •

٣ ــ الفيلسوف

فى مايو ١٦٧٠ ، بعد نشر الرسالة اللاهوتية السياسية بقليل ، انتقل سبينوزا الى لاهاى ، ربما ليكون على مقربة من دى ويت وغيره من الأصدقاء ذوى النفوذ • وأقام لمـــدة عام فى بيت « الأرملة فــان فيلين » ، ثم انتقل الى دار هندريك فان درسبيك على بافليونجراشت، وفى ١٩٢٧ اشترت لجنة دولية هذا المبنى ، واحتفظ به على أنه « مسكن سبينوزا » ، وبقى فيه الى آخر حياته • وشغل منه حجرة واحدة فى الطابق الأعلى ، ونام على سرير يمكن اثناء النهـــار أن يطـــوى الى حائط(٤٤) • ويقول بيل « وفى بعض الأحيان كان يقبع فى عقر الدار لا يخطو خارجها لمدة ثلاثة أشهر بأكملها » ، وربما أخافتـــه رئتــاه المسلولتان من رطوبة الشتاء • ولكن كان زواره كثيرين ، ومرة أخرى يقول بيل انه بين الحين والحين « كان يقصد الى زيارة نفــر من ذوى المكانة والنفوذ ... للتحدث معهم فى شئون الدولة التى كان يفهمها جيدا (٤٥) » • واستمر يشتغل بصقل العدسات ، وأطــرى العـــالم الفيزيائى الرياضي كريستيان هيجينز درجة اتقانها (٤٦) • واحتفظ الفيلسوف ببيان عن نفقاته ، ومنه نعلم أنه عاش على نحو خمســـة وعشرين سنتا فى اليوم ، وأصر أصدقاءه على مد يد المعونة له ، حيث لابد أنهم رأوا أن اعتكافه فى الدار والغبار الذى ينتج عن صقل العدسات كانا يضاعفان من علته •

وانتهت الحماية التى بسطها دى ويت على سبينوزا حين اغتــال بعض الرعاع الأخوين دى ويت فى شوارع لاهاى (أغسطس ١٦٧٢) • ولما سمع بنبأ اغتيالهما رغب فى مغادرة الدار ليعلن الى هؤلاء الرعاع

استنكاره لفعلتهم باعتبارهم « أحط المتوحشين » ، ولكن صاحب الدار غلق الأبواب ومنعه من مغـــادرة الدار (٤٧) . وترك جان دى ويت لسبينوزا فى وصيته راتبا ســـنويا قدره مائتا فرنك (٤٨) ×. وبعد موت دى ويت انتقلت السلطة المدنية الى الأمير وليم هنرى الذى كان فى حاجة الى تاييد رجال الدين الكلفنيين . ولما صدرت الطبعة الثانية من « الرسالة اللاهوتية السياسية ١٦٧٤ ، أصدر الأمير ومجلس هولنده مرسوما يحظر بيع الكتـــاب ، وفى ١٦٧٥ أذاع مجلس الكلفنيين فى لاهاى بيانا يامر فيه كل المواطنين بالابلاغ فورا عن أية محاولة لطبـع أية مؤلفات لسبينوزا (٤٩) . وفيما بين عامى ١٦٥٠ و ١٦٨٠ – صدر من سلطات الكنيسة نحو ٥٠ مرسوما بتحريم قراءة مؤلفات الفيلسوف أو تداولها (٥٠) .

وربما ساعدت قرارات الحظر هذه على ذيوع شهرته فى ألمانيـا وانجلترا وفرنسا . وفى ١٦ فبراير ١٦٧٣ كتب جـوهان فابريشيوسي الأستاذ بجامعة هيدلبرج « الى الفيلســوف الألمعى المشــهور بندكت سبينوزا ، باسم ناخب البالاتينات المتحرر ، الأمير شارل لويس :

> طلب الى صاحب العظمـة الأمير ، أن أكتب اليـكم .. لأسالكم اذا كنتم ترغبون فى قبول منصب الأستاذية العادية للفلسفة فى جامعته الشهيرة . وسيعطيك الراتب السنوى الذى يتقاضاه الأساتذة العاديون الآن . انك لن تجد فى أى مكان آخر أميرا أشد ايثارا وأكثر عطفا على العباقرة المرموقين الذين يعدك واحدا منهم . وسيكون لك مطلق الحـرية فى اتخـاذ اى اتجـاه فلســفى يعتقد الأمير أنك لن تسيء استخدامه فى افساد جو الديانة الرسمية علانية .. ..

وأجاب سبينوزا فى ٣٠ مارس :

> السيد الجليل ،
>
> اذا كنت قد راودتنى الرغبة يوما فى شـــغل منصب

× يرتاب بعض الباحثين فى معرفة سبينوزا بجان دى ويت . راجع كلارك – « القرن السابع عشر » ص : ٢٢٣ .

> الأستاذية فى أية كلية ، لما رغبت فى منصب غير هذا الذى عرضه على ناخب البلاتينات المعظم عن طريقكم . ولما كنت على أية حال ، لم أفكر قط فى الاشتغال بالتعليم العام ، فانه يصعب أن أقنع نفسي باغتنام هذه الفرصة العظيمة ... أولا لأنى أعتقد أنى اذا أردت أن اوفر الوقت اللازم لتعليم الشباب فلا بد أن أتخلى عن تنمية فلسفتى وتطويرها . ثانيا ـ لست أدرى ما هى حدود الفكر الفلسفى التى يجب أن أعمل فى نطاقها ، حتى أتجنب ظهور أية رغبة فى تعكير جو الديانة الرسمية المعلنة . فان الانشقاقات والخلافات لا تثور نتيجة للحب الشديد للدين أكثر منها بسبب الميول والنزعات المتباينة فى الناس أو حب المعارضة والمخالفة فى الرأى ... ولقد خبرت هذه الأشياء بالفعل بينما كنت أعيش عيشة خاصة منعزلة ، ولا بد أن أكون أشد خشية من حدوثها ، اذا رقيت الى هذه المرتبة العظيمة (الأستاذية). وهكذا ترى يا سيدى الجليل أنى لا أحجم ، املا فى مال أكثر ، أو حظ أوفر ، ولكنه حب الهدوء والرغبة فى السلام (٥١) .

وكان سبينوزا سعيد الحظ فى رفضه هذا المنصب ، فان المارشال الفرنسي تورين اجتاح البالاتينات فى العام التالى وأغلقت أبواب الجامعة .

وفى مايو ١٦٧٣ ، وفى غمرة الهجوم الذى شنه جيش فرنسي على المقاطعات المتحدة تلقى سبينوزا دعوة من زعيم فى هذا الجيش لزيارة كوندية الكبير فى أوترخت . وامتشار سبينوزا فى أمر هذه الزيارة السلطات الهولندية التى ربما رأت فيها فرصة لفتح باب المفاوضات لعقد هدنة تدعو اليها الحاجة الملحة . وأمن له الطرفان كلاهما سبل الانتقال، وشق الفيلسوف طريقه الى أوترخت . وفى تلك الأثناء كان لويس الرابع عشر قد أرسل كونديه الى جهة أخرى . فبعث الى سبينوزا (كما يروى لوكاس) (٥٢) برسالة يطلب اليه فيها أن ينتظره ، وبعد بضعة أسابيع وصلت رسالة أخرى تقول انه سيتاخر الى أجل غير مسمى . والظاهر

أن مارشال دى لكسمبرج نصحه اذ ذاك أن يهدى الى الملك لويس كتابا ، مؤكدا له أنه سيلقى من الملك استجابة تتسم بالتحـرر (٥٣) . ولم يؤد الاقتراح الى نتيجة . وعاد سبينوزا أدراجه الى لاهاى ليجد كثيرا من المواطنين يشتبهون فى انه خائن . وتجمع حشد معاد حول بيته يكيلون السباب ويقذفون الاحجار . فقال لصاحب البيت « لا تنزعج ، فانا برىء، وهناك كثيرون من ذوى المناصب العالية يعرفـون لمـاذا ذهبت الى أوترخت . وحالما تسمع اى صخب أو شغب عند الباب ، فساخرج انا الى الناس حتى ولو كانوا سيفعلون بى مثل ما فعـلوا بجان دى ويت الطيب . انا جمهورى مخلص آمين ، وهدفى خير الجمهورية (٥٤) ولم يدعه صاحب الدار يخرج . وتفرق الجمهور .

وكان سبينوزا آنذاك فى الحادية بعد الأربعين . وهناك فى مسكن سبينوزا فى لاهاى صورة تمثله نمطا دقيقا ليهودى سفردى ، ذى شعر أسود متدل ، وحاجبين كثيفين ، وعينين سوداوين براقتين مكتئبتين قليلا ، وأنف مستطيل مستقيم ، ووجه تغلب عليه الوسامة فى جملته ، اذا قورن فقط بالصورة التى رسمها هالس لديكارت . ويقول لوكاس : « كان أنيقا غاية الاناقة فى مظهره ، ولم يغادر قط بيته دون ان يرتدى من الثياب ما يميز السيد المهذب الماجد عن المتحذلق (٥٥) . واتسـم سلوكه بالرزانة والوقار مع الظرف والرقة . وقال أولدنبورج « ان علمه الراسخ اقترن بالروح الانسانية والدماثة (٥٦) » . وكتب بيل « ان كل الذين تعرفوا على سبينوزا يقولون بانه كان اجتماعيا لطيـف المعشر ، أمينا ، ودودا حسن الخـلق (٥٧) » . ولم يتحـدث الى جيرانه بأية هرطقة ، بل على العكس شجعهم على الاستمرار فى الذهاب الى الكنيسة، ورافقهم من آن لآخر ليستمع الى موعظة (٥٨) . وكان أكثر من أى فيلسوف حديث آخر يتمتع بالهدوء الناجم عن ضبط النفس . وقلما رد على النقد ، وتناول فى رده الافكار والآراء ، لا الامور الشخصية. وعلى الرغم من اعتناقه مذهب الجبرية ، واقتلاعه من بين قومـه ، ومرضه ، كان أبعد ما يكون عن التشاؤم ، وقال « تصرف تصرفا حسنا، وابتهج وقر عينا (٥٩) » وربما كان شعار تفكيره أن يعرف أسـوأ الأشياء ، ويؤمن باحسنها .

وتردد الأصدقاء والمعجبون به على داره . واقنعـه والترفون

تشيرنهو بأن يطلعه على مخطوطه « الأخلاق » . وكتب اليه هــذا العالم الرياضي الفيزيائى : « أرجو أن تساعدنى بلطفك المعهود حيثما اعجز عن فهم ما تقصد اليه فهما صحيحا (٦٠) . وربما تم وصــول ليبنتز الى سبينوزا عن طريق هــذا التلميــذ المتلهف (١٦٧٦) ومن الجائز كذلك وصوله الى الرائحة التى لم تكن نشرت بعد . وقــدم لرؤيته الأعضاء الباقون على قيد الحياة من ندوة دكتــور مبير فى أمستردام أو كانوا يتبادلون معه الرسائل والقت رسائله من والى العلماء والباحثين فى أوروبا ضوءا غير متوقع على المناخ العقلى فى ذاك العصر. وحثه هوجوموكسلى مرارا وتكرارا على التسليم بحقيقة وجود الأرواح الشريرة والأشباح . وفى ١٦٧٥ أرسل اليه من فلورنســا عالم التشريح ستينو نداءا مؤثرا ليتحول الى الكثلكة :

> انى آخذ على عاتقى عن طيب خاطــر ، اذا أردت أنت ، مهمة هدايتك الى الطريق .. .. وعلى الرغم من أن علمك يفوق علمنا ، فانى أود لو أنك تقدمت الى الله فبرئت من أخطائك ونبذتها ، حتى اذا كانت كتاباتك السابقة قد صرفت الفا من الانفس عن المعرفة الحقيقية لله ، فان رد هذه النفوس الى طريق الحق على أن تكون أنت قدوة تشد من أزرها ، قد يعيد الى الله الف ألف معك ، كما لو كنت أوغسطين آخر أرجو من كل قلبى أن تحل بك هذه البركة والنعمة . وداعا (٦١) .

كذلك سحرت فتنة الكثلكة لب ألبرت بيرج ابن صديق ســبينوزا كنراد بيرج وزير مالية المقاطعات المتحدة . وكان ألبرت ، مثل ستينو ، قد تحول الى الكاثوليكية أثناء رحلته فى ايطاليا . وفى سبتمبر ١٦٧٥ كتب الى سبينوزا متحديا ، أكثر منه متوسلا ، اياه أن يعتنق المذهب الكاثوليكى :

> من أين لك أن تعرف أن فلسفتك هى أفضل التعاليم التى لقنت فى العالم فيما مضي ، أو أنها أفضل ما يتلقاه العالم الآن بالفعل ، أو ما سـيتلقاه فى المســتقبل ؟ هل درست كل الفلسفات قديمها وحديثها ، مما يتعلمه الناس هنا وفى الهند وفى سائر أصقاع المعمــورة ؟ وحتى اذا كنت

درستها جميعا .. كيف يتسنى لك أن تدرك انك اخترت احسنها ؟ .. .. واذا كنت ، على أية حال ، لا تؤمن بالمسيح فانك أياس واجدر بالازدراء مما يمكن أن أصور لك . ولكن العلاج ميسور : ارجع عن خطاياك ، وتحقق من الغطرسة القاتلة التى ينطوى عليها تفكيرك الحقير المجنون .. .. هل تجسر أيها الرجل الحقير ، ياحشرة الأرض الدنيئة .. .. فى تجديفك الذى لا يصح أن يوصف ، أن تضع نفسك فوق « الحكمة المجسدة اللامتناهية » ؟ .. .. انك بقواعدك ومبادئك لا تستطيع أن تفسر تفسيرا كاملا حتى واحدا من هذه الأشياء التى يأتى بها السحرة .. .. كما انك لا تستطيع أن تفسر أيا من الظواهر المذهلة بين الذين يتملكهم الشياطين ، مما رأيت منه بعينى رأسى أمثلة كثيرة منه أو سمعت صدق الأدلة اليقينية عليه (٦٢) .

وفى ديسمبر ١٦٧٥ رد سبينوزا ردا جزئيا :

أخيرا فهمت من كتابك ما لم أكن أكاد أصدقه حين رواه لى آخرون ... وهو انك لم تصبح عضوا فى الكنيسة الكاثوليكية فحسب .. .. بل انك كذلك من أشد أنصارها وحماتها غيرة وحماسة ، وأنك تعلمت الآن كيف تصب لعنتك وجام غضبك فى وقاحة على خصومك ومخالفيك . ولم أكن أعتزم الرد على رسالتك ... ولكن جماعة بعينها من الأصدقاء ، ممن علقوا أكبر الآمال على مواهبك الطبيعية ألحوا على فى الرجاء الا أقصر فى حق صديق ، وأن أفكر فيما كنت عليه منذ فترة وجيزة لا فيما أنت عليه الآن ... واقنعتنى تلك الحجج بكتابة هذه السطور اليك ، راجيا كل الرجاء أن تتفضل بقراءتها بنفس هادئة .

ولن أعدد لك هنا من جديد مساوىء القساوسة والبابوات ، لأصرفك عنهم ، كما اعتاد أعداء الكنيسة الكاثوليكية أن يفعلوا . لأنهم عادة ينشرون هذه المساوىء بداعى الحقد والغضب ، ورغبة فى الازعاج لا التقويم والتعليم . والحق أنى أقر بأنه يوجد فى الكنيسة الكاثوليكية

رجال على قدر كبير من العلم والمعرفة واستقامة الحيـــاة أكثر مما يوجد منهم فى أية كنيسة مسيحية أخرى ، فانه حيثما توافر عدد أكبر من اتباع الكنيسة ، فلا بد أن يوجد عدد أكبر من الرجال من كل صنف . وهناك فى كل كنيسة كثيرون من الأمناء المخلصين غاية الأمانة والاخلاص ، ممن يعبدون الله فى عدل واحسان ، ... لأن العدل والاحسان أصدق أمارات المذهب الكاثوليكى الحق ... وحيثمـــا يوجد هؤلاء ، يوجد المسيح حقـــا وصـــدقا ، وحيثمـا يفتقدون ، يفتقد المسيح كذلك . لأن روح المسيح وحـــده هى التى يمكن أن تقودنا الى حب العدل والاحســـان . واذا كنت قد اعتزمت عزما أكيدا من قبل ، التفكير مليا بينك وبين نفسك فى هذه الحقائق ، لما ضللت ، ولما سببت لأبويك أشد الحزن والأسي .. .. انك سألتنى كَيف أدرك أن فلسفتى أفضل الفلسفات التى ظهرت فى العـــالم من قبل ، و التى تلقن الآن ، أو ستلقن فى المستقبل . والواقع أن لى حق أكبر فى أن أسألك هذا السؤال . لأنى لا ازعم انى وقعت على أفضل فلسفة . ولكنى أدرك أنى أظنهـــا الفلسفة الحقة .. .. ولكنكم أنتم الذين تزعمـــون أنكم وجدتم آخر الأمر أحسن ديانة ، أو على الأرجح أفضـــل رجال واسرعتم الى تصديقهم كيف تعرفون أنهم أفضل من علم سائر الديانات ، أو يعلمونها الآن ، او سيقومون بتلقينها فى المستقبل ؟ هل درستم كل تلك الديانات قديمها وحديثها تلك التى تلقن هنا وفى الهند وفى سائر أنحاء العـــالم ؟ وحتى لو كنتم درستموها حق الدرس ، كيف تعرفون أنكم اخترتم أحسنها ؟ هل تعتبرونه عجرفة وغرورا ان استخدم عقلى فى الاذعان لكلمة الله الحقة الموجودة فى العقل ، ولا يمكن باية حال افسادها أو تحريفها ؟ انأوا بأنفسكم عن هـــذه الخرافة المهلكة ، واعترفوا بالعقل الذى حباكم الله اياه ، وتعهدوه اذا لم تكونوا فى عداد البهـــائم .. .. انكم اذا امعنتم النظر فى تاريخ الكنيسة (وانى لأدرك انكم على أكبر درجة من الجهـــل به) لتدركوا مدى زيف كثير من

التقاليد البابوية ، ولكى تعرفوا ... بأية حيـــل وأفانين استطاع البابا الرومانى ، بعد ستمائة سنة من ميلاد المسيح أن يسيطر على الكنيسة ، فانى لا أشك لحظة فى انكم آخـر الأمر ستفيقون من غفلتكم . وانى لأود من صميم قلبى أن يتم لك هذا ، وداعا (٦٣) .

والتحق بيرج بطائفة الفرنسيسكان ، وقضى نحبه فى أحد الأديار فى رومة .

ومعظم رسائل سبينوزا الباقيــة كانت مع أولدنبيرج . واننـــا لتتولانا الدهشة أن نجد أن كثيرا منها عالج العلوم ، وأن سبينوزا قام بتجارب فى الفيزياء والكيمياء ، وأن رسائله كانت موضـحة بالرسوم البيانية والتخطيطية ، وانقطعت هذه الرسائل فى ١٦٦٥ ، فقد اعتقل أولدنبرج فى ١٦٦٧ وسجن فى برج لندن للاشـــتباه فى اتصاله بدولة أجنبية ، وانصرف الى الدين عند اخلاء سبيله ، وعندما استانف مكاتبة سبينوزا (١٦٧٥) انضم الى المساعى المبذولة لضمه الى أية فرقة من فرق المسيحية الصحيحة ، ورجاه أن يأخذ قصة قيامة المسيح حرفيـــا لا رمزا ولا مجازا . وقال « ان العقيـــدة المسـيحية بأسرها وحقيقتها ترتكزان على موضوع القيامة ، فاذا نحن استبعدناه ، انهارت كل رسالة المسيح وتعاليمه السماوية (٦٤) » . وفى خاتمة المطـــاف تخلى عـــن سبينوزا باعتباره نفسا ضالة ضائعة ، وانقطع عن مراسلته (١٦٧٧) .

وطوال الوقت ابتداء من عام ١٦٦٣ كان سبينوزا يعمل فـى كتاب « الأخلاق » . وفى أبريل ١٦٦٢ كتب الى أولدنبورج انه كان يفـــكر فى نشره ولكنه « كان منالط بيعى أن يخشي من رجال اللاهــوت أن تأخذهم العزة بالاثم ، فيشنون عليه الهجوم بكراهيتهم المعهــودة ، وأنا أنفر من الشجار والنزاع كل النفور (٦٥) » . ولكن أولدنبــورج استحثه على النشر « مهما يكن من أمر تذمر رجال اللاهوت المشعوذين ونباحهم (٦٦) » . ولكن سبينوزا ظل بين الاحجام والاقدام . ورخص لبعض أصدقائه فى قراءة بعض أجزاء من المخطوطة ، وربما افاد من بعض تعليقاتهم لأنه أعاد مراجعة الرسالة عدة مرات . أن الضجة التى أثارتها « الرسالة اللاهوتية الســـياسية » كانت تبرر ما تذرع به من

حرص وحذر ، كما ضايقه اكثر من ذلك قتـــل الاخـوين دى ويت ، والشبهات التى حامت حوله بعد زيارته للجيش الفرنسي ، ولم يشرع فى اتخاذ أية خطوة أخرى لطبع « الاخلاق » الا فى ١٦٧٥ ، وأبلغ النتائج الى أولدنبورج :

فى الوقت الذى تسلمت فيه رسالتك المؤرخـة فى ٢٣ يوليه كنت على وشك الرحيل الى امستردام بغية البدء فى طبع الكتاب الذى كتبت اليك عنه ٠ وبينما كنت مشغولا بهذا الامر انتشرت فى كل مكان شائعة تقول بان فى المطبعة كتابا لى عن « الله » ، وانى حاولت فيه أن أبين أنه ليس هناك اله ٠ واعتقد كثيرون فى صحة هذه الشائعة ٠ ومن ثم انتهز بعض رجال الدين الفرصة ليتقدموا بالشكوى ضدى الى الامير والقضاة ٠٠٠ وعندما ترامى هذا الى ســمعى ٠٠٠ قررت تاجيل النشر الذى كنت أعد له العدة (٦٧) ٠

وطرح المخطوطة جانبا ، وانصرف الى كتابة رســالة عن الدولة « الرسالة السياسية » ، ولكن المنية عاجلته قبل الانتهاء منها ٠

وفى ٦ فبراير ١٦٧٧ كتب الطبيب الشاب جورج هرمان شوللر الى ليبنتز « اخشي أن يفارقنا مستر بندكت سبينوزا وشيكا ، حيث يبدو أن حالة السل عنده تزداد ســوءا يوما بعد يوم (٦٨) ، وبعـــد ذلك بأسبوعين ، وحين كان سائر أهل البيت متغيبين عنه ، دخل الفيلسوف فى النزع الاخير ٠ وكان شوللر وحده (لاميير كما كان مظنـــونا من قبل) معه فى تلك الفترة ٠ وترك سبينوزا تعليمات ببيـــع أمتعتـه المتواضعة لتسديد ديونه ، وبنشر مؤلفاته التى لم يسبق له احراقها ، غفلا من اسمه ٠ وقضي نحبـــه فى ٢٠ فبراير ١٦٧٧ دون أية طقوس كهنوتية (٦٩) ٠ ودفن فى مقبرة فى كنيسة لاهاى الجديدة بالقرب من مقبرة جان دى ويت ٠ أما المخطوطات ـ وبخاصـــة « الاخـــلاق » و « الرسالة السياسية » و « رسالة فى اصلاح العقل » فقد أعدها للمطبعة مييز وشوللر وغيرهما ، وطبعت فى امستردام فى أواخر ١٦٧٧ ٠

وهكذا ناتى فى خاتمة المطاف الى الكتاب الذى صب فيه سبينوزا عصارة حياته ونفسه التى انزوى بها عن الناس ٠

٤ ـ اللـــه

ان سبينوزا سمى هذا الكتاب « الاخلاق العادية وعرض هندمي »، أولا لأنه ذهب الى ان كل الفلمفة هى اعداد للسلوك الصحيح والحيـاة الحكيمة ، وثانيا ، لأنه مثل ديكارت ، حسد الزهد العقلى والتسلسل المنطقى فى الهندسة ، وراوده الأمل فى أن يبنى على غرار اقليدس ، كيانا للتفكير ، تتعقب كل خطوة منه بصورة منطقية ماسـبقها من براهين . وهذه تشتق آخر الأمر بشكل لا يمكن دحضه من بديهيات أو حقائق مقررة يتقبلها الناس جميعا . وأدرك سبينوزا أن هذا مثل أعلى، وكان من العسير عليه أن يتصوره حائلا دون الخطأ ، لأنه كان بطريقة شبيهة بهذه شرح فلسفة ديكارت التى لم يوافق عليها .

ان المخطط الهندسي قد يؤدى على الأقل الى الوضوح ، وقد يحول دون اضطراب العقل بالانفعال ، واخفاء المغالطة والسفسطة بالفصاحة والبلاغة . ورأى أن يناقش سلوك الانسان ، بل حتى طبيعة الله ، فى هدوء وموضوعية ، كما لو كان يتناول الدوائر والمثلثات والمربعات . ولم يخل نهجه من أخطاء ، ولكنه أدى به الى ابتناء صرح للعقـل مهيب فى عظمته الهندسية ووحدته . وهذا المنهج استنتاجى ، وربما عبس له وجه فرانسيس بيكون ، ولكنه زعم انه كان متناسـقا مع كل الخبرة .

وبدأ سبينوزا بتعريفات مأخوذة فى معظمها من فلسفة العصور الوسطى . وغيرت الألفاظ التى استخدمها معانيها منذ ذلك اليـوم ، وبعضها الآن بكسو فكره بالغموض والابهام . والتعريف الثالث أساسي : حيث عرف الجوهر بانه « ما هو فى ذاته ومتصـور بذاته ، أعنى أن تصوره لا يعتمد على تصور شيء آخر لابد أن يكون مكونا منه » . وهو لا يقصد الجوهر بالمعنى الحديث أى المقـومات والمكونات المـادية ، واستخدامنا لهذه اللفظة بمعنى الماهية والأهمية الأساسية أقـرب الى ما قصد اليه هو . واذا أخذنا اللفظـة اللاتينية Subslansia التى استخدمها بمعناها الحرفى ، فانها تعنى « يقع تحت ، يشكل الأساس، يدعم » . وفى مراسلاته (٧٠) يتحدث سبينوزا عن « الجوهـر أو الكينونة » أى أنه يعادل الجوهر بالوجود أو الحقيقة . ومن ثم يمكن

أن يقول « ان الوجود يتعلق بطبيعة الجوهر » أى أنه فى الجوهر تكون ماهية الشيء أو طبيعته الأساسية ووجوده شيئا واحـــدا (٧١) . وقد نخلص من هذا الى أن الجوهر عند سبينوزا يعنى الحقيقة الأساسية التى تشكل أساس كل الأشياء .

ونحن ندرك هذا الواقع فى شكلين : الامتداد أو المادة ثم الفكر أو الذهن ، وهاتان « صفتان مميزتان » للجوهر ، لاصفتان به قائمتان فيه . بل هما نفس الحقيقية التى ندركها خارجيا بحواسنا باعتبارهما مادة ، والحقيقة التى ندركها بشعورنا باعتبارها فكرا . وســـبينوزا « واحدى » تماما يقول بان الحقيقة كل واحد ، فان جانبى الحقيقة هذان ـ المادة والفكرة ـ ليسا وجودين متميزين مستقلين الواحد منهما عن الآخر ، بل هما جانبان ، الخارجى والداخلى لحقيقة واحـــدة ، وهكذا الجسم والذهن ، وهكذا الأحداث الفسيولوجية (الجســدية) والحالة العقلية المناظرة لها . والحقيقة التى لامراء فيها أن سبينوزا كان يدين بالمثالية قدر ابتعاده عن المذهب المادى ، انه يعـرف الصفة بانها « ما يدركه العقل عن الجوهر كما لو كان يؤلف ما هيته (٧٢) » ويسلم سبينوزا (قبل مولد باركلى بزمن طويل) باننا نعرف الحقيقة ، اما مادة أو فكرا ، عن طريق الادراك الحسي أو الفكرة فقط . ويعتقد بان الحقيقة تعبر عن نفسها فى مظاهر لا نهاية لها ، عن طريق « عدد لا متناه من الصفات » التى لا ندرك منها ، نحن الكائنات الناقصة ، الا اثنتين . وعند هذا الحد ، يكون الجوهر أو الحقيقة ، هـــو كل ما يظهر لنا مادة أو ذهنا ، والجوهر وصفاته شيء واحد : والحقيقة اتحاد من المادة والذهن ، وهذان متميزان فقط فى الشكل الذى ندرك به الجوهر . ونتحلل قليلا من صيغة سبينوزا ، ونقول بأن المادة هى حقيقة مدركة خارجيا والذهن حقيقة مدركة داخليا . فاذا استطعنا أن ندرك كل الاشياء بطريقة مزدوجة ـ خارجيا وداخليا ـ كمـــا ندرك أنفسنا ، فاننا نجد ، كما يعتقد سبينوزا ، « أن كل الأشياء حيــة نشيطة بشكل ما (٧٣) » . فهناك شكل أو درجة من الذهن أو الحياة فى كل شيء . والجوهر دائما حى أو نشيط : والمادة فى حركة دائمة ، والذهن دائما يدرك أو يحس أو يفكر او يرغب او يتخيل و يتذكر ، فى اليقظة أو النوم . والعالم فى كل جزء من أجزائه حى .

ويعادل سبينوزا بين الله وبين الجوهر ، فهو الحقيقـــة التى تشكل أساس المادة والذهن وتوحد بينهما . والله لا يتعادل مع المادة (فلهذا لا يدين سبينوزا بالمذهب المادى) ولكن المادة صـــفة ملازمة متاصلة أساسية ، أو مظهر من الله (وهنا تذلهر من جديد احـــدى هرطقات سبينوزا فى شبابه) . ولا يتعادل الله مع الذهن (ومن ثم لا يدين سبينوزا بالروحية) ولكن الذهن صفة أو مظهر ملازم متاصل أساسي لله . والله والجوهر يتعادلان مع الطبيعة والمجمـــوع الكلى للكينونة أو الوجود (ولهذا كان سبينوزا يقول بوحدة الوجود : ان الله والطبيعة شيء واحد ، وان الكون المادى والانسان ليســـا الا مظاهر للذات الالهية) .

وللطبيعة مظهران . فباعتبارهـــا القـــدرة على الحـــركة فى الأجسام ، والقدرة على التوالد والنمو والاحساس فى الكائنات الحية ، فانها طبيعة « خالقة » أو ولودة . وباعتبارها جماع كل الاشياء والاجسام والنبات والحيوان والانسان . فهى طبيعة « محدثة أو مخلوقة » . وهذه « الموجودات الفردية » فى الطبيعة المخلوقة يسميها سبينوزا حالات - أو تعديلات أو تجسيدات طارئة فى الجوهر ، والحقيقة والمادة والعقـــل والله . وهى جزء من الجوهر ، ولكننـــا نميزها فى ادراكنا الحسي ، باعتبارها أشكالا عابرة سريعة الزوال لكل داخلى . فهذا الحجر وهـــذه الشجرة ، وهذا الانسان أو الكوكب أو النجم - هذا المشهد المتغير العجيب من الأشكال الفردية التى تظهر وتتلاشي - تؤلف كلها « النظام المؤقت » الذى قابله سبينوزا فى « رسالة اصلاح العقل » « بالنظام الازلى » وهو بمعنى أدق الحقيقة والله المفهومان ضمنا :

> لا أفهم من سلسلة العلل والموجـــودات الحقيقية ... سلسلة من الأشياء الفردية المتحولة ، بل سلسلة من الأشـــياء الثابتة الأزلية . لأنه قد يكون من المتعذر على الضعف البشرى أن يتتبع سلسلة الأشياء الفردية المتحولة (كل حجر ، وزهرة وانسان) . ان وجودها ليس له علاقة بماهيتها (قد توجد ، ولكن ليس ثمة ضرورة لأن توجد) ، أو أن وجودهـــا ليس حقيقة أزلية ... وهذه الماهية يمكن التماسها من الأشـــياء الثابتة الأزلية ، ومن القوانين المنقوشة فى هذه الأشياء وكأنها

دستورها الذى بمقتضاه صنعت ورتبت ، بل ان هذه الاشياء الفردية المتحولة تعتمد اعتمادا وثيقا اساسيا (هكذا يقال) على هذه الاشياء الثابتة ، وبدونهسا لا يمكن وجسودها ولا ادراكها (٧٤) .

وهكذا يكون مثلث واحدا بعينه « حسالة » ، وقد لا يكون ثمة ضرورة لوجوده ، ولكن اذا وجد يكون لزاما عليه أن يطيع القوانين - وسيكون لديه كل صلاحيات - المثلث بصفة عامة ، والرجل بعينة حالة. وقد يوجد أولا يوجد ، ولكن اذا وجد ، فانه سيشارك فى ماهية وقدرة المادة - الذهن ، ويكون عليه أن يطيع القوانين التى تحكم عمليات الاجسام والافكار ، وهذه القدرات والقوانين تؤلف نظام الطبيعة باعتبارها طبيعة « خالقة » ، وهى تشكل فى لغة اللاهوت « ارادة الله » . وحالات المادة هى فى مجموعها جسم الله ، وحالات الذهن فى مجموعها هى ذهن الله ، والجوهر أو الحقيقة . فى كل حالاتها وصفاتها هى الله . « كل ما يوجد هو فى الله (٧٥) » .

ويتفق سبينوزا مع الفلاسفة السكولاسيين فى أن الماهية والوجود فى الله شيء واحد ، ان وجوده متضمن فى تصورنا الماهية لانه يتصور أن الله هو كل الوجود نفسه يحتوى على الوجسود كله . ويتفق مع السكولاسيين فى أن « الله علة ذاته » حيث لا يوجد شيء خارج عنه . ويتفق معهم فى اننا نستطيع أن نعرف وجود الله ، ولكننسا لا نعرف طبيعته الحقيقية . ويتفق مع توما الاكوينى فى أن استخدام ضمائر المذكر للدلالة على الله أمر سخيف مضحك ولكنسه مريح● . ويتفق مع اتباع ابن ميمون فى أن معظم الصفات التى ننسبها الى الله يمكن تصورها عن طريق القياس الضعيف مع صفات الانسان .

يوصف الله بانه واضسع القوانين أو الأمير أو الملك ، ويوصف بانه عادل رحيم ... الخ . لمجسرد الاعتراف أو

●ان اللغة تؤنث « الطبيعة » وتذكر « الله » وباحداث التعادل بينهما كان سبينوزا أكثر انصافا للانثى أو الاصل المنتج فى الحقيقة . وربما كان « تنكير » الله جزءا من الاخضاع الابوى للمرأة ، وهى فسوق كل شيء المجسرى الرئيسى للحقيقة البشرية .

> التسليم بالفهم العادى ونقص المعـــرفة العادية (٧٧) ... والله مجرد من الانفعالات ، ولا يتأثر بأية عواطف من الفرح أو الحـزن (٧٨) .. .. ان أولئـــك الذين يخلطون بين الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية ، انما ينسبون بســـاطة الانفعالات الانسانية الى الله ، وبخاصة اذا كانوا لا يعرفون كيف تحدث الانفعالات فى الذهن (٧٩) .

وليس الله شخصا ، لأن هذا يعنى عقلا مفردا خاصا محـــدودا متناهيا ، ولكن الله هو مجموع كل العقل (كل الحيوية والنشـــاط والاحساس والفكر) ـ بقدر ما هو كل المادة ـ الموجود (٨٠) . العقل البشرى جزء من عقل معين غير متناه لا حدود له (٨١) (مثل التقليد الأرسطى ـ السكندرى) . ولكن « اذا كان العقل والارادة تتعلقـــان بالماهية الأزلية لله ، فان شيئا آخر بعيدا يجب أن يفهـــم من هاتين الصفتين أكثر مما يفهمه الناس عامة (٨٢) » . « فالعقل الفعلى ... مع الارادة والرغبة والحب ، الخ ، يجب ارجاعها الى الطبيعة المخلوقة لا الطبيعة الخالقة (٨٣) » أى أن العقول الفردية برغباتها وعواطفها واختياراتها ، هى حالات أو تعديلات موجودة فى الله باعتباره جماع كل الأشياء ، ولكنها لا تتعلق به باعتباره قانون وحياة العالم . فهناك فى الله ارادة ، ولكن بمعنى القوانين التى تعمل فى كل مكان . فان ارادته قانون .

وليس الله أبا ملتحيا يجلس على سحابة ، يحـــكم الكون . انه « العلة المقيمة الكامنة ، غير العابرة ، لكل الأشـياء (٨٤) » . وليس يوجد « خلق » الا بمعنى ن الحقيقة غير المتناهية ـ المادة الذهن ـ تتخذ دوما أشكالا أو حالات جديدة فردية . وليس الله فى مكان واحد ، ولكنه فى كل مكان تبعا لماهيته (٨٥) . والحق ان لفظة « العـــلة » هنا غير ملائمة . ان الله هو العلة الشاملة العامة ، لا بمعنى علة سابقة عـلى نتيجتها ، ولكن فقط بمعنى أن سلوك أى شيء ينبـــع بالضرورة من طبيعته . والله هو علة كل الأحداث ، بنفس الطريقة التى تكون بها طبيعة المثلث هى علة خواصه وسلوكه . والله حر ، فقط بمعنى انه غير خاضع لأية علة أو قوة خارجية ، وانه غير محكوم الا بماهيته أو طبيعته

الخاصة ، ولكنه « لا يتصرف عن حرية الارادة (٨٦) » ، وكل افعـاله تحددها وتحكمها ماهيته ـ وهذا يعنى أن الطبيعة المتاصلة الملازمـة للأشياء وخواصها هى التى تحكم كل الأحداث . وليس فى الطبيعة خطة بمعنى أن الله يرغب فى غاية أو هدف بعينه ، فليس لديه رغبات أو خطط ومشروعات ، اللهم الا أن جماع الأشياء تحتوى رغبات وخطط كل الحالات ، ومن ثم خطط ورغبات كل الكائنات الحية . وليس فى الطبيعة الا نتائج ، تتبع بالضرورة عللا سابقة لها وخواصا متاصلة . وليس هناك معجزات ، لأن ارادة الله و « نظام الطبيعة الثابت الذى لا يتغير » شيء واحد (٨٧) ، وأى خـرق أو اضطراب فى « سلسلة الأحداث الطبيعية » يكون تناقضا ذاتيا .

والانسان مجرد جزء صغير من الكون . والطبيعة تقف على الحياد بين الانسان وسائر الأشكال . وينبغى الا نطـلق على الطبيعة أو الله الفاظا مثل خير أو شر ، جميل أو قبيح ، فتلك مصطلحات ذاتية ، مثل ساخن أو بارد وانما يحددها أسهام العالم الخـارجى فى منفعتنا أو استيائنا .

> ان الحكم على كمال الأشياء يكون بطبيعتها وقدرتهـا فحسب ، فهى ليست اكثر أو اقل كمالا بسبب انهـا تسر أو تسيء الى حواس الانسان ، ولا يسبب أنها نافعة أو ضـارة للطبيعة البشرية (٨٨) ... وبناء على ذلك ، فانه اذا كان فى الطبيعة شيء يبدو لنا سخيفا أو مضحكا أو شرا ، فما ذاك الا لأننا لا ندرك الا القليل ، بل نكاد نجهل كل الجهل ، نظام الطبيعة واتكالها بعضها على بعض ككل ، كذلك لأننا نريد أن يكون كل شيء وفقا لما يمليه عقلنا البشرى . والواقع أن ما يعتبره العقل شرا ، ليس شرا بالنسبة لنظـام الطبيعة وقوانينها ككل ، بل بالنسبة لقوانين عقلنا فقط (٨٩) .

وبالمثل لا يوجد فى الطبيعة جمال ولا قبح .

> ليس الجمال ... الى حد كبير صفة فى الشيء المرئى، تحدث اثرا فى الرائى . واذا كان ابصارنا أطول أو أقصر ، واذا كانت بنياتنا متفاوته ، فان ما نراه الآن جميلا ، يجب

أن نظنه قبيحا . ان أجمـــل يد ترى بالمجهــــر ســـتبدو مخيفة (٩٠) ... أننا لا ننسب الى الطبيعة الجمال أو التشويه ولا النظام أو الفوضى والاضطراب . وبالنســبة لخيالنـــا أو تصورنا فقط ، يمكن أن توصف الأشياء بأنها جميلة أو قبيحة ، حسنة الترتيب أو مهوشة (٩١) .

والنظام موضوعى بمعنى واحد ، هو أن كل الأشياء تتحد فى نهج واحد من القانون ولكن فى هذا النظام تكون العاصفة المدمرة طبيعية ، بقدر ما تكون روعة غروب الشمس أو رهبة البحر طبيعية :

وهل نحن على حق ، على أساس هذا « اللاهوت » اذا نعتنا سبينوزا بالالحاد ؟ لقد رأينا أنه لم يكن ماديا ، لأنه لم يعادل بين الله والمادة ، فانه يقول فى وضوح تام بأن أولئك الذين يذهبون الى أن « الرســـالة باللاهوتية السياسية » قائمة على تعادل الله مع الطبيعة آخذين الطبيعة على أنها كتلة معينة من مادة عينية ـ مخطئون غاية الخطأ (٩٢ . « انه تصور الله ذهنا ومادة على حد سواء . ولم يختزل الذهن الى مادة واعترف بأن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة مباشرة . وذهب الى أن ثمــة شيئا مجانسا للذهن . يختلط بكل المادة ، وكان من هذه الناحيـــة ممن يقولون بوحدة الوجود ، كان مؤمنا بوحدة الوجود ، حيث يرى الله فى كل الأشـــياء ، ويرى كل الأشـــياء فى الله . واعتبره بيـــل وهيـــوم ، وغيرهما (٩٣) ملحدا . وقد يبدو ما يبرر هذا الوصف فى انكار سبينوزا للشعور والرغبة أو الفرض عند الله (٩٤) . انه هو نفسه على أية حال ، اعترض على « رأى العامة فى حيث لا يكفـون عن اتهامى خطـــأ بأنى ملحد (٩٥) » والظاهر أنه شعر بأن نسبته ذهنا وذكاء الى الله غفرت له تهمة الالحاد . ويجب التسليم بأنه تحدث مرارا وتكرارا عن ربه فى عبارة تتسم بالاجلال الدينى ، مما يتفق تمام الاتفاق مع مفهوم الله عند ابن ميمون أوتوما الأكوينى ، بل قد يسميه نوفاليس « الرجل الثمل بحب الله » .

والواقع أنه كان نشوانا بنظام الطبيعة بأسره ، ذلك النظام الذى بدا له فى تماسكه وحركته الأزليتين مثيرا للاعجاب مهيبا . وفى الكتاب الأول من « الأخلاق » كتب عن نهج للاهوت وميتافيزيقا العلوم معا . وفى دنيا القانون أحس بوحى الهى ، أعظم من أى كتـــاب مهما كان

كريما وجميلا . وأن الفرد العلمى الذى يدرس ذلك القانون ، حتى فى أتفه تفاصيله وأصغرها شأنا ، انما يفك مغاليق هذا الوحى لأننا « كلما ازددنا فهما للأشياء الفردية ازددنا فهما لله (٩٦) » (وقد هزت هذه الجملة مشاعر جوته باعتبارها أعمق عبارة فى الأدب كله .) . ويبدأ لسبينوزا أنه قبل وواجه فى أمانة واخـــلاص التحـــدى الضمنى فى كوبرنيكس - ليعيد تصور الاله على أساس جديد بالكون الذى يتكشـف يوما بعد يوم . ولم يعد ثمة صراع بين العلم والدين عند سبينوزا ، فهما شيء واحد .

٥ - الذهـــن :

ان أكبر لغز فى الفلسفة والعلم ، بعد طبيعة الكون وعمله ، هو طبيعة الذهن وعمله . واذا كان من الصعب التوفيق بين نزعـــة خيرة بالغة القدرة وبين حياد الطبيعة وحتمية المعاناة والألم ، فانه يبدو من الصعوبة بنفس القدر أن نفهم كيف يستطيع شيء ظاهر أنه خارجى مادى محدود ذو حيز أن يولد فكرة واضح أنها غير مادية وغير محـــدودة بحيز ، و كيف تصبح فكرة فى الذهن حركة فى الجسم ، أو كيف تستطيع فكرة أن تدفق التأمل فى فكرة أخرى فى غياهب الوعى .

ويتفادى سبينوزا بعض هذه المشاكل بنبذة فرضية ديكارت القائلة بأن الجسم والذهن جوهران مختلفان . ويعتقد أن الجسم والذهـــن شيء واحد ، وأنهما نفس الحقيقة ، وأنهما يدركان فى مظهـــرين أو صفتين مختلفتين مثلما أن الامتداد والفكر شيء واحد فى الله - ومن ثم لا تكون هناك مشكلة فى كيفية تأثير الجسم فى الذهن أو العكس بالعكس . وكل حدث هو العملية المتزامنة الموحدة للجسم والذهـــن كليهما . ويعرف سبينوزا الذهن بأنه « فكرة الجســـم (٩٧) » أى العمل السيكولوجى (وليس بالضرورة عملا واعيا) المتلازم والمرتبط بأية عملية فسيولوجية . فالذهن هو الجسم نحس به من الداخـــل ، والجسم هو الذهن نراه من الخارج والحالة الذهنية هى الظهر الداخلى أو الباطنى لأى عمل جسمى . وأى عمل « للارادة » هو المرافق الذهنى لأية رغبة جسدية تتحـــول الى تعبير بدنى . وليس هنـــاك عمـــل « للارادة » فى الجسم ، ولكن هناك عمل واحد للكائن السيكوفسيولوجى

(الذهنى المادى) ، وليست « الارادة » هى العلة ، بل هى وعى الحدث أو العمل . « ان قرار الذهن ، ورغبة الجسم وتصميمه ... شيء واحد ليس الا ، اذا أدرجناه تحت صفة الفكر نسميه قرارا ، واذا اعتبرناه من صفة الامتداد ، واستنتجناه من قوانين الحركة والسكون نسميه تصميما « فعلا منتهيا (٩٨) » . ومن ثم فان « نظام أفعال وانفعالات أو حركات جسمنا متزامنة مع نظام وانفعالات أو حركات الزهن (٩٩) » . وفى كل أحوال التفاعل المفروض بين الذهن والجسم ، ليست العملية الواقعية تفاعلا بين حقيقتين أو جوهرين أو عاملين متميزين ، بل هى عمـــل جوهر واحد ، اذا رئى من الخارج سميناه جسما ، واذا رئى من الداخل سميناه ذهنا . ولكل عملية فى الجسم هناك عملية موازية لها فى الذهن. « لا يمكن أن يحدث شيء فى الجسم الا أدركه الذهن (١٠٠) » ولكن هذا المتلازم الذهنى قد لا يكون فكرا ، بل قد يكون شـــعورا ، وقد لا يكون بالضرورة واعيا ، وهكذا ياتى الذى يمشي وهو نائم بسلسلة من الافعال وهـــو « غير واع (١٠١) » وهـــذه النظـــرية تسـمى « التـــوازى السيكوفسيولوجى » ، وهى تفترض عمليات متوازية ، لا فى وجودين مختلفين ، بل فى وحدة سيكوفسيولوجية (عقلية جسدية) ترى رؤية مزدوجة .

وعلى هذا الأساس ينتقل سبينوزا الى وصف ميكانيـكى لعمليـــة المعرفة . ومن المحتمل أنه حذا حذو هوبز فى تعريف الاحساس والذاكرة والتصور على أسس بدنية (١٠٢) . ويستدل على هذا بان معظم المعرفة ينشأ من تاثيرات تحدثها فينا أشياء خارجية . ولكنه يسلم بما يذهب اليه المثالى من أن « الذهن البشرى لا يدرك أن جسما خارجيا موجود بالفعل الا عن طريق أفكار عن تعديلات فى جسمه (١٠٣) » . فالادراك الحسي والعقلى ، وهما شكلان للمعرفة ، مشتقان من الاحساس . ولكن هناك شكل ثالث أسمى « المعرفة البدهية » ، لا يستمد (هكذا يعتقد سبينوزا) من الاحساس ، بل من وعى واضح متميز مباشر شامل لفكرة أو حادث باعتباره جزءا من نظام كونى له قانون .

واستبق سبينوزا لوك وهيوم حيث نبذ فكرة أن الذهـــن قوة أو وجود له أفكار ، « فالذهن » تعبير عام أو مجرد عن تسلسل المدركات الحسية والذاكرات والتصورات والمشاعر وغيرها من الحالات العقلية .

« وفكرة الذهن ، والذهن نفســه » فى اية لحظــة « شيء واحــد بعينه (١٠٤) » . كما أنه ليس هناك « ملكات » متميزة ، مثل العقل أو الارادة ، فهذه أيضـا تعبيرات مجـردة عن مجمـوع المدركات والاختبارات . ان للعقل أو الارادة صلة بهذه الفكرة أو تلك ، وبهذه الرغبة أو تلك ، بنفس أسلوب الصلة بين الحجرية وهذا الحجر أو ذاك، أو الرجل بيتير أو بول (١٠٥) . كما أن الفكرة والرغبة لا تختلفان . فالرغبة و عمل « الارادة » هى مجرد فكرة « أكدت نفسها (١٠٦) » (أى انها طال على بقائها من الوقت ما يكفى لاستكمال نفســها أو تحقيقها فى فعل ـ كما تفعل الأفكار تلقائيا اذا لم يقف فى طريقهــا عائق) . « وليس قرار الذهن .... الا مجرد توكيد تنطوى عليــه الفكرة بقدر ما هى فكرة (١٠٧) .... والارادة والفكر شيء واحــد بعينــه (١٠٨) » .

وثمة وجهة نظر أخرى ، تلك هى ان ما نسميه ارادة هو ببساطة ذروة الرغبات ونشاطها ، « أنا افهم الرغبة ... على انها كل محاولات الانسان واندفاعاته وشهواته واختياراته التى لا يندر أن يتعارض بعضها مع بعض ، الى حد أنه يتخبط هنا وهناك ، وهو لا يدرى أية جهــة يتجــه (١٠٩) » . والتروى هو تعاقب سيطرة الرغبات المتصــارعة على الجسم والفكر . وهذا ينتهى عندما تثبت رغبة ما أنها بلغت من القوة مبلغا تحتفظ معه بالحالة العقلية بها وقتا كافيا لتنتقل الى فعل . ويقول سبينوزا بانه واضح انه لا توجد « ارادة حرة » ، فالارادة فى أية لحظة ليست الا أقوى الرغبات . فنحن أحرار بقدر ما يجازلنا ان نعبر عن طبيعتنا أو عن رغباتنا دون عائق خارجى ، ولسنا أحرارا فى اختيار طبيعتنا أو رغباتنا ، انما نحن رغباتنا . وليس الذهن ارادة مطلقة أو حرة ولكن الذهن محكوم عليه بان يريد هذا أو ذاك لعلة هى نفسها بدورها محكومة بعلة أخرى ، وهذه بعلة ثالثة ، وهــكذا الى ما لا نهاية (١١٠) » . ويظن الناس أنفسهم أحرارا لأنهــم يعــون اختياراتهم ورغباتهم ، ولكنهم يجهلون العلل التى تؤدى بهم الى أن يتخيروا ويرغبوا (١١١) ، ومثل هذا مثل حجر يقذف به فى الفضاء فيظن أنه يتحرك ويهوى بمحض ارادته (١١٢) .

ومن الجائز أن الجبرية الكلفنية فى « جو الرأى » الذى عاش

فيه ديكارت وسبينوزا اثناء اقامتهما فى هولنده ، قد أسهمت مع ميكانيكا جاليليو (ولم تكن قاعدة نيوتن قد ظهرت بعد) فى تشكيل النظرية الميكانيكية عند ديكارت ، وعلم النفس الجبرى عند سبينوزا . والجبرية هى الايمان بالقضاء والقدر دون لاهوت . وهى تحل محل الدوامة أو السديم البدائى لله ، وتتبع سبينوزا منطق الميكانيكا الى نهايته المريرة ، فانه مثل ديكارت لم يقصره على الاجسام والحيوانات، بل طبقه على الأذهان كذلك ، وكان لزاما أن يفعل ذلك ، حيث أن الذهن والجسم عنده شيء واحد . وخلص الى أن الجسم آله (١١٣) . ولكنه أنكر أن الجبرية تجعل الأخلاق عقيمة منافقة . ان عظات رجال الأخلاق والمثل العليا عند الفلاسفة ، ووصمة عار الاستنكار العام وعقوبات المحاكم لا تزال ضرورية ذات قيمة ، وانها لتدخل فى تراث وخبرة الفرد الذى يكبر وينمو ، ومن ثم فى العوامل التى تشكل رغباته وتحدد ارادته وتحكمها .

٦ ـ الانسان :

يدخل سبينوزا فى فلسفته التى يظهر أنها جامدة عاملين فعالين ، أولهما وبصفة عامة ، هو أن المادة والذهن متحدان فى كل مكان ، وأن كل الأشياء مفعمة بالحيوية والنشاط ، وأن فيها شيئا مماثلا لما نسميه فى أنفسنا بالذهن أو الارادة ، والثانى ، وعلى وجه التخصيص ، هو أن هذا العنصر الحيوى يشتمل فى كل شيء على « محاولة للابقاء على الذات » . ان كل شيء بقدر ما هو فى نفسه يسعى للمحافظة على وجوده هو نفسه . و « قدرة أى شيء أو سعيه ... للاصرار على وجوده ، ليس الا ... مجرد ماهية ذاك الشيء (١١٤) » . ومثل الفلاسفة المسكولاسيين الذين قالوا « أن تكون هو أن تعمل » ، وأن الله « نشاط محض » ، ومثل شوبنهور الذى رأى فى الارادة ماهية كل الأشياء ، ومثل الفيزيائيين الحديثين الذين يختزلون المادة الى طاقة يعرف سبينوزا ماهية كل كائن عن طريق قدراته على الفعل أو العمل . « وقدرة الله هى نفس ماهيته (١١٥) » ، وفى هذه الناحية « يكون الله طاقة (ويمكن أن تسمى الطاقة ، بالاضافة الى المادة والذهن ، صفة ثالثة ندرك أنها تؤلف ماهية الجوهر أو الحقيقة) » . ويحذو سبينوزا حذو هوبز فى تصنيف الموجودات حسب قدرتها على الفعل

وتأثيرها . « ويقدر كمال الأشياء حسب طبيعتها وقدرتها فحسب (١١٦)» ولكن « كامل » عند سبينوزا معناه « تام » .

ونتيجة لهذا يعرف سبينوزا الفضيلة بانها القدرة على التصرف والفعل ، « انى أفهم من الفضيلة والقدرة نفس الشيء (١١٧) » . ولكنا سنرى أن هذه القدرة تعنى القدرة على انفسنا ، حتى أكثر من القدرة على الآخرين (١١٨) كلما ازداد المرء سعيا وراء ما فيه نفعه ـ سعيا وراء المحافظة على وجوده ـ ازداد تنعمه بالفضيلة ... فالسعى للمحافظة على الذات هو الأساس الوحيد للفضيلة (١١٩) . فالفضيلة عند سبينوزا حيوية (بيولوجية) ، داروينية على الأغلب ، انها أية صفة تعمل على البقاء . وبهذا المعنى ، على الأقل ، تكون الفضيلة جزاء الفضيلة . « فهى مرغوب فيها من أجلها هى وحدها ، وليس ثمة شيء أكثر امتيازا أو نفعا لنا .. .. من أجله ينبغى أن تكون الفضيلة مرغوبا فيها (١٢٠) » .

ولما كان السعى للمحافظة على الذات (التنازع من أجل البقاء) هو الماهية الفعالة لكل شيء . فان كل الدوافع تنبع منه ، وهذه الدوافع فى أساسها أنانية . ومن حيث أن العقل لا يطالب بشيء ضد الطبيعة ، فهو يطالب ، لذلك ، بان يحب كل انسان نفسه ، ويلتمس ما هو مفيد له ـ أعنى ما هو مفيد حقا له ـ ويرغب فى كل ما يؤدى بالانسان حقا الى حالة كمال أعظم ، وأخيرا أنه يجب على كل انسان أن يسعى جاهدا للمحافظة على وجوده قدر استطاعته (١٢١) . وليس ضروريا أن تكون هذه الرغبات واعية ، فقد تكون شهوات لا واعية قائمة فى الجسد . وهى تؤلف فى جملتها ماهية الانسان (١٢٢) . ونحن نحكم على كل الأشياء على أساس رغباتنا . نحن لا نناضل من أجل أى شيء أو نريده أو نلتمسه ونرغب فيه لأننا نظن نه خير ، بل نحكم على شيء بأنه خير ... لأننا نرغب فيه (١٢٣) . « انى أفهم أن الخير هو ما نعلم علم اليقين انه نافع لنا (١٢٤) » (وهنا نجد ، فى جملة واحدة ، مذهب المنفعة عند بنتام) .

وكل رغباتنا تهدف الى اللذة أو تجنب الألم . « اللذة هى انتقال الانسان من حالة كمال أدنى (١٢٥) » واللذة تصاحب أية ممارسة

وشعور يعزز ويزيد من قيمة عمليات النشاط أو التقدم الذاتى الجسدية العقلية (١٢٦) . ويتمثل الفرح فى أن قدرة المرء تزداد (١٢٧) » ●. وكل شعور يوهن من حيوتنا انما هو ضعف لا فضـــيلة . وما أسرع ما يتخلص الرجل السليم من مشاعر الحــزن والنـــدم والاتضـــاع والأسف (١٢٩) ، وهو على أية حال اكثر من الرجل الضعيف استعدادا لمد يد المساعدة ، لأن الكرم فائض القـــوة الواثقة . وأية لذة تكون مشروعة اذا لم تعوق لذة أعظم أو أبقى ، ويمتدح سبينوزا ، مثــــل ابيقور ، اللذات العقلية باعتبارها أو فضلها ، ولكنه يسوق كلمة طيبة فى تشكيلة كبيرة من اللذات :

> لا يمكن أن يكون ثمة مرح بالغ .. .. وليس هناك ما يحرم الضحك الا الخرافة الكئيبة .. .. والافادة من كل الأشياء والابتهاج بها قدر الامكان (لا الى حد التخمة حقا ، لأن هذه ليست ابتهاجا) جزء من الرجل الحكيم العاقل .. فيتناول المعتدل الطيب من الطعام والشراب ، ويســتمتع بالعطور والحدائق والثياب والموسيقى والالعاب والمسارح(١٣٠)

ان المشكلة فى مفهوم اللذة باعتبارها تحقيقا للرغبات ، تكمن فى أن الرغبات قد تتصارع ، فان الرغبات لا تنتظم فى تسلسل متناسق منسجم الا عند الانسان العاقل الحكيم . والرغبة عادة هى المتلازم الواعى لشهوة متأصلة فى الجسم ، وقد يبقى قدر كبير من الشهوة غير واع ، الى حد أننا لا يكون لدينا الا مجرد « أفكار مشوشة غير وافية » عن عللها ونتائجها . ومثل هذه الرغبات المشوشة يسميها سبينوزا عواطف أو انفعالات . ويعرفها بأنها « تعديلات فى الجسم تزيد أو تنقص بها قدرة الجسم على العمـــل .. .. وفى نفس الوقت افكار هذه التعديلات (١٣١) » وهو تعــريف يسلم تسليما غامضا بدور الافرازات الباطنية فى العواطف ، يستبق بشكل ملحوظ نظرية س.ج. لانج ووليم جيمس التى تقول بأن التعبير الجسدى عن العاطفة هو النتيجة المباشرة الغريزية للعلة ، وأن الشـــعور الواعى مصاحب أو نتيجة ، لا علة ، لتعبير الجسم أو استجابته . ويقترح سبينوزا دراسة العواطف ـ الحب والبغض والغضب والخوف الخ ـ وسيطرة العقل

● يردد نيتشه هذه التعاريف : « ما هو الخير ؟ » هو كل ما يعزز الاحساس بالقدرة .. .. ما هى السعادة ؟ .. .. هى الاحساس بأن القدرة تتزايد (١٢٨) ».

عليها « بنفس الطريقة ... كما لو كنت اعالج الخطـــوط والســـطوح والاجسام (١٣٢) » لا لامتدحها ولا لانتقص منها ، بل لافهمها ، لاننـا « كلما ازددنا معرفة بالعاطفة ازدادت سيطرتنا عليها ، وأصبح الذهن أقل سلبية بالنسبة لها (١٣٣) » . ودان تحليل العواطف الناتج عـن هذه الدراسة ببعض الفضل لديكارت ، وربما بفضـــل اكبر لهوبز ، ولكنه بزهما ، حتى أن جوهانس موللر ، عندما عالج موضوع العواطف فى كتابه الممتاز « فسيولوجية العواطف » (١٨٤٠) كتب يقـــول « بالنسبة لعـلاقات العواطف بعضهـــا ببعض ، بعيدا عن ظروفهـــا الفسيولوجية ، فانه يتعذر الاداء ببيان أوفى مما ذكره سبينوزا فى براعة لا تفوقها براعة (١٣٤) » ـ وأخذ يقتبس كثيرا من كتاب « الأخلاق ».

وتصبح العاطفة هوى أو انفعالا ، اذا كانت علتها الخارجيـــة ـ بسبب افكارنا المهوشة الناقصة عن منشئها ومغزاها ـ تفرض علينـــا شعورنا واستجابتنا ، كما هو الحال فى البغض أو الغضب أو الخوف». ان الذهن يخضع بشكل أو بآخر للاهواء والانفعالات ، تبعا لما لديه بنفس القدر من افكار كافية أو ناقصة (١٣٥) . والانسان ذو المقدرة الضعيفة على الادراك الحسي والفكرى خاضع بصفة خاصة للأهواء . ومثل هذه الحياة يصفها سبينوزا فى كتابه الفذ ، الجـــزء الرابع ، « اسـترقاق الانسان » ، فان هذا الانسان مهما كان تصرفه عنيفا ، سلبى بليد ، مسوق بمؤثر خارجى ، بدلا من أن يتماسك ويثبت ويعمل فكره . « ان اسبابا خارجية تقودنا على غير هدى فى دروب متشعبة كثيرة ، وكما تسوق الرياح الهوج غير المواتية الامواج سوقا ، فاننا نضطرب ونتردد على غير وعى بالعاقبة ولا بالمصير (١٣٦) » .

ترى هل نستطيع فكاكا من هذا الاسترقاق ، ونصبح بدرجـــة ما سادة انفسنا وحياتنا ؟ .

٧ ـ العقـــل :

لن تكون لنا سيادة تامة على أنفسنا ابدا ، لاننا سنبقى جزءا من الطبيعة ، خاضعين (كما كان يقول نابليون) « لطبيعة الاشياء » . وحيث أن العواطف هى قوتنا الدافعة ، والعقل مجرد ضوء ، وليس

الهيبا ، « فان أية عاطفة لا يمكن تعويقها أو القضاء عليها الا بعاطفة أخرى متعارضة وأشد قوة (١٣٧) » . ومن هنا كان المجتمع بحق يحاول جاهدا أن يلطف ويخفف من انفعالاتنا وأهوائنا باللجوء الى حبنا للثناء وحسن الجزاء وخوفنا من العتاب والعقاب (١٣٨) . كما يسعى المجتمع جاهدا بحق ليغرس فينا الشعور بالصواب والخطأ وسيلة أخرى لكبح جماح الأهواء والانفعالات . والضمير ، بطبيعة الحال ، نتاج اجتماعى ، وليس هبة أو منحة فطرية الهية (١٣٩) .

ولكن فى استخدام الثواب والعقاب الوهميين فى الحياة بعد الموت، حوافز على الخلق القويم ، تشجيعا على الخرافة ، لا يليق أبدا بمجتمع ناضج . وينبغى أن تكون الفضيلة ـ وهى فعلا كذلك ـ جزاء نفسها ، اذا عرفناها ، مثل الرجال ، بأنها المقدرة والذكاء ، والقوة ، لا مثل الجبناء ، بأنها الاذعان والطاعة والتواضع والخوف . واشمأز سبينوزا من النظرة المسيحية الى الحياة بأنها واد من الدموع ، والى الموت بوصفه مدخلا للنعيم أو الجحيم ، وقد أحس بأن هذا يلقى حجابا كثيفا من الكآبة على نشاط البشر ، ويغشي بفكرة الخطيئة آمال الناس وأمانيهم ومسراتهم المشروعة بالظلام والقتام . ان التفكير فى الموت ليل نهار سبة فى جبين الحياة وامتهان لها « ان اقل ما يفكر فيه الانسان الحر هو الموت ، وانه ليفرغ كل حكمته وعقله فى التأمل فى الحياة ، لا فى الموت (١٤٠) » .

وعلى الرغم من ذلك كان سبينوزا يبدو فى بعض الأحايين وكأنه يحوم حول فكرة الخلود ان نظريته فى الذهن والجسم باعتبارهما جانبين لنفس الحقيقة أدت به منطقيا الى أن يرى فناءهما متزامنا . وهو يؤكد هذا فى وضوح تام : « ان الوجود الراهن للذهن ، وقدرته على التصور تزولان بمجرد أن يكف الذهن عن توكيد الوجود الراهن للجسم (١٤١) » . ثم « ان الذهن لا يمكن أن يتصور شيئا ، ولا أن يتذكر شيئا مضي الا حين يكون الجسم موجودا (١٤٢) » . وتظهر فى الجزء الخامس بعض فروق غامضة : « اننا اذا نظرنا الى الرأى السائد بين الناس لرأينا أنهم يعون حقا خلود أذهانهم ، ولكنهم يخلطون بين هذا وبين البقاء أو الدوام ، وينسبونه الى التصور والذاكرة اللتين يعتقدون أنهما تبقيان بعد الموت (١٤٣) » . وما دام الذهن عبارة

عن سلسلة من الافكار والذكريات والتصورات المؤقتة المرتبطة بجسم معين ، فانه ينقطع وجوده عندما يفنى الجسم ، وهذا هو « البقاء الفانى » للذهن . ولكن ما دام الذهن البشرى يدرك الاشياء فى علاقاتها الأبدية ، باعتبارها جزءا من المنهج الشامل الذى لا يتغير للقانون الطبيعى ، فانه يرى الاشياء كأنها فى الله ، ويصبح عند هذا الحد جزءا من الذهن الالهى ويكون خالدا :

اننا نتصور الأشياء واقعية بطريقتين : اما بقدر ما نتصور وجودها بالنسبة لزمان ومكان معينين ، أو بقدر ما نراها متضمنة فى الله (فى النظام والقوانين الأزلية) وأنها تنشأ عن ضرورة الطبيعة الالهية (أى تلك القوانين) . ولكن الأشياء التى ترى فى الحالة الثانية على أنها صادقة أو حقيقية انما نتصورها نوعا معينا من الأزلية (فى جانبها الأزلى) . وأفكارها تتضمن ماهية الله الأزلية اللا متناهية (١٤٤) .

وعندما نرى الأشياء بهذه الحالة السرمدية ، فاننا نراها كما يراها الله ، وعند هذا الحد تصبح أذهاننا جزءا من الذهن الالهى ، وتشارك فى الأزلية .

اننا لا ننسب الى ذهن الانسان بقاء يحدد بزمن . ولكن حيث أن هناك ، على الرغم من ذلك ، شيئا آخر يتصور فى ظل ضرورة ازلية معينة ، عن طريق ماهية الله ، فان هذا الشيء الآخر سيكون بالضرورة الجزء الأزلى الذى يتعلق بالذهن (١٤٥) .. .. ونحن على يقين من أن الذهن أزلى طالما انه يتصور الأشياء فى ظل الأبدية (١٤٦) .

ولنفترض انه فى التأمل فى التسلسل المهيب للعلة والنتيجة الظاهرتين طبقا لقوانين واضح أنها أبدية ، أحس سبينوزا أنه قد هرب ، مثل بوذى بلا خطيئة ، من أغلال الزمن ، وشارك فى وجهة نظر الذهن الأزلى وهدوئه .

وعلى الرغم من هذا الوصول الظاهرى للقمر ، خصص سبينوزا معظم ختام الجزء الخامس « الحرية الانسانية » لصياغة علم أخلاق طبيعى ، ينبوع ومنهج للأخلاق ، مستقلين عن الحياة بعد الموت ، ولو أنه استخدم فى ولع شديد تعبيرات دينية ، وان جملة واحدة لتكشف عن نقطة البداية . « ان العاطفة التى تكون انفعالا أو هوى لا تعود انفعالا ولا هوى اذا نحن كونا عنها فكرة واضحة متميزة (١٤٧) » ـ أى أن العاطفة التى تثيرها أحداث خارجية يمكن الهبوط بها من الانفعال الى شعور منضبط اذا هيأنا لمعرفتنا أن نحتال عليها حتى تصبح علتها وطبيعتها واضحتين ، كما يصبح التنبؤ بعاقبة التصرف أمرا ممكنا من خلال الخبرة المختزنة فى الذاكرة . وثمة طريقة لايضاح الحالة العاطفية ، تلك هى أن نرى الاحداث التى انشاتها ، بوصفها جزءا من سلسلة من علل طبيعية ونتائج ضرورية لها . « وبقدر ما يفهم الذهن كل الأشياء على أنها ضرورية لازمة ، يكون أكثر سيطرة على العواطف ، وأقل سلبية نحوها (١٤٨) » ـ أى أقل نهبا للانفعالات والأهواء . ولن يصبح أى انسان انفعاليا لما يعتبره طبيعيا لازما . ويمكن التخفيف من حدة الغضب لأية اساءة ، اذا نظرنا الى المسيء باعتباره نتاج الظروف التى لم يستطع التحكم فيها . كما يمكن التخفيف من الحزن على فقد والدين مسنين بتذكر أن الموت أمر طبيعى . « ومحاولة الفهم هى الأساس الأول الوحيد للفضيلة (١٤٩) » ، بمعنى هذه الكلمة عند سبينوزا ، لأنها تنقص من خضوعنا للعوامل الخارجية ، وتزيد من قدرتنا على ضبط انفسنا والمحافظة عليها . والمعرفة قدرة أو قوة ، ولكن أفضل وأنفع شكل لهذه القوة هو سيطرتنا على أنفسنا .

وهكذا يطبق سبينوزا طريقته الرياضية (طريقة اقليدس) على حياة العقل . ويسترجع الانواع الثلاثة التى وضعها للمعرفة ، فيصف المعرفة الحسية ، بانها تتركنا عرضة الى حد كبير للمؤثرات الخارجية ، والمعرفة العقلانية (المكتسبة عن طريق التفكير والتامل) بانها تحررنا تدريجا من استرقاق الانفعالات حيث تمكننا من رؤية العلل المحتومة غير الشخصية للأحداث ، وأخيرا المعرفة البدهية أو الحدسية ـ الوعى المباشر بنظام الكون ـ ويصفها بانها تجعلنا نحس انفسنا جزءا من ذاك

النظام ، « ومتحدين مع الله » . وينبغى ان نتوقع ونحتمل وجهى الحظ كليهما بنفس الذهن ، لأن كل الأشياء تنشأ من القانون الأبدى لله ، بنفس الطريقة التى ينشأ بها من ماهية المثلث أن زواياه الثلاث تشكل زاويتين قائمتين (١٥٠) . ان هذا الهروب من التفكير الطائش هو الحرية الحقيقية الوحيدة (١٥١) . وهذا الذى يستطيع بلوغها ، يملان ـ كما اعتاد الرواقيون أن يقولوا ـ أن يكون حرا فى كل ظرف فى كل حالة تقريبا . ان أكبر هبة يمكن أن تمنحنا اياها المعرفة هى أن نرى أنفسنا كما يرانا العقل .

وعلى هذا الأساس من المذهب الطبيعى يصل سبينوزا الى بعض نتائج اخلاقية ، مثل تلك التى وصل اليها المسيح ، بشكل يدعو الى الدهشة :

ان الذى يعرف بحق أن كل الأشياء تنشأ من ضرورة الطبيعة الالهية ، وتسير وفق قوانين أزلية طبيعية منتظمة ، لن يجد اطلاقا شيئا جديرا بالكراهية ، أو السخرية أو الازدراء ، كما انه لن يرثى لأحد ، ولكنه ، بقدر ما تسمح الفضيلة البشرية ، سيسعى جهده ليعمل صالحا .. .. ويبتهج (١٥٢) .. .. أن الذين يعترضون على الناس ويؤثرون استنكار الرذائل ، لاغرس الفضائل ... مصدر ازعاج لأنفسهم وللآخرين معا (١٥٣) .. .. ان الرجل القوى لا يبغض أحدا ، ولا يثير غضبه أحد ، ولا يحسد أحدا ، ولا ينقم على أحد ، وليس بأية حال مغرورا (١٥٤) . ان الذى يعيش على هدى من العقل ، يحاول قدر طاقته أن يقابل الكراهية والغضب والاحتقار ... الخ ، بالحب والكرم ... وهذا الذى يرغب فى الانتقام للأذى بالكراهية المتبادلة ، انما يعيش حليف البؤس والشقاء . فالكراهية تتفاقم اذا كانت متبادلة ، وعلى العكس يمكن القضاء عليها بالحب (١٥٥) .. .. والناس ، بهدى من العقل ، .... لا يرجون لأنفسهم شيئا لا يحبونه لسائر البشر (١٥٦) . (احب لأخيك ما تحب لنفسك) .

وهل ضبط العاطفة بالعقل على هذا النحو ، يتعارض كما يظن بعضهم (١٥٧) ، مع تسليم سبينوزا بانه ليس ثمة الا عاطفة يمكن أن تقهر عاطفة ؟ . من الجائز أن يكون هذا الا اذا كان من الميسور أن يرتفع التزام جادة العقل الى مستوى عاطفى وتحمس . ان المعرفة الحقة بالخير والشر لا يمكن أن تكبح جماح أية عاطفة بقدر ما تكون المعرفة حقة ، بل بقدر ما تعتبر هذه المعرفة عاطفة (١٥٨) . ان تلك الحاجة ، وربما الرغبة فى الهاب العقل واثارته بعبارات تكللها التقوى والزمن بالتبجيل والاحترام ، هى التى أدت بسيبنوزا الى الفكر الأخير الذى توج به عمله - وهو أن « الحب العقلى لله » يجب أن يلهم حياة العقل ويرفع من شانها . وحيث أن « الله » فى رأى سبينوزا ، هو الحقيقة الأساسية ، والقانون الثابت الذى لا يتغير للكون نفسه ، فان هذا الحب العقلى لله ليس مجرد استرضاء مذل لسلطان جالس على عرش السديم ، بل انه التوافق الحكيم الواعى لأفكارنا وسلوكنا مع طبيعة الأشياء ونظام العالم . ان احترام ارادة الله ، والامتثال الواعى لقوانين الطبيعة شيء واحد . وبقدر ما يجد العالم الرياضي من رهبة ونشوة فى أن يرى العالم خاضعا لقواعد قياسية رياضية ، قد يجد الفيلسوف أعمق سرور فى تأمل عظمة كون يسير رابط الجاش فى تواتر القانون الكونى الشامل . وحيث أن « الحب لذة مصحوبة بفكرة علة خارجية (١٥٩) ، فان الحب الذى نستمده من رؤية نظام الكون - وتكييف أنفسنا معه - يسمو الى حب الله الذى هو حياة ونظام الكل . وحينئذ يغمر حب الكائن السرمدى اللا متناهى ، يغمر الذهن تماما بالفرح والبهجة (١٦٠) » . ان هذا التأمل فى العالم ، كنتيجة لازمة لطبيعته - لطبيعة الله - هو المصدر الآخر للرضا والاطمئنان فى ذهن الانسان العاقل ، وهو يوفر له هدوء التفكير والارتياح الى القيود أو الحدود المعترف بها للحق المحبوب المقبول . « ان أعظم خير للذهن هو معرفة الله ، وأسمى فضيلة فى الذهن هى معرفة الله (١٦١) » .

وهكذا زاوج سبينوزا فى نفسه بين العالم الرياضي والمتصوف . وأبى أن يرى فى ربه روحا قادرة على مقابلة حب الانسان أو مكافاة الابتهالات والصلوات بالمعجزات ، ولكنه خص ربه بالعبارات الرقيقة التى ألهمت لآلاف السنين أبسط المتدينين المتحمسين وأعمق المتصوفين

فى البوذية واليهودية والمسيحية والاسلام ، ووجدوا فيها السلوى والراحة . ومذ قبع سبينوزا واهنا مقرورا وحيدا فى علياء فلسفته ، تواقا الى أن يعثر فى الكون على شيء يتقبل عبادته وثقته ، فان المهرطق الوديع ، الذى كان قد أبصر الكون رسما هندسيا ، انتهى برؤية كل الأشياء فى الله وفقدانها فى الله ، حيث أصبح « الملحد » النشوان بحب الله . مما أدى الى ارتباك الأجيال القادمة وحيرتها . ان الدافع الذى لا يقاوم للعثور على معنى فى الكون جعل النأى عن كل عقيدة يختم محاولته برؤية اله قدير ، وباحساس مثير رفيع بأنه كان قد بلغ الأبدية ، ولو للحظة واحدة .

٨ ـ الدولــة :

ان سبينوزا ، بعد ان كان قد انتهى من كتاب « الأخلاق » ربما احس ، مثل معظم القديسين المسيحيين ، بأنه قد صاغ فلسفة لمنفعة الفرد وخلاصه ، لا لتوجيه وهداية جماعة المواطنين فى دولة . ومن ثم فانه حوالى ١٦٧٥ تفرغ لدراسة الانسان « حيوانا سياسيا » ، وليطبق العقل على مشاكل المجتمع . وشرع فى تدوين شذرات « الرسالة السياسية » ، موطدا العزم ، كما فعل فى تحليل الانفعالات ، على أن يكون موضوعيا ينتهج أسلوب عالم الهندسة أو الفيزياء :

> رغبة فى بحث مادة هذا العلم بنفس الروح الحرة التى ننتهجها بصفة عامة فى الرياضيات ، بذلت غاية الجهد فى الحرص على الا أسخر من افعال البشر او أرثى لها ، بل على أن أتفهمها ، ولهذا الغرض نظرت الى انفعالات الحب والكراهية والغضب ، والحسد والطمع والحسرة وسائر ارهاصات الذهن ، لا فى ضوء رذائل الطبيعة البشرية ، بل باعتبارها من خواص الذهن ، وهى وثيقة الصلة به ، مثل الصلة الوثيقة بين الحرارة والبرودة ، والعاصفة والرعد ، وما اليها ، وبين طبيعة الجو (١٦٢) .

ومذ كانت الطبيعة الانسانية هى مادة علم السياسة ، فان سبينوزا احس بأن دراسة الدولة ينبغى أن تبدأ ببحث الخلق الأساسي للانسان . وقد نفهم هذا بشكل افضل اذا تيسر لنا أن نتصور الانسان قبل أن يعدل

التنظيم الاجتماعى من سلوكه ، بالقوة والاخلاقيات وبالقانون ، وأن نتذكر أن تحت خضوعه العام الكريه لديه لهذه المؤثرات التى تؤهله لبيئة اجتماعية ، لا تزال تضطرم بين جنبيه دوافع غير مشروعه لم يكن يجد منها فى « حالة الطبيعة » الا الخوف من القوة العدائية . وحذا هوبز وكثيرين غيره فى القول بأن الانسان عاش يوما فى مثل هذه الحالة ، وبان صورته فى هذه الوحشية الافتراضية تكاد تكون قاتمة مثل صورته فى « اللوياثان » تقريبا . وفى « جنة الشر » هذه كانت قوة الفرد هى الحق الوحيد ، ولم يكن ثمة شيء يعتبر جريمة لأنه لم يكن هناك قانون ولم يكن ثمة شيء عدل أو ظلم ، صواب أو خطأ ، لأنه لم يكن هناك قانون أخلاقى . وبناء على هذا « كان قانون الطبيعة واوامرها لا تحظر شيئا ... ولا تقاوم الصراع أو الكراهية أو الغضب أو الخيانة أو بصفة عامة أى شيء توحى به الشهوة (١٦٣) » . ويمقتضي « الحق الطبيعى حينذاك ، أعنى بعملية الطبيعة ، متميزة عن قواعد المجتمع وقوانينه - يكون لأى انسان الحق فيما تمكنه قوته من اكتسابه أو الاستيلاء عليه ، ولا يزال هذا أمر مسلما به بين الأجناس وبين الدول (١٦٤) » . ومن ثم كان للانسان « حق طبيعى » فى استغلال الحيوانات لخدمته أو لغذائه (١٦٥) .

ويلطف سبينوزا من هذه الصورة الوحشية بالايحاء بأن الانسان، حتى فى أول ظهوره على الأرض ، ربما كان يعيش بالفعل فى جماعات اجتماعية . ومن حيث أن الخوف من الوحدة كان فى كل الناس - لأن أى انسان فى الوحدة لا يملك من القوة ما يدافع به عن نفسه ، ويحصل به على ضرورات حياته - فان هذا يستتبع ن ينزع الناس بالطبيعة الى تنظيم اجتماعى (١٦٦) . ومن ثم فان فى الناس غرائز اجتماعية وغرائز فردية على حد سواء . وللمجتمع وللدولة جذور فى طبيعة الانسان . وكيفما حدث هذا وحيثما حدث ، فان الناس والأسرات اتحدت فى جماعات ، وحد آنذاك حق الجماعة أو قوتها من « الحق الطبيعى » للفرد أو من قوته . ولا ريب فى أن الناس قبلوا هذه القيود على كره منهم ، ولكنهم قبلوها عندما عرفوا أن النظام الاجتماعى كان أقوى أداة للابقاء على الفرد ولتنميته وتطويره . وعلى ذلك فان تعريف الفضيلة بأنها أية صفة تعمل على البقاء - مثل « النزوع للمحافظة

على الذات (١٦٧) » ـ كان ينبغى التوسع فيه (اى التعريف) ليشمل أية صفة تعمل على بقاء الجماعة . ان التنظيم الاجتماعى ، والدولة على الرغم من تقييداتها ، والمدنية على الرغم من خداعها ، كل هذه هى أعظم المخترعات التى ابتدعها الانسان للمحافظة على ذاته وتنميتها وتطويرها .

ولذلك يستبق سبينوزا رد فولتير على روسو :

دع الهجائين يسخروا ما طابت لهم السخرية من شئون البشر ، ورجال اللاهوت يلعنوهم ، ودع المكتئبين يمتدحوا قدر طاقتهم الحياة الانعزالية القاسية الوحشية ، فليزدروا الانسان ويعجبوا بالوحوش ، فعلى الرغم من هذا كله ، سيجد الناس أنهم ، بالعون المتبادل ، وفى يسر أكثر كثيرا ، يستطيعون اعداد ما يحتاجون اليه ... والانسان الذى يسير بهدى من العقل اكثر حرية من دولة يعيش فيها وفق القانون العام ، منه فى وحدة لا يخضع فيها لأى قانون (١٦٨) .

ويرفض سبينوزا كذلك الطرف الآخر من حلم « لا قانون » ـ يوتوبيا الفوضوى الفيلسوف :

ان العقل يستطيع حقا أن يصنع الكثير ليكبح جماح الانفعالات والتخفيف منها ، ولكنا رأينا .. .. ان الطريق الذى يحدده العقل نفسه شديد الوعورة ، ومن ثم فان الذين يقنعون أنفسهم بأن الجمهور قد يغريه يوما أن يعيش وفق أوامر العقل المجردة ، لا بد أنهم يحلمون بالبيضة الذهبية الوارد ذكرها فى الأشعار ، أو برواية مسرحية (١٦٩) .

وينبغى أن يكون هدف الدولة مهمتها تمكين أعضائها من أن يحيوا حياة العقل :

ليست الغاية القصوى للدولة أن تهيمن على الناس ، ولا أن تكبح جماحهم بالرهبة ، بل أن تحرر الانسان من الخوف ، حتى يعيش ويعمل آمنا مطمئنا كل الاطمئنان ، دون أن يلحق به أو بجاره أى أذى . وليست غاية الدولة أن تجعل من الكائنات العقلانية حيوانات ضارية وآلات

(كما هو الحال فى الحرب) بل تمكين أجسامهم وأذهانهم من اداء وظيفتها فى امان ، ان غايتها أن توجد النـــاس ليعيشوا على العقل السليم الصــادق ويمارســوه .. .. ان غاية الدولة حقا هى الحرية (١٧٠) .

ونتيجة لذلك يجدد سبينوزا دعوته الى حرية التعبير ، أو على الأقل حرية الفكر ، ولكنه استسلم مثل هوبز ، للخوف من التعصـــب والصراع الدينى ، فاقترح ، لا مجرد اخضاع الكنيسة للدولة ، بل أن تحدد الدولة أى المذاهب الدينية يلقن للناس .

وينتقل سبينوزا الى بحث الأشكال التقليدية للحكومة ، واذ أصبح وطنيا هولنديا متبرما يغزو لويس الرابع عشر لهولنده ، فان الملكية لم ترق فى عينيه ، وهاجم بشدة نظرية هوبز فى الحـكم الاســـتبدادى المطـلق :

المظنون أن التجارب تعلمنا أن وضع السلطة فى يد رجل واحد مدعاة للسلام والهدوء والانسجام ، لأن أى نظام سياسي لم يكتب له البقاء طويلا دون تغيير يذكر ، مثـــل النظام التركى ، على حين أن أى نظـــام لم يكن قصـــير الأجل تعتوره الفتن والمشاغبات ســوى الدول ذات النظام الشعبى أو الديمقراطى . ولكن اذا كانت العبودية والوحشية والدمار تسمى سلاما ، لكان الســلام أشد محنة تبتلى بهـا الدولة ... ان الاسترقاق . لا السلام ، هو الذى ينتج عن وضع السلطة فى يد رجل واحد . فان السلام لا يكمن فى عدم وجـــود الحـــرب ، بل فى اتحـــاد نفـــوس النــــاس وانسجامها (١٧١) .

وقد تكون الأرستقراطية « حكومة الصفوة » ممتازة ، لو لم تكن هذه الصفوة خاضعة للروح الطبقية والحزبية العنيفة وجشـــع الفرد أو الاسرة . اذا تجرد الارستقراطيون أو الاشراف من كل الاهواء وكانوا لا يصدرون فى أعمالهم الا عن غيرة على المصلحة العامة ، لما كان ثمة دولة يمكن أن تقارن بالأسقراطية . ولكن التجربة تعلمنا علم اليقين أن الرياح تاتى بما لا تشتهى السفن ، اى ان الأمور تجرى على عكس ما نريد (١٧٢) .

وهكذا شرع سبينوزا فى أواخر أيام حياته وهو على سرير الموت يخطط آماله فى دولة الديمقراطية . ان الرجل الذى أحب جان دى ويت الذى قتله الرعاع ، لم تساوره أية أوهام بالنسبة للجمهور . أو أولئك الذين خبروا تقلب مزاج الناس ، كاد يتغلب عليهم اليأس ، لأن الناس تحكمهم العاطفة ، لا العقل ، لأنها تغلب على كل شيء ، وما أيسر أن يفسدها الجشع والترف (١٧٣) . ومع ذلك « اعتقد أن الديمقراطية أقرب أشكال الحكم الى الطبيعة وأكثرها اتساقا مع حرية الفرد . وفيها لا ينقل أحد حقه الطبيعى أو يفوض به تفويضا مطلقا الى حد لا يعود له معه أى صوت فى امور الحكم ، بل هو لا يفعل الا أن ينقسله الى الأغلبية (١٧٤) » واقترح سبينوزا منح حق الاقتراع العام لكل الذكور فيما عدا القاصرين والمجرمين والأرقاء . واستبعد النساء لأنه رأى انهن بحكم طبيعتهن وأعبائهن أقل صلاحية من الرجال للتداول والتشاور والحكم (١٧٥) . ورأى أنه يمكن تشجيع الموظفين الرسميين على السلوك القويم وانتهاج سياسة سليمة ، اذا « أمكن أن تؤلف الميليشيا (القوات المسلحة) من المواطنين وحدهم ، دون اعفاء أحد منهم لأن الرجل المسلح أكثر استقلالا من غير المسلح (١٧٦) » . وأحس بأن رعاية الفقراء والمساكين التزام اجبارى على المجتمع بأسره (١٧٧) . وما ينبغى أن يكون هناك الا ضريبة واحدة :

> الحقول والأرض كلها ، والبيوت اذا أمكن تدبيرها أن تكون ملكا عاما ، أى ملكا لمن له حق الحكم فى الدولة ، وهذا بدوره يؤجرها للمواطنين مقابل ايجار سنوى ... وبهذا الاستثناء وحده ، دعهم أحرارا معفين من أى نوع من الضرائب فى زمن السلم (١٧٨) .

وفى اللحظة التى أقبل فيها على أثمن جزء فى رسالته اختطف الموت القلم من يده .

٩ ـ سلسلة من التأثيرات

فى السلسلة الضخمة من الأفكار التى تربط تاريخ الفلسفة الى مجرى كريم واحد يتلمس فيه الفكر البشرى الحائر طريقه ، نجد منهج سبينوزا يتشكل فى عشرين قرنا وراءه ، ويسهم فى تشكيل العالم

الحديث . انه اولا ، بطبيعة الحال ، كان يهوديا ، وعلى الرغم من أنه كان محروما من الكنيس ، فانه لم يستطع أن يخرج عن هذا التراث الضخم ، ولا ان ينسي سنين تأمله فى العهد القديم والتلمود وكثير من الفلاسفة اليهود . ولنعد بالذاكرة الى الهرطقات التى روعت انتباهه فى ابن عزرا وابن ميمون ، وهاسادى كريسكاس ، وليفيُ بن جيرسون واوربيل اكوستا . ولا بد أن دراسته للتلمود ساعدت على شحذ الاحساس المنطقى الذى جعل من رسالة « الاخلاق » معبدا ممتازا للعقل . قال سبينوزا « ان بعض الناس » يبداون فلسفتهم من الاشياء المخلوقة ، وبعضهم من الذهن البشرى ، أما أنا فابدأ من الله (١٧٩) . وتلك كانت الطريقة اليهودية .

ان سبينوزا أخذ القليل عن الفلاسفة الذين جرت التقاليد على أشد الاعجاب بهم ولو انه فى تمييزه بين عالم الأشياء العابرة وعالم الله ذى القوانين الأزلية . قد نجد صيغة أخرى لتفريق أفلاطون بين الوجودات الفردية ونماذجها الأصلية فى ذهن الله . وأمكن تتبع تحليل سبينوزا للفضائل الى كتاب أرسطو « الاخلاق » عند نيقوماخوس (١٨٠). ولكنه قال لأحد اصدقائه « لم يكن لأقوال أفلاطون وأرسطو وسقراط كبيروزن عندى (١٨١) » . انه ، مثل بيكون وهوبز ، آثر ديمقريتس وأبيقور ولوكريشيوس . وقد يرجع مثله الأعلى فى الأخلاق صدى الرواقيين ، وقد ترن فى آذاننا بعض نبرات ماركوس أوريليوس ، ولكنه كان منسجما كل الانسجام مع أبيقور .

ان سبينوزا دان للفلاسفة السكولاسيين بفضل أكثر مما وضح له . انهم تسربوا اليه عن طريق ديكارت . انهم كذلك ـ مثل توما الأكوينى فى « الرسالة الجامعة » الرائعة ـ كانوا قد حاولوا عرضا هندسيا للفلسفة ، وزودوه بكثير من المصطلحات ، مثل الجوهر ، والطبيعة الخالقة ، والصفة والماهية والخير الأسمى وكثير غيرها . ان قولهم بتعادل الوجود والماهية فى الله ، اصبح ما قال به هو تعادل الوجود والماهية فى الجوهر ، ومد الى الانسان ادماجهم العقل والارادة فى الله .

وربما قرأ سبينوزا اعمال برونو (كما يظن بيل) ، وارتضى تمييز جيوردانو بين الطبيعة الخالقة والطبيعة المخلوقة . وربما أخذ التعبير -

والفكرة عن كتاب برونو « المحافظة على الذات (١٨٢) » وربما عثر عند الايطالى على وحدة الجسم والذهن ، ووحدة المـــادة والروح ، ووحدة العالم والله ، ومفهوم المعرفة الأسمى ، بمعنى رؤية كل الأشياء فى الله ــ ولو أن المتصوفة الألمان لا بد نشروا هذا الرأى حتى فى المدينة التجارية أمستردام ٠

وعن طريق مباشر أكثر أوحى اليه ديكارت بمثل فلسفته ، ونفره وثبط من همته بتفاهات لاهوتية ٠ والهبت خياله محاولة ديكارت أن يجعل الفلسفة تتمشي مع اقليدس شكلا ووضوحا ٠ وربما تبع ديكارت فى رسم قواعد لتوجيه حياته وعمله ٠ واقتبس عن طيب خاطر وجهة نظر ديكارت فى أن أية فكرة لا بد أن تكون صادقة ، اذا كانت « واضحة متميزة » ٠ وقبل وعمم رأى ديكارت فى أن العالم آلة من علة ونتيجة ، نابعة من دوامة بدائية قدما الى الغدة الصنوبرية ، واعترف بأنه مدين بالفضل لتحليل ديكارت للانفعالات (١٨٣) ٠

وواضح أن « لواياثان » هوبز فى ترجمته اللاتينية لقى ترحيبا كبيرا فى فكر سبينوزا ، وهنا صيغ مفهوم الآلية (ميكانيكية العالم) دون رحمة وبلا وجل ٠ ان الذهن الذى فرق ديكارت بينه وبين الجسم ومنحه الحرية والخلود ، أصبح عند هوبز وسبينوزا خاضعا لقـــانون كونى عام ، وهو قابل لمجرد خلود غير ذاتى ، أو لا خلود مطلقـــا ٠ ووجد سبينوزا فى « لواياثان » تحليلا مقبـــولا للاحســاس والادراك والذاكرة والفكرة ، وتحليلا غير عاطفى للطبيعة الانسانية ٠ ومن نقطة للبداية المشتركة « للحالة الطبيعة » و « الميثاق الاجتمـــاعى » انتهى المفكران كلاهما الى نتائج عكســـية حيث انتهى هـــوبز من « دوائره الملكية » الى الملكية المطلقة ، وانتهى سبينوزا من الوطنية الهولنـــدية الى الديموقراطية ٠ وربما كان هوبز هو الذى وجه اليهودى الوديع الى مكيافللى ، فيشير اليه بأنه « الفلورنسي البالغ الذكاء » ، ومرة أخرى بأنه « أعظم عبقرى ٠٠٠ بعيد النظر (١٨٤) » ولكنه تجنب الخلط بين الحق والقوة ، معترفا بان هذا أمر يمكن التجاوز عنه بين الأفراد فقط فى « حالة الطبيعة » وبين الدول قبل سن قانون دولى فعال ٠

وخفف سبينوزا من كل هذه التاثيرات وصاغها فى كيـان فكرى يبعث الرهبة فى منطقه واتساقه ووحدته البارزة ٠ وكان ثمـــة بعض

تصدع فى المعبد ، كما أشار الاصدقاء والأعداء على السواء . وفى براعة كبيرة انتقد أولدنبرج البديهيات والقضــايا التى صــدر بها كتــاب الاخلاق (١٨٥) . وتناولها أوبرويج بتحليل دقيق مفصل يتسم بالدقة الالمانية (١٨٦) . وكان المنطق مشرقا ، ولكنه استنتاجى الى حد مرهق، وكان ، ولو أنه مبنى على خبرة شخصية ، عبارة عن براعة الفكر ترتكز على اتساق ذاتى ، لا على حقيقة موضوعية . ان وثوق سبينوزا باستنتاجه وتفكيره (والا فيم يسترشد ؟) كان التوقح الوحيد فى عمله . لقد عبر عن ثقته فى قدرة الانسان على فهم الله ، أو الحقيقة الأساسية أو القانون الكونى ، وكم من مرة أعلن عن اقتناعه بانه اثبت نظرياته فوق كل شك أو جدل أو غموض أو لبس ، وتحدث أحيانا فى لهجة توكيد لا يتأتى صدورها عن رذاذ من الزبد تحليلا وتفسيرا للبحر . وأية جدوى اذا كان كل المنطلق وسيلة عقلية أو آلة موجهة مساعدة للذهن الباحث ، لا كيان العالم ؟ وهكذا يختزل منطق الجبرية الذى لا مفر منــه ، الوعى الى ظاهرة ثانوية (كما اعترف هكسلى) لاحقة ، ظاهر أنها زائدة غــير ضرورية لعمليات سيكولوجية ، قد تجرى بدونها بمقتضى ميكانيكية أو آلية العلة والنتيجة . ومع ذلك ليس ثمة شيء يبدو حقيقيا ، أو شيء يبدو مثيرا ، أكثر من الوعى . ويبقى اللغز الاكبر بعد أن قال المنطق كلمته.

وربما أسهمت هذه الصعوبات فى عدم شعبية فلسفة سبينوزا فى أول قرن مضي بعد وفاته . ولكن أشد الاستياء انصب على نقده للكتاب المقدس والنبوءات والمعجزات ، وعلى مفهومه لله جـــديرا بالحب ولكن غير مجسم متصام لا يريد الاصغاء . واعتبر اليهود ابنهم خائنا لقــومه ، وصب المسيحيون عليه اللعنة شيطانا بين الفلاسفة ، مسيحا دجالا سعى لسلب العالم من كل معنى ورحمة وأمل ، بل ان المهرطقين انفســـهم أدانوه واستنكروه . ونفر بيل من وجهة نظر سبينوزا فى ان كل الاشياء وكل الناس اشكال من نفس الجوهر الواحد أو العلة الواحدة أو الله ، وحينئذ ـ كما قال بيل ـ فان الله هو العامل الحقيقى فى كل الافعال ، والعلة الحقيقية فى كل الشرور ، وكل الجرائم . وكل الحروب ، حتى اذا ذبح أحد الاتراك رجلا من المجر ، كان الله هو الذى قتل نفسه ، ثم احتج بيل (ناسيا ذاتية الشر) على أن هـــذا « اســخف وأبشــع فرضية (١٨٧) » وكان لبينتز ، لعقد من السنين (١٦٧٦ ـ ١٦٨٦) متأثرا أشد التأثر بسـبينوزا . ان نظــرية « الجواهـــر الروحيـــة

المونادولوجيا (عناصر الوجود الاولية) » قد يرجع بعض الفضل فيها لسبينوزا . وأعلن لبينتز يوما ان شيئا واحدا فى فلسفة سبينوزا أزعجه - نبذ فكرة العلل النهاية أو تدابير العناية الالهية فى عملية الكون (١٨٨). وعندما علت صيحات الاستنكار ضد « الحاد » سبينوزا انضم اليهـا لبينتز « حماية لشخصه » .

ان لسبينوزا نصيبا متواضعا ، يكاد يكون خفيـا ، فى تنشـئة الاستنارة فى فرنسا ، فان زعماء هذه الثورة العنيفة استخدموا نقـد سبينوزا للكتاب المقدس سلاحا فى حربهم ضد الكنيسة ، وأعجبوا بمذهب الجبرية عنده ، « وباخلاقه » القائمة على المذهب الطبيعى ، وبرفضه للتدابير فى الطبيعة ، ولكن حيرتهم مصطلحاته الدينية ، والتصـوف أو المذهب الباطنى البارز فى كتاب « الأخلاق » ، وقد نتخيل رد الفعل فى فولتير أو ديدرو ، وفى هلفيشيوس أودى هو لباخ ، لعبارات مثل « ان الحب الروحى العقلى لله هـو نفس الحب الذى يحب به الله نفسه (١٨٩) » .

وكانت الروح الالمانية اكثر استجابة لهذا الجانب من فكر سبينوزا - واستنادا الى حديث رواه فردريك جاكوبى (١٧٨٠) لم يعترف لسنج بانه لم يكن طوال سنى نضجه متاثرا بسبينوزا فحسب ، بل كذلك أنه « لا فلسفة الا فلسفة سبينوزا (١٩٠) » ان التعادل بين الطبيعة والله ، ذلك التعادل القائم على مذهب وحدة الوجود ، هو بالتحديد الذى اهتزت طربا له ألمانيا اثناء الحركة الرومانتيكية بعد أن جرت حركة الاستنارة فى عهد فردريك الأكبر مجراها . وكان جاكوبى ، بطل « فلسفة الوجدان» الجديدة من بين أوائل المدافعين عن سبينوزا (١٧٨٥) وثمـة ألمـانى رومانتيكى آخر ، هو نوفاليس ، اطلق على سبينوزا « الثمل بحبه الله » . وقال هردر بانه « وجد فى رسالة الأخلاق » التوفيق بين الدين والفلسفة . وكتب شليماخر ، رجل الدين المتحرر ، عن « سـبينوزا المقدس المحروم من الكنيس (١٩١) » و « وارتد » جيته الشاب عندما قرأ « الأخلاق » لأول مرة ، ومنذ ذلك الوقت غلبت السبينوزية على شعره (غير الجنسي) ونثره . ويرجع بعض الفضل الى تنسـمه جو الهدوء فى كتاب « الأخلاق » ، فى انصرافه عن الرومانتيكية المتطرفة الجامحة عند جوتز فون برليخنجين وآلام فرتر الشاب ، الى الاتزان

المهيب فى اخريات حياته . وعوق كانت مجرى هـــذا التاثير لبعض الوقت . ولكن هيجل صرح بانه « لكى تكون فيلسوفا ينبـغى أول أن تكون سبينوزيا » ، وعبر من جديد عن اله سبينوزا بأنه « العقل الطلق» وربما تسرب شيء من « نزعة المحافظة على الذات » عند سبينوزا الى « ارادة الحياة » عند شوبنهور ، و « ارادة القوة » عند نيتشه .

ولمدة قرن من الزمان عرفت انجلترا سبينوزا عن طريق الهرطقة اساسا ، واستنكرته غولا بشعا بعيدا عنها . واشار اليـه ستللنجفليت (١٦٧٧) بصورة غامضة « مؤلفا متاخرا أسمع منه أن تمتـع بشعبية كبيرة بين كثير ممن ينادون باى شيء يتصل بالالحاد » . وكتب الاستاذ الاسكتلندى جورج سنكلير (١٦٨٥) عن « حفنة شاذة من الرجال ممن يشايعون هوبز وسبينوزا ، يستخفون بالدين وينتقصون من قدر الاسفار المقدسة » . وتحدث سيرجون ايفلين عن « الرسالة اللاهوتية السياسية» بانها « كتاب مخز ، عقبة فاجعة فى طريق الباحثين عن الحقيقـــة المقدسة » أما بركلى (١٧٣٢) فانه بينما عد سبينوزا من المؤلفين الضعاف الاشرار ، قال أنه « زعيـــم كبير للكفرة الحديثين (١٩٢) » . وفى ٣٩' ،رتاع هيوم ـ وهو من أتباع مذهب اللا ادرية ـ فى حذر من الفرضية البشعة » التى جاء بها « ذلك الملحد المعروف ، سبينوزا الذى ساءت سمعته فى كل الانحاء (١٩٣) » . ولم يصل سبينوزا الى اذهان الانجليز الا عند ظهور الحركة الرومانتيكية عند انصرام القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وحينئذ اوحى ، اكثر من اى فيلسوف غيره ، بالميتافيزيقا العنيفة القـــوية عند وردزوث وكوليردج وشللى وبيرون . واقتبس شللى من « الرسالة اللاهوتية السياسية فى حواشيه الاصلية فى « ملكة الاحلام كوين ساب » وبدأ ترجمة للرسالة ، وتعهد بيرون بكتابة مقدمة لها . ووقع جزء من هذه الترجمة فى يد ناقد انجليزى حسبها من تاليف شللى نفسه فقال عنها « تفكير احد صبيـة المدارس ، فج لا يصلح للنشر اطلاقا » . وترجم جورج اليوت «الاخلاق» بعزيمة صادقة . واعترف جيمس فرود ، وماتيو آرنولد بتاثير سبينوزا على تطورهما العقلى ، ويبدو أن الدين والفلسفة أثبت كل نتاج الانسان على مر الزمان . ان بركليز مشهور لانه عاش زمن سقراط .

اننا نحب سبينوزا بصفة خاصة بين الفلاســفة ، لانه كان كذلك

قديما ، ولأنه عاش الفلسفة كما كتبها . ان الفضـائل التى مجدتهـا الديانات الكبرى كرمت وتجسدت في المنبوذ الذى لفظته كل الديانات ، حيث لم تجزله اية ديانة أن يصور الله على اسس يمكن أن يسيغها العلم. ان نظرة الى الوراء ، الى هذه الحياة الموقوفة على البحث ، والى هذا الفكر المكثف ، لتجعلنا نحس بان فيهما عنصرا من النبل يشجعنا على أن نحسن الظن بالانسان . فلنسلم بنصف الصورة المرعبـة التى رسمها سويفت للبشرية ، ولنتفق على اننـا فى كل جيـل ، وفى كل مكان تقريبا ، نجد الخرافة والنفاق والفساد والقسوة والجريمـة والحرب : فلنضع فى مقابل هذا فى كفة أخرى ، ثبتا طويلا بالشعراء والملحنين والفنانين ورجال العلم والفلاسفة والقديسين . ان ذلك الجنس البشرى بعينه ، الذى ثار منه سويفت المسكين عجز جسده ، هو الذى كتب روايات شكسبير ، وموبيقى باخ وهاندل ، وقصائد كيتس الغنائية ، وجمهورية افلاطون « وقواعد » نيوتن . و « اخلاق » سبينوزا ، وهو الذى شاد البارثينون وسقف كنيسة سستين ، وهو الذى حمـل المسـيح واعزه ودلله ، ولو انه صلبه ، ان الانسان فعل كل هذا الذى أسلفنا ، فيجدر الا يدع الياس يتطرق الى نفسه .

الفصل الثالث والعشرون

ليبنتز

١٦٤٦ ـ ١٧١٦

ـ فيلسوف القانون :

كان ثمة هوة فى الشخصية والخلق والفكر تفصل بين سبينوزا وليبنتز ، فهناك اليهودى المنعزل ، الذى لفظته اليهودية ، والذى لم يتقبل المسيحية ، الذى عاش فى أحضان الفقر فى حجرة متواضعة ، وأنجز كتابين اثنين ، وأخرج في أناة فلسفة أصيلة جريئة يمكن أن تنفر منها كل الديانات ، والذى قضي نحبه متأثرا بالسل فى الرابعة والاربعين ، الى جانب الألمانى رجل الدنيا المشغول برجال الدولة والبلاط ، الذى جال فى كل أنحاء أوربا الغربية تقريبا ، الذى دس بأنفه في روسيا والصين ، وقبل البروتستانتية والكاثوليكية ، ورحب بعديد من مناهج الفكر واستخدمها · وكتب خمسين رسالة ، وأحب الله كما أحب الدنيا ، فى تفاؤل شديد ، وعمر سبعين عاما ، وليس بينه وبين سلفه من وجه شبه الا ان جنازة كل منهما كانت موحشة · وهنا فى جيل واحد ظهر النقيضان فى الفلسفة الحديثة ·

ولكن قبل أن نتناول الصورة المتقلبة والمتعددة الألوان لرجل ، فلنعترف ببعض فضل يسير للفكر الألمانى · فقد بدأ صمويل فون بوفندورف مسيرته فى ١٦٣٢ ، وهو نفس العام الذى بدأ فيه سبينوزا ولوك · وبعد أن درس فى ليبزج وبينا قصد الى كوبنهاجن معلما فى أسرة أحد الدبلوماسيين السويديين ، واعتقل معه عندما أعلنت السويد الحرب على الدنمرك ، وخفف من ضجر السجن بوضع نهج للقانون الدولى ، فلما أطلق سراحه رحل الى ليدن حيث نشر نتائج بحثه تحت عنوان « عناصر القانون الدولى » (١٦٦١) ، الذى سر به شارل لويس ناخب البالاتينات (وهو نفس الأمير الذى دعا سبينوزا فيما بعد) الى حد أن للناخب استدعى المؤلف الى هيدلبرج ، وأنشأ له كرسي الأستاذية

فى القانون الطبيعى والقانون الدولى ـ وهو أول كرسي من نوعه فى التاريخ . وهناك وضع دراسة عن « مملكة المانيا » أزعجت ليوبولد الأول ، لمهاجمتها الامبراطورية الرومانية المقدسة وأباطرتها . وهاجر بوفندورف الى السويد وجامعة لوند (١٦٧٠) حيث نشر أروع أعماله « القانون الطبيعى والناس » (١٦٧٢) . وفى محاولته اتخاذ موقف وسط بين هوبز وجروتيوس ، لم يطابق « قانون الطبيعة » وبين صراع الأفراد بعضهم بعضا ، بل طابق بينه وبين « العقل الصحيح » وأضفى « الحقوق الطبيعية » (وهى حقوق كل الكائنات العقلانية) على اليهود والاتراك (المسلمين) ونازع فى أن القانون ينبغى الا ينفذ الا بين الدول المسيحية فقط ، بل كذلك فى علاقاتها مع « الكفار » على قدم المساواة . وسبق جان جاك روسو بنحو قرن من الزمان ، حين أعلن أن ارادة الدولة ، هى ، وينبغى أن تكون ، جماع ارادات الأفراد الذين تتألف منهم الدولة . ولكنه ذهب الى أن العبودية أمر مرغوب فيه ، وسيلة لانقاص عدد المتسولين والافاقين واللصوص (١) .

وظن بعض القساوسة السويديين أن هذه النظريات لم تقم كبير وزن لله والكتاب المقدس فى الفلسفة السياسية ، وحرضوا على وجوب اعادة بوفندورف الى المانيا . ولكن شارل الحادى عشر دعاه الى ستوكهلم وقلده منصب المؤرخ الملكى . وقابل الأستاذ حسن الصنيع بأن كتب سيرة حياة الملك ، وتاريخا للسويد . وفى ١٦٨٧ ، وربما تطلعا الى التجوال أهدى بوفندورف الى ناخب براندنبرج الأكبر ، رسالة عن « العلاقة بين العقيدة المسيحية والحياة المدنية » يدافع فيها عن التسامح . وسرعان ما قبل دعوة الى برلين ، وأصبح مؤرخا لفردريك وليم ، وعين بارونا ، وقضي نحبه (١٦٩٤) . وظلت كتاباته لمدة نصف قرن أبرز الأعمال وأكثرها أثرا وانتشارا فى الفلسفة السياسية والقانونية فى أوربا البروتستانتية ، وساعد تحليليها الواقعى للعلاقات الاجتماعية فى الأحداث التى عملت على انكماش نظرية حقوق الملوك الالهية .

وبرز تدهور التفسيرات اللاهوتية لأعمال البشر فى أنشطة بلثازار بكر Bkker وكريستيان توماسيوس . وكان بكر كاهنا يتولى المهام الدينية لجماعة من الناس فى فريزلند ، أفسد عقيدته بقراءة ديكارت ، فاقترح تطبيق العقل على الاسفار المقدسة ، وفسر الشياطين

التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس بانها أوهام شعبية أو مجـازات ، وتتبع فكرة الشيطان فى تاريخ ما قبل المسيحية وكان من رايه أنها فكرة مدسوسة على المسيحية ، وانتهى الى أن الشيطان خرافة ، ونفى وجوده فى بيان باللغة الهولندية ، « العالم المسحور » (١٦٩١) · ووجهت الكنيسة أعنف اللوم والتقريع الى بكر ، احساسا منها بان الخوف من الشيطان بداية العقل والحكمة ، وعانى الشيطان بعض الخسارة فى مكانته لا فى اتباعه ·

وواصل توماسيوس المعركة · وعلى حين ظل يتقبل الاسفار المقدسة هاديا الى العقيدة والخلاص ، تاقت نفسه الى اتباع منهج العقل لمجرد الوصول الى الدليل ، ولتشجيع التسامح الدينى · ولما كان أستاذ القانون الطبيعى فى ليبزج (١٦٨٤ ـ ١٦٩٠) فانه أساء الى الكلية والكنيسة بأصالة آرائه وأساليبه ولغته · وهاجم خرافات عصره فى سخرية ألمانية عنيفة · واتفق مع بكر فى استبعاد « الشيطان » من الديانة ، وشجب الاعتقاد فى السحر باعتباره جهالة فاضحة ، وتعذيب السحرة باعتباره وحشية أجرامية · وبفضل تاثيره ونفوذه ، وضع حد لمحاكمات السحرة والمشعوذين فى ألمانيا · وليزيد الطين بلة حاضر تلاميذه بالألمانية بدلا من اللاتينية ، منتقصا نصف جلال أصول التدريس · وفى ١٦٨٨ بدأ ينشر عرضا أوريا للكتب والأفكار ، وربما كان لزاما علينا أن نسميه أول صحيفة جادة فى ألمانيا ، ولكنها عرضت ألوان المعرفة فى شيء من اليسر ، وغلفت البحث الجاد بالدعابة ، وسميت « أفكار هازلة وجادة ، عقلانية وسخيفة حول كل أنواع الكتب والقضايا السارة والنافعة » · وازعج دفاعه عـن « التقويين » (التقوية حركة دينية ظهرت فى ألمانيا فى القرن السابع عشر أكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية) ضد رجال الدين التقليديين ، وعن التـزاوج بين اللوثريين والكلفنيين ، ازعـج السلطات الى حد انهم حظروا عليه الكتابة أو القاء المحاضرات ، وأمروافى النهاية باعتقاله (١٦٩٠) · فهرب الى برلين ، وعينه الناخب فردريك الثالث أستاذا فى هالى ، وأسهم فى تنظيم الجامعة هنـاك ، وسرعان ما جعلها أقوى مركز للفكر فى ألمانيا · وفى ١٧٠٩ دعته ليبزج للعـودة ولكنه أبى ، وبقى فى هالى أربعة وثلاثين عاما حتى آخر حياته ، وافتتح عصر الاستنارة الذى أنجب لسنج وفردريك الأكبر ·

وتابع بعض المتحمسين ثورتهم الى اقصي درجات الالحاد ، فنبـذ ماتياس كنوتزن من هولشتين أى معتقد خارق للطبيعة « اننا فوق كل شيء ننكر الله (٢) » . واقترح أن يستبدل بالمسيحية وكنائسها وكهنتها « ديانة وضعية » « ديانة الانسانية » مستبقا بذلك أوجست كومت ، وأن يؤسس الأخلاق على تربية الضمير تربية قائمة على المذهب الطبيعى فقط (١٦٧٤) وقيل انه كان له ٧٠٠ من الأتباع ، وربما كان فى هذا مبالغة ، ولكنا نلاحظ أنه فيما بين عامى ١٦٦٢ ، ١٧١٣ نشر على الأقل اثنان وعشرون كتابا فى ألمانيا ، هدفها نشر الالحاد أو تفنيده (٣) .

ورثى ليبنتز « لانتصار المفكرين الأحرار الواضح » ، فكتب حوالى عام ١٧٠٠ « فى أيامنا هذه » ، يبدى كثير من الناس قليلا من الاحـترام والاجلال للوحى ... أو المعجزات (٤) » . واضاف فى ١٧١٥ : ان الديانة الطبيعية ينتابها كثير من الضعف ، ويعتقد كثيرون أن النفوس جسدية ، وآخرون أن الله نفسه جسدى . ويرتاب مستر لوك وأتباعه فى أن النفوس غير مادية ومآلها الهلاك بشـكل طبيعى (٥) . ولم يكن ليبنتز راسخ العقيدة الى حد كبير ، ولكنه رجل الدنيا ورجـل البلاط ، فتساءل الى أين تنتهى العقلانية المتصاعدة ، وماذا عساها أن تفعل بالكنائس والاخلاق والعروش . هل من المسـتطاع الرد على العقلانيين بلغتهم وانقاذ عقيدة الآباء والأجـداد من أجـل سـلامة الأبنـاء ؟ .

٣ ـ سنى العمل الجـاد :

كان جوتفريد ولهلم ليبنتز فى الثانية من العمر حين وضعت حرب الثلاثين عاما أوزارها . ونشأ فى فترة من أكثر فترات التاريخ الألمانى عقما وشقاء . ولكن تهيات له ، كل فرص التعليم المتاحة آنذاك ، لأن اباه كان أستاذا لفلسفة الاخلاق فى جامعة ليبزج ، وكان جوتفريد فتى ذكيا متلهفا على المعرفة ، ولوعا بالكتب ، وكانت مكتبة أبيـه مفتحة الأبواب أمامه تدعوه ليأخذ ويقـرأ . وبدأ دراسـة اللاتينية فى سن الثامنة ، واليونانية فى الثانية عشرة . والتهم التاريخ فاصبح متعـدد جوانب العلم والمعرفة . وفى سن الخامسة عشرة التحق بالجامعة حيث

كان توماسيوس المثير من بين معلميه . وفى سن العشرين تقدم لنيل درجة الدكتوراه فى القانون ، ولكن جامعة ليبزج رفضت لصغر سنه . ولكنه سرعان ما حصل عليها من جامعة نورمبرج فى التدورف . وكان لرسالة الدكتوراه التى قدمها هناك دوى كبير الى حد انهم عرضوا عليه فى الحال منصب الاستاذية ، ولكنه أبى محتجا بان « فى مخيلته أشياء مختلفة » ، ان قليلا جدا من كبار الفلاسفة شغلوا كراسي الجامعة .

ونراه الآن ، وهو آمن ميسور الحال من الناحية المادية ، حر منطلق من الناحية الفكرية ، يغمس يديه فى كل الحركات والفلسفات التى كانت تهيج المانيا التى بعثت من جديد ، وكان قد درس مناهج فلاسفة السكولاسية فى ليبزج ، واحتفظ بمصطلحاتهم الفنية وكثير من أفكارهم ، مثل برهانهم الأونطولوجى (أو نطولوجيا : علم الوجود) على وجود الله ، وتشرب تعاليم ديكارت تماما ، ولكنه ليجعلها سائغة أضاف اليها شيئا من الملح من اعتراضات جاسندى ومذهبه الذرى . وانتقل الى هوبز وامتدحه بانه مدقق . وغازل المذهب المادى (٦) . واقام حينا من الزمن فى نورمبرج (١٦٦٦ - ١٦٦٧) حيث اختبر التصوف أو المذهب الباطنى عند اخوة الصليب الوردى « التى كان قد أسسها المشتغلون بالكيمياء القديمة والاطباء ورجال الدين حوالى عام ١٦٥٤ ، وأصبح سكرتيرا لها ، وأخذ ينقب فى الكيمياء القديمة ، وهو فى هذا كثير الشبه بما كان يفعل منافسه اللاحق نيوتن فى كمبردج . ولم يترك فكرة الا جربها واقتبسها . وقبل بلوغه الثانية والعشرين من عمره كان قد كتب عدة رسائل ذات مجال ضيق ، ولكنها تفيض بالثقة .

ولفتت احدى هذه الرسائل « طريقة جديدة لتعليم القانون ودراسته » نظر أحد الدبلوماسيين المقيمين فى نورمبرج آنذاك ، هو جوهان فون بوينبرج ، الذى أشار على المؤلف الشاب باهدائها الى الأسقف ناخب مينز ، ورتب أن تقدم اليه شخصيا . ونجحت الخطة ، وفى ١٦٦٧ التحق ليبنتز بخدمة الناخب ، فى أول الأمر ، مساعدا فى مراجعة القوانين ، ثم عضوا فى المجلس . وبقى فى ميينز خمس سنين اعتاد فيها على رجال الدين واللاهوت والطقوس الكاثوليكية ، وبدأ يراوده حلم اعادة توحيد المذاهب المسيحية الممزقة ، ومهما يكن من امر فان الناخب كان أكثر اهتماما بلويس الرابع عشر منه بلوثر ، لان الملك

المنهوم الذى لا يشبع كان يسير جيوشه الى الاراضي الوطيئة واللورين ، وهى جد ملاصقة لالمانيا ، وكان واضـــحا أن الملك متلهف على ابتلاع أراضي الراين . فكيف يتسنى وقفه ؟

وكان لدى ليبنتز خطة لهذا ـ وفى الحق خطتان ، بلغتا حد البراعة من شاب فى الرابعة والعشرين . وكانت الخطة الاولى هى توحيد ولايات ألمانيا الغربية فى « اتحاد الراين » للدفاع المتبادل (١٦٧٠) . أمـا الثانية فكانت تعتمد على صرف نظر لويس الرابع عشر عن المانيا باغرائه بالاستيلاء على مصر التى كانت آنذك تحت حكم الاتراك . وكانت العلاقات آنذاك متوترة بين فرنسا وتركيا . فاذا قدر الملك لويس أن يرسل حملة لفتح مصر (فيسبق بذلك نابليون بمائة وثمانية وعشرين عاما) فانه ستكون له السيطرة على التجارة ـ بما فى ذلك تجارة هولنده ـ التى تمر عبر مصر الى الشرق ، ولابعد الحرب عن أرض فرنسا ، ووضـــع نهاية لتهديدات تركيا للعالم المسيحى ، ولاصبح المنقذ الذى ترنو اليه الابصار بالتبجيل والاجلال بدلا من السوط الذى تخشاه أوربا ، وكتب بوينبرج بهذا الى الملك لويس الرابع عشر ، وطوى كتابه على مخطط المشروع بقلم ليبنتز نفسه + . فدعا سيمون أرنولددى بومبـون وزير الخارجية الفرنسية ، ليبنتز (فبراير ١٦٧٢) ليجىء ليعرض المشروع على الملك . وفى مارس شخص رجل الدولة ذو الستة والعشرين ربيعا الى باريس .

ولكن القادة احبطوا مشروع ليبنتز كما دمروا أنفسهم . ذلك أنه لدى وصوله الى باريس كان لويس قد سوى نزاعه مع الاتراك ، وقرر مهاجمة هولنده ، وفى ٦ أبريل أعلن الحرب . وأبلغ بومبون ليبنتز أن الحرب الصليبية لم تعد ملائمة لهذا العصر ، ورفض السماح له بالمثول بين يدى الملك . فكتب الفيلسوف الذى ظل يراوده الامل ، مذكرة الى الحكومة الفرنسية ، أرسل خلاصة لها « مشروع مصر » الى بوينبرج .

+ قال شبنجلر « ولو كان هذا سابقا لاوانه ، فان ليبنتز وضع المبدا الذى تعلق به نابليون بشكل اكثر وضوحا ، بعد وجرام ، اى ان اية مكاســب على الراين أو فى بلجيكا لن تعمل بصفة دائمة على تحسين موقف فرنسا ، وان عنق السويس لابد يوما أن يكون مفتاح السيطرة على العالم (٧) .

ولو تم تنفيذ الاقتراح بنجاح ، لاستولت فرنسا ـ لا انجلترا ـ على الهند ، ولكانت لها السيادة على البحار . قال الجنرال ماهان : « ان قرار لويس ، ذلك القرار الذى أودى بحياة كولبير وقضى على رخاء فرنسا وازدهارها ، أحس الناس به جيلا بعد جيل من خلال نتائجه (٨) .

ومات بوينبرج قبل أن يصله « المشروع » . وحزن ليبنتز لفقدان صديق يؤثر المصلحة العامة ، غير انانى . ولهذا السبب ، من ناحية ، لم يعد الى مينز . أضف الى ذلك أن التيارات الفكرية فى باريس أسرت لبه ، حيث وجدها اكثر اثارة من جاذبية تلك التى أحاطت حتى بالناخب المتحرر المستنير . وهناك التقى بأنطون أرنولد أوف بورث رويال ، ومالبرانش ، وكريستيان هوجنز ، وبوسويه . وجذبه هوجنز الى الرياضة العالية ، وبدأ ليبنتز « حساب اللامتناهيات فى الصغر » الذى أفضى به الى « التفاضل والتكامل » .

وفى يناير ١٦٧٣ عبر المانش الى انجلترا فى بعثة أوفدها ناخب مينز الى شارل الثانى . وفى لندن تعرف على أولدنبرج وبويل ، وأحس بفتنة العلم المستيقظ . ولما عاد الى باريس فى مارس خصص جزءا أكبر فاكبر من وقته للرياضيات . واخترع آلة حاسبة أدخلت بعض التحسينات على آلة بسكال ، اذ زاد بها على الجمع والطرح ، عمليات الضرب والقسمة . وفى أبريل انتخب ، غيابيا ، عضوا فى الجمعية الملكية . وما وافت سنة ١٦٧٥ حتى كان قد اكتشف حساب التفاضل ، وسنة ١٦٧٦ حساب المتناهيات فى الصغر ، كما كان قد بلور طريقته الناجحة فى استخدام الرموز . ولم يعد أحد يتهم ليبنتز بأنه انتحل لنفسه وضع « حساب اللامتناهيات فى الصغر » بدلا من نيوتن (٩) . والظاهر أن نيوتن أجرى اكتشافه ١٦٦٦ ، ولكن لم ينشره الا فى ١٦٩٢ . ونشر ليبنتز « حساب التفاضل » فى ١٦٨٤ ، و « التكامل » فى ١٦٨٦ (١٠) وليس ثمة شك فى أن نيوتن كان أول من اكتشف ، وأن ليبنتز توصل الى اكتشافه مستقلا عنه ، وأنه سبق نيوتن الى نشر الاكتشاف وان طريقة ليبنتز فى « الرموز » ثبت أنها أفضل من طريقة نيوتن (١١) .

وقضى أسقف مينز نحبه فى مارس ١٦٧٣ تاركا ليبنتز بلا وظيفة رسمية ، وسرعان ما وقع اتفاقا للالتحاق بخدمة دوق رومه جون فردريك

أوف برونزويك ـ لونبرج ، أمينا لمكتبته فى هانوفر . وظل مفتونا بباريس ، فبقى بها حتى ١٦٧٦ ، ثم ارتحل على مهل الى هانوفر عبر لندن ، وامستردام ولاهاى . وفى امستردام تحدث مع تلاميذ سبينوزا ، وفى لاهاى التقى بالفيلسوف نفسه . وتردد سبينوزا فى أن يوليه ثقته ، لأن ليبنتز عرض التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، مما قد يساعد على خنق حرية الفكر (١٢) . وتغلب ليبنتز على هذه الشبهات ، وسمح له سبينوزا بقراءة ـ بل بنسخ بعض أجـزاء من مخطـوطة « كتـاب الأخلاق » (١٣) ـ وجرت بين الرجلين أحاديث طويلة . وبعـد وفـاة سبينوزا لقى لبينتز مشقة كبيرة فى اخفـاء تاثيره العميـق بالقديس اليهودى .

ووصل الى هانوفر فى أواخر ١٦٧٦ ، وبقى فى خدمة أمراء برنزويك المتعاقبين طوال الأربعين عاما الباقية من عمره . وكان يامل فى تعيينه مستشارا للدولة ، ولكن الأدواق خصصوه لتولى شئون مكتباتهم وكتابة تاريخ أسرتهم . ونهض بهذه المهام بشكل متقطع على خير وجه . وزين التاريخ الضخم الذى كتبه فى عدة مجلدات ، وملأه بوثائق أصيلة بذل جهدا كبيرا فى الحصول عليها . وأثبتت أبحاثه المتعلقة بسلسة الأنساب فى ايطاليا ، الأصل المشترك لأسرتى است وبرونزويك . وعلى الرغم من موضوع هذا الكتاب كان مقيدا بشكل مزعج لهذه العبقرية الطموحة، فقد امتد به الأجل ليرى بيت برونزويك يرث انجلترا . وحاول جاهـدا أن يكون وطنيا محبا لألمانيا . وكم ناشد الألمان أن يستخدموا لغتهـم الوطنية فى القانون ، ولكنه كتب رسائله وأبحاثه باللاتينية أو الفرنسية وكان نموذجا لامعا « للأوربى الصالح » و « الذهن العالمى » . وحـذر الأمراء الألمان من أن الأحقاد التى تمزقهم ، وتعمدهم اضعاف سلطان الامبراطورية ، كل أولئك حكم على ألمانيا بأن تكون فريسة الدول الأكثر تماسكا ومركزية . وميدانا للحروب التى يتكرر نشوبها بين فرنسـا وانجلترا وأسبانيا (١٤) .

وكان أمله الذى يطويه بين جوانحـه ، أن يخـدم الامبراطور والامبراطورية ، لا أمراء الولايات المشـتتة . وكان لديه مائة مشروع للاصلاح السياسي والاقتصادى والدينى والتعليمى . واتفق مع فولتير فى أنه من الايسر اصلاح الدولة بهداية حاكمها ، منه بتعليم الجماهير فى

بطء ، وهم مرهقون بالتماس أسباب العيش فلا يجدون فسحة من الوقت للتفكير (١٥) . وعندما مات أمين المكتبة الامبراطورية فى ١٦٨٠ ، تقدم ليبنتز لشغل المنصب ، ولكنه أضاف بأنه لا يريد أن يشغله الا اذا عين معه عضوا فى المجلس الامبراطورى الخاص . ورفض طلبه ، عاد الى هانوفر حيث وجد بعض السلوى والعزاء فى صداقة الناخبة صوفيا ، وبعد ذلك فى صداقة ابنتها صوفيا شارلوت التى ألحقته بالبلاط البروسي ، وساعدته فى تأسيس أكاديمية برلين (١٧٠٠) ، وأوحت اليه بكتابة « التيوديسية » ، وكرم فى بقية أيام حياته ، مركزه المتواضع بتبادل الرسائل مع زعماء الفكر فى أوربا ، وباسهاماته الضخمة فى الفلسفة ، وتقديمه خطة جريئة لاعادة التوحيد الدينى للعالم المسيحى .

٣ ـ ليبنتز والمسيحية :

هل كان ليبنتز نفسه مسيحيا ؟ الجواب الايجاب « ظاهريا » بطبيعة الحال ، فان رجلا بمثل حماسته وتلهفه على العبور من الفلسفة الى فن الحكم وسياسة الدولة كان لزاما عليه أن يلبس لاهوت الزمان والمكان اللذين عاش فيهما . وقال فى مقدمة « التيوديسية » : « لقد حاولت فى كل الاشياء لأدرس الحاجة الى التنوير والتهذيب (١٦) » . وكانت كل الكتابات التى نشرها فى حياته أمثلة تحتذى فى اخلاصها للعقيدة فقد دافعت عن التثليث والمعجزات والنعمة الالهية ، والارادة الحرة ، والخلود ، كما هاجمت مفكرى العصر الأحرار لانتقاصهم من قيمة الأسس الأخلاقية للنظام الاجتماعى على أنه « ذهب الى الكنيسة قليلا ، ... ولم يتناول القربان المقدس لسنوات كثيرة (١٧) » . ولقبه البسطاء من الناس فى هانوفر « لوفينكس الذى لا يؤمن بشيء (١٨) » . ونسب اليه بعض الطلبة فلسفتين متعارضتين ، واحدة للاستهلاك العام وتسلية الأميرات ، والأخرى « توكيد واضح المعالم لكل مبادىء سبينوزا (١٩) . « أن ليبنتز كان يلجأ الى سبينوزا كلما سمح لنفسه أن يكون منطقيا . وفى كتبه المنشورة حرص ، تبعا لذلك ، على أن يكون غير منطقى (٢٠) » .

ان مساعيه للتوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية جعلته عرضة للاتهام بعدم التفريق بين الأديان أو الايمان بأنها جميعا متساوية فى

صحتها (٢١) . أن رغبته الملحة فى الوحدة والتوفيق سيطرت على لاهوته . وعلى حين تجنب الوعاظ حاول جاهدا أن يؤلف بينهم . انه قلل من شأن الفروق السطحية لأن نظرته كانت عميقة. ولو كانت المسيحية شكلا من أشكال الحكومة ، فان تنوعاتها المذهبية لم تبد له أدوات للتقوى والغيرة والحماسة ، بل عقبات فى طريق النظام والسلام .

وفى ١٦٧٧ أرسل الامبراطور ليوبولد الأول كريستوفر روجا دى سبينولا أسقف شرف تينا فى كرواتيا ، الى بلاط هانوفر ليقترح على الدوق جون فردريك ، وكان مرتدا الى الكاثوليكية أن ينضم الى حملة لاعادة توحيد البروتستانت مع رومه . وربما كان لهذه الخطة ذيول سياسية : فان الناخب رغب اذ ذاك فى دعم الامبراطور له ، كما أن ليوبولد راوده الأمل فى وحدة وروح المانيتين أقوى لمواجهة الاتراك . وتنقل سبينولا لفترة من الوقت بين فيينا وهانوفر ، واحرز المشروع تقدما . وعندما وضع بوسويه فى ١٦٨٢ « الاعلان الفاليكانى » (الفاليكانية حركة نشأت فى فرنسا تنادى بالاستقلال الادارى للكنائس فى البلدان الكاثوليكية عن سيطرة البابا) . الذى تحدى فيه رجال الدين الفرنسيون البابا ، ربما راود لبينتز بعض الامل فى انضمام فرنسا الى المانيا ككتلة مستقلة عن البابوية الى حد يخفف من عداء البروتستانتية للمذهب العتيق وفى ١٦٨٣ ، عندما كان الاتراك يتقدمون لحصار فيينا ، عقد سبينولا فى هانوفر مؤتمرا يضم رجال اللاهوت البروتستانت والكاثوليك ، وقدم اليهم « قواعد التوحيد الكنسي لكل المسيحيين » .

وربما كان من أجل هذا الاجتماع (٢٢) أن ليبنتز كتب ، غفلا من اسمه أغرب الوثائق العديدة التى وجدت بين أوراقه بعد وفاته ، وكان عنوانها « منهج لاهوتى » ، وفهمت على أنها بيان للمذهب الكاثوليكى يمكن أن يتقبله اى بروتستانتى حسن النية . وفى ١٨١٩ نشرها ناشر كاثوليكى دليلا على أن لبينتز كان قد ارتد سرا ، والأرجح أنها كانت محاولة دبلوماسية لتضييق هوة الخلاف الدينى بين الفريقين . ولكن كان للناشر عذره فى اعتبار الوثيقة كاثوليكية الى أبعد حد ، واتسم مطلعها بالتجرد او عدم التحيز لأى من المذهبين فى ايجاز :

بعد التماس العون من الله ، بالابتهالات والصلوات الطويلة الخاشعة ، طارحا جانبا ، قدر ما يطيق الإنسان ، كل روح حزبية ؟ ناظراً الى الخلافات الدينية نظرة رجل قدم من كوكب آخر ، تلميذا مبتدئا متواضعا ، لا يدرى شيئا عن أى من الفرق المختلفة ، غير مقيد بأية التزامات ، انتهيت بعد دراسة وافية الى النتائج التى أدونها هنا . لقد قدرت انه لزام على أن اعتنقها جميعا لأن الكتاب المقدس والتقليد الدينى العريق ، وما يفرضه العقل ، والشواهد الأكيدة للحقائق ، يبدو لى انها جميعا تتضافر فى اقرارها فى ذهن أى انسان غير متحيز (٢٣) .

وتلا ذلك اعتراف بالايمان بالله ، وبالخلق والخطيئة الأصلية ، والمطهر ، وتحول الخبز والنبيذ الى جسد المسيح ودمه ، ونذور الاديار والتشفع بالقديسين واستخدام البخور والصور الدينية والأردية الكهنوتية واخضاع الدولة للكنيسة (٢٤) . وربما ألقى كرم الكاثوليكية ظلالا من الشك فى الوثيقة ، ولكن صحة صدورها من ليبنتز امر مقبول اليوم بصفة عامة (٢٥) ، وربما جاش صدره بالأمل فى الحصول على وظيفة ملائمة فى بلاط الامبراطور الكاثوليكى فى فيينا بتأييده لوجهة النظر الكاثوليكية على هذا النحو . وأعجب ليبنتز ، مثل أى متشكك فاضل ، بمنظر الطقوس الكاثوليكية وأنغامها وعبيقها .

وهكذا فان ألحان الموسيقى ، وتناغم الاصوات العذب، وشعر الترانيم وجمال الطقوس الدينية وتلألأ الأضواء ، وعبق العطور ، والملابس الفاخرة ، والأوانى المقدسة المزدانة بالأحجار الكريمة ، والهدايا الثمينة ، والتماثيل واللوحات التى توقظ الشعور الدينى ، والنتاج المبدع للعبقرية الفنية ، .. .. وجلال المواكب العامة وروعتها ، والستائر والأغطية الثمينة التى تزين الطرقات ، وموسيقى النواقيس ، وصفوة القول كل الهدايا والهبات وعلائم التكريم والاجلال التى يغدقها الناس فى سخاء بحكم غرائز التقوى فيهم ، كل أولئك ، فيما احسب ، لا تثير فى ذهن الله من الازدراء ما تريدنا البساطة الصارخة عند بعض

المعاصرين ان نعتقد أنها مثيرة له . وهذا فى كل الأحوال ما يؤكده العقل والتجربة على السواء (٢٦) .

واخفقت كل هذه الحجج فى أن تحرك مشاعر البروتستانت . وافسد لويس الرابع عشر الخطة ومزق معالم الزينة بالغاء مرسوم نانت ، وشن حرب وحشية على البروتستانت فى فرنسا ، ووضع ليبنتز مشروعه جانبا انتظارا لفرصة ملائمة .

وفى ١٦٨٧ قام ليبنتز بثلاث جولات فى ربوع ألمانيا والنمسا وايطاليا ، ليبحث فى السجلات والمحفوظات المتناثرة هنا وهناك عن حوليات أسرة برنزويك . وفى رومه ، وعلى افتراض أنه قد يقبل الارتداد الى الكاثوليكية ، عرضت عليه السلطات هناك أن يكون أمينا لمكتبة الفاتيكان ، ولكنه رفض هذا المنصب . وقام بمسعى جرىء بغية الغاء المراسيم الكنسية التى صدرت عند كوبرنيكس وجاليليو (٢٧) . وبعد رجوعه الى هانوفر ، بدأ فى ١٦٩١ ثلاث سنين من المراسلات مع بوسويه أملا فى احياء حركة توحيد العالم المسيحى من جديد . هل يمكن أن توجه الكنيسة الكاثوليكية الدعوة لعقد مجلس عالمى بالمعنى الصحيح يشهده زعماء البروتستانت والكاثوليك ليعيدوا النظر فى القرار الذى اتخذه مجلس ترنت ودمغ فيه البروتستانت بالهرطقة ويلغيه ؟ . ان الأسقف الذى كان لفوره قذف هؤلاء « المهرطقين » بمقاله « خلافات الكنائس البروتستانتية » (١٦٨٨) ، رد ردا لا يبشر بالوصول الى تسوية : اذا رغب البروتستانت فى العودة الى حظيرة الكنيسة المقدسة ، فان عليهم أن يرتدوا الى الكثلكة ويضعوا حدا للحوار . وتوسل اليه ليبنتز أن يعيد النظر فى موقعه . وساند بوسويه هذا الأمل وقال : انى انضم الى المشروع ... ستسمع عما قريب ما يجول بخاطرى (٢٨) . وفى ١٦٩١ كتب ليبنتز الى مدام برينون فى تفاؤله المعهود :

ان الامبراطور يقف موقفا وديا . كما أن البابا أنوسنت الحادى عشر ونفرا من الكاردينالات والقواد ، وطوائف الرهبان وكثيرا من رجال الدين الوقورين الذين درسوا الموضوع بعناية ، قد أدلوا بآرائهم بطريقة مشجعة غاية التشجيع .. وليس من المبالغة فى شىء أن أقول بأنه لو أن ملك

فرنسا والقساوسة الذين يستمع اليهم الملك فى هذا الشأن ، اتخذوا اجراء مناسبا متفقا عليه ، فان الامر لن يكون مجرد احتمال ، بل يكون فى حكم المنتهى (٢٩) .

ولما وصل رد بوسويه كان مخيبا لكل رجاء : ليس من سبيل للرجوع عن قرارات مجلس ترنت ، انها كانت على صواب فى دفع البروتستانت بالهرطقة ، والكنيسة معصومة من الخطأ ، ولن يصل أى مؤتمر يضم زعماء الكاثوليك والبروتستانت الى نتائج بناءة ما لم يوافق البروتستانت سلفا على قبول قرارات الكنيسة فى المسائل التى هى موضوع النزاع (٣٠) . وأجاب ليبنتز بأن الكنيسة كثيرا ما غيرت آراءها وتعاليمها ، وناقضت نفسها ، وأدانت اناسا وحرمتهم دون سبب عادل . وأعلن « أنه نفض يده من أية مسئولية عن أية مصاعب أو اضطرابات قد يسببها فى المستقبل الشقاق القائم فى الكنيسة المسيحية (٣١) » . وولى شطره نحو المهمة التى بدت أكثر أملا ، وهى التوفيق بين جناحى البروتسانتية ، وهما اللوثرية والكلفنية ، ولكنه واجه فى هذا السبيل عناء وتصلبا أشد وأقسى من عناد بوسويه وتصلبه، وأخيرا ، تمنى ، بينه وبين نفسه أن يحل الطاعون بكل المذاهب المتنافسة ، وصرح بأنه ليس ثمة كتب ذات قيمة الا نوعان منها : تلك التى تتناول الظواهر والتجارب العلمية ، ثم التى تتناول التاريخ والسياسية والجغرافيا (٣٢) . وظل ، ظاهريا وبشكل غامض لوثريا حتى انتهى أجله .

٤ - نظرة عامة فى فلسفة لوك

كان نصف نتاج ليبنتز « أبحاث وتعليقات » قام به عرضا تقريبا لدراسة أفكار بعض الكتاب . وأعظم كتبه الذى بلغ ٥٩٠ صفحة بدأ فى ١٦٩٦ بعرض فى سبع صفحات لمقال لوك عن العقل الانسانى (١٦٩٠) الذى لم يعرفه ليبنتز آنذاك الا عن طريق خلاصة له أعدها لكلرك فى « المكتبة العالمية » وعندما ظهرت ترجمة فرنسية لهذا المقال (١٧٠٠) كتب ليبنتز منجديد نقدا له لمجلة المانية . وبادر فاعرب عن اهمية تحليل لوك وأطنب فى امتداح أسلوبه . وفى ١٧٠٣ عقد العزم على التعليق عليه فصلا فصلا . وهذه التعليقات هى التى يتألف منها كتاب

ليبنتز « أبحاث جديدة فى العقل الانسانى » . واذ علم بوفـــاة لوك ١٧٠٤ لم يتم التعليق ، ولم ينشر الا فى ١٧٦٥ ، فتاخر ظهوره ، فلم يكن له دخل فى تاثير لوك العميق على فولتير وغيره من النجوم اللامعة فى عصر الاستنارة فى فرنسا ، ولكنه جاء فى الوقت المناسب ليسـهم فى تشكيل الفتح الجديد فى كتاب كانت « نقد العقل الخالص » . وهو من اهم مؤلفات فى تاريخ علم النفس .

انه من حيث الشكل حـــوار بين « فيلاليثس Philalethes (حبيب الحق) الذى يمثل لوك ، « وثيوفيلوس Theophilus (حبيب الله) الذى يمثل ليبنتز . والحوار رصين مفعم بالحيوية ، ولا يزال تطيب قراءته لكل من أوتى ذهنا حادا وفراغا بغير حدود . وتظهر المقدمة ليبنتز فى أعظم حالاته النفســية دماثة وكياســـة ، مصرحا فى تواضع بانه يكسب قراءً بالتزامه البحث فى « مقال فى العقل الانسانى» الذى كتبه رجل انجليزى لامع ، وهو من أجمل المؤلفات التى حظيت باعظم التقدير فى هذه الفترة . والمسالة المطروحة للبحث ، مبسوطة بوضوح جدير بالثناء: نريد أن نعرف هل النفس فى حد ذاتها خالية تماما ، مثل الألواح التى لم يكتب عليها شيء بعد ، طبقا لما يقول به أرســطو وكاتب المقال ، وهل كل ما يمكن تتبعه بعد ذلك ، ياتى فقط من الحواس والخبرة ، أو هل تحتوى النفس اساسا على أصـــول كثير من الافكار والمبادىء التى توقظها الأشياء الخارجية مجرد ايقاظ فى المناسبات ، كما اعتقد أنا ويعتقد افلاطون + (٣٣) . ومن رأى ليبنتز أن الذهن ليس وعاء سلبيا للخبرة ، بل هو عضو مركب يحول بمقتضي تركيبه ووظائفه معطيات الاحساس ، مثلما أن الجهاز الهضمى ليس مجرد كيس فارغ ، بل جهـاز أعضاء لهضم الطعام وتحويله الى متطلبات الجسم وأعضائه . وفى عبارة شهيرة معبرة بارعة لخص ليبنتز كلام لوك ونقحه ، ليس فى الذهن شيء لم يكن فى الحواس الا الذهن نفسه (٣٦) » . ان لوك ، كما لحظ ليبنتز ، كان قد اعترف بان الأفكار قد تاتى من « التفكير » الاستبطانى ، مثلما قد تاتى من الاحساس الخارجى ، ولكنه كان قد نسب الى أصل حسي كل

+ كتب لوك ان الذهن عند الولادة عبارة عن « ورقة بيضاء خالية » (٣٤) . ولكنه لم يستخدم عبارة « لوح نظيف » . وهى ترجمة توما الاكوينى لقطعة من ارسطو فى موضوع « النفس » (٣٥) .

العناصر الداخلة فى التفكير . وعلى النقيض من ذلك ، جادل ليبنتز فى أن الذهن من نفسه يمد باصول أو الوان معينة من الفكر ، مثل « الوجود ، الجوهر ، الوحدة ، الهوية ، العلة ، الادراك الحسي ، العقل ، وانطباعات كثيرة أخرى لا يمكن ان تعطيها الحواس (٣٧) » ، وأن أدوات العقل هذه ، أو أعضاء الهضم العقلى « فطرية » ، لا بمعنى أننا على وعى بها عند الولادة ، أو اننا دائما على وعى بها عند استخدامها ، بل بمعنى أنها جزء من التركيب أو الكيان الأصلى ، أو « الاستعدادات الطبيعية » للذهن . واحس لوك بأن هذه الأصول المفترض انها فطرية تجـرى تنميتها وتطويرها تدريجا بتفاعل الأفكار الحسية أصلا ، فى الفكر ، ولكن بدون مثل هذه الأصول ، كما قال ليبنتز منازعا ، لن يكون هناك أفكار ، بل مجرد تعاقبات مهوشة من الأحاسيس ، تماما مثلما أنه بدون عمل المعدة وعصاراتها الهضمية لا يغذينا الطعام ، ولن يكون طعاما . وعند هذا الحد أضاف فى جرأة : ان كل الأفكار فطرية ـ أى أثر عملية التحويل فى الذهن على الأحاسيس . ولكنه سلم بأن الأصول الفطرية عند الولادة مهوشة وغير متميزة ، ولا تصبح واضحة الا عن طريق الخبرة والاستخدام .

والأصول الفطرية ، فى رأى ليبنتز ، تشمل كل « الحقائق الضرورية ، مثل تلك الموجودة فى الرياضة البحتة (٣٨) ، لأن الذهن ، لا الاحساس ، هو الذى يزود بأصل الحاجة والضرورة ، وكل شيء حسي هو فردى طارىء أو احتمالى ، ويمدنا ، على أحسن الفروض ، بتعاقب متكرر ، لا بتعاقب ضرورى أو علة ضرورية (٣٩) . (وكان لوك قد سلم بهذا (٤٠)) . واعتبر ليبنتز أن كل غرائزنا وايثارنا اللذة على الألم وكل قوانين العقل ، فطرية (٤١) ـ ولو أنها جميعا لا تصبح واضحة الا بالخبرة ، ومن بين قوانين الفكر الفطرية هناك قانونان أساسيان بصفة خاصة : مبدأ التناقض ـ فالبيانات المتناقضة لا يمكن أن تكون صحيحة فى وقت واحد . « اذا كانت أ دائرة ، فهى ليست مربعا » ، ومبدأ السبب الكافى ـ « لا يحدث شيء دون سبب لحدوثه على النحو الذى حدث عليه » لا على نحو آخر (٤٢) « وذهب ليبنتز الى أن الذكاء البشرى يختلف عما لدى الحيوان من معرفة ، فى أنه يستنتج أفكارا عامة من خبرات معينة ، عن طريق استخدام أصول العقل الفطرية ، أما الحيوانات فهى تعتمد كل الاعتماد على الخبرة العملية ،

توجه نفسها عن طريق الأمثلة فحسب » ،فهى ، بقدر ما نستطيع الحكم عليها ، لا يمكن ان تصل ابدا الى تشكيل القضايا أو الافتراضات الضرورية (٤٣) .

ان مبدأ « السبب الكافى » يكفى « لاقامة الدليل على وجود الله وكل أجزاء الميتافيزيقا الأخرى أو اللاهوت الطبيعى (٤٤) » . وبهذا المعنى تكون فكرتنا عن الله فطرية ، ولو أن الفكرة فى بعض الأذهان أو عند بعض القبائل لا واعية أو مهوشة ، ويمكن ان نقول مثل هذا على فكرة الخلود (٤٥) ـ والاحساس الخلقى فطرى ، لا فى مضمونه النوعى أو الخاص ، أو فى احكامه التى قد تختلف من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان ، بل بوصفه وعيا للفرق بين الصواب والخطأ . وهذا الوعى عام شامل (٤٦) .

والذهن ، فى علم النفس عند ليبنتز ، فعال نشيط ، لا لمجرد أنه يدخل بمقتضي تركيبه وعمله فى تكوين كل فكرة فحسب ، بل كذلك فى استمرار نشاطه دون انقطاع . وحيث أن ليبنتز استخدم لفظة «يفكر» بمعناها الواسع عند ديكارت ، بمعنى أنها تشمل كل العمليات العقلية ، فانه اتفق مع الديكارتيين فى أن الذهن يفكر دائما . سواء أكان مستيقظا أم غير واع أو نائما . « أن أية حالة بلا تفكير فى النفس ولا راحة مطلقة فى الجسم ، تبدو لى مناقضة للطبيعة ، ولا مثيل لها فى الدنيا ، بقدر سواء (٤٧) » . وبعض العمليات العقلية تتم فيما وراء نطاق العقل (فى العقل الباطن) « من الخطأ البين الاعتقاد بأنه ليس فى النفس مدركات الى جانب تلك المدركات الحسية التى تعيها (٤٨) » . وبمثل هذه القضايا التى أوردها ليبنتز ، بدأ علم النفس الحديث جهوده فى التنقيب عما أسماه بعض الباحثين الذهن اللا واعى ، وما اعتبرته الأرواح القوية متعلقا بالمخ ، أو عمليات أخرى جسدية لم تثر الوعى .

ولدى ليبنتز الشي الكثير مما يمكن أن يقول عن العلاقة بين الجسم والنفس ، ولكنه هناك يترك علم النفس ، ويحلق فى الميتافيزيقا ، ويطلب الينا أن ننظر الى العالم بأسره على أنه مونادات نفسية بدنية ، ذوات صفات عقلية وبدنية معا .

٥ ـ المونــادات

التقى ليبنتز عندما كان فى فيينا فى ١٧١٤ بالأمير يوجـين من سافوى ، الذى كان هو ومالبـورو قد أنقــذا أوربا من ربقة الخضــوع للملك لويس الرابع عشر ، وطلب الأمير الى الفيلسوف أن يعد له بيانا موجزا عن فلسفته بشكل يتيسر معه على القائد العســكرى قراءته . واستجاب ليبنتز لهذا الطلب باعداد رسالة محكمة موجزة من تسعين فقرة ، تركها بين أوراقه عند مماته . ونشرت لها ترجمــة المانية فى ١٧٢٠ . ولم يطبع النص الأصلى الفرنسي الا فى ١٨٣٩ ، والمحرر هو الذى أسماه « المونادولوجيا » (علم الجواهر الروحية) وربما أخــذ ليبنتز اصطلاح موناد عن جيوردانو برونـو (٤٩) ، أو عــن فرانس فان هلمونت (ابن الكيميائى ج ، ب)(٥٠) ، الذى اســتخدم اللفظــة لوصف « البذور » الدقيقة جدا ، التى خلقها الله هى وحدها مباشرة ، والتى تطورت الى كل أشكال المادة والحياة . وكان أحد الأطباء الانجليز ، فرانسيس جليسون قد نسب ، لا القوة وحدها ، بل كذلك الغريزة والأفكار الى كل الجواهر (١٦٧٢) . وكانت نظرية شبيهة بهذه قــد نبتت فى ذهن ليبنتز المتفتح الدؤوب منذ ١٦٨٦ . وربما تأثر بعمــل الميكروسكوبيين الحديثين الذين عرضوا الحياة النابضــة فى أصــغر الخلايا . وخلص ليبنتز الى أن « هناك عالما من الكائنات المخلوقة ـ الأشياء الحية ، والحيوانات .. .. والأنفس .. .. ، فى أصغر جــزء من المادة ـ (١٥١) » . وكل جزء من المادة يمكن تصوره على أنه بركة مملوءة بالسمك ، وأن أية نقطة من دم فى أى من هـــذه الأســماك الميكروسكوبية ، انما هى بركة أخرى مملوءة بالســمك ، وهكذا الى ما لا نهاية ـ لقد هزت مشاعره ـ كما كانت قد روعت بسكال ـ قابليــة القسمة اللامتناهية لأى شيء ممتد .

وأوحى ليبنتز بأن قابلية القسمة التى لا نهاية لها ، لغز ناشيء عن مفهومنا للحقيقة بأنها مادة ، ومن ثم فهى ممتدة وقابلة للقسمة الى حد الغثيان . اننا اذا اعتبرنا الحقيقة النهائية طاقة وتصورنا العالم مكونا من مراكز قوة ، لاختفى سر أو لغز قابلية القسمة ، لأن القوة مثل الفكر لا تنطوى ضمنا على امتداد . وعلى هذا رفض ذرات ديكارت على أنها المكونات النهائية للكون ، وأحل محلها المونادات ، وهى وحدات غير

ممتدة من القوة · وعرف الجوهر ، لا بانه مادة ، بل طاقة · (الى هذه النقطة كان مفهوم ليبنتز متفقا تمام الاتفاق مع فيزياء القرن العشرين) ، « المادة » أينما وجدت مشحونة بالحركة والنشاط والحياة · وكل موناد يحس ويدرك ، أن له ذهنا أوليا أو بدائيا ، بمعنى انه حساس — ويستجيب — للتغيرات الخارجية ·

وقد نفهم المونادت فهما أفضل اذا فكرنا فيها « بطريقة تشبه الانطباعة التى لدينا عن الانفس (٥٢) » وكما أن كل نفس « عبارة عن شخص بسيط مستقل (٥٣) » ، ذات منعزلة تشق طريقها مناضلة بارادتها الباطنية ضد كل ما هو خارج عنها ، فان كل موناد كذلك وحيد ، مركز قوة منفصل مستقل ضد كل مراكز القوة الاخرى · والحقيقة كون من القوى الفردية ، موحد ومنسجم بفضل قوانين الكل أو المجتمع أو الله فقط · وكما أن كل نفس تختلف عن سائر الانفس ، فان كل موناد كذلك فريد · وليس فى الكون باسره كائنان متشابهان كل الشبه ، لان الفروق بينهما تشكل فرديتهما ، ان شيئين لهما نفس الصفات ، لابد أن يكونا واحدا متطابقا يتعذر تمييزه (« قانون الاشياء التى يتعذر تمييزها ») (٥٤) وكما أن كل نفس تحس او تدرك الحقيقة المحيطة بها ، ويقل هذا وذاك وضوحا كلما كانت الحقيقة بعيدة عنها ، ولكنها تشعر بالحقيقة بدرجة ما ، فان كل موناد يشعر بالكون كله ، مهما كان الشعور مهوشا او غير واع · وهو بهذه الطريقة مرآة تعكس وتمثل العالم بدرجة أو باخرى من الغموض · وكما أن اى ذهن فردى لا يستطيع بحق أن ينعم النظر فى ذهن آخر ، فكذلك لا يستطيع موناد واحد أن ينعم النظر فى موناد آخر · فليس فيه أية نافذة أو فتحة لمثل هذا الاتصال المباشر ، ومن ثم فانه لا يستطيع مباشرة احداث اى تغيير فى أى موناد آخــر ·

والمونادات تتغير لان التغيير أساسي لحياتها — ولكن التغييرات تاتى من كفاحها الداخلى (٥٥) · فكما أن كل نفس هى رغبة واردة ، فكذلك كل موناد يحتوى على — أو هو — غرض داخلى وارادة ، سعى للنمو والتطور · وتلك هى « الفعلية » التى قال عنها ارسطو بانها لب كل حياة · وبهذا المعنى (كما كان يقول شوبنهور) فان القوة والارادة شكلان أو درجتان من نفس الحقيقة الأساسية (٥٦) · وفى الطبيعة غائية

متاصلة : فهناك فى كل شيء سعى أو « محاولة » أو « اشتهاء » ، أو غرض موجه يحدد قالبه ، حتى ولو كان ذاك الغرض أو تلك الارادة تعمل فى حدود القانون الآلى أو عن طريقه . وكما أن الحركة الجسمية فينا هى تعبير مرئى ميكانيكى عن رغبة أو ارادة باطنة ، فكذلك فى المونادات ، فان العملية الميكانيكية التى نراها من الخارج ، هى مجرد الشكل أو الهيكل لقوة داخلية : « وهذا الذى يظهـــر بشـــكل آلى أو بالامتداد ، فى المادة يتركز بشكل دينامى أو فعال ، وبشكل عضوى (أو مونادى) فى « الفعلية » (أو السعى الداخلى) نفسها (٥٧) . ونحن فى ادراكنا المشوش المضطرب نعادل الاشياء الخارجة « بالمادة » لاننا نرى آليتها الخارجية فقط ، ولا نرى ـ كما هو الحال فى الاستبطان ، الحيوية الداخلية ذات الأثر الفعال فى التكوين . وفى هذه الفلسفة تفسح الذرات العاجزة غير الفعـــالة عنـد المـاديين ، مكانا للمونادات أو الوحدات التى هى مراكز حية للفردية والقوة . ولا يعود العالم آلة ميتة ويصبح مسرحا لحياة نابضة متنوعة .

واهم المعالم فى هذا التنوع هى درجـــة الوعى فى « ذهــــن » الموناد . فان لكل المونادات أذهانا ، بمعنى الحساسية والاستجابة ، ولكن ليس كل ذهن واعيا . وحتى نحس الكائنات البشرية العجيبــة ، نمر بعمليات عقلية كثيرة دون وعى ، كما هو الحال فى الأحلام ، أو حين نكون مستغرقين فى أشد الانتباه الى جوانب معينة من موقف ما ، فاننا لا نعى أننا ندرك عناصر أخرى كثيرة فى هذا المشهد ـ وهى عناصر قد تكون على أية حال مختزنة فى الذاكرة ، وقد تدخل الى أحلامنا ، وقد تنبثق من زوايا خفية فى الذهن الى الوعى الذى يحدث فيما بعد ، أو حـــين نكون على وعى بزئير الأمواج المنكسرة على الشـــاطىء أو هسيسها ، فاننا لا نتحقق من أن كل موجة ، أو كل جزء صغير من كل موجة ، يطرق أذننا ليحدث ألفا من الآثار الفردية ، التى تشـــكل أو تصبح هى سماعنا للبحر . وعلى ذلك فان أبسط المونادات تحس وتدرك كل شيء حولها ، ولكن بشكل مهوش مضطرب الى حـــد اللا وعى . والمشاعر فى النبات تصبح أوضح واكثر تخصصا وتؤدى الى استجابات اكثر تحديدا . وفى الموناد ، أى نفس الحيوان تصبح المدركات المرددة للصدى ذكريات يولد تفاعلها وعيا . والانسان عبارة عن مستعمرة من المونادات (الخلايا ؟) لكل منها جوعه وحاجياته واغراضه ، ولكن هذه

الجزيئات تصبح جماعة موحدة من كائنات حية بتوجيـــه من موناد مسيطر ، وهو « فعلية » الانسان ونفسه (٥٨) . واذا ارتفعت هـــذه النفس الى مستوى العقل فانها .. .. تعتبر ذهنا (٥٩) وتســمو فى المرتبة تبعا لدرجة ادراكها للعلاقات الضرورية والحقائق الباطنيـــة ، وعندما تدرك نظام الكون وذهنه تصـــبح مرآة الله . والله ، الموناد الرئيسي ، ذهن خالص واع تمام الوعى ، مجرد من كل آلية وجسم (٦٠)

واشق جانب فى هذه الفلسفة هو نظرية ليبنتز فى « التناســق الأزلى » . ما هى العلاقة بين حياة الموناد الداخلية ، ومظهره الخارجى أو هيكله المادى ؟ وكيف نفسر التفاعل فى الجسم المادى والذهن الروحى فى الانسان ؟ وكان ديكارت قد نسب هذه المســألة عجزا الى الغـــدة الصنوبرية . ورد عليها سبينوزا بانكار اى انفصال أو تفاعل بين المادة والذهن ، حيث كان هذان ، فى رأيه ، مجرد المظهـــرين الخـــارجى والداخلى لعملية وحقيقة واحدة . وجدد ليبنتز المشكلة بالقـــول بأن المظهرين منفصلان متميزان ، وأنكر تفاعلهما ، ولكنـــه نسب تزامن العمليات الجسمية والعقلية الى تواطؤ مستمر رتبه الله ترتيبا أزليـــا بشكل عجيب :

> ان النفس تتبع قوانينها الخاصة بها ، وكذلك الجسم يتبع قوانينه الخاصة به ، وهى تتلاءم وتتفق بفضل « التناسق الازلى بين الجواهر ، حيث أنها كلها تمثل كونا واحدا (٦١) .. .. وتعمل الأجسام كما لو أنه ليس هناك نفوس ، وتعمل النفوس كما لو أنه ليس هناك أجسام ، ويعمل كلاهما كمـــا لو انه يؤثر فى الآخر .. .. (٦٢) ويسالوننى كيف يحدث أن الله غير راض عن انتاج كل أفكار وتكيفاتها بغير هـــذه الأجسام العديمة الفائدة التى لا تستطيع النفس (كما يقولون) أن تحركها أو تعرفها . والجواب سهل : ان ارادة الله هى التى اقتضت أن يكون هناك عدد أكبر ، لا عدد اقل ، من الجواهر ، كما وجد ، سبحانه ، انه من الخير ان تقابل هذه التكيفات شيئا خارجيا (٦٣) .

وارتيابا فى ان الاستغلال اللطيف للاله بديلا عن الفـــكر قد لا يلقى

استحسانا عاما ، عمد ليبنتز الى زخرفته بفرضية جلينكس وساعاته : فالجسم والذهن يعمل كل منهما مستقلا عن الآخر ، ومع ذلك يعملان فى تناسق محير ، مثل ساعتين صنعتا وملئتا ثم بدأتا ، فى حذق وبراعة الى درجة أنهما تسجلان الثوانى وتدقان الساعات فى توافق تام ، دون تفاعل أو تأثير متبادل ، وهكذا العمليات الجسدية والنفسانية ، على الرغم من استقلالهما ، ودون أن تؤثر أحداهما فى الأخرى ، فانهما تتوافقان عن طريق « تناسق وجد منذ الأزل بوسيلة الهيه بارعة توقعية » (٦٤) ٠

ولنفترض أن الذى جال بخاطر ليبنتز ، ولكنه لم يهتم بذكره ، هو أن العمليات التى هى فى الظاهر منفصلة ولكنها متزامنة ، عمليات الآلية والحياة ، عمليات الفعل والفكر ، هى عملية واحدة بعينها ، نراها من الخارج مادة ومن الداخل ذهنا ٠ ولو أنه ذكر هذا لكان تكرارا لسبينوزا ، ومشاركة فى مصيره ٠

٦ ــ هل كان الله عادلا ؟

ان هذه الحاجة الى ستر عرى الفلسفة باغطية لاهوتية ، هى التى أدت بليبنتز الى تاليف الكتاب الذى أثار حنق فولتير وسخريته ، وكاد يضيع مفكرا عميقا حقا فى صورة الأستاذ بانجلوس الهزلية ، دفاعا عن أحسن العوالم الممكنة ٠ ان العمل الفلسفى الكامل الوحيد الذى نشر فى حياة ليبنتز هو « مقال الثيوديسية عن طبيعة الله وحرية الانسان وأصل الشر » ، (١٧١٠) ــ وهو تقريبا سند مشجع مثل كتاب ديكارت « مبادىء الفلسفة الأولى ، التى توضح وجود الله وخلود النفس » (١٦٤١) ٠ والثيودريسية معناها عدالة الله أو تبريره (أو الفلسفة الالهية) ٠

فلهذا الكتاب ، مثل سائر الكتب أصل عرضي ٠ وفى مقال عن القديس جيروم ، فى « القاموس التاريخى النقدى » نجد بيل ، على حين يبدى اعجابه الشديد بليبنتز ، يعارض رأى الفيلسوف بأنه يمكن التوفيق بين العقل والدين ، أو بين حرية الانسان وقدرة الله ، أو بين الشر الدنيوى والطيبة والقوة الالهيتين ٠ وخير لنا ــ كما يقول بيل ، أن نتخلى عن فكرة اثبات المذاهب الدينية ، فان هذا لا يعنى الا ابراز

المتاعب والصعوبات . وأجاب ليبنتز (١٦٩٨) فى مقال كتب لصحيفة جاك باسناج « تاريخ أعمال العلماء » . واضاف بيل فى الطبعة الثانية لقاموسه الى المقال الذى كتبه عن القديس جيروم ملاحظة هامة يحيى فيها ليبنتز « ذلك الفيلسوف العظيم » ولكنه أشار الى غوامض اخرى ، وبخاصة فى نظرية التناسق الازلى . وأرسل ليبنتز رده الى بيل مباشرة، مباشرة ، ولكنه لم يطبعه . وفى العام نفسه كتب ثانية الى عالم روتردام يمتدح « تأملاته الأخاذة » و « ابحاثه التى لا حد لها (٦٥) » . ولم يتسم الا القليل من فترات تاريخ الفلسفة بمثل ما اتسمت به من الرقة واللطف تلك المجاملة المتبادلة بين بيل وليبنتز فى تبـــادل الافكار . وأبدت صوفيا شارلوت رغبتها فى الاطلاع على جواب ليبنتز على شكوك بيل . وكان بالفعل يعد مثل هذا البيان حين ترامت اليه الانباء بوفــاة بيل . وراجع ردوده وتوسع فيها ونشرها تحت عنوان « التيوديسية » . وكان آنذاك فى الرابعة بعد الستين من العمر ، واحس بدنو الأجــــل ، وربما هفت نفسه الى الايمان بعدالة الله مع الانسان . كيــف يتأتى أن يتلوث عالم خلقه الله العلى القدير الخير بمثل هذه المذابح العسكرية والفساد السياسي والقساوة البشرية والشقاء والزلازل والمجاعات والفقر والمرض ؟

ان « الرسالة التمهيدية عن مواجهة الايمان بالعقل » وصفت العقل والكتاب المقدس بأن كليهما وحى من عنـد الله ، ومن ثم كان التناقض بينهما أمراً بعيد الاحتمال .

ويتساءل بيل كيف أن الاله الطيب الخير المطلع سلفا « على كل ما هنالك من ثمار » يمكن أن يجيز اغراء حواء ، فرد ليبنتز على هذا بأن الله ، لكى يؤهل الانسان للمبادىء الاخلاقية ، خلق له ارادة حرة ، ومن ثم حرية الخطيئة ، وحقا ان الارادة الحرة تبدو غير ملتئمة مع العلم واللاهوت كليهما ، فالعلم يرى فى كل مكان حكم قانون لا يتغير ، والحرية الانسانية مضيعة فى سابق علم الله وحتمية كل الأحداث قضاء وقدرا . ولكننا ، كما قال ليبنتز ، واعون فى عناد واصرار وبشــكل مباشر أننا أحرار غير مقيدين . اننا ، على الرغم من عدم قدرتنا على البرهنة على هذه الحرية ، يجدر بنا أن نقبلها شرطا أساسيا لأى معنى من معانى المسئولية الأخلاقية ، وبديلا وحيدا لاعتبــار الانســـان آلة فسيولوجية عاجزة بشكل سخيف مضحك .

أما بالنسبة لوجود الله ، فان ليبنتز مقتنع بالحجج التقليدية السكولاسية . نحن نتصور كائنا كاملا ، وحيث أن الوجود عنصر ضرورى فى الكمال ، فالكائن الكامل لابد أن يكون موجودا . ولابد أن يكون هناك عنصر ضرورى وكائن موجود بذاته (غير مخلق) وراء كل العلل القريبة والأحداث المحتملة الوقوع . وليس من المفهوم أن يكون لعظمة الطبيعة ونظامها أى مصدر الا « ذكاء أسمى » . ولابد أن يكون للخالق فى ذاته ، وبدرجة غير متناهية ، كل القوة والعلم والمعرفة والارادة التى كشفت فى مخلوقاته . والتدبير الالهى والآلية الكونية غير متعارضتين . فالعناية الالهية تستخدم الآلية لانجاز عجائبها ، ويستطيع الله أن يربك أو يوقف آلة العالم من آن الى آن ، ليظهر معجزة أو معجزتين (٦٦) .

والنفس بطبيعة الحال ، خالدة ، والموت ، مثل الولادة ، هو مجرد تغيير فى الشكل فى مجموعة من المونادات ، وتبقى النفس والطاقة المتأصلتان . وفيما عدا الله تكون النفس دائما ملازمة للجسم ، والجسم ملازم للنفس ، ولكن سيكون هناك بعث للجسم ، كما سيكون هناك بعث للنفس (٦٧) (وليبنتز هنا كاثوليكى فاضل) وفيما دون الانسان يكون خلود النفس غير شخصي (مجرد اعادة توزيع للطاقة) ، والنفس العقلانية فى الانسان وحدها هى التى تتمتع بخلود واع .

والخير والشر اصطلاحان من صنع الانسان نحددهما تبعا للذتنا أو ألمنا ، ولا يمكن تطبيقهما على الكون دون افتراض أن للانسان من العلم ما لا يجوز الا لله . وقد يكون النقص فى الجزء مطلوبا لكمال أعظم فى الكل (٦٨) . وعلى هذا فالخطيئة شر ، ولكنها نتيجة الارادة الحرة التى هى خير . وحتى خطيئة آدم وحواء كانت من بعض النواحى « خطيئة سعيدة » حيث كان من نتيجتها مجىء المسيح (٦٩) « وليس فى الكون .. فوضي ولا اضطراب الا من حيث المظهر (٧٠) » . ان آلام الناس ونوائبهم « تسهم فى الخير الأعظم عند من يعانون منها (٧١) » . وحتى :

> لو تمسكنا .. .. بالرأى السائد بان عدد الناس المقدر عليهم الشقاء الأبدى ، سيكون أكبر بشكل لا يقارن ، من

الذين كتب لهم الخلاص ، فيجدر بنا أن نذكر أن الشر لا يمكن أن يبدو الا ضئيلا الى حد العدم بالمقـارنة مع الخير ، اذا تأمل المرء السعة الحقيقية « لمدينة الله » (للجنة) .. .. وحيث أن هذا الجزء من الكون الذى نعرفه ليس الا شـيئا لا يذكر الى جانب الجزء الذى لا نعرف عنه شيئا ... فقد يكون كل الشر ضئيلا الى حد العدم تقريبا ، اذا قورن بالأشياء الطيبة الموجودة فى الكون (٧٢) .. .. ولسنا بحاجة حتى الى الموافقة على أن فى الجنس البشرى شراً أكثر مما فيه من خير . فانه من الممكن ، بل انه لشيء معقول أن تكون سعادة غير المغضوب عليهم وكمالهم أعظم بكثير من شقاء المغضوب عليهم ونقصهم (٧٣) .

وهذه الدنيا ، مهما بدا من نقصها أمام أعيننا المشبعة بالأنانية هى أحسن ما كان يمكن أن يخلقـه الله ، حيث ترك البشر أناسي وأحرارا . واذا كانت ثمة دنيا أحسن فى حيز الامكان فلنكن على يقين من أن الله يمكن أن يخلقها

ان الكمال الأسمى لله يستتبع أنه فى خلق الكون ، اختار (سبحانه) أفضل خطة ممكنة ، بما فيها أعظم تنوع مع أعظم نظـام ، وأفضل وضع ومكان وزمان ترتيبـا ، وأعظم النتائج توفرها أبسط الوسائل وأعظم قـوة وأعظم معرفة وأعظم سعادة وأعظم خير فى الأشياء المخلوقة التى سلم بها الكون أو أفسح لها مجالا . وبما أن كل الأشـياء الممكن وجودها تطالب بحق الوجود فى عقل الله بنسبة درجة كمالها ، فان نتيجة كل هذه المطالبات لابد أن تكون أكمل دنيا ممكنة فعلا (٧٤) .

ولا يمكن أن نوصي اليـوم بقـراءة شيء أكثـر من ذلك فى « ثيودوسية » ليبنتز ، اللهم الا الذين يقدرون أعظم تقدير سـخرية « كانديد » المريرة .

٧ ـ اهتمامات فكرية متنوعة

ومهما يكن من امر فان « الثيوديسية » أصبحت أوسع كتب ليبنتز انتشارا واكثر ما اقبل الناس على قراءته منها ، وعرفه الناس بانه « رجل افضل العوالم الممكن وجودها » . واذا كان لنا أن نأسف لهذا السخف الذى يهذب ويثقف فى هذا العمل العظيم ، فان اجلالنا للمؤلف يحيا ويتجدد اذا أجلنا الطرف فى التنوع الغزير لاهتماماته الفكرية . وقد افتتن بالعلم ولو انه كان جانبا من فكره . وقال ليبنتز لبيل يوما ئـ لو انه عاش حياة ثانية لاصبح عالما بيولوجيا (٧٥) . وكان من اعمق الرياضيين فى عصر زخر بهم . وبذ ديكارت فى صياغة « مقياس القوة* » . أما تصوره للمادة على أنها طاقة فكان فى نظر عصره لحنا ميتافيزيقيا ، ولكنه الآن فى أيامنا هذه أمر مألوف فى الفيزياء . ووصف المادة بانها ادراكنا المهوش أو المضطرب لعمليات القوة . ونبذ ، مثل معاصرينا من أصحاب النظريات « الحركة المطلقة » التى افترضها نيوتن ، وقال بان « الحركة هى مجرد تغيير فى الأوضاع النسبية للأجسام ، ومن ثم ليست شيئا مطلقا ، بل متضمنة فى علاقة (٧٦) » . واستبق كانت فى تفسير المكان والزمان ، لا على أنهما حقائق موضوعية ، بل علاقات مدركة حسيا : المكان مدرك حسيا على أنه تصاحب فى التواجد ، والزمان مدرك حسيا على أنه تعاقب ـ وهى آراء تتبناها اليوم نظريات النسبية . وفى عامه الأخير (١٧١٥) دخل ليبنتز فى مراسلات طويلة مع صمويل كلارك عن الجاذبية الأرضية ، التى بدت له صفة خاصة تكتنفها الأسرار ، تعمل على مسافات هائلة جدا عبر فراغ ظاهر ، واعترض ليبنتز بانها قد تكون معجزة متصلة لا تنقطع ، فأجاب كلارك بانها ليست أعظم من « التناسق الأزلى (٧٧) » ، وأبدى ليبنتز خوفه من أن تؤدى نظرية نيوتن فى الآلية الكونية الى كثير من الالحاد ، فأجاب كلارك ، على العكس ، ان النظام المهيب الذى كشف نيوتن غوامضه قد يقوى الايمان بالله (٧٨) . وبررت الأحداث اللاحقة رأى ليبنتز .

---

* كانت صيغة ديكارت ك س ـ مقدار الحركة الكتلة مضروبا فى السرعة . فعدلها ليبنتز بناء على كتاب جاليليو الى ك س٢ . والقانون السائد الآن : $\frac{1}{2}$ ك س٢ .

وفى علم الحياة (البيولوجيا) تصور ليبنتز « التطور » بشكل غامض . ورأى ، مثل كثير من المفكرين قبله وبعده « قانون الاستمرار » نافذا فى العالم العضوى ، ولكنه امتد بالفكرة كذلك الى العالم المظنون انه غير عضوى : فكل شيء نقطة أو طور فى سلسلة لا نهاية لها ، مرتبط بكل شيء غيره عن طريق عدد غير محدود من أشكال وسيطة (٧٩) ، فهناك كما يقال ، حساب اللامتناهيات فى الصغر يجرى فى الحقيقة .

ليس ثمة شيء يتم على الفور . ومن حكمى البليغة ... ان الطبيعة لا تقوم بقفزات .. .. ويعلن قانون الاستمرار أننا ننتقل من الأصغر الى الأكبر والعكس بالعكس عبر الوسط ، درجة درجة ، وجزءا جزءا على حد سواء (٨٠) . (وينازع فى هذا كثير من الفيزيائيين اليوم) ... والناس مترابطون مع الحيوانات . والحيوانات مترابطة مع النبات ، وهذه ثانية مع الأحافير والمستحاثات ، وهى بدورها مرتبطة بتلك الأجسام التى يصورها لنا الاحساس والخيال ميتة وغير عضوية تماما (٨١) .

وفى هذا « الاستمرار » المهيب تذوب كل التناقضات ، عن طريق سلسلة ضخمة من فوارق توجد ونادرا ما يتيسر ادراكها ادراكا حسيا ، من أبسط المواد الى أكثرها تعقيدا ، ومن أصغر الحيوانات الدنيا التى ترى بالمجهر الى أعظم حاكم أو عبقرى أو قديس .

ويبدو أن ذهن ليبنتز قاس كل هذا الاستمرار الذى وصفه ، وكان حسن الاطلاع على كل علم ، وعرف تاريخ الأمم والفلسفة . وكم مس مساً رقيقا الشئون العالميــة للكثير من الدول ، كما كان على علم تام بالذات وبالله . وفى ١٦٩٣ نشر بحثا عن نشاة الأرض وبدايتها متجاهلا سفر التكوين تجاهلا تاما . وطور أفكاره الجيولوجية وتوسع فيها فى رسالة « بروتوجيا » نشرت ١٧٤٩ بعد وفاته . وذهب الى أن كوكبنا كان يوما كرة ملتهبة ، ثم بردت شيئا فشيئا ، وكونت قشرة ، وعندما بردت تكاثف البخار بها الى مياه ومحيطات ـ وأصبح الماء ملحا بذوبان ما فى القشرة من معادن . وكانت التغييرات الجيولوجية ، التى تلت ذلك ، أما نتيجة لفعل المياه التى فاضت على السطح تاركة تكوينات رسوبية ، أو نتيجة

انفجار الغازات التى تحت الارض ، مخلفة صخوراً بركانيـة ٠ وأوردت نفس الرسالة تفسيرا بارعا للاحافير أو المستحاثات (٨٢) ، وخطت نحو نظرية للتطور ٠ وبدا له « جديرا بالاعتقاد ، أنه من خلال هذه التغييرات البعيدة المدى » فى القشرة الأرضية » ، « تحولت مرات ومـرات حتى اجناس الحيوان .(٨٣) » ٠ وقال بانه من المحتمل أن أقدم الحيـوانات الأولى كانت بحرقي ، انحدرت منها البرمائيات والحيوانات البرية (٨٤) ٠ ورأى ليبنتز ــ مثل بعض المتفائلين فى القرن التاسع عشر ــ ، فى هذا التحول التطورى ، أساسا للاعتقاد « بتقدم الكون تقدما متصلا لا يعوقه شيء ٠٠ ٠٠ لن يقف التقدم عند حد أبدا (٨٥) » ٠

وانتقل ليبنتز من علم الحياة (البيولوجيـا) الى القـانون الرومانى ، ومنه الى فلسفة الصين ٠ وأفادت رسالته « آخر الأنبيـاء من الصين » ١٦٩٧ فى لهف شديد ، من التقارير التى كان يرسـلها المبشرون والتجار من « المملكة الوسطى » ٠ ورأى أنه من الجائز أن يكون الصينيون قد وصلوا فى الفلسفة والرياضة والطب الى كشـوف يكون فيها أكبر العون للحضارة الغربية ٠ وحث على اقامة روابط ثقافية مع روسيا ، لتكون من ناحية ، وسيلة لبدء الاتصال الثقافى مع الشرق٠ وتبادل ليبنتز الرسائل مع الباحثين ورجال العلوم ورجال السـياسة والحكم فى عشرين بلدا بثلاث لغات ٠ وكتب نحو ثلثمائة رسـالة فى العام ٠ و ١٥ ألفاً منها محفوظة (٨٦) ٠ وقد تنافسه رسـائل فولتير من حيث الكم ، لا من حيث التنوع الفكرى ٠ واقترح ليبنتز ندوة عالمية ثقافية يتبادل رجال العلم والمعرفة عن طريقها ، أفكارهم وآراءهـم ويعرضونها للبحث والمقارنة (٨٧) ، وعمل على ايجاد لغة عالمية ــ « حروف عالمية » يكون فيها لكل فكرة فى الفلسفة والعلوم رمزا وحرف خاص ، حتى يتمكن المفكرون من معالجة هذه الأفكار بهذه المجموعة من الرموز ، مثلما استخدم الرياضيون العلامات للكميات ٠ وبهذا اقترب من تأسيس المنطق الرياضي والرمزى (٨٨) ٠ وبشيء من هذا العبث اللطيف وزع ليبنتز نفسه بين مجالات كثيرة الى حد أنه لم يكن يترك وراءه الا قصاصات أو شذرات ٠

ولم يجد فيلسوفنا الشغوف بالعلم المتعدد جوانب المعرفة فسحة من الوقت للزواج ٠ وأخيرا وهو فى سن الخمسين فكر فى الـزواج ،

ولكن ، كما يقول فونتنيل « أمهلته السيدة التى طلب يدها ، لتتدبر الأمر ، وحيث تهيأت له فرصة لاعادة النظر فى الموضـوع ، فانه لم يتروج قط (٨٩) » . وبعد جولاته وتحليقاته فى الدبلوماسية طـوى نفسه على دراساته معتزا بالعكوف عليها فى عزلة .. ان الرجل الذى كان قد نقب بذهنه فى نصف العالم ، باعد الآن بينه وبين أصدقائه . وتفرغ للقراءة والكتابة ، حتى أثناء الليل . وقلما تنبه لأيام الآحاد أو العطلة. ولم يكن لديه خادم ، وكان يبعث فى طلب وجبات الطعام من الخارج ، وتناولها وحيدا فى غرفته (٩٠) . فاذا غادرها يوما ، كان ذلك من أجل القيام ببعض الأبحاث ، أو لمتابعة مشروعاته من أجل النهوض بالمعرفة أو العلوم أو خلق جو من التفاهم .

وراوده حلم انشاء كاديميات فى العواصـم الكبرى ، ونجح فى واحدة منها ، فاسست أكاديمية برلين (١٧٠٠) بناء على مبـادرته ، وانتخبته أول رئيس لها . وقابل بطرس الأكبر فى تورجو (١٧١٢) ، ثم فى كار لسباد وبيرمونت ، واقترح أكاديميـة مماثلة فى سـانت بطرسبرج ، وحمله القيصر بالهدايا ، وتبنى اقتراحه فى حكم روسيا عن طريق « وحدات » ادارية ، ولكن ليبنتز ، لم يعمـر حتى يرى أكاديمية سانت بطرسبرج صرحا قائمـا فى ١٧٢٤ . ونلتقى به فى ١٧١٢ فى فيينا متلهفا للحصول على منصب امبراطورى ، حاملا معه مشروع أكاديمية أخرى . وقدم لشارل السادس خطة لانشـاء معهـد لا يقتصر على العلوم ، بل يضم التربية والزراعة والصناعة ، وعرض خدماته لادارة المعهد . ورفعه الامبراطور الى مرتبة النبلاء ، وعينـه عضوا فى المجلس الامبراطورى (١٧١٢) .

واغضب طول تغيبه عن هانوفر الناخب الجديد جورج . وقطع راتبه فترة من الزمن وانذر بانه قد آن الأوان بعد مضي ربع قرن من التعويق والتسويف ، للانتهاء من كتابه عن تاريخ أسرة برنزويك . وعند وفاة الملكة آن غادر جورج هانوفر ليتسلم عرش انجلترا . وبعد ثلاثة أيام من هذا الرحيل ، وصل ليبنتز من فيينا ١٧١٤ . وكان يأمل فى أن يذهبوا به الى لندن حيث ينعم هناك بمنصب أرفع ورواتب أكبر ، وبعث الى الملك الجديد برسائل يسترضيه فيها . ولكن جورج رد بانه من الخير ان يبقى ليبنتز فى هانوفر حتى ينجز الحوليـات (٩١) .

ناهيك بان انجلترا لم تكن غفرت له نزاعه مع نيوتن حول أيهما وضع حساب التفاضل والتكامل .

واستبد به اليأس والوحدة ، وعاش عامين آخرين كافح فيهما من أجل الايمان بحسن نية الكون ومقاصده ، ان الرجل الذى عرفوه فى القرن الثامن عشر بانه رسول التفاؤل قضي نحبه متاثرا بداء النقرس وحصاة الكلى فى هانوفر ، فى ١٤ نوفمبر ١٧١٦ . ولم تحفل بموته أكاديمية برلين ، ولا رجال الحاشية الألمان فى لنـــدن ، ولا أى من أصدقائه فى البلد ، ولم يحضر أحد من رجال الدين للقيام بالطقوس الدينية للفيلسوف الذى كان يدافع عن الدين ضد الفلسفة . ولم يشيع جنازته الا رجل واحد ، هو سكرتيره السابق . وكتب اسكتلندى كان آنذاك فى هانوفر « ووری ليبنتز التراب اقرب شبها بلص ، منه بما كان عليه حقا : درة فى جبين بلاده ومفخرة لها (٩٢) » .

وجدير بنا الا نشغل الصفحات ببيان أوجه الخلل والنقص فى هذا الركام المتعدد الأشكال من الأفكار ، فقد قام الزمن منذ عهد بعيد بهذه المهمة الثقيلة . واتهم النقاد ليبنتز بسرقات كثيرة واضحة فى كل ما كتبه أو قال به . وعثروا على علم النفس الذى جاء به عند افلاطون ، والعدل الالهى عند الفلاســفة الســكولاسيين ، والمونادات عنـــد برونو ، والميتافيزيقا والأخلاق وعلاقة الذهن بالجسم عند سبينوزا ، ولكن من الذى يستطيع أن يقول عن هذه المسائل شيئا غير ما قيل منذ مائة عام . أنه لايسر أن يكون المرء أصيلا واحمق من ان يكون أصيلا وحكيما . وهناك الف من الأخطاء المحتملة فى كل حقيقة ، ولم يستنفد الجنس البشرى بعد كل الامكانات مع ما بذل من جهود ومحاولات . وهناك هراء كثير فى ليبنتز ، ولكنا لا نستطيع الجزم بأنه كان هراء أمينا ، او أنه كان تغييرا وقائيا فى اللون ، انه يقول لنا بأنه الله حين خلق الدنيا رأى سبحانه فى ومضة ، كل ما كان سيحدث فى أدق تفاصيله (٩٣) . وقال « أنا دائما أبدا فيلسوفا ، ولكنى دائمـا انتهى رجـــلا من رجـــال اللاهوت (٩٤) » . أى أنه أحس ان الفلسفة تخطىء هدفها اذا لم تؤد الى الفضيلة والتقوى .

وهيا له حواره الطويل الذكى مع جون لوك واجدا من ادعاءاته

الكثيرة ، الا وهو ادعاء الفكر الثاقب ذى القيمة والاهمية . وربما بالغ فى فطرية « الأفكار الفطرية » ، ولكنه سلم بأنها قـدرات أو مواهب أو استعدادات ، وليست أفكاراً وأفلح فى اظهار أن المذهب الحسي عند لوك كان قد بالغ فى تبسيط عملية المعرفة ، وأن « الذهن » بطبيعته ـ اذا كان خاليا فجاً عند الولادة ـ انما هو عضو للاستقبال الفعـال للأحاسيس ومعالجتها وتحويلها ، وهنا ، يقف ليبنتز ، كما يقف فى آرائـه عن المكان والزمان ، شامخا ، مبشرا بكانت . واكتنفت الصعوبات نظرية المونادات (اذا لم تكن ممتدة ، فكيف يتسنى لأى عدد منها أن يحدث امتدادا ؟ واذا كانت « تدرك » الكون ادراكا حسيا فكيف يكون لديها مناعة ضد أى تأثير خارجى ؟) ، ولكنها كانت محاولة بارعة أن يجتاز الهوة بين الذهن والمادة ، حين جعل المادة عقلية ، ولم يجعل الذهـن ماديا ، وأخفق ليبنتز بطبيعة الحال فى التوفيق بين الآلية والتدبير فى الطبيعة ، أو بين الآلية فى الجسم والحرية فى الارادة . وكان فصله بين الذهن والجسم من جديد ، بعد أن كان سبينوزا قد وحد بينهما فى عملية ذات جانبين ، خطوة الى الوراء فى الفلسفة . وكان زعمه أن هذا أفضل العوالم الممكنة مسعى حميدا مشجعا مفعما بالأمل ، من جانب رجل البلاط ، للتسرية عن ملكة ، ان أعلم الفلاسفة (اكاديمية بأسرها فى شخصه ـ كما قال عنه فردريك الأكبر) كتب لاهوتا ، كان شـيئا لم يحدث فى تاريخ الفكر منذ سانت أوغسطين . ولكن مع كل مواطن الضعف فيه كانت انجازاته فى العلوم والفلسفة ضخمة . وكان محبـا لوطنه ومع ذلك « أوربيا صالحا » ، فاعاد الى المانيا مكانا مرموقا فى تنمية الحضارة الأوربية وتطويرها . وكتب فردريك الثانى « من كل الذين رفعوا من شان المانيا ، قام توماسيوس وليبنتز باجل الخدمات للروح الانسانية (٩٥) » .

وضعف تاثير ليبنتز عندما قلت قيمة لاهوته أمام الوعى الأخلاقى عند الناس ، وعلى مدى جيل بعد وفاته أعاد كريستيان فون ولف صياغة فلسفته صياغة مرتبة . وفى هذا الشكل المعدل اصبحت النمط الفكرى السائد المسيطر فى الجامعات الالمانية . وكان اثره خارج المانيا يسيرا . ولو أن معظم كتاباته كانت باللغة الفرنسية ، فانها كانت عبـــارة عن قصاصات لا تشكل عملا قويا متماسكا أو مركزا . ولم تظهر حتى ١٨٦٨ أية طبعة تجمعها ، بل انه فى تلك السنة أيضا استبعدت بعض الفقرات

الهامة ، ولكنها كانت مشوبة بالهرطقة ، وكان لزامـــا أن تنتظر حتى ١٩٠١ لتطبع . وكتب الفوز للرموز التى وضعها لحســـاب التفاضــل والتكامل ، ولكن لمدة نصف قرن حمل منافساه نيــوتن ولوك كل شيء أمامهما ، واصبحا معبودى عصر الاستنارة فى فرنســا . ولكن حتى وسط نشوة العقل هذه ، قدر بوفون أن ليبنتز أعظـــم عبقـــرية فى عصره (٩٦) . أما المفكر الالمانى اللامع فى القـــرن العشرين أوزوالد شبنجلر فقد اعتبر ليبنتز « أعظم عقل فى الفلسفة الغربية بلا نزاع(٩٧) »

ولكى تنظم هذه الذرى جميعا فى عقد واحد ، يمكن القول فى جملة واحدة بان القرن السابع عشر كان أخصب حقبة فى تاريخ الفكر الحديث . فهنا فى بيكون وديكارت وهوبز وسبينوزا ولوك وبيل وليبنتز ، كانت سلسلة متعاقبة من رجال حميت صدورهم بخمرة العقل ، واثقين فى ابتهاج بأنهم (أو معظمهم) استطاعوا أن يفهموا الكون ، حتى الى حد تكوين فكرات « واضحة متميزة » عن الله ، والى حد انهم جميعا ـ فيما عدا الأخير ـ قادوا الى تلك الاستنارة الذكية العـارمة التى كان لزاما أن تهز الدين والحكومة كلتيهما معـــا هـــزا عنيفا فى الثـــورة الفرنسية . وتنبأ ليبنتز بهذه النهاية ، وعلى حين ظل لآخر لحظة يدافع عن حرية الكلام (٩٨) . فانه حث المفكرين الاحرار على التفكير فى أثر كلماتهم الملفوظة أو المكتوبة على أخلاق الناس وروحهم وفى « الابحاث الجديدة » حوالى سنة ١٧٠٠ كتب تحذيرا رائعا :

> اذا كان الانصاف يقتضي الابقاء على المفكرين الاحرار ، فان التقوى تقتضي ابراز الاثار السيئة لمبادئهم وتعاليمهم ، كلما أمكن ذلك ، اذا كانت تتعارض مع الايمان بتدبير اله بالغ الكمال فى الحكمة والخير والعدل ، وتتعارض مع خلود الأنفس ، ذلك الايمـــان الـذى يجعـــلهم مريعى التاثر والحساسية لآثار عدالته ، فلا يتحدثون عن آراء خطـــرة بالنسبة للاخلاق والشرطة . وانى لأعلم أن رجالا ممتازين يتسمون بحسن النية يرون أن لمثل هذه الآراء النظرية على السلوك والممارسة اثرا اقل مما يظن . كما أعلم أيضـــا ان هناك أشخاصا ذوى ميول طيبة فلا تحدوهم مثل هذه الآراء الى الاتيان باى شيء غير جدير بهم ... وقد يقال بان أبيقور

وسبينوزا عاشا حياة مثالية تماما ، ولكن هـــذه الدواعى
غالبا ما تنقطع فى تلاميذهم ومقلديهـــم الذين يطلقون ،
اعتقادا منهم بأنهم تخلصوا من الخوف المزعــج من عناية
الهية متربصة مراقبة ، ومن الخوف من مستقبل ينذر بالويل
والثبور - يطلقون العنان لشهواتهم البهيمية واهوائهـــم
الوحشية ، ويصرفون أذهانهم الى اغواء الآخرين وافسادهم.
واذا استبد بهم الطموح والطمع ، أو كانوا ذوى ميول جافية
نوعا ما ، فقد يسوغون لأنفسهم ، رغبة فى البهجة والسرور
أو التقدم والرقى ، أن يشعلوا النار فى أربعة أركان المعمورة.
لقد عرفت هذا من طبيعة وخلق بعض من طواهم الردى ،
وانى لأجد كذلك آراء شبيهة ، تندس ، شيئا فشيئا الى أذهان رجال
من ذوى المكانة الرفيعـــة المترفين الذين يحكمـــون الناس
ويتحكمون فى مصائر الأمور ، كما تندس فى الكتب العصرية،
وهى آراء تنزع بكل شيء الى الثورة العامة التى تهـــدد
أوربا (٩٩) .

وانا لنلمح فى ثنايا هذه السطور روح القلق الموسوم بالاخلاص ، وينبغى أن ننظر بالتقدير والاجلال الى نصيحة التحـــذير التى تعبر عنها . ومع ذلك فانه بعد أن محقت الاستنارة كل المذاهب الدينية ، واشعلت الثورة الفرنسية النار فى أربعة أركان المعمـــورة ، ونقعت مذابح سبتمبر غلة الآلهة بشكل عابر ، استطاع مؤرخ كبير أن ينظر الى الوراء ، الى هذا العصر الأول من عصور العلوم والفلسفة الحديثة ، ويرى فى المغامرين فيه ، لا مدمرين للحضارة ، بل محررين للجنس البشرى . قال لكى Leeky

هكذا درب معلمو القرن السابع عشر العظـــام ...
أذهان الناس ونظموها من أجل البحث والتحقيق المجردين
غير المتحيزين ، وفجروا ، بعد أن حطموا التعويذة التى
شلت حركتهـــم زمنا طويلا ، ينبوعا من الحب الخالص
للحقيقة التى أحدثت ثورة وتغييرا فى كل جوانب المعرفة .
والى هذا الدافع الذى انتقـــل آنذاك ، يمكننا أن نتعقب
حركة حاسمة كبيرة جددت كل التاريخ . وكل العـــلوم ،

وكل اللاهوت ـ وهى حركة نفذت الى أخفى الأعمـــاق ، مدمرة الحزازات القديمة ، مبددة الأوهام ، معيدة ترتيب .. .. معرفتنـــا ، مغيرة كل مدى وطبيعة تعاطفاتنـــا واهتماماتنا وربما كان ضربا من المحال أن يتم كل هـــذا لولا انتشار روح عقلانية (١٠٠) .

وهكذا من حسن الحظ أو لسوء الحظ ، وضع القرن السابع عشر أسس الفكر الحديث . لقد كانت النهضة مقيدة بالآراء القديمة التقليدية والطقوس الكاثوليكية والفن الكاثوليكى . وكان الاصلاح الدينى مرتبطا بالمسيحية البدائية وعقيدة العصور الوسطى . أما هذه الحقبة الغنيــة الحاسمة ، من جاليليو الى نيوتن ، ومن ديكارت الى بيل ، ومن بيكون الى لوك ، فقد ولت وجهها شطر مستقبل غير معلوم بشر بكل أخطار الحرية ، وهى حقبة استحقت ربما حتى أكثر من القرن الثامن عشر أن تسمى « عصر العقل ، لانها على الرغم من ان المفكرين فيها ظلوا أقلية ضئيلة ، فانهم اظهروا اعتدالا أحكم ، وسبروا أعمق لأغوار العقل والحرية ، وما يكتنفهما من مشاق ، من أبطال الاستنارة الفرنسية الذين فك وثاقهم . ومهما يكن من أمر فان المسرحية الكبرى فى التـــاريخ الحديث ، كانت قد مثلت فصلها الثانى ، وقاربت نهايتها .

الكتاب الخامس

فرنسا تواجه أوربا

١٦٨٣ ـ ١٧١٥

الفصل الرابع والعشرون

غـروب الشـمس

١ ـ مدام دى مينتنون

بعد وفاة « مارى تريز » (٣٠ يوليه ١٨٦٣) كانت الملكـة غير المتوجه لفرنسا « الأرملة سكارون » المركيزة دى مينتنون ، مربية بناء الملك غير الشرعيين ، وسرعان ما أصبحت (يناير ١٦٨٤ ؟) زوجته غير المتكافئة والتى لا ترث عرشه ، وكانت منذ ذلك التاريخ ذات أكبر نفوذ شخصي طيلة حكمه .

ومن العسير اليوم أن نعرف حقيقة خلقها ، ولا يزال المؤرخـون يختلفون عليه . وكان لها أعداء كثيرون كرهوا صعودها وقوتها . وكتب بعضهم التاريخ وأسلمها الينا وغدا أنانيا ماكرا مدبرا للمكائد . ومهما يكن من أمر ، فانها حين كان من الميسور لها أن تحل محل مدام مونتسبان « خليلة للملك » ـ بكل ما يأتى به هذا من نفوذ وسيطرة ـ أبت ، وبدلا من ذلك ، حرضت الملك على العـودة الى مخـــدع الملكة (أغسطس ١٦٨٠) . وكانت الملكة آنذاك فى الثانية والأربعين من العمر ، أصغر من دى منتينون بثلاثة أعوام ، ولم يكن ثمة ما يبرر توقع موتها المبكر . وظاهر أن المركيزة ، فى هذه الآونة ، آثرت الفضيلة على السـيطرة والنفوذ ، وعندما اخطتفت يد المنون الملكة ظلت المربية على رفضها أن تكون خليلة ، وسعت وراء أهداف عليا ، مغامرة بوظيفتها الحالية . واذا كانت فضيلتها طموحا فانها لم تتلطخ به أكثر ما تلطخ به تواضع عانس متعقلة ليس لها الا مفاتنها تساوم بها من أجل حياتها ، وتظن أن مضاجعة ليلة أقل أمنا من خاتم العرس . ولما تزوج لويس من مينتنون كان عمرها ثمانية وأربعين عاما . ورسمها مينارد عقيلة لطيفة جاوزت مرحلة الاغراء أو الفتنة الجسدية ، وكانت فى أحسن الأحوال تقيــة مخلصة فى تقواها ، وفى أسوأ الأحوال قامرت مقامرة جريئة وكتب لها الفـوز .

وخصص لها آنذاك مسكنا قريبا من مسكن الملك ، فعاشت في قصر فرساى فى بساطة برجوازية تقريبا . « كانت حياة البلاط تضايقها، ولم تجد لذة فى التباهى والتفاخر (١) » . ولم تجمع ثروة ، وحتى فى قمة سعود نجمها لم تكن تملك الا القليل الى جانب قصر مينتنون الذى تركته غير مؤثث ولم يستخدم . ويقال ان لويس ، فى أعوامها الأخيرة ، قال لها يوما « ولكنك يا سيدتى لا تملكين شيئا ، واذا ما مت فستكونين فقيرة خاوية الوفاض ، خبرينى ماذا يمكن أن أفعل من أجلك ؟ » . فطلبت بعض الامتيازات والرعاية المتواضعة لذوى قرباها ، ومبالغ كبيرة من المال لمشروعها الأثير لديها : الكلية التى أسست ١٦٨٦ فى سان سير لبنات الأسرات الكريمة اللاتى أخنى عليها الدهر . ولم يكن خيلاؤها بل خيلاء الملك هو الذى جند الرجال وخصص الأموال لقناة الماء التى لم يتم بناؤها ، والتى حملت اسمها .

وكانت دى مينتنون ، من نواح كثيرة ، زوجة صالحة . وكان شغلها الشاغل فى يوم حافل ان تقف حائلا بين الملك وبين العالم ، وأن تحافظ على السلام والهدوء ، وسط أطماع أفراد البلاط ودسائسهم ، وتلاطف سربا من الطامعين فى المناصب ، وتعمل خالة عطوفة لحفدة زوجها ، وتفى بمتطلباته بوصفه رجلا ، وتواسيه فى اخفاقه وهزائمه . وترفه « عن الرجل الذى من أصعب الصعب الترفيه عنه فى مملكة بأسرها (٣) » ، وتخلق جوا من الهدوء المنزلى ، فى حياة كان لزاما فى كل ساعة تقريبا أن تتخذ فيها قرارات يتأثر بها مليون حياة . وفى أوراقها الخاصة التى وجدت بعد وفاتها ، عثر على هذا الدعاء ، وظاهر أنه كتب فور زواجها :

> يا الهى ، لقد بوأتنى هذا المكان الذى انا فيه الآن ، وانى لأترك نفسي رهن تدبيرك وعنايتك دون قيد او شرط ، امنحنى النعمة الالهية ، حتى أستطيع ، كمسيحية ، أن احتمل الآلام ، واقدس المسرة ، والتمس فى كل شيء مجدك ، و .. .. اعاون على خلاص الملك ، وحل بينى وبين الاستسلام لتهيجات ذهن قلق . ولتكن مشيئتك يا الهى ، مشيئتى ، فان السعادة كل السعادة ، فى هذه الدنيا وفى الآخرة هى فى الخضوع لمشيئتك أنت دون تحفظ.

لغمر نفسي بهذه الحكمة ، وبسائر الهبات الروحيـــة اللازمة لتلك المنزلة العالية التى وضعتنى فيها . ولتجعلها مثمــــرة تلك القدرات التى طاب لك أن تمنحنى اياها . يا الهى ، أنت يا من تمسك بين يديك قلوب الملوك ، افتح قلب الملك حتى أصب فيه من الخير ما تشاء أنت سبحانك . أوزعنى أن أسعده وأسره وأواسيه وأشجعه ، بل حتى ان أزعجه واجلب عليه الحزن اذا اقتضي الأمر تمجيدا لك . هيىء لى الا أخفى عنه شيئا يجدر أن يعلمه منى ، مما لا يجد الآخــــرون فى أنفسهم الشجاعة ليبلغوه اياه . هيىء لى أن أنقـــذ نفسي وأنقذه معى ، وأن احبه فيك ومن أجلك يا الهى . وهيىء له أن يحبنى بنفس الطريقة . هب لنا أن نسير معا فى ملكوتك دون لوم أو خزى حتى يوم قدومك (٤) .

وهذا دعاء جميل قدر جمال أية رسالة من ألواز الى أبيـلارد ، ونأمل أن يكون أصح وأصدق . ومثل هذ الدعاء يمكن ان يمنح القوة ، بصرف النظر عن أية استجابة خارجية ، وربما كانت ثمة ارادة خفية للسيطرة والسلطة فى ثنايا الرغبة فى اصلاح الآخرين وهدايتهم ، ولكن السنوات الباقية من عمر مينتنون أثبتت أصدق تقواها وضيق أفق هذه التقوى معا . يقول سان سيمون « لقد وجدت ملكا يعتقد فى نفسه أنه رسول أو حوارى لأنه ظل طيلة حياته يضطهد الجانسينة .. .. وهـذا أوحى اليها بنوع الحب الذى تبذر به الحقل لتجنى أعظم حصاد (٥)». (عرفت من أين تؤكل الكتف) .

هو شجعت مينتنون على اضطهاد الهيجونوت ؟ هـــكذا يظن سان سيمون (٦) ، ولكن التحقيقات اللاحقة تميل الى تبرئتها من هذه الوحشية التى كان بطلها عدوها اللدود لوفوا . ورأى فيها لورد آكتون، وهو مؤرخ كاثوليكى ، نادرا ما كان مناصرا للكاثوليكية :

أعظـــم امرأة ثقـــافة وتفكـــيرا وادراكا . وكانت بروتستانتية من قبل . واحتفظت لأمد طويل بحماسة المرتدة وغيرتها . وكانت تعارض الجانسنية معارضة شديدة ، وكانت تحظى بثقة أفاضل رجال الدين الى حـد كبير ، وســاد

> الاعتقاد بانها شجعت الاضطهاد وحرضت الملك على الغاء مرسوم نانت . وأبرز ترسائلها شواهد على ذلك . ولكن رسائلها كانت قد حرفت بواسطة محرر كان مزيفا مشوها (٧) ●

ان مينتنون - مثل فنيلون ، ومدام دى سفينى ومعظم الكاثوليك فى ذاك العصر . اقرت الغاء مرسوم نانت ، ولكنها استخدمت نفوذها بنجاح غالبا ، كما يروى البروتستانتى ميشيليه - فى وقف قساوة الاضطهاد أو الحد منها (٨) .

وحتى لا تطغى النزعة الرومانتيكية على اضفاء المثالية على المرأة ، فتلون الصورة بالوان وردية زاهية ، فلننظر الى المركيزة من خلال اراء أخرى فيها تحامل عليها . ان كبرياء سان سيمون النابعة من لقب الدوق والدوقية ، لم تكن لتغفر صعود البورجوازية الوضيعة الى مرتبة سيدة فرنسا :

> ان العوز والفقر اللذين عاشت فى براثنهمب لفترة طويلة قد ضيقا من افق تفكيرها ، وهبطا الى الحضيض بقلبها وعوطفها . ان مشاعرها وافكارها كانت محدودة ، الى درجة أنها كانت دائما فى الحقيقة أقل حتى من مدام سكارون ... وليس ثمة شيء أشد اثارة للنفور والاشمئزاز من منبت وضيع يتبوأ مكانا متالقا الى هذا الحد (٩) .

ولكن الدوق نفسه وجد بعض المزايا والفضائل وسط أخطائها وعيوبها :

● انظر جاك بولنجيه « القرن السابع عشر » نيويورك ١٩١٠ - ص ٢٤٣ من الواضح يكن لها ية علاقة بالغاء مرسوم نانت » ، ودائرة المعارف البريطانية بالمجلد ١٤ - ٦٩٣ « لقد نسب اليها ظلما وعدوانا الغاء مرسوم نانت وحملات الاضطهاد والتعذيب الوحشية » وخلص فولتير منذ أمد بعيد الى مثل هذا الرأى . « أعمال فولتير » - نيويورك ١٩٢٧ - الفصل ٢ أ - ص ٢٦٠ .

كانت مدام دى مينتنون امرأة على جانب كبير من الذكاء الذى احتملته الرفقة الطيبة التى عاشت بين ظهرانيها أولا ، ولكن تالقت فيها سريعا ، وصقلتها كثيرا وزودتها بزينة المعرفة الدنيوية ، التى جعلتها الكياسة البالغة من اكثر الوان المعرفة استساغة وقبولا . وجعلتها المناصب المختلفة التى شغلتها مداهنة متملقة راضية تسعى دائما الى ارضاء الناس . ان حاجتها الى الدسائس ، وأولئك الذين التقت بهم من كل الأنماط ، واختلطت بهم من أجل شخصها ومن أجل الآخرين ، أضفوا عليها ذوقهم وعاداتهم . ان كياسة لا تضاهى وسلوكا هينا لينا رضيا ، ولكنه مدروس ، يدعو الى الاحترام ، وكانه نتيجة لطول خمول ذكرها قد أصبح أمرا طبيعيا بالنسبة لها ، كل أولئك ساعد على تنمية مواهبها بشكل عجيب ، الى جانب لغة مهذبة محكمة حسنة للتعبير ، فصيحة موجزة بشكل طبيعى . أما أسعد ايامها ، حيث كانت تكبر الملك بثلاث أو اربع سنوات ، فكانت فترة التودد ومطارحة الغرام والمغازلة الرقيقة .. .. وبعدها أحاطت نفسها بهالة من الاهمية وجلال الشأن . وتقلص ظل هذه تدريجيا لتحل محلها هالة من التقوى أحاطت بها نفسها بطريقة تدعو الى الاعجاب . ولم تكن نزاعة بطبيعتها الى الخداع والغدر ، ولكن الحاجة الجأتها الى أن تكون كذلك . وجعلها طيشها الطبيعى تبدو مخادعة ضعف ما هى عليه فى حقيقة الامر (١٠) .

وأثار بعد الشقة فى نفس ماكولى شيئا من الشفقة ، فنظر الى مدام دى مينتنون نظرة أكثر اتساما بالشهامة والاحترام ، وربما أحس بأنه يمكن أن يغتفر الكثير لسيدة كانت « تمتاز بالفصاحة والايجاز معا :

انها حين جذبت انتباه مليكها ، لم تكن فى وضع تستطيع معه أن تتيه عجبا بشبابها او بجمالها ، ولكنها ، وبدرجة غير عادية ، كانت تتمتع بتلك المفاتن الأبقى على الزمن ، والتى يقدرها أعظم التقدير الرجال الذين يتحلون بحسن

الادراك فى شريكة الحيـــاة ... كانت دى مينتنون تتميز بعقل منصف ، ومعين لا ينضب ، ولكنه غير ممل اطلاقا ، من حديث عقلاني رقيق مرح ، ومزاج لا يتكدر صفوه أبدا ، ولباقة فاقت لباقة بنات جنسها ، بقدر ما فاقت لباقة جنسها لباقة جنسنا نحن . تلك هى المناقب التى جعلت من أرملة المهرج فى اول الأمر صديقة جديرة بالثقة ، ثم زوجة لأقوى ملوك اوربا وأكثرهم عطرسة وغرورا (١١) .

وأخيرا نراها من خلال قلم هنرى مارتن ، وهو مورخ فرنسي غير مشهود له بالبراعة كثيرا :

كان ثمة توافق فى الذهن والطباع بين الاثنين (المركيزة والملك) ، وهو توافـــق قدر له أن يزداد على مر الأيام ، كما أن جمالها الناعم المتناسق الرزين الذى زاد منه وقار طبيعى نادر ، كان هو الجمال الذى يرضي لويس أساسا . وأحبت هى التأمل والبحث ، وأحب هو العظمة والمجد . وكانت مثله متحفظة حـــذرة ، ومع ذلك تفيض جاذبيـــة ورقة . ولحديثها نفس السحر والفتنة ، اللتين دعمتهمـــا طويلا بفضل خيال أخصب وتعليم ذى جوانب أكثر تعددا . وكانت ذات شخصية تتميز بالأنانية واتخاذ التدابير القوية ، ومع ذلك كانت أهلا لعواطف متينة ثابتة وان لم تكن حارة ، وكانت فى نفس الوقت أقل انفعالا وأشد ثباتا من الملك الذى لم يكن مخلصا حقا فى الصداقة وفى الحب ، الا لهـــا وحدها . ولكنها لم تعرف قط بم تضحى من أجل عواطفها ، بمصالحها أو بهدوئهـــا . وعلى النقيض من لويس الرابع عشر ، كانت تهتم بالبسيط من الأمور ، ولا تتســـامح فى عظائمها . ان طبيعتها الهادئة المفطـــورة على التـــأمل والتفكير ، البعيدة عن الانفعالات والأوهام ، ساعدتها على الدفاع عن فضيلة غالبا كانت محصورة (١٢) .

ومهما يكن من أمر ، فلا بد أن هذه السيدة تحلت بمناقب جديرة بالاعجاب ، حدت بملك مستبد الى أن يختارها زوجة له ، ويعهد اليها بالنظر فى ادق شئون الدولة . وكان عادة يلتقى بوزرائه فى حجرتها الخاصة ، تحت سمعها وبصرها ، وعلى الرغم من انها كانت تجلس

على مسافة معقولة منهم ، وتلتزم الصمت ، حكمة وحزما منها ، منهمكة فى أشغال الابرة ، كان لويس « أحيانا يتجه اليها ويسالها رايها (١٣)» وأطلق عليها المتشككون « سيدة اللحظة الراهنة » مقدرين انها لن تلبث حتى ينضم اليها المنافسات أو يجلينها عن مكانتها ليحللن محلها ، ولكن على النقيض من ذلك ، ظل الملك الزوج المحب الوفى لها حتى وفاته .

وعظم نفوذها عاما بعد عام . وكان مقرونا بالخير والاحسان قدر ما سمحت به تقواها . وحاولت ان تحد من اسراف الملك وتبذيره ، وأن تصرفه عن الحرب . ومن هنا كان عداء لوفوا لها . ووفرت دى مينتنون اعانات ملكية للصدقات والمستشفيات والأديار ، ومساعدة النبلاء المفلسين ، ومهور البنات (١٤) ولم يحظ بالترشيح للوظائف من جانبها الا الكاثوليك الأخيار ، وكست التماثيل العارية والصور الزيتية العادية التى ازدان بها قصر فرساى بالاستار او النباتات المعترشة(١٥). وحولت كلية سان سير الى دير (١٦٩٣) اغلقت أبوابه بعد ذلك أمام العالم . وأصبحت هى نفسها راهبة فى قصر ، « كانت قعيدة القصر تقضي الساعات وحيدة ، ومن ثم بدت وكان لها قدما فى الدير (١٦) ».

وبدأ الملك بالسخرية من تقواها ، وانتهى بتقليدها فى هذا التواضع . وابتهج القساوسة المحيطون به ليروا مداومته على تأدية طقوس العبادة ، ولكن زوجته كانت تفهمه فهما جيدا ، فقالت « ان الملك لا يخطىء موضعا فى الصليب ، أو موقفا للكفارة أبدا ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك الحاجة الى الخشوع أو الى اذلال نفسه حتى تتجلى فيه الروح الحقيقية للتوبة والندم (١٧) » . وكان البابا اسكندر الثامن راضيا على أية حال ، وهنا مدام دى مينتنون على هداية الرجل الفرنسي الذى كان يوما معاديا للبابوية ، وربما زاد من تقوى الملك اعتلال صحته وضعف جسمه بعد ١٦٨ ، ومعاناته من ناسور فى الشرج ، حيث ذكره هذا كله بأنه فان . وفى ١٨ نوفمبر ١٦٨٦ استسلم لعملية اليمة ، احتملها فى شجاعة أملاها عليه وعيه الطبقى أو ادراكه أنه ملك لا ينبغي له أن يحور و يضعف . ولفترة من الوقت ابتهج الائتلاف المعادى لفرنسا للشائعات التى راجت بأنه على وشك ن يقضي نحبه (١٨) . ولكنه بقى على قيد الحياة . وعندما قصد الى كنيسة نوتردام (٣٠ يناير

١٦٨٧) ليقدم الشكر لله على شفائه ، حيته كل فرنسا الكاثوليكيــة وابتهجت لابلاله من مرضه وكأنه يوم عيد ٠

قـــال فولتير « ومنـــذ ذلك الوقت لم يذهب الملك الى المسرح قط (١٩) ، ان المرح المقرون بالوقار والعظمة ، والذى كان يميز النصف الأول من حكمه ، قد ولى ليحل محله وقار ورزانة قاربتا احيانا الصرامة القاتمة والتزمت ، ولكنه سمح بين الحين والحين بشيء من الافــراط فى النوم والطعام (٢٠) ٠ وقد أضناه الارهاق والتعب ، وحيث شجعته مينتنون ، فانه انقص من حفلات البلاط وعروضه ، وأوى الى حيــاة اكثر انعزالا ، قانعا بالفة الحياة الأسرية التى عودته ياها زوجتــه ٠ وظل مسرفا فى الانفاق على القصور والحدائق ، وظل مزهوا أبيا مثل صولجانه ، حساسا مثل فكيه ٠ وفى مارس ١٦٨٦ أجاز لرجل متذلل خنوع من رجال الحاشية ، فرنسوادى أوبيسون دوق دى لافياد فيمـــا بعد ، أن يقيم له فى « ميدان الانتصارات » تمثالا يرمز الى انه « الرجل الخالد » ٠ على أننا يجب أن نضيف أنه عندما اراد أوبيسون ان يضع ، وفاء بنذر ، امام التمثال مصباحا يضاء ليل نهار ، حظر عليـــه الملك فتراض الالوهية والقداسة بهذا الشكل المبتسر غير الجائز ٠

وضربت جماعة محدودة من الارستقراطيين المخلصـــين ، على رأسهم دوق ودقة شفريز ، ودوقتى بوفليير وموريتمار ، وبنات كولبير الثلاث ، ضربت حول الملك وزوجه « نطاقا كريما من الأتقياء » وكان كثير منهم متمسكين بأهداب الدين حقا ، كما نقل بعضهم عن مدام جويون طمأنينتها المتصوفة ٠ وحوالى هذا الوقت الف شاعر فرنسي غير معروف الترنيمة الذائعة الصيت والمعروفة باسم « المؤمنون الاخيار » وشارك بقية أفراد البلاط ، الملك مزاجه الجديد ، ظاهريا فقط ٠ وتخلوا عن اللهو والعبث ، وكثيرا ما حضروا القداس وتناولوا القربان المقدس ، وقل شيئا فشيئا ذهابهم الى الأوبرا والمسرح اللذين هبطا آنذاك بسرعة من عليائهما على عهد للى وموليير ، واستمر الصيد والقنص والمآدب الباذخة وحفلات الرقص ، ولعب الورق بمبالغ ضخمة ، ولكن فى جو من الاعتدال تشوبه مسحة من الكآبة ٠ واختفى المعربدون الصاخبـــون والمفكرون الاحرار فى باريس رؤوسهم ، انتظار للثـــار فى ظل وصي

يرقبون مجيئه بفارغ الصبر . ولكن شعب فرنسا ابتهج لقداسة مليكه ، واحتمل فى صمت ، فى الموت وفى الضرائب ، أعباء الحرب المتزايدة .

٢ ـ الحلف الأعظم ١٦٨٩ ـ ١٦٩٧

زادت الضرائب حتى مع هبوط مستوى الرخاء والازدهار . وكان مشروع كولبير لتنظيم التجارة والصناعة بواسطة الحكومة ، قد بدأ ينهار قبل موته (١٦٨٣) . لقد مات المشروع ، من ناحية نتيجة لسوق الرجال من المزارع والمصانع الى المعسكرات وميادين القتال ، ولكنه انهار أساسا نتيجة الاختناق الذاتى : ذلك أن التنظيمات الحكومية عوقت النمو الذى كان يمكن أن يؤتى ثماره فى ظل رقابة وقيود أخف ، وفى ظل مزيد من الحرية للتنفس والتجريب والخطأ . ووجد حب العمل والمغامرة أنه مقيد بمتاهة من الاوامر والعقوبات . وضجت وتعثرت الآلة المعقدة للنشاط الاقتصادى ، التى يحركها الجوع الكادح فى الكثرة الكاثرة من الناس والجشع المبدع الخلاق عند فئة قليلة منهم، تحت ضغط عبء ثقيل من القواعد ، حتى هددت هذه الآلة بالتوقف . وما وافى عام ١٦٨٥ حتى ترددت صيحة « اتركه يعمل » ، قبل ظهور فرنسواكسناى وترجو بخمسة وستين عاما ، وقبل ظهور آدم سميث بواحد وتسعين عاما . وقال احد أتباع لويس الرابع عشر « ان السر الأعظم يكمن فى اطلاق الحرية الكاملة للتجارة . ان أصحاب المصانع لم يصابوا قط بمثل هذا الخراب والدمار فى هذه المملكة الا منذ فكرنا أن ندعمهم بقوانين من الدولة (٢١) » . وثمة عوامل أخرى أسهمت فى هذا الانهيار . وذلك أن الهيجونوت الذين فروا من الاضطهاد ، حملوا معهم مهاراتهم الاقتصادية ، وفى بعض الاحيان مدخراتهم ايضا. وعانت التجارة من رغبة الملك فى الغزو والفتح ، لا الاتجار . وعوقت الرسوم الأجنبية صادرات فرنسا انتقاما من رسوم الواردات الفرنسية . واثبت الانجليز والهولنديون أنهم رجال بحر واستعمار من الغاليين (الفرنسيين) المتغطرسين النافدى الصبر . وأخفقت شركة الهند ، وعوقت الضرائب الزراعة . وأفسدت العملة المزيفة مرفق المال ، وشلت حركته واحدثت فيه الاضطراب .

ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين الوزراء الذين خدموا لويس الرابع عشر بعد وفاة كولبير · وبين أولئك الذين ورثهم عن ريشليو ومازاران · وتولى ابن كولبير ، جان بابتست ، مركيز سينلى وزارتى التجارة والبحرية ، وتولى كلود بلتييه الشئون المالية ، ولكن سرعان ما خلفه فيها لويس فيليبو سنيور دى بونتشارتران ·· أما لوفوا فقد بقى وزيرا للحربية · ولكن ارهب الوزراء الجدد ما جمع لويس الرابع عشر من مجد وسلطان ، فقعد بهم الخوف عن اتخاذ اى قرار ، واعتمد دولاب الحكومة على ذهن الملك المكدود المرهق · ولم يكن يتصرف بمحض ارادته الا لوفوا ، من أجل الحرب ـ ضد الهيجونوت ، وضد الأراضي الوطيئة ، وضد أى أمير أو شعب اعترض طريق فرنسا المتوسعة · وكان لوفوا قد انشأ أحسن جيش فى أوربا ، ودربه على النظام والانضباط والبسالة ، وزوده بأحدث الأسلحة ، وعلمه الفن الرشيق فى استخدام الحراب● · فكيف يتيسر اطعام مثل هذه القوات والمحافظة على روحها المعنوية الا اذا حاربت وانتصرت ؟

ونظرت فرنسا الى الجيش بعين الاعجاب والفخر ، على حين ستشاطت أوربا غضبا وارتعدت فزعا لدى سماعها به · وفى مايو ١٦٨٥ ، عندما طالب لويس الرابع عشر بجزء من املاك ناخب البالاتين ، ميراثا يستحقه عن أخت الناخب المتوفاة شارلوت اليزابث ، دوقة أورليان آنذاك ، تساءل أمراء الامبراطور عجبا : ماذا عسي أن تكون مطالب الملك المغامر المعتدى بعد ذلك · وزادت حدة التوتر عندما ربط لويس بالفعل ، كولون وهلدشيم ومونستر بفرنسا ، بضمان انتخاب مرشحيه حكاما أسقفيين لهذه البلاد (١٦٨٦) · وفى ٦ يوليه انضم الامبراطور الكاثوليكى ليوبولد الاول ، والناخب الكاثوليكى مكسيمليان الثانى وامانويل أمير بافاريا ، الى ناخب براندنبرج الأعظم البروتستانتى ، وفى تكوين عصبة أوجزبرج للدفاع ضد أى هجوم على أراضيهم أو عدوان على دولهم · وكان الامبراطور مشغولا مع الاتراك

● صنعت الحربة فى مدينة بايون (جنوب فرنسا) فى عام ١٥٠٠ · ولكن يبدو نها استخدمت على نطاق واسع لاول مرة فى ايبر (شمال غرب بلجيكا) ١٦٤٧ (٢٢) ·

المتقهقرين ، ولكن هزيمتهم فى « موهاكز » الثانية (١٦٨٧) وفى بلغراد (١٦٨٨) أطلقت يد القوات الامبراطورية للعمل على الجبهة الغربية للامبراطورية ·

وارتكب ملك فرنسا آنذاك اكبر خطأ فى سجل حياته العسكرية · وكان حاكم هولنده يتوقع منه أن يجدد هجومه على هولنده ، ولكن لويس ، بدلا من ذلك ، قرر غزو ألمانيا قبل أن تتمكن القوات الامبراطورية من الاحتشاد على جبهته · وفى ٢٢ سبتمبر ١٦٨٨ تقدمت قواته الرئيسية نحو الراين · مع توجيه خاص متميز الى الدوفين ذى السبعة والعشرين ربيعا : « أى بنى ، انى اذ أبعث بك لتتولى أمرة جيوشي ، انما أهيىء لك كل الفرص لتثبت جدارتك ، فاكشف عنها لكل أوربا ، حتى اذا حان أجلى ، لا يشعر احد بان الملك قد قضي نحبه (٢٣) » · وفى ٢٥ سبتمبر اجتاح الجيش الفرنسي ألمانيا · وفى غضون شهر واحد استولى على كايزرسلوترن ، ونيوستاد ، وورمز وبنجن وميتز وهيدلبرج · وفى ٢٩ اكتوبر سقطت قلعة فيليبسبرج المنيعة ، وفى ٤ نوفمبر تقدم الدوفين المنتصر لمهاجمة مانهيم ·

وربما كان فى هذه الانتصارات بداية سقوط الملك ، لانها ورطت الملك فى حرب طويلة الأجل ضد عدد متزايد من الاعداء ، لقد حرروا هولنده من الخوف من غزو مبكر ، واقنعوا برلمان المقاطعات المتحدة بالموافقة على أن يغزو وليم الثالث انجلترا ويعاونه على أعمال الغزو · وما أن وثق وليم من قوته حتى حول انجلترا من بلد تابع لفرنسا الى عدو لها · وعاهد رعاياه الجدد على الوقوف الى جانبهم فى الدفاع عن اوربا السياسية والدينية · وتردد برلمان انجلترا ، مرتابا فى أن وليم معنى فى الدرجة الأولى بانقاذ هولنده ، وهى اكبر منافس تجارى لانجلترا ، ولكن انصارات فرنسا قوت من جديد حجة وليم ·

وكان لوفوا قد استحث لويس على السماح له باكتساح البالاتينات وتخريبها حتى يحرم العدو المقترب من اية معونة محلية ، ووافق لويس على كره منه · وفى مارس ١٦٨٩ أعمل الجيش الفرنسي السلب والنهب واحرق هيدلبرج ومانهيم ثم سبير ، وورمز واوبنهايم وأجزاء من اسقفية ترييه ومنطقة بادن ، حتى دمرت كل أراضي الراين الالمانية

تقريبا . ووصف فولتير هذه الفظائع حيث استيقظ فيه ضمير « الرجل الاوربى الطيب » :

> كنا فى قلب الشتاء . وما كان ينبغى للقواد الفرنسيين الا أن يمتثلوا وبناء على ذلك أعلنوا لمواطنى هذه المدن المزدهرة المنظمة أحسن نظام ، ولسكان القرى ، ولأصحاب أكثر من خمسين قصرا ، أن عليهم أن يغادروا مساكنهم التى سيعملون فيها النار والسيف . فاسرع الرجال والنساء والشيوخ والاطفال الى الرحيل . وهام بعضهم على وجوههم فى الريف ، والتمس بعضهم ماوى فى الأراضي المجاورة ، على حين نهب الجنود المنطقة وأحرقوها ، وبدأوا بمدينتى هيدلبرج ومانهيم ، ومقار الناخبين ، ودمرت قصورهم وبيوت المواطنين العاديين على السواء . وللمرة الثانية اجتاحت جيوش لويس الرابع عشر هذه البلاد الجميلة وخربتها . ولكن السنة النيران فى المدينتين والعشرين قرية التى أحرقها تورين عندما اجتاح البالاتينات ١٦٧٤ ، كانت شيئا لا يذكر أو شررا بسيطا الى جانب الحرائق فى هذه المرة (٢٤) .

وتعالت الصيحات تطالب بالانتقام من ملك فرنسا فى كل أنحاء المانيا والاراضي الوطيئة وانجلترا ووصم الكتاب الألمان الجنود الفرنسيين بأنهم متوحشون (هون) مجردون من أية مشاعر انسانية . ونعتوا لويس بأنه مسخ كافر مجدف همجى بالغ الهمجية . وعير المؤرخون الألمان الشعب الفرنسي بأنه تلقى حضارته من الفرنجة (أى الألمان) وأنه نقل جامعاته عن الامبراطورية الرومانية المقدسة (أى الألمان كذلك) (٢٥) . وكان بييرجوريو ، أحد المنفيين فى هولنده قد نشر هناك لفوره نقدا ساخرا عنيفا تحت عنوان « منظر فرنسا المستعبدة » ، ودمغ فيه لويس بأنه طاغية شديد التعصب ، وأهاب بالشعب الفرنسي أن يطيح به ، ويشكل ملكية دستورية . وردت الصحافة الفرنسية بتوجيه النداء الى المواطنين ليقذفوا بهذه الشتائم فى وجه العدو ، ويهبوا الى انقاذ مليكهم الشجاع المحبوب المحاصر . وفى ١٢ مايو ١٦٨٩ انضمت انجلترا الى الامبراطورية وأسبانيا والمقاطعات

المتحدة والدنمرك وسافوى ، فى الحلف الاعظم الاول ، الذى تعهد بالدفاع عن أى من اعضائه ضد أى عدوان خارجى . وكانت الحرب آنذاك حرب اوربا ضد فرنسا .

فكان جواب لويس على ذلك أنه زاد عدد جنوده الى اربعمائة وخمسين ألفا ، وبحريته الى مائة الف ، ولم تشهد أوربا قط من قبل مثل هذه القوات المسلحة . وصهر الملك كل ما لديه من أدوات فضية ليعاون الضرائب على دفع نفقات هذه الحشود الضخمة ، واصدر أوامره الى كل الافراد المرموقين والى كثير من الكنائس ليفعلوا مثل ما فعل ، وأجاز لبونتشارتران أن يعيد سك الفضة وينقص قيمة العملة بمقدار ١٠ ٪ . وخلق الوزير مناصب جديدة ، وأعاد وظائف قديمة كانت قد الغيت ، وباعها لطلاب الوظائف المفتونين بالالقاب ، وقال للملك : « كلما خلقتم جلالتكم وظيفة خلق الله مغفلا يشتريها (٢٦) » .

واشار سينلى على الملك بان يامر أسطوله بسلخ ايرلنده عن انجلترا . وكان من الجائز أن يتم ذلك ، ففى ٣٠ يونية ١٦٩٠ هزم أمير البحر تورفيل بخمس وسبعين سفينة ، اسطولا انجليزيا هولنديا فى بيتشي هيد بالقرب من شاطىء سسكس الغربى . ولكن لويس لم يرسل سوى الفى جندى لمساندة جيمس الثانى فى أيرلندة . وكان من المحتمل أن تكسب قوة أكبر معركة بوين (أول يولية ١٦٩٠) ، وأن تشغل انجلترا ومليكها الهولندى فى ايرلنده ، الى حد يصعب معه الاشتراك فى القتال فى القارة . ولكن انتصار وليم الثالث مكنه من الذهاب الى هولنده ليقود قوات انجليزية وهولندية ضد الفرنسيين (١٦٩١) ، وحاول لويس فى ١٦٩٢ غزو انجلترا ، وصدرت الاوامر الى اسطول فى تولون بالابحار شمالا لينضم الى أسطول تحت أمرة تورفيل فى برست وكان عليهما أن يقضيا على كل مقاومة من جانب الانجليز ، ويحملا ثلاثين الف جندى عبر القنال الانجليزى . ولكن عاصفة فى جبل طارق عطلت مسيرة أسطول طولون ، فاخفق فى اللحاق بتورفيل الذى كان عليه أن يواجه وحده الأسطولين الانجليزى والهولندى مجتمعين ، وهزم فى التحام حاسم عند لاهوج بالقرب من شربورج (١٩ مايو ١٦٩٢) . وتوقف غزو انجلترا . وظلت انجلترا سيدة البحار بعد هذه المعركة ، ومطلقة اليد فى الاستيلاء على مستعمرات

فرنسا الواحدة تلو الأخرى . وحمى القتال انجلترا حتى يومنا هذا .

وتابع الفرنسيون انتصارهم فى البر ، ولكن بابهظ التكاليف فى العتاد والرجال . وفى أبريل ١٦٩١ استبد بهم الزهو والغرور الى حد الجنون أمام مليكهم حين حاصروا واستولوا على هونز الحصينة . وقضي لوفوا نحبه فى ٧ يوليه ، ولكن الملك لم يأسف كثيرا على تخليصه من وزير حربيته الذى كان ينتهج سياسة العدوان . ورأى منذ ذلك الوقت أن يتولى توجيه السياسة العسكرية بنفسه . واتبع تقليدا فرنسيا قديما حين عهد بمنصب لوفوا الى ابنه ، وكان شابا لطيفا سهل الانقياد فى الرابعة والعشرين من العمر - مركيز باربيزييه . وفى يونيه ١٦٩٢ قاد لويس قواته بنفسه للاستيلاء على نامور . ثم ترك القيادة لدوق دى لكسمبرج وعاد ليرتشف خمرة المجد والنصر فى فرساى . وفاجأ وليم الثالث الدوق فى ستينكرك فى يوليه ، ودارت الدائرة على الفرنسيين فى أول الامر ، ولكنهم اعادوا تنظيم صفوفهم واستعادوا شجاعتهم بفضل توجيه قائدهم الذى كان قدوة حسنة لهم ، وكان مريضا ولكنه كان لا يقهر ، فكانت الغلبة للفرنسيين مرة أخرى ، ولو أنهم حققوها بثمن غال ، وهناك قاتل فى طليعة الجيش فيليب الثانى دى أورليان الوصي على عرش فرنسا فى المستقبل ، والذى لم يبلغ آنذاك الخامسة عشرة من العمر ، فأصيب بجرح ثم عاد فاستأنف القتال . وهناك أظهر لويس الشاب ، ودوق دى بوربون كونديه (حفيد كونديه الأكبر) الذى عرك الحرب فى ثلاثة حصارات ، وفرنسوا لويس دى بوربون وأمير كونتى ، ولويس جوزيف دوق فندوم (ابن حفيد هنرى الرابع) وكثير غيرهممن النبلاء الفرنسيين - أظهر هؤلاء جميعا من ضروب البسالة والشجاعة والشهامة ما جعلهم ، على الرغم من حياتهم المترفة الخاملة زمن السلم ، معبودات فى نظر شعبهم زمن الحرب ، ونماذج حتى لأعدائهم ، حتى لقد تساءل متعجبا أحد أمراهم وهو الكونت سالم : « أية أمة أنتم : أشد الاعداء بأسا ورهبة فى الحرب ، وأكرم الأصدقاء عند النصر (٢٧) » .

وبعد ذلك بعام واحد هزم نفس الجيش تحت أمرة نفس القائد ، وليم فى نيروندن بالقرب من بروكسل ، وهنا أيضا كان عدد القتلى ضخما - عشرون ألفا من الحلفاء وثمانية آلاف من الفرنسيين . ومهما

يكن من أمر الهزائم التى منى بها وليم ، فانه ظهـر على راس جيش جديد وتوافرت لديه أموال جديدة . فاسترد نامور فى أغسطس ١٦٩٤ ، واكتشفت فرنسا أنها بعد خمس سنوات أريقت فيها الدماء ، عجزت عن غزو حتى الأراضي الوطيئة الاسبانية . وانتصرت جيوش فرنسية أخرى فى أسبانيا ، ولكنها وجدت من العسـير عليهـا الاحتفاظ بثمـرات انتصاراتها أمام أعداء خرجوا عليها من كل جانب ، وقد اسـتكملوا ما ظهر لديهم من نقص فى العتاد والرجال ، وفى يوليه ١٦٩٤ أبحـر أسطول انجليزى لمهاجمة برست . وكان بعض الأصدقاء فى انجلترا (من بينهم كما يقال مالبرو نفسه (٢٨)) قد أبلغوا جيمس الثانى عن هذه الخطة سرا ، ومن ثم فان الفرنسيين الذين أنذروا بها من قبل ، نصبوا المدافع على الشاطىء عند برست ، وصدوا الانجليز عنها بعد أن تكبدوا خسائر فادحة .

وفى يناير ١٦٩٥ قضي مارشال دى لوكسمبرج نحبه ، فلم يعد مع لويس الرابع عشر الا قواد من الدرجة الثانية ، ان الحلفاء نادرا ما وطئت اقدامهم أرض فرنسا ، ، ولكن فرنسا نفسها كانت تحس بوطأة حرب من نوع جديد ، لم يكن يحارب فيها مرتزقة ماجوروز ، بل أمم بأسرها جندت ليناقس بعضها بعضا فى القتـــل والتنكيل . وحتى فى الوقت الذى كان الشعب الفرنسي يهتف لقواده وأبطاله ويهلل لهم ويحيى انتصاراتهم ، فانه ، وقد اثقلت الضرائب كاهله بشكل لم يسبق له مثيل ، قارب حد الاستنزاف جسدا وروحا . وانضم القحط الى الفقر والعوز فى ١٦٩٤ فكان ضغثا على ابالة . وفى أبرشية واحدة مات ٤٥٠ شخصا جوعا (٢٩) وكان الاقتصاد القومى على شفا الانهيار . وعمت الفوضي وسائل النقل ، حيث توقف تقريبا اصلاح الجسور والطرق أثناء الحرب . واختنقت التجارة الداخلية نتيجة المكوس التى كانت تجبى فى مائة موقـــع عبر الأنهار أو فى البر . وكانت التجارة الخارجية قد شلت حركتها نتيجة لرسوم الصادرات والواردات . وكادت الآن تكون متعذرة تماما لوجود أساطيل الأعداء والقرصان . وساءت أحوال أولئك الذين كانوا يعتمدون على صيد الاسماك والتجارة على الشواطىء . ونضبت موارد مئات من المدن بما كانت تقدم من معونة ومؤونة للفرق العسكرية التى تنزل بها ، وهبط الفقر والقحط والمرض والحرب بعدد سكان فرنسا من نحو ٢٣

مليونا فى ١٦٧٠ الى نحو ١٩ مليونا فى ١٧٠٠ (٣٠) . وفقدت محافظة تورين ربع سكانها . ولم يبق من سكان عاصمتها تور الا ٣٣ الفـــا من ٨٠ الفا كانوا يقطنونها فى عهد كولبير . وهاك نموذجا من تقـــارير المحافظين والحكام من مختلف اقاليم فرنسا فى أخريات القرن السابع عشر :

ان هذه المدينة التى كانت فى سابق أيامهـا غنيـــة مزدهرة ، باتت الآن بلا صناعة ... وكان فى هذا الاقليم مصانع كثيرة ، ولكنها اليوم هجرت .. .. وكانت الأرض تدر فى سابق الأيام خيرا أكثر مما تفعل الآن ، ومنذ عشرين عاما كانت الزراعة أكثر ازدهارا بشـكل غير محـــدود . وتناقص السكان والانتاج بمقـــدار الخمس فى الســـنين الثلاثين الاخيرة (٣١) ...

وفى ١٦٩٤ وجه فنيلون ، الذى سيصبح عما قريب رئيس أساقفة كمبراى ، الى لويس الرابع عشر خطابا غفلا من التوقيع ، يعد أبلغ تعبير عن الروح الفرنسية :

مولاى ، ان هذا الذى يسمح لنفسه أن يكتب اليك هذه الرسالة ، ليس له مصلحة دنيوية ، ولا يكتب بدافع اليأس ولا الطمع ، ولا بدافع الرغبة فى التدخل فى أمهات المسائل. انه يحبك دون أن يكون معروفا لديك ، ويرى الله فى شخصك .. .. انه لا يبالى بأى أذى يحتمله عن طيب خاطر ، فى سبيل ادراكك للحقائق الضرورية لخلاصك . ولا تدهش اذا وجه اليك حديثا شديد اللهجة ، فماذاك الا لأن الحـق حر وقوى ، ولو أنك لم تالف سماعه . ويخطىء الذين تعودوا الملق والنفاق ، فيظنون الحق الصراح الخالص استياءا أو مرارة أو افراطا ومبالغا . وقد يكون خيانة للحق أن نحجبه عنك . والله خير شاهد على أن الذى يحدثك الآن ، انمـــا يفعل ذلك بقلب عامر بالغيرة والحماسة وبالاجلال والثقة والاخلاص ، لكل ما فيه مصلحتك الحقيقية ...

ان كبار وزرائك ، طيلة الثلاثين عاما الماضية ، قلبوا المبادىء الأساسية والقواعد العامة فى الدولة ، حتى يرفعوا

من شأنك ويزيدوا من سلطتك الى أقصى حد ، لأن هذه السلطة كانت فى أيديهم . ولم يرتفع صوت بالكلام عن الدولة وقوانينها ، بل تحدث الجميع عن الملك ووسائل ارضائه . وزادوا فى مواردك وفى نفقاتك بغير حدود ، انهم رفعوك الى السماكين حتى تمحو ، كما يقولو ، آثار عظمة أسلافك مجتمعين . ولكنهم فى الواقع أفقروا فرنسا بأسرها ، ليمتعوا البلاط بترف رهيب لاشفاء منه . ان هؤلاء الوزراء أرادوا أن يرفعوك على أنقاض كل طبقة فى الدولة، وكأنما يمكن أن تكون عظيما حين تدمر كل رعاياك الذين يعتمد عليهم مجدك وعظمتك . انك حقا حريص على الاحتفاظ بسلطانك .. ولكن الواقع أن كل وزير سيد متصرف فى نطاق اختصاصه . وكانوا قساة متغطرسين ظالمين غلاظا ضعيفى الايمان . ولم يعرفوا فى الشئون الداخلية والخارجية الا مبدأ واحدا ، هو التهديد والوعيد ، أو القضاء على كل ما يقف فى طريقهم وتدميره . لقد عودوك على أن تتلقى دوما أعظم المدح والثناء ، مما يقارب عبادة للأوثان تأليها لك ، مما كان يجدر بك أن تأباه سخطا وازدراء ، من أجل شرفك وكرامتك أنت . لقد جعلوا اسمك كريها بغيضا . والامة الفرنسية بأسرها غير محتملة لدى الشعوب المجاورة. ولم يحتفظوا بأى من حلفائك القدامى ، لأنهم لم يريدوا الا عبيدا أرقاء . وكانوا طيلة عشرين عاما ، سببا للحروب الدامية - التى لم يكن من دافع لها الا المجد والانتقام .. .. ان كل التوسع الذى أتت به الحروب كان غصبا وظلما . انك أردت دوما أن تملى الصلح وتفرض الشروط ، بدلا من تسوية الأمور فى شيء من الاعتدال . وهذا هو السبب الذى من أجله لم يدم أى صلح طويلا . ولم يكن أعداؤك الذين هزمتهم ولطختهم بالعار والخزى ، يفكرون الا فى شيء واحد ، هو أن ينهضوا من جديد ، ويوحدوا أنفسهم ضدك . هل فى هذا ما يدهش ؟ انك لم تتمهل قط فى نطاق شروط الصلح التى امليتها فى زهو وخيلاء ، وفى زمن السلم قمت بحروب وفتوحات هائلة .. ومثل هذا التصرف

أثار كل أوربا ووحدها ضدك ٠

وفى نفس الوقت ، فان شعبك الذى كان يجدر بك أن تحبه حبك لأبنائك ، والذى ظل حتى هذه اللحظـــة مخلصا لك ، يموت جوعا ٠ لقد تخـلوا تقريبا عن زراعة الأرض ٠ وهبط عدد السكان فى المدن والريف ، وانحطت الصناعة فلم تعد تفى بحاجيات العمال ٠ وانهارت التجـارة بأسرها ٠ انك استنزفت نصف ثروة الأمة وحيويتها للقيام بفتوحات عقيمة فى الخارج والدفاع عنها ٠ ان كل فرنســا عبارة عن مستشفى ضخم مقفر بائس تنقصه المؤن ٠ والحكام مرهقون محتقرون ، وتتزايد الثورات الشــعبية التى لم نعهدها منذ زمن طويل ، ولا يستثنى من ذلك باريس القريبة منك جدا ٠ ولزام على موظفيها ان يحتملوا وقاحة العصـاة والثائرين ٠ وينثروا عليهم الاموال ليهدئوا من روعهم ٠ لقد انحط بك الحال الى النتيجة المؤسفة المخزية ، وهى التراخى فى عقاب الفتن ، وبذلك تتفاقم ، أو قتل اناسي بلا شفقة ولا رحمة ، زرعت أنت فى قلوبهم اليـأس ، حين اختطفت من أفواههم ، بفعل ضريبة الحرب ، الخبز الذى كدحوا للحصول عليه بعرق الجبين ٠٠ ٠٠

لقد كان سيف الله مصلتا فوق رأسك منذ أمد طويل ، ولكنه سبحانه تمهل فى أن يهوى به عليك ، لأنه يرثى لأمير أحيط طيلة حياته بمتملقين أذلاء ، وكذلك لأن اعداءك هم أعـداؤه ٠٠ ٠٠ انك لا تحب الله ، ولكنـــك تخافه فقط ، خوفا حقيرا من قبيل التقليد والمحاكاة ٠ ولا تقوم ديانتك الا على الخرافات ، وعلى بعض طقوس تافهة سطحية ٠٠٠ انك لا تحب الا عظمتك ومكاســبك ، وترد كل شيء الى ذاتك ، وكأنما أنت اله هذه الأرض ، وكأنمـــا خلقت كل الأشياء للتضحية بها من أجلك ٠ ولكن الامر على النقيض من ذلك ، فان الله قد أقامك فى هذه الدنيـــا من أجـــل شعبك ٠٠ ٠٠

لقد راودنا يا مولاى الأمل فى أن يردك مجلسك عن الطريق غير المستقيم . ولكن لم يكن لديه القوة والجرأة . وكان من الجائز أن تستغل مدام دى مينتنون ، ومسيو بوفيلييه، على الاقل، الثقةالتى اوليتهما اياها ليمحضاكالنصح دون خداع ولا تضليل ، ولكن ضعفهما وجبنهما خزى وعار وسبة لنا أمام العالم أجمع . وربما تساءلت يا مولاى :

ماذا عساهما أن يفعلا .. والجواب بانه كان عليهما أن يرشداك الى أن تذل وتخشع بين يدى الله القوى القدير ، اذا أردت الا يفرض عليك سبحانه وتعالى الذلة والهوان ، وانه يجدر بك أن تطلب الصلح ، وتكفر بهذا الخشوع والتواضع عن العظمة التى جعلت منها معبودا لك . وأنه من أجل انقاذ الدولة ينبغى عليك باسرع ما يمكن أن ترد الى أعدائك ما لا يحق لك أن تحتفظ به عدلا وانصافا .

مولاى : ان هذا الذى يبسط لك هذه الحقائق ، وهو ابعد ما يكون عن الوقوف فى وجه مصالحك ، مستعد أن يضحى بحياته فى سبيل أن يراك كما يريد الله لك أن تكون، ولن يكف عن الدعاء لك والصلاة من أجلك ●

ولم يجرؤ فنيلون على ارسال هذه الرسالة مباشرة الى الملك ، فرتب أمر تسليمها الى مدام دى مينتنون ، وربما كان يأمل فى انها قد تتاثر بها ، حتى ولو لم تطلع لويس عليها ، باعتبار أن الرسالة تعكس حالة الشعب ، فتستخدم السيدة نفوذها من أجل الصلح والسلام، ولكنها حولتها الى رئيس الاساقفة دى نواى ، مع تعليق منها نصه : «لقد احسن الكاتب ، ولكن مثل هذه الحقائق قد تهيج الملك أو تفت فى عضده .. وينبغى علينا ان نوجهه برفق فى الطريق الذى يجب أن

●عن الاصل الفرنسى فى كتاب Fellows and Torrey « عصر الاستنارة » ص ٩١ ـ ٩٥ . ونشرت الرسالة لاول مرة فى دالمبرت ١٧٨٧ . وبقيت مشكوكا فى صحتها حتى ١٨٢٥ . حين وجدت نسخة منها بخط فنيلون نفسه (٣٢) .

يسلكه (٣٣) » . وكانت قد كتبت فى ١٦٩٢ . « أن الملك يدرك ما يعانيه شعبه ، وهو يتلمس كل الوسائل للتخفيف عنه (٣٤) » ، ومما لا شك فيه أنها كانت تعرف ما كان يمكن أن يرد به الملك على فنيلون : ان مبادىء المسيحية لا يمكن ان تستخدم فى ادارة شئون الدول ، وأنه يمكن عدلا التضحية بجيل من الفرنسيين ، اذا كان فى هذه التضحية تأمين لمستقبل فرنسا ، بفضل حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها ، وان اية محاولة للوصول الى الصلح والسلام من أعداء متحالفين متعطشين الى الانتقام، قد تعرض فرنسا للغزو والتمزيق . واذ وقعت السيدة مينتنون فى صراع بين دين الاخوة وبين فلسفة الحرب ، فقد كثر ترددها على سان سير ، والتمست فى رفقة الراهبات الشابات السعادة التى افتقدتها فى الجاه والسلطان (٣٥) .

وقبيل انتهاء الحرب قدم بييرلى بيزان ، حاكم بواجلبرت ، وقائد المنطقة المحيطة بروان ، الى وزير المالية بونتشارتران مشروعا لتخفيف الفوضي الاقتصادية والضائقة العامة : « أصغ الى فى شيء من الصبر ، انك ستحسبنى أول الامر مجنونا ، ثم تتبين فيما بعد انى استحق أن تعيرنى انتباهك ، وسترضيك آخر الأمر افكارى » . ولكن بونتشارتران سخر منه وطرده . ونشر الحاكم الغاضب مخطوطته المرفوضة بعنوان « مشكلة فرنسا » (١٦٩٧) واستنكرت هذه الرسالة تعدد الضرائب التى يقع العبء الأكبر فيها على عاتق الفقراء ، ولا يصيب الاغنياء منها الا النزر اليسير ، واتهمت الكنيسة بابتزاز الكثير من الأرض والثروة ، وانحى بأشد اللائمة على مديرى المال الذين تمتد أصابعهم البغيضة الى الضرائب التى يجمعونها للملك (٣٦) . واضعف من حجة الرسالة ما جاء بها من مبالغات واحصاءات غير مدروسة ، وآراء خاطئة عن تاريخ الاقتصاد الفرنسي قبل كولبير ، ولكن زاد من قيمة الرسالة ما تضمنته من آراء ثاقبة ليست على استعداد لفهمها اية حكومة تعودت تقنين كل شيء وتحديده . وكان بواجلبرت من أوائل من رفضوا تضليل « المركنتلية » (نظام اقتصادى قائم على تنظيم حكومى استغلالى صارم) ، بأن المعادن النفيسة تشكل فى حد ذاتها ثروة ، وأن الغرض من التجارة هو تكديس الذهب . وكان من رأيه ان الثروة هى توافر السلع والقدرة على انتاجها ، وان الثروة الاساسية هى الارض ، وان الفلاح عماد الاقتصاد ، وأن دمار هذا الفلاح يعنى دمار الجميع ، حيث

أن كل الطبقات فى النهاية ، مرتبطة بمجتمع ذى مصالح ٠ وكل منتج مستهلك ، وأية فائدة يجنيها بوصفه منتجا لا بد عاجلا أو آجــلا أن يفقدها نتيجة لما يلحقه من خسارة باعتباره مستهلكا ٠ وكان نظام كولبير فى التقنين والتحديد ، نظاما خاطئا ، لأنه عوق الانتاج وسد منافــذ التجارة ٠ وأحكم أسلوب هو ترك الناس أحرارا ينتجــون ويبيعون ويشترون ، دون قيود فى نطاق الدولة ، دعوا الطموح وحب الكسب الطبيعيين فى الناس يعملان عملهما بحد أدنى من القيود المشروعة ٠ فانهم حين يتحررون على هذا النحو ، سيبتدعو نأساليب ومشروعات واستخدامات وأدوات جديدة ، وسيضاعفون من خصــوبة الارض ، ومنتجات الصناعة ، ومدى التجارة ونشاطها ، وهذه الزيادة الناتجة فى الثروة ستوفر للدولة دخلا جديدا ٠ ولا بد أن ينشا عن هذا بعض المظالم والجور ، ولكن العملية الاقتصادية ستعالجها جميعا ٠ وهنا نجد مرة أخرى « اتركه يعمل » قبل أن تبلغ حرية العمل الراسمالى ذروتها فى عالم الغرب ، بقرنين من الزمان ٠

وقد يغتفر للملك ووزرائه ، اذا احسوا أن الحرب ضد نصف أوربا لم تكن وقتا ملائما لمحاولة القيام بانقلاب اقتصادى بعيد المدى ، فزادوا من الضرائب بدلا من اصلاح الاقتصاد ٠ وفى ١٦٩٥ فرضت ضريبــة الرءوس ، وكان المفروض ان تكون على كل ذكر فى فرنسا ، وبرروها بانها مؤقتة ، ولكنها استمرت حتى ١٧٨٩ ٠ وكان النبلاء ورجال الدين والحكام خاضعين لها من الوجهة النظرية ، ولكن من الوجهة العملية اشترى رجال الدين الاعفاء منها نظير اعانة متواضعة ، على حين وجد النبلاء والماليون ثغرات فى القانون ينفذون منها الى الاعفاء ٠ ولجأوا الى كل الوسائل لابتزاز المال من الشعب ٠ ونظم « اليانصيب » وبيعت المناصب ، وخفضت قيمة العملة ، وتوددوا الى الأغنياء واستحثوهم على عقد قروض للدولة ٠ واحتفى الملك نفسه برجــل من أصــحاب المصارف ، هو صمويل برنارد ، وتقاضى منه الملايين بعد أن بهـــرته هالة العظمة التى أحاط بها الملك نفسه ، وفقد وعيــه بســحر الملك وفتنته ، وعلى الرغم من كل الضرائب ووســائل الابتزاز ، قديمهـــا وجديدها ٠ بلغ مجمــوع دخـــل الدولة فى ١٦٩٧ ، ٨١ مليـــونا من الجنيهات ، على حين بلغت المصروفات ٢١٩ مليونا ٠

واعترف لويس آخر الامر بأن انتصاراته استنزفت حياة فرنسا . فأصدر اوامره الى سفرائه ومبعوثيه بمحاولة الوصول الى تفاهم مع أعدائه . وقد انقذته براعتهم ، الى حد ما . فاقنعوا دوق سافوى فى ١٦٩٦ بعقد صلح منفرد مع لويس . وسمح بتناثر الانباء بأنه سيكف عن تاييده لآل ستيوارت ، ويعترف بوليم الثالث ملكا على انجلترا . وكان وليم نفسه يرى ان المال اغلى من الدماء ، وشكا من ان « فقره أمر لا يصدق » . واشتدت معارضة البرلمان لاعتماد الاموال اللازمة لقواته. وطالب ، تمهيدا لعقد الصلح ، بطرد جيمس الثانى من فرنسا ، ولكن لويس رفض . إلا انه عرض ان يعيد تقريبا كل المدن والاراضي التى كسبتها قواته اثناء الحرب . وفى ٢٠ سبتمبر ١٦٩٧ أنهى صلح ريزويك (بالقرب من لاهاى) « حرب البالاتينات » مع انجلترا وهولندة وأسبانيا . واحتفظت فرنسا بستراسبورج وفرانش كرمتيه ، واستردت بوندشيرى فى الهند ، ونوفاسكوشيا فى أمريكا ، ولكن الرسوم الجمركية الفرنسية خفضت على تجارة هولندة ، وفى ٣٠ اكتوبر وقع صلح تكميلى مع الامبراطورية . وتوقع الامبراطور والملك كلاهما قرب وفاة شارل الثانى ملك اسبانيا . وادرك كل رجال السياسة فى أوربا تمام الادراك أن ما وقع لم يكن الا مجرد هدنة ، استعدادا لحرب أكبر كانت جائزة المنتصر فيها أغنى امبراطورية فى العالم .

٣ ـ المسالة الاسبانية ١٦٩٨ ـ ١٧٠٠

دنا أجل شارل الثانى دون عقب ، فمن ذا الذى يرث ممتلكاته التى تمتد من الفيليبينات عبر ايطاليا وصقلية الى شمال أمريكا وجنوبها ؟ . لقد طالب بها لويس ، لا باعتباره ابن كبرى بنات فيليب الثالث ملك أسبانيا فحسب ، بل كذلك بمقتضي حق زوجته المتوفاة مارى تريز كبرى بنات فيليب الرابع . والحق كل الحق ان مارى تريز تخلت ، عند زواجها ، عن أى حق لها فى عرش اسبانيا . ولكن هذا التخلى كان مشروطا بان تدفع الحكومة الاسبانية لفرنسا صداقا قدره خمسمائة الف كراون ذهبا . ولكن اسبانيا لم تدفع شيئا من هذا الصداق ، لأنها كانت مفلسة .

وكان للامبراطور ليوبولد مزاعم مضادة : فهو ابن ماريا آنا صغرى بنات فيليب الثالث . وكان قد تزوج فى ١٦٦٦ من مرجريت تريزا

صغرى بنات فيليب الرابع ، ولم تتخل أى من هاتين السيدتين عن حقوقها فى احتمال ارتقاء عرش اسبانيا . ولما كان الاتراك يزعجون ليوبولد دائما بغاراتهم المتكررة ، فانه رغبة منه فى الابقاء على السلام مع فرنسا ، عمد الى حل وسط بالنسبة لمطالبه ، بتوقيع معاهدة سرية مع لويس الرابع عشر ، (فى ١٩ يناير ١٦٦٨) ، نص فيها على التقسيم النهائى للامبراطورية الاسبانية . ويقول مؤرخ انجليزى انه بمقتضي هذه المعاهدة « سلم فعلا بقوة الحجة التى تذرع بها لويس الرابع عشر ببطلان تخلى ملكة فرنسا عن حقوقها فى عرش اسبانيا(٣٧)» ولما تزوج ليوبولد للمرة الثانية ، وانجب له هذا الزواج ابنا ثانيا ، حدد مطالبه ، ولكنه عرض أن يتنازل عنها للارشيدوق كارل الجديد .

ونظرت انجلترا والمقاطعات المتحدة والولايات الالمانية بعين الفزع الى احتمال أن تؤول مملكة أسبانيا المترامية الأطراف الى فرنسا او الى النمسا ، وفى كلتا الحالتين اخلال بتوازن القوى ، فلو أن لويس ربح فى هذه الجولة لسيطر على أوربا وعرض البروتستانتية للخطر ، ولو انها كانت من نصيب ليوبولد ، لهدد الامبراطور ، بحكم استيلائه على الأراضي الوطيئة الاسبانية ، جمهورية هولندة ، وزعزع استقلال الولايات الالمانية . وتدخلت المصالح الاقتصادية الى جانب مصالح الامرات الحاكمة : فالمصدرون الانجليز والهولنديون كانوا يزودون معظم أسواق اسبانيا ومستعمراتها بالمنتجات الصناعية ، ويحصلون منها فى مقابل ذلك على كميات هائلةمن الذهب والفضة ، فكانوا يكرهون أن تصبح هذه التجارة احتكارا لفرنسا . وذكرت الحكومة البريطانية فى ١٧١٦ « أن الاحتفاظ بالتجارة بين مملكة بريطانيا العظمى وأسبانيا كان من أهم الدوافع التى حفزت ملكينا السابقين الى دخول الحرب الاخيرة الطويلة الأجل الباهظة التكاليف (٣٨) » .

ورغبة من وليم الثالث فى ارضاء التجار فى موطنه الاول وفى البلاد التى آلت اليه ، وفى المحافظة على توازن القوى فى القارة ، اقترح على لويس أن تتخلى فرنسا عن دعواها ، وتتفق مع انجلترا على ترك أسبانيا الأولى » . ورفض ليوبولد هذا المشروع غاضبا . وأملا فى صون أمير بإفاريا الناخب ، حفيد ليوبولد ، وعلى أن يحصل الدوفين ولى عهد فرنسا على ثغور تسكانيا وايطاليا جنوبى الولايات البابوية . على حين

يمكن التسكين من روع الأرشيدوق كارل وارضاؤه بدوقية ميلان . وقبل لويس الاقتراح ، ووقع فى ١١ أكتوبر ١٦٩٨ مع وليم « معاهدة تقسيم أسبانيا الأولى » . ورفض ليوبولد هذا المشروع غاضبا . وأملا فى صون الامبراطورية الأسبانية من هذه التجزئة والتفتيت ، أعد شارل الثانى فى ١٤ نوفمبر ١٦٩٨ وصيته التى جعل أمير بافاريا الناخب بمقتضاها وريثه الوحيد . ولكن موت الأمير فى ٥ فبراير احدث ارتباكا وتعقيدا فى الموقف .

وعرض لويس على وليم تقسيما جديدا : يحصل ولى عهد فرنسا بمقتضاه على ثغور تسكانيا ، وايطاليا جنوبى الولايات البابوية ، ودوقية اللورين ، ويعوض دوق اللورين بميلان ، ويؤول باقى الامبراطورية الأسبانية ، بما فى ذلك أمريكا والأراضي الوطيئة الأسبانية ، الى الأرشيدوق كارل ، ووقع لويس ووليم اتفاقية التقسيم الثانية فى ١١ يونيه ١٦٩٩ ، ووافقت عليها المقاطعات المتحدة . ولكن شارل الثانى احتج على أى تفتيت لممتلكاته ، كما ان الامبراطور ، أملا منه فى الحصول على كل شيء لابنه ، أيد موقف أسبانيا ورفض الموافقة على التقسيم ، على أن شارل ، باعتباره من آل هبسبرج ، كان ميالا الى ترك كل شيء للأرشيدوق ، وبوصفه أسبانيا ، على أية حال ، كان يكره النمساويين ، وباعتباره لاتينيا كان يؤثر الفرنسيين ، ومذ كان شارل كاثوليكيا غيورا ، فانه التمس النصح والمشورة من البابا . فاجاب انوسنت الثانى عشر فى ٢٧ سبتمبر ١٧٠٠ بأن خير طريقة هى التوصية بكل الامبراطورية الأسبانية لأمير بوربونى شريطة تخليه عن أى حق فى عرش فرنسا ، وبذلك تحتفظ أسبانيا بوحدتها .وواضح أن الدبلوماسيين الفرنسيين كانوا يفوقون النمساويين حيلة ودهاء ، فى مدريد وفى رومه على حد سواء . ونفر الرأى العام فى اسبانيا من غطرسة مليكتهم الألمانية ، فوافق على مشروع البابا ، وذكر السفير الانجليزى فى مدريد « ان الاتجاه العام فرنسي تماما (٣٩) » . وفى أول أكتوبر وقع شارل الوصية المشئومة ، التى أوصي فيها بكل أسبانيا وممتلكاتها لفيليب ذى السبعة عشر ربيعا ، دوق أنجو ، الابن الثانى للدوفين ، شريطة الا يجتمع تاجا فرنسا واسبانيا لملك واحد ، وقضي شارل نحبه فى أول نوفمبر .

ولما ترامت أنباء هذه الوصية الى باريس ، سر بها لويس ، ولكنه

كان مترددا . فقد أدرك أن انتقال أسبانيا من أيدى آل هبسبرج الى أسرة البوربون ، لابد أن يلقى معارضة شديدة من الامبراطور ، وان انجلترا وهولنده لابد أن تنضما الى صف المعارضة . واثنى احد المؤرخين الألمان على هذه الالتفاته من جانب لويس نحو الاهداف السلمية :

> قد لا يكون من الانصاف القول بان لويس الرابع عقد العزم منذ البداية على نقض معاهدة التقسيم ، بمجرد الحصول على وصية ملائمة لأسرته ، وحتى وهو على يقين من مثل هذه الوصية ، وكان شارل لا يزال على قيد الحياة ، أمر لويس سفيره فى هولنده ، أن يؤكد لحاكمها انه يعتزم التمسك بالتزاماته ، ولا يقبل أية عروض تقدم له . وبالاضافة الى هذا ، واصل مساعيه للحصول على انضمام بلاط فيينا الى معاهدة التقسيم (٤٠) .

وفى ٦ أكتوبر أرسل لويس نداءا عاجلا الى الامبراطور ليقبل معاهدة التقسيم الثانية (٤١) . ورفض ليوبولد . ومن ثم اعتبر لويس أن المعاهدة لاغية .

وفور وفاة شارل ، أوفد مجلس الوصاية الأسبانى الى باريس رسولا ليبلغ الملك لويس أن حفيده سيكون ملكا على أسبانيا بمجرد قدومه وتأديته اليمين بمراعاة قوانين المملكة . وصدرت التعليمات الى السفير الأسبانى فى باريس بانه فى حالة اى رفض من جانب فرنسا ، عليه أن يأمر الرسول بالاسراع الى فيينا ليقدم نفس العرض الى الأرشيدوق (٤٢) . وينبغى الا تجزأ الامبراطورية الأسبانية على أية حال . وفى ٩ نوفمبر دعا لويس الأمير ولى العهد ، ومستشاره بونتشارتران ودوق دى بوفيلييه ومركيز دى تورسي وزير الخارجية الى اجتماع فى جناح مدام دى مينتنون ، وسالهم الرأى والمشورة . ورأى بوفيلييه أن يرفض العرض الأسبانى ، لأنه يؤدى قطعا الى الحرب مع الامبراطورية وانجلترا والمقاطعات المتحدة ، وذكر الملك بأن فرنسا ليست فى ظروف تهيىء لها مواجهة مثل هذا الائتلاف ، أما تورسي فقد دافع عن فكرة القبول ، حيث اعتقد بأن الحرب لا محالة واقعة على

اية حال ، ولابد ان الامبراطور ليوبولد سيعارض معاهدة التقسيم والوصية كلتيهما . هذا فضلا عن انه اذا رفض الملك لويس العرض الاسبانى ، فانه من المؤكد أن يرحب به الامبراطور ، وتطوق فرنسا من جديد بنفس النطاق الذى كان مضروبا حولها ـ اسبانيا ، شمال ايطاليا ، النمسا ، الأراضي الوطيئة الأسبانية والذى كلف فرنسا طيلة المائتى عام الأخيرة كثيرا من الدماء لتحطيمه . خير لنا أن ندخل فى حرب بسبب عادل ـ الوصية ـ من أن نحاول فرض تقسيم أسبانيا بالقوة ضد رغبة حكومتها وشعبها (٤٣) .

وبعد ثلاثة أيام قضوها فى مزيد من المشاورات والمداولات ، اعلن لويس الى المبعوثين قبوله الوصية . وفى ١٦ نوفمبر ١٧٠٠ قدم دوق أنجو الى الحاشية المجتمعة فى فرساى قائلا : « أيها السـادة ، انكم ترون هنا ملك اسبانيا . ان النسب الذى تحدر منه دعاه الى حمل ذاك التاج ، بهذا أمر الملك الراحل فى وصيته ، وهذا ما رغبت فيه الامة الاسبانية بأسرها ، وتوسلت الىّ توسلا جديا ان اقبله . وتلك ارادة الله ، حققها فى غبطة وسرور ، ثم اضاف موجها الحديث الى الملك الشاب « كن اسبانيا » صالحا ـ فهذا هو الآن واجبك الأول ، ولـكن تذكر أنك ولدت فرنسيا ، وحافظ على الوحدة بين الأمتين ، فهذا هو الطريق لاسعادهما ، وللمحافظة على السلام فى اوربا (٤٤) » ونادى مجلس الوصاية الاسبانى بفيليب ملكا فى مدريد ، واسرعت كل قطاعات اسبانيا وممتلكاتها باعلان موافقتها ، واعترفت الحكومات ، الواحدة تلو الاخرى ، بالملك الجديد : سافوى ، الدنمرك ، البرتغال ، المقاطعات المتحدة ، انجلترا ، وعدة ولايات ايطالية والمانية ، بل ان ناخب بافاريا الذى ظن ان الامبراطور دس السم لابنه ـ كان من أول الأمـراء الذين قدموا اعترافهم . وبدا أن الأزمة قد تم التغلب عليها ، وان العداوة التى استعر أوارها طيلة قرن من الزمان بين فرنسا واسبانيا قد خمدت بطريقة سلمية ، وجثا السفير الأسبانى فى فرساى بين يدى مليكه الجديد اجلالا وولاء ، ونطق بعبارته المشهورة « لا برانس بعد اليوم (٤٥) » .

٤ ـ الحلف الأعظم : ١٧٠١ ـ ١٧٠٢

وكتب لورد تشستر فيلد « ان أسبانيا استقبلت فى هدوء وابتهاج فيليب الخامس الذى استهل عهد البوربون الاسبان ، واعترفت به ملكا

معظم الدول التى انضمت فيما بعد فى تحالف لخلعه (٤٦) » ولكن الامبرامور ليوبولد أحس بأن هذا الاتحاد الفعلى بين فرنسا واسبانيا ، لابد أن يكون ، اذا تهيأت له أسباب البقاء والاستمرار ، كارثة على أسرة هبسبرج التى ألفت منذ أمد طويل أن تحكم الامبراطورية الرومانيــة المقدسة والامبراطورية الأسبانية كلتيهما . وعكس الكتــاب اســتياءه فأهاجو الرأى العام فى النمسا وعبروا عنه ، مرددين أن شارل الثانى لم يكن فى كامل قواه العقلية حين أوصي باسبانيا لعدوتها القديمــة ، وزعموا أن تشريح جثة الملك أظهر حقا أن قلبه ومخه كانا مصابين بشكل خطير ، ومن ثم تكون وصيته باطلة لاغية ، وتكون ممتلكات اسبانيا تابعة للامبراطور ليوبولد ، بمقتضي حقوق أمه وزوجته التى لم يحدث أى تخل أو تنازل عنها . واستحث ليوبولد حليفيه السابقين هولنــده وانجلترا الى انكار أو سحب اعترافهما بفيليب الخامس . حتى ولو كان هذا يعنى حربا .

وكان زعيم المقاطعات المتحدة فى هذا الوقت انطونيوس هينسيوس الذى كان قد اختير حاكما بعد رحيل وليم الى انجلترا ، وكان فى سابق أيامه مبعوثا هولنديا الى فرنسا ، وهدده لوفوا بالقاء القبض عليه ، خرقا للحصانة الدبلوماسية ، ولم ينس قط هذه الاساءة ، وأقام الآن ، وقــد بلغ التاسعة والخمسين ، فى دار متواضعة فى لاهاى ، وأحب المكتب ، وسار يوميا على قدميه الى مكتبه ، واشتغل عشر ساعات فى اليــوم ، وكان بمثابة تحد حى صارخ من جانب البساطة البرجوازية والحكومية الجمهورية للأرستقراطيين المترفين والملوك المستبدين . وفى نوفمــبر ١٧٠٠ ، وبتوجيه من الجمعية الوطنية الهولندية ، أرسل أنطونيوس هذا الى الملك لويس الرابع عشر مذكرة يرجوه فيها رفض وصية شارل الثانى باعتبارها ضارة أبلغ الضرر بالامبراطور ، والعودة الى سياسة التقسيم. وفى ٤ ديسمبر ١٧٠٠ أجاب لويس بأن الذى جعل من قبوله الوصية أمرا ضروريا حتميا هو تكرار رفض الامبراطور لأى مشروع للتقسيم ، وتأكد فرنسا من أن الامبراطور سيقبل العرض الأسبانى اذا هى رفضته .

وزادت تصرفات لويس من خوف أوربا من قوة فرنسا . ففى أول فبراير ١٧٠١ حمل برلمان باريس على تسجيل مرسوم ملكى ينص على المحافظة على الحقوق التى يمكن أن تنشا لفيليب وأعقابه فى تاج فرنسا .

وهذا لا يعنى بالضرورة أن لويس تطلع الى وحدة فرنسا وأسبانيا تحت حكم ملك واحد ، وربما قصد به تامين نظام لارتقاء عرش فرنسا فى حالة وفاة الورثة السابقين ، ففى مثل الضرورة الطارئة يمكن لفيليب ان يتخلى عن تاج اسبانيا ليرتقى العرش فى وطنه الأول ، وبذلك يستمر التاج فى أسرة البوربون دون انقطاع . ولكن اجراء آخر اتخذه الملك برر أن يفسر عمله تفسيرا غير ودى . ذلك انه كانت هناك معاهدة مع أسبانيا تثبت حق الهولنديين فى حماية هولندة ضد الغزو ، بالاحتفاظ بحاميات مسلحة فى بعض « مدن الحدود » فى الأراضي الوطيئة الاسبانية . وفى فبراير ، بناء على تفاهم بين لويس وناخب بافاريا الذى تولى حكم الاراضي الوطيئة الاسبانية آنذاك ، دخلت القوات الفرنسية مدن الحدود هذه ، وأمرت الحاميات الهولندية بمغادرتها . وابلغ السفير الأسبانى فى لاهـــاى الجمعية الوطنية بان هذا العمل تم بناء على رغبة الحكومة الأسبانية . واحتجت الجمعية الوطنية ثم استسلمت ، ولكن هينسيوس اتفق مع وليم الثالث على ضرورة تجديد الحلف الأعظم ضد فرنسا .

ان وليم ارتكز فى موقفه على أن معاهدة التقسيم الثانية كانت اتفاقا بينه وبين لويس ، وانها ظلت سارية المفعول سواء وقعها أو لم يوقعها ليوبولد ، وأن قبول فرنسا للوصية الأسبانية كان نقضا لهـــذا الميثاق القانونى المقدس . وكان البرلمان على أية حال يكره استئناف النزاع الباهظ التكاليف مع فرنسا . وعندما ابلغت الحكومة الفرنسية انجلترا بنبأ ارتقاء فيليب الخامس عرش اسبانيا ، راض وليم نفسه على تهنئة « أخيه العزيز ملك أسبانيا بهذه المناسبة السعيدة ، مناسبة ارتقائه العرش (٤٧) » . وبهذا قدم اعترافا رسميا بنظـام الحـــكم الجديد (١٧ أبريل ١٧٠١ (٤٨)) . ولكن عندما تجلت النتائج الخطيرة للاتحاد الفرنسي الاسبانى للعيان بشكل أوضح ، حيث أن احتلال القوات الفرنسية للفلاندرز جعلت لويس قاب قوسين أو أدنى من هولنده ، وأن امتلاكه لثغر أنتورب مكنه من التحكم فى التجـــارة الانجليزية التى تستخدم هذا الثغر — فان الانجليز بدأوا يدركون أن المشـــكلة لم تكن مجرد مشكلة بين البوربون وآل هبسبرج ، ولا هى مشكلة كاثوليكية تستعيد نشاطها وبروتستانتية يتهددها الخطر ، ولكنها قضـية الصراع بين انجلترا وفرنسا حول السيادة على البحـار ، والسـيطرة عـلى المستعمرات الاوربية وعلى تجارة العالم ، وفى يونيه ١٧٠١ ، ودون

اعلان الحرب ، تعهد البرلمان بتأييد وليم فى أية احلاف قد يدخل فيها بهدف الحد من سيطرة فرنسا المتزايدة . وتحقيقا لهذا الهدف اقر تجنيد ثلاثين ألفا من جنود البحر واعتمد مبلغ مليونين وسبعمائة الف جنيه . واستجابة لنداء من الجمعية الوطنية الهولندية امر وليم عشرين سفينة وعشرة آلاف جندى بالابحار الى هولنده . وفى يوليه عبر هو نفسه البحر الى لاهاى .

وكان الامبراطور الذى يطالب باراضي الامبراطورية الاسبانية باسرها ، بالفعل فى حرب . وفى مايو ١٧٠١ ارسل جيشا مكونا من ستة آلاف من الفرسان وستة عشر الفا من المشاة للاستيلاء على ممتلكات اسبانيا فى شمال ايطاليا ، وعهد بقيادة هذا الجيش الى أمير شاب ، قدر له أن ينافس مارلبرو نفسه باعتباره قائدا - هو يوجين سافوى . وكان جده شارل أمانويل دوق سافوى ، اما والده الأمير يوجين موريس فقد استقر به المقام فى فرنسا بلقب كونت دى سواسون . أما والدته فهى أولمب مانسينى احدى بنات أخى مازاران الفاتنات . وطلب يوجين نفسه فى ١٦٨٣ ، وهو فى سن العشرين ، من لويس الرابع عشر أن يوليه قيادة فوج من الجنود ، فابى عليه ذلك نظرا لصغر سنه ، فهجر فرنسا والتحق بخدمة الامبراطور ، واشترك مع سوبسكى فى تخليص فيينا وتعقب الأتراك ، وجرح فى الاستيلاء على بودا ، وجرح ثانية فى حصار بلجراد ، وقاد القوات الامبراطورية الى الانتصار الحاسم على الاتراك فى سنتا ١٦٩٧ ، وتحلى يوجين بكل المزايا اللهم الا جمال الوجه والجسم . ووصفه فرنسي عدو له بانه « هذا الرجل القبيح الضئيل الجسم الذى ينقلب أنفه فوق شفة عالية قصيرة الى حد انها لا تغطى أسنانه (٤٩) » ، على حين تبين فيه فولتير « صفات البطل فى الحرب ، ومناقب الرجل العظيم زمن السلم ، وذهنا مشربا بروح العدل والانصاف والاعتداد بالنفس ، وشجاعة لا تلين ولا تهن فى قيادة الجيوش (٥٠) » . والآن وهو فى الثامنة والثلاثين قاد قواته فوق الألب ، وتفوق على الكتائب الفرنسية هناك ، ومع توالى انتصاراته على كاتينا وفيلروا ، كسب الامبراطور كل دوقية مانتوا تقريبا (سبتمبر ١٧٠١) ، قبل اعلان حرب الوراثة الاسبانية بزمن طويل .

وفى الوقت عينه كانت الدبلوماسية قد مهدت لعشر سنين من

المذابح . ففي اغسطس منحت اسبانيا فرنسا « عقدا » يدر ربحا وفيرا ، لتزويد المستعمرات الاسبانية فى إمريكا بالعبيد . وواضح أن فرنسا قصدت ان تستخدم نفوذها الطاغى فى أسبانيا ، للاستيلاء على تجارة ممتلكاتها فى قارات ثلاث . وفى ٧ سبتمبر وقع مندوبو انجلترا والمقاطعات المتحدة والامبراطورية معاهدة لاهاى بتكوين حلف أعظم ثان . ونصت المادة الثانية منها على انه من الضرورى لاقرار السلام فى أوربا أن تراعى حقوق الامبراطور فى الوراثة الاسبانية ، وأن تكون انجلترا والمقاطعات المتحدة آمنتين فى ممتلكاتهما وفى تجولهما فى البحار وفى تجارتهما ، ووعدت المعاهدة الامبراطور بممتلكات اسبانيا فى شمال ايطاليا والأراضي الوطيئة ، ولكنها تركت الباب مفتوحا أمام احتمال الاعتراف بفيليب الخامس ملكا على أسبانيا ، وتعهدت الأطراف المتعاقدة بعدم القيام باية مفاوضات منفصلة ، أو توقيع أى صلح منفرد، والحيلولة دون توحيد تاجى فرنسا واسبانيا . واعتراض طريق التجارة الفرنسية مع المستعمرات الاسبانية والدفاع عن أية فتوحات تقوم بها انجلترا والمقاطعات المتحدة فى الانديز الاسبانية والمحافظة عليها (٥١). ومنحت فرنسا مهلة مدتها شهران للموافقة على هذه الشروط ، فاذا لم تتم الموافقة ، كان للدول الموقعة أن تعلن الحرب .

وقابل لويس هذا التحدى بكبرياء شديدة متميزة ، فاعلن أنه مرتبط رباطا شرفيا بالدفاع عن وصية شارل الثانى وتصميم الشعب الاسبانى على عدم تمزيق امبراطوريته ، ولثقته التامة فى قوة قضيته وعدالتها ، ظهر الى جانب سرير جيمس الثانى الذى كان يعانى سكرات الموت ، وواسي الملك المحتضر بوعده أنه سيعترف بجيمس الثالث ملكا على انجلترا ويسانده . ولما قضي الوالد نحبه حافظ لويس على عهده ، ولسنا ندرى اذا كان هذا « عملا جليلا يتسم بالشهامة » ، (كما قال عنه مؤرخ انجليزى شهم (٥٢)) أو أنه استسلام لتوسلات الارملة الباكية (٥٣) ، أو أنه خطة عسكرية لتقسيم انجلترا الى معسكرين : فريق يناصر وليم ، وفريق يناصر جيمس ، ويدعو الى عودة آل ستيوارت الى العرش من جديد . وعلى أية حال كانت حرب الوراثة الاسبانية حربا للوراثة الانجليزية أيضا ، بل حرب الكيان الانجليزى كله ، فان عودة ملك من أسرة ستيوارت قد يعنى استئناف المحاولة لتحويل انجلترا الى

الكاثوليكية ، وعلى الرغم من ان فرنسا احست بان تصرف الحلفـاء نقض الاعتراف الذى كانت قد أعلنته كل دولة بفيليب الخامس ملكا على اسبانيا • فان معظم انجلترا أحست بان لويس قد نقض معاهدة رزويك التى كان قد اعترف فيها بوليم الثالث ملكا على انجلترا ، واستنكرت الاعتراف بجيمس الثالث على أنه تدخل وقح فى شئون انجلترا • وأضيفت الى شروط الحلف الأعظم فقرة تلزم الموقعين بالا يعقدوا صلحا مع فرنسا ، حتى يتلقى وليم ترضية عن الاساءة التى الحقها به تصرف لويس • وفى يناير ١٧٠٢ جرد البرلمان جيمس الثالث من حقوقه المدنية - أى اعلن أنه خائن خارج على القانون • وفى نفس الوقت أقر باغلبية صوت واحد ، « قانون القسم » الذى يتطلب من كل انجليزى ان يبرأ من « المطالب بالعرش » ويقسم يمسين الولاء لوليم الثالث وورثته • وفى ٨ مارس ١٧٠٢ توفى وليم الثالث فى سن الثانية والخمسين • فى وقت مبكر جدا لم يستطع أن يتبين فيه أنه قام بتوثيق عرى تحالف قد يحدد خريطة أوربا لمدة نصف قرن • وفى ١٥ مايو أعلن الامبراطور والمقاطعات المتحدة وبرلمان انجلترا الحرب على فرنسا فى وقت واحد •

٥ - حرب الوراثة الاسبانية ١٧٠٢ - ١٧١٣

كانت كل أوربا غربى بولنده والامبراطورية العثمانية ، من الناحية العملية ، مشغولة بهذه الحرب • وانضم الى التحالف الدنمرك وبروسيا وهانوفر وأسقفية مونستر ، وناخبا مينز والبالاتينات وبعض الولايات الألمانية الصغيرة • وانضم الى هؤلاء فى ١٧٠٣ سافوى والبرتغال ، وحشدوا جميعا ٢٥٠ الف جندى ، وجمعوا قوة بحرية تفوق كثيرا القوة البحرية الفرنسية عددا وعتادا وقيادة • وكان لفرنسا آنئذ مائتا الف جندى ، ولكن هذه القوات كانت موزعة على جبهات مختلفة فى اقليم الراين وايطاليا وأسبانيا • وكان الحلفاء الوحيدون لها أسبانيا وبافاريا وكولون ، ثم سافوى لمدة عام واحد • وكانت اسبانيا عبئا عليها ، تريد من الجيوش الفرنسية أن تدافع عنها ، كما كانت المستعمرات الأسبانية تحت رحمة الاساطيل الهولندية والانجليزية •

ويجدر بنا الا نضل فى متاهات اللعبة الملكية ، الشطرنج البشرى،

التى أعقبت ذلك ، وكانت لعبة دامية الى حد لم يسبق له مثيل تقريبا ، والآن جاءت حملات مارلبرو ويوجين سافوى البارعة المثيرة الملطخة بالدماء . وربما لم تجتمع منذ عهد قيصر عبقرية الحرب وفن الدبلوماسية مثل ما اجتمعا فى مارلبرو : كان بارعا فى استراتيجية تخطيط العمليات وتحريك الجيوش ، وفى أساليب استخدام المشاة والخيالة والمدفعية ، مع سرعة فى تقدير الموقف واتخاذ القرار ، وفق متطلبات المعركة ، ومع ذلك فهو أيضا صبور لبق فى التعامل مع الحكومات من ورائه ، والشخصيات من حوله ، حتى مع الاعداء الذين اعتبروه رجل دولة يدرك الحقائق ، ذا وزن وقوة ونفوذ . وكان فى بعض الأحيان قاسيا لا يرحم ، وفى أغلب الاحيان مجرداً من المبادىء الخلقية والانسانية . وسفك من دماء جنوده أى قدر لازم لتحقيق النجاح ، واتصل بجيمس الثانى وجيمس الثالث ليضمن لنفسه نصيرا باسما مشرقا اذا عاد آل ستيوارت الى الحكم . ولكنه كان منظم وصانع النصر .

وحيث ادرك لويس الرابع عشر أن كل عظمة عصره معلقة فى كفة الميزان ، وان النزاع حول اسبانيا بات صراعا من أجل قارات ، فانه هاب بفرنسا ان تبعث اليه بابنائها وذهبها . وما وافى عام ١٧٠٤ حتى كان لديه ٤٥٠ الف رجل مسلحين ـ قدر ما لدى أعدائه مجتمعين (٥٤). وأملا منه فى التبكير بحسم هذا الصراع الباهظ التكاليف ، أصدر أوامره الى قواته الرئيسية بالتقدم عبر بافاريا الصديقة ، ومهاجمة قلعة العدو الأخيرة ، الا وهى فيينا التى عجزت الحشود التركية نفسها عن الاستيلاء عليها . وانشغلت القوات الامبراطورية فى الشرق بعصيان مسلح وقع فى المجر ، وتركت عاصمتها مجردة من وسائل الدفاع تقريبا . وعلى حين كان مفروضا أن يضيق جيش فرنسي بقيادة فيلروا الخناق على مارلبرو فى الأراضي الوطيئة ، فان القوات الفرنسية بقيادة مارسان وتللارد انضمت الى قوات ناخب بافاريا ، وأسرعت فى التقدم الى النمسا . ومرة أخرى هرب الامبراطور من فيينا ، كما حدث فى ١٦٨٣ ، ادراكا منه بأن وقوعه فى أيدى الاعداء لابد أن يكون كارثة على موقف الحلفاء.

وفى هذه الأزمة ، وعلى الرغم من توسلات الجمعية الوطنية الهولندية ، ولكن بموافقة سرية من جانب هينسيوس ، قرر مارلبرو أن يغامر بوقوع هولندة فى يد فيلروا ، ويجد السير ليلا ونهارا من بحر

الشمال الى الدانوب (مايو ـ يونيه ١٧٠٤) لينقذ فيينا . وتظاهر بانه يسعى لعبور الموزل ، فسار جنوبا فى محاذاة النهر ، مغريا فيلروا بحركة موازية على الجانب الآخر . وفجاة عند كوبلنز انعطف شرقا وعبر الراين على جسر عائم ، وسار الى مينز ، وعبر المين الى هيدلبرج ، وعبر نهر نكر الى راستاد ، فاحدث الآن نقاط اتصال هامة مع الامدادات القادمة من هولنده ، ومع جيش امبراطورى بقيادة يوجين سافوى ، ومع جيش آخر بقيادة الحاكم العسكرى لمنطقة بادن بادن ـ لويس وليم الأول ـ ودهش الفرنسيون والبافاريون ليجدوا مارلبرو بعيدا عن المواقع التى كان من المتوقع أن يطبق عليه فيلروا فيها . وجمع مارسان وتللارد وناخب بافاريا ، ٣٥ الفا من المشاة و ١٨ الفا من الفرسان بين لوتزنجين وبلنهيم ، على الضفة اليسرى للدانوب . وهناك فى ١٣ اغسطس ١٧٠٤ اشتبك معهم مارلبرو ويوجين بثلاثة وثلاثين ألفا من المشاة وتسعة وعشرين ألفا من الخيالة فيما تحاول فرنسا أن تنسى فيه معركة هوستاد وما تحتفـــل به انجلترا باعتباره النصر فى بلنهيم . واخترقت خيالة مارلبرو المتفوقة قلب القوات الفرنسية وساقت جيش تللارد المنهزم الى بلنهيم ، حيث استسلم الاثنى عشر الفا الباقون منه على قيد الحياة ، وأسر تللارد نفسه . ثم أسرع فرسان مارلبرو لنجدة يوجين ، وكان فى مأزق ، الى اليمـــين ، وعاونوه حتى اجبر مارسان على التقهقر بانتظام ، وكانت الخسارة فى الأرواح جسيمة ، اثنى عشر الفا من الحلفاء ، و ١٤ الفا من الفرنسيين والبافاريين . وحطم استسلام سبع وعشرين كتيبة من المشاة واثنتى عشرة سرية من الخيالة سمعة القوات المسلحة الفرنسية . وفر ناخب بافاريا الى بروكسل . واحتل الجيش الامبراطورى بافاريا ، واخلى نحو ثلثمائة ميل مربع تقريبا من الأرض من القوات الفرنسية ، وعاد ليوبولد فى أمان الى عاصمته .

وفى ٤ اغسطس سجل اسطول انجليزى هولندى يوما مشهودا آخر فى التاريخ باحتلاله صخرة جبل طارق المقفرة . وقد حولها الانجليز الى قلعة ضمنت لهم السيادة على البحر المتوسط لمدة قرنين من الزمان واستمرت الحرب تسع سنوات أخرى ، دون أن يفطن أحـــد الى أن هذين الانتصارين قد حددا مصيرها . وفى ٩ أكتوبر ١٧٠٥ استولى

اسطول انجليزى على برشلونة ، وساند أحد جيوش الحلفاء ثورة قامت في قطالونيا ضد فيليب الخامس ، وأقام الارشيدوق كارل في مدريد ملكا تحت اسم شارل الثالث (٢٥ يونيه ١٧٠٦) . ولكن منظر النمساويين والانجليز يحكمون البلاد أيقظ الاسبان من سباتهم الروحى ، بل ان رجال الدين انفسهم حرضوهم على المقاومة . وسلح الفلاحون أنفسهم باحسن ما وصلت اليه أيديهم ، وقطعوا خط مواصلات الحلفاء بين برشلونة ومدرية . وقاد دوق برويك الانجليزى ، وجيمس فتز جيمس الابن غير الشرعى لجيمس الثانى قوة فرنسية اسبانية من الغرب . استردت مدريد لفيليب الخامس (٢٢ سبتمبر) وردت الارشيدوق ومن معه من المهرطقين الانجليز الى قاطالونيا .

وفى تلك الاثناء ، وبعد أن تغلب مارلبرو على بعض العقبات السياسية فى لندن ولاهاى ، جمع هذا القائد جيشا قوامه ستون ألفا من الانجليز والهولنديين والدنمركيين ، وتقدم به نحو الأراضي الوطيئة الاسبانية ، وفى ٢٣ مايو ١٧٠٦ التقى بالجيش الفرنسي الرئيسي المؤلف من ٥٨ الف جندى بقيادة فيلروا عند رامييه بالقرب من نامور . وفى اشتداد وطيس المعركة ، ناسيا انه يجدر بالقواد أن يموتوا فى فراشهم، اندفع الى مقدمة الصفوف ، فاسقط عن جواده . وبينما كان الضابط المزافق له يعاونه على امتطاء ظهر الجواد ثانية ، اخترقت رأس الضابط قذيفة ، واسترد مالبرو عافيته وأعاد تنظيم قواته ، وقادها الى نصر دام آخر . وبلغت الخسائر فى جيشه خمسة آلاف رجل ، وفى جيش الفرنسيين خمسة عشر الفا . وتقدم وسط مقاومة لا تذكر للاستيلاء على أنتورب وبروجز وأوستند . وهناك توفر له خط مواصلات مباشر مع انجلترا ، وكان على مسافة عشرين ميلا فقط من فرنسا . وآوى فيلروا، وكان آنذاك فى الثانية والستين ، الى ضيعته محزونا ، ولكن دون تأنيب من الملك الذى قال له فى اسي وأسف « لن يواتينا الحظ بعد ذلك (٥٥) » .

وفى كل مكان ، باستثناء أسبانيا ، كان الفرنسيون الآن فى خطر ، أو كانوا يتقهقرون . وفى فيينا خلف جوزيف الأول ، وكان فى السابعة والعشرين ، أباه على عرش الامبراطورية (١٧٠٥) ، وشد من أزر قواده بدرجة كبيرة . ورد يوجين سافوى الفرنسيين عن تورين

(١٧٠٦) وعن ايطاليا (١٧٠٧) . وبمقتضى اتفاق ميـــلان أصبحت دوقيتا ميلان ومانتوا جزءا من امبراطورية النمسا ، وانتهى حـــكم « جونزاجات مانتوا » الذى كان قد بدأ ١٣٢٨ . أما مملكة نابلى التى كان يحكمها نائب الملك الأسبانى منذ عهد طويل ، فقد ارتمت بدورها فى أحضان النمسا ، ولو أنها استمرت من الوجهـة الشـــكلية ولاية بابوية ، واحتفظت الولايات البابوية باوضاعها باذن من الامبراطور الذى اخترقتها قواته الالمانية ضـــد ارادة البـــابا الذى لا حـــول له ولا قوة (٥٦) . واحتفظت فينيسيا وتسكانيا باستقلال مزعزع الاركان.

وكان لويس الرابع عشر رجلا قد تغير . وكان غرور السلطان قد زال عنه تقريبا ، ولكنه احتفظ بالوقار الهادىء لدولته . وفى ١٧٠٦ عرض على الحلفاء شروطا للصلح كان يمكن أن يتقبلـوها فرحـــين مسرورين قبل خمس سنين ، وبمقتضاها تترك أسبانيا للأرشـــيدوق كارل ، ويكتفى فيليب بميلان ونابلى وصقلية ، وتعاد مد الحـــدود والحصون الى السيطرة الهولندية فى الأراضي الوطيئة الاسبانية . وكان الهولنديون ميالين الى التفاوض ، ولكن الانجليز والامبراطور أبوا . وتولى لويس السأم والضجر ، واتجه الى تجنيد جيوش جديدة وفرض ضرائب جديدة ، حتى التعميد والزيجات لابد أن يدفع عنها ضريبة حتى تصبح قانونية . فلجأ الفرنسيون الذين أضناهم الفقر الى تعميد أبنائهم والى الزواج دون طقوس دينية ، ولو أن نتاج مثل هذا القران دمغ بأنه غير شرعى من الوجهة الرسمية (٥٧) .

وقامت الثورة فى كاهور ، وفى كرسي ، وفى بريجور . واستولت جموع الفلاحين على الحكم فى المدن ، وعلى قصـــور الاقطاعيين . وصاحت الهياكل العظمية الحية أى لاهالى الذين يتضورون من الجوع ، عند أبواب قصر فرســـاى ، مطالبين بالخبز ، فصـــدهم الحـــرس السويسرى . وظهرت اللافتات على الجدران فى باريس منذرة لويس بأنه لا يزال فى فرنسا رجـــال يريدون قتـــل الملك (٥٨) . ومنعت الضرائب الجديدة .

وفى أوائل ١٧٠٧ نشر مركيز دى فوبان الذى كانت هندســـته العسكرية عنصرا اساسيا فى الانتصارات الفرنسية فى الجيـــل الماضي ،

نشر وهو فى الرابعة والسبعين ، « اقتراحا بضريبة أعدل » . وصف المركيز شقاء فرنسا وبؤسها : « ان عشر السكان تقريبا انحطـوا الى درجة التسول ، اما غالبية التسعة الاعشار الباقية منهم فهم اقرب الى تلقى الصدقات منهم الى بذلها .. .. يقينا ان السوء قد بلغ أقصى مداه. فاذا لم يتخذ أى علاج فلسوف يقع الشعب فى براثن فقـــر لافكاك له منها ابدا » . وذكر الملك بأن « الطبقة الدنيا من الشعب هى التى تثرى الملك ومملكته بكدها وجدها ، واسهاماتها فى الخزانة الملكية » ومع ذلك فان « هذه الطبقة ، نتيجة لمطالب الحرب وفرض الضرائب على مدخراتها ، هى التى تعيش الآن فى اسمال بالية واكواخ متداعية ، على حين توقفت الزراعة فى اراضيها » لتغيب أبنائها الذين جندوا للحرب (٥٩) . ولانقاذ هؤلاء الناس ، وهم أعظم الطبقات انتاجا ، اقتبس فوبان بعض افـكار بواجلبرت ، فاقترح الغـــاء كل الضرائب القائمة ، والاستعاضة عنها بضريبة دخل تصاعدية لا تعفى منهـــا اية طبقة ، فيدفع ملاك الارض ما بين ٥ و ١٠ ٪ ويدفع العمال ما لا يزيد عن ٣ ½ ٪ . وتحتفظ الدولة باحتكار الملح ، وتفرض الرسوم الجمركية عند الحدود الوطنية فقط (٦٠) .

ويصف سان سيمون هذا الكتاب ، وكيف استقبله الناس ، فيقول :

> كان الكتاب زاخرا بالمعلومات والارقام ، مرتبة بأقصى درجة من الوضوح والبساطة والدقة . ولكنه وقع فى خطـأ جسيم ذلك انه يبسط منهجا لو اتبع لكان فيه دمار الجيش من الراسماليين والكتبة والموظفين من كل الانواع ، ولارغمهم على أن يعيشوا على حسابهم بدلا من العيش على حســاب الشعب ، وقوض أساس هذه الثروات الضخمة التى نراهـا تنمو وتزداد فى وقت قصير . وكان هذا سببا كافيا لسقوط هذا الكتاب .. وتعالت الصيحات من جانب أولئـك الذين يهمهم معارضته ... ولا عجب اذن ، فى ان الملك الذى يلتف حوله هؤلاء الناس ، أصغى الى حججهم ، واستقبل المارشال فوبان أسوأ استقبال حين قدم اليه كتابه (٦١) .

وأنبه لويس بانه رجل حالم ، قد يقلب مشروعه مالية البلاد رأسا

على عقب ، وسط أزمة الحرب . وفى ١٤ فبراير ١٧٠٧ صدر قرار من المجلس بمصادرة الكتاب وعرضه فى مشهرة . وبعد ستة أسابيع مـات المارشال العجوز ، وقدفت فى عضده واحزنه ما أصاب من خزى وعار . وتفوه الملك ببعض كلمات تعبر عن أسف جاء متأخرا « فقدت رجلا كان يحبنى حبا شديدا كما يحب الدولة (٦٢) » .

واستمرت الضرائب والحروب . وفى أغسطس ١٧٠٧ انضم فكتور أماديس الثانى دوق سافوى ـ الذى كان قد بدأ حليفا لفرنسـا ـ الى يوجين سافوى واسطول انجليزى فى حصار طولون . برا وبحرا ، حتى اذا سقطت فى أيديهم عمدوا الى مهاجمة مرسيليا ، فاذا سقطت هذه أيضا لأصبحت فرنسا معزولة عن البحر المتوسط . وأعـد جيش فرنسي جديد وأرسل ليصد الغزاة ، وأفلح فى صدهم ، ولكن فى هذه الحملة بات معظم أراضي بروفانس خرابا بلقعا . وفى ١٧٠٦ حشـد الملك جيشا قوامه ثمانون ألفا تحت قيادة مارشال فنـدوم . ودوق برجندى لمحبوب ابن الدوفين . وسيره ليوقف تقدم الحلفاء فى الفلاندرز فقابله مارلبرو ويوجين بجيش مماثل فى العدد فى أودينارد على نهر شلدت (١١ يوليه ١٧٠٨) ، ودارت الدائرة على الفرنسيين وخسروا ٢٠ ألفا بين قتيل وجريح ، كما أسر منهم سبعة آلاف . وأراد مارلبرو التقدم الى باريس ، ولكن يوجين اقنعه بمحاصرة ليـل أولا ، حتى لا تقطع حاميتها خط مواصلات الحلفاء وامداداتهم . وسقطت ليل بعد حصار دام شهرين ، بخسارة فى الأرواح قدرها خمسة عشر ألفا .

واحس لويس بأن فرنسا لم تعد قادرة على مواصلة القتال . وزاد من بؤس الشعب وشقائه أن شتاء ١٧٠٨ / ١٧٠٩ كاد أقسي شتاء وعته الذاكرة ، وتجمدت الانهار طيلة شهرين ، بل تجمدت مياه البحر على طول الشواطىء ، الى أن العربات ثقيلة الأحمال كان تسير فى أمان فوق جليد المحيطات (٦٣) . وهلكت كل المزروعات بما فى ذلك أقدر أشجار الفاكهة على احتمال قسوة المناخ ؛ وكل الحبـوب فى الأرض . كما مات فى هذا الفصل القاسي معظم الأطفال الحديثى الولادة (٦٤) . باستثناء ابن حفيد الملك ، لويس الخامس عشر فيما بعد ، الذى ولد لدوق برجندى فى ١٥ فبراير ١٧٠٩ . وفى أعقاب ذلك جاءت المجاعة فى الربيع والصيف ، واختزن المحتكرون الخبز واحتفظوا له بسـعر

عال . ويذكر سان سيمون ، وهو عادة لا يحب الملك ، أن لويس نفسه كان متهما باقتسام مغانم الاحتكارات (٦٥) . ولكن هنرى مارتن يقول « ان التاريخ يروى كثيرا الى حد أنه لا يسلم بالوصف البغيض الكئيب الذى أورده سان سيمون دون شيء من الريبة » (٦٦) . وانقذ الموقف باستيراد ١٢ مليون كيلو جرام من الحبوب من دول المغرب العربى وغيرها ، وزراعة الشعير بمجرد ذوبان الثلوج وعودة الدفء الى الأرض (٦٧) .

وأحس لويس الرابع عشر بالذلة والهوان بسبب هزائم جيوشه ونكبات شعبه ، فأرسل فى ٢٢ مايو ١٧٠٩ المركيز دى تورسي الى لاهاى ، يطلب الصلح . وكان دى تورسي مزودا بالتعليمات ليعرض النزول عن كل الامبراطورية الاسبانية الى الحلفاء ، وعن نيوفوندلند الى انجلترا ، واعادة مدن الحدود الى الهولنديين ، والتخلى عن تأييد حق آل ستيوارت فى العرش . وحاول المركيز أن يرشو مارلبرو ، فأخفق (٦٨) . وفى ٢٨ مايو قدم الحلفاء الى دى تورسي انذارا نهائيا يطالبون فيه ، لا بمجرد التنازل عن كل أسبانيا وممتلكاتها للأرشيدوق، بل كذلك يطالبون بانضمام الجيش الفرنسي الى قوات الحلفاء فى طرد فيليب من اسبانيا اذا لم يكن قد غادرها فى بحر شهرين ، والا ، (كما قدروا) تركت فرنسا حرة فى اعادة تنظيم قواتها الضاربة أثناء انشغالهم فى شبه الجزيرة . وأجاب لويس بانه يعز عليه أن يطلب منه استخدام القوة لطرد حفيده من أسبانيا التى كانت قد هبت من فورها لمساندة فيليب . وقال « اذا كان لابد من مواصلة القتال ، فلأ قاتل أعدائى ، لا ابنائى (٦٩) » .

وأثارت مطالب الحلفاء شعور الاستياء فى فرنسا . وانضم الرجال عن طيب خاطر الى القوات المسلحة ، وكان كل همهم أن يجدوا الطعام ، وأرسل النبلاء ما لديهم من فضة الى دار سك العملة ، وراوغت السفن الفرنسية الانجليز الهولنديين ، واحضرت من أمريكا سبائك تقدر قيمتها بثلاثين مليونا من الفرنكات . وحشد جيش جديد قوامه تسعون ألفا ، وضع تحت امرة فللار الذى لم يتمكن الحلفاء من هزيمته من قبل ، وفى الوقت نفسه جمع مارلبرو مائة وعشرة آلاف جندى . والتقى الجمعان فى مالبلاكية (على الحدود المواجهة لبلجيكا) فى أعنف

معركة فى القرن الثامن عشر . وفقد مارلبرو ٢٢ الف رجل فى انتصاره الاخير ، وخسر الفرنسيون ١٢ الفا ، من بينهم فللار الباسل ، الذى كان فى السادسة والخمسين ، واندفع على رأس قواته ، ثم حملوه من الميدان وقد بترت احدى ركبتيه قذيفة مدفع . وتقهقر الفرنسيون بانتظام واتجه الحلفاء للاستيلاء على مونز . وكتب مارلبرو الى زوجته يقول « الحمد لله والشكر لله ، ان فى مقدورنا الآن أن نحصل على الصلح الذى نريده (٧٠) » .

ويبدو أن الامر كان كذلك . فمن الواضح أن فرنسا كانت قد بذلت أقصى ما فى جعبتها ، فمن أين لها بجيش ثان من بين أسراتها المنهوكة التى استنزفت دماء أبنائها ، وكيف تطعمه وحقولها مهجورة مقفرة ؟. لقد عمت الفوضى الزراعة والصناعة والنقل والتجارة والمالية ـ لقد أصاب كل هذا المرافق دمار وانحلال ، يهيئان للاعداء المتقدمين احتلال فرنسا وتمزيق أوصالها . ان الملك الذى كان يوما معبود الشعب « الذى بعثه الله اليهم » بدأ يفقد حبهم بل احترامهم له . انه كان ينأى بنفسه عن باريس ، لأنه لم تغب عن ذاكرته جماعة الفروند المعادية . واستاءت المدينة لطول نفوره منها وتباعده عنها ، وما أشد ما استهجنت النكات والشتائم والنشرات واللافتات كبرياءه الاستبدادية استهجانا لاذعا (٧١) . وتساءل الناس متعجبين ، كيف تكتظ قاعات فرساى ، وسط املاق فرنسا وعوزها ، برجال الحاشية المقامرين الخاملين المترفين ، على حين أن الملك وزوجته قد ركنا الى شيء من التقوى وكبح جماح النفس . « ولم تخفض نفقات الحاشية ولم ينقص عدد موظفيها حتى النهاية (٧٢) » . وأنشد بعض الباريسيين الذين لا يجدون الخبز رواية معدلة من « دعاء الرب » ، لم يستثنوا فيها لويس ولا زوجته ولا وزير خارجيته وماليته الجديد :

> يا الهنا الذى فى فرساى ، لم يعد اسمك يقدس ، ولم تعد مملكتك عظيمة ، ولم تعد مشيئتك تنفذ فى البر والبحر ، اعطنا الخبز الذى نفتقد فى كل مكان ، اغفر لأعدائنا الذين قهرونا ، لا لقوادك الذين هيأوا لهم أن يفعلوا ذلك . لا تستسلم لكل اغواءات لامينتنون ، ولكن خلصنا من شاميللارد (٧٣).

وقالت مدام مينتنون ترثى لحال الملك : « انهم يلومونه ويؤنبونه بسبب نفقاته ، انهم يودون الاستغناء عن جياده وكلابه وخدمه ٠٠ ٠٠ انهم يريدون أن يرجمونى بالحجارة لأنهم يتصورون أنى لا أبلغه شيئا كريها خشية ايلامه (٧٤) » ٠

وكان النبلاء لا يزالون على ولائهم للملك الذى أكرمهم وحماهم ، ولكن وطنيتهم تزعزعت ، حين طالب الملك ، كآخر سهم فى جعبته ، بعشر دخولهم (١٧١٠) ٠ ان الضريبة العامة التى اقترحها فوبان قبل ذلك بثلاثة أعوام لتحل محل كل الضرائب الاخرى ، أضيفت الآن الى سائر الضرائب ٠ وكان للفقراء بعض العزاء فى أن يروا جباة الضرائب الكريهين يدخلون بيوت الاغنياء لفحص حساباتهم ٠ وكره الملك أن يقتحم الخزائن السرية الخاصة ، ولكن قسيس اعترافه ، الأب تلييه ، أكد له أن من رأى أساتذة السوربون « ان كل ثروة رعاياه ثروته ، فاذا أخذها فكأنما يستولى على شيء يخصه (٧٥) » ٠ وبالمثل عانت الطبقات الوسطى العليا شيئا من الخلخلة فى الحماسة العسكرية ، حيث انقطع دفع الفوائد عن السندات الحكومية ٠ وقال سان سيمون : « ان اعادة سك العملة وتخفيض قيمتها » أتاحا للملك بعض الأرباح ، ولكنهما جلبا الدمار على أناس بعينهم ، كما أديا الى الخلل فى التجارة مما كان فيه توقفها التام (٧٦)»٠ وأعلن كبار رجال المصارف ، مثل صمويل برنارد ، الافلاس ، فأدى ذلك الى تعطل كل الأعمال فى ليون ٠ « كان كل شيء ينهار شـــيئا فشيئا ، واستنزفت المملكة بأسرها ، ولم تدفع للجند رواتبهم ، عـلى أن أحدا لم يكن يتصور ماذا فعـــل بالملايين التى وصلت الى خـــزائن الملك (٧٧) » ٠

وفى مارس ١٧١٠ عاد لويس فطلب الى الحلفاء عقـد الصلح ، وعرض أن يعترف بالأرشيدوق ملكا على أسبانيا ، والا يقدم أى عون لفيليب ، بل أن يدفع بعض الأموال للعمل على خلعه ، وأن يتخلى للحلفاء عن ستراسبورج ، وبريزاخ ، والالزاس وليـــل وتورنى وايبر ومينن ، وفورن وموبرج ، ولكنهم لم يعرضوا عليه صلحا ، بل هدنة مدتها شهران ، وكان على لويس بقواته الفرنسية وحـــدها دون أية مساعدة من أى جانب آخر ، أن يطرد فيليب من أسبانيا ، فاذا عجـز عن تحقيق ذلك فى فترة الشهرين ، استأنف الحلفاء القتال (٧٨) ٠

ونشر لويس هذه الشروط على شعبه الذى اتفقت كلمته على انهـــا شروط يستحيل قبولها ٠

وحشدت فرنسا ، بطريقة ما جيوشا جديدة ، وعندما غزا الارشيدوق أسبانيا مرة ثانية بقوات انجليزية ونمساوية ، وشق طريقه لاخـــراج فيليب من مدريد مرة أخرى ، أرسل لويس لحفيده خمسة وعشرين الف جندى بقيادة دوق فندوم ٠ واستطاع الدوق بمساعدة المتطوعين الأسبان أن يهزم الغزاة فى بريهوجا وفللافيكيوزا (ديسمبر ١٧١٠) ٠ وبهـذا أعاد فيليب بشكل قاطع الى عرشه ، وبقيت أسبانيا تحت حكم البوربون حتى عام ١٩٣١ ٠

وفى نفس الوقت كانت ريح السياسة تغير اتجاهها فى انجلترا ٠ وكانت الملكة قد كتبت فى ١٧٠٦ « لست أطمع فى شيء ٠٠ الا أن أرى صلحا مشرفا ، حتى اذا اقتضت مشيئة الله أن أفارق الحياة ، وجدت كل الارتياح والطمانينة فى أن أترك بلدى المسكين وكل أصدقائى فى سلام وهدوء (٧٩) » ٠ وكانت الملكة آن تلتزم سياسة الحرب تحت تأثير دوقة مارلبرو العنيفة الملتهبة حماسة ، ولكن ضعف هذا التأثير الآن ، وعزلت الملكة الدوقة (ساره) من خدمتها (١٧١٠) ، وانحـــازت صراحة الى « المحافظين » ، وكان التجار والصناع والرأسماليون قد افادوا من الحرب (٨٠) ، وأيدوا « الاحرار » صانعى الحـرب ٠ أما ملاك الأراضي فقد خسروا لأن الحرب أدت الى زيادة فى الضرائب وتضخم فى العملة ، ومن ثم شجعوا الملكة فى تطلعهـــا الى الســـلام ٠ وفى ٨ أغسطس عزلت جودولفين ، مساعد مارلبرو الايمن ، ورأس هارلى وزارة من المحافظين ٠ ومالت انجلترا نحو السلام ٠

وفى يناير ١٧١١ أرسلت الحكومة الانجليزية الى باريس سرا ، قسيسا فرنسيا ، هو الأب جولتيه الذى كان قد اقام فىلندن زمنـــا طويلا ، وقصد الى تورسي فى فرساى ، وساله « هل تريد السلام ؟ لقد جئتك بوسائل تحقيقه ، مستقلا عن الهولنـديين (٨١) » ٠ وتقدمت المفاوضات ببطء ، وفجاة ، وفى سن مبكرة بشكل يثير الدهشة ، سن الثانية والثلاثين توفى جوزيف الاول (١٧ أبريل ١٧١١) واصبح الارشيدوق أمبراطورا يحمل اسم شارل السادس، ووجدالانجليز والهولنديون الذينكانوا قد وعدوه باسبانيا كلها ، انهم يواجهون ، نتيجة لانتصاراتهم الباهظة

التكاليف ، امبراطورية هبسبرجية مترامية الأطراف ، تهدد بالخطر الشعوب البروتستانتية وحرياتها ، مثلها فى هذا وذاك مثل امبراطورية شارل الخامس . وهنا عرضت الحكومة الانجليزية على لويس الاعتراف بفيليب ملكا على أسبانيا ومستعمراتها الامريكية ، مع بعض شروط معتدلة نسبيا : منها الضمانات ضد اتحاد فرنسا وأسبانيا تحت تاج واحد ، وحصون على الحدود لحماية المقاطعات المتحدة والمانيا من غزو فرنسا لها فى المستقبل ، واعادة الفتوحات الفرنسية الى وضعها السابق ، والاعتراف بحق ارتقاء الملوك البروتستانت الى العرش فى انجلترا ، وطرد جيمس الثالث من فرنسا وتجريد دنكرك من السلاح ، وتثبيت ملكية انجلترا لجبل طارق ونيوفوندلند ومنطقة خليج هدسن ، ونقل حق بيع الرقيق للمستعمرات الاسبانية فى أمريكا ، من فرنسا الى انجلترا . ووافق لويس على هذه الشروط مع تعديلات طفيفة . وأبلغت انجلترا لاهاى أنها تحبذ عقد الصلح على هذه الأسس . ووافق الهولنديون عليها ، أساسا صالحا للمفاوضات ، واتخذت الترتيبات لعقد مؤتمر للسلام فى أوترخت . وعزل مارلبرو الذى كان يرى الحرب أكثر ربحا (٣١ ديسمبر ١٧١١) وعين مكانه جيمس بتلر ، دوق أورمند الثانى ، الذى زود بتعليمات تقضي بعدم الاشتباك فى أى قتال الا عند تلقى أوامر جديدة .

وعلى حين انعقد المؤتمر فى أوترخت (أول يناير ١٧١٢) ، واصل القتال يوجين الذى أعتبر الشروط الانجليزية للصلح خيانة لقضية الامبراطورية . وتقدم يوما بعد يوم ليهاجم خط الدفاع الذى أقامه فيلار المجد النشيط . وفى ١٦ يوليه أبلغت لندن أورمند أن انجلترا وفرنسا وقعتا هدنة ، وأنه يجب بناء على ذلك انسحاب قواته الانجليزية الى دنكرك . وامتثلت هذه القوات للأمر ، ولكن الكتائب التى كانت تحت امرة أورمند فى القارة ، اتهمت الانجليز بأنهم آبقون هاربون من الجندية ، ووضعت نفسها تحت قيادة يوجين . وكان لدى الأمير آنذاك نحو مائة وثلاثين الفا ، ولدى فللار نحو تسعين الفا ، ولكن فى ٢٤ يوليه انقض المارشال اليقظ على كتيبة قوامها اثنى عشر الفا من الهولنديين عند دنين (بالقرب من ليل) وأبادها قبل أن يتمكن يوجين من القدوم لنجدتها . وتراجع الأمير عبر الفلندت ليعيد

تنظيم جيشه الصعب الانقياد ، وتقدم فيللار للاستيلاء على دواى ولى كزنوى ، وبوشان ، وتشجع لويس وفرنسا ، لأن هذه كانت الانتصارات الفرنسية الوحيدة على الجبهة الشمالية ، ولكنها ، بالاضافة الى انتصارات فندوم فى أسبانيا اضفت قوة جديدة على المفاوضين الفرنسيين فى أوترخت .

وبعد خمسة عشر شهرا من المراسم والشكليات والمناقشات ، وقع أطراف النزاع ، فيما عدا الامبراطور ، صلح أوترخت (١١ أبريل ١٧١٣) وتنازلت فرنسا لبريطانيا عن كل ما وعدت به من قبل فى المفاوضات التمهيدية ، بما فى ذلك احتكار تجارة الرقيق الرائجة ، التى تعتبر وصمة عار لذاك العصر . وقدم العدوان القديمان تنازلات متبادلة عن رسوم الواردات ، وأعاد الهولنديون لفرنسا ليل واير وبيتون ، ولكنهم احتفظوا بالسيادة على كل الأراضي الوطيئة حتى يتم عقد الصلح مع الامبراطورية ، على حين يستولى ناخب بافاريا على شارلروا ولكسمبرج ونامور ، وأعيدت نامور الى دوق سافوى . واحتفظ فيليب الخامس بأسبانيا وأمريكا الاسبانية . ورفض ثم عاد فوافق (١٣ يوليه) على التخلى عن جبل طارق ومينو رقة لانجلترا . وواصل يوجين سافوى القتال ضد البريطانيين لشعوره بالمرارة نحوهم لتوقيعهم صلحا منفردا . ولكن خزانة الامبراطورية أصبحت خاوية ، ونقص جيشه الى ٤٠ الفا ، على حين كان فيللار يتقدم نحوه بمائة وعشرين الفا . واخيرا قبل دعوة لويس الرابع عشر له للقاء فيللار لوضع شروط للصلح . وبمقتضي معاهدة راستات (٦ مارس ١٧١٤) احتفظت فرنسا بالالزاس وستراسبورج ، ولكنها أعادت الى الامبراطورية كل الفتوحات الفرنسية على الضفة اليمنى لنهر الراين ، واعترفت بحلول النمسا محل أسبانيا فى حكم ايطاليا وبلجيكا .

وبذلك حققت معاهدتا أوترخت وراستات أكثر قليلا مما كان يمكن أن تحققه الدبلوماسية بالوسائل السلمية فى ١٧٠١ . وبعد ثلاثة عشر عاما من القتل والابادة والفقر والتخريب ، ثبتت هاتان المعاهدتان خريطة أوربا لمدة ستة وعشرين عاما ، كما ثبتتها معاهدات وستفاليا لمدة جيل واحد بعد حرب الثلاثين عاما . وكانت المهمة فى كلتا الحالتين اقامة توازن القوى بين أسرتى هبسبرج والبوربون . وقد تم هذا بالفعل . وقام شبيه لهذا التوازن بين فرنسا وانجلترا فى أمريكا واستمر حتى نشوب حرب

السنين السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) .

وأهم الخاسرين فى هذا النزاع الدموى حول الوراثة الاسبانية هما هولنده وفرنسا ، لقد كسبت الجمهورية الهولندية أرضا ، ولكنهـــا خسرت سيادة على البحر ، فلم تعد قادرة على مباراة انجلترا فى حمولة السفن أو فى فن الملاحة أو فى الموارد أو فى الحرب ، ان انتصارهـا استنزفها وأنهكها ، فبدأت تضمحل . كذلك ضعفت فرنسا الى حد يكاد يكون خطيرا . لقد بقت على مرشحها لعرش أسبانيا ، ولكنها أخفقت فى الابقاء على امبراطوريته سليمة لم تمس ، ودفعت ثمنا لهذا النصر القاتم الذى فقد بريقه ، حياة مليون من ابنائها بالاضافة الى ضـــياع سيادتها فى البحار ، وانهيار حياتها الاقتصادية بصفة مؤقتة . ولم تكن فرنسا لتفيق وتلتقط أنفاسها من عصر لويس الرابع عشر ، قبـــل ظهور نابليون ، ولكن لمجرد أن تعيد مأساة لويس .

أما الفائزان فى الحرب فهما النمسا داخل القارة ، وانجلترا فى كل مكان خارجها . فقد استولت النمسا آنذاك على ميلان ونابلى وصقلية وبلجيكا ، وأصبحت أعظم قوة فى أوربا حتى ارتقاء فـردريك الأكبر العرش (١٧٤٠) . وفكرت انجلترا فى السيادة على البحار أكثر مما فكرت فى التوسع فى الارض . وحصلت على نيوفوندلند ونوفا سكوشيا، ولكن كان تحكمها فى طرق التجارة اكبر قيمة لديها . وأرغمت فرنسا على تخفيض رسومها الجمركية ، وعلى أن تجرد من السلاح قلعةدنكرك وثغرها اللذين كانا يشكلان خطرا على السفن الانجليزية . وبفضل جبل طارق فى أسبانيا ، وبورت ماهون فى مينورقة استطاعت انجلترا أن تسيطر على البحر المتوسط . ولم يكن لهذه المكاسب مشـــهد مثير فى ١٧١٣ ، ولكن كان لابد أن تدون نتائجها فى تاريخ القرن الثامن عشر . وفى نفس الوقت أمنت العقيدة البروتستانتية وارتقاء البروتستانت الى العرش شر العوادى ، اللهم الا نسبة المواليد .

وثمة نتيجة هامة للحرب ، تلك هى اشتداد الروح القومية ، وروح الكراهية بين الدول ، حيث نسيت كل أمة مكاسبها وتذكرت جراحها . فما كان لألمانيا أن تغفر اجتياح البالاتينات وتخريبها مرتين . ولم تكن فرنسا لتنسي بمرعة المذابح التى لم يســـبق لها مثيل فى انتصـــارات

مارلبرو ، وكانت أسبانيا تعانى كل يوم عار وقوع جبل طارق فى أيد أجنبية . وباتت كل أمة ترقب أن تحين الفرصة للانتقام .

ان بعض ذوى النفوس الكريمـــة الذين اعتقدوا أن أوربا قـارة المسيحيين راودهم حلم الوصول الى بديل عن الحرب . وكان شـارل كاسل ، من رهبان كنيسة القديس بطرس قد رافق الوفد الفرنسي الى وترخت ، فلما عاد نشر خطة لتثبيت دعائم السلام الجديد ، وتمنى لو ان أمم أوربا أتيح لها أن تتحد فى « عصبة امم » مع مؤتمر دائم من المندوبين عنها ، ومجلس للتحكيم فى النزاع ، ونظام لقانون دولى ، وقوة مسلحة مختلطة للوقوف فى وجه أية دولة متمردة ، وتخفيض أى جيش وطنى الى ستة آلاف رجل ، وايجاد مقاييس وعمـلة موحـــدة تستخدم فى كل انحـــاء أوربا (٨٢) . وقـــدم الراهب مشروعه الى ليبنتز ، الذى لم يعد يثق بأن هذا افضل العوالم الممكنة ، فذكر الراهب « بأن ثمة قدرا مشئوما يعترض دوما طريق الانســـان الى تحقيـــق سعادته (٨٣) » فالانسان حيوان نزاع الى المنافسة ، وخلقه هو قدره .

٦ ــ أفول نجم الاله : ١٧١٣ ــ ١٧١٥ :

ان لويس الرابع عشر ، لو حكمنا عليه بمعايير عصره ، لم يكن الغول البشع ، الذى صورة المؤرخون المعادون ، وكل الذى اقترفه هذا الملك هو انه طبق على نطاق أوسع ، ولفترة من الزمن ، مع نجـــاح بغيض ، نفس أساليب الحكم المطلق والتوســـع الاقليمى ، والغـــزو العسكرى التى تميز بها سلوك اعدائه ومطامعهم ، بل ان وحشية جيوشه فى البالاتينات كانت لها سابقة فى اعمال السلب والنهب فى مجدبرج (١٦٣١) ، وخاتمة فى مذابح مارلبرو . على حين أن لويس تميز بانه قد امتد به الأجل حتى تثار منه فى شخصه ، لا فى أبنائه ، « ربات الانتقام » لكل ما جنى عليه غروره وصلفه وسلطانه من آثام .

ولم يبخسه التاريخ حقه فى شيء من الاعجاب بما ابدى من شجاعة ووقار عند هزيمته ، كما استشعر شيئا من الاشفاق عليه فى الكوارث التى دمرت تقريبا أبناءه وجيوشه وأساطيله فى وقت معا . وفى ١٧١١ مات ابنه الشرعى الوحيـــد « الدوفين الاكبر » لويس ، تاركا وراءه الملك وحفيدين صغيرين لويس دوق برجندى ، وشارل دوق برى . وتحلى

لويس الأصغر بمناقب عظيمة بفضل رعاية فنيلون وسهره على تربيته وتهذيبه ، وأصبح عزاء الملك وسلواه فى شيخوخته . وفى ١٦٩٧ تزوج لويس الاصغر من مارى أدليد سافوى ، التى ذكر جمالهـــا وذكاؤهـــا ومفاتنها ، الملك بمدام هنريتا وشبابه السعيد معها . ولكن فى ١٢ فبراير ١٧١٢ أودت الحمى المتقطعة بهذه الروح المرحة فى ســـن السادســـة والعشرين . وأبى زوجها المخلص أن يتخلى عن سرير مرضها ، فانتقلت اليه العدوى ، ومات بنفس المرض فى ١٨ فبراير وهو فى سن التاسعة والعشرين ، بعد وفاة أبيه بعام واحد . وانتقلت العدوى منهمـــا الى طفليهما ، ومات أحدهما فى ٨ مارس فى سن الثامنة ، أما الأصغر فقد بقى على قيد الحياة ، فى حالة من الضعف والهزال لم يكن أحد يحلم معها بانه سيعيش ليحكم فرنسا حتى ١٧٧٤ باسم لويس الخامس عشر . ولو أن هذا الصبى الهزيل قضي نحبه لكان وريث العرش شـــارل دوق برى ، ولكن شارل توفى ١٧١٤ .

وكان ثمة خليفة آخر يمكن أن يؤول اليـــه العرش ـ هو فيليب الخامس ملك أسبانيا الابن الأصغر للدوفين الأكبر ، ولكن نصف أوربا تعهد بالحيلولة بينه وبين الجمع بين التاجين . وكان يليه فى ترتيب الوراثة ، فيليب دوق أورليان حفيـــد لويس الثالث عشر ، وابن أخى الملك وزوج ابنته . ولكن فيليب هذا كان له معمل واصل فيه تجـــاربه فى الكيمياء . ولذلك تناقل الناس اتهامه بدس السم لدوق ودوقة برجندى وابنهما الاكبر . وقد اختلف الأطباء الذين قاموا بفحص الجثث الثلاث وتشريحها بعد الوفاة حول استخدام السم ، واستشاط فيليب غضبا لهذه الشبهات ، وطلب الى الملك أن يقدمه لمحاكمة علنية ، واعتقد لويس أنه برىء ، وأبى تعريضه للمحاكمـــة والتعذيب حتى تثبت براءته أو ادانته ، وأن يلحق به هذا العار .

وكان ثمة ملجأ أوحل أخير ، اذا أخفقت فروع الوراثة هذه . ذلك أن الملك كان قد أضفى الصفة الشرعية على ابنيه غير الشرعيين دوق مين وكونت وف تولوز . وفى ذلك الوقت (يوليه ١٧١٤) أصدر الملك مرسوما سجله برلمان باريس دون معارضة ، ينص على أنه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهم الدم الملكى ، يكون لهذين الابنين غير الشرعيين سابقا حق وراثة العرش . وبعد سنة من ذلك ، أصـــدر

مرسوما آخر بمساواتهما فى الرتبة من الوجهة القانونيـــة بالأمـــراء الشرعيين ، وكان لهذا القرار وقع الصاعقة على سان سيمون والنبــلاء الآخرين (٨٤) ، وكانت أمهما مدام دى مونتسـبان قد ماتت ، ولكن امهما بالتنشئة ، زوجة الملك ، أحبتهما مثل أولادهـــا . واستخدمت نفوذها للنهوض بهما فى مراقى الشرف والسلطة والجاه .

وفى غمرة هذه المشاكل وفقدان الاولاد ، واجه لويس الازمة الاخيرة فى الحرب . وعندما كان يودع فيللار الذى كان فى طريقه لملاقاة يوجين الذى كان يتقدم الى جبهة بلجيكا ، انهارت فجأة قوى الملك الذى كان آنذاك فى الرابعة والسبعين ، وهو يقول « انت ترى الآن حالى أيهـــا المارشال ، ليس ثمة الا أمثلة قليلة لما أصابنى ـ أفقد فى نفس الشـــهر حفيدى وحفيدتى وابنهما وكانوا جميعا واعدين مبشرين بحسن المستقبل ، وكم كنت أحبهم . ان الله يعاقبنى ، وانا استحق العقاب ، سـيخف عذابى فى الدار الآخرة » . ولما افاق استطرد يقول : « فلنطرح جانبا المآسي والنوائب المنزلية ، لنرى كيف نتفادى كوارث المملكة . انى أعهد اليك بقوات الدولة وبتخليصها . قد لا يحالفك الحظ ، فاذا حلت الكارثة بالجيش الذى تتولى قيادته ، فماذا فى رأيك هى الخطة التى انتهجها انا شخصيا ؟ » ولم ينبس فيللارد ببنت شفة . فقال الملك « لا يدهشنى الا تجيبينى على الفور . وفيما انتظر أن تفصح لى عن رأيك ، أبلغك انا رأيى . انى اعرف تفكير رجال حاشيتى ، انهم جميعـا تقريبـــا يريدوننى أن آوى الى بلوا (مدينة فى أوسط فرنسا على نهر اللوار) اذا حلت الهزيمة بجيشي . أما بالنسبة لى ، فانا أعلم ، أن جيوشا بمثل هذه الضخامة لا يمكن أبدا أن تنهزم الى الحد الذى لا يستطيع معـــه الجزء الاكبر منها أن يرتد الى السوم . وهو نهر من الصعب عبوره ، وينبغى أن اذهب الى بيرون او سانت كنتان ، وأجمع هنـــاك كل ما ستطيع جمعه من قوات ، وابذل معك محاولة أخيرة ، فاما هلكنا معا او انقذنا الدولة (٨٥) » .

وخدع انتصار فيللار فى معركة دنين الملك بالأمـــل فى ميتـــة بطولية . ولكنه بقى على قيد الحياة بعد المعركة بثلاثة أعوام ، وبعد الصلح بعامين . وفيما عدا الناصور الشرجى الذى شفى منه منذ فترة طويلة ، ظل الملك يتمتع بالصحة الى حد معقول لمدة سبعين عاما . ولم

يعتدل فى مأكله ، ولكنه لم يصبح بدينا قط . ولم يسرف فى الشراب ، ولم يهمل القيام بتمرينات رياضية قوية فى الهواء الطلق ، الا لأيام قلائل ، حتى فى الشتاء القارس ١٧٠٨ ـ ١٧٠٩ . ومن العسير ان نجزم بانه كان يمكن أن يعمر أطول مما عاش ، اذا كان عدد اطبائه أقل مما كان عليه ، أو أن الأدوية المسهلة والفصد وامتصاص العرق وغير ذلك مما استخدموا فى علاجه ، كانت أسوأ أثرا من الامراض التى قصدوا الى انقاذه منها . وفى ١٦٨٨ أعطاه أحد الأطباء دواء مسهلا قويا الى حد أن مفعوله ظهر احدى عشرة مرة فى ثمان ساعات ، أحس بعدها بشيء من التعب ، كما قالوا (٨٦) . وعندما رسم ريجو فى ١٧٠١ الصورة المتألقة فى اللوفر ، فانه أبرز لويس وكأنه لا يزال متغطرسا مزهوا بالقوة والنصر والغلبة والملابس الرسمية ، والشعر الأسود المستعار الذى يخفى المشيب ، والوجنات المنتفخة التى تنم على الشهوة ، وبعد ذلك بسبع سنين أبرزه كويسفوكس فى التمثال الضخم فى نوتردام ، راكعا يصلى ، ولكن لايزال أشد شعورا بالملكية منه بالموت ، وربما كساه الفنانون بزهو واعتداد بالنفس أكثر مما أحس هو به ، لأنه كان قد تعلم فى سنوات الخيبة والاخفاق والمحن المتفاقمة ، أن يتقبل اللوم والعتاب فى شيء من التواضع والخضوع ، على الأقل من مينتنون (٨٧) . وأصبح كالطفل بين يدى يسوعى متعصب هو تلييه الذى كان قد خلف الأب لاشيز « كاهن الاعتراف للملك » فى ١٧٠٩ . « ان خليفة شارلمان طلب الصفح عن خطاياه من ابن أحد الفلاحين (٨٨) » وارتفعت الى السطح المبادىء القوية للكثلكة والتقوى التى كان قد تلقاها عن امه ، حين انحسرت الآن الأهواء والعواطف ، وفقدت العظمة بريقها . وراجت شائعة بان الملك فى موجة تبتله كان قد انتسب الى جماعة اليسوعيين فى ١٧٠٥ ، وأضافت أنه فى مرضه الأخير أخذ على نفسه العهد الرابع أن يكون عضوا كامل العضوية فى « جماعة يسوع (٨٩) » .

وفى يناير ١٧١٥ فقد الملك شهيته المعهودة ، واشتد توجعه بشكل واضح الى حد المراهنة فى هولنده وانجلترا على أنه لن يعيش عامه (٩٠) فلما قرأ قصاصات الانباء عن هذا الرهان سخر منها وظل على منهجه المعتاد فى حضور المؤتمرات واستقبال السفراء وعرض الجند والصيد ،

وكان يختم يومه مع زوجته المخلصة المنهوكة مينتنون ، وهى آنذاك فى التاسعة والسبعين • وفى ٢ أغسطس كتب وصية عين بمقتضاها دوق مين وصيا على لويس الخامس عشر ، وعين الدوق رئيسا لمجلس وصاية يتولى حكم فرنسا حتى يبلغ الصبى رشده • وفى ١٢ أغسطس انتشرت القروح فى ساقه وتسممت (أصيبت بالغنغرينا) وأصبحت كريهة الرائحة ، وانتابته الحمى ولزم الفراش وفى ٢٥ أغسطس كتب ملحقا للوصية عين فيه فيليب أورليان رئيسا لمجلس الوصاية • على أن يكون له الصوت المرجح عند انقسام الآراء • وقال لاثنين من القضاة تسلما الوثيقة : « لقد كتبت وصية ، انهم ـ (وربما كان يقصد مينتنون ودوق ودوقة مين وأنصارهم) ألحوا علىّ فى كتابتها ، وكان لزاما أن اشترى راحتى • ولكن لن يكون لها أية قيمة بمجرد أن ألفظ أنفاسي الأخيرة • انني اعلم جيدا ماذا كان من أمر وصية والدى (٩١) » • وقدر لهذه الوصية المضطربة أن تكتب فصلا فى التاريخ الفرنسي •

ومات لويس « ملكا » تكلله كل مظاهر الملكية • وبعد تناول الأسرار المقدسة وجه الى رجال الدين الذين أحاطوا بسريره ، اعترافا اضافيا لم يقابلوه بالترحيب :

يؤسفنى أن أترك شئون الكنيسة فى وضعها الراهن • انى أجهل الموضوع جهلا تاما كما تعلمون • وانى لأدعوكم لتكونوا شهداء على انى لم أفعل الا ما أردتم أنتم ، وانى فعلت كل ما أردتم ، وستقفون أنتم بين يدى الله لتجيبوا عن كل ما تم عمله • انى أحملكم مسئولية هذا أمام الله • ان لى ضميرا نقيا • وما أنا الا جهول أسلمت نفسي لتوجيهكم (٩٢)•

ثم وجه الحديث الى رجال الحاشيته :

أيها السادة ، أسالكم الصفح عن المثل السيىء الذى ضربته لكم • وينبغى أن أقدم لكم أجزل الشكر على الطريقة التى خدمتمونى بها ، على الاخلاص الذى ظهرتموه دائما • وأرجوكم أن تقدموا نفس الغيرة والاخلاص اللذين منحتمونى اياها لحفيدى ، انه صبى قد يكون أمامه أن يعانى كثيرا • وكل أملى أن تعملوا جميعا من أجل الاتحاد • فاذا قصر احد فى هذا فعليكم أن تحاولوا رده الى جادة الصواب والواجب • انى الحظ انى أترك لمشاعرى العنان فتستبد بى ، وانى أسبب لكم شيئا من الضيق ، فاغفروا لى هذا كله • وداعا

أيها السادة ، أنا واثق أنكم ستذكرونني أحيانا (٩٣) .

وطلب الى دوقة فنتادور احضار حفيده وكان فى سن الخامسة ، فقال له ، طبقا لرواية الدوقة : -

> أى بنى ، انك ستصبح ملكا عظيما ، لا تتبع مسلكى فى البناء أو فى الحرب ، حاول ، على العكس ، أن تكون فى سلام مع جيرانك . اترك ما لله لله ، ووف بالتزاماتك نحو الله ، واحمل رعاياك على تقديسه وطاعته ، وحاول أن تخفف عن شعبك ، وهذا ما لم أفعله أنا ، لسوء الحظ . ولدى العزيز ، انى أمنحك بركتى من كل قلبى (٩٤) .

والتفت الى اثنين من الخدم رآهما يذرفان الدمع وقال « لماذا تبكيان ، هل ظننتما أنى مخلد (٩٥) ؟ . ثم اتجه الى مدام مينتنون ليعيد اليها شيئا من الطمانينة وقال : « لقد ظننت أن الموت أصعب من ذلك . أؤكد لك أنه ليس عملية فظيعة ، انه لا يبدو لى شاقا مطلقا (٩٦) » . وطلب اليها ان تتركه ، وكانما كان يدرك أنها ستصبح بعد موته نفسا ضائعة وسط الوعى الطبقى السائد بين أفراد حاشيته . فآوت الى جناحها ، ووزعت اثاثها بين مرافقيها وخدمها ، ورحلت الى سان سير التى لم تبرحه حتى وفاتها ١٧١٩ .

وكان الملك يتحدث فى ثقة بالغة ، ثم قضي ليلة طويلة فى كرب شديد يعانى سكرات الموت وهو فى النزع الأخير ، حتى وافاه الأجل فى أول سبتمبر ١٧١٥ ، ومن سنوات عمره السبع والسبعين ، قضي اثنين وسبعين عاما على العرش ، وهذا أطول حكم فى تاريخ أوربا . أما رجال الحاشية القلقون على وظائفهم ، فانهم حتى قبل أن تحين اللحظة الاخيرة هجروه ليقدموا ولاءهم واجلالهم الى فيليب اورليان ودوق مين . واجتمع بعض اليسوعيين حول الجثمان ليقوموا بالطقوس المعهودة لمن مات من ابناء طائفتهم (٩٧) . وتلقى اهالى باريس نبأ موت الملك على أنه خلاص مبارك من حكم طال اكثر مما ينبغى ، ورأى عظمته يلطخها البؤس والهزيمة . ولم يوفروا الا القليل من مظاهر الأبهة والعظمة للجنازة التى سارت بجثمان اشهر ملك فى تاريخ فرنسا الى سان دنيس فى ٩ سبتمبر . قال فولتير « على طول الطريق رأيت خياما صغيرة منصوبة يشرب فيها الناس ويغنون ويسمرون (٩٨) » وكان دوكلوس آنذاك فى الحادية عشرة ، ولكنه تذكر فيما بعد « أن كثيرا من الناس بلغ من حقارتهم أنهم كانوا يصبون اللعنات والشتائم عند مرور النعش بهم (٩٩) » .

وفى تلك اللحظة تذكر الباريسيون اخطاء الملك الراحل ، وبدت لهم فى وضوح غطى على ما عداها . واحسوا ان حبه للجاه والسلطان والعظمة قاد فرنسا الى حافة الخراب . وكرهوا غطرسته واعتداده بنفسه اللذين دمرا الحكم الذاتى المحلى ، وركزا كل الحكم فى ارادة واحـدة لا يستطيع احد أن يتحـداها . ورثوا لملايين الفرنكات التى انفقت والآف الارواح التى أزهقت فى تجميل فرساى ، وصبوا اللعنات على اهمال الملك شان عاصمته الشاغبة المتمردة . وابتهجت فئة قليلة لان اضطهاد الجانسنيين قد يتوقف بعد موته ، على ان اغلبية كبيرة ظلت تمتدح طرد الهيجونوت . وفى استرجاع الأحداث الماضـية والتامل فيها ، كان واضحا أن غزو هولنده فى ١٦٧٢ ، وغزو المانيا ١٦٨٨ ، والتسرع فى الاستيلاء على مدن الحدود فى ١٧٠١ ، كانت كلها أخطاء جسيمة جلبت على فرنسا عداوة الكثيرين من كل جانب . ولكن كم من الفرنسيين كانوا قد استنكروا هذه الفتوحات ، ونطقوا بكلمة حق فى اجتياح البالاتينات ؟ لقد كانت الامة آثمة مدانة قدر اثم مليكها وادانته ، انها لم تاخذ عليه جرائمه بل هزائمه . انها ، باستثناء بعض القساوسة ، لم تشجب فسقه وفجوره وزناه . ولم تظهر تحمسا لاصلاحه الخلقى ، او تقواه أو اخلاصه لزوجته غير المتكافئة معه ، ونسيت الآن انه كان لعدة سنين قد زين سلطانه بشيء من اللطف والكياسة والانسانية (١٠٠). وانه الى أن ركبه شيطان الحرب ، كان يؤيد كولبير فى تنمية الصناعة والتجارة فى فرنسا ، وانه كان قد حمى موليير من المتعصبين ، وراسين من عصابات المتآمرين ، وأن اسرافه فى الانفاق لم يكن لحسـاب ترفه وبذخه فحسب ، بل انه كذلك هيأ به لفرنسا تراثا ضخما من الفن .

ان ما اختلج فى اعماق الشعب بشكل أوقع وأعدل ، هو ما كانوا قد دفعوه من دمائهم وأموالهم ، ثمنا لمجد تقوضت أركانه بموت الملك وافقار فرنسا وخرابها . فندر أن وجدت فى الامة أسرة لم تفقد أحـد ابنائها فى الحروب ، ونقص عدد السكان الى حد باتت معه الحكومة تقدم جوائز للوالدين الذين عندهم عشرة ابناء . وكانت الضرائب قد خنقت الحافز الاقتصادى ، كما سدت الحرب منافذ التجارة ، وأغلقت الأسواق الاجنبية فى وجه البضائع الفرنسية ، ولم تكن الدولة مفلسـة فحسـب ، بل كانت كذلك مدينـة بنحـو ثلاثة آلاف مليـون من الفرنكا ت(١٠١) . وضاع ما كان للنبلاء من نفع وأثر ، حين انصرفوا عن الادارة المحلية الى التسكع فى أروقة البلاط ، ولم يتالقـوا الا فى ملابسهم الثمينة وبسالتهم العسكرية . وظهرت طبقة جديدة من النبلاء

عن طريق بيع الالقاب بالجملة لعامة الناس . وفى سنة واحدة منـــح الملك لقب النبالة لخمسمائة شخص مقابل ستة آلاف جنيه دفعهـا كل منهم ، وبذلك اصبح بعض أبناء البيوتات العريقة اتباعا لابناء رقيـق الأرض . ولمالم تعد الحرب صراعا بعيدا بين المرتزقة والمجالدين ، بل اختبارا مضنيا مزعجا للموارد والاقتصاديات ورجل الدين ، وازدهر الرأسماليون وسط الاضمحلال العام . ذلك أنك تجد فى الدول الحديثة أن الرجال الذين يستطيعون أن يسوسوا النـــاس ، لا يسوسون الا من يستطيعون أن يدبروا الامور ، وأن يستطيعون تدبير المـال يسوسون الجميع .

وفى حكمنا على لويس الرابع عشر ينبغى أن نتذكر قولة جوتة المأثورة الانسانية ، بأن رذائل المرء هى من تأثير عصره . على حين أن فضائله نابعة منه ، أو كما أوردها الرومان فى ايجاز متميز « الرذائل هى رذائل الزمان لا رذائل الانسان (١٠٢) » ان حكمـه الاستبدادى المطلق ، والتعصب الذى حدا به الى الاضطهاد والتعذيب ، والتلهف على السلطة والميل للحروب ، ركبت كلها فيه باعتباره ابنا لعصره ولكنيسته. أما كرمه وسخاؤه وشهامته وكياسته ، وتقديره وتشجيعه للأدب والفن ، وقدرته على احتمال أعباء حكومة مركزية بعيدة المدى ، فهى كلهـــا صفاته الشخصية التى جعلت منه ملكا بكل معانى الكلمة . وكتب جوته : ان الطبيعة أبدعت فى لويس الرابع عشر نوعا كاملا من الطراز الاول للنمط الملكى ، وبهذا انهكت نفسها وحطمت القياس (١٠٣) . وقـال نابليون « كان لويس الرابع عشر ملكا عظيما ، وهو الذى رفع فرنسا الى المرتبة الأولى بين الأمم . وأى ملك من ملوك فرنسا منـــذ عهـد شارلمان يمكن أن يقارن به فى كل نواحيه ؟ (١٠٤) » . ومن رأى لورد أكتون أنه « كان الى أبعد حد ، أقدر من ولد فى العصور الحديثة على درجات سلم أى عرش (١٠٥) » . لقد شن حروبا مدمرة ، وسخر كبرياءه فى اسراف فى البناء والترف ، وخنق الفلسفة ، وأثقل كاهل شـــعبه بالضرائب الى حد الاملاق والعوز ، ولكنه هيأ لفرنسا حكومة منظمة ، ووحدة وطنية ، وعظمة ثقافية ، بلغت بها مرتبة الزعامة التى لا نزاع فيها على العالم الغربى . وأصبح علما على أسمى عهد زاهر لبـلاده ورمزا له . أما فرنسا التى تعيش على المجد والعظمة ، فقد تعلمت أن تغفر له تدميره لها فى سبيل أن يجعلها عظيمة .

19. Voltaire, *Louis XIV*, 302.
20. Michelet, V, 39.
21. Clark, *Seventeenth Century*, 72.
22. *Enc. Brit.*, III, 242a.
23. *Voltaire*, 148.
24. *Ibid.*, 149.
25. Ogg, *Europe in the 17th Century*, 314.
26. Martin, II, 106.
27. Voltaire, 157.
28. *Enc. Brit.*, XIV, 923a. Sir Winston Churchill's gallant attempt to exonerate his ancestor is not convincing; *cf.* his *Marlborough*, II, 328, 373-86.
29. Nussbaum, *Economic Institutions*, 108.
30. Martin, II, 288.
31. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 179, Book III, Ch. iv.
32. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 208; Havens, *The Age of Ideas*, 52.
33. Cruttwell, 201.
34. Lewis, *Splendid Century*, 31.
35. Michelet, V, 14-15.
36. *Ibid.*, 36-37.
37. *Camb. Mod. History*, V, 349.
38. *Ibid.*, 378.
39. Ogg, 266.
40. Professor Wolfgang Michael in *Camb. Mod. History*, V, 393.
41. Martin, II, 314.
42. *Camb. Mod. History*, V, 394.
43. *Ibid.*
44. 395; Martin, II, 317.
45. Voltaire, 310; *Camb. Mod. History*, V, 396; Martin, II, 318n.
46. Chesterfield, Letter of May 31, 1752.
47. Martin, II, 325.
48. Ogg, 267; *Camb. Mod. History*, V, 401.
49. Boulenger, 291.
50. Voltaire, 186.
51. Mahan, 204; Ogg, 268; *Camb. Mod. History*, V, 398-9.
52. *Camb. Mod. History*, VI, 9.
53. Martin, II, 335.
54. Voltaire, 330.
55. Guizot, *History of France*, IV, 373.
56. Voltaire, 219.
57. Saint-Simon, I, 370.
58. Michelet, V, 86.
59. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 410; Lacroix, Paul, *Eighteenth Century*, 80.
60. *Camb. Mod. History*, V, 30.
61. Saint-Simon, I, 372.
62. Martin, II, 431.
63. Saint-Simon, II, 61.
64. Boulenger, 306.
65. Saint-Simon, II, 262.
66. Martin, II, 447.
67. *Ibid.*, 448.
68. Voltaire, 229.
69. *Ibid.*, 230.
70. Churchill, *English-speaking Peoples*, III, 68.
71. Saint-Simon, II, 68.
72. Lacroix, *Eighteenth Century*, 22.
73. Boulenger, 307.
74. *Ibid.*
75. Saint-Simon, II, 166.
76. *Ibid.*, 67.
77. *Ibid.*, 66.
78. Voltaire, 233; Michelet, V, 95.
79. Rowse, *Early Churchills*, 254.
80. Trevelyan, *English Social History*, 294.
81. Martin, II, 474.
82. In Hoover, H., and Gibbons, H. A., *Conditions of a Lasting Peace*, 33.
83. In Hazard, 437.
84. Voltaire, 306.
85. Martin, II, 493.
86. Lewis, *Splendid Century*, 181.
87. E.g., *cf.* Cruttwell, 284.
88. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 51.
89. Martin, II, 540n.
90. Cruttwell, 347.
91. Martin, II, 539.
92. Saint-Simon, II, 354; Guizot, *History of France*, IV, 483.
93. Boulenger, 317.
94. Saint-Simon, II, 355.
95. *Ibid.*, 356.
96. Boulenger, 318.
97. Michelet, V, 125.
98. Martin, H., *Histoire de France*, XV, 7.
99. Duclos, *Secret Memoirs of the Regency*, 21.
100. Voltaire, 308-9.
101. Michelet, IV, 392.
102. Quoted by Voltaire, in *Works*, XIXb, 99.
103. Parton, *Life of Voltaire*, II, 493.
104. Saint-Amand, 53.
105. Acton, 234.

23. Hazard, *Critical Years*, 223.
24. *Jordan*, 81-91.
25. *Ibid.*, 97.
26. Hazard, 224.
27. Kesten, H., *Copernicus and His World*, 400.
28. Hazard, 228.
29. *Ibid.*, 234.
30. 230; Martin, H., *Histoire de France*, XIV, 292.
31. Hazard, 231.
32. Leibniz, *Sämtliche Schriften*, I, 417, in Smith, P., *Modern Culture*, I, 318.
33. *New Essays*, Preface, p. 42.
34. Locke, *Essay*, II, i, 2.
35. Aristotle, *De anima*, III, 4.
36. Leibniz, *New Essays*, Book II, Ch. i, p. 111.
37. *Ibid.*
38. Preface, p. 43.
39. I, i, pp. 71, 81.
40. Locke, *Essay*, II, 21.
41. Leibniz, *New Essays*, I, ii, pp. 88, 95.
42. *Leibniz-Clarke Correspondence*, 16.
43. Leibniz, *Monadology*, Nos. 28-30; *New Essays*, Preface, p. 44.
44. *Leibniz-Clarke*, 16.
45. *New Essays*, I, ii, p. 94.
46. I, iii, p. 104.
47. II, i, p. 111.
48. II, i, p. 117.
49. Überweg, II, 107; Meyer, 152.
50. A. G. Langley in Leibniz, *New Essays*, p. 101n.
51. *Monadology*, No. 66.
52. Leibniz, *Système nouveau*, in Überweg, II, 109.
53. Walt Whitman.
54. *Monadology*, No. 9.
55. *Ibid.*, No. 11.
56. Nos. 18, 70.
57. Letter to Christian Wolff, in Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, p. 83.
58. *Monadology*, No. 63.
59. *Principles of Nature and Grace*, No. 4.
60. *Monadology*, No. 72.
61. *Ibid.*, No. 78.
62. No. 81.
63. Leibniz, *Explanation of the New System*, in Cassirer, 111.
64. Letter of Mar. 3, 1696, in *Philosophical Writings*, 115.
65. Introd. to the *Theodicy*, 47.
66. *Monadology*, No. 41; *Theodicy*, p. 74.
67. *New Essays*, Preface, p. 52; *Monadology*, No. 77.
68. *Theodicy*, p. 378.
69. *Ibid.*
70. *Monadology*, No. 69.
71. *Philosophical Writings*, 40.
72. *Theodicy*, 134.
73. *Ibid.*, 379.
74. *Principles of Nature and Grace*, No. 10.
75. Letter to Bayle, 1702, in Introd. to the *Theodicy*, 47.
76. Couturat, *Opuscules . . . de Leibniz*, p. 590, in Joseph, H. W., *Lectures on the Philosophy of Leibniz*, 44.
77. *Leibniz-Clarke Correspondence*, x, xiv.
78. Meyer, 97f.
79. *New Essays*, III, vi, p. 333.
80. Preface, 50.
81. Letter to Guhrauer in *Monadology*, 38.
82. Wolf, A., *History of Science . . . in the 16th and 17th Centuries*, 391; *History of Science . . . in the 18th Century*, 352.
83. Leibniz, *Protogaea*, in Locy, *Growth of Biology*, 256.
84. *Ibid.*
85. 257.
86. Meyer, 103.
87. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 14.
88. Russell, B., *History of Western Philosophy*, 591; Newman, J. R., *World of Mathematics*, III, 1861.
89. Brewster, *Newton*, II, 215.
90. Hazard, 234.
91. Meyer, 164.
92. *Ibid.*, 126.
93. Saw, Ruth, *Leibniz*, 147.
94. Meyer, 152.
95. In Robinson, *Bayle*, 268.
96. Hazard, 303.
97. Spengler, I, 42.
98. *New Essays*, II, xvi, p. 534.
99. *Ibid.*, IV, xvi, p. 535.
100. Lecky, *Rationalism*, I, 148.

CHAPTER XXIV

1. Boulenger, *Seventeenth Century*, 242.
2. Cruttwell, *Mme. de Maintenon*, 189.
3. *Ibid.*, 186.
4. *Ibid.*, 195, quoting Lavallée, *Lettres édifiantes*, 149.
5. Saint-Simon, III, 12.
6. *Ibid.*, 13.
7. Acton, *Lectures*, 244.
8. Martin, H., *Louis XIV*, I, 552; Michelet, V, 127-28.
9. Saint-Simon, III, 12.
10. *Ibid.*, 11.
11. Macaulay, *History*, II, 475.
12. Martin, I, 535.
13. *Ibid.*, II, 64.
14. Michelet, V, 16.
15. Benoist, *Coysevox*, 37.
16. Michelet, V, 6.
17. Boulenger, 239.
18. Martin, II, 65.

125. iii, appendix.
126. iii, 11, scholium; iv, 59.
127. iii, appendix.
128. Nietzsche, *Antichrist*, No. 2.
129. *Ethics*, iv, 45, scholium; iv, 50, 53-54.
130. iv, 42, 45, Scholium II.
131. iii, Definition III.
132. iii, Introd.
133. v, 3, corollary.
134. Müller, Johannes, *Physiologie des Menschen* (1840), II, 543-48.
135. *Ethics*, iii, 1, corollary.
136. iii, 59, scholium.
137. iv, 7.
138. iv, 51, scholium; 58, scholium.
139. iii, 59; Definition XXVII.
140. iv, 67.
141. iii, 12, scholium.
142. v, 21.
143. v, 34, scholium.
144. v, 29, scholium.
145. v, 23.
146. v, 31, scholium.
147. v, 3.
148. v, 6.
149. iv, 26.
150. ii, end.
151. iv, 68.
152. iv, 50, scholium.
153. iv, appendix, xiii.
154. iv, 73.
155. iv, 46.
156. iv, 48, scholium.
157. E.g., Bidney, *Psychology and Ethics of Spinoza*, 246.
158. *Ethics*, iv, 14.
159. *Ibid.*, iii, appendix, Definition VI.
160. *Improvement of the Intellect*, Introd.
161. *Ethics*, iv, 28.
162. *Tractatus Politicus*, i, 4.
163. *Ibid.*, ii, 8.
164. *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xvi, p. 201; *Tractatus Politicus*, ii, 4.
165. *Ethics*, iv, 37, Scholium I.
166. *Tractatus Politicus*, vi, 1.
167. *Ethics*, iv, 20, 22.
168. *Ibid.*, 35, scholium; 73.
169. *Tractatus Politicus*, i, 5.
170. *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx, p. 259.
171. *Tractatus Politicus*, vi, 4.
172. *Ibid.*, xi, 2.
173. *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xxvii.
174. *Ibid.*
175. *Tract. Pol.*, xi, 4.
176. *Ibid.*, vii, 17.
177. *Ethics*, iv, appendix, 17.
178. *Tract. Pol.*, vi, 12.
179. In Bevan and Singer, *Legacy of Israel*, 451.
180. Wolfson, H., *Spinoza*, II, 233f.
181. Letter to Hugo Boxel, in *Correspondence*, 290.
182. *Jewish Encyclopedia*, XI, 517.
183. *Ethics*, iii, preface; v, preface.
184. *Tract. Pol.*, x, 1; v, 7.
185. Oldenburg to Spinoza, in *Correspondence*, Letter III.
186. Uberweg, *History of Philosophy*, II, 64-74.
187. Bayle, article "Spinoza."
188. *Jewish Enc.*, XI, 519.
189. *Ethics*, v, 36.
190. Garland, *Lessing*, 174.
191. Brandes, G., *Main Currents of 19th-Century Literature*, I, 170; III, 257; IV, 75.
192. Robertson, *Freethought*, II, 168.
193. Hume, *Treatise on Human Nature*, Book I, Part iv, No. 5; Vol. I, pp. 228-29.
194. Froude, *Short Studies in Great Subjects*, I, 219-67.
195. Arnold, Matthew, "Spinoza," in *Essays in Criticism*.

CHAPTER XXIII

1. Dunning, *Political Theories from Luther to Montesquieu*, 321.
2. Robertson, *Freethought*, II, 296.
3. *Ibid.*, 298.
4. Leibniz, *New Essays on Human Understanding*, Introd., pp. 52 and 93; *Philosophical Writings*, 154, 166.
5. *Leibniz-Clarke Correspondence*, 192.
6. Meyer, *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 50.
7. Spengler, I, 42.
8. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power in History*, 107.
9. Russell, Bertrand, *Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz*, 6n.; *Camb. Mod. History*, V, 717.
10. *Ibid.*, 718; Meyer, 86.
11. Dampier, *History of Science*, 175; *Camb. Mod. History*, V, 717.
12. Wolf, A., in Spinoza, *Correspondence*, 47.
13. *Enc. Brit.*, XIII, 885c.
14. Jordan, G. J., *Reunion of the Churches: A Study of G. W. Leibnitz and His Great Attempt*, 42.
15. Meyer, 162.
16. Leibniz, *Theodicy*, 71.
17. Jordan, 36.
18. Robertson, *Freethought*, II, 300.
19. Piat, in Kayser, *Spinoza*, 206.
20. Russell, *Critical Exposition*, vii.
21. Meyer, 133.
22. *Ibid.*, 77.

14. Lucas, 722.
15. Wolf, A., in Spinoza, *Correspondence*, 49.
16. Kayser, 137.
17. Spinoza, *Correspondence*, 146, Letter XIX.
18. Spinoza, *Ethics*, Part IV, Prop. 45, Scholium II.
19. Waxman, *History of Jewish Literature*, II, 263.
20. Bayle, *Selections*, 305.
21. Spinoza, *On the Improvement of the Intellect*, Nos. 1-10.
22. *Ibid.*, Nos. 13 and 41.
23. No. 16.
24. Roth, Leon, *Spinoza*, p. 25.
25. Brunschvigg, L., *Spinoza et ses contemporains*, p. 138.
26. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Pref.
27. *Ibid.*, Ch. ix.
28. Ch. ii, p. 33.
29. Ch. i, p. 24.
30. Ch. vi, p. 92.
31. Ch. xiv, p. 186.
32. *Ibid.*, p. 189.
33. Ch. vii, p. 118.
34. Ch. xix, p. 245.
35. Preface, p. 5.
36. *Ibid.*, p. 8.
37. In Kayser, 202.
38. *Correspondence*, 348 (Letter LXXV).
39. *Tractatus*, Ch. i, p. 18.
40. Kayser, 247.
41. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 47.
42. *Ibid.*, 46.
43. Kayser, 168-69.
44. *Ibid.*, 231.
45. Bayle, *Selections*, 305-6.
46. Brunschvigg, 140.
47. *Ibid.*, 146.
48. Lucas, in Clark, 724.
49. Kayser, 249-51.
50. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
51. *Correspondence*, Letter XLVIII.
52. Lucas, 725.
53. Brunschvigg, 141.
54. Kayser, 262-65; *Enc. Brit.*, XXI, 234b.
55. Lucas, 725.
56. *Correspondence*, Letter I.
57. Bayle, *Selections*, 306.
58. *Ibid.*, 307.
59. Spinoza, *Ethics*, iv, 50, scholium.
60. *Correspondence*, Letter LXV.
61. Letter LXVII.
62. *Ibid.*
63. Letter LXXVI.
64. Lett[illegible] LXXIX.
65. L[illegible] vi.
66. Letter VII.
67. Letter LXVIII.
68. Kayser, 298.
69. Bayle, *Selections*, 308.
70. Letter IX.
71. *Ethics*, i, 8; Scholium II.
72. *Ibid.*, i; Definition IV.
73. ii, 13, scholium.
74. *On the Improvement of the Intellect*, Nos. 99-101.
75. *Ethics*, i, 15.
76. Letter LIV.
77. *Tractatus*, p. 65.
78. *Ethics*, v, 17.
79. *Ibid.*, i, 8; Scholium II.
80. *Cf.* Wolfson, H., *Philosophy of Spinoza*, II, 158.
81. Letter XXXII; *Ethics*, ii, 11, corollary.
82. *Ethics*, i, 17, note.
83. *Ibid.*, i, 31.
84. *Ibid.*, 18.
85. Letter LXXV.
86. *Ethics*, i, 32, Corollary I.
87. *Tractatus*, pp. 44, 92.
88. *Ethics*, i, appendix.
89. *Tractatus*, p. 202.
90. Letter LIV.
91. *Ethics*, i, appendix.
92. Letter LXXIII.
93. Including Wolfson, H., II, 348.
94. Letter XIX.
95. Letter XXX.
96. *Ethics*, v, 24.
97. ii, 13.
98. iii, 2, scholium.
99. *Ibid.*
100. ii, 12.
101. *Ibid.*
102. ii, 17-18.
103. ii, 26.
104. ii, 21.
105. ii, 48, scholium; Letter II.
106. *Ethics*, ii, 49.
107. iii, 2, scholium
108. ii, 49, corollary.
109. iii, Definition I.
110. ii, 48.
111. i, appendix.
112. Letter LVIII.
113. *Ethics*, i, appendix.
114. iii, 6-7.
115. i, 34.
116. i, appendix.
117. iv, Definition VIII.
118. v, 20, scholium.
119. iv, 20, 22, corollary.
120. iv, 18, scholium.
121. *Ibid.*
122. iii, 59.
123. iii, 9, scholium.
124. iv, Definition I

180. Berkeley, *New Theory of Vision*, No. 41.
181. Wolf, *Science . . . in the 18th Century*, 672.
182. Berkeley, *Principles of Human Knowledge*, No. 47.
183. *Ibid.*, Nos. 15-19.
184. 45-46.
185. 34-35; *Dialogues*, in *New Theory of Vision*, 274.
186. *Principles of Human Knowledge*, No. 90.
187. *Ibid.*, No. 57.
188. Chesterfield, Letter of Sept. 27, 1748.
189. Boswell, *Johnson*, 285.
190. Hume, D., *Enquiry concerning Human Understanding*, note to No. 122.
191. Berkeley, *Dialogues*, pp. 268-69.
192. *Ibid.*, p. 270.
193. Hume, *Enquiries*, No. 122, p. 155n.
194. *Camb. History of English Literature*, IX, 314.
195. Berkeley, *Principles of Human Knowledge*, No. 6.

CHAPTER XXI

1. Hazard, *Critical Years*, 330.
2. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 25.
3. Mousnier, *Histoire générale*, IV, 309.
4. *Récit de Marguerite Périer* (Pascal's niece), in Robertson, *Freethought*, II, 121n.
5. Day, *Ninon*, 211.
6. Smith, P., *Modern Culture*, I, 407.
7. In Vartanian, 57.
8. In Fellows and Torrey, *Age of the Enlightenment*, 23.
9. Malebranche, *Dialogues on Metaphysics*, in Robinson, D.S., *Anthology of Modern Philosophy*, 227-34.
10. Sévigné, Letter of August 4, 1680.
11. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 77.
12. Robinson, H., *Bayle*, 46.
13. *Ibid.*, 19.
14. Bayle, *Pensées diverses sur la comète*, Ch. 100, in Fellows and Torrey, 69.
15. Ch. 25, in Robinson, *Bayle*, 91.
16. Ch. 141, in Fellows and Torrey, 73.
17. Ch. 172, *ibid.*, 75.
18. Luke xiv, 16-23.
19. Bayle, *Selections*, xiv.
20. In Robinson, *Bayle*, 83.
21. Hazard, 93.
22. Disraeli, *Curiosities*, II, 391-92.
23. In Robinson, *Bayle*, 236.
24. Disraeli, II, 393.
25. Bayle, *Selections*, 173 (article "Manichees.").
26. *Ibid.*, 8-25 (article "Adam") and 157-83, ("Manichees"); Robinson, *Bayle*, 208-212.
27. *Selections*, 208 (article "Pyrrho").
28. *Ibid.*, 209.
29. 210.
30. 204 (article "Abdas").
31. 205 ("Pyrrho").
32. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 15.
33. *Selections*, 211 ("Pyrrho").
34. *Ibid.*, 214 ("Pyrrho") and 177 ("Manichees").
35. In Faguet, 18.
36. *Ibid.*, 10.
37. Havens, *Age of Ideas*, 35.
38. Hazard, 444.
39. Havens, 37.
40. *Selections*, Introd., xx.
41. Robinson, H., *Bayle*, 274.
42. *Selections*, Introd., xxx.
43. Faguet, 6.
44. *Selections*, Introd., xxvii.
45. Faguet, 6.
46. Robinson, *Bayle*, 294.
47. Noyes, A., *Voltaire*, 470.
48. Faguet, 54.
49. In Fellows and Torrey, 62.
50. Fontenelle, *Origine des fables*.
51. Fellows and Torrey, 43.
52. *Ibid.*, 60.
53. *Ibid.*, 44-46.
54. Flint, *History of the Philosophy of History*, 215.
55. In Lanfrey, *Historie politique des papes*, II, 138.
56. In Bell, *Men of Mathematics*, p. xix.
57. Bury, J.B., *The Idea of Progress*, 108.
58. Desnoiresterres, III, 239.
59. In Faguet, 21.
60. Havens, 60.
61. Aldis, *Mme. Geoffrin*, 25.
62. *Ibid.*, 30; Havens, 62.

CHAPTER XXII

1. Kayser, *Spinoza*, 41.
2. Maimonides, *Guide to the Perplexed*, I, Introd.; II, Props. 37-46; III, Props. 22, 30, etc.
3. *Ibid.*, II, pp. 17f.
4. II, Prop. 2, Introd.; Zeitlin, Maimonides, 151.
5. *Jewish Encyclopedia*, VIII, 29.
6. Martin, H., *Louis XIV*, I, 403.
7. Lucas, *Life of Spinoza*, in Clark, *Great Short Biographies*, 718.
8. *Ibid.*, 719.
9. 720.
10. Graetz, *History of the Jews*, V, 93.
11. *Ibid.*
12. Lucas, 720.
13. Graetz, V, 94.

84. *Ibid.*, 152.
85. In Robertson, *Freethought*, II, 55.
86. Collins, Anthony, *Discourse of Freethinking*, 5.
87. *Ibid.*, 88-89.
88. *Ibid.*, 105.
89. Robertson, II, 153.
90. Willey, *Seventeenth-Century Background*, 87.
91. *Leibniz-Clarke Correspondence*, p. xi.
92. In Stephen, *Eighteenth-Century Thought*, II, 210.
93. *Camb. Mod. History*, V, 750.
94. More, Henry, *Philosophical Poems*, in Willey, *Seventeenth Century*, 140.
95. In Willey, 161.
96. Disraeli, I., *Curiosities of Literature*, I, 210.
97. *Camb. Mod. History*, V, 751.
98. Cassirer, *Platonic Renaissance in England*, 61-64.
99. In Willey, 175.
100. *Ibid.*, 179.
101. *Ibid.*, 182, 193.
102. Glanvill, *Vanity of Dogmatizing*, in Mumford, *Technics and Civilization*, 58.
103. Glanvill, *Sadducismus Triumphatus*, in Willey, 195.
104. Fox-Bourne, *Locke*, I, 13.
105. Aaron, *Locke*, 6.
106. *Ibid.*
107. Fox-Bourne, I, 198.
108. Locke, *Two Treatises on Government*, Introd. xxxiii.
109. Macaulay, *History*, I, 417.
110. Aaron, 23.
111. *Enc. Brit.*, XIV, 271d.
112. Aaron, 24.
113. Locke, *Two Treatises*, 3.
114. Filmer, *Patriarcha*, in Locke, *Two Treatises*, 255f.
115. Filmer, *Observations upon Aristotle's Politics*, in Hearnshaw, *Thinkers of the Augustan Age*, 37.
116. *Ibid.*, 39.
117. Filmer, *Patriarcha*, *loc. cit.*, 278.
118. Locke, *Two Treatises*, 3.
119. *Second Treatise*, No. 119.
120. No. 85.
121. No. 94.
122. No. 40.
123. No. 36.
124. No. 138
125. Pollock, *Introd. to the History of the Science of Politics*, 65.
126. Locke, *Second Treatise*, Nos. 228-29.
127. Locke, *Essay concerning Human Understanding*, Epistle to the Reader, p. xx.
128. Lamprecht, S.P., in Dewey, *Studies in the History of Ideas*, III, 217.
129. Locke, *Essay*, II, xii, 17.
130. *Ibid.*, Epistle to the Reader, p. xx.
131. *Essay*, III, x, 5-14.
132. *Ibid.*, II, xiii, 27.
133. II, xxi, 6.
134. III, vi, 12, 37.
135. I, ii, 7.
136. II, xxxiii, 6.
137. I, iv, 8-9.
138. I, iii, 27.
139. II, i, 2.
140. II, ix, 1.
141. II, xxiii, 1-4.
142. *Ibid.*, 5.
143. 14-15.
144. II, xxi, 47-48, 52-53.
145. IV, iii, 6.
146. II, xxvii, 26.
147. Sterne, L., *Tristram Shandy*, 62.
148. Voltaire, *Letters on the English*, in *Works*, XIXb, 36.
149. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 379.
150. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 99.
151. Locke, *Essay*, IV, xviii, 2.
152. *Ibid.*, 10.
153. 5.
154. 6.
155. 10.
156. IV, xix, 1.
157. *Ibid.*, 14.
158. Locke, *Reasonableness of Christianity*, in Willey, 285.
159. *Essay*, IV, x, 12.
160. Aaron, *Locke*, 298.
161. *Ibid.*, 21.
162. Spengler, O., *Decline of the West*, II, 308.
163. Shaftesbury, *Characteristics*, I, xxii.
164. *Ibid.*, I, p. xii.
165. P. 237.
166. 263.
167. 267-70.
168. 45.
169. 239-46.
170. I, p. xxvii.
171. II, 150.
172. I, 79.
173. 75.
174. Sidgwick, *History of Ethics*, 186-87.
175. Shaftesbury, I, 260.
176. *Ibid.*, I, 86.
177. Cassirer, *Platonic Renaissance in England*, 199.
178. Berkeley, George, *Principles of Human Knowledge*, No. 92, in *New Theory of Vision*, p. 159.
179. Locke, *Essay*, II, ix, 8.

المراجع

CHAPTER XX

1. Aubrey, 157
2. *Ibid.*, 150.
3. *Ibid.*, 151.
4. Hobbes, *Leviathan*, Ch. iv, p. 16.
5. Hobbes, *De Corpore*, i, 2, in *The Metaphysical System of Thomas Hobbes*, ed Mary W. Calkins, p. 6.
6. *Leviathan*, vii, p. 31.
7. *Ibid.*, i, p. 3.
8. *Ibid.*
9. *Elementorum Philosophiae*, in *Metaphysical System*, p. 119.
10. *Leviathan*, ii, pp. 4-5.
11. *Ibid.*, iii, p. 8.
12. Hobbes, *Elements of Law*, i, 3.
13. *Leviathan*, ii, p. 6.
14. *Ibid.*, vi, p. 28.
15. *Elements of Law*, i, 12.
16. *Leviathan*, xxi, p. 111.
17. *Ibid.*, vi, p. 23.
18. *Elements of Law*, i, 11.
19. *Leviathan*, xi, p. 50.
20. *Ibid.*, 49.
21. vi, p. 27.
22. Pp. 23-26.
23. viii, p. 35.
24. xi, p. 49.
25. *Elements of Law*, i, 12.
26. *Leviathan*, xiii, p. 65.
27. *Ibid.*
28. P. 64.
29. *Ibid.*
30. P 65.
31. xvii, p. 89.
32. P. 90.
33. xxi, pp. 114-16.
34. xxix, p. 173.
35. P. 176.
36. xix, pp 99, 101.
37. *Elements of Law*, ii, 2.
38. *Leviathan*, xviii, p. 93; xxix, p 174.
39. P. 172.
40. vi, p. 26; xi, p. 54.
41. xii, pp. 54-55.
42. *Ibid.*
43. xii, p 56.
44. Hobbes, *De Homine*, Ch. 1.
45. *Leviathan*, xi, p. 53.
46. xxxi, p. 194.
47. xxxiv, p. 211.
48. Stephen, *Hobbes*, 151-52.
49. *Leviathan*, xii, p. 59.
50. xxix, p. 175.
51. Hobbes, *De Cive*, in Stephen, *Hobbes*, 222.
52. *Leviathan*, xxxi, p. 196.
53. xxxii, p. 199.
54. Bayle, *Selections*, article "Hobbes."
55. Burnet, *History of His Own Time*, 45.
56. Aubrey, 152.
57. Bowle, *Hobbes and His Critics*, 152.
58. *Ibid.*, 34.
59. *Enc. Brit.*, XI, 613b.
60. Aubrey, 156.
61. *Ibid.*, 153.
62. *Enc. Brit.*, XI, 613d.
63. Aubrey, 153-55.
64. Brewster, *Newton*, II, 149n; Stephen, *Hobbes*, 68.
65. Bayle, article "Hobbes," *loc. cit.*
66. Aubrey, 124.
67. Harrington, *Oceana*, 186.
68. *Ibid.*, 186.
69. 187.
70. 197.
71. *Camb. Mod. History*, VI, 796.
72. Aubrey, 125.
73. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, II, 80.
74. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 87; Psalms xiv, L, LIII, L.
75. Robertson, II, 90.
76. *Ibid.*, 91.
77. *Ibid.*, 95; Smith, P., *Modern Culture*, II, 482.
78. Toland, John, *Christianity Not Mysterious*, 6, 37.
79. Lange, F. E., *History of Materialism*, I, 328-29.
80. *Ibid.*, 325; Wolf, *History of Science . . . in the 18th Century*, 792.
81. *Ibid.*; *Enc. Brit.*, XXII, 270b.
82. Lange, I, 325.
83. Hazard, *Critical Years*, 264.